تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

تأليف

الشيخ إسماعيل حقي البروسوي

المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

المجلد الرابع

اختصار وتحقيق

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

المجلد الرابع

من تفسير سورة الزخرف إلى تفسير سورة الناس



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴾ هذه السورة مسماةٌ بـه ﴿ وَالْكِتَـابِ ﴾ بـالجر على أنـه مقسم بـه ﴿ الْمُبِينِ ﴾ أي البين لمن أنزل عليهم ، لكونه بلغتهم ، وعلى أساليبهم فيكون من أبـان أي ظهر ، أو المبينُ لطريق الهـدى من طرق الضلالة ، الموضح لكل ما يحتـاج إليـه في أبواب الـديـانـة ، فيكون من أبـان بمعنى أظهر وأوضح ، وأقسم بالكتاب تعظيماً لنعمته فيه ، إذ فيه كثرة المنافع ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرءآنـاً عَربيّـاً ﴾ المعنى إنـا صيرنـا ذلك الكتاب قرآناً عربياً ، بإنزاله بلغة العرب ، ولسانها ، ولم ينصره أعجميـاً بـإنزالـه بلغـة العجم ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كلمـة لعل مستعـارة لمعنى كي وهي للتعليل والمعنى لكي تفهموا القرءان العربي ، وتحيطـوا بمـا فيـه من النظم الرائق ، والمعنى الفائق ، وتقفوا على ما تضمنه من الشواهد الناطقـة بخروجـه عن طوق البشر ، وتعرفوا حق النعمة في ذلك ، وتنقطع أعذاركم بالكلية ، إذ لو أنزلناه بغير لغة العرب مـا فهمتوه ، فقولـه (إنا جعلناه قرءآنا عربياً) جواب للقسم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ فِي أُمِّ الكِتـابِ ﴾ أي في اللوح المحفوظ ، فإنه أصل الكتاب ، أي جنس الكتب السماوية ، فإن جميعها مثبتة فيه على ما هي عليـه عند الأنبياء ، ومـأخوذة مستنسخـة منـه ، ﴿ لَـدَيْنَـا ﴾ أي عنـدنـا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ رفيع القـدر بين الكتب شريف ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة ، أو محكم لا يتطرق إليه نسخ بكتاب آخر ، ولا تبديل ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ ﴾ بعد ما بين علو شـأن القرءان العظيم ، وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا بـه ، ويعملوا بموجبه ، عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل (أفنضرب عنكم الـذكر) والفـاء للعطف على محـذوف يقتضيـه المقـام ، والمعنى : أنهملكم فننحي القرآن ونبعـده ، ونترك الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، وفيه إشعار بـاقتضـاء الحكمـة توجـه الـذكر إليهم بملازمتـه لهم ، كأنـه يتهـافت عليهم ﴿ صَفْحاً ﴾ الصفحُ : الإعراض ﴿ أَنْ كُنْتُمْ قَوْمَاً مُسْرِفِينَ ﴾ السرف : تجاوز الحد في كل فعل يفعلـه الإنسان ، أي لأن كنتم منهمكين في الإسراف في المعاصي ، مصرين عليه ، على معنى أن حالكم وان اقتضى تخليتكم ، وشأنكم حتى تموتوا على الكفر ، والضلالة ، وتبقوا في العذاب الخالد ، لكنا لسعة رحمتنـا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين ، وإنزال الكتـاب المبين ، قـال قتـادة : والله لو كان هـذا القرآن رفع حين ردَّه أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن عاد بعائدتـه ورحمتـه ، فكررَّه عليهم عشرين سنـة ، أو ما شاء الله ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴾ والمعنى : كثيراً من الأنبياء أرسلنـا في الأمم الأولين ، والقرون الماضية ﴿ وما يأْتيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إلا كَانُوا به يَسْتَهزِئُونَ ﴾ ضمير يـأتيهم إلى الأولين ، وهو حكايـة حـال مـاضيـة مستمرة ، يعني أن عـادة الأمم مـع الأنبيـاء الـذين يـدعـونهم إلى الـدين الحـق هـو

التكذيب ، والاستهزاء ، فلا ينبغي لك أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم ، واستهزائهم لأن المصيبة إذا عمّت خفّتْ ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ** ﴾ أي من هؤلاء القوم المسرفين ، وهم قريش ﴿ **بَطْشاً** ﴾ البطش : تناول الشيء بصولة ، والأخذ بشدة ، فهو وعد له عليه السلام ، ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين ، ووصفهم بأشدية البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية ﴿ **وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ** ﴾ أي سلف في القرءان غير مرة ذكر قصتهم التي حقها أن تسير مسير المَثَل ، وهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم ، وفي الآية إشارة إلى كمال ظلومية نفس الإنسان وجهوليته ، وكمال حلم الله وكرمه ، وفضل ربوبيته بأنهم وإن بالغوا في إظهار أوصافهم الذميمة ، وأخلاقهم اللئيمة بالاستهزاء ، مع الأنبياء والمرسلين ، والاستخفاف بهم إلى أن كذبوهم ، وسعوا في قتلهم من أهل الأولين والآخرين ، وكذلك يفعل أهل كل زمان مع ورثة الأنبياء ، من العلماء المتقين الناصحين لهم ، والداعين إلى الله ، والهادين لهم ، فالله تعالى لم يقطع عنهم مراحم فضله وكرمه ، وكان يبعث إليهم الأنبياء ، وينزل عليهم الكتب ، ويدعوهم إلى جنابه ، وينعم عليهم بعفوه ، وبغفرانه ، ومن غاية إفضاله ، تأديباً وترهيباً لعباده ، وقد أهلك بعض المتمردين المتمادين في الباطل ، ليعتبر المتأخرون من المتقدمين ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم** ﴾ يعني قومك وهم قريش ﴿ **مَنْ** ﴾ استفهام ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ أي الأجرام العلوية والسفلية ﴿ **لَيَقُولُنَّ** ﴾ اعترافاً بالصانع ﴿ **خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ** ﴾ في حكمه ، وملكه ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ بأحوال خلقه ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً** ﴾ استئناف من جهته تعالى ، والجعل بمعنى تصيير الشيء على حاله دون حالة ، والمهد المكان الممهد الموطأ أي بسطها لكم ، تستقرون فيها ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** ﴾ تسلكونها في أسفاركم لأمور الدين والدنيا ، جمع سبيل وهو من الطرق ما هو معتاد السلوك ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ أي لكي تهتدوا لسلوكها إلى مقاصدكم ، أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي ﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ بمقدار ، ووزن ينفع العباد ، والبلاد ولا يضرهم ﴿ **فَأَنْشَرْنَا بِهِ** ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ، والإنشار إحياء الميت ﴿ **بَلْدَةً مَيْتاً** ﴾ أي خالية عن الناء والنبات بالكلية ، شبه زوال النماء عنها بزوال الحياة عن البدن ، وتذكير « مَيْتاً » لأن البلدة في معنى البلد ، والمكان والفضاء ، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء ، والإشعار بعظمة خطره ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات من الأرض ﴿ **تُخْرَجُونَ** ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء ، تشبيه إحيائهم بإحياء البلدة الميت ، كما يدل على قدرة الله تعالى وحكمته مطلقاً ، فكذلك يدل على قدرته على القيامة ، والبعث ، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث ، لتقويم سند الإستدلال ﴿ **وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ أي أصناف المخلوقات بأسرها لا يشذ شيء منها عن إيجاده ، واختراعه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما

الأزواج : الضروب ، والأنواع ، كالحلو ، والحامض ، والأبيض ، والأسود ، والذكر ، والأنثى ، وقيل : كل ما سوى الله فهو زوج ، كفوق وتحت ، ويمين وشمال ، وقدام وخلف ، وماض ومستقبل ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ** ﴾ أي السفن الجارية في البحر ﴿ **وَالأنعَامِ** ﴾ أي الإبل والدواب ﴿ **مَا تَرْكَبُونَ** ﴾ أي ما تركبونه في البحر والبر ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفُلْك والأنعام ، والظهور للأنعام حقيقة لا للفلك ، فدل على تغليب الأنعام على الفلك ﴿ **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ** ﴾ عليكم ﴿ **إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** ﴾ والمعنى : ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم إذا استعليتم عليه معترفين بها مستعظمين لها ، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ﴿ **وَتَقُولُوا** ﴾ متعجبين من ذلك ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا** ﴾ المركوب ﴿ **وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ﴾ أي مطيقين بتذليلها : يعني ليس عندنا من القوة ، والطاقة ، أن نقرن هذه الدابة والفلك ، وان نضبطها ، فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته ، وحكمته ، وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى ، إذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ، ولاحقَّ المنعم بها ، قال في القاموس : أَقْرَنَ الأمر : أطاقه وقوي عليه ﴿ **وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** ﴾ أي راجعون بالموت ، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ، ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب إلى الله تعالى ، فيبني أموره في مسيرة ذلك على تلك الملاحظة ، ولا يخطر بباله في شيء مما يأتي ويذر أمراً ينافيها ، ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع كالحج وصلة الرحم وطلب العلم ونحو ذلك ، وأيضاً أن الركوب موقع في الخطر ، والخوف ، من حيث إن راكب الدابة لا يأمن عثارها ، أو شموسها مثلاً ، والهلاك بذلك ، وكذا راكب السفينة لا يأمن انكسارها ، وانقلابها ، وغرقها ، فينبغي للراكب أن لا يغفل عن الله لحظة ، ويستعد للقائه ، ويعلم أن الموت أقرب إليه من شراك نعله ، وأن كل نَفَسٍ يتنفسه كأنه آخر الأنفاس ، رُوي على بن أبي ربيعة أنه شهد علياً رضي الله تعالى عنه حين ركب ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم حمد ثلاثاً ، وكبر ثلاثاً ، ثم قال لا إله إلا أنت ظلمتُ نفسي فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقيل له : ما يضحكك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ، وقال مثل ما قلت ، ثم ضحك ، فقلنا مما ضحكت يا رسول الله ، قال : يعجب ربنا عز وجل من عبده إذا قال لا إله إلا أنت ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري)[1] ﴿ **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءً** ﴾ الجاعلون هم قبائل من العرب ، قالوا : إن الله صاهر

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

الجن فولدت له الملائكة ، وقال بعضهم : هو رد على بني مليح حيث قالوا الملائكة بنات الله ، ومُليح حيٍ من خزاعة ، والجعل هنا بمعنى الحكم بالشيء ، والاعتقاد به ، والمراد بالعباد الملائكة ، وجعلوا له من عباده جزأ أي إناثاً ، والجزء عند أهل العربية البنات ، وقال جار الله : ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أن الجزاء في لغة العرب اسم للاناث وما هو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتاً وقالوا : إن أجزأت حمدةٌ يوماً فلا عجب * زوجتها من بنات الأوس مجزئة انتهى يقول الفقير لم يكن الجزاء في الأصل بمعنى الإناث ، وإنما ذكره أهل اللغة أخذاً من الآية لأنه فيها بمعنى الولد المفسر بالإناث ، فذكره في اللغات لا ينافى حدوثه ، وإنما عبر عن الولد بالجزء لأنه بعض أبيه وجزء منه ، كما قال عليه السلام (إن فاطمة مني) أي قطعة مني ، ومعنى الآية : واعتقد المشركون وحكموا ، وأثبتوا له تعالى ولداً ، حال كون ذلك الولد من الملائكة الذين هم عباده ، فقالوا الملائكة بنات الله بعد اعترافهم بألسنتهم ، واعتقادهم أن خالق السموات والأرض هو الله ، فكيف يكون له ولد ، والولادة من صفات الأجسام ، وهو خالق الأجسام كلها !! ففيه تعجيب من جهلهم وتنبيه على قلة عقولهم ، حيث وصفوه بصفات المخلوقين ، وإشارة إلى أن الولد لا يكون عبد أبيه ، والملائكة عباد الله فكيف تكون البنات عباداً ؟ ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ** ﴾ ظاهر الكفر مبالغ فيه ، أو مظهر لكفره ، ولذلك يقولون ما يقولون ، سبحانه عما يصفون ، ﴿ **أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ** ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم ، والمعنى هل اتخذ من خلقه البنات التي هي أخسُّ الصنفين ، واختار لكم البنين الذين هم أفضلها ؟ على معنى هبوا أنكم اجترأتم على إضافة جنس الولد إليه سبحانه وتعالى مع ظهور استحالته ، وامتناعه ، أما كان لكم شيء من العقل ، ونبذة من الحياء ، حتى اجترأتم على ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين ، وأعلاهما ، وترك لنفسه شرهما وأدناهما ، فإن الإناث كانت أبغض الأولاد عندهم ولذا ، وأدوهن ، ولو اتخذ لنفسه البنات ، وأعطى البنين لعباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله ، ويدفعه بديهة العقل ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً** ﴾ الإلتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم ، ويُحْكَى لغيرهم تعجباً منها ، وضرب هنا بمعنى جعل ، والمعنى وإذا أخبر أحد المشركين بولادة ما جعله مثلاً له تعالى وشبيهاً ، ﴿ **ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً** ﴾ الظلول هنا بمعنى الصيرورة أي صار أسود في الغاية من سوء ما بشر به ، ويجوز أن يكون اسوداد الوجه عبارة عن الكراهة ﴿ **وَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ أي والحال أنه مملوء من الكرب ، والكآبة يقال رجل كظيم ، ومكظوم ، أي مكروب ، يقول الفقير ، هذه صفة المشركين فإنهم جاهلون بالله ، غافلون عن خفي لطفه ، تحت جلي قهره ، وأما الموحدون فحالهم الاستبشار بما ورد عن الله أيّاً كان ﴿ **أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ** ﴾ تكرير للإنكار ، والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ، والتنشئة

التربية ، والحلية ما يتحلى به الإنسان ، ويتزين ، والمعنى : أَوَ جعلوا من شَأْنه أن يُربّى في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه يعني البنات ، وقال سعدي المفتي : لعل التقدير اجترأوا على مثل هذه العظيمة ، وجعلوا ، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع ما ذكر من المقصود ﴿ فِي الْخِصَامِ ﴾ مع من يخاصمه ، ويجادله ، أي في الجدال الذي لا يكاد يخلو الإنسان منه في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ غير قادر على تقرير دعواه ، وإقامة حجته ، كما يقدر الرجل عليه ، لنقصان عقله ، وضعف رأيه وربما يتكلم عليه ، وهو يريد أن يتكلم له وهذا بحسب الغالب ، وإلا فمن الإناث من هو أهل الفصاحة والفضلِ على الرجل ، قال الأحنف : سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى ، وكلام عمر رضي الله عنه حتى مضى ، وكلام عثمان رضي الله عنه حتى مضى ، وكلام علي رضي الله عنه حتى مضى ، لا والله ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله عنها ،

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر ، وتقريع لهم بذلك ، وهو جعلهم أكمل العباد ، وأكرمهم على الله ، أنقصهم رأياً ، وأخسهم صنفاً والبنات لا تكن عباداً ، والولد لا يكون عبد أبيه ، ففيه تكذيب لهم في قولهم الملائكة بنات الله ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ من الشهود بمعنى الحضور ، أي أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم ، فإن ذلك إنما يعلم بالمشاهدة ، وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم ، فإنهم إنما سمعوه من آبائهم ، وهم أيضاً كذابون ، جاهلون ، وفيه تخطئة للمنجمين ، وأهل الحكمة الموهة في كثير من الأمور ، فإنهم بعقولهم القاصرة حكموا على الغيب ، قال العماد الكاتب : أجمع المنجمون في سنة اثنين وثمانين وخمسمائة في جميع البلاد ، على خراب العالم في شعبان ، عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان ، بطوفان الريح ، وخوفوا بذلك ملوك الأعاجم والروم ، فشرعوا في حفر مغارات ، ونقلوا إليها الأزواد والماء ، وتهيئوا فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون بمثل ريح عاد ، ونحن جلوس عند السلطان ، والشموع تتوقد فلا تتحرك ، ولم نر ليلة في ركودها مثلها ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ، يعني يكتب الملك ما شهدوا بها على الملائكة ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة ، وهو وعيد ، قال سعدي المفتي : السين في ستكتب للتأكيد ، ويحتمل أن يكون للاستعطاف إلى التوبة قبل كتابة ما قالوه ، ولا علم لهم به ، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى أمهل عباده ، ولم يأخذهم بغتة في الدنيا ، ليرى العباد أن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ ، والانتقام ، وليتوبوا من الكفر والمعاصي ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ بيان لفن آخر من كفرهم ، أي قال المشركون العابدون للملائكة : لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة لَمَنَعَنا من عبادتهم فما عبدناهم ، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق مرضي عنده تعالى ، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئة الله تعالى ، مع اعترافهم بقبحه ، ومبنى كلامهم الباطل عل مقدمتين : إحداهما أن عبادتهم لهم بمشيئة الله

تعالى ، والثانية : أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ، ولقد أخطأوا في الثانية حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض ، كائناً ما كان من غير اعتبار الرضى والسخط في شيء من الطرفين ، ولذلك جُهّلوا بقوله ﴿ **مالَهُمْ بذلِكَ** ﴾ أي بما أرادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء ، لا بمطلق المشيئة ، فإن ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿ **مِنْ عِلْمٍ** ﴾ يستند إلى سندما ﴿ **إنْ هُمْ** ﴾ أي ما هم ﴿ **إلاّ يَخْرُصُونَ** ﴾ يكذبون ، فإن الخرص الكذب ، يقول الفقير : إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد إن صدر من المؤمن ، وإلا فكفر وشرك لأنه من العناد والعصبية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر ، ثم أضرَبَ عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل فقيل ﴿ **أمْ آتَيْنَاهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ** ﴾ أي من قبل القرآن أو الرسول ، أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه من عبادة غير الله ، وكون الملائكة بناته ﴿ **فَهُمْ بِهِ** ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿ **مُسْتَمْسِكُونَ** ﴾ وعليه معولون ، يقال استمسك به إذا اعتصم به ﴿ **بَلْ قَالُوا إنّا وَجَدنا آبَاءَنا عَلَى أُمَّةٍ** ﴾ الأُمَّةُ : الدين ، والطريقة التي تؤم ، أي تقصد وقوله (**إنا وجدنا آباءنا على أمة**) أي على دين مجتمع عليه ﴿ **وَإنّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ والأثر بقية الشيء ، والآثار : الأعلامُ ، وسنن النبي عليه السلام آثاره ، والمعنى : لم يأتوا بحجة عقلية ، أو نقلية ، بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم ، وفيه ذم للتقليد ، وهو قبول قول الغير بلا دليل ﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة ، وتشبثهم بذيل التقليد ﴿ **مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيةٍ مِنْ نَذِيرٍ** ﴾ نبي منذر قوم من عذاب الله ﴿ **إلاّ قَالَ مُتْرفُوهَا** ﴾ جبابرتها ﴿ **إنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلى أُمّةٍ** ﴾ طريقة ، ودين ﴿ **وَإنّا عَلَى آثارِهِمْ** ﴾ سنتهم ، وأعمالهم ﴿ **مُقْتَدُونَ** ﴾ قوله ما أرسلنا إلخ استئناف دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ، ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره ، وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد ، ويقال : أترفته النعمة أي أطغته ، والمراد بالمترفين الاغنياء والرؤساء الذين أبطرتهم النعمة ، وسعة العيش في الدنيا ، وأشغلتهم عن نعيم الآخرة ، ويدخل فيهم كل من يتمادى في الشهوات ، ويتبالغ في النفرة من لوازم الدين من الشرائع والأحكام،فعلى العاقل الإقتفاء على آثار المهتدين ، وعمارة الآخرة كما عليه أرباب اليقين ﴿ **قَالَ** ﴾ أي كل نذير من أولئك المُنذرين لأممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم ﴿ **أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ** ﴾ أي أتقتدون بآبائكم ، ولو جئتكم ﴿ **بِأَهْدَىٰ** ﴾ أي بدين أهدى ، وأرشد ﴿ **مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ** ﴾ أي من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء ، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الإنصاف ﴿ **قَالُوا إنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ أي قالت كل أمة لنذيرها : إنا بما أرسلتَ به كافرون ، وإن كان أهدى مما كنا فيه ، ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ، وفيه إقرار منهم بتصميهم على تقليد آبائهم في الكفر ، والضلال وإقناط للنذير

من أن ينظروا أو يتفكروا فيه ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ إذ لم يبق لهم عذر أصلاً ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ من الأمم المذكورين ، فلا تكترث بتكذيب قومك ، فإن الله ينتقم منهم باسمه المنتقم ، القاهر القابض ، قال علي رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك قريش ، وقت قول ابراهيم عليه السلام بعد الخروج من النار ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ الشهير بآزر ، وكان ينحت الأصنام ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ المكبين على التقليد وعبادة الأصنام ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ وتمسك بالبرهان ، ليسلكوا مسالك الاستدلال ، أو ليقتدوا به إن لم يكن لهم بد من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم ، والمعنى : إني بريء من عبادتكم لغير الله ﴿ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي لكن الذي خلقني لا أبرأ منه ، والفطر ابتدآء خلق من غير مثال ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيثبتني على الهداية ، والسين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، أي دوام الهداية حالا واستقبالاً ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي جعل إبراهيم كلمة التوحيد التي كان ما تكلم به من قوله (إنني) إلى (سيهدين) عبارة عنها ، يعني أن البرآءة من كل معبود سوى الله ، توحيد للمعبود بالحق ، وقولٌ بلا إله إلا الله ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أي في ذريته من حيث وصاهم بها ، كما نطق بها قوله تعالى (ووصّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ) الآية فالقول المذكور بعد الخروج من النار ، وهذا الجعل بعد حصول الأولاد الكبار ، فلا يزال فيهم نسلاً بعد نسل من يوحد الله ، ويدعو إلى توحيده وتفريده ، إلى قيام الساعة ، والعقب : مؤخر الرجل ، واستعير للولد وولد الولد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ علة للجعل ، والضمير للعقب ، وإسناد الرجوع إليهم من وصف الكل بحال الأكثر ، والترجي راجع إلى إبراهيم عليه السلام ، أي جعلها باقية في عَقِبِهِ وخَلَفِه ، رجاء أن يرجع إليها من اشرك منهم بدعاء الموحد ، ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ ﴾ إضراب عن محذوف ، أي فلم يحصل ما رجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول من أهل مكة ﴿ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بالمد في العمر ، والنعمة ، فاغتروا بالمهلة ، وانهمكوا في الشهوات ، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ ﴾ أي هؤلاء ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي القرآن ﴿ وَرَسُولٌ ﴾ أي رسول ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر الرسالة ، واضحها بالمعجزات الباهرة ، أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج ، فحتى ليست غاية للتمتع بل لما تسبب عنه من الاغترار المذكور وما يليه ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لينبههم عما هم فيه من الغفلة ، ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفراً ، وعتواً ، وضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق ، والاستهانة به حيث ﴿ قَالُوا هَذَا ﴾ الحق والقرآن ﴿ سِحْرٌ ﴾ وهو : إراءةُ الباطل في صورة الحق ﴿ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فسموا القرآن سحراً ، وكفروا به ﴿ وَقَالُوا ﴾ أهل مكة ﴿ لَوْلاَ ﴾ حرف تحضيض ﴿ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ من إحدى القريتين مكة ، والطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ بالمال والجاه ، كالوليد بن المغيرة المخزومي بمكة ، وعروة

بن مسعود الثقفي بالطائف ، فهو على نهج قوله تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ) أي من أحدهما ، وكون الرجل الواحد من القريتين بعيد ، ثم إنهم لم يتفوهوا بهذه الكلمة العظيمة حسداً على نزوله على الرسول عليه السلام ، دون من ذكر من عظمائهم من اعترافهم بقرآنيته ، بل استدلالاً على عدمها بمعنى ، أنه لو كان قرآناً لنزل على أحد هذين الرجلين ، بناءً على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل ، لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال ، والجاه ، ولم يدروا من أن العظيم من عظّمهُ الله وأعلى قدره في الدارين ، لا من عظّمهُ الناس ، إذ رُبَّ عظيم عندهم حقير عند الله وبالعكس ، وأن الله يختص برحمته من يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وفي قولهم عظيم تعظيم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم ، وتعجيب من تحكمهم ، والمراد بالرحمة النبوة ، يعني أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة فيضعونها حيث شاوا ؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ ﴾ أي أسباب معيشتهم ، والمعيشة ما يعيش به الإنسان ، ويتغذى به ، ويجعله سبباً في قوام بنيته ، إذ العيش : الحياة المختصة بالحيوان ، وهو يعم الحلال والحرام ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا ﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم ، والمصالح ، ولم نفوض أمرها إليهم علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية وهوانها علينا ، والحاصل : نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم ، وهي أدنى من الرسالة فلم نترك أمر اختيارها إليهم ، فما ظنهم في أمر الدين ؟ هل نفوّض اختيار ما هو أفضل ، وأعظم ، وهو الرسالة ؟ ﴿ وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الرزق ، وسائر مبادى المعاش ﴿ دَرَجاتٍ ﴾ أي إلى درجات متفاوتة بحسب القرب ، والبعد ، حسبما تقتضيه الحكمة ، فمن ضعيف ، وقوي ، وفقير ، وغني ، وخادم ، ومخدوم ، وحاكم ، ومحكوم ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ من التسخير ، والاستخدام والمعنى : ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم ، ويُسخِّر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش ، هذا بماله ، وهذا بعمله ، فيتم قوام العالم ، لا لكمال في الموسع ، ولا لنقص في المقتر ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿ خيرٌ ﴾ لأهلها ﴿ مِمّا يَجْمَعونَ ﴾ أي يجمع هؤلاء الكفار من حطام الدنيا الدنية الفانية ، والعظيم من رزق من تلك الرحمة العظيمة ، لا مما يجمعون من الدنيء الحقير ، يظنون أن العظمة به ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ يَكونَ النَاسُ أُمَّةً وَاحِدةً ﴾ والمعنى : لولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة ، وتنعم ، لحبهم الدنيا ، وتوهم أن ذلك الفضيلة في الكفار ، فيجمعوا ويكونوا في الكفر أمة واحدة ﴿ لَجَعَلْنَا ﴾ لحقارة الدنيا وهوانها عندنا ﴿ لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰن ﴾ أي لشر الخلائق ، وأدناهم منزلة كما قال تعالى ، (أُولئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيّة) ﴿ لِبيُوتِهِمْ ﴾ جمع بيت وهو اسم لمبنى مسقف ، مدخله من جانب واحد بني للبيتوتة ﴿ سُقُفاً ﴾ متخذة ﴿ مِنْ فِضّةٍ ﴾ جمع سقف : وهو سماء البيت ، والفضةُ : جسم ذائب أبيض ثمين ، من أنفس المعادن بعد الذهب ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ عطف

على « سقفاً » جمع معرج بمعنى السُّلّم ، والمعارج المصاعد ، والمعنى : وجعلنا لهم مصاعد ، ومراقي من فضة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على المعارج ﴿ يَظْهَرونَ ﴾ يقال ظهر عليه إذا علاه وارتقى إليه ، والمعنى يعلون السطوح ، والعلالي ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم ، ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ﴿ أَبْواباً ﴾ والباب يقال لمدخل الشيء ﴿ وَسُرُراً ﴾ تحتها أي من فضة ، جمع سرير ، والسرير هو الذي يُجْلس عليه ، من السرور إذا كان ذلك لأولي النعمة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على السرر ﴿ يَتَّكِئُونَ ﴾ والاتكاء الاعتماد ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ الزخرف الزينة المزوّقة ، ومنه قيل للذهب : زخرفٌ ، كما قال تعالى (أَوْ يَكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) أي ذهب مزوّق والمعنى : وزينة عظيمة من كل شيء .

﴿ وَإِنْ كُلُّ ذلكَ لَمّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا ﴾ وما كل ذلك المذكور ، من البيوت الموصوفة بالصفاة المفصلة ، إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا لا دوام له ، ولا حاصل إلا الندامة والغرامة ﴿ والآخِرَةُ ﴾ بما فيها من فنون النعم التي يقصر عنها البيان ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ، فإن قيل : قد بين الله تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر ، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟ فالجواب لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا ، وهذا الإيمان إيمان المنافقين ، فكان من الحكمة أن يضيق الأمر على المسلمين ، حتى إن كل من دخل في الإسلام ، فإنما يدخل لمتابعة الدليل ، ولطلب رضى الله فحينئذ يعظم ثوابه بهذا السبب ، لأن ثواب المرء على حسب إخلاصه ونيته ، قال في شرح الترغيب : فإن قيل : ما الحكمة في اختيار الله تعالى لنبيه الفقر ، واختياره إياه لنفسه ؟ في مثل قوله (لو شئت لدعوت ربي عز وجل فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر) ؟ فالجواب من وجوه : أحدها أنه لو كان غنياً لقصده قوم طمعاً في الدنيا ، فاختار الله له الفقر حتى إن كل من قصده ، علم الخلائق أنه قصده طلباً للعقبى والثاني : ما قيل : إن الله اختار الفقر له ، نظراً لقلوب الفقراء ، حتى يتسلى الفقير بفقره ، كما يتسلى الغني بما له ، والثالث : ما قيل إن فقره دليل على هوان الدنيا على الله تعالى ، كما قال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[1] ومعنى هوان الدنيا على الله ، أنه سبحانه لم يجعلها مقصودة لنفسها ، بل جعلها طريقاً موصلاً إلى ما هو المقصود لنفسه ، وأنه لم يجعلها دار إقامة ، ولا جزاء ، وانما جعلها دار رحلة وبلاء ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ ﴾ من شرطية و « يَعْشُ » من عشا إذا تعاشى بلا آفة ، وتعامى إذا نظر العشا ، ولا آفة في بصره ، والمراد بالذكر القرآن ، وإضافته إلى الرحمن إشارة إلى كونه رحمة عامة من الله ، والمعنى : ومن يتعام ، ويعرض عن

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب .

القرآن ، أو عن أن يذكر الرحمن لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا ، وانهماكه في الحظوظ والشهوات الفانية ﴿ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً** ﴾ نسلطه عليه ، ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القبض على البيض وهو القشر الأعلى اليابس ﴿ **فَهُوَ** ﴾ أي ذلك الشيطان ﴿ **لَهُ** ﴾ أي لذاك العاشي ، والمعرض ﴿ **قَرِينٌ** ﴾ مصاحب لا يفارقه ، ولا يزال يوسوسه ويغويه ، ويزين له العمى على الهدى ، والقبيح بدل الحسن ﴿ **وَإِنَّهُمْ** ﴾ أي الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لواحد ممن تعامى ﴿ **لَيَصُدُّونَهُمْ** ﴾ أي يمنعون قرناءهم ﴿ **عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ عن الطريق المستبين الذي من حقه أن يُسبل ، وهو الذي يدعو إليه القرآن ﴿ **وَيَحْسَبُونَ** ﴾ أي والحال أن العاشين يظنون ﴿ **أَنَّهُمْ** ﴾ أي الشياطين ﴿ **مُهْتَدُونَ** ﴾ أي السبيل المستقيم ، وإلا لما تبعوهم ، أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون ، لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين ، مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك ، لاتحاد مسلكهما ﴿ **حَتَّى إِذا جاءَنا** ﴾ والمعنى يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين ، والصد والحسبان الباطل ، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿ **قَالَ** ﴾ مخاطباً له ﴿ **يالَيْتَ بَيْنِي وبَيْنَكَ** ﴾ في الدنيا ﴿ **بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ** ﴾ بعد المشرق ، والمغرب ، أي تباعد كل منهما عن الآخر ، فغُلِّب المشرق وثُنِّي ، وأضيف البعد إليهما ﴿ **فَبِئْسَ الْقَرِينُ** ﴾ أي أنت بئس الصاحب كنت في الدنيا ، وبئس الصاحب اليوم ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : إذا بعث الكافر ، زوج بقرينه من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير إلى النار ، كما أن الملك لا يفارق المؤمن حتى يصير إلى الجنة ، ﴿ **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ** ﴾ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله تعالى توبيخاً وتقريعاً : أي لن ينفعكم اليوم تمنيكم لمباعدتهم ﴿ **إِذْ ظَلَمْتُمْ** ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا ، باتباعكم اياهم في الكفر ، والمعاصي ، ﴿ **أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ أي لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم القرناء في العذاب ، كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ، ويجوز بمعنى لن يحصل لكم التشفي بكون قرنائكم معذبين مثلكم ، حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم (**رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً**) ونظائره ، لتشفوا بذلك ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ أي من فقد سمع القلوب ﴿ **أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ من فقد البصائر ، جمع أصم وأعمى ، كان عليه الصلاة والسلام يتعب نفسه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون إلا تعامياً عما يشاهدونه من شواهد النبوة ، وتصامّاً عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت ، وهو إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال ، بحيث صار عشاهم عمى مقروناً بالصم ، فنزل منزلة من يدعي أنه قادر على ذلك لإصراره على دعائهم ﴿ **وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾ لا يخفى على أحد ، أي ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلالة ﴿ **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ** ﴾ فإن قبضناك ، وأمتناك قبل أن نبصرك عذابهم ، ونشفي بذلك صدرك ، وصدور المؤمنين ﴿ **فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنتَقِمُونَ** ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة ﴿ **أَوْ**

﴿ نُرِيَنَّكَ الَّذي وَعدْناهُمْ ﴾ أو إن أردنا أن نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿ فَإنّا عَليْهِمْ مُقْتَدِرونَ ﴾ لا يفوتوننا ، لأنهم تحت قهرنا ، وقدرتنا ، وفي الآية تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه تعالى ينتقم من أعدائه ومنكريه ، إما في حال حياته ، وإما بعد وفاته ، وأنه قادر على الانتقام منهم بواسطةٍ كما كان يوم بدر أو بغير واسطة كما كان في زمن أبي بكر رضي الله عنه وغيره .

وفي الحديث (إذا أراد الله بأمة خيراً ، قَبَض الله نبيها قبلها ، فجعله لها فرطاً ، وسلفاً ، وإذا أراد الله بأمة عذاباً عذَّبها ، ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر ، لتقرَّ عينه لما كذبوه وعصوه)[1] قالوا : كل نبي قد رأى النقمة في أمته غير نبينا عليه السلام ، فإن الله أكرمه فلم ير في أمته إلا الذي تقر به عينه وأبقى النقمة بعده ، وهي البلايا الشديدة ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بالّذي أُوحِيَ إليْكَ ﴾ أي تمسَّكْ بالقرآن الذي أنزل عليك ، بمراعاة أحكامه سواء عجلنا لك المعهود ، أو أخرناه إلى يوم الآخرة ﴿ إنَّكَ على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ أي طريق سوي لا عوج له ، وهو طريق التوحيد ، ودين الإسلام ﴿ وَإنّهُ ﴾ أي القرآن الذي أوحي إليك ﴿ لَذِكْرٌ ﴾ لشرف عظيم ﴿ لَكَ ﴾ خصوصاً ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وأمتك عموماً ، كما ورد في الأثر (إن لكل شيء شرفاً يباهى به ، وإن بهاء أمتي وشرفها القرآن) فالمراد بالقوم الأمة كما قال مجاهد ، وقال بعضهم : ولقومك من قريش ، حيث يقال : إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من هؤلاء ، ثم جمع الله النبي مع قومه فقال ﴿ وَسَوفَ تُسْألُونَ ﴾ يوم القيامة عنه ، وعن قيامكم بحقوقه ، وعن تعظيمكم ، وشكركم على أن رزقتموه ، وخُصِصتم به من بين العالمين ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ﴾ والمعنى : واسأل أممهم ، وعلماء دينهم ، التنبيه على أن المسئول عنه ، عين ما نطقت به ألسنة الرسل ، لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم ﴿ أجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدونَ ﴾ أي هل حكمنا بعبادة الأوثان ، وهل جاءت في ملة من مللهم ؟ والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه ، حتى يُكَذَّب ويعادى له ، فإنه أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة ، قال ابن الشيخ : السؤال يكون لرفع الإلتباس ، ولم يكن رسول الله يشك في ذلك ، وإنما الخطاب له ، والمراد غيره ، قالت عائشة رضي الله عنها : لما نزلت هذه الآية ، قال عليه السلام : ما أنا بالذي أشك وما أنا بالذي أسأل .

﴿ وَلقَدْ أرْسَلْنا مُوسىٰ ﴾ حال كونه ملتبساً ﴿ بآياتِنا ﴾ التسع الدالة على صحة نبوته ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي أشراف قومه ، والإرسال إلى الأشراف إرسال إلى الأرذال ، لأنهم تابعون لهم ، ﴿ فَقالَ ﴾ موسى لهم ﴿ إنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمينَ ﴾ لكم ﴿ فَلَمّا جَاءَهُمْ بآياتِنا ﴾ ليسعدوا

(١) أخرجه مسلم في الفضائل برقم / ٢٢٨٨ / جامع الأصول ٩ / ٢٠٨ .

وينتهوا ، وينتفعوا بها ﴿ إذا ﴾ أي سَارَعوا وقت ﴿ هُمْ مِنْها ﴾ أي من تلك الآيات ﴿ يَضْحَكونَ ﴾ منها أي استهزأوا بها وكذبوها أول ما رأوها ، ولم يتأملوا فيها ، وقالوا سحر وتخييل ظلماً وعلواً ﴿ ومَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ ﴾ من الآيات ﴿ إلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ﴾ أي أعظم من الآية التي تقدمتها ، ليكون العذاب أعظم ، ولما كانت الآية مؤنثاً عبر عنها بالأخت وسماها اختها في اشتراكهما في الصحة ، والصدق ، وكون كل منهما نظيرة الأخرى ، وقرينتها ، وصاحبتها في ذلك ، والمقصود وصف الكل بالكبر الذي لا مزيد عليه ﴿ وَأَخذْناهُمْ بالعَذابِ ﴾ أي عاقبناهم بالسنين ، والطوفان ، والجراد ، والدم ، والطمس ، ونحوها ، وكانت هذه الآيات دلالات ، ومعجزات لموسى ، وزجراً وعذاباً للكافرين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ ﴾ أي لكي يرجعوا عمّا هم عليه من الكفر ، فإن من جهولية نفس الإنسان أن لا يرجع إلى الله على أقدام العبودية ، إلا أن يُجرَّ بسلاسل البأساء والضراء إلى ذلك ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي فرعون وقومه في كل مرة من العذاب لما ضاق نطاق بشريتهم ﴿ يٰاأَيُّهَ السّاحِرُ ﴾ نادوا بذلك في مثل تلك الحالة ، أي عند طلب كشف العذاب بدعائه لغاية عتوّهم ، وغاية حماقتهم ، أو سبق ذلك إلى لسانهم على ما ألفوه من تسميتهم إياه بالساحر لفرط حيرتهم ، وعن الحسن : قالوه على الاستهزآء ﴿ ادْعُ لَنا رَبَّكَ ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ وأصل العهد بمعنى التوصية وحفظ الشيء ، ومراعاته حالاً بعد حال ، والمعنى بسبب عهده عندك بالنبوة ، فسمي عهد الله ، أو من استجابة دعوتك ، أو من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿ إنّنا لَمُهْتَدونَ ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك ، وعد منهم معلق بشرط الدعاء ، ولذا تعرضوا للنبوة على تقدير صحتها ، وقالوا « رَبَّكَ » لا ربنا فإنه يكون ربهم بعد الإيمان لأنهم قائلون بربوبية فرعون ﴿ فَلمّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذابَ ﴾ بدعاء موسى ﴿ إذا هُمْ يَنْكُثونَ ﴾ النكث في الأصل نقض الحبل والغزل ، ونحو ذلك ، واستعير لنقض العهد ، والمعنى : أي بادروا النكث ، ولم يوخروه ، وعادوا إلى كفرهم وأصروا عليه ، ولما نقضوا عهودهم صاروا ملعونين ، ومن آثار لعنهم الغرق كما يأتي ، فعلى العاقل الوفاء بالعهد ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ بنفسه ، أو بمنادٍ أمره بالنداء ﴿ في قَومِهِ ﴾ في مجمعهم ، وفيما بينهم بعد أن كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا ﴿ قَالَ ﴾ بافتخار ﴿ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ وهي أربعون فرسخاً في أربعين ، وفي فتح الرحمن وهو من نحو الأسكندرية إلى أسوان ، بطول النيل ، وأسوان بالضم بلد بصعيد مصر ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ ﴾ أي أنهار النيل ، والمراد هنا الخلجان الكبار الخارجة من النيل وهو نهر الإسكندرية ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ﴿ تَجْري مِنْ تَحْتي ﴾ أي من تحت قصري أو أمري ، قال في خريدة العجائب : ليس في الدنيا نهر أطول من نهر النيل ، ﴿ أفلا تُبْصِرونَ ﴾ ذلك ، يريد به استعظام ملكه ، زعم اللعينُ أنه هو الذي يُجري هذه الأنهار بقدرته.

﴿ أَمْ أنا خَيْرٌ ﴾ مع هذا الملك والبسط ، وأم بمعنى بل أنا خير ، والهمزة للتقرير ، أي لحملهم على

الإقرار ، كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله ، ومبادي خيريته : أثبتَ عندكم واستقرَّ لديكم أني أنا خير ﴿ **مِنْ هَذا الذي هُوَ مَهِينٌ** ﴾ ضعيف حقير من المهانة وهي القلة ﴿ **ولا يَكادُ يُبينُ** ﴾ الكلام ويوضحه ، لعقدةٍ في لسانه ، فكيف يصلح للنبوة والرسالة ؟ يريد أنه ليس معه من آيات الملك ، والسياسة ما يعضده ، ويتقوى به كما قالت قريش (**لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيتَيْنِ عَظيمٍ**) وهو في نفسه حال عما يوصف به الرجال من الفصاحة ، والبلاغة ، وكان الأنبياء كلهم فصحاء بلغاء ، قاله افتراء على موسى وتنقيصاً له في أعين الناس ، باعتبار ما كان في لسانه من نوع رتة حدثت بسبب الجمرة ، وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى (**قَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يامُوسى**) والرتة وهي حبسة في اللسان تمنعه من الجريان وسلاسة التكلم ، وتشير الآية إلى أنَّ من تعزَّز بشيء من دون الله فحتفه وهلاكه في ذلك ، فلما تعزز فرعون بملك مصر ، وجري النيل بأمره فكان فيه هلاكه ، وكذلك من استصغر أحداً سُلِّط عليه ، كما أن فرعون استصغر موسى عليه السلام وحديثه وعابه بالفقر ، واللكنة ، فقال : أم أنا خير ، فسلطه الله عليه ، وكان هلاكه على يديه ، ﴿ **فَلوْلا أُلْقِيَ عَليْهِ أَسْوِرَةٌ منْ ذَهَبٍ** ﴾ وأسورةٌ جمع سوار ، وجمعُ الأسورة أساور ، والمعنى : فهلا ألقي على موسى وأعطي مقاليد الملك ، إن كان صادقاً في مقالته في رسالته ؟ فيكون حاله خيراً من حالي ؟ والملقي هو رب موسى من السماء ، وإلقاء الأسورة كناية عن إلقاء مقاليد الملك أي أسبابه التي هي كالمفاتيح له ، وكانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه، وطوّقوه بطوق من ذهب علماً على رياسته ودلالة لسيادته ، ﴿ **أَوْ جاءَ مَعَهُ الملائِكَةُ مقْتَرنينَ** ﴾ أي حال كونهم مقرونين بموسى منضمين إليه يعينونه على أمره ، وينصرونه ويصدقونه ، أي يشهدون له بصدقه ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ** ﴾ أي فاستفزهم بالقول وطلب منهم الخفة في إطاعته ، فالمطلوب بما ذكره من التلبيسات والتمويهات ، خفة عقولهم حتى يطيعوه فيما أراد منهم مما يأباه أرباب العقول السليمة ، لا خفة أبدانهم في امتثال أمره ، أو فاستخف أحلامهم أي وجدها خفيفة يفترون بالتلبيسات الباطلة ، ﴿ **فَأَطاعُوهُ** ﴾ فيما أمرهم به لفرط جهلهم ، وضلالهم ، ﴿ **إنّهُمْ كَانُوا قَوْماً فاسِقينَ** ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوي ﴿ **فَلمّا آسفونا** ﴾ والمعنى : فلما أغضبونا أي فرعون وقومه أشد الغضب ، بالإفراط في العناد والعصيان ، وغضب الله نقيض الرضى ، أو إرادة الانتقام ، أو تحقيق الوعيد ، أو الأخذ الأليم ، أو البطش الشديد أو التعذيب بالنار ، وتغيير النعمة ﴿ **انْتَقَمنا مِنْهُمْ** ﴾ أردنا أن نعجل لهم انتقامنا وعذابنا وأن لانحلم عنهم ، وفي كشف الأسرار : حللنا بهم النقمة والعذاب ﴿ **فَأَغْرَقناهُمْ أجمَعينَ** ﴾ فأهلكناهم المطاع ، والمطيعين له أجمعين ، بالإغراق في اليم ، ولم نترك منهم أحداً ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً** ﴾ فالمعنى فجعلناهم قدوة لمن بعدهم من الكفار ، يسلكون مسلكهم في استيجاب مثل ما حلَّ بهم من العذاب ﴿ **وَمَثلاً للآخِرينَ** ﴾ أي عظة للكفار المتأخرين عنهم ، والعظة ليس من لوازمها الاتعاظ ، أو قصة

عجيبة تسير مسير الأمثال لهم ، فيقال : مثلكم كمثل قوم فرعون ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي عيسى﴿ مَثَلاً ﴾ أي ضربه عبد الله بن الزبعري السهمي ، كان من مردة قريش قبل أن يسلم والد عبد الله الصحابي القرشي الشاعر ومعنى ضربه مثلاً أي جعله مثالاً ، ومقياساً في بيان إبطال ما ذكره رسول الله ﷺ من كون معبودات الأمم (مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) الآية قرأه على قريش فامتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً وغضبوا وشقّ عليهم ، فقال ابن الزبعري بطريق الجدال : هذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ، فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك وربِّ الكعبة ، أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود عزيراً ، وبنوا مليح الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى ﴿ إذا قَوْمُكَ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك المثل ، أي لأجله وسببه ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفع لهم جلبة ، وضجيج فرحاً وسروراً لظنهم أن الرسول صار ملزماً به ، قال في القاموس : صدّ يصدّ ضجَّ ﴿ وقَالُوا ﴾ أي قومك ﴿ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ ﴾ أي عندك ، فإن آلهتهم خير عندهم من عيسى ﴿ أَمْ هُوَ ﴾ أي عيسى خير من آلهتنا ؟ فحيث كان هو في النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها ، ورُوي أنه عليه السلام رد على عبد الله بن الزبعري بقوله (ما أجهلك بلغة قومك ؟ أما فهمت أن « ما » لما لا يعقل) ؟ وفي هذا الحديث تصريح بأن ما موضوع لغير العقلاء ، ﴿ ما ضَرَبُوه لَكَ إلاَ جَدَلاً ﴾ الجدل : فتلُ الخصم عن قصده لطلب صحة قوله وإبطال غيره ، وهو مأمور به على وجه الإنصاف ، وإظهار الحق بالإتفاق ، أي ماضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال ، والخصام ، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك ، قال بعض الكبار : إن قال عليه السلام آلهتكم خير من عيسى ، فقد أقرَّبأنها معبودة ، وإن قال عيسى خير من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد ، وإن قال ليس واحد منهم خيراً فقد نفى الخير عن عيسى ، فراموا بهذا السؤال أن يجادلوه ، ولم يسألوه للاستفادة ، فبين الله أن جدالهم ليس لفائدة وإنما هو لخصومة نفس الإنسان فقال ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ ﴾ أي شداد الخصومة بالباطل ، مجبولون على اللجاج ، والخلاف ، وذلك لأنهم قد علموا أن المراد من قوله (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) هؤلاء الأصنام بشهادة المقام ، لكن ابن الزبعري لما رأى الكلام محتملاً للعموم بحسب الظاهر ، وجد مجالاً للخصومة ، وفي الحديث (ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل[1] ، ثم قرأ ما ضربوه لك إلاَّ جَدَلاً الآية ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو أي ابن مريم ، وهو عيسى ﴿ إلاَ عَبْدٌ ﴾ مربوب ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بفضلنا عليه بالنبوة ، أو بخلقه بلا أب ، لا ابن الله ، والعبد لا يكون مولى وآلهاً ، كالأصنام ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَني اسْرائيلَ ﴾ أي أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة ، قال بعض الكبار : عبرة يعتبرون به ، بأن يسارعوا في عبوديتنا طمعاً في إنعامنا

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند ٥ / ٢٥٢ وانظر جامع الأصول ٢ / ٧٤٩ .

عليهم ، ﴿ وَلَوْ نَشاءُ ﴾ أي قدرنا بحيث لو نشاء ﴿ لَجَعَلْنَا ﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وأنتم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة ، كما ولدت حواء من آدم ، وعيسى من غير أب ، وإن لم تجر العادة ﴿ ملائِكَةً ﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين في السماء ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يقال : خلف فلان فلاناً إذا قام بالأمر عنه أي يخلفونكم ويصيرون خلفاء بعدكم ، مثل أولادكم فيما تأتون ، وتذرون ، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم ، مع أن شأنهم التسبيح ، والتقديس في السماء ، فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية ، كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية ، أو انتسابهم إليه بالولادة ، يعني أن الملائكة مثلكم في الجسمية ، واحتمال خلقها توليداً لما ثبت أنها أجسام ، وأن الأجسام متماثلة ، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر ، كما جاز خلقها إبداعاً ، وذات القديم الخالق لكل شيء متعالية عن مثل ذلك فقوله (ولو نَشاءُ) إلخ لتحقيق أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله ، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك ، وهو توليد الملائكة من الرجال ، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضاً من درجة المعبودية ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي وإنّ عيسى عليه السلام بنزوله في آخر الزمان ﴿ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ ﴾ شرط من أشراطها ، يعلم به قربها ، وتسميته علماً لحصوله به ، فهي على المبالغة في كونه مما يُعلم به ، فكأنه نفس العلم بقربها ، أو إن حدوثه بغير أب ، أو إحياءه الموتى دليل على صحة البعث ، الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة ، وقد ورد (أن عيسى ينزل على ثنيةٍ بالأرض المقدسة ، بين حوران والغور ، وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة ، وبها يقتل الدجال ، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح ، وفي رواية في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه السلام ، ثم يقتل الخنازير ، ويكسر الصليب ، ويخرب البِيَعَ ، والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن به) وفي الحديث (الأنبياء أولاد علات ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، ليس بيني وبينه نبي ، وإنه أول ما ينزل يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويقاتل على الإسلام ، ويخرب البيع والكنائس)[1] وفي الحديث (ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً وعدلاً يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام)[2] دلّ آخر الحديث على أن المراد بوضع الجزية تركها ، ورفعها عن الكفار بأن لا يقبل إلا الإسلام ، صرح بذلك النووي ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِها ﴾ فلا تشكن في وقوعها ، والامتراءُ المحاجة فيما فيه مرية ﴿ واتّبعونِ ﴾ أي واتبعوا هداي وشرعي ، أو رسولي ﴿ هَذا ﴾ الذي أدعوكم إليه ، وهو الإتباع ﴿ صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ موصل إلى الحق ، ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ ﴾ أي لا يمنعكم الشيطان ، ولا يصرفنكم عن صراط

(١) أخرج الشيخان بعضه وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٢٣ .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، جامع الأصول ١٠ / ٣٢٧ .

اتباعي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ بيّن العداوة ، حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الواضحة ، أو بآيات الإنجيل ، أو بالشرائع ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أي الإنجيل أو الشريعة لأعلمكم إياها ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفتي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ، فإن طاعتي طاعة الحق ، كما قال (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فخصوه بالعبادة ، والتوحيد ، وهو بيان لما أمرهم بالطاعة فيه ، وهو اعتقاد التوحيد ، والتعبد بالشرائع ﴿ هَٰذَا ﴾ أي التوحيد ، والتعبد بالشرائع ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لايضل سالكه ، ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ جمع حِزب بمعنى : جماعة الناس أي فاختلف الفرق المتحزبة ، والمراد اختلافهم بعد عيسى عليه السلام بثلاث مائة سنة ، لا في حياته لأنهم أحدثوا بعد رفعه ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي من بين من بعث إليهم ، من اليهود والنصارى ، يعني تحزب اليهود والنصارى في أمر عيسى عليه السلام ، فقالت اليهود لعنهم الله زنت أمه فهو ولد الزنى ، وقال بعض النصارى عيسى هو الله ، وبعضهم ابن الله ، وبعضهم قال : الله وعيسى وأمه آلهة ، وهو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقول الظالمون ، وحزب كفروا به وجحدوا نبوته ، وافتروا عليه ، وأرادوا قتله ، فقال الله تعالى في حق الظالمين المشركين ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ من المختلفين ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة ، والمراد يومٌ أليمٌ العذاب ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر الناس ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ أي إلا إتيان الساعة ، ولما كانت الساعة تأتيهم لا محالة ، كانوا كأنهم ينتظرونها ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي إتيان بغتة ، والبغت : مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب ، أي فجأةً لا عند كونهم مترقبين لها ، بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا ، منكرين لها ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها فيجازي كل الناس على حسب أعمالهم ، فلا تؤدي بغتة ، مؤدى قولهم (وهم لا يشعرون) حتى لا يستغنى بها لأنه ربما يكون إتيان الشيء بغتة مع الشعور بوقوعه والاستعداد له ، لأنه إذا لم يعرف وقت مجيئه ، ففي أي وقت جاء أتى بغتة ، وربما يجيء والشخص غافل عنه منكراً له ، والمراد هنا هو الثاني فعلى العاقل الخروج عن كل ذنب ، والتوبة من كل جريمة ، قبل أن يأتي يوم أليم عذابه وهو يوم الموت ، فإن ملائكة العذاب ينزلون فيه على الظالمين ، ويشددون عليهم حتى تخرج أرواحهم الخبيثة بأشد العذاب ﴿ الْأَخِلَّاءُ ﴾ الخلة : المودة لأنها تتخلل النفس ، أي تتوسطها ، أي المتحابون في الدنيا على الإطلاق ، أو في الأمور الدنيوية ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة ، والتحاب لظهور كونها اسباباً بالعذاب ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن خلتهم في الدنيا لما كانت في الله تبقى على حالها ، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار الخلة من الثواب ، ورفع الدرجات ، فبقدر ما يرى بعضهم في بعض من الصدق ،

والجد ، والاجتهاد ، يساعده ، ويوافقه ، ويعاونه ، فإذا علم منه شيئاً لا يرضاه الله تعالى لا يرضاه من صاحبه ، ولا يداريه ، بل ينصحه بالرفق والموعظة الحسنة ، فإذا عاد إلى ما كان عليه ، وترك ما تجدد لديه ، يعود إلى صدق مودته ، وحسن صحبته ﴿ **ياعِبادِ** ﴾ أي يا عبادي ، ولفظ العباد المضاف إلى الله مخصوص بالمؤمنين المتقين ، أي يقال للمتقين يوم القيامة تشريفاً وتطييباً لقلوبهم يا عبادي ﴿ **لا خَوفٌ عَلَيْكُمُ اليوْمَ** ﴾ من ملاقاة المكاره ﴿ **وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ من فوت المقاصد ، كما يخاف ، ويحزن غير المتقين ﴿ **الّذِينَ آمنُوا بآياتِنا** ﴾ صفة للمنادىٰ ﴿ **وَكَانُوا مُسْلِمينَ** ﴾ أي مخلصين وجوههم لنا ، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا ، وعن مقاتل : إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فترفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها (الذين آمنوا) الآية فينكس أهل الأديان الباطلة رؤسهم ﴿ **أُدْخُلوا الجَنّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ** ﴾ نساؤكم المؤمنات حال كونكم ﴿ **تُحْبرونَ** ﴾ تسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم ، أو تزينون من الحَبرة وهو حسن الهيئة ، والمراد السرور الذي يعلو وجوههم ﴿ **يُطافُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على العباد المؤمنين بعد دخولهم الجنة يدار بأيدي الغلمان ، والولدان ، والطائف الخادم ، ومن يدور حول البيوت حافظاً ﴿ **بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ** ﴾ أي أوانٍ جمع صحفة وهي القصعة العريضة الواسعة ، قال مجاهد : أي أواني مدورة الأفواه ، قال السدي : أي ليست لها آذان ، والمراد قصاع فيها طعام ﴿ **وَأَكْوابٍ** ﴾ من ذهب فيها شراب ، أصناف شراب ، جمع كوب وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم ، ليشرب الشارب من حيث شاء ، قال سعدي المفتي : قللت الأكواب وكثرت الصحاف ، أي كما دلّ عليها الصيغة لأن المعهود قلّةُ أواني الشرب بالنسبة إلى أواني الأكل ، ﴿ **وَفِيها** ﴾ أي في الجنة ﴿ **ما تَشْتَهيه الأَنْفُسُ** ﴾ من فنون الملاذ ، والمشتهيات النفسانية كالمطاعم والمشارب ، والمناكح ، والملابس ، والمراكب ، ونحو ذلك قال في الأسئلة المقحمة : أهل الجنة هل يعطيهم الله جميع ما يسألونه وتشتهي أنفسهم ، ولو اشتهت نفوسهم شيئاً من مناهي الشريعة كيف يكون حاله ؟ والجواب معنى الآية : أن نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس ، وليس فيها ما لا تشتهيه النفوس ولا تصل إليه ، وقد قيل : يعصم الله أهل الجنة من شهوةٍ دنيئة أو منهي عنه ﴿ **وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾ يقال لَذِذت الشيء أي وجدته لذيذاً ، والمعنى تستلذه الأعين ، وتقر بمشاهدته ، قال السعدي المفتي ، هذا من باب (**تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ والرُّوحُ**) تعظيماً لنعيمها ، فإن منه النظر إلى وجه الكريم ، قال جعفر : شتان بين ما تشتهي الأنفس ، وبين ما تلذ الأعين ، لأن ما في الجنة من النعيم ، والشهوات ، واللذات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع يغمس في بحر ، لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية ، لأنها مخلوقة ، ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الوجه الباقي الذي لا حد ولا نهاية له ، قال في كشف الأسرار : هذا من جوامع القرآن لأنه جمع بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه .

﴿ وَأَنْتُم فيها خَالِدونَ ﴾ الإلتفات للتشريف ، أي باقون دائمون لا تخرجون ولا تموتون ، إذ لولا البقاء والدوام لنغص العيش ، ونقص السرور ، والاشتهاء ، واللذة ، فلم يكن التنعم كاملاً ، والخوف والحسرة زائلاً ، بخلاف الدنيا ، فإنها لفنائها ، عيشها مشوب بالكدر ، ونفعها مخلوط بالضرر ﴿ وَتِلكَ ﴾ مبتدأ إشارة إلى الجنة المذكورة ﴿ الجَنّةُ الّتي أُورِثْتُموها ﴾ أعطيتموها ، وجعلتم ورثتها ، ﴿ بِما ﴾ الباء للسببية ﴿ كُنْتُمْ تَعملون ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة ، والمقصود أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ، ورحمته ، واقتسامَ الدرجات بسبب الأعمال ، والخلود فيها بحسب عدم السيئات ، شبه جزاء العمل بالميراث ، لأن العامل يكون خليفة العمل على جزائه ، يعني يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل ، فكان العمل كالمورث وجزاؤه كالميراث ﴿ لَكُمْ فِيها ﴾ أي في الجنة سوى الطعام ، والشراب ﴿ فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الأنواع ، والأصناف ، لا بحسب الأفراد فقط ، والفواكه من أشهى الأشياء للناس ، وألذها عندهم ، وأوفقها لطباعهم ، وأبدانهم ، ولذلك أفردها بالذكر ﴿ مِنْها تَأْكُلونَ ﴾ أي بعضها تأكلون في نوبة لكثرتها ، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام ، لا ترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة ، فهي مزينة بالثمار أبداً ، وفي الحديث (لا ينزع رجل في الجنة ثمرة من ثمرها إلا نبت مثلها مكانها) فيكون فيه دلالة على أن كل ما يأكلون للتفكه ، ليس فيها تقوت ، إذ لا تحلل حتى يحتاج إلى الغذاء ، ولعل تفصيل التنعم بالمطاعم ، والمشارب ، والملابس ، وتكريره في القرآن ، لما كان بهم من الشدة والفاقة ،ففيه تحريك لدواعيهم ، وتشويق لهم ، ﴿ إنّ المُجْرِمينَ ﴾ أي الراسخين في الإجرام ، وهم الكفار حسبما ينبىء عنه ايرادهم في مقابلة المؤمنين بالآيات ﴿ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خَالِدونَ ﴾ أي لا ينقطع عذابهم في جهنم ، كما ينقطع عذاب عصاة المؤمنين على تقدير دخولهم فيها ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ولا ينقص ، من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ونقص حرها ، ﴿ وَهُمْ فيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُبْلِسونَ ﴾ آيسون من النجاة ، والراحة ، وخفة العقوبات ، والإبلاس : الحزن المعترض من شدة اليأس ، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت ، وينسى ما يعنيه قيل أبلس فلان إذ سكت ، وانقطعت حجته ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بذلك ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظّالِمينَ ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد ، بالكفر والمعاصي ﴿ وَنَادَوْا يا مَالِكُ لِيقْضِ عَلَينا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا حتى نستريح ، من قضى عليه إذا أماته ، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا ، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم ، لأنه جؤار وصياح ، وتمنٍّ للموت لفرط الشدة ﴿ قَالَ ﴾ مالك مجيباً لهم بعد ألف سنة ، يعني ينادون مالكاً فيجيبهم بعد ألف سنة إهانةً لهم وإذلالاً ، وتراخي الجواب أحزن لهم ﴿ إنّكُمْ ماكِثُونَ ﴾ المكث ثبات مع انتظار ، أي مقيمون في العذاب ابداً ، لا خلاص لكم منه بموت ، ولا بغيره ، فليس بعدها إلا جؤار كصياح الحمير ، أوله زفير ، وآخره شهيق ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالحَقّ ﴾

في الدنيا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى ، مقرر لجواب مالك ، ومبين لسبب مكثهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ للحَقِّ ﴾ أيَّ حق كان ﴿ كَارِهُونَ ﴾ أي لا يقبلونه وينفرون منه لما في التمسك به من إتعاب النفس ، والجوارح ، وأما الحق المعهود الذي هو التوحيد ، أو القرآن فكلهم كارهون له ، مشمئزون منه ، والكراهةُ : مصدر كره الشيء أي لم يرده فهو كاره ، ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً ﴾ الإبرام إحكام الأمر ، وأصله من إبرم الحبل ، وهو ترديد فتله ، أي أم أبرم وأحكم مشركوا مكة أمرهم من كيدهم ومكرهم برسول الله ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنا حقيقة لاهم ، أو فإنا مبرمون بهم حقيقة ، كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المكيدونَ) وكانوا يتناجون في أنديتهم ويتشاورون في أموره عليه السلام ، قال في فتح الرحمن : كما فعلوا في اجتماعهم على قتله عليه السلام في دار الندوة إلى غير ذلك ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ أي بل أيحسبون ﴿ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ وهو ما حدَّثوا به أنفسهم من الكيد ، لأنهم كانوا مجاهرين بتكذيب الحق ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي بما تكلموا به فيما بينهم بطريق التباهي والتشاور ، يقال ناجيته أي سارررته ﴿ بَلى ﴾ نحن نسمعها ، ونطلع عليها ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ عندهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يكتبونها أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال ، والأقوال التي من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم ، ثم تعرض عليهم يوم القيامة ، فإذا كانت خفاياهم غير خفية على الملائكة ، فكيف على عالم السر والنجوى ؟ وعن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : من ستر من الناس ذنوبه ، وأبداها لمن لا يخفى عليه في السموات والأرض شيء ، فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق ﴿ قُلْ ﴾ للكفرة ﴿ إِنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ فرضاً ، كما تقولون : الملائكة بنات الله ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ لذلك الولد ، وأسبقكم الى تعظيمه ، والانقياد له ، وذلك لأنه عليه السلام أعلم الناس بشؤونه تعالى ، وبما يجوز عليه ، وبما لا يجوز ، وأولاهم بمراعاة حقوقه ، أي إن يثبت بحجة قطعية كون الولد له تعالى كما تزعمون ، فأنا أولكم في التعظيم ، وأسبقكم إلى الطاعة ، تعظيماً لله تعالى ، لأن الداعي إلى طاعته ، وتعظيمه ، أول وأسبق في ذلك ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾ في إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها ، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته ، كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزأ منه سبحانه ؟﴿ رَبِّ العَرْشِ ﴾ في تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي يصفونه به وهو الولد ، أي سبّحوا رب هذه الأجسام العظام لأن مثل هذه الربوبية توجب التسبيح على كل مربوب فيها ، ونزهوه عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي اترك الكفرة حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُوا ﴾ يشرعوا في أباطيلهم وأكاذيبهم ، والخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ويستعار

للأمور ، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم فإن ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليست إلا من باب الجهل واللعب ، يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً ، قالوا كل لعب لا لذة فيه فهو عبث ، وما كان فيه لذة فهو لعب ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا ﴾ يعاينوا ﴿ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ على لسانك وهو يوم القيامة فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم ، لأنه الذي كانوا ينكرونه لا يوم الموت الذي لا يشكّون فيه ، ولما كان يوم الموت متصلاً بيوم القيامة على ما أشار إليه قول بعض السلف (من مات فقد قامت قيامته) جعل الخوض واللعب منتهيَيْنِ بيوم القيامة ، وفي الآية إعلام بأنهم من الذين طبع الله على قلوبهم فلا يرجعون عما هم عليه أبداً ، وإشارة إلى أن الله خلق الخلق أطواراً مختلفة ، فمنهم من خلقه للجنة ، فيستعدُّ للجنة بالإيمان والعمل الصالح وانقياد الشريعة ومتابعة النبي عليه السلام ، ومنهم من خلقه للنار فيستعدُّ للنار برد الدعوة والإنكار والجحود والخذلان ، ويكله إلى الطبيعة النفسانية الحيوانية التي تميل إلى اللهو واللعب والخوض فيما لا يعنيه ، حُكي عن بهلول رحمه الله قال : بينما أنا ذات يوم في بعض شوارع البصرة إذِ الصبيان يلعبون بالجوز واللوز ، وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي ، فقلت : هذا الصبي يتحسر على ما في يد الصبيان ولا شيء معه يلعب به ، فقلت له : أي بني ما يبكيك أشتري لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان ؟ فرفع بصره إليَّ وقال : يا قليل العقل ما للَّعب خلقنا فقلت : أي بني فلما إذاً خلقنا ؟ فقال : للعلم والعبادة ، فقلت من أين لك ذلك بارك الله فيك ؟ قال من قول الله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) ؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ ﴾ أي هو معبود من الملائكة وبه تقوم السماء وليس حالاًّ فيها ﴿ وفي الأَرْضِ إِلَه ﴾ أي فهو معبود أهل الأرض من الإنس والجن وإله الآلهة ، ولا قاضي لحوائج أهل الأرض إلا هو ، وبه تقوم الأرض وليس حالاًّ فيها ، فالظرفان يتعلقان بـ « إلهٌ » لأنه بمعنى المعبود بالحق ، أو متضمن معناه كقوله هو حاتم أي جواد ، لاشتهاره بالجود وكذا فيمن قرأ وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله ، ومنه قوله تعالى في الأنعام (وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ) أي وهو الواجب الوجود المعبود المستحق للعبادة فيهما ﴿ وَهُوَ الحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ كالدليل على ما قبله لأنه المتصف بكمال الحكمة والعلم ، المستحق للألوهية لا غيره ، أي وهو الحكيم في تدبير العالم وأهله ، العليمُ بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد ﴿ وتَبارَكَ ﴾ تعالى عن الولد والشريك وجل عن الزوال والانتقال ، وعمت بركة ذكره وزيادة شكره ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما بَينَهُمَا ﴾ إما على الدوام كالهواء ، أو في بعض الأوقات كالطير والسحاب ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي الساعة التي فيها تقوم القيامة لا يعلمها إلا هو ﴿ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ﴾ الالتفات للتهديد أي تُردُّون للجزآء ، فاهتموا بالاستعداد للقائه ، قال بعض الكبار (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بالاختيار والاضطرار ، فأهل السعادة يرجعون إليه بالاختيار على قدم الشوق

والمحبة والعبودية ، وأهل الشقاوة يرجعون إليه بالاضطرار بالموت ، بالسلاسل والأغلال يسحبون على وجوههم إلى النار ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ ﴾ أي لا يقدر ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي يعبدهم الكفار ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ عند الله كما يزعمون ﴿ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي هو التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين والمعبودين من أوجدهم ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ؟ ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ لتعذر الإنكار لغاية ظهوره لأن الإنسان خلق للمعرفة وطبع عليها ، وبها أكرمه الله تعالى ، فأما الشأن في معرفة الأشياء فقبول دعوتهم والتوفيق لمتابعتهم والتدين بأدبهم ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف يصرفون عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره ، مع اعترافهم بأن الكل مخلوق له تعالى ؟ فهو تعجيب من جحودهم مع ارتكازه في فطرتهم ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ أي عنده علم الساعة وعلم قوله ﷺ ﴿ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي قريش لا يؤمنون بما جئتهم به من الدين ، قرأ عاصم وحمزة بالجر على أنه عطف على الساعة ، أي عنده علم الساعة وعلم قوله عليه السلام شكاية ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعْرِض عن دعوتهم واقنط من إيمانهم ﴿ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ أي أمري تسلُّمٌ منكم ومن دينكم وتبرٌّ ومتاركة ، فليس المأمور به السلام عليهم والتحية ، بل البراءة من أعمالهم الشيطانية كقول إبراهيم عليه السلام (قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغفِر لَكَ) ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر ذلك ، وهو وعيد من الله لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ، فعلى العاقل أن يتدارك حاله قبل خروج الوقت بدخول الموت ونحوه ، ويقبل على قبول الدعوة ففيها الفوزُ والنجاةُ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴾ أي أُقسم بـ « حم » وهي هذه السورة أو مجموع القرآن ﴿ وَالكِتَابِ المُبينِ ﴾ أي البين معانيه لمن أُنزل عليهم ، وهم العرب لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم ، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب المبين الذي هو القرآن وهو جواب القسم ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ هي ليلة القدر ، فإنه تعالى أنزل القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا دفعة واحدة ، ثم كان يُنزله على النبي عليه السلام متفرقاً في ثلاث وعشرين سنة ، والظاهر أن ابتداء تنزيله إلى النبي عليه السلام أيضاً كان في ليلة القدر ، والحكمة في نزوله ليلاً أن الليل زمان المناجاة ومهبط النفحات ومشهد التنزلات ، ومظهر التجليات ومورد الكرامات ، وفي الليل فراغ القلوب بذكر الله ، ووصف الليلة بالبركة لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها ، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة ونحوها ، وإلا فأجزاء الزمان متشابهة بحسب ذواتها وصفاتها فيمتنع أن يتميز بعض أجزائه عن بعض بمزيد القدر والشرف لنفس ذواتها ، وعلى هذا فقِسْ شرف الأمكنة فإنه لعارض في ذاتها ، قال الشيخ صدر الدين : وللأزمنة والأمكنة في محو السيئات وتغليب طرف الحسنات وإمدادها والتكفير والتضعيف مدخل عظيم وفي الحديث (أن الله غفر لأهل عرفات وضمن عنهم التبعات ، وأنه ينزل يوم عرفة إلى السماء الدنيا) وقد وردت أحاديث دالة على فضيلة شهر رمضان وعشر ذي الحجة ، وليلة النصف من شعبان ، وأن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف ، وفي مسجد النبي عليه السلام بألف ، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة ، وكلها دالة على شرف الأزمنة والأمكنة ، وقيل : فضَّل الله الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض لتبادر النفوس وتسارع القلوب إلى احترامها وتتشوق الأرواح إلى احيائها بالتعبد فيها ويرغب الخلق في فضائلها وأما تضاعف الحسنات في بعضها فمن المواهب الربانية **(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)** ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ أي أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتخويف من العقاب ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي يكتب ويفصل كل أمر محكم ومتقن ، من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ، إلا السعادة والشقاوة من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة ، وقيل يبدأ في انتساخ ذلك من اللوح في ليلة البرآءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرائيل ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت ، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق ، وإن الرجل لينكح ويولد له ، ولقد أدرج اسمه في الموتى ، وهو لا يدري ماذا يحدث له .

وفي الحديث القدسي (إن رحمتي سبقت غضبي) وفي هذه الليلة يفصل كل أمر صادر بالحكمة من السماء

في السنة ، من أقسام الحوادث في الخير والشر ، والمحن والمنن ، والنصرة والهزيمة ، والخصب والقحط ﴿ **أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا** ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا﴿ **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن ، لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد ، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم ووضع الرب موضع الضمير للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها أو إضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ يسمع كل شيء من شأنه أن يسمع ويعلم كل شيء من شأنه أن يُعلم ، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم وأحوالهم ، وهو تحقيق لربوبيته تعالى ، وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته الجليلة ﴿ **رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ بدل من ربك ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** ﴾ بشيء فهذا أولى ما توقنون به لفرط ظهوره ، أو إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك ﴿ **لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ إذ لا خالق سواه ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ يوجد الحياة في الجماد ويوجد الموت في الحيوان بقدرته كما يشاهد ذلك ، أي يعلم علماً جلياً يشبه المشاهدة والظاهر أن المشاهدة تتعلق بالأثر فإن المعلوم هو الإحياء والإماتة ، والمشهود هو أثر الحياة في الحي وأثر الممات في الميت ﴿ **رَبُّكُمْ** ﴾ أي هو ربكم وخالقكم ورازقكم ﴿ **وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ وفي التأويلات رب آدم وأولاده ورب الآباء العلوية ، وقيل قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف آدم وأكثر ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ** ﴾ أي مما ذكر من شؤونه تعالى غير موقنين في إقرارهم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما ﴿ **يَلْعَبُونَ** ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جدٍّ وإذعان ، بل مخلوطاً بهزؤ ولعب ، قال بعضهم : وصف أهل الشك والنفاق باللعب وذلك لترددهم وتحيرهم في أمر الدين ، واشتغالهم بالدنيا واغترارهم بزينتها ، وعن الشيخ فتح الموصلي قال : رأيت في البادية غلاماً لم يبلغ الحنث يمشي ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد الجواب ، فقلت له : إلى أين ياغلام ؟ فقال : إلى بيت الله الحرام ، قلت : فماذا تحرك شفتيك ؟ قال بالقرآن ، قلت : فإنه لم يجر عليك قلم التكليف قال : رأيت الموت يأخذ من هو أصغر مني سناً !! فقلت : خطوك قصير وطريقك بعيد ، فقال : إنما عليَّ نقل الخطى وعلى الله الإبلاغ ، فقلت فأين الزاد والراحلة ؟ فقال : زادي يقيني وراحلتي رجلاي ﴿ **فَارْتَقِبْ** ﴾ والمعنى فانتظر يا محمد لكفار مكة ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** ﴾ ظاهر لاشك فيه أو ارتقب وعد الله في ذلك اليوم ، وأطلق الدخان على شدة القحط وغلبة الجوع والمعنى : فانتظر لهم يوم شدة الجائع ، فإنه يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان إما لضعف بصره أو لأن في عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغبار ، ولذا يقال لسنة القحط السنة الغبراء كما قالوا عام الرمادة ، والظاهر أن السنة الغبراء مالا تنبت الأرض فيها شيئاً وكانت الريح إذا هبت ألقت تراباً كالرماد ، أو لأن العرب تسمى إسناد الشيء إلى سببه ، وذلك أن قريشاً لما بالغوا في الأذية له عليه السلام دعا عليهم فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ـ أي عقابك الشديد يعني خذهم أخذاً شديداً ـ

واجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف) وهي السبع الشداد فاستجاب الله دعاءه فأصابتهم سنة أي قحط حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام والعلهز وهو الوبر والدم أي يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً من الجوع ، وكان يحدث الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى ﴿ **يَغْشَى النَّاسَ** ﴾ أي يحيط ذلك الدخان بهم ويشملهم من جميع جوانبهم ﴿ **هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أي قائلين هذا الجوع أو الدخان عذاب أليم ، فمشي إليه عليه السلام أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم ، أي قالوا : نسألك يامحمد بحق الله وبحرمة الرحم أن تستسقي لنا ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا وذلك قوله تعالى ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ** ﴾ أي الجوع أو عذاب الدخان ﴿ **إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴾ بعد رفعه ﴿ **أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى** ﴾ رد لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنبىء عن التذكر والإتعاظ بما اعتراهم من الداهية ، والمراد كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون ويقولون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ ﴿ **وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ** ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الإتعاظ ما هو أعظم منه في إيجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبيَّن لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تحرك صُمّ الجبال ﴿ **ثُمَّ تَوَلَّوْا** ﴾ أعْرَضوا ﴿ **عَنْهُ** ﴾ أي عن ذلك الرسول فيما شاهدوا منه من العظائم الموجبة للإقبال إليه ولم يقتنعوا بالتولي ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ في حقه ﴿ **مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** ﴾ أي قالوا تارة يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف . واسمه عداس ، أو أبو فكهة أو جبر أو يسار ، وأخرى مجنون ، أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا ، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا منه بالعظة والتذكر ؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغا ، وإن شبع طغا ﴿ **إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ** ﴾ أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم بدعاء النبي عليه السلام وإنزال المطر كشفاً ﴿ **قَلِيلاً** ﴾ وهو دليل على كمال خبث سريرتهم فإنهم إذا عادوا إلى الكفر بكشف العذاب كشفاً قليلاً فهم بالكشف رأساً أعود ، أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم ﴿ **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴾ تعودون أثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة ، وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحققها لا محالة ، ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله بدعاء النبي عليه السلام فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من العتو والعناد ، لأن من مقتضى فساد طينتهم واعوجاج طبيعتهم المبادرة إلى خلف الوعد ونقض العهد ، والعود إلى الإشراك إذا زال المانع ، على ما بينه الله تعالى فيمن ركب الفلك إذا أنجاه إلى البر ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى** ﴾ البطش تناول الشيء بعنف وصَوْلَةٍ ، أي يوم القيامة ننتقم ونعاقب العقوبة العظمى ﴿ **إِنَّا مُنْتَقِمُونَ** ﴾ وذلك لأنه تعالى أخذهم بالجوع والدخان ، ثم أذاقهم القتل والأسر يوم بدر ، وكل ذلك من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر فإذا كان يوم القيامة يأخذهم أخذاً شديداً لا يقاس على ما كان في الدنيا ، نسأل الله العصمة من عذابه

وجحيه والتوفيق لما يوصل إلى رضاه ونعيمه ، وقال بعض المفسرين : المراد بالدخان ما هو من أشراط الساعة وهو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة ، فيدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ أي المشوي ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص أي فرجة يخرج منها الدخان ، وفي الحديث أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر أي إلى الشام والقدس ، قال حذيفة رضي الله عنه فما الدخان فتلا الآية فقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره[1] ، وقال حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه (اطَّلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال عليه السلام : ما تذاكرون ، قالوا : نذكر الساعة ، قال عليه السلام : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها آيات ـ أي علامات ـ فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[2] ولابد من ظهور تلك الآيات على حقيقتها على ما أخبر به النبي عليه السلام ، فعلى هذا القول وهو تفسير الدخان بما هو من أشراط الساعة معنى قوله (**رَبَّنا اكْشِفْ عنّا**) إلخ وقوله (**إنّا كاشِفوا العَذابِ**) إلخ أنه إذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وقالوا (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) فيكشف الله عنهم بعد أربعين يوماً فريثما يكشف عنهم يرتدون ولا يتمهلون ، وظهور علامات القيامة لا يوجب انقطاع التكليف ولا يقدح في صحة الإيمان ولا يجب أيضاً لزومها وعدم انكشافها ، وقال بعض أهل التفسير المراد بالدخان ما يكون في القيامة إذا خرجوا في قبورهم ، فيحتمل أن يراد به معناه الحقيقي وما يستلزمه ، فإنه لشدة أهوال القيامة تظلم العين بحيث لا يرى الإنسان فيها إنما توجه الأبصار والظلمة مستولية عليه كأنه مملوء دخاناً ، فعلى هذا يبنى الكلام على الفرض والتقدير ، ومعناه أنهم يقولون ربنا اكشف عنا العذاب أي اردنا إلى الدنيا نعمل صالحاً فيقول الله انا كاشفوا العذاب يعني ان كشفنا ورددناكم إليها تعودوا إلى ما كنتم عليه من الكفر والتكذيب كما قال تعالى (**ولو رُدّوا لَعادوا لِما نُهوا عَنْهُ**) والتفسير الأول من هذه التفاسير الثلاثة هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ** ﴾ ولقد امتحنا قبل كفار مكة ﴿ **قَوْمَ فِرْعَوْنَ** ﴾ أي القبط ، أي فعلنا بهم فعل الممتحن بإرسال موسى عليه السلام إليهم ، ليؤمنوا ويظهر منهم ما كان مستوراً فاختاروا الكفر على الإيمان أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿ **وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** ﴾ على الله تعالى وهو موسى

(١) رواه الطبراني بنحوه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٣٠٠ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٠٥ .

عليه السلام ، بمعنى أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام أو كريم على المؤمنين ، أو في نفسه لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من كان أفضل نسباً وأشرف حسباً ، على أن الكرم بمعنى الخصلة المحمودة ، وقال بعضهم : لمكالمته مع الله واستماع كلامه من غير واسطة ، وفي الآية إشارة إلى أنه تعالى جعل فرعون وقومه فيما فتنهم عظة لأمة محمد عليه السلام ، لتعتبر هذه الأمة بهم فلا يُصِرُّوا على جحودهم كما أصروا ، ويرجعوا إلى طريق الرشد ويقبلوا دعوة نبيهم ، ويؤمنوا بما جاء به لئلا يصيبهم ما أصابهم بعد أن جاءهم رسول كريم ﴿ **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ** ﴾ أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل وسلموهم وأرسلوهم معي لأذهب بهم إلى موطن آبائهم الشام ولا تستعبدوهم ولا تعذبوهم ، أي جئتكم من الله لطلب تأدية عباد الله إلي فتكون التأدية بعد الإيمان ، كما قالوا في آية أخرى (**لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**) ونظيره قول نوح عليه السلام لابنه (**يابُنَيَّ ارْكبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مَعَ الكافِرِينَ**) أي آمن واركب فإن الراكب إنما هو المؤمنُ والركوب متفرع على الإيمان ، وقال بعضهم : (عباد الله) منصوب بحرف النداء المحذوف أي بأن أدوا إلي ياعباد الله ، من الإيمان وقبول الدعوة ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ على وحيه ورسالته صادق في دعواه بالمعجزات ، وفيه إشارة إلى أن بني إسرائيل كانوا أمانة الله في أيدي فرعون وقومه ، يلزم تأديتهم إلى موسى لكونه أميناً ، فخانوا تلك الأمانة حتى آخذهم الله على ذلك ﴿ **وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللهِ** ﴾ أي وبأن لا تتكبروا عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله واستخفاف عباده وإهانتهم ﴿ **إِنِّي آتِيكُمْ** ﴾ أي من جهته تعالى ﴿ **بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ أي آتيكم بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها يعني المعجزات ﴿ **وإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ** ﴾ أي إلتجأت إليه وتوكلت عليه ﴿ **أَنْ تَرْجُمُونِ** ﴾ من أن ترجموني فهو العاصم من شرِّكم ، يعني الرمي بالرجام بالكسر وهي الحجارة ، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً بأن تقولوا هو ساحر ونحوه أو تقتلوني ، قيل لما قال (وأن لا تعلوا على الله) توعدوه بالقتل ﴿ **وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لي فَاعْتَزِلونِ** ﴾ الإيمان يتعدى باللام باعتبار معنى الإذعان والقبول ، والباء باعتبار معنى الاعتراف ، وحقيقة آمن به أمن المخبر من التكذيب والمخالفة ، والمعنى وإن كابرتم مقتضى العقل ولم تصدقوني فكونوا بمعزل مني لا عليَّ ولا لي ، ولا تتعرضوا لي بشرٍّ ولا أذى لا باليد ولا باللسان ، فليس ذلك من جزآء من يدعوكم إلى ما فيه فلا حكم ، فالاعتزال كناية عن الترك ولا يراد به الاعتزال بالأبدان ، قال القاضي عبد الجبار من متأخري المعتزلة : كل موضع جاء فيه لفظ الاعتزال في القرآن فالمراد منه الاعتزال عن الباطل وبهذا صار اسم الاعتزال اسم مدح وهو منقوض بقوله تعالى (**فإنْ لَمْ تُؤْمِنوا لي فاعْتَزِلونِ**) فإن المراد بالاعتزال هنا العزلة عن الإيمان التي هي الكفر لا العزلة عن الكفر والباطل .

أخبر الله بهذه الآية أن المفارقة من الأضداد واجبة ، فينبغي للمرء أن يعتزل عن الباطل أياً كان لا

عن الحق ﴿ فَدَعَا ﴾ موسى ﴿ رَبَّه ﴾ بعدما كذبوه ﴿ أَنَّ هَؤُلاَءِ ﴾ أي بأن هؤلاء القبط ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ مصرّون على كفرهم ومتابعة هواهم ، وأنت أعلم بهم فافعل بهم ما يستحقونه ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ الإسراء السير ليلاً ، والمعنى فأجاب الله دعائه وقال له : أَسْرِ ياموسى ببني إسرائيل من مصر ليلاً على غفلة من العدو ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده بعد أن علموا بخروجكم ليلاً ليقتلكم ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ ﴾ أي بحر القلزم وهو الأظهر الأشهر أو النيل حال كونه ﴿ رَهْواً ﴾ أي ذا رهو أو راهياً مفتوحاً على حاله منفرجاً ، ولا تخف أن يتبعك فرعون وقومه ، أو ساكناً على هيئته بعدما جاوزته ولا تضربه بعصاك لينطبق ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ والغرق الرسوب في الماء والتسفل فيه ، لما كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره وأشجار بساتينه ، جاء الجزاء من جنس العمل ، ولذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يسير إلى جانب البحر دون البر وإلا فالله سبحانه قادر على إهلاك العدو في البر أيضاً بسبب من الأسباب كما فعل بأكثر الكفار ممن كانوا قبل القبط ﴿ كَمْ تَرَكُوا ﴾ أي كثيراً تركوا في مصر ﴿ مِنْ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين كثيرة الأشجار وكانت متصلة من رشيد إلى أسوان ، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً ، والمعنى فعل ما أمر به بأن ترك البحر رهواً فدخله فرعون وقومه فأُغرقوا ، وتركوا بساتين كثيرة ﴿ وَعُيونٍ ﴾ نابعة بالماء ، ولعل المراد الأنهار الجارية المتشعبة من النيل إذ ليس في مصر آبار وعيون ﴿ وزُرُوعٍ ﴾ جمع زرع وهو ما استنبت بالبذر أي وفنون الأقوات وألوان الأطعمة فإنهم كانوا أهل ريف وخصب خلاف حال العرب ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافل مزينة ومنازل محسنة ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أي تنعم ونضارة عيش ، يقال « كم ذي نِعمة لا نعمة له » أي كم ذي مال لا تنعم له ، فالنِّعْمةُ بالكسر ما أنعم به عليك ، والنَّعْمة بالفتح التنعم وهو استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكولات والملبوسات ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ متنعمين متلذذين ومنه الفاكهة وهي ما يتفكه به أي يتنعم ويتلذذ بأكله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ، أي جعلنا أموال القبط لقوم ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنوا إسرائيل كانوا مسخرين لهم مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله وأورثهم ديارهم وملكهم وأموالهم ، وقيل : غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر ، قال قتادة : لم يُرْوَ في مشهور التواريخ أنهم رجعوا إلى مصر ولا ملكوها قط ، وردَّ أنه لا اعتبار بالتواريخ فالكذب فيها كثير والله تعالى أصدق قيلاً وقد جاء في الشعراء التنصيص بإيراثها بني إسرائيل ، قال المفسرون عند قوله تعالى (عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ) أي يجعلكم خلفاء في أرض مصر أو في الأرض المقدسة وقالوا في قوله تعالى (وَأَوْرثْنا القوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفونَ مشارِقَ الأَرْضِ وَمغَارِبَهَا) أي أرض الشام

و « مشارقها ومغاربها » جهاتها الشرقية والغربية ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة بعد انقضاء مدة التيه وتمكنوا في نواحيها فاضطرب كلامهم فتارة حملوا الأرض على أرض مصر وأخرى على أرض الشام والظاهر الثاني لأن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا أولادهم ، ومصر إنما ورثها أولادهم لأنها فتحت في زمان داود عليه السلام ، ويمكن أن يحمل على أرض الشام ومصر جميعاً والمراد بالمستضعفين هم وأولادهم فإن الأبناء ينسب إليهم ما ينسب إلى الآباء والله أعلم .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ كانت العرب إذا مات فيهم من له خطر وقدر عظيم يقولون بكت عليه السماء والأرض ، يعني أن المصيبة بموته عمّت الخلق ، فبكى له الكل حتى الأرض والسماء، فإذا قالوا ما بكت عليه السماء والأرض ، يعنون به ما ظهر بعده ما يظهر بعد ذوي الأقدار والشرف ، ففيه تهكم الكفار وبجالهم لمنافاته لحال من يعظم فقده ، فيقال له بكت عليه السماء والأرض ، وقال بعضهم: هو على حقيقته ويؤيده ما روي أنه عليه السلام قال : (ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا (**فما بكت**)[1]، وفي الحديث (أن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاّه وموضع عبادته ومن السماء مصعد عمله)[2] وروي أنه إذا مات كافر استراح منه أهل السماء والأرض والبلاد والعباد ، فلا تبكي عليه أرض ولا سماء ، قال بعضهم : لا تبكي السموات والأرض على العصاة وأهل الضلالة والأنانية ، فكيف تبكي السماء على من لم يصعد إليها منه طاعة ؟ وكيف تبكي الأرض على من عصى الله عليها ؟ بل يبكيان على المطيعين ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿ مُنْظَرِينَ ﴾ ممهلين أى وقت آخر أو إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا ، أما الأول : فلأن العمر الإنساني عبارة عن الأنفاس فإذا نفدت لم يبق للتأخير مجال ، وأما الثاني : فإنهم مستحقون لنكال الدنيا والآخرة ، أما نكال الدنيا فلاشتغالهم بظواهرهم بأذية الداعي مستعجلين فيها ، وأما نكال الآخرة فلمحاربتهم مع الله ببواطنهم بالتكذيب والإنكار ، وهذا بخلاف حال عصاة المؤمنين فإنهم إذا فعلوا ذنباً من الذنوب يُنظرون ليتوبوا فلا يكتب في صحائف أعمالهم ، ولا يؤاخذون به عاجلاً ، لأن الله يعفو عن كثير ويجعل بعض المصائب كفارة الذنوب ، فلا يؤاخذ آجلاً أيضاً فلهم الرحمة الواسعة والحمد لله تعالى ولكن ينبغي للمؤمن أن يعتبر بأحوال الأمم فيطيع الله تعالى في جميع الأحوال ، ويجتهد في إحياء الدين لا في إصلاح الطين ، ومن الله العون ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي خلصنا أولاد يعقوب بإغراق القبط في اليم ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ يعني استعباد فرعون إياهم وقتل أبنائهم واستخدام نسائهم وبناتهم

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير برقم / ٣٢٥٢ / والسيوطي في الدر المنثور ٦ / ٣٠ وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٥١ .

(٢) أخرجه البيهقي عن ابن عباس موقوفاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٠ .

وتكليفه إياهم الأعمال الشاقة ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ أي من عذاب فرعون أو واقعاً من جهته ، واصلاً من جانبه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عالياً ﴾ متكبراً ﴿ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي من الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان ، وتجاوزوا الحد في الكفر والعصيان ، فكان أكفر الكفار وأطغاهم ، وهو أبلغ من أن يقال « مسرفاً » لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه في جملتهم ، وفيه ذم لفرعون ولمن كان مثله في العلو والإسراف كنمرود وغيره ، وبيان أن من آذى المؤمن أهلكه الله وأذله ومن يهن الله فما له مكرم ، وأن النجاة من أيدي الأعداء من نعم الله الجليلة على الأحباب ، فإن من نكد الدنيا ومصائبها على الحر أن يكون مغلوباً للأعداء ، وأن يرى عدواً له ما من صداقته بد ، وأن الله إذا أراد للمرء ترقياً في دينه ودنياه يقدم له البلايا ثم ينجيه ، ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أي فضلنا بني إسرائيل ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار ، اخترناهم على علم منا بجناياتهم وما يقترفون من أنواع المخالفات ، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم ، ليعلموا أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات ، ومن هذا القبيل أولاد يعقوب عليه السلام فإنهم مع ما فعلوا بيوسف من إلقائه في الجب ونحوه اختارهم الله للنبوة على قول ، ويجوز أن يكون المعنى لعلمهم وفضلهم ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ على عالمي زمانهم ، والحق أن هذه الأمة المحمدية خير من جميع الأمم من كل وجه ، فإن خيرية الأمم إن كانت باعتبار معجزات أنبيائهم ، فالله تعالى قد أعطى لنبينا عليه السلام جميع ما أعطاه للأولين ، وإن كانت باعتبار كثرة الأنبياء في وقت واحد فعلماؤنا الذين هم كأنبياء بني اسرائيل أكثر وأزيد ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآيَاتِ ﴾ كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التي لم يعهد مثلها في غيرهم ﴿ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ نعمة جليلة أو اختيار ظاهر لينظر كيف يعملون ، وفي كشف الأسرار : ابتلاهم بالرخاء والبلاء فطالبهم بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء والله الموفق لما يحب ويرضى من الأعمال ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ ﴾ أي كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة ، والتحذير من حلول ما حلَّ بهم من العذاب ﴿ لَيَقُولُونَ . إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى ﴾ لما أخبروا بأن عاقبة حياتهم ونهايتها أمران : الموت ، ثم البعث ، أنكروا ذلك بحصر نهاية الأمر في الموتة الأولى ، أي ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا بعث بعدها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ بمبعوثين بعد الموت ، من أنشر الله الموتى إذا بعثهم ، وغرضهم من هذا القول المبالغة في إنكار حشر الموتى ونشرهم من القبور ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ الخطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ، يعني إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليظهر صدق وعدكم ، وقيل : كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه ويسألوه عن أحوال الموت ، وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات والملمات ، وفي الآية إشارة إلى أن من غلب عليه الحس

لا يؤمن إلا بما يريه بصر الحس ، ولهذا أنكروا البعث والنشور إذ لم يكن يشاهده نظر حسهم وقالوا فائتوا بآبائنا أي أحيوهم حتى نراهم بنظر الحس ، ونستخبر منهم أحوالهم بعد الموت (إن كنتم صادقين) فيما تدعون من البعث ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ** ﴾ رد لقولهم وتهديد لهم ، أي كفار قريش خير في القوة والشوكة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك ﴿ **أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ** ﴾ المراد بتبع هنا واحد من ملوك اليمن معروف عند قريش ، وخصه بالذكر لقرب الدار ﴿ **وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي قبل قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد أولي بأس شديد ، والاستفهام لتقرير أن أولئك أقوى من هولاء ﴿ **أَهْلَكْنَاهُمْ** ﴾ أي قوم تبع والذين من قبلهم ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ كاملين في الإجرام والآثام مستحقين للهلاك وهو تعليل لإهلاكهم ، ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا في غاية القوة والشدة ، فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاء لهم في الإجرام وأضعف منهم في الشدة والقوة أَوْلى .

اعلم أن تُبَّعاً كسكر واحد التبابعة ملوك اليمن ، ولا يسمى به إلا إذا كانت له حِميَرْ وحضرموت وحِميرْ كدرهم موضع غربي صنعاء اليمن ، والحميرية لغة من اللغات الأثنتى عشرة وواحد من الأقيال الاثنى عشر وهو في الأصل أبو قبيلة من اليمن ، وهو حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وحضر موت وهو بضم الميم بلد وقبيلة كما في القاموس ، وتبع في الجاهلية بمنزلة الخليفة في الإسلام ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أي ما بين الجنسين ﴿ **لاَعِبِينَ** ﴾ من غير أن يكون في خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة ﴿ **مَا خَلَقْنَاهُمَا** ﴾ وما بينهما ملتبساً بشيء من الأشياء ﴿ **إِلاَّ** ﴾ ملتبساً ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ** ﴾ أي كفار مكة بسبب الغفلة وعدم الفكرة ﴿ **لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أن الأمْرَ كذلك فينكرون البعث والجزاء ، والآية دليل على ثبوت الحشر ، فإنه لو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق عبثاً ، لأنه تعالى خلقهم وما ينتظم به أسباب معايشهم ، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ليتميز المطيع من العاصي بأن يكون الأول متعلق فضله وإحسانه ، والثاني متعلق عدله وعقابه ، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها وعدم الاعتداد بمنافعها لكونها مشوبة بأنواع المضار والمحن ، فلابد من البعث والجزاء لتوفى كل نفس ما عملت ، فالجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها إذ لو لم يكن الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال المؤمن والكافر وهو محال .

حكي أن رجلاً رأى خنفساء فقال ماذا يريد الله من خلق هذه ؟ أَحُسْنُ شكلها أم طيب ريحها ؟ فابتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء حتى ترك علاجها ، فسمع يوماً صوت طبيب من الطرقيين ينادي في الدرب فقال هاتوه حتى ينظر في أمري ، فقالوا : ما تصنع بطرقي وقد عجز عنك حذاق الأطباء ؟ فقال : لا بد

لي منه فلما أحضروه ورأى القرحة استدعى بخنفساء فضحك الحاضرون ، فتذكر العليل القول الذي سبق منه فقال : احضروا ما طلب فإن الرجل على بصيرة فأحرقها ووضع رمادها على قرحته فبرئت بإذن الله تعالى ، فقال للحاضرين : إن الله تعالى أراد أن يعرفني أن أخس المخلوقات أعز الأدوية ، ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ** ﴾ أي يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ويميز المحق من المبطل ويقضى بين الخلائق بين الأب والابن والزوج والزوجة ونحو ذلك ، قال بعضهم : يوم الفصل يوم يفصل فيه بين كل عامل وعمله ويطلب بإخلاص ذلك وبصحته ، فمن صحّتْ نيته وأعماله قبل منه وجزى عليه ، ومن لم تصح له أعماله كانت أعماله عليه حسرة ﴿ **مِيقَاتُهُم** ﴾ أي وقت موعد الخلائق ﴿ **أَجْمَعِينَ . يَوْمَ لاَ يُغْنِي** ﴾ بدل من يوم الفصل ﴿ **مَوْلًى** ﴾ ولي من قرابة وغيرها ﴿ **عَنْ مَوْلًى** ﴾ أيَّ مَوْلِيّ ﴿ **شَيْئًا** ﴾ أي شيئاً من الإغناء والإجزاء وتنكيره للتقليل ، وتنكير مولى في الموضعين للإبهام فإن المولى مشترك بين معان كثيرة يطلق على « المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر » وكل من ولي أمر واحد فهو وليه ومولاه فواحد من هؤلاء أي واحد كان لا يغنى عن مولاه أي مولى كان شيئاً من الإغناء ، وإذا لم ينفع بعض الموالي بعضاً ولم يغن عنه شيئاً من العذاب بشفاعته كان عدم حصول ذلك ممن سواهم أولى ، وهذا في حق الكفار ﴿ **وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ** ﴾ أي لا يمنعون بما نزل بهم من العذاب ولا يملكون أن يشفع لهم غيرهم ﴿ **إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ** ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة في حقه وهم المؤمنون ﴿ **إِنَّه هُوَ العَزِيزُ** ﴾ الذي لا ينصر من أراد تعذيبه كالكفار ﴿ **الرَّحِيمُ** ﴾ لمن أراد أن يرحمه كالمؤمنين وفي الآية إشارة إلى أن يوم القيامة يفصل بين أرباب الصفاء وأصحاب الصدأ ، ولا يغني مولي عن مولي ولا ناصر عن ناصر ، ولا حميم عن حميم ، ولا نسيب عن نسيب ، ولا شيخ عن مريد شيئاً من الصفاء ، إذ لم يحصلوا ههنا في دار العمل ولا ينصرون في تحصيل الصفاء ودفع الصدأ إلا من رحمهم الله عليه بتوفيق تصفية القلب في الدنيا كما قال تعالى (**إلّا من أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**) إنه هو العزيز يعز من يشاء بصفاء القلب الرحيم يرحم من يشاء . **حكي** أنه كان اخوان فمات أحدهما فرآه الآخر في المنام وسأله عن حاله ، فقال : ياأخي من كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى ، فكان هذا سبب توبته وإنابته حتى كان من الصلحاء الكاملين ، واعلم أن المقصود من العلم والعمل تزكية النفس ، فإذا حصلت هذه التزكية كان ثواب العمل الصالح كاللباس الفاخر على البدن الحسن الناضر ، وإذا لم تحصل كان كالزينة على الجسم القبيح فمن حسن ذاته في الدنيا بإزالة قبح نفسه جاء في القيامة حسناً بالحسن الذاتي والعارضي وإلا فبالحسن العارضي فقط وهو ثواب العمل ، فاعرف هذا فلابد من الاجتهاد والوقت باق ﴿ **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ** ﴾ قال في القاموس هي شجرة بجهنم وطعام أهل النار ، وفي عين المعاني : شجرة في أسفل النار مرتفعة إلى

أعلاها وإلا فتكون هي في الأسفل ، نظير طوبى في الأعلى ، وفي كشف الأسرار : شجرة الزقوم على صورة شجر الدنيا لكنها من النار ، والزقوم ثمرها وهو ما أكل بكره شديد ، وقيل : كل طعام ثقيل فهو زقوم ، واللَّفظ وارد على سبيل التهكم ، كالتبشير في قوله (**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) لأنه تعالى وصف شجرة الزقوم بأنها تخرج في أصل الجحيم كما مر في الصافات ﴿ **طَعَامُ الأَثِيمِ** ﴾ أي الكثير الإثم والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه ﴿ **كَالْمُهْلِ** ﴾ أي هو كالمهل أي كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه ، وشبه بالمهل في كونه غليظاً أسود ، وقال بعضهم : المهل ما يمهل في النار حتى يذوب كالحديد والرصاص والصفر ونحوها وشبه الطعام بالنحاس والصفر المذاب في الذوب ونهاية الحرارة ، لا في الغليان ﴿ **يَغْلِي فِي الْبُطُونِ** ﴾ أي حال كون ذلك الطعام يغلي في بطون الكفار ﴿ **كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** ﴾ غلياناً كغليان الماء الحار الذي انتهى حره وغليانه لشدة حرارته وكراهية المعدة إياه ، وفي الحديث (أيها الناس اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض ، لأَمَرَّتْ على أهل الدنيا معيشتهم ، فكيف بمن هو طعامه)[1] ؟ والغلي والغليان التحرك والارتفاع ، قال في المفردات : الغلي والغليان يقال في القدر إذا طفحت أي امتلأت وارتفعت ، ومنه استعير ما في الآية وبه شبه غليان الغضب والحرب ، وفي الآية إشارة إلى أن الأثيم وهو الذي عبد صنم الهوى وغرس شجرة الحرص فأثمرت الشهوات النفسانية اللذيذة على مذاق النفس في الدنيا يكون طعامه في الآخرة الزقوم الذي مرَّ وصفه ، ﴿ **خُذُوهُ** ﴾ على إرادة القول والخطاب للزبانية يوم القيامة : خذوا الأثيم فلا يأخذونه إلا بالنواصي والأقدام ﴿ **فَاعْتِلُوهُ** ﴾ أي جروه بالعنف والقهر ، فإن العتل الأخذ بمجامع الثوب ونحوه وجره بقهر وعنف ، قال في تاج المصادر : العتل الشدُّ بعنف ، وفي القاموس : عَتَله يعتله فانعتل جره عنيفاً فحمله وهو معتل كمنبر قوي على ذلك ﴿ **إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ** ﴾ أي وسطها ومعظمها الذي تستوي المسافة إليه من جميع جوانبه ﴿ **ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** ﴾ صب الماء أراقته من أعلى ، والعذابُ ليس بمصبوب لأنه ليس من الأجسام المائعة ، فكأنَّ الأصل يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، فقيل يصب من فوق رؤوسهم العذاب وهو الحميم للمبالغة ، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيد « مِنْ » للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ **ذُقْ** ﴾ هذا العذاب المذل المهين ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ** ﴾ في نظرك ﴿ **الْكَرِيمُ** ﴾ عند قومك أي وقولوا له ذلك استهزآء به وتقريعاً له ، على ما كان يزعمه من أنه عزيز كريم فمعناه الذليل المهان . رُوي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني ، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً ، فوردت الآية وعيداً له ولأمثاله ، عجباً كيف أقسم بالله تعظيماً له ثم نفى الاستطاعة عنه مع

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب صفة جهنم وقال : حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٦ .

أن الرسول عليه السلام كان لا يدعو رباً سواه ، فالكلام المذكور من حيرة الكفر وحكم الجهل وتعصب النفس كما قالوا « أمطر علينا حجارة من السماء » وفي لفظ الذوق إشارة إلى أنه كان معذباً في الدنيا ولكن لما كان في نوم الغفلة ، وكثافة الحجاب لم يكن ليذوق ألم العذاب ، فلما مات انتبه وذاق ألم ما ظلم به نفسه ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا** ﴾ العذاب ﴿ **مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ** ﴾ تشكُّون في الدنيا أو تمارون فيه أي تجادلون بالباطل ، والجمع باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم ، ثم هذا الامتراء إنما كان بوساوس الشيطان وهواجس النفس فلابد من دفعها والإتصاف بصفة القلب وهو اليقين ، ومن ذلك إنكار بعض أحكامه وأوامره ، وكذا الإصرار على المعاصي بحيث لا يبالي بها ، فلو ترك الصلاة متعمداً ولم ينو القضاء ولم يخف عقاب الله ، فإنه يكفر لأن الأمن كفر ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أي عن الكفر والمعاصي وهم المؤمنون المطيعون ﴿ **فِي مَقَامٍ** ﴾ في موضع قيام والمراد المكان على الإطلاق ، فإنه من الخاص الذي شاع استعماله في معنى العموم ، يعني أنه عام ومستعمل في جميع الأمكنة حتى قيل لموضع القعود مقام وإن لم يقم فيه أصلاً ﴿ **أَمِينٍ** ﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه ، على أن وصف المقام بالأمن من المجاز في الإسناد كما في قولهم جرى النهر ، فالأمن ضد الخوف والأمين بمعنى ذي الأمن ، وأشار الزمخشري إلى وجه آخر وهو أن الأمين من الأمانة التي هي ضد الخيانة ، وهي في الحقيقة صفة صاحب المكان لكن وصف به المكان بطريق الاستعارة التخييلية ، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله بما يلقى فيه من المكاره أو كناية لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل فقد أثبت له ، كقولهم : المجدُ بين ثوبيه ، والكرم بين برديه .

﴿ **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ بدل من مقام جيء به دلالة على نزاهته ، واشتماله على طيبات المآكل والمشارب ، والمراد بالعيون الأنهار الجارية والتنكير فيهما للتعظيم ﴿ **يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** ﴾ السندس : مارقَّ من الحرير يجري مجري الشعار لهم ، وهو الليِّنُ من الدثار في المعتاد ، والاستبرق ما غلظ منه وصفق نسجه يجري مجرى الدثار ، وهو أرفع نوع من أنواع الحرير ، والحرير نوعان نوع كلما كان أرق كان أنفس ، ونوع كلما كان أرزن بكثرة الأبريسم كان أنفس ، أقول : يحتمل عندي أن يكون السندس لباس المقربين ، والاستبرق لباس الأبرار يدل عليه أن شراب المقربين هو التسنيم الخالص ، وشراب الأبرار هو الرحيق الممزوج به ، ثم إن الاستبرق من كلام العجم المعرّب وجاز وقوع اللفظ العجمي في القرآن العربي لأنه إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً إذا كان متصرفاً تصرف اللفظ العربي من غير فرق فمن قال القرآن أعجمي يكفر لأنه معارضة لقوله تعالى (**قُرْآنا عَرَبِيّاً**) وإذا قال : فيه كلمة أعجمية ، ففي أمره نظر ، لأنه إن أراد وقوع الأعجمي فيه بتعريب فصحيح ، وإن قال بلا تعريب فغلط ﴿ **مُتَقَابِلِينَ** ﴾ أي حال كونهم متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ، ومعنى متقابلين متواجهين لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسِرَّة بهم ، فهو أتم للأنس ، وقال بعضهم : متقابلين بالمحبة غير متدابرين بالبغض والحسد ، لأن الله

ينزع من صدورهم الغل وقت دخولهم الجنة ﴿ كَذٰلِكَ ﴾ أي الأمر كذلك أو أثبناهم إثابة مثل ذلك ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرناهم بهن فيتمتعون تارة بمؤانسة الإخوان ومقابلتهم ، وتارة بملاعبة النسوان من الحور العين ومزاوجتهن ، وقال في المفردات : لم يجيء في القرآن (زوجناهم حوراً) كما يقال زوجته بامرأة ، تنبيهاً على أن ذلك لم يكن على حسب التعارف فيما بيننا من المناكح ، قيل : ثم لا يكون العقد في الجنة لأن فائدته الحل ، والجنة ليست بدار كلفة من تحريم أو تحليل انتهى ، ثم الحور جمع الحوراء وهي البيضاء ، والعِينُ جمع العيناء وهي العظيمة العينين ، فالحور هي النساء النقيات البياض يحار فيهن الطرف لبياضهن وصفاء لونهن ، واسعات الأعين حسانها ، والشديدات بياض الأعين الشديدات سوادها وترق جفونها ويبيض ما حواليها ، أو شدة بياضها وسوادها في شدة بياض الجسد أو إسوداد العين كلها مثل الظباء ، ولا يكون في بني آدم بل يستعار لهم ، واختلف في أنهن نساء الدنيا أو غيرهن ، فقال الحسن : أنهن من نساء الدنيا ينشئهن الله خلقاً آخر ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إنهن لسن من نساء الدنيا ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه ، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان وذلك لا يجتمع في الدنيا ، يعني أن فواكه الدنيا لا توجد في كل مكان ، ولها أزمنة مخصوصة لا تستقدمها ولا تستأخرها ﴿ آمِنِينَ ﴾ أي حال كونهم آمنين من كل ما يسوؤهم أياً كان خصوصاً الزوال والانقطاع ، وتولد الضرر من الإكثار ، وحجاب القلب ، لا كما يكون في الدنيا ، فيكونون في الصورة مشغولين بالحور العين وبما يشتهون من النعيم ، وبالقلوب متوجهين إلى الله تعالى ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنات ﴿ الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوتَةَ الأُولىٰ ﴾ لا يذوقون فيها شيئاً من الموت يعني أقل ما ينطلق عليه اسم الموت أي لا يذوقون الموت في الجنة ، لكن الموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخول الجنة ، فعيشتهم المرضية مقارنة للحياة الأبدية بخلاف أهل النار فإنه لا عيشة لهم وكذا لا يموتون فيها ولا يحيون ، ويقال ليس في الجنة عشرة أشياء : ليس فيها هرم ، ولا نوم ، ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا حر ولا برد ولا خروج ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن المراد بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق كأنه قيل : لا يذوقون فيها الموتة إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل وذوق الماضي غير ممكن في المستقبل لاسيما في الجنة التي هي دار الحياة ، فهذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى (ولا تَنْكِحوا ما نَكحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلاّ ما قَدْ سَلفَ) والمقصود إنهم لا يذوقون فيها الموت البتة ، وكذا لا ينكحون منكوحات آبائهم قطعاً ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره أي حفظهم من النار وصرفها عنهم ﴿ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي أعطي المتقون ما ذكر من نعيم الجنة ، والنجاة من عذاب الجحيم ، عطاءً وتفضلاً منه تعالى لا جزاء للأعمال المعلولة ، واحتج أهل السنة بهذه الآية على أن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص من النار ، والفوز بالجنة ونعيمها فإنما

يحصل بفضل الله وإحسانه ، وأنه لا يجب عليه شيء من ذلك ، ففي إثبات الفضل نفي الاستحقاق فجميع الكرامات فضل منه على المتقين حيث اختارهم بها في الأول ، وأخرجها من علل الاكتساب فإن الاكتساب أيضاً فضل إذ لو لم يخلق القدرة على كسب الكمالات وتحصيل الكرامات لما وجد العبد إليه سبيلاً ، وفي الحديث (لا يُدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة الله)(١) أي ولا أنا أدخل الجنة بعمل إلا برحمة الله ، وليس المراد به توهين أمر العمل ، بل نفي الاغترار به وبيان أنه إنما يتم بفضل الله قال ابن الملك في الحديث دلالة على مذهب أهل السنة وحجة على المعتزلة حيث اعتقدوا أن دخولها إنما يحصل بالعمل وأما قوله تعالى (**ادخُلوا الجَنَّةَ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) ونظائره فلا ينافي الحديث لأن الآية تدل على سببية العمل ، والمنفي في الحديث عليته وإيجابه انتهى ، قيل : الدخول برحمة الله ، وقسمة الدرجات بالأعمال ، والخلود بالنيات ، فهذه ثلاثة مقامات وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله وطبقات عذابها بالأعمال وخلودها بالنيات ، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد المخالفة كما كانت في السعادة الموافقة ، وكذلك من دخل من العاصين النار لولا المخالفة لما عذبهم الله شرعاً ، نسأل الله لنا وللمسلمين أن يستعملنا بصالح الأعمال ويرزقنا الحياء منه تعالى ﴿ **ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ الذي لا فوز وراءه ، إذ هو خالص من جميع المكاره ونيل لكل المطالب ، والفوز الظفر مع حصول السلامة كما في المفردات ، يقول الفقير : لما كان الموت وسيلة لهذا الفوز وباباً له ورد « الموت تحفة المؤمن » والموت وإن كان من وجه هلكاً فمن وجه فوز ، ولذلك قيل ما أحد إلا والموت خير له أما المؤمن فإنما كان الموت خيراً له لأنه يتخلص به من السجن ويصل إلى النعيم المقيم في روضات الجنات وأما العاصي فلأن الإمهال في الدنيا سبب لازدياد المعاصي والإثم كما قال تعالى (**إنما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادوا إثْماً**) وهو سبب لإزدياد العذاب ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ** ﴾ إنما سهلنا الكتاب المبين حيث أنزلناه بلغتك ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ كي يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه وإذا لم يفعلوا ذلك ﴿ **فَارْتَقِبْ** ﴾ فانتظر لما يحل بهم من المقادير فإن في رؤيتها عبرة للعارفين وموعظة للمتقين ﴿ **إِنَّهُمْ مُرْتَقِبونَ** ﴾ منتظرون لما يحل بك من الدوائر ، ولم يضرك ذلك فعن قريب يتحقق أملك وتخيب آمالهم ، أو فارتقب الثواب فإنهم المرتقبون العقاب لأن المسيء ينتظر عاقبة الإساءة ، وفي الآية فوائد: منها أنه تعالى بيَّن تيسير القرآن ، والتيسير ضد التعسير وقد قال في آية أخرى (**إنّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقيلاً**) فبينهما تعارض ، والجواب هو ميسر باللسان ، وثقيل من حيث اشتماله على التكاليف الشاقة على المكلفين ، ولا شك أن التلاوة باللسان أخف من العمل ، ولهذا جاء في بعض اللطائف أنه مرض ابن لبعض الأثرياء فقيل له :اذبح قرباناً لعل الله يشفي ولدك ، فقال بل أقرأ قرآناً ،

---

(١) الحديث ذكره بالمعنى ولفظه (لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنَّة ، قالوا : ولا أنت ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ) أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر جامع الأصول ١ / ٣٠٧ .

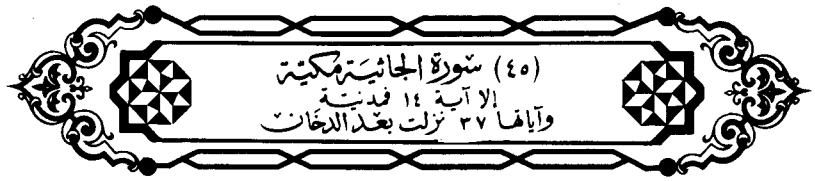
فقال بعض أهل العرفان : إنما اختار القرآن لأنه في لسانه ، وأعرض عن القربان لكونه في جنانه ، لأن حب المال مركوز في القلب ، ففي إخراجه منه صعوبة ، ومنها أنه تعالى قال « بلسانك » فأشار إلى أنه لو أسمعهم كلامه بغير الواسطة لماتوا جميعاً لعدم تحملهم ، قال جعفر الصادق رضي الله عنه : لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن ، وأنى لهم ذلك وهو كلام من لم يزل ولا يزال ؟ وقال ابن عطاء : يُسِّرَ ذكره على لسان من شاء من عباده فلا يفتر عن ذكره بحال ، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده فلا يستطيع بحال أن يذكره ، ومنها أن بعض المعتزلة استدل بقوله (**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**) على أنه أراد من الكل الإيمان ولم يرد من أحد الكفر ، وأجيب أن يكون قوله « لعلهم يتذكرون » علة بمعنى طلب أن يفهمه قومك فيتذكروا به ، أو لكي يتذكروا ويتعظوا به فيفوا بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ، وتفسيره بالإرادة كما فعله أهل الاعتزال خطأ ، لأن الإرادة تستلزم المراد لا محالة ، ومنها أن انتظار الفرج عبادة على ما جاء في الحديث لأنه من الإيمان ، وجاء في فضيلة السورة الكريمة آثار صحيحة قال عليه السلام : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له »[1] أي دخل في الصباح حال كونه مغفوراً له فعل تام ، وعنه عليه السلام : « من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك »[2] وهذان الحديثان رواهما أبو هريرة رضي الله عنه والأول أخرجه الترمذي وقال أبو أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنة » لما كان أصل البيت مأوى الإنسان بالليل ، وكأنَّ إحياء الليل الذي فيه ترك البيتوتة غالباً بمثل التلاوة جعل بناء البيت جزاء للقراءة الواقعة في الليلة المبنية على ترك البيتوتة ، ليكون الجزاء من جنس العمل وحمل النهار عليه والله الموفق لمرضاته وتلاوة آياته ، وللعمل بحقائق بيناته ، وهو المعين لأهل عناياته .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان »



(١) رواه النسائي عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ (من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له) وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٢٦ .

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة في ثواب القرآن ، وإسناده ضعيف ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٨١ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حٰمٓ ﴾ أي هذه السورة مسماة بحم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي القرآن المشتمل على السور مطلقاً خصوصاً هذه السورة الجليلة ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ فدل على أنه أي القرآن حق وصدق ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ فدل على إنه معجز غالب غير مغلوب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ فدل على أنه مشتمل على حكم بالغة ، وعلى أنه يحكم في نفسه بنسخ ولا يُنْسخ ، فليس كما يزعم المبطلون من أنه شعر أو كهانة أو تقوّل من عنده ممكن معارضته ، وأنه كأساطير الأولين مثل حديث رستم واسفنديار وغيرهما ، فيجب أن يعرف قدره وأن يكون الإنسان مملوءاً به صدره ﴿ إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي في خلقهما وخلق ما فيهما من آثار القدرة كالكواكب والجبال والبحار ونحوها ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لشواهد الربوبية لأهل التصديق ، وأدلة الإلهية لأهل التوفيق ، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات والدلالات فإنهم يستدلون بالمخلوق على الخالق وبالمصنوع على الصانع فيوحدونه وهو أول الباب ولذا قدم الإيمان على الإيقان ولعل الوجه في طي ذكر المضاف هنا وهو الخلق وإثباته في الآية الآتية ، أن خلق السموات والأرض ليس بمشهود للخلق وإن كانتا مخلوقتين كما قال تعالى (**ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ**) بخلاف خلق الإنسان وما يلحق به من خلق سائر الدواب ، فإنه كما أنه يستدل بخلقه على خالقه ، فكذا يشاهد خلقه وتوالده فتكون المخلوقية فيه أظهر من الأول ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة ثم من علقة متقلبة في أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ والمعنى وفي خلق ما ينشره الله تعالى ويفرقه من دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان ، مع اختلاف صورها وأشكالها وكثرة أنواعها ، وأضمر ذكر الله لقرب العهد منه ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه ، واليقين علم فوق المعرفة والدراية ونحوهما ، وبينه وبين الإيمان فروق كثيرة ، وحقيقة الإيمان هو اليقين ولهذا سأله عليه السلام بقوله (اللهم أني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً ليس بعده كفر) ، ولم يقل للموقنين كما قال للمؤمنين إشارة إلى قلة هذا الفريق بالنسبة إلى الأول ، وخص الإيقان بخلق الأنفس لأن ما قبله من الإيمان بالآفاق ، وهو ما خرج عنك ، وهذا من الإيمان بالأنفس وهو ما دخل فيك ، وهذا أخص درجات الإيمان فإنه إذا أكمل الإيمان في مرتبة الآفاق يترقى العبد إلى المشاهدة في مرتبة الأنفس ، فكمال اليقين إنما هو في هذه المرتبة لا في تلك المرتبة لأن العلم بما دخل فيك أقوى منه بما خرج عنك إذ لا يكذبه شيء ، ولذا جاء العلم الضروري أشد من العلم الاستدلالي ، وضم خلق الدواب إلى خلق الإنسان لاشتراك الكل في معنى الجنس ، قال بعضهم : إن العبد إذا أمعن نظره في حسن استعداده ظاهراً وباطناً وأنه خلق في أحسن تقويم ، ورأى استواء قدّه وقامته ، وحسن صورته وسيرته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وما هو مخصوص به في جوارحه وجوانحه ، ثم تفكر فيما عداه من الدواب وأجزائها وأعضائها وأوصافها وطباعها وقف على اختصاص

وامتياز بني آدم بين البرية من الجن في الفهم والعقل والتمييز ثم في الإيمان ، ومن الملائكة في حمل الأمانة وتعلم علم الأسماء ، وما صار به الإنسان خليفة ومسجود الملائكة المقربين ، وعرف تخصيصهم بمناقبهم وإنفرادهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كرمهم وعلى كثير من المخلوقات فضلهم ، ﴿ **وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ أي وفي اختلافهما بتعاقبهما ، أو بتفاوتهما طولاً وقصراً ، أو بسواد الليل وبياض النهار ﴿ **وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ** ﴾ أي مطر ، وهو سبب الرزق ، عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة ﴿ **فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ** ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنباتات ﴿ **بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ يبسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار ، ففيه تشبيه للرطوبة الأرضية بالروح الحيواني في كونها مبدأ التوليد والتنمية ، وتشبيه زوالها بزوال الروح وموت الجسد ﴿ **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ** ﴾ تحويلها من جهة إلى أُخرى وتبديلها من حال إلى حال إذ منها شرقية وغربية وجنوبية وشمالية ، وحارة وباردة ونافعة وضارة ، وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود ، إما للإيذان بأنه آية مستقلة ، حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربَّما تُوهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة ، وإما لأن كون التصريف آية ليس بمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار ﴿ **آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ وتنكير آيات في المواضع الثلاثة للتفخيم كماً وكيفاً ، والعقلُ يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ، ولهذا قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : فإن العقل عقلان ، فمطبوع ومسموع ، ولا ينفع مطبوع ، إذا لم يك مسموع ، كما لا ينفع الشمس ، وضوء العين ممنوع ، وهذا العقل هو المعنيُّ بقوله تعالى (**وما يَعْقِلُها إلاّ العَالِمونَ**) وكل موضع ذم الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول ، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فأشار إلى الأول ، والمعنى لقوم ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لأنها دلائل واضحة على وجود صانعها وعظيم قدرته وبالغ حكمته ، وخص العقلاء بالذكر لأنه بالعقل يمكن الوقوف على الدلائل ، ولعل سرّ تخصيص العقل بهذا المقام وتأخيره عن الإيمان والإيقان أن هذه الآية دائرة بين علوي وسفلي وما بينهما ، وللعقل مدخل تعقل كل ذلك واشتراك بين الإيمان والإيقان ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى جعل العلوم الدينية كسبية مصححة بالدلائل ووهبيَّة محققة بالشواهد ، فمن لم يستبصر بها زلت قدمه عن الصراط المستقيم ، ووقع في عذاب الجحيم ، فاليوم في الحيرة والتقليد ، وفي الآخرة في الوعيد بالتخليد جعلنا الله وإياكم من أهل الدلائل والشواهد وعصمنا من عمى كل منكر جاحد إنه هو الفرد الواحد ﴿ **تِلْكَ** ﴾ الآيات القرآنية من أول السورة ﴿ **آياتُ اللهِ** ﴾ المنبهة على الآيات التكوينية ﴿ **نَتْلُوهَا عَلَيْكَ** ﴾ بواسطة جبرائيل حال كوننا ﴿ **بالحقِّ** ﴾ أي محقِّين ، أو حال كون الآيات ملتبسة بالحق والصدق بعيدة من الباطل والكذب ، ويجوز أن تكون تلك إشارة إلى

الدلائل المذكورة أي تلك دلائله الواضحة على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته ، نتلوها عليك أي بتلاوة النظم الدال عليها ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ من الأحاديث وخبر من الأخبار ﴿ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ ﴾ أي بعد آيات الله ، وتقديم الاسم الجليل لتعظيمه كما في قولهم : أعجبني زيد وكرمه ، يريدون أعجبني كرم زيد ، ونظيره قوله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ) فإن اسم الله هنا أيضاً مذكور بطريق التعظيم كما سبق ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني أن القرآن من بين الكتب السماوية معجزة باهرة فحيث لم يؤمنوا به ، فبأي كتاب بعده يؤمنون ؟ أي لا يؤمنون بكتاب سواه ، وقيل معناه القرآن آخر كتاب الله ، ومحمد آخر رسله فإن لم يؤمنوا به فبأي كتاب يؤمنون ولا كتاب بعده ولا نبي ؟ وفي الآية إشارة إلى أن الإيمان لا يمكن حصوله في القلب إلا بالله وكتابته في القلوب وبإراءته المؤمنين آياته وإلا فلا يحصل بالدلائل المنطقية ولا بالبراهين العقلية ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام قال : من أعجب الخلق إيماناً ؟ قالوا الملائكة ، قال عليه السلام : وكيف لا تؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر ؟ قالوا ، فالنبيون ، قال عليه السلام : وكيف لا يؤمن النبيون والروح ينزل عليهم بالأمر من السماء ؟ قالوا : فأصحابك ، قال عليه السلام : وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون ؟ ولكن أعجب الناس إيماناً قوم يجيئون بعدي ويؤمنون بي ولم يروني ويصدقونني ولم يروني فأولئك إخواني[1] ، وفي الحديث إشارة إلى أن الإيمان المبني على الشواهد القلبية أعلى من الإيمان المبني على الدلائل الخارجية وفي الكل فضل بحسب مقامه فأهل الإيمان والتوحيد مطلقاً مغفور لهم .

﴿ وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب ﴿ لِكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذاب ، والإفكُ : كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ﴿ أَثِيمٍ ﴾ صيغة مبالغة بمعنى كثير الإثم كعليم بمعنى كثير العلم ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ ﴾ صفة أخرى لأفاك والمراد آيات القرآن لأن السماع إنما يتعلق بها وكذا التلاوة في قوله ﴿ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ آيات الله ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره ويدوم عازماً عليه عاقداً ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ عن الإيمان بما سمعه من آيات الله والإذعان بما نطق به من الحق مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل ، وكان النضر بن الحارث ابن عبد الدار وقد قتل صبراً يشتري من أحاديث العجم مثل حديث رستم واسفنديار ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، فوردت الآية ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ما هم فيه من الشر والفساد ، وذلك التعميم لكلمة الإحاطة والشمول وكلمة (ثم) لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقها أن تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي يصير كأنه لم يسمعها أي مشابهاً حاله حال من لم يسمعها ، فخفف وحذف ضمير الشأن ، والجملة من « يُصِرُّ » تشبيهاً بغير السامع في عدم القبول والانتفاع

(١) لم أره بهذا اللفظ فيما بين يديَّ من المراجع ، وهناك روايات صحيحة تؤيد بعضه .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أنذره على إصراره واستكباره بعذاب أليم فإن ذكر العذاب قرينة على الاستعارة ، استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر سرور في المخبر به للإنذار الذي هو ضده بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء ، هذا إذا أُريد المعنى المتعارف للبشارة وهو الخبر السار ويجوز أن يكون على الأصل فإنها بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في بشرة الوجه بالتغيير وهو يعم خبر السرور والحزن ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيء وعلم أنه من آياتنا لا أنه علمه كما هو عليه فإنه بمعزل من ذلك الكلام ﴿ اتَّخَذَهَا ﴾ أي الآيات كلها ﴿ هُزُواً ﴾ أي مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط ، كالنضر استهزأ بها وعارضها بحديث الفرس ، ليري العوام أنه لا حقيقة لذلك وكأبي جهل حيث أطعمهم الزبد والتمر ، وقال : تزقموا فهذا ما يتوعدكم به محمد ، فحمل الزقوم على الزبد والتمر ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفاك من حيث الإتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار شمول كل كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار كل واحد ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ يذلهم ويذهب بعزهم وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله ﴿ مِنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ ﴾ أي جهنم كائنة من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أُعدَّ لهم ، أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فإن الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام أي يسترها ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم ﴾ ولا يدفع ﴿ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأولاد والأموال ﴿ شَيْئاً ﴾ من عذاب ، أو لا يغني عنهم في دفع ذلك شيئاً من الإغناء أي إغناء ولو قليلاً ﴿ وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دونِ اللهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي ولا ينفعهم أيضاً ما عبدوه من دون الله من الأصنام ، وتوسيط حرف النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً ، مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم وفيه تهكم ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يعرف كنهه ﴿ هَذَا ﴾ أي القرآن ﴿ هُدَىً ﴾ أي في غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها كقولك زيد عدل ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم ﴾ القرآنية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ ﴾ أي من شدة العذاب ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفع صفة عذاب ، وفي الآيات إشارات ، منها أن بعض الناس يسمع آيات الله في الظاهر إذا تتلى عليه ولا يسمعها بسمع الباطن ، ويتصامم بحكم الخذلان والغفلة ، فله عذاب أليم لاستكباره عن قبول الحق وعدم العمل بموجب الآيات وكذا إذا سمعها وتلاها بغير حضور قلب ، ومن استمع بسمع الحق والفهم واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين وتصدى لعز المنزلين ، ومنها أن العالم الرباني إذا أفاد شيئاً من العلم ينبغي أن يكون في حيز القبول ولا يقابل بالعناد والتأويل على المراد من غير أن يكون هناك تصحيح بإسناد ، ومنها أن القرآن هداية لكن للمقرين لا للمنكرين ، فمن أقر نجا من الخذلان والوقوع في النيران ، ومن أنكرها وقع في عذاب عظيم يذل فيه ويهان ﴿ اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ بأن جعله أملس السطح يعلو عليه ما

شأنه الغوص كالأخشاب ، ولا يمنع الغوص والحزق لميعانه ، فإنه لو جعل خشن السطح بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه ، وكذا لو جعله لا تطفو عليه الأخشاب ونحوها بل تسفلت وغرقت فيه لم يتيسر ذلك أيضاً ، ولو جعله صلباً مصمتاً يمنع الغوص فيه لم يمكن تحصيل المنافع المترتبة على الغوص ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي بإذنه وتيسيره وأنتم راكبوها ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة والغوص على اللؤلؤ والمرجان ونحوها من منافع البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك بالإقرار بوحدانية المنعم بها ﴿ وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ من الموجودات بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ إما حال ما في السموات وما في الأرض أو تأكيد له ﴿ مِنْهُ ﴾ أي كائناً منه تعالى أو سخر لكم هذه الأشياء كائنة منه مخلوقة له أو هي جميعاً منه تعالى وفي فتح الرحمن جميعاً منه أي كل إنعام فهو من فضله لأنه لا يستحق عليه أحد شيئاً بل هو يوجب على نفسه تكرماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من الأمور والعظام ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة الشأن كبيرة القدر دالة على وجود الصانع وصفاته ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائع صنع الله فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها ، وفي الحديث (إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق السموات ؟ فيقول الله ، ويقول من خلق الأرض فيقول الله ويقول من خلق الله فإذا افتتن أحدكم بذلك فليقل آمنت بالله ورسوله)[1] واعلم أن التفكر أعلى العبادات وأفضلها لأن عمل القلب أعلى وأجل من عمل النفس .

وفي الآية إشارة إلى أن السموات والأرض وما فيهن خلقت للإنسان فإن وجودها تبع لوجوده ، وناهيك من هذا المعنى أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم عليه السلام وهذا غاية التسخير وهم أكرم مما في السموات والأرض ، ومثال هذا أن الله تعالى لما أراد أن يخلق ثمرة خلق شجرة وسخرها للثمرة لتحملها فالعالم بما فيه شجرة وثمرتها الإنسان ولعظم هذا المعنى قال (**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**) أي في هذا المعنى دلالات على شرف الإنسان وكماليته لقوم لهم قلوب منورة بنور الإيمان والعرفان إذ يتفكرون بفكر سليم ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اغفروا ﴿ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾ كما في قوله تعالى (**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُو يُقِيمُوا الصَّلاَةَ**) ، أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلوة ، قال صاحب الكشاف : وجوّزوا أن يكون يقيموا بمعنى ليقيموا ويكون هذا هو المقول ، قالوا : وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل عوض عنه ولو قيل يقيموا ابتداء بحذف اللام لم يجز ، وحقيقة الرجاء تكون في المحبوب فهو هنا محمول على المجاز وهو التوقع والخوف ، والمعنى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون ولا

---

(١) رواه البخاري ومسلم بلفظ (يأتي الشيطان فيقول : من خلق كذا ؟ من خَلَق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينْتبه) وله روايات أخرى في الصحيحين وأبي داود ، وانظر جامع الأحكام ٥ / ٥٦ .

يخافون وقائعه تعالى بأعدائه في الأمم الماضية ، كقولهم أيام العرب ، وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقّتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها ، وإضافتها إلى الله كبيت الله ، وهذه الآية نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وذلك لأن السورة مكية بالاتفاق ، إلا أن الماوردي استثنى هذه الآية وقال : إنها مدنية نزلت في عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ، وذلك أن عمر رضي الله عنه شتمه غفاري ، فهمّ أن يبطش به فنزلت في حقه ، قال في القاموس : وبنو غفار ككتاب رهط أبي ذر الغفاري ، وقيل : نزلت حين قال رئيس المنافقين عبد الله بن أبي ما قال وذلك أنهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها مريسيع فأرسل ابن أُبيٍّ غلامه يستقي فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حسبك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى مَلأَقَرَبَ النبي عليه السلام وقِرَبَ أبي بكر وعمر فقال ابن أُبيٍّ : ما مَثَلُنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل « سَمِّنْ كلبك يأكلك » فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزلها الله ﴿ **لِيَجْزِيَ قَوْمَاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ أي أمروا بذلك ليجزي الله يوم القيامة أيَّ قوم لا قوماً مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والمنافقين ، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ، وما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم ، وقد جوز أن يراد بالقوم الكفرة ، و« بما كانوا يكسبون » سيئاتهم التي من جملتها ما حكي من الكلمة الخبيثة ، والتنكير للتحقير ، ولعل المعنى قل للمؤمنين يتجاوزوا عن إساءة المشركين والمنافقين ولا يباشروا بأنفسهم لمجازاتهم ليجزيهم الله يوم القيامة جزاءً كاملاً يكافيء سيئاتهم ، ويدل على هذا المعنى الآية الآتية ، وأيضاً إن الكسب في أكثر ما ورد في القرآن كسب الكفار ، ويجوز أن يكون المعنى ليجزيهم الله وقت الجزاء كيوم بدر ونحوه ، وفي الآية إشارة إلى أن المؤمن إذا غفر لأهل الجرائم وإن لم يكونوا أهل المغفرة لإصرارهم على الكفر والأذى ، يصير متخلقاً بأخلاق الحق ، ثم الله تعالى يجزي كل قوم جزاء عملهم من الخير والشر ، إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً** ﴾ وهو ما طلب به رضي الله عنه تعالى ﴿ **فَلِنَفْسِهِ** ﴾ أي فنفع ذلك العمل الصالح وثوابه لنفسه عائد إليها ﴿ **وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ أي فضرر إساءته وعقابها على نفسه لا يكاد يسري عمل إلى غير عامله ﴿ **ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ مالك أموركم لا إلى غيره ﴿ **تُرْجَعُونَ** ﴾ تردون بالموت فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو شراً فاستعدوا للقائه ، ففيه ترغيب على اكتساب العمل الصالح وترهيب عن ارتكاب العمل السيء ، فمن الأول العفو والمغفرة للمجرم وصاحبه متصف بصفات الله تعالى ، ومن الثاني المعصية والظلم وصاحبه متصف بصفات الشيطان ، فمن كان من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم ، ومن كان من الفجار فإن الفجار لفي جحيم ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ** ﴾ أي التوراة ولعل الأولى أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الزبور والإنجيل أيضاً ، وذلك لأن موسى وداود وعيسى عليهم السلام كانوا في بني إسرائيل ﴿ **وَالْحُكْمَ** ﴾ أي الحكمة النظرية ،

والعملية والفقه في الدين أو فصل الخصومات بين الناس إذا كان الملك فيهم ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم تكثر في غيرهم فإن إبراهيم عليه السلام كان شجرة الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من اللذائذ كالمنّ والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر وتظليل الغمام ونظائرهما ، ولا يلزم منه تفضيلهم على غيرهم بحسب الدين والثواب ، أو على عالمي زمانهم فإنه لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ دلائل ظاهرة في أمر الدين ومعجزات قاهرة ، وقيل : هو العلم بمبعث النبي عليه السلام وما بين لهم من أمره ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ فما وقع بينهم الخلاف في ذلك الأمر ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بحقيقته وحقيته فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ ﴾ أي عداوة وحسداً حدث بينهم لا شكاً فيه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ ﴾ أي سنة وطريقة عظيمة الشأن ﴿ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أي أمر الدين ﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾ بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك من غير إخلال بشيء منها ، وقال بعضهم : إنا أفردناك من جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها ، وخصصناك بحقائق فأدركها ، وسنّا لك طرائق فاسلكها ، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها ولا تتجاوز عنها ولا تحتج إلى متابعة غيرك ولو كان موسى وعيسى حياً لما وسعهما إلا اتباعك ، قال جعفر الصادق رضي الله عنه : الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها ومن الله الإعانة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه السلام : ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا ﴾ لن يدفعوا ﴿ عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ مما أراد بك من العذاب ان اتبعتهم ، قال بعضهم يعني إن أراد الله بك نعمة فلا يقدر أحد على منعها ، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد أن يصرفها عنك ، فلا تعلّق بمخلوق فكرك ولا تتوجه بضميرك إلى غيرنا وثق بنا وتوكل علينا ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم لأن الجنسية علة الإنضمام ﴿ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ما أنت عليه من تولية خاصة بالتقوى والشريعة ، والإعراض عما سواه بالكلية ، قيل : سماهم الظالمين لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه ، وسمي المؤمنين المتقين لأنهم اتقوا عن هذا المعنى واتخذوا الله الولي في الأمور كلها ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ فإن ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب ، كأنه بمنزلة الروح والحياة ، فمن عرّي من القرآن فقد عدم بصره وبصيرته ، وصار كالميت والجماد الذي لا حس له ولا حياة ، فحمل البصائر على القرآن باعتبار أجزائه ونظيره قوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) أي القرآن وآياته وقوله

تعالى في حق الآيات التسع لموسى عليه السلام قال (**لَقَدْ عَلِمتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ**) والبصائرُ : جمع بصيرة وهو النور الذي به تبصر النفس المعقولات ، كما أن البصر نور به تبصر العين المحسوسات ، ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى اتباع الشريعة فحمل البصائر عليه لأن المصدر المضاف من صيغ العموم فكأنه قيل جميع اتباعاتها ﴿ **وَهَدَىً** ﴾ من ورطة الضلالة ﴿ **وَرَحْمَةٌ** ﴾ عظيمة ونعمة كاملة من الله ، فإن الفوز بجميع السعادات الدنيوية والأخروية إنما يحصل به ﴿ **لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور أو المستعدين للوصول إلى مقام اليقين بأنوار البصيرة فإذا تلألأت انكشف بها الحق والباطل ، فعليك بتدبر الآيات القرآنية والانتفاع بالبصائر النورانية لتكون من العلماء ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ** ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان بطريق إنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه لا بطريق إنكار الوقوع ونفيه ، والاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح للأعضاء الكاسبة ، قال في المفردات : سمي الصائد من الكلاب والفهود والطير جارحة وجمعها جوارح ، إما لأنها تجرح وإما لأنها تكسب وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها لأحد هذين ، والمراد بالسيئات الكفر والمعاصي ﴿ **أَنْ نَجْعَلَهُم** ﴾ أن نصيّرهم في الحكم والاعتبار مع ما لهم من مساويء الأحوال ﴿ **كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي كالمؤمنين الصادقين.

مع ما لهم من محاسن الأعمال ، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة ورفع الدرجة ؟ ﴿ **سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُم** ﴾ والمعنى أَمْ حَسبوا أن نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الكل مستوياً محياهم ومماتهم ، كلا لا يستوون في شيء منهما ، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة وشرفهما في المحيى وفي رحمة الله ورضوانه في الممات ولذا قال عليه السلام لما رأى أصحاب الصفة في المسجد (المحيا محياكم والممات مماتكم)[1] وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهوانها في المحيا ، وفي لعنة الله والعذاب الخالد في الممات ، وكان كفار قريش يقولون: نحن أحسن حالاً من المؤمنين في الآخرة أي على تقدير وقوع الساعة كما قالوا (**نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**) أي فإن العزيز في الدنيا عزيز في الآخرة ، وقد قيل المراد إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة ، لأن المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحة ، وإنما يفترقون في الممات ﴿ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أي ساء حكمهم هذا أو بئس شيئاً حكموا به ذلك ، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردد إلى الصباح ، وعن الفضيل رحمه الله أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول : يافضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ فلا يطمعن البطال في ثواب العمال ، ولا الجبناء في مقام الأبطال ، ولا الجاهل في ثواب العالم ، ولا النائم في ثواب

(١) المشهور الثابت أن النبي ﷺ قالها للأنصار (المحيا محياكم ، والممات مماتكم) والحديث له قصة طويلة ذكرها مسلم في الجهاد ، وأحمد في المسند ٣ / ٥٢٨ .

القائم ، فعلى قدر اجتهاد المرء يزيد أجره وبقدر تقصيره ينحط قدره ، وفي بعض الكتب السابقة (أن لله منادياً ينادي كل يوم : أبناءُ الخمسين زرعٌ دنا حصاده ، أبناء الستين هلموا إلى الحساب ، أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم ؟ أبناء الثمانين لا عذر لكم ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذْ خلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بينهم فتذكروا ما عملوا ، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم) ويقال إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذلّ المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصّره بعيوب نفسه ، فمن أعطي ذلك فقد أعطيَ خير الدنيا والآخرة ، كما أنه فرق بين مطيع وفاسق فكذا فرق بين مطيع ومطيع وللتفاضل في الطاعة والنيات تتفاضل المقامات والدرجات ، ولذا يرى بعض أهل الجنة البعض كما يُرى في الدنيا الكوكب الدري ، وعن عبيد بن خالد رضي الله عنه (أن النبي ﷺ آخى بين رجلين فقتل أحدهما في سبيل الله ثم مات الآخر بعده بجمعةٍ أو نحوها فصلوا عليه فقال عليه السلام ما قلتم قالوا دعونا الله أن يغفر له ويرحمه ويلحقه بصاحبه ، فقال النبي عليه السلام فأين صلاته بعد صلاته وعمله بعد عمله ؟ أو قال صيامه بعد صيامه لما أن بينهما أبعد مما بين السماء والأرض)[1] وقد ورد في بعض الأخبار أن الموتى يتأسفون على انقطاع الأعمال عنهم حتى يتحسرون على رد السلام وثوابه ، فليحذر العاقل من حسرة السباق وفجيعة الفراق ، أما حسرة السباق فإنهم إذا قاموا من قبورهم وركب الأبرار نجائب الأنوار وقدمت بين أيديهم نجائب المقربين بقي المسبوق في جملة المحرومين ، وأما فجيعة الفراق فإنه إذا جمع الله الخلق في مقام واحد أمر ملكاً ينادي أيها الناس امتازوا فإن المتقين قد فازوا ، كما قال (**وامْتازوا اليوْمَ أَيُّها المجْرِمونَ**) فيمتاز الولد من والديه ، والزوج من زوجته ، والحبيب من حبيبه ، فهذا يُحمل مبجلاً إلى رياض النعيم ، وهذا يساق مسلسلاً إلى عذاب الجحيم ، قال بعض الأخيار : رأيت الشيخ أبا اسحق الشيرازي في النوم بعد وفاته وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج فقلت له : ما هذا البياض ؟ فقال : شرف الطاعة ، قلت : والتاج ؟ قال : عز العلم ، وعن أبي بكر الوراق : طلبنا أربعة فوجدناها في أربعة : وجدنا رضي الله تعالى في طاعته ، وسعة المعاش في صلاة الضحى ، وسلامة الدين في حفظ اللسان ، ونور القلب في صلاة الليل فعليك بالتدارك قبل فوت الوقت فإن الوقت سيف قاطع ﴿ **وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ** ﴾ أي بسبب الحق ولأجل ظهوره وبظهور هذا الحق ، والوجود زهق الباطل ﴿ **وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ من خير وشر ، وبيانه أن الحكمة في خلق العالم هو الجزاء إذ لو لم يكن الجزاء - كما يقول الكافرون - لاستوى المطيع والعاصي ، فالجزاء مترتب على الطاعة والعصيان وهما موقوفان على وجود العَالَم ، إذ التكليف لا يحصل إلا في هذه الدار ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ **لا**

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد ، والنسائي في الجنائز ، وأحمد في المسند ٤ / ٥٠٠ .

﴿ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب المحسن وزيادة عقاب المسيء ، وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر ، بتنزيله منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه تعالى ، فهذه الآية إخبار بأن التسوية في الجزاء سفه والله تعالى خلق العالم بالحق ليتميز المطيع من العاصي لا بالسفه ، فلابد من المجازاة على وفق الأعمال بين عدل وفضل بلا ظلم وجهل فعليك بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة لاسيما التوحيد وذكر الله تعالى إذ به تحصل المعرفة المقصودة من خلق الثقلين ، قيل : إن أبا جهل لم يبصر النبي عليه السلام إلا بأنه يتيم عبد المطلب وأبي طالب ولو نظر بأنه رسول الله وحبيب رب العالمين وعرف ذلك لآمن به ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ وهو ما تهواه نفسه الخبيثة ، وقال الشعبي : إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه في النار ، وهو تعجيب لحال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى ، فكأنه عبده أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضي التعجب .

قال بعضهم :

نُونُ الهَوَانِ مِنَ الهَوَى مَسْرُوقَةٌ * فَأَسِيرُ كُلَّ هَوَى أَسِيرُ هَوَانِ

وقال بعضهم :

فَاعْصِ هَوَى النَّفْسِ وَلاَ تُرْضِهَا * إِنَّكَ إِنْ أَسْخَطْتَهَا زَانَكَا

حَتَّى مَتَى تَطْلُبُ مَرْضَاتِهَا * وَإِنَّمَا تَطْلُبُ عَدُوّاً لَكَا

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي حال كونه تعالى عالماً بضلاله وتبديله للفطرة الأصلية أو علم من الضال بطريق الهداية بأن ضل عناداً نحو (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) ونحو (فما اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ العِلْمُ) ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ بحيث لا يتأثر من المواعظ ولا يسمع الحق ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ بحيث لا يتفكر في الآيات والنذر ولا يفهم الحق ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار وهو ما يغشى العين ويغطيها عن الإبصار والإدراك ، وتنكيرها للتنويع وللتعظيم ، قال بعضهم : ختم الله على سمعه فحُرم من سماع خطابه ، وعلى قلبه فحُرم من فهم مراده ، وعلى عينيه فحُرم من مشاهدة آثار القدرة في صنعه فلم ير الحق ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ أي من بعد إضلاله إياه ، بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه في الغي ، أي لا يقدر أحد أن يهديه ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ ألا تلاحظون أيها الناس فلا تتذكرون ولا تتفكرون فتعلموا أن الهداية لا يملكها أحد سواه ؟ أو فلا تتعظون ؟ وفي الآية إشارة إلى الفلاسفة والدهرية والطبائعية ومن لم يسلك سبيل الإتباع ولم يستوف أحكام الرياضة بتأديب أرباب العلم على قانون الشريعة ، ولم ينسلخ عن هواه بالكلية ، بل اقتدى بأئمة الكفر والضلالة ، واقتفى آثارهم بالشبهات العقلية وحسبان البراهين القطعية ، وقع في شبكة الشيطان

فأخذه بزمام هواه وأضله في تيه مهواه ، وربما دعاه إلى الرياضة وترك الشهوات لتصفية العقل وسلامة الفكر ، فيمنيه إدراك الحقائق حتى يوبقه في وهدات الشبهات ، فيهيم في كل ضلالة ويضل في كل فج عميق وأصبح خسرانه أكثر من ربحه ، ونقصانه أوفر من رجحانه ، فهم في ضلال بعيد يظنون أنهم على رشاد ، وهم في غيِّهم يتخبطون ، زمامهم بيد هواهم ، أولئك أهل المكر استدرجوا من حيث لا يشعرون ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ يعني منكري البعث من غاية غيهم وضلالهم ، وهم كفار قريش ومشركوا العرب ، وفي كشف الأسرار هذا من قول الزنادقة الذين قالوا الناس كالحشيش ﴿ **مَا هِيَ** ﴾ أي ما الحياة ﴿ **إِلاَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا** ﴾ التي نحن فيها ﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وتأخير (نَحْيَا) لأن فيها شبه مراعاة الفاصلة ، ولأن الواو لمطلق الجمع ، وقد جوِّز أن يريدوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ، قال الراغب : القائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة ، ويزعمون أن الأرواح تنتقل من الأجساد على التأبيد أي إلى أجساد أخرى ، وفي التعريفات : التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر ، من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتي بين الروح والجسد ﴿ **وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ أي مرور الزمان وهو مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ثم يعبر به عن كل مدة كبيرة وهو خلاف الزمان ، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة ، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي ، وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان ، ويسبونه ويذمونه ويشتكون منه كما نطقت بذلك أشعارهم فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)[1] أي فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ، قال بعضهم : ياعالماً يعجب من دهره : لا تلم الدهر على غدره ، فإنه مأمورٌ له آمر ، قد ينتهي الدهر إلى آمره . كم كافر أمواله جمة ، يزداد أضعافاً على كفره ، ومؤمن ليس له درهم ، يزداد إيماناً على فقره ، ﴿ **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ** ﴾ أي بما ذكر من اقتصار الحياة على ما في الدنيا ، وإسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿ **مِنْ عِلْمٍ** ﴾ فأسند إلى عقل أو نقل و (من) مزيدة لتأكيد النفي ﴿ **إِنْ هُم إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ أي ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة ، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم ، وأما المؤمنون فقد أخذوا بالنصوص وسلكوا طريق اليقين ، وتجاوزوا عن برازخ الظن والتخمين ، وأثبتوا الحشر الصوري والمعنوي أي الحشر المحسوس والصراط المحسوس ، والجنة والنار المحسوستين ، والجمع بين المعقول والمحسوس أعظم في القدرة من نعيم وعذاب محسوسين بأكل وشرب ونكاح ولباس محسوسات ، وأتم في الكمال الإلهي ، وهذا معتقد الأنبياء والرسل ومؤمنيهم فمن

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً .

اعتقد كاعتقادهم نجا وإلا هلك ، ومن لوازم هذا الاعتقاد والتوحيد إسناد كل حادثة إلى الله العزيز الحميد فإنه المؤثر في الكل ، ولذا نهى عن سب الريح إذ هي بيد ملك وهو بيد الله تعالى فجميع التصرفات راجع إليه ، حكي أن الحجاج أرسل عبد الله الثقفي إلى أنس بن مالك رضي الله عنه يطلبه فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال له : أذله الله فإن العزيز من اعتز بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصيته ثم قام معه فلما حضر قال : أنت الذي تدعو علينا ؟ قال : نعم ، قال : ومم ذلك ؟ قال : لأنك عاص لربك تخالف سنة نبيك ، تعز أعداء الله وتذل أولياءه ، فقال : اقتلك شر قتلة ، فقال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك ، قال : أن رسول الله ﷺ علمني دعاء وقال من دعا به كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل أي لم يضرّ به سم ولا سحر ولا سلطان ظالم وقد دعوت به في صباحي ، فقال الحجاج علمنيه ، فقال : معاذ الله أن أعلمه مادمت حياً وأنت حي ، فقال الحجاج : خلوا سبيله ، فقيل له في ذلك فقال : رأيت على عاتقيه أسدين عظيمين قد فتحا أفواههما ، فدل هذا على أن التأثير بيد الله القدير ، لا في يد السلطان والوزير ، وإنما هو وهم النظر إلى جانب الأسباب والوسائل ، ثم إن أنساً رضي الله عنه لما حضره الموت قال لخادمه : إن لك عليّ حقاً حق الخدمة ، فعلّمه الدعاء وقال له : (قل بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله خير الأسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميعُ العليم)[1] وأنسٌ من خُدَّام رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين ، وانتقل إلى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة سنة ثلاث وتسعين وله مائة وثلاث سنين ، وهو أحد الستة المشهورين برواية الحديث ﴿ **وإذا تُتْلَى عَلَيْهِم** ﴾ أي على منكري البعث ﴿ **آيَاتُنَا** ﴾ الناطقة بالحق الذي من جملته البعث ﴿ **بَيِّنَاتٍ** ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت ، أو مبينات له نحو قوله تعالى (**قُلْ يُحييها الّذي أَنْشأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ**) وقوله (**إنّ الّذي أَحْياها لمحيي الموْتىٰ**) وغير ذلك ﴿ **مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ** ﴾ أي ما كان متمسكاتهم بشيء من الأشياء يعارضونها به ﴿ **إلاَّ أَنْ قَالُوا** ﴾ عِناداً واقتراحاً ﴿ **ائْتُوا بآبائِنَا** ﴾ يعني أحيوهم وابعثوهم من قبورهم ﴿ **إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ** ﴾ في أنا نبعث بعد الموت أي إلا هذا القول الباطل ، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة لأنها إنما تطلق على الدليل القطعي ، وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم ، أو لتنزيل التقابل منزلة التناسب للمبالغة فأطلق اسم الحجة على ما ليس بحجة من قبيل (تحية بينهم ضربٌ وجيع) أي سماه حجة لبيان أنهم لا حجة لهم البتة لأن من كانت حجته هذا لا يكون له حجة البتة كما أن من ابتدأ بالضرب الوجيع في أول التلاقي لا

---

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذي بلفظ (من قال حين يصبح : بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميعُ العليم ـ ثلاث مرات ـ لم تُصبْه في يومه فُجاءةُ بلاء ، ومن قالها حين يُمسي لم تصبه فُجاءةُ بلاء في ليلته) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٤٣ .

يكون بينهم تحية البتة ولا يقصد بهذا الأسلوب إلا هذا المعنى كأنه قيل ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ﴿ **قُلِ اللهُ يُحْيِيكُم** ﴾ ابتداء ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** ﴾ عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ **ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ** ﴾ بعد البعث منتهين ﴿ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ للجزاء ﴿ **لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة والوعد المصدق بالمعجزات دل على وقوعها حتماً ، والإتيان بآبائهم حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، لأنهم أهل النسيان والغفلة :

وفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ * وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَإِنْ امْرِءاً لَمْ يَحْيَا بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ * وَلَيْسَ لَهُ حِينَ النُّشُورِ نُشُورُ

فعلى العاقل أن يتنبه ويكون على يقين من ربه ، ويُصدِّق الكتاب فيما نطق به ، ولصعوبة الإيمان بالغيب وقع أكثر الناس في ورطة التكذيب ، ولانغلاق أبواب البرزخ والمعاد كثر الجدالُ والإنكار ﴿ **وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي الملك المطلق والتصرف الكلي فيهما وفيما بينهما مخصوص بالله تعالى وهو تعميم للقدرة بعد تخصيصها ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ والمعنى وقت إذ تقوم الساعة ويحشر الموتى فيه وهو جزء من يوم تقوم الساعة فإنه يوم متسع ، ولما كان ظهور خسرهم وقت حشرهم يكون هو المقصود بالنسبة ، يقال أبطل جاء بالباطل وقال شيئاً لا حقيقة له ، والمراد الذين يبطلون الحق ويكذبون بالبعث ومعنى يخسر المبطلون يظهر خسرانهم ثمة ﴿ **وَتَرَىٰ** ﴾ رؤية العين ﴿ **كُلَّ أُمَّةٍ** ﴾ من الأمم المجموعة ، مؤمنيهم وكافريهم حال كونها ﴿ **جَاثِيَةً** ﴾ باركة على الركب من هول ذلك اليوم غير مطمئنة لأنها خائفة فلا تطمئن في جلستها عند السؤال والحساب ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : جاثية أي مجتمعة بمعنى أن كل أمة لا تختلط بأمة أخرى فإن قيل الجثو على الركب إنما يليق بالكافرين ، فإن المؤمنين لا خوف عليهم يوم القيامة ؟ فالجواب : أن الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذا إلى أن يظهر كونه محقاً مستحقاً للأمن .

﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ** ﴾ كرر كل أمة لأنه موضع الإغلاظ والوعيد ﴿ **تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا** ﴾ أي إلى صحيفة أعمالها فالإضافة مجازية للملابسة لأن أعمالهم مثبتة فيه ، وفيه إشارة إلى عجز العباد ، وأن لا حول ولا قوة لهم فيما كتب الله لهم في الأزل ، وأنهم لا يصيبهم في الدنيا والآخرة إلا ما كتب الله لهم ، على مقتضى أعيانهم الثابتة فلا يجرون في الأفعال إلا على القضاء ﴿ **اليَوْمَ** ﴾ معمول لقوله ﴿ **تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ أي يقال لهم ذلك فمن كان عمله الإيمان جزاه الله بالجنة ومن كان عمله الشرك والكفر جزاه بالنار ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا** ﴾ إلخ من تمام ما يقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله أضيف

إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره ، وإلا فالظاهر أن يضاف إلى الأمة بأن يقال كتابها كما فيما قبلها ﴿ **يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي يشهد عليكم ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ أي من غير زيادة ولا نقص والجملة خبر آخر لهذا وبالحق حال من فاعل ينطق ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ** ﴾ إلخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أي كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿ **مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ في الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة صغيرة أو كبيرة ، أي نأمر الملائكة بكتب أعمالكم وإثباتها عليكم ، فعلى العبد أن يتدارك الحال قبل حلول الآجال ، فإنه سوف ينفذ العمر وينقلب الأمر ، جعلنا الله وإياكم من المسارعين إلى أسباب رضاه والمسابقين إلى قبول أمره وهداه ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ من الأمم لأنه تفصيل لما قبله ﴿ **فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ** ﴾ أي في جنته لأن الدخول حقيقة في الجنة دون غيرها من أقسام الرحمة ، فهو من تسمية الشيء باسم حاله يعني لما كانت الجنة محل الرحمة أطلق عليها الرحمة ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ الذي ذكر من الإدخال في رحمته تعالى ﴿ **هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** ﴾ الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه ، لأن الجنة محل أنواع الرحمة ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** ﴾ أي فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع : ألم تكن تأتيكم رسلي ألم تكن آياتي تتلى عليكم ؟ ﴿ **فَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ عن الإيمان بها ﴿ **وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ** ﴾ أي قوماً عادتهم الإجرام ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مكلف بمجرد العقل ، فإذا لم يعتقد إيماناً ولا كفراً كان معذوراً إن غفل عن الاعتقاد حتى هلك ، أو اعتقد الشرك فلم تبلغه الدعوة كان معذوراً لأن المعتبر هو السمع دون العقل ، ثم الجهل في دار الحرب من مسلم لم يهاجر إلينا يكون عذراً حتى لو لم يصلّ ولم يصم مدة ولم تبلغ إليه الدعوة لا يجب عليه قضاؤهما لأن دار الحرب ليس بمحل لشهرة أحكام الإسلام ، بخلاف الذمي إذا أسلم في دار الإسلام يجب عليه قضاء الصلاة وإن لم يعلم بوجوبها لأنه متمكن من السؤال عن أحكام الإسلام ، وتركُ السؤال تقصير منه فلا يكون عذراً ، ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ إن ما وعده من الأمور الآتية ﴿ **حَقٌّ** ﴾ واقع لا محالة ﴿ **وَالسَّاعَةُ** ﴾ أي القيامة التي هي أشهر ما وعده ﴿ **لاَ رَيْبَ فِيهَا** ﴾ أي في وقوعها لكونها مما أخبر به الصادق ولقيام الشواهد على وجودها ﴿ **قُلْتُمْ** ﴾ من غاية عتوّكم يامنكري البعث من الكفار والزنادقة ﴿ **مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ** ﴾ أي أيَّ شيء هي استغراباً لها ﴿ **إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا** ﴾ أي ما نفعل فعلاً إلا ظَنّاً فإن ظاهره استثناء الشيء من نفسه ، وفي فتح الرحمن أي لا اعتقاد لنا إلا الشك والظن ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴾ أي لإمكان الساعة ولعل هؤلاء غير القائلين ما هي إلا حياتنا الدنيا ، فمنهم من يقطع بنفي البعث والقيامة وهم المذكورون في الآية الأولى ، ومنهم من يشك لكثرة ما سمعوه من الرسول عليه السلام من دلائل صحة وقوعه وهم المذكورون في هذه الآية ، فعلى العاقل أن يرفع الشك عن الأمور التي أخبر الله بها ويكون على يقين تام منها ، ولا شك أن ليس أحدٌ أصدقُ من الله قيلاً

فوعده للمؤمنين الموقنين يورث الفرح والسرور ، فإنهم وإن كانوا يخافون القيامة وأهوالها لكنهم يرجون رحمة الله الواسعة ولا يصلون إلى كمال تلك الرحمة إلا بوقوع القيامة ، فإنه هو الذي يتوقف عليه دخول الجنة ودرجاتها ونعيمها ، ولليقين مراتب ، فظهر أنه كلما كان التصديق أقوى والمتابعة أوفر كان القرب أكثر ومن هذا عرف حال الكفار وأهل الإنكار في البعد والفراق نعوذ بالله الخلاّق .

﴿ **وَبَدَا لَهُمْ** ﴾ أي ظهر للكفار في الآخرة ﴿ **سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا** ﴾ أي أعمالهم السيئة على ما هي عليه من الصور المنكرة الهائلة وعاينوا وخامة عاقبتها ، والمراد الشرك والمعاصي التي كانت تميل إليها الطبائع والنفوس وتشتهيها وتستحسنها ، ثم تظهر يوم القيامة في الصور القبيحة بحسب الأعمال المختلفة فكل ما أثمر لهم في الآخرة إنما هو من زرع زرعوه في مزرعة الدنيا بأعمالهم السيئة ، ويجوز أن يراد « بسيئات ما عملوا » جزاؤها ، فإن جزاء السيئة سيئة فسميت باسم سببها ﴿ **وَحَاقَ بِهِم** ﴾ أحاط ونزل ولا يستعمل إلا في المكروه ، والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله ﴿ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ** ﴾ من الجزاء والعقاب ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ من جانب الحق ﴿ **الْيَوْمَ** ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ **نَنْسَاكُمْ** ﴾ نترككم في العذاب ترك المنسيِّ ، ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب وعدم المبالاة بهم وقرينتها النسيان ﴿ **كَمَا نَسِيتُم** ﴾ في الدنيا ﴿ **لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ أي كما تركتم عدته ولم تبالوا بها وهي الإيمان والعمل الصالح ، وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه أي نسيتم لقاء الله وجزاءه في يومكم هذا ، إشارة إلى أنهم زرعوا في مزرعة الدنيا بذر النسيان فأثمر لهم في الآخرة ثمرة النسيان ﴿ **وَمأْوَاكُمُ النَّارُ** ﴾ ومرجعكم ومكانكم جهنم ﴿ **وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها ﴿ **ذَلِكُم** ﴾ العذاب ﴿ **بِأَنَّكُمُ** ﴾ أي بسبب أنكم ﴿ **اتَّخَذْتُم آيَاتِ اللهِ هُزُواً** ﴾ أي مهزؤاً بها ، ولم ترفعوا لها رأساً بالتفكر والقبول ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ **فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا** ﴾ أي من النار ، والإلتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب إستهانة بهم ، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار ﴿ **وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ أي يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه بالطاعة لفوات أوانه ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى أظهر على مخلصي عباده بعض آياته فلما رآها أهل الإنكار اتخذوها هزواً على ما هو عادتهم في كل زمان ، وغرتهم الحياة الدنيا إذ ما قبلوا وصية الله إذ قال (**فلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيا**) فاليوم لا يخرجون من النار لأنهم دخلوا فيها على قدمي الحرص والشهوات ولا هم يستعتبون في الرجوع إلى الجنة على قدمي الإيمان والعمل الصالح ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ** ﴾ خاصة ﴿ **رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ كلها من الأرواح والأجسام والذوات والصفات فلا يستحق الحمد أحد سواه ، وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيَّته تعالى لكل منها بطريق الأصالة ﴿ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي العظمة والقدرة

والسلطان والعز لظهور آثارها وأحكامها فيهما ، وإظهارهما في موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ الذي لا يغلب ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ في كل ما قضىَ وقدّر فاحمدوه ، أي لأن لَه الحَمْدَ وكبِّروه أي لأن له الكبرياء ، وأطيعوه أي لأنه غالب على كل شيء ، وفي كل صنعه حكمة جليلة ، فمن تعزز بغير الله أذله الله فذلك الذي يقول الله تعالى (**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الكريمُ**) ومن تكبر فقد نازع الله إن الله تعالى يقول (لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة) ومن يرحم الناس يرحمه الله فذلك الذي سربله الله سرباله الذي ينبغي له ، وفي الحديث القدسي يقول الله (**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم**)[1] ، وفي تقديم الحمد على الكبرياء إشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقاً بإنعامه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين وأياديه ، وهو سبحانه منزه عن أن يشاركه غيره في شيء من صفاته كيف يتصور ذلك ولا كبرياء في غيره تعالى ، بل شعار ما سواه كمال الصَّغار والاحتياج إلى جنابه تعالى فضلاً عن الإتصاف بالكبرياء والعظمة ، والكبر في حق ما سواه من أسوء الأخلاق الذميمة ، وتعالى الله أن يشاركه غيره في صفة هي كمال لخلقه تعالى ، فضلاً عن صفة هي ذميمة لهم بل اسم التفضيل في حقه تعالى دال على زيادة المبالغة والكمال المطلق الذي لا يتصور أن يشاركه فيه أحد مما سواه .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية

(١) رواه مسلم وابو داود ، وللحديث روايات متعددة ، فقد روي بلفظ (فمن نازعني شيئاً منهما عذّبتُه) وروي بلفظ (فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار) وانظر جامع الأحكام لابن الا ثير الجزري ١٠ / ٦١٣ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴾ أي هذه السورة مسماة بحم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي القرآن المشتمل على هذه السورة وعلى سائر السور الجليلة ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ وما كان من الله فهو حق وصدق فإنه قال (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً) ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ وما كان من العزيز فهو عزيز غالب على جميع الكتب بنظمه ومعانيه ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ وما كان من الحكيم ففيه حكمة بالغة لأن الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه مصلحة كما قال ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات كالنار والهواء والسحاب والأمطار والطيور المختلفة ونحوها ﴿ إِلاَّ ﴾ خَلْقاً ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وأن جعلها مقرّاً للمكلفين ليعملوا فيجازيهم يوم القيامة لا بالعبث والباطل فإنه ما وجد شيء إلا لحكمة ، وفي الآية إشارة إلى أن المخلوقات كلها ما خلقت إلا لمعرفة الحق تعالى ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي وبتقدير أَجَلٍ معين ينتهي إليه أمور الكل ، وهو يوم القيامة ، وفيه إيذان بفناء العالم وموعظة وزجر أي فانتبهوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولم خلقتم ؟ فلا يغتر العبد بعلمه وعرفانه فإنه فوق كل ذي علم عليم ، ولكل حد نهاية والأمور مرهونة بأوقاتها وأزمانها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي مشركو أهل مكة ﴿ عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ به وخُوِّفوا من يوم القيامة وما فيه من الأهوال ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ بترك الاستعداد له بالإيمان والعمل ، وفيه إشارة إلى أن الإعراض عما أُنذروا به كفر ، ومن أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول في جوابه عليك نفسك أي إلزم نفسك وأنت تأمرني بهذا ؟ روي أن يهودياً قال لهارون الرشيد في سيره مع عسكره : اتق الله ، فلما سمع هارون قول اليهودي نزل من فرسه ، وكذا العسكر نزلوا تعظيماً لاسم الله العظيم ﴿ قُلْ ﴾ لِلْكَافِرِينَ توبيخاً وتبكيتاً ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ أي ما تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿ أَرُونِي ﴾ ، وهو تأكيد لأرأيتم ﴿ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي كانوا آلهة أيْ أيَّ جزء من أجزاء الأرض تفردوا بخلقه دون الله ؟ وما لكم أخبروني عن حال آلهتكم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي شركة مع الله تعالى ﴿ فِي السَّمٰوَاتِ ﴾ أي في خلقها أو ملكها وتدبيرها حتى يتوهّم أن يكون لهم شائبة استحقاق للعبودية ، فإن مالا مدخل له في وجود شيء من الأشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالكلية ، وإن كانوا من الأحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد ؟ ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ ﴾ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي ، أي ائتوني بكتاب إلهي كائن ﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك ، دالٍّ على صحة دينكم يعني أن جميع الكتب السماوية ناطقة بمثل ما نطق به القرآن ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية كائنة من علم بقيت

عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو نقلي ، وحيث لم يقم عليها شيء منها وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها .

وفيه إشارة إلى أن كل ما يُعْبَد من دون الله من الهوى والشيطان وغيرهما لا يقدر ، فإن الله هو الخالق ومنه التأثير وبيده القلوب يقلبها كيف يشاء ، فإن شاء أقامها للحق وإن شاء أزاغها للباطل وليس لعبادة غير الله دليل من المعقول والمنقول ، ولم يجوزها أحد من أولي النُّهَىٰ ﴿ وَمَنْ ﴾ استفهام خبره قوله ﴿ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو ﴾ ويعبد ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي حال كونه متجاوزاً دعاء الله وعبادته ﴿ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ أي هم أضل من كل ضال ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير ، إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة !؟ ﴿ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لنفي الاستجابة أي مادامت الدنيا ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ أي عن دعاء الداعين المشركين وعبادتهم والجمع فيهما باعتبار معنى « مَنْ » كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لكونهم جمادات لا يعقلون فكيف يستجيبون ، وعلى تقدير كون معبوديهم أحياء كالملائكة ونحوهم فهم عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم ، وضمائر العقلاء لإجرائهم الأصنام مجرى العقلاء ، ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعَبَدَتها ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ عند قيام القيامة ، والحشرُ الجمع وقيل : الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ولا يقال إلا في الجماعة وسميت القيامة يوم الحشر كما سميت يوم البعث ويوم النشر ﴿ كَانُوا ﴾ أي الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لعابديهم ﴿ أَعْدَاءً ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم ، ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي الأصنام ﴿ بِعِبَادَتِهِم ﴾ أي بعبادة عابديهم ﴿ كَافِرِينَ ﴾ أي مكذبين بلسان الحال أو المقال ، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام فتتبرأ منه عبادتهم وتقول إنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرة بالإشراك فالآية نظير قوله (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم ﴾ أي على الكفار ﴿ آيَاتُنَا ﴾ حال كونها ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على مدلولاتها من حلال وحرام وحشر ونشر وغيرها ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ أي لأجله وشأنه ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أي في أول ما جاءهم من غير تدبر وتأمل ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحراً وباطلاً لا حقيقة له ، وإذا جعلوه سحراً فقد أنكروا ما نطق به من البعث والحساب والجزاء ، وصاروا أكفر من الحمير أي أجهل لأن الكفر من الجهل والعياذ بالله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ بل أيقولون افترى محمد القرآن أي اختلقه وأضافه إلى الله كذباً ؟ فقولهم هذا منكر ومحل تعجب فإن القرآن كلام معجز خارج عن حيز قدرة البشر ، فكيف يقوله عليه السلام ويفتريه ، واعلم أن كلاً من السحر والافتراء كفر ، لكن الافتراء على الله أشنع من السحر ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ ﴾ على

الفرض والتقدير ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي فلا تقدرون أن تدفعوا عني من عذاب الله شيئاً إذ لا ريب في أن الله تعالى يعاقبني حينئذ ، فكيف أفتري على الله كذباً وأُعَرِّض نفسي للعقوبة التي لا خلاص منها ؟ ﴿ هُوَ ﴾ تعالى ﴿ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تخوضون في قدح القرآن وطعن آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ﴿ كَفَى بِهِ ﴾ أي الله ﴿ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود ، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن ، وإشعار بحلم الله عليهم مع عظم جراءتهم ، فظهر أنه لابد من تطهير الظاهر والباطن من الأنجاس والأرجاس ، بمتابعة ما جاء به خير الناس فإنما يفترق السحر والكرامة بهذه المتابعة كما قالوا : إن السحر يظهر على أيدي الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير الإلتزام بالأحكام الشرعية ومتابعة السنة ، فأما الأولياء فهم الذين بلغوا في متابعة السنة وأحكام الشريعة وآدابها الدرجة العليا ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ البِدعُ بالكسر : بمعنى البديع ، وهو من الأشياء ما لم ير مثله كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات عناداً ومكابرة ، فأُمر عليه السلام بأن يقول لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) أي لست بأول مرسل أرسل إلى البشر ، فإنه تعالى قد بعث قبلي كثيراً من الرسل وكلهم قد اتفقوا على دعوة عباد الله إلى توحيده وطاعته ، ولست داعياً إلى غير ما يدعون إليه بل أدعوا إلى الله بالإخلاص في التوحيد والصدق في العبودية ، وبعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق ، ولست قادراً على ما لم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ما تقترحون وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ، فإن من قبلي من الرسل ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله من الآيات ، ولا يخبرون قومهم إلا بما أوحي إليهم فكيف تنكرون مني إن دعوتكم إلى ما دعا إليه من قبلي من الأنبياء ؟ وكيف تقترحون عليَّ ما لم يؤته الله إياي ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ والمعنى وما أعلم أي شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، وإلى ما يصير أمري وأمركم في الدنيا ، فإنه قد كان في الأنبياء من يسلم من المحن ، ومنهم من يمتحن بالهجرة من الوطن ومنهم من يبتلى بأنواع من الفتن ، وكذلك الأمم منهم من أهلك بالخسف ومنهم من كان هلاكه بالقذف وكذا بالمسخ وبالريح وبالصيحة والغرق وبغير ذلك ، فنفى عليه السلام علم ما يفعل به وبهم من هذه الوجوه ، وعلم من هو الغالب المنصور منه ومنهم ، ثم عرّفه الله بوحيه إليه عاقبة أمره وأمرهم فأمره بالهجرة ووعده العصمة من الناس ، وأمره بالجهاد وأخبر أنه يظهر دينه على الأديان كلها ، ويُسَلِّط على أعدائه ويستأصلهم ، وقيل يجوز أن يكون المنفي هي الدراية المفصّلة ، أي وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدارين على التفصيل إذ لا علم لي بالغيب ، كان الإجمال معلوماً فإن جند الله هم الغالبون وأن مصير الأبرار إلى النعيم ، ومصير الكفار إلى الجحيم ، وقال المولى أبو السعود رحمه الله : والأظهر الأوفق لما ذكر من سبب النزول أن (ما) عبارة عما ليس في علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية دون

ما سيقع في الآخرة فإن العلم بذلك من وظائف النبوة وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ، وفي الآية إشارة إلى فساد أهل القدر والبدع حيث قالوا إيلام البرايا قبيح في العقل فلا يجوز لأنه لو لم يجز ذلك لكان يقول أعظم البرايا : أعلم قطعاً أني رسول الله معصوم فلا محالة يغفر لي ، ولكنه قال (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) ليعلم أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، له أن يفعل بعباده ما يريد ولا يسأل عما يفعل ، وحقيقة الآية البراءة من علم الغيب ﴿ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليَّ ، على معنى قصر أفعاله عليه السلام على اتباع الوحي ﴿ **وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ** ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما يوحى إلي ﴿ **مُبِينٌ** ﴾ بيِّنٌ الإنذار لَكُم بالمعجزات الباهرة ، ففيه أنه عليه السلام أرسل مبلغاً وليس إليه من الهداية شيء ولكن الله يهدي من يشاء ، وأن علم الغيوب بالذات مختص بالله تعالى ، وأما إخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام فبواسطة الوحي والإلهام وتعليم الله سبحانه ، ومن هذا القبيل إخباره عليه السلام عن أشراط الساعة وما يظهر في آخر الزمان من غلبة البدع والهوى وإخباره عن حال بعض الناس كما قال عليه السلام إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه الناس من أصحاب رسول الله فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عملك الذي ترجو به ؟ فقال إني ضعيف ، وإنَّ أوثق ما أرجو به سلامة الصدر وترك مالا يعنيني ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أخبروني أيها القوم ﴿ **إِنْ كَانَ** ﴾ ما يوحى إليَّ من القرآن في الحقيقة ﴿ **مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ، وفي كشف الأسرار « إن » هنا ليس بشك كقول شعيب (**أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**) لو هناك ليس بشك بل هما من صِلات الكلام ﴿ **وَكَفَرْتُمْ بِهِ** ﴾ أي والحال أنكم قد كفرتم به ، فهو حال بإضمار قد ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ** ﴾ عظيم الشأن ﴿ **مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ الواقفين على شؤون الله وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة ﴿ **عَلَىٰ مِثْلِهِ** ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة ، المطابقة لما في القرآن ، من التوحيد ، والوعد والوعيد ، وغير ذلك ، فإنها عين ما فيه في الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى (**وَإِنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ**) وقيل المثل صلة يعني عليه أي وشهد شاهد على أنه من عند الله ﴿ **فَآمَنَ** ﴾ الفاء للدلالة على أنه سارع في الإيمان بالقرآن ، لَمَّا علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق ، وليس من كلام البشر ﴿ **وَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ وجواب الشرط محذوفٌ ، والمعنى : أخبروني إن كان من عند الله وشهد على ذلك أعلم بني إسرائيل ، فآمن به من غير تلعثم ، واستكبرتم عن إيمان به بعد هذه المرتبة ، من أضل منكم ؟ بقرينة قوله تعالى (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**) ؟ ﴿**إِنَّ اللهَ لاَيَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ الذين يضعون الجحد والإنكار موضع الإقرار والتسليم ، وصفهم بالظلم للإشعار بعلية الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم وعنادهم بعد وضوح البرهان ، وفيه إشارة إلى أنه لا عذر لهم بحال ، إذ عند وجود الشاهد على حقية الدعوى تبطل

الخصومة ، وذلك الشاهد في الآية « عبد الله بن سلام » حَبْرُ أهلِ التوراة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله « عبد الله » رضي الله عنه وذلك لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة ، أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر ، فقال له إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيٌّ : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وان سبق ماء المرأة نزعته ، فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً ، فقام : ثم قال يارسول الله أن اليهود قوم بُهْتٌ فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فخبأه عنده فجاء اليهود فقال لهم النبي عليه السلام أيُّ رجل عبد الله فيكم؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا ، وسيِّدُنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالو : شرُّنا وابن شرِّنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنتُ أخاف يارسول الله وأحذر ، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : ما سمعتُ رسول الله عليه السلام يقول لأحدٍ يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزل (**وشهد شاهد**)[1] إلخ ، وفي الآية إشارة إلى التوفيق العام وهو التوفيق إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وما جاء به ، وأما التوفيق الخاص فهو التوفيق إلى العمل بالعلم المشروع ، الذي ندبك الشارع إلى الاشتغال بتحصيله ، سواء كان العمل فرضاً أم تطوعاً ، وغاية العمل والمجاهدات والرياضات تصفية القلب والتخلق بالأخلاق الإلهية ، والوصول إلى العلوم الذوقية ، فالإيمان بالله وبالأنبياء أصل الأصول كما أن الإنكار والاستكبار ، سبب الحرمان والخذلان ، فإن أقل عقوبة المنكر أن يحرم بركتهم ، قال أبو تراب النخشبي : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا** ﴾ أي كفار مكة من كمال استكبارهم ﴿ **لِلَّذِينَ آمَنُوْا** ﴾ أي لأجلهم ، فليس الكلام على المواجهة والخطاب حتى يقال « ما سبقونا » ﴿ **لَوْ كَانَ** ﴾ أي ما جاء به محمد عليه السلام من القرآن والدِّين ﴿ **خَيْرًا** ﴾ حقاً ﴿ **مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** ﴾ فإن معالي الأمور لا تنالها أيدي الأرذال وهم فقراء وموالي ورعاة ، قالوه زعماً منهم أن الرياسة الدينية ، مما ينال بأسباب دنيوية ، وزل عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية ، وملكات روحانية، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية ، والإقبال على الآخرة بالكلية وأنَّ من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ، ومن حرمها فما له منها من خلاق ، يقول الفقير : الأولى في مثل هذا المقام أن يقال : إن الرياسة الدينية فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء ، بغير علل وأسباب ، فإن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وذكرت روايات أخرى في الصحيحين وفيها قصة طويلة عن عبد الله بن سلام ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٨١ .

القابلية أيضاً إعطاء من الله تعالى ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوْا بِهِ** ﴾ أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان قالوا ما قالوا ﴿ **فَسَيَقُولُوْنَ** ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿ **هَذَا** ﴾ القرآن ﴿ **إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ كما قالوا أساطير الأولين فقد جهلوا بلبِّ القرآن وعادوه ، لأن الناس أعداء ما جهلوا ، ومن كان مريضاً مرَّ الفم ، يجد الماء الزلال مرّاً ، فلا ينبغي لأحد أن يستهين بشيء من الحق ، إذا لم يهتد عقله به ، ولم يدركه فهمه ، فإن ذلك من محض الضلالة والجهالة ، بل ينبغي أن يطلب الاهتداء من الهادي ﴿ **وَمِنْ قَبْلِهِ** ﴾ أي من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى ﴿ **كِتَابُ مُوْسَى** ﴾ رد لقولهم « هذا إفك قديم » وإبطال له ، فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى مقرر لحقيته قطعاً ، يعني كيف يصح هذا القول منهم وقد سلَّموا لأهل كتاب موسى أنهم من أهل العلم ، وجعلوهم حكماً يرجعون لقولهم في هذا النبي ؟ وهذا القرآن مصدق له ، أو له ولسائر الكتب الإلهية ﴿ **إِمَامًا** ﴾ أي إماماً يقتدى به في دين الله ﴿ **وَرَحْمَةً** ﴾ لمنْ آمن به وعمل بموجبه ﴿ **وَهَذَا** ﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿ **كِتَابٌ** ﴾ عظيم الشأن ﴿ **مُصَدِّقٌ** ﴾ أي لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة ، أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿ **لِسَانًا عَرَبِيًّا** ﴾ أي ملفوظاً به على لسان العرب لكون القوم عرباً ﴿ **لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوْا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ أي للإنذار والتبشير ، ومن الظالمين اليهودُ والنصارى ، فإنهم قالوا عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، وغيروا ذكر محمد ﷺ ونعته في التوراة والإنجيل ، وحرفوا الكلم عن مواضعه فكان عليه السلام نذيراً لهم ، وبشيراً للذين آمنوا بجميع الأنبياء والكتب المنزلة ، أما الإنذار فبالنار وبالفراق الأبدي ، وأما التبشير فبالجنة وبالوصل السرمدي ، ولذا قال « للمحسنين » فإن الإحسان عبادة الله بطريق المشاهدة ، وإذا حصل الشهود حصل الوصل ، وبالعكس نسأل الله من فضله ، فعلى العاقل أن يجتهد في طريق الحق حتى يسعد بسعادة الشهود ويكون من أهل البشرى ، وعلى هذا جرى العلماء المخلصون وعباد الله الصالحون ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا** ﴾ أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم ، والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل ، و « ثم » للدلالة على تراخي رتبة العمل ، وتوقف الإهتداء به على التوحيد ، قال ابن طاهر : استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد ، فلم يروا سواه منعماً ، ولم يشركوا سواه وثبتوا على منهاج الاستقامة ﴿ **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ من لحوق مكروه ﴿ **وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ من فوات محبوب ، والمراد بيان دوام نفي الحزن ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ ملازموها ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ حال من المستكن في أصحاب ﴿ **جَزَاءً** ﴾ منصوب إما بعامل مقدر أي يجزون جزاء أو بمعنى ما تقدم ، فإن قوله تعالى (**أولئك أصحاب الجنة**) في معنى جازيناهم ﴿ **بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ** ﴾ من الحسنات العلمية والعملية ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أنهم قالوا ربنا الله من بعد استقامة الإيمان في قلوبهم ، ثم

استقاموا بجوارحهم على أركان الشريعة ، وبأخلاق نفوسهم على آداب الطريقة بالتزكية وبالتخلق بأخلاق الحق فقالوا ربنا الله باستقامة الإيمان ثم استقاموا بالنفوس على آداء الأركان ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ** ﴾ عهدنا إليه وأمرناه بأن يحسن ﴿ **بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً** ﴾ فحذف الفعل واقتصر على المصدر دالاً عليه ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ** ﴾ الأم هي الوالدة القريبة التي ولدته ويُقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدأه أم ﴿ **كُرْهاً** ﴾ أي حال كونها ذات كره ، وهو المشقة والصعوبة يزيد حاله ثقل الحمل في بطنها ، لا في ابتدائها ، فإن ذلك لا يكون فيه مشقة ، أو حملته حملاً ذا كره ، وكذا قوله ﴿ **وَوَضَعَتْهُ** ﴾ أي ولدته ﴿ **كُرْهاً** ﴾ وهي شدة الطلق ﴿ **وَحَمْلُهُ** ﴾ أي مدة حمله في البطن ﴿ **وَفِصَالُهُ** ﴾ وهو الفطام أي قطع الولد عن اللبن ، والمراد به الرضاع التام المنتهي به .

﴿ **ثَلاَثُونَ شَهْراً** ﴾ تمضي عليها بمقاساة الشدائد لأجله ، وهذا دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لما أنه إذا حط منها للفصال حولان ، لقوله تعالى (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) يبقى للحمل ذلك وبه قال الأطباء ، فبقي سنتان للرضاع وبه قال أبو يوسف ومحمد ، ومن مصَّ ثدي امرأة في أثناء حولين من مدة ولادته ، تكون المرضعة أمّاً له ، ويكون زوجها الذي لبنها منه أباً له ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ** ﴾ غاية لمحذوف أي أخذ ما وصيناه به ، حتى إذا بلغ وقت أشده بحذف المضاف وبلوغ الأشد أن يكتهل ، ويستوفي السن الذي تستحكم فيه قوته وعقله وتمييزه ، وسن الكهولة ما بين سن الشباب وسن الشيخوخة ﴿ **وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** ﴾ أي تمام أربعين ، قيل لم يبعث نبي قبل أربعين وهو ضعيف لأن عيسى ويحيى عليهما السلام بعثا قبل الأربعين ، قال ابن الجوزي قوله « ما من نبيّ نُبِّىء إلاَّ بعد الأربعين » موضوع ، لان عيسى نبيء ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً ، فاشتراطُ الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء انتهى ﴿ **قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي** ﴾ أي ألهمني قال الراغب : وتحقيقه أولعني بذلك ﴿ **أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ** ﴾ أي نعمة الدين والإسلام فإنها النعمة الكاملة ، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه ، لأن النعمة عليهما نعمة عليه ﴿ **وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ** ﴾ أي تقبله وهي الفرائض الخمس ، وغيرها من الطاعات ، والتنوين للتفخيم ، ، وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن للعبد أن يعمل عملاً يرضي به ربه إلا بتوفيقه وإرشاده ﴿ **وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي** ﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، راسخاً فيهم ، ولذا استعمل بفي وإلا فهو يتعدى بنفسه ، كما في قوله (**وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**) قال سهل : اجعلهم لي خَلَف صدقٍ ، ولك عبيداً حقاً ، وقال محمد بن علي : لا تجعلْ للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً ، وفيه إشارة إلى أن صلاحية الآباء تورث صلاحية الأبناء ﴿ **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ** ﴾ عما لا ترضاه ، أو عما يشغلني عن ذكرك ﴿ **وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ إشارة إلى الإنسان ، والجمع لأن المراد به الجنس ، أي أولئك المنعوتون

بما ذُكر من النعوت الجليلة ﴿ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ من الطاعات واجبة أو مندوبة ، فإن المباحات حسن لا يثاب عليها ، وقيل : إن إضافة (أحسن) من إضافة الصفة إلى موصوفها ، والتقدير أعمالهم الحسنى ، ولا يلزم منه أن لا يتقبل منهم الأعمال الحسنة ، بل يكون فيه إشارة إلى أن كل أعمالهم أحسن عند الله تعالى بموجب فضله ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي ما فعلوا قبل التوبة ولا يعاقبون عليها ، قال الحسن : من يعمل سوأ يجزبه ، إنما ذلك لمن أراد الله هَوَانَه ، وأما من أراد كرامته ، فإنه يتجاوز عن سيئاته ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي حال كونهم في عداد أصحاب الجنة ، منتظمين في سلوكهم ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ مصدر مؤكد لما أن قوله تعالى نتقبل ونتجاوز وعد من الله لهم بالتفضل والتجاوز ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ، وفي الآية إشارة إلى رعاية حق الوالدين على جهة الاحترام ، لما عليه لهما من حق التربية والإنعام ، ليعلم أن رعاية حق الحقّ تعالى على جهة التعظيم ، لما عليه له من حق الربوبية ، وإنعام الوجود أحق وأولى ، وقال بعضهم : دلت الآية على أن حق الأم أعظم لأنه تعالى ذكر الأبوين معاً ، ثم خصَّ الأم بالذكر ، وبيَّن كثرة مشقتها بسبب الولد ، زمان حملها ووضعها وإرضاعها ، مع جميع ما تكابده في أثناء ذلك ، قال في فتح الرحمن: عدَّد تعالى على الأبناء منن الأمهات ، وذكر الأم في هذه الآيات في أربع مراتب ، والأب في واحدة ، جمعها في الذكر في قوله (بِوالِدَيْهِ) ثم ذكر الحمل للأم ، ثم الوضع لها ، ثم الرضاع الذي عبر عنه بالفصال ، فهذا يناسب ما قاله رسول الله ﷺ حين جعل للأم ثلاثة أرباع البرّ والربع للأب ، وذلك إذ قال له رجل يارسول الله « من أبرُّ ؟ قال أمك ، قال ثمَّ من ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أباك »[1] قال بعض الأولياء وهو إبراهيم الخواص : كنتُ في تيه بني إسرائيل فإذا رجل يماشيني فتعجبت منهُ ، وأُلهمتُ أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحقّ الحق من أنت ؟ قال : أخوك الخضر ، فقلت له أريد أن أسألك ، قال : سل ، قلت ما تقول في الشافعي : قال هو من الأوتاد ، قلت : فما تقول في أحمد بن حنبل إمام السنة ؟ قال هو رجل صِدّيقٌ ، قلت فما تقول في بشر ابن الحارث ؟ قال : رجل لم يخلف بعده مثله ، قلت : فبأي وسيلة رأيتك ؟ قال ببرك أمك ، وجاء رجل إلى النبي عليه السلام ليستشيره في الغزو فقال ألك والدة ؟ قال نعم ، قال : فالزمها فإن الجنة تحت قدميها[2] ﴿ وَالَّذِي ﴾ مبتدأ خبره أولئك ، لأن المراد به أي بالموصول الجنس ﴿ قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ، واللفظ للترمذي ، وفي نهايته « ثم أباك ثم الأقربَ فالأقربَ » وانظر جامع الأصول ١ / ٣٩٨.

(٢) الحديث أخرجه النسائي عن معاوية بن جاهمة بلفظ (فالزمها فإن الجنة عند رجلها) وأخرجه أحمد في المسند ٣ / ٤٢٩ وإسناده حسن ، وصححه الحاكم ، وانظر جامع الأحكام ١ / ٤٠٣ والسائل هنا هو « جَاهِمَة » جاء إلى الرسول وقال : أريد أن أغزو .. إلخ

عند دعوتها له إلى الإيمان ، ويدخل فيه كل عبد سوء عاقٍ لوالديه فاجر لربه ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ وهو صوت يصدر عن المرء عند تضجره وكراهيته ، أي هذا التأفيف لكما خاصة ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أُبعث من القبر بعد الموت ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُوْنُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أي وقد خلت أمة بعد أمة من قبلي ، ولم يبعث منهم أحد ولم يرجع ، والقرنُ : القوم المقترنون في زمن واحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ ﴾ ويسألانه أن يغيثه ويوفّقه للإيمان ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي قائلين له ويلك ، وهو في الأصل دعاء عليه بالهلاك ، أريد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ آمِنْ ﴾ أي صدّق بالبعث والإخراج من الأرض ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ أي موعوده وهو البعث ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن لا محالة ، لأن الخلف في الوعد نقصٌ يجب تنزيه الله عنه ﴿ فَيَقُولُ ﴾ مكذباً لها ﴿ مَا هَذا ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أباطيلهم التي يسطرونها في الكتب ، من غير أن يكون لها حقيقة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أي في عداد أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ بيان للأمم ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ جميعاً أي هم والأمم ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ قد ضيّعوا فطرتهم الأصلية باتباع الشيطان ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوْا ﴾ مراتب من أجزية ما عملوا من الخير والشر ، والدرجات مكانةٌ عالية في مراتب المثوبة ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وليعطيهم أجزية أعمالهم وافية تامة ، من وفّاه حقه : إذا أعطاه إياه وافياً تامّاً ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب ، وفي الآية ذم لمن اتصف في حق الوالدين في التأفيف ، وفي ذلك تنبيه على ما وراءه من التعنيف ، فحكم أن صاحبه من أهل الخسران ، والخسرانُ نقصانٌ في الإيمان ، وفي الحديث (إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم)[1] ، وقيل إذا تعذر مراعاة حق الوالدين جميعاً بأن يتأذى أحدهما بمراعاة الآخر يرجّح حق الأب فيما يرجع إلى التعظيم والإحترام ، لأن النسب منه ، ويرجح حق الأم فيما يرجع إلى الخدمة والإنعام حتى لو دخلا عليه يقوم للأب ، ولو سألا منه شيئاً يبدأ في الإعطاء بالأم ، كما في منبع الآداب ، ويجب على الأبوين أن لا يحملا الولد على العقوق، بسوء المعاملة والجفاء ، ويعيناه على البرِّ ، وقد ورد « رحم الله والداً أعان ولده على البر » أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله ، قال الحسن البصري : من عقل الرجل أن لا يتزوج وأبواه في الحياة انتهى فإنه ربما لا يرضى أحدهما عنه بسبب زوجته فيقع في الإثم ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوْا عَلَى النَّارِ ﴾ أي يُعذَّبون بها ، فالعرضُ محمول على التعذيب مجازاً ، من قولهم عُرض الأسارى على السيف أي قُتلوا ، وإلا فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والنار ليست منه ، وقيل : تُعرضُ النار عليهم

(١) أخرجه النسائي بلفظ (لا يدخل الجنة منّانٌ ، ولا عاقٌ ، ولا مدمنُ خمر) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٣٦٠ .

بحيث تبدو لهم النار ومواقعهم فيها ، وذلك قبل أن يلقوا فيها ، والتحقيقُ أن نار الآخرة لها شعور وإدراك بدليل أنها تقول (**هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**) وتقول للمؤمنين جُزْ يامؤمنُ فإن نورَك أطفأ ناري ، وأمثال ذلك ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ** ﴾ أي يقال لهم ذلك على التوبيخ وهو الناصب للظرف أي اليوم والمعنى أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿ **فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** ﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ، لأن إضافة الطيبات تفيد العموم ﴿ **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ** ﴾ أي الهوان والحقارة أي العذاب الذي فيه ذلٌّ وخِزيٌ ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ** ﴾ في الدنيا ﴿ **تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ** ﴾ بغير استحقاق لذلك ، وفيه إشارة إلى أنَّ الإستكبار إذا كان بحق ، كالاستكبار على الظلمة لا يُنكر ﴿ **وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ أي تخرجون عن طاعة الله أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين ، علل سبحانه ذلك العذاب بأمرين : أحدهما : الاستكبار عن قبول الدين الحق ، والإيمان بمحمد عليه السلام ، وهو ذنب القلب ، والثاني : الفسق والمعصية بترك المأمورات وفعل المنهيات ، وهو ذنب الجوارح ، وقدَّم الأول على الثاني لأن ذنب القلب أعظم تأثيراً من ذنب الجوارح ، والآية مناديةٌ بأن استيفاء الحظ من الدنيا ولذاتها ، صفة من صفات أهل النار ، فعلى كل مؤمن ذي عقل وتمييز ، أن يجتنب ذلك اقتداء بسيد الأنبياء وأصحابه الصالحين ، حيث آثروا اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة ، رُوي عن عمر رضي الله عنه (أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على حصير ، وقد أثّر بجنبيه الحصيرُ فبكى عمر ، فقال ما يبكيك ياعمر ؟ فقال : ذكرتُ كسرى وقيصر، وما كانا فيه من الدنيا ، وأنت رسول رب العالمين قد أثر بجنبيك الحصيرُ ، فقال عليه السلام : أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أُخِّرَت لنا طيباتنا في الآخرة)[1] . قالت عائشة رضي الله عنها (ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ وأول بدعة حدثت بعده الشبع)[2] ، وقالت أيضاً : (لقد كان يأتي علينا الشهر والشهران ما يوقد لنا نارٌ وما هو إلا الماء والتمر ، غير أنه جزى الله عنا نساء الأنصار خيراً كُنَّ ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن)[3] ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحماً معلقاً في يدي فقال : ما هذا ياجابر ؟ قلت : اشتهيت لحماً فاشتريته ، فقال عمر : أوَ كلَّما اشتهيت ياجابر اشتريتَ ؟ أما تخف هذه الآية (**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وله قصة طويلة انظر إليها في جامع الأصول ٢ / ٤٠٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بدون هذه الزيادة (وأول بدعةٍ حدثت بعده الشبع) وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٨٣ .

(٣) الحديث في الصحيحين بروايات متعددة ، وفي رواية لمسلم عن عائشة أنها قالت لعروة (واللهِ يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ـ ثلاثةُ أهلَّةٍ في شهرين ـ وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار ، قلتَ يا خالة : فما كان يُعيشكُم ؟ قالت الأسودان : التَمر ، والماء ، إلاّ أنه كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها ، فيسقيناه) وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٨٣ .

حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) ؟ قال أبو هريرة رضي الله عنه : لقد رأيت سبعين نفساً من أصحاب الصفة رضي الله عنهم ما منهم رجل عليه رداء إما إزار أو كساء ، قد ربطوه في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ أي واذكر يا محمد لكفار مكة هوداً عليه السلام ليعتبروا من حال قومه ، فمعنى أخا عاد واحداً منهم في النسب لا في الدين ، كما في قولهم ياأخا العرب ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ أي وقت إنذاره إياه ﴿ بِالأَحْقَافِ ﴾ بموضع يقال له الأحقاف جمع حِقْف ، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء إذا إعوج ، وعن بعضهم كانت عاد أصحاب عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة إرم يسكنون بين الرمال مشرفة على البحر ، بأرض يقال لها الشِحْر من بلاد اليمن ساحل البحر بين عمان وعدن ، وقيل يسكنون بين عمان ومهرة ، قال في فتح الرحمن : الصحيح من الأقوال أن بلاد عاد كانت في اليمن ولهم كانت أرم ذات العماد ، والأحقاف جمع حقف وهو الجبل المستطيل المعوج من الرمل وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى لأن الريح تصنع ذلك انتهى .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي الرسل جمع نذير بمعنى المنذر ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي من قبله ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي من بعده مؤكداً لوجوب العمل بموجب الإنذار ، وسط بين إنذار قومه وبين قوله ﴿ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ ﴾ والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم ، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ، ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك ، فاذكرهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي هائل بسبب شرككم وإعراضكم عن التوحيد ، واليوم العظيم يوم نزول العذاب عليهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ أي تصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها إلى دينك ، وهذا مما لا يكون ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في وعدك بنزوله بنا ﴿ قَالَ ﴾ أي هود ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ أي بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ وحده لا علم لي بوقت نزوله ، ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله ، وإنما علمه عند الله تعالى ، فيأتيكم به في وقته المقدر له ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من مواجب الرسالة التي من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ حيث تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب ، وتعين وقته ، ولو كان للمرء عقل تام ومعرفة كاملة لما تبع الهوى ولعَبَد المولى ، قال بعضهم : يجب عليك أولاً أن تعرف المعبود ثم تعبده ، وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته ، وما يجب له وما يستحيل في نعته ؟ فربما تعتقد شيئاً في صفاته يخالف الحق فتكون عبادتك هباءً منثوراً ، وكذلك يجب عليك علم الواجبات الشرعية لتؤديها كما أمرت بها وكذا علم المناهي لتتركها ، ويجب عليك أيضاً معرفة الأحوال والأخلاق والتحرز عن

مذموماتها كالحسد والرياء والعجب والكبر وحب المال والجاه ونحو ذلك ، وتتخلق بممدوحاتها من التوكل والقناعة والرضى والتسليم واليقين ونحو ذلك ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي فأتاهم العذاب الموعود به فلما رأوه حال كونه ﴿ عَارِضاً ﴾ أي سُمِّي سحاباً لأنه يعرض في أفق السماء ، أو يبدو في عرض السماء ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِم ﴾ أي متوجهاً تلقاء أوديتهم ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أي يأتينا بالمطر ، رُوي أنه خرجت عليهم سحابة سوداء من وادٍ لهم يقال له المغيث ، وكانوا قد حبس عنهم المطر ، فلما شاهدوها قالوا ذلك مستبشرين بها مسرورين ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هو ليس الأمر كذلك بل هو ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ ﴾ أي هو ريح ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفة لريح ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أي تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مرت به من نفوسهم وأموالهم والمراد المشركون منهم ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ إذ لا حركة ولا سكون إلا بمشيئته تعالى ، وأضاف الرب إلى الريح مع أنه تعالى ، رب كل شيء لتعظيم شأن المضاف إليه ، وللإشارة إلى أنها في حركتها مأمورة ، وأنها من أكابر جنود الله ، يعني ليس ذلك من باب تأثيرات الكواكب ، بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل التعذيب ﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ أي صاروا من العذاب بحال ﴿ لاَ يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ الفاء فصيحة أي فجأتهم الريح فدمرتهم ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع يعني الهلاك بعذاب الاستئصال ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والآية وعيد لأهل مكة على إجرامهم بالتكذيب ، فإن الله تعالى قادر على أن يرسل عليهم ريحاً مثل ريح عاد أو نحوها ، فلابد من الحذر ، وعن عائشة رضي الله عنها كان النبي عليه السلام إذا رأى ريحاً مختلفة تلوّن وجهه وتغير ودخل وخرج وأقبل وأدبر فذكرت ذلك له فقال وما تدرون لعله كما قال الله تعالى (فلما رأوه عارضاً) إلخ ، فإذا أمطرت سُري عنه)[1] . ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ والمعنى أقدرنا عاداً وملكناهم ﴿ فِيمَا ﴾ أي في الذي ﴿ إِنْ ﴾ أي ما ﴿ مَكَّنَّاكُمْ ﴾ أي ياأهل مكة ﴿ فِيهِ ﴾ من السَّعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادىء التصرفات ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ، ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ، ويستدلوا بها على شئون منعمها عز وجل ، ويدوموا على شكرها ، ولعل توحيد السمع لأنه لا يدرك به إلا الصوت وما يتبعه ، بخلاف البصر حيث يدرك به أشياء كثيرة بعضها بالذات وبعضها بالواسطة ، والفؤاد يعم إدراك كُل شيء والفؤاد من القلب كالقلب من الصدر سمي به لتفؤده أي لتوقده تحرقاً ﴿ فَمَا ﴾ نافيه ﴿ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ، ومواعظ الرسل يقال : أغنى عنه كذا إذا كفاه

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي عن عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به .. فإذا تخيلت السماء تغيَّر لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّي عنه ، فسألتُه فقال : لا أدري لعله كما قال قوم عاد « هذا عارضٌ ممطرنا » وانظر الدر المنثور ٦ / ٤٣ .

﴿ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء ، و« مِنْ » مزيدة للتأكيد ﴿ إِذْ كَانُوا ﴾ حيث كانوا ﴿ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ لا يؤمنون بها وينكرونها ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ نزل وأحاط ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء فيقولون « فَأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وفي الآية تخويف لأهل مكة ليعتبروا ، وفي الآية إشارة إلى أن هذه الآلات التي هي السمع والبصر والفؤاد أسباب تحصيل التوحيد ، وبدأ بالسمع لأن جميع التكليف الوارد على القلب إنما يوجد من قبل السمع ، وثنىّ بالبصر لأنه أعظم شاهد بتصديق المسموع منه ، وبه حصول ما به التفكر والاعتبار غالباً تنبيهاً على عظمة ذلك .

والمراد في جميع التكاليف سلامة القلب ، فعلى العاقل سماع الحق والتخلق بما يسمع ، والمبادرة إلى الإنقياد للتكليفات في جميع الأعضاء ، وفعل ما قدر عليه من المندوبات واجتناب ما سمع من المنهي عنه من المحرمات ، والتعفف عن المكروهات وترك فضلات المباحات ، فليحاسب العبد نفسه قبل وقت المحاسبة ، فكما يجب ترك الظلم باليد ونحوها ، فكذا ترك معاونة الظلمة ، وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب فقال ناولني الكتاب أولاً حتى انظر ما فيه ، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ، فمن أقر بآيات الله الناطقة بالحلال والحرام كيف يجترىء على ترك العمل ؟ فيكون من المستهزئين بها ، فالتوحيد والإقرار أصل الأصول ، ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ ياأهل مكة وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يحول إليه ﴿ مِنَ الْقُرَى ﴾ كحجر ثمود ، وهي منازلها ، والمؤتفكات ، وهي قرى قوم لوط ، والظاهر من أهل القرى فيدخل فيهم عاد فإنهم أهلكوا وبقيت مساكنهم ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات ﴾ التي يعتبر بها أي كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لكي يرجعوا عماهم فيه من الكفر والمعاصي لأنها أسباب الرجوع إلى التوحيد والطاعة ، ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً ﴾ القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى والتقديرُ : فهلاَّ نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقرباً بها إلى الله تعالى حيث كانوا يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وفيه تهكم بهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي غابوا عنهم ، وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم نصرتهم لغيبتهم ، أو ضاعوا عنهم أي ظهر ضياعهم عنهم بالكلية ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرتهم ﴿ إِفْكُهُمْ ﴾ أي أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، ونتيجة شركهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي وأثر افترائهم على الله أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى ، وفي الآية إشارة إلى أن الأسباب والوسائل نوعان : أحدهما ما أذن الله تعالى في أن يتوسل العبد به إليه كالذي جاء به الأنبياء من الوحي والطاعات فهذه أسباب الهدى كما قال

تعالى (**وابْتَغوا إليهِ الوَسيلةَ**) و(**كونوا مع الصّادِقينَ**) والثاني مالم يأذن فيه الله كعبادة الأصنام ونحوها فهذه أسباب الهوى كما نطقت بها الآيات ، ثم إن الله تعالى إنما يفعل عند الأسباب لا بالأسباب ليعلم العبد أن التأثير من الله تعالى فيستأنس بالله لا بالأسباب ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ** ﴾ أملناهم إليك ، وأقْبلنا بهم نحوك ، والنفر دون العشرة وجمعه أنفار ، قال الراغب : النفر عدة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب ونحوها ، والجن من المخلوقات المغيبة عنا وهم ثلاثة : أخيار وهم الملائكة ، وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الجن ﴿ **يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ أي واذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفراً كائناً من الجن مقدراً استماعهم القرآن ﴿ **فَلَمَّا حَضَرُوهُ** ﴾ أي القرآن عند تلاوته ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ **أَنْصِتُوا** ﴾ الإنصات هو الاستماع إلى الصوت مع ترك الكلام أي اسكتوا لسمعه ، وفيه إشارة إلى أن من شأنهم فضول الكلام واللغط كالإنس ﴿ **فَلَمَّا قُضِيَ** ﴾ أتم وفرغ من تلاوته ﴿ **وَلَّوا إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ** ﴾ انصرفوا إلى قومهم مقدرين انذارهم عند رجوعهم إليه ، يعني آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا ورجعوا إلى قومهم منذرين ، ولا يلزم من رجوعهم بهذه الصفة أن يكونوا رسل رسول الله عليه السلام إذ يجوز أن يكون الرجل نذيراً ولا يكون نبياً ، أو رسولاً من جانب أحد فالنذارة في الجن من غير نبوة ، روي أن الجن كانت تسترق السمع فلما حُرست السماء ، وَرُجِموا بالشهب قالوا ما هذا إلاّ لأمرٍ حدث ، فنهض سبعة نفر أو ستة نفر من أشراف جن نصيبين ورؤسائهم ، ونصيبين بلد قاعدة ديار ربيعة ، وقيل : هي مدينة بالشام ، وقيل باليمن ، فضربوا في الأرض حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة عند سوق عكاظ فوافوا رسول الله ﷺ أي صادفوه ووجدوه وهو قائم في جوف الليل يصلي وكان وحده أو معه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وفي رواية يصلي صلاة الفجر إذ كان إذ ذاك مأموراً بركعتين بالغداة وبركعتين بالعشي فهي غير صلاة الفجر التي هي إحدى الخمس المفترضة ليلة الإسراء إذ الحيلولة بين الجن وبين خبر السماء بالشهب كانت في أوائل الوحي ، وليلة الإسراء كانت بعد ذلك بسنين عديدة فاستمعوا لقراءته عليه السلام وكان يقرأ (طه) وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم على الإسلام والقيام على من خالَفَه من قومه فلم يجيبوه إلى مطلوبه ، وأغروا به سفهاءهم فآذوه عليه السلام أذى شديداً ودقوا رجليه بالحجارة حتى أدموها ، وكان أقام بالطائف يدعوهم عشرة أيام وشهراً وأقام بنخلة أياماً فلما أراد الدخول إلى مكة قال له زيد : كيف تدخل عليهم يعني قريشاً وهم قد أخرجوك أي كانوا سبباً لخروجك وخرجت لتستنصرهم فلم ينصروك ؟ فقال ، يا زيد ان الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه ، فسار عليه السلام إلى جبل حراء وبعث إلى مطعم بن عدي وقد مات كافراً قبل بدر بنحو سبعة أشهر يقول له : إني داخل مكة في جوارك فأجابه إلى ذلك فدخل عليه السلام مكة ثم تسلح مطعم وبنوه وهم ستة أو سبعة وخرجوا حتى أتوا المسجد الحرام

فقام مطعم على راحلته فنادى يامعشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يؤذيه أحد منكم ثم بعث إلى رسول الله عليه السلام أن ادخل فدخل وطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ، ومطعم وولده مطيفون به وكان من عادة العرب حفظ الجوار ولذا قال أبو سفيان لمطعم أجرنا من أجرت ، ثم أن مرور الجن به عليه السلام في هذه القصة ووقوفهم مستمعين لم يشعر به عليه السلام ولكن أنبأه الله باستماعهم وذكر اجتماعهم به عليه السلام في مكة مراراً ، فمن ذلك ما روي أن النفر السبعة من الجن لما انصرفوا من بطن نخلة جاؤا إلى قومهم منذرين ثم جاؤا مع قومهم وافدين إلى رسول الله عليه السلام وهو بمكة وهم ثلاثمائة أو إثنا عشر ألفاً فانتهوا إلى الحجون ـ وهو موضع فيه مقابر مكة ـ فجاء واحد من أولئك النفر إلى رسول الله فقال : إن قومنا قد حضروا بالحجون يلقونك ، فوعده عليه السلام ساعة من الليل ، ثم قال لأصحابه : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة وأنذرهم فمن يتبعني ؟ قالها ثلاثاً فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فقام معه قال فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون خطَّ لي خطاً برجله ، وقال لي لا تخرج منه حتى أعود إليك فإنك إن خرجت لن تراني إلى يوم القيامة ، وفي رواية لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم ، ثم جلس وقرأ عليهم اقرأ باسم ربك أو سورة الرحمن وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ، فقال عليه السلام هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم رجالاً سوداً كأنهم رجال الزط وهم طائفة من السودان الواحد منهم زَطِّيٌّ ، فقال أولئك جن نصيبين ، قلت : سمعت لغطاً شديداً حتى خفت عليك إلى أن سمعتك تقرعهم بعصاك وتقول اجلسوا ، فقال : إن الجن تداعت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إليَّ فحكمت بينهم بالحق ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي عند رجوعهم إلى قومهم ﴿ **يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً** ﴾ فيه إطلاق الكتاب على بعض أجزائه إذ لم يكن القرآن كله منزلاً حينئذ ﴿ **أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ** ﴾ كتاب ﴿ **مُوسَىٰ** ﴾ قيل قالوه لأنهم كانوا على اليهودية وأسلموا ، وقيل : الظاهر أنه مثل قول ورقة بن نوفل هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، فقد قالوا في وجهه أنه ذكر موسى مع أنه كان نصرانياً تحقيقاً للرسالة لأن نزوله على موسى متفق عليه بين اليهود والنصارى بخلاف عيسى ، فإن اليهود ينكرون نبوته ، أو لأن النصارى يتبعون أحكام التوراة ، ويرجعون إليها ، ولأن شريعة عيسى مقررة لشريعة موسى لا ناسخة ، والتوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع بخلاف ما قبله من الكتب ، فإنها لم تشتمل على ذلك إنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وتوحيده ، ومن ثمة قيل لها صحف ، وإطلاق الكتب عليها مجاز ، فلما كان القرآن مشتملاً على الأحكام والشرائع أيضاً صارت الكتب الإلهية كلها في حكم كتابين التوراة والقرآن فلذا خصصوا موسى بالذكر ، وفيه بيان لشرف الكتابين وجلالتهما ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ أي موافقاً لما قبله من التوراة والكتب الإلهية في الدعوة إلى التوحيد والتصديق ، وَحقِّية أمر النبوة والمعاد ، وتطهير الأخلاق ونحو ذلك ﴿ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** ﴾ من العقائد الصحيحة ﴿ **وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ مُوصل إليه لا عوج فيه ، وهو الشرائع والأعمال الصالحة ﴿ **يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا**

﴿ دَاعِيَ اللهِ ﴾ يعني محمداً ﷺ ، أو أرادوا ما سمعوه من الكتاب ، فإنه كما أنه هاد كذلك هو داع إلى الله تعالى ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم ، وهو ما كان في خالص حق الله ، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان بل برضى أربابها يعني إذا أسلم الذمي لا يغفر عنه حقوق العباد بإسلامه ، وكذا لا تغفر عن الحربي إذا كان الحق مالياً ، قالوا : ظلامة الكافر وخصومة الدابة أشد ، لأن المسلم إما أن يُحمل عليه ذنب خصمه بقدر حقه ، أو يأخذ من حسناته والكافر لا يأخذ من الحسنات ، ولا ذنب للدابة ، ولا يؤهل لأخذ الحسنات ، فتعيَّن العقاب ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ معد للكفرة ، وهو عذاب النار ﴿ وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب ، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير ، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بعدم إجابة الداعي ﴿ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن إجابة مَنْ هذا شأنه ، وفي الحديث (ألا أخبركم عني وعن ملائكة ربي البارحة ؟ حفوا بي عند رأسي وعند رجلي وعن يميني وعن يساري ، فقالوا يا محمد : تنام عينك ولا ينام قلبك فلتعقل ما نقول فقال بعضهم لبعض اضربوا لمحمد مثلاً ، قال قائل : مثله كمثل رجل بنى داراً وبعث داعياً يدعو فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل مما فيها ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل مما فيها ، ومحمد الداعي فمن أجاب محمداً دخل الجنة ومن لم يجب محمداً لم يدخل الجنة ولم يأكل مما فيها)[1] وفي الآية دليل بين على أنه عليه السلام مبعوث إلى الجن والإنس جميعاً ولم يبعث قبله نبي إليهما ، وأما سليمان عليه السلام فلم يبعث إلى الجن بل سُخِّروا له .

والصحيح والأظهر أن الجن في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً لأنهم مكلفون مثلهم ، ويدل عليه قوله تعالى في هذه السورة (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ، ولم يعلموا علماً جازماً في حكم المشاهدة والعيان ﴿ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ﴾ ابتداء من غير مثال ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلاً ، أو لم يعجز عنه انتهى ، وحكي في سبب تعلم الكسائي النحو على كبره أنه مشى يوماً حتى أعي ثم جلس إلى قوم ليستريح فقال قد عييت بالتشديد بغير همزة ، فقالوا له لا تجالسنا وأنت تلحن قال الكسائي : وكيف قالوا إن أردت من التعب فقل أُعييت ، وإن أردت من انقطاع الحيلة والتعجيز في الأمر فقل عييت مخففاً ، فقام من فوره وسأل عمن يعلم النحو فأرشدوه إلى معاذ فلزمه حتى نفد ما عنده ، ثم خرج إلى البصرة إلى الخليل بن أحمد ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ خبر « أنَّ » ووجه دخول الباء اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على أن وما في حيزها كأنه قيل

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي في الأمثال ، وأحمد في المسند رقم ٣٧٨٨ وأخرجه البخاري بلفظ (جاءت ملائكةٌ إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم إنه نائم ، وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٤١ .

أو ليس الله بقادر ﴿ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ لذا أجيب عنه بقوله ﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقريراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ، يعني أن الله تعالى إذا كان قادراً على كل شيء كان قادراً على إحياء الموتى لأنه من جملة الأشياء ، وقدرته تعالى لا تختص بمقدور دون مقدور ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أي يعذبون بها أي يُقال لهم يومئذ ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ العذاب الذي ترونه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي حقاً وكنتم تكذبون به ؟ وفيه تهكم بهم ، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم وما نحن بمعذبين ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي إنه الحق ﴿ وَرَبِّنَا ﴾ وهو الله تعالى ، أكدوا جوابهم بالقسم لأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيته كما في الدنيا ، وأنى لهم ذلك ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى أو خازن النار ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ أي أحِسوا به إحساس الذائق المطعومَ ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ به في الدنيا ، ومعنى الأمر الإهانة بهم ، والتوبيخ لهم على ما كان في الدنيا من الكفر والإنكار لوعد الله ووعيده .

واعلم كما أن الموت حق واقع لا يستريبه أحد ، فكذا الحياة بعد الموت ، ولا عبرة بإنكار المنكر ، فإنه من الجهل ، والا فقد ضرب الله له مثلاً بالتيقظ بعد النوم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكِر ، فاصبر على ما يصيبك من جهتهم ، كما صبر أولوا الثبات والحزم من الرسل فإنك من جملتهم وهم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ، ومعاداة الطاعنين فيها ، ومشاهيرهم « نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم السلام وقد نظمهم بعضهم بقوله :

أُولُوا العَزْمِ نُوحٌ ، والخَلِيلُ بنُ آزَرٍ ... وَمُوسَىٰ ، وَعِيسَىٰ ، وَالحَبِيبُ مُحَمَّدُ

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب ، فإنه على شرف النزول بهم ، ومهلهم ليستعدوا بالتمتعات الحيوانية للعذاب العظيم فإني أمهلهم رويداً ، كأنه ضجر بعض الضجر ، فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم ، فأُمِر بالصبر وترك الاستعجال ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا والتمتع بنعيمها ﴿ إِلَّا سَاعَةً ﴾ يسيرة وزماناً قليلاً ﴿ مِنْ نَهَارٍ ﴾ لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته ، يعني أن هول ما ينزل بهم ينسيهم مدة اللبث ، وأيضاً إن ما مضى ، وإن كان دهراً طويلاً لكنه يظن زماناً قليلاً بل يكون كأن لم يكن ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة ، أو تبليغ من الرسول ، فالعبد يضرب بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ أي ما يهلك ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن الاتعاظ به ، أو عن الطاعة ، وهذه الألفاظ وعيد محض ، وإنذارٌ بيِّنٌ ، نسأل الله الحفظ والسلامة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف »



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقة ، من صَدَّ صدوداً فيكون كالتأكيد والتفسير لما قبله ، أو منعوا الناس عن ذلك من صدَّه صداً ، كالمطعمين يَوم بدر ، فإن مترفيهم أطعموا الجنود يستظهرون على عداوة النبي عليه السلام والمؤمنين ، فيكون مخصصاً لعموم قوله (**الذين كفروا**) والظاهر أنه عام في كل من كفر ﴿ **أَضَلَّ أَعْمَالَهم** ﴾ أي أبطلها وأحبطها ، وَجَعَلَها ضائعة لا أثر لها أصلاً ، بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف ، وفك الأسارى وغيرها من المكارم ، ليس لها أثر من أصلها لعدم مقارنتها للإيمان وأبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله عليه السلام والصد عن سبيله ، بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله وهو الأوفق بقوله (**فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**) وقوله تعالى (**فإذا لقيتم**) إلخ ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ يعمُّ كل من آمن وعمل صالحاً من المهاجرين ، وأهل الكتاب وغيرهم ، وكذا يعم الإيمان بجميع الكتب الإلهية ﴿ **وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﴾ خص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهاً بشأن المنزل عليه ، كما في عطف جبرائيل على الملائكة وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به ، وأنه الأصل في الكل ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي ما نزل على محمد ﴿ **الْحَقُّ** ﴾ حال كونه ﴿ **مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ بطريق حصر الحقيَّة فيه ، والحق مقابل الباطل ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح ﴿ **وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق ، والبال : التي يكترث لها ولذلك يقال : ما باليتُ بكذا أي ما اكترثت به ، ويعبر عن البال بالحال الذي ينطوي عليه الإنسان فيقال ما خطر كذا ببالي ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من إضلال الأعمال ، وتكفير السيئات ، وإصلاح البال ﴿ **بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي كائن بسبب أن الكافرين ﴿ **اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ** ﴾ أي الشيطان ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد ﴿ **وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي وبسبب أن المؤمنين ﴿ **اتَّبَعُوا الْحَقَّ** ﴾ الذي لا محيد عنه ، كائناً ﴿ **مِنْ رَبِّهِم** ﴾ ففعلوا ما فعلوا من الإيمان وبكتاب ومن الأعمال الصالحة ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ **يَضْرِبُ اللهُ** ﴾ أي يبين ، وضرب المثل وهو ذكر شيء اثره يظهر في غيره ﴿ **لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُم** ﴾ أي أحوال الفريقين وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال ، وهي اتباع الأولين الباطل ، وخيبتهم وخسرانهم ، واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم ، وفي الخبر (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه)[1] والحق : يقال على أوجه الأول : يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة ، ولذا قيل

---

(١) هذا من الأدعية المأثورة التي يستحب الدعاء بها ، وقد جمع ابن الأثير الأدعية في الجزء الرابع من جامع الأصول في أحاديث الرسول ٤ / ١٣٨ فانظرها هناك .

في الله تعالى « هُوَ الحَقُّ » والثاني : يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة ، ولذلك قيل فعل الله تعالى كله حق ، ونحو قولنا الموت حق ، والبعث حق ، ويدخل فيه جميع الموجودات ، فإنه لا عبث في فعل الحكم تعالى ، وبطلان بعض الأشياء إضافي لا حقيقي حتى الشيطان ونحوه ، والثالث : يقال للاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك في نفسه ، كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق ، والرابع : يقال للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وقدر ما يجب في الوقت الذي يجب ، كقولنا فعلك حق وقولك حق . والباطلُ : نقيض الحق في هذه المعاني ، فالإيمان حق لأنه مما أمر الله به ، والكفر باطل لأنه مما نهى الله عنه ، وقس عليه الأعمال الصالحة والمعاصي ، والإيمان عبارة عن قطع الاشراك بالله مطلقاً ، والعمل الصالح : ما كان لله تعالى خالصاً ، وكان الكبار يبذلون مقدورهم فيه لأن ما كان لرضى الله تعالى فهو مفتاح السعادة في الدارين ، قال موسى عليه السلام : يارب فأي عبادك أعجز؟ قال : الذي يطلب الجنة بلا عمل والرزق بلا دعاء ، قال وأي عبادك أبخل ؟ قال الذي يسأله سائل وهو يقدر على إطعامه ، ولم يطعمه ، والذي يبخل بالسلام على أخيه ، والإنفاق والإطعام لا يعتبر إلا إذا كان مقارناً بالخلوص ، وطلب الرضى ألا ترى أن قريشاً أطعموا الكفار في وقعة بدر فعاد انفاقهم خيبة وخسارة ، لأنه كان في طريق الشيطان لا في طريق الله تعالى ، فأحبط أعمالهم ، وكذا مجرد الإمساك لا يعد بخلاً إلا إذا كان ذلك إمساكاً عن المستحق ألا ترى كيف قال الله تعالى (**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُم قِيَامًا**) فحذرهم في غير محل الاسراف ، ولا سرف في الخير ، ثم أن أعمال المبتدعة باطلة أيضاً لأنها على زيغ والانحراف عن سننها ، وإن كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فالكفر والبدعة والمعاصي أقبح الأشياء ، كما أن الإيمان والسنة والطاعة أحسن الأشياء ، ثم إن طريق اتباع الحق إنما يتيسر باتباع أهل الحق ، فإنهم ورثة الأنبياء ﷺ في التحقيق بالحق والإرشاد اليه ، فمن اتبع أهل الحق اهتدى ، ومن اتبع أهل الباطل ضل ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي فإذا كان الأمر كما ذكر من ضلال أعمال الكفرة ، وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، فإذا لقيتموهم في المحاربة يامعشر المسلمين ﴿ **فَضَرْبَ الرِّقَابِ** ﴾ والمراد فاقتلوهم وإنما عبر عن القتل بضرب الرقاب تصويراً له بأشنع صورة ، وهو حَزُّ الرقبة وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه ، وأوجه أعضائه ، وإرشاداً للغزاة إلى أيسر ما يكون منه ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ** ﴾ والمعنى حتى إذا أكثرتم قتلهم ، وأغلظتموه على حذف المضاف أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿ **فَشُدُّوا الوَثَاقَ** ﴾ فالمعنى فأسُرُوهُم ، واحْفظوهم ، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل ﴿ **فَإِمَّا مَنًّا** ﴾ أي تمنُّون منّاً ، وهو أن يترك الأميرُ الأسيرَ الكافر ، من غير أن يأخذ منه شيئاً ﴿ **بَعْدُ** ﴾ أي بعد شق الوثاق ﴿ **وَإِمَّا فِدَآءً** ﴾ أي تفدون فداء هو أن يترك الأمير الأسير الكافر ، ويأخذ مالاً أو أسيراً مسلماً في مقابلته ، قال الشيخ الرضي : المطلوب من شد الوثاق إما قتل أو استرقاق ، أو

منٌّ ، أو فِداء ، فالإمام يخير في الأسارى البالغين من الكفار بين الخصال الأربع وهذا التخيير ثابت عند الشافعي ومنسوخ عندنا بقوله تعالى (**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**) قالوا نزل ذلك يوم بدر ، ثم نسخ ، والحكم إما القتل أو الاسترقاق قال في الدر : وحرم منهم فداؤهم وردهم إلى دارهم لأن ردَّ الأسير إلى دار الحرب تقوية لهم على المسلمين في الحرب ، فيكره كما يكره بيع السلاح لهم ، وفي المن خلاف الشافعي ، وأما الفداء فقبل الفراغ من الحرب جاز بالمال لا بالأسير المسلم ، وبعده لا يجوز بالمال عند علمائنا ، وبالنفس عند أبي حنيفة ، ويجوز عند محمد ، وعن أبي يوسف روايتان وعن مجاهد ليس اليوم منّ ولا فداء ، إنما الإسلام أو ضرب العنق ، وعن الصديق رضي الله عنه : لا أفادي وإن طُلبوا بمدين من ذهب ، وكُتب إليه في أسير التمسوا منه الفداء ، فقال : اقتلوه لأن أقتل رجلاً من المشركين أحبُّ إليَّ من كذا وكذا ، وقد قتل عليه السلام يوم فتح مكة ابن الأخطل وهو متعلق بأستار الكعبة بعد ما وقع في منعة المسلمين فهو كالأسير ﴿ **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ أوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع ، يعني الخيل ، وحتى غاية عند الشافعي لأحد الأمور الأربعة ، أو للمجموع والمعنى أنهم لا يتركون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا يبقي لهم شوكة ، وأمَّا عند أبي حنيفة فإنه حمل الحرب على حرب بدر ، فهي غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها ، وتنقضي ، وأن حملت على الجنس فهي غاية الضرب والشد والمعنى إنهم يقتلون ويؤسرون حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة ، فما دام الكفر فالحرب قائمة أبداً ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك ﴿ **وَلَوْ يشَاءُ اللهُ** ﴾ لو للمضي وإن دخل على المستقبل ﴿ **لاَنْتَصَر مِنْهُم** ﴾ لانتقم منهم بغير قتال بأن يكون ببعض أسباب الهلكة والاستئصال من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت ذريع ، ونحو ذلك ، ويجوز أن يكون الانتقاد بالملائكة بصحبتهم أو بصرعهم أو بقتالهم من حيث لا يراهم الكفار كما وقع في بدر ﴿ **وَلَكنْ** ﴾ لم يشأ ذلك ﴿ **لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض** ﴾ فأمركم بالقتال وبلاكم الكفرين لتجاهدوهم ، فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر ، ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ** ﴾ اي استشهدوا يوم بدر ، ويوم أحد ، وسائر الحروب ﴿ **فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالهم** ﴾ أي فلن يضيعها بل يُثيب عليها ﴿ **سَيَهْديهم** ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور وفي الآخرة إلى الثواب ، ﴿ **وَيُصْلِحُ بَالَهُم** ﴾ أي شأنهم وحالهم بالعصمة والتوفيق ، والظاهر أن السين للتأكيد والمعنى يهديهم الله البتة إلى مقاصدهم الأخروية ، ويصلح شأنهم بإرضاء خصمائهم لكرامتهم على الله بالجهاد والشهادة ﴿ **وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّة عَرَّفَها لَهُم** ﴾ أي عرفها في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها ، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه ، كأنه كان ساكنه منذ خلق وفي الحديث « لأحدكم بمنزلهِ في الجنة أعرف منه بمنزله

في الدنيا »[١] وفي المفردات عرفه جعل له عرفاً أي رائحة طيبة فالمعنى زينها لهم وطيبها ، وقال بعضهم حدَّدها لهم وأفرزها ، من عرَّف الدار ، فجنة كل منهم محددة مفرزة ، ومن فضائل الشهداء أنه ليس أحد يدخل الجنة ويحبُ أن يخرج منها ولو أعطي ما في الدنيا جميعاً إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرده الله الدنيا مراراً ليجاهد فيقتل في سبيل الله كما قتل أولاً ، لما يرى من عظيم كرامة الشهداء على الله تعالى ،ومن فضائلهم أن الشهادة في سبيل الله تُكفر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله تعالى ، وفي الحديث « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين »[٢] والمراد بالدين كل ما كان من حقوق الآدميين كالغصب ، وأخذ المال بالباطل ، وقتل العمد ، والجراحة وغير ذلك من التبعات ، وكذلك الغيبة والنميمة والبهتان وما أشبه ذلك ، فإن هذه الحقوق كلها لابد من استيفائها لمستحقها ، وقال القرطبي : الدين الذي يحبس صاحبه عن الجنة هو الذي قد ترك له وفاء ولم يوص به ، أو قدر على الأداء فلم يؤده ، أو أدانه على صفة أو سرف ومات ولم يعرفه ، وأما من ادَّان في حق واجب كفاقةٍ ، وعسرٍ ، ومات ولم يترك وفاء ، فإن الله لا يحبسه عن الجنة شهيداً كان أو غيره ، ويقضي عنه ويرضي خصمه ، كما قال عليه السلام« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[٣] وفي الآية حث على الجهادين الأصغر والأكبر ، ومن قتله العدو الظاهر صار شهيداً ، نسأل الله العون على محاربة النفس الأمَّارة ، والشيطان والكفار ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ** ﴾ أي دينه ورسوله ﴿ **يَنْصُرْكُمْ** ﴾ على أعداكم ويفتح لكم ﴿ **وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم** ﴾ في مواطن الحرب ومواقفها ، أو على حجة الإسلام . واعلم أن النصرة على وجهين : الأول نصرة العبد وذلك بإيضاح دلائل الدين ، وإزالة شبهة القاصرين ، وشرح أحكامه وفرائضه وسننه وحلاله وحرامه والعمل بها ، ثم بالغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله ، وقمع أعداء الدين إما حقيقة كمباشرة المحاربة بنفسه ، وإما حكماً بتكثير سواد المجاهدين بالوقوف تحت لوائهم ، أو بالدعاء لنصرة المسلمين ، وخذلان الكافرين بأن يقول اللهم انصر من نصر الدين ، واخذل من خذل المسلمين ، ثم بالجهاد الأكبر بأن يكون عوناً لله على النفس حتى يصرعها ويقتلها ، فلا يبقى من هواها أثر ، والثاني : نصرة الله تعالى وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وإظهار الآيات ، والمعجزات ، وتبيين السبل إلى النعيم والجحيم ، والأمر بالجهاد الأصغر والأكبر ، والتوفيق للسعي فيهما طلباً لرضاه لا تبعاً لهواه ، وإظهاره على أعداء الدين وقهرهم في إعلاء كلمة الله العليا ، وإيتاء رشده ﴿ **وَالَّذينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُم** ﴾ أو فقال

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ (والذي نفسُ محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله ..) الحديث جامع الأصول ١٠ / ٥٤٩ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإمارة رقم ١٨٨٦ ورواه الترمذي بنحوه ، جامع الأصول ٩ / ٥٠٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الاستقراض ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٤٥٣ .

تعساً لهم ، والتَّعْسُ : الهلاكُ والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ عطف عليه داخل معه في حيز الخبرية للموصول ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من التعس وإضلال الأعمال ﴿ بِأَنَّهُم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ﴾ من القرآن لما فيها من التوحيد وسائر الأحكام المختلفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ فأحْبطَ ﴾ الله ﴿ أَعْمَالَهُم ﴾ لأجل ذلك أي أبطلها ، كرره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ، ولا ينفك عنه بحال والمراد بالأعمال طواف البيت وعمارة المسجد الحرام ، وإكرام الضيف ، وإغاثة الملهوفين ، وإعانة المظلومين ، ومواساة اليتامى والمساكين ، ونحو ذلك مما هو في صورة البر وذلك بالنسبة إلى كفار قريش ، وقس عليهم أعمال سائر الكفرة إلى يوم الدين .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ كفار العرب ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ أي أقعدوا في أماكنهم ، ولم يسيروا فيها إلى جانب الشام واليمن والعراق ؟ ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وثمود وأهل سبأ ، فإن آثار ديارهم تنبيء عن أخبارهم ﴿ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام ، كأنه قيل : كيف كان عاقبتهم ؟ فقيل استأصل الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، يقال دمَّره : أهلكه ، ودمَّر عليه أهلك عليه ما يختص به ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿ أَمْثَالُها ﴾ أي أمثال عواقبهم أو عقوباتهم ، لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك ، وأضعافه بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة ، ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء ، وقال بعضهم : (ذَلِكَ) المذكور من كون المؤمنين منصورين مظفرين ، ومن كون الكافرين مقهورين مدمرين ﴿ بِأَنَّ اللهَ ﴾ أي بسبب أنه تعالى ﴿ مَوْلَى الَّذِين آمَنُوا ﴾ أي ناصر لهم على أعدائهم في الظاهر والباطن بسبب إيمانهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ لاَ مَوْلَى لَهُم ﴾ أي لا ناصر لهم فيدفع عنهم العذاب الحال بسبب كفرهم ، فالمراد ولاية النصرة لا ولاية العبودية ، فإن الخلق كلهم عبادة تعالى كما قال (**ثُمّ رُدُّوا إلى الله مَوْلاَهُمُ ٱلْحقّ**) أي ما لكهم الحق وخالقهم ، أو المعنى لا مولى لهم في اعتقادهم حيث يعبدون الأصنام وإن كان مولاهم الحق تعالى في نفس الأمر ، ويقال أرجى آية في القرآن هذه الآية لأن الله تعالى قال (**مَوْلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا**) ولم يقل مولى الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد ، والمؤمن وإن كان عاصياً فهو من جملة الذين آمنوا ، واعلم أن الجند جندان : جند الدعاء ، وجند الوغى فكما أن جند الحرب منصورون بسبب أقويائهم في باب الديانة والتقوى ، ولا يكونون محرومين من ألطاف الله تعالى ، فكذلك جند الدعاة مستجابون بسبب ضعفائهم في باب الدنيا وظاهر الحال ، ولا يكونون مطرودين عن باب الله

كما قال عليه السلام « انكم تنصرون بضعفائكم »[١] قال الشيخ السعدي : الكفار لا يعبدون إلا المعدوم كالأصنام والطاغوت فلذا لا ينصرون ، والمؤمنون يعبدون الموجود الحقيقي وهو الله تعالى فلذا ينصرهم في الشدائد ، وأيضاً فإن الكفار يستندون إلى الحصون والسلاح ، والمؤمنون يتوكلون على القادر القوي الفتاح ، فالله معينهم على كل حال (روي) أن النبي عليه السلام كان بعد غزوة تحت شجرة وحيداً فحمل عليه مشرك بسيف وقال من يخلصك مني فقال النبي عليه السلام الله فسقط المشرك ، والسيف فأخذه النبي عليه السلام فقال من يخلصك مني فقال لا أحد[٢] ثم أسلم نسأل الله المعين أن يجعلنا من المنصورين آمين ﴿ **إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ بيان لحكم ولايته تعالى للمؤمنين وثمرتها الأخروية ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ** ﴾ أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها أياماً قلائل ، ويعيشون ﴿ **وَيَأْكُلُونَ** ﴾ حريصين غافلين عن عواقبهم ﴿ **كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ** ﴾ في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ، والأنعام جمع نَعَم بفتحتين وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿ **وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُم** ﴾ أي منزل ثواءٍ وإقامة قال القشيري : الأنعام تأكل بلا تمييز من أي موضع وجد ، وكذلك الكافر لا تميز له أمن الحلال وجد أم من الحرام ، وكذلك الأنعام ليس لها وقت بل في كل وقت تقتات وتأكل ، كذلك الكافر أكول كما قال عليه السلام « الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل في مِعَيً واحد »[٣] والأنعام تأكل على الغفلة فمن كان في حالة أكله ناسياً لربه فأكله كأكل الأنعام ، قال الحدادي : الفرق بين أكل المؤمن والكافر أن المؤمن لا يخلو أكله عن ثلاث : الورع عن الطلب ، واستعمال الأدب ، والأكل للسبب ، والكافر يطلب للنهمة ، ويأكل للشهوة ، وعيشه في غفلة ، وقيل : المؤمن يتزود والمنافق يتزين ويتزيد ، والكافر يتمتع ويتمنع ، وقيل : « من كانت همَّتُه ما يأكل ، فقيمته ما يخرج منه » والحاصل ليس للذين كفروا همٌّ إلاّ بطونهم وفروجهم ، ولا يلتفتون إلى جانب الآخرة ، فهم قد أضاعوا أيامهم بالكفر والآثام ، وأملوا وشربوا في الدنيا كالأنعام ، وأما المؤمنون فقد جاهدوا في الله بالطاعات ، واشتغلوا بالرياضيات والمجاهدات ، فلا جرم أحسن الله إليهم بالجنات العاليات، ومن هنا يظهر سر قوله عليه السلام « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٤] فلما عرف المؤمن أن الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي بلفظ (هل تُنْصرون وتُرْزقون إلاّ بضعفائكم) ؟ وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٧٧ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الجهاد من حديث جابر ، ولفظه (غزونا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، ونزل رسول الله تحت شجرة فعلّق سيفه » . الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٢٨٣ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي بلفظ (إن المؤمن يأكل في مِعَىً واحد ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٧ / ٤٠٧ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم والترمذي . وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٦ .

سجن ونعيمها زائل ، حبس نفسه على طاعة الله فكان عاقبته الجنات والنعيم الباقي ، ولما كان الكافر منكر الآخرة اشتغل في الدنيا باللذات فلم يبق له في الآخرة إلا الحبس في الجحيم ، وأكل الزقوم وكان الكبار يقنعون بيسير من الغذآء نسأل الله الحماية والرعاية ﴿ **وَكَأَيِّنْ** ﴾ كلمة مركبة من الكاف وأيّ بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء ﴿ **مِنْ قَرْيَةٍ** ﴾ تميز لها ﴿ **هي أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ** ﴾ صفة لقرية ﴿ **التي أَخْرَجَتْكَ** ﴾ صفة لقريتك وهي مكة ﴿ **أَهْلَكْنَاهُم** ﴾ أي وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك ، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم ، ووصفُ القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالهلاك لضعف قوتها ، كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه السلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها ﴿ **فَلاَنَاصِرَ لَهُم** ﴾ بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان والأنصار ، إثرْ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم ، وهو حكاية حال ماضية وقال ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم : لما خرج رسول الله عليه السلام من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال « أنت أحب البلاد إلى الله ولولا أن المشركين أخرجوني ما خرجت منك »[1] فأنزل الله هذه الآية فتكون الآية مكية وضعت بين الآيات المدنية ، ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** ﴾ أي ليس الأمر كما ذكر ، فمن كان مستقراً على حجة ظاهرة وبرهان نيّرٍ من مالك أمره ومربيه ، وهو القرآن وسائر المعجزات والحجج العقلية ﴿ **كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** ﴾ من الشر وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبح القبائح ؟ والمعنى لا مساواة بين المهتدي والضال ﴿ **وَاتَّبَعُوا** ﴾ بسبب ذلك التزين ﴿ **أَهْوَاءَهُم** ﴾ الزائغة وانهمكوا في فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهةٌ توهم صحة ما هم عليه فضلاً عن حجة تدل عليها ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** ﴾ عبرعن المؤمنين بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى ، الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها ، ومَثَلها : وصفُها العجيب الشأن والمعنى : مثل الجنة الموعودة للمؤمنين وصفتها العجيبة الشأن ما تسمعون فيما يتلى عليكم وقوله ﴿ **فِيهَا** ﴾ أي في الجنة الموعودة ﴿ **أَنْهَارٌ** ﴾ جمع نَهْر مجر ى الماء الفائض ﴿ **مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ** ﴾ من أسن الماء إذا تغير طعمه وريحه تغيراً منكراً ، والمعنى من ماء غيرمتغير الطعم والرائحة واللون ، وإن طالت إقامته ، بخلاف ماء الدنيا فإنه يتغير بطول المكث في مناقعه ، وفي أوانيه ، مع أنه مختلف الطعوم مع اتحاد الأرض ببساطتها ، وشدة اتصالها ، وقد يكون متغيراً بريح منتنة من أصل خلقته ، أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه ﴿ **وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ** ﴾ بأن كان قارصاً وهو الذي يقرص اللسان ويقبضه أو حازراً وهو الحامض ، أو غير ذلك كألبان الدنيا ، والمعنى لم يتغير طعمه بنفسه عن أصل خلقته ، ولو أنهم أرادوا تغييره بشهوة اشتهوها

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن جرير في تفسيره ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٤٨ .

تغير ﴿ وأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ ﴾ ماأسكر من عصير العنب أو عام لكل مسكر ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي لذيذة ليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخمار كما في خمر الدنيا ، وإنما هي تلذذ محض ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ ﴾ هو لعاب النحل ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا « أشرفُ لباس آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة » ﴿ مُصَفًّى ﴾ لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها خلقه الله مصفًّى ، فقد حصل بهذا غاية التشويق إلى الجنة بالتمثيل بما يستلذ من أشربةِ الدنيا لأنه أغلى ما نعلم من ذلك مجرداً عما ينقصها ، أو ينغصها مع الوصف بالغزارة والاستمرار ، وبدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلاد العرب ، وشدة حاجتهم إليها ، ولما كان خلوها من تغير أغرب نفاه بقوله (غَيْرِ آسِنٍ) ولما كان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب ، ثنَّى به ، ولما كان الخمر أعز ثلَّث به ، ولما كان العسل أشرفها وأقلها ختم به ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الجنة سوى الأسامي ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للمتقين ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الجنة الموعودة مع ما فيها من فنون الأنهار ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي صنف من كل الثمرات على وجه لا حاجة معه من قلة ولا انقطاع ، وقيل : زوجان انتزاعاً من قوله تعالى (فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجَانِ) وهي جمع ثمرة وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر ، ويقال لكل نفع يصدر عن شيء ثمرة، كقولك ثمرة العلم العمل الصالح ، وثمرة العمل الصالح الجنة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنْ رَبِّهِم ﴾ أي المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وآثارها ، بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب ولا عتاب ، وفيه تأكيد لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي ونعيم أعطته المغفرة وسببته وإلا فالمغفرة إنما هي قبل الجنة ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ التقدير أمَّن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد الكريم ، كمن هو خالد في النار ؟ التي لا يطفأ لهيبها ، ولا يفك أسيرها ، ولا يؤنس غريبها كما نطق به قوله تعالى (والنَّارُ مثْوىً لَهمْ) ﴿ وَسُقُوا ﴾ أي سقوا بدل ما ذكر من أشربة الجنة ﴿ ماءً حَمِيماً ﴾ حاراً غاية الحرارة ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم ﴾ جمع مِعىً وهو ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة ، قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وإنمازت فروة رؤسهم أي انعزلت وانفرزت ، فإذا شربوا قطع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم ، فانظر بالاعتبار أيها الغافل عن القهار ، هل يستوي الشراب العذب البارد ، والماء الحميم المر ؟ واعلم أن الإنسان لو حبس في بيت حمار حار ، لا يتحمله بل يؤدي إلى موته ، فكيف حاله إذا حبس في دار جهنم التي حرارتها فوق كل حرارة ، لأنها سجرت بغضب القهار ، وكيف حاله إذا سقي مثل ذلك الماء الحميم ، وقد كان في الدنيا بحيث لا يدفع عطشه كل بارد ؟ فلا ينبغي الاغترار بنعيم الدنيا إذا كان عاقبته الجحيم والحميم ﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ يقال استمع له وإليه أي أصغى ، وهم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فيسمعون كلامه ، ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ يعني علماء الصحابة كعبد الله

ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس وأبي الدرداء رضي الله عنهم ﴿ **مَاذا قَالَ آنِفاً** ﴾ أي ما الذي قال الساعة على طريق الاستهزاء ، وإن كان بصورة الاستعلام ﴿ **أُولئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ **الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾ ختم عليها لعدم توجهها نحو الخير أصلاً ، ومنه الطابع للخاتم قال الراغب الطبع أن يصور الشيء بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم وهو أعم من الختم وأخص من النقش والطابع والخاتم ما يطبع به ويختم والطابع فاعل ذلك ﴿ **وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم** ﴾ الباطلة فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا** ﴾ إلى طريق الحق وهم المؤمنون ﴿ **زَادَهُم** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **هُدىً** ﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿ **وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُم** ﴾ أي خلق التقوى فيهم ، أو بين لهم ما يتقون منه ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ** ﴾ أي المنافقون والكافرون ﴿ **إِلاَّ السَّاعَةَ** ﴾ أي ما ينتظرون إلا القيامة ﴿ **أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً** ﴾ أي تباغتهم ، والمعنى أنهم لا يتذكرون بذكر أحوال الأمم الخالية ، ولا بالأخبار بإتيان الساعة ، وما فيها من عظائم الأمور ، وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتة ﴿ **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُها** ﴾ تعليل لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقاً ، على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذْ جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ، ولم يعدوها من مبادىء إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة ، والأشراطُ : جمع شَرَط بالتحريك وهو العلامة ، والمراد بها مبعثه عليه السلام ، وأمته آخر الأمم ، فبعثه يدل على قرب انتهاء الزمان ﴿ **فَأَنَّى لَهُم إذا جَاءَتْهُم ذِكْرَاهُم** ﴾ حكم بخطأهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله (**يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ وأَنّى لَهُ الذِّكرىٰ** ﴾ أي وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة ؟

وروي عن مكحول عن حذيفة قال : سُئِل رسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن لها أشراط : تقارب الأسواق ، ومطر ولا نبات ، وتفشوا الفتنة ، وتظهر أولاد البغية ، ويعظم رب المال ، وتعلو أصوات الفسقة في المساجد ، ويظهر أهل المنكر على أهل الحق)[1] ، وفي الحديث « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقيل كيف إضاعتها ؟ فقال : إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] وقال الكلبي : أشراط الساعة : كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام ، وفي الحديث (هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مُفنداً ، أو موتاً مُجْهِزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهَىٰ

---

(١) الحديث رواه الطبراني بلفظ (من اقتراب الساعة كثرةُ القطر ، وقلة البنات ، وكثرةُ القراء ، وقلة الفقهاء ..) إلى آخره ، وما ذكره الشيخ إنما هو روايات متعددة في أشراط الساعة ، في أحاديث متفرقة .. وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ١٤٠ والدر المنثور ٦ / ٥٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ، وله قصة وانظر جامع الأصول ١٠ / ٣٩٥ .

وأمرٌ)[1] وقيامة كل واحد موته ، فعليه أن يستعد لما بعد الموت قبل الموت ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّه** ﴾ أي الشأن الأعظم ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ** ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ، ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه ، كقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أي ثبتنا على الصراط المستقيم ، وقدَّم العلم على العمل تنبيهاً على فضله واستبداده بالمزية عليه لاسيما العلم بوحدانية الله تعالى ، فإنه أول ما يجب عل كل واحد ، والعلم أرفع من المعرفة ولذا قال فاعلم دون فاعرف ، لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علماً فإذا علمه وأحاط به علماً فقد عرفه، والعلم بالألوهية من قبيل العلم بالصفات لأن الألوهية صفة من الصفات فلا يلزم أن يحيط بكنهه تعالى أحد فإنه محال .

ولما كان حصول التوحيد الذي هو كمال النفس موجباً للإجابة ، قال تعالى معلماً أنه يجب على الإنسان بعد تكميل نفسه السعي في تكميل غيره ، ليحصل التعاون على ما خلق العباد له من العبادة ﴿ **واسْتَغْفِرْ** ﴾ أي اطلب الغفران من الله ﴿ **لِذَنْبِكَ** ﴾ ما صدر عنه عليه السلام من ترك الأولى ، وعبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل ، كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين !! وإرشاداً له عليه السلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصاء العمل ﴿ **وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ أي لذنوب أمتك بالدعاء لهم ، وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم ، لأنهم أحق الناس بذلك منك لأن ماعملوا من خير كان لك مثل أجره ، إذ للدالِّ على الخير مثل أجر ذلك الغير ، وفي إعادة صلة الاستغفار على اختلاف متعلقيه جنساً ، وفي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إشعار بعراقتهم في الذنب ، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار وهو سؤال المغفرة وطلب الستر ، وإما من إصابة الذنب ، فيكون حاصله العصمة والحفظ ، وإما من إصابة عقوبة الذنب فيكون حاصله العفو والمحو ، وهذه أرجى آية في القرآن فإنه لا شك أنه عليه السلام ائتمر بهذا الأمر ، وأنه لا شك أن الله تعالى أجابه فيه ، فإنه لو لم يرد إجابته فيه لما أمره بذلك ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُم** ﴾ أي مكانكم الذي تنقلبون عليه في معاشكم ومتاجركم في الدنيا ، فإنها مراحل لابد من قطعها ﴿ **وَمَثْوَاكُم** ﴾ في العقبى فإنها موطن إقامتكم ، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة ، فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به ، فانه المهم لكم في المقامين ، وإليه أشار الخبر الصحيح عن الله تعالى قال الله تعالى (**لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع وعامرهن غيري في كِفَّةٍ ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله**) ثم اعلم أن التوحيد لا ينفع بدون الشهادة له صلى الله عليه

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد والنسائي ، وأوله (بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلاَّ فقراً منسياً ، أو غنىً مطغياً ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ١٣ .

وسلم بالرسالة ، وبين الكلمتين مزيد اتفاق ، وفي طلب المغفرة للمؤمنين والمؤمنات تحصيل لزيادة الحسنة وكان عليه السلام يستغفر الله في كل يوم سبعين مرة ، وفي رواية مائة مرة ويستغفر للمؤمنين خصوصاً للشهداء ، ويزور القبور ويستغفر للموتى ، ويعرف من الآية أنه يلزم الإبتداء بنفسه ثم بغيره ، والداعي للغير لا ينبغي أن يراه أحوج إلى الدعاء من نفسه وإلا لداخله العُجْب ، فلذا أمر الداعي بالدعاء لنفسه أولاً ، ثم للغير اللهم اجعلنا من المغفورين ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِين آمَنُوا** ﴾ اشتياقاً منهم إلى الوحي وحرصاً على الجهاد لأن فيه إحدى الحسنيين : إمّا الجنة والشهادة ، وإمّا الظفر والغنيمة ﴿ **لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ** ﴾ أي هلاّ نزلت سورة يؤمر فيه بالجهاد ﴿ **فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ** ﴾ بطريق الأمر به أي سورة مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها بوجه آخر سوى وجوب القتال ، وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لم تنسخ ﴿ **رَأَيْتَ الَّذين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ أي ضعف في البنية ، أو نفاق ، وهو الأظهر فيكون المراد الإيمان الظاهري الزعمي ، ﴿ **يَنْظُرُونَ إليكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً كدأب من أصابته غشية الموت ، أي حيرته وسكرته إذا نزل به ، وعاين الملائكة ، وفي الآية إشارة إلى أن من أمارات الإيمان تمنّي الجهاد والموت شوقاً إلى لقاء الله ، ومن أمارات الكفر والنفاق كراهة الجهاد كراهية الموت ﴿ **فَأَوْلَى لَهُم** ﴾ أي فويل لهم ، وهو أفعل من الولي وهو القرب ، فمعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وقيل أَوْلَىٰ من آل فمعناه الدعاء عليهم بأن يؤول إلى المكروه أمرُهم ، قال الراغب : أولى كلمة تهدد وتخوف يخاطب به من أشرف على الهلاك فيحث به على عدم التعرض ، أو يخاطب به من نجا منه فينهى عن مثله ثانياً ، وأكثر ما يستعمل مكرراً ، وكأنه حث على تأمل ما يؤول إليه أمره ليتنبه المتحرّز منه ﴿ **طاعةٌ وقَولٌ معروفٌ** ﴾ أي أمرهم طاعة لله ، ولرسوله ، وقول معروف بالإجابة لما أمروا به من الجهاد ، أو طاعة وقول خير لهم ، أو حكاية لقولهم ويؤيده قرآءة (أبي) يقولون طاعة وقول معروف أي أمرنا ذلك كما قال في النساء (**ويقولونَ طاعةٌ فإذا بَرزوا مِنْ عنْدِكْ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غيْرَ الّذي تَقولُ**) ﴿ **فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ** ﴾ والمعنى فإذا جدُّوا في أمر الجهاد ، وافترض القتال ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازاً كما في قوله تعالى (**إنّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأُمورِ**) وعامل الظرف محذوف أي خالفوا وتخلفوا ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ** ﴾ أي فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد بالجري على موجبه ﴿ **لَكَانَ** ﴾ أي الصدق ﴿ **خَيْراً لَهُم** ﴾ من الكذب والنفاق والقعود عن الجهاد ، وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى (**لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُوْرَةٌ**) فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض .

﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُم** ﴾ أي يتوقع منكم يا من في قلوبهم مرض ﴿ **إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أمور الناس ، وتأمرتم عليهم أي إن صرتم متولين لأمور الناس ، وولاة وحكاماً عليهم متسلطين ﴿ **أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**

﴿ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم ﴾ تحارصاً على الملك وتهالكاً على الدنيا ، فإن من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف في الدين والحرص على الدنيا ، حين أمرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحراز كل خير وصلاح ، ودفع كل شر وفساد ، وأنتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف ، يتوقع منكم إذا أطلقت أعنتكم وصرتم آمرين ما ذكر من الإفساد ، وقطع الأرحام ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ، إيذاناً بأن ذكر إهانتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم ﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ فأَصَمَّهُم ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، قيل لم يقل أصمّ آذانهم لأنه لا يلزم من ذهاب الآذان ذهاب السماع فلم يتعرض لها ، ولم يقل اعماهم لأنه لا يلزم من ذهاب الأبصار وهي الأعين ذهاب الإبصار ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ﴾ التدبر النظر في دبر الأمور وعواقبها أي ألا يلاحظون القرآن فلا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ، حتى لا يقعوا في المعاصي الموبقة ؟ ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً ، وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، والهمزة للتقرير ، وتنكير القلوب ، إما لتهويل حالها ، وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في الفساد والجهالة ، كأنه قيل : على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يُقادر قدرها في القسوة ، وإما لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون ، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة التي من الحديد ، إذ هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم ﴾ المعنى أن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، وهم المنافقون الموصوفون بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال ، فإنهم قد كفروا به عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى ﴾ الآياتُ الظاهرة والمعجزات القاهرة ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم ﴾ أي سهل لهم ركوب العظائم ﴿ وَأَمْلَى لَهُم ﴾ وأمدَّ لهم في الأماني والآمال ، وقيل : أمهلهم الله ولم يعاجلهم بالعقوبة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الارتداد كائن ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أن المنافقين المذكورين ﴿ قَالُوا ﴾ سِراً ﴿ للذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ ﴾ أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله عليه السلام مع علمهم بأنه من عند الله حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿ سَنُطِيعُكُم فِي بَعْضِ الأَمْرِ ﴾ وهو ما أفاده قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ نافَقوا يَقولون لإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ولا نُطيعُ فيكُمْ أَحَداً أَبداً وإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويودونهم ، وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إليه بعدم إطاعتهم فيه : إظهارُ كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية

الداعية إليه لما كان في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُم ﴾ أي إخفاءهم لما يقولون لليهود ﴿ فَكَيْفَ إذا تَوفَّتْهُمُ الْملائِكَةُ ﴾ أي يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيلة ، فكيف يفعلون إذا قبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ؟ ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُم ﴾ بمقامع الحديد ، وأدبارهم : ظهورهم وخلفهم ، وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : لا يُتوفَّى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة وجهه ودبره ﴿ ذَلِكَ ﴾ التوفِّي الهائل ﴿ بِأَنَّهُم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ اتَّبعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَه ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان ، وخرجوا من الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ لأجل ذلك ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات ، أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها ، فالكفر والمعاصي سبب لإحباط الأعمال ، وباعث على العذاب والنكال ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الفاجر تنسل روحه كالسفود من الصوف المبلول ، والميت الفاجر يظن أن بطنه قد ملئت شوكاً ، وكأن نفسه يخرج من ثقب إبرة ، وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما ، ولهذا سئل كعبٌ الأحبار عن الموت ، فقال : كغصن شجر ذي شوك أدخل في جوف رجل فجذبه إنسان شديد البطش ذو قوة ، فقطع ما قطع ، وأبقى ما أبقى ، وعند وقت الهلاك يطعنه الملائكة بحربة مسمومة ، قد سقيت سماً من نار جهنم ، فتفرّ النفس وتنقبض خارجة فيأخذها الملك في يده ، وهي ترعد أشبه شيء بالزئبق على قدر النحلة شخصاً إنسانياً يناولها الملائكة الزبانية ، وهي ملائكة العذاب ، هذا حال الكافر والفاجر ، وأما المؤمن المطيع فعلى خلاف هذا لأنه أهل الرضى ، قال ميمون بن مهران : شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف ، فلما وضع على المصلَّى ليصلَّى عليه جاء طائر أبيض حتى وقع على أكفانه ثم دخل فيها فالتمس ولم يوجد ، فلما سوي عليه سمعنا صوتاً وما رأينا شخصاً (**يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إلى رَبِّكِ راضِيةً مَرْضِيَّةً . فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جَنَّتي**) فعلى العاقل أن يتهيأ للموت ولا يضيع الوقت ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ ﴾ أي المنافقون فإن النفاق مرض قلبي كالشك ونحوه ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُم ﴾ والأضغان جمع ضغن بالكسر ، وهو الحِقْدُ ، وهو إمساك العداوة في القلب والتربص للانتقام ، والمعنى بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن لن يخرج الله أحقادهم ، ولن يبرزها لرسول الله وللمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة ؟ أي إن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُم ﴾ لعرَّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم ﴾ بعلامتهم التي نسمهم بها ، وعن أنس رضي الله عنه « ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين ، كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين ، يشكُّ فيهم الناس

فناموا ذات ليلة ، وأصبحوا ، وعلى وجه كل منهم علامة النفاق ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ ولحنُ القول : فحواه ومعناه وأسلوبه ، أو إمالته جهة تعريض وتورية ، ومنه قيل للمخطىء لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب ، وفي الحديث « لعلَّ بعضكم ألحن بحجته من بعض »[1] أي أذهب بها في الجهات ، وفي المختار اللحن الخطأ في الإعراب ، وبابه قَطَعَ ، واللَّحَنُ بفتح الحاء الفطنة وقد لحن من باب طرب وفي الحديث (لعل أحدكم ألحن بحجته) أي أفطن بها انتهى ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو قولهم مالنا إن أطعنا من الثواب ، ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم** ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين ، وفي الآية اشارة إلى أن من مرض القلوب الحسبان الفاسد ، والظن الكاذب ، فظنوا أن الله لا يطلّع على خبث عقائدهم ، ولا يظهره على رسوله ، وليس الأمر كما توهموه ، بل الله فضحهم وكشف تلبيسهم بالإخبار ، والتعريف ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم** ﴾ بالأمر بالقتال ونحوه من التكاليف الشاقة إعلاماً لا استعلاماً ، أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العذاب ﴿ **حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُم وَالصَّابِرِينَ** ﴾ على مشاق الجهاد علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ **وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم** ﴾ الأخبار بمعنى المخبر بها أي ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها ، لأن الخبر على حسب المخبر عنه ، إن حسناً فحسن وإن قبيحاً فقبيح ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا** ﴾ أي منعوا الناس ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي عن دين الإسلام الموصل إلى رضى الله تعالى﴿ **وَشَاقُّوا الرَّسولَ** ﴾ وعادوه وخالفوه ، وصاروا في شق غير شقه ، والمخالفة أصل كل شر إلى يوم القيامة ﴿ **مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُم الْهُدَىٰ** ﴾ بما شاهدوا نعته عليه السلام في التوراة ، وبما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات ، وهم قريظة والنضير ، أو المطعمون يوم بدر ، وهم رؤساء قريش ﴿ **لَنْ يَضُرُّوا اللهَ** ﴾ بكفرهم وصدّهم ﴿ **شَيْئاً** ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله بمشاقته شيئاً ﴿ **وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم** ﴾ أي مكائدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى، ومشاقة رسوله ، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ، ولا يتم لهم إلا القتل كما حَدَث لقريظة وأكثر المطعمين ببدر ، والجلاء عن أوطانهم كما للنضير ﴿ **يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ في العقائد والشرائع كلها فلا تشاقوا الله ورسوله في شيء منها ﴿ **وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم** ﴾ أي بمثل ما أبطل به هؤلاء أعمالهم ، من الكفر والنفاق والرياء ، والمنّ والأذى والعجب وغيرها ، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر ـ على ما زعمت المعتزلة والخوارج ـ فإن جمهورهم على أن كبيرةً واحدة تحبط جميع الطاعات ، حتى أن من عبد الله طول عمره ثم شرب جرعة من خمر فهو كمن لم يعبده قط ، وفي الآية

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان وأوله (إنما أنا بشرٌ ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٨١ .

إشارة إلى أن كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله فهو باطل ، لم يكن له ثمرة لأنه صدر عن الطبع ، والطبع ظلماني ، وإنما جاء الشرع - وهو نوراني - ليزيل ظلمه الطبع بنور الشرع فيكون مثمراً، وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الطبع إلى نور الحق ، فعليك بالإطاعة واستعمال الشريعة وإياك والمخالفة والإهمال ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بالله تعالى ورسوله ﴿ **وَصَدُّوا** ﴾ الناس ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ الموصل إلى رضاه ﴿ **ثُمَّ مَاتُوا** ﴾ وفارقوا الحياة ﴿ **وَهُمْ كُفَّارٌ** ﴾ الواو للحال ﴿ **فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ** ﴾ في الآخرة لأنهم ماتوا على الكفر ، فيحشرون على ما ماتوا عليه ، وهو حكم يعمُّ كل من مات على الكفر ، وإن صح نزوله في أصحاب القليب ، والمراد البئر التي طرح فيها جيف الكفار المقتولين يوم بدر ﴿ **فَلاَ تَهِنُوا** ﴾ من الوهن وهو الضعف والفاء فصيحة أي إذا تبين لكم بما يتلى عليكم أن الله عدوهم يبطل أعمالهم ، فلا يغفر لهم (فَلاَ تَهِنُوا) أي لا تضعفوا فإن من كان الله عليه لا يفلح ﴿ **وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ** ﴾ والسلم بفتح السين وكسرها لغتان بمعنى الصلح أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح فوراً ﴿ **وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ** ﴾ جمع الأعلى بمعنى الأغلب أي الأغلبون ، وقال الكلبي : آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات ﴿ **واللهُ مَعَكُم** ﴾ فإن كون المؤمنين الأغلبين وكونه تعالى معهم أي ناصرهم في الدارين ، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة ، وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال ، حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ **وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ أي ولن يضيِّعها ، من وترتُ الرجل إذا قتلت له قتيلاً ، من ولد ، أو أخ ، أو حميم ، فأفردته منه ، من الوتر الذي هو الفرد ، ووَتَره مالَه نقصه إياه ، وعبَّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال ، مع أن الأعمال غيرموجبة للثواب على قاعدة أهل السنة ، إبرازاً لغاية اللطف ، بتصوير ترك الإثابة بمنزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها ، وفي الحديث القدسي « يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فلْيَحمدِ الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه »[1] يعني ما جزاء أعمالكم إلا محفوظ عندي لأجلكم ، ثم أؤديها إليكم وافية كاملة ، وعن أبي ذر رضي الله عنه رفعه يقوله الله تعالى « إني حرمت الظلم على نفسي وحرمته على عبادي فلاتظالموا » فإذا كان الله منزهاً عن الظلم ونقص جزاء الأعمال ، فَلْيطب العبد نفساً ، لأن الله تعالى أكرم الأكرمين ، فيعطيه فوق مطلوبه بفضله وكرمه .

قال أبو الليث رحمه الله في تفسيره : وفي الآية دليل على أن أيدي المسلمين إذا كانت عالية على المشركين ، لا ينبغي أن يجيبوهم إلى الصلح ، لأن فيه ترك الجهاد ، وإن لم تكن يدهم عالية فلا بأس بالصلح ، لقوله تعالى (**وان جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**) أي إن مالوا إلى الصلح فمل إليه ، كذا قال

(١) هذا طرف من حديث قدسي طويل أخرجه مسلم في صحيحه ، بدايته (يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم على نفسي ..) إلى آخره .

غيره : هذا نهيٌ للمسلمين عن طلب صلح الكافرين ، قالوا : وهو دليل على أنه عليه السلام لم يدخل مكة صلحاً ، لأنه نهي عن الصلح ، وكذا قال الحدادي في تفسيره في سورة النساء : لا يجوز مهادنة الكفار ، وترك أحد منهم على الكفر من غير جزية ، إذا كان بالمسلمين قوة على القتال ، وأما إذا عجزوا عن مقاومتهم ، وخافوا على أنفسهم وذراريهم ، جاز لهم مهادنة العدو من غير جزية يؤدونها إليهم ، لأن حظر الموادعة كان سببه القوة ، فإذا زال السبب زال الحظر ، والجمهور على أن مكة فتحت عنوة أي قهراً لا صلحاً ، لوقوع القتال بها ، ولو كان صلحاً لما قال عليه السلام : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن إلى آخر الحديث ﴿ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ عند أهل البصيرة ﴿ **لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ باطل وغرور ولا اعتبار بها ولا ثبات لها ، إلا أياماً قلائل ، واللهو ما يشغل الإنسان عما يَعْنِيهِ وَيَهمُّه ، وفيه إشارة إلى أن الدنيا وما فيها ، من أولها إلى آخرها لا وجود لها في الحقيقة ، وإنما هي أمر عارض زائل ، والله هو الأزلي الأبدي ﴿ **وَإِنْ تُؤْمِنُوا** ﴾ أيها الناس بما يجب به الإيمان ﴿ **وَتَتَّقُوا** ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ **يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ** ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات ، التي يتنافس فيها المتنافسون ، وفي الآية حث على طلب الآخرة الباقية ، وتنفير عن طلب الدنيا الفانية ﴿ **وَلا يَسْأَلْكُمْ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **أَمْوَالَكُمْ** ﴾ الجمعُ المضاف من صِيَغ العموم ، فالمراد جميع أموالكم ، بحيث يُخلُّ أداؤها بمعاشكم ، وإنما اقتصر على شيء قليل منها ، وهو ربع العشر ، تؤدُّونها إلى فقرائكم ، فطيبوا بها نفساً ﴿ **إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا** ﴾ أي أموالكم ﴿ **فَيُحْفِكُمْ** ﴾ أي يجهدكم بطلب الكل ، وذلك أن الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية ، يقال : أحفى شاربه أي استأصله أي قطعه من أصله ﴿ **تَبْخَلُوا** ﴾ بها فلا تعطوا ﴿ **وَيُخْرِجْ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **أَضْغَانَكُمْ** ﴾ أي أحقادكم ، قال قتادة : علم الله أنَّ ابن آدم ينقم على من يريد ماله ، ﴿ **هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ** ﴾ أي أنتم أيها المخاطبون ، هؤلاء الموصوفون في قوله تعالى (**إن يَسْأَلْكُموها**) الآية ﴿ **تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي ها أنتم الذين تدعون للإنفاق في سبيل الله ، ففيه توبيخ عظيم ، وتحقير من شأنهم ، والإنفاق في سبيل الله يعمُّ نفقة الغزو ، والزكاة وغيرها ﴿ **فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ** ﴾ بالرفع لأنها ليست بشرط أي ناس يبخلون ، كأنه قيل الدليل عليه أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به ﴿ **وَمَنْ يَبْخَلْ** ﴾ بالجزم لأن (مَنْ) شرطٌ ﴿ **فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق ، وضرر البخل عائد إليه ، والبخل يستعمل بـ « عَنْ » و « على » لتضمنه معنى الإمساك ، أي فإنما يمسك الخير عن نفسه بالبخل ﴿ **واللهُ الْغَنِيُّ** ﴾ عنكم وعن صدقاتكم دون من عداه ﴿ **وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ إليه وإلى ما عنده من الخير ، فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيها من المنافع ، فإن امتثلتم فلكم ، وإن توليتم فعليكم ، قال الجنيد ، الفقر يليق بالعبودية ، والغنى يليق بالربوبية ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا** ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ، وعما دعاكم إليه ، ورغَّبكم

فيه من الإنفاق في سبيله ﴿ **يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ** ﴾ أي يذهبكم ويخلق مكانكم قوماً آخرين ﴿ **ثُمَّ لاَ يَكُوْنُوْا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ في التولي عن الإيمان ، والتقوى والإنفاق ، بل يكونوا راغبين فيها ، والخطاب في « تتولوا » لقريش ، والبَدَلُ الأنصار ، وهذا كقوله تعالى (**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكافِرِينَ**) أو للعرب ، والبدلُ العجم وأهل فارس ، كما روي أنه عليه السلام « سئل عن القوم ، وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه فقال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا ـ أي معلقاً بالنجم المعروف ـ لتناوله رجال من فارس »[1] فدلَّ على أنهم الفرس الذين أسلموا ، وفيه فضيلة لهذه القبيلة .

تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد ﷺ



(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير « محمد » وأخرجه الشيخان عند نزول آية الجمعة ﴿ **وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم** ﴾ وانظر جامع الأصول ٩ / ٧٨ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح سبع وعشرون آية مدنية بلا خلاف ، نزلت في مرجع رسول الله عن مكة عام الحديبية ، فإن قلت : إذا لم تنزل بالمدينة كيف تكون مدنية ؟ قلت : المدنيُّ في الاصطلاح ما نزل بعد الهجرة ، نزل بالمدينة أو غيرها ، كما أن المكي ما نزل قبلها ، ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ** ﴾ فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحاً ، مأخوذ من فتح باب الدار ، والمراد فتح مكة ، وهو المروي عن أنس رضي الله عنه ، بُشِّر به رسول الله ﷺ عند انصرافه من الحديبية ، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحققه لا محالة تأكيداً للتبشير ، وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبِر جلَّ جلاله ، وعز سلطانه ما لا يخفى . قال الراغب : إنا فتحنا لك يقال عن فتح مكة ، ويقال : بل عن ما فتح على النبي عليه السلام من العلوم والهدايات ، التي هي ذريعة إلى الثواب ، والمقام المحمود ، التي صارت سبباً لغفران ذنوبه ، ﴿ **فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ أي بَيِّناً ظاهرَ الأمر مكشوف الحال ، أو فارقاً بين الحق والباطل . وقال بعضهم : المراد بالفتح المبين هو الصلح مع قريش في « غزوة الحديبية » قال العلماء : إنه سمَّى الصلحَ فتحاً مع أنه ليس بفتح عرفاً ، لأنه ليس بظفر على البلد ، ولا لغةً لأنه ليس بظفر للمنغلق ، كيف وقد أحصروا ومُنعوا من البيت فنحروا وحلقوا بالحديبية وأيُّ ظفر في ذلك ؟ فالجواب : أن الصلح مع المشركين فتح بالمعنى اللغوي لأنه كان منغلقاً ومتعذراً وقت نزولهم بالحديبية إلا أنه لما آل الأمر إلى بيعة الرضوان ، وظهر عند المشركين اتفاق كلمة المؤمنين وصدقُ عزيمتهم على الجهاد والقتال ، ضعفوا وخافوا حتى اضطروا إلى طلب الصلح ، وتحقَّق بذلك غلبة المسلمين عليهم ، مع أن ذلك الصلح قد كان سبباً لأمور أخرى كانت منغلقة قبل ذلك منها : أن المشركين اختلطوا بالمسلمين بسببه فسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في مدة قليلة خلق كثير كثَّر به سواد أهل الإسلام حتى قالوا : دخل في تلك السنة في الإسلام مثل من دخل فيه قبل ذلك وأكثر ، وفرغ عليه السلام بهذا الصلح لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع خصوصاً خيبر واغتنم المسلمون ، واتفقت في تلك السنة ملحمة عظيمة بين الروم وفارس غلبت فيها الروم على فارس ، وكانت غلبتهم عليهم من دلائل النبوة ، حيث كان عليه السلام وعد بوقوع تلك الغلبة في بضع سنين ، وهو ما بين الثلاث إلى التسع ، فكانت كما وعد بها فظهر بها صدقه عليه السلام ، فكانت من جملة الفتح ، وسُرَّ به عليه السلام والمؤمنون ، لظهور أهل الكتاب على المجوس ، إلى غير ذلك من فتوحات الله الجليلة ونعمه العظيمة ﴿ **لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ** ﴾ غايةٌ للفتح من حيث إنه مترتب على سعيه عليه السلام ، في إعلاء كلمة الله بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب ﴿ **مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا**

﴿ تَأَخَّرَ ﴾ أي : جميع ما فَرَط منك من ترك الأولى ، وتسميتُه ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

واستغفار الأنبياء لا يكون عن ذنب حقيقة كذنوبنا ، وإنما هو عن أمر يدق عن عقولنا ، لأنه لا ذوق لنا في مقامهم ، فلا يجوز حمل ذنوبهم على ما نعقله نحن من الذنب ، ومؤآخذة الله عباده في الدنيا والآخرة تطهير لهم ورحمة ، وفي حق الأنبياء من جهة العصمة والحفظ ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين وغيره ، مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلاً قبل ذلك ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي : نصراً فيه عزة ومنعة . قال في فتح الرحمن : النصر العزيز هو الذي معه غلبة العدو ، والظهور عليه ، والنصر غير العزيز هو الذي معه الحماية ودفع العدو فقط ، انتهى . ثم الظاهر أن المراد من ذلك النصر ، وهو ما ترتب على فتح مكة ، من النصر على الأعداء كهوازن وغيرهم ، ونصر أمته على الأكاسرة والقياصرة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادىء الفتح من الثبات والطمأنينة ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بسبب الصلح والأمن بعد الخوف لأنهم كانوا قليلي العدة بسبب أنهم معتمرون وكان العدو مستعداً لقتالهم مع مَا له من القوة والشوكة وشدة البأس ، فثبتوا وبايعوا على الموت بفضل الله تعالى ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي : يقيناً منضماً إلى يقينهم الذي هم عليه ، برسوخ العقيدة ، واطمئنان النفس عليها ، وكلمة « مع » في إيمانهم ليست على حقيقتها ، لأن الواقع في الحقيقة ليس انضمام يقين إلى يقين لامتناع اجتماع المثلين ، بل السكون إلى ما جاء به النبي عليه السلام ، من الشرائع ، ليزدادوا إيماناً بها مقروناً مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أول ما أتاهم به النبي عليه السلام التوحيد ، ثم الصلاة ، والزكاة ، ثم الحج ، والجهاد حتى أكمل لهم دينهم كما قال (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فكان الإيمان يزيد في ذلك الزمان بزيادة الشرائع والأحكام ، وأما الآن فلا يزيد ولا ينقص ، بل يزيد نوره ويقوى ، بكثرة الأعمال وقوة الأحوال (١) . ﴿ وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الجنودُ : جمع جُند بالضم ، وهو جمعٌ معدّ للحرب أي مختص به تعالى جنود العالم ، يدبر أمرها كيفما يشاء يسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينها السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته

---

(١) الصحيح ما عليه الجمهور أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالأعمال الصالحة ، وينقص بكثرة المعاصي والموبقات ، كما قال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ وليس إيمان العالم كإيمان الجاهل ، ولا تصديق العارف بالله ، كتصديق الغافل عن الله ، فكلما ازداد الإنسان طاعةً لله جل وعلا ، زاد إيمانه ويقينه ، وزادت خشيته وخوفه من الله تعالى كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عِبَادِهِ العُلَماءُ ﴾ .

المبنية على الحكم والمصالح . وتأويل الآية : لم يكن صدُّ المشركين رسول الله عن قلة جنود الله ، ولا عن وهن نصره ، لكن عن علم الله واختياره انتهى ، وفي فتح الرحمن ولله جنود السموات والأرض ، فلو أراد نصر دينه بغيركم لفعل . فلابد من التوكل على الله ، فإنه عون كل ضعيف ، وحسب كل عاجز ، قال بعضهم : ما سلّط الله عليك فهو من جنوده ، إن سلط عليك نفسك أهلك نَفْسك بنفسك ، وإن سلط عليك جوارحك أهلك جوارحك بجوارحك ، وإن سلط نفسك على قلبك قادتك إلى متابعة الهوى وطاعة الشيطان ، وإن سلط قلبك على نفسك وجوارحك ، زمَّها بالأدب فألزمها العبادة ، وزينها بالإخلاص في العبودية ﴿ **وَكَانَ اللهُ عَلِيماً** ﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿ **حَكِيماً** ﴾ في تقديره وتدبيره فكان بمعنى كان ومازال أي دالة على الاستمرار والوجود بهذه الصفة لا معيِّنة وقتاً ماضياً ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ متعلق بما يدل عليه ما ذكر تعالى من معنى التصرف والتدبير أي دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿ **وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ هذا بازآء قوله (**ليغفر لك الله**) أي يغطيها ولا يظهرها قبل أن يدخلهم الجنة ليدخلوها مطهرين من الآثام ﴿ **وَكَانَ ذَلِكَ** ﴾ أي : ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿ **عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ والفوزُ : الظفر مع حصول السلامة وعند الله ، أي : كائناً عند الله تعالى أي : في علمه وقضائه ﴿ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ** ﴾ من أهل المدينة ﴿ **وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** ﴾ من أهل مكة ، والتعذيبُ : هو ما حصل لهم من الغيظ بنصر المؤمنين ، وفي تقديم المنافقين على المشركين ، ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب ، وقد تثاقل كثير منهم فلم يخرجوا معه عليه السلام ، ثم اعتذروا فقالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿ **الظَّانِينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ** ﴾ صفة لطائفتي أهل النفاق وأهل الشرك ، والتقدير هنا : ظنَّ الأمر السوء ، وهو أنَّ الله لا ينصر رسوله ، ولا يرجعهم إلى مكة فاتحين وإلى المدينة سالمين ، كما قال (**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً**) ﴿ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** ﴾ أي : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ، ودآئر عليهم ، لا يتجاوزهم إلى غيرهم ، فقد أكذب الله ظنهم ، وقلب ما يظنونه بالمؤمنين عليهم ، بحيث لا يتخطاهم ولا يظفرون بالنصرة أبداً ، وهذا كقوله تعالى : (**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ . عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ**) قال أبو السعود : (**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**) دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين ، على نهج الاعتراض كقوله تعالى : (**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**) بعد قول اليهود ما قالوا انتهى . والدآئرة عبارة عن الخط المحيطِ بالمركز ، ثم استعملت في الحادثة والمصيبة المحيطة لمن وقعت هي عليه فمعنى الآية : يحيط بهم السوء إحاطة الدائرة بالشيء أو بمن فيها بحيث لا سبيل إلى الانفكاك عنها بوجه .

﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا ، وغضبه تعالى إرادة العقوبة لهم في الآخرة وكونهم على الشرك والنفاق في الدنيا ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ طردهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ الواو في الفعلين الأخيرين للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد ، وأصالته من غير استتباع بعضهما لبعض ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ أي : جهنم ، والمصيرُ المرجع الذي يصير إليه الإنسان ﴿ وَلِلهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً ﴾ أي : بليغ العزة والقدرة على كل شيء ﴿ حَكِيماً ﴾ بليغ الحكمة فيه فلا يفعل ما يفعل إلا على مقتضى الحكمة والصواب ، قال في برهان القرآن الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد إيمان المؤمنين فكان الموضع موضع علم وحكمة ، ولهذا قال : (وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) وأما الثاني فمتصلٌ بالعذاب والغضب ، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة . واعلم أن الله تعالى قد جعل في النار مائة دركة ، في مقابلة درج الجنة ، ولكل دركة قوم مخصوصون لهم من الغضب الإلهي آلام مخصوصة ، تصل إليهم من أيدي الملائكة الموكلين بهم نعوذ بالله من سخطه وعذابه ، ونسأله الأولى من نعيمه وثوابه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ أي : على أمتك لقوله تعالى : (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) يعني على تصديق من صدقه ، وتكذيب من كذَّبه أي : مقبولاً قوله في حقهم يوم القيامة عند الله تعالى ، سواء شهد لهم أو عليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل عند الحاكم ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ على الطاعة بالجنة والثواب ﴿ وَنَذِيراً ﴾ على المعصية بالنار والعذاب ، وقد جاء وصفه ﷺ في التوراة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكّل ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظ ، ولا صَخَّابٍ في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملَّة العوجاءَ بأن يقولوا : « لا إله إلا الله » فيفتح بها أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقُلوباً غُلْفاً »[1] . ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخطاب للنبي عليه السلام ولأمته ، فيكون تعميماً للخطاب بعد التخصيص ، لأن خطاب « أرسلناك » للنبي خاصة ومثله قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) خصَّه عليه السلام بالنداء ، ثم عمّم الخطاب على طريق تغليب المخاطب على الغائبين وهم المؤمنون ، فدلَّت الآية على أنه عليه السلام يجب أن يؤمن برسالة نفسه كما ورد أنه عليه السلام قال أشهد أني عبد الله ورسوله ، ويجوز أن يكون الخطاب للأمة فقط ، فإن قلت : كيف يجوز تخصيصهم الخطاب الثاني بالأمة في مقام توجيه الخطاب الأول إليه عليه السلام بخصوصه ؟ قلت : إن خطاب رئيس القوم بمنزلة خطاب من معه من أتباعه ، فجاز أن يخاطب الأتباع في مقام تخصيص الرسل بالخطاب لأن المقصود سماعهم ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ وتقووه تعالى بتقوية

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ، وأحمد في المسند ٢ / ١٧٤ وانظر فتح الباري ٨ / ٥٨٥ .

دينه ورسوله ، قال في المفردات : التعزير النصرة من التعظيم وقال بعضهم أصله المنع ومنه التعزير فإنه منع من معاودة القبيح يعني وتمنعوه تعالى أي دينه ورسوله حتى لا يقوى عليه عدو ﴿ **وَتُوَقِّرُوهُ** ﴾ وتعظموه باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال منزهٌ عن جميع وجوه النقصان ﴿ **وَتُسَبِّحُوهُ** ﴾ وتنزهوه تعالى عما لا يليق به ولا يجوز إطلاقه عليه من الشريك والولد وسائر صفات المخلوقين . أؤ تصلوا له في السبحة وهي الدعاء وصلاة التطوع قال في القاموس : التسبيح الصلاة ومنه (**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**) أي : من المصلين ﴿ **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ أي : غدوةً وعشياً ، فالبكرة أول النهار والأصيل آخره أو دآئماً فإنه يراد بها الدوام وعن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وفي عين المعاني البكرة صلاة الفجر ، والأصيل الصلوات الأربع فتكون الآية مشتملة على جميع الصلوات المفروضة وجوّز بعض أهل التفسير أن يكون ضمير (**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**) للرسول ﷺ ولا وجه له لأنه تفكيك إذ ضمير (**وَتُسَبِّحُوهُ**) لله تعالى قطعاً ، وعلى تقدير أن يكون له وجه فمعنى تعظيم رسول الله وتوقيره حقيقة اتباع سنته في الظاهر والباطن ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ** ﴾ أي : يعاهدونك على قتال قريش تحت الشجرة ، سميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية أي : مبادلة المال بالمال في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة فهم التزموا طاعة النبي ﷺ والثبات على محاربة المشركين ، والنبي عليه السلام وعدهم بالثواب ورضى الله تعالى ، قال بعض الأنصار عند بيعة العقبة : تكلّم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فقال عليه السلام : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، وأبناءكم ، ونساءكم ، فقال ابن رواحة رضي الله عنه : فإذا فعلنا فما لنا ؟ فقال : لكم الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ﴿ **إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ** ﴾ يعني أن من بايعك بمنزلة من بايع الله كأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة كما قال تعالى : (**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**) وذلك لأن المقصود ببيعة رسوله هو وجه الله وتوثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه ﴿ **يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ أي : كأن يد الله حين المبايعة فوق أيديهم ، حذف أداة التشبيه للمبالغة في التأكيد ، وذكر اليد لأخذهم بيد رسول الله حين البيعة ، على ما هو عادة العرب عند المعاهدة والمعاقدة ، وفيه تشريف عظيم ليد رسول الله التي تعلو أيدي المؤمنين المبايعين ، حيث عبر عنها بيد الله ، كما أن وضعه عليه السلام يده اليمنى على يده اليسرى ، لبيعة عثمان رضي الله عنه ، تفخيم لشأن عثمان ، حيث وضعت يد رسول الله موضع يده ، ولم ينل تلك المنزلة العظمى أحد من الأصحاب ، فكانت غيبته رضي الله عنه في تلك الوقعة خيراً له من الحضور . ويؤيد ذلك ما روي : « لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،

ويده التي يبطش بها »[١] . فيكون المعنى قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم[٢] ، كأنه قيل : ثق يا محمد بنصرة الله ، لك لا بنصرة أصحابك ومبايعتهم على النصرة والثبات . قال بعضهم : اليد في الموضعين بمعنى الإحسان والصنيعة فالمعنى نعمة الله عليهم في الهداية إلى الإيمان وإلى بيعة الرضوان فوق ما صنعوا من البيعة كقوله تعالى : (**بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**) وقال السدي : يأخذون بيد رسول الله ويبايعونه ويد الله أي حفظ تلك المبايعة عن الانتقاض والبطلان فوق أيديهم ، كما أن أحد المتبايعين إذا مدَّ يده إلى الآخر لعقد البيع يتوسط بينهما ثالث فيضع يده على يديهما ويحفظ يديهما إلى أن يتم العقد ، لا يترك واحداً منهما أن يقبض يده إلى نفسه ويتفرق عن صاحبه قبل انعقاد البيع ، فيكون وضع الثالث يده على يديهما سبباً لحفظ البيعة فلذلك قال تعالى : (**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**) يحفظهم ويمنعهم عن ترك البيعة كما يحفظ المتوسط أيدي المتبايعين ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ** ﴾ النكث : نقض نحو الحبل والغزل استعير لنقض العهد أي فمن نقض عهده وبيعته وأزال إبرامه وأحكامه ﴿ **فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ** ﴾ فإنما يعود ضرر نكسته على نفسه لأنَّ الناكث هو لا غير ﴿ **وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ** ﴾ أي : ومن أوفى بعهده وثبت عليه وأتمه ﴿ **فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ هي الجنة وما فيها من رضوان الله العظيم والنظر إلى جماله الكريم . ويحتمل أن يراد بنكث العهد ما يتناول عدم مباشرته ابتداء ونقضه بعد انعقاده ، لما روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال : بايعنا رسول الله بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلا جدُّ بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم أي : إلى المبايعة حين دعوا إليها .

وعن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : (كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ وكنا حديثي عهد ببيعته ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، قال : ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا وقلنا : عَلاَمَ نبايعك ؟ قال « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتطيعوا ـ وأسرَّ كلمةً خفية ـ ولا تسألوا الناس » فلقد رأيت بعض أولئك النفر ، يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه)[٣] . وعن عبادة بن الصامت

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) قال شيخ المفسرين ابن جرير في قوله تعالى ﴿ **يدُ اللهِ فوقَ أيديهم** ﴾ وجهان من التأويل : **أحدهما** : يدُ الله فوق أيديهم عند البيعة ، لأنهم إنما كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيَّه ﷺ **والثاني** : قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ ، لأنهم بايعوا رسول الله على نصرته . وقال الحافظ ابن كثير : معنى الآية : أنه تعالى حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري .

قال : أخبرني أبي عن أبيه قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق حيث كنا ولا نخاف في الله لومة لائم »[١] . وتكون المبايعة بأخذ اليد ، وذلك بالنسبة إلى الرجال دون النساء ، لما روي أن النساء اجتمعن عند النبي عليه السلام وطلبن أن يعاهدهن باليد ، فقال : إني لا أصافح النساء ، ولكن قَوْلِي لامرأة واحدة كَقَوْلي لمائة امرأة ، فبايعهنَّ بالكلام[٢] . وقد بايعه عليه السلام ليلة العقبة الثانية السبعون رجلاً وبايعته المرأتان من غير مصافحة لأنه ﷺ كان لا يصافح النساء إنما كان يأخذ عليهن فإذا أحرزن قال : اذهبن فقد بايعتكن . وفي الحديث : « الحجر الأسود يمين الله في أرضه »[٣] وفي رواية : « الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه » . قال السخاوي : لما كان الحاج والمعتمر يتعين لهما تقبيله ، نُزِّل منزلةَ يمين الملك ويده ، ولله المثلُ الأعلى ، وكذلك من صافحه كان له عند الله عهدٌ ، كما أن الملك يعطي الهدية والعهد بالمصافحة ، انتهى . ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ** ﴾ السين للاستقبال يقال خلَّفته بالتشديد تركته خلفي ، وخلَّفوا أثقالهم تخليفاً خلوها وراء ظهورهم ، وخلَّفهم الله عن رسول الله كما قال : (**كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ**) والعرب أولاد اسماعيل عليه السلام ، والأعراب صار اسماً لسكان البادية وفي القاموس العَرَب سكان الأمصار ، والأعراب منهم سكان البادية ويجمع على أعاريب ، انتهى . وفي مختار الصحاح : العرب جيل من الناس والنسبة إليهم عربي ، وهم أهل الأمصار ، والأعراب منهم سكان البادية خاصة ، والنسبة إليهم أعرابي ، وليس الأعراب جمعاً لعرب بل هو اسم جنس ، انتهى . والمراد هنا هم أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب ، ويصدُّوه عن البيت ، وأحرم عليه السلام وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد الحرب ، وتثاقلوا عن الخروج ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ فأوحى الله إليه عليه السلام بأنهم سيعتلون أي عند وصولك إلى المدينة ويقولون ﴿ **شَغَلَتْنَا** ﴾ والشغل العارض الذي يذهل الإنسان وقد شغل فهو مشغول ﴿ **أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا** ﴾ ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٥٣ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي ومالك في الموطأ عن أميمة بن رقيقة قالت (أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من الأنصار نبايعه ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١ / ٢٥٥ .

(٣) الحديث أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس ولفظه (الحجر يمينُ الله فمن مسحه فقد بايع الله) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٧٩ .

الضياع ، والأموال : جمع مال وهو كل ما يتملكه الناس من دراهم أو دنانير أو ذهب أو فضة أو حنطة أو خبز أو حيوان أو ثياب أو سلاح أو غير ذلك والمال العين هو المضروب وسمى المال مالاً لكونه بالذات تميل القلوب إليه وفي التلويح : المال ما يميل إليه الطبع ويدخر لوقت الحاجة أو ما خلق لمصالح الآدمي ويجري فيه الشح والضنة ، انتهى . والأهلون جمع أهل وأهل الرجل عشيرته وذوو قرباه ﴿ **فَاسْتَغْفِرْ لَنَا** ﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن اضطرار ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ تكذيب لهم في الاعتذار وسؤال الاستغفار يعني أنه تكذيب لهم فيما يتضمنه من الحكم من أنا مؤمنون حقاً معترفون بذنوبنا فالشك والنفاق هو الذي خلفهم لا غير ﴿ **قُلْ** ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم ﴿ **فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئَاً** ﴾ أي : فمن يقدر لأجلكم من مشيئة الله وقضائه على شيء من النفع ﴿ **إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً** ﴾ أي : ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظها ودفع الضرر عنها ﴿ **أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعَاً** ﴾ أي : ومن يقدر على شيء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم فأي حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظها ﴿ **بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرَاً** ﴾ أي : ليس الأمر كما تقولون بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملون من الأعمال التي من جملتها تخلفكم فمن ترك أمر الله ومتابعة رسوله وقعد طلباً للسلامة دخل في الآية ثم لم يجد خلاصاً من الضرر والبلاء ، فإن الله تعالى قادر على إيصال المكروه ولو بغير صورة القتال ، فلابد من الصدق والعمل بالإخلاص ، والتوكل على الله تعالى ، فإن فيه الخلاص . ﴿ **بَلْ ظَنَنْتُمْ** ﴾ أي : بل ظننتم أيها المخلفون ﴿ **أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ** ﴾ أي : لن يرجع ﴿ **الرَّسُولُ** ﴾ ﷺ ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ الذين معه وهم ألف وأربعمائة ﴿ **إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدَاً** ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالكلية فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلأجل ذلك تخلفكم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿ **وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ أي : قبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم ﴿ **وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ** ﴾ المراد به إما الظن الأول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء ، وإلا فهو من عطف الشيء على نفسه أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التي من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه السلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال فبهذا التعميم لا يلزم التكرار ﴿ **وَكُنْتُمْ قَوْمَاً بُورَاً** ﴾ أي : هالكين عند الله مستوجبين سخطه وعقابه على أنه جمع بائر أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ، وفي المفردات : البوار فرط الكساد ، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد ، عبَّر بالبوار عن الهلاك ﴿ **وَكُنْتُمْ قَوْمَاً بُورَاً** ﴾ أي : هلكى ، انتهى ، وفيه إشارة إلى أن كل من ظن أن يصيبه في الغزو قتل أو جراحة ، أو ما يكره من المصائب ، ثم يتخلف عن الغزة ، فإنه من الهالكين ، وقد استولى الشيطان على قلبه ، فزيَّن له الحياة الدنيا ، ليؤثرها على الحياة الآخرة

التي أعدت للشهداء ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرسُولِهِ ﴾ أي : ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ أي : لهم النار الملتهبة ، وتنكيره للتهويل لدلالة على أنه سعير لا يكتنه كنهها ﴿ وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يغفر له وهو فضل منه ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه وهو عدل منه من غير دخل لأحد في شيء منهما وجوداً وعدماً ، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في استغفاره عليه السلام لهم ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء ، ولا يشاء إلا لمن تقتضي الحكمة مغفرته ، ممن يؤمن به وبرسوله ، وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعاً ، فالآية نظير قوله تعالى في الأحزاب (لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) أي : يعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم أي : إن لم يتوبوا ، فإن الشرك لا يغفر البتة ، أو يتوب عليهم أي : يقبل توبتهم إن تابوا فالله تعالى يمحو بتوبة واحدة ذنوب العمر كله ، ويعطي بدل كل واحدة منها حسنة وثواباً ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : إن الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد ، ومن تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أنسى الله حافِظَيْه وبقاع أرضه خطاياه وذنوبه .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ المذكورون ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أصل الطلاق التخلية من وثاق ، والمغانمُ : جمع مغنم بمعنى الغنيمة ، أي : سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر ، لتحوزوها حسبما وعدكم إياها وخصَّكم بها عوضاً عما فاتكم من غنائم مكة ، إذا انصرفوا منها على صلح ولم يصيبوا منها شيئاً ، ﴿ ذَرُوْنَا ﴾ أمرٌ من يذر الشيء أي : يتركه لقلة اعتداده به ، ولم يستعمل ماضيه ﴿ نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ ﴾ بأن يشاركوا في المغانم التي خصها بأهل الحديبية ، فإنه عليه السلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها ، وغنم أموالاً كثيرة ، فخصَّها بهم حسبما أمره الله تعالى ، فالمراد بكلام الله ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة ، لا قوله تعالى : (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً) فإن ذلك في غزوة تبوك ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ أي : لا تتبعونا فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ، وقال أبو الليث « لن تتبعونا » في المسير إلى خيبر إلا متطوِّعين ، من غير أن يكون لكم شركة في الغنيمة ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : عند الانصراف من الحديبية ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿ بَلْ تَحْسدونَنَا ﴾ أي : ليس ذلك النهي حكم الله ، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يفهمون قال الراغب : الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم ، والفقه العلم بأحكام الشريعة

وفقه أي فهم فقهاً ﴿ **إلا قَلِيلاً** ﴾ أي : إلا فهماً قليلاً وهمٌ فطنتهم لأمور الدنيا ، وهو وصف لهم بالجهل المفرط ، وسوء الفهم في أمور الدين ، وعن علي رضي الله عنه : أقلُّ الناس قيمة أقلهم علماً ، وأعلم أن العلم إنما يزداد بصحبة أهله ، ولما تخلَّف المنافقون عن صحبة رسول الله ﷺ ، وصفهم الله بعدم الفقه ، فلابد من مجالسة العلماء العاملين ، حتى تكون الدنيا وراء الظهر ، ويجعل الرغبة في الآخرة ، وعن بعضهم قال : رأيتُ في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة ، وبيده عصا وهو يطوف متعمداً عليها ، فسألته عن بلده فقال : خراسان ، ثم قال لي : في كم تقطعون هذا الطريق ؟ قلت : في شهرين أو ثلاثة ، فقال : أفلا تحجون كل عام ؟ فقلت له : وكم بينكم وبين هذا البيت ؟ قال : مسيرة خمس سنين ، قلت : هذا والله هو الفضل المبين ، والمحبة الصادقة ، فضحك وأنشأ يقول :

زُرْ مَنْ هَوِيْتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ * وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حُجْبٌ وَأَسْتَارُ

لا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عَنْ زِيَارَتِهِ * إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

وفي الآية إشارة إلى أن الدنيا من مظان الحسد ، وهو من رذائل النفس ، وفي الحديث : « ولا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » (١) . ﴿ **قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ** ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان لذمّهم مرة بعد أخرى ، فإنَّ التخلف عن صحبة الرسول عليه السلام شَنَاعة أي شَنَاعة ﴿ **سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** ﴾ أي : أولي قوة في الحرب وهم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، أو هم غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ، أو المشركون لقوله تعالى ﴿ **تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** ﴾ استئناف كأنه قيل : لماذا ؟ فأجيب ليكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير ، وأما من عدا المرتدين والمشركين من العرب فينتهي قتالهم بالجزية كما ينتهي بالإسلام يعني أن المراد بـ « قوم أولي بأس شديد » هم المرتدون والمشركون مطلقاً سواء كانوا مشركي العرب أو العجم بناء على أن من عدا الطائفتين المذكورتين وهم أهل الكتاب والمجوس ليس الحكم فيهم أن يقتلوا إلى أن يسلموا بل تقبل منهم الجزية ، بخلاف المرتدين ومشركي العرب والعجم فإنه لا تقبل منهم الجزية بل يقاتلون حتى يسلموا وهذا عند الشافعي وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فمشركو العجم تقبل منهم الجزية ، كما تقبل من أهل الكتاب والمجوس ، والذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، إنما هم مشركو العرب والمرتدون فقط عنده ، وفي الآية دليل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه إذ لم يتفق دعوة المخلَّفين إلى قتال أولي البأس الشديد لغيره من الخلفاء ، ومن أوجب الله طاعته يكون إماماً حقاً ، فيكون أبو بكر إماماً

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان وأبو داود ، والترمذي والموطأ ، وأوله (إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٢٣ .

حقاً ، وقيل : هم فارس والروم ، ومعنى « يسلمون » ينقادون ، فإن الروم نصارى وفارس مجوس تقبل منهم الجزية ، فتكون الآية دليلاً على إمامة عمر رضي الله عنه ، لأنه هو الذي قاتلهم ودعا الناس إلى قتالهم ﴿ **فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا** ﴾ هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا** ﴾ أي : تعرضوا عن الدعوة ﴿ **كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ** ﴾ في الحديبية ﴿ **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ لتضاعف جرمكم ، وبيان المقام أنه عليه السلام لما قال لهم لن تتبعونا دعت الحاجة إلى بيان قبول توبة من رجع منهم عن النفاق ، فجعل تعالى لهذا القبول علامة وهو أنهم يدعون بعد وفاته عليه السلام إلى محاربة قوم أولي قوة في الحرب ، فمن أجاب منهم دعوة إمام ذلك الزمان وحاربهم ، فإنه يقبل توبته ويعطي الأجر الحسن ، فلولا هذا الامتحان لاستمرَّ حالهم على النفاق . ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ** ﴾ لما وعد على التخلف نفي الحرج عن الضعفاء والمعذورين فقال « ليس على الأعمى » وهو فاقد البصر ﴿ **حَرَجٌ** ﴾ إثم في التخلف عن الغزو لأنه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع على من قصده والتكليف يدور على الاستطاعة وأصل الحرج والحراج مجتمع الشيء كالشجر وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللإثم حرج ﴿ **وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ** ﴾ لما به من العلة اللازمة إحدى الرجلين أو كليتها وقد سقط عمّن ليس له رجلان غسلها في الوضوء فكيف بالجهاد ، ﴿ **وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** ﴾ لأنه لا قوة به وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيعٌ لدائرة الرخصة ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أي : فيما ذكر من الأوامر والنواهي في السر والعلانية ﴿ **يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ** ﴾ عن الطاعة﴿ **يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ لا يُقادر قدرُه .

﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ رضى العبد عن الله : أن لا يكره ما يجري به قضاؤه ، ورضى الله عن العبد هو أن يراه مؤتمِراً لأمره ، منتهياً عن نهيه ، وهم الذين ذُكِرَ شأن مبايعتهم ، وكانوا ألفاً وأربعمائة على الصحيح ، وقيل : ألفاً وخمسمائة ، وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان ﴿ **إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ المراد بالشجرة هنا سمرة ، وقيل سدرة ، وكان مبايعتهم على أن يقاتلوا قريشاً ، ولا يفرُّوا ، وروي أن يقاتلوا على الموت . ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ عطف على يبايعونك ، فإن رضاه تعالى عنهم ، مترتب على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق والإخلاص ، عند مبايعتهم له عليه السلام ، ﴿ **فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ، بالربط على قلوبهم ، وقيل : بالصلح ، ﴿ **وَأَثَابَهُمْ** ﴾ الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزآء عمل ، يستعمل في الخير والشر ، لكن الأكثر المتعارف في الخير ، والإثابة تستعمل في المحبوب ، وقد قيل ذلك في المكروه نحو (**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ**) على الاستعارة ﴿ **فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ وهو فتح خيبر ﴿ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** ﴾ أي : وأثابهم مغانم خيبر وكانت ذات عقار وأشجار أخذوها من اليهود مع فتح بلدهم فقسمت عليهم ﴿ **وَكَانَ**

﴿ اللهُ عَزِيزاً ﴾ غالباً ﴿ حَكِيماً ﴾ مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه . وقال ابن الشيخ : حكيماً في أمره ، حكم لهم بالظفر والغنيمة ، ولأهل خيبر بالسبي والهزيمة ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ هي ما يفيئه على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿ تَأْخُذُونَهَا ﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحد منها ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أي : غنائم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي : أيدي أهل خيبر وهم سبعون ألفاً وحلفاؤهم من بني أسد وغطفان حيث جاؤوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ، ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فعجَّل لكم هذه ، وكفَّ أيدي الناس عنكم لتغنموها ، ولتكون آية للمؤمنين يعرفون بها صدق الرسول ، في وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من المغانم ، وفتح مكة ، وهو دخول المسجد الحرام ، ويجوز أن يكون المعنى : ولتكون آيةً لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ بتلك الآية ﴿ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه في كل ما تأتون وما تذرون ، ثم إن خيبر حصن معروف قرب المدينة ، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثيرة ، بينها وبين المدينة الشريفة ثمانية بُرُد ، والبريد أربعة فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، ولما رجع عليه السلام من الحديبية أقام شهراً أي : بقية ذي الحجة وبعض المحرم من سنة سبع ، ثم خرج إلى خيبر وقد استنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ، وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقال عليه السلام : لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد أما الغنيمة فلا ، أي لا تعطون منها شيئاً ، ثم أمر منادياً ينادي بذلك فنادى به ، وخرج معه عليه السلام من نسائه أم سلمة رضي الله عنها ، ولما أشرف على خيبر ـ وكان وقت الصبح ـ رأى عُمَّالها وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، قالوا : محمد والخميس أي : الجيش العظيم معه ، وأدبروا هرباً إلى حصونهم ، وكانوا لا يظنون أن رسول الله يغزوهم ، وكان بها عشرة آلاف مقاتل فقال عليه السلام : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ، وابتدأ من حصونهم بحصون النطاة ، وأمر بقطع نخلها ، فقطعوا أربعمائة نخلة ، ثم نهاهم عن القطع ، ومكث عليه السلام سبعة أيام يقاتل أهل الحصون ، فلم يرجع من أعطى له الراية بفتح ، ثم قال : لأعطين الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، فتطاولها أبو بكر وعمر وبعض الصحابة من قريش ، فدعا عليه السلام علياً رضي الله عنه وبه رَمَدٌ ، فتَفَلَ في عينيه ثم أعطاه الراية ، فقال عليٌّ علام أقاتلهم يا رسول الله ؟ قال : « أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم ، وألبسه عليه السلام درعه الحديد ، وشد سيفه ذا الفقار في وسطه ووجَّهه إلى الحصن ، وقال : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم »[1] أي : من الإبل النفيسة التي تصدق بها في سبيل الله . ثم انتهت بنصر

(١) الحديث أصله في الصحيحن ، وانظر سيرة ابن هشام وتفسير ابن كثير .

الله لرسوله ولعباده المؤمنين ، وفتحت حصون خيبر قاطبة ، وغنم المسلمون غنائمهم ، وأجلاهم ﷺ عن خيبر .

﴿ **وَأُخْرَىٰ** ﴾ عطف على هذه أي : فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿ **لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** ﴾ وهي مغانم هوازن في غزو حنين ، فإنهم لم يقدروا عليها إلى عام الحديبية ، وإنما قدروا عليها عقيب فتح مكة ووصفها بعدم القدرة عليها ، لما كان فيها من الجولة أي : من تكرار الهزيمة ﴿ **قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا** ﴾ أي : قد قَدَر الله عليها واستولى ، وأظهركم عليها ، وقيل : حفظها عليكم لفتحكم ، ومنعها من غيركم ، يعني جميع فتوح المسلمين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ومنه فتح قسطنطينية ، ورومية ، وعمورية ، ومدآئن فارس ، والروم ، والشام . قال الراغب : الإحاطة على وجهين ؛ أحدهما : في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا ، وتستعمل في الحفظ نحو (**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً**) أي : حافظاً له في جميع جهاته ، وتستعمل في المنع نحو (**إلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**) أي : إلا أن تمنعوا . والثاني : في العلم نحو (**أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**) فالإحاطة بالشيء علماً ، وهو أن يعلم وجوده ، وجنسه ، وقدره ، وكيفيته ، وغرضه المقصود به ، وبإيجاده ، وما يكون به ومنه ، وذلك ليس إلا لله سبحانه : (**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**) فنفى عنهم ذلك ﴿ **وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** ﴾ لأن قدرته تعالى ذاتية لا تختص بشيء دون شيء أي : منتهية عنده غير متجاوزة عنه لأن علتها لا تنتهي فتأمل .

﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي : أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل : حلفاء خيبر من بني أسد وغطفان ﴿ **لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ** ﴾ أي : لانهزموا ولم يكن قتال ، فإن تولية الأدبار كناية عن الانهزام وَدُبُرُ الشيء خلاف القُبُل ، كالظهر والخلف ﴿ **ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً** ﴾ يحرسهم ﴿ **وَلا نَصِيراً** ﴾ ينصرهم ﴿ **سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : سنن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن خلا ومضى من الأمم وهو قوله : (**لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**) ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** ﴾ أي : تغييراً بنقل الغلبة من الأنبياء إلى غيرهم .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ** ﴾ أي : أيدي كفار مكة ﴿ **عَنْكُمْ** ﴾ أي : بأن حملهم على الفرار منكم ، مع كثرة عدهم ، وكونهم في بلادهم بصدد الذبّ عن أهليهم وأولادهم ﴿ **وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ** ﴾ بأن حملكم على الرجوع عنهم وتركهم ﴿ **بِبَطْنِ مَكَّةَ** ﴾ أي : في داخلها ﴿ **مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ** ﴾ أي : جعلكم ظافرين غالبين ﴿ **عَلَيْهِمْ** ﴾ مع أن العادة المستمرة فيمن ظفر بعدوه أن لا يتركه ، بل يستأصله ، والظفر : الفوز ، وأصله من ظفر أي نشب ظفره ، وهم ثمانون رجلاً اطلعوا على رسول الله من قبل التنعيم ، عند صلاة الصبح ليأخذوه بغتة ، ويقتلوا الأصحاب ، فأخذهم رسول الله فخلّى سبيلهم ، فيكون

المراد ببطن مكة وادي الحديبية ، لأن بعضها من الحرم . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من مقاتلتكم وهزمكم إياهم أولاً ، وطاعة لرسوله وكفكم عنهم ثانياً لتعظيم بيته الحرام وصيانة أهل الإسلام ﴿ بَصِيراً ﴾ عالماً لا يخفى عليه شيء فيجازيكم بذلك ، وقال بعض العلماء : من بعد أن أظفركم عليهم يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن مكة فتحت عنوةً لا صلحاً ، وأما أن السورة نزلت قبله فلا يخالف لأنه من الإخبار عن الغيب ، كقوله : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) نعم يرد عليه منع دلالته على العنوة ، فقد يكون الظفر على البلد بالصلح وغيره . قال الزمخشري : الفتحُ : الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً ، بحرب أو بغير حرب ، وقال في بحر العلوم : ويدل على أنها فتحت عنوة قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) لأن لفظ الفتح إذا ورد مطلقاً لا يقع إلا على ما فتح عنوة ، انتهى . وقال في عين المعاني : وقد فتحت صلحاً عند الشافعي ، قلنا : بل عنوة لقوله عليه السلام لأصحابه : احصدوهم بالسيف حصداً ، لأن مشركي العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عندنا . وقصة فتح مكة على الإجمال أن الفتح كان في شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، وكان السبب في ذلك نقض عهد وقع من جانب قريش ، وذلك أن شخصاً من بني بكر هجا رسول الله ﷺ وصار يتغنى به فسمعه غلام من خزاعة وكانوا مسلمين فضربه فشجَّه ، فثار الشر بين الحيين وأمدت قريش لبني بكر على خزاعة ، فبيتوا خزاعة أي : أتوهم ليلاً على غفلة ، فقتلوا منهم عشرين ، ولم يكن ذلك برأي أبي سفيان رئيس قريش وعندما بلغه الخبر قال : حدثتني زوجتي هند أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دماً أقبل من الحجون يسيل ، وقال : والله ليغزوننا محمد ، فكره القوم ذلك ، وخرج « عمر بن سالم الخزاعي » حتى قدم المدينة وقصَّ على رسول الله القصة ، فقال عليه السلام : نصرتَ يا عمرو بن سالم ودمعت عينا رسول الله ، وكان يقول : خزاعة مني وأنا منهم ، قالت عائشة رضي الله عنها : أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد الذي بينك وبينهم ؟ فقال عليه السلام : ينقضون العهد لأمر يريده الله ، فقلت : خير ، قال : خير . ولما ندمت قريش على نقض العهد ، أرسلوا أبا سفيان ليشد العقد ويزيد في المدة ، فلما وصل إليه وكلَّمه في أمر الصلح ، قال عليه السلام : نحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يقبل ذلك من أبي سفيان ولا أحد من أصحابه ، فرجع إلى مكة وأخبرهم القصة ، وقال : والله قد أبى عليَّ وقد تتبع أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له ، ثم إن رسول الله تشاور مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، في السير إلى مكة ، وأخفى الأمر عن غيرهم ، فقال أبو بكر : هم قومك يا رسول الله ، فأشار إلى عدم السير ، وحضَّه عمر حيث قال : هم رأس الكفر زعموا أنك ساحر وأنك كذاب ، وذكر له كل سوء كانوا يقولونه وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة ، فعند ذلك ذكر عليه السلام أن أبا بكر كإبراهيم وكان في الله ألين من اللبن ، وأن عمر كنوح وكان في الله أشد من الحجر ، وأن الأمر أمر عمر وأشار عليه السلام بطي السرّ ،

وأمر أصحابه بالجهاز وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كل ناحية يقول لهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ولما قدموا قال عليه السلام : اللهم خذ العيون والأخبار من قريش حتى نبغتَها في بلادها ، ثم مضى لسفره لعشر خلون من رمضان ، وكان العسكر عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار جميعاً وأفطر عليه السلام في هذا السفر ، وأمر بالإفطار وعد مخالفته في ذلك عصياناً لحرارة الهواء ولما فيه من القوة على مقاتلة العدو ، وفي قديد عقد عليه السلام الألوية والرايات ودفعها للقبائل ثم سار حتى مر بمر الظهران وهو موضع على مرحلة من مكة ، وقد أعمى الله الأخبار عن قريش إجابة لدعائه ، فلم يعلموا بوصوله ، وكان ذلك منه عليه السلام ، شفقة على قريش ، حتى لا يضنوا بالمقاتلة وأمر عليه السلام أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان العباس عم النبي عليه السلام قد خرج قبل ذلك بعياله مسلماً أي : مظهراً للإسلام مهاجراً ، فلقيَ رسول الله بالجحفة ، وبعثت قريش أبا سفيان يتجسس الأخبار ، وقالوا : إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً ، فلما وصل إلى مر الظهران ليلاً ، قال : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ، وكان بينه وبين العباس مصادقة ، فلما لقيه أخذ بيده وذهب به إلى رسول الله ليأخذ منه أماناً له ، فلما أتاه قال عليه السلام : اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به ، فلما أتى به عرض النبي عليه السلام عليه الإسلام فتوقف ، فقال العباس له : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك ، فهداه الله فشهد شهادة الحق فأسلم ، ثم قال : يا رسول الله ، أرأيت إن اعتزلت قريشٌ فكفت أيديها آمنون هم ؟ قال عليه السلام : نعم ، من كفَّ يده وأغلق داره فهو آمن ، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن ، واستثنى عليه السلام جماعة من الرجال أمر بقتلهم ، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، منهم « ابن خطل » ونحوه ، لأن الكعبة لا تعيذ عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب ، وكانوا طغاة مردة مؤذين لرسول الله عليه السلام أشد الأذى فعفا عمن آمن ، وقتل من أصر ، وقال عليه السلام للعباس : احبس أبا سفيان في مضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها ، فأول من مرَّ خالد بن الوليد في بني سليم ، ثم قبيلة بعد قبيلة برياتهم ، حتى مرَّ رسول الله ومعه المهاجرون والأنصار وعمر رضي الله عنه يقول : رويداً حتى يلحق أولكم آخركم ، قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس مَنْ هؤلاء ؟ فقال : هذا رسول الله في الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ، ولا طاقة ، وقال : يا عباس ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقال العباس : إنها النبوة ، وأمر عليه السلام خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ، وقال لا

تقاتلوا إلا من قاتلكم ، وجمعت قريش ناساً ليقاتلوا ، ولما لقيهم خالد منعوه من الدخول ورموه بالنبل ، فصاح خالد في أصحابه فقتل من قتل ، وانهزم من لم يقتل ، حتى وصل خالد إلى باب المسجد ، وقال عليه السلام في ذلك اليوم احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا ، ودخل عليه السلام مكة وهو راكب على ناقته القصواء مردفاً أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة ، معتّماً بعمامة سوداء ، واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى ، حين رأى ما رأى من فتح الله مكة وكثرة المسلمين ، ثم قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة ، وعن عائشة رضي الله عنها : دخل رسول الله يوم الفتح من كدآء واغتسل لدخول مكة ، وسار وهو يقرأ سورة الفتح ، حتى جاء البيت وطاف به سبعاً على راحلته ،. ومحمد بن مسلمة آخذ بزمامها ، واستلم الحجر بمحجن في يده وهو العصا المعوجة ، ولم يطف ماشياً لتعليم الناس كيفية الطواف وصلى عليه السلام بالمقام ركعتين ، وهو يومئذ لاصق بالكعبة في جانب الباب ثم أخره إلى المحل المعروف الآن بمقام إبراهيم .

وكان في داخل الكعبة وخارجها وفوقها يومئذ ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من آحياء العرب صنم ، وكان هبل أعظم الأصنام وكان من عقيق ، فجاء عليه السلام ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منهم ، فيخر لوجهه ، وكان يقول : (**جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**) وأمر علياً رضي الله عنه فصعد الكعبة وكسر ما فوقها ، ودخل عليه السلام الكعبة بعد أن أرسل بلالاً إلى عثمان ابن أبي طلحة يأتي بمفتاح الكعبة فدخلها عليه السلام ، وصلى ركعتين ودعا في نواحيها كلها ، وكان في الكعبة صور كثيرة حتى صورة إبراهيم وإسماعيل ومريم وصور الملائكة ، فأمر عليه السلام عمر رضي الله عنه فمحاها كلها ، وجلس رسول الله يوم الفتح على الصفا يبايع الناس ، فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وعفا عليه السلام عمن كان مؤذياً له منذ عشرين سنة ودعا له بالمغفرة ، وقال عليه السلام : « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد فيها شجرة ، لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحدٍ بعدي ، ولا تحل لي إلا هذه الساعة ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[1] وأقام بمكة بعد فتحها تسعة عشر أو ثمانية عشر يوماً يقصر الصلاة في مدة إقامته ثم خرج إلى هوازن وثقيف وولّى أمر مكة عتّاب بن أسيد رضي الله عنه وعمره إحدى وعشرون سنة وأمره أن يصلي بالناس وهو أول أمير صلى بمكة بعد الفتح جماعة ، وترك معاذ بن جبل رضي الله عنه معه معلماً للناس السنن والفقه وبه ثبت الاستخلاف ، وعليه العمل إلى يومنا هذا ، ﴿ **هُمُ** ﴾ أي :

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين بنحو هذه الرواية ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٨٦ .

قريش ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : منعوكم عن أن تطوفوا به ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ أي : وصدُّوا الهدي ، والهدي بسكون الدال جمع هدية ، وهو مختص بما يهدي إلى البيت تقرباً إلى الله تعالى من النعم أيسره شاة وأوسطه بقرة وأعلاه بُدْنة ، ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ أي : محبوساً يقال عكفته عن كذا إذا حبسته ومنه العاكف في المسجد لأنه حبس نفسه ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أي : محبوساً من أن يبلغ مكانه الذي يحلُّ فيه نحره أي : يجب فالمحِل اسم للمكان الذي ينحر فيه الهدي فهو من الحلول لا من الحل الذي هو ضد الحرمة ، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم فإن بعض الحديبية كان من الحرم والمراد : صدَّها عن محلها المعهود الذي هو مِنى للحاج وعند الصفا للمعتمر وعند الشافعي لا يختص دم الإحصار بالحرم فيجوز أن يذبح في الموضع الذي أحصر فيه . بيّن تعالى استحقاق كفار مكة للعقوبة بثلاثة أشياء : كفرهم في أنفسهم ، وصدّ المؤمنين عن إتمام عمرتهم ، وصد هديهم عن بلوغ المحل ، فهم مع هذه الأفعال القبيحة كانوا يستحقون أن يقاتلوا أو يقتلوا إلا أنه تعالى كفَّ أيدي كل فريق عن صاحبه محافظة على ما في مكة من المؤمنين المستضعفين ليخرجوا منها أو يدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذآء من فيها من المؤمنين والمؤمنات كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم ، وهو صفة الرجال والنساء جميعاً وكانوا بمكة وهم اثنان وسبعون نفساً يكتمون إيمانهم ﴿ أَنْ تَطَأُوهُمْ ﴾ أي : توقعوا بهم وتهلكوهم فإن الوطأ عبارة عن الإيقاع والإهلاك والإبادة على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم لأن الوطأ تحت الأقدام مستلزم للإهلاك ومنه قوله عليه السلام : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » أي : خذهم أخذاً شديداً ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ ﴾ أي : من جهتهم معطوف على قوله أن تطأوهم ﴿ مَعَرَّةٌ ﴾ مفعلة من عرّه إذا عرّاه ودهاه بما يكرهه ويشقُّ عليه ، وفي المفردات : العرّ الجرب الذي يعر البدن أي : يعترضه ، ومنه قيل : للمضرة معرة تشبيهاً بالعر الذي هو الجرب والمعنى مشقة ومكروه كوجوب الدِّية أو الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء حالتهم والإثم بالتقصير في البحث عنهم ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ماعلق بأن تطأوهم أي : غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه ، لَمَا كفّ أيديكم عنهم ، وفي هذا الحذف دليل على شدة غضب الله تعالى على كفار مكة ، كأنه قيل : لولا حق المؤمنين موجود لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف والقياس ﴿ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيبه لكن كفّها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة بقسميها ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن مستضعفين تحت أيدي الكفرة وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها بالكلية لكنهم كانوا قاصرين في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الأخروية ﴿ لَوْ

﴿ تَزَيَّلُوا ﴾ الضمير للفريقين أي : لو تفرقوا وتميّز بعضهم من بعض من زاله يزيله فرّقه ، وزيّلته أي : فرقته فتفرق ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : اذكر وقت جعل الكافرين يعني أهل مكة ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ أي : الأنفة والتكبر ، وفي المفردات : عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية يقال : حميت على فلان ، أي : غضبت عليه ، انتهى . وذلك لأن في الغضب ثورانَ دم القلب وحرارتُه وغليانه ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ أي : حمية الملة الجاهلية وهي ما كانت قبل البعثة أو الحمية الناشئة من الجاهلية التي تمنع إذعان الحق ، قال الزهري : حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي بالرسالة ، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، أو منعهم من دخول مكة . وقال مقاتل : قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلون علينا فهذه حمية الجاهلية التي دخلت في قلوبهم ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : فأنزل الله عليهم الثبات والوقار فلم يلحق بهم ما لحق الكفار فصالحوهم ورضوا أن يكتب الكتاب على ما أرادوا ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ أي : كلمة الشهادة حتى قالوها وهذا إلزام الكرم واللطف لا إلزام الإكراه والعنف ، وأضيفت إلى التقوى لأنها سببها إذ بها يتوقى من الشرك ومن النار فإن أصل التقوى الاتقاء عنها وقد وصف الله هذه الأمة بالمتقين في مواضع من القرءان العظيم باعتبار هذه الكلمة . وعن الحسن : كلمة التقوى : هي الوفاء بالعهد فإن المؤمنين وفوا حيث نقضوا العهد ، وعاونوا من حارب حليف المؤمنين والمعنى على هذا وألزمهم كلمة أهل التقوى وهي العهد الواقع في ضمن الصلح ومعنى إلزامها إياهم تثبيتهم عليها وعلى الوفاء بها . قال أهل العربية : الكلمة قد تستعمل في اللفظة الواحدة ويراد بها الكلام الكثير الذي ارتبط بعضه ببعض فصار ككلمة واحدة كتسميتهم القصيدة بأسرها كلمة ، ومنه يقال كلمة الشهادة . قال الرضيُّ : وقد تطلق الكلمة مجازاً على القصيدة والجملة يقال كلمة شاعر وقال تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) والكلمة عند أهل العربية مشتقة من الكَلْم بمعنى الجرح وذلك لتأثيرها في النفوس ، والمراد بكلمة التقوى ههنا حقيقة التقوى وماهيتها فإن الحقيقة من حيث هي مجردة عن اللواحق المادية والتشخيصات ، فالله تعالى ألزم المؤمنين حقيقة التقوى لينالوا بها قوة اليقين والتجرد التام وصفاء الفطرة الأصلية ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا ﴾ متصفين بمزيد استحقاق لها في سابق حكمه وقدم علمه على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً وقيل : أحق بها من الكفار ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي : المستأهل لها عند الله والمختص بها . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ بليغ العلم بكل شيء من شأنه أن يتعلق به العلم فيعلم حق كل شيء فيسوقه إلى مستحقه ومن معلوماته أنهم أحق بها أي من جميع الأمم .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا ﴾ أي : صدقه عليه السلام في رؤياه وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وهي ما سبق في أول السورة من أنه عليه السلام رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم هذا فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت وهو دليل قاطع على أن الرؤيا حقّ وليست بباطل كما زعم جمهور المتكلمين والمعتزلة . وفي الحديث : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة »[1] ﴿ بِالحَقِّ ﴾ أي : صدقاً ملتبساً بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزل فيه أوحال كون تلك الرؤيا ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث أحلام لأن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل ، وقد جوز أن يكون قسماً بالحق الذي هو من أسماء الله أو بنقيض الباطل وقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لتدخلنه في العام الثاني ﴿ إِنْ شَاءَ اللهُ ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لكي يقولوا في عداتهم مثل ذلك لا لكونه تعالى شاكاً في وقوع الموعود فإنه منزه عن ذلك وهذا معنى ما قال ثعلب : استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون ، وفيه أيضاً تعريضٌ بأن دخولهم مبنيٌ على مشيئته تعالى ذلك لا على جلادتهم وقوتهم أو للإشعار بأنَّ بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك وقال الحدادي : الاستثناء قد يذكر للتحقيق تبركاً كقولهم قد غفر الله لك إن شاء الله ولا تعلق لمن يصحح الإيمان بالاستثناء لأنه خبر عن الحال فالاستثناء فيه محال كما في عين المعاني وروي أن النبي عليه السلام : كان إذا دخل المقابر يقول السلام عليكم أهل القبور وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، فيستثنى على وجه التبرك وإن كان اللحوق مقطوعاً به وقيل معناه لاحقون بكم في الوفاة على الإيمان ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الأعادي ﴿ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ ﴾ أي : جميع شعورها والتحليق ، والحلق العضو المخصوص وحلقه قطع حلقه ثم جعل الحلق لقطع الشعر وجزّه فقيل حلق شعره وحلق رأسه أي أزال شعره ﴿ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ بعض شعورها ، والقصر خلاف الطول وقص شعره جزَّ بعضه أي : محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون ، وقدَّم الحلق على التقصير وهو قطع أطراف الشعر لأن الحلق أفضل من التقصير وقد حلّق رسول الله ﷺ رأسه بمنى وأعطى شعر شق رأسه أبا طلحة الأنصاري وهو زوج أُم سُليم وهي والدة أنس بن مالك فكان آل أنس يتهادون به بينهم ، أما حلق شعر المرأة فمُثْله وهي حرام ، كما أن حلق لحية الرجل كذلك ﴿ لا تَخَافُونَ ﴾ أي : لا تخافون بعد ذلك من أحد ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾

(١) الحديث أخرجه الشيخان ومالك في الموطأ بلفظ (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وفي رواية (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) والحديث له روايات متعددة في الصحيحين والسنن ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٢٥٤ .

أي : فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجله ﴿ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي : من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر مضى عليه السلام بعد خمس عشر ليلة ، والمرادُ بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين ، ﴿ هُوَ ﴾ أي : الله تعالى وحده ﴿ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يعني أن الله تعالى بجلال ذاته وعلو شأنه اختص بإرسال رسوله الذي لا رسول أحق منه بإضافته إليه ﴿ بِالْهُدَىٰ ﴾ أي كونه ملتبساً بالتوحيد وهو شهادةُ أن لا إله إلا الله ، ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي : وبدين الإسلام ، ومعنى الحق : الثابت الذي هو ناسخ الأديان ومبطلها ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، أي : ليعلي الدين الحق ويغلبه على الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقاً من بعض الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصار ، وإظهار بطلان ما كان باطلاً ، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان ، ولقد أنجز الله وعده حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ولا يبقى إلا مسلم أو ذمةٌ للمسلمين وكم ترى من فتوح أكثر البلاد وقهر الملوك الشداد ما تعرف به قدرة الله تعالى وفي الآية فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين نفوس المؤمنين على أنه سيفتح لهم من البلاد ويعطيهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة وقد أنجز كما أشير إليه آنفاً . ﴿ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ على أن ما وعده كائن لا محالة ، أو على نبوته عليه السلام بإظهار المعجزات وإن لم يشهد الكفار ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : شهد له بالرسالة وهو قوله ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﴾ أي : ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي : مع رسول الله ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ غلاظ وهو جمع شديد ﴿ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ كالأسد على فريسته ﴿ رُحَمَاءُ ﴾ أي : متعاطفون وهو جمع رحيم ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ كالوالد مع ولده يعني أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة كقوله تعالى : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ) فلو اكتفى بقوله أشداء على الكفار لربما أوهم الفظاظة والغلظة فكمل بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) فيكون من أسلوب التكميل ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ جمع راكع وساجد أي : تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أي : ثواباً ورضى ﴿ سِيمَاهُم ﴾ مشتقٌ من سامه إذا أعلمه أي جعله ذا علامة والمعنى : علامتهم وسمتهم وقرىء سيماؤهم ﴿ فِي وجُوهِهِمْ ﴾ أي : ثابتة في وجوههم ﴿ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ وأثر الشيء حصول ما يدل على وجوده كما في المفردات أي : من التأثير الذي تؤثره كثرة السجود ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ أي : وصفهم العجيب الشأن الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ التوراة : اسم كتاب موسى عليه السلام ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ﴾ وتكرير مثلهم لتأكيد

غرابته وزيادة تقريرها ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، والإنجيل من نجل الشيء أظهره سمي الإنجيل إنجيلاً لأنه أظهر الدين بعدما درس أي : عفا رسمه ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي : هم كزرع أخرج أفراخه أي : فروعه وأغصانه وذلك أن أول ما نبت من الزرع بمنزلة الأم ، وما تفرع وتشعب منه بمنزلة أولاده وافراخه وفي المفردات شطأه : فروع الزرع وهو ما خرج منه وتفرع في شاطئيه أي : جانبيه وجمعه أشطاء وقوله ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي : أفراخه ، انتهى . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي : فقوى الزرع ذلك الشطأ ، وهو من المؤازرة بمعنى المعاونة من الإزر وهو القوة أو من الإيزار وهي الإعانة ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿ فَاسْتَوَى عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ فاستقام على قصبته جمع ساق وهو أصوله ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أي : يسرهم بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وطول قامته وهنا تمّ المثل وهو مثل ضربه الله لأصحاب رسول الله ﷺ قلّوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس ، وفي الأسئلة المقحمة كيف ضرب الله المثل لأصحاب النبي عليه السلام بالزرع الذي أخرج شطأه ؟ ولماذا لم يشبههم بالخيل والأشجار الكبار المثمرة ؟ والجواب : لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في بدء الأمر قليلين ثم صاروا يزدادون ويكثرون كالزرع الذي يبدو ضعيفاً ثم ينمو ويخرج شطأه ويكثر لأن الزرع يحصد ويزرع كذلك المسلمون منهم من يموت ، ثم يقوم مقامه غيره بخلاف الأشجار الكبار فإنها تبقى بحالها سنين ولأنه تنبت من الحبة الواحدة سنابل وليس ذلك في غير الزرع انتهى . فكما أن أعمالهم نامية فكذا أجسادهم ألا ترى أنه قتل مع الإمام الحسين رضي الله عنه عامة أهل بيته لم ينج إلا ابنه زين العابدين علي رضي الله عنه لصغره فأخرج الله من صلبه الكثير الطيب ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الغيظ أشدُّ الغضب ، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه ، أي : جعلهم الله كالزرع في النماء والقوة ليغيظ بهم مشركي مكة وكفار العرب والعجم ، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ . يقول الفقير : نظر الكفار مقصور على ما في الدنيا مما يتنافس فيه ويتحاسد وكيف لا يغيظهم ما أُعد للمؤمنين في الآخرة وليسوا بمؤمنين باليوم الآخر .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح

● ● ●



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تصدير الخطاب بالندآء لتنبيه المخاطبين يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة ورادع عن الإخلال به ﴿ لا تُقَدِّمُوا ﴾ أمراً من الأمور ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ولا تقطعوه إلا بعد أن يحكما به ويأذنا فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل وإما مقتدين بالنبي المرسل ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم فمن حقه أن يُتَّقَى ويُرَاقَب ، والآية عامة في كل قولٍ وفعلٍ ولذا حذف مفعول لا تقدموا ليذهب ذهن السامع كل مذهب مما يمكن تقديمه من قول أو فعل ، وفي الآية بيان رأفة الله على عباده حيث سمَّاهم المؤمنين مع معصيتهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ولم يقل يا أيها الذين عصوا وهذا ندآء مدح ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ شروعٌ في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي عليه السلام بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل ، والمعنى : لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍ يبلغه عليه السلام بصوته . وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : أن الأقرع بن حابس من بني تميم قدم على النبي عليه السلام فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله استعمله على قومه أي بتقديمه عليهم بالرياسة فقال عمر رضي الله عنه : لا تستعمله يا رسول الله ، بل القعقاع بن معبد فتكلما عند النبي عليه السلام حتى ارتفعت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي فقال : ما أردت خلافك فنزلت هذه الآية فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي لم يسمع كلامه حتى يستفهمه وقال أبو بكر : آليت على نفسي أن لا أكلم النبي أبداً إلا كأخي السرار ﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ إذا كلمتموه ، والجهرُ : يقال لظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر نحو رأيته جهاراً أو حاسة السمع نحو : (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي : جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة جلالة النبوة ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ كأنه قيل انتهوا عما نهيتم عنه خشية حبوط أعمالكم كما في قوله تعالى : (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ، ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فإن ذلك كفر ، وكذا ليس المراد ما يقع الرفع والجهر في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو نحو ذلك فإنه مما لا بأس به إذ لا يتأذى به النبي عليه السلام فلا يتناوله النهي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في « ثابت بن قيس بن شماس » وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت أي : جهيره ورفيعه وربما كان يكلم رسول الله فيتأذى بصوته ، وعن أنس لما نزلت الآية فُقد ثابت وتفقده ﷺ فأخبر بشأنه ، فدعاه ﷺ فسأله فقال يا رسول الله : لقد أُنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط !! فقال ﷺ لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة ﴿ **وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ أي : والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها والشعور العلم والفطنة . وفيه مزيد تحذير لما نهوا عنه . وحَبَطَ عمله حَبْطاً وحُبُوطاً بطلَ وأحبطه الله أبطله كما في القاموس . وقال الراغب : أصل الحبط من الحبط وهو أن تكثر الدابة من الكلأ حتى تنتفخ بطنها فلا يخرج منها شيء . ثم إنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا بعد هذه الآية لا يكلمونه ﷺ إلا جهراً يقرب من السر والهمس ، وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ ، وكذا القرب منه في المواجهة عند السلام ، بحيث كان بينه وبينه ﷺ أقل من أربعة أذرع ، وكره بعضهم رفع الصوت في مجالس الفقهاء تشريفاً لهم ، إذ هم ورثة الأنبياء ، قال سليمان بن حرب : ضحك إنسان عند حماد بن زيد وهو يحدث بحديث رسول الله ، فغضب حماد ، وقال : إني أرى رفع الصوت عند حديث رسول الله وهو ميت كرفع الصوت عنده وهو حي ، وقام وامتنع من الحديث ذلك اليوم ، وحاصله : أن فيه كراهة الرفع عند الحديث وعند المحدث ، مع أن الضحك لا يخلو من السخرية والهزل ، ومجلسُ الجِدِّ لا يحتمل مثل ذلك ، ولو دخل السلف مجالس هذا الزمان من مجلس الوعظ والدرس ونحو ذلك ، لخرجوا من ساعتهم ، لما يرون من كثرة المنكرات وسوء الأدب . نسأل الله الكريم أن يجعلنا متحلين بحلية الأدب العظيم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ** ﴾ الخ ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب من الإخلال به . والغض : النقصان من الطرف والصوت وما في الإناء يقال : غضَّ طرفه : خفضه ، وغضَّ السقاء نقص ما فيه والمعنى : إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله مراعاةً للأدب وخشيةً من مخالفة النهي ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميّز إبريزه من خبثه ، وقال في الأساس : محن الأديم مدده حتى وسعه وبه فسر قوله تعالى : ﴿ **امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ أي : شرحها ووسعها . وعن عمر رضي الله عنه : أذهب عنها الشهوات ، أي : نزع عنها محبة الشهوات وصفَّاها عن دنس سوء الأخلاق وحلاها بمكارمها ﴿ **لَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **مَغْفِرَةٌ** ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم ﴿ **وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ التنكير لتعظيم أي : ثابت لهم غفران وأجرٌ عظيم لا يقادر قدره لغضهم وسائر طاعاتهم . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ** ﴾ أي : من خارجها من خلفها أو قدامها لأن ورآء الحجرة عبارة عن الجهة التي يواريها شخص الحجرة بجهتها من أي ناحية كانت من نواحيها ولابد أن تكون تلك الجهة خارج الحجرة لأن ما في داخلها لا يتوارى عمن

فيها ، والمراد : حجرات أمهات المؤمنين ، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة ، فتكون تسعاً عددهن ، وهي الموضع الذي يحجره الإنسان لنفسه بحائط ونحوه ويمنع غيره من أن يشاركه فيه ، من الحَجْر وهو المنع ومنادتهم من ورائها أما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه عليه السلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه السلام لأنهم لم يتحققوا مكانه فناداه بعض من ورآء هذه وبعض من ورآء تلك فأسند فعل الأبعاض إلى الكل ، وقيل : الذي ناداه عُيَيْنةُ بن حصين الفزاري وهو الأحمق المطاع والأقرع بن حابس ، وهو شاعر بني تميم وفدا على رسول الله في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا : يا محمد اخرج لنا ، فنحن الذين مَدْحُنا زَينٌ ، وذمّنا شَينٌ.

﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب ، بل تأدبوا معه بأن يجلسوا على بابه حتى يخرج إليهم كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا** ﴾ الصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها ﴿ **حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ** ﴾ والمعنى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم . وفي (**إِلَيْهِمْ**) إشعارٌ بأنه لو خرج لا لأجلهم ، ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام ، أو يتوجه إليهم ﴿ **لَكَانَ** ﴾ أي : الصبر المذكور ﴿ **خَيْراً لَهُمْ** ﴾ من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب ، وتعظيم الرسول ، الموجِبَيْن للثواب والثناء ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : بعث رسول الله عليه السلام سرية إلى حي بني العنبر ، وأمَّر عليهم « عُيينة بن حصين » فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول الله ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله قائلاً [1] في أهله ، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله بيت وحجرة ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبرائيل فقال : إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً . فقال عليه السلام لهم : أترضون أن يكون بيني وبينكم « سبرة بن عمرو » وهو على دينكم ، قالوا : نعم ، قال سبرة : فأنا أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم ، فقال عليه السلام : قد رضيت ، ففادى نصفهم وأعتق نصفهم ، وقال مقاتل : « لكان خيراً لهم » لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فدآء ﴿ **وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ بليغ المغفرة والرحمة واسعها ، فلن تضيق ساحته عن هؤلاء المسيئين للأدب ، إن تابوا وأصلحوا ، وفي هذا المقام أمور : الأول أن في هذه الآية تنبيهاً على قدره عليه السلام ، والتأدب معه بكل حال ، فهم إنما نادوه لعدم عقل يعرفون به قدره ، ولو عرفوا قدره لكانوا يقرعون بابه

---

(١) قائلاً في أهله هو من القيلولة وهي النوم وقت الظهيرة للراحة ، ومنه قوله تعالى ﴿ **أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْهُمْ قَائِلُونَ** ﴾ أي نائمون في الظهيرة ، وبياتاً : أي ليلاً .

بالأظافير . فكما لابد من التأدب معه عليه السلام فكذا مع من استن بسنته كالعلماء العاملين ، وكان جماعة من العلماء يجلسون على باب غيرهم ، ولا يدقون عليه بابه حتى يخرج لقضاء حاجته احتراماً ، قال أبو عبيدة القاسم بن سلام : ما دققت الباب على عالم قط ، كنت أصبر حتى يخرج إليَّ لقوله تعالى : (**وَلَوْ أَنَّهُمْ**) وفي الحديث : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[١] أي : أدبني أحسن تأديب ، قال بعض الكبار : من الحكمة توقير الكبير ، ورحمة الصغير ، ومخاطبة الناس باللين ، إن كان خليلك فوقك فاصحبه بالحرمة ، وإن كان كفؤك ونظيرك فاصحبه بالوفاء ، وإن كان دونك فاصحبه بالمرحمة ، وإن كان عالماً فاصحبه بالخدمة والتعظيم ، وإن كان جاهلاً فاصحبه بالسياسة ، وإن كان غنياً فاصحبه بالزهد ، وإن كان فقيراً فاصحبه بالجود ، قال بعض الحكماء : عاشروا الناس معاشرة إن متم بكوا عليكم ، وإن غبتم حنُّوا إليكم ، والثاني : ذم الجهل ، ومدح العقل والعلم ، فإن شرف العقل مدرك بضرورة العقل والعلم والحسن ، حتى إن أكبر الحيوانات شخصاً وأقواها أبداناً إذا رأى الإنسان احتشمه وخاف منه ، لإحساسه بأنه مستول عليه بحيلته .

قال بعض الكبار : العاقل كلامه ورآء قلبه ، فإذا أراد أن يتكلم به أمرَّه على قلبه فينظر فيه ، فإن كان لنفعه أمضاه ، وإن كان لضره أمسكه ، والأحمق كلامه على طرف لسانه ، وعقله في حجره إذا قام سقط ، قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : لسان العاقل في قلبه ، وقلب الأحمق في فمه ، والأدب صورة العقل ، ولا شرف مع سوء الأدب ، ولا دآء أعيا من الجهل وإذا تم العقل نقص الكلام « وَهَل يكبُّ النَّاسَ على منَاخِرهم في النار إلا حَصَائِد ألسنتهم »[٢] . والثالث : تدبر سر قوله تعالى : (**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا**) الآية ، ولا تنظر إلى سبب النزول ، وانتظر فتح باب الشفاعة في الآخرة ، فهو الشافع يوم القيامة ، وقد ثبت أن الناس يلتجئون يوم القيامة إلى الأنبياء ، إلى أن يصلوا إليه ﷺ فلا يصلون إلى المراد أبداً إلا عنده ، وفي الحديث : « أنا أول ولد آدم خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا قائدهم إذا وَفَدُوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، وأنا شفيعهم إذا حُشروا ، ولوآء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر »[٣] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ** ﴾ أيُّ فاسق كان ﴿ **بِنَبَإٍ** ﴾ أيِّ نبأ كان . والنبأ : الخبر ، فالتنكير للتعميم وفيه إيذان بالاحتراز عن كل فاسق وإنما قال : (**إِنْ جَاءَكُمْ**) بحرف الشك

---

(١) الحديث أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود مرفوعاً . الفتح الكبير ١ / ٥٩ .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذي في الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في المسند ٥ / ٢٣١ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٢٧ .

دون إذا ليدل على أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مكالمتهم بكذب ما ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أي : إن جاءكم فاسق بخبر يعظم وقعه في القلوب فتعرفوا وتفحصوا حتى يتبين لكم ما جاء به أَصِدْقٌ هو أم كذب ولا تعتمدوا على قوله المجرد لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوعٌ منه . روى أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه عليه السلام مُصَدقاً إلى بني المصطلق ـ أي : آخذاً وقابضاً لصدقاتهم وزكاتهم ـ وكان بينه وبينهم إحنة ـ أي : حقد وبغض ـ كامنٌ في الجاهلية بسبب دم ، فلما سمعوا بقدومه استقبلوه ركباناً ، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع هارباً وقال لرسول الله عليه السلام : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة وهمّوا بقتلي ، فهمَّ عليه السلام بقتالهم فنزلت .

وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد بعد رجوع الوليد بن عقبة عنهم في عسكر وقال له : « أخْفِ عنهم قدومك إليهم بالعسكر وادخل عليهم ليلاً متجسساً هل ترى شعائر الإسلام وأذانه ؟ فإن رأيت منهم ذلك فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما يفعل بالكفار ، ففعل ذلك خالد وجاءهم وقت المغرب فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء ووجدهم مجتهدين باذلين وسعهم ومجهودهم في امتثال أمر الله ،فأخذ منهم صدقاتهم وانصرف إلى رسول الله وأخبره الخبر فنزلت : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ حذار أن تصيبوا ﴿ قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : متلبسين بجهالة بحالهم وقصتهم ﴿ فَتُصْبِحُوا ﴾ أي : فتصيروا بعد ظهور برآءتهم مما أسند إليهم ﴿ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حقهم ﴿ نَادِمِينَ ﴾ مغتمين غمّاً لازماً متمنين أنه لم يقع . وفي ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل . وفي الآية أيضاً إشارة إلى ترك الاستماع إلى كلام الساعي والنمام والمغتاب للناس ، فلابد من التبيّن والتفحص ليظهر حقيقة الحال ، ويسلم المرء من الوبال ويفتضح الكذاب الدجال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ وفائدةُ الأمر الدلالة على أنهم نُزِّلوا منزلة الجاهلين لمكانه لتفريطهم فيما يجب من تعظيم شأنه ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ والعَنَتُ : محركة : الفساد والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان كما في القاموس يقال : عنت فلان إذا وقع في أمر يخاف منه التلف .

﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ تجريدٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بياناً لبرآءتهم من أوصاف الأولين وإحْماداً لأفعالهم وهم الكاملون الذين لا يعتمدون على كل ما سمعوه من الأخبار ، ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ وحسَّنَهُ ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ حتى رَسخ حبُه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ ﴾ والتكريه هنا بمعنى : التبغيض والبغضُ ضد الحب فالبغض نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه ، والحبُ انجذابُ النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المستثنون بقوله : (وَلَكِنَّ اللهَ) إلخ ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أي :

السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق ، ﴿ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي : وإنعاماً ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل والتمايز ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة ، وفي الآية دليل على أن من كان مؤمناً لا يحب الفسق والمعصية ، وإذا ابتلي بالمعصية فإن شهوته وغفلته تحمله على ذلك لا لحبه للمعصية بل ربما يعصى حال الحضور لأن فيه نفاذ قضائه تعالى .

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ أي : تقاتلوا ، والطائفة من الناس : جماعة منهم لكنها دون الفرقة كما دل عليه قوله تعالى : (فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ طَائِفَةٌ) ، وأصل القتل إزالة الروح عن الجسد ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الصلاح : الحصول على الحالة المستقيمة النافعة ، والإصلاح جعل الشيء على تلك الحالة . أي فأصلحوا بين تينك الطائفتين بالنصح والدعاء إلى حكم الله ، والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا من أعظم الطاعات وأتمّ القربات ، وكذا نصرة المظلوم وفي الحديث : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البين »[1] . والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه السلام بالسعف ـ وهي أغصان النخل إذا يبست ـ والنعال والسبب كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن النبي عليه السلام مريوماً على ملأ من الأنصار فيهم « عبد الله بن أبيّ » المنافق ورسول الله عليه السلام على حماره فوقف عليهم يعظهم ، فبال حماره أو رَاثَ ، فأمسك عبد الله بن أبيّ انفه وقال : نحِّ عنا نتن حمارك فقد آذيتنا بنتنه ، فمن جاءك منا فعظه !! فسمع ذلك عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فقال : ألحمارِ رسول الله تقول هذا ؟ والله إن بول حمار رسول الله أطيب رائحة منك ، فمرَّ عليه السلام وطال الكلام بين عبد الله بن أبيّ المنافق الخزرجي وعبد الله بن رواحة الأوسي حتى استبا وتجالدا ، وجاء قوم كل واحد منهما من الأوس والخزرج وتجالدوا بالعصي أو بالنعال والأيدي أو بالسيف أيضاً فنزلت الآية فرجع إليهم رسول الله فقرأها عليهم وأصلح بينهم ، وقيل في سبب النزول غير هذا ، ويحتمل أن تكون الروايات كلها صحيحة ويكون نزول الآية عقيب جميعها ، وأما حرف الشرط فإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يصدر التقاتل من المؤمنين إلا فرضاً مع أن خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم فالآية عامة في جميع المسلمين إلى يوم القيامة على تقدير القتال فاعرف ﴿ فَإِنْ بَغَتْ ﴾ أي : تعدت يقال : بغى عليه بغياً علا وظلم وعدل عن الحق واستطال كما في القاموس وأصل البغي طلب ما ليس بمستحق فإن البغي الطلب ﴿ إِحْدَاهُمَا ﴾ وكانت مبطلة ﴿ عَلَى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، وتتتمه (فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكنْ تحلق الدِّينَ) وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٦٨ .

﴿ الأُخْرَىٰ ﴾ وكانت محقةً ولم تتأثر أي الباغية بالنصيحة ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ﴾ أي : قاتلوا الطائفة الباغية ﴿ حَتَّى تَفِيءَ ﴾ أي : ترجع فإن الفيء الرجوع إلى حالةٍ محمودة ﴿ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ ﴾ أي : إلى حكمة الذي حكم به في كتابه العزيز وهو المصالحة ورفع العداوة ، أو إلى ما أمر به وهو الإطاعة المدلول عليها بقوله : (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ إليه وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ ﴾ والإنصاف بفصل ما بينهما على حكم الله ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر ، وتقييد الإصلاح بالعدل ههنا دون الأول لأنه مَظَنَّةُ الحَيْف لوقوعه بعد المقاتلة وهي تورث الإحَنَ في الغالب وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أي : واعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون من أقسط إذا أزال القَسَط بالفتح أي : الجَوْر ، يقال : إذا جاء القِسط بالكسر أي : العدل زال القَسط بالفتح أي : الجور ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ أي : العادلين الذين يؤدون لكل ذي حقٍ حقه فيجازيهم بأحسن الجزاء . وفي الآية دلالة على أن الباغي لا يخرج بالبغي عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين فاسقة لا محالة إذ اقتتلتا وقد سماهما مؤمنين وبه يظهر بطلان ما ذهب إليه المعتزلة والخوارج من خروج مرتكب الكبيرة عن الإيمان ، ويدل عليه ما روي عن عليّ رضي الله عنه أنه سئل في قتال أهل البغي أهل الجمل وصفين أمشركون هم ؟ فقال : لا من الشرك فرُّوا . فقيل : أمنافقون هم ؟ فقال : لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، قيل : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وأيضاً فيها دلالة على أن الباغي إذا أمسك عن الحرب تُرك ، لأنه فاء إلى أمر الله وأنه يجب معاونة من بُغِي عليهم ، بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة بدلالة قوله : (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) فإن النصح والدعاء إلى حكم الله إذا وجب عند وجود البغي من الطائفتين فلأن يجب عند وجوده من إحداهما أولى لأن ظهور أثره فيها أرجى . واعلم أن الباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العادل وبيانه في الفقه في باب البغاة . ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ جمع الأخ وأصله المشارك لآخر في الولادة من الطرفين أو من إحدهما أو من الرضاع ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعه أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات . قال بعض أهل اللغة : الأخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة ويقع أحدهما موقع الآخر وفي الحديث : « وكونوا عباد الله إخواناً »[1] والمعنى : إنما المؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، كما أن الإخوة من النسب

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي (لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، كما أمركم ، المسلم أخو المسلم ؛ لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ...) الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٢٣ .

منتسبون إلى أصلٍ واحد هو الأب الموجب للحياة الفانية ، فالآية من قبيل التشبيه البليغ المبتني على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ الفاء للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح . وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم ، كما تَرْحمون إخوانكم . واعلم أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ألا ترى أنه إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر ، وكذا إذا مات أخ الكافر وذلك لأن الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة وأن المعتبر الأصلي الشرعي ألا يرى أو ولدي الزني من رجلٍ واحدٍ لا يتوارثان وهذا المعنى يستفاد من الآية أيضاً لأن (إِنَّمَا) للحصر فكأنه قيل : لا أخوة إلا بين المؤمنين فلا أخوة بين المؤمن والكافر .

ومن حق الأخوة في الدين أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، ويسرك ما سره ، ويسوءك ما ساءه ، وأن لا تحوجه إلى الاستعانة بك ، وإن استعان تعنه ، وتنصره ظالماً أو مظلوماً فمنعك إياه عن الظلم فذلك نصرك إياه وفي الحديث : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »[1] .

ومن حقه أن لا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك ، وأن لا تلجئه إلى الاعتذار ، بل تبسط عذره ، فإن أشكل عليك وجهه عدت باللائمة على نفسك في خفاء عذره وتتوب عنه إذا أذنب ، وتعوده إذا مرض . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ ﴾ السخرية : أن يحقر الإنسان أخاه ويستخفه ، أي : لا يستهزىء ﴿ قَوْمٌ ﴾ أي : منكم وهو اسم جمع لرجل ﴿ مِنْ قَوْمٍ ﴾ آخرين أيضاً منكم والتنكير إما للتعميم او للتبعيض فإن قلت : فإن المنهي عنه هو أن يسخر جماعةٌ من جماعة فيلزم أن لا يحرم سخريةُ واحدٍ من واحد قلت : اختيار الجمع ليس للاحتراز عن سخرية الواحد من الواحد ، بل هو لبيان الواقع لأن السخرية وإن كانت بين اثنين إلا أن الغالب أن تقع بمحضر جماعة يزضون بها ويضحكون بسببها . ويكونون بمنزلة الساخرين حكماً فنهوا عن ذلك يعني أنه من نسبة فعل البعض إلى الجمع لرضاهم به في الأغلب أو لوجوده فيما بينهم .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه برقم / ٤٨٩٣ / في كتاب الأدب ، ورواه الترمذي برقم / ١٤٨٦ / وأصله في الصحيحيْن ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٦١ .

والقوم مختص بالرجال لأنهم قوّامون على النساء ولهذا عبّر عن الإناث بما هو مشتق من النسوة بفتح النون وهو ترك العمل ويؤيده قول زهير :

وما أدري ولست إخال أدري * أقومٌ آل حصن أم نساء

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ﴾ تعليلٌ للنهي أي : عسى أن يكون المسخورُ منهم خيراً عند الله من الساخرين ﴿ وَلا نِسَاءٌ ﴾ أي : ولا تسخر نساءٌ من المؤمنات ﴿ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ منهن وإنما لم يقل امرأة من رجل ولا بالعكس للإشعار بأن مجالسة الرجل المرأة مستقبح شرعاً ولأن الإنسان إنما يسخر ممن يلابسه غالباً ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ ﴾ أي : المسخور منهن ﴿ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾ أي : من الساخرات فإنَّ مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب فلا يجترىء أحد على استحقار أحدٍ فعله أجمع منه لما نيط به من الخيرية عند الله فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله واستهانة من عظمة الله وقال عليه الصلاة والسلام : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه به لو أقسم على الله لأبرّه »[1] . قال ابن عباس رضي الله عنه : نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه كان في أذنه وَقْرٌ فكان إذا أتى مجلسَ رسول الله عليه السلام وقد سبقوه بالمجلس وسّعوا له حتى يجلس إلى جنبه عليه الصلاة والسلام يسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي عليه الصلاة والسلام من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فَضَنَّ كلُ رجلَ بمجلسه فلا يكاد يوسع أحدٌ لأحد فكان الرجل إذا جاء لا يجد مجلساً فيقوم على رجليه فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله يتخطى رقاب الناس وهو يقول : تفسحوا تفسحوا فجعلوا يتفسحون حتى انتهى إلى رسول الله وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح فلم يفعل فقال : من هذا ؟ فقال له الرجل : أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد أماً له كان يُعيَّر بها في الجاهلية ، فخجل الرجل ونكس رأسه فأنزل الله هذه الآية . وروي أن قوله تعالى : (وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ) نزل في نساء النبي عليه السلام عيّرن أمَّ سلمة بالقِصَر ، أو عائشة رضي الله عنها قالت: إن أم سلمة جميلة لولا أنها قصيرة . وقيل : إن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً بعد فتح مكة ، فكان المسلمون إذا رأوه قالوا : هذا ابن فرعون هذه الأمة فشكا ذلك للنبي عليه السلام فقال عليه السلام : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات »[2] ونزلت الآية .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم ، وأخرجه مسلم وأحمد بلفظ « ربَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب .. » إلخ الفتح الكبير ٢ / ١٣٠ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في المسند من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ (لا تسبُّوا الأموات فتؤذوا الأحياء) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٣٢٤ .

قال أبو الليث ثم صارت الآية عامة في الرجال والنساء فلا يجوز لأحد أن يسخر من صاحبه أو من أحد من خلق الله ، وعن ابن مسعود : « البلاء موكل بالقول ، وإني لأخشى لو سَخِرتُ من كلب أن أحوَّل كلباً » وذلك لأن المؤمن ينبغي أن ينظر إلى الخالق فإنه صَنَعهُ لا إلى المخلوق فإنه ليس بيده شيء في الحسن والقبح ونحوهما . نسأل الله الوقوف عند أمره ونعوذ به من قهره ﴿ **وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ اللمز الطعن باللسان والإشارة بالعين ونحوه ، ولم يخصَّ السخرية بما يكون باللسان فالنهي الثاني من عطف الخاص على العام بجعل الخاص كأنه جنس آخر للمبالغة ولهذا قيل :

جراحات السِّنَانِ لها التئام * ولا يلتام ما جرح اللسان

والمعنى : لا يعب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة ، والأفراد المنتشرة بمنزلة أعضاء تلك النفس فيكون ما يصيب واحداً منهم كأنه يصيب الجميع إذا اشتكى عضو واحد من شخص تداعى سائر الأعضاء إلى الحمى والسهر ، فمتى عاب مؤمناً فكأنما عاب نفسه كقوله تعالى : (**وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**) . وفي التأويلات النجمية إنما قال (**أَنْفُسَكُمْ**) لأن المؤمنين كنفس واحدة إن عملوا شراً إلى أحد فقد عملوا إلى أنفسهم وإن عملوا خيراً إلى أحد فقد عملوا إلى أنفسهم كما قال تعالى : (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**) .

ويجوز أن يكون معنى الآية : ولا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحقُ به اللمز فقد لمز نفسه أي تسبّب للمز نفسه ، وإلا فلا طعن باللسان لنفسه منه فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب . وقال سعدي المفتي : ولا يبعد أن يكون المعنى لا تلمزوا غيركم فإن ذلك يكون سبباً لأن يبحث الملموز عن عيوبكم فيلمزكم فتكونوا لامزين أنفسكم ، فالنظم حينئذ نظير ما ثبت في الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسبُّ أبا الرجل ، فيسبّ أباه ، ويسب أمه فيسبّ أمه »[1] انتهى .

يقول الفقير : هو مسبوق في هذا المعنى فإن الإمام الراغب قال في المفردات : اللمز الاغتياب وتتبع المعايب أي : لا تلمزوا الناس فيلمزوكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه . انتهى . ولا يدخل في الآية ذكر الفاسق لقوله عليه الصلاة والسلام : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس »[2] . يقول الفقير : أشار التعليل في الحديث إلى أن ذكر الفاجر بما فيه من العيوب إنما يصح بهذا الغرض الصحيح وهو أن يحذر

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود بلفظ (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ..) الحديث وهذه رواية أبي داود ، وفي رواية الشيخين (إن من الكبائر شتم الرجل والديه ..) إلخ جامع الأصول ١٠ / ٦٢٨ .

(٢) الحديث أخرجه البيهقي بلفظ « أترعون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروه بما فيه .. » إلخ وفيه ضعف ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٩٧ .

الناس منه ومن عمله وإلا فالإمساك .

﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ النبْزُ : بسكون الباء مصدر نبزه بمعنى لقبه . واللقب : ما سمي به الإنسان بعد اسمه ليعلم من لفظٍ يدل على المدح أو الذم لمعنى فيه . والمعنى : ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء قالوا : وليس من هذا قول المحدثين لسليمان الأعمش ، وواصل الأحدب ونحوه مما تدعو الضرورة إليه ، وليس فيه قصد استخفاف ولا أذى وفيه إشارة إلى أن اللقب الحسن لا ينهي عنه مثل محي الدين وشمس الدين ، وبهاء الدين ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعدَ الإيمَانِ ﴾ الاسم هنا : ليس ما يقابل اللقب والكنية ولا يقابل الفعل والحرف بل بمعنى الذكر المرتفع لأنه من السمو يقال طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم أي : ذكره والفسوق هو المخصوص بالذم . والمعنى : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به ، روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها أتت رسول الله باكيةً فقالت : قالت لي عائشة رضي الله عنها : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هلا قلت لها : إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم الصلاة والسلام »[1] ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى عنه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب والظالم أعمُّ من الفاسق ، والفاسق أعمُّ من الكافر ، وفيه دلالة بيِّنةٌ على أن الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة ، فلابد من توبة نصوح من جميع القبائح والمعاصي ولا سيما ما ذكر في هذا المقام .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ﴾ أي : كونوا على جانبٍ منه وابعدوا عنه . والظنُّ اسم لما يحصل من إمارة ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم تتجاوز حد التوهم وإبهام الكثير لا يجاب الاحتياط والتأمل في كل ظنٍ ظُنَّ حتى يعلم أنه من أي قبيل ، فإن من الظن ما يجب اتباعه كحسن الظن بالله تعالى وفي الحديث : « إنَّ حُسْنَ الظن من الإيمان »[2] والظن فيما لا قاطع فيه من العمليات كالوتر فإنه لما ثبت بخبر الواحد لم يكن مقطوعاً به فقلنا بالوجوب فلا يكفر جاحده بل يكون ضالاً ومبتدعاً لرده خبر الواحد ويقتص لكونه فرضاً عملياً وفي الأشباه : ويكفر بإنكار أصل الوتر والأضحية انتهى ، ومن الظن ما يحرم كالظن في الإلهيات أي : بوجود الإله وذاته وصفاته وما يليق به من الكمال ، وفي النبوات فمن قال : آمنت بجميع الأنبياء ولا أعلم : أآدم نبي أم لا ؟ يكفر ، وكذا من آمن

---

(١) الحديث رواه الترمذي في المناقب برقم / ٣٨٩١ / وفي إسناده ضعف ، ورواه النسائي وأحمد في المسند ٣ / ١٣٦ عن أنس بن مالك قال (بلغ صفيَّة أنَّ حفصة قالت : بنت يهودي فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي ، فقال ما يبكيك ؟ قال : قالت لي حفصة أنتِ ابنة يهودي ، فقال النبي ﷺ : إنك لابنة نبي ، وعمك لنبيٌّ ، وإنك لتحت نبي ، فم تفخر عليك ؟ ثم قال : اتق الله يا حفصة . الحديث .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم بلفظ (حُسْنُ الظنِّ من حُسن العبادة) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧٢ .

بأن نبينا عليه السلام رسول ولم يؤمن بأنه خاتم الرسل لا نسخ لدينه إلى يوم القيامة لا يكون مؤمناً ، وكالظن حيث يخالفه قاطع مثل الظن بنبوة الحسنين أو غيرهما من خلفاء هذه الأمة وأوليائها مع وجود قوله تعالى (**وخاتم النبين**) وقوله عليه السلام : « لا نبي بعدي » أي : لا مشرعا ولا متابعاً فإن مثل هذا الظن حرام ولو قطع كان كفراً وكظن السوء بالمؤمنين خصوصاً بالرسول عليه السلام وبورثته الكمل وهم العلماء بالله تعالى قال تعالى : (**وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمَاً بُورَاً**) وقال عليه السلام : « إن الله حرم من المسلم عرضه ودمه وأن يُظَنَّ به ظَن السوء » [١] والمراد بعرضه جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويتحامى أن ينتقص .

ودلت الآية على أنَّ أكثر الظنون من قبيل الإثم لأن الشيطان يلقي الظنون في النفس فتظن النفسُ الظنَّ الفاسد ، وعلى أن بعض الظن ليس بإثم بل هو حقيقته وهو ما لم يكن من قبيل النفس بل كان بالفراسة الصحيحة بأن يرى القلب بنور اليقين ما جرى في الغيب وفي الحديث : « إن في كل أمة مُحَدَّثين أو مروعين ـ على الشك من الراوي ـ فإن يكن في هذه الأمة فإن عمر منهم » [٢] والمحدَّث المصيب في رأيه كأنما حدث بالأمر والمروع الذي يُلقي الأمر في روعه أي : قلبه .

وروي في البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كلَّم إحدى نسائه فمرَّ به رجل فدعاه رسول الله فقال : « يا فلان هذه زوجتي صفية وكانت قد زارته في العشر الأول من رمضان » فقال : يا رسول الله إن كنت أظن بغيرك فإني لم أكن أظن بك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم » [٣] وفيه إشارة إلى الحذر من مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم من الغيبة ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ أصله : لا تتجسسوا حذف منه إحدى التاءين ، أي : ولا تبحثوا عن عورات المسلمين وعيوبهم تفعّل من الجس لما فيه من معنى الطلب فإن جسَّ الخبر طلبه والتفحص عنه ، وفي المفردات : أصل الجسِّ : مسُّ العرق وتعرفُ نبضه للحكم به على الصحة والسقم ومن لفظ الجس : اشتق الجاسوس وهو أخص من الحسِّ لأنه تعرف ما يدرك الحِسُّ ، والجسُّ تعرف حال ما من ذلك . وفي الحديث : « لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته » [٤] . قال في نصاب الاحتساب : ويجوز للمحتسب أن يتفحص عن أحوال

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه بلفظ (كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ : مالُه ، وعرضُه ، ودمه ، بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٣٢٢ .

(٢) الحديث رواه أحمد في المسند ، وأبو داود في سننه ، من حديث أنس ، الفتح الكبير ٣ / ٣٤ .

(٣) الحديث رواه الترمذي وأحمد في المسند عن أبي الدرداء ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٩٣ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود ، وابن مردويه ، وأوله (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ في قلبه ، لا تتَبَّعوا عورات المسلمين ..) الحديث ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٩٣ .

السوقية من غير أن يخبره أحد بخيانتهم فإن قيل : يبنغي أن لا يجوز لأنه تجسس منهي فنقول : التجسس طلب الخبر للشر والأذى ، وطلب الخير للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس كذلك فلا يدخل تحت النهي ، وكان عمر رضي الله عنه يعسُّ ذات ليلة فنظر إلى مصباح من خلل باب فاطلع فإذا قومٌ على شراب لهم ، فلم يدر كيف يصنع فدخل المسجد فأخرج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فجاء به إلى الباب فنظر وقال له : كيف ترى أن نعمل ؟ فقال : أرى والله أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه لأنا تجسسنا واطلعنا على عورة قوم ستروا دوننا ، وما كان لنا أن نكشف ستر الله ، فقال : ما أراك إلا قد صدقت فانصرفا ، فالمحتسب لا يتجسس ولا يتسوّر ولا يدخل بيتاً بلا إذن . فإن قيل ذكر في باب من يظهر البدع في البيوت أنه يجوز للمحتسب الدخول بلا إذن فنقول : ذلك فيما ظهر ، وأما إذا خفي فلا يدخل فإنَّ ما ستره الله لابد وأن يستره العبد ﴿ **وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** ﴾ والغيبة بالكسر اسم من الاغتياب . والمعنى : ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته وخلفه ، وسئل رسول الله ﷺ عنها فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه »[1] أي : قلت عليه البهتان والزور وما لم يفعله ، والحاصل أن الغيبة والاغتياب هو أن يتكلم إنسان خلف إنسان مستور بما فيه من عيب أي بكلام صادق من غير ضرورة قوية إلى ذكره ولو سَمِعَهُ لغمَّه وإن كان ذلك الكلام كذباً يسمى بهتاناً ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً** ﴾ شبه الاغتياب من حيث اشتماله على تناول عرض المغتاب بأكل لحم الإنسان ميتاً تشبيهاً تمثيلياً ، وذلك أن الإنسان يتألم قلبه من قرض عرضه كما يتألم جسمه من قطع لحمه ، بل عرضه أشرف من لحمه ودمه فإذا لم يَحسُن للعاقل أكل لحوم الناس لم يَحسُنْ له قرض عرضهم بالطريق الأولى خصوصاً أن أكل الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس ونفور الطباع ففيه إشارة إلى أنَّ الغيبة عظيمة عند الله وفي قوله : (**مَيْتاً**) إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال الشتم في الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلمه فكيف يحرم ؟ فدفعه بأن أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلمه ومع هذا هو في غاية القبح ﴿ **فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل ، كأنه قيل : إذا تحققت كراهتكم له فليتحقق عندكم كراهة نظيره الذي هو الاغتياب ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ** ﴾ بترك ما أُمرتم باجتنابه والندم على ما صدر عنكم من قبل ، وهو عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي ﴿ **إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** ﴾ مبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولا يخص ذلك بتائب دون تائب ، بل يعمّ الجميع وإن كثرت ذنوبهم فصيغة المبالغة باعتبار المتعلقات .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي بلفظ « أتدرون ما الغيبة ؟ ذكرك أخاك بما يكره .. » جامع الأصول ٨ / ٤٤٧ .

يخشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ فقال : هم الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » . (١)

ومما يجب التنبه له أن مستمع الغيبة كقائلها ، فوجب على من سمعها أن يردها كيف وقد قال النبي عليه السلام : « من ردَّ عن عِرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »(٢) وقد قال العلماءُ « المغتاب والمستمع شريكان في الإثم » ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ** ﴾ أي : من آدم وحواء عليهما السلام ، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سوآء في الانتساب إلى ذكر وأنثى أياً كان فلا وجه للتفاخر بالنسب .

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ * أَبُوهُمُو آدَمٌ والأُمُّ حَوَّاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُو مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ * يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالمَاءُ

نزلت حين أمر النبي عليه السلام بلالاً رضي الله عنه ليؤذن بعد فتح مكة فعلا ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد وكان من الطلقاء : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد رسول الله سِوَىٰ هذا الغراب يعني بلالاً ، ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ** ﴾ الشعب بفتح الشين : الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وسميت الشعوب لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة ﴿ **لِتَعَارَفُوا** ﴾ أصله لتتعارفوا حذفت إحدى التاءين أي : ليعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب فلا يُنْسب أحد إلى غير آبائه لا تتفاخروا بالآباء والقبائل وتدّعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب كأنه قيل : إن الأكرم عنده تعالى هو الأتقى وإن كان عبداً حبشياً أسود ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى وبفضل الله ورحمته ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿ **خَبِيرٌ** ﴾ ببواطن أحوالكم . وفي الحديث : « إنَّ ربكم واحد وأبوكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسودَ ولا لأسودَ على أحمر إلا بالتقوى »(٣) ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا** ﴾ الأعراب أهل البادية وقد سبق تفصيله في سورة الفتح . نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدب فأظهروا الشهادتين فكانوا يقولون لرسول الله عليه السلام : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وأتيناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يرون الصدق ويمنّون عليه عليه السلام ما فعلوا ﴿ **قُلْ** ﴾ رداً لهم ﴿ **لَمْ تُؤْمِنُوا** ﴾ إذ الإيمان هو

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٧٨ وأحمد في المسند ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي من حديث أبي الدرداء ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٩٣ .

(٣) الحديث جزء من خطبته ﷺ في حجة الوداع ، وأصله في الصحيحين .

التصديق بالله وبرسوله المقارن للثقة بحقيقة المصدق وطمأنينة القلب ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما مننتم على ما ذكرتم من الإسلام وترك المقاتلة ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أسلم بمعنى دخل في السلم ، أي : قولوا : دخلنا في السلم والصلح والانقياد مخافة أنفسنا فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهارُ الشهادة ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم و« ما » في لَمَّا من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئَاً ﴾ أي : لا ينقصكم شيئاً من أجورها من لات يليت ليتاً إذا نقص ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لما فَرَط من المطيعين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالتفضّل عليهم . ذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان التصديق بالقلب وإنما الإقرار شرط لاجزؤه لإجرآء الأحكام في الدنيا كالصلاة عليه في وقت موته لما أن تصديق القلب أمر باطن لا يطلع عليه أحدٌ لابد له من علامة فمن صدّق بقلبه ولم يقرّ بلسانه فهو مؤمن عند الله لوجود التصديق القلبي ، وإن لم يكن مؤمناً في أحكام الدنيا لانتفاء شرطه وأما من جعل الإقرار ركناً من الإيمان فعنده لا يكون تارك الإقرار مؤمناً عند الله ولا يستحق النجاة من خلود النار ، ومن أقرَّ بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق هو مؤمن في أحكام الدنيا وإن لم يكن مؤمناً عند الله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي : آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق معه . و﴿ ثُمَّ ﴾ للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال انشائه فقط بل وفيما يستقبل فهي كما في قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ في طاعته على تكثير فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معاً كالحج والجهاد ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي : الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم فهو قصر أفراد وتكذيب لأعراب بني أسد حيث اعتقدوا الشركة وزعموا أنهم صادقون أيضاً في دعوى الإيمان .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمدُ لهم ﴿ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي : أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه بقولكم آمنا ، والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم ، والاستفهام فيه للتوبيخ والإنكار . أي : لا تعرّفوا الله بدينكم فإنه عالمٌ به لا يخفى عليه شيء . ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴾ لا يحتاج إلى إخباركم . تذميل مقرر لما قبله أي : مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم حيث كانوا يجتهون في ستر أحوالهم وإخفائها ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي : يعدّون إسلامهم مِنّةً عليك من المنّ بمعنى القطع لأن المقصود به قطع حاجته مع قطع النظر أن يعوّضه المحتاج بشيء ، قال الراغب : المِنّةُ النعمة الثقيلة

ويقال ذلك على وجهين ؛ أحدهما : أن يكون ذلك بالفعل فيقال منَّ على فلان إذا أثقله بالنعمة وعلى ذلك قوله تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وذلك في الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى ، والثاني : أن يكون ذلك بالقول وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة ، ولقبح ذلك قيل المنّة تهدم الصنيعة ولحسن ذكرها عند الكفران قيل : إذا كفرت النعمة حسنت المنّة وقوله تعالى : (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ) إلخ فالمنّة منهم بالقول ومنّة الله عليهم بالفعل وهو هدايته إياهم ﴿ قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ﴾ أي : لا تعدوا إسلامكم منّة عليَّ ، أو لا تمنّوا عليَّ بإسلامكم ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ على ما زعمتم من أنكم أرشدتم إليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ادعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله . أي : فلله المنّةَ عليكم وفي سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فإنهم لما سمعوا ما صدر عنهم إيماناً ومنُّوا به نفي كونه إيماناً وسماه إسلاماً فقال : يمنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام أي : دخول في السلم ، وليس بجدير بالمن لأنه ليس له اعتداد شرعاً ولا يعدُّ مثله نعمة ، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ؟

تمت سورة الحجرات بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ ﴾ أي هذه سورة ق أي : مسماة بق وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو قسم وهو اسم من أسماء الله تعالى ، وقال محمد بن كعب : هو مفتاح أسماء الله تعالى مثل القادر والقدير والقديم والقاهر والقهار والقريب والقابض والقاضي والقدوس والقيوم أي : أنا القادر إلخ وقيل : اسم من أسماء القرآن ، وقيل : قسم أقسم الله به أي : بحق القائم بالقسط ، وقيل معناه : قل يا محمد والقرآن المجيد ، وقيل : قف يا محمد على أداء الرسالة وعند أمرنا ونهينا ولا تتعداهما ، والعرب تقتصر من كلمة على حرف ، قال الشاعر : قلت لها ؛ قفي ، قالت : ق . أي : وقفت وقيل : هو أمر من مفاعلة قفا أثره أي : تبعه والمعنى : إعمل بالقرآن واتبعه ، وقيل معناه : قضي الأمر وما هو كائن كما قالوا في حم ، وقيل : المراد بحق القلم الذي يرقم القرآن في اللوح المحفوظ وفي الصحائف .

﴿ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ أي : ذي المجد والشرف على سائر الكتب ، أو لأنه كلام المجيد ، أو لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مُجِّد عند الله وعند الناس وشرف . قال الإمام الغزالي رحمه الله : المجيد هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونواله فكان شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجيداً وهو الماجد أيضاً ولكن أحدهما أدل على المبالغة ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أي : فراعنة قريش ومتعنتوهم ﴿ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ أي : لأن جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك ، أي : أنهم شكوا فيه ولم يكتفوا بالشك والتردد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار ، وهذا إشارة إلى كونه عليه السلام منذراً بالقرآن ، وحاصله كون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا ، وكون ما أنذر به هو البعث بعد موت كل شيء بليغ في الخروج عن عادة أشكاله ، وهو من فرط جهلهم لأنهم عجبوا أن يكون الرسول بشراً ، وأوجبوا أن يكون الإله حجراً ، وأنكروا البعث مع أن أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الليل والنهار بعد ذهابه ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج النبات والأشجار والثمار وغير ذلك ، ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ أي : أحين نموت فتفارق أرواحنا أشباحنا ، وتصير تراباً لا فرق بيننا وبين تراب الأرض نرجع ونبعث ؟ كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ والهمزة للإنكار أي : لا نرجع ولا نبعث ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى محل النزاع ﴿ رَجْعٌ ﴾ الرجع بمعنى الرد بخلاف الرجوع أي : رد إلى الحياة وإلى ما كنا عليه ﴿ بَعِيدٌ ﴾ جداً عن الأوهام أو العادة ، أو الإمكان ، أو عن الصدق غيرُ كائن لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا

﴿ تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ردٌّ لاستبعادهم وإزاحة له أي : نحن على ذلك في غاية القدرة فإن من عمَّ علمه ولطفه حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا ؟ عبر بمن لأن الأرض لا تأكل عجب الذنب فإنه كالبذر لأجسام بني آدم وفي الحديث : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْب الذنب فمنه خلق وفيه يركب »[1] والعَجْب بفتح العين وسكون الجيم أصل الذنب ومؤخر كل شيء ، وهو ههنا عظم لا جوف له قدر ذرة أو خردلة يبقى من البدن ولا يبلى فإذا أراد الله الإعادة ركب على ذلك العظم سائر البدن وأحياه أي : غير أبدان الأنبياء والصديقين والشهداء فإنها لا تبلى ولا تتفسخ إلى يوم القيامة على ما نصت به الأخبار الصحيحة . قال ابن عطية : وحفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة وهذا هو الحق وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه قال ابن عطية : وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود وسئل شيخ الإسلام ابن حجر : هل الأجساد إذا بليت وفنيت وأراد الله تعالى إعادتها كما كانت أولاً هل تعود الأجسام الأول أم يخلق الله للناس أجساداً غير الأجساد الأول ؟ فأجاب : أن الأجساد التي يعيدها الله هي الأجساد الأول لا غيرها ، قال : وهذا هو الصحيح بل الصواب ومن قال غيره عندي فقد أخطأ فيه لمخالفته ظاهر القرآن والحديث ، ومنهم من قال وهو القول الأصح بالخبر المروي أن السماء تمطر مطراً شبه المني فينشأ منه النشأة الآخرة كما أن النشأة الدنيا من نقطة تنزل من بحر الحياة إلى أصلاب الآباء ، ومنها إلى أرحام الأمهات فيتكون من قطر بحر الحياة تلك النقطة جسد في الرحم وقد علمنا أن النشأة الأولى أوجدها الله تعالى على غير مثال سبق وركبها في أي صورة شاء ، وهكذا النشأة الآخرة يوجدها الحق على غير مثال سبق مع كونها محسوسة بلا شك فينشىء النشأة الآخرة على عجب الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا وهو أصلها فعليه تتركب النشأة الآخرة فقوله تعالى : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) راجع إلى عدم مثال سابق كما في النشأة الأولى مع كونها محسوسة ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ بالغٌ في الحفظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظ من التغير والمراد : إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء ، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع وأفظع وهو تكذيبهم للنبوة الثانية بالمعجزات الباهرة فالأفظعية لكون الثاني تكذيباً للأمر الثابت من غير تدبر بخلاف الأول فإنه تعجب ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ من غير تأمل وتكفر تقليداً للآباء وبعد التأمل تمرداً وعناداً وجاء بكلمة التوقع إشعاراً بأنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨ / ٤٢٨ ومسلم في الفتن رقم ٢٩٥٥ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٢١ .

الشاهد على حقيته فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ أي : في أمر مضطرب لا قرار له ، فلا يهتدون إلى الحق ، ولذا يقولون تارة : إنه شاعر ، وتارة ساحر ، وأخرى كاهن ، ومرة مفترٍ . لا يثبتون على شيء واحد وهذا اضطرابهم في شأن النبي ﷺ صريحاً ويتضمن اضطرابهم في شأن القرآن أيضاً فإن نسبتهم إياه إلى الشعر ونحوه إنما هي بسببه ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ أي : أغفلوا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ، أي إلى آثار قدرة الله في خلق العالم وإيجاده من العدم إلى الوجود ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي : رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بما فيها الكواكب المرتبة على نظام بديع ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل كما قال : (هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) وهذا لا ينفي وجود الأبواب والمصاعد فإنها ليست من قبيل العيب والخلل ، والفروج جمع فرج وهو الشق بين الشيئين كفرجة الحائط والفرج ما بين الرجلين وكنى به عن السوئة وكثر حتى صار كالصريح فيه .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي : بسطناها وفرشناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت أرسيت بها الأرض إذ لو لم تكن لكانت مضطربةً مائلة إلى الجهات المختلفة ﴿ وَأَنْبَتْنَا ﴾ وأخرجنا ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف وقوله : (أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) أي : أنواعاً متشابهة ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن طيب من الثمار والنباتات والأشجار كما قال في موضع آخر : (ذَاتَ بَهْجَةٍ) أي : يبتهج به لحسنه أي : يسر . والبهجة : حسن اللون وظهور السرور فيه ، وابتهج بكذا أي : سرَّ به سروراً بأن أثره على وجهه كما في المفردات ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ أي : فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أي : راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنائعه وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى مقام التبصرة والذكرى إنما هو بالعبودية والإنابة ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً ﴾ أي : كثير المنافع حياة الأناسي والدواب والأرض الميتة ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ كثيرة أي : أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ وأصل الحصيد : قطع الزرع والحصيد بمعنى المحصود ، والمعنى : وحب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالها مما يقتات به وتخصيص إثبات حبة بالذكر لأنه المقصود بالذات ﴿ وَالنَّخْلَ ﴾ عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الجنات لبيان فضلها على سائر الأشجار ، وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ طوالاً في السماء عجيبةَ الخلق فإنها وقت الإنبات لم تكن طوالاً ، يقال بسقت الشجرة بسوقاً إذا طالت . وفي المفردات : الباسق هو الذاهب طولاً من جهة الانقطاع ، ويجوز أن يكون معنى باسقات : حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ أي : منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر ، والطلع : ما يطلع من النخلة وهو الكم قبل أن

يشق ويقال لما يظهر من الكم طلع أيضاً ، وهو شيء أبيض يشبه بلونه الأسنان وبرائحته المني ﴿ رِزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي : لرزقهم علة لقوله تعالى : (فَأَنْبَتْنَا) وفي ذلك تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك ، من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ تذكير ميتاً باعتبار البلد والمكان أي : أرضاً جدبة لا نماء فيها أصلاً بأن جعلناها بحيث ربت وأنبتت أنواع النبات والأزهار فصارت تهتز بها بعدما كانت جامدة هامدة ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أي : مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها ، وقد روى أن الله يمطر السماء أربعين ليلة كمني الرجال يدخل في الأرض فينبت لحومهم وعروقهم وعظامهم ثم يحييهم ويخرجهم من تحت الأرض ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي : قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ قوم نوح ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ قيل : كانت الرَّس بئراً بعدن لأمة من بقايا ثمود وكان لهم ملك عدل حسن السيرة يقال له العليس ، وكانت البئر تسقي المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ، لأنها كانت بَكَرَات كثيرة منصوبة عليها ـ وهي خشبة مستديرة في وسطها محز يستقي عليها ـ ورجال كثيرون موكلون بها وأبازن من رخام ـ وهي تشبه الحياض ـ كثيرة تملأ للناس وآخر للدواب ، وآخر للبقر والغنم والهوام يستقون عليها بالليل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيره فطال عمر الملك فلما جاءه الموت طلى بدهن لتبقى صورته ولا تتغير وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت وكان ممن يكرم عليهم ، فلما مات شقَّ ذلك عليهم ورأوا أن أمرهم قد فسد وضجوا جميعاً بالبكاء واغتنمها الشيطان منهم فدخل في جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة فكلمهم وقال : إني لم أمت ولكني قد تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم بعدي ففرحوا أشد الفرح وأمر لخاصته أن يضربوا حجاباً بينه وبينهم ويكلمهم من ورآئه كيلا يعرف الموت في صورته فنصبوه صنماً من ورآء حجاب لا يأكل ولا يشرب وأخبرهم أنه لا يموت أبداً وأنه إله لهم وذلك كله ويتكلم به الشيطان على لسانه فصدق كثير منهم وارتاب بعضهم وكان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق فكلما تكلم ناصح منهم زُجر وقُهر فاتفقوا على عبادته فبعث الله لهم نبياً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة وكان اسمه « حنظلة بن صفوان » فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له وأن الشيطان فيه وقد أضلهم الله ، وأن الله تعالى لا يتمثل بالخلق وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله وأوعدهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته فآذوه وعادوه وهو يتعدهم بالموعظة والنصيحة حتى قتلوه وطرحوه في بئر وعند ذلك حلَّت عليهم النقمة فباتوا شباعى روآء من الماء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطل رِشاؤها ـ وهو بالكسر الحبل ـ فصاحوا بأجمعهم وضجَّ النساء والولدان وضجّت البهائم عطشاً حتى عمَّهم الموت وشملهم الهلاك وخلفهم في أرضهم السباع وفي منازلهم الثعالب والضباع وتبدلت لهم جناتهم وأموالهم بالسدر والشوك ، فلا تسمع فيها إلا عزيف الجن ـ أي :

صوتهم وهو جرس يسمع في المفاوز بالليل - وإلا زئير الأسد أي : صوته من الصدر - نعوذ بالله من سطواته ومن الإصرار على ما يوجب نقماته ، كذا في التكملة نقلاً عن تفسير المقري ، وقيل : الرس بئر قرب اليمامة ، أو بئر بأذربيجان ، أو واد . وقد سبق بعض الكلام عليه في سورة الفرقان فارجع إليه ﴿ وَثَمُودُ ﴾ وقوم ثمود كذبوا صالحاً ﴿ وَعَادٌ ﴾ وقوم عاد كذبوا هوداً ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ وفرعون كذب موسى ، والمراد هو وقومه ليلائم ما قبله وما بعده من الجماعة ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ يعني : أصهار والصهر زوج بنت الرجل وزوج أخته وقيل : إخوانه قومه لاشتراكهم في النسب لا في الدين . قال عطاء ما من أحد من الأنبياء إلا ويقوم معه قومه إلا لوطاً عليه السلام يقوم وحده ﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ هم من بُعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين وكانوا يسكنون أيكة أي : غيضه تنبت السدر والأراك وقد مرَّ في سورة الحجر ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ الحميري ملك اليمن وقد سبق شرح حالهم في سورة الدخان ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أي : فيما أرسلوا به من الشرائع التي من جملتها البعث الذي أجمعوا على تكذيبه قاطبة ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي : فوجب وحلَّ عليهم وعيدي وهي كلمة العذاب ، والوعيد يستعمل في الشر خاصة بخلاف الوعد فإنه يكون في الخير والشر ، وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ يعني : لا تحزن بتكذيب الكفار إياك لأنك لست بأول نبي كُذِّب وكلٌّ أمة كذبت رسولها واصبر على أذاهم كما صبروا تظفر بالمراد كما ظفروا . وتهديد لأهل مكة يعني : احذروا يا أهل مكة من مثل عذاب الأمم الخالية فلا تكذبوا رسول الله فإن الاشتراك في العمل يوجب الاشتراك في الجزاء .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ العي : بالأمر العجز عنه والهمزة للإنكار . كأنه قيل : أقصدنا الخلق الأول وهو الإبداء فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الخلق الثاني وهو الإعادة ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ خلق جديد : إشارة إلى النشأة الثانية ، كأنه قيل : هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول ، بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة إذ لم تجر العادة بالإعادة في هذه الدار وهذا قياس فاسد كما لا يخفى .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي : ما تحدث به نفسه . وهو ما يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفي والخطرة الرديئة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى الإنسان ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أي : أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، وعبَّر عن قرب العلم بقرب الذات تجوزاً ، وحبلُ الوريد مَثَلٌ في فرط القرب كقولهم : هو مني بمعقد الإزار . والحبلُ العرق شبه بواحد من الحبال من حيث الهيئة . والوريدان : عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين وهو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه يَردان من الرأس إليه . وفي المفردات : الوريد عرق

متصل بالكبد والقلب وفيه مجاري الروح وقوله : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) أي : من روحه ، انتهى .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ التلقي : الأخذ ، والتلقن بالحفظ والكتابة . والمعنى : أنه لطيف يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه وهو أقرب إلى الإنسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن ويأخذ الحفيظان أي : الملكان الموكلان بالإنسان ما يتلفظ به وفيه أي : على الوجه الثاني إيذان بأنه تعالى غني عن استحفاظهما لإحاطة علمه بما يخفى عليهما وإنما ذلك لما في كتبهما وحفظهما لأعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خبراً من زيادة اللطف له في الكفّ عن السيئات والرغبة في الحسنات ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ هو أشرف الجوارح ﴿ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ هو مقابل اليمين ﴿ قَعِيدٌ ﴾ أي : عن جانب اليمين قعيد أي : مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظاً ومعنى فحذف الأول لدلالة الثاني عليه وقيل : يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما في قوله : (وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ما يرمي به من فيه من خير أو شر والقول أعم من الكلمة والكلام ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقب قوله ذلك ويكتبه فإن كان خيراً فهو صاحب اليمين بعينه ، وإلا فهو صاحب الشمال ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي : معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر فهو حاضر أينما كان . وتخصيصُ القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه ؟ فقيل : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه وقيل : إنما يكتبان ما فيه أجر ووزر وهو الأظهر ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ السكرة استعارة لشدة الموت وغمرته الذاهبة بالعقل ، وعبر عن وقوعها بالماضي إيذاناً بتحققها وغايةِ اقترابها حتى كأنها قد أتت وحضرت كما قيل : قد أتاكم الجيش أي : قرب إتيانه . والمعنى : حضرت سكرة الموت أي : شدته التي تجعل الإنسان كالسكران بحيث تغشاه وتغلب على عقله حقيقة الأمر الذي نطق به كتاب الله ورسله أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : يقال للميت بلسان الحال وإن لم يكن بلسان المقال ، أو تقول ملائكة ذلك الموت يا إنسان ﴿ مَا ﴾ موصولة أي : الأمر الذي ﴿ كُنْتَ ﴾ في الدنيا ﴿ مِنْهُ ﴾ متعلق بقوله ﴿ تَحِيدُ ﴾ من حاد عنه يحيد حيداً إذا مال عنه أي : تميل وتهرب منه . بل تحسب أنه لا ينزل عليك بسبب محبتك الحياة الدنيا كما في قوله : (أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) أي : أقسمتم بألسنتكم بطراً وأشراً وجهلاً وسفهاً أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيداً وأملتم بعيداً ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة فكأنكم ظننتم أنكم ما لكم من زوال مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية فالخطاب في الآية للإنسان المتقدم على طريق الالتفات فإن النفرة عن الموت شاملةٌ لكل فرد من أفراده

طبعاً ، وجوّز في الكشاف أن تكون الإشارة إلى الحق والخطاب للفاجر وهذا هو الظاهر لأن الكلام في الفجار .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هي النفخة الثانية ، وهي نفخة البعث والنشور ، والنافخ إسرافيل عليه السلام وقد سبق الكلام في الصُّور ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : وقت ذلك النفخ ﴿ يَوْمُ الوَعِيدِ ﴾ أي : يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا وتحقيقه ، والوعيد : التهديد ، أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله ولذا بدىء ببيان حال الكفرة ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي : معها ملكان أحدهما يسوق إلى المحشر ، والآخر يشهد بعملها خيراً أو شراً ، وفي كشف الأسرار : يسوق الكافر سائقه إلى النار ويشهد الشهيد عليه بمعصيته ، ويسوق السائق المؤمن إلى الجنة ويشهد الشهيد له بطاعته ، انتهى . وهل الملكان الكاتبان في الدنيا هما اللذان ذكرهما الله في قوله : (سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) أو غيرهما ؟ فيه خلاف كما في فتح الرحمن . أو معها ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد لها أو عليها ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ الغفلة : معنى يمنعُ الإنسانَ من الوقوف على حقيقة الأمور . وفي المفردات : سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ . والمعنى : يقال له يوم القيامة ، أو وقت النشور ، أو وقت العرض : لقد كنت أيها الشخص في الدنيا في غفلة من هذا اليوم وغوائله . وفي فتح الرحمن : من هذا النازل بك اليوم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من عاقبة الكفر ﴿ فَكَشَفْنَا ﴾ أي : أزلنا ورفعنا ﴿ عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ الذي كان على بصرك . والغطاءُ : الحجاب المغطي لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والإلفة بها وقصر النظر عليها . قال في المفردات : الغطاء ما يجعل فوق الشيء من لباسٍ ونحوه كما أن الغشاء كذلك وقد استعير للجهالة . قال تعالى : (فَكَشَفْنَا) الآية ، وفي الكواشي : أو الغطاء القبر أي أخرجناك منه ﴿ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي : نافذ . تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للأبصار ولكن لا ينفعك وهذا كقوله : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) يقال : حددتُ السكين رققت حدها ثم يقال لكل حاذق في نفسه من حيث الخلقة أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد فيقال : هو حديد النظر ، وحديد الفهم ، ويقال : لسان حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد ، وفي الآية : إشارة إلى أن الإنسان وإن خُلق من عالِمَي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية الشهادة وهي العالم الحسي فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطائه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديداً يبصر رشده ويحذر شره وهم المؤمنون من أهل السعادة

ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها وهم الكفار من أهل الشقاوة .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني : الشيطان المقيّض له مشيراً إليه ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي : هذا ما عندي وفي ملكتي ومقدوري عتيدٌ لجهنم قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي ، وقيل : قال الملك الموكل به ويعني الرقيب الذي سبق ذكره مشيراً إلى ما هو من كتاب عمله هذا مكتوب عندي عتيد مهيأ للعرض فإنه كان العبد من أهل الإيمان والجنة أحضر كتاب حسناته لأن سيئاته قد كفرت وإن كان من أهل الكفر والنار أحضر كتاب سيئاته لأن حسناته حبطت بكفره ، فعلى العاقل أن لا يطيع الشيطان ولا يلتفت إلى إغوائه في كل زمان ومكان فإنه يدعو إلى النار وقهر الجبار ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو الملكين من خزنة النار أو لواحد وهو الملك الجامع للوصفين أو خازن النار ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ كل مبالغ في الكفر بالمنعم والنعم جاحد بالتوحيد معرض عن الإيمان وقيل : كلُ كافر حامل غيره على الكفر ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق يعرف الحق فيجحده والعناد أقبح الكفر وقال قتادة : منحرف عن الطاعة . وقال السدي : مشتق من العند وهو عظم يعترض في الحلق أو معجب بما عنده كأنه من قولهم عندي كذا كما في عين المعاني ، وقال في المفردات : العنيد : المعجب بما عنده والمعاند المتباهي بما عنده ، والعنود الذي يعند عن القصد أي : يميل عن الحق ويرده عارفاً به ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة كزكاة أو غيرها إذ طبع على الشر والإمساك كما أن الكافر طبع على الكفر والعنيد طبع على العناد أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم ، والمنع ضد العطية يقال : رجل مانع ومناع أي : بخيل ، وقيل : المراد بالخير الإسلام ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ الاعتداء : مجاوزة الحق أي : ظالم متخط للحق معاد لأهله ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاك في الله وفي دينه ، بمعنى : ذي شك وريب أي : موقع في الريبة وقيل متهم ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ وقوله : (فَأَلْقِيَاهُ) تكرير للتوكيد والفاء للإشعار بأن الإلقاء للصفات المذكورة ، وفي الحديث (بينما الناس ينتظرون الحساب إذ بعث الله عنقاً من النار يتكلم فيقول : أُمرت بثلاثة بمن دعا مع الله إلهاً آخر ، وبمن قَتَل بغير حق ، وبكل عنيد ، فيلقطهم من الناس كما يلقط الطير الحب ، ثم يصيِّرهم في نار جنهم [1] ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي : قال الشيطان المقيض للكافر ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أي : ما جعلته طاغياً وما أوقعته في الطغيان وهو تجاوز الحد في العصيان ﴿ وَلَكِنْ كَانَ ﴾ هو بالذات ﴿ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ من الحق طويل لا يرجع عنه فأعنته عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء كما

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند بنحوه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٣ / ٣٧٥ .

في قوله تعالى : (**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**) وذلك فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور ضالاً عن طريق الحق واقعاً دونه بمراحل ﴿ **قَالَ** ﴾ كأنه قيل : فماذا قال الله لابن آدم وشيطانه المقيض له في الدنيا ؟ فقيل : قال تعالى ﴿ **لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ** ﴾ أي : في موقف الحساب والجزآء إذ لا فائدة في ذلك ، قال بعضهم : هذا الخطاب في الكفار وأما قوله : (**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**) ففي المؤمنين في الظالم فيما بينهم لأن الاختصام في الظالم مسموع وهذا في الموقف وأما قوله : (**إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**) ففي جهنم فظهر التوفيق بين الآيات ﴿ **وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالوَعِيدِ** ﴾ على الطغيان في دار الكسب والتكليف في كتبي وألسنة رسلي فما تركت لكم حجة علي فلا تطمعوا في الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة ، وقد صحَّ عندكم وعلمتم أني قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس : (**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**) فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام في هذا الوقت ﴿ **مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ** ﴾ أي : لا يغيّر قولي في الوعد والوعيد فما يظهر في الوقت هو الذي قضيته في الأزل لا مبدل له والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد يعني ولا مخصص في حق الكفار ، فالوعيد على عمومه في حقهم ، قال الجلال الدواني في شرح العضد : ذهب بعض العلماء إلى أن الخلف في الوعيد جائز على الله تعالى لا في الوعد وبهذا وردت السنة : « من وعد لأحد على عمله ثواباً فهو منجز له ، ومن أوعده على عمله عقاباً فهو بالخيار » والعرب لا تعدُّ عيباً ولا خُلْفاً أن يَعِد شراً ثم لا يفعله ، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً ، وإنما الخُلْف أن يعد خيراً ثم لا يفعله كما قال :

وإني إذا أوعدته أو وعدته * لمخلفُ إيعادي ومنجز موعدي

وأحسَنَ يحيى بن معاذ رضي الله عنه في هذا المعنى حيث قال : الوعد والوعيد حق . فالوعد : حق العباد على الله ضمن لهم إذا فعلوا ذلك أن يعطيهم كذا ومَن أولى بالوفاء من الله ؟ والوعيد : حقه على العباد قال : لا تفعلوا كذا فأعذبكم ففعلوا فإن شاء عفا وإن شاء آخذ لأنه حقه وأولاهما العفو والكرم لأنه غفور رحيم فالله تعالى لا يغفرُ أن يشرك به فينجز وعيده في حق المشركين ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فيجوز أن يخلف وعيده في حق المؤمنين ﴿ **وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ أي : وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم ، والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنّة فضلاً عن كونه ظلماً مفرطاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من الظلم ، والله تعالى منزه عن الظلم مطلقاً يقول الله تعالى : في الحديث القدسي « إني

حرمت الظلم على نفسي وحرمته على عبادي فلا تظالموا »[١] ﴿ يَوْمَ ﴾ أي : اذكر يا محمد لقومك ويشمل كل من شأنه الذكر يوم ﴿ نَقُولُ ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ دار العذاب وسجن الله للعصاة ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ بمن أُلقي فيك وهل أوفيتك ما ودعتك وهو قوله ﷺ : (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) وقوله : « ولكل واحدة منكما ملؤها »[٢] فهذا السؤال من الله لتصديق خبره وتحقيق وعده والتقريع لأهل عذابه والتنبيه لجميع عباده ﴿ وَتَقُولُ ﴾ جهنم مجيبةً بالاستفهام تأدباً وليكون الجواب وفق السؤال ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ أي : من زيادة من الجن والإنس ، واختلف الناس في أن الخطاب والجواب هل هما على الحقيقة أولاً ؟ فقال بعضهم : هما على الحقيقة فينطقها الله بذلك كما ينطق الجوارح وهو المختار فإن الله على كل شيء قدير وأمور الآخرة كلها أوجلها على خلاف ما تعورف في الدنيا وقد دلت الأحاديث على تحقيق الحقيقة فلا وجه للعدول إلى المجاز كما روي من زفرتها وهجومها على الناس يوم الحشر وجرها الملائكة بالسلاسل وقولها : جُزْ يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي ونحو ذلك مما يدل على حياتها الحقيقة وإدراكها فإن مطلق الجمادات لها تلك الحياة في الحقيقة فكيف بالدارين المشتملين على الشؤون العجيبة والأفعال الغريبة (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ) وقال بعضهم : سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها يعني : أن المقصود تصوير المعنى في القلب وتبيينه فهي بحيث لو قيل لها ذلك وهي ناطقة لقالت ذلك وأيضاً دلت بحالها على النطق .

يعني أنها مع اتساعها وتباعد أطرافها وأقطارها يطرح فيها الجِنَّة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلىء بهم وتصير بحيث لا يسعها شيء ولا يزاد فيها ، فالاستفهام على معنى التقرير ونفي المزيد أي : وهل عندي موضع يزاد فيه شيء أي : قد امتلأت وحصل في موعودك وصرت بحيث لا أسع إبرة . فالمعنى الممثل هو الامتلاء وهو كقوله تعالى : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ) فإنه سؤال تقرير لا سؤال استفهام وكقوله عليه السلام يوم فتح مكة : « هل أبقى لنا عقيل داراً ؟ » أي : **ما أبقى** لنا داراً ويجوز أن يكون المعنى أنها لغيظها على الكفار والعصاة كأنها تطلب زيادتهم وتستكثرهم ويجوز أن يكون السؤال استدعاء للزيادة في الحقيقة لأن ما يلقى فيها كحلقة تلقى في اليم . ويجوز أن يكون المعنى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ وموضع زيادة فإن قلت : هذا يخالف قوله تعالى : (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) قلت : ورد في الحديث « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد

(١) هذا طرف من حديث صحيح أخرجه مسلم ، وهو من الأحاديث القدسية .

(٢) طرف من حديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً ، وأوله (تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ ، فقالت النارُ : أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنةُ : مالي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسَقَطهم !! قال الله تبارك للجنة : أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي ، وقال للنار : أنت عذابي أعذّبُ بكِ من أشاء من عبادي ، ولكل واحدٍ منكما ملؤها .. » الحديث ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١٠٧ .

حتى يضع الجبار فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض »[١] يعني : فيحصل الامتلاء وبه تندفع المخالفة .

وفي رواية حتى يضع فيها ربُّ العزة أو ربُّ العرش قدمه فتقول : قط قط أي : حسبي حسبي وعزتك . وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة : فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ فقال الله تعالى للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فإنهم يلقون فيها وتقول هل من مزيد فلا تمتلىء حتى يضع الله فيها رجله فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشىء الله لها خلقاً[٢] .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أي : قُرِّبت ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم محشورون إليها فائزون بها ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : مكاناً غير بعيد بحيث ينظرون إليها قبل دخولها فيكون انتصابه على الظرفية أو هو حال مؤكدة أي : حال كونها غير بعيد أي شيئاً غير بعيد ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي : حال كون أولئك المتقين مقولاً لهملهم على ألسنة الملائكة : هذا المشاهد أو هذا الثواب هو ما كنتم توعدون به في الدنيا ، جزاءً لكم على طاعتكم لله ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي : رجَّاع إلى الله فأوَّاب : من يرجع من الشرك إلى التوحيد ، وثانياً : من المعصية إلى الطاعة ، وثالثاً : من الخلق إلى الحق . قال ابن عمر رضي الله عنهما : لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر . وفي المفردات : الأواب كالتواب وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الخيرات . ومنه قيل للتوبة أوبة ، والفرق بين الأوب والرجوع أن الأوب ضرب من الرجوع ﴿ حَفِيظٍ ﴾ حافظ لتوبته من النقض ، ولعهده من الرفض ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ الخشيةُ : خوفٌ يشوبه تعظيم ، وفي عين المعاني : انزعاج القلب عند ذكر السيئة وموجبها ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : خشيةً ملتبسة بالغيب ، حيث خشي عقابه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ وصف القلب بالإنابة مع أنها وصف المكلف لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى أي : لا عبرة للإنابة والرجوع إلا إذا كان من القلب والمراد بها الرجوع إلى الله تعالى بما يحب ويرضى ، وفي التأويلات النجمية : بقلب منيب إلى ربه معرض عما سواه مقبل عليه بكلية ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ يقال لهم إدخلوها ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي : متلبِّسين بسلامة من العذاب ، وزوال النعم وحلول النقم ، أو بسلام من جهة الله وملائكته ﴿ ذَلِكَ ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١٠٧ .

(٢) أخرجه الشيخان والبيهقي وقد تقدَّم ذكر الحديث وتخريجه ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٣٧٦ .

إشارة إلى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه ما ذكر من الأمور ﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ والبقاء في الجنة إذ لا انتهاء له أبداً ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ﴾ من فنون المطالب كائناً ما كان سوى ما تقتضي الحكمة حجره ، وهو ما كان خبيثاً في الدنيا أبداً كاللواطة ونحوها فإنهم لا يشاؤونها كما سبق من أن الله يعصم أهل الجنة من شهوة محال أو منهي عنه ﴿ فِيهَا وَلَدَيْنَا ﴾ وعندنا ﴿ مَزِيدٌ ﴾ أي : زيادة في النعيم على ما يشاؤون وهو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم ، من أنواع الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيعطيهم ما شاؤا ، ثم يزيدهم من عنده ما لم يسألوه ولم تبلغه أمانيهم ، وروي من طرق مختلفة أن هذه الزيادة النظر إلى وجه الله ، قال القرطبي : والمختار أن المزيد هو النظر إلى وجه الله الكريم فيجتمعون في كل يوم جمعة فلا يسألون شيئاً إلا أعطاهم وتجلى لهم ويقال ليوم الجمعة في الجنة يوم المزيد ، وفي الحديث : « إن في الجنة ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ كم للتكثير هنا ﴿ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ القرن : القوم المقترنون أي وكثيراً من القرون الذين كذبوا رسلهم أهلكنا قبل قومك وهم كفار مكة ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ﴾ والمعنى : خرقوا فيها أي : أوقعوا الخرق فيها وقال تعالى (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) والجوب : قطع المفازة ، ودوخوا أي أذلوها وقهروا أهلها واستولوا عليهم وتصرفوا في أقطارها ، أو جالوا في أكناف الأرض كل مجال ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ وفي القاموس : المحيص المهرب أي : فنقبوا في البلاد قائلين : هل من محيص أي : هل لهم من مفر ومخلص من أمر الله وعذابه أو من الموت .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : فيما ذكر من قصتهم ، أو فيما ذكر في هذه السورة من العبر والأخبار وإهلاك القرى ﴿ لَذِكْرَى ﴾ لتذكرة وعظة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي : قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور ويتفكر كما ينبغي فإن من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير . قال الراغب : قلب الإنسان سمي به لكثرة تقلبه ، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وسائر ذلك وقوله : (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) أي : علم وفهم ، انتهى . وفسره ابن عباس رضي الله عنهما بالعقل ، وذلك لأن العقل قوة من قوى القلب وخادم من خدامه ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي : إلى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم فإن من فعله يقف على جلية الأمر فينزجر عما يؤدي إليه من الكفر ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ من الشهود بمعنى :

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد ، انظر الفتح الكبير ١ / ٤٠٠ وأصله في الصحيحين بلفظ « أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

الشاهد أي حاضر بذهنه ليفهم معانيه .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من أصناف المخلوقات ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ في يومين ومنافعها في يومين والسموات في يومين ، ولو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر ، ولكنه سنَّ لنا التأني بذلك فإن العجلة من الشيطان إلا في ستة مواضع : أداء الصلاة إذا دخل الوقت ، ودفن الميت إذا حضر ، وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاء الدَّين إذا وجب ، وحلّ وإطعام الضيف إذا نزل ، وتعجيل التوبة إذا أذنب ﴿ وَمَا مَسَّنَا ﴾ بذلك مع كونه مما لا تفي به القوى والقدر ﴿ مِنْ لُغُوبٍ ﴾ قال الراغب : اللغوب التعب والنصب . فإنه لو كان لاقتضى ضعفاً فاقتضى فساداً فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه من نفوذ الأمر وتمام التصرف . وهذه الآية نظير قوله تعالى : (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) يدل عليه ما بعد الآية وهو قوله ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم ، أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه وغيرهم . وفيه إشارة إلى تربية النفوس بالصبر على ما يقول الجاهلون من كل نوع من المكروهات وتزكيتها من الصفات المذمومات ملازمة للذكر والتسبيحات والتحميدات كما قال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث ، وعن وصفه بما يوجب التشبيه حال كونك ملتبساً بحمده على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ هما وقتا الفجر والعصر وفضيلتها مشهورة فالتسبيح فيهما بمكان ، وفي طه : (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) راعى القياس لأن الغروب للشمس كما أن الطلوع لها ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي : وسبحه بعض الليل . وقال بعض الكبار : (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) يعني أول النهار (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) يعني إلى آخر النهار (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) يعني من جميع الليل بقدر الوسع والطاقة ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ وأعقاب الصلوات وأواخرها ، جمع دبر من أدبرت الصلاة إذا انفضت ، والركوع والسجود يعبر بها عن الصلاة لأنها أعظم أركانها . وعن عمر وعلي رضي الله عنهما (أَدْبَارَ السُّجُودِ) الركعتان بعد صلاة المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر وعليه جمهور المفسرين ، وعن مجاهد : وإدبار السجود هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبة وفي الحديث : « مَن سبَّح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وكبَّر ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسع وتسعون ، ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياه

وإن كانت مثل زبد البحر »[1] .

﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ يا محمد لما يوحى إليك من أحوال القيامة . والسمع إدراك المسموع بالإصغاء ، والفرق بين المستمع والسامع : أن المستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه ، والسامع من انفق سماعه من غير قصد إليه فكل مستمع سامع من غير عكس ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ أصله ينادي المنادي ، والمنادي هو الملك النافخ في الصور وهو إسرافيل عليه السلام ، والنداء نفخ سمي نداء من حيث أنه جعله علماً للخروج وللحشر وإنما يقع ذلك النداء كأذان المؤذن وعلامات الرحيل في العساكر وقيل : هو النداء حقيقة فيقف على الصخرة ويضع أصبعه في أذنيه وينادي : أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ، وقيل : إسرافيل ينفخُ وجبرائيل ينادي بالحشر ﴿ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ إلى السماء أو من مكان قريب يصل نداؤه إلى الكل على سواء . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : الأرواح وقيل : الأجساد ﴿ الصَّيْحَةَ ﴾ وهي صيحة البعث التي هي النفخة الثانية ، والصيحة والصياح الصوت بأقصى الطاقة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بالصيحة ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ من القبور وهو من أسماء يوم القيامة : وسمي يوم العيد يوم الخروج أيضاً تشبيهاً به . والمعنى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذي هو البعث يخرجون من القبور إلى المحاسبة ثم إلى إحدى الدارين إما إلى الجنة وإما إلى النار .

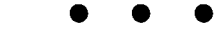
﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فليستعدوا للقائنا ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتشقق أي : تتصدع ﴿ سِرَاعاً ﴾ والمعنى : حال كونهم مسرعين إلى إجابة الداعي من غير التفات يميناً وشمالاً هذا كقوله : (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي) ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ بعث وجمع وسوق ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي : هين علينا نقول له كن فيكون وهو كلام معادل لقول الكفرة : (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) كما قال : (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لا خير فيه ، وهو تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتهديد لهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ بمسلط تقسرهم على الإيمان أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت مذكر هذا كقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) أي : لست بمتسلط عليهم مجبرهم بما تريد . وأصل الجبر إصلاح الشيء بضرب من القهر ، والجبار في اسم الله تعالى هو الذي جبر العباد على ما أراد ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي : عظهم بمواعظه فإنهم

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٢٣ .

المنتفعون به كما قال : (**فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**) وأما من عداهم فنفعل بهم ما يوجبه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب كقوله : (**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ**) والوعيد التخويف بالعذاب ويستعمل في نفس العذاب كما مر .

وكان رسول الله عليه السلام يخطب بسورة قّ في كثير من الأوقات ، لاشتمالها على ذكر الله تعالى والثناء عليه ، ثم على علمه بما توسوس به النفوس ، وما تكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة وعصيان ، ثم تذكير الموت وسكرته ، ثم تذكير القيامة وأهوالها والشهادة على الخلائق بأعمالهم ، ثم تذكير الجنة والنار ، ثم تذكير الصيحة والنشور والخروج من القبور ، ثم بالمواظبة على الصلوات[1] .

تمّت سورة « قّ » بعون الله تعالى



(١) حديث (كان ﷺ يقرأ سورة ق كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب النّاس) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد في المسند ، ولفظه كما في مختصر ابن كثير ، عن أم هشام بنت حارثة قالت : « لقد كان تنوُّرُنا وتنُّورُ النبي ﷺ واحداً ، سنتين أو سنةً وبعض سنة ، وما أخذتُ « قّ وَالقُرآنِ المَجِيدِ » إلا على لسان رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس » انظر مختصر ابن كثير للصابوني ٣ / ٣٧٠ والدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٠١ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ الواو للقسم والمراد الرياح التي تذرو التراب وغيره ، روي عن كعب الأحبار قال : لو حبس الله الريح عن الأرض ثلاثة أيام ما بقي على الأرض شيء إلا نتن . وعن العوام بن حوشب قال : تخرج الجنوب من الجنة فتمر على جهنم فغمها منها وبركاتها من الجنة وتخرج الشمال من جهنم فتمر على الجنة فروحها من الجنة وشرها من النار . وقيل : الشمال تمرُّ بجنة عدن فتأخذ من عرف طيبها فتمر على أرواح الصديقين ، وعن جابر رضي الله عنه قال : هاجت ريح كادت تدفن الراكب من شدتها فقال عليه السلام : هذه ريح أرسلت لموت منافق ، فقدمنا المدينة فإذا رأس من رؤوس المنافقين قد مات . قال ابن عمر : الرياح ثمان : أربع منها عذاب وأربع منها رحمة أما الرحمة فالناشرات ، والمبشرات ، والذاريات ، والمرسلات . وأما العذاب : فالعاصفات ، والقاصف ، والصرصر ، والعقيم . وأراد ابن عمر ما في القرآن من ألفاظ الرياح . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبيتن قوم من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب ، ثم ليمسخنَّ قردة وخنازير ، وليصيبن أقواماً من أمتي خسف وقذفٌ ، باتخاذهم القِيَانَ ، وشربهم الخمور ، وضربهم بالدف ، ولبسهم الحرير »[1] كما في كتاب الإمتاع في أحكام السماع .

وقال بعضهم : المراد بالذاريات النساء الولود فإنهن يُذرين وهو بضم الياء بمعنى يذرون . يقول الفقير : من لطف هذا المعنى مجاورته للفظ الحاملات والجاريات على أن من وجوه الحاملات النساء الحوامل وفيه بيان لفضل الولود على العقيم . ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ الوقر بالكسر اسم لما توقر أي : تحمل والمراد هنا المطر ، والمعنى : فالسحب الحاملة للمطر . وعن الحسن أنه كان إذا نظر إلى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكن تحرمونه بخطاياكم وأعمالكم . وعن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة ، وفي المطر حياة الأرض فكأنه روحها ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ الجارية في البحر جرياً يسيراً أي ذا يسر وسهولة ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ والمراد بالمقسمات : الملائكة ، أي : فالملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . ويدبر أمر الأرض أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام . فجبريل على الجنود والرياح وميكائيل على القطر والنبات ، وملك الموت على قبض الأرواح ، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون .

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وبعض الحديث أصله في الصحيحين ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٥٥ .

والمقصود من الإقسام بها ظاهراً هو تأكيد المحلوف عليه وهو البعث وكونه محقق الوقوع فيكون في المعنى استدلالاً على المحلوف عليه فكأنه قيل : فمن قدر على إنشاء هذه الأشياء ألا يقدر على إعادة ما أنشأه . يقول الفقير : سر الترتيب هو أن الرياح فوق السحاب الحاملة للمطر ، وهي فوق الماء الحامل للسفن ، وهو فوق الأرض الظاهر أثر تدبير الملائكة فيها ، فأشار تعالى إلى أن كل أمر إنما ينزل من السماء وكل تأثير في الأرض إنما يظهر من جانب العلو ومن ذلك وقوع البعث من القبور فمن قدر على إظهار الآثار في الأرض بالتأثيرات العلوية كان قادراً على البعث لأنه من الآثار الأرضية أيضاً والله أعلم .

﴿ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ** ﴾ جواب للقسم ، أي : أن الذي توعدونه من البعث والحساب ، أو من الثواب والعقاب لصادق ﴿ **وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾ أي : وأن الجزآء على الأعمال لحاصل وكائن لا محالة ، فإن من قدر على هذه الأمور البديعة المخالفة لمقتضى الطبيعة فهو قادر على البعث الموعود . قال بعضهم : ما الحكمة في معنى القسم من الله تعالى فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن يصدق بمجرد الإخبار من غير قسم ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ؟ والجواب : أن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً والحكم يفصل باثنين إما بالشهادة وإما بالقسم فذكر الله في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال : (**شَهِدَ اللهُ**) الآية ، ولا يكون القسم إلا باسم معظم وقد أقسم الله بنفسه في القرآن في سبعة مواضع والباقي من القسم القرآني قسم بمخلوقاته كما في عنوان هذه السورة ونحوه : (**والتين والزيتون**) ، (**والصافات**) ، (**والشمس**) ، (**والليل**) ، (**والضحى**) وغير ذلك . فإن قلت : ما الحكمة في أن الله تعالى قد أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسَم بغير الله تعالى ؟ قلت : فيه وجوه : الأول : أنه على حذف المضاف أي : ورب الذاريات ورب التين ورب الشمس ، والثاني : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون . والثالث : أن الإقسام إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يجلّه وهو فوقه والله تعالى ليس شيء فوقه فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارىء وصانع حكيم . وقال بعضهم : القسم بالمصنوعات يستلزم بالصانع . وقال بعضهم : إن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ** ﴾ والمراد بالحبك : الطرآئق أي : الطرآئق المحسوسة التي هي مساير الكواكب ، أو المعقولة التي يسلكها النظار ويتوصل بها إلى المعارف . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ذات الخلق الحسن المستوى . ﴿ **إِنَّكُمْ** ﴾ يا أهل مكة ﴿ **لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ** ﴾ في القرءآن ، أي : متخالف متناقض وهو قولهم : إنه شعر وسحر وافترآء وأساطير الأولين ، وفي الرسول شاعر وساحر ومفتر ومجنون ، وفي القيامة فإن من الناس من يقطع القول بإقرار ، ومنهم من يقطع القول بإنكار ، ومنهم من يقول : إن نظن إلا ظناً وهذا من التحيّر والجهل

الغليظ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن أو الرسول من صَرف ، إذ لا صرف أفظع منه وأشد .

﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ﴾ دعاءٌ عليهم كقوله : (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لُعِنَ وقُبِّح ، والخرّاصون الكذّابون المقدرون ما لا صحة له وهم أصحاب القول المختلف ، كأنه قيل : قتل هؤلاء الخرّاصون ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ من الجهل والضلال تغمرهم وتغشاهم عن أمر الآخرة ﴿ سَاهُونَ ﴾ أي : غافلون عمَّا أمروا به . قال بعضهم : الغمرة فوق الغفلة ، والسهو دون الغفلة ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ أي : الكفار فيقولون ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي : متى يوم الجزآء ؟ لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ جوابٌ للسؤال ، أي : يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون بها كما يفتن الذهب بالنار يقال : فتنت الشيء أي أحرقت خبثه لتظهر خلاصته فالكافر كله خبث فيحرق كله ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي : مقولاً لهم هذا القول إذا عذبوا والقائل خزنة النار ، أو ذوقوا جزآء تكذيبكم كما في قوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ) أي : كفرهم مراداً به عاقبته ، قال الراغب : أصل الفتن إدخال الذهب النار ليظهر جودته من ردآءته ويستعمل في إدخال الإنسان النار وقوله تعالى : (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) أي : عذابكم ، وتارة يسمون ما يحصل منه العذاب فيستعمل فيه نحو قوله تعالى (أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا) ، وتارة في الاختبار نحو قوله تعالى : (وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً) ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي : هذا العذاب ما كنتم تستعجلون به في حياتكم الدنيا وتقولون : متى هذا الوعد بطريق الاستهزآء .

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعصية والجهل والميل إلى ما سوى المولى ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أي : بساتين لا يعرف كنهها ، فالتنكير للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتكثير ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أي : أنهار جارية أي : تكون الأنهار بحيث يرونها وتقع عليها أبصارهم لأنهم فيها ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُم رَبُّهُمْ ﴾ أي : قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب ، راضين به على معنى أن كل ما أعطاهم حسنٌ مرضيٌّ ، متلقى بالقبول ليس فيه ما يرد لأنه في غاية الجودة ومنه قوله : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) أي : يقبلها ويرضاها ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ قبل دخول الجنة أي : في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، أي : كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً من أوقات الليل يعني يذكرون ويصلون أكثر الليل وينامون أقله ، ولا يكونون مثل البطالين الغافلين النائمين إلى الصباح . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ صلاة الليل أفضل ؟ قال : « في

نصف الليل ، وقليلٌ فاعله »[١] .

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ السَحَر السُدُسُ الأخير من الليل ، أي : هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . قيل : يا رسول الله كيف الاستغفار ؟ قال : « قولوا : اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » وقال عليه الصلاة والسلام : « توبوا فإني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة » وفي الحديث : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فيقول يارب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » أي : بأن قال : « رب اغفر لي ولوالدي » وفي بعض الأخبار أن أحب أحبائي إليَّ الذين يستغفرون بالأسحار ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض شيئاً ذكرتهم فصرفت بهم عنهم .

وقال الكلبي ومجاهد : وبالأسحار هم يصلون وذلك أن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة وفي الحديث : « من تعارَّ من الليل » هذا من جوامع الكلم لأنه يقال : تعار من الليل إذا استيقظ من نومه مع صوت كذا في الصحاح وهذه اليقظة تكون مع كلام غالباً فأحب النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك الكلام تسبيحاً وتهليلاً ، ولا يوجد ذلك إلا ممن استأنس بالذكر فقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا) أي : بدعاء آخر غير قوله : اللهم اغفر لي استجيب له) . وفي الخبر الصحيح (ينزل الله السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول : أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له ، من الذي يسألني فأعطيه ، من الذي يستغفرني فأغفر له)[٢] وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللهم لك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك »[٣] .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي : نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم أي : يعدونه واجباً عليهم ويلزمونه تقرباً إلى الله وإشفاقاً على الناس فليس المراد بالحق ما أوجبه الله عليهم في أموالهم فاندفع به ما

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في سننه من حديث أبي ذر الغفاري ولفظه (أفضلُ الصلاةِ نصف الليل ، وقليلٌ فاعلُه) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٢١١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وله روايات متعددة ، وانظر جامع الأصول ٤ / ١٣٨ .

(٣) الحديث أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٣٨ .

عسى يقال : كيف يمدح المرء بأنه يثبت في ماله حق للفقرآء فمن يمنع الزكاة من الأغنياء يوجد فيهم هذا المعنى ولا يستحقون المدح ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ لحاجة المستجدي أي : طالب الجدوى والنفع ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي : المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً فيحرم الصدقة ، وفي القاموس : المحروم الممنوع من الخير ومن لا ينمى له مال ، وفي المفردات : أي : الذي لم يوسع عليه في الرزق كما وسع على غيره بل منع من جهة الخير ، وفي بحر العلوم : وإنما خصصه بالسائل والمحروم ولم يذكر سائر المستحقين لأن ذلك حق سوى الصدقة المفروضة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن في المال حقاً سوى الزكاة »[1] انتهى . يعني في المال حق واجب سوى الزكاة وهو الحقوق التي تلزم عندما يعرض من الأحوال من النفقة على الوالدين إذا كانا فقيرين ، وعلى ذي الرحم المحروم ، وما يجب من طعام المضطر ، وحمل المنقطع ، ونحو ذلك : وفي الحديث : « ويلٌ للأغنياء من الفقرآء يوم القيامة يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا فيقول الله : لأُقرِّبنكم اليوم ولأبعدنهم »[2] وتلا الآية فلابد من الإنفاق وهو من أحسن الأخلاق .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ أي : دلائل واضحة على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته من حيث أنها ـ الأرض ـ مدحوة كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين في أقطارها والسالكين في مناكبها ، وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن متفننة ، وأنها تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح ، وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : في أنفسكم آيات ، فيكون تخصيصاً بعد تعميم لأن أنفس الناس مما في الأرض كأنه قيل في الأرض آيات للموحدين العاقلين ، وفي أنفسكم خصوصاً آيات لهم لأن أقرب المنظور فيه من كل عاقل نفسه ومن ولد منها وما في بواطنها وظواهرها من الدلائل الواضحة على الصانع وفي نقلها من هيئة وحال إلى حال من وقت الميلاد إلى وقت الوفاة قال بعضهم :

ففي كل شيء لـــــه آيـــــة * تـــــدل على أنـــــه واحـــــد

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي ألا تنظرون حتى تبصروا بعين البصيرة والفكر ، حتى تعتبروا ، وتستدلوا من الصنعة على الصانع ، ومن الخلق على الخالق ؟ قال قتادة : من تفكَّر في خَلْق نفسه ، عرف أنه إنما خُلق ولُيِّنتْ مفاصله للعبادة.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي : أسباب رزقكم يعني به الشمس والقمر وسائر الكواكب واختلاف

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه عن فاطمة بنت قيس مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١١٤ .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١١٤ .

المطالع والمغارب التي يترتب عليه اختلاف الفصول التي هي مبادىء حصول الأرزاق . أو في السماء تقدير رزقكم وقال ابن كيسان يعني على رب السماء رزقكم كقوله تعالى : (**وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**) ﴿ **وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ من الثواب لأن الجنة على ظهر السماء السابعة تحت العرش قرب سدرة المنتهى ، أو أراد أنَّ كل ما توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب والشدة والرخاء وغيرها مكتوب مقتدر في السماء . يقول الفقير : أمر العقاب ينزل من السماء كالصيحة والقذف والنار والطوفان على ما وقع في الأمم السالفة ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ أقسم الله بنفسه وذكر الرب لأنه في بيان التربية بالرزق ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي : ما توعدون ، أو ما ذكر من أمر الآيات والرزق ﴿ **لَحَقٌّ** ﴾ وفي الأثر : « أبى ابن آدم أن يُصَدِّق ربه حتى أقسم له فقال : فورب إلخ » وقال الحسن : في هذه الآية بلغنى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « قاتل الله أقواماً أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدقوه » انتهى . ولو وعد يهودي لإنسان رزقه وأقسم عليه لاعتمد وقسمه فقاتله الله كيف لا يعتمد على الرزق . قال هرم بن سنان لأويس القرني رضي الله عنه : أين تأمرني أن أكون فأوماً إلى الشام . فقال هرم : كيف المعيشة بها ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها العظة ﴿ **مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** ﴾ أي : كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقيقته . ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ تفخيم لشأن الحديث لأنه استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماعه ومثله لا يكون إلا فيما فيه فخامة وعظيم شأن ، وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله عليه السلام بغير طريق الوحي إذ هو أُمِيٌّ لم يمارس الخط وقراءته ، ولم يصاحب أصحاب التواريخ ففيه إثبات نبوته . وقيل : إنهم كانوا اثني عشر ملكاً منهم جبرآئيل وميكائيل وإسرافيل وتسميتهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم ، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك ﴿ **الْمُكْرَمِينَ** ﴾ صفة للضيف أي : المكرمين عند الله بالعصمة والتأييد والاصطفاء والقربة والسفارة بين الأنبياء كما قال : (**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**) أو عند إبراهيم بالخدمة حيث خدمهم بنفسه وبزوجته ، وأيضاً بطلاقة الوجه وتعجيل الطعام وبأنهم ضيف كريم لأن إبراهيم أكرم الخليقة ، وضيف الكريم لا يكون إلا كريماً ، وفي الحديث : « من آمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » قيل : إكرامه تلقيه بطلاقة الوجه وتعجيل قراه والقيام بنفسه في خدمته ﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ** ﴾ المعنى : هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه ﴿ **فَقَالُوا سَلاَماً** ﴾ أي : نسلم عليك سلاماً ، والفاء هناك إشارة إلى أنهم لم يخلُّوا بأدب الدخول بل جعلوا السلام عقيب الدخول ﴿ **قَالَ** ﴾ إبراهيم ﴿ **سَلاَمٌ** ﴾ أي : عليكم سلام ، فكأن قائلاً قال : ماذا قال إبراهيم في جواب سلامهم ؟ فقيل : قال : سلام أي : حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم لأن تحيتهم كانت بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث حيث نصبوا سلاماً وتحيته بالإسمية الدالة على دوام السلام ونباته لهم ، حيث عدل به إلى الرفع بالابتداء

﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أي : قال إبراهيم في نفسه من غير أن يشعرهم بذلك هؤلاء قوم لا نعرفهم فهم منكرون عند كل أحد ، وقوله فنكرهم أي : بنفسه فقط فأحدهما غير الآخر وكانوا على أوضاع وأشكال خلاف ما عليه الناس وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض لأن السلام لم يكن تحيتهم لأنه كان بين أظهر قوم كافرين لا يحيي بعضهم بعضاً بالسلام الذي هو تحية المسلمين ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي : ذهب إليهم على خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفّه الضيف ويعذره أو يصير منتظراً ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ والمعنى : فذبح عجلاً سميناً لأنه كان عامة ماله البقر ، واختار السمين زيادة في إكرامهم فحنذه أي : شواه فجاء به ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد ليأكلوا فلم يأكلوا ، ولما رأى منهم ترك الأكل ﴿ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ منه إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل وحثاً عليه ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ الوجس الصوت الخفي كالإيجاس وذلك في النفس أي : أضمر في نفسه ﴿ خِيفَةً ﴾ أي : خوفاً فتوهم أنهم أعداء جاؤا بالشر فإن عادة من يجيء بالشر والضرر أن لا يتناول من طعام من يريد إضراره ، قال في عين المعاني : ومن لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك . يقول الفقير ، يخالفه سلامهم فإن المسلم لابد وأن يكون من أهل السلم ، وقيل : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا لعذاب ﴿ قَالُوا ﴾ حين أحسُّوا بخوفه ﴿ لا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله . وقيل : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يمشي حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ ﴾ هو اسحق والغلام الطار الشارب والكهل ضده ﴿ عَلِيمٍ ﴾ عند بلوغه واستوائه ، ولم تلد له سارة غيره ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ والصرَّة : الصيحةُ الشديدة ، أي : حال كونها في صيحة وهو صوت شديد ، وقيل : صرتها قولها أوه ، يا ويلتي أورثّتها ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي : لطمته من الحياء لما إنها وجدت حرارة دم الحيض ، وقيل : ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئاً ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي : أنا عجوز عاقر لم ألد قط في شبابي فكيف ألد الآن ولي تسع وتسعون سنة وسميت العجوز عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور ، وأصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر ، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل . قال في القاموس : العُقم بالضم هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد ، وكانت سارة عقيماً لم تلد قط فلما لم تلد في صغرها وعنفوان شبابها ، ثم كبر سنها وبلغت سنَّ الإياس استبعدت ذلك وتعجبت فهو استبعاد بحكم العادة لا تشكك في قدرة الله سبحانه وتعالى ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾ أي : مثل ذلك الذي بشرناه ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنا نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى لا نحن نقول من تلقاء أنفسنا . أي : لا تستبعدي ما بشرناه به ولا تتعجبي منه فإنه تعالى قال مثل ما أخبرناك به ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً لا محالة .

روي أن جبريل عليه السلام قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة فأيقنت ، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم أيضاً حسبما شرح في سورة الحِجْر وإنما لم يذكر هنا اكتفاء بما ذكر هناك ، كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفي سورة هود وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز اليأس من فضل الله تعالى فإن المقدور كائنٌ ولو بعد حين وقد أورقت وأثمرت شجرة مريم عليها السلام أيضاً وكانت يابسة كما مرَّ في سورة مريم .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أُرسلوا لأمر ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي : شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ متمادين في إجرامهم وآثامهم مصرين عليها والمراد بهم قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بعدما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها ، حسبما فصّله في سائر السور الكريمة ﴿ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أي : طين متحجر وهو ما طبخ فصار في صلابة الحجارة وهو السجيل ، يعني أن السجيل حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوبٌ عليها أسماء القوم ولو لم يقل من طين لتوهم أن المراد من الحجارة البرد بقرينة إرسالها من السماء فلما قيل من طين اندفع ذلك الوهم ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ مرسلة أو معلمة للعذاب من السومة وهي العلامة ، أو معلمة ببياض وحمرة ، أو بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض ، أو باسم من يرمي بها ويهلك ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه التي لا يتصرف فيها غيره تعالى ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المجاوزين الحد في الفجور إذ لم يقنعوا بما أُبيح لهم من النسوان للحرث بل أتوا الذكران ، وعن ابن عباس : أي للمشركين فإن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ كأنه قيل فباشروا ما أُمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك إلخ فهو إخبار من الله وليس بقول جبريل ﴿ مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾ أي : في قرى قوم لوط ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من آمن بلوط ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي : غير أهل بيت ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قيل : هم لوط وابنتاه وأما امرأته فكانت كافرة .

وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر . قال العلماء : يأتي النبي يوم القيامة ومعه أمته ، وآخر معه قومه ، وآخر معه رهطه ، وآخر معه ابنه ، وآخر معه رجل ، وآخر استتبع ولم يتبع ودعا فلم يجب وذلك لإتيانه في الوقت الشديد الظلمة ، وفي الآية إشارة إلى أن المسلم والمؤمن متحدان صدقاً وذاتاً لا مفهوماً ، والمسلم أعمُّ من المؤمن فإن ما من مؤمن إلا وهو مسلم من غير عكس ، والعام والخاص قد يتصادفان في مادة واحدة . وقال بعضهم : الإيمان هو التصديق بالقلب أي : إذعان الحكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً ، والإسلام هو الخضوع والانقياد بمعنى قبول الأحكام والإذعان وهذا حقيقة التصديق كما لا يخفى على من له أدنى عقل وتأمل وإنكار ذلك مكابرة ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي : في تلك القرى

﴿ آيَةً ﴾ علامةً دالةً على ما أصابهم مِنَ العذاب هي تلك الحجارة ، أو ماء أسود منتن خرج من أرضهم ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي : من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية . ﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ عطف على قوله : (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) فقصة إبراهيم ولوط عليهما السلام معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تسلية لرسول الله عليه السلام من تكذيبهم ووعداً له بإهلاك أعدائه الأفاكين كما أهلك قوم لوط أو على قوله : (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) على معنى وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون وإنجائه مما لحق فرعون وقومه من الغرق آية . وإلا فقوله في موسى لا يصح كونه مفعولاً لتركنا إذ لا يستقيم أن يقال : تركنا في موسى آية كما لا يصح أن يقال تركنا في تلك القرية آية ، لأن الترك ينبيء عن الإبقاء فإذا لم يبق موسى كيف يبقى ما جعل فيه ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ صاحب مصر ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة كالعصا واليد البيضاء وغيرهما ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أي : ثنى عطفه وهو كناية عن الإعراض أي : فأعرض عن الإيمان به ، فيكون الركن بمعنى الطرف والجانب والمراد بهما نفسه فإنه كثيراً ما يعبر بطرف الشيء وجانبه عن نفسه ، وفي الصحاح : ركن الشيء جانبه الأقوى كالمنكب بالنسبة إلى الإنسان ، وقيل : فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فإن الركن اسم لما يركن إليه الإنسان ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ والمجنون ذو الجنون وهو زوال العقل وفساده ، كأنه نسب ما ظهر على يديه من الخوارق العجيبة إلى الجن ، وتردد في أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما . وقال أبو عبيدة : أو بمعنى الواو إذ نسبوه إليهما جميعاً كقوله : (إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ ﴾ النبذ : إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به أي : فطرحناهم في بحر القلزم مع كثرتهم كما يطرح أحدكم فيه حصيات أخذها في كفه لا يبالي بها وبزوالها عنه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي : أخذناه والحال أنه آتٍ بما يلام عليه صغيرة أو كبيرةً إذ كل صاحب ذنب ملوم على مقدار ذنبه .

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي : وفي قوم هودٍ آياتٌ إن كان معطوفاً على (وَفِي الأَرْضِ) أو (وَجَعَلْنَا فِيهِمْ آيَةً) على تقدير كونه معطوفاً على قوله : (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على أنفسهم أصالة على دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً ﴿ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ العُقم : بالضم هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد كما في القاموس ، وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، فالعقيم بمعنى المعقم أو العاقر أو وصفت به لأنها لم تتضمن خيراً ما من إنشاء مطر أو إلقاح شجرة . وفي بحر العلوم : ولعله سماها عقيماً لأنها كانت سبب قطع الأرحام من الولادة بإهلاكها إياهم وقطعها دابرهم وهي من رياح العذاب والهلاك وهي النكباء على قول عليّ رضي الله عنه ، وهي التي انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين

الصبا والشمال وهي الدبور على قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ويؤيده قوله عليه السلام : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وهي ريح تقابل الصبا » أي : ريح تجيء من جانب المغرب فإن الصبا تجيء من جانب المشرق وقال ابن المسيب : الريح العقيم هي الجنوب مقابل الشمال وهي ريح تجيء من شمال من يتوجه إلى المشرق ، ﴿ **مَا تَذَرُ** ﴾ أي : ما تترك ﴿ **مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ** ﴾ أي : جرت عليه من أنفسهم ودورهم وأموالهم وأنعامهم ﴿ **إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ كالشيء البالي المتفتت فهو كل ما رم وبلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما أرسل على عاد من الريح إلا مثل خاتمي هذا يعني أن الريح العقيم تحت الأرض فأخرج منها مثل ما يخرج من الخاتم من الثقب فأهلكهم الله به .

﴿ **وَفِي ثَمُودَ** ﴾ أي : وفي قوم صالح آيات ، أو وجعلنا فيهم آية ﴿ **إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا** ﴾ أي : انتفعوا بالحياة الدنيا ﴿ **حَتَّى حِينٍ** ﴾ إلى وقت نزول العذاب وهو آخر ثلاثة أيام الأربعاء والخميس والجمعة فإنهم عقروا الناقة يوم الأربعاء وهلكوا بالصيحة يوم السبت وقد فسر بقوله : (**تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ**) قيل : قال لهم صالح عليه السلام : تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصحبكم العذاب فكان كذلك . وإنما تبدلت ألوانهم بما ذكر لأنهم كانوا كل يوم في الترقي إلى سوء الحال ، ولا شك أن الأبيض يصير أصفر ثم أحمر ثم أسود والسواد من ألوان الجلال والقهر وأيضاً لون جهنم ، فإنها سوداء مظلمة فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنم لأنها مقرُّهم ونعوذ بالله منها (**فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ**) أي : فاستكبروا عن الامتثال به . يقال : عتا عتواً وعتيّاً وعتيَاً : استكبر وجاوز الحد . وأمر ربهم هو ما أُمروا به على لسان صالح عليه السلام من قوله : (**اعْبُدُوا اللهَ**) وقوله : (**فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ**) أو شأن ربهم وهو دينه ، أو صدر عتوهم عن أمر ربهم وبسببه كان أمر ربهم بعبادته وترك الناقة كان هو السبب في عتوهم ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ** ﴾ قيل : لما رأوا العلامات التي بيّنها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسوادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله إلى أرض فلسطين ، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة جبريل عليه السلام كما صرح بها في قوله : (**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**) فهلكوا ، فالمراد بالصاعقة الصيحة لا حقيقتها وهي نار تنزل من السماء فتحرق ما أصابته ، وقيل : أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم . وقال بعضهم : أهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم جميعاً ﴿ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** ﴾ إليها ويعاينونها لأنها جاءتهم معاينة بالنهار فينظرون من النظر بالعين ، وفيه ترجيح لكون المراد بالصاعقة حقيقة النار لأنها حين ظهرت رأوها بأعينهم والصيحة لا ينظر إليها وإنما تسمع بالأذن ، والظاهر أن الصاعقة لا تنافي أن

يكون معها صيحة جبريل ، وقيل : هو من الانتظار أي : ينتظرون ما وعدوا به من العذاب حيث شاهدوا علامات نزوله من تغير ألوانهم في تلك الأيام ، ويقال : سمعوا الصيحة وهم ينظرون أي يتحيرون ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ كقوله تعالى : (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) أي : لاصقين بمكانهم من الأرض لا يقدرون على الحركة والقيام فضلاً عن الهرب ، فالقيام ضد القعود ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي : وأهلكنا قوم نوح ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هؤلاء المهلكين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي وهو علة لإهلاكهم ، واعلم أن الله تعالى قد أرسل الرسل وشرع الشرائع وحدَّ الحدود فمتى تعديت الحد الذي حدَّ لك الشارع صرت فاسقاً وأطعت الشيطان وتنحى عنك عند العصيان الملك المؤيد للمؤمنين فإذا وكل العبد إلى نفسه وإلى الشيطان فقد هلك .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أي : بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق ، أو لموسعون في السماء أي : جاعلوها واسعة أو ما بينها وبين الأرض ، أو الرزق على خلقنا لقوله تعالى : (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ) ﴿ وَالأَرْضَ ﴾ أي : وفرشنا الأرض ﴿ فَرَشْنَاهَا ﴾ مهدناها وبسطناها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أي : نحن ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من أجناس الموجودات فالمراد بالشيء الجنس وقيل من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار ... إلخ ، تنبيهاً على أنه وإن لم يكن له ضد ولا مثل فإنه لا ينفك من تركيب صورة ومادة وذلك زوجان ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فعلنا ذلك كله من البناء والفرش وخلق الأزواج كي تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ﴾ أي : قل لقومك يا محمد : إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه ، يعني أن في الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة بلفظ الفرار تنبيهاً على أن ورآء الناس عقاباً يجب أن يفروا منه ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : إني لكم من جهته تعالى منذر بيِّن كونه منذراً منه تعالى بالمعجزات الباهرة أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به وفي أمره للرسول ﷺ بأن يأمرهم بالهرب إليه من عقابه وتعليله بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب ﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ نهي موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار نفسه ، كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً أو تقولوا إلهاً آخر ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أي : من الجعل المنهي عنه ﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وفيه تأكيد لما قبله من الفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير بل بالنهي عن سببه وإيجاب الفرار منه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : الأمر وهو أمر

الأمم السالفة بالنسبة إلى رسلهم من ما ذكر من تكذيب قريش ومشركي العرب الرسول ﷺ وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ثم فسره بقوله ﴿ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ من رسل الله ﴿ إِلا قَالُوا ﴾ في حقه هو ﴿ سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ ﴾ أي : فلا تأسَ على تكذيب قومك إياك ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تفرق أزمانهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلاً عن التفوه بها في حق الأنبياء أي : أوصى الأولون الآخرين بعضهم بعضاً بهذا القول حتى اتفقوا عليه ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك لبعد الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصي وأشنع منه وهو الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء والاستكبار ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ على التولي بعدما بذلت المجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود ، واللوم والملامة العذل ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي : افعل التذكير والموعظة ولا تدعها بالكلية أو فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الأمر ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : الذين قدر الله إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوةً في اليقين ، فلا كلام إلا في الاستعداد والتهيء للاستماع ولذا قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والعبادة أبلغ من العبودية لأن العبودية إظهار التذلل والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود ، ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها أتمَّ استعداد ومتمكنين منها أكمل تمكين مع كونها مطلوبة منهم وهي رحمةٌ منه تعالى وتفضلٌ على عباده . قال بعضهم : (إِلا لِيَعْبُدُونِ) أي : ليعرفون .

وقال في بحر العلوم : أي وما خلقت هذين الفريقين إلا لأجل العبادة وهي قيام العبد بما تعبد به وكلف من امتثال الأوامر والنواهي ، أو إلا لأطلب العبادة منهم وقد طلب من الفريقين العبادة في كتبه المنزلة على أنبيائه . وقد ذهب أهل السنّة إلى حمل هذه الآية على الأمر التكليفي الطلبي دون الأمر الإرادي وإلا لم يتخلف المراد عن الإرادة ، فإن قلت : ما فائدة التكليف والأمر بما يعلم عدم وقوعه ؟ قلت : فائدة تمييز من له استعداد القبول ممن ليس له استعداد ذلك لتظهر السعادة والشقاوة وأهلها . قال ابن الملك فإن قلت : كيف تكون العبادة علة للخلق ولم تحصل تلك في أكثر النفوس ؟ قلنا : يجوز أن يُراد من النفوس نفوس المؤمنين لقرآءة ابن عباس رضي الله عنهما : وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون ، وأن يراد مطلقها بأن يكون المراد بالعبادة قابلية تكليفها كما قال ﷺ : « ما من مولود

يولد إلا على الفطرة » . والحاصل أنهم خلقوا للعبادة تكليفاً واختياراً لا جبلة وإجباراً فمن وفقه وسدده أقام العبادة التي خلق لها ومن خذله وطرده حرمها وعمل بما خلق له وفي الحديث : « اعملوا فكل ميسر لما خُلِق له » . فينبغي للعبد أن يعبد ربه ويتذلل لخالقه بأي وجه كان من الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات على الوجه الذي أمره أن يقوم فيه فإذا كملت فرآئضه وكلها فرض عليه فيتفرغ فيما بين الفرضين لنوافل الخيرات كانت ما كانت ولا يحقر شيئاً من عمله فإن الله ما احتقره حين خلقه وأوجبه ، فإن الله ما كلفك بأمر إلا وله بذلك الأمر اعتناء وعناية حتى كلفك به وإذا واظب على أدآء الفرآئض فإنه يتقرب إلى الله بأحب الأمور المقربة إليه وورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته وما يزال العبدُ يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبَصَرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » القرب الأول هو قرب الفرائض ، والقرب الثاني هو قرب النوافل فانظر إلى ما تنتجه محبة الله من كون الحق تعالى قوّى العبد من السمع والبصر واليد والرجل فواظب على أدآء ما يصحُّ به وجود هذه المحبة الإلهية من الفرائض والنوافل ، ولا يصح نفل إلا بعد تكملة الفرائض ، وفي النفل عينه فروض ونوافل فيما فيه من الفروض تكمل الفرآئض ، ورد في الخبر الصحيح : « أنه تعالى يقول انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال الله تعالى : أكملوا لعبدي فريضته من تطوعه » ، واعلم أن أمرنا بالاقتداء بالنبي سنّة حسنة فإن لنا أجرها وأجر من عمل بها وإذا تركنا تسنينها اتباعاً لكون رسول الله ﷺ لم يسنها فإن أجرك في اتباعك له في ترك التسنين أعظم من أجرك في التسنين فإن النبي ﷺ كان يكره كثرة التكليف على أمته ، ومن سنَّ فقد كلف ، وكان النبي ﷺ أولى بذلك ولكن تركه تخفيفاً فلهذا قلنا : الاتباع في الترك أولى وأعظم أجراً من التسنين ، فاجعل حالك كما ذكرنا لك ولقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : أنه ما أكل البطيخ فقيل له في ذلك فقال : ما بلغني كيف كان رسول الله ﷺ يأكله ، فلما لم تبلغ إليه الكيفية في ذلك تركه وبمثل هذا يقدم علماء هذه الأمة على علماء سائر الأمم فهذا الإمام علم وتحقق قوله تعالى عن نبيه ﷺ : (**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**) وقوله : (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) والاشتغال بما سنَّ من فعل وقول وحال أكثر من أن نحيطه به ونحصيه فكيف أن نتفرغ لنسنَّ فلا تكلف الأمة أكثر مما ورد ﴿ **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ** ﴾ أي : من الجن والإنس في وقت من الأوقات ﴿ **مِنْ رِزْقٍ** ﴾ لي ولا لأنفسهم ولا لغيرهم يحصلونه بكسبهم ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** ﴾ ولا لأنفسهم ولا غيرهم وأصله أن يطعموني بياء المتكلم وهو بيان لكون شأنه تعالى مع

عباده متعالياً عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم ، فإن منهم من يحتاج إلى كسب عبده في نيل الرزق ، ومنهم من يكون له مال وافر يستغني به عن حمل عبده على الاكتساب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه من طبخ الطعام وإصلاحه وإحضاره بين يديه ، وهو تعالى مستغنٍ عن جميع ذلك . ونفع العباد وغيره إنما يعود عليهم والمعنى : ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم ولا في تهيئته بل أتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم من عندي ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ، وفي الآية تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يحضرون لها المأكل فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها ، وهذه الآية دليل على أن الرزق أعم من الأكل ﴿ **إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ** ﴾ تعليل لعدم إرادة الرزق منهم وهو من قصر الصفة على الموصوف ، أي لا رزاق إلا الله الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق وفيه تلويح بأنه غني عنه ﴿ **ذُو القُوَّةِ** ﴾ على جميع ما خلق تعليل لعدم إرادته منهم أن يعملوا ويسعوا في إطعامه لأن من يستعين بغيره في أموره يكون عاجزاً لا قوة له ﴿ **المَتِينُ** ﴾ الشديد القوة لأن القوة تمام القدرة والمتانة شدتها .

قال الإمام الغزالي رحمه الله في شرح الأسماء : الرزاق هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها ، والرزق رزقان : ظاهر ، وهي الأقوات والأطعمة وذلك للظاهر وهي الأبدان . وباطن : وهي المعارف والمكاشفات وذلك للقلوب والأسرار وهذا أشرف الرزقين فإن ثمرتها حياة الأبد ، وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد ، والله تعالى هو المتولي لخلق الرزقين والمتفضلُ بالإيصال إلى كلا الفريقين ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وغاية حظ العبد من هذا الوصف أمران : أحدهما : أن يعرف حقيقة هذا الوصف وأنه لا يستحقه إلا الله تعالى فلا ينتظر الرزق إلا منه ولا يتوكل فيه إلا عليه ، كما روى عن حاتم الأصم أنه قال له رجل : من أين تأكل ؟ فقال : من خزانته فقال الرجل : أنتم تقولون الكلام ، فقال : لم ينزل من السماء إلا الكلام ، فقال الرجل : أنا لا أقوى لمجادلتك ، فقال : لأن الباطل لا يقوم مع الحق . والثاني : أن يرزقه علماً هدياً ولساناً مرشداً ويداً منفقة متصدقةً ويكون سبباً لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله وأعماله وإذا أحب الله تعالى عبداً أكثر حوائج الخلق إليه ومهما كان واسطة بين الله وبين العباد في وصول الأرزاق إليهم فقد نال حظاً من هذه الصفة قال رسول الله ﷺ : « الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به طيبة به نفسه أحد المتصدقين » وأيدي العباد خزائن لله فمن جعلت يده خزانة أرزاق الأبدان ، ولسانه خزانة أرزاق القلوب فقد أكرم بشوب من هذه الصفة انتهى كلام الغزالي . وقال الغزالي أيضاً في شرح الاسمين : القوي المتين القوة تدل على القدرة التامة ، والمتانة تدل على شدة القوة ، والله تعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامها

قوي ، ومن حيث إنه شديد القوة متين ، وذلك يرجع إلى معنى القدرة ، انتهى .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله ﷺ أو وضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم أهل مكة ﴿ ذَنُوباً ﴾ أي : نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية ، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي : لا يطلبوا مني أن أعجل في المجيء به لأن له أجلاً معلوماً فهو نازل بهم في وقته المحتوم ، وكان النضَّرين الحارث يستعجل بالعذاب فأمهل إلى بدر ثم قتل في ذلك اليوم وصار إلى النار فعذب أولاً بالقتل ثم بالنار ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الويلُ أشدُّ من العذاب والشقاء والهم ، ويقال : وادٍ في جهنم ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ مِن يوم بدر ، وقيل : يوم القيامة وهو الأنسب لما في صدر السورة الآتية . والأول هو الأوفق لما قبله من حيث أنها من العذاب الدنيوي ، وأيّاً ما كان فالعذاب آتٍ وكل آتٍ قريب كما قالوا . فعلى العاقل أن يتعجل في التوبة والإنابة حتى لا يلقى الله عاصياً ، ولا يتعجل في الموت فإنه آتٍ البتة وفي الحديث : « لا يتمنينَّ أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً »[1] أي : فإنه إن كان محسناً فلعله أن يزداد خيراً وإن كان مسيئاً فلعل الله يرزقه الإنابة .

تمت سورة الذاريات بعون خالق البريات

● ● ●

(١) الحديث رواه مسلم في الذكر والدعاء برقم / ٢٦٨٢ / وأحمد في المسند ، ورواه البخاري بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٥٥ والفتح الكبير ٣ / ٣٥٣ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **وَالطُّورِ** ﴾ الواو للقسم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الطور كل جبل ينبت قال الشاعر :

لو مر بالطور بعض ناعقة * ما أنبت الطور فوقه ورقه

وفيه منابع ومنافع ، وقيل : بل هو جبل محيط بالأرض . والأظهر الأشهر أنه اسم جبل مخصوص وهو طور سنين يعني الجبل المبارك وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ولذا أقسم الله تعالى به ﴿ **وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ** ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به القرآن ، أو ألواح موسى وهو الأنسب بالطور ، أو ما يكتب في اللوح ، أو ما يكتبه الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً ، فآخذٌ بيمينه وآخذ بشماله نظيره قوله تعالى : (**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً**) ﴿ **فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ** ﴾ الرق : الجلد الذي يكتب فيه ، وسمي رقاً لأنه مرقق ، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان كما في فتح الرحمن . وقال في القاموس : الرق ويكسر جلد رقيق يكتب فيه وضدُّ الغليظ كالرقيق والصحيفة البيضاء ، انتهى . والمنشور المبسوط وهو خلاف المطوي . وقيل : منشور مفتوحٌ لا ختم عليه ، وتنكيرهما للتفخيم أو الإشعار بأنها ليسا مما يتعارفه الناس ﴿ **وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ** ﴾ أي : الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمّار والمجاورين ، أو الضراح يعني اسم البيت المعمور الضراح ، وهو حِيال الكعبة ، وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة ولا يعودون إليه أبداً ، وحرمتُه في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ، ولقد رأى النبي ﷺ ليلة المعراج إبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي هو بإزآء الكعبة وإليه تحج الملائكة ﴿ **وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ** ﴾ يعني : السماء المرفوع عن الأرض مقدار خمسمائة عام ، قال تعالى : (**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً**) ﴿ **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ﴾ أي : المملوء وهو البحر المحيط الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنقطعة وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى ، والبحار التي على وجه الأرض خلجان منه ، وقال بعض المفسرين : والبحر المسجور أي الموقد من قوله تعالى : (**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**) ، وكل ماء كثير بحر . (روي) أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة ناراً يُسجّر بها نار جهنم ، وفي الحديث : « لا يركبنَّ رجلٌ بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً ، فإن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٦١ .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي : لنازل حتماً وهو جواب للقسم ، قال في فتح الرحمن : المراد عذاب الآخرة للكفار لا العذاب الدنيوي ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ يدفعه وهو كقوله تعالى : (لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ) وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها من أمور عظام ، تنبيء عن عظم قدرة الله وكمال علمه وحكمته الدالة على إحاطته بتفاصيل أعمال العباد وضبطها ، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها ، وقال جبير بن مطعم : « قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور ، وصوتُه يخرج من المسجد فلما بلغ إلى قوله تعالى : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) فكأنّما صُدع قلبي حين سمعته ، فكان أول ما دخل في قلبي الإسلام ، فأسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب ، وما كنت أظنّ أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب » [1] ومثل هذا التأثير وقع لعمر رضي الله عنه حين بلغ دار الأرقم فسمع النبي ﷺ يقرأ سورة طه فلانَ قلبه وأسلم ، فالقلوب المتهيئة للقبول تتأثر بأدنى شيء خصوصاً إذا كان الواعظ هو القرآن العظيم ، أو التالي هو الرسول الكريم ، أو وارثه المستقيم ، وأما القلوب القاسية فلا ينجع فيها الوعظ كما لم ينجع في قلب أبي جهل ونحوه .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ﴾ المَوْر : الاضطراب والتردد في المجيء والذهاب والجريان السريع ، أي : تضطرب وتجيء وتذهب . قيل : تدور السماء كما تدور الرحى ، وتتكفأ بأهلها تكفأ السفينة ، وقيل : يختلج أجزاؤها بعضها في بعض ويموجُ أهلها بعضهم في بعض ويختلطون وهم الملائكة وذلك من الخوف ﴿ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً ﴾ أي : تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً ، وقال بعضهم : تسير الجبال كما تسير السحاب ، ثم تنشق أثناء السير حتى تصير آخره كالعهن المنفوش لهول ذلك اليوم ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : إذا وقع ذلك المَوْر والسير وإذا كان الأمر كما ذكر فويلٌ وشدةٌ عذاب يوم إذ يقع لهم ذلك ، وهو لا ينافي تعذيب غير المكذبين من أهل الكبائر لأن الويل الذي هو العذاب الشديد إنما هو للمكذبين بالله ورسوله وبيوم الدين لا لعصاة المؤمنين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ أي : اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ يلهون ويتشاغلون بكفرهم ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً ﴾ الدعّ : الدفع الشديد وأصله أن يقال للعاثر : دع دع . أي : يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً ، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم وفي أقفيتهم حتى يردوها ﴿ هَذِهِ النَّارُ ﴾ أي : يقال لهم من قبل خزنة النار : هذه النار ﴿ الَّتِي كُنْتُمْ ﴾ في الدنيا : ﴿ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : تكذبون الوحي الناطق بها ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ توبيخ وتقريعٌ لهم حيث كانوا يسمونه سحراً ، كأنه قيل : كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر ، فهذا المصداق أي : النار

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان بنحوه ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٣٩٣ .

سحر أيضاً . وأحوال الآخرة ومشاهدتها تصدق أقوال الأنبياء في الإخبار عنها يعني أن الذي ترونه من عذاب النار حق ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴾ أي : أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر أو أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون : (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) ﴿ إِصْلَوْهَا ﴾ أي : ادخلوها وقاسوا حرَّها وشدائدها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ﴾ فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا خلاص لكم منها وهذا على جهة قطع رجائهم .

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ المعنى : سواءٌ عليكم الأمران أجزعتم أم صبرتم في عدم النفع لا بدفع العذاب ولا بتحفيفه ، إذ لابد أن يكون الصبر حين ينفع وذلك في الدنيا لا غير ، فمن صبر هنا على الطاعات لم يجزع هناك ، إذ الصبر وإن كان مرّاً لكن آخره حلو ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء على كفرهم وأعمالهم القبيحة ، حيث كان واجب الوقوع حتماً بحسب الوعيد لامتناع الكذب على الله ، كان الصبر وعدمه سواءً في عدم النفع . وفي التأويلات النجمية : إنما تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من الخير والشر ، لا الذي تعملون في الآخرة من الصبر والخضوع ، والخشوع والتضرع والدعاء ، فإنه لا ينفع شيء منها والحاصل أن يقال : (اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونَ) انتهى . ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ النعيم الخفض والدعة ، والتنعم الترفه . والمعنى : في جنّاتٍ ونعيم أي في أية جناتٍ وأي نعيم بمعنى الكامل في الصفة ، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ناعمين متلذذين . وفي القاموس : الفاكه صاحب الفاكهة وطيب النفس الضحوك والناعم الحسن العيش كما أن الناعمة والمنعمة الحسنة العيشة ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ في فتح الرحمن : من إنعامه ورضاه عنهم وذلك أن المتنعم قد يستغرق في النعم الظاهرة وقلبه مشغول بأمر ما فلما قال : (فَاكِهِينَ) تبيّن أن حالهم محض سرور وصفاء وتلذذ ولا يتناولون شيئاً من النعيم إلا تلذذاً لا لدفع ألم جوع أو عطش ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ الوقاية حفظُ الشيء مما يؤذيه ويضره ، والجحمة : شدة تأجج النار ، ومنه : الجحيم أي : جهنم ، والمعنى : متلذذين بسبب إيتاء ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أي : يقال لهم من قبل خزنة الجنة دائماً : كلوا واشربوا أكلاً وشرباً ﴿ هَنِيئَاً ﴾ الهنيء والمريئ : صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تكدير فيه أي : كان بحيث لا يورث الكدر من التخم والسقم وسائر الآفات كما يكون في الدنيا ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسببه أو بمقابلته ، قال في فتح الرحمن : معناه أن رتب الجنة ونعيمها هي بحسب الأعمال ، وأما نفس دخولها فهو برحمة الله وتغمده والأكل والشرب والتهني ليس من الدخول في شيء ، وأعمال العباد الصالحة لا توجب على الله التنعيم إيجاباً لكنه قد جعلها إمارة على من سبق في علمه تنعيمه وعلّق الثواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال .

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ أي : معتمدين ومستندين ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ جمع سرير وهو الذي يجلس عليه وهو من السرور إذا كان ذلك لأولي النعمة ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ مصطفة قد صُفَّ بعضها إلى جنب بعض ، أو مرمولة أي مزينة بالذهب والفضة والجواهر . والظاهر : أن جمع السرر مبني على أن يكون لكل واحد منهم سرر متعددة مصطفة معدة لزائريهم فكل من اشتاق إلى صديقه يزوره في منزله ، قال الكلبي : صف بعضها إلى بعض طولها مائة ذراع في السماء يتقابلون عليها في الزيارة وإذا أراد أحدهم القعود عليها تطامنت واتضعف فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ واحد الحور حوراء ، وواحد العين عيناء ، وإنما سمين حور لأن الطرف يحارُ في حسنهن ، وعيناً لأنهن الواسعات الأعين مع جمالها .

قال الراغب : وقرناهم بهن ولم يجيء في القرآن (زَوَّجْنَاهُمْ حُورَاً) كما يقال : زوجته امرأة تنبيهاً على أن ذلك لم يكن على حسب التعارف فيما بيننا من المناكح انتهى . قال في فتح الرحمن : وقرناهم وليس في الجنة تزويج كالدنيا انتهى ، يعني أن الجنة ليست بدار تكليف ، فشأن تزوج أهل الجنة بالحور بقبول بعضهم بعضاً لا بأن يعقد بينهم عقد النكاح .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ والمعنى : واتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة قاصرين عن رتبة إيمان الآباء واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقاً ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : أولادهم الصغار والكبار في الدرجة كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إنه تَعَالى يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّبهم عينه »[1] أي : يكمل سروره ، ثم تلا هذه الآية ، وفيها دلالة بينة على أن الولد الصغير يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه وتحقيقاً للحوقه به فإنه تعالى إذا جعلهم تابعين لآبائهم ولاحقين بهم في أحكام الآخرة ، فينبغي أن يكونوا تابعين لهم ولاحقين بهم في أحكام الدنيا أيضاً . قال في فتح الرحمن : إن المؤمنين اتبعتهم أولادهم الكبار والصغار بسبب إيمانهم فكبارهم بإيمانهم بأنفسهم وصغارهم بأن اتبعوا في الإسلام بآبائهم بسبب إيمانهم لأن الولد يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه إذا أسلم وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ، وقال مالك : يحكم بإسلامه تبعاً لإسلام أبيه دون أمه ، وأما إذا مات أحد أبويه في دار الإسلام ، فقال أحمد : يحكم بإسلامه وهو من مفردات مذهبه خلافاً للثلاثة ، واختلفوا في إسلام الصبي المميز ورِدَّته فقال الثلاثة : يصحان منه ، وقال الشافعي : لا يصحان . ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق وإلا لأبغضوهم في الدنيا شحاً ، قال في القاموس : ألته حقاً يألته نقصه كآلته إيلاتاً ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ ﴾ من ثواب عملهم ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ والمعنى :

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً ، ورواه البزار مرفوعاً ، مختصر ابن كثير ٣ / ٣٩١ .

ما نقصناهم من عملهم شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءَهم ، فتنتقص مثوبتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى درجتهم ومنزلتهم بمحض التفضل والإحسان .

وقال الإمام محمد : إن الإمام الأعظم توقف في أطفال المشركين والمسلمين ، والمختار : أن أطفال المسلمين في الجنة ، وأما ما رُوي أنه توفي صبي من الأنصار فَدُعي النبي عليه الصلاة والسلام إلى جنازته فقالت عائشة رضي الله عنها : طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، فقال عليه الصلاة والسلام « أو غير ذلك أي ـ أتعتقدين ما قلت والحق غير الجزم به ـ إن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ، ولهذه أهلاً » [١] فإنما نهاها عن الحكم على معين بدخول الجنة كما في شرح المشارق لابن الملك . وقال مولى رمضان في شرح العقائد : ولا يُشْهدُ بالجنة والنار لأحد بعينه ، بل يشهد بأن المؤمنين من أهل الجنة والكافرين من أهل النار ، وكذا أطفالهم تبعاً لهم ، وقيل : هم في الجنة إذ لا إثم لهم ، وقيل : هم في الأعراف ، ووجهه أن عدم التيقن لعدم العلم بخاتمته وإذا مات ولد المؤمن طفلاً فخاتمته الإيمان لا محالة تبعاً لأبيه ، إلا أن يكون تابعاً لخاتمة أبيه وهي غير معلومة ، انتهى . واختار البعض في أطفال المشركين كونهم خدام أهل الجنة كما في هدية المهديين والأكثرون على أنهم في النار تبعاً لآبائهم . وقال آخرون : إنهم في الجنة لكونهم غير مكلفين ، وتوقف فيه طائفة وهو الظاهر كما في شرح المشارق لابن الملك ، وبقي قول آخر وهو : أن الصبيان والمجانين وأهل الفترة يرسل إليهم يوم القيامة رسولٌ من جنسهم ويدعون إلى الإيمان ، ويُمتحن المؤمن بإيقاع نفسه في نارٍ هناك ، فمن قبل الدعوة ولم يمتنع عن إيقاع نفسه خلص ، لأنها ليست بنارٍ حقيقة ، وإلاَّ دخل النار أي جهنم لأنه لم يطع الجبار .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ ﴾ بالغ عاقل مكلف ﴿ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ والرهن : ما يوضع وثيقه للدَّين ، ولما كان الرهن يتصور منه حبسه استعير ذلك للمحتبس أي شيء كان ، والعمل الصالح بمنزلة الدَّين الثابت على المرء من حيث أنه مطالب به ونفسُ العبد مرهونة به فكما أن المرتهن ما لم يصل إليه الدين لا ينفك منه الرهن كذلك العمل الصالح ما لم يصل إلى الله لا تتخلص نفس العبد المرهونة ، فالمعنى : كل امرىء مرهون عند الله بالعمل الصالح الذي هو دين عليه فإن عمله وأداه كما هو المطلوب منه فك رقبته من الرهن وإلا أهلكها . وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام لكعب ابن عجرة رضي الله عنه : « لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ، وكل لحم نبت من السحت ـ أي الحرام ـ فالنار أولى به يا كعب بن عجرة ، الناس صنفان : فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » [٢] وقال مقاتل : كل امرىء كافر بما

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عائشة مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٢١ .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي بنحوه ، وأوله « أعيذك ياكعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي .. وفيه « لا يربو لحمٌ نبتَ من سُحْتٍ إلا كانت النار أولى به » وانظر جامع الأصول ٤ / ٧٥ .

عمل من الشرك مرهون في النار ، والمؤمن لا يكون مرتهناً لقوله تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون المعنى : كل امرىء بما كسب رهين أي : دآئم ثابت مقيم ، إن أحسن ففي الجنة مؤبد ، أو إن أساء ففي النار مخلد ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ أصل المد الجر . وفي القاموس : الإمداد تأخير الأجل وأن تنصر الأجناد بجماعة غيرك والإعطاء والإغاثة ﴿ بِفَاكِهَةٍ ﴾ هي الثمار كلها ﴿ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وإن لم يصرحوا بطلبه والمعنى : وزدناهم على ما كان من مبادىء التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وضروب الآلاء ، وتنوين فاكهة للتكثير أي : بفاكهة لا تنقطع كلما أكلوا ثمرة عاد مكانها مثلها وما في (مَا يَشْتَهُونَ) للعموم لأنواع اللحمان ، وفي الخبر : إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخرُّ بين يديك مشوياً ، وقيل : يقع الطائر بين يدي الرجل في الجنة فيأكل منه قديداً ومشوياً ثم يطير إلى النهر ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا ﴾ والمراد بالتنازع هنا التعاطي والتداول على طريق التجاذب يعني : تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبة ، وفيه نوع لذة إذ لا يتصور في الجنة التنازع بمعنى التخاصم . والمعنى : يتعاطون في الجنات ويتداولون هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿ كَأْساً ﴾ والكأسُ : قدح فيه شراب ولا يسمى كأساً ما لم يكن فيه شراب ، كما لا تسمى مائدة ما لم يكن عليها طعام . والمعنى (كأساً) أي : خمراً تسمية لها باسم محلها ﴿ لا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي : في شربها حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ، قال ابن عطاء : أي : لغو يكون في مجلس محله جنة عدن والساقي فيها الملائكة وشربهم ذكر الله وريحانهم تحية من عند الله مباركة طيبة والقوم أضياف الله . قال الراغب : اللغو من الكلام ما لا يعتدُّ به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللَّغا ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور ﴿ وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون ما يأثم به فاعله أي ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والسبِّ والفواحش كما هو ديدن المنادمين في الدنيا وإنما يتكلمون بالحِكَم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام لأن عقولهم ثابتة غير زائلة .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ الطوافُ : المشي حول الشيء ، ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً أي : ويدور على أهل الجنة بالكأس ، وقيل : بالخدمة ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ جمع غلام وهو الطريُّ الشارب أي : مماليك مخصوصون بهم لم يضفهم بأن يقول غلمانهم لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدمه أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن لكونه لا يزال تابعاً ، وأفاد التنكير أن كل من دخل الجنة وجد له خدماً لم يعرفهم كما في حواشي سعدي المفتي ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ أي : كأنهم في البياض والصفاء لؤلؤ مصون في الصدف لأنه رطباً أحسن وأصفى إذ لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه غبار ، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة ، وفي بعض الآثار : إن أدنى

أهل الجنة منزلة ، من ينادي الخادم من خدامه ، فيجيبه ألف ببابه : لبَّيك لبيك ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ أي : يسأل كل بعضٍ منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله من الكرامة ، وذلك تلذذاً واعترافاً بالنعمة العظيمة على حسب الوصول إليها على ما هو عادة أهل المجلس يشرعون في التحادث ليتم به استئناسهم فيكون كل بعض سائلاً ومسؤلاً لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي : المسئولون وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ** ﴾ أي : قبل دخول الجنة ﴿ **فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى ، معتنين بطاعته ، أو وجلين من العاقبة ، قيد بقوله (**فِي أَهْلِنَا**) فإن كونهم بين أهليهم مظنة الأمن فإذا خافوا في تلك الحال فلأن يخافوا في سائر الأحوال والأوقات أولى . يقول الفقير : الظاهر أن هذا الكلام وارد على عرف الناس ، فإنهم يقولون شأننا بين قومنا وقبيلتنا كذا ، فهم كانوا في الدنيا بين قبائلهم وعشائرهم على صفة الإشفاق ، وفيه تعريض بأن بعض أهلهم لم يكونوا على صفتهم ولذا صاروا محرومين ، ويدل على هذا أن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد وبالعبيد والإماء وبالأقارب وبالأصحاب ﴿ **فَمَنَّ اللَّهُ** ﴾ أي : أنعم ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ بالرحمة والتوفيق للحق . يقول الفقير : الظاهر أنَّ المنَّ والإنعام إنما هو بالجنة ونعيمها كما دلَّ عليه قوله : ﴿ **وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** ﴾ أي : حفظنا من عذاب النار النافذة في المسامّ . أي : ثقب الجسد كالمنخر والفم والأذن نفوذ السموم وهي الريح الحارة التي تدخل المسامّ ، فأطلق على جهنم لنفوذ حرها في المسامَ كالسموم . وفي المفردات : السَّموم الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم ﴿ **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : من قبل لقاء الله والمصير إليه يعنون في الدنيا ﴿ **نَدْعُوهُ** ﴾ أي : نعبده أو نسأله الوقاية ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ** ﴾ أي : المحسن ﴿ **الرَّحِيمُ** ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبد أثاب وإذا سُئل أجاب . قال الراغب : البر خلاف البحر وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أي التوسع في فعل الخير ، وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى نحو : (**إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**) ، وإلى العبد تارة فيقال : بر العبدُ ربَّه أي : توسع في طاعته فمن الله الثواب ، ومن العبد الطاعة . قال في شرح الأسماء : من عرف أنه هو البر الرحيم رجع إليه بالرغبة في كل حقيرٍ وعظيمٍ فكفاه ما أهمَّه ببره ورحمته .

﴿ **فَذَكِّرْ** ﴾ أي : فاثبت على ما أنت عليه من تذكير المشركين بما أُنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم ، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل ﴿ **فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ** ﴾ أي : بسبب إنعامه بصدق النبوة وزيادة العقل ، أو ما أنت بكاهنٍ حال كونك منعماً عليك به ﴿ **بِكَاهِنٍ** ﴾ كما يقولون قاتلهم الله وهو من يبتدع القول ويخبر عما سيكون في غد من غير وحي . وفي المفردات : الكاهن الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ، كالعرَّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك. ولكون هاتين الصناعتين مبنيتيْن على الظن الذي يخطيء ويصيب . قال عليه الصلاة والسلام : « مَن

أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال ، فقد كفر بما أُنزل على محمد »[١] .

﴿ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ وهو من به جنون وهو زوال العقل ، أو فساده . يقول الفقير : في الآية تشريف للنبي عليه الصلاة والسلام جداً حيث أن الله تعالى ناب عنه في الجواب وردَّ الكافرين بنفسه ، وهو أيضاً تصريح بما علم التزاماً فإن الأمر بالتذكير الذي هو متعلق بالوحي وإن كان مقتضاه كمال العقل والصدق في القول يقتضي أن لا يكون عليه الصلاة والسلام كاهناً ولا مجنوناً ، فهذا النفي بالنسبة إلى ظاهر الحال فإنه لا يخلو من دفع الوهم وتمكين التصديق ، ونظيره كلمة الشهادة فإن قوله لا إله نفي للوجود المتوهم الذي يتوهمونه وإلا فلا شيء غير الإثبات فافهم والله المعين .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أم المكررة في هذه الآيات منقطعة بمعنى : بل والهمزة ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار ، ونقل البغوي عن الخليل أنه قال ما في سورة الطور من ذكر ـ أم ـ كله استفهام وليس بعطف ، يعني ليست بمنقطعة . وقال في برهان القرءآن : أعاد (أَمْ) خمس عشرة مرة وكلها إلزامات وليس للمخاطبين بها عنها جواب ، وفي عين المعاني : أم ههنا خمسة عشر وكله استفهام ، أربعة للتحقيق على التوبيخ بمعنى بل (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ) (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ) وقد قالوها ، و(أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) و (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً) وقد فعلوها ، وسائرها للإنكار ، وقيل : جميع ما في هذه السورة من ذكر « أم » استفهام غير عاطفة واستفهم تعالى مع علمه بهم تقبيحاً عليهم وتوبيخاً لهم ، كقول الشخص لغيره : أجاهل أنت ؟ مع علمه بجهله ﴿ شَاعِرٌ ﴾ أي : هو شاعر ، وقد ظنوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يرجو الأجر على التبليغ ولذا قال تعالى : (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) فكان عليه الصلاة والسلام عندهم بمنزلة الشاعر ، حيث أن الشاعر إنما يستجلب بشعره في الأغلب المال ، وأيضاً لما كانوا يعدون الشعر دناءة حملوا القرآن عليه ، ومرادهم عدم الاعتداد به فإن قلت : كيف كانوا يعدون الشعر دناءة وقد اشتهر افتخارهم بالقصائد حتى كانوا يعلقونها على جدار الكعبة ؟ قلت : كان ذلك من كمال عنادهم أو جرياً على مسلك أهل الخطابة من الأوآئل ، أو قالوا ذلك لأن الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن والمجنون ، وقد قيل : « أحسن الشعر أكذبه » وكانوا يقولون لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره ، وإنا نصبر ونتربص موته وهلاكه كما هلك من قبله الشعراء وحينئذ تتفرق أصحابه ، وإن أباه مات شاباً ، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ

(١) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ (فقد برئ مما أنزل على محمد) بدل فقد كفر وأخرجه أيضاً أحمد في المسند ٢ / ٤٠٨ والترمذي رقم / ١٣٥ / وابن ماجه / ٦٣٩ / ورواه مسلم بلفظ (من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدّقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) وانظر جامع الأصول ٥ / ٦٥ .

﴿ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ التربص : الانتظار ، والريب ما يقلق النفوس أي : يورث قلقاً واضطراباً لها من حوادث الدهر وتقلبات الزمان ، وقوله : (**نتربص به ريب المنون**) سماه ريباً لا من حيث أنه مشكك في كونه بل من حيث أنه يشكك في وقت حصوله ، فالإنسان أبداً في ريب المنون من جهة وقته لا من جهة كونه . والمنون : الدهر والموت ، والكثير الامتنان ، وقيل : في الآية المنون الموت وريبه أوجاعه . وفي المفردات ؛ قيل : المنون للمنية لأنها تنقص العدد وتقطع المدد انتهى . والمعنى : بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر فيهلك كما هلك غيره من الشعرآء زهير والنابغة وطرفة وغيرهم ، أو ننتظر أوجاع الموت كما مات أبوه شاباً : وذلك كما تتمنى الصبيان في المكتب موت معلمهم ليتخلصوا من يده ، فويل لمن أراد هلاك معلمه في الدين وكان محروماً من تحصيل اليقين ﴿ **قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي . والأمر بالتربص للتهديد ، قال الراغب : التربص انتظار الشخص سلعة كان يقصد بها غلاءً أو رخصاً أو أمراً ينتظر زواله أو حصوله انتهى . وفيه عدة كريمة بإهلاكهم وجاء في التفسير : أنَّ جميعهم ماتوا قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وقع في زماننا أن بعض الوزراء أهان بعض الأولياء فأجلاه وكان ينتظر هلاكه فهلك قبله هلاكاً هائلاً حيث قتل وقتل معه ألوف . وفي الآية إشارة إلى التربص في الأمور ودعوة الخلق إلى الله والتوكل على الله فيما يجري على عباده ، والتسليم لإحكامه في المقبولين والمردودين إذ كل يجري على ما قضاه الله ﴿ **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ** ﴾ أي : دع تفوههم بهذه الأقوال الزائغة المتناقضة ، وفيهم ما هو أقبح من ذلك وهو أنهم سفهاء ليسوا من أهل التمييز ، والأحلام العقول : قال الراغب : وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل ، والحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب ﴿ **بِهَذَا** ﴾ أي : بهذا التناقض في المقال فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر في الأمور ، والمجنون مغطى عقله مختلّ فكره ، والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع هؤلاء في واحد . قال في القاموس : الحلم بالضم وبضمتين : الرؤيا والجمع أحلام ، والحِلم بالكسر : الأناة والعقل والجمع أحلام وحلوم ومنه (**أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ**) وهو حليم والجمع حلماء وأحلام انتهى . وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنُّهى فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمرهم معرفة الحق من الباطل .

﴿ **أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد مع ظهور الحق لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون ، قال ابن الشيخ : ثم قيل لا بل ذلك من طغيانهم لأنه أدخل في الذم من نقصان العقل وأبلغ في التسلية لأن من طغى على الله فقد باء بغضبه ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ** ﴾ هو ترق إلى ما هو أبلغ في كونه منكراً ، وهو أن ينسبوا إليه عليه الصلاة والسلام أنه يخلق القرآن من تلقاء نفسه ثم يقول : إنه من عند الله افترآءً

عليه . والتقوّل : تكلف القول ، ولا يستعمل إلا في الكذب . والمعنى : اختلق القرآن من تلقاء نفسه وليس الأمر كما زعموا ﴿ **بَلْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ البتة لأن الله ختم على قلوبهم . وفي الإرشاد : **فلكفرهم** وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها كيف لا وما رسول الله إلا واحد من **العرب** أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ، وفي كون ذلك مبنياً على العناد إشارة إلى أنهم **يعلمون** بطلان قولهم وتناقصه ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ** ﴾ أي : إذا كان الأمر كما زعموا من أنه كاهن **أو مجنون** أو شاعر ادعى الرسالة وتقوّل القرآن من عند نفسه فليأتوا بكلام مثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى .

﴿ **إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ فيما زعموا فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام ، ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك . واعلم أن الإعجاز إما أن يتعلق بالنظم من حيث فصاحته وبلاغته ، أو ما يتعلق بمعناه ولا يتعلق به من حيث مادته فإن مادته ألفاظ العرب ، وألفاظه ألفاظهم قال تعالى : (**قُرْآناً عَرَبِيّاً**) تنبيهاً على اتحاد العنصر وأنه منظم من عين ما ينظمون به كلامهم ، والقرآن معجز من جميع الوجوه لفظاً ومعنى ، ومتميز من خطب البلغاء ببلوغه حد الكمال في اثني عشر وجهاً : إيجاز اللفظ ، والتشبيه الغريب ، والاستعارة البديعة ، وتلاؤم الحروف والكلمات وفواصل الآيات ، وتجانس الألفاظ ، وتعريف القصص والأحوال ، وتضمين الحكم والأسرار ، والمبالغة في الأسماء والأفعال ، وحسن البيان في المقاصد والأغراض ، وتمهيد المصالح والأسباب ، والإخبار عما كان وما يكون ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ** ﴾ أي : أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع ، والشكل العجيب من غير محدث ومقدر ؟ وقيل : أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء ، ﴿ **أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله تعالى ﴿ **أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ** ﴾ أي : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا ، وإلا لما أعرضوا عن عبادته تعالى ﴿ **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ** ﴾ أي : خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا ، أي : أعندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره ﴿ **أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ** ﴾ أي : الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤا حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم ﴿ **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ** ﴾ منصوب إلى السماء ، قال الراغب : السلم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ، ثم جعل اسماً لما يتوصل به إلى كل شيء رفيع كالسبب . قال ابن الشيخ : لما أبطل من الاحتمالات العقلية جميع ما يتوهم أن يبنوا عليه تكذيبهم وإنكارهم ، لم يبق لهم إلا

المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالةً فتهكم بهم وقال : بل ألهم سلم ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي : يستمعون صاعدين في ذلك السلم إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب ، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقوّلون فيها رجماً بالغيب ، ويعلقون بها أطماعهم الفارغة ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ هذا إنكار عليهم حيث جعلوا لله ما يكرهون ، أو تسفيه لهم وتركيك لعقولهم ، وإيذان بأنّ من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء ، فضلاً عن الترقي بروحه إلى عالم الملكوت والتطلع على الأسرار الغيبية !! وذلك أن من جعل خالقه أدون حالاً منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه كما قال تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) فإنه لم يستبعد منه أمثال تلك المقالات الحمقاء ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ رجوع إلى خطابه عليه السلام وإعراض عنهم . أي : بل أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُمْ ﴾ لأجل ذلك ﴿ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ من إلتزام غرامة فادحة ، وفي المفردات : الغرم ما ينوب الإنسان من ماله من ضرر بغير جناية منه ، وكذا المغرم والغريم يقال لمن له الدين ولمن عليه الدين انتهى . ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ محملون الثقل ، فلذلك لا يتبعونك يعني : لا عذر لهم أصلاً ، والدين لا يباع بالدنيا ، فالأجر على الله تعالى كما قال : (إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ) ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أي : اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي : لا يكتفون بهذه المقالات الفاسدة ويريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وإساءة ، وهو كيدهم برسول الله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة ومكرهم بالقتل والحبس والإخراج ، فإن الكيد هو الأمر الذي يسوء من نزل به سوآء كان في نفسه حسناً أو قبيحاً ، وقال بعضهم : الكيد ضرب من الاحتيال . وفي التعريفات : الكيد إرادة مضرة الغير خُفْية ، وهو من الخلق الحيلة السيئة ، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق . وقال سعدي المفتي : الظاهر أنه من الإخبار بالغيب فإن السورة مكية وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة فإن قيل : فليكن نزول الطور في تلك الليلة . قلنا : قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نزل بعدها بمكة « تبارك الملك » وغيرها من السور ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي : هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه ، فإنه المظفر الغالب عليهم قولاً وفعلاً وحجة وسيفاً ، أو هم المغلوبون في الكيد . والمراد : ما أصابهم يوم بدر من القتل ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ نزهه تعالى ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : عن إشراكهم ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً ﴾ أي : قطعة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً ﴾ عليهم لتعذيبهم ، وفي عين المعاني : قطعة من العذاب أو من السماء أو جانباً منها من الكسف وهو التغطية كالكسوف وفي القاموس : الكسفة بالكسر القطعة من الشيء ﴿ يَقُولُوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ غليظ

أو متراكم أي : هم في طغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا : (**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً**) لقالوا : هذا سحاب متراكم أي : ألقي بعضه على بعض يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب ﴿ **فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا** ﴾ يعاينوا ﴿ **يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ** ﴾ أي : يهلكون . قال في المختار : صعق الرجل بالكسر صعقة : غُشِي عليه ، وقوله تعالى : (**فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الأَرْضِ**) أي : مات وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر ، لا النفخة الأولى كما قيل ، إذ لا يصعق بها إلا من كان حياً حينئذ ﴿ **يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** ﴾ أي : شيئاً من الإغناء في رد العذاب ﴿ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** ﴾ من جهة الغير في رفع العذاب عنهم ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي : وإن لهؤلاء الظلمة أبي جهل وأصحابه ﴿ **عَذَاباً** ﴾ آخر ﴿ **دُونَ ذَلِكَ** ﴾ غير ما لاقوه من القتل ، أي : قبله وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين كما مر في سورة الدخان ، أو وراءه وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أنَّ الأمر كما ذكر لفرط جهلهم وغفلتهم ، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً ، وفيه إشارة إلى أن منهم من يعلم ذلك وإنما يصرّ على الكفر عناداً . وفي الآية إثبات عذاب القبر ، فإن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره ، ويردُّ الحياة إليه ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه ، ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به ويفهم ما أتاه من ربه ، وما أعدّ له من كرامة وهوان .

﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان والشدائد ولا تكن في ضيق مما يمكرون . يقول الفقير : أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر لحكمه لا لأذى الكفار وجفائهم تسهيلاً للأمر عليه لأن في الصبر لحكمه حلاوة ليست في الصبر للأذى والجفاء وإن كان الصبر له صبراً للحكم فاعرف ﴿ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ أي : في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك ﴿ **وَسَبِّحْ** ﴾ أي : نزهه تعالى عما لا يليق به حال كونك ملتبساً ﴿ **بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ على نعمائه الفائتة للحصر ﴿ **حِينَ تَقُومُ** ﴾ من أي مقام قمت ، قال سعيد بن جبير وعطاء : أي : قل حين تقوم من مجلسك : « سبحانك اللهم وبحمدك » أي : سبح الله ملتبساً بحمده فإن كان ذلك المجلس خيراً ازددت إحساناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من جلس مجلساً فكثر فيه لَغَطُه ـ وهو الكلام الرديء القبيح واختلاط أصوات الكلام حتى لا يفهم ـ فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلاَّ كان كفارة لما بينهما »[1] وفي فتح القريب : فقد غفر له يعني من الصغائر ما لم تتعلق بحق آدمي

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات / ٣٤٢٩ / وإسناده حسن ، ورواه ابن حبان في صحيحه رقم / ٢٣٦٦ / وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٧٧ وفي رواية الترمذي : « إلاَّ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك » .

كالغيبة . وقال الضحاك والربيع : إذا قمت إلى الصلاة فقل : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . وقال الكلبي : هو ذكر الله باللسان حين يقوم من الفراش إلى أن يدخل في الصلاة لما روى عن عاصم بن حميد أنه قال : سألت عائشة رضي الله عنها : بأي شيء يفتتح رسول الله عليه الصلاة والسلام قيام الليل ؟ فقالت : كل إذا قام كبّر عشراً ، وحَمِد عشراً ، وسبّح عشراً ، وهلّل عشراً واستغفر عشراً ، وقال : اللهم اغفر لي واهدني ، وارزقني وعافني ، ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة»[1] ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ** ﴾ إفراد بعض الليل بالتسبيح والصلاة لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء ﴿ **وَإِدْبَارَ النُّجُومِ** ﴾ والمعنى : ووقت إدبارها من آخر الليل ، أي : غيبتها بضوء الصباح وقيل : التسبيح من الليل صلاة العشاءين ، وإدبار النجوم ، صلاة الفجر . وفي الآية دليل على أن تأخير صلاة الفجر أفضل لأنه أمر بركعتي الفجر بعدما أدبر النجوم وإنما أدبر النجوم بعدما يسفر قاله أبو الليث في تفسيره . وقال أكثر المفسرين : إدبار النجوم يعني الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تدبر النجوم بضوء الصبح ، وفي الحديث : « ركعتا الفجر ـ أي : سنّة الصبح ـ خير من الدنيا وما فيها »[2] وفيه بيان عظم ثوابها . يقول الفقير : في قولهم وذلك حين الخ نظر لأن السنّة في سنة الفجر أنه يأتي بها في أول الوقت لأنّ الأحاديث ترجحه ، فالتأخير إلى قرب الفرض مرجوح ، وأول وقتها هو وقت الشافعي وليس للنجوم إدبار إذ ذاك وإنما ذلك عند الإسفار جداً .

وفي ختم هذه السورة بالنجوم ، وافتتاح السورة الآتية بالنجم أيضاً من حسن الانتهاء ومن الأسرار ما لا يخفى على أهل التحقيق .

تمّت سورة الطور بعون الله الغفور

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة رقم / ٧٦٦ / والنسائي ٣ / ٢٠٩ في قيام الليل ، ورواه ابن ماجة برقم / ١٣٥٦ / وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٣٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم ، ورواه أبو داود والترمذي بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٦ / ١٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ سورة النجم أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهر بقرآءتها في الحرم والمشركون يستمعون ، نزلت في شهر رمضان من السنة الخامسة من النبوة ، ولما بلغ عليه الصلاة والسلام السجدة سجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس ، غير الوليد بن المغيرة فإنه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه ، لأنه كان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود (١) ، وقد يقال : فعل ذلك تكبراً ، ولا يخالف ذلك ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه : ولقد رأيت الرجل أي : الفاعل لذلك قتل كافراً لأنه يجوز أن يكون المراد بقتل مات ، وإنما سجد المشركون لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما بلغ إلى قوله : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى وَمَنَاتَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) ظنوا أن الرسول يمدحها ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، . قال بعضهم : والنجم أول سورة نزلت جملة كاملة فيها سجدة ، فلا ينافي أن (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) أول سورة نزلت فيها سجدة لأن النازل منها أوائلها لا مجموعها دفعة ، والواو للقسم ، وفي هذا وأمثاله تنبيه العباد على معرفة القدرة فيها ، وقدرة خالقها وعظمته .

﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ غروبه وطلوعه فإن الهويَّ سقوط من علو إلى أسفل . والمعنى : أقسم الآن بالنجم وقت هوّيه بعد هذا الزمان ، ثم إن الله تعالى أقسم بالنجم حين هوى أي وقت هويه لأن شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذي يهتدي به السابلة في البر ، والجارية في البحر إلى سوآء السبيل والقصد ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هو جواب القسم أي : ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة . وهذا دليل على أن قوله : (وَوَجَدَكَ ضَالاً) ليس من ضلال الغيّ ، فإنه عليه الصلاة والسلام قبل الوحي وبعده ، لم يزل يعبد ربه ويوحّده ، ويتوقى مستقبحات الأمور ، وفيه بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام حيث إن الله تعالى قال في حق آدم عليه السلام : (وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) وقال في حقه : (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم) ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ الغي هو : الجهل المركب ، قال الراغب : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد أصلاً لا صالحاً ولا فاسداً ،وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا الثاني يقال له غي ، فإن الغواية هي الخطأ في الاعتقاد خاصة ، والضلال أعم منها يتناول الخطأ في الأقوال والأفعال والأخلاق والعقائد التي شرعها الله وبيَّنها لعباده فالمعنى : وما اعتقد باطلاً قط أي : هو في غاية الهدى والرشد ، وليس مما تتوهمونه من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وقد جاء في رواية ابن مسعود أن الرجل هو « أمية بن خلف » لا الوليد ابن المغيرة ، وانظر تمام الرواية في الدر المنثور ٦ / ١٢١ .

الضلال والغواية في شيء أصلاً ، وكانوا يقولون : ضلَّ محمد عن دين آبائه وخرج عن الطريق وتقوَّل شيئاً من تلقاء نفسه ، فردّ الله عليهم بنفسه بتنزيل هذه السورة تعظيماً له ، والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبيَّته لهم ، للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله وإحاطتهم خبراً ببرآءته عليه الصلاة والسلام مما نفي عنه بالكلية ، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له ومشاهدتهم محاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً . وتقييد القسم بوقت الهويّ لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب ، وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلي جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام ، وقال سعدي المفتي : ثم التقييد بوقت الهويّ أي : الغروب لكونه أظهر دلالة على وجود الصانع وعظيم قدرته كما قال الخليل عليه السلام :(**لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**) قال ابن الشيخ في حواشيه: وفيه لطيفة وهي أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان فيهم من يعبده فنبه بهويه على عدم صلاحيته للإلهية بأفوله.

﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ يقال : نطق أي : تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني ، والهوى : هو الميل المخصوص المذموم ولهذا نهى الله أنبياءه فقال لداود عليه السلام : (**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**) ولنبينا عليه الصلاة والسلام : (**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**) ولم يمل أحد من الأنبياء إليه . ﴿ **إِنْ هُوَ** ﴾ أي : ما الذي ينطق به من القرآن ﴿ **إِلا وَحْيٌ** ﴾ من الله تعالى ﴿ **يُوحَىٰ** ﴾ إليه بواسطة جبريل عليهما السلام ﴿ **عَلَّمَهُ** ﴾ أي : نزل به عليه وقرأه عليه وبيّنه له ﴿ **شَدِيدُ الْقُوَىٰ** ﴾ أي : ملك شديد قواه وهو جبريل فإنه الواسطة في إبدآء الخوارق ، ويكفيك دليلاً على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين ، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقبات الأرض المقدسة فنفحه نفحةً بجناحه ، وألقاه في أقصى جبل في الهند ، وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده في أسرع من رجعة الطرف ﴿ **ذُو مِرَّةٍ** ﴾ أي : حصافة يعني : استحكام في عقله ورأيه ومتانة في دينه ، قال الراغب : أمررت الحبل إذا فتلته ، والمرير والممر : المفتول ومنه فلان ذو مرة كأنه محكم الفتل . وفي القاموس : المرة بالكسرة قوة الخلق وشدته ، والجمع مرر وتطلق المِرَّة على العقل والأصالة والإحكام والقوة وطاقة الحبل كالمريرة ، وذو مرة جبريل عليه السلام ﴿ **فَاسْتَوَىٰ** ﴾ أي : فاستقام جبريل واستقر على صورته التي خلقه عليها وله ستمائة جناح موشحاً أي : مزيناً بالجواهر دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي كصورة دحية أمير العرب ، وكما أتى إبراهيم عليه السلام في صورة الضيف ، وداود عليه السلام في صورة الخصم ، وذلك (أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي خُلِق عليها ، وكان رسول الله ﷺ بجبل حرآء في قرب مكة فقال : إن الأرض لا تسعني ولكن انظر إلى

السماء فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأرض من المغرب وملأ الأفق ، فخرَّ رسول الله ﷺ كما خرَّ موسى في جبل الطور ، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه) (١) وذلك لأن الجسد وهو في الدنيا لا يتحمل رؤية ما هو خارج عن طور العقل ، فمنها رؤية الملك على صورةٍ خُلق عليها ، وأعظم منها رؤية الله تعالى ، وإنما قام بصورته ليؤكد أن ما يأتيه في صورة دحية هو هو فإنه إذا رآه في صورة نفسه عرفه حق معرفته ولم يبق عليه اشتباه بوجه .

قال الحافظ ابن حجر : إن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه ، والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرآئي فقط .

وهل مجيء جبرآئيل في صورة دحية ، كان في المدينة بعد إسلام دحية ، وإسلامه كان بعد بدر فإنه لم يشهدها وشهد المشاهد بعدها ، إذ يبعد مجيئه على صورة دحية قبل إسلامه ؟ قال الشيخ : دحية الكلبي كان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة ، فكان الغرض من نزول جبريل على سيدنا محمد في صورته إعلاماً من الله تعالىبأن ذلك بشرى له عليه السلام ، ولا سيما إذا أتى بأمر الوعيد والزجر فتكون تلك الصورة الجميلة تسكن منه ما يحرك ذلك الوعيد والزجر .

﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴾ والأُفق : هو الدائرة التي تفصل بين ما يرى من الفلك ، وما لا يرى والأفق الأعلى مطلع الشمس ، كما أن الأفق الأدنى مغربها والمعنى : والحال أن جبريل بأفق الشمس أي : أقصى الدنيا عند مطلع الشمس ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي : أراد الدنو من النبي عليه الصلاة والسلام حال كونه في جبل حراء ، والدنو القرب بالذات أو بالحكم ويستعمل في الزمان والمكان والمنزلة كما في المفردات ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ التدلي : استرسال مع تعلق أي استرسل من الأفق الأعلى مع تعلقه به فدنا من النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ فَكَانَ ﴾ أي : مقدار امتداد ما بينهما وهو المسافة ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي : مقدارهما في القرب وذكر القوس لأن القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس . وفي معالم التنزيل معنى قوله كان بين جبرآئيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أنه كان بينهما مقدار ما بين الوتر والقوس كأنه غلب القوس على الوتر وهذا إشارة إلى تأكيد القرب ، وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا

---

(١) ذكر المصنف بالمعنى ، أما نصّ الحديث الذي أخرجه أحمد والطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلاّ مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ، فأراه صورته فسدَّ الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله تعالى ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل) وانظر الدر المنثور ٦ / ١٢٣ قال الحافظ ابن كثير : وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسولُ الله في الأرض ، فهبط عليه جبريل وتدلّى إليه فاقترب منه ، وهو على الصورة التي خلقه الله تعالى عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعني ليلة الإسراء . اهـ مختصر ابن كثير ٣ / ٣٩٧ .

أرادا عقد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما ، يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما ويدافع عن صاحبه ، وقيل : قدر ذراعين ويسمى الذراع قوساً لأنه يقاس به المذروع أي : يُقدَّر فلم يكن قريباً قرب التصاق ، ولا بعيداً بحيث لا يتأتى معه الإفادة والاستفادة ، وهو الحد المعهود في مجالسة الأحباء المتأدبين ﴿ **أَوْ أَدْنَىٰ** ﴾ أي : على تقديركم أيها المخاطبون كما في قوله (**أَوْ يَزِيدُونَ**) فإن التشكيك لا يصح على الله ـ فأو ـ للشك من جهة العباد ، كما أن كلمة لعل كذلك في مواضع من القرآن . أي : لو رآهما راءٍ منكم لقال : هو قدر قوسين في القرب أو أدنى ، أي : لالتبس عليه مقدار القرب ، والمراد أي من قوله : (**ثُمَّ دَنَا**) إلى قوله : (**أَوْ أَدْنَىٰ**) تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس ، ﴿ **فَأَوْحَىٰ** ﴾ أي : جبرائيل ﴿ **إِلَىٰ عَبْدِهِ** ﴾ أي : عبد الله تعالى ، والمراد بالعبد : المتشرف بالإضافة إلى الله هو الرسول عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعالى : (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**) ﴿ **مَا أَوْحَىٰ** ﴾ أي : من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة ، أو فأوحى الله حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ** ﴾ أي : فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **مَا رَأَىٰ** ﴾ أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل أي : ما قال فؤاده لمَّا رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره . أي : ما كذب فؤاده فيما رآه ببصره أي : لم يقل فيه كذباً ، وإنما يكون ذلك أن لو قال له لا أعرفك ولا أعتقد بك ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾ أي : أتكذبون محمداً عليه الصلاة والسلام فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل ؟ وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبر برؤية جبريل تعجبوا منه وأنكروا . والمماراة والمرآء : المجادلة بالباطل .

وقال بعضهم : ضمير دنا إلى آخره يعود إلى الله تعالى ، قال في كشف الأسرار : دنو الله من العبد على نوعين : أحدهما : بإجابة الدعوة وإعطاء المنية ورفع المنزلة كما في قوله : (**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**) والثاني : بمعنى القرب في الحقيقة دون هذه المعاني كقوله : (**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**) انتهى فالمعنى ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى أي : زاد في القرب حتى كان من محمد عليه الصلاة والسلام قاب قوسين أو أدنى ، فمعنى الدنو والتدلي الواقعين من الله تعالى كمعنى النزول منه إلى السماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الأخير . قال القاضي أبو الفضل في كتاب الشفاء : اعلم أن ما وقع في إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدة ، وإنما دنو النبي من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبته وقدرته ، ومن الله له مبرَّة وتأنيس وبسط وإكرام [١] .

---

(١) الراجح من أقوال المفسرين أن الضمير في قوله تعالى ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ راجع على جبريل ، بدليل قوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أي مرّة أخرى ، والذي رآه الرسول مرة أخرى هو جبريل كما ثبت في الحديث الصحيح في الترمذي أن النبي ﷺ رأى جبريل =

إعلم أن المرئي إن كان صورة جبريل عليه السلام فالرؤية من رؤية العين ، وإن كان هو الله تعالى - على ما ذهب إليه البعض - فقد اختلفوا في أنه عليه الصلاة والسلام رأى الله تعالى ليلة الإسراء بقلبه أو بعين رأسه ؟ فقال بعضهم : جعل بصره في فؤاده فرآه في فؤاده فيكون المعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أي : لم يقل فؤاده له : أن ما رأيته هاجس شيطاني وأنه ليس من شأنك أن ترى الرب تعالى ، بل تيقن أن ما رآه بفؤاده حق صحيح : وقال بعضهم : رآه بعينه لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله أعطى موسى الكلام وأعطاني الرؤية » وقوله عليه الصلاة والسلام : « رأيت ربي في أحسن صورة »[١] أي : صفة ، قال في الكواشي : هذا لا حجة فيه لأنه يجوز أنه أراد الرؤية بالقلب بأن زاده معرفة على غيره . يقول الفقير : إيراد الرؤية في مقابلة الكلام يدل على رؤية العين لأن موسى عليه السلام قد سألها ومنع منها فاقتضى أن يفضل النبي عليه الصلاة والسلام عليه بما منع منه وهو الرؤية البصرية . وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : من زعم بأن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله . قال في كشف الأسرار قول عائشة نفي ، وقول ابن عباس بأنه رأى إثبات ، والحكم للمثبت لا للنافي ، فالنافي إنما نفاه لأنه لم يسمعه ، والمثبت إنما أثبته لأنه سمعه وعلمه .

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « رأيت ربي بعيني وبقلبي »[٢] رواه مسلم في صحيحه ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ ﴾ أفتجادلونه على رؤية الله تعالى أي : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام رأى الله وهم يجادلونه في ذلك وينكرونها ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ والمعنى : وبالله لقد رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى من النزول ، وذلك أنه كان للنبي عليه الصلاة والسلام في ليلة المعراج عرجات ، لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات المفروضة فيكون لكل عرجة نزلة فرأى جبريل في بعض تلك النزلات ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾ وهو مقام جبرائيل وكان قد بقي هناك عند عروجه عليه الصلاة والسلام إلى مستوى العرش وقال : لو دنوت أنملة لاحترقت . قال عليه الصلاة والسلام : « رأيته عند سدرة المنتهى عليه ستمائة جناح يتناثر منه الدر والياقوت »[٣] لأن جبرآئيل

= في صورته الملكية مرتين ، مرة في الأرض ، ومرّة عند سدرة المنتهى ، ولو كان الله عز وجل لما صحّ أن يكون قد رآه مرتين ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٦٩ .

(١) هذه رؤيا منامية وليست رؤيا بصرية ، كما ورد في الحديث الصحيح « إني رأيتُ ربّي في أحسن صورة فقال لي يامحمد : أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ .. الحديث وانظر الدر المنثور ٦ / ١٢٤ .

(٢) الذي ورد في صحيح مسلم ١ / ١٥٨ عن عطاء عن ابن عباس قال : « رآه بقلبه » وروى مسلم عن ابن عباس : قال : « ورآه بفؤاده مرتين » وفي رواية لمسلم عن أبي ذر : هل رأيتَ ربك ؟ قال : رأيتُ نوراً » أي رأيت النور فحسبُ ولم أر غيره ، وأما رواية « أن النبي ﷺ رأى ربّه بعينه » فقد أخرجها ابن مردويه ، وروى الترمذي وحسّنه والطبراني والبيهقي عن ابن عباس أنه قال : « قد رأى النبي ربّه عز وجل » فهذه رؤية بالعين ، وانظر تفصيل موضوع الرؤيا في الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٢٤ .

(٣) حديث « أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح » أخرجها البخاري ومسلم ، وأما الحديث الذي أورده المصنف وفيه « يتناثر =

لكونه مخلوقاً يجوز أن يراه النبي عليه الصلاة والسلام في مكان مخصوص وهو سدرة المنتهى وهي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هَجَر ، وورقها كآذان الفيلة ، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها كأنها في منتهى الجنة وقيل : ينتهي إليها الملائكة ولا يتجاوزونها لأن جبرآئيل رسول الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحري أن لا يتجاوزها غيره فأعلاها لجبرآئيل ، كالوسيلة لنبينا عليه الصلاة والسلام ، فكما أن خواص الأمة يشتركون مع النبي عليه الصلاة والسلام في جنة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به ، فكذا الملائكة يشتركون مع جبرآئيل في السدرة بدون أن يتعدوا إلى ما خصَّ به من المكان ، وإضافة السدرة إلى المنتهى كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم .

﴿ **عِنْدَهَا** ﴾ أي : عند السدرة ﴿ **جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون أي : تنزل فيها وتصير وتعود إليها أرواح الشهداء ، أو أوى إليها آدم وحواء عليهما السلام . ﴿ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ** ﴾ زيادة في تعظيم السدرة ، والمعنى : ولقد رأى محمد جبرآئيل عند السدرة وقت ما غشيها وغطاها ما لايكتبه الوصف ولا يفي به البيان كيفاً ولا كماً وفي الحديث : « وغشيها ألوان لا أدري ما هي فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها » وعنه عليه الصلاة والسلام : « رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله » وعنه عليه الصلاة والسلام : « يغشاها رفرف أي : جماعة من طيور خضر ، وقيل : يغشاها فراش أو جراد من ذهب » . وقيل : يغشاها سبحات أنوار الله حين تجلى لها كما تجلى للجبل لكنها كانت أقوى من الجبل حيث لم يصبها ما أصابه من الدكِّ ، وذلك لأن الجبل كان في عالم الملك الضعيف ، والسدرة في عالم الملكوت القوي ولذا لم يخرَّ عليه الصلاة والسلام هناك مغشياً عليه حين رأى جبرآئيل كما غشي عليه حين رآه في الأفق الأعلى لقوة التمكين وغاية لطافة الجسد الشريف . وقيل : يغشاها الجمّ الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها أو يزورونها متبركين بها كما يزور الناس الكعبة ، وقيل : يغشاها الملائكة النازلون للقاء النبي عليه الصلاة والسلام ، فإنهم استأذنوا للقائه فأذن لهم ، وقيل : لا تأتوه بغير نثار فجاء كل واحد منهم بطبق من أطباق الجنة عليه من اللطائف ما لا يحصى فنثروه بين يديه تقرباً إليه وفي الحديث : « أنه أعطي رسول الله ﷺ عندها يعني السدرة ثلاثاً : الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً »[1] ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ** ﴾ الزيغ : الميلُ عن الاستقامة أي : ما مال بصرُ رسول الله عليه الصلاة والسلام أدنى ميل عما رَآه ﴿ **وَمَا طَغَىٰ** ﴾ وما تجاوز مع ما شاهد هناك من الأمور المذهلة مما لا

= منه الدرُّ والياقوت .. إلخ فهو من رواية أحمد والطبراني كما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦ / ١٢٣ .

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، وما ذكره المصنف من روايات هنا ذكرها السيوطي جميعاً في الدر المنثور ٦ / ١٢٥ .

يحصى بل أثبته إثباتاً صحيحاً متيقناً ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكّن منها وما جاوزها ، واستدل بعضهم على أن رؤية الله كانت بعين بصره عليه الصلاة والسلام يقظة بقوله : (**مَا زَاغَ الْبَصَرُ**) الخ لأن وصف البصر بعدم الزيغ يقتضي أن ذلك يقظة ولو كانت الرؤية قلبية لقال : ما زاغ قلبه ، وأما القول بأنه يجوز أن يكون المراد بالبصر بصر قلبه فلا بدله من القرينة وهي ههنا معدومة .

﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ أي : وبالله لقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج الآيات التي هي كبراها وعظماها فأري من عجائب الملك والملكوت ما لا يحيط به نطاق العبارة ، وكان الإسراء ليلة السابع والعشرين من رجب على ما عليه الأكثر في السنة الثانية عشرة من النبوة قبل الهجرة بقليل كما في تفسير المناسبات . وفيه إشكال : فإن هذه السورة نزلت في السنة الخامسة من النبوة على ما مر في أول السورة . قال المفسرون : رأى عليه الصلاة والسلام أي : أبصر تلك الليلة رفرفاً أخضر سدَّ أفق السماء فجلس عليه وجاوز سدرة المنتهى والرفرف البساط . ورأى تلك الليلة طوائف الملائكة وسدرة المنتهى وجنة المأوى وما في الجنان لأهل الإيمان وما في النيران لأهل الطغيان والظلم .

﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ** ﴾ هي أصنام كانت لهم فاللات كانت لثقيف بالطائف أصله لوية ، ثم صارت لاة فهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وكانت على صورة آدمي . والعزى : تأنيث الأعز كانت لغطفان وهي سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها وهو يقول : يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك . وفي القاموس : العزى صنم أو سمرة عبدتها غطفان ، أول من اتخذها ظالم بن أسعد فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال بنى عليها بيتاً وسماه بساء وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق السمرة ، انتهى . ومناة صخرة لهذيل وخزاعة سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها أي : تراق ، ومنه : مني ، وفي إنسان العيون : مناة صنم كان للأوس والخزرج . ووصف مناة بالثالثة تأكيداً لأنها لما عطفت عليها علم أنها ثالثتها ، والأخرى صفة ذم لها وهي المتأخرة الوضيعة المقدار أي : مناة الحقيرة الذليلة لأن الأخرى تستعمل في الضعفاء كقوله تعالى : (**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ**) أي : ضعفاؤهم لرؤسائهم . ويقال : إن المشركين أرادوا أن يجعلوا لآلهتهم من الأسماء الحسنى فأرادوا أن يسموا واحداً منها الله فجرى على ألسنتهم اللات ، وأرادوا أن يسموا واحد منها العزيز فجرى على ألسنتهم العزى ، وأرادوا أن يسموا واحداً منها المنان فجرى على ألسنتهم المناة . وقال الراغب : أصل اللات اللاه فحذفوا منه الهاء وأدخلوا التاء فيه فأنثوه تنبيهاً على قصوره عن الله وجعلوه مختصاً بما يتقرب به إلى الله في زعمهم ، وقال السهيلي : أصل هذا الاسم أي : اللات لرجل كان يلت السويق

للحجاج بسمن وأقط إذا قدموا ، وكانت العرب تعظم ذلك الرجل بإطعامه في كل موسم فلما مات اتخذ مقعده الذي كان يلتّ فيه السويق منسكاً ثم سنح الأمر بهم إلى أن عبدوا تلك الصخرة التي كان يقعد عليها ومثلوها صناً وسموها اللات ، أعني ملت السويق ذكر ذلك كثير ممن ألف في الأخبار والتفسير انتهى . وهذا على قراءة من يشدد اللات أي : التاء منه وقد قرأ به أي : بالتشديد ابن عباس وعكرمة وجماعة كما في القاموس ، ثم إنهم كانوا مع ما ذكر من عبادتهم لها يقولون : إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً : أفرأيتم ، فالمعنى : أعقب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكام قدرته ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها بنات له تعالى . قال بعضهم : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله وهذه الأصنام استوطنتها جنيات هنّ بناته تعالى . أو هذه الأصنام هياكل الملائكة التي هنّ بناته تعالى .

﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ** ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول ﴿ **تِلْكَ** ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿ **إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** ﴾ أي : جائرة معوجة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه ﴿ **إِنْ هِيَ** ﴾ أي : ما الأصنام باعتبار الألوهية التي تدعونها أي : باعتبار إطلاق اسم الإله ﴿ **إِلا أَسْمَاءٌ** ﴾ أي : أسماء محضة ليس تحتها مسميات أي : ما تنبىء هي عنه من معنى الألوهية شيء ما أصلاً ﴿ **سَمَّيْتُمُوهَا** ﴾ المعنى : جعلتموها أسماء ، لا جعلتم لها أسماء ، فإن التسمية نسبة بين الإسم والمسمى فإذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسماً للمسمى ، وإذا قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للإسم ، وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله تعالى : (**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا**) لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية أي : ما هي إلا أسماء خالية من المسميات وضعتموها ﴿ **أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ **مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا** ﴾ أي : بصحة تسميتها ﴿ **مِنْ سُلطَانٍ** ﴾ برهان تتعلقون به ﴿ **إِنْ يَتَّبِعُونَ** ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ **إِلا الظَنَّ** ﴾ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿ **وَمَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ** ﴾ أي : تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ** ﴾ فيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس وزيادة تقبيح لحالهم فإن اتباعهما من أي شخص كان قبيح وممن هداه الله بإرسال الرسول وإنزال الكتاب أقبح فالهدى : القرآن والرسول ولم يهتدوا بهما وأعلم أن الهدى ضد الهوى فلابد من المتابعة للهدى ﴿ **أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ** ﴾ بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهم وهوى أنفسهم ، وإلى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعاً أصلاً ، والتمني : تقديرُ شيءٍ في النفس وتصويره فيها . فأكثر التمني تصوير ما لا حقيقة له والمعنى : ليس

للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرها . وقيل : أم للإنسان ما اشتهى من طول الحياة وأن لا بعث ولا حشر ﴿ **فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ** ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتماً ، فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور ﴿ **وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً** ﴾ إقناط لهم مما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة لهم موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية ، والمعنى : وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات أي : لا تنفع شيئاً من النفع وهو القليل منه ، أو (شَيْئاً) أي : أحداً ، وليس المعنى أنهم يشفعون فلا تنفع شفاعتهم ، بل معناه أنهم لا يشفعون لأنه لا يؤذن لهم كما قال تعالى : ﴿ **إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ** ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ **لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ أن يشفعون له ﴿ **وَيَرْضَىٰ** ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله بمعزل ، ومن الشفاعة بألف منزل ، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿ **لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ** ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق أي يسمون كل واحد منهم ﴿ **تَسْمِيَةَ الأُنْثَىٰ** ﴾ أي : تسمية مثل تسمية الأنثى فإن قولهم : الملائكة بنات الله قول منهم بأن كلاً منهم بنته سبحانه وهي التسمية بالأنثى . قال ابن الشيخ : فإن قيل كيف يصح أن يقال أنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوب الميت على قبره ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟ أجيب بأنهم ما كانوا يجزمون به بل كانوا يقولون لا نحشر فإن كان قلنا شفعاء بدليل ما حكى الله عنهم : (**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ**) وأيضاً ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي ورد به الرسل فهم لا يؤمنون بها على وجهها . واعلم أن الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، وما رُوي : « جبرآئيل أتاني في أول ما أوحي إلي فعلمني الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه » أي رشّ بها فرجه ، أي: محل الفرج من الإنسان بناء على أنه لا فرج له ، وكون الملك لا فرج له ولو تصور بصورة الإنسان دليل على أنه ليس ذكراً ولا أنثى ، وفيه نظر لأنه يجوز أن يكون له آلة ليست كآلة الذكر ولا كآلة الأنثى كما قيل بذلك في الخنثى ، ويقال لذلك : فرج ، وبعضهم حمل الفرج على ما يقابل الفرج من الإزار[1] ﴿ **وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** ﴾ أي : يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ **إِنْ يَتَّبِعُونَ** ﴾ أي : ما يتبعون في ذلك ليس بتكرار لأن الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى ومناة ، والثاني بعبادتهم الملائكة ﴿ **إِلا**

(١) الملائكة أجسامٌ نورانية لطيفة ، لا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولا يشبهون البشر ، بل هم خلق متميز عن سائر المخلوقات .

﴿ الظَّنَّ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ ﴾ أي : جنس الظن ﴿ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ من الإغناء فإن الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء لا يدرك إدراكاً معتبراً إلا بالعلم ، والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية وإنما يعتدُّ به في العمليات وما يؤدي إليها كمسائل علم أصول الفقه ، وفيه : ذم للظن ودلالة على عدم إيمان المقلد وقيل : الحق بمعنى العلم أي : لا يقوم الظن مقام العلم ، وقيل : الحق بمعنى العذاب أي : أن ظنهم لا ينقذهم من العذاب ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي : فأعرض يا محمد عن دعوة من أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني ولم يؤمن به ، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين المذكر لأمور الآخرة ، ولا تتهالك على إسلامه ، أو عن ذكرنا كما ينبغي فإن ذلك مستتبع لذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمهروب عنها ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إلا الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ راضياً بها قاصراً نظره على جمع حطامها وجلب منافعها ، فالمراد النهي عن دعوته والاعتناء بشأنه فإن من أعرض عمّا ذُكِر ، وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً وإصراراً على الباطل . والنهي عن الدعوة لا يستلزم نسخ الآية بآية القتال ، بل الإعراض عن الجواب والمناظرة ، شرطٌ لجواز المقاتلة فكيف يكون منسوخاً بها ؟ فالمعنى : أعرض عنهم ولا تشتغل بإقامة الدليل والبرهان فإنهم لا ينتفعون به ، وقاتلهم واقطع دابرهم .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : أمر الدنيا . وفي بحر العلوم : أي : إرادة الدنيا وإيثارها على الآخرة . وفي الإرشاد : أي : ما أداهم إلى ما هم فيه من التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ ﴾ لا يكادون يجاوزونه إلى غيره حتى تنفعهم الدعوة والإرشاد كقوله تعالى : (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ المراد بمن ضلَّ : من أصرَّ عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلاً ، وبمن اهتدى مَنْ مِنْ شأنه الاهتداء في الجملة أي : هو المبالغ في العلم بمن لا يرعوي عن الضلال أبداً ، وبمن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيره ، فلا تتعب نفسك في دعوتهم فإنه من القبيل الأول ﴿ وَللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : خلقاً وملكاً لا لغيره أصلاً ، لااستقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ والمعنى : فيعلم ضلال من ضلّ واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزي ﴿ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : بعقاب ما عملوا من الضلال الذي عبّر عنه بالإساءة بياناً لحاله ، أو بسبب ما عملوا ، وَذَكَر نتيجة علمه بكل واحد من الفريقين وهي مجازاته على حسب حاله ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ أي : اهتدوا ﴿ بِالحُسْنَىٰ ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ صفة للذين أحسنوا ، للإشعار بأن ترك المعصية سوآء كانت بارتكاب المحرمات أو بترك الواجبات ينبغي أن يستمر عليه المؤمن ، ويجعل الاجتناب عنها دأباً له وعادة حتى يستحق المثوبة الحسنى،

فإن من اجتنب عنها مرة وانهمك عليها في باقي الأزمان لا يستحقها ، بخلاف الحسنات المتطوع بها فإن من أتى بها ولو مرة يؤجر عليها ، وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه كالشرك والزنى مطلقاً خصوصاً بحليلة جاره ، وقتل النفس مطلقاً لا سيما الأولاد وهي الموؤدة وقال ابن جبير : هي ما لا يستغفر منه لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار »(١) . وفي الحديث : « إياكم والمحقرات من الذنوب » ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي إلى سبعين أقرب ، وتمام التفصيل سبق في « حمعسق » في نظير الآية ﴿ **وَالْفَوَاحِشَ** ﴾ وما فحش من الكبائر خصوصاً الزنى والقتل بغير حق وغيرهما ، فهو من قبيل التخصيص بعد التعميم . قال الراغب : الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ﴿ **إِلا اللَّمَمَ** ﴾ اللمم : مقاربة المعصية .. ويعبر به عن الصغيرة والمعنى : إلا ما قلَّ وصغُر فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر ، لما وَرَد (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر)(٢) قال تعالى : (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) وقال : (**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**) وقيل : هي النظر بلا تعمد فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو مذنب والغمزة والقبلة كما روي أن نبهان التمّار أتته امرأة لتشتري التمر فقال لها : ادخلي الحانوت فعانقها وقبلها فقالت المرأة : خنت أخاك ولم تصب حاجتك ، فندم وذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فنزلت . وقيل : هي الخطرة من الذنب أي : ما خطره من الذنب على القلب بلا عزم . وقيل : كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً ، وقال بعضهم : اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ، ولا يكون له عادة ولا إقامة عليه . قال محمد بن الحنفية : كل ما هممت به من خير وشر فهو لم دليله قوله عليه الصلاة والسلام : « إن للشيطان لَمَّةً وللملك لمةً : فلمةُ الشيطان الوسوسة ، ولمة الملك الإلهام »(٣) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثمّ يتوب ولم يثبت عليها فإن الله يقبل توبته ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : « إن تغفر اللهم فاغفر جماً وأي عبدٍ لك لا ألّما » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام : (إن الله كتب على ابن آدم حظَّ من الزنى أدركَ ذلك لا مَحَالة ، فزنى العينين النظر ، وزنى اللسان النطق ، وزنى الشفتين القبلة ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشي ، والنَّفْسُ تتمنى وتشتهي ، والفرجُ يُصدِّق ذلك كله أو يكذبه)(٤) ، ثم قال تعالى ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر.

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٩٧ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب ، ورواه ابن حبان في صحيحه رقم / ٤٠ / وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٨ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٧١ .

فعلى العاقل أن يندم على المعاصي الواقعة منه ، ولا يغتر بالربِّ الكريم وإن كان الله واسع المغفرة فإنه تعالى أيضاً شديد البطش والأخذ ، نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ﴿ هُوَ ﴾ تعالى ﴿ أَعْلَمُ ﴾ منكم ﴿ بِكُمْ ﴾ أي : بأحوالكم يعلمها ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ ﴾ أي : خلقكم في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ إنشاء إجمالياً ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ ووقت كونكم أجنّة ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لا يخفى عليه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم ، التي من جملتها اللمم الذي لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله وضرره ، والجنين الولد ما دام في البطن ، أي : مدفون مستتر ، والجنين الدفين في الشيء المستتر فيه ، من جنَّهُ إذا ستره ، وإذا خرج من بطن أمه لا يسمى إلا ولداً أو سقطاً وفي الأشباه : هو جنين مادام في بطن أمه فإذا انفصل ذكراً فصبي ، ويسمّى رجلاً كما في آية الميراث إلى البلوغ فغلام ، إلى تسعة عشر فشاب ، إلى أربعة وثلاثين فكهل إلى أحد وخمسين فشيخ إلى آخر عمره هذا في اللغة . وفي الشرع : يسمى غلاماً إلى البلوغ وبعده شاباً وفتى إلى ثلاثين فكهل إلى خمسين فشيخ وتمامه في كتاب البزازية . فإن قيل : الجنين إذا كان اسماً له مادام في البطن فما فائدة قوله تعالى : (فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) قلنا : فائدته المبالغة في بيان كال علمه وقدرته ، فإن بطون الأمهات في غاية الظلمة ومن علم حال الجنين فيها لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي : إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة من المعصية بالكلية ، أو بما يستلزمها من زكاء العمل ونماء الخير ، بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته . وقال الحسن رحمه الله : علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم ولا تطهروها من الآثام ولا تمدحوها بحسن الأعمال لأن كل واحد من التخلية والتحلية إنما يعتد به إذا كان خالصاً لله تعالى، وإذا كان هو أعلم بأحوالكم منكم فأيُّ حاجة إلى التزكية ؟

وأما من زكَّاة الغير ومدحه فقد ورد فيه (احثوا في وجه المداحين الترابَ) أي : الذين يمدحون بما ليس في الممدوح ، والمدح على ثلاثة أوجه : الأول : أن يمدحه في وجهه فهو الذي نُهي عنه ، والثاني : أن يمدحه بغير حضرته ويعلم أنه يبلغه فهذا أيضاً ينهى عنه ، والثالثُ : أن يمدحه في حال غيبته وهو لا يبالي بلغه أو لم يبلغه ، أو أن يمدحه بما هو فيه فلا بأس بهذا ، انتهى . وأما المدح بعد الموت فلا بأس به إذا لم يجاوز الحد كالروافض في مدح أهل البيت ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ المعاصي جميعاً . وقيل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت ، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء ، فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم ، فإن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ أي : أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً ﴾ أي : شيئاً قليلاً من ماله ﴿ وَأَكْدَىٰ ﴾ أي :

قطع عطيته وأمسك بخلاً . من قولهم أكدى الحافر أي حافر البئر إذا بلغ الكدية أي : الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر ، ثم استعمل في كل من طلب شيئاً فلم يصل إليه ولم يتممه ولم يبلغ آخره . وفي القاموس : أكدى بخل أو قلَّ خيره ، أو قلل عطاءه . وفي تاج المصادر : قوله تعالى : (**وَأَكْدَىٰ**) أي : قطع القليل . قالوا : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ وطمع النبي عليه الصلاة والسلام في إسلامه فعيّره بعض المشركين وعاتبه وقال له : تركت دين الأشياخ وضلَّلتهم !! فقال : أخشى عذاب الله فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله ، فارتدّ وتولّى عن الوعظ ، واستماع الكلام النبوي ، وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي ، فالذم آيل إلى سبب القطع وهو البخل، وهو أمر زائد على الكفر والضلال .

﴿ **أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ** ﴾ أعنده علم بالأمور الغيبية التي من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ؟ قال ابن الشيخ : أي : أخبرت أن هذا المعطي المكدي هل عنده علم ما غاب عنه من أحوال الآخرة فهو يعلم أن صاحبه يتحمل أوزاره ﴿ **أَمْ** ﴾ أهو جاهل ﴿ **لَمْ يُنَبَّأْ** ﴾ لم يخبر ﴿ **بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ** ﴾ أي : أسفار التوارة ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** ﴾ عطف على موسى أي : وبما في صحف إبراهيم الذي وفَّى أي : وفَّى وأتمّ ما ابتلي به من الكلمات كما مرَّ في سورة البقرة ، أو بما أمر به من غير إخلال وإهمال . يقال : أوفاه حقه ووفَّاه بمعنى ، أي أعطاه تاماً وافياً، ويجوز أن يكون التشديد فيه للتكثير والمبالغة في الوفاء بالعهد أي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمل غيره ، كالصبر على نار نمرود ، حتى إنه أتاه جبريل حين ألقي في النار فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أمَّا إليك فلا ، وعلى ذبح الولد ، وعلى الهجرة ، وعلى ترك أهله وولده في وادٍ غير ذي زرع ، ويروى أنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وجده أكرمه وإلا نوى الصوم ، ويأتي ما نقل من صحف موسى في آخر سورة (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**) كذا في فتح الرحمن ، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم وأكثر ﴿ **أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ أي : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثاني من عقابه ، فالمراد بالوازرة هي التي يتوقع منها الوزر والحمل ، لا التي وزرت وحملت ثقلاً وإلا فكان المقام أن يقال لا تحمل فارغة وزر أخرى إذ لا تحمل مثقلة بوزرها غير الذي عليها ، وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم ولا يقدح في ذلك قوله تعالى : (**كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**) إذ ليس المعنى أن عليه إثم مباشرة سائر القاتلين بل المعنى أن عليه فوق إثم مباشرته للقتل المحظور إثم دلالته وسببيته لقتل هؤلاء وهما ليستا إلا من أوزاره فهو لا يحمل إلا وزر نفسه ، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام : « مَن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر

من عمل بها إلى يوم القيامة » فإن ذلك وزر الإضلال الذي هو وزره ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ** ﴾ السعي : المشي الذريع وهو دون العَدْو ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً ، والمعنى : وأن الحال والشأن ليس للإنسان في الآخرة إلا سعيه في الدنيا من العمل والنية ، أي : كما لا يؤآخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله فهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع إثر بيان عدم انتفاعه من حيث دفع الضرر عنه ، وظاهر الآية يدل على أنه لا ينفع أحداً عملُ أحد ، واختلفوا في تأويلها فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عدم إثابة الإنسان بسعي غيره وفعله ، وهذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله تعالى : (**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**) فيدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، ويُجْعل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ، ويُشفع الله الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء يدل على ذلك قوله تعالى : (**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**) قال عكرمة : كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم، لما روي أن امرأة رفعت صبياً لها كانت تحمله وقالت : يا رسول الله ألهذا حج ؟ قال : « نعم ، ولك أجر » ، وقال رجل للنبي عليه الصلاة والسلام : إن أمي افتلتت نفسها ـ أي ماتت فجأة ـ فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال ﷺ : « نعم » وقال الربيع بن أنس : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ**) يعني : الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وكثير من الأحاديث يدُل على هذا القول ويشهد له أن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره (روي) أن عائشة رضي الله عنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه بعد موته واعتقت عنه . وقال سعد للنبي عليه الصلاة والسلام : إن أمي توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : فأي الصدقة أفضل ؟ قال ﷺ : « سقي الماء » فحفر بئراً وجعلها في سبيل الله . وقال القرطبي في تذكرته : ويحتمل أن يكون قوله : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ**) خالصاً في السيئة بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله : إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها عشراً إلى سبعمائة ضعف ، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » .

والقرآن دال على هذا ، قال تعالى : (**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**) وهذا ونحوه تفضل من الله ، وطريق العدل (**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ**) إلا أن الله يتفضل عليه بما يجب عليه له كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ، كتب لهم بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة وقد تفضَّل الله على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل ، والحاصل : ما كان من السعي فمن طريق العدل والمجازاة ، وما كان من غير السعي فمن طريق الفضل والتضعيف ، فكرامة الله تعالى أوسع وأعظم من ذلك فإنه يضاعف الحسنات ويتجاوز عن السيئات .

واختلف الأئمة فيما يفعل من القُرَب كالصلاة والصيام وقرآة القرآءن والصدقة ، ويهدي ثوابه للميت المسلم

فقال أبو حنيفة وأحمد : يصل ذلك إليه ويحصل له نفعه بكرم الله ورحمته . وقال مالك والشافعي : يجوز ذلك في الصدقة والعبادة المالية وفي الحج ، وأما غير ذلك من الطاعات كالصلاة والصوم وقرآءة القرآن وغيره لا يجوز ويكون ثوابه لفاعله ، وعند المعتزلة : ليس للإنسان جعل ثواب عمله مطلقاً لغيره ولا يصل إليه ولا ينفعه لقوله تعالى : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ**) ولأن الثواب الجنة وليس في قدرة العبد أن يجعلها لنفسه فضلاً عن غيره . وفي الحديث : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[1] قال القرطبي : القراءة في معنى الدعاء وذلك صدقة من الولد ومن الصاحب والصديق والمؤمنين .

﴿ **وَأَنَّ سَعْيَهُ** ﴾ أي : سعي الإنسان وهو عمله ﴿ **سَوْفَ يُرَىٰ** ﴾ أي : يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه ، من أريته الشيء عرضته عليه ﴿ **ثُمَّ يُجْزَاهُ** ﴾ أي : يجزى الإنسان بسعيه أي : جزاء عمله ﴿ **الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ** ﴾ أي : الأوفر الأتم إن خيراً فخير وإنْ شراً فشر ﴿ **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ** ﴾ أي : انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله تعالى بعد الموت لا إلى غيره ، فيجازيهم بأعمالهم. وفي الحقيقة: انتهاء الخلق إليه تعالى في البداية والنهاية **(أَلا إِلَىٰ اللهِ تَصِيرُ الأُمُور)** إذ لا إله إلا هو.

﴿ **وَأَنَّهُ** ﴾ تعالى ﴿ **هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ** ﴾ الضحك انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس ، ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ، والبكاء : سيلان الدمع عن حزن وعويل . والمعنى : هو خلق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان منهما ينبعث الضحك والبكاء والإنسان لا يعلم ما تلك القوة ، أو هما كنايتان عن السرور والحزن كأنه قيل : أفرح وأحزن لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء ، وقيل لعمر رضي الله عنه : هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال : نعم ، والله والإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي . وعن سماك بن حرب قال : قلت لجابر ابن سمرة رضي الله عنه : أكنت تجالس النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال : نعم ، وكان أصحابه يجلسون فيتناشدون الشعر ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ، ويبتسم معهم إذا ضحكوا ﷺ .

﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَىٰ** ﴾ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره لا خلقاً ولا كسباً ، فإن أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال ، وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله على العادة فللعبد نقض البنية كسباً دون الإماتة . يقول الفقير : قدّم الإماتة على الإحياء رعاية للفاصلة ، ولأن النطفة قبل النسمة ، ولأن موت القلب قبل حياته ، ولأن موت الجسد قبل حياته في القبر ، وأيضاً في تقديم الإماتة تعجيل لأثر القهر

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١١ / ١٨٠ .

لينتبه المخاطبون ، وأيضاً : إن العدم قبل الوجود ، ثم إن مآل الوجود إلى الفناء والعدم ، فلا ينبغي الاغترار بحياةٍ بين الموتين ، ووجودٍ بين العدمين والله الموفق ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴾ في بعض التفاسير، من كل الحيوان ، كما أن كل حيوان لا يخلق من النطفة بل بعضه من الريح ، كالطير فإن البيضة المخلوقة منها الدجاجة مخلوقة من ريح الديك ﴿ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل كما في المفردات ﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ تدفق في الرحم ، ومعنى تمنى : يقدر منها الولد من مَنَاهُ الله يُمْنيهِ قدَّره ، إذ ليس كل مني يصير ولداً .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ﴾ أي : على الله تعالى ﴿ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ أي : الخلقة الأخرى وهو الإحياء بعد الموت وفاء بوعده ، لا لأنه يجب على الله كما يوهمه ظاهر كلمة « على » وفيه تصريح بأن الحكمة الإلهية اقتضت النشأة الثانية الصورية للجزآء والمكافأة ، وإيصال المؤمنين بالتدريج إلى كالهم اللائق بهم ولو أراد تعجيل أجورهم في هذه الدار لضاقت الدنيا بأجر واحد منه فما ظنك بالباقي ؟ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ ﴾ أعطى الغنى للناس بالأموال ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ وأعطى القنية وهي ما يتأثل من الأموال أي : يتخذ أصلاً ويدخر وفي المَثَل (لا تقتنِ من كلب سوءٍ جرواً) قال بعضهم : أغنى الناس بالكفاية والأموال ، وأعطى القنية وما يدخرونه بعد الكفاية . وقال الضحاك : أغنى بالذهب والفضة والثياب والمسكن وأقنى بالإبل والبقر والغنم والدواب ، وإفراد القنية بالذكر أي بعد قوله : (أَغْنَىٰ) لأنها أشرف الأموال وأفضلها ، أو معنى (أقنى) أرضى .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ أي : رب معبودهم ، والشعري : كوكب نيِّر خلف الجوزآء يقال لها : العبور بالمهملة كالصبور وهي أشد ضياءً من الغميصاء ، وكانت خزاعة تعبد الشعرى سنَّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم فقال لقومه : إنَ النجوم تقطع السماء عرضاً وهذه تقطعها طولاً فليس شيء مثلها فعبدتها خزاعة وخالف أبو كبشة قريشاً في عبادة الأوثان ولذلك كانت قريش يسمون الرسول عليه الصلاة والسلام ابن أبي كبشة لا يريدون بذلك اتصال نسبه إليه وإن كان الأمر كذلك أي : لأن أبا كبشة أحد أجداد النبي عليه الصلاة والسلام من قِبَل أمه ، بل يريدون به موافقته عليه الصلاة والسلام له في ترك عبادة الأوثان ، وإحداث دين جديد فالنبي عليه الصلاة والسلام كما وافق أبا كبشة في مخالفة قريش بترك عبادة الأصنام خالفه أيضاً بترك عبادة الشعرى ، ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴾ هي قوم هود عليه السلام أهلكوا بريح صرصر ، وعادٌ الأخرى إرم ، وقيل : الأولى : القدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح ، والمراد بعاد جميع من انتسب إلى عاد بن أرم بن عوص بن سام بن نوح ، ووصفهم بالأولية ليس للاحتراز عن عاد الأخيرة ، بل لتقدم هلاكهم بحسب الزمان على هلاك سائر الأمم بعد قوم

نوح ، قال في التكملة : وصف عاد بالأولى يدل على أن لها ثانية ، فالأولى : هي عاد بن إرم قوم هود ، والثانية : من ولدها وهي التي قاتلها موسى عليه السلام بأريحاء كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية ، وهي التي نجت من قوم عاد مع بنيها الأربعة عمر وعمرو وعامر والعتيد ، وكانت الهزيلة من العماليق ﴿ وَثَمُودَ ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام أهلكهم الله بالصيحة ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ أي : أحداً من الفريقين ويجوز أن يكون المعنى : فما أبقى عليهما ، فالإبقاء على هذا المعنى الترحم ، لم يترحم عليهم لكونهم من أهل الغضب ، ورحمة الله لأهل اللطف دون القهر ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطف عليه أيضاً ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي : قوم نوح ﴿ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ ﴾ لنبيهم ﴿ وَأَطْغَىٰ ﴾ من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه ، وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه السلام ، حتى لا يكون به حراك وما أثرت فيهم دعوته قريباً من ألف سنة وما آمن معه إلا قليل .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ هي قرىٰ قوم لوط عليه السلام ، إئتفكت بأهلها أي : انقلبت بهم ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أي : أسقطها إلى الأرض مقلوبة بعد أن رفعها على جناح جبريل إلى السماء ، وقال الزجاج : ألقاها في الهاوية ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ من فنون العذاب ، وفيه من التهويل والتفظيع ما لا غاية ورآءه ، وقوله : ﴿ مَا غَشَّىٰ ﴾ أي : ألبس الله المؤتفكة ما ألبسها إياه من العذاب كالحجارة المنضودة المسومة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ الآلاء : النعم ، والمماراة : المحاجة فيما فيه شكٌ وتردد ، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام فهو من باب الإلهاب والتعريض بالغير على طريقة قوله تعالى : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) ، أو لكل واحد وجعل الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضاً نعم من حيث أنها نصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقام لهم ، وفيها عظات وعبر للمعتبرين ، ومعنى الآية : إذا عرفت يا محمد هذه المذكورات فبأيٍّ نعمة من نعم ربك تتشكك بأنها ليست من عند الله ، أو في كونها نعمة ، فكما نصرت أخوانك من الأنبياء الماضين ونصرت أولياءهم وأهلكت أعدائهم فكذلك أفعل بك فلا يكن قلبك في ضيق وحرج مما رأيت من إصرار هؤلاء القوم وعنادهم واستكبارهم ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴾ هذا إما إشارة إلى القرآن أي : هذا القرآن الذي تشاهدونه إنذار كائن من قبيل الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها ، أو إلى الرسول ، والنذير ، بمعنى المنذر أي : هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الأولين ، والأولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ في إيراده عقيب المذكورات إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة تعظيماً للنبي عليه الصلاة والسلام ، وإن كانوا معذبين في الدنيا ، والأزف : ضيق الوقت لقرب وقت الساعة وعلى ذلك عبر عن القيام بالساعة ، والمعنى : دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى : (اقْتَرَبَتِ

السَّاعَةُ) ﴿ **لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ أي : ليس لها أنفس قادرة على كشفها أي : إزالتها وردها عند وقوعها في وقتها المقدر لها إلا الله ، أو ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها إلا الله فإنه المؤخر لها يعني لو وقت الآن لم يردها إلى وقتها أحد إلا الله فالكشف بمعنى الإزالة لا بالكلية بل بالتأخير إلى وقتها ، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله ، أي : عالمة ، به من كشف الشيء إذا عرف حقيقته ، أو مبينة لها متى تقوم ، وفي القرآن : **(لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُو)** أو ليس لها من غير الله كشف ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ** ﴾ إنكاراً ، قال الراغب : العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء ، ولهذا قال بعض الحكماء : العجب ما لا يعرف سببه ﴿ **وَتَضْحَكُونَ** ﴾ استهزآء مع كونه أبعد شيء من ذلك . قال الراغب : واستعير الضحك للسخرية فقيل ضحكت منه ﴿ **وَلا تَبْكُونَ** ﴾ حزناً على ما فرطتم في شأنه ، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة (روي) أنه عليه الصلاة والسلام لم ير ضاحكاً بعد نزول هذه الآية . وعن أبي هريرة رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية بكى أهل الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم فبكينا لبكائه فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌ على معصية الله ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يغفر لهم » ، (وروي) أن النبي عليه الصلاة والسلام نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي فقال له : من هذا فقال : « فلان » فقال جبريل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء فإن الله ليطفىء بالدمعة بحوراً من نيران جهنم . وفي الحديث : « إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » .

﴿ **وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ** ﴾ أي : لاهون مستكبرون من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه قال الراغب : السامد اللاهي الرافع رأسه ، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوهم عن الاستماع ، أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع ﴿ **فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا** ﴾ أي : وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوه ولا تعبدوا غيره من ملك أو بشر فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع كالأصنام والكواكب . قال في عين المعانى : فاسجدوا أي : في الصلاة والأصح أنه على الانفراد وهي سجدة التلاوة انتهى . وهذا محل سجود عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه سجد بالنجم يعني بعد تلاوته هذه السورة على قريش سجد وسجد معه المؤمن والمشرك والإنس والجن كما سبق وليس يراها مالك لما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قرأ على النبي عليه الصلاة والسلام والنجم فلم يسجد فيها .

تمَّت سورة النجم بعون الله وتوفيقه



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ** ﴾ الساعة جزء من أجزاء الزمان عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها ، أو لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، أو لغير ذلك كما بين فيما سبق . والمعنى : دنت القيامة وقرب قيامها ووقوعها لأنه ما بقي من الدنيا إلا قليل ، فالاقتراب يدل على مضي الأكثر ويمضي الأقل عن قريب كما مضى الأكثر ﴿ **وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ دلّت صيغة الماضي على تحقق الانشقاق في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ، ويدل عليه قرآءة حذيفة رضي الله عنه : « وقد انشق القمر » أي : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، وقد خطب حذيفة بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سرّ رسول الله ﷺ كابن مسعود رضي الله عنه . وعلى هذا القول عامة الصحابة ومن بعدهم وبه أخذ أكثر المفسرين فلا عبرة بقول من قال : بأنه سينشق يوم القيامة كما قال تعالى : (**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**) والتعبير بالماضي للدلالة على تحققه على أنا نقول : يجوز أن يكون انشقاقه مرتين مرةً في زمانه عليه الصلاة والسلام إشارة إلى قرب الساعة ، ومرة يوم القيامة حين انشقاق السماء . وفي فتح الباري لابن حجر : حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث ، انتهى . وقال الطيبي : أسند أبو إسحاق الزجاج عشرين حديثاً إلا واحداً في تفسيره إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام في انشقاق القمر . وفي شرح الشريف للمواقف : هذا متواتر رواه جمع كثير من الصحابة كابن مسعود وغيره .

وقال بعض المفسرين : اجتمع بعض صناديد قريش فقالوا : إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين ووعدوا الإيمان وكانت ليلة البدر فرفع عليه الصلاة والسلام أصبعه وأمر القمر بأن ينشق نصفين فانفلق فلقتين أي شقين فلقة ذهبت عن موضع القمر وفلقة بقيت في موضعه ، وقال ابن مسعود ، رضي الله عنه : رأيت حرآء بين فلقي القمر ، فعلى موضع هذا فالنصفان ذهبا جميعاً عن موضع القمر فقال بعضهم : نصف ذهب إلى المشرق ونصف إلى المغرب وأظلمت الدنيا ساعة ثم طلعا والتقيا في وسط السماء كما كان أول مرة فقال عليه الصلاة والسلام : اشهدوا اشهدوا وعند ذلك قال كفار قريش : سحركم ابن أبي كبشة فقال رجل منهم : إن محمداً إن كان سحر القمر بالنسبة لكم فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر جميع أهل الأرض فاسألوا من يأتيكم من البلاد هل رأوا هذا . وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقاً أهل مكة بل رآه كذلك جميع أهل الآفاق وبه يرد قول بعض الملاحدة لو وقع

انشقاق القمر لاشترك أهل الأرض كلهم في رؤيته ومعرفته ولم يختص بها أهل مكة ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة فاختصت رؤيته بمن اقترح وقوعه ، ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض ، ولا يقول بعضهم : أن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع طائفة في جنح ليلة ومعظم الناس نيام كما في إنسان العيون . وقال في الأسئلة المقحمة : لا يستبعد اختفاؤه عن قوم دون قوم بسبب غيم أو غيره يمنع من رؤيته أي : فكان انشقاق القمر صحيحاً لكنه لم ينقل بطريق التواتر ولم يشترك فيه العرب والعجم في جميع الأقطار القاصية والدانية ولذا وقع فيه الاختلاف .

﴿ **وَإِنْ يَرَوْا** ﴾ يعني قريشاً ﴿ **آيَةً** ﴾ من آيات الله دالة على قدرته وصدق نبوة حبيبه عليه الصلاة والسلام مثل انشقاق القمر ونظائره . ومعنى تسمية ما جاءت به الأنبياء معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها ﴿ **يُعْرِضُوا** ﴾ عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها وعلو طبقتها فيؤمنوا ﴿ **وَيَقُولُوا** ﴾ هذا ﴿ **سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ** ﴾ مطرد دائم يأتي به محمد عليه الصلاة والسلام على ممر الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر، ﴿ **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ** ﴾ أي وكذبوا رسول الله، واتبعوا ما زين لهم الشيطان، وكل أمرٍ منتهٍ إلى غاية ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ** ﴾ أي جاءهم ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الباطل ﴿ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** ﴾ أي هذا القرآن حكمة بلغت النهاية في البيان، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد؟ ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ** ﴾ أي يدعو إلى شيء منكر فظيع ﴿ **خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ** ﴾ أي يخرجون من القبور كالجراد المنتشر في الآفاق ﴿ **مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ﴾ أي مسرعين إلى المنادي يقول الكافرون هذا يوم صعب شديد .

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ** ﴾ أي : فعل التكذيب قبل قومك يا محمد قوم نوح ، وهذا شروع في تعداد بعض الأنباء الموجبة للازدجار وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا** ﴾ نوحاً تفسير لذلك التكذيب المهم كما في قوله تعالى : (**وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ**) إلخ ، فالمكذب في المقامين واحد ، ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ في حقه هو أو قالوا له : إنك ﴿ **مَجْنُونٌ** ﴾ أي : لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون واختلال العقل وهو مبالغة في التكذيب لأن من الكاذبين من يخبر بما يوافق العقل ويقبله والمجنون لا يقول إلا ما لا يقبله العقل ويأباه ﴿ **وَازْدُجِرَ** ﴾ أي : وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية مثل الشتم والضرب والخنق والوعيد بالرجم ، قال الراغب : وازدجر أي طرد واستعمال الزجر فيه لصياحهم بالمطرود نحو أن يقال : اغرب عني وتنح وورآءك ، وقيل : هو من جملة ما قالوه أي : هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته أي : أفسدته وتصرفت فيه وذهبت بلبه وطارت بقلبه ، وفيه إشارة

إلى أن كل داع حق لابد وأن يكذب لكثرة أهل البطلان وغلبة أهل البدع والأهوآء والطغيان وذلك في كل عصر وزمان ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أي : لما زجروا نوحاً عن الدعوة وبلغ مدة التبليغ تسعمائة وخمسين سنة دعا ربه ﴿ أَنِّي ﴾ أي : بأني ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ من جهة قومي مالي قدرة على الانتقام منهم ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ أي : فانتقم لي منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم ، فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشياً عليه فيفيق ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون فلما أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا فأجيب كما قال في الصافات : (وَلَقَدْ دَعَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أي : طرقها ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ المعنى : بماءٍ كثيرٍ منصبٍ إنصباباً شديداً كما ينصب من أفواه القرب لم ينقطع أربعين يوماً وكان مثل الثلج بياضاً وبرداً ، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي : جعلنا الأرض كلها كأنها عيون منفجرة أي : جارية وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة ، ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أي : ماء السماء وماء الأرض وارتفع على أعلى جبل في الأرض ثمانين ذراعاً ، والإفراد : حيث لم يقل الماآن لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي : كائناً على حال قد قدره الله من غير تفاوت أو على حالة قدرت وسويت ، وهو أن قدر ما أنزل من السماء على قدر ما أخرج من الأرض أو على أمر قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان فكلمة (عَلَى) على هذا للتعليل ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي : نوحاً ومن آمن معه ﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أي : سفينة صاحبة أخشاب عريضة ، فإن الألواح جمع لوح وهو كل صحيفة عريضة خشباً أو عظماً ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير ، جمع دسار من الدسر وهو الدفع الشديد بقهر ، يقال : دسره بالرمح . قال في عين المعانى : دسرت بها السفينة أي : شدت أو لأنها تدسر أي تدفع بالدق ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : تجري السفينة وتسير بمرأى منا أي : محفوظة بحفظنا ومنه قولهم للمودع : عين الله عليك ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي : فعلنا ذلك المذكور أجراً وثواباً لنوح لأنه كان نعمة كفروها فإن كل نبي نعمة من الله على أمته ورحمة أي : نعمة ورحمة فكان نوح نعمة مكفورة ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ﴾ أي : السفينة ﴿ آيَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها ، وقال قتادة : أبقاها الله بباقردي من بلاد الجزيرة وقيل على الجودي دهراً طويلاً حتى نظر إليها أوآئل هذه الأمة ، وكم من سفينة كانت بعد قد صارت رماداً ، وفي تفسير أبي الليث : قال بعضهم : يعني أن تلك السفينة كانت باقية على الجبل قريباً من خروج النبي ﷺ ، وقيل : بقيت خشبة من سفينة نوح هي في الكعبة الآن وهي ساجة غرست حتى ترعرت أربعين سنة ثم قطعت فتركت حتى يبست أربعين سنة ، وقيل : بقى بعض خشبها على الجودي إلى هذه الأوقات . وكان نوح عليه السلام نجاراً فجاء جبريل وعلمه صنعة السفينة ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي : معتبر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار فيخاف من الله ويترك المعصية ، وأصله مذتكر

على وزن مفتعل من الذكر فأدغمت الذال في التاء ثم قلبت دالاً مشددة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أي : كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، والنذر جمع نذير بمعنى الإنذار أصله نذري بالياء حذفت اكتفاء بالكسرة وحد العذاب ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ ﴾ إلخ جملة قسمية وردت في أواخر القصص الأربع تنبيهاً على أن كل قصة منها مستقبلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار أي : وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم كما قال : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) ووشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أي : للتذكير والاتعاظ وعن الحسن عن النبي عليه الصلاة والسلام : « لولا قول الله : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ) لما أطاقت الألسن أن تتكلم به » ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم ، وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قرأت على النبي عليه الصلاة والسلام : (فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ) بالذال فقال عليه الصلاة والسلام : (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) بالدال » قال في برهان القرآن قوله : (فَكَيْفَ كَانَ) إلخ ، ختم به قصة نوح وعاد وثمود ولوط لما في كل واحدة منها من التخويف والتحذير وما حلّ بهم فيتعظ به حافظ القرآن وتاليه ويعظ غيره .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي : هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له رَوْماً للاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ هو لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل : كذبت عاد فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم ، فالنذر جمع نذير بمعنى الإنذار ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ استئناف ببيان ما أجمل أولاً ، وصرر من الصر وهو البرد ، أو من صر الباب والقلم أي : صوت ، أي : أرسلنا وسلّطنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت والهبوب وهي ريح الدبور وتقدم تفصيله في فصّلت وغيرها ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ النحس ضد السعد أي شؤم ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ صفة ليوم أو نحس أي : مستمر شؤمه عليهم أو أبد الدهر .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ صفة لريحاً أي : ريحاً تقلعهم ، روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى . وقال مقاتل : تنزع أرواحهم من أجسادهم . وقال السهيلي : دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام كيلا ينجو منهم أحد ممن في كهف أو سرب فأهلكت من كان ظاهراً بارزاً وانتزعت من البيوت من كان في البيوت أو هدمتها عليهم وأهلكت من كان في الكهوف والأسراب بالجوع والعطش ولذلك قال : (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) أي : فهل يمكن أن يبقى بعد هذه الثمانية الأيام

باقية منهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ إنما أراد الله تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسم ولا أثر انتهى . والمعنى : منقلع عن مغارسه قيل شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع ، لأن الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس ، وقال بعضهم : كانت الريح تقلعهم وتصرعهم على رؤوسهم فتدق رقابهم فيبين الرأس من الجسد ، وفيه إشارة إلى قوتهم وثباتهم في الأرض فكأنهم بحسب قوتهم وجسامتهم يجعلون أرجلهم غائرة نافرة في الأرض ويقصدون به المقاومة على الريح ، ثم إن الريح لما صرعتهم فكأنها قلعت أعجاز نخل منقعر . وقال أبو الليث : صرعتهم وكبتهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض فشبههم لطولهم بالنخل الساقطة . قال مقاتل : كان طول كل واحد منهم اثنى عشر ذراعاً وقال في رواية الكلبي : كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً فاستهزأوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء وضربوا بأرجلهم وغيبوا في الأرض إلى قريب من الركبة فقالوا : قل للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح فدخلت تحت الأرض وجعلت ترفع كل اثنين وتضرب أحدهما بالآخر بعدما ترفعهما في الهواء ثم تلقيهما في الأرض والباقون ينظرون إليهما حتى رفعتهم كلهم ثم رمت بالرمل والتراب عليهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويل لهما وتعجب من أمرهما بعد بيانها فليس فيه شائبة تكرار كما في الإرشاد وقال في برهان القرآن : أعاد في قصة عاد : (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) مرتين لأن الأول في الدنيا والثاني في العقبى كما قال في هذه القصة : (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ) . وقيل : الأول لتحذيرهم قبل هلاكهم ، والثاني : لتحذير غيرهم بعد هلاكهم انتهى . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ الكلام فيه كالذي مر فيما سبق ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ أي : الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام أو بالرسل فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على الشرائع ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا ﴾ أي : كائناً من جنسنا ﴿ وَاحِداً ﴾ أي : منفرداً لا تبع له أو واحد من آحادهم لا من أشرافهم ، وتأخير هذه الصفة عن ـ منا ـ للتنبيه على أن كلاً من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدمت عليه لفاتت هذه النكتة ﴿ نَتَّبِعُهُ ﴾ في أمره ﴿ إِنَّا إِذاً ﴾ أي : على تقدير اتباعنا له وهو منفرد ونحن أمة جمة وأيضاً ليس بملك لما كان في اعتقاد الكفرة من التنافي بين الرسالة والبشرية ﴿ لَفِي ضَلالٍ ﴾ عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي : جنون فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل . وقيل : كان يقول لهم إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر أي : نيران جمع سعير فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذن كما تقول ﴿ ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ ﴾ أي : الكتاب والوحي ﴿ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وفينا من هو أحق بذلك . والاستفهام للإنكار ، أي : أخُصَّ بالرسالة منفرداً من بين آل ثمود والحال أن فيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً ؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ

﴿ أَشِرٌ ﴾ أي : ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه ، والأشر : التجبر والنشاط يقال : فرس أشر إذا كان مرحاً نشيطاً ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً ، لقومه والغد اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه والمراد به وقت نزول العذاب في الزمان المستقبل لا يوم بعينه ولا يوم القيامة لأن قوله : (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ) استئناف لبيان مبادىء الموعود حتماً والمعنى : سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الأشر الذي حمله أشره وبطره على الترفع والتجبر أصالح أم من كذبه وفيه تشريف لصالح حيث أن الله تعالى سلب عنه بنفسه الوصف الذي أسندوه إليه من الكذب والأشر فإن معناه : لست أنت بكذاب أشر بل هم ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ مخرجوها من الهضبة التي سألوا ، والهضبة : الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة أو الجبل الطويل الممتنع المنفرد ولا يكون إلا في حمر الجبال كما في القاموس (روي) أنهم سألوه متعنتين أن يخرج من صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة ناقة حمراء جوفاء وبراء عشراء وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من يوم أرسل عليها الفحل ، فأوحى الله إليه : إنا مُخْرجوا الناقة على ما وصفوا ﴿ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أي : امتحاناً فإن المعجزة محنة واختبار إذ بها يتميز المثاب من المعذب ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ فانتظرهم وتبصر ما يصنعون ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ على أذيتهم صبراً بليغاً ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ أخبرهم ﴿ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم ﴿ كُلُّ شِرْبٍ ﴾ أي : كل نصيب من الماء ونوبة الانتفاع منه ﴿ مُحْتَضَرٌ ﴾ يحضره صاحبه في نوبته فليس معنى كون الماء مقسوماً بين القوم والناقة أنه جعل قسمين قسم لها وقسم لهم بل معناه جعل الشرب بينهم على طريق المناوبة يحضره القوم يوماً وتحضره الناقة يوماً . وقسمة الماء إما لأن الناقة عظيمة الخلق ينفر منها حيواناتهم أو لقلة الماء ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ هو قُدَار بن سالف بضم القاف والدال المهملة وهو مشئوم آل ثمود ولذا كانت العرب تسمي الجزار قداراً تشبيهاً له بقدار بن سالف لأنه كان عاقر الناقة كما سيجيء وكان قصيراً شريراً أزرق أشقر أحمر وكان يلقّب بأحيمر ثمود تصغير أحمر تحقيراً ، وفي كشف الأسرار : يقال له أحمر ثمود وقيل : أشأم عاد يعني عاداً الآخرة وهي أرم تشاءم به العرب إلى يوم القيامة ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ يقال : عقر البعير والفرس بالسيف فانعقر أي : ضرب به قوائمه وبابه ضرب والمعنى فاجترأ صاحبهم قدار على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقة . معنى فنادوا صاحبهم فنبهوه على مجيئها وقربها من مكنه ، أو أنه لما همّ بها هابها فناداه أصحابه فشجعوه ، أو نادى مصدع بعدما رماها بسهم دونك الناقة فاضربها فضربها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ في صدر قصة عاد ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام وذلك لأنها الجزاء الوفاق لفعلهم فإنهم صاروا سبباً لصيحة الولد بقتل أمه ﴿ فَكَانُوا ﴾ أي : فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن

كانوا في نضارة وطيب عيش ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ الهشم : كسر الشيء الرخو كالنبات والهشيم بمعنى المهشوم أي : المكسور وهو اليابس المتكسر من الشجر وغيره ، والحظر جمع الشيء في حظيرة ، والمحظور الممنوع ، والمحتظر : بكسر الظاء يعمل الحظيرة ويتخذها . قال الجوهري : الحظيرة التي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد والريح والمعنى : كالشجر اليابس الذي يتخذه من يعمل الحظيرة ، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أي : بالإنذارات أو بالمنذرين كما سبق ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أي : ريحاً تحصبهم أي : ترميم بالحصباء وهي حجارة دون ملء الكف ، فالحصب الرمي بالحصى الصغار ومنه المحصب موضع الجمار وقول عمر رضي الله عنه : حصبوا المسجد . يقول الفقير : لعل سر تعذيبهم بالحجارة لأنهم حجروا ومنعوا من اللواطة فلم يمتنعوا بل رموا نطفهم إلى غير محل الحرث فرماهم الله بالحجر ، ومن ثمة ذهب أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن حكم اللوطي أن يرجم وإن كان غير محصن ﴿ إِلا آلَ لُوطٍ ﴾ وهم أهل بيته الذين نجوا من العذاب وكانوا ثلاثة عشر وقيل : يعني لوطاً وابنتيه . وفي كشف الأسرار : يعني بناته ومن آمن به من أوزاجهن ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أي : في سحر من الأسحار وهو آخر الليل أو السدس الأخير منه ، وفي المفردات : السحر اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل أسماء لذلك الوقت ويجوز أن يكون حالاً أي : ملتبسين بسحر (روي) أن الله أمره حتى خرج بهم بقطع من الليل فجاء العذاب قومه وقت السحر ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي : إنعاماً كائناً منا وهو علة لنجينا ، أو من معنى نجيناهم لأن تنجيتهم إنعام ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة يعني كذلك ننجي المؤمنين ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أي : أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا ﴾ فكذبوا ﴿ بِالنُّذُرِ ﴾ متشاكين فتماروا ضمن معنى التكذيب ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فترود غير ما يروده وسبق تحقيقها في سورة يوسف ، والمعنى : ولقد أرادوا من لوط تمكينهم ممن أتاه من ضيافة وهم الملائكة في صورة الشبان ومعهم جبريل وقصدوا الفجور بهم ظناً منهم أنهم بشر ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ الطمس المحو واستئصال أثر الشيء أي : فمسحناها وسويناها كسائر الوجه بحيث لم ير لها شق (روي) أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل بجناحه صفقة فتركتهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ، والصفق الضرب الذي ليس له صوت ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أي : فقلنا لهم على ألسنة الملائكة ذوقوا ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ والمراد به الطمس فإنه من جملة ما أنذروه من العذاب ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أي : جاءهم وقت الصبح ﴿ عَذَابٌ ﴾ أي : الخسف والحجارة ﴿ مُسْتَقِرٌّ ﴾ يستقر بهم ويثبت

لا يفارقهم حتى يفضي بهم إلى النار يعني عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة ، وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهي به ، والحاصل أن العذاب الذي هو قلب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها ورميهم بالحجارة غير العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين فإنه عذاب دنيوي غير موصول بعذاب الآخرة ، وأما عذاب الخسف والحجارة فموصول به لأنهم بهذا العذاب ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالآخرة كما أشار إليه قوله عليه الصلاة والسلام : « من مات فقد قامت قيامته » أي : من حيث اتصال زمان الموت بزمان القيامة كما أن أزمنة الدنيا يتصل بعضها ببعض ﴿ **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته تعالى تشديداً للعذاب ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾ مرَّ ما فيه من الكلام وفيه استئناف للتنبيه والإيقاظ لئلا يغلبهم السهو والغفلة وكذا تكرير قوله تعالى : (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**) و (**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**) ونحوهما من الأنباء والقصص والمواعيد والزواجر والقواطع ، فإن في التكرير تقريراً للمعاني في الأسماع والقلوب وتثبيتاً لها في الصدور وكلما زاد تكرير الشيء وترديده كان أقرّ له في القلب وأمكن في الصدر وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان .

﴿ **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ** ﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بالنذر أي : وبالله لقد جاءهم الإنذارات من جهة موسى وهارون عليهما السلام ، كأنه قيل : فماذا فعلوا حينئذ فقيل : ﴿ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا** ﴾ يعني : الآيات التسع وهي : اليد ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وحل عقدة من لسانه ، وانفلاق البحر ﴿ **فَأَخَذْنَاهُمْ** ﴾ بالعذاب عند التكذيب ﴿ **أَخْذَ عَزِيزٍ** ﴾ لا يغالب ﴿ **مُقْتَدِرٍ** ﴾ لا يعجزه شيء والمقصود أن الله تعالى هو العزيز المقتدر ولذا أخذهم بتكذيبهم ولم يمنعه من ذلك مانع . والمراد بالعذاب هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل ، ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ** ﴾ يا معشر العرب ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ عند الله قوة وشدة وعدة ﴿ **مِنْ أُولَئِكُمْ** ﴾ الكفار المعدودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون . والمعنى : أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خبرتهم منكم فيما ذكر من الأمور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شرّ منهم مكاناً وأسوأ حالاً ﴿ **أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ** ﴾ إضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر . أي : بل ألكم براءة وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم ومعاصيكم نازلة في الكتب السماوية فلذلك تصرون على ما أنتم عليه وتأمنون بتلك البرآءة . والمعنى : به الإنكار يعني لم ينزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمن من عذاب الله ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ** ﴾ جهلاً منهم ﴿ **نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ** ﴾ تبكيت والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم ، يقال : نصره من عدوه فانتصر أي : منعه فامتنع أي : بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولوا حزم ورأي أمرنا

مجتمع لا نرام ولا نضام ، أو منتصر من الأعداء منتقم لا نغلب ، أو متناصر بنصر بعضنا بعضا . قال أبو جهل وقد ركب يوم بدر فرساً كميتا كان يعلفه كل يوم فرقاً من ذرة وقد حلف أنه يقتل محمداً ﷺ : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه فقتلوه يومئذ وجرّ رأسه إلى رسول الله ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ** ﴾ ردّ وإبطال لذلك ، والسين للتأكيد أي : سيهزم جمع قريش البتة ﴿ **وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ أي : الإدبار ، يعني : ينصرفون عن الحرب منهزمين وينصر الله رسوله والمؤمنين وقد كان كذلك يوم بدر ، قال سعيد بن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لما نزلت (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ**) كنت لا أدري أي : جمع فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وهذا من معجزات رسول الله ﷺ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان بين نزول هذه الآية وبين يوم بدر سبع سنين فالآية على هذا مكية ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** ﴾ أي : ليس هذا تمام عقوبتهم بل القيامة موعد أصل عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ **وَالسَّاعَةُ** ﴾ إظهارها في موقع اضمارها لتربية تهويلها ﴿ **أَدْهَىٰ** ﴾ أعظم داهية وفي أقصى غاية من الفظاعة ، والداهية : الأمر الفظيع لا يهتدي إلى الخلاص منه ﴿ **وَأَمَرُّ** ﴾ أشد مرارة وفي أقصى نهاية من المرارة ، وحاصله : أن موقف القيامة أهول من موقف بدر وعذابها أشد وأعظم من عذابه لأن عذاب الدنيا مثل الأسر والقتل والهزيمة ونحوها أنموذج من عذاب الآخرة كما أن نارها جزء من سبعين جزء من نارها ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ أي : المشركين من الأولين والآخرين ﴿ **فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ** ﴾ أي : في هلاك ونيران مسعرة ، وقيل : في ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة .

﴿ **يَوْمَ يُسْحَبُونَ** ﴾ أي : كائنون في ضلال وسعر يوم يجرون ﴿ **فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ سقر : علم لجهنم ولذلك لم يصرف ، وقيل : اسم لطبقتها الخامسة من سقرته النار إذا بوخته ، أي : غيرته ، والمسّ كاللمس وهو إدراك بظاهر البشرة ، والمعنى : قاسوا حرها وألمها فإن مسها سبب للتألم بها ، وفي القاموس : (**ذُوقُوا مَسَّ سَقَر**) أي : أول ما ينالكم منها ، كقولك : وجد مسّ الحمى انتهى . وعن النبي ﷺ : « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة رجل استشهد أتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت في سبيلك حتى استشهدت . قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ فقال : تعلمت العلم وقرأت القرآن وعملت . قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان عالم وفلان قارىء ، فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل آتاه الله تعالى من أنواع المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت

فيها ؟ قال : ما تركت من شيء يجب أن ينفق فيه لك ، قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال فلان جوّاد ، فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ متعين اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين ، فقدر بمعنى التقدير وهو تسوية صورته وشكله وصفاته الظاهرة والباطنة على مقدار مخصوص اقتضته الحكمة وترتبت عليه المنفعة المنوطة بخلقه ، أو خلقناه مقدراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه لا يغير ولا يبدل .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا ﴾ لشيء نريد تكوينه ﴿ إِلا وَاحِدَةٌ ﴾ أي : كلمة واحدة لا تثني سريعة التكوين وهو قوله تعالى : (كُنْ) أو الأفعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ في اليسر والسرعة فإن اللمح النظر بالعجلة فمعنى كلمح : كنظر سريع . وفي المفردات : اللمح لمعان البرق ورأيته لمحة برق ، قال ابن الشيخ : لما اشتملت الآيات السابقة على وعيد كفار أهل مكة بالإهلاك عاجلاً وآجلاً والوعد للمؤمنين بالانتصار منهم جيء بقوله : إنا كل شيء خلقناه بقدر تأكيداً للوعيد والوعد ، يعني أن هذا الوعيد والوعد حق وصدق والموعود مثبت في اللوح مقدر عند الله لا يزيد ولا ينقص وذلك على الله يسير لأن قضاءه في خلقه أسرع من لمح البصر ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي : أشباهكم في الكفر من الأمم . جمع شيعة وهو من يتقوى به الإنسان وينشر عنه كما في المفردات ، وقال في القاموس : شيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ يتعظ بذلك فيخاف ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب على التفصيل ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي : في ديوان الحفظة ، جمع زبور بمعنى الكتاب فهو بمعنى مزبور كالكتاب بمعنى مكتوب . وقال الغزالي رحمه الله : كل شيءفعلته الأمم في كتب أنبيائهم المنزلة عليهم كأفعال كفار زماننا في كتابنا ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمال ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله ، يقال : أستطره كتبه كما في القاموس ، قال يحي بن معاذ رحمه الله : من علم أن أفعاله تعرض عليه في مشهد الصدق وأنه مجازى عليها اجتهد في إصلاح أفعاله وإخلاص أعماله ولزم الاستغفار لما سلف من إفراطه . وقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام ضرب لصغائر الذنوب مثلاً فقال : (إنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض ، وحضر جميع القوم فانطلق كل واحد منهم يحطب ، فجعل الرجل يجيء بالعود ، والآخر بالعود حتى جمعوا سواداً وأجّجُوا ناراً فشووا خبزهم ، وإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه إلا أن يغفره الله) [1] اتقوا محقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً ولقد أحسن من قال :

خَلِّ الذنوبَ صغيرَهَا * وكبيرهَا ذَاكَ التُّقَى

(١) الحديث رواه المصنف بالمعنى ، وأخرجه أحمد والطبراني والبيهقي بلفظ (إياكم ومحقرات الذنوب ..) وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٩١ .

واصْنَـــــع كاشٍ فَـــــوْقَ أَرْضٍ * الشَّـــوْكِ يَحْـــــذَرُ مَـــــا يَرَى
لا تَـحْقِـرَنَّ صَـغِيـرَةً * إنَّ الجِبَـــــــــــالَ مِنَ الحَصَى

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أي : من الكفر والمعاصي ﴿ **فِي جَنَّاتٍ** ﴾ أي : بساتين عظيمة الشأن بحيث لا يوصف نعيمها وما أعدّ فيها لأهلها ﴿ **وَنَهَرٍ** ﴾ أي : أنهار كذلك يعني : أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾ والصدق بمعنى : الجودة ، والمعنى في مكان مرضي ومجلس حق سالم من اللغو والتأثيم بخلاف مجالس الدنيا فقلَّ أن سلمت من ذلك ﴿ **عِنْدَ مَلِيكٍ** ﴾ المراد من العندية قرب المنزلة والمكانة دون قرب المكان والمسافة والمليك أبلغ من المالك ، والتنكير للتعظيم والمعنى : حال كونهم مقربين عند عزيز الملك واسعه لا يقدر قدر ملكه فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته فأيُّ منزلة أكرم من تلك وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها ﴿ **مُقْتَدِرٍ** ﴾ قادر لا يعجزه شيء عال أمره في الاقتدار .

تمت سورة القمر بعون خالق القوى والقدر في العشر الثالث من العشر الثالث من شوال المنتظم في سلك شهور سنة أربع عشرة ومائة وألف .

تم تفسير سورة القمر بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الرَّحْمَنُ** ﴾ أي : الذي له الرحمة الكاملة كما جاء في بعض الدعاء : « رحمان الدنيا ورحيم الآخرة » لأنه عم الرزق في الدنيا كما قيل . وخصَّ المؤمنين بالعفو في الآخرة ، والرحمة في الحقيقة : العطف والحنو أعني الميل الروحاني ، ومنه الرحم لانعطافها الحسي على ما فيها وأريد بها النسبة إلى الله تعالى إرادة الخير أو الإنعام ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أولاً ، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً ، والإسعاد بالآخرة ثالثاً ، والإنعام بالنظر إلى وجه الكريم رابعاً انتهى . ولما كانت هذه السورة الكاملة شاملة لتعداد النعم الدنيوية والأخروية والجسمانية والروحانية طرزها بطراز اسم الرحمن الذي هو اسم الذات المشتمل على جميع الأسماء والصفات ليسند إليه النعم المختلفة بعده ، ولما كان القرآن أعظم النعم شأناً لأنه مدار جميع السعادات ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أشراف أمتي حملة القرآن » أي : ملازموا قرءاته وأصحاب الليل وقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » وفيه جميع حقائق الكتب السماوية وكان تعليمه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها بدأبه فقال : ﴿ **عَلَّمَ** ﴾ محمداً ﷺ ﴿ **القُرْآنَ** ﴾ بواسطة جبريل عليه السلام وبواسطة محمد عليه الصلاة والسلام غيره من الأمة . قال في فتح الرحمن : ومن الدليل على أن القُرْآن غير مخلوق أن الله تعالى ذكره في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه ، وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً كلها يدل على خلقه وقد اقترنا في هذه السورة على هذا النحو ، قاله المولى أبو السعود رحمه الله ثم قيل ﴿ **خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ** ﴾ تبييناً للمعلم وكيفية التعليم ، والمراد بخلق الإنسان إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة ، والبيان هو التعبير عما في الضمير ، قال الراغب : البيان الكشف عن الشيء وهو أعم من النطق لأن النطق مختص بالإنسان وسمى الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره انتهى . وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن ، والمراد به جنس الإنسان الشامل لجميع أصنافه وأفراده . وفي بحر العلوم : خلق الإنسان أي : آدم وعلمه الأسماء واللغات .

﴿ **الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ يجريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب ، فالسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً والشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم أو أقل ﴿ **وَالنَّجْمُ** ﴾ أي : النبات الذي

ينجم أي : يطلع من الأرض ولا ساق له مثل الكرم والقرع ونحو ذلك ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ الذي له ساق ، وفي المنتقى : كل نابت إذا ترك حتى يبرز انقطع فليس بشجر وكل شيء يبرز ولا ينقطع من سنته فهو شجر ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ أي : ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً ، أو يسجد ظلهما على ما بين في قوله تعالى : (يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّداً للهِ) ذكر في مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين وهما النجم والشجر وكلاهما من قبيل النبات الذي هو أصل الرزق من الحبوب والثمار والحشيش للدواب ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ أي : خلقها مرفوعة محلاً كما هو محسوس مشاهد ، وكذا رتبة حيث جعلها منشأ أحكامه وقضاياه وتنزل أوامره ومحل ملائكته . وقال بعضهم : رفعها من السفل إلى العلو سقفاً لمصالح العباد وجعل ما بينهما مسيرة خمسمائة عام وذلك لأن السماء دخان فار به موج الماء الذي كان في الأرض ﴿ وَوَضَعَ المِيزَانَ ﴾ أي : شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق لما استحقه وفي كل ذي حق حقه حتى انتظم به أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام : بالعدل قامت السموات والأرض . قيل : فعلى هذا الميزان هو القرآن . وقيل : هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان وميكال ونحوهما ، فالمعنى خلق كل ما توزن به الأشياء ويعرف مقاديرها موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم . قال سعدي المفتي : وأنت خبير بأن قوله : (أَنْ لا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ) أشد ملاءمة لهذا المعنى ولهذا اقتصر عليه الزمخشري ﴿ أَنْ لا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ ﴾ أي : وضعه لئلا تطغوا فيه ولا تعتدوا ولا تتجاوزوا الإنصاف . قال ابن الشيخ : الطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال الميزان العدل قال : طغيانه الجور ، ومن قال : إنه الميزان الذي هو آلة التسوية ، قال : طغيانه البخس أي : النقص ﴿ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ﴾ قوّموا وزنكم بالعدل أي : أجعلوه مستقيماً به ، وفي المفردات : الوزن معرفة قدر الشيء ، والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسطاط والقبان وقوله : (وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ) إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال ﴿ وَلا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ أي : لا تنقصوه لأن من حقه أن يسوي لأنه المقصود من وضعه . قال سعدي المفتي : المراد لا تنقصوا الموزون في الميزان لا الميزان نفسه . أمر أولاً بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، ثم عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتأكيداً للأمر باستعماله والحثّ عليه .

روى عن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على جار له احتضر فقال : يا مالك جبلان من نار بين يدي أكلف الصعود عليهما قال : فسألت أهله . فقالوا : كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجل فقال : ما يزداد الأمر عليّ إلا

عظماً . وفي المفردات : قوله : (وَلا تُخْسِرُوا المِيزَانَ) يجوز أن يكون إشارة إلى تحري العدالة في الوزن وترك الحيف فيما يتعاطاه في الوزن ، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى تعاطي ما لا يكون ميزانه به يوم القيامة خاسراً فيكون ممن قال فيه : (فَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) وكلا المعنيين يتلازمان وكل خسران ذكره الله في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالقنيات الدنيوية والتجارات البشرية ، يقول الفقير : وجه توسيط الميزان بين رفع السماء ووضع الأرض هو الإشارة إلى أنه بالعدل قامت السموات والأرض كما ورد في الحديث ، وإلى أنه لابد من ميزان العقل بين الروح والجسد حتى يعتدلا ولا يتجاوز أحدهما الآخر ، والاعتدال الحقيقي هو الوقوف بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعاً وعرفاً ، والموزونات هي الأمور العلمية والعملية المعدلة بالعقل المبني على الاستعداد الذاتي ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ أي : خفضها مدحوة على الماء أي : مبسوطة ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ أي : لمنافع الأنام وهو جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق والجن والإنس مما على الأرض كما في القاموس فهي كالمهاد والفراش لهم يتقلبون عليها ويتصرفون فوقها ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ضروب كثيرة مما يتفكه به ويتلذذ ، ففاكهة تشعر باختلاف الأنواع ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ وهي أوعية الثمر وغلفها قبل التفتق ، جمع كِم بالكسر وهو الغلاف الذي يكون فيه الثمر أول ظهوره ، أو هو أي : الكم كل ما يكُم بضم الكاف من باب نصر أي : يغطي من ليف وسعف وكفرى فإنه مما ينتفع به كما ينتفع من المكموم من ثمره وجماره وجذوعه فالليف يغطي الجذع والسعف ﴿ وَالحَبُّ ﴾ هو كل ما يتغذى به ويقتات كالحنطة والشعير وغيرهما ﴿ ذُو العَصْفِ ﴾ هو ورق الزرع أو ورق النبات اليابس كاتبن . وفي المفردات : العصف والعصيفة الذي يعصف من الزرع ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ قال في المفردات : الريحان ما له رائحة ، وقيل : الرزق ثم يقال للحب المأكول ريحان كما في قوله : (وَالحَبُّ ذُو العَصْفِ) وقيل لأعرابي : إلى أين ؟ قال : أطلب ريحان الله أي : رزقه والأصل ما ذكرناه انتهى . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : هو الرزق بلغة حمير فالمراد بالريحان هنا : إما الرزق أو المشموم كما قال الحسن : الريحان هو ريحانكم هذا الذي يشمّ وهو كل ما طابت رائحته من النبات ، وعند الفقهاء : الريحان ما لساقه رآئحة طيبة كما لورقه كالآس ، والورد ما لورقه رائحة طيبة فقط كالياسمين كذا في المغرب . قال ابن الشيخ : كل بقلة طيبة الرائحة سميت ريحاناً لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي يشم ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى : (لِلأَنَامِ) لعمومه لهما واشتماله عليهما وسينطق به قوله تعالى : (أَيُّهَا الثَّقَلانِ) وكذا في ذكر أبوى الفريقين بقوله : (خَلَقَ الإِنْسَانَ . وَخَلَقَ الجَّانَ) إشعار بأن الخطاب لهما جميعاً ، والآلاء النعم ، قال في بحر العلوم : الآلاء النعم الظاهرة والباطنة الواصلة إلى الفريقين وبهذا يظهر فساد ما قيل من أن الآلاء هي النعم الظاهرة فحسب ، والنعماء هي النعم الباطنة . والصواب :

أنها من الألفاظ المترادفة كالأسود والليوث ، والتعبيرُ عن الكفر بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان شهادة منا بذلك ، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة أي : فإذا كان الأمر كما فصّل فبأي فرد من أفراد نِعَمِ مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان مع أن كلاً منها ناطق بالحق شاهد بالصدق ؟ فالاستفهام للتقرير أي : للحمل على الإقرار بتلك النعم ووجوب الشكر عليها (روي) عن جابر رضي الله عنه أنه قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، قال : « ما لي أراكم سكوتاً ، لَلْجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية مرة (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد[1] » . وتكرار هذه الآية في هذه الصورة لطرد الغفلة وتأكيد الحجة وتذكير النعمة وتقرير الكرامة من قولهم : كم نعمة كانت لكم كم كم وكم . وكقولك لرجل ، أحسنت إليه بأنواع الأيادي وهو ينكرها : ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا ، ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا ؟

وقال في برهان القرآن : تكررت الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمان ذكرها عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبع منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم ، وحَسُنَ ذكر الآلاء عقيبها لأن في خوفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة ، أو لأنها حلّت بالأعداء وذلك يعدُّ من أكبر النعماء ، وبعد هذه السبع ثمان في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة ، وثمان أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما فمن اعتقد الثماني الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله ووقاه الله السبع السابقة ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ ﴾ الصلصال : الطين اليابس الغير المطبوخ الذي له صلصلة أي : صوت يسمع من يبسه ، وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات لصوته صلصلة كصلصلة الجرس على الصفوان ..) والفخار: الخزف أي : الطين المطبوخ بالنار وتشبيهه بالفخار لصوته باليبس إذا نقر كأنه صوّر بصورة من يكثر التفاخر أو لأنه أجوف ، وقد خلق الله آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً ، فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وَخَلَقَ الجَانَّ ﴾ أي : الجن ، أو أبا الجن ، أو إبليس وبه قال الضحاك . وفي الكشف : الجان أبو الجن كما أن الإنسان أبو الإنس وإبليس أبو الشياطين ﴿ مِنْ مَارِجٍ ﴾ أي : من لهب صافٍ من الدخان . وقال مجاهد : المارج هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا وقدت ، من مرج أمر القوم إذا اختلط واضطرب فمعنى من مارج من لهب مختلط ﴿ مِنْ نَارٍ ﴾ بيان لمارج فإنه في الأصل للمضطرب من مرج

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، ورواه الحاكم وصححه ٢ / ٤٧٣ وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٧٣ .

(٢) هذا طرف من حديث رواه أبو داود ، ورواه البخاري بلفظ (إذا قضى الله الأمر) وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٢٧ .

إذا اضطرب . وفي كشف الأسرار : خلق الجن من مارج من نار ، والملائكة من نورها ، والشياطين من دخانها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم حتى صيّركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي : الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن قضيته أن يكون رب بينهما من الموجودات قاطبة ، يعني أن ذكر غاية ارتفاعهما وغاية انحطاطهما إشارة إلى أن الطرفين يتناولان ما بينهما . قال في كشف الأسرار : أحد المشرقين هو الذي تطلع منه الشمس في أطول يوم من السنة ، والثاني الذي تطلع منه في أقصر يوم وكذا الكلام في المغربين ، وقيل : أحد المشرقين للشمس ، والثاني للقمر وكذا المغربان ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما في ذلك من فوائد لا تحصى من اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته إلى غير ذلك ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي : أرسلهما ، والمعنى : أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي : يتجاوران ويتماسّ سطوحهما لا فصل في مرأى العين وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها . وقيل : أرسل بحر فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنها خليجان يتشعبان منه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي : حاجز من قدرة الله أو من الأرض ، والبرزخ الحائل بين الشيئين ومنه سمي القبر برزخاً لأنه بين الدنيا والآخرة . وقيل للوسوسة : برزخ الإيمان لأنها طائفة بين الشك واليقين ﴿ لا يَبْغِيَانِ ﴾ أي : لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية مع أن شأنها الاختلاط على الفور ، بل يبقيان على حالهما زماناً يسيراً مع أن شأنها الاختلاط وانفصال كل واحد منهما عن الآخر دليل القدرة ، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما من الأرض ، لتكون الأرض بارزة يتخذها أهلها مسكناً ومهاداً فقوله : (لا يَبْغِيَانِ) إما من الابتغاء وهو الطلب أي : لا يطلبان غير ما قُدِّر لهما ، أو من البغي وهو مجاوزة كل واحد منهما ما حد له ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وليس من البحرين شيء يقبل التكذيب لما فيه من الفوائد والعبر ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤ : الدر ، والمرجان : الخرز الأحمر المشهور ، وقال في خريدة العجائب : اللؤلؤ يتكون في بحر الهند وفارس ، والمرجان ينبت في البحر كالشجر وإذا كلس المرجان عقد الزئبق فمنه أبيض ومنه أحمر ومنه أسود وهو يقوي البصر كحلاً وينشف رطوبة العين انتهى .

ونقل عن ابن عباس وعكرمة مولاه أن تَكَوُّنَ هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، لأن الصدف تفتح أفواهها للمطر فيكون الأصداف كالأرحام للنطف ، وماء البحر كالجسد المتغذّي ، ويدل على أنه من المطر ما اشتهر من أن السنة إذا أجدبت ، هزلت الحيتان وقلّت الأصداف والجواهر ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ الجوارِ بكسر الرآء : أصله الجواري بالياء بمعنى السفن جمع جارية أقيمت

الصفة مقام الموصوف قال ابن الشيخ : أعلم أن الأركان الأربعة : التراب والماء والهواء والنار ، فالله تعالى بيَّنَ بقوله : (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ) أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم عجيب الشأن ، وبين بقوله : (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) أن النار أيضاً أصل لمخلوق آخر عجيب الشأن ، وبيّن بقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) أن الماء أيضاً أصل لمخلوق آخر له قدر وقيمة ، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفينة كالأعلام فقال : (وَلَهُ الْجَوَارِ) وخصها بالذكر لأن جريانها في البحر لا صنع للبشر فيه وهم معترفون بذلك فيقولون (لك الفلك وله الملك) وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة ، وسميت السفينة جارية لأن شأنها الجري في البحر وإن كانت واقفة في الساحل والمراسي ، كما تسمى المملوكة أيضاً جارية لأن شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها ﴿ الْمُنْشَئَاتُ ﴾ المرفوعات الشُرُع على أن يكون من أنشأه إذا رفعه ، والشُرُع بضمتين جمع شراع . ولا يبعد أن يكون المنشأت بمعنى المرفوعات على الماء فتكون جارية على ما هي له والمعنى : المنشآت المصنوعات أي المخلوقات ، على أن يكون من أنشأه الله أي : خلقه ﴿ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ جمع عَلَم وهو الجبل الطويل أي : كالجبال الشاهقة عظماً وارتفاعاً ، والسفن في البحر كالجبال في البر ، كما أن الإبل في البر كالسفن في البحر ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر يابسات لقطع المسافات الكثيرة في الأوقات القليلة ، وحصول المعاملات والتجارات لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ المعنى : كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات ، ومن للتغليب على الوجهين أو من الثقلين ، فإن أي إنسانٍ هالك لا محالة . ولما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلكت بنو آدم فلما نزلت : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ) أيقنوا بهلاك أنفسهم فإن لهم أجساماً لطيفة وأرواحاً متعلقة بتلك الأجسام كأرواح الإنسان ، وأما الأرواح المجردة الصافية العالية فلا تفنى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي : ذاته ومنه كرَّم الله وجهه أي : ذاته ، فالوجه العضو المعروف استعير للذات لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخشوع قال القاضي : ولو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله يلي جهته ، انتهى . ﴿ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ صفة وجه أي : ذو الاستغناء المطلق أو العظمة في ذاته وصفاته وذو الفضل التام ، وهذه من عظائم صفاته تعالى ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام »[1] ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن إحياءهم بالحياة الأبدية وإثابتهم بالنعيم المقيم أجلُّ النعماء وأعظم الآلاء قال الطيبي :

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات وأحمد في المسند والنسائي في سننه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٣١ ومعنى ألظّوا : أي ثابروا وأكثروا من قول ياذا الجلال والإكرام .

كيف أفرد الضمير في قوله : (وَجْهُ رَبِّكَ) وثناه في (رَبِّكُمَا) والمخاطب واحد ؟ قلت : اقتضى الأول تعميم الخطاب لكل من يصلح للخطاب لعظم الأمر وفخامته ، فيندرج فيه الثقلان اندراجاً أولياً ولا كذلك الثاني فتركه على ظاهره .

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قاطبةً ما يحتاجون إليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر أحوالهم ، سؤالاً مستمراً بلسان المقال وبلسان الحال ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ أي : كل وقت من الأوقات ﴿ هُوَ ﴾ تعالى ﴿ فِي شَأْنٍ ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً ويفنى آخرين ، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال من الغنى والفقر ، والعزة والذلة ، والتمليك والعزل والصحة والمرض ونحو ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح البالغة ، وفي الحديث : « من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين »[1] . قال مقاتل : نزلت الآية في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً ، ففيها ردٌّ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه ، وهو تعالى في كل يوم هو في شأن ، والشأن الحال والأمر العظيم ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي : سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله تعالى : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فلا يبقى حينئذ إلا شأن واحد هو الجزاء ، والمراد : التوفر على النكاية فيه والانتقام منه فالخطاب للمجرمين منهما بخلافه على الأول ﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ المراد هنا : الإنس والجن سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض يعني أنهما شبها بثقلي الدابة ، وفي حواشي ابن الشيخ : شبه الأرض بالحمولة التي تحمل الأثقال ، والإنسُ والجن جعلا أثقالاً محمولة عليها وجعل ما سواهما كالعلاوة ، أو لرزانة أرائهما ، أو لأنهما مثقلان بالتكليف ، أو لعظم قدرهما في الأرض كما في الحديث : « إني تركتُ فيكم الثلقين كتاب الله وعترتي »[2] وقال الصادق رضي الله عنه : سُمِّيا ثقلين لأنهما يثقلان بالذنوب ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا ﴾ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ بأقوالكما وأعمالكما ، قال في كشف الأسرار : اعلم أن بعض هذه السورة ذكر فيه الشدائد والعذاب والنار ، والنِّعمةُ فيها من وجهين : أحدهما في صرفها عن المؤمنين إلى الكفار ، وتلك النعمة عظيمة تقتضي شكراً عظيماً ، والثاني : أن في التخويف منها والتنبيه عليها نعمة عظيمة لأن اجتهاد الإنسان رهبة مما يؤلمه أكثر من اجتهاده رغبة فيما ينعمه ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي وابن جرير ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٤٣ .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ بلفظ (تركتُ فيكم أمرين ..) وانظر جامع الأصول ١ / ٢٧٧ .

لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كلفوه . والمعشر : الجماعة العظيمة سميت به لبلوغه غاية الكثرة فإن العشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بتركيبه بما فيه من الآحاد تقول : أحد عشر واثنا عشر وعشرون وثلاثون أي : اثنتا عشرات وثلاث عشرات فإذا قيل : معشر فكأنه قيل محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة . وقدّم الجن على الإنس في هذه الآية لتقدم خلقه ، والإنس على الجن في قوله تعالى : (**لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِن**) لفضله فإنه التقديم يقتضي الأفضلية . قال ابن الشيخ : لما بيَّن الله تعالى أنه سيجيء وقت يتجرد فيه لمحاسبتهم ومجازاتهم ، وهدَّدهم بما يدل على شدة اهتمامه بها كان مظنة أن يقال : فلم ذلك مع ما له من كمال الاهتمام به ؟ فأشار إلى جوابه بما محصوله أنهم جميعاً في قبضة قدرته وتصرفه لا يفوته منهم أحد ، فلم يتحقق باعث يبعثه على الاستعجال لأن ما يبعث المستعجل إنما هو خوف الفوت ، وحيث لم يخف ذلك قسم الدهر كله إلى قسمين : أحدهما : مدة أيام الدنيا ، والآخر : يوم القيامة وجعل المدة الأولى أيام التكليف والابتلاء ، والمدة الثانية للحساب والجزاء ، وجعل كل واحدة من الدارين محل الرزايا والمصائب ومنبع البلايا والنوائب ولم يجعل لواحد من الثقلين سبيلاً للفرار منهما والهرب مما قضاه فيهما فقوله : (**يَا مَعْشَرَ الجِنِّ**) متعلق بقوله : (**سَنَفْرُغُ لَكُمْ**) فكانا بمنزلة كلام واحد ﴿ **إِنِ اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ لم يقل إن استعطتما لأن كل واحد منهما فريق كقولهم : (**فَإِذا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**) أي : كل فريق منهم يختص فجمع الضمير هنا نظراً إلى معنى الثقلين ، وثنَّاه في قوله : (**يُرْسَل عَلَيْكُمَا**) كما سيأتي نظراً إلى اللفظ ، أي : إن قدرتم على ﴿ **أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ في القاموس : النفاذ : جواز الشيء عن الشيء والخلوص منه . والأقطار جمع قُطر بالضم وهو الجانب ، والمعنى : أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه ﴿ **فَانْفُذُوا** ﴾ فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابي وهو أمر تعجيز ، والمراد : أنهم لا يفوتونه ، ولا يعجزونه حتى لا يقدر عليهم ﴿ **لا تَنْفُذُونَ** ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿ **إِلا بِسُلْطَانٍ** ﴾ أي : بقوة وقهر وأنتم من ذلك بمعزل بعيد (روي) أن الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فيهرب الإنس والجن فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ، فتقول لهم الملائكة ذلك ، فكما لا يقدر أحد على الفرار يوم القيامة ، كذلك لا يقدر في الدنيا فيدركه الموت والقضاء لا محالة ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ أي : من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ** ﴾ هو لهب خالص لا دخان فيه أو دخان النار وحرها . والآية جواب عن سؤال الداعي إلى الهرب والفرار وأن ذلك حين يساق إلى المحشر كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أي : يرسل عليكما لهب بلا دخان ليسوقكم إلى المحشر ﴿ **مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ** ﴾ أي : دخان أصفر مذاب يصبُّ على رؤوسهم . وفي المفردات : النحاس اللهب بلا دخان ، وذلك تشبيه في اللون بالنحاس ﴿ **فَلا تَنْتَصِرَانِ** ﴾ أي : لا تمنعان من ذلك

العذاب ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من بيان عاقبة الكفر والمعاصي والتحذير عنها فإنها لطف ونعمة وأيٌّ لطف ونعمة ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ أي : انصدعت يوم القيامة وانفك بعضها من بعض لقيام الساعة أو انفرجت فصارت أبواباً لنزول الملائكة كقوله تعالى : (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً) ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ كوردة حمراء في اللون وهي الزهرة المعروفة التي تشمُّ والغالب على الورد الحمرة .

وقيل : لأن أصل لون السماء الحمرة وإنما ترى زرقاء للبعد والحوائل ، ولأن لون النار إذا خالط الأزرق كساه حمرة ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ أي : كدهن الزيت فكانت في حمرة الوردة وفي جريان الدهن أي : تذوب وتجري كذوبان الدهن وجريه فتصير حمراء من حرارة جهنم ، وتصير مثل الدهن في رقته وذوبانه وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع عظم شأنها ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم إذِ انشقت السماء حسب ما ذكر ﴿ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم فلا يحتاج في تمييز المذنب عن غيره إلى أن يسأل عن ذنبه إن أراد أحد أن يطلع على أحوال أهل المحشر ، وذلك أول ما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف فوجاً فوجاً على اختلاف مراتبهم وأما قوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ونحوه ففي موقف المناقشة والحساب وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا فإنه أعلم بذلك منهم ولكن يسألهم لم عملتم كذا وكذا وعنه أيضاً : ولا يسألون سؤال شفاء وراحة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وضمير (ذَنْبِهِ) للإنس لتقدمه رتبة وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل : لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني ، وأراد بالجان الجن كما يقال تميم ويراد ولده ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع كثرة منافعها ، فإن الإخبار بما ذكر مما يزجركم عن الشر المؤدي إليه ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ السيما والسيماء بالكسر والقصر والمد العلامة ، قيل : يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل : بما يعلوهم من الكآبة والحزن كما يعرف الصالحون بأضداد ذلك ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ النواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس والمراد هنا : شعرها . والمعنى : تأخذ الملائكة بنواصيهم أي : بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار أو تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بالنواصي وتجرهم على وجوههم ، أو يجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من ورآء ظهورهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من المواعظ والزواجر ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ على إرادة القول أي : يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي : يدورون بين النار يحرقون بها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ أي : ماء بالغ من الحرارة أقصاها يصبُّ عليهم أو يسقون منه أي : يطوفون من النار إلى الحميم ، ومن الحميم إلى النار ، دهشاً وعطشاً أبداً ، قال أبو الليث : يسلّط عليهم الجوع فيؤتى بهم إلى الزقوم الذي طلعها كرؤوس الشياطين فأكلوا منها فأخذت في

حلوقهم فاستغاثوا بالماء فأوتوا به من الحميم فإذا قربوه إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم ويشربون فتغلى أجوافهم ويخرج جميع ما فيها ، ثم يلقى عليهم الجوع فمرة يذهب بهم إلى الحميم ومرة إلى الزقوم . وقال كعب الأحبار : إن وادياً من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار ، فيُنْطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ وقد أشير إلى سرّ كون بيان أمثال هذه الأمور من قبيل الآلاء مراراً ، فالآلاء في أمثالها حكاياتها فقط للانزجار مما يؤدي الإبتلاء بها من الكفر والمعاصي ، بخلاف ما فُصّل في أول السورة إلى قوله كل يوم إلخ ، فإنها نِعَمٌ واصلة إليهم في الدنيا ، وكذلك حكايتها من حيث إيجابها للشكر والمثابرة على ما يؤدي إلى استدامتها ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ** ﴾ شروع في تعداد النعم الفائضة عليهم في الآخرة ، بعد تعداد ما وصل إليهم في الدنيا من الآلاء الدينية والدنيوية . والمقام : اسم مكان ومقامه تعالى موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب كما قال : (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ**) فالإضافة للاختصاص الملكي إذ لا ملك يومئذ إلا لله تعالى . قال في عين المعاني : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حين شرب لبناً على ظمأ فأعجبه ثم أخبر أنه من غير حل فاستقاءَ فقال ﷺ لما سمعه : « رحمك الله لقد أنزلت فيك آية » ودخل فيه من يهمُّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من مخافة الله ، ﴿ **جَنَّتَانِ** ﴾ جنة للخائف الإنسي ، وجنة للخائف الجني على طريق التوزيع فإن الخطاب للفريقين والمعنى لكل خائفٍ منكما جنة أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله ، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي ، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه ، قال محمد بن الحسن رحمه الله : « بينا كنت نائماً ذات ليلة إذا أنا بالباب يدق ويقرع فقلت : انظروا من هو فقالوا : رسول الخليفة يدعوك فخفت على روحي ، فقمت ومضيت إليه فلما دخلت عليه قال : دعوتك في مسألة ، إن أم محمد ـ يعني زبيدة ـ قُلت لها : إني إمام العدل وإمام العدل في الجنة فقالت : إنك ظالم عاص قد شهدت لنفسك بالجنة ، فكذبت بذلك على الله تعالى وحرمت عليك فقلت له : يا أمير المؤمنين إذا وقعت في معصية فهل تخاف الله في تلك الحال أو بعدها ؟ فقال : أي والله أخافه خوفاً شديداً فقلت له : أنا أشهد أن لك جنتين لا جنة واحدة قال تعالى : (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) فلاطفني وأمرني بالإنصراف ، فلما رجعت إلى داري رأيت البدر متبادرة إليَّ ، وقال صلى الله عليه وسلم « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما »[1] .

﴿ **ذَوَاتَا أَفْنَانٍ** ﴾ الأفنان : جمع فن أي : ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، أو جمع فنن وهو الغصن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وفيه (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداءُ الكبرياء على وجههِ في جنَّةِ عَدْن) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٨ .

المستقيم طولاً أو الذي يتشعب من فروع الشجرة ، أي : ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجرة ، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر وتمد الظل وتجتنى منها الثمار ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وليس فيها شي يقبل التكذيب ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أي : في كل واحدة منهما عين من ماء غير آسن تجري كيف يشاء صاحبها في الأعالي والأسافل لما علم من وصف أنهار الجنة ، وقيل : تجريان من جبل من مسك . وعن ابن عباس والحسن رضي الله عنهما : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ صنفان معهود وغريب لم يره أحد ولم يسمع به ، أو رطب ويابس ، أو حلو وحامض . ويقال : لونان ، وقيل : في المنظر دون المطعم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما « ما في الدنيا حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو » وذلك لأن ما في الجنة خلق من حلاوة الطاعات فلا يوجد فيها المر المخلوق من مرارة السيئات كزقوم جهنم ونحوه ، ولكون الجنة دار الجمال لا يوجد فيها اللون الأسود أيضاً لأنه من آثار الجلال ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : من هذه النعم اللذيذة ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ والمعنى : يحصل لهم جنتان متكئين أي : جالسين جلسة الملوك جلوس راحة ودعة معتمدين ﴿ عَلَى فُرُشٍ ﴾ جمع فراش بالكسر وهو ما يفرش ويبسط ويستمهد للجلوس والنوم ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي بالكسر من الثوب خلاف ظهارته ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ والاستبرق : ما غلظ من الديباج ، قيل : هو استفعل من البريق وهو الإضاءة ، وقيل : من البرقة وهو اجتماع ألوان ، وقد سبق شرحه في الدخان والمعنى : من ديباج ثخين وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها؟ يعني أن الظهارة كانت أشرف وأعلى كما قال عليه الصلاة والسلام : « لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه الحلة »[1] فذكر المنديل دون غيره تنبيهاً بالأدنى على الأعلى ، وقيل ظهائرها من سندس أو من نور أو هو مما قال الله تعالى : (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ .

أي : ما يُجْتنى من أشجارها من الثمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً . وقال قتادة لا يرد يده بعد ولا شوك . ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه الآلاء اللذيذة الباقية ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي : في الجنان المدلول عليها بقوله : (جَنَّتَانِ) لما عرفت أنها لكل خائفين من الثقلين أو لكل خائف حسب تعدد عمله ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ والمعنى : نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، وتقول كل منهن لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، وانظر كمال القصة والحديث في جامع الأصول ٩ / ٦٠ .

الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك » وقَصْرُ الطرف أيضاً من الحياء والغنج . وقد يقال : قاصرات طرف غيرهن عليهن أي إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفه إلى غيرهن لكمال حسنهنّ ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** ﴾ المعنى : لم يمسّ الإنسيات أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن، المدلول عليهم بقاصرات الطرف ، فهنّ كالرياض الأنف وهي التي لم ترعها الدواب قط ، وفيه ترغيب لتحصيلهن إذ الرغبة للأبكار فوق الرغبة للثيبات ، ودليل على أن الجن من أهل الجنة ، وأنهم يطمثون كما يطمث الإنس فإن مقام الامتنان يقتضي ذلك إذ لو لم يطمثوا كمن قبلهم لم يحصل لهم الامتنان به . ثمَّ إنَّ هؤلاء أي : قاصرات من حور الجنة المخلوقات فيها ما يبتذلن ولم يمسسن وهذا قول الجمهور . وقال الشعبي والكلبي : من نساء الدنيا أي لم يجامعهن بعد النشأة الثانية أحد سوآء كن في الدنيا ثيبات أو أبكاراً ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ من هذه النعم التي هي لتتع نفوسكم ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ قد سبق بيان المرجان وأما الياقوت فهو حجر صلب شديد اليبس رزين صاف منه أحمر وأبيض وأصفر وأخضر وأزرق وهو حجر لا تعمل فيه النار لقلة دهنيته ولا يثقب لغلظة رطوبته ولا تعمل فيه المبارد لصلابته ، بل يزداد حسناً على مرِّ الليالي والأيام وهو عزيز قليل الوجود سيما الأحمر وبعده الأصفر ، ومعنى الآية : مشبهات بالياقوت في حمرة الوجنة والمرجان أي : صغار الدر في بياض البشرة وصفائها فإن صغار الدر أنصع بياضاً من كباره وقال قتادة : في صفاء الياقوت وبياض المرجان (روي) عن أبي سعيد في صفة أهل الجنة عن رسول الله ﷺ : « لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخّ سوقهن دون لحمها ودمها وجلدها » وعنه عليه الصلاة والسلام : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على أثرهم كأشد كوكب إضاءةً ، قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرىء منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من ورآء لحمها من الحسن يسبحون الله بكرةً وعشياً لا يتغوَّطون ولا يتمخطون ولا يبصقون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ، ووقودُ مجامرهم الألوة ، وريحهم المسك »[1] وعنه عليه الصلاة والسلام: « إن المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها من ورآء سبعين حلة من حرير ومخها إن الله يقول : (**كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ**) فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورآئه »[2] وقال عمرو ابنُ ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من قُدَّامها ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ من النعم المتعلقة بالنظر والتمتع ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ** ﴾ أي : ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الجزاء ، وعن أنس رضي الله

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٢٥ .

(٢) أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً ، والوقوف أصحُّ ، وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٣ .

عنه أنه قال : قرأ رسول الله عليه الصلاة والسلام هل جزاء إلخ ، ثم قال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزآء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي »[1] .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من نعمه الواصلة في الدنيا والآخرة ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان ، فدون بمعنى الأدنى مرتبة ومنزلة لا بمعنى غير فالجنتان الأوليان أفضل من الأخريين كفضل المقربين على الأبرار ، وقيل : ليس دون من الدناءة بل من الدنو وهو القرب أى : ومن دون هاتين الجنتين إلى العرش أي : أقرب إليه وأرفع منهما وحمله بعض المفسرين على معنى الغير ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما ذكر من الجنتين ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ الدهمة بالضم السواد والأدهم الأسود ومنه قوله تعالى : (مُدْهَامَّتَانِ) أي : سوداوان يعني علا لونها دهمة وسواد من شدة الخضرة والري وإن شئت قلت : خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة ، وفي قوله (مُدْهَامَّتَانِ) إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض : وعلى الأولين الأشجار والفواكه ودلَّ هذا على فضل الأوليين على الأخريين ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث تتمتع أبصاركم بخضرة نباتات هاتين الجنتين وتنتفع أنوفكم بشمِّ رياحينها ، قال الفقهاء : إذا قرأ في الصلاة آية واحدة هي كلمة واحدة نحو قوله تعالى : (مُدْهَامَّتَانِ) أو حرف واحد نحو (قَ) و(صَ) و(نَ) فإن كل حرف منها آية عند البعض فالأصح أنه لا يجزي عن فرض القراءة لأنه لا يسمى قارئاً لأنَّ القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ نضخ الماء اشتد فورانه من ينبوعه كما في القاموس ، أي : فوارتان بالماء لا تنقطعان ، وهذا يدل أيضاً على فضل الأوليين على الأخريين لأنه تعالى قال في الأوليين : (عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ) وفي الأخريين (نَضَّاخَتَانِ) والنضخ دون الجري لأن النضخ هو الفوران وهو يتحقق بأن يكون الماء بحيث كلما أخذ منه شيء فار آخر مكانه ولا يكفي هذا القدر في جريانه فلا شك أن الجري أبلغ منه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نضاختان بالمسك والعنبر . وقال الكلبي : بالخير والبركة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث يحصل لكم الري من شراب تلكما العينين ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ بيان لفضلها فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، والرُمَّان فاكهة ودواء يعني بحسب حال الدنيا وإلا فإن الكل في الجنة للتفكه ومن هذا قال أبو حنيفة رحمه الله : من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث خلافاً لصاحبيه ، يعني أن أبا حنيفة لا يجعلها من الفاكهة بخلاف صاحبيه وغيرهما فلا

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والحكيم الترمذي في نوادره ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١٤٩ .

يحنث من حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل تمراً أو رماناً عنده وكذا الحكم عنده في العنب من جعلها من الفاكهة حملها على التخصيص بذكرهما بياناً لفضلها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث هيأ لكم ما به تتلذذون من الفواكه ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قيل في تفسير الخيرات أي : لسن بِدَمِرات ولا بِخِرات ، الدمر النتن ، والبَخَرُ بالتحريك النتن في الفم والإبط وغيرهما أي في تلك الجنان نساءٌ صالحاتٌ ، كريماتُ الأخلاق ، حسانُ الوجوه ، لا يتطلَّعن لغير أزواجهن ، حسنت أخلاقهن وشمائلهن ، ودامت محبتهن لأزواجهن ، فهنَّ عفائف صيِّنات ، في غاية الجمال والكمال ، وحسن المعاشرة والفِعال ، لا يقلن هُجْراً لكمال أدبهن وأخلاقهن ، وقيل (حسان) جمع حسنة وحسناء أي : حسان الخلق والخُلق . وهنّ من الحور وقيل : من المؤمنات الخيرات ، ويدل على الأول ما بعد الآية ، وفي الحديث :« لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على السموات والأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً ولعصابتها على رأسها خير من الدنيا وما فيها »[1] .

وروي أنهن يقلن (نحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كنا له وكان لنا)[2] وفي الأثر : إذا قلن هذه المقالة أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا نحن المصليات وما صليتن ، ونحن الصائمات وما صمتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقتن ، فغلبنهن ، والله غلبنهن وفيه بيان أن هاتين الجنتين دون الأوليين لأنه تعالى قال في الأوليين في صفة الحور العين : (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) وفي الأخريين : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد أنعم عليكم بما به تستمتعون من النساء ﴿ حُورٌ ﴾ جمع حوراء وهي البيضاء ووصفت في غير هذه الآية بالعين وهي جمع عيناء بمعنى عظيمة العين ، وقال بعضهم : شديدة سواد العين ﴿ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ قصرن في خدورهن وحبسن ، وفيه إشارة إلى أنهن لا يظهرن لغير المحارم وإن لم تكن الجنة دار التكليف ، وذلك لأنهن من قبيل الأسرار وهي تصان عن الأغيار غيرة عليها ، ومقصورات الطرف على أزواجهن لا يبغين بهم بدلاً ، والخيامُ جمع خيمة وهي القبة المضروبة على الأعواد ، هكذا جميع خيام الدنيا وهي لا تشبه خيام الجنة إلا بالاسم فإنه قد قيل إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهلون ما يرون إلا حين يطوف عليهم المؤمنون . وقال ابن مسعود : لكل زوجة خيمة طولها ستون ميلاً ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد خلق من النعم ما هي مقصورة ومحبوسة لكم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾

---

(١) رواه أحمد في المسند ، وله في الصحيح ما يؤيده من رواية البخاري وغيره ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٣ .

(٢) أخرجه الترمذي بلفظ (إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين ، يَغنِّين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها ، يقلن نحن الناعمات ..) إلى آخره ، وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٤ .

كالذي مرّ في نظيره في جميع الوجوه وقال بعضهم : أي قبل أصحاب الجنتين دلّ عليهم ذكر الجنتين . قال في كشف الأسرار : كرر ذلك في التشويق وتأكيداً للرغبة . وفيه أنه ليس بتكرير لأن الأول في أزواج المقربين وهذا في أزواج الأبرار ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع أنها ليست كنعيم الدنيا إذ قد تطمث المرأة في الدنيا ثم يتزوجها آخر ثيباً ، ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ ﴾ واحده رفرفة ، قيل : هو ما تدلّى من الأسِرَّة من عالي الثياب ، أو ضرب من البسط أو الوسائد ، قال في المفردات : الرفرف ضرب من الثياب مشبه بالرياض انتهى . ومن معاني الرفرف الرياض ، وفي القاموس : الرفرف ثيابٌ خضر تتخذ منها المحابس وتبسط وفضول المحابس والفرش وكل ما فضل فثنى والفراش والرقيق من الديباج ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ والعبقري منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد كثير الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب ، قال في القاموس : عبقر موضع كثير الجن ، وقرية ثيابها في غاية الحسن ، والعبقري : ضرب من البسط كالعباقري انتهى . وفي المفردات ؛ قيل : هو موضع للجن ينسب إليه كل نادر من إنسان وحيوان وثوب قال الله تعالى : (وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) وهو ضرب من الفرش جعله الله مثلاً لفرش الجنة ، وفي التكملة : عبقر اسم موضع يصنع فيه الوشي كانت العرب إذا رأت شيئاً نسبته إليه فخاطبهم الله على عادتهم . وفي فتح الرحمن : العبقري بسط حسان فيها صور وغير ذلك ، والعرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت عبقري . قال ابن عطية : ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام : « رأيت عمر بن الخطاب في المنام يستقي من بئر فلم أر عبقرياً يفري فريه » أي سيداً يعمل عمله ، وقيل : عبقر اسم رجل كان بمكة يتخذ الزرابي ويجيدها فنسب إليه كل شيء جيد حسن ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد هيأ لكم ما تتكئون عليه فتستريحون ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام أي : تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبىء عن إفاضة الآلاء المفصلة ، وارتفع عما يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها ﴿ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ وصف به الرب تكميلاً لما ذكر من التنزيه والتقرير ، وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلامُ ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » . قال الزروقي : ذو الجلال والإكرام هو الذي له العظمة والكبرياء والإفضال التام المطلق ، ومن عرف أنه ذو الجلال والإكرام هابه لمكان الجلال وأنس به لمكان الإكرام ، فكان بين خوف ورجاء وهو اسم الله الأعظم وقال بعضهم : أسماء الله تعالى كلها أعظم لدلالتها على العظيم فإنه إذا عظم الذات والمسمى عظمت الأسماء والصفات .

تمت سورة الرحمن بعون الملك المنان

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ أي : إذا قامت القيامة وحدثت وذلك عند النفخة الثانية يكون من الأهوال ما لا يفي بالمقال ، سماها واقعة لتحقُّق وقوعها ، فالواقعة من أسماء القيامة كالصاخّة والطامّة والآزفة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ المعنى : لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله وتفتري بالشريك والولد والصاحبة وبأنه لا يبعث الموتى ، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة وأكثرُ النفوس اليوم كاذبة مكذبة ، أو ليس لأجل وقعتها أو في حقها كذب بل كل ما ورد في شأنها من الأخبار حقٌ صادق لا ريب فيه ، ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ أي : هي خافضةٌ لأقوام ﴿ رَافِعَةٌ ﴾ لآخرين ، وتقديمُ الخفض على الرفع للتشديد في التهويل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : تخفض أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا وترفع أقواماً كانوا متضعين فيها ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ﴾ الرجُّ تحريك الشيء وإزعاجه والرجرجة الاضطراب ، أي : خافضةٌ رافعةٌ إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ولا تسكن زلزلتها حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً ﴾ أي : فُتَّتْ حتى صارت مثل السَّويق الملتوت ، من بسَّ السَّويق إذالتَّهُ والبسيسة سويق يُلت فيتُخذ زاداً ، أو سيقت وسيِّرت من أماكنها ، من بسَّ الغنم إذا ساقها ﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي : فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاءً ﴾ أي : غباراً وهو ما يسطع من سنابك الخيل ، أو الذي يرى في شعاع الكوة ، أو الهباء ما يتطاير من شرر النار ، أو ما ذرته الريح من الأوراق ﴿ مُنْبَثّاً ﴾ أي : منتشراً متفرقاً ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ إما خطاب للأمة الحاضرة والأمم السالفة تغليباً ، أو للحاضرة فقط ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أي : أصنافاً ﴿ ثَلاثَةً ﴾ اثنان في الجنة وواحد في النار ، وكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج فرداً كان أو شفعاً ﴿ فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ ﴾ تقسيمٌ للأزواج الثلاثة ، والأصل ما هم أي : أي شيء هم في حالهم وصفتهم والمرادُ تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل : ما عرفت حالهم أي شيء فاعرفها وتعجب منها فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال ، وأصحاب الميمنة : أصحاب المنزلة السنية ، وأصحاب المشأمة : أصحاب المنزلة الدنية ، أخذاً من تيمنهم بالميامن أي : بطرف اليمين وتشؤمهم بالشمائل أي : بجانب الشمال كما تقول : فلانٌ مبنّي باليمين والشمال إذا وصفته عندك بالرفعة والضعة تريد ما يلزم من جهتي اليمين والشمال من رفعة القدر وانحطاطه ، أو الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يُؤتونها بشمائلهم ، أو الذين يكونون يوم القيامة على يمين العرش فيأخذون

طريق الجنة ، والذين يكونون على شمال العرش فيقضى بهم إلى النار ، أو أصحاب اليُمْن وأصحاب الشؤم ، فإن السعدآء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة أخَّر ذكرهم ليقترن ببيان محاسن أحوالهم ، وأصل السبق التقدم في السير ثم تُجوِّز به في غيره من التقدم ، والمعنى السابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت محاسنهم ، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق ، فالمراد بالسبق هو السبق بالزمان أو الذين سبقوا في حيازة الكمالات الدينية والفضائل اليقينية ، فالمراد بالسبق هو السبق بالشرف, كما قال الراغب : يستعار السبق لإحراز الفضل وعلى ذلك (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) أي المتقدمون إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم وأعليت مراتبهم ورقيت إلى حظائر القدس نفوسهم الزكية . يقول الفقير : عُرِفَ هذا المعنى من قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجرَّ أنهار الجنة »[1] فإنه يظهر منه أن الفردوس مقام المقربين لقربه من العرش الذي هو سقف الجنة ، ولم يقل أولئك المتقربون لأنهم بتقريب ربهم سبقوا لا بتقرب أنفسهم ، ففيه إشارة إلى الفضل العظيم في حق هؤلاء (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي هم يتنعمون في جنات الخلد ، بما تشتهيه نفوسهم ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : هم أمم كثيرة من الأولين غير محصورة العدد،وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا عليهما السلام وعلى من بينهما من الأنبياء العظام وهذا التفسير مبنيٌّ على أن يراد بالسابقين غير الأنبياء . واشتقاق الثلة من الثل وهو الكسر وجماعة السابقين مع كثرتهم مقطوعة مكسورة من جملة بني آدم ، وقال الراغب : الثلة قطعة مجتمعة من الصوف ولذلك قيل للغنم ثلة ولاعتبار الاجتماع قيل (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ) أي : جماعة ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخَرِينَ ﴾ أي : من هذه الأمة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام : « إن أمتي يكثرون سائر الأمم »[2] أي : يغلبونهم بالكثرة ، فإنَّ أكثرية سابق الأمم السالفة من سابقي هذه الأمة لا تمنع أكثرية تابعي هؤلاء من تابعي أولئك .

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ والموضونة المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت أو المتواصلة من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والتوحيد ، وأوله (إن في الجنة مائة درجة ، أعدَّها لله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٩١ .

(٢) أصله في الصحيحين ولفظه (إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، ما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ١٨٧ .

الوضن وهو نسج الدرع ثم استعير لكل نسج محكم ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ والتقابل : أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات وإما بالعناية والمودة أي : مستقرين على سرر متكئين عليها أي : قاعدين قعود الملك للاستراحة (متقابلين) لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض ، وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب ، ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يدور حولهم للخدمة حالَ الشرب وغيره ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ جمع وليد وخدمة الوليد أمتع من خدمة الكبير ﴿ مُخَلَّدُونَ ﴾ مبقون أبداً على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحولون عنها لأنهم خلقوا للبقاء ومنْ خُلِقَ للبقاء لا يتغير . فهم للخدمة لا غير ، والحور العين للخدمة والمتعة وقيل : هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابون عليها ولا سيئات فيعاقبون عليها وفي الحديث : « أولاد الكفار خدم أهل الجنة »[1] ولفظ الولدان يشهد لأبي حنيفة رحمه الله في أن أطفال المشركين خدم أهل الجنة لأن الجنة لا ولادة فيها ولا تناسل .

﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ من الذهب والجواهر أي : بآنية لا عرى لها ولا خراطيم وهي الأباريق الواسعة الرأس لا خرطوم لها ولا يعوق الشارب منها عائق عن الشرب من أي موضع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الإناء من الحالة التي تناوله بها ليشرب ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق وهو الذي له عروة وخرطوم يبرق لونه من صفائه ، أي : بآنية ذات عرى وخراطيم ويقال : الكوب للماء وغيره ، والإبريق لغسل الأيدي ، والكأس لشرب الخمر ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أي : وبكأس من خمر جارية من العيون ، أخبر أن خمر الآخرة ليست كخمر الدنيا تستخرج بتكلُّف وعلاج وتكون في أوعية بل هي كثيرة جارية كما قال : (وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ) والكأس القدح إذا كان فيها شراب وإلا فهو قدح يقال : معن الماء إذا جرى ، أو ظاهرة تراها العيون في الأنهار كالماء المعين وهو الظاهر الجاري من المعاينة من عانه إذا شَخَّصه وميَّزه بعينه ، فإن قلت : كيف جمع الأكواب والأباريق وأفرد الكأس ؟ فالجواب : أن ذلك على عادة أهل الشرب فإنهم يعدون الخمر في الأواني المتعددة ويشربون بكأس واحدة ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ الصدع : شق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما ومنه استعير الصداع وهو الانشقاق في الرأس من الوجع ، أي : لا ينالهم بسبب شربها صداع كما ينالهم ذلك من خمر الدنيا وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول ، وليست في خمر الجنة بل هي لذة بلا أذى ﴿ وَلا يُنْزِفُونَ ﴾ أي : لا يسكرون يعني لا تذهب عقولهم أو ينفد شرابهم من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه فالنفاد إما للعقل وهو من عيوب خمر الدنيا أو للشراب فإنه بنفادها تختل الصحبة ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يقال : تخيرت الشيء : أخذت خيره أي : يختارونه ويأخذون

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط بلفظ (أولاد المشركين خدم أهل الجنة)وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٧١ .

خيره وأفضله من ألوانها وكلها خيار وهو عطف على بأكواب أي : يطوف عليهم ولدان بفاكهة وهو ما يؤكل من الثمار تلذذاً لا لحفظ الصحة لأنهم لا يمرضون ، ثم ذكر اللحم الذي هو سيد الإدام وكانت العرب يتوسعون بلحمان الإبل ويعزّ عندهم لحم الطير الذي هو أطيب اللحوم ويسمعون بها عند الملوك فوعدوها فقيل : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : يتمنّون مشوياً أو مطبوخاً يتناولونها مشتهين لها لا مضطرين ولا كارهين .

وفي الأسئلة المقحمة : لماذا قال : (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) فغاير بين اللفظين ، والجواب : لأن الفواكه كما تكون للأكل تكون أيضاً للنظر والشم ، وأما لحم الطير فمختلف الشهوات في أكل بعض أجزآئه دون البعض ، ولما لم يكن بعد الأكل والشرب أشهى من الجماع قال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ حور عين : أي نساء ، وحور : جمع حوراء وهي البيضاء أو الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، وعين : جمع عيناء وهي الواسعة الحسنة العين ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أي : الدر المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين أو المصون عما يضرُّبه ويدنسه في الصفاء والنقاء ، ولما بالغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء دلَّ على أن أعمالهم كانت كذلك لأن الجزآء من جنس العمل فقال : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : يفعل بهم ذلك كله جزآء بأعمالهم الصالحة في الدنيا فما جزآء الإحسان إلا الإحسان ، فالمنازل منقسمة على قدر الأعمال ، وأما نفس دخول الجنة فبفضل الله ورحمته لا بعمل عامل ، فمن طمع في أن يدخل الجنة ويأكل من اللحم اللذيذ ويشرب من الشراب الهنيء ويستمتع بالحور العين آثر وجه ربه ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي : باطلاً وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴾ ولا نسبة إلى الإثم أي : لا يقال لهم : أثمتم (لا لغو فيها ولا تأثيم) ولا سماع ، والإثمُ : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب ، والجمعُ آثام ﴿ إِلا قِيلاً ﴾ أي : قولاً ﴿ سَلامًا سَلامًا ﴾ أي : لكنهم يسمعون فيها قولاً سلاماً سلاماً ومعنى سماعهم السلام أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاماً بعد سلام ، أو لا يسمع كل من المسلم والمسلم عليه إلا سلام الآخر بدءاً أو رداً ، وفي الآية إشارة إلى أن جنات السابقين المقربين صافية عن الكدورات المنغصة لساكنيها ، فارغة عن المعاملات المحزنة لقاطنيها ، لا يكون أهلها إلا مع الحق ولا يسمعون إلا من الحق ، تجلى الحق لهم عن اسمه السلام المشتمل على السلامة من النقائص والآفات المتضمن للقربات والكرامات .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ شروع في تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شؤونهم الفاضلة إثر تفصيل شؤون السابقين ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي : لا تدري ما لهم من الخير والبركة بسبب فواضل صفاتهم وكوامل محاسنهم ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾ أي : هم في سدر ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ أي : غير ذي شوك لا كسدر الدنيا

فإن سدر الدنيا مخلوق بشوك وسدر الجنة بلا شوك كأنه خضد شوكه أي : قطع ونُزع عنه . والسِّدْرُ : شجر النبق وهو ثمر معروف محبوب عند العرب يتخذون من ورقه الحرض وفي المفردات : السِّدر : شجر قليل الغذآء عند الأكل وقد يخضد ويستظل به فجعل ذلك مثل لظل الجنة ونعيمها ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ** ﴾ قد نضد حمله وتراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه ليست له سوق بارزة وهو شجر الموز وهو شجر له أوراق كبار وظل بارد ﴿ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ** ﴾ ممتد لا ينتقص ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع ممدود ، وفي الحديث : « إنَّ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها »[1] وقال في كشف الأسرار : ويحتمل أن الظل عبارة عن الحفظ تقول فلان في ظل فلان أي : في كنفه لأنه لا شمس هناك انتهى . يقول الفقير : بل المراد منه الراحة كما في قوله تعالى : (**وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً**) لأنه إنما يجلس المرء في الظل للاستراحة ، وكانت العرب يرغبون فيه لقلته في بلادهم وغلبة حرارة الشمس ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « السلطان ظل الله في أرضه يأوي إليه كل مظلوم »[2] أي :يستريح عند عدله ومنه قولهم : مدَّ الله ظلاله أي : ظلال عدله ورأفته حتى يصل أثر الاستراحة إلى الناس كلهم ﴿ **وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ** ﴾ يسكب لهم ويصب أينما شاؤوا وكيفما أرادوا بلا تعب ، أو مصبوب سائل يجري على الأرض في غير أخدود لا ينقطع ، يعني كون الماء مسكوباً كثيراً إما عبارة عن كونه ظاهراً مكشوفاً غير مختص ببعض الأماكن والكيفيات ، أو عن كونه جارياً ، وأكثر ماء العرب من الآبار والبرك فلا ينسكب فلا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا بالماء الكثير الجاري حتى يجري في الهوآء على حسب الاشتهاء ﴿ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ** ﴾ بحسب الأنواع والأجناس ﴿ **لا مَقْطُوعَةٍ** ﴾ في وقتٍ من الأوقات كفواكه الدنيا ﴿ **وَلا مَمْنُوعَةٍ** ﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه كبعد المتناول وانعدام ثمن يشترى به وشوك في الشجر يؤذي من يقصد تناولها وحائط يمنع الدخول ونحوها من المحظورات ﴿ **وَفُرُشٍ** ﴾ جمع فراش وهو ما يبسط ويفرش أي : هم في بسط ﴿ **مَّرْفُوعَةٍ** ﴾ أي : رفيعة القدر أو مرتفعة ، أو مرفوعة على الأسرة وقيل : الفرش هي النساء حيث يكنى بالفراش وباللباس والإزار عن المرأة وفي الحديث : « الولد للفراش » فسمى المرأة فراشاً . وارتفاعها كونهن على الآرائك دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَآءً** ﴾ المعنى : ابتدأنا خلقهن ابتدآءً جديداً من غير ولادة ابدآءً وإعادة أما الإبدآء فكما في الحور لأنهنَّ أنشأهن الله في الجنة من غير ولادة ، وأما الإعادة فكما في نساء الدنيا المقبوضة عجائز ، جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستوآء كلما أتاهنَّ أزواجهن وجدهنَّ أبكاراً وذلك قوله تعالى ﴿ **فَجَعَلْنَاهُنَّ** ﴾ بعد

(١) الحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق « صفة أهل الجنة » ورواه مسلم والترمذي بنحوه ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٠٣ .
(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ، الفتح الكبير ٢ / ١٧١ .

أن كنَّ عجائز ﴿ أَبْكَاراً ﴾ أي : عذارى جمع بكر والمصدر البَكارة بالفتح . قال الراغب : البُكرة أول النهار ، ويُؤخذ منها معنى التعجيل لتقدمهاعلى سائر أوقات النهار ، فقيل لكل متعجل : بَكَّر ، وسميت التي لم تُفْتَضْ بكراً اعتباراً بالثيِّب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء ، قال بعضهم : دلَّ قوله (فجعلناهن أبكاراً) على أنَّ المراد بهنّ نساء الدنيا لأن المخلوقة ابتداء معلوم أنها بكر وهنَّ أفضل وأحسن من حور الجنة لأنهن عملنَ الصالحات في الدنيا بخلاف الحور ، وعن الحسن رضي الله عنه : قالت عجوز عند عائشة رضي الله عنها من بني عامر : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : « يا أم فلان : إن الجنة لا يدخلها عجوز » فولَّت وهي تبكي فقال ﷺ : « أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز »[1] وقرأ الآية ﴿ عُرُباً ﴾ جمع عَرُوب كرسل جمع رسول وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعُّلِ ، واشتقاقه من أعرب إذا بيّن ، والعَرُوبُ تبين محبتها لزوجها بشكل وغنج وحسن ، وفي المفردات : امرأة عَروبة مُعْرِبة بحالها عن عفتها ومحبة زوجها وفي بعض التفاسير : عُرباً كلامهن عربي ﴿ أَتْرَاباً ﴾ جمع ترب بالكسر وهي اللدة والسن ومن ولد معك ، وهي تِرْبي أي : مستويات في سن بنت ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن والقامة ستون ذراعاً في سبعة أذرع على قامة أبيهم آدم ، شباب جرد مكحولون أحسنهم كالقمر ليلة البدر وآخرهم كالكوكب الدري في السماء ، يبصر وجهه في وجهها وتبصر وجهها في وجهه ، لا يبزقون ولا يتمخطون وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد .

﴿ لأَصْحَابِ اليَمِينِ ﴾ متعلقة بأنشأنا ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ أي : هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين ، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت عليَّ الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان معه الرهط ، والنبي ليس معه رهط ، والنبيُّ ليس معه أحد ، ورأيت سواداً كثيراً سدَّ الأفق فقيل لي : انظر هكذا وهكذا ، فرأيت سواداً كثيراً سدَّ الأفق ، فقيل لي : هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب »[2] .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ شروع في تفصيل أحوالهم وهم الكفار لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ) ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أي : لا تدري ما لهم من الشر وشدة الحال يوم القيامة ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ أي : هم في حر نار تنفذ في المسام وهي ثقب البدن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الشمائل والبيهقي في البعث عن الحسن ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١٥٨ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي بأطول من هذا ، وله روايات متعددة ذكرهما البخاري ومسلم ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٧ / ٥٧١ .

وتحرق الأجساد والأكباد . قال في القاموس : الريح الحارة تكون غالباً في النهار ، والحرور الريح الحارة بالليل وقد تكون بالنهار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو الماء المتناهي في الحرارة ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ من دخان أسود بهيم فإن اليحموم الدخان والأسود من كل شيء . يقول الفقير : فيه تحذير عن شرب الدخان الشائع في هذه الأعصار ، فإنه يرتفع حين شربه ويكون كالظل فوق شاربه مع ما لشربه من الغوائل الكثيرة ليس هذا موضع ذكرها ، فنسأل الله العافية لمن ابتلي به إذ هو مما تستخبثه الطباع السليمة وهو حرام كما عرف في التفاسير ﴿ لا بَارِدٍ ﴾ كسائر الظلال ﴿ وَلا كَرِيمٍ ﴾ ولا نافع من أذى الحر لمن يأوي إليه ، نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح يعني أنه سماه ظلاً ثم نفى عنه وظيفة البرد والكرم ، وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون للظل البارد والكريم ، الذي هو لأضدادهم في الجنة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي : أنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب في الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين في الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : الذنب العظيم الذي هو الشرك ومنه قولهم : بلغ الغلام الحنث أي : الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب ، وحنث في يمينه خلاف برَّ فيها . وقال بعضهم : الحنث هنا الكذب ، لأنهم كانوا يحلفون بالله مع شركهم (لا يبعث الله من يموت) . يقول الفقير : يدل على هذا ما يأتي من قوله : (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) والحكمة في ذكر سبب عذابهم مع أنه لم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل : إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ، التنبيه على أن ذلك الثواب منه تعالى فضل لا تستوجبه طاعة مطيع وشكر شاكر وأن العقاب منه تعالى عدل فإذا لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً .

﴿ وَكَانُوا ﴾ مع شركهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لغاية عتوهم وعنادهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ أي : كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد تراباً وبعضها عظاماً نخرة وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعثُ ثانية ؟ فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت ، ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ أي : لمبعوثون ﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ، وفي تقديم الأولين مبالغة في الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ إلى ما وقتت به الدنيا وحدت من يوم معلوم لله معين عنده وهو يوم القيامة ، والميقات هو الوقت المضروب للشيء ينتهي عنده أو يبتدأ فيه ، ويوم القيامة ميقات تنتهي الدنيا عنده وأول جزء منه ، فالميقات الوقت المحدد وقد يستعار للمكان ، ومنه : مواقيت الإحرام للحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ الخطاب لأهل مكة وأضرابهم

﴿ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الحق والهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ أي : البعث ﴿ لآكِلُونَ ﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ أي : مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم وهو شجر كريه المنظر والطعم حار في اللمس منتن في الرائحة ، وهي الشجرة الملعونة في القرآن ﴿ فَمَالِئُونَ ﴾ يقال ملأ الإناء فهو مملوء من باب قطع ، والملىء بالكسر مقدار ما يأخذه الإناء إذا امتلأ ﴿ مِنْهَا ﴾ أي : من ذلك الشجر ﴿ الْبُطُونَ ﴾ أي : بطونكم من شدة الجوع ، أو بالقسر وفيه بيان لزيادة العذاب وكماله أي : لا يكتفى منكم بنفس الأكل كما لا يكتفي من يأكل الشيء تحلة القسم بل تلزمون بأن تملأوا منها البطون أي : يملأ كل واحد منكم بطنه أو بطون الأمعاء ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أي : على شجر الزقوم أي : عقيب ذلك بلا ريث لعطشكم الغالب ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ أي : الماء الحار في الغاية ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ كالتفسير لما قبله أي : لا يكون شربكم معتاداً ، بل يكون مثل شرب الهيم ، وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها يشبه الاستسقاء فتشرب ولا تروى إلى أن تموت أو تسقم سقماً شديداً ، والمعنى : أنه سلط عليهم من الجوع والتهاب النار في أحشائهم ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ملأوا منه بطونهم وهو في غاية الحرارة والمرارة سلّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الإبل العطاش ، وفيه بيان لزيادة العذاب أيضاً ، أي : لا يكون شربكم أيها الضالون كشرب من يشرب ماءً حاراً منتناً فإنه يمسك عنه إذا وجده مؤلماً معذباً بخلاف شربكم فإنكم تلزمون بأن تشربوا منه مثل ما يشرب الجمل الأهيم فإنه يشرب ولا يروى .

﴿ هَذَا ﴾ الذي ذكر من الزقوم والحميم أول ما يلقونه من العذاب ﴿ نُزُلُهُمْ ﴾ أي : رزقهم المعدّ لهم أي : كالنزل الذي يعد للنازل مما حضر مكرمة له ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : يوم الجزآء فإذا كان ذلك نزلهم فما ظنك بحالهم بعدما استقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار في النار ؟ وفيه من التهكم ما لا يخفى كما في قوله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) لأنَّ ما يعدُّ لهم في جهنم ليس مكرمة لهم ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي : فهلا تصدقون أيها الكفرة بالخلق والبعث فإنَّ من قدر على الإبدآء قَدَرَ على الإعادة ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أي : تقذفونه وتصبونه في أرحام النساء من النطف التي يكون منها الولد فقوله : (أَفَرَأَيْتُمْ) بمعنى أخبروني ﴿ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي : تُقَدِّرونه وتصورونه بشراً سوياً في بطون النساء ذكراً أو أنثى ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ له من غير دخل شيء فيه ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ أي : قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة فمنهم من يموت صغيراً ومنهم من يموت كبيراً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : إنا قادرون ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ ﴾ منكم ﴿ أَمْثَالَكُمْ ﴾ لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق ، يقال : سبقته على كذا أي : غلبته عليه وغلب فلان فلاناً على الشيء إذا أخذه منه بالغلبة

﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من الخلق والأطوار لا تعهدون بمثلها ، وقال الحسن البصري رحمه الله : أي نجعلكم قردة وخنازير كمن مسخ قبلكم إن لم تؤمنوا برسلنا يعني لسنا عاجزين عن خلق أمثالكم بدلاً منكم ومسخكم من صوركم إلى غيرها ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ ﴾ أي : الخلقة ﴿ الأُولَىٰ ﴾ هي خلقتهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، وقيل : هي فطرة آدم من التراب ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تتذكرون أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى حتماً ؟ فإنها أقل صنعاً لحصول المواد وتخصص الأجزآء وسبق المثال .

وفي الآية دليل على صحة القياس ، حيث جهَّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى ، وترك القياس إذا كان جهلاً كان القياس علماً وكل ما كان من قبيل العلم فهو صحيح ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ أي : تبذرونه من الحب وتعملون في أرضه بالسقي ونحوه والحرثُ : إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع ﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً يربو وينمو إلى أن يبلغ الغاية ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أي : المنبتون لا أنتم والزرع الإنبات وحقيقة ذلك يكون بالأمور الإلهية دون البشرية ولذا نسب الحرث إليهم ونفي عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه ، والحاصل : أن الحرث فعلهم من حيث أن اختيارهم له مدخل في الحرث ، والزرعُ خالص فعل الله فإن إنبات السنبل والحب لا مدخل فيه لاختيار العبد أصلاً وإذا نسب الزرع إلى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب التي هي سبب الزرع والإنبات . وفي الآية امتنان ليشكروا على نعمة الزرع والاستدلال بأن من قدر على الإنبات قدر على الإعادة فكما أنه ينبت الحب في الأرض وينبت بذر النطفة في الرحم فكذا ينبت من حب عجب الذنب في القبر ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ أي : لو أردنا ﴿ لَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي : الزرع ﴿ حُطَامًا ﴾ الحطم كسر الشيء مثل الهشم ، والمعنى : هشيماً أي : يابساً متكسراً متفتتاً بعدما أنبتناه وصار بحيث طمعتم في حيازة غلاله وجمعها ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ أي : فصرتم بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال أو تندمون على ما فعلتم فيه من الاجتهاد وأنفقتم عليه ،أو تندمون على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه . والتفكه : التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي قائلين : إنا لملزمون غرامة ما أنفقنا . والغرامة : أن يلزم الإنسان ما ليس في ذمته وعليه ، أو مهلكون بهلاك رزقنا أو بشؤم معاصينا من الغرام وهو الهلاك ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا رزقنا أو محدودون لا مجدودون أي : ممنوعون ، من الحد وهو المنع يعني لا حظَّ لنا ولا جد ولا بخت ولو كنا مجدودين لما فسد علينا .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ عذباً فراتاً ، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن

الشرب أهم المقاصد المنوطة به ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ أي : من السحاب ، واحده مُزْنَة وقيل : هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ له بقدرتنا ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ ملحاً زعاقاً لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون ما ذكر جميعاً من المطعوم والمشروب بتوحيد منعمه وإطاعة أمره ، أو فلولا تشكرون على أن جعلناه عذباً ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي : تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، والعربُ تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي منها الزناد وهي المرخ والعفار كما مرَّ في سورة يس ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ لها بقدرتنا ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي : جعلنا نار الزناد تذكيراً لنار جهنم ، من حيث علَّقنا بها أسباب المعاش ، لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم ، أو تذكرة وموعظة وأنموذجاً من جهنم لما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام : « ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزءٌ من سبعين جزأ من نار جهنم »[1] وقيل : تبصرة في أمر البعث فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب . وفي عين المعاني : وهو حجة على منكري عذاب القبر حيث تضمن النار ما لا يحرق ظاهره ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ ومنفعة وبلغة لأن حمل النار يشق ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ للذين ينزلون القَوَاءَ بالفتح وهو القفر الخالي عن الماء والكلاء والعمارة وهم المسافرون وتخصيصهم بذلك لأنهم أحوج إليها ليهرب منها السباع ويصطلوا من البرد ، ويجففوا ثيابهم ويصلحوا طعامهم ، فإن المقيمين أو النازلين بالبلد ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ معناه : فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى شكراً على تلك النعم وإن جحدها الجاحدون ، أو بذكره والمراد بذكر ربه هنا : تلاوة القرآن ﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ أي : فأقسم و ـ لا ـ مزيدة للتأكيد وتقوية الكلام كما في قوله تعالى : (لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ) ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أي : بمساقطها وهي مغاربها وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم ، أو بمنازلها ومجاريها فإن له تعالى في ذلك من الدليل على عظم قدرته وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان . وقيل : النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وإليه ذهب ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي : القسم المذكور ﴿ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ لما في القسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى بغير كتاب ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هو المقسم عليه أي : لكتاب كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد ، حسن مرضي في جنسه من الكتب ، أو كريم

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ ، وفي لفظ (والذي نفسي بيده ، لقد فضلت عليها بتسعةٍ وتسعين جزءاً ، كلهنّ مثل حرّها) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٢٦٠ .

عند الله . وقال بعضهم : كريم لأنه يدل على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور وشرائف الأفعال ، وقيل : كريم لنزوله من عند كريم بواسطة الكرام إلى أكرم الخلق ﴿ **فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ** ﴾ أي : مصون عن غير المقربين من الملائكة أي : لا يطلع عليه من سواهم وهو اللوح المحفوظ ﴿ **لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ إما صفة أخرى للكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية وأوضار الأوزار أو للقرآن فالمراد : المطهرون من الأحداث مطلقاً فيكون نفياً بمعنى النهي أي : لا ينبغي أن يمسّه إلا من كان على طهارة من الأدناس كالحدث والجنابة ونحوهما . وفي الفقه : لا يجوز لمحدث بالحدث الأصغر وهو ما يوجب الوضوء مس المصحف ، إلا بغلافه المنفصل غير المشرز كالخريطة ونحوها لأن مسَّه ليس مس القرآن حقيقة لا المتصل في الصحيح وهو الجلد المشرّز لأنه من المصحف يعني تبع له ، وهذا أقرب إلى التعظيم ، وكُرِهَ المسُّ بالكُمِّ لأنه تابع للحامل فلا يكون حائلاً .

﴿ **تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ صفة أخرى للقرآن ، يعني أنه منزَّل من عند الله ﴿ **أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم وسماه حديثاً لأنّ فيه حوادث الأمور ﴿ **أَنْتُمْ** ﴾ يا أهل مكة ﴿ **مُدْهِنُونَ** ﴾ الإدهان عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجد . والمعنى : متهاونون به ومستحقرون كمن يدهن في الأمر أي : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به ﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ** ﴾ أي : شكر رزقكم ، والمراد : نعمة القرآن ﴿ **أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** ﴾ أي : تضعون التكذيب لرازقه موضع الشكر ، أو تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى الأنواء ﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** ﴾ لولا للتحضيض لإظهار عجزهم والحلقوم مجرى الطعام ، وفي كشف الأسرار : مجرى النفس ، والبلعوم مجرى الطعام أي : فهلا إذا بلغت النفس أي : الروح أو نفس أحدكم وروحه الحلقوم وتداعت إلى الخروج ﴿ **وَأَنْتُمْ** ﴾ أي : والحال أنتم أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ **حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** ﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات ، ولكم تعطُّفٌ عليه ووفور رغبة في إنجائه من المهالك ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ** ﴾ أي : إلى المحتضر علماً وقدرةً وتصرفاً ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ حيث لا تعرفون حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة ، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا ، أو بملائكة الموت الذين يقبضون روحه ﴿ **وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ** ﴾ لا تدركون كنه ما يجري عليه لجهلكم بشؤوننا فقوله : (**لا تُبْصِرُونَ**) من البصيرة لا من البصر والأقرب تفسيره بقوله : لا تدركون كوننا أعلم به منكم ﴿ **فَلَوْلا** ﴾ بمعنى هلاَّ ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ** ﴾ أي : غير مربوبين مملوكين أذلاء ، من دان السلطان رعيته إذا ساسهم واستعبدهم ، أو المعنى : غير مجزيِّينَ ، فإن الدين الجزاء أيضاً ﴿ **تَرْجِعُونَهَا** ﴾ أي : النفس إلى مقرها وتردون روح

ميتكم إلى بدنه ، من الرجع وهو الرد والمعنى : إن كنتم غير مربوبين كما ينبىء عنه عدم تصديقكم بخلقنا إياكم ، فهلا ترجعون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم ؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في اعتقادكم ، أي : فإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهو شروع في بيان حال المتوفّى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة أي : فأما إن كان المتوفى من المقربين وهم أجلُّ الأزواج الثلاثة ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي : فله استراحة ، وفسّر بالرحمة لأنها سبب لحياة المرحوم ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزق ، أو هو ما يشم وعن أبي العالية : لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى ببعض ريحان الجنة فيشمه ثم يقبض روحه . وقال الزجاج : الريحان هنا التحية لأهل الجنة ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ أي : ذات تنعم ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ عبر عن السابقين بالمقربين لكونه أجل أوصافهم وعبر عن أصحاب اليمين بالعنوان السابق إذْ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبىء عن شأنهم ، كما ذكر للفريقين الآخرين ، واستعير اليمين للتيمن والسعادة ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ ﴾ يا صاحب اليمين ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ من إخوانك يسلّمون عليك عند الموت وبعده فيكون السلام إشارة له أنه من أهل الجنة قال في الإرشاد : هذا إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ) وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ ذمّاً لهم بذلك وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب وهو تكذيب البعث ونحوه ، والضلالُ عن الحق والهدى ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي : فله نُزُلٌ كائنٌ ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يشرب بعد أكل الزقوم كما فُصِّل فيما قبل ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي : إدخال في النار ، وقيل : إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها ، وقيل : ذلك ما يجده في القبر من سموم النار ودخانها ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي : حق الخبر اليقين وقيل : الحق الثابت من اليقين أي : الحق الثابت الذي لا يطرأ عليه التبدل والتغير ، واليقين علم يحصل به ثلج الصدور ويسمى برد اليقين فهو العلم الذي يحصل به اطمئنان النفس ويزول ارتيابها واضطرابها والمراد هنا : المعلوم المتيقن به ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ يا محمد ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فإن حقيقة ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التي من جملتها الإشراك به والتكذيب بآياته الناطقة بالحق ، وقال أبو عثمان قدس سره : فسبح شكراً لما وفقنا أمتك إليه من التمسك بسنتك . وفي فتح الرحمن : هذه عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها وبالإقبال على أمور الآخرة وعبادة الله والدعاء إليه (روي) أنه لما نزل : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قال عليه الصلاة والسلام : « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزل : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ

الأَعْلَىٰ) قال : « اجعلوها في سجودكم »[١] وكان عليه الصلاة والسلام يقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده : سبحان ربي الأعلى » واختلف الأئمة في التسبيح المذكور في الصلاة فقال أحمد : هو واجب تبطل الصلاة بتركه عمداً ويسجد لتركه سهواً والواجب عنده مرة واحدة وأدنى الكمال ثلاث ، وقال أبو حنيفة والشافعي : هو سنّة ، وقال مالك : يكره لزوم ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً ، والاسم هنا بمعنى الجنس أي : بأسماء ربك ، والعظيم صفة ربك .

قال عليه الصلاة والسلام : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً »[٢] حديث صحيح ، وفي حديث آخر : « من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً » قال ابن عطية : فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة وفهم ذلك غنى لا فقر معه ومن فهمه يشتغل بالاستعداد . قال الغزالي رحمه الله في منهاج العابدين : قراءة هذه السورة عند الشدة في أمر الرزق والخصاصة شيء وردت به الأخبار المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وعن الصحابة رضي الله عنهم حتى ابن مسعود رضي الله عنه حين عوتب في أمر ولده إذ لم يترك لهم الدنيا قال : لقد خلّفت لهم سورة الواقعة ، وعن هلال بن يساف عن مسروق قال : « من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة وأهل النار ، ونبأ الدنيا ونبأ الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة » .

تمت سورة الواقعة بعون الله وتوفيقه

● ● ●

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجهني ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٤١ .

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود ، بسنده عن أبي ظبية ، وله قصة شهيرة حدثت لعبد الله بن مسعود مع عثمان رضي الله عنهما فقد رُوي أنه لما مرض عبد الله بن مسعود ـ مرضه الذي توفي فيه ـ عاده عثمانُ بن عفان ، فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمةَ ربي ، قال : ألا آمرُ لك بطبيب ؟ قال : الطبيبُ أمرضني ، قال : ألا آمرُ لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أفتخشى على بناتي الفقر ؟إني أمرتُ بناتي أن يقرأن كل ليلةٍ سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقةٌ أبداً » وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٧.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه سبحانه ، بدأ الله بالمصدر في الإسرآء لأنه الأصل ، ثم بالماضي في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل في الجمعة والتغابن ، ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها ففيه تعليم عباده استمرار وجود التسبيح منهم في جميع الأزمنة والأوقات والحاصل : أن كلاً من صيغتي الماضي والمضارع جردت عن الدلالة على مدلولها من الزمان المخصوص فأشعر باستمراره في الأزمنة لعدم ترجيح البعض على البعض ، فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود مسبحة في كل الأوقات لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت بل هي مسبحة أبداً في الماضي وتكون مسبحة أبداً في المستقبل . وفي الحديث : « أفضل الكلام أربع : سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت »[1] وسئل علي رضي الله عنه عن سبحان الله فقال : كلمة رضيها الله لنفسه . والمراد بما في السموات والأرض جميع المخلوقات من حي وجماد ، وجاء بما تغليباً للأكثر مع أن أكثر العلماء على أن « ما » يعمّ العقلاء وغيرهم والمراد بتسبيح الكل : تسبيح عبادة ومقال ، قال الحسن البصري رحمه الله : لولا ما يخفى عليكم من تسبيح من معكم في البيوت ما تقاررتم ، فثبت أن السموات والأرض بجميع أجزائها وما فيهما من الملك والشمس ، والقمر ، والنجوم والإنس والجن ، والحيوان والنبات ، والجماد لها حياة وفهم ، وإدراك وتسبيح وحمد كما قال تعالى : (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ** ﴾ بقدرته وسلطانه لا ما يمانعه ولا ينازعه شيء ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ بلطفه وتدبيره لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي : التصرف الكلي ونفوذ الأمر فيهما وما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات مما نعلم وما لا نعلم . يقول الفقير : فإن قلت : كيف أضاف الملك إلى ما هو متناه وكالُ ملكه تعالى غير متناه ؟ قلت : إن للسموات والأرض ظاهراً وهو ما كان حاضراً ومرئياً من عالم الملك وهو متناه لأنه من قبيل الأجسام والصور ، وباطناً وهو ما كان غائباً غير محسوس من أسرارهما وحقائقهما وهو غير متناه لأنه من عالم الملكوت والمعاني فإضافة الملك إلى الله تعالى إضافة مطلقة يندرج تحتها الملك والملكوت وهما غير متناهيين في الحقيقة ، ألا ترى أن القرآن لا تنقضي عجائبه فهو بحر لا ساحل له من حيث أسراره ومن حيث أن المتكلم به هو الذي لا نهاية له وإن كان أي القرآن متناهياً في الظاهر والحس فالمراد بالملك هو الملك

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وانظر الفتح للسيوطي ١ / ٢١٢ .

الحقيقي لأن ملك البشر مجاز كما سيتضح بياناً في هذه السورة ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ استئناف مبين لبعض أحكام الملك أي : يحي الموتى والنطف والبيض ويميت الأحياء ومعنى الإحياء والإماتة جعل الشيء حياً وجعله ميتاً وقد يستعاران للهداية والإضلال في نحو قوله : (**أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتَاً فَأَحْيَيْنَاهُ**) ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة على مقتضى الحكمة والإرادة ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ تام القدرة فإن الصيغة للمبالغة ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ** ﴾ السابق على سائر الموجودات بالذات والصفات لما أنه مبدئها ومبدعها ، فالمراد بالسبق والأولية هو الذاتي لا الزماني فإن الزمان من جملة الحوادث أيضاً ﴿ **وَالآخِرُ** ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن عليتها فهي فانية ﴿ **وَالظَّاهِرُ** ﴾ ووجود الكثرة من دلائله الواضحة ﴿ **وَالبَاطِنُ** ﴾ حقيقة فلا يحوم العقل حول إدراك كنهه وليس يعرف الله إلا الله ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي ، فإن « عليم » صيغة مبالغة تدل على أنه تعالى تام العلم بكل شيء جليه وخفيه ، وفي هذا المقام معان أخر : هو الأول الذي تبتدأ منه الأسباب والآخر الذي تنتهي إليه المسببات أي : إذا نظرت إلى سلسلة الموجودات المتكونة بعضها من بعض وجدت الله مبدأ تلك السلسلة ومنتهاها تبتدىء منه سلسلة الأسباب وتنتهي إليه سلسلة المسببات ولذا قالوا : لا تعتمد على الريح في استوآء السفينة وسيرها وهذا شرك في توحيد الأفعال وجهل بحقائق الأمور ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول (**وَالظَّاهِرُ**) أي : الغالب على كل شيء (**وَالبَاطِنُ**) أي : العالم ببواطن كل شيء ، (وروي) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (دخلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فسألته خادماً فقال لها عليه الصلاة والسلام : « ألا أدلك على ما هو خير لك من ذلك ؟ أن تقولي : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر)[1] عُني بالظاهر الغالب والباطن العلم ببواطن الأشياء يعني أنه الغالب الذي يغلب كل شيء ولا يغلب عليه .

وإذا قيل في صفة الله هو الأول فمعناه الذي لم يسبقه في الوجود شيء وإلى هذا يرجع قول من قال :

---

(١) الحديث أخرجه مسلم بلفظ (إن فاطمة أتت النبي ﷺ تسأله خادماً ، وشكت العمل ، فقال : ألا أدلك على ما هو خير من خادم ؟ تسبحين الله ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدين ثلاثاً وثلاثين ، وتكبرين أربعاً وثلاثين ..) الحديث وأنظر جامع الأصول ٤ / ٢٥٧ وله روايات أخرى متعددة أما بهذه الصيغة فقد ورد في غير سؤال فاطمة الخادم .

هو الذي لا يحتاج إلى غيره ، ومن قال هو المستغني بنفسه . والظاهر والباطن في صفة الله : لا يقال مزدوجين كالأول والآخر فالظاهر قيل إشارة إلى معرفتنا البديهية فإن الفطرة تقضي في كل ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود كما قال تعالى : (**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**) ولذلك قال بعض الحكماء : مثل طالب معرفته مثل من طاف الآفاق في طلب ما هو معه ، والباطن إشارة إلى معرفته الحقيقية . وقيل ظاهرٌ بآياته باطن بذاته ، وقيل ظاهر بأنه محيط بالأشياء مدرك لها باطن في أن يحاط به كما قال (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**) .

وقال الترمذي : هو الأول بالتأليف والآخر بالتكليف ، والظاهر بالتصريف والباطن بالتعريف ، والأول بالإنعام والآخر بالإتمام ، والظاهر بالإكرام والباطن بالإلهام ، وقال بعض المحققين من أهل الأصول : هذا مبالغة في نفي التشبيه لأن كل من كان أولاً لا يكون آخراً وكل من كان ظاهراً لا يكون باطناً فأخبر أنه الأول الآخر الظاهر الباطن ليعلم أنه لا يشبه شيئاً من المخلوقات والمصنوعات .

﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ من أيام الآخرة ، أو من أيام الدنيا ، قال ابن عطية : وهو الأصوب أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ** ﴾ أي : استولى (١) ﴿ **عَلَى العَرْشِ** ﴾ المحيط بجميع الأجسام برحمانيته ، لأن استوى متى عُدِّي بعلى اقتضى معنى الاستيلاء ، وإذا عدِّي بإلى اقتضى معنى الانتهاء إليه إما بالذات أو بالتدبير ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ** ﴾ كالكنوز ، والدفائن ، والموتى ، والبذور ، وكالغيث ، ينفد في موضع وينبع في الآخر ، والولُوج : الدخول في مضيق ، وفي المناسبات الدخول في الساتر لجملة الداخل ﴿ **وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ كالجواهر من الذهب ، والفضة ، والنحاس ، وغيرها والزروع ، والحيوانات ، والماء وكالكنوز والموتى يوم القيامة ﴿ **وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ كالكتب والملائكة والأقضية والصواعق والأمطار والثلوج ﴿ **وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا** ﴾ كالملائكة الذين يكتبون الأعمال والدعوات والأرواح السعيدة والأبخرة والأدخنة ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ** ﴾ في الأرض وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما داروا وفي الحديث : « أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان » (٢) ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ فيجازيكم عليه ثواباً وعقاباً ، وهو عبارة عن إحاطته بأعمالهم ، فتأخيره عن الخلق لما أن المراد ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم ، لا لما قيل من أن الخلق دليل على العلم فبالخلق

(١) الصحيح في هذا مذهب السلف ، أنه تعالى استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله ، من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، وهكذا الأمر في جميع آيات الصفات وأحاديث الصفات نؤمن بها كما وردت ، مع نفي المشابهة .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية ، ولفظه (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت) الفتح الكبير ١ / ٢٠٨ .

يستدل على العلم والدليل يتقدم على المدلول وفي الآية : إيقاظ للغافلين وتنشيط للمتيقظين ودلالة لهم على الخشية والحياء من رب العالمين ، وإشارة لهم إلى أن أعمالهم محفوظة وأنهم مجزيون بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ والمعنى : إليه تعالى وحده لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً تُرَدُّ جميع الأمور فاستعدوا للقائه باختيار أرشد الأمور وأحسنها عند الله ، ولذا قرن بالأول يحيي ويميت وبالثاني ما يكون في الآخرة من رد الخلق إليه وجزائه إياهم بالثواب والعقاب ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ الإيلاج : الإدخال حتى يصير النهار أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والليل أقصر ما يكون تسع ساعات ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ باختلاف الفصول وبحسب مطالع الشمس ومغاربها ، حتى يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات ، والليل والنهار أبداً أربع وعشرون ساعة ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أي : مبالغ في العلم ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : بمكنوناتها اللازمة لها من الأسرار والمعتقدات وذلك أغمض ما يكون ، وهو بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه في نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ روي أن الآية نزلت في غزوة ذي العُسْرة وهي غزوة تبوك . وفي عين المعاني : يحتمل الزكاة والنفقة في سبيل الله ، والمعنى : جعلكم الله خلفاء في التصريف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، عبر عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً لهم في الإنفاق ، فإن من علم أنها لله وأنه بمنزلة الوكيل والنائب بحيث يصرفها إلى ما عينه الله من المصارف هان عليه الإنفاق ، أو جعلكم خلفاء من قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به . قال الشاعر .

ويَكْفيكَ قولُ النَّاسِ فيما ملكْتَهُ * لَقَدْ كانَ هذا مَرَّةً لفُلاَنِ

فلابد من إنفاق الأموال التي هي للغير وستعود إلى الغير فكما أن الإنفاق من مال الغير يهون على النفس إذا أذن فيه صاحبه فكذا من المال الذي على شرف الزوال .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ حسبما أُمروا به ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ . قال في فتح الرحمن : الإشارة فيه إلى عثمان رضي الله عنه وحكمها باقٍ يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ أي : أي شيء ثبت لكم وحصل حال كونكم غير مؤمنين وحقيقته ما سبب عدم إيمانكم بالله؟على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ وأي عذر في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ، وينبهكم عليه بالحجج

والآيات ؟ فإن الدعوة المجردة لا تفيد ، فلو لم يجب الداعي الذي لم يأت بالحجج ، لم يستحق الملامة والتوبيخ ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ الميثاق : عقد يؤكد بيمين وعهد ، والموثق الاسم منه أي : وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل دعوة الرسول إياكم إليه وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر وحمله بعض العلماء على المأخوذ يوم الذر أي : حين أخرجهم من صلب آدم في صورة الذر وهي النمل الصغير ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لموجب ما فإن هذا موجب لا موجب ورآءه ، وفي عين المعاني : أي : إن كنتم مصدقين بالميثاق . وفي فتح الرحمن : أي : إن دمتم على ما بدأتم به ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ ﴾ بواسطة جبرائيل عليه السلام ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ المطلق محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات من الأمر والنهي والحلال والحرام ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ الله يا قوم محمد ، أو العبد بسبب تلك الآيات ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من ظلمات الكفر والشرك والشك والجهل ، إلى نور الإيمان والتوحيد واليقين والعلم ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات بعد نصب الحجج العقلية . قال بعضهم : لرؤف بإفاضة نور الوحي ، رحيم بإزالة ظلمة النفس البشرية ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : وأيُّ شيء لكم من أن تنفقوا فيما هو قربة إلى الله ما هو له في الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عينه من المصارف ؟ وقال بعضهم : معناه لأجل الله ﴿ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء ، بل تبقى كلها لله بعد فناء الخلق؟ وإذا كان كذلك فإنفاقها بحيث تستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى من الإمساك لأنها إذاً تخرج من أيديكم مجاناً بلا عوض وفائدة . قال الراغب : وصف الله نفسه بأنه الوارث من حيث أن الأشياء كلها صائرة إليه . وقال أبو الليث : إنما ذكر لفظ الميراث لأن العرب تعرف أن ما ترك الإنسان يكون ميراثاً ، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم .

﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين (روي) أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنفقوا نفقات كثيرة حتى قال ناس هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً ، فنزلت الآية مبينةً أن النفقة قبل فتح مكة أعظم أجراً ﴿ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ ﴾ أي : فتح مكة الذي أزال الهجرة وقال عليه الصلاة والسلام فيه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » وهذا قول الجمهور . وقال الشعبي : هو صلح الحديبية فإنه فتح كما سبق في سورة الفتح ﴿ وَقَاتَلَ ﴾ العدو تحت لواء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . أي : لا يستوي في الفضل من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنفقون المقاتلون قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ وأرفع منزلة عند الله وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها فالدرجة بمعنى الرتبة والطبقة

وجمعها درجات وإذا كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج ﴿ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ لأنهم إنما فعلوا من الإنفاق والقتال قبل عزة الإسلام وقوة أهله ، عند كال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه أفواجاً وقلة الحاجة إلى الإنفاق والقتال وقد صرّح عليه الصلاة والسلام أيضاً بفضل الأولين بقوله : « لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1]قال في القاموس : المُد بالضم مكيال ، وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملءُ كفَّيْ الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدَّ يده بهما وبه سمي مداً ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي : كل واحدٍ من الفريقين ﴿ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : المثوبة الحسنى وهي الجنة لا الأولين فقط ولكن الدرجات متفاوتة ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه . قال في المناسبات : لما كان زكاة الأعمال إنما هو بالنيات وكان التفضيل مناط العلم قال مرغّباً في حسن النيات مرهّباً من التقصير فيها (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي : تجددون عمله على ممر الأوقات (خبير) أي : عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه ، فهو تعالى يجعل جزآء الأعمال على قدر النيات .

وقال الكلبي : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفيها دلالة ظاهرة وحجة باهرة على تفضيل أبي بكر وتقديمه ، فإنه أول من أسلم فيما روي أن أبا أمامة قال لعمرو بنِ عَبَسة : بأي شيء تدعي أنك ربع الإسلام ؟ قال : إني كنت أرى الناس على الضلالة ولا أرى للأوثان شيئاً ثم سمعت عن رجل يخبر عن أخبار مكة فركبت راحلتي حتى قدمت عليه فقلت : من أنت ؟ قال : « أنا نبي » قلت : وما نبي ؟ قال : « رسول الله » قلت : بأي شيء أرسلك ؟ قال : « أوحِّد الله لا أشرك به شيئاً وأكسِّر الأوثان وأصل الأرحام » قلت : من معك على هذا ؟ قال : حر وعبد ، وإذا معه أبو بكر وبلال فأسلمت عند ذلك فرأيتني ربع الإسلام »[2] وإنه أي : أبا بكر أول من أظهر الإسلام على ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كان أول من أظهر الإسلام رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد وأنه أول من قاتل على الإسلام وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً أشرف به على الهلاك ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ الإقراض : حقيقة إعطاء العين على وجه يطلب بدله ، وهو الإخلاص في الإنفاق أي : الإعطاء لله وتحري أكرم المال وأفضل الجهات والمعنى : من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه ؟ وقيل : المراد بالقرض الصدقة انتهى . وههنا وجه آخر : وهو أن القرض في الأصل القطع من قرض الثوب بالمقراض إذا قطعه به ثم سمي به ما يقطعه الرجل من أمواله فيعطيه عيناً بشرط رد بدله والمعنى : من ذا الذي

(١) أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (لا تسبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن ..) إلخ جامع الأصول ٨ / ٥٥٣ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم برقم ٨٣٢ وهذا طرف من الحديث ، وانظر تمامه في جامع الأصول ٩ / ١١٦ .

يقرض الله مالاً حسناً أي : حلالاً طيباً فإنه تعالى لا يقبل إلا الحلال الطيب ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ كأنه قيل : أيقرض الله أحد فيضاعفه له أي : فيعطيه أجره أضعافاً من فضله ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم حسن مرضي في نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة (روي) أنه لما نزلت فيه الآية جعل أبو الدحداح يتصدق بنصف كل شيء يملكه في سبيل الله ، حتى إنه كان له بستان فيه ستمائة نخلة فتصدق به ، ثم جاء إلى أمِّ الدحداح فقال : إني بايعت ربي وتصدقتُ ببستاني . فقالت : ربح بيعك ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح »[1] قال بعضهم : سأل الله منهم القرض ولو كانوا على نعت المروءة لخرجوا من وجودهم قبل سؤاله فضلاً عن المال ، فإن العبد وما يملكه لمولاه فإذا بذلوا الوجود المجازي وجدوا من الله بدله الوجود الحقيقي وله أجر كريم بحسب الاجتهاد في السير إلى الله والتوجه إلى عتبة بابه الكريم ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : اذكر وقت رؤيتهم يوم القيامة على الصراط ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ ﴾ أي : نور إيمانهم وطاعتهم ، والسعي : المشي السريع وهو دون العَدْو،ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً وأكثر ما يستعمل في الأفعال المحمودة ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ جمع يمين بمعنى الجارحة والمراد : جهة اليمين وبين ظرف للسعي ، قال أبو الليث : يكون النور بين أيديهم وبأيمانهم وعن شمائلهم إلا أن ذكر الشمال مضمر ، وقال في فتح الرحمن وخصَّ بين الأيدي بالذكر لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور وخصَّ ذكر جهة اليمين تشريفاً وناب ذلك مناب أن يقول وفي جميع جهاتهم ، وفي كشف الأسرار : لأن طريق الجنة يمنة وتجاههم وطريق أهل النار يُسرة ذات شمال وفي الحديث : « بينا أنا على حوضي أنادي هلمَّ إذا أناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني فأنادي ألا هلمَّ فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول : سحقاً »[2] ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ أي : تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم : بشراكم أي : ما تبشرون به اليوم جنات ، أو بشراكم دخول جنات ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا غاية وراءه لكونهم ظفروا بكل ما أرادوا ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : أخلصوا الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ﴿ انْظُرُونَا ﴾ أي : انتظرونا يقولون ذلك لما أن المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تزف بهم وهؤلاء

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٤٨ في سورة الحديد ، ومعنى « العِذْق » العنقود من النخيل أو العنب ، و «رداح » أي ضخم مخصب .

(٢) الحديث أصله في الصحيحين بألفاظ أخرى غير هذه الرواية وفيه (ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤمر بهم ذات الشمال ، فأقول رب أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم ، فأقول سحقاً سحقاً) .

مشاة ، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم .

وقرأ حمزة : « أَنْظِرُونا » من النظرة وهي الإمهال على أن تأنيهم في المضي ليلحقوا بهم إنظار لهم وإمهال ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أي : نستضئ منه ونمش فيه معكم ، وأصله اتخاذ القبس وهو محركة شعلة نار تقتبس من معظم النار كالمقباس . قال الراغب : القبس المتناول من الشعلة والاقتباس طلب ذلك ثم يستعار لطلب العلم والهداية . قال بعضهم : النار والنور من أصل واحد وهو الضوء المنتشر يعين على الإبصار ، وكثيراً ما يتلازمان لكن النار متاع للمقوين في الدنيا ، والنور متاع لهم في الدنيا والآخرة ولأجل ذلك استعمل في النور الاقتباس ، وقيل : (نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) أي : نأخذ من نوركم قبساً سراجاً وشعلةً ، وقيل : إن الله يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم وهو قوله تعالى : (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأ نور المنافقين فذلك قوله : (يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا) مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب المنافقون وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين : (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) ﴿ قِيلَ ﴾ طرداً لهم وتهكماً بهم من جهة المؤمنين أو من جهة الملائكة ﴿ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ ﴾ أي : إلى الموقف ﴿ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ أي : فاطلبوا نوراً فإنه من ثمة يُقْتَبس ، أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الإيمان والأعمال الصالحة . وروي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال : بينا العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيهم ظلمة ، ثم يقسم الله النور بين عباده فيعطي الله المؤمنين نوراً ، ويبقى المنافق والكافر لا يعطيان نوراً ـ فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصير لا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن ـ فيقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقولون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فيرجعون فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون وقد ضرب بينهم بسور)[1] أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر وقد علموا أن لا نور وراءهم وإنما قالوه تخييباً لهم ، أو أرادوا بالنور ما ورآءهم من الظلمة الكثيفة تهكماً بهم ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين الفريقين وهم المؤمنون والمنافقون ، ولما كان البناء مما يحتاج إلى عملٍ باليد ونحوها من الآلات عبر عنه بالضرب ومثله ضرب الخيمة لضرب أوتادها بالمطرقة ﴿ بِسُورٍ ﴾ أي : حائط بين شق الجنة وشق النار ، فإن سور المدينة حائطها المشتمل عليها . قال بعضهم : هو سور بين أهل الجنة والنار يقف عليه أصحاب الأعراف يشرفون على أهل الجنة وأهل النار وهو السور الذي يذبح عليه الموت يراه الفريقان معاً ﴿ لَهُ ﴾ أي : لذلك السور ﴿ بَابٌ ﴾ يدخل فيه المؤمنون فيكون السور بينهم

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٤٩ عن أبي أمامة بأوسع من هذا ، وقال : أخرجه ابن أبي حاتم .

باعتبار ثاني الحال أعني بعد الدخول لا حين الضرب ﴿ بَاطِنُهُ ﴾ أي : باطن السور أو الباب ﴿ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ لأنه يلي الجنة ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ﴾ أي : من جهته وعنده ﴿ الْعَذَابُ ﴾ لأنه يلي النار ، وقال بعضهم : هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد الرحمة وظاهره من قبَلِهِ العَذاب وهو واد يقال له وادي جهنم وكان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس : أنه الباب الذي قال الله (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ) الآية يعني أن هذا الموضع المعروف بوادي جهنم موضع السور . قال ابن عطية : وهذا القول في السور بعيد يعني بل المراد بالسور الأعراف ، يقول الفقير : لا بعد فيه بالنسبة إلى من يعرف الإشارة وقد روي أن عبادة قام على سور بيت المقدس الشرقي فبكى فقال بعضهم : ما يبكيك يا أبا الوليد ؟ فقال : ههنا أخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه رأى جهنم . وفي الحديث : « بيت المقدس أرض المحشر والمنشر »[1] فيجوز أن يكون الموضع المعروف بوادي جهنم موضع السور على أنه سور الأعراف بعينه، لكن على كيفية لا يعرفها إلا الله لأنه تبدل الأرض غير الأرض يوم القيامة وقد صحَّ أن مواضع العبادات تلتحق بأرض الجنة فلا بعد في أن يكون المسجد الأقصى من الجنة وخارجه من النار وبينهما السور ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ كأنه قيل : فماذا يفعلون بعد ضرب السُّور ومشاهدة العذاب ؟ فقيل : ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور ﴿ أَلَمْ نَكُنْ ﴾ في الدنيا ﴿ مَعَكُمْ ﴾ يريدون به موافقتهم لهم في الأمور الظاهرة كالصلاة والصوم أو المناكحة والموارثة ونحوها ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ، إضافةُ الفتنة إلى النفس إضافة الميل والشهوة ، وإلى الشيطان في قوله : (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) إضافة الوسوسة وإلى الله تعالى في قوله : (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ) إضافة الخلق لأنه خلق الضلال فيه فتنةً لهم ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر : والتربص : الانتظار . وقال مقاتل: وتربصتم بمحمد عليه الصلاة والسلام وقلتم : يوشك أن يموت فنستريح منه وهو وصف قبيح لأن انتظار موت وسائل الخير ووسائط الحق من عظيم الجرم والقباحة إذ شأنهم أن يرجى طول حياتهم ليستفاد منهم ويغتنم بمجالستهم ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ وشككتم في أمر الدين أو في النبوة أو في هذا اليوم ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ الفارغة التي من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ، وفي عين المعاني : وغرتكم خدع الشيطان ، وقال أبو الليث : أباطيل الدنيا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي : الموت ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ ﴾ الكريم ﴿ الْغَرُورُ ﴾ أي : غرّكم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم ، قال قتادة : مازالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار ، قال في المفردات : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والطبراني في الكبير ، وتتمته (ائتوه فصلّوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٩ .

وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين بالدنيا ، لما قيل : الدنيا تغر وتضر ثم تمرُّ ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ** ﴾ أيها المنافقون ﴿ **فِدْيَةٌ** ﴾ أي : فداء تدفعون به العذاب عن أنفسكم . والفداء حفظ الإنسان من النائبة بما يبذله عنه من مال أو نفس أي لا يؤخذ منكم دية ولا نفس أخرى مكان أنفسكم ﴿ **وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي : ظاهراً وباطناً وفيه دلالة على أن الناس ثلاثة أقسام : مؤمن ظاهراً وباطناً وهو المخلص ، ومؤمن ظاهراً لا باطناً وهو المنافق ، وكافر ظاهراً وباطناً ﴿ **مَأْوَاكُمُ** ﴾ مرجعكم ﴿ **النَّارُ** ﴾ لا ترجعون إلى غيرها أبداً ﴿ **هِيَ** ﴾ أي : النار ﴿ **مَوْلاكُمْ** ﴾ تتصرف فيكم تصرف المولى في عبيده لما أسلفتم من المعاصي أو أولى بكم فالمولى مشتق من الأولى بحذف الزوائد وحقيقته مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم ، أو متوليكم أي : المتصرف فيكم تتولاكم كما توليتم في الدنيا موجباتها ﴿ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أي : المرجع النار .

﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ** ﴾ من أَنَى الأمرُ يأتي أَنْياً وإِنَىً : إذا جاء إناه أي وقته ، وحان حينه وأدرك ، والخشوع ضراعة وذل أي : ألم يجيء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن به ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور . قال بعضهم : الذكر إن كان غير القرآن يكون المعنى أن ترق وتلين قلوبهم إذا ذكر الله فإن ذكر الله سببٌ لخشوع القلوب ﴿ **وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ أي : القرآن ، ومعنى الخشوع له : الانقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التي من جملتها ما سبق وما لحق من الإنفاق في سبيل الله . روي أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه من الخشوع فنزلت ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلاَّ أربع سنين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وعن الحسن رحمه الله : والله لقد استبطأهم وهم يقرأون من القرآن أقل مما تقرأون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق .

﴿ **وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ المراد : النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكي عنهم بقوله ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ** ﴾ أي : الأجل والزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم والأعمار والآمال وغلبهم الجفاء والقسوة وزالت عنهم الروعة التي كانت تأتيهم من التوراة والإنجيل إذا تلوهما وسمعوهما ﴿ **فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، والقسوة غلظ القلب وإنما تحصل من اتباع الشهوة فإن الشهوة والصفوة لا تجتمعان ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ أي : خارجون عن حدود دينهم رافضون لما في كتابهم بالكلية لفرط الجفاء والقسوة ، ففيه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في

آخر الأمر .

روي أن عيسى عليه السلام قال : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية » ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ** ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين .

﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ** ﴾ أي : المتصدقين والمتصدقات ﴿ **وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً** ﴾ أي : إن الناس الذين تصدقوا وتصدقن ، وأقرضوا الله فرضاً حسناً وأقرضن ، والإقراض الحسن : عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس وخلوص النية على المستحق للصدقة ، ففيه دلالة على أن المعتبر هو التصدق المقرون بالإخلاص فيندفع توهم التكرار لأن هذا تصدق مقيد وما قبله تصدق مطلق وفي الحديث : « يا معشر النساء تصدَّقْنَ وأكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار »[1] وفيه إشارة إلى زيادة احتياجهن إلى التصدق (روى) مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال : (شهدت مع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلاة العيد ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكئاً على بلال رضي الله عنه ، فأمر بتقوى الله وحثَّ على طاعته ، ووعظ الناس وذكَّرهم ثم مضى إلى النساء فوعظهن وذكَّرهنَّ فقال : تصدقن فإن أكثركنّ حطب جهنم ، قالت امرأة : لِمَ يا رسول الله ؟ فقال : « لأنكن تكثرن اللَّعنَ وتكفرن العشير » ـ أي : المعاشر وهو الزوج ـ فجعلن يتصدقن من حليهنّ ويلقين في ثوب بلال حتى اجتمع فيه شيء كثير قسمه على فقراء المسلمين)[2] ﴿ **يُضَاعَفُ لَهُمْ** ﴾ أي : ثواب التصدق ﴿ **وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ وهو الذي يقترن به رضى وإقبال ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ كافة ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو المرتبة ورفعة المحل ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله . قال في فتح الرحمن : الصدِّيق نعت لمن كثر منه الصدق وهم ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام : أبو بكر ، وعلي ، وزيد ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وحمزة ، وتاسعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، ألحقه الله بهم وإن تم به الأربعون لما عرف من صدق نيته . وقيل : الشهداء على ثلاث

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه مسلم وابن ماجه وأحمد والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٣ .

(٢) أصله في الصحيحين ، وهذا طرف من رواية مسلم .

درجات : الدرجة الأولى : الشهيد بين الصفين وهو أكبرهم درجة ، ثم كل من قضى بقارعة أو بلية وهي الدرجة الثانية مثل الغرق والحرق والهالك في الهدم والمطعون والمبطون والغريب والميتة بالوضع والميت يوم الجمعة وليلة الجمعة والميت على الطهارة ، والدرجة الثالثة : ما نطقت به هذه الآية العامة للمؤمنين . وقال بعضهم : في معنى الآية هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخباره تعالى ورسله والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة .

﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ والمعنى : لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، قال بعض الكبار : لا يكون الأجر إلا مكتسباً فإن أعطاك الحق تعالى ما هو خارج عن الكسب فهو نور وهبات ولا يقال له أجر ولهذا قال تعالى : (**لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**) فإن أجرهم ما اكتسبوه ونورهم ما وهبه الحق لهم من ذلك حتى لا ينفرد الأجر من غير أن يختلط به الوهب لأن الأجر فيه شائبة الاستحقاق إذ هو معاوضة عن عمل متقدم يضاف إلى العبد فما تمّ أجر إلا ويخالطه نور وذلك لتكون المِنّة الإلهية مصاحبة للعبد حيث كان فإن تسمية العبد أجيراً مشعر بأن له نسبة في الطاعات والأعمال الصادرة عنه فتكون الإجارة من تلك النسبة ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿ **أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً وفيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفاً ، وأراد بالكفر الكفر بالله فهو في مقابلة الإيمان بالله وبتكذيب الآيات تكذيب ما بأيدي الرسل من الآيات الإلهية وتكذيبها تكذيبهم فهو في مقابلة الإيمان والتصديق بالرسل وفيه وصف لهم بالوصفين القبيحين اللذين هما : الكفر ، والتكذيب .

﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ المقصود : الحياة في هذه الدار فكل ما قبل الموت دينا ، وكلٌّ ما تأخر عنه أخرى ﴿ **لَعِبٌ** ﴾ أي : عمل باطل تتعبون فيه أنفسكم إتعاب اللاعب بلا فائدة ﴿ **وَلَهْوٌ** ﴾ تلهون به أنفسكم وتشغلونها عما يهمكم من أعمال الآخرة ﴿ **وَزِينَةٌ** ﴾ من الملابس والمراكب والمنازل الحسنة تزينون بها ﴿ **وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ** ﴾ بالأنساب والأحساب تتفاخرون بها ، والفخر المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويُعبَّر عن كل نفيس بالفاخر كما في المفردات ﴿ **وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** ﴾ بالعدد والعدد . وقيل : لعب كلعب الصبيان وزينة كزينة النسوان وتفاخر كتفاخر الأقران وتكاثر كتكاثر الدهقان . قال علي لعمار رضي الله عنهما : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مطعوم ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ، فأكبر طعامها العسل وهو ريقة ذبابة ، وأكبر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان ، وأكبر الملبوس الديباج وهو نسج دودة ، وأكبر المشموم المسك وهو دم ظبية ، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأكبر المنكوح النساء وهو

مبال في مبال . وفي الحديث : « مالي وللدنيا ؟ إنما مثلي ومثل الدنيا ، كمثل راكب استظلَّ في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها »[1] ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ الغيث : مطر محتاج إليه يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه فهو مخصوص بالمطر النافع بخلاف المطر فإنه عام ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ أي : الحرّاث . قال الأزهري : العرب تقول للزارع كافر ، لأنه يكفر أي يستر بذره بتراب الأرض ، والكفر في اللغة : التغطية ، ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل ، والكفر القبر لستره الناس ، ومنه قولهم : « أهل الكفور أهل القبور » والليل كافر لستره الأشخاص ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ أي : النبات الحاصل منه أو المراد : الكافرون بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها والكافر لا يتخطى فكره عما أحسن به فيستغرق فيه إعجاباً ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي : يجف بعد خضرته ونضارته بآفة سماوية أو أرضية ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعدما رأيته ناضراً مونقاً ، وإنما لم يقل فيصفرُّ ،إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المرتب عليه رؤيته كذلك ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ قال في القاموس : الحطم الكسر أو خاص باليابس ، فالآية تحقير لأمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل ومنه المثل وبيان أنها أمور خيالية أي : باطلة لا حقيقة لها ، وعن علي رضي الله عنه : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) والدنيا قليلة النفع سريعة الزوال ، لا يركن إليها العقلاء فضلاً عن الاطمئنان بها ، وتمثيل لحالها في سرعة انقضائها وقلة نفعها ، بحال النبات المذكور ، زينة الحياة الدنيا هي زينة الله إلا أنها تختلف بالقصد وهي محبوبة بالطبع فإذا تحرك العبد إليها بطبعه كانت زينة الحياة الدنيا فذم بذلك ، وإن كانت غير محرمة شرعاً وإذا تحرك إليها بأمر من ربه كانت زينة الله وحمد بها ، وذلك لأن أمر الله وكل ما يرجع إليه جدٌّ كله ، والحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ، وفخرُ الإنسان على مثله إنما هو من جهله بحقيقته فهذا سبب الذم ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة ، وقَدَّم ذكر العذاب لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ كثير لا يقادر قدره لمن أعرض عنها وقصد بها الآخرة بل الله تعالى ، وفيه إشارة إلى فضل النية الحسنة ، وأنها تحيل المباح ونحوه إلى طاعة .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي : كالمتاع الذي يتخذ من نحو الزجاج والخزف مما يسرع فناؤه ، يميل إليه الطبع أول ما يراه ، فإذا أخذه وأراد أن ينتفع به ينكسر ويفنى ﴿ سَابِقُوا ﴾ أي : سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار وهو الميدان ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : إلى أسبابها وموجباتها كالاستغفار وسائر الأعمال الصالحة أي : بحسب وعد الله وإلا فالعمل

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٨٧ في الزهد وصحّحه وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٦ .

نفسه غير موجب ، وفي دعائه عليه الصلاة والسلام : « أسألك عزائم مغفرتك » أي : أن توفقني للأعمال التي تغفر لصاحبها لا محالة بإذن الله . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : كعرض سبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ، وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها ؟ فإن طول كل شيء أكثر من عرضه ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ هيئت ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل كما هو مذهب أهل السنّة ، وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها إذ لم يذكر مع الإيمان شيء آخر ، ولكن نيل الدرجات بالأعمال ، وفيه شيء فإن الإيمان بالرسل إنما يكمل بالإيمان بما في أيديهم من الكتب الإلهية والعمل بما فيها ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي وعد من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ وعطاؤه وهو ابتداء لطف بلا علة ﴿ يُؤْتِيهِ ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إيتاءه إياه من غير إيجاب لا كما زعمه أهل الاعتزال ﴿ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ ولذلك يؤتي من يشاء مثل ذلك الفضل الذي لا غاية وراءه ، والمراد منه التنبيه على أنّ عطاء العظيم عظيم ، والإشارة إلى أن أحداً لا يدخل الجنة إلا بفضل الله . قال عليه الصلاة والسلام : « خرج من عندي خليلي جبرائيل عليه السلام آنفاً فقال : يا محمد ، والذي بعثك بالحق إن عبداً من عباد الله عَبَدَ الله خمسمائة سنة على رأس جبل يحيط به بحر ، فأخرج الله له عيناً عذبة في أسفل الجبل ، وشجرة رمان كلّ يوم تخرج رمانة ، فإذا أمسى نزل وأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام للصلاة فسأل ربه أن يقبض روحه ساجداً وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء على جسده سبيلاً ، لعلّ يبعثه الله وهو ساجد ففعل ، ونحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا وهو على حاله في السجود قال جبريل : فنحن نجد في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له الرب : أدخلوا عبدي الجنة برحمتي ، فيقول العبد : بل بعملي فيقول الله : قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وبقيت عليه النعم الباقية بلا عبادة في مقابلتها . فيقول الله : أدخلوا عبدي النار ، فيجر إلى النار . فينادي : ويقول : برحمتك أدخلني الجنة ، فيقول الله : ردوه إلي ، فيوقف بين يديه فيقول : عبدي من خلقك ولم تك شيئاً ؟ فيقول : أنت يا رب ، فيقول : أكان ذلك بعملك أم برحمتي ؟ فيقول : بل برحمتك ، فيقول : من قوّاك على عبادة خمسمائة سنة ؟ فيقول : أنت يارب ، فيقول : من أنزلك في جبل وسط البحر وأخرج الماء العذب من بين المالح ، وأخرج لك رمانة كل ليلة وإنما تخرج في السنة مرة واحدة ؟ وسألتني أن أقبضك ساجداً ، من فعل بك ذلك كله ؟ فيقول : أنت يارب ، قال : فذلك كله برحمتي ، وبرحمتي أدخلك الجنة)[1].

---

(١) الحديث ذكره المفسرون ، ولم أره فيما بين يديَّ من مراجع الحديث وفي القصة مغزى لطيف ، بيانٌ أن العبد مهما عَبَد ربه ، فلن يؤدي شكر نعم الله تعالى ، إذ الشكرُ نعمةٌ تستوجب أيضاً الشكر ، وما توفيقي إلاّ بالله ، نسأل الله أن يعاملنا بفضله وإحسانه ، ولا يحرمنا جنة الخلد والنعيم ، إنه هو البرُّ الرحيم .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ والمصيبة أصلها في الرمية يقال : أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ثم اختص بالنائبة أي : ما حدث من حادثة كائنة في الأرض كجدب وعاهة في الزروع والثمار ﴿ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ كمرضٍ وآفة وموت ولد وخوف عدو وجوع ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أي : إلا مكتوبة مثبتة في علم الله أو في اللوح المحفوظ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ نخلق الأنفس أو المصائب أو الأرض فإن البرء في اللغة هو الخلق ، والبارىء الخالق ، وذكر ربيع بن صالح الأسلمي[1] قال : دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج حين أراد قتله ، فبكى رجل من قومه فقال سعيد : ما يبكيك ؟ قال : ما أصابك ، قال : فلا تبك قد كان في علم الله أن يكون هذا ، ألم تسمع قول الله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) قال في الروضة : رؤي الحجاج في المنام بعد وفاته فقيل : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلني بكل قتيل قتلة ، وبسعيد بن جبير سبعين قتلة ، وفي الآية دليل على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود وكذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ ، ليستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه تعالى عالماً بجميع الأشياء قبل وجودها وليعرفوا حلمه فإنه تعالى مع علمه أنهم يقومون على المعاصي خلقهم ورزقهم وأمَّلهم ، وليحذروا من أمثال تلك المعاصي وليشكروا الله على توفيقه إياهم للطاعات وعصمته إياهم من المعاصي ، وفيها دليل أيضاً أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها لأن إثباتها في الكتاب محال ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : إثباتها في كتاب مع كثرتها ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه فيه عن العدة والمدة وإن كان عسيراً على العباد ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا ﴾ يقال : أسى على مصيبته يأسى أسى من باب علم أي : حَزِن ، أي أخبرناكم بإثباتها وكتابتها في كتاب كيلا يحصل لكم الحزن والألم ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا كالمال والخصب والصحة والعافية ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي : أعطاكم الله منها ، فإن من علم أن كلاً من المصيبة والنعمة مقدَّر ، لا يعظم جزعه على ما فات ، ولا فرحه بما هو آت ، إذ يجوز أن يقدر ذهابه عن قريب ، وقيل : لأحد الحكماء : أيها الحكيم ، ما لك لا تحزن على ما فات ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يُتَلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحَبْرة أي : بالحبور والسرور ، ولا التأسف يرد فائتاً ، ولا الفرح يقرب معدوماً ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لأن أمسَّ جمرةً أحرقت ما أحرقت ، وأبقت ما أبقت ، أحب إليَّ من أن أقول لشيء لم يكن ليته كان . والمراد بالآية نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله ، والفرح الموجب للبطر والإختيال ولذا عقب بقوله تعالى ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فإن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالة والمختالُ : المتكبر المعجب وهو من الخيلاء ، وهو التكبر من تخيل فضيلة تترآءى للإنسان من نفسه ، ومنها

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أبي صالح ، كذا في الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٧٧ .

يتأول لفظ الخيل لما قيل أنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه زهواً ، قال في بحر العلوم : المختال ذو الخيلاء والكبر وهو من العام المخصوص بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام : (إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله أما الخيلاء التي يحبها الله فالاختيال عند الصدقة ، واختيال الرجل بنفسه عند اللقاء وأما الخيلاء التي يبغضها الله فالاختيال في البغي والفجور)[1] أي : لا يحب كل متكبر بما أُوتي من الدنيا فخور مبالغ في الفخر به على الناس ، انتهى . وفي الآية إشارة إلى أنه يلزم أن يثبت الإنسان على حال في السراء والضراء ، فإن كان لابد له من فرح ، فليفرح شكراً على عطائه لا بطراً ، وإن كان لابد من حزن فيحزن صبراً على قضائه لا ضجراً ، قال قتيبة بن سعيد : دخلت على بعض أحياء العرب فإذا أنا بفضاء مملوء من الإبل الميتة بحيث لا تحصى ، ورأيت شخصاً على تلٍّ يغزل صوفاً ، فسألته فقال : كانت باسمي ، فارتجعها من أعطاها ، ثم أنشأ يقول :

لا وَالَّذِي أَنَسا عَبْدٌ مِنْ خَلائِقِهِ * وَالمَرْءُ فِي الدَّهْرِ نَصْبَ الرِّزْءِ وَالمِحَنِ
مَا سَرَّنِي أَنَّ إِبْلِي فِي مَبَارِكِهَا * وَمَا جَرَى مِنْ قَضَاءِ اللهِ لَمْ يَكُنِ

حكي أن طيراً في عهد سليمان عليه السلام ، كان له صورة حسنة وصوت حسن ، اشتراه رجل بألف درهم ، وجاء طير آخر فصاح صيحة فوق قفصه وطار ، فسكت الطير ، وشكا الرجل إلى سليمان ، فقال : احضره فلما أحضروه ، قال سليمان : لصاحبك عليك حق ، فقد اشتراك بثمن غال ، فَلِمَ سكتَّ ؟ قال : يا نبي الله ، قل له حتى يرفع قلبه عني ، إني لا أصيح أبداً ما دمت في القفص ، قال : لِمَ ؟ قال : لأن صياحي كان من الجزع إلى الوطن والأولاد ، وقد قال لي ذلك الطير إنما حبسك لأجل صوتك ، فاسكت حتى تنجو ، فقال سليمان للرجل ما قال الطير : فقال الرجل : أرسله يا نبي الله فإني كنت أحبه لصوته ، فأعطاه سليمان ألف درهم ، ثم أرسل الطير فطار ، وصاح : سبحان من صوَّرني ، وفي الهواء طيَّرني ، ثم في القفص صيَّرني ، ثم قال سليمان : إن الطير مادام في الجزع لم يفرج عنه ، فلما صبر فرج عنه ، وبسببه خلص الرجل من التعلق به ، ففيه إشارة إلى الفناء عن أوصاف النفس ، فإذا فني العبد عنها تخلص من الاضطراب ، وجاز إلى عالم السكون ومعرفة سر القدر .

﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ** ﴾ المعنى : يمسكون أموالهم ولا يخرجون منها حق الله فإن البخل إمساك المقتنيات عما يحق إخراجها فيه ، والبخل ضربان : بخل بمقتنيات نفسه وبخل بمقتنيات غيره وهو أكثرهما وعلى ذلك قوله تعالى : (**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ**) كما في المفردات . وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال لبني سلمة : « من سيدكم ؟ » قالوا : الجد بن قيس

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الجهاد ، والنسائي في الزكاة ، وأحمد في المسند ٥ / ٦٢ .

وإنا لنبخّله ، فقال : « وأي داءٍ أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » وفي الحديث : « أربعة لا يجدون ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام : البخيل ، والمنان ، ومدمن الخمر ، والعاق للوالدين »[1] ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عنه وعن إنفاقه ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المحمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشيء من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وإشارة إلى أن من أعرض عن الإقبال على الله والإدبار عن الإنفاق ، فإن الله غنيٌّ بحسب ذاته عن إقباله ، وبحسب صفاته عن إدباره ، بل هو حميد في ذاته وصفاته ، لا ينفعه إقباله ولا يضره إدباره ، إذ الضار النافع هو لا غيره .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بعثنا الأنبياء إلى الأمم ليرشدوهم إلى الأمم وهو الأظهر كما في الإرشاد أي أرسلناهم بالمعجزات الواضحات ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي جنس الكتب الشامل للكل ، لتبيين الحقّ ، وتمييز صواب العمل أي لتكميل القوة النظرية والعملية ، فالنزول مع الكتاب شأن الملائكة ، والإنزال إليهم شأن الأنبياء ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي الميزان الذي يزن الناس به بيوعهم ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي ليتعاملوا بينهم بالعدل ، إيفاءً واستيفاءً ، ولا يظلم أحدٌ أحداً ، والميزان مصنوعات البشر ، وليس بمنزل من السماء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام : « الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج ، وعصا موسى وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع ، والحديد . وعن الحسن رحمه الله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ خلقناه كقوله تعالى : (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ) وذلك أن أوامره وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء . قال بعضهم : وأخرجنا الحديد من المعادن لأن العدل إنما يكون بالسياسة ، والسياسة مفتقرة إلى العُدَّة ، والعُدَّة مفتقرة إلى الحديد ، وأصل الحديد ماء وهو منزل من السماء ﴿ فِيهِ ﴾ أي : في الحديد ﴿ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ وهو القتال به ، أو قوة شديدة يعني السلاح للحرب لأن آلات الحرب إنما تتخذ منه ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ كالسكين ، والفأس ، والمحراث ، والإبرة ونحوها ، وما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ ليعلم من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائه ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : ينصرونه ولا يبصرونه وإنما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب من غير معاينة للمطاع ﴿ إِنَّ

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي بلفظ (أربعٌ حقٌّ على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن خمرٍ ، وآكل الربا ، وآكلُ مال اليتيم بغير حق ، والعاقُّ لوالديه) الفتح الكبير ١ / ١٦٨ ورواه مسلم والترمذي عن أبي ذر بلفظ : ثلاثة (لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، فقلت : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال : المسبلُ ، والمنَّانُ ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب) جامع الأصول ١١ / ٧٠٦ .

﴿ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يفتقر إلى نصرة الغير ، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه ، والقوَّةُ عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف وهي في حق الله بمعنى القدرة وهي الصفة التي بها يتمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة ، والعزَّةُ : الغلبةُ على كل شيء . قال الزروقي رحمه الله : القوي هو الذي لا يلحقه ضعفٌ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فلا يمسه نصب ولا تعب ولا يدركه قصور ولا عجز في نقض ولا إبرام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي : وبالله قد بعثنا ﴿ نُوحاً ﴾ إلى قومه وهم بنو قابيل وهو الأب الثاني ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ إلى قومه أيضاً وهم نمرود ومن تبعه ، ذكر الله رسالتهما تشريفاً لهما بالذكر ، ولأنهما من أول الرسل وأبوان للأنبياء عليهم السلام فالبشر كلهم من ولد نوح والعرب والعبرانيون كلهم من ولد إبراهيم ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيتِهِمَا ﴾ أي : في نسلهما ﴿ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ ﴾ بأن استنبأنا بعض ذريتهما وأوحينا إليهم الكتب ، مثل هود وصالح وموسى وهارون وداود وغيرهم ، فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدْلٍ إليهما بأمتن الأسباب ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي : فمن ذرية هذين الصنفين أو من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مُهْتَدٍ ﴾ أي : إلى الحق ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم فيكونون ضالين لا محالة ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ﴾ أي : ثم أرسلنا بعدهم رسلنا ، والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم من الأمم ، أو من عاصرهما من الرسل ، ولا يعود إلى الذرية فإن الرسل المقفى بهم من الذرية والمعنى : أتبعنا من بعدهم واحداً بعد واحد من الرسل ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ بنِ مَرْيَمَ ﴾ أي : أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم فأتينا به بعدهم ، فأول أنبياء بني إسرآئيل موسى وآخرهم عيسى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾ دفعة واحدة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ﴾ المؤمنين ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ أي : عيسى في دينه كالحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً ﴾ وهي اللين ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ وهي الشفقة أي : جعلنا رقة وعطفاً في قلوبهم كما كان الصحابة رضي الله عنهم رحماء بينهم ، حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصلابة ، فهم أعزَّة على الكافرين ، قيل : أمروا في الإنجيل بالصفح والإعراض عن مكافأة الناس على الأذى . وقيل لهم : من لطم خدك الأيمن فولِّه خدَّك الأيسر ، ومن سلب رداءك فأعطه قميصك ، ولم يكن لهم قصاص على جناية في نفس أو طرف ، فاتَّبعوا هذه الأوامر وأطاعوا الله ، وكانوا متوادين ومتراحمين ، ووصفوا بالرحمة خلاف اليهود الذين وصفوا بالقسوة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ أي : وابتدعوا رهبانية وهم أتباع عيسى ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي : حملوا أنفسهم على العمل بها ، أي : وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمةً ورهبانية مبتدعة من عندهم أي : وقفيناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها . والرهبانية : المبالغة في العبادة بمواصلة الصوم ولبسِ المُسُوح وترك ، أكل اللحم ، والامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الصوامع وسبب ابتداعهم إياها أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد

رفع عيسى فقاتلوا ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل ، فخافوا أن يفتتنوا عن دينهم فاختاروا الرهبانية في رؤوس الجبال ، فارّين بدينهم مخلصين أنفسهم للعبادة منتظرين البعثة النبوية التي وعدها لهم عيسى عليه السلام كما قال تعالى : (**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**) الآية (روي) أن الله لما أغرق فرعون وجنوده استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمصر فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا في رؤوس الجبال ، فكانوا أول من ترهب وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله ، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام ﴿ **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : ما فرضنا عليهم تلك الرهبانية في كتابهم ولا على لسان رسولهم ﴿ **إلا** ﴾ أي : لكن ابتدعوها ﴿ **ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ** ﴾ أي : لطلب رضاه تعالى ﴿ **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾ أي : فما رعوها جميعاً حق رعايتها ، وما قاموا بما التزموه حق القيام . ومما زعموا أنه قربة يُقرِّبهم إلى الله عز وجل ، ولهذا ورد : « من آمن بي وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون »[1] قال مقاتل : لما استضعفوا بعد عيسى التزموا الكهوف فما صبروا ، فأكلوا الخنازير وشربوا الخمور ودخلوا مع الفساق ، وفي المناسبات (فَمَا رَعَوْهَا) أي : لم يحفظها المقتدون بهم بعدهم كما أوجبوا على أنفسهم (حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي : بكمالها ، بل قصّروا فيها ورجعوا عنها ودخلوا في دين ملوكهم ، ولم يبق على دين عيسى عليه السلام إلا قليل ، ذمّهم الله بذلك من حيث أن النذر عهد مع الله لا يحل نكثه ، سيَّما إذا قصد رضاه تعالى ﴿ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ** ﴾ أي : من أتباع عيسى إيماناً صحيحاً وهو الإيمان برسول الله عليه الصلاة والسلام بعد رعاية رهبانيتهم ، لا مجرد رعايتها ، فإنها بعد البعثة لغوٌ محض ، وكفر بحت ، فأنّى لها استتباع الأجر ؟ ﴿ **أَجْرَهُمْ** ﴾ أي : ما يحسن ويليق بهم من الأجر وهو الرضوان ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ** ﴾ أي : من النصارى، وهم الذين ابتدعوا فضيعوا وكفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **فَاسِقُونَ** ﴾ خارجون عن حد الاتِّباع ، وهم الذين تهوَّدوا وتنصَّروا وفي الحديث : « أتدري ما رهبانية أمتي ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : الهجرة والجهاد »[2] روي أن نفراً من الصحابة رضي الله عنهم ، أخذهم الخوف والخشية ، حتى أراد بعضهم أن يعتزل النساء ، وبعضهم الإقامة في رؤوس الجبال ، وبعضهم ترك الأكل والشرب ، وبعضهم غير ذلك ، فنهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك كله ، فإنه لا رهبانية في الإسلام ، وقال في نفي

---

(١) لم أره بهذا اللفظ ، وقد أخرج أبو يعلى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تشدّدوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم ، فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم فشُدّد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم » الدر المنثور ٦ / ١٧٨ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والبيهقي بلفظ (إن لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله) الدر المنثور ٦ / ١٧٨ .

صوم الوصال : (إني لستُ كهيئتكم ، إني أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني)[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : بالرسل المتقدمة ﴿ اتَّقُوا اللهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ أي : بمحمد عليه الصلاة والسلام وفي إطلاقه إيذان بأنه علم فرد الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبين وأجرين ، نقل عن الراغب : الكفل الحظ الذي فيه الكفالة كأنه تكفل بأمره والكفلان هما النصيبان المرغوب فيهما بقوله تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً) ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ . وذلك لإيمانكم بالرسول وبمن قبله من الرسل لكن لا على أن شريعتهم باقية بعد البعثة بل على أنها كانت حقاً قبل النسخ ، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : الرجل يكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ، ويؤدبها فيحسن تأديبها ثم يعتقها ويتزوجها فله أجران ، ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي فله أجران ، والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده »[٢] ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى : (يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) فهو الضياء الذي يمشون به على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي فأما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم على ما ورد في الحديث الصحيح ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رحِيمٌ ﴾ أي : مبالغ في المغفرة والرحمة ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ ﴾ إذ التقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله ، يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي : ليعلموا ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ أي : ليتحققوا أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة ، ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله ﴿ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ والعظيم لابد أن يكون إحسانه عظيماً . وقد جوّز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب فالمعنى : اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ) ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله (وروي) أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت . وفي الحديث : (إنما مثلنا ومثل الذين أُوتوا الكتاب من قبلنا ، مثل رجل استأجر أجراء فقال : من يعمل إلى آخر النهار على قيراطٍ قيراط ؟ فعمل قوم ثم تركوا العمل نصف النهار . ثم قال : من يعمل نصف النهار إلى آخر

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في الصوم ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٣٧٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وله روايات متعددة ،وبعضها في الصحيحين ، وبعضها في السنن ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٠ .

النهار على قيراط قيراط ؟ فعمل قوم إلى العصر على قيراط قيراط ، ثم تركوا العمل ثم قال : من يعمل إلى الليل على قيراطين قيراطين ؟ فعمل قوم إلى الليل على قيراطين قيراطين . فقالت : الطائفتان الأوليان ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً ؟ فقال : هل نقصتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : ذلك فضلي أُوتيه من أشاء)[1] ففيه إشارة إلى أن أهل الكتاب أطول زماناً وعمراً وأكثر اجتهاداً وأقل أجراً ، وهذه الأمة أقصر مدة وأقل سعياً وأعظم أجراً ، وإلى أن الثواب على الأعمال ليس من جهة الاستحقاق لأن العبد لا يستحق على مولاه بخدمته أجرة ، بل من جهة الفضل ولله أن يتفضل على من يشاء بما يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

تمت سورة الحديد بعون الله وتوفيقه



(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ (مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل على أجر معلوم ..) الحديث وأخرجه الترمذي بنحو رواية المصنف ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٧٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلتُ الحبل أي : أحكمت فتله فكأنَّ المتجادلين يفتلُ كلُ واحد الآخر عن رأيه ، والمراد هنا : المكالمة ومراجعة الكلام أي : معاودته ، والمعنى : قد أجاب الله دعاء المرأة التي تكلِّمك في حق زوجها استفتاءً وتراجعك الكلام في شأنه ، وفيما صدر عنه في حقها من ظهاره إياها بغير وجهٍ مشروع وسببٍ مقبول ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ أي : تتضرع إلى الله تعالى وتظهر ما بها من المكروه . قال في المفردات : الشكاية إظهار البث ، وأصل الشكوى فتح الشكوة وإظهار ما فيها وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء وكان في الأصل استعارة كقولك: بثثت له ما في وعائي ونفضت ما في جرابي إذا أظهرت ما في قلبك ، والمجادِلةُ هي (خولة بنت ثعلبة الخزرجية) وزوجها « أوس بن الصامت » أخو عبادة ، روي أنها كانت حسنة البدن رآها أوسٌ وهي تصلي ، فاشتهى مواقعتها فلما سلَّمت راودها فأبت وكان به خِفَّة فغضب عليها وقال : أنت عليَّ كظهر أمي ، وكان أول ظهار وقع في الإسلام ثم ندم على ما قال ، بناء على أن الظهار والإيلاء كانا من طلاق الجاهلية ، فقال لها : ما أظنك إلا وقد حرمت عليَّ فشقَّ ذلك عليها فأتت رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها تغسل شقَّ رأسه ، فقالت : يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت أبو ولدي وابن عمي وأحب الناس إليَّ ظاهرَ مني وما ذكر طلاقاً وقد ندم على فعله ، فهل من شيء يجمعني وإياه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « ما أراك إلا وقد حرمت عليه » فقالت : يا رسول الله ما طلقني ، وذكرت فاقتها ووحدتها وأن لها صبية صغاراً فقالت : إن لي صبيةً صغاراً ، إن ضممتهم إليَّ جاعوا ، وإن ضممتهم إلى أبيهم ضاعوا ، فأعاد النبي عليه الصلاة والسلام قوله الأول وهو : ما أراك إلاَّ وقد حَرُمت عليه ، وجعلتْ تراجع رسول الله ﷺ مقالتها الأولى وكلما قال لها رسول الله: حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى الله مما لقيت من زوجي ، حال فاقتي ووحدتي وقد طالت معه صحبتي ونفضت له بطني)[1] تريد بذلك أني قد بلغت عنده سن الكبر وصرت عقيماً لا ألد بعد ، وكانت في كل ذلك ترفع رأسها إلى السماء على ما هو عادة الناس استنزالاً للأمر الإلهي من جانب العرش وتقول : « اللهم أنزل على لسان نبيك » فقامت عائشة تغسل الشق الآخر من رأسه عليه الصلاة والسلام وهي مازالت في مراجعة الكلام مع رسول الله وبثِّ الشكوى إلى الله ، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه

---

(١) قصة خولة بنت ثعلبة أخرجها ابن أبي حاتم من حديث عائشة ، وانظر جامع البيان للطبري ٢٨ / ٩ ومختصر ابن كثير ٣ / ٤٥٨ فهناك أخبار وآثار كثيرة حول قصتها وتفريج كربتها .

الآيات الأربع سمعاً لدعائها وقبولاً لشكواها فكانت سبباً لظهور أمر الظهار ، وفيه إشعار بأن الرسول والمجادِلَة كان يتوقعان أن ينزل الله حكم الحادثة ويفرج عنها كربها ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أي : يعلم تراجعكما الكلام وتخاطبكما وتجاوبكما في أمر الظهار ، فإن التحاور بمعنى التجاوب وهو رجع الكلام وجوابه من الحَوْر بمعنى الرجوع وذلك كان برجوع الرسول إلى الحكم بالحرمة مرة بعد أخرى ، ورجوع المجادلة إلى طلب التحليل كذلك،ومثله المحاورة في البحث ومنه قولهم في الدعاء : « نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر » أي : الرجوع إلى النقصان بعد الوصول إلى الزيادة ، أو إلى الوحشة بعد الأنس .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ مبالغٌ في العلم بالمسموعات والمبصرات ، ومن قضيته أن يسمع تحاورهما ويرى ما يقارنه من الفزع والتضرع ، والشكوى التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع . وما أحسن ما قال الإمام السهيلي رحمه الله :

يا مَن يرى ما في الضمير ويسمعُ * أنت المعدُّ لكل ما يُتَوقَّعُ
يا من يُرَجَّى للشدائد كلها * يا مَنْ إليه المشتكى والمفزع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة * ولئن رَددْتَ فأيَّ باب أقرع
حَاشَا لِلُطْفِكَ أن تقنّط عاصياً * الفضلُ أجزل والمواهبُ أوسع

وفي الآية دليل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له في مهمّته أحد سوى ربه ، وصدقَ في دعائه وشكواه كفاه الله ذلك ، ومن كان أضعف فالرب به ألطف . وفيها أن من استمع الله ورسوله والخلفاء إلى كلامه فسائر الناس أولى (روي) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بهذه المرأة في خلافته وهو على حمار والناس معه ، فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : « يا عمر قد كنت تدعى وأنت صغيرٌ عميراً ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر في الرعية ، فإنه من أيقن الموت خاف الفوت ، ومن أيقن الحساب خاف العذاب » وهو واقف يسمع كلامها فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف الطويل ؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ، مازلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي : « خولة بنت ثعلبة » سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟! .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون فلا يلحق بهم الذمي لأنه ليس من أهل الكفَّارة ، لغلبة جهة العبادة فيها فلا يصح ظهاره ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ هذا شروع في بيان الظهار في نفسه وحكمه المترتب عليه شرعاً بطريق الاستئناف ، والظهار لغةً : مصدر ظاهرَ الرجل أي : قال لزوجته : أنت عليَّ كظهر

أمي والظهرالعضو والجارحة ويعبر عن البطن بالظهر أي : أنت عليَّ حرام كبطن أمي فكنّى عن البطن بالظهر الذي هو عمود البطن ، لئلا يذكر ما يقارب الفرج تأدباً ، فمن قال : أنت عليَّ كبطن أمي أو فخذها أو فرجها كان ظهاراً ، بخلاف مثل اليد أو الرجل ، وكذا ألحقوا بالأم سائر المحارم فلو وضع المظاهر مكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب كالخالة والعمة أو رضاع أو صهر كان ظهاراً مثل أن يقول : أنت عليَّ كظهر خالتي أو عمتي ، أو أختي نسباً أو رضاعاً أو كظهر امرأة ابني فيترتب عليه أحكام الظهار لا غير ، وأنت عليَّ حرام كأمي صحَّ فيه ما نوى من ظهار ، أو طلاقٍ ، أو إيلاء ، ولو قال : أنت أمي أو أختي أو بنتي بدون التشبيه فهو ليس بظهار ، يعني إن قال : إن فعلت كذا فأنت أمي وفَعَله فهو باطل ، وفي إيراد « منكم » مع كفاية « من نسائهم » مزيد توبيخ للعرب وتقبيح لعادتهم في الظهار ، فإنه كان من أيمان جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ، فلا يليق بهم بعد الإسلام أن يراعوا تلك العادة المستهجنة فكأنه قيل : « منكم » على عادتكم القبيحة المستنكرة ، ويحتمل أن يكون لتخصيص نفع الحكم الشرعي للمؤمنين بالقبول والاقتداء أي : منكم أيها المؤمنون المصدقون بكلام الله المؤتمرون بأمر الله ، إذ الكافرون لا يستمعون الخطاب ولا يعملون بالصواب ، وفي « من نسائهم » إشارة إلى أن الظهار لا يكون في الأمة ومن ذلك قالوا : إن للظهار « ركناً » وهو التشبيه المذكور ، و« شرطاً » وهو أن يكون المشبه به منكوحة حتى لا يصحّ من الأمة ، و« أهلاً » وهو من كان من أهل الكفارة حتى لا يصح للذمي والصبي والمجنون ، و« حكماً » وهو حرمة الوطء حتى يكفر مع بقاء أصل الملك ﴿ **مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ** ﴾ أي : ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحتٌ ، يعني : أن من يقول لامرأته : أنتِ عليَّ كظهر أمي ملحق في كلامه هذا للزوجة بالأم وجاعلها مثلها ، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين وكانوا يريدون بالتشبيه الحرمة في المظاهر منها كالحرمة في الأم تغليظاً وتشديداً ، فإن قيل : فحاصل الظهار مثلاً أنت محرمة عليَّ كما حرمت عليَّ أمي وليس فيه دعوى الأمومة حتى تنفى وتثبت للوالدات يقال : إن ذلك التحريم في حكم دعوى الأمومة ، أو أن المراد نفي المشابهة لكن نفي الأمومة للمبالغة فيه ﴿ **إِنْ** ﴾ نافية بمعنى ما ﴿ **أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ في الحقيقة والصدق ﴿ **إِلا اللَّائِي** ﴾ جمع التي أي : النساء اللاتي ﴿ **وَلَدْنَهُمْ** ﴾ أي : ولدن المظاهرين فلا تشبه بهنَّ في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهنّ من أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، والمرضعات ، ومنكوحات الآباء لكرامتهن وحرمتهن ، فدخلن بذلك في حكم الأمهات ، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة فلا تلحق بهنّ بوجه من الوجوه ﴿ **وَإِنَّهُمْ** ﴾ أي : وإن المظاهرين منكم ﴿ **لَيَقُولُونَ** ﴾ بقولهم ذلك ﴿ **مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ على أن مناط التأكيد ليس صدور القول عنهم فإنه أمرٌ محقق ، بل كونه منكراً أي : عند الشرع وعند العقل والطبع أيضاً كما يشعره تنكيره ، وذلك لأن زوجته ليست بأمه حقيقة ولا ممن ألحقه الشرع بها ، فكان التشبيه بها إلحاقاً لأحد المتباينين

بالآخر فكان منكراً مطلقاً غير معروف ﴿ وَزُوراً ﴾ أي : كذباً باطلاً منحرفاً عن الحق فإن الزور بالتحريك الميل فقيل للكذب زُور بالضم لكونه مائلاً عن الحق . وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس ـ وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلت : ليته يسكت » رواه البخاري ، قال بعضهم : لما كان مبنى طلاق الجاهلية الأمر المنكر الزور ، لم يجعله الله طلاقاً ، ولم تبق الحرمة إلا مدة قصيرة إلى وقت التكفير ، والظهار الذي هو من طلاق الجاهلية نُسخ في الشريعة الإسلامية ، وجعل له كفارة لأنه ليس بطلاق ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : مبالغ في العفو والمغفرة لما سلف منه على الإطلاق ، وجاء الحث على التوبة لكون الكلام في ذم الظهار وإنكاره ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ المعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يعودون إلى ما قالوا وإلى ما فات عنهم بسببه ، من الاستمتاع بالتدارك والتلافي ،

أي ثم يعودون إلى تدارك ما قالوا ودفع ما لزم عليهم به من الفساد من حرمة الحلال ، ويجوز أن يكون المعنى ثم يريدون العود إلى ما حرموا على أنفسهم بلفظ الظهار من الاستمتاع ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ التحرير جعل الإنسان حراً وهو خلاف العبد ، والمعنى : فتداركه ، أو فالواجب إعتاق رقبة أيَّ رقبة كانت وإن كان تحرير المؤمن أولى والصالح أحسن فيعتقها مقروناً بالنية وإن كان محتاجاً إلى خدمتها فلو نوى بعد العتق أو لم ينو لم يجزىء ، وإن وجد ثمن الرقبة وهو محتاج إليه فله الصيام ، ولا يجزىء أم الولد والمدبر والمكاتب الذي أدى شيئاً فإن لم يؤد جاز ، ويجب أن تكون سليمة من العيوب الفاحشة بالإتفاق ، وعند الشافعي يشترط الإيمان قياساً على كفارة القتل كما قال تعالى : (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) قلنا حمل المطلق على المقيدً إنما هو عند اتحاد الحادثتين واتحاد الحكم أيضاً ، وهنا ليس كذلك ، والفاءُ للسببية ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار لأن تكرر السبب يوجب تكرر المسبب فلو ظاهر من امرأته مرتين أو ثلاثاً في مجالس متفرقة لزمه بكل ظهارٍ كفارة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أي : من قبل أن يستمتع كلٌ من المظاهِر والمظاهَر منها بالآخر ، جماعاً وتقبيلاً ولمساً ونظراً إلى الفرج بشهوة ، وذلك لأن اسم التماس يتناول الكل وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير يجب عليه أن يستغفر لأنه ارتكب الحرام ، ولا يعود حتى يكفر وليس عليه سوى الكفارة الأولى بالاتفاق ، وإن أعتق بعض الرقبة ثم مسَّ عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة رحمه الله ، ولا تسقط الكفارة بل يأتي بها على وجه القضاء كما لو أخَّر الصلاة عن وقتها فإنه لا يسقط عنه إتيانها بل يلزمه قضاؤها .

وفي الآية دليل على أن المرأة لا يسعها أن تدع الزوج يقربها قبل الكفارة ، لأنه نهاهما جميعاً عن

المسيس قبل الكفارة . قال القهستاني : لها مطالبة التكفير والحاكم يجبره عليه بالحبس ثم بالضرب ، فالنكاح باق والحرمة لا تزول إلا بالتكفير ، وكذا لو طلقها ثم تزوجها بعد العدة أو زوج آخر حرم وطئها قبل التكفير ، ثم العود الموجب لكفارة الظهار عند أبي حنيفة رحمه الله هو العزم على جماعها ، فمتى عزم على ذلك لم تحل له حتى يكفر ولو ماتت بعد مدة قبل أن يكفر سقطت عنه الكفارة لفوت العزم على جماعها ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي : الحكم بالكفارة أيها المؤمنون ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ الوعظُ : زجرٌ يقترن بتخويف أي : تزجرون به من ارتكاب المنكر المذكور ، والمراد بذكره بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علم في استتباع الثواب العظيم ، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من جناية الظهار والتكفير ونحو ذلك من قليل وكثير ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي : عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرع لكم ولا تُخلُّوا بشيء منها ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ أي : فالمظاهر الذي لم يجد الرقبة وعجز عنها ، بأن كان فقيراً وقت التكفير وهو من حين العزم إلى أن تقرب الشمس من الغروب من اليوم الأخير مما صام فيه من الشهرين ، فلا يتحقق العجز الحقيقي إلا به ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ أي : فعليه صيام شهرين ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ليس فيهما رمضان ولا الأيام الخمسة المحرم صومها أي : يوما العيد وأيام التشريق ، فيصلها بحيث لا يفصل يوماً عن يوم ولا شهراً عن شهر بالإفطار فإن أفطر فيهما يوماً أو أكثر بعذر أو بغير عذر استأنف ولم يحسب ما صام إلا بالحيض كما سيجيء ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأ ولو جامع زوجةً أخرى ناسياً لا يستأنف ، ولو أفطرت المرأة للحيض في كفارة القتل أو الفطر في رمضان لا تستأنف ، لكنها تصل صومها بأيام حيضها ، ثم إنه إن صام بالأهلة أجزأه وإن صام ثمانية وخمسين بأن كان كل من الشهرين ناقصاً ، وإن صامها بغيرها فلابد من ستين يوماً حتى لو أفطر صبيحة تسعة وخمسين وجب عليه الاستئناف ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أي : الصيام بسبب من الأسباب كالهرم والمرض المزمن أي : الممتد غير المرجو برؤه فإنه بمنزلة العاجز من كبر السنّ ، وإن كان يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطىء امرأته فالمختار أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام ، ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه ، ومن الأعذار الشبق المفرط وهو أن لا يصبر على الجماع ، فإنه عليه الصلاة والسلام رخّص للأعرابي أن يعطي الفدية لأجله ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ الإطعام جعله الغير طاعماً ففيه رمز إلى جواز التمليك والإباحة في الكفارة والمسكينُ من لا شيء له ، أو له مالا يكفيه ، وأسكنه الفقر أي قلّل حركته والذليل والضعيف كما في القاموس . يقول الفقير : إنما خصّ المسكين بالذكر لكونه أحق بالصدقة من سائر مصارف الزكاة ، وإطعام ستين مسكيناً يشمل ما كان حقيقياً وحكمياً بأن يطعم واحداً ستين يوماً فإنه في حكم ستين مسكيناً وإن أعطاه في يوم واحد

وبدفعات لا يجوز على الصحيح ، فيطعم لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره كما في الفطرة، والصاع أربعة أمداد ، ونصفه مُدَّان، ويجب تقديمه على المسيس لكن لا يستأنف إن مسَّ في خلال الإطعام لأن الله تعالى لم يذكر التماس مع الإطعام هذا عند أبي حنيفة رحمه الله وأما عند الآخرين فالإطعام محمول على المقيد في العتق والصيام ويجوز إخراج القيمة عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للثلاثة وفي الفقه : هذا إذا كان المظاهر حراً فلو كان عبداً كفَّر بالصوم وإن أعطاه المولى المال ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي : ذلك البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم .

إن قيل : إذا كان ترك الظهار مفروضاً فمابال الفقهاء يجعلونه باباً في الفقه ؟ أجيب بأن الله وإن أنكر الظهار وشنّع من تعوّد به من الجاهلين ، إلا أنه تعالى وضع له أحكاماً يعمل بها من ابتلي به من الغافلين ، فبهذا الاعتبار جعلوه باباً ليبينوا تلك الأحكام وزادوا قدر ما يحتاج إليه ، مع أن المحققين قالوا : إن أكثر الأحكام الشرعية للجهال ، فإن الناس لو احترزوا عن سوء المقال والفعال لما احتيج إلى تكثير القيل والقال ، ودلت الآية على أن الظهار أكثر خطأ من الحنث في اليمين لكون كفارته أغلظ من كفارة الحنث ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة من تحريم الظهار وإيجاب العتق للواجد ، وإيجاب الصوم لغير الواجد إن استطاع وإيجاب الإطعام لمن لم يستطع ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ التي لا يجوز تعديها وشرائعه الموضوعة لعباده التي لا يصح تجاوزها إلى ما يخالفها ، جمعُ حدٍّ وهو في اللغة : المنع والحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ، وحدُّ الزنى وحدُّ الخمر سمي بذلك لكونه مانعاً لمتعاطيه عن المعاودة لمثله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : الذين لا يعملون بها ولا يقبلونها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عبر عنه بذلك للتغليظ ؛ والأليم بمعنى المؤلم أي : الموجع كالبديع بمعنىالمبدع ، أو بمعنى المتألم لكن أسند مجازاً إلى العذاب مبالغة ، كأنه في الشدة بدرجة تتألم بها نفسه ، وفي إثبات العذاب للكافرين حثٌّ للمؤمنين على قبول الطاعة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : يعادونها ويشاقونها وكذا أولياء الله فإن من عادى أولياء الله فقد عادى الله ، وقال بعضهم : المحادة مفاعلة من لفظ الحديد والمراد المقابلة بالحديد سوآء كان في ذلك حديد حقيقة أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد ، وقال بعضهم في معنى الآية : يحادون أي : يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودها ففيه وعيد عظيم لحكام وأمرآء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع وسموها القانون ونحوه ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي : أُخْزُوا ، وفي المفردات : الكبت الرد بعنف وإذلال وفي القاموس : كبته يكبته صرعه وأخزاه وصرفه وكسره ، وردَّ العدو بغيظه وأذلَّه . قال ابن الشيخ : وهو يصلح لأن يكون دعاءً عليهم وإخباراً عما سيكون بالماضي لتحققه أي :

سيكبتون ويدخل فيهم المنافقون والكافرون جميعاً ، أما الكافرون فمحادتهم في الظاهر والباطن ، وأما المنافقون ففي الباطن فقط ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الماضية المعادين للرسل عليهم السلام مثل أقوام نوح وهود وصالح وغيرهم . وكان السري رحمه الله يقول : عجبت من ضعيف عصى قوياً فيقال له : كيف ذلك ؟ فيقول : (وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً) والقويُّ هو الإله القادر الذي خلق السموات والأرضين ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : إنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات فمن حادَّ الله ورسوله ، ممن قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم ، أو آيات بينات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ، والسؤال : بأن الإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل وهو إنما يتصور في الأجسام،والآيات التي هي من الكلام من الإعراض غير القارة ، فكيف يتصور الإنزال فيها؟ مجاب عنه : بأن المراد منه إنزال من يتلقف من الله ويرسل إلى عباده تعالى ، أو المراد منه الإيصال والإعلام على الاستعارة ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ، من الإهانة بمعنى التحقير ، والمعنى أن لهم الكبت في الدنيا ، ولهم عذابٌ مهين في الآخرة ، فهم معذبون في الدارين قال بعضهم : وصف الله العذاب الملحق بالكافرين أولاً بالإيلام ، وثانياً بالإهانة لأن الإيلام يلحق بهم أولاً ثم يهانون به ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ المراد : يوم القيامة أي : يحييهم الله بعد الموت للجزآء ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي : كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من القبائح ببيان صدورها منهم أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد ، تخجيلاً لهم وتشهيراً لحالهم وتشديداً لعذابهم ، وإلا فلا فائدة في نفس الإنباء لينبهوا على ما صدر منهم ﴿ أَحْصَاهُ اللهُ ﴾ كأنه قيل : كيف ينبئهم بأعمالهم وهي أعراض منقضية متلاشية ؟ فقيل : (أحصاه الله) أي : أحاط به عدداً وحفظه كما عمله لم يفت منه شيء ، ولم يغب . قال الراغب : الإحصاء التحصيل بالعدد ، يقال : أحصيت كذا وذلك من لفظ الحصى ، واستعمال ذلك فيه لأنهم كانوا يعتمدون في العدد على الأصابع وقال بعضهم : الإحصاء عدٌّ بإحاطة وضبط ، إذ أصله العدد بآحاد الحصى للتقوِّي في الضبط ، فهو أخص من العد لعدم لزوم الإحاطة فيه ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ أي : والحال أنهم قد نسوه لكثرته أو لتهاونهم حين ارتكبوه لعدم اعتقادهم ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور ، فالشهيد بمعنى الشاهد من الشهود بمعنى الحضور . فلابد من استحضار الذنوب والبكاء عليها وطلب التوبة من الله الذي يحصي كل شيء ولا ينساه ، قبل أن يجيء يوم يفتضح فيه المُصِرُّ على رؤوس الأشهاد ولا يقبل الدعاء والمعذرة من العباد . واعلم أن القول بأنه تعالى شهيد قول بأنه حاضر ، لكن بالحضور العلمي لا بالحضور الجسماني ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ استشهاد على شمول شهوده تعالى ، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل من يستحق الخطاب ،

والمعنى : ألم تعلم علماً يقينياً بمرتبة المشاهدة أنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض من الموجودات ؟ سرآء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما (روي) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم : أترى الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً وقال الثالث : إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كلَّه ـ وصَدَق لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها ، لأن كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ـ فنزلت الآية ﴿ **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ** ﴾ النجوى : السِّر الذي يُكتم ، وأصله أن تخلو في نَجْوةٍ من الأرض أي : مكان مرتفع عمّا حوله كأنَّ المتناجي بنجوةٍ من الأرض بعيداً عن الناس لئلا يطلع عليه أحد . والمعنى : ما يقع من تناجي ثلاثة نفر ومسارَّتهم ﴿ **إِلا هُوَ** ﴾ أي : الله تعالى ﴿ **رَابِعُهُمْ** ﴾ أي : جاعلهم أربعة من حيث أنه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها ، كما قال الحسين النوري : إلا هو رابعهم علماً وحكماً ، لا نفساً وذاتاً ﴿ **وَلا خَمْسَةٍ** ﴾ أي : ولا نجوى خمسة نفر ﴿ **إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ** ﴾ أي : إلا وهو تعالى جاعلهم ستة في الاطلاع على ما وقع بينهم ، وتخصيصُ العددين بالذكر لخصوص الواقعة لأن المنافقين المجتمعين في النجوى كانوا مرة ثلاثةً ، وأخرى خمسة . ويقال : إن التشاور غالباً إنما يكون من ثلاث إلى ستة ليكونوا أقل لفظاً وأجدر رأياً وأكتم سرّاً ، ولذا ترك عمر رضي الله عنه حين علم بالموت أمر الخلافة شورى بين ستة أي على أن يكون أمر الخلافة بين ستة ومشاورتهم واتفاق رأيهم ﴿ **وَلا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ** ﴾ أي : أقل مما ذكر كالإثنين والواحد فإن الواحد أيضاً يناجي نفسه ﴿ **وَلا أَكْثَرَ** ﴾ كالستة وما فوقها ﴿ **إِلا هُوَ مَعَهُمْ** ﴾ أي : الله مع المتناجين بالعلم والسماع ، يعلم ما يجري بينهم ولا يخفى عليه ما هم فيه ، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم ﴿ **أَيْنَمَا كَانُوا** ﴾ أي : في أي مكان كانوا من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض ، فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتي يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً .

﴿ **ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أي : يخبرهم بالذي عملوه في الدنيا ﴿ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ تفضيحاً لهم وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل سواء . قال ابن عطاء الله : متى علمت عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك فإن كان لا يقنعك علمه فيك ، فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتحلقون ثلاثة وخمسة ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم فنهاهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم عادوا لمثل فعلهم ، والخطاب للرسول ﷺ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : (خرج عليه الصلاة والسلام ذات ليلة ونحن نتحدث فقال : « هذه

النجوى ألم تنهوا عن النجوى ؟ فقلنا : تبنا إلى الله إنا كنا في حديث الدجال ، قال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم منه ؟ هو الشرك الخفي)[1] يعني المراءاة » ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ بيان الذي نهوا عنه لضرره في الدين أي بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ، والعدوان : الظلم والجور ، والمعصيةُ : خلاف الطاعة ﴿ وَإِذَا جَاؤُكَ ﴾ يعني : أهل النجوى ﴿ حَيَّوْكَ ﴾ التحية في الأصل مصدر حيَّاك على الإخبار من الحياة، فمعنى حياك الله جعل لك حياة طويلة ، ثم استعمل للدعاء بها ، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام ، فكل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول حياة أو سبب حياة إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ أي : بشيء لم يقع من الله أن يحييك به فيقولون : السام عليك ، وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليك ، وكان عليه الصلاة والصلام يرد عليهم فيقول : « وعليكم » أو يقولون : أَنعِمْ صباحاً ، وهو تحية الجاهلية من النعومة أي : ليصر صباحك ناعماً ليناً لا بؤس فيه ، والله سبحانه يقول : (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) واختلفوا في ردِّ السلام على أهل الذمة فقال ابن عباس والشعبي وقتادة : هو واجب لظاهر الأمر بذلك ، وقال مالك : ليس بواجب فإن رددت فقل عليك ، وقال بعضهم : يقول في الرد علاك السلام أي : ارتفع عنك ، وقال بعض المالكية : يقول في الرد : « السِّلام عليكَ » بكسر السين يعني الحجارة ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : فيما بينهم إذا خرجوا من عندك ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي : هلا يعذبنا الله ويغضب علينا ويقهرنا بجرآءتنا على الدعاء بالشر على محمد لو كان نبياً حقا ؟ ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : محسبهم وكافيهم جهنم في التعذيب من أحسبه إذا كفاه ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ويقاسون حرّها لا محالة ، وإن لم يعجل تعذيبهم لحكمة . والمراد : الاستهزاء بهم والاستخفاف بشأنهم لكفرهم وعدم إيمانهم ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : جهنم . قال بعض المفسرين : وقولهم ذلك من جملة ما غفلوا عما عندهم من العلم ، فإنهم كانوا أهل كتاب يعلمون أن بعض الأنبياء قد عصاه أمته وآذوه ولم يعجل تعذيبهم لحكمة ومصلحة علمها عند الله تعالى انتهى . ثم إن الله يستجيب دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام كما روي أن عائشة رضي الله عنها سمعت قول اليهود فقالت : (عليكم السام والذام واللعنةُ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا عائشة ارفقي فإن الله يحب الرفق في كل شيء ولا يحب الفحش ولا التفحش فقالت يا رسول الله أما سمعت ما قالوا ؟ فقال : أَمَا سمعتِ ما رددتُ عليهم ؟ فقلت : وعليكم ، فيستجاب لي فيهم)[2] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال ؟ الشرك الخفيُّ ، وأن يقوم الرجل فيصلي ، فيزيِّنَ صلاته لما يرى من نظر رجل) والحديث من رواية أبي سعيد الخدري ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٧٦ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت (دخل عل رسول الله ﷺ يهود ، فقالوا : السَّامُ عليك يا أبا =

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ يعني : في أنديتكم وخلواتكم ﴿ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ والعُدْوَانِ ومَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقْوَىٰ ﴾ أي : بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول ، قال سهل رحمه الله : تحدَّثوا بذكر الله ، وقرآءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وحده لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً فيجازيكم بكل ما تأتون وما تذرون . دلت الآية على أنَّ التناجي ليس بمنهي عنه مطلقاً بل مأمور به في بعض الوجوه إيجاباً واستحباباً وإباحةً على مقتضى المقام ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان بقرينة « لِيَحْزُنَ » ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ لا من غيره فإنه المزيّن لها والحامل عليها فكأنها منه ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الحُزْنُ بالضم ويُحرَّك الهمُّ ، وقال الراغب : الحُزْنُ والحَزْن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم . والمعنى : إنما هي ليجعل الشيطان المؤمنين محزونين بتوهمهم أنها نكبة أصابتهم في سيرتهم ، يعني أن غُزَاتهم غُلبوا وأن أقاربهم قُتلوا ، متألمين بذلك فاترين في تدبير الغزو إلى غير ذلك ممَّا يشوش قلوب المؤمنين ، وفي الحديث : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يُحْزِنه »[1] ﴿ وَلَيْسَ ﴾ أي : الشيطان أو التناجي ﴿ بِضَارِّهِمْ ﴾ بالذي يضر المؤمنين ﴿ شَيْئَاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿ إلا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي : بمشيئته وإرادته أي : ما أراده من حزن أو وسوسة . قال في الأسئلة المقحمة : أين ضرر الحزن ؟ قلت : إن الحزن إذا سلمت عاقبته لا يكون حزناً في الحقيقة وهذه نكتة أصولية إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضرراً في الحقيقة ، والنفع إذا كانت عاقبته العذاب لا يكون نفعاً في الحقيقة ﴿ وَعَلَىٰ اللهِ ﴾ خاصةً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾ ليفوّضوا أمورهم إليه وليثقوا به ولا يبالوا بنجواهم فإنه تعالى يعصمهم من شرها وضررها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني المخلصين ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ﴾ من أي قائل كان من الإخوان ﴿ تَفَسَّحُوا ﴾ أي : توسعوا ليفسح بعضكم عن بعض ولا تتضاموا من قولهم : افسح عني أي : تنح ، وأنت في فسحة من دينك أي في وسعة ورخصةٍ ، وفلان فسيح الخلق أي واسع الخلق ﴿ فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي : في كل ما تريدون

= القاسم ، فقالت عائشة : وعليكم السَّام واللعنةُ ،فقال يا عائشة :(أن الله لا يحبُّ الفُحش ولا التفحش !! قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : أوَ ما سمعتِ ما قلْت لهم ؟ قلتُ : وعليكم) فنزلت الآية ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيِّك به الله** ﴾ وانظر الدر المنثور ٦ / ١٨٤ .

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وابن مردويه من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٨٤ وأخرجه الترمذي وأحمد بنحوه وانظر الفتح الكبير ١ / ١٥٣ .

التفسح فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغيرها فإن الجزاءمن جنس العمل [١] ، والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواءً كان مجلس رسول الله ﷺ أو غيره ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتضامّون تنافساً في القرب منه عليه الصلاة والسلام ، وحرصاً على استماع كلامه ، أو مجلس حرب وكانوا يتضامّون في مراكز الغزاة ، ويأتي الرجل الصف ويقول : تفسحوا ويأبون لحرصهم على الشهادة ، أو مجلس ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، وإن كل واحد وإن كان أحق بمكانه الذي سبق إليه ، لكنه يوسع لأخيه ما لم يتأذ لذلك فيخرجه الضيق من موضعه ، وفي الحديث : « لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » [٢] وفي رواية : « لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا » ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ يقال : نشز الرجل إذا نهض وارتفع في المكان نشزاً ، والمعنى : وإذا قيل لكم قوموا للتوسعة على المقبلين أي : على من جاء بعدكم ﴿ فَانْشُزُوا ﴾ فارتفعوا وقوموا ، يعني إذا كثرت المزاحمة وكانت بحيث لا تحصل التوسعة بتنحي أحد الشخصين عن الآخر حال قعود الجماعة . وقيل : قوموا جميعاً تفسحوا حال القيام فانشزوا ولا تتثاقلوا عن القيام ، أو إذا قيل لكم قوموا عن مواضعكم فانتقلوا منها إلى موضع آخر لضرورة داعية إليه ، أطيعوا من أمركم به وقوموا من مجالسكم وتوسعوا لإخوانكم ، ويقال (وإذا قيل انشزوا) أي : انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أمرتم بالنهوض عنه فانهضوا ولا تُملُّوا رسول الله بالارتكان فيه ، أو انهضوا إلى الصلاة أو إلى الجهاد أو الشهادة أو غير ذلك من أعمال الخير فانهضوا ولا تتباطؤوا ولا تفرِّطوا ، فالقائل يعمّ الرسول وغيره ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ أي : من فعل ذلك طاعة للأمر وتوسعة للإخوان يرفعهم الله بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة ، لأن من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر وضعه ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : ويرفع العلماء منهم خاصة ، للدلالة على علو شأنهم وسمو مكانهم حتى كأنهم جنس آخر ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : طبقات عاليه ومراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل ، فإن العلم لعلو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة ، لا يدرك شَأْوَه العمل العاري عنه ، وإن كان في غاية الصلاح ، ولذا يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بعملكم أو بالذي تعملونه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء منه ،

---

(١) قال الفخر الرازي (يفسح الله لكم) مطلقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه ، في المكان ، والرزق ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، واعلم أن الآية دلت على أن كلَّ من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة « والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » انتهى التفسير للفخر الرازي ٢٩ / ٢٦٩ .

(٢) أخرج الرواية الأولى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً والرواية الثانية أخرجها مسلم وأحمد في المسند عن ابن عمر ، وهناك روايات أخرى في الصحيحين بنحوهما ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٦٩ والدر المنثور ٦ / ١٨٥ .

فهو خبير بتفسحكم ونشزكم ونيتكم فيهما فلا تضيع عند الله ، وجعله بعضهم تهديداً لمن لم يمتثل بالأمر أو استكرهه فلابد من التفسح والطاعة وطلب العلم الشريف ، ويعلم من الآية سر تقدم العالم على غيره في المجالس والمحاضر لأن الله تعالى قدمه وأعلاه حيث جعل درجاته عاليه ، وفي الحديث : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[١] . وعن بعض الحكماء : ليت شعري أيُّ شيء أدرك من فاته العلم ؟ وأيُّ شيء فات من أدرك العلم ؟ وكل علم لم يوطد بعمل فإلى ذل يصير ، قال مقاتل : إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة يقال له « لست بعالم ادخل الجنة بعملك ، ويقال للعالم : قف على باب الجنة واشفع للناس بما أحسنت أدبهم »[٢] ، وعن أبي الدردآء رضي الله عنه قال : لأن أعلم مسألة أحب إليَّ من أن أصلي مائة ركعة ولأن أُعلم مسألة أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة[٣] . قال أبو هريرة وأبو ذر رضي الله عنهما : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إذا جاء الموت طالب العلم على هذه الحال مات وهو شهيد »[٤] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بالإيمان الخالص ﴿ **إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ** ﴾ أي : إذا حدثتموه سراً في بعض شؤونكم المهمة الداعية إلى مناجاته عليه الصلاة والسلام ﴿ **فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ أي : فتصدقوا قبلها على المستحق كقول عمر رضي الله عنه : أفضل ما أُوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستطر به الكريم ويستنزل به اللئيم . والآية نزلت حين أكثر الناس عليه السؤال حتى أسأموه وأملّوه فأمرهم الله بتقديم الصدقة عند المناجاة فكفَّ كثير من الناس أما الفقير فلعسرته ، وأما الغني فلشحه وفي هذا الأمر تعظيم الرسول ونفع الفقراء ، والزجر عن الإفراط في السؤال والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا واختلف في أنه للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى : (**أَأَشْفَقْتُمْ**) الآية وهو وإن كان متصلاً به تلاوةً لكنه متراخٍ عنه نزولاً على ما هو شأن الناسخ واختلف في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقيل : كان ساعة من النهار ، والظاهر : أنه عشرة أيام لما روي عن علي رضي الله عنه أن قال : (إنَّ في كتاب الله لآيةً ما عمل بها أحدٌ قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي كان لي دينار فصرفته وفي رواية : فاشتريت به عشرة دراهم فكنت إذا ناجيته عليه الصلاة والسلام تصدقت بدرهم)[٥] يعني كنت أقدم بين يدي نجواي كل يوم درهماً إلى عشرة أيام وأسأله خصلةً

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث معاذ ، انظر الفتح الكبير ٢ / ٢٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه البيهقي بلفظ (يُبعث العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اثبتْ حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم) وانظر الترغيب والترهيب ١ / ١٠٢ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه عن أبي ذر بإسناد حسن بلفظ (يا أبا ذرٍّ لأن تغدو فتتعلم آيةً من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عُمل به أو لم يُعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة) الترغيب والترهيب ١ / ٩٧ .

(٤) الحديث أخرجه البزار عن أبي ذر وانظر الفتح الكبير ١ / ٩٨ .

(٥) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٦٥ وهذه رواية ليث بن أبي سليم عن مجاهد .

من الخصال الحسنة وعن ابن عمر رضي الله عنه : كان لعلي رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليَّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة رضي الله عنها ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى.

﴿ ذَلِكَ ﴾ التصدق ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون من إمساكه ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لأنفسكم من دنس الريبة ودرن البخل الناشىء من حب المال،الذي هو من أعظم حب الدنيا وهو رأس كل خطيئة . وهذا يشعر بالندب لكن قوله تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ منبىء عن الوجوب لأنه ترخيص لمن لم يجد في المناجاة بلا تصدق ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الإشفاق الخوفُ من المكروه ، ومعنى الاستفهام التقرير ، كان بعضهم ترك المناجاة للإشفاق . ولا مخالفة للأمر وجمع صدقات لجمع المخاطبين . قال في بعض التفاسير : أفرد الصدقة أولاً لكفاية شيء منها ، وجمع ثانياً نظراً إلى كثرة التناجي والمناجي . والمعنى : أخفتم الفقر يا أهل الغنى من تقديم الصدقات ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به وشقَّ عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم في أن لا تفعلوه وأسقط عنكم تقديم الصدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي : فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ عالمٌ بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنةِ لا يخفى عليه خافية فيجازيكم عليه ، فاعملوا ما أمركم به ابتغاءً لمرضاته لا لرياءٍ وسمعة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب من حال المنافقين الذين يتخذون اليهود أولياء وينـاصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل من يسمع ويعقل ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ من التولي بمعنى : الموالاة لا بمعنى الإعراض ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهُم اليهود كما أنبأ عنه قوله تعالى : (مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) والغضبُ حركة للنفس مبدأها إرادة الانتقام وهو بالنسبة إليه تعالى نقيض الرضى أو إرادة الانتقام أو تحقيق الوعيد أو الأخذ الأليم والبطش الشديد وتغيير النعمة ﴿ مَا هُمْ ﴾ أي : الذين تولوا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ في الحقيقة ﴿ وَلا مِنْهُمْ ﴾ أي : من القوم المغضوب عليهم لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك فهم وإن كانوا كفاراً في الواقع لكنهم ليسوا من اليهود حالاً لعدم اعتقادهم بما اعتقدوا وعدم وفائهم لهم ، ومآل المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ الحِلْفُ العهد بين القوم ، والمحالفة المعاهدة ، والحلف أصله اليمين التي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ، ثم عبر به عن كل يمين أي : يقولون : والله إنا لمسلمون فالكذب المحلوف عليه هو ادعاء الإسلام ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن المحلوف عليه كذب كمن يحلف بالغموس وهو الحلف على فعل أو ترك ماض كاذباً عمداً ، سُمِّي بالغموس لأنه يغمس صاحبه في الإثم ، ثم في النار، ولم يجعل حلفهم غموساً لأن الغموس حلف على الماضي وحلفهم هذا على الحال (وروي) أنه عليه الصلاة

والسلام كان في حجرة من حجراته فقال (يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ـ بتقديم النون على الباء الموحدة ـ وكان أزرق فقال له عليه الصلاة والسلام : « علاَمَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال عليه الصلاة والسلام : بلَىٰ فعلتَ فانطلق بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فنزلت)[1] فالكذب المحلوف عليه من هذه الرواية هو عدم شتمهم ﴿ **أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **عَذَاباً شَدِيداً** ﴾ والمراد : نوع من العذاب عظيم ﴿ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي : تمرنوا عليه وأصروا ، وتمرنهم واعتيادهم واستمرارهم على مثل ما عملوه ، بئس العمل والصنيع ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ** ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة ، واليمين في الحلف مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المحالف والمعاهد عنده ﴿ **جُنَّةً** ﴾ وهي الترس الذي يجنّ صاحبه أي : يستره والمعنى : وقاية وسترة يُسترون بها من المؤمنين ، ومن قتلِهم ونهب أموالهم ، فالاتخاذ عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة ﴿ **فَصَدُّوا** ﴾ أي : منعوا الناس وصرفوهم ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي : عن دينه في خلال أمنهم وسلامتهم ، وتثبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام وتضعيف أمر المسلمين عندهم ﴿ **فَلَهُمْ** ﴾ بسبب كفرهم وصدهم ﴿ **عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ أي مخزٍ بين أهل المحشر ﴿ **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ** ﴾ أي : من عذابه تعالى ﴿ **شَيْئاً** ﴾ قليلاً من الإغناء ، يقال : أغنى عنه كذا إذا كفاه يعني أنهم يحلفون كاذبين للوقاية المذكورة ولا تنفعهم إذا دخلوا النار أموالهم ولا أولادهم التي صانعوها وافتخروا بها في الدنيا ، أو يقولون إن كان ما يقول محمد حقاً لندفعن العذاب عن أنفسنا بأموالنا وأولادنا ، فأكذبهم الله بهذه الآية فإن يوم القيامة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يكفي أحدٌ أحداً في شأن من الشؤون ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة ﴿ **أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي : ملازموها ومقارنوها أو مالكوها لكونها حاصلهم وكسبهم الذي اكتسبوه في الدنيا بالسيئة المردية المؤدية إلى التعذيب ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ لا يخرجون منها أبداً .

﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً** ﴾ بمعنى : مجموعين ﴿ **فَيَحْلِفُونَ** ﴾ في ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ **لَهُ** ﴾ أي : لله تعالى على أنهم مسلمون مخلصون كما قالوا : (**وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**) ﴿ **كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ** ﴾ في الدنيا ﴿ **وَيَحْسَبُونَ** ﴾ في الآخرة ﴿ **أَنَّهُمْ** ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿ **عَلَى شَيْءٍ** ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ويستجرّون بها فوائد دنيوية ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ المبالغون في الكذب إلى غاية لا مطمح

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، ورواه أحمد في المسند ، وابن جرير الطبري ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٤٦٦ .

وراءها حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ، وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ من حُذْتُ الإبلَ : إذا استوليت عليها وجمعتها وسقتها سوقاً عنيفاً ، أي : استولى عليهم الشيطان وملكهم لطاعتهم له في كل ما يريد منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ﴾ أي : كان سبباً بالاستيلاء لنسيانه تعالى ، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنافقون الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : جنوده وأتباعه الساعون فيما أمرهم به ، والحزب الفريق الذي يجمعه مذهب واحد ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الموصوفون بالخسران الذي لا غاية ورآءه ، حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم ، قال بعضهم : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكير في آلاء الله ونعمه عليه والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب واللغو والغيبة والبهتان ، واشتغاله عن الحق بسماع اللهو والهذيان .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : يعادونها ويخالفون أمرهما ويتعدون حدودهما ويفعلون معهما فعل من ينازع آخر في أرض فيغلب على طائفة منها فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم فيظن من رآهم أنهم الأعزاء الذين لا أحد أعز منهم قال تعالى نفياً لهذا الغرور الظاهر ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الأباعد والأسافل بما فعلوا من المحادة ﴿ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ أي : في جملة من هو أذل خلق الله من الأولين والآخرين لا ترى أحداً أذل منهم لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر ، وحيث كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك وذلك بالسبي والقتل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم سوقة كانوا أو ملوكاً كفرة كانوا أو فسقة ﴿ كَتَبَ اللهُ ﴾ أي : قضى وأثبت في اللوح المحفوظ ، وحيث جرى ذلك مجرى القسم أجيب بما يجاب به ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أكده لما لهم من ظن الغلبة بالكثرة والقوة ، والمراد : الغلبة بالحجة والسيف أو بأحدهما ، والغلبة بالحجة ثابتة لجميع الرسل لأنهم الفائزون بالعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ، وأما الغلبة بالسيف فهي ليست بثابتة للجميع لأن منهم من لم يُؤْمر بالحرب ، قال الزجاج : غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب ، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة ، وإذا انضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف كان أقوى .

وعن مقاتل أنه قال : قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهنَّ ، رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم ، فقال رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ واللهِ إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنُّوا فيهم ذلك !!

فنزل قوله تعالى : (كَتَبَ اللهُ ....) الآية . ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ على نصر أنبيائه . قال بعضهم : القوي هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا يمسّه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا عجز نقض ولا إبرام ، والقوة في الأصل عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف ويراد بها القدرة بالنسبة إلى الله تعالى ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب عليه في مراده ، فإن قلت : فإذا كان الله قوياً عزيزاً غير عاجز فما وجه انهزام المسلمين في بعض الأحيان وقد وُعِدُوا النصرة ؟ قلت : إن النصرة والغلبة منصب شريف فلا يليق بالكافر لكن الله تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين لأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروري بأن الإيمان حقّ وما سواه باطل ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان ، وأخرى على أهل الكفر ، لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله ، ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي فيكون تشديد المحنة عليه في الدنيا تمحيصاً لذنوبه وتطهيراً لقلبه ، وأما تشديد المحنة على الكافر فهو من قبيل الغضب ألا ترى أن الطاعون مثلاً رحمة للمؤمنين ورجز للكافرين !!

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، أو لكل أحد ﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والموادّة : أي المحابة ، وهي حالة تكون في القلب أولاً ويظهر آثارها في القالب ثانياً ، والمراد : بمن حادَّ الله ورسوله : المنافقون واليهود والفساق والظلمة والمبتدعة . والمراد بنفي الوجدان : نفي الموادة على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال . قال ابن الشيخ : المعنى ؛ لا يجتمع الإيمان مع ودادة أعدآء الله ، فإن قيل : اجتمعت الأمة على أنه يجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم فما هذه الموادة المحرمة ؟ فالجواب : أن الموادة المحرمة هي إرادة منافعه ديناً ودنيا مع كونه كافراً وما سوى ذلك جائز ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ أي : من حاد الله ورسوله ﴿ آبَاءَهُمْ ﴾ أي : آباء الموادين ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ قدّم الأقدم حرمة ثم الأحكم محبة ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ نسباً ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ العشيرة أهل الرجل الذين يتكثر بهم أي : يصيرون بمنزلة العدد الكامل ، وذلك أن العشرة هو العدد الكامل ، فصارت العشيرة لكل جماعة من أقارب الرجل يتكثر بهم ، والعشير المعاشر قريباً أو معارفاً ، وفي القاموس : عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته انتهى . يعني أن المؤمنين المتصلبين في الدين لا يوالون هؤلاء الأقرباء بعد أن كانوا محادّين الله ورسوله فكيف بغيرهم فإن قضية الإيمان بالله أن يهجر الجميع بالكلية ، بل أن يقتلهم ويقصدهم بالسوء كما روي أن أبا عبيدة قتل أباه الجراح يوم بدر ، وأن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول جلس إلى جنب رسول الله عليه الصلاة والسلام فشرب رسول الله الماء فقال عبد الله رضي الله عنه : يا رسول الله ابق فضلة من شرابك ، قال :

« فما تصنع بها ؟ » فقال : أسقيها ابي لعل الله يطهِّر قلبه ففعل فآتاها أباه فقال : ما هذا ؟ قال : فضلة من شراب رسول الله جئتك بها لتشربها لعل اللهَ يطهِّر قلبك ، فقال له أبوه : هلا جئتني ببول أمك ؟ فرجع إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله ائذن لي في قتل أبي ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل ترفق به وتحسن إليه » وأن أبا قحافة قبل أن يسلم سبَّ النبي عليه الصلاة والسلام فصكه أبو بكر رضي الله عنه صكة ، أي : ضربة ضربة سقط منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : أَوَ فعلته ؟ » قال : نعم ، قال : « لا تعد إليه » قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته)[1] وأن مصعباً رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير بأحد ، وأن عمر رضي الله عنه قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وأن علياً وحمزة وعبيد بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وكانوا من عشريتهم وقرابتهم وكل ذلك من باب الغيرة والصلابة في دين الله .

﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم وأمسّهم رحماً ﴿ **كَتَبَ** ﴾ الله سبحانه ﴿ **فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ أي : أثبته فيها ﴿ **وَأَيَّدَهُمْ** ﴾ أي : قوَّاهم ، وأصله قوّى يدهم ﴿ **بِرُوحٍ مِنْهُ** ﴾ أي : من عند الله وهو نورُ القرآن ، أو النصر على العدو ، أو نور القلب وهو بإدراك حقيقة الحال والرغبة في الارتقاء إلى المدارج الرفيعة الروحانية ، والخلاص من درك عالم الطبيعة الدنية وكلُ ذلك سمى روحاً لكونه سبباً للحياة . قال سهل رحمه الله : حياة الروح بالتأييد ، وحياة النفس بالروح ، وحياة الروح بالذكر ، وحياة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكور ﴿ **وَيُدْخِلُهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** ﴾ أي : من تحت أشجارها أو قصورها ﴿ **الأَنْهَارُ** ﴾ الأربعة ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أبد الآباد لا يقرب منهم زوال ولا موت ولا مرض ولا فقر كما قال عليه الصلاة والسلام : « ينادي مناد إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً »[2] ﴿ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ** ﴾ الرضى : ترك السخط ﴿ **وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ في الإرشاد : بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ** ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عز وجل أي : جنده وأنصار دينه ﴿ **أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ الناجون من المكروه والفائزون بالمحبوب ، دون غيرهم المقابلين لهم من حزب الشيطان المخصوصين بالخذلان والخسران .

تمت سورة المجادلة بعون الله تعالى والحمد لله رب العالمين

● ● ●

(١) الحديث أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج ، وانظر الدر المنثور ٦ / ١٨٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذي (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، ينادي منادٍ : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ..) الحديث جامع الأصول ١٠ / ٥٣٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ التسبيح : تنزيه الله عن السوء وتطهيره عما لا يليق بشأن ألوهيته ، ويكون بالجَنَان ، واللسان ، والحال ، والأولُ اعتقاد العبد بتعاليه عما لا يليق بالألوهية ، والثاني : القول بما يدل على تعاليه مثل التكبير والتهليل والتأمين بمعنى أن يقول : الله أكبر ولا إله إلا الله وآمين وهو المشهور عند الناس ، والثالث : دلالة المصنوعات على أن صانعها متصف بنعوت الجلال متقدس عن الإمكان وما يتبعه ، والمفسرون فسروا ما في القرآن من أمثال الآية الكريمة على كل من الثاني والثالث ليعم تسبيح الكل كذا في بعض التفاسير ، وجمهور المحققين على أن هذا التسبيح تسبيح بلسان العبارة والإشارة لا بلسان الإشارة فقط ، فجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم سبَّحه تعالى كما سبق تحقيقه في أول سورة الحديد وفي مواضع أخر من القرآن .

وفي الحديث : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن »[1] وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » على أن شهادة الجوارح والجلود مما نطق به القرآن الكريم . وقال مجاهد : كل الأشياء تسبح لله حياً كان أو جماداً وتسبيحها « سبحان الله وبحمده » وهذا على الإطلاق ، وأما بالنسبة إلى كل موجود فالتسابيح مختلفة ، فلكل موجود تسبيح مخصوص به من حيث ما يقتضيه نشأته . ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ ذو العزة القاهرة ﴿ الحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة الباهرة ، وفي إيراد الوصفين بعد التسبيح إشارة إلى الباعث له والداعي إليه ، لأنَّ العزة أثر الجلال ، والحكمة أثر الجمال فله الاتصاف بصفات الكمال ، وأما سبب النزول فقد نزلت هذه السورة في بني النضير، لأنه عندما هاجر عليه الصلاة والسلام عاهد بني النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه ، فلما ظهر عليه الصلاة والسلام أي غلب يوم بدر قالوا فيما بينهم : النبي الذي نعته في التوراة لا تُرَدُّ له راية ، فلما كان يوم أحد ما كان ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا قريشاً عند الكعبة على قتاله عليه الصلاة والسلام وعاهدوا على الإضرار به ناقضين العهد .

قال العلماء : مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن وإنما كان ذلك في أول الإسلام ثم نُسِخ ، والآن لابد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ﴾ بيان لبعض آثار عزته وأحكام حكمته أي : أمر بإخراج أهل التوراة يعني

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأحمد في المسند عن جابر بن سمرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٥٧ .

بني النضير ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ جمع دار ، والفرق بين الدار والبيت أن الدار دار وإن زالت حوائطها والبيت ليس ببيت بعدما انهدم لأن البيت اسم مبنى مسقف مدخله من جانب واحد بني للبيتوتة سوآء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة وهذا المعنى موجود في الصُفَّة إلا أن مدخلها واسع فيتناولها اسم البيت والبيوت بالمسكن اسم أخص والأبيات بالشعر كما في المفردات ﴿ لأَوَّلِ الحَشْرِ ﴾ أي عند أول حشرهم إلى الشام،والحشرُ : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط إذ كان انتقالهم من بلاد الشام إلى جانب المدينة عن اختيار منهم وهم أول مَنْ أخرج من جزيرة العرب إلى الشام[1] ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم ووثاقة حصونهم وكثرة عَددهم وعُددهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي : هؤلاء الكافرون ظناً قوياً هو بمرتبة اليقين ﴿ أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ الحصون جمع حصن بالكسر وهو كل موضع حصين لا يوصل إلى جوفه ، وتحصّن إذا اتخذ الحصن مسكناً ، والمعنى : ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وقهره ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ ﴾ أي : أمر الله وقدره المقدور لهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غِرّة ، فإنه مما أضعف قوّتهم ، وفلّ شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ القذف : الرمي البعيد ، والمراد هنا : الإلقاء . والرعب : الانقطاع من امتلاء الخوف ، قال بعضهم : الرعب خوف يملأ القلب فيغيِّر العقل ، ويعجز النفس ويشوش الرأي ويفرق التدبير ويضر البدن ، والمعنى : أثبت فيها الخوف الذي يرعبها ويملأها ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي : يخربونها بأيديهم ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة ولئلا تبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل ، والإخراب والتخريب واحد يقال خرب المكان خراباً وهو ضد العمارة وقد أخربه وخربه أي : أفسده بالنقض والهدم ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم ومنعتهم وتوسيعاً لمجال القتال وإضراراً بهم ، وإسنادُ هذا إليهم لما أنهم السبب فيه فكأنهم كلفوهم إياه وأمروهم به ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ أي : يا أولي الألباب والعقول والبصائر يعني : اتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة ، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي ، وانتقلوا من حال الفريقين إلى حال أنفسكم ، فلا تعوّلوا على تعاضد الأسباب كبني النضير الذين اعتمدوا على حصونهم ونحوها ، بل توكلوا على الله تعالى .

والاعتبار مأخوذٌ من العبور وهو المجاوزة من شيء ، إلى شيء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الفكر، وسمى أهل التعبير لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ

---

(١) انظر قصة جلاء بني النضير وسببها مفصّلةً في تفسير ابن كثير ٣ / ٤٧٠ من المختصر .

عبارات لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال السعيد من اعتبر بغيره لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حاله نفسه .

والبصر يقال للجارحة الناظرة وللقوة التي فيها ، ويقال للقلب المدركة بصيرة وبصر ، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة كما في المفردات ، قال بعض التفاسير : الأبصار جمع بصر وهو ما يكون في الرأس وبه يشاهد عالم الملك وهو عالم الشهادة ، حتى لو كان بين الرآئي والمرئي مقدار عدة آلاف سنة يشاهده في طرفة عين بوصول نور من حدقة العين إلى المرئي حكاية للرآئي ، والبصيرة في القلب كالبصر في الرأس وبها يُشَاهد عالم الملكوت ، وهو عالم الغيب حتى لو كان المشاهد في العالم الأعلى وفي اللوح المحفوظ ، وقد يشاهد الممتنع والمحال وغير المتناهي بنوع مشاهدة كما نجده في وجداننا ، وكلٌ ذلك من غرائب صنع الله ، وجعل البعض البصر ههنا مجازاً عن المشاهدة لأنه كثيراً ما يكون آلة لمشاهدتها ، ويكون هو معتبراً باعتبارها حتى لولاها يكون هو في حكم المفقود .

وقد استدل بالآية على حجية القياس من حيث إنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال ، وحملها عليها في الحكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له كما فصل في الكتب الأصولية ﴿ **وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ** ﴾ حكم ﴿ **عَلَيْهِمُ** ﴾ أي : على بني النضير ﴿ **الْجَلاءَ** ﴾ أي : الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع . والجلاء بالفتح : هو الخروج من البلد والتفرق منه . يقال : أجليت القوم عن منازلهم وجلوتهم فأجْلوا عنها وجلوا أي : أبرزتهم عنها فإن أصل الجلو الكشف الظاهر ﴿ **لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا** ﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة من اليهود ، قال بعضهم : لما استحقوا بجرمهم العظيم قهراً عظيماً أخذوا بالجلاء الذي جعل عديلاً لقتل النفس لقوله تعالى : (**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمِ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**) مع أن فيه احتمال إيمان بعضهم بعد مدة وإيمان من يتولد منهم ﴿ **وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ** ﴾ يقول الفقير : لا يلزم من نجاتهم من عذاب الدنيا أن لا يكون جلاؤهم من قبيل العذاب ، وإنما لم يكن منه بالنسبة إلى عذاب الاستئصال ، والوجه في جلائهم أنهم قصدوا قتل النبي عليه الصلاة والسلام ، فأخذوا بالجلاء ليموتوا كل يوم ألف مرة ، لأن انقطاع النفس عن مألوفاتها بمنزلة موتها فجاء الجزآء من جنس العمل ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي : ما حاق بهم وسيحيق ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ خالفوا أمرهما وفعلوا ما فعلوا مما حكي عنهم من القبائح ، والمشاقَّةُ كون الإنسان في شق ومخالفه في شق ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ** ﴾ كائناً من كان ﴿ **فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ له أي : يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب ، فلهم عند الله عقاب شديد أيضاً لكونهم من المشاقين ، وفيه إشعار بأن المخالفة تقتضي المؤاخذة بقدر قوتها وضعفها ، فليحذر المؤمنون من العصيان مطلقاً .

والمشاقة مع الرسول عليه الصلاة والسلام المنازعة في حِكْمةِ أمره ونهيه ، ونحن أمرنا بمحض الامتثال والانقياد وما كلفنا بمعرفة الأسرار والحقائق ، والنبي عليه الصلاة والسلام مع كمال عرفانه وجلال برهانه يقول : (إِنْ أَتَّبِعُ إلا مَا يُوحَىٰ إِلَيّ) ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ واللينة : هي النخلة الكريمة لكونها قريبة من الأرض والطيبة الثمرة ، قال الراغب في المفردات : اللين ضد الخشونة ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يستعار للخلق ولغيره من المعاني فيقال : فلان لين وفلان خشن وكل واحد منهما يمدح به طوراً ويذم به طوراً ، بحسب اختلاف المواضع ، وقوله (ما قطعتم من لينة) أي : من نخلة ناعمة والمعنى : أي شيء قطعتم من نخلة من نخيلهم بأنواعها ، وقيل : اللينة ضروب النخل كلها ما خلا العجوة والبرنية وهما أجود النخل ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا ﴾ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشيء من القطع ، جمع أصل وهو ما يتشعب منه الفرع ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ فذلك الفعل أي : قطعها وتركها بأمر الله ، فلا جناح عليكم فيه ، فإن في كل من القطع والترك حكمة ومصلحة ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : وليذل اليهود الخارجين عن دآئرة الإسلام أَذِنَ في قطعها وتركها ، لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف أحبوا ويتصرفون فيها حسبما شاؤوا من القطع والترك ، يزدادون غيظاً ويتضاعفون حسرةً ، وذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام حين أمر أن تقطع نخيلهم وتحرق ، قالت اليهود وهم بنو النضير : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض ، فما بال قطع النخيل وإحراقها ؟ فشقَّ ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان في أنفس المؤمنين أيضاً من ذلك شي ، فنزلت ، وجُعِلَ أمر رسول الله أمره تعالى لأنه عليه الصلاة والسلام ما ينطق عن الهوى ، واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم مثمرة ، كانت أو غير مثمرة وإحراق زروعهم زيادةً لغيظهم ، وتخصيص اللينة بالقطع إن كانت من الأنواع ، ليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل ، وإن كانت هي الكرام ليكون غيظهم أشد .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ شروع في بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حلَّ بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل ، وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع ، والفيءُ في الأصل بمعنى الرجوع وأفاء أعاد وأرجع فهو على أصل معناه هنا . والمعنى : ما أعاده إليه من مالهم أي : جعله عائداً ففيه إشعارٌ بأنه كان حقيقاً بأن يكون له عليه الصلاة والسلام ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق فرجعه الله إلى مستحقه ، لأنه تعالى خلق الناس لعبادته ، وخلق ما خلق ليتوصلوا به إلى طاعته ، فهو جدير بأن يكون للمطيعين وهو عليه الصلاة والسلام رأسهم ورئيسهم ، وبه أطاع من أطاع فكان أحق به فالعود على هذا بمعنى أن يتحول الشيء إلى ما فارق عنه وهو الأشهر ، ويجوز أن يكون معناه صيَّره له فالعود على هذا بمعنى أن يتحول الشيء إلى ما فارق عنه وإن لم يكن ذلك التحول مسبوقاً بالحصول له ، والحملُ

هنا على هذا المعنى لا يحوج إلى تكلف توجيه بخلاف الأول ، وكلمة على تؤيد الثاني وقال بعضهم : أفاء الله مبني علي أن الفيء الغنيمة فمعنى أفاء الله على رسوله جعله فيئاً له خاصةً ، وقال الراغب : الفيء والفيئة الرجوع إلى حالةٍ محمودة ، وقيل للغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة : فيء ، قال بعضهم : سمي ذلك بالفيء تشبيهاً بالفيء الذي هو الظلُّ ، تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظلٍ زائل ، والفئة الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد ، وقال المطرزي في المغرب : في الفرق بين الغنيمة والفيء والنفل : أن الغنيمة ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة ، وحكمها أن تُخمَّس ، وسائرها بعد الخمس للغانمين خاصة ، والفيء : ما نيل منهم بعدما تضع الحرب أوزارها وتصير الدار دار إسلام ، وحكمه أن يكون لكافة المسلمين ولا يخمس ، والنفل : ما يُنفَّله الغازي أي : يعطاه زائداً على سهمه ، وهو أن يقول الإمام أو الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه ، أو قال للسرية : ما أصبتم فلكم ربعه أو نصفه ولا يخمس وعلى الإمام الوفاء به ﴿ **مِنْهُمْ** ﴾ أي : بني النضير ﴿ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أي : فما أجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير ، يقال : أوجفت البعير : أسرعته ﴿ **مِنْ خَيْلٍ** ﴾ أي : خيلاً وهو جماعة الأفراس لا واحد له ، أو واحده خائل ، لأنه يختال والجمع أخيال وخيول كما في القاموس ﴿ **وَلا رِكَابٍ** ﴾ هي ما يركب من الإبل خاصةً ، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير ، وأما راكب الفرس فإنهم يسمونه فارساً ولا واحد لها من لفظها وإنما الواحدة منها راحلة .

والمعنى : ما قطعتم لها شقة بعيدة ، ولا لقيتم مشقة شديدة ، ولا قتالاً شديداً ، وذلك أنه كانت قرى بني النضير على ميلين من المدينة ، فذهبوا إليها مشياً وما كان فيهم راكب إلا النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان يركب حماراً مخطوماً بليف فافتتحها صلحاً من غير أن يجري بينهم مسايفةٌ كأنه قال وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين ﴿ **وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أي : سنته تعالى جارية على أن يسلطهم على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصاً وقد سلط النبي عليه الصلاة والسلام على هؤلاء تسليطاً غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حقَّ لكم في أموالهم . يعني أن الأمر فيه مفوض إليه يضعه حيث يشاء ، فلا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً ، وذلك أنهم طلبوا القسمة كخيبر فنزلت ﴿ **وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها ﴿ **مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ بيان لمصارف الفيء بعد بيان إفاءته عليه ﷺ من غير أن يكون للمقاتلة فيه حق ولذا لم يعطف عليه، كأنه لما قيل ما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة فلا يقسم قسمة الغنائم فكأنه قيل : فكيف يقسم ؟ فقيل : ما أفاء الله إلخ . قال العلماء :

كانت الغنائم في شرع من قبلنا للهِ خاصةً لا يحل منها شيء لأحد ، وإذا غنمت الأنبياء عليهم السلام جمعوها فتنزل نار من السماء فتأخذها فخصَّ نبينا عليه الصلاة والسلام من بينهم بأن أحلت له الغنائم قال عليه الصلاة والسلام : « أُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي »(١) ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يأمران فيها كما أحبَّا ، وقيل ذكر الله للتشريف والتعظيم والتبرك ، وسهم النبي عليه الصلاة والسلام سقط بموته (روي) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ أموال بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه فكانت لرسول الله خالصة وكان ينفق على أهله منها نفقة سنة وما بقى جعله في الخيل والسلاح عدة في سبيل الله ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب الفقرآء منهم لما حرموا الصدقة أي : الزكاة أُعطوا من الغنائم تكريماً لهم ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ جمع يتيم ، واليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ جمع مسكين وهو من لا شيء له أو له مالا يكفيه أو أسكنه الفقر أي : قلل حركته والذليل الضعيف كما في القاموس وهو من السكون ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : المسافر البعيد عن ماله وسمي به لملازمتهِ له . قال أهل التفسير : اختلف في قسمة الفيء . قيل : يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة وسائر المساجد ، ويصرف ما بقي وهي خمسة أسداس الستة إلى المصارف الخمسة التي يصرف إليها خمس الغنيمة ، ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والثغور على قول ، وهو الأصح عند الشافعية ، وإلى مصالح المسلمين على قول وقيل : يخمس خمسه كالغنيمة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء أي : كان يقسم الفيء أخماساً ويصرف الأخماس الأربعة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ويخمّس الخمس الباقي ويختار خمس الخمس لنفسه ويصرف الأخماس الأربعة الباقية كما يشاء والآن على الخلاف المذكور من صرف سهمه عليه الصلاة والسلام إلى الإمام أو العساكر والثغور أو مصالح المسلمين ﴿ كَيْلا يَكُونَ ﴾ علة لقوله (فلله وللرسول) أي : تولى الله قسمة الفيء وبيَّن قسمته لئلا يكون أي الفيء الذي حقه أن يكون للفقرآء يعيشون به ﴿ دُولَةً ﴾ بضم الدال وقرىء بفتحها وهي ما يدول للإنسان أي : يدور من الغنى والجَدِّ والغلبة أي كيلا يكون المالُ ﴿ بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ يتكاثرون به ، والخطاب للأنصار لأنه لم يكن في المهاجرين في ذلك الوقت غنى كما في فتح الرحمن ، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينكم فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون : من عزَّ بزَّ أي : من غلب سلب فيجعلون الاستقلال بمال الغنيمة والانفراد به منوطاً بالغلبة عليه فكل من غلب على شيء منه يستقل به ولا يعطي

---

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، وأوله (أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجد وطهوراً فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ..) الحديث جامع الأصول ٨ / ٥٢٩ .

الفقرآء والضعفاء شيئاً منه . وقيل : الدولة بالضم ما يتداول كالغُرفة اسم ما يغترف أي : أن الدولة اسم الشيء الذي يتداوله القوم بينهم ، فيكون مرة لهذا ومرة لهذا ، وتدول القوم كذا وداول الله بينهم كذا فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتقاسمونه فلا يصيب الفقرآء . والدَّوْلَةُ بالفتح مصدر بمعنى : التداول ، فالمعنى : كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه وأخذه تداولاً لا يخرجونه إلى الفقراء . وقيل : هي بالفتح بمعنى انتقال حالة سارة إلى قوم عن قوم وتستعمل في نفس الحالة السارة التي تحدث للإنسان ، يقال : هذه دولة فلان وقيل : بالضم للأغنياء والفتح للفقراء . وفي الآية إشارة إلى إعطاء كل ذي حق حقه كيلا يحصل بين الأغنياء والفقراء نوع من الجَوْر والمظالم الجاهلية ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ** ﴾ الإيتاء : الإعطاء والمناولة أي : ما أعطاكموه أيها المؤمنون من الفيء ﴿ **فَخُذُوهُ** ﴾ فإنه حقكم ﴿ **وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ أي : عن أخذه ﴿ **فَانْتَهُواْ** ﴾ عنه ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ** ﴾ في مخالفته عليه السلام ﴿ **إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ فيعاقب من يخالف أمره ونهيه ، والأولى حمل الآية على العموم فالمعنى : وما آتاكم الرسول من الأمر مطلقاً فيئاً أو غيره أصولاً اعتقادية أو فروعاً عملية فخذوه أي : فتمسكوا به فإنه واجب عليكم طاعةً لأمر ربكم .

وفيه دليل على أن كل ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام أمرٌ من الله تعالى . قال العلماء : اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام في الفرآئض العينية فرض عين ، وفرض كفاية في المفروض على سبيل الكفاية ، وواجب في الواجبات ، وسنّة في السنن ، فما علمنا من أفعاله واقعاً على جهة نقتدي به في اتباعه على تلك الجهة ، وما لم نعلم على أي جهة فعله فلنا فعله على أدنى منازل أفعاله وهو الإباحة .

روي أن ابن مسعود رضي الله عنه لقي رجلاً محرماً وعليه ثيابه ، فقال : انزع عنك هذا ، فقال الرجل : أتقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب الله ؟ قال : نعم (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال (لعن الله الواشماتِ ، والمستوشماتِ ، والنَّامصات والمتنمصات والمتفلِّجاتِ للحسن ، المغيِّرات خلقَ الله)[1] فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد ، يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن ، فجاءت ابن مسعود رضي الله عنه ، فقالت : قد بلغني أنك قلتَ : كذا ، وكذا ؟ وذكرته ، فقال : ومالي لا ألعن من لعنَ رسولُ اللهِ ، ومَنْ هو في كتاب الله ، فقالت لقد قرأت ما بين اللوحتين فما وجدت فيها ما تقول ؟ قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه

(١) قال ابن الأثير : الوشمُ يكون في اللِّثة والشفة ، بأن يُغير لونها بزرقةٍ أو خضرة أو سواد ، والواشمة التي تفعل ذلك ، والمستوشمة التي تطلب أن يُفعل بها ذلك ، والنامصة التي ترقق الحواجب وتدققها طلباً للحسن ، والفلج : تباعد ما بين الثنايا أي تفرق ما بين أسنانها طلباً للزينة والجمال ، وقال أبو داود : الواشمة التي تجعل الخال في وجهها بكحل أو مداد لتجذب إليها الأنظار .

فانتهوا) قالت : بلى ، قال : فإنه عليه السلام قد نهى عنه قالت : إني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن ، قال : اذهبي فانظري ، فذهبت فلم تر شيئاً ، فجاءت فقالت ما رأيتُ شيئاً ، فقال : أما لو كان ذلك لم نجامعها) [1] ومراده رضي الله عنه أنها لو فعلت ذلك لما تركناها في البيت ولفارقناها بالطلاق .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ بدل من « لذي القربى » وما عطف عليه لا من الله والرسول وإلا يلزم دخول الرسول في زمرة الفقرآء وهولا يسمى فقيراً لأنه يوهم الذم والنقصان لأن أصل الفقر كسر فقار الظهر من قولهم فقرته ، ولهذا سميت الحاجة والداهية فاقرة لأنها تغلبان الإنسان وتكسران فقار ظهره ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة إلى الخروج وأخذوا أموالهم وكانوا مائة رجل فخرجوا منها وإلا فهم هاجروا باختيارهم حباً لله ورسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من الشدة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي : حال كونهم طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاةً في الآخرة ، وُصِفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار ، وقد أعاد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم وتكريمهم ، وفي ذكر حالهم ترق من العالي إلى الأعلى فإن رضوان الله أكبر من عطاء الدنيا ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ عطف على يبتغون فهي حال مقدرة أي : ناوين نصرة الله بإعلاء دينه ونصرة رسوله ببذل وجودهم في طاعته ، أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرةٌ وأيُّ نصرة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المهاجرون الموصوفون بما ذكر من الصفات الحميدة ﴿ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً كأن الصدق مقصورٌ عليهم لكمال آثاره .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ، ورضاهم باختصاص الفيء بهم ، أحسن رضى وأكمله ، والأنصار بنو الأوس والخزرج . وأصل البوآء مساواة الأجزآء في المكان ، خلاف النبوّ الذي هو منافاة الأجزاء ، يقال مكان بوآء إذا لم يكن نابياً بنازله وبوَّأت له مكاناً سويت ، وتبوُّءُ المنزلِ اتخاذه منزلاً والتمكن والاستقرار فيه ، فالمتبوأ فيه لابد أن يكون من قبيل المنازل والأمكنة ، والدار هي المدينة وتسمى قديماً يثرب وحديثاً طيبة وطابة كذلك ، بخلاف الإيمان فإنه ليس من هذا القبيل فمعنى تبوئهم الدار والإيمان أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءةً وتمكنوا فيهما أشد تمكن . وقيل : ضُمِّن التَّبَوُّءَ معنى اللزوم ، وقيل : تبوأوا الدار وأخلصوا الإيمان أو قبلوه أو آثروه . يقول الفقير : لعل أصل الكلام : والذين تبوأوا دار الإيمان فإن المدينة يقال لها دار الإيمان لكونها مظهرُه ومأوى أصله ، كما يقال لها دار الهجرة ، وإنما عدل إلى ما ذكر من صورة العطف

(١) الحديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وله روايات متعددة في سنن الترمذي وأبي داود ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٧٧٩ .

تنصيصاً على إيمانهم إذ مجرد التبوء لا يكفي في المدح ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من قبل هجرة المهاجرين ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : يحبونهم من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان ، ولأن الله وحبيبه أحبَّاهم ، وحبيبُ الحبيب حبيب ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ أي : في نفوسهم ﴿ حَاجَةً ﴾ أي : شيئاً محتاجاً إليه ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ أي : مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ أي : يقدِّمون المهاجرين ﴿ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ في كل شيء من أسباب المعاش جوداً وكرماً ، حتى إن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم ، والإيثار عطاؤك ما أنت تحتاج إليه ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي : حاجة وخلة . وأصلها خصاص البيت وهي فُرَجُه ، شبه حالة الفقر والحاجة ببيتٍ ذي فرج في الاشتمال على مواضع الحاجة . قال الراغب : عبر عن الفقر الذي لا يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلة والخص ببيتٍ من قصب وشجر وذلك لما يرى منه من الخصاصة .

قال حذيفة العدوي : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته فإذا أنا به فقلت : أسقيك فأشار برأسه أن نعم ، فإذا برجل يقول : آه آه فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه فجئت إليه فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات وهذا من قبيل الإيثار بالنفس وهو فوق الإيثار بالمال . وقال في التكملة : الصحيح أن الآية نزلت في « أبي طلحة الأنصاري » رضي الله عنه حين نزل برسول الله عليه الصلاة والسلام ضيفٌ ولم يكن عنده ما يضيفه به فقال : ألا رجلاً يضيف هذا رحمه الله فقام أبو طلحة فانطلق به إلى رحله وقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، فنوَّمت الصبية وأطفأت السراج وجعل الضيف يأكل وهما يريان أنهما يأكلان معه ولا يفعلان فنزلت الآية[1] ، وكانت قناعة السلف أوفر ونفوسهم أقنع وبركتهم أكثر ، ونحن نؤثر أنفسنا على الغير ، فإذا وضعت مائدة بين أيدينا يريد كل منا أن يأكل قبل الآخر ويأخذ أكثر مما يأخذ الرفيق ، ولذلك لم توجد بركة الطعام وينفد سريعاً .

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الوقاية : حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، والشحُّ بالضم والكسر بخل مع حرص فيكون جامعاً بين ذميتين من صفات النفس ، وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل . أي : ومن يوق بتوفيق الله شحها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه ، والفلاح اسم لسعادة الدارين ، والجملةُ اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم .

(١) قصة أبي طلحة الأنصاري مع ضيفه أخرجها البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر تمام الحديث في مختصر ابن كثير ٣ / ٤٧٤ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام فالمراد : جاؤوا إلى المدينة ، أو التابعون بإحسان ، وهم الذين بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، ولذلك قيل : إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين ، فالمراد حينئذ جاؤوا إلى فضاء الوجود وفي الحديث : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره » (١) ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الجملة مسبوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأُخوَّةِ في الدين ، والسبق بالإيمان أي يدعون لهم قائلين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط منا ﴿ وَلإِخْوَانِنَا ﴾ أي : في الدين الذي هو أعزُّ وأشرف عندهم من النسب ﴿ الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ، قيل : قدَّموا أنفسهم في طلب المغفرة لما في المشهور من أن العبد لابد أن يكون مغفوراً له حتى يستجاب دعاؤه لغيره ، وفيه حكم بعدم قبول دعاء العاصين قبل أن يغفر لهم ، وليس كذلك كما دلت عليه الأخبار ، فلعل الوجه أن تقديم النفس كونها أقرب النفوس مع أن في الاستغفار إقراراً بالذنب فالأحسن للعبد أن يرى أولاً ذنب نفسه كذا في بعض التفاسير . يقول الفقير : نفس المرء أقرب إليه من نفس غيره ، فكل نفعٍ أو دفع فهو إنما يطلبه أولاً لنفسه لإعطاء حق الأقدم ، وأما غيره فهو بعده ومتأخر عنه ، وأيضاً إن ذنب نفسه مقطوع بالنسبة إليه ، وأما ذنب غيره فمحتمل فلعل الله قد غفر له وهو لا يدري ، وأيضاً تقديمهم في مثل هذا المقام لا يخلو عن سوء أدب وسوء ظن في حق السلف ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ ﴾ أي : حقداً وهو ذميمة فاحشة ، والمؤمن ليس بحقود . قال الراغب : الغلُّ والغلول تدرع الخيانة والعداوة ، لأن الغلالة اسم ما يلبس بين الشعار والدِّثار ، وتستعار للدرع كما تستعار الدرع لها ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على إطلاق صحابةً أو تابعين ، وفيه إشارة إلى أن الحقد على غيرهم لائق لغيرة الدين وإن لم يكن الحسد لائقاً .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ أي : مبالغ في الرأفة والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا ، وفي الآية دليل على أن الترحم والاستغفار واجب على المؤمنين الآخرين للسابقين منهم لا سيما لآبائهم ولمعلِّميهم أمور الدين ، قالت عائشة رضي الله عنها : أُمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم . وفي الحديث : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » (٢) . فالرافضة والخوارج ونحوهم شرُّ الخلائق خارجون من أقسام المؤمنين لأن الله تعالى رتبهم على ثلاثة منازل : المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين الموصوفين بما ذكر الله ، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسامهم . قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : يحرم على

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الأمثال وقال : حديث حسن ، ورواه أحمد في المسند ٣ / ١٣٠ وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٠١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الفتن رقم / ٢٢١١ / بلفظ (إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلةً حلَّ بها البلاء ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ...) فذكرها وعدَّ منها قوله (ولعنَ آخر هذه الأمة أوَّلها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً) جامع الأصول ١٠ / ٤١٠ .

الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين رضي الله عنه وحكاياته وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم فإنه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم ، وهم أعلام الدين وما وقع بينهم من المنازعات فيحمل على محامل صحيحة فلعل ذلك لخطأ في الاجتهاد لا لطلب الرياسة أو الدنيا كما لا يخفى . وقال في شرح الترغيب والترهيب المسمى بفتح القريب : والحذر ثم الحذر من التعرض لما شجر بين الصحابة ، فإنهم كلهم عدول وهم خير القرون مجتهدون ، مصيبهم له أجران ومخطئهم له أجر واحد . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في فصل آفات اللسان : الخوض في الباطل ، هو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال الوقاع ومجالس الخمور ، وتجبُّر الظلمة ، وحكاية مذاهب أهل الأهواء ، وكذا حكاية ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم .

﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ استئناف لبيان التعجب مما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة ﴿ **إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا** ﴾ من أهل المدينة ، قال الراغب : النفق الطريق النافذ والسِّرب في الأرض النافذ ومنه نافقاء اليربوع وقد نافق اليربوع ونفق ، ومنه النفاق ، وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب ، على هذا نبه بقوله : (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) أي : الخارجون عن الشرع ﴿ **يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ المراد بالإخوان بنو النضير وبإخوانهم إما توافقهم في الكفر فإن الكفر ملة واحدة ، أو صداقتهم وموالاتهم ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ** ﴾ المعنى : والله لئن أُخرجتم أيها الإخوان من دياركم وقراكم قسراً بإخراج محمد وأصحابه إياكم منها ﴿ **لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ** ﴾ البتة ونذهبنّ في صحبتكم أينما ذهبتم لتمام المحبة بيننا وبينكم ﴿ **وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ** ﴾ أي : في شأنكم ﴿ **أَحَدًا** ﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿ **أَبَدًا** ﴾ وإن طال الزمان ﴿ **وَإِنْ قُوتِلْتُمْ** ﴾ أي : قاتلكم محمدٌ وأصحابه ﴿ **لَنَنْصُرَنَّكُمْ** ﴾ أي : لنعاوننكم على عدوكم ولا نخذلكم ﴿ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجُوا** ﴾ قهراً وإذلالاً ﴿ **لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ** ﴾ إلخ تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال ﴿ **وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ** ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن أُبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير وذلك سراً ثم أخلفوهم يعني أن ابن أُبي أرسل إليهم لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غَطَفان فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين وهو جالس في بيته ، حتى قال أحد سادات بني النضير وهو « سلام بن مشكم » « لِحُيَيّ بنِ أخطب » الذي كان هو المتولي لأمر بني النضير : والله يا حيي إن قول ابن أُبي لباطل وليس بشيء وإنما يريد أن يورطك في الهلكة ، حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته ويتركك فقال حيي : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله ، فقال سلام : فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا ،

وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا فكان ما كان كما سبق في أول السورة ، وفيه حجة بيِّنة لصحة النبوةِ وإعجاز القرآن ، أما الأول : فلأنه أخبر عما سيقع فوقع كما أخبر وذلك لأن نزول الآية مقدّم على الواقعة ، وعليه يدل النظم فإن كلمة إن للاستقبال ، وأما الثاني : فمن حيث الإخبار عن الغيب ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ﴾ فراراً وانهزاماً ، جمع دُبُر ، ودُبُر الشيء خلاف القُبُل أي : الخلف ، وتولية الأدبار كناية عن الانهزام الملزوم لتولية الأدبار ﴿ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾ أي : المنافقون بعد ذلك ، أي : يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم بنصرهم اليهود ، أو لينهزمنَّ اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين . وفي الآية تنبيه على أن من عصى الله ورسوله وخالف الأمر ، فهو مقهور في الدنيا والآخرة وإن كان سلطاناً ذا منعة ، وما يقع أحياناً من العزِّ فاستدراج وغايته إلى الخذلان ﴿ لأَنْتُمْ ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ الرهبة مخافة مع تحزن واضطراب أي : أشد مرهوبية وذلك لأن (أَنْتُمْ) خطاب للمسلمين والخوف ليس واقعاً منهم ، بل من المنافقين ، فالمخاطبون مرهوبون غير خائفين ﴿ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ أي : في صدور المنافقين ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي : من رهبة الله بمعنى مرهوبيته . قال في الكشاف : قوله في صدورهم دالٌ على نفاقهم يعني : أنهم يظهرون لكم في العلانية خوفَ الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منه أشد ؟ قلت : معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم ، وكانوا يظهرون رهبة شديدة من الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشدّ من رهبة الله ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أي : اليهود والمنافقون بمعنى لا يقدرون على قتالكم ولا يجترئون عليه ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿ إِلا فِي قُرًى ﴾ جمع قرية وهي مجتمع الناس للتوطن ﴿ مُحَصَّنَةٍ ﴾ محكمة بالدروب والخنادق وما أشبه ذلك ، قال الراغب : أي مجعولة بالأحكام كالحصون ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ دون أن يحضروا لكم ويبارزوكم أي : يشافهوكم بالمحاربة لفرط رهبتهم ، جمع جدار وهو كالحائط إلا أن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان ، والجدار يقال اعتباراً بالبروز والارتفاع ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ استئناف سبق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم ، فإن بأسهم وحربهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم ، بما قذف الله في قلوبهم من الرعب ، وأيضاً فإنَّ الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله ﴿ تَحْسَبُهُمْ ﴾ يا محمد أو يا كل من يسمع ويعقل ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين متفقين ذوي ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أي : والحال أن قلوبهم متفرقة لا إلفة بينها فهم بخلاف من وصفهم بقوله : (وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) جمع شتيت كمرضى ومريض . وفي الآية تشجيع لقلوب المؤمنين على قتالهم

وتجسير لهم ، وأن اللائق بالمؤمن الاتفاق والاتحاد صورة ومعنى كما كان المؤمنون متفقين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، ويقال : الاتفاق قوة والافتراق هلكة ، والعدو إبليس يظفر في الافتراق بمراده . قال سهل : أهل الحق مجتمعون بالمحبة أبداً ، متفقون وإن تفرَّقوا بالأبدان وتباينوا بالظواهر ، وأهلُ الباطل متفرِّقون أبداً ، وإن اجتمعوا بالأبدان وتوافقوا بالظواهر ، لأن الله تعالى يقول (**تحسبهم جميعاً ..**) إلخ ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي : ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم ﴿ **قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ أي : لا يعقلون شيئاً حتى يعرفوا الحق ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم ، وتتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة ، فيقعون في تيه الضلال ، وتشتُّتُ قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه ، وتشتت القلوب يوهن قواهم، لأن صلاح القلب يؤدي إلى صلاح الجسد ، وفساده إلى فساده كما قالوا « كلُّ إناء بالذي فيه يرشح » إعلم أن الله تعالى ذم الكفار في القرآن بكل من عدم الفقه والعلم والعقل . قال الراغب : الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلم ، والعلم إدراك الشيء بحقيقته وهو نظري وعملي ، وأيضاً عقلي وسمعي ، والعقل يُقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة « عقلٌ » فنفى الله عنهم الفقه ، والعلم ، والعقل ، وبذلك صاروا كالبهائم !!

﴿ **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي : مثل المذكورين من اليهود والمنافقين وصفتهم العجيبة وحالهم الغريبة كمثل أهل بدر وهم مشركوا أهل مكة ، أو كمثل بني قينقاع على ما قيل إنهم أُخرجوا قبل بني النضير وبنو قينقاع كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالاً ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد كبني النضير ، فأخرجهم رسول الله من المدينة إلى الشام أي : لأن قريتهم كانت من أعمالها ، ودعا عليهم فلم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعون ، وقد عرفت قصتهم في ما سبق ﴿ **قَرِيباً** ﴾ أي : في زمان قريب ، قال مجاهد : كانت وقعة بدر قبل غزوة بني النضير بستة أشهر فلذلك قال قريباً فتكون قبل وقعة أُحد ، وقيل بسنتين فتكون تلك الغزوة في السنة الرابعة لأن غزوة بني النضير كانت بعد أُحد وهي كانت بعد بدر بسنة ﴿ **ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ** ﴾ أي : ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا وهو عذابُ القتل ببدر ، وكانت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بني النضير ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ مؤلم لا يقادر قدره ، حيث يكون ما في الدنيا بالنسبة إليه كالذوق بالنسبة إلى الأكل . والمعنى : أن حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة لكن لا على أن حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك ، وأما حال المنافقين فهو ما نطق به قوله تعالى ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ** ﴾ كأنه قيل : مثل اليهود في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما حكي عنهم كمثل الشيطان ﴿ **إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ** ﴾ قول الشيطان مجاز عن الإغواء والإغراء أي : أغراه على الكفر ، إغراء الآمر المأمور على المأمور به ﴿ **فَلَمَّا كَفَرَ** ﴾

الإنسان المذكور إطاعة لإغوائه وتبعاً لأهوائه ﴿ قَالَ ﴾ الشيطان ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ أي : بعيد عن عملك وأملك غير راض بكفرك وشركك . فهذا التبري من الشيطان يكون يوم القيامة ، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أي : عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ مقيمين لا يبرحان ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي : الخلود في النار ﴿ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ ﴾ على الإطلاق دون هؤلاء خاصة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيماناً خالصاً ﴿ اتَّقُوا اللهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ، فتحَرَّزوا عن العصيان بالطاعة ، وتجنَّبوا عن الكفران بالشكر ، وتوقوا عن النسيان بالذكر ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي : أيَّ شيءٍ قدَّمت من الأعمال ليوم القيامة ؟ عبَّر عن يوم القيامة بالغد لدنوِّه ، لأن كل آتٍ قريب ، يعني سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له ، وعن الحسن رحمه الله لم يزل يقرِّبه حتى جعله كالغد ونحوه قوله تعالى : (كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ) يريد تقريب الزمان الماضي ، أو عبر عنه به لأن الدنيا أي : زمانها كيوم ، والآخرة كغَدِه ، لاختصاص كل منهما بأحوال وأحكام متشابهة . يقول الفقير : إنما كانت الآخرة كالغد لأن الناس في الدنيا نيام ، ولا انتباه إلا عند الموت الذي هو مقدمة القيامة كما ورد به الخبر ، فكلٌ من الموت والقيامة كالصباح بالنسبة إلى الغافل ، كما أن الغد صباح بالنسبة إلى النائم في الليل ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ تكريرٌ للتأكيد والاهتمام في شأن التقوى ، وإشارة إلى أن اللائق بالعبد أن يكون كل أمره مسبوقاً بالتقوى ومختوماً بها ، أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل ، والثاني في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : عالم بما تعملونه من المعاصي فيجزيكم يوم الجزاء عليها ﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ كَالَّذِينَ ﴾ أي : كاليهود والمنافقين ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ أي : نسوا حقوقه تعالى ، وما قَدَروه حق قَدْرِه ، ولم يراعوا واجب أموره ونواهيه حق رعايتها ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي : جعلهم ناسين لها فلم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ الناسون المخذولون بالإنساء ﴿ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون في الفسوق والخروج عن طريق الطاعة ، و« هم » للحصر ، فأفاد أنَّ فسقهم كان بحيث أن فسق الغير كأنه ليس بفسق بالنسبة إليه، فالمراد هنا الكافرون ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في النار ، والنار باللام من أعلام جهنم كالساعة للقيامة ، ولذا كثيراً ما تذكر في مقابلة الجنة كما في هذا المقام ، وجاء في الشعر :

الجَنَّةُ الدَّارُ فَاعْلَمْ إِنْ عملتَ بِمَا * يُرْضِي الإِلهَ وإِنْ فرَّطتَ فَالنَّارُ

هُمَا مَحَلاَّنِ مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا * فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مَاذَا أَنتَ تَخْتَارُ

والصحبة في الأصل اقتران الشيء بالشيء في زمان ما قلَّ أو كثر ، وبذلك يكون كل منهما صاحب الآخر ، وإن كانت على المداومة والملازمة يكون كمال الصحبة ، ويكون الصاحب المصاحب عرفاً ، وقد يطلق على الطرفين حينئذ صاحب ومصاحب أيضاً ومن ذلك يكنى عن الزوجة بالصاحبة ، وقد يقال للمالك لكثرة صحبته بمملوكه كما قيل له الرب لوقوع تربية المالك على مملوكه فيقال : صاحب المال كما يقال : رب المال . فإطلاق أصحاب النار وأصحاب الجنة على أهلها إما باعتبار الصحبة الأبدية والاقتران الدائم حتى لا يقال للعصاة المعذبين بالنار مقدار ما شاء الله أصحاب النار أو باعتبار الملك مبالغة ورمزاً إلى أنها جزاء لأهلها باعتبار كسبها بأعمالهم الحسنة أو السيئة ﴿ **وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة . قال في الإرشاد : لعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن المقصود الذي ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم ، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى : (**هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**) ؟ إلى غير ذلك من المواضع وأما قوله تعالى : (**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة والأمورُ مسبوقة بملكاتها . وقال بعضهم : قدم أصحاب النار لذكر الذين نسوا الله قبله ولكثرة أهلها ، ولأن أول طاعة أكثر الناس بالخوف ثم بالرجاء ثم بالمحبة في البعض ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين ، فالفوز : الظفر مع حصول السلامة أي : هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه فهم أهل الكرامة في الدارين ، وأصحاب النار أهل الهوان فيهما ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ** ﴾ العظيم الشأن المنزل عليكم أيها الناس المنطوي على فنون القوارع ، أو المنزل عليك يا محمد ، أو على محمد بحسب الالتفات في الخطاب .

﴿ **عَلَىٰ جَبَلٍ** ﴾ من الجبال ﴿ **لَرَأَيْتَهُ** ﴾ يا من شأنه الرؤية ، أو يا محمد مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿ **خَاشِعاً** ﴾ خاضعاً ذليلاً . قال بعضهم : الخشوع انقياد الباطن للحق ، والخضوع انقياد الظاهر له . وقال بعضهم : الخضوع في البدن ، والخشوع في الصوت والبصر . قال الراغب : الخشوع ضراعة وأكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح ، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب ، ولذلك قيل فيما روي : إذا ضرع القلب خشعت الجوارح ﴿ **مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ** ﴾ أي : متشققاً منها أن يعصيه فيعاقبه ، والصَّدْعُ : شقُّ الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما ، ومنه استعير الصداع وهو الانشقاق في الرأس من الوجع . قال العلماء : هذا بيان وتصوير لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ ، أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة

تدبره فيه ، والمعنى : لو ركّب في الجبل عقل وشعور كما ركب فيكم أيها الناس ثم أنزل عليه القرآن ووعد وأوعد حسب حالكم لخشع وتصدع من خشية الله حذراً من أن لا يؤدي حق الله تعالى في تعظيم القرءآن والامتثال لما فيه من أمره ونهيه ، والكافر المنكر أقسى منه ولذا لا يتأثر أصلاً . ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ ﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل أي هذا القول الغريب في عظمة القرآن ودناءة حال الإنسان وبيان صفتهما العجيبة وسائر الأمثال الواقعة في القرآن فإن لفظ المثل حقيقة عرفية في القول السائر ، ثم يستعار لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن تشبيهاً له بالقول السائر في الغرابة لأنه لا يخلو عن غرابة ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ كما جاء في سورة الزمر (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) بالإخبار على المضي مع أنها مكية ، وقال هنا : (نَضْرِبُهَا) بالاستقبال مع أن السورة مدنية فلعل الأول من قبيل عدّما سيحقق مما حقق لتحققه بلا خلف ، والثاني : من قبيل التعبير عن الماضي بالمضارع لإحضار الحال أو لإرادة الاستمرار على الأحوال ، بمعنى أنَّ شأننا أن نضرب الأمثال للناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : لمصلحة التفكر ومنفعة التذكر .

والتفكر إما أن يكون في الخالق أو الخلق ، والأول : إما في ذاته ، أو في صفاته أو في أفعاله . أما في ذاته فممنوع لأنه لا يعرف الله إلا الله إلا أن يكون التفكر في ذاته باعتبار عظمته وجلاله وكبريائه من حيث وجوب الوجود ودوامُ البقاء وامتناعُ الإمكان والفناء والصمدية التي هي الاستغناء عن الكل ، وأما في صفاته فهو فيها باعتبار كالها بحيث يحيط علمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع الأشياء وإرادته بجميع الكائنات وسمعه بجميع المسموعات وبصره بجميع المبصرات ونحو ذلك ، وأما في أفعاله فهو فيها بحسب شمولها وكثرتها ومتانتها ووقوعها على الوجه الأتم كل يوم هو في شأن . والثاني : إما أن يكون فيما كان من العلويات والسفليات أو فيما سيكون من أهوال القيامة وأحوال الآخرة إلى أبد الآباد . قال بعض العارفين : الفكر إما في آيات الله وصنائعه فيتولد منه المعرفة ، وإما في عظمة الله وقدرته فيتولد منه الحياءُ ، وإما في نعم الله ومِنَّته فيتولد منه المحبة ، وإما في وعد الله بالثواب فيتولد منه الرغبة في الطاعة ، وإما في وعيد الله بالعقاب فيتولد منه الرهبة من المعصية ، وإما في تفريط العبد في جنب الله فيتولد منه الخجل والندامة والتوبة ، ومن مهمات التفكر أن يتفكر المتفكر في أمر نفسه من مبدأه ومعاشه ومن إطاعته لربه ببدنه ولسانه وفؤاده ، ولو صرف عمره في فكر نفسه نظراً إلى أول أمره وأوسطه وآخره لما أتم ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لفظ الله بمعنى هو المعبود الحق المسمَّى بهذا الاسم الأعظم الدالّ على جلال الذات وكمال الصفات ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الألف واللام للاستغراق فيعلم كل غيب وكل شهادة أي : ما غاب عن الحسّ من الجواهر القدسية وأحوالها ، وما حضر له من الأجرام وأعراضها ، ومن المعدوم والموجود ، فالمراد بالغيب حينئذ ما غاب عن الوجود ، ومن السر

والعلانية ، ومن الآخرة والأولى ونحو ذلك . قال الراغب : ما غاب عن حواسِّ الناس وبصائرهم وما شهدوه بها ، والمعدمات إما معدومات يمتنع وجودها ، أو معدومات يمكن وجودها ، وإما موجودات يمتنع عدمها ، أو موجودات لا يمتنع عدمها ، ولكل من هذه الأقسام الأربعة أحكام وخواص ، والكل معلوم لله تعالى ، وقدَّم الغيب على الشهادة لتقدمه في الوجود ، وتعلق العلم القديم به من حيث كونه موجوداً . واعلم أن ما ورد من إسناد علم الغيب إلى الله فهو الغيب بالنسبة إلينا لا بالنسبة إليه تعالى ، لأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ والله تعالى رحمته الدنيوية عامة لكل إنسي وجنّي ، مؤمناً كان أو كافراً ، ولذلك يقال : يا رحمن الدنيا لأن ما فيه زيادة حرف يراد به زيادة في المعنى ، ورحمته الأخروية خاصة بالمؤمنين ولذا يقال : يا رحيم الآخرة ، فعلى هذا في معنى الرحمن زيادة باعتبار المُنْعَمِ عليه ، ونقصان باعتبار الأنواع والأفراد ، وفي تخصيص هذين الإسمين المنبئين عن وفور رحمته في الدارين تنبيه على سبق رحمته ، وتبشيرٌ للعاصين أن لا يقنطوا من رحمة الله ، وتنشيطٌ للمطيعين بأنه يقبل القليل ويعطي الجزيل . وحظُّ العبد من اسم (الرحمن الرحيم) أن يكون كثير الرحمة بأن يرحم نفسه أولاً ظاهراً وباطناً ، ثم يرحم غيره بتحصيل مراده وإرشاده والنظر إليه بعين الرحمة كما قال بعض المشايخ المربِّين :

وَارْحَمْ بُنَيّ جَمِيعَ الخَلْقِ كُلَّهُمُ * وانظُرْ إليهمْ بعَين اللُّطْفِ وَالشَّفَقَهِ
وَقِّرْ كَبِيرَهُمُ وارحم صَغِيرَهُمُ * وَرَاعِ في كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَه

﴿ **هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ** ﴾ كرر « هو » لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ **المَلِكُ** ﴾ ذو الملك والسلطان ، والمُلْكُ بالضم هو التصرف بالأمر والنهي في الخَلْق ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء فقوله تعالى : (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) تقديره الملك في يوم الدين كما في المفردات .

﴿ **القُدُّوسُ** ﴾ هو من صيغ المبالغة من القدس وهو النزاهة والطهارة أي : البليغ في النزاهة عمَّا يوجب نقصاناً ما وعن كل عيب ، ونظيره السبُّوح وفي تسبيح الملائكة « سبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح » وأُتْبِعَ هذا الاسم اسم الملك لما يعرض للملوك تغير أحوالهم بالجَوْر والظلم والاعتداء في الأحكام وفيما يترتب عليها فإن ملكه تعالى لا يعرض له ما يغيره لا ستحالة ذلك في وصفه ، وقال بعضهم : التقديس التطهير ، وروح القدس جبريل عليه السلام لأنه ينزل بالقدس من الله أي : ما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي ، والبيت المقدس هو المطهر من النجاسة أي : الشرك أو لأنه يتطهر فيه من الذنوب ، وكذلك الأرض المقدسة ، وحظيرة القدس : الجنة ﴿ **السَّلاَمُ** ﴾ ذو السلامة من

كل آفةٍ ونقص ، وهو مصدر بمعنى السلامة وصف به للمبالغة لكونه سليماً من النقائص ، أو في إعطائه السلامة فيكون بمعنى التسليم كالكلام بمعنى التكليم فما ورد من قوله : « أنت السلام » معناه أنت الذي سلم من كل عيب ، وبرىء من كل نقص وقوله : « ومنك السلام » أي : الذي يعطي السلامة فيسلم العاجز من المكاره ويخلصه من الشدائد في الدارين ويستر ذنوب المؤمنين وعيوبهم فيسلمون من الخزي يوم القيامة ، أو يسلّم على المؤمنين في الجنة لقوله تعالى : (**سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**) وقوله : (**وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ السَّلامُ**) إشارة إلى أن كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك وقوله : (فَحَيِّنَا رَبَّنَا بالسَّلام)[1] طلب السلامة منه في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

﴿ **الْمُؤْمِنُ** ﴾ أي : الموحد نفسه بقوله : (**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ**) قاله الزجاج ، أو واهب الأمن وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الذي آمن الناس من ظلمه ، وآمن من آمن من عذابه ، وهو من الإيمان الذي هو ضد التخويف كما في قوله تعالى : (**وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**) ﴿ **الْمُهَيْمِنُ** ﴾ قال بعض المشايخ : هذا الاسم من أسمائه التي علت ويعلو معناها عن مجاري الاشتقاق فلا يعلم تأويله إلا الله تعالى . وقال بعضهم : هو المبالغ في الحفظ والصيانه عن المضار من قولهم : هيمن الطائر إذا نشر جناحه على فرخه حماية له . وفي الإرشاد : الرقيب الحافظ لكل شيء . وقال الزروقي : هو لغة الشاهد ومنه قوله تعالى : (**وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**) يعني شاهداً عالماً . وقال بعضهم : مفيعل من الأمن ضد الخوف وأصله مؤامن بهمزتين فقلبت الهمزة الثانية ياءً لكراهة اجتماعها فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى : هاء كما قالوا : في أراق الماء هراقه فيكون في معنى المؤمن .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله : معنى المهيمن في حق الله أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه وكل مشرف على كنه الأمر مستولٍ عليه حافظ له فهو مهيمن عليه ، والإشرافُ يرجع إلى العلم ، والاستيلاء إلى كمال القدرة ، والحفظ إلى الفعل ، فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن ولن يجمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا الله تعالى ولذلك قيل : إنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة و « عبد المهيمن » هو الذي شاهد كون الحق رقيباً شهيداً على كل شيء ، فهو يراقب قلبه ويحفظ قواه وجوارحه ويأخذ حذره من الشيطان ويقوم بمراقبة عباد الله وحفظهم فمن عرف أنه المهيمن خضع تحت جلاله ، وراقَبَه في كل أحواله ، واستحيا من اطلاعه عليه فقام بمقام المراقبة لديه ﴿ **الْعَزِيزُ** ﴾ قال بعضهم : من عزَّ إذا غلب فمرجعه القدرة المتعالية عن المعارضة والممانعة ، أو من عز عزازة إذا قلَّ فالمراد عديم المثل كقوله تعالى : (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) وقال الإمام الغزالي رحمه الله : العزيز هو

(١) هذا من الدعاء المأثور الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ ، وقد رواه أبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢١٧ .

الخطير الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه . فما لم يجمع هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه العزيز فكم من شيء يقل وجوده ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزاً ، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسمَّ عزيزاً ، كالشمس مثلاً فإنها لا نظير لها والأرض كذلك والنفعُ عظيمٌ في كل واحدة منهما والحاجة شديدةٌ إليهما ولكن لا توصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتها فلابد من اجتماع المعاني الثلاثة ، ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كالٌ ونقصان ، فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى الواحد إذ لا أقل من الواحد ويكون بحيث يستحيل وجود مثله وليس هذا إلا الله تعالى فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان فيمكن وجود مثلها ، والكمال في النفاسة وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك الكمال إلا لله تعالى .

﴿ **الجَبَّارُ** ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد أي : قهرهم وأكرههم عليه ، أو جبر أحوالهم أي : أصلحها . والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من المعالي لا يستحقها ، وهذا لا يقال إلا على طريقة الذمِّ،وفي وصف الله لأنه الذي يجبر الناس بفائض نعمه أو يقهرهم على ما يريده من مرض وموت وبعث ونحوها،وهو لا يقهر إلا على ما تقتضي الحكمة أن يقهر عليه فالجبار المطلق هو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد ولا ينفذ فيه مشيئة أحد ﴿ **المُتَكَبِّرُ** ﴾ الذي تكبّر عن كل ما يوجب حاجةً أو نقصاناً أو البليغ الكبرياء والعظمة . قال الراغب : التكبر يقال على وجهين : أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزآئدة على محاسن غيره وعلى هذا وصف الله بالمتكبر وهو ممدوح ، والثاني : أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً وذلك في وصف عامة الناس والموصوف به مذموم وفي الحديث : « الكبرياء ردآئي والعظمة إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما قصمته ولا أبالي »[1] قال بعضهم : الفرق بين المتكبر والمستكبر ، أن المتكبر عامّ لإظهار الكِبْر الحق كما في أوصاف الحق تعالى ولإظهار الكِبْر الباطلِ كما في قوله : (**سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ**) والكِبْر ظنّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهار ذلك كما في العوارف والاستكبار إظهار الكبرياء باطلاً كما في قوله تعالى في حق إبليس : (**اسْتَكْبَرَ**) وغير ذلك كما تجده في موارد استعمالاته في القرءآن والحديث . وقال في الأسئلة المقحمة : ما معنى المتكبر من أسماء الله فإن التكبر مذموم في حق الخلق ؟ والجواب : معناه هو المتعظم عما لا يليق به سبحانه ، وهو من الكبرياء لا من التكبر ، ومعناه : المبالغة في العظمة ، والكبرياء في الله وهو الامتناع عن الانقياد فلهذا كان مذموماً في حق الخلق وهو صفة مدح

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود بلفظ في آخره (فمن نازعني واحداً قذفته في النار) جامع الأصول ١٠ / ٦١٣ .

في حق الله تعالى انتهى .

قال بعضهم : المتكبر هو الذي يرى غيره حقيراً بالإضافة إلى ذاته فينظر إلى الغير نظر المالك إلى عبده وهو على الإطلاق لا يتصور إلا لله تعالى فإنه المتفرد بالعظمة والكبرياء بالنسبة إلى كل شيء من كل وجه ولذلك لا يطلق على غيره تعالى إلا في معرض الذم لما أنه يفيد التكلف في إظهار ما لا يكون قال عليه الصلاة والسلام : « تحاجّت النار والجنة ، فقالت هذه : يدخلني الجبارون المتكبرون ، وقالت الجنة : يدخلني الضعفاء والمساكين ، فقال الله لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها »[1] ومن عَرَفَ علوَّه تعالى وكبرياءه لازمَ طريق التواضع وسَلَكَ سبيلَ التذلل ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهٌ له تعالى عمَّا يشركون به تعالى ، أو عن إشراكهم به إثر تعداد صفاتٍ لا يمكن أن يشاركه تعالى في شيء منها شيء ما أصلاً أي : سبِّحوا الله تسبيحاً ونزِّهوه تنزيهاً عمَّا يشركه الكفار به من المخلوقات ، فالله تعالى أورده لإظهار كمال كبريائه ، أو للتعجب من إثبات الشريك بعد ما عاينوا آثار اتصافه بجلال الكبرياء وكمال العظمة ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ ﴾ أي : المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ووفق مشيئته فإن أصل معنى الخلق التقدير ، وإن شاع في معنى الإيجاد على تقدير واستواء ، وسواء كان من مادة كخلق الإنسان من نطفة ونحوه ، أو من غير مادة كخلق السموات والأرض ﴿ البَارِيءُ ﴾ الموجدُ للأشياء بريئة من التفاوت ، فإن البرء الإيجاد على وجه يكون الموجد بريئاً من التفاوت والنقصان عمَّا يقتضيه التقدير على الحكمة البالغة والمصلحة الكاملة ﴿ المُصَوِّرُ ﴾ الموجدُ لصور الأشياء وكيفياتها كما أراد ، كما يصور الأولاد في الأرحام بالشكل واللون المخصوص فإن معنى التصوير تخصيصُ الخلق بالصور المتميزة والأشكال المتعينة ، قال الراغب : الصورة ما تتميز به الأعيان عن غيرها وهي محسوسة كصورة الإنسان ، ومعقولة كالعقل وغيره من المعاني .

والحاصل : أن الخالق هنا المقدر على الحكمة الملائمة لنظام العالم ، والبارىء الموجد على ذلك التقدير ، والمصوّر المبدع لصور الكائنات وأشكال المحدثات ، بحيث يترتب عليها خواصهم ويتم بها كالهم ، وبهذا ظهر وجه الترتيب بينهما ، واستلزام التصوير البرء والبرء الخلق استلزام الموقوف للموقوف عليه كما قال الإمام الغزالي رحمه الله : قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع ، ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى التقدير أولاً ، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً ، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً والله تعالى خالق من حيث إنه مقدر ، وبارىء من

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي بألفاظ متقاربة وله تتمة في البخاري وغيره (فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع قدمه عليها ، فهنالك تمتلىء ، ويزوى بعضها إلى بعض) جامع الأصول ١٠ / ٥٤٤ .

حيث إنه مخترع ، وموجد ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب ، وهذا كبناء مثلاً ، فإنه يحتاج إلى مقدِّر يقدِّر ما لابدَّ منه من الخشب ، واللَّبن ومساحة الأرض ، وهذا يتولاه المهندس ، فيرسمه ويصوِّره ، ثم يحتاج إلى بنّاءٍ يتولّى الأعمال التي عندها تحدث أصول الأبنية ، ثم يحتاج إلى مزيِّن ينقش ظاهره ويزيِّن صورته ، وليس كذلك في أفعال الله تعالى ، بل هو المقدِّر ، والموجد ، والمزيّن ، فقدم ذكر الخالق على البارىء لأن الإرادة والتقدير متقدمة على تأثير القدرة وقدّم البارىء على المصوِّر لأن إيجاد الذات متقدم على إيجاد الصفات ﴿ **لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة كما سبق في سورة طه ، والحسنى صيغة تفضيل لأنها تأنيث الأحسن ، كالعليا في تأنيث الأعلى ، وتوصيف الأسماء بها للزيادة المطلقة إذ لا نسبة لأسمائه إلى غير الأسماء من أسماء الغير ، كما لا نسبة لذاته المتعالية إلى غير ذوات الغير ، وأسماء الله تسعة وتسعون على ما جاء في الحديث ، ومن دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أسألك بكل اسم سمَّيْتَ به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك »[1] فلعل كونها تسعة وتسعين بالنظر إلى الأشهر الأشرف الأجمع ، وتعدد الأسماء لا يدلُّ على تعدد المسمى لأن الواحد يسمى أباً من وجه ، وجداً من وجه ، وخالاً من وجه ، وعالماً من وجه ، وذاتُه متحدة ، وإطلاق الاسم على الله تعالى توقيفي ، بحيث لا يصحّ إطلاق شيء منه عليه إلا بعد أن يكون وارداً في القرآن أو الحديث الصحيح ﴿ **يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ ينطق بتنزهه عن جميع النقائص تنزهاً ظاهراً قال في كشف الأسرار : يسبح له جميع الأشياء إما بياناً ونطقاً ، وإما برهاناً وخلقاً . وقد مرَّ الكلام في هذا التسبيح مراراً وجمهور المحققين على أنه تسبيحُ عبارة وهو لا ينافي تسبيح الإشارة وكذا العكس ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ الجامعُ للكمالات كافةً فإنها مع كثرتها وتشعبها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأجل العلوم وأجل الأشياء هو الله تعالى ، وأجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله ، فليس يعلم الله حقيقة إلا الله ، ومن عرف الله فهو حكيم ، وإن كان ضعيف القوة في العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها ، إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله كنسبة معرفته إلى معرفته بذاته وشتّان بين المعرفتين فشتان بين الحكمتين ولكنه مع بعده عنه هو أنفس المعارف وأكثرها خيراً (**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ**) . وإنما يمدح الله نفسه بهذه الصفات العظام ، تعليماً لعباده المدح بصفاته العلى بعد فهم معانيها ومعرفة استحقاقه بذلك ، طلباً لزيادة تقربهم إليه . قال أبو الليث في تفسيره : فإن قال قائل : قد قال

(١) هذا طرَف من حديث أخرجه رُزين عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قال : علمني رسولُ الله ﷺ هذا الدعاء : « اللهم إني أسألك بمحمدٍ نبّيك ، وبإبراهيم خليلك .. وفيه وأسألك بكل اسمٍ هو لك ، أنزلته في كتابك أو استأثرت به غيبك .. » الحديث وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٠٢ .

الله : (**فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ**) فما الحكمة في أن الله تعالى نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه ؟ قيل له : عن هذا السؤال جوابان : أحدهما : أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص ، وإذا كان ناقصاً لا يجوز له أن يمدح نفسه ، والله تعالى تام الملك والقدرة فيستوجب بها المدح ، فَمَدَحَ نفسه ليعلم عباده فيمدحوه ، والجواب الآخر : أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك أفضال من الله تعالى ولم يكن ذلك بقوة العبد ، فلهذا لا يجوز أن يمدح نفسه ، ونظير هذا أن الله تعالى نهى عباده أن يمنُّوا على أحد بالمعروف ، وقد منَّ على عباده للمعنى الذي ذكر في المدح (**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لاَتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمانِ**) .

وأمَّا فضل قراءة خواتيم سورة الحشر فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام : (من قال حين يصبح عشر مرات « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » وقرأ ثلاث آيات من آخر الحشر ، وَكَّلَ الله به سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه حتى يُمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة)[1] .

تمت سورة الحشر بعون الله وتوفيقه



(١) الحديث أخرجه أحمد والدارمي ، والترمذي وحسَّنه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن معقل بن يسار مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٢٠٢ ومختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نزلت في « حاطب بن أبي بلتعة » العبسي ، وكان من المهاجرين وشهد بدراً وبيعة الرضوان وعمَّم الله الخطاب في الآية تعميماً للنصح ، والعدوُّ المراد به هنا : كفار قريش ، وذلك أنه لما تجهز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح في السنة الثامنة من الهجرة كتب حاطب إلى أهل مكة إنَّ رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فإنه قد توجه إليكم في جيش كالليل وأرسل الكتاب مع سارة مولاة بني عبد المطلب ، فرجعت إلى مكة ومعها كتابُ حاطب فنزل جبرائيل عليه السلام بالخبر فبعث رسول عليه الصلاة والسلام عليّاً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ موضع بين الحرمين ـ فإن بها ظعينة ـ وهي المرأة ما دامت في الهودج ـ معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها فخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها فجحدت فسلَّ عليٌّ رضي الله عنه سيفه فأخرجته من عقاصها أي من ضفائرها ، فاستحضر رسولُ الله حاطباً فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش ـ أي : حليفاً ـ ولم أكن من أنفسهم ، ومن معك من المهاجرين كان له فيهم قرابات يحمون أهاليهم وأموالهم وليس فيهم من يحمي أهلي ، فأردت أن آخذ عندهم يداً ـ أي : أجعل عندهم نعمة ـ ولم أفعله كفراً وارتداداً عن ديني وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدّقه رسول الله وقبل عذره ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « يا عمر إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطَّلَعَ على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ففاضت عينا عمر رضي الله عنه .

وفي القصة إشارة إلى جواز هتك سَتر الجواسيس ، وهتك أستار المفسدين ، إذا كان فيه مصلحة أو في ستره مفسدة ، وأنَّ من تعاطى أمراً محظوراً ثم ادعى له تأويلاً محتملاً قبل منه ، وأن العذر مقبول عند كرام الناس ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الوُدُ : محبة الشيء وتمني كونه ، ويستعمل في كل واحد من المعنيين أي : توصلون محبتكم بالمكاتبة ونحوها من الأسباب التي تدل على المودة ، أو تلقون إليهم أخبار النبي عليه الصلاة والسلام بسبب المودة التي بينكم وبينهم .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الحق هو القرآن أو دين الإسلام أو الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : مخرجين الرسول وإياكم من مكة ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ

﴿ رَبِّكُمْ ﴾ تعليلٌ للإخراج ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ متعلقٌ بلا تتخذوا كأنه قيل : لا تتولوا أعدآئي إن كنتم أوليائي أي : إن كنتم خرجتم عن أوطانكم لأجل هذين فلا تتخذوهم أولياء ولا تلقوا إليهم بالمودة . والجهاد بالكسر القتال مع العدو كالمجاهدة . وفي التعريفات : هو الدعاء إلى الدين الحق . وفي المفردات : الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، وهو جهاد العدو الظاهر ، وجهاد الشيطان ، وجهاد النفس ، ويكون باليد واللسان . والمرضاة مصدر كالرضى وفي عطف ﴿ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ على (جِهَاداً فِي سَبِيلِي) تصريح بما علم التزاماً فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء دين الله لا لغرض آخر ، وإسناد الخروج إليهم معللاً بالجهاد ، والابتغاء يدل على أن المراد من إخراج الكفرة كونهم سبباً لخروجهم بأذيتهم لهم فلا ينافي تلك السببية كون إرادة الجهاد والابتغاء علة له ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ كأنهم سألوا ماذا صدر عنا حتى عوتبنا ؟ فقيل : تلقون إليهم المودة سرّاً ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ ﴾ أي : والحال أني أعلم منكم ﴿ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ من مودة الأعداء والاعتذار وغير ذلك فإذا كان بينهما تساوٍ في العلم فأيّ فائدة في الإسرار والاعتذار ؟ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أي : الاتخاذ المنهي عنه . أي : ومن يفعل ما نهيت عنه من موالاتهم والأقرب من يفعل الإسرار ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب الموصل إلى الفوز بالسعادة الأبدية . قال القرطبي : هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله ونصيحته لرسول الله وصدق إيمانه فإن المعاتبة لا تكون إلا من حبيب لحبيب كما قيل :

إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ * ويبقى الوُدُّ ما بقي العتاب

والعتاب : إظهار الغضب على أحد لشيء مع بقاء المحبة بالترك . ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم . والثقف : الحذق في إدراك الشيء وفعله ،وثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم قد تجوز به فاستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة كما في هذا الموضع ونحوه ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي : يظهروا ما في قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها أحكامها ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿ وَيَبْسُطُوا ﴾ ويطيلوا ﴿ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُم وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أو بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : تمنوا ارتداكم وكونكم مثلهم كقوله : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ أي : قراباتكم ، قال الراغب : الرحم رحم المرأة وهي في الأصل وعاء الولد في بطن أمه ومنه : استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة ﴿ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بجلب نفع أو دفع ضر ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام

والأولاد يومئذ ، أي : يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى : (**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أَخِيهِ وَأُمِّهِ**) الآية فما لكم ترفضون حق الله لمراعاة حق من يفرُّ منكم غداً ؟ وقيل : يفرق بين الوالد وولده وبين القريب وقريبه فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ﴿ **وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ فيجازيكم به وهو أبلغ من خبير لأنه جعله كالمحسوس بحسِّ البصر مع أن المعلوم هنا أكثره المبصرات من الكتاب والإتيان بمن يحمل الكتاب وإعطاء الأجرة للحمل وغيرها ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ قال الراغب : الأسوة كالقدوة ، والقدوة هي الحالة يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً وإن ساراً وإن ضاراً ، والمعنى : خَصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويقتدى بها ويتبع أثرها ﴿ **فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ أي : من أصحابه المؤمنين وقيل : المراد الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريباً منه . قال ابن عطية : وهذا القول أرجح لأنه لم يرد أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحة نمرود ، وفي البخاري : أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلاد نمرود : ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك ﴿ **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ** ﴾ الكفار ﴿ **إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ** ﴾ جمع بريء ﴿ **وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ من أصنام ، أظهروا البراءة أولاً من أنفسهم مبالغة ، وثانياً من عملهم الشرك إذ المقصود من البراءة أولاً من معبودهم هو البراءة من عبادته ، ويحتمل أن تكون البراءة منهم أن لا يصاحبوهم ولا يخالطوهم ومن معبودهم أن لا يقربوا منه ولا يلتفتوا نحوه ، ويحتمل أن تكون البراءة منهم بمعنى البراءة من قرابتهم لأن الشرك يفصل بين القرابات ويقطع الموالاة ، وحاصلُ الآية : هلا فعلتم كما فعل إبراهيم حيث تبرأ من أبيه وقومه لكفرهم ؟ وكذا المؤمنون ﴿ **كَفَرْنَا بِكُمْ** ﴾ أي : بدينكم ﴿ **وَبَدَا** ﴾ بدا الشيء بُدُوّاً وبداء أي : ظهر ظهوراً بيِّناً ، والبادية كل مكان يبدو ما يعنّ فيه أي : يعرض ﴿ **بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا** ﴾ أي : هذا دأبنا معكم لا نتركه ، والبغض ضد الحب ﴿ **حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ** ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة حينئذ ولاية والبغضاء محبة والوحشة أُلفة ، فإن قلت : ما وجه قوله ﴿ **حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ** ﴾ ولابد في الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؟ قلت : الإيمان بالله في حال وحدته يستلزم الإيمان بالجميع ، مع أن المراد الوحدة الإلهية رداً للأصنام . قال بعض المشايخ : أسوة إبراهيم : خلة الله ، والتبري مما دون الله والتخلق بخلق الله ، والتأوه والبكاء من شوق الله كما قال سبحانه (**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**) وقال ابن عطاء رحمه الله : الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة وهو السخاء وحسن الخلق واتباع ما أُمر به على الكرب ، وفي الباطن الإخلاص في جميع الأفعال والإقبال عليه في كل الأوقات وطرح الكل في ذات الله تعالى . ﴿ **إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ** ﴾ آزر ﴿ **لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** ﴾ يا أبي استثناء من قوله تعالى : (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) فإن

استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر ـ وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم كما نطق به النص ـ لكنه ليس مما ينبغي أن يؤتسى به أصلاً ، إذ المراد به ما يجب الائتساء به حتماً بورود الوعيد على الإعراض عنه بما سيأتي من قوله تعالى : (**وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**) فاستثناؤه من الأسوة إنما يفيد عدم استدعاء الإيمان والمغفرة للكافر المرجو إيمانه ، وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل ، وإما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعاً ، وحمل الأب على العم يخالف العقل والنقل لأن الله تعالى يخرج الحي من الميت ، والعبرةُ بالحسب لا بالنسب .

﴿ **وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ أي : أستغفر لك وليس في طاقتي إلا الاستغفار دون منع العذاب إن لم تؤمن . وفي هذه الآية دلالة بينة على تفضيل نبيه محمد عليه الصلاة والسلام وذلك أنه حين أُمرَ بالاقتداء به ، أُمِرَ على الإطلاق ولم يستثن فقال : (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**) وحين أمر بالاقتداآء بإبراهيم استثنى ، وأيضاً قال تعالى : في سورة الأحزاب : (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**) فأطلق الاقتداآء ولم يقيده بشيء . ﴿ **رَبَّنَا** ﴾ من تمام ما نقل عن إبراهيم ومن معه من الأسوة الحسنة ﴿ **عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا** ﴾ اعتمدنا ﴿ **وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا** ﴾ رجعنا بالاعتراف بذنوبنا وبالطاعة ﴿ **وَإِلَيْكَ المَصِيرُ** ﴾ أي : الرجوع في الآخرة ، وتقديمُ الجار والمجرور لقَصْر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى .

﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذابٍ لا نطيقه . وقال بعضهم : (**رَبَّنا لا تَجعَلْنا فِتنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا**) فتقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل ﴿ **وَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ ما فرط منا من الذنوب وإلا كان سبباً لظهور العيوب وباعثاً للابتلاء المرهوب ﴿ **رَبَّنَا** ﴾ تكرير النداآء للمبالغة في التضرع والجؤار ، فيكون لاحقاً بما قبله ، ويجوز أن يكون سابقاً لما بعده توسلاً إلى الثناء بإثبات العزة والحكمة ، والقولُ الأول أظهر ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ** ﴾ الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ** ﴾ أي : في إبراهيم ومن معه ﴿ **أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ تكرير للمبالغة في الحثِّ على الائتساء به عليه السلام ، وجعله الطيبي من التعميم بعد التخصيص ، وفي برهان القرآن : كرر لأن الأول في القول والثاني في الفعل . وفي فتح الرحمن : الأولى أسوة في العداوة ، والثانية : في الخوف والخشية . وفي كشف الأسرار : الأولى : متعلقة بالبراءة من الكفار ومن فعلهم ، والثانية : أمر بالائتساء بهم لينالوا من ثوابهم ما نالوا وينقلبوا إلى الآخرة كانقلابهم ﴿ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ** ﴾ بالإيمان بلقائه ﴿ **وَاليَوْمَ الآخِرَ** ﴾ بالتصديق بوقوعه ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ** ﴾ فإنه مما يوعد

بأمثاله الكفرة أي : ومن يعرض عن الاقتداء بهم في التبري من الكفار ووالاهم ، فإنَّ الله هو الغنيُّ وحده عن خلقه وعن موالاتهم ونصرتهم لأهل دينه لم يتعبدهم لحاجته إليهم بل هو ولي دينه وناصر حزبه ، وهو الحميد المستحق للحمد في ذاته ، ومن صحاح الأحاديث القدسية : « يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » (١) .

﴿ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ أي : من أقاربكم المشركين . وقال الراغب : ذكرالله في القرآن « عسى » و« لعلَّ » تذكرة ليكون الإنسان منه على رجاء ، لا على أن يكون هو تعالى راجياً ، أي : كونوا راجين في ذلك ﴿ مَوَدَّةً ﴾ أي : بأن يوافقوكم في الدين وعدهم الله بذلك لما رأى منهم من التصلب في الدين ، والتشدد في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطييباً لقلوبهم ، ولقد أنجز وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم كأبي سفيان وسهل بن عمرو وحكيم بن حزام والحارث بن هشام وغيرهم من صناديد العرب وكانوا أعداء أشدَّ العداوة فتمّ بينهم من التحابّ والتصافي ما تمّ ﴿ وَاللهُ قَدِيرٌ ﴾ أي : مبالغ في القدرة فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ويرحمهم بقلب معاداة أقاربهم موالاة . وقيل : غفور لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم . ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي : على الدين ، أو في حق الدين وإطفاء نوره ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أي : لا ينهاكم الله عن مبرَّة هؤلاء فإن قوله تعالى ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ المنهي عنه برهم بالقول وحسن المعاشرة والصلة بالمال لا أنفسهم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي : تفضوا إليهم بالقسط والعدل ولا تظلموهم ، وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين ويتحاموا ظلمهم مرحمة عن حال مسلم يجترىء على ظلم أخيه المسلم ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي : العادلين في المعاملات كلها (روي) : أن قُتيلة بنت عبد العزى قدمت ـ في المدة التي

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي من حديث أبي ذر الغفاري ، وأوله (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ٣ .

كانت فيها المصالحة بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين كفار قريش ـ مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت ، فأمرها رسول الله أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها[1] وكانت « قتيلة » زوجة أبي بكر وكان طلقها في الجاهلية ﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ** ﴾ وإطفاء نوره ﴿ **وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** ﴾ وهم عتاة أهل مكة وجبابرتهم ﴿ **وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ** ﴾ وهم سائر أهلها ﴿ **أَنْ تَوَلَّوهُمْ** ﴾ أي : إنما ينهاكم عن أن تتولوهم ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ أي هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، جعلنا الله وإياكم من الذين يطلبون الباقي لا الفاني . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بيان لحكم من يظهر الإيمان بعد بيان حكم فريقي الكافرين ﴿ **إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ** ﴾ أي : بدلالة ظاهر حالهن وإقرارهن بلسانهن أو المشارفات للإيمان ولا بعد أن تكون التسمية بالمؤمنات لكونهن كذلك في علم الله وذلك لا ينافي امتحان غيره تعالى ﴿ **مُهَاجِرَاتٍ** ﴾ من بين الكفار راغبات في دينكم ﴿ **فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ فاختبروهن بما تغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في الإيمان . قيل : إنه كانت من أرادت منهن إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، فلذلك أُمر النبي بامتحانهن وكان عليه الصلاة والسلام يقول للتي يمتحنها « بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت عن بغض زوج ، ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت لحدث أحدثه ، بالله ما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحب لله ولرسوله »[2] فإذا حلفت بالله الذي لا إله هو على ذلك أعطى النبي عليه الصلاة والسلام زوجها مهرها وما أنفق عليها ولا يردها إلى زوجها . قال السهيلي : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف ولدت له إبراهيم ابن عبد الرحمن وكانت أم كلثوم أخت عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه أروى ، وأفادت الآية أن الامتحان في محله حسنٌ نافع ، ولذا تمتحن المنكوحة ليلة الزفاف وتستوصف الإسلام ، مع سهولة في السؤال وإشارة إلى الجواب .

﴿ **اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** ﴾ منكم لأنه المطلع على ما في قلوبهن فلا حاجة له إلى الامتحان ، وليس ذلك للبشر فيحتاج إليه والجملة اعتراض ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ** ﴾ بعد الامتحان ﴿ **مُؤْمِنَاتٍ** ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات ، وإنما سماه علماً إيذاناً بأنه جارٍ مجرى العلم في وجوب العمل به ﴿ **فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** ﴾ من الرجع بمعنى الرد ، أي : لا تردّوهن إلى أزواجهن

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وأصله في الصحيحين ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٤ .

(٢) الحديث أخرجه البزار ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم بسند حسن عن ابن عباس ولفظ ابن المنذر أنه سُئل : بم كان النبي ﷺ يمتحن النساء ؟ قال : كانت المرأة إذا جاءت النبيَّ ﷺ حلّفها عمر رضي الله عنه « باللهِ ما خرجتِ رغبةً بأرضٍ عن أرض ، وباللهِ ما خرجتْ من بغض زوج ، وباللهِ ما خرجت التماس دنيا ، وباللهِ ما خرجت إلاّ حباً في الله ورسوله » وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٠٨ .

الكفرة لقوله تعالى ﴿ لاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فإنه تعليل للنهي عن رجعهن إليهم . يعني : لا تحل مؤمنة لكافر لشرف الإيمان ولا نكاح كافر لمسلمة لخبث الكفر . والتكرير إما لتأكيد الحرمة وإلا فيكفي نفي الحل من أحد الجانبين ، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول ، والثاني : لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ هذا هو الحكم الثاني أي : وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور ، وذلك أي بيان المراد بما أنفقوا هو المهور أن صلح الحديبية كان على أن من جاءنا منكم رددناه ، فجاءت « سبيعة بنت الحارث الأسلمية » مسلمة والنبي عليه الصلاة والسلام بالحديبية فأقبل زوجها المخزومي طالباً لها فقال : يا محمد اردد عليَّ امرأتي فإنك قد شرطت أن تردَّ علينا من أتاك منا ، فنزلت لبيان أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء ، فاستحلفها رسول الله فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وهو المهر بالاتفاق ، وتزوج بها عمر رضي الله عنه ، وإنما ردَّ الرجال دون النساء لضعف النساء عن الدفع عن أنفسهن ، وعجزهن عن الصبر على الفتنة ، ولعل المراد بإيتاء ما أنفقوا رعاية جانب المؤمنين بالحقّ على إظهار المروءة وإيثار السخاء ، وأيضاً فإنَّ في الإنفاق تأليف القلوب وإمالتها إلى جانب الإسلام ، وأفادت الآية أن اللائق بالولي كائناً من كان أن يحذر من تزويج مؤمنة ، له ولاية عليها بمبتدع تقضي بدعته إلى الكفر ، وللحاكم أن يُفرّق بينه وبينها إن ظهرت منه تلك البدعة إلا أن يتوب ويجدد إيمانه ونكاحه .

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ هذا هو الحكم الثالث يقال جنحت السفينة أي : مالت إلى أحد جانبيها وسُمّي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً ، ثم سمّي كل إثم جناحاً ﴿ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ أي : تنكحوا المهاجرات وتتزوجوهن وإن كان لهنَّ أزواج كفار في دار الحرب فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر لأن ظاهر النظم يقتضي إيتاءين : إيتاءً إلى الأزواج وإيتاءً إليهن على سبيل المهر ، استدل بالآية أبو حنيفة رحمه الله على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة وبقي الآخر حربياً وقعت الفرقة ولا يرى العدة على المهاجرة ولا على الذمية المطلقة ولا على المتوفى عنها زوجها ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملاً لأنه تعالى نفى الجناح من كل وجه في نكاحهن بعد إيتاء المهور ولم يقيّد بمضي العدة وقالا : عليها العدة . وفي الهداية قول أبي حنيفة فيما إذا كان معتقدهم أنه لا عدة وأما إذا كانت حاملاً فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره » [1] ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ هذا هو الحكم الرابع ،والعِصَمُ : جمع عصمة وهي

(١) الحديث أخرجه أبو داود عن رويفع بن ثابت ، وهو من حديث طويل ، خطبهم به عليه الصلاة والسلام يوم حنين ، وفي رواية أبي داود (لا يحلُّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءَه زرعَ غيره - يعني إتيان الحبالى -) الحديث وانظر جامع الأصول ٨ /

ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر جمع كافرة ، والكوافر طائفتان من النساء : طائفة قعدت عن الهجرة وثبتت على الكفر في دار الحرب ، وطائفة ارتدت عن الهجرة ولحقت بأزواجها الكفار . والمعنى : لا يكن منكم وبين المشركات عصمة ولا علقة زوجية . والمراد بالعصمة هنا النكاح بمعنى من كانت له زوجة كافرة بمكة أو ارتدت ورجعت إليها فلا يعتّد بها ويعدها من نسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ، فجاز له أن يتزوج بأربع سواها وبرابعةٍ،وبأختها من غير تربص وعدة ، فيكون إشارة إلى حكم اللاتي بقين في دار الكفر وما أسلمن ولا هاجرن بعد إسلام أزواجهن وهجرتهم . وعن النخعي هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر فيكون قوله : (**وَلا تُمْسِكُوا**) بمقابلة قوله : (**إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَات**) يعني أن قوله (**إِذَا جَاءَكُمْ**) إلخ إشارة إلى حكم اللاتي أسلمن وخرجن من دار الكفر وقوله (**وَلا تُمْسِكُوا**) إلخ إشارة إلى حكم المسلمات اللاتي ارتددن وخرجن من دار الإسلام إلى دار الكفر ، وعلى التفسيرين زال عقد النكاح بينهن وبين أزواجهن،وانقطعت عصمتهن عنهم باختلاف الدارين فالعصمة هي المنع أريد بها في الآية عقد النكاح الذي هو سبب لمنع أزواجهن إياهن عن الإطلاق أي : لا تعتدوا بما كان بينكم وبينهن من العقد الكائن قبل حصول اختلاف الدارين . والفرقة عند الحنفية تقع بنفس الوصول إلى دار الإسلام فلا حاجة إلى الطلاق بعد وقوع الفرقة ، وكانت زينب بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام امرأة أبي العاص ابن الربيع فلحقت بالنبي عليه الصلاة والسلام وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإذا أسلم الزوجان معاً أو أسلم زوج الكتابية فهما على نكاحهما بالاتفاق، وإذا أسلمت المرأة فإن كانت مدخولاً بها فأسلم في عدتها فهي امرأته بالاتفاق ، وإن كانت غير مدخول بها وقعت الفرقة بينهما وكان فسخاً عند الثلاثة ، وقال أبو حنيفة : يُعْرض عليه الإسلام فإن أسلم فهي امرأته وإلا فرّق القاضي بينهما بإبائه عن الإسلام ، وتكون هذه الفرقة طلاقاً عند أبي حنيفة ومحمد ، وفسخاً عند أبي يوسف ولها المهر إن كانت مدخولاً بها وإلا فلا بالاتفاق، وأما إذا ارتدّ أحد الزوجين المسلمين فقال أبو حنيفة ومالك : تقع الفرقة حال الردة بلا تأخير قبل الدخول وبعده . وقال الشافعي وأحمد : إن كانت الردة من أحدهما قبل الدخول انفسخ النكاح وإن كانت بعده وقعت الفرقة عند انقضاء العدة ، فإن أسلم المرتد منهما في العدة ثبت النكاح وإلا انفسخ بانقضائها ، ثم إن كان المرتد الزوجة بعد الدخول فلها المهر وقبله لا شيء لها وإن كان الزوج فلها الكل بعده والنصف قبله بالاتفاق كذا في فتح الرحمن،وقال سهل رحمه الله في الآية : ولا توافقوا أهل البدع في شيء من آرائهم ﴿ **وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ** ﴾ هذا هو الحكم الخامس أي : وأسألوا الكفار أيها المؤمنون ما أنفقتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار أي : إذا ارتدت امرأة أحدكم ولحقت بدار الحرب فأسألوا مهرها

١٢٠ والفتح الكبير ٣ / ٢٣٢ تر الحديث بأكمله .

ممن تزوجها،ولعل هذا لتطرية قلوب بعض المؤمنين بالمقابلة والمعادلة وإلا فظاهر حال الكرام الاستغناء عنه ﴿ وَلْيَسْأَلُوا ﴾ أي : الكفار منكم ﴿ مَا أَنْفَقُوا ﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات أي : يسأل كل حربي أسلمت امرأته وهاجرت إلينا ممن تزوجها منا ، وظاهر قوله (وَلْيَسْأَلُوا) يدلُّ على أن الكفار مخاطبون بالأحكام ، وهو أمر للمؤمنين بالأداء مجازاً من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، كما في قوله تعالى (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) فإنه بمعنى : وأغلظوا عليهم ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ الذي ذكر في هذه الآية من الأحكام ﴿ حُكْمُ اللهِ ﴾ ما حكم الله به لأن يراعى وقوله تعالى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ كلام مستأنف للتأكيد والحث على الرعاية والعمل به . قال في فتح الرحمن : ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك إلا قوله : (لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة . قال ابن العربي : كان حكم الله هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصةً . وقال الزهري : لولا هذه الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله وبين قريش يوم الحديبية ، لأمسك النساء ولم يرد الصداق ، وكذا كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد . روي أنه لما نزلت الآية أدى المؤمنون ما أُمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين وقالوا : نحن لا نعلم لكم عندنا شيئاً فإن كان لنا عندكم شيء فوجهوا بهِ فنزل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ ﴾ الفَوْتُ بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، والمعنى : سبقكم وانفلت منكم أي : خرج وفرَّ منكم فجأة من غير تردد ولا تدبر .

﴿ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أي : أحد من أزواجكم إلى الكفار ودارهم ، والشيء لكونه أعم من الأحد أظهر إحاطة لأصناف الزوجات أي : أيُّ نوع وصنف من النساء كالعربية أو العجمية أو الحرة أو الأمة ونحوها ، أو فاتكم شيء من مهور أزواجكم . والزوج هنا : هي المرأة ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ من العقبة وهي النوبة والمعاقبة المناوبة يقال : عاقب الرجل صاحبه في كذا أي : جاء فعل كل واحد منهما يعقب فعل الآخر ، والمعنى وجاءت عقبتكم ونوبتكم من أداء المهر بأن هاجرت امرأة الكافر مسلمة إلى المسلمين ولزم أداء مهرها إلى زوجها الكافر بعدما فاتت امرأت المسلم إلى الكفار ولزم أن يسأل مهر زوجته المرتدة ممن تزوجها منهم ، شبّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ونحوه أي : يتناوب وإلا فأداءُ كل واحد من المسلمين والكفار لا يلزم أن يعقب أداء الآخر لجواز أن يتوجه الأداء لأحد الفريقين مراراً متعددة من غير أن يلزم الفريق الآخر شيء وبالعكس فلا يتعاقبون في الأداء ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ أي : من المهاجرة التي تزوجتموها ولا تؤتوا

زوجها الكافر يعني : إن فاتت امرأة مسلم إلى الكفار ولم يعط الكفار مهرها فإذا فاتت امرأة كافر إلى المسلمين أي : هاجرت إليهم وجب على المسلمين أن يعطوا المسلم الذي فاتت امرأته إلى الكفار مثل مهر زوجته الفائتة من مهر هذه المرأة المهاجرة ليكون كالعوض لمهر زوجته الفائتة ولا يجوز لهم أن يعطوا مهر هذه المهاجرة زوجها الكافر . قيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري ، وفاطمة بنت أمية كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهي أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة وزوّجها عمرو بن عبدور ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص ، وكلثوم بنت جرولٌ كانت تحت عمر رضي الله عنه ، وأعطاهم رسول الله عليه الصلاة والسلام مهور نسائهم من الغنيمة كما في الكشاف ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ** ﴾ لا بغيره من الجبت والطاغوت ﴿ **مُؤْمِنُونَ** ﴾ فإن الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾ نداء تشريف وتعظيم ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ** ﴾ أي : مبايعات لك . أي قاصدات للمبايعة ، نزلت بعد الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء ، سميت البيعة بيعةً لأن المبايع يبيع نفسه بالجنة فالمبايعة مفاعلة من البيع ، ومن عادة الناس حين المبايعة أن يضع أحد المتبايعين يده على يد الآخر لتكون معاملتهم محكمة مثبتة،فسميت المعاهدة بين المعاهدين مبايعة تشبيهاً لها بها في الإحكام والإبرام ، فمبايعة الأمة رسولهم التزام طاعته وبذل الوسع في امتثال أوامره وأحكامه والمعاونة له ومبايعته إياهم الوعد بالثواب وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم في الغلبة على أعدائهم الظاهرة والباطنة والشفاعة لهم يوم الحساب إن كانوا ثابتين على تلك المعاهدة قائمين بما هو مقتضى المواعدة ﴿ **عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئَاً** ﴾ أي : شيئاً من الأشياء أو شيئاً من الإشراك . والظاهر أن المراد الشرك الأكبر ويجوز التعميم له وللشرك الأصغر الذي هو الرياء ، فالمعنى على أن لا يتخذن إلهاً غير الله ولا يعلمن إلا خالصاً لوجه الله ﴿ **وَلا يَسْرِقْنَ** ﴾ السرقةُ : أخذ ما ليس له أخذه في خفاء،وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقدر مخصوص أي : لا يأخذن مال أحد بغير حق ﴿ **وَلا يَزْنِينَ** ﴾ الزنى وطىء المرأة من غير عقد شرعي . قال مظهر الدين : الزنى في اللغة عبارة عن المجامعة في الفرج على وجه الحرام ، ويدخل فيه اللواطة وإتيان البهائم ، تمّ كلامه . ﴿ **وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ أريد به وأد البنات أي : دفنهن أحياءً خوف العار والفقر كما في الجاهلية وإنما يحدث هذا من القسوة وعدم الرحمة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تنزع الرحمة إلا من شقيٍّ »[1] .

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً ، الفتح الكبير ٣ / ٣٤١ .

ولعل إسناد الفعل إلى النساء إما باعتبار الرضى به ، أو بمباشرته بأمر زوجها ﴿ **وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** ﴾ البهتان : الكذب الذي يبهت المكذوب عليه أي : يدهنه ويجعله متحيراً فيكون أقبح أنواع الكذب ، وإذا قالت لزوجها : هذا ولدي منك لصبي التقطته فقد بهتته به أي قالت عليه ما لم يفعله ، جعله نفس البهتان ، ثم وصفه بكونه مفترى مبالغة في وصفهن بالكذب . والافتراءُ : الاختلاقُ وقوله : (**بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ**) أي : يختلقنه مقدراً وجوده بين أيديهن وأرجلهن على أن يكون المراد بالبهتان الولد المبهوت به كما ذهب إليه جمهور المفسرين ، وليس المعنى على نهيهن عن أن يأتين بولد من الزنى فينسبنه إلى الأزواج لأن ذلك نهي بقوله : (**وَلا يَزْنِينَ**) بل المراد نهيهن عن أن يلحقن بأزواجهن ولْداً التقطته من بعض المواضع ، وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدي منك حملتُه في بطني الذي بين يدي ، ووضعته من فرجي الذي هو بين رجلي ، فكنَّى عنه بالبهتان المفترىٰ بين يديها ورجليها لأن بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها . والمعنى : ولا يجئن بصبي ملتقط من غير أزواجهن ، فإنه افتراء وبهتان لهم ، والبهتان من الكبائر الذي يتَّصل بالشرك ﴿ **وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** ﴾ أي : يخالفن أمرك فيما تأمرهن به وتنهاهن عنه على أن المراد من المعروف الأمور الحسنة التي عرف حسنها في الدين فيؤمر بها والشؤون السيئة التي عرف قبحها فيه فينهى عنها كما قيل : كل ما وافق طاعة الله فعلاً أو تركاً فهو معروف ، وكما روي عن بعض أكابر المفسرين : هو النهي عن النياحة والدعاء بالويل ، وتمزيق الثوب ، وحلق الشعر ، ونتفه ونشره ، وخمش الوجه ، وأن تحدث المرأة الرجال إلا ذا رحم محرم ، وأن تخلو برجل غير محرم ، وأن لا تسافر إلا مع ذي رحم محرم ، فيكون هذا للتعميم بعد التخصيص ، ويحتمل أن يكون المراد من المعروف ما يقابل المنكر فيكون ما قبله للنهي عن المنكر وهذا للأمر بالمعروف فتكون الآية جامعة لهما ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ، لأنه لما شرط ذلك في طاعة النبي عليه الصلاة والسلام فكيف في حق غيره ؟ وهو كقوله : (**إلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله**) فدلَّ على أن طاعة الولاة لا تجب في المنكر ، ولم يقل : (**وَلا يَعْصِينَ اللهَ**) لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكرفي حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن ، ووجه الترتيب بين هذه المنهيَّات أنه قدم الأقبح على ما هو أدنى قبحاً منه ، ثم كذلك إلى آخرها ولذا قدم ما هو الأظهر والأغلب فيما بينهن . وقال صاحب اللباب : ذكرالله تعالى في هذه الآية لرسول الله عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالاً ستاً ، هنَّ أركان ما نُهي عنه في الدين، ولم يذكر أركان ما أمر به وهي أيضاً ست : الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة ، وذلك لأن النهي عنها دائم في كل زمان ومكان وكل حال ، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أهم

وآكد ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ أي : فبايعهن على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام ، أي : بايعهن إذا بايعنك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء فإن المبايعة من جهة الرسول هو الوعد بالثواب ، ومن جهة الآخر التزام طاعته كما سبق ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهنَّ على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهنَّ إليها ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ﴾ زيادةً على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب . والاستغفار طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي : مبالغ في المغفرة والرحمة فيغفر لهنَّ ويرحمهن إذا وفين بما بايعن به .

واختلف في كيفية مبايعته عليه الصلاة والسلام لهنّ يوم الفتح فروي أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا وشرع في بيعة النساء ، ودعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن[1] ، فجاءت « هند بنت عتبة » امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة ، خوفاً من رسول الله أن يعرفها لما صنعته بحمزة رضي الله عنه يوم أُحد من المثلة ، فلما قال عليه الصلاة والسلام : « أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً » رفعت هند رأسها فقالت : والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال ، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فلما قال عليه الصلاة والسلام : « ولا يسرقن » قالت : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات ـ أي : شيئاً يسيراً ـ فما أدري أيحلُّ لي ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبتِ فهو لك حلال ، فضحك عليه الصلاة والسلام وقال : « أنت هند » قالت : نعم ، فاعف عمّا سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فعفا عنها فقال : « ولا يزنين » فقالت : وهل تزني الحرة ؟ فقال عمر رضي الله عنه : لو كان قلب نساء العرب على قلب هند مازنت امرأة قط . فقال : « ولا يقتلن أولادهن » فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها « حنظلة بن أبي سفيان » قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله فقال : « ولا يأتين ببهتان » فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : « ولا يعصينك في معروف » فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء »[2] وبالجملة كانت البيعة مع النساء والرجال أمراً مشروعاً بأمر الله وسنته بفعل رسول الله ﷺ .

---

(١) الثابت أن النبي ﷺ لما بايع النساء كان يُبايعهن كلاماً ولا يصافحهن كما جاء في صحيح البخاري عن عائشة حيث قالت « ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأةٍ قط في المبايعة ، وما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتُكِ على ذلك » وهذا صريح في أن المبايعة كانت بالكلام فقط ، ورواية غمس اليد في القدح أخرجها ابن سعد ، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦ / ٢١١ .

(٢) الحديث أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد قريباً منه ، وأخرجه ابن جرير وابن مردويه بألفاظ متقاربة ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٢٠٩ وتفسير ابن جرير الطبري ٢٧ / ١٦٨ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا ﴾ فالتولي هنا بمعنى الموالاة والموادة ﴿ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ جنس الكفار لأن كلهم مغضوب عليهم لا رحمة لهم من الرحمة الأخروية ، وقيل اليهود لما روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم وهو قول الأكثرين وقد قال تعالى في حق اليهود : (مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِير) والقوم الرجال وربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبي رجال ونساء ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ اليأس انقطاع الطمع لكفرهم بها وعدم إيقانهم على أن يراد بقوم عامة الكفرة أو لعلمهم بأنه لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات على أن يراد به اليهود ، والتقدير : من ثواب الآخرة يعني أنهم أهلُ الكتاب يؤمنون بالقيامة لكنهم لما أصروا على الكفر حسداً وعناداً يئسوا من ثوابها ، قال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وأني جئتكم بحق ، فأسلموا » ﴿ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ أي : كما يئس منها الذين ماتوا منهم لأنهم وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الأليم ، والمراد : وصفهم بكمال اليأس منها . وقيل : « مِنْ » متعلقةٌ بيئس فالمعنى : كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا إلى الدنيا أحياء[1] .

تمَّ تفسير سورة الممتحنة ولله الحمد والمنَّة

• • •

(١) اختار ابن جرير الطبري القول الأول ورجحه ، وعلى هذا فتكون « مِنْ » بيانية والمعنى : كما يئس الكفار الذين هم في القبور من رحمة الله ، قال الحافظ ابن كثير ٣ / ٤٩٠ : وفي الآية قولان :

أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم ، الذين هم في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك .

والقول الثاني : كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ للهِ ﴾ نزَّهه عن كل ما لا يليق بجنابه العليِّ العظيم ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ من العلويات الفاعلة ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ من السفليات القابلة آفاقاً وأنفساً أي : سبَّحه جميع الأشياء من غير فرق بين موجود وموجود كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب الذي لا يكون إلا ما يريد ﴿ الحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا بالحكمة فلا عزيز ولا حكيم على الإطلاق غيره فلذا يجب تسبيحه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيماناً رسمياً ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ روي أن المسلمين قالوا : « لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فلما نزل الجهاد كرهوه فنزلت تعييراً لهم بترك الوفاء »[1] والمعنى : لأي شيء تقولون نفعل ما لا تفعلون من الخير والمعروف ؟ على أن مدارَ التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجهه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكرَ ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً . ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ المقت : البغضُ الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح ، ويقال : مَقَته فهو مقيت وممقوت و(عِنْدَ اللهِ) بمعنى في علمه وحكمته ، والكلام بيان لغاية قبح ما فعلوه أي : عظم بغضاً في حكمته تعالى هذا القول المجرد فهو أشد ممقوتيةً ومبغوضيةً ، فمن مقته الله فله النار ومن أحبه الله فله الجنة .

قال في اللباب : إن الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة الله أن يفي به فإن من التزم شيئاً لزم شرعاً إذ الملتزم إما نذر تقرب مبتدأ كقوله لله عليَّ صلاة أو صوم أو صدقة ونحوه من القرب فيلزمه الوفاء إجماعاً ، أو نذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة كقوله : إن قدم غائبي فعليَّ صدقة ، أو بشرط رهبة كقوله : إن كفاني الله شر كذا فعليَّ صدقة ففيه خلاف ، فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به . وقال الشافعي في قول : لا يلزم ، وعموم الآية حجة لنا لأنها بمطلقها تتناول ذمَّ من قال ما لا يفعله ، على أيِّ وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ أعدآء الله ﴿ فِي سَبِيلِهِ ﴾ في طريق مرضاته وإعلاء دينه أي : يرضى عنهم ويثني عليهم ﴿ صَفّاً ﴾ وهو بيان لما هو مرضيّ عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده وهذا صريح في أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال ، والصف أن يجعل الشيء على خطٍ مستوٍ كالناس والأشجار ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ والبنيان : الحائط . والرصُّ اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه ، والمعنى : حال كونهم مشبهين في تراصّهم من غير فرجة وخلل ببنيان رُصَّ بعضه إلى بعض ورُصِفَ حتى صار شيئاً واحداً . وقال الراغب : بنيانٌ مرصوص أي : محكم كأنما بني بالرصاص ، وهو قول الفراء ، وتراصّوا في الصلاة أي : تضايقوا فيها .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي عن عبد الله بن سلام ، وذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٤٩١ .

وعن بعضهم فيه دليل على فضل القتال راجلاً لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة كما في الكشاف . يقول الفقير : الدليل على فضل الراكب على الراجل أن له سهمين من الغنيمة ، وإنما حثَّ عليه الصلاة والسلام على التراص لأن المسلمين يومئذ كانوا راجلين غالباً ولم يجدوا راحلة ونحوها إلا قليلاً . قال سعيد بن جبير رضي الله عنه : هذا تعليم من الله للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم ولذلك قالوا : لا يجوز الخروج من الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان ، أو في رسالة يرسله الإمام ، أو منفعة تظهر في المقام المنتقل إليه كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف لا بأس بذلك إرهاباً للعدو وطلباً للشهادة وتحريضاً على القتال وقيل : لا يبرز أحد لذلك لأن فيه رياء أو خروجاً إلى ما نهى الله عنه وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر كما كانت في حروب النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر وفي غزوة خيبر ، ففي الآية زجر عن التباطىء ، وحثٌّ على التسارع ، ودلالة على فضيلة الجهاد .

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ** ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال ، خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين أي : اذكروا لهؤلاء المؤمنين المتقاعدين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرآئيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله : (**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**) فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشدَّ عصيان حيث قالوا : (**يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمَاً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**) إلى قوله : (**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ**) وأصرُّوا على ذلك وآذوه عليه السلام كل الأذية .

﴿ **يَا قَوْمِ** ﴾ أصله : يا قومي وهو نداء بالرفق والشفقة كما هو شأن الأنبياء ومن يليهم ﴿ **لِمَ تُؤْذُونَنِي** ﴾ أي : بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم ، به والأذى ما يصل إلى الإنسان من ضرر إما في نفسه أو في جسمه أو ملكه دنيوياً كان أو أخروياً ﴿ **وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ** ﴾ أي : والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات أني مرسلٌ من الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة . وفيه تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام بأن الأذية كانت من الأمم السالفة أيضاً لأنبيائهم ، والبلاء إذا عمَّ خفَّ وفي الحديث : « رحمةُ الله على أخي موسى لقد أُوذي بأكثرَ من هذا فصبر »[1] وذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما قسم غنائم الطائف قال بعض المنافقين : هذه القسمة ما عُدِل فيها وما أُريد بها وجه الله ، فتغير وجهه الشريف وقال ذلك . ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا** ﴾ الزيغ : الميل عن الاستقامة والتزايغ التمايل ، أي : أصرُّوا على الزيغ عن الحق الذي جاء به موسى واستمروا عليه ﴿ **أَزَاغَ**

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد في المسند بلفظ (رحم الله موسى ..) وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٣٤ .

﴿ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغيِّ والضلال وقال الراغب في المفردات : أي : لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ أي : لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرّين على الغواية ، هداية موصلة إلى البغية . والمراد : جنس الفاسقين وهم داخلون في حكمهم دخولاً أولياً ووصفهم بالفسق نظراً إلى قوله تعالى : (فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ) وقوله تعالى : (فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ) قال الإمام : هذه الآية تدلُّ على عظم أذى الرسول ، حتى أنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى انتهى . ويتبعه أذى العالمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ، فأذاهم في حكم أذاهم ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ناداهم بذلك استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه في قوله ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ فإن تصديقه عليه الصلاة والسلام إياها من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه . أي : أرسلت إليكم لتبليغ أحكامه التي لابد منها في صلاح أموركم الدينية ، والدنيوية ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ﴾ أي : أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما تقدمني من التوراة ومبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول وكان بين مولده وبين الهجرة ستمائة وثلاثون سنة وقال بعضهم : بشّرهم به ليؤمنوا به عند مجيئه أو ليكون معجزةً لعيسى عند ظهوره والتبشير به تبشير بالقرآن أيضاً وتصديق له كالتوراة ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ أي : محمد ﷺ يريد أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر ، فذكر أول الكتب المشهورة الذي يحكم به النبيون والنبيُّ الذي هو خاتم النبيين وعن أصحاب رسول الله أنهم قالوا : أخبرنا يا رسول الله عن نفسك ؟ قال : « أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي رؤيا حين حملتني أنه خرج منها نور أضاءت لها قصورُ بُصرى في الشام »[1] وبصرى كحبلى بلد بالشام ـ وكذا بشَّر كل نبيٍّ قومه بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام والله تعالى أفرد عيسى عليه السلام بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ، فبيّن أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى كما في كشف الأسرار . وقال بعضهم : كان بين رفع المسيح ومولد النبي عليه الصلاة والسلام خمسمائة وخمس وأربعون سنة تقريباً وعاش المسيح إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة وبين رفعه والهجرة الشريفة خمسمائة وثمان وتسعون سنة ، ونزل عليه جبريل عشر مرات وأمته النصارى على اختلافهم ، ونزل على نبينا عليه السلام أربعة وعشرين مرة وأمته أمة مرحومة جامعة لجميع الملكات الفاضلة قيل : قال الحواريون لعيسى : يا روح الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة محمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق؟

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه وابن عساكر ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢١٤ والفتح الكبير ١ / ٢٧٢ .

ويرضى الله منهم باليسير من العمل . وأحمد : اسم نبينا صلى الله عليه وسلم سمي من حيث تكرر حمده محمداً ، ومن حيث كونه حامل لواء الحمد أحمد قال الراغب : أحمد إشارة للنبي عليه الصلاة والسلام باسمه تنبيهاً على أنه كما وجد اسمه أحمد أنه أحمد منه ومن الذين قبله انتهى .

﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُم** ﴾ أي الرسول المبشّر به الذي اسمه أحمد كما يدل عليه الآيات اللاحقة ، وأما إرجاعه إلى عيسى كما فعله بعض المفسرين فبعيد جداً وكون ضمير الجمع راجعاً إلى بني إسرائيل لا ينافي ما ذكرنا لأن نبينا عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى الناس كافة ﴿ **بِالبَيِّنَاتِ** ﴾ أي المعجزات الظاهرة كالقرآن ونحوه ﴿ **قَالُوا هَذا** ﴾ مشيرين إلى ما جاء به أو إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ **سِحْرٌ مُبِينٌ** ﴾ ظاهر سحريته بلا مِرْية وتسميته عليه الصلاة والسلام سحراً للمبالغة .

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الكَذِبَ** ﴾ الفرق بين الكذب والإفتراء هو أن الإفتراء افتعال الكذب من قول نفسه والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أن ذلك المفتري ﴿ **يُدْعَىٰ** ﴾ من لسان الرسول ﴿ **إِلَى الإِسْلاَمِ** ﴾ الذي به سلامة الدارين ، أي أيُّ الناس أشدُ ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام الذي يوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضع الإجابة الإفتراء على الله ؟ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر ؟ ومن الافتراء على الله : الكذب في دعوى النسب والكذب في الرؤيا ، والكذب في الإخبار عن رسول الله عليه الصلاة والسلام . واعلم أنَّ الداعي في الحقيقة هو الله تعالى كما قال تعالى : (**وَاللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلاَمِ**) والرسول عليه الصلاة والسلام كما قال : (**أُدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ**) .

﴿ **واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لعدم توجههم إليه ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ** ﴾ الإطفاء الإخماد أي يريدون أن يطفئوا دينه أو كتابه أو حجته النيّرة ، أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله ، وقال الراغب : في المفردات : الفرق أن في قوله تعالى : (**يريدون أن يطفئوا نور الله**) يقصدون إطفاء نور الله وفي قوله تعالى : (**ليطفئوا**) يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله ﴿ **بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ بطعنهم فيه ، مُثِّلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس ليطفئه ﴿ **واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ** ﴾ أي مبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿ **وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ** ﴾ إتمامه إرغاماً لهم وزيادةً في مرض قلوبهم ، أي وإن كرهوا ذلك فالله يفعله لا محالة .

قال ابن الشيخ : إتمام نُوره لما كان من أجلِّ النعم ، كان استكراه الكفار إياه أيَّ كافرٍ كان من أصناف الكفرة غاية في كفران النعمة ، فلذلك أسند كراهة إتمامه إلى الكافرين فإن لفظ الكافر أليق بهذا المقام ، وأما قوله : (**وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ**) فإنه قد ورد في مقابلة إظهار دين الحق الذي معظم أركانه التوحيد

وإبطال الشرك ، وكفار مكة كارهون له من أجل إنكارهم للتوحيد وإصراراهم على الشرك ، فالمناسب لهذا المقام التعرض لشركهم لكونه العلة في كراهيتهم الدين الحق قال بعضهم : جحدوا ما ظهر لهم من صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام و أنكروا بألسنتهم وأعرضوا عنه بنفوسهم ، فقيَّض الله لقبوله أنفساً أوجدها على حكم السعادة وقلوباً زينها بأنوار المعرفة وأسراراً نوَّرها بالتصديق فبذلوا له المهج والأموال كالصدِّيق والفاروق وأجِلّةِ الصحابة رضي الله عنهم .

﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ** ﴾ محمداً ﷺ ﴿ **بِالْهُدَىٰ** ﴾ بالقرآن ، أو بالمعجزة ، فالهدى بمعنى مابه الاهتداء إلى الصراط المستقيم ﴿ **وَدِينِ الْحَقِّ** ﴾ والملة الحنيفية التي اختارها لرسوله ولأمته ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ ليجعله ظاهراً أي عالياً وغالباً على جميع الأديان المخالفة له ﴿ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ ذلك الإظهار ، ولقد أنجز الله وعدَه حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام ، فليس المراد أنه لايبقى دين آخر من الأديان ، بل المرادُ به العلوُّ والغلبة .

﴿ **يا أَيُّها الذِينَ آمنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ** ﴾ سيأتي بيان معناها ﴿ **تُنجيكُمْ** ﴾ أن تكون سبباً لإنجاء الله إيّاكم وتخليصه وأفادت الصفة المقيدة أن من التجارة مايكون على عكسها كما أشار إليها قوله تعالى : (**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**) فإن بوار التجارة وكسادها يكون لصاحبها عذاباً أليماً كجمع المال وحفظه ومنعِ حقوقه ، فإنه وبالٌ في الآخرة فهي تجارةٌ خاسرةٌ ، وكذا الأعمال التي لم تكن على وجه الشرع والسنة أو أريد بها غير الله ﴿ **مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ أي مؤلم جسماني وهو ظاهر ، وروحاني وهو التحسر والتضجر كأنهم قالوا : كيف نعمل ، أو ماذا نصنع ؟ فقيل : ﴿ **تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وتُجاهِدُونَ فِي سبيلِ اللهِ بِأموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ** ﴾ قدّم الأموال لتقدمها في الجهاد ، أو للترقي من الأدنى إلى الأعلى ، وقال بعضهم : قدم ذكر المال لأن الإنسان ربما يضنُّ بنفسه ، ولأنه إذا كان له مال فإنه يؤخذ به النفس لتغزو ، وفي الحديث : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »[1] ومعنى الجهاد بالألسنة : إسماعهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه من هجو وكلام غليظ ونحو ذلك ، وأُخِّر الجهاد بالألسنة لأنه أضعف الجهاد وأدناه ، ويجوز أن يقال : إن اللسان أحدُّ وأشدُّ تأثيراً من السيف والسنان قال عليٌّ رضي الله عنه :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فيكون من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى وكان حسان رضي الله عنه يجلس على المنبر فيهجو قريشاً

الحديث أخرجه أبو داود والنسائي من رواية أنس بن مالك ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٦٤ .

بإذن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم إن التجارة التصرف في رأس المال طلباً للربح ، والتاجر الذي يبيع ويشتري ، قال ابن الشيخ : جعل ذلك تجارة تشبيهاً له في الاشتمال على معنى المبادلة والمعاوضة طمعاً لنيل الفضل والزيادة ، فإن التجارة هي معاوضة المال بالمال لطمع الربح ، والإيمان والجهاد شُبِّها بها من حيث إن فيهما بذل النفس والمال ، طمعاً لنيل رضى الله تعالى والنجاة من عذابه .

﴿ **ذَٰلِكُمْ** ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد بقسميه ﴿ **خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿ **إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ** ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم فإن الجهلة لايعتدُّ بأفعالهم ، أو إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسَكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون .

﴿ **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ في الدنيا ، ﴿ **وَيُدْخِلْكُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ أي كل واحدٍ منكم جنّة ولا بعد من لطفه تعالى أن يدخله جنات بأن يجعلها خاصة له داخلة تحت تصرفه ، والجنّة في اللغة البستان الذي فيه أشجارٌ متكاثفةٌ مظلّة تستر ما تحتها ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** ﴾ أي من تحت أشجارها بمعنى تحت أغصان أشجارها في أصولها على عروقها ، أو من تحت قصورها وغرفها ﴿ **الأَنْهَارُ** ﴾ من اللبن والعسل والخمر والماء الصافي ﴿ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً** ﴾ أي ويدخلكم مساكن طيبة ومنازل نزهة كائنة ﴿ **فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾ أي إقامة وخلود بحيث لا يخرج منها من دخلها بعارض من العوارض ، ومساكن جمع مسكن بمعنى المقام ، والسكون ثبوت الشيء بعد تحرك ، ويستعمل في الاستيطان يقال : سكن فلان في مكان كذا استوطنه واسم المكان مسكن فمن الأول يقال : سكنت ومن الثاني يقال : سكنته قال الراغب : أصل الطيب ما تستلذُّه الحواس ، وقوله : (**وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جنّات عَدنٍ**) أي طاهرة زكية مستلذة ، وقال بعضهم : طيبتها سعتها ودوام أمرها ، وسئل رسول الله ﷺ عن هذه المساكن الطيبة فقال : « قصر من لؤلؤ في الجنة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة . قال : فيعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدةٍ ما يأتي على ذلك كله »[1] .

﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنَّاتِ المذكورة بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ **الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ الذي لا فوز ورآءه ، قال بعض المفسرين : الفوز يكون بمعنى النجاة من المكروه ، وبمعنى الظفر بالبغية ، والأول : يحصل بالمغفرة ، والثاني : بإدخال الجنة والتنعيم فيها ، وعظمه باعتبار أنه نجاة

---

(١) الحديث بهذه الرواية ضعيف ، والصحيح ما ورد في البخاري والترمذي (إن في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوَّفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زوايةٍ منها للمؤمن أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٩ .

لا ألم بعده ، وظفر لانقصان فيه ، شأناً وزمناً ومكاناً لأنه في غاية الكمال على الدوام في مقام النعيم .

اعلم أن الآية الكريمة أفادت أن التجارة دنيوية وأخروية ، فالدنيا موسم التجارة والعمر مدتها ، والأعضاء والقوى رأس المال والعبد هو المشترى من وجه والبائع من وجه فمن صرف رأس ماله إلى المنافع الدنيوية التي تنقطع عند الموت فتجارته دنيوية كاسدة خاسرة ، وإن كان بتحصيل علم ديني أو كسب عمل صالح فضلاً عن غيرهما ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوىٰ ، ومن صرفه إلى المقاصد الأخروية التي لا تنقطع أبداً فتجارته رائجةٌ رابحةٌ بأن يقال : (**فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) ولعل المراد من التجارة هنا : بذل المال والنفس في سبيل الله ، وذكر الإيمان لكونه أصلاً في الأعمال ووسيلة في قبول الأمال ، وتوصيف التجارة بالانجاء لأن النجاة يتوقف عليها الانتفاع فيكون قوله تعالى : (**يَغْفِرْ لَكُمْ**) بيان سبب الإنجاء وقوله : (**ويدخلكم**) بما يتعلق به بيان المنفعة الحاصلة من التجارة مع أن التجارة الدنيوية تكون سبباً للنجاة من الفقر المنقطع والتجارة الأخروية تكون سبباً للنجاة من الفقر غير المنقطع .

﴿ **وَأُخْرَىٰ** ﴾ أي ولكم إلى هذه النعم العظيمة نعمة أخرى عاجلة ﴿ **تُحِبُّونَهَا** ﴾ وترغبون فيها ، وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ، وتوبيخ على محبته ، ﴿ **نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ** ﴾ يعني نصر من الله على عدوكم قريش وغيرهم ﴿ **وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾ أي عاجل . يكرمكم الله عز وجل به .

﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وبشّرهم يا أكمل الرسل بأنواع البشارة الدنيوية والأخروية فلهم من الله فضل وإحسان في الدارين ، وكان في هذا دلالة على صدق النبي لأنه أخبر عما يحصل ويقع في المستقبل من الأيام على ما أخبره .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ** ﴾ أي أنصار دينه ﴿ **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ** ﴾ سيأتي بيانهم ﴿ **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ والمعنى : مَنْ جُندي متوجهاً إلى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى ﴿ **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** ﴾ المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى : (**من أنصاري إلى الله**) أو قل لهم : كونوا كما قال عيسى للحواريين ، والحواريون أصفياؤه وخلصاؤه من الحَوَر وهو البياض الخالص ، وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً . قال مقاتل : قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأئت النهر الذي عليه القصارون فاسألهم النصرة ، فأتاهم عيسى وقال من أنصاري إلى الله ؟ فقالوا : نحن ننصرك فصدقوه ونصروه . فالحواريون كانوا قصّارين ، وقيل : كانوا صيادين . قال بعض العلماء : إنما سموا حواريين لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين ، أو لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم المشار إليه بقوله تعالى : (**إِنَّمَا**

﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْزَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ وإنما قيل كانوا قصارين على التمثيل والتشبيه وإنما قيل كانوا صيادين لاصطيادهم نفوس الناس وقودهم إلى الحق : وقوله عليه الصلاة والسلام : « الزبير ابن عمتي وحواريّ » وقوله يوم الأحزاب : « من يأتيني بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا فقال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل نبي حواريا وحواريّ الزبير »[1] فشبهه بهم في النصرة . وقال بعض المفسرين : دل الحديث على أن الحواريين ليسوا بمختصين بعيسى إذ هو في معنى الأصحاب الأصفياء . وقال معمر رضي الله عنه : كان بحمد الله لنبينا عليه الصلاة والسلام حواريون نصروه حسب طاقاتهم وهم سبعون رجلاً وهم الذين بايعوه ليلة العقبة . وقال السهيلي : كانوا أنصار الله فكانوا أنصاراً ، وكانوا حواريين ، والأنصار الأوس والخزرج ولم يكن هذا الاسم قبل الإسلام حتى سماهم الله به ،وكان له عليه الصلاة والسلام حواريون أيضاً من قريش مثل الخلفاء الأربعة وا لزبير وعثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب ونحوهم ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ ﴾ أي جماعة وهي أقل من الفرقة لقوله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) ﴿ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أي آمنوا بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرة الدين ﴿ وكَفَرتْ طائِفَةٌ ﴾ أخرى به وقاتلوه ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي قويّنا مؤمني قومه بالحجة أو بالسيف وذلك بعد رفع عيسى ﴿ عَلَىَ عَدُوِّهِمْ ﴾ أي على الذين كفروا ، وقيل : لما رفع عيسى عليه السلام تفرق القوم ثلاث فرق : فرقة قالوا : كان الله فارتفع ، وفرقة قالوا : كان ابن الله فرفعه الله إليه ، وفرقة قالوا : كان عبد الله ورسوله فرفعه الله وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) ﴿ فأَصْبَحُوا ﴾ صاروا ﴿ ظَاهِرِينَ ﴾ غالبين عالين ، يقال ظهرت على الحائط علوته . وقال قتادة : فأصبحوا ظاهرين بالحجة والبرهان كما سبق ، لأنهم قالوا فيما روي ألستم تعلمون أن عيسى عليه السلام كان ينام ، والله تعالى لاينام ؟ وأنه يأكل ويشرب والله منزه عن ذلك ؟

تمت سورة الصف بعون الله تعالى

• • •

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي في المناقب ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ للهِ ما فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ ﴾ جميعاً من حي وجامد تسبيحات مستمرة، فما في السموات هي البدائع العلوية، وما في الأرض هي الكوائن السفلية فللكل نسبة الى الله تعالى بالحياة والتسبيح ﴿ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ ﴾ الغالب على كل ما أراد ﴿ الحَكِيمِ ﴾ صاحب الحكمة البديعة البالغة ، وقد سبق معاني هذه الأسماء في سورة الحشر . يقول الفقير : بدأ الله تعالى هذه السورة بالتسبيح لما فيها من ذكر البعثة إذْ خلاء العالم من المرشد منافٍ للحكمة ، ويجب تنزيه الله عنه ، ولما اشتملت عليه من بيان ادعاء اليهود كونهم أبناء الله وأحباءه ، ولما ختمت به من ذكر ترك البيع عند الذكر واستماع الخطبة المشتملة على الدعاء والحمد والتسبيح ونحو ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ ﴾ جمع أمي منسوب إلى أمة العرب والمشهور عند أهل التفسير أنَّ الأميَّ من لايكتب ولا يقرأ من كتاب ، وعند أهل الفقه من لايعلم شيئاً من القرآن ، كأنه بقي على ما تعلّمه من أمه من الكلام الذي يتعلمه الإنسان بالضرورة عند المعاشرة ، والنبي الأمي منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم ، كقولك : عاميٌّ لكونه على عادة العامة ، وقيل : سمي بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له عنه بقوله : (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ) وقيل : سُمِّي بذلك لنسبته إلى أم القرى . ومعنى الآية : هو الذي بعث في الأميين أي في العرب لأن أكثرهم لايكتبون ولا يقرأون من بين الأمم فغلب الأكثر ، وإنما قلنا أكثرهم لأنه كان فيهم من يكتب ويقرأ وإن كانوا على قلّةٍ ﴿ رَسُولاً ﴾ كائناً ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم ونسبهم عربياً أمياً مثلهم ، فوجه الامتنان مشاكلة حاله لأحوالهم ، ونفي التعلم من الكتب فهم يعلمون نسبه وأحواله .

والبعث في الأميين لاينافي عموم دعوته عليه السلام ، فالتخصيص بالذكر لامفهوم له ولو سُلِّم فلا يعارض المنطوق مثل قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ) على أنه فرَّق بين البعث في الأميين والبعث إلى الأميين فبطل احتجاج أهل الكتاب بهذه الآية على أنه ﷺ كان رسول الله إلى العرب خاصة وردَّ الله بذلك ما قال اليهود للعرب طعنا فيه نحن أهل الكتاب وأنتم أميون لا كتاب لكم ﴿ يَتْلُو عَلَيهِمْ آياتِهِ ﴾ أي القرآن مع كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم ﴿ وَيُزَكِّيهِم ﴾ أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من خبائث العقائد والأعمال .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ﴾ للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمةٌ جليلةٌ على حيالها مستوجبة للشكر والمعنى : يعلمهم القرآن والسنة كما قاله الحسن ، ولو لم يكن سوى هذا التعليم معجزة

لكفاه قال البوصيري في القصيدة البردية :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

أي كفاك العلم الكائن في الأمي في وقت الجاهلية وكفاك أيضاً تنبيهه على الآداب لعلمه بها في وقت اليتم معجزة ﴿ **وإنْ كَانُوا مِنْ قبْلُ لفي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾ والمعنى وإن الشأن كان الأميون من قبل بعثته ومجيئه لفي ضلال مبين من الشرك وخبث الجاهلية لا ترى ضلالاً أعظم منه ، وهو بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلمه ﷺ من الغير فإن المبعوث فيهم إذا كانوا في ضلال قبل البعثة زال توهم أنه تعلم ذلك من أحد منهم قال سعدي المفتي : والظاهر أن نسبة الكون في الضلال إلى الجميع من باب التغليب وإلا فقد كان فيهم مهتدون مثل ورقة بن نوفل ، وزيد بن نفيل ، وقِسّ بن ساعدة وغيرهم ممن قال رسول الله ﷺ في كل منهم يبعث أمةً وحده . يقول الفقير : هو اعتراض على معنى الإزاحة المذكورة لكنه ليس بشيء فإن اهتداء من ذكره من نحو ورقة إنما كان في باب التوحيد فقط ، فقد كانوا في ضلال من الشرائع والأحكام ألا ترى إلى قوله تعالى : (**وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ**) مع أنه ﷺ لم يصدر منه قبل البعثة شِرك ولا غيره من شرب الخمر والزنى ، واللغو واللهو فكونهم مهتدين من وجه لاينافي كونهم ضالين من وجه آخر دلَّ على هذا المعنى قوله تعالى : (**يتلو عليهم**) الخ فإن بالتلاوة وتعليم الأحكام والشرائع حصل تزكية النفس والنجاة من الضلال مطلقاً فاعرفه ﴿ **وآخَرِينَ مِنْهُمْ** ﴾ جمع آخر بمعنى غير وهو عطف على الأميين أي بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين ، أو على المنصوب في يعلمهم أي يعلمهم ويعلم آخرين منهم ، وهم الذين جاؤا من العرب ، فمنهم متعلق بالصفة لآخرين أي وآخرين كائنين منهم مثلهم في العربية والأمية وإن كان المراد العجم فمنهم يكون متعلقاً بآخرين .

﴿ **لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ** ﴾ أي لم يلحقوا بالأميين بعد ولم يكونوا في زمانهم وسيلحقون بهم ويكونون بعدهم عرباً وعجماً . وقيل : لما يلحقوا بهم في الفضل والمسابقة لأن التابعين لايدركون شيئاً مع الصحابة ، وكذلك العجم مع العرب ، وفي الآية دليل على أن رسول الله ﷺ رسول للعالمين وبلاغه حجة لأهل زمانه ومن بلغ لقوله تعالى : (**ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده**) ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ** ﴾ المبالغ في العزة والغلبة ، ولذلك مكَّن رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ المبالغ في الحكمة ورعاية المصلحة ولذلك اصطفاه من بين كافة البشر ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ الذي امتاز به من بين سائر الأفراد وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغوابر ﴿ **فَضْلُ اللهِ** ﴾ وإحسانه ﴿ **يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ** ﴾ تفضلاً وعطية لا تأثير للأسباب فيه ، فكان الكرم منه صِرفاً ، لا تمازجه العلل ولا تكسبه الحيل ﴿ **واللهُ**

﴿ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ الذي يستحقر دونه نعم الدنيا كلّها ، وفي كشف الأسرار : والله ذو الفضل العظيم على محمد وذو الفضل العظيم على الخلق بإرسال محمد إليهم وتوفيقهم لمبايعته انتهى .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أي علموها وكلفوا العمل بها وهم اليهود ومثلهم صفتهم العجيبة ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها ﴾ أي لم يعملوا بما في تضاعيفها من الآيات التي من جملتها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله عليه الصلاة والسلام واقتنعوا بمجرد قراءتها ﴿ كَمَثَلِ الحِمَارِ ﴾ والحمار حيوان معروف يعبر به عن الجاهل ، كقولهم هو أكفر من الحمير أي أجهل ، لأن الكفر من الجهالة ، فالتشبيه به لزيادة التحقير والإهانة ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة ، إذ الحمار يذكر بها، والبقر وإن كان مشهوراً بالبلادة إلا أنه لايلائم الحَمْل :

تَعلَّمْ يَافَتَى فَالجَهْلُ عَارُ ... وَلاَ يَرْضَى بِهِ إلاَّ حِمَارُ

﴿ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ أي : كتباً من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ، والأسفار جمع سِفْر بكسر السين وهو الكتاب كشِبر وأشبار ، قال الراغب : السِفْر الكتاب الذي يُسْفِرُ عن الحقائق أي : يكشف وخص لفظ الأسفار في الآية تنبيهاً على أن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها ، وفي القاموس السِفْر الكتاب الكبير أو جزء من أجزاء التوراة وفي هذا تنبيه من الله على أنه ينبغي لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ويعمل به لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أي : بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والمخصوص بالذم هم اليهود الذين كفروا بما في التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الواضعين للتكذيب في موضع التصديق ، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد باختيار الضلالة على الهداية ، والشقاوة على السعادة والعداوة على العناية كاليهود ونظائرهم ، وفيه تقبيح لهم بتشبيه حالهم بحال الحمار والمشبه بالقبيح قبيح وقد قال تعالى : (إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرُ) فصوت الجاهل والمدَّعي منكر كصوت الحمار وأضل وأنزل فهو ضار محض وفي الحمار نفع لأنه يحمل الأثقال ويركبه النساء والرجال ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ من هاد يهود إذا تهوّد أي تهودوا ، المهاداة : المايلة ولذا قال بعض المفسرين : أي : مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية وهي من الأديان الباطلة كما سبق . قال الراغب : الهود الرجوع برفق وصار في التعارف التوبة قال بعضهم : يهود في الأصل من قولهم . (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) أي : تبنا وكان اسم مدح ، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح ، كما أن النصارى في الأصل من قولهم نحن أنصار الله ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم ، ثم إن الله تعالى

خاطب الكفار في أكثر المواضع بالواسطة ومنها هذه الآية ، لأنهم أدخلوا الواسطة بينهم وبين الله تعالى وهي الأصنام ، وأما المؤمنون فإن الله تعالى خاطبهم في أغلب المواضع بلا واسطة مثل : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) لأنهم أسقطوا الوسائط فأسقط الله بينه وبينهم الواسطات ﴿ **إِنْ زَعَمْتُمْ** ﴾ الزعم : هو القول بلا دليل . وفي القاموس : الزعم مثلّثة القولُ الحق [1] ، والباطل ، والكذب فهو من الأضداد ، وأكثر ما يقال فيما يشك فيه انتهى . قال الراغب : الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب ، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذم القائلون به ، وقيل للمتكفل والرئيس زعيمٌ للاعتقاد في قولهم أنه مظنة للكذب ﴿ **أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ** ﴾ جمع ولي بمعنى الحبيب ﴿ **مِنْ دُونِ النَّاسِ** ﴾ أي : من دون الأميين وغيرهم ممن ليس من بني إسرآئيل . وقال بعضهم : من دون المؤمنين من العرب والعجم يريد بذلك ما كانوا يقولون : (**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**) ويدَّعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصةً (**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا**) فأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم إظهاراً لكذبهم إن زعمتم ذلك ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ** ﴾ أي : فتمنوا من الله أن يميتكم من دار البلية إلى دار الكرامة وقولوا : اللهم أمتنا ، والتمنّي : تقدير شيء في النفس وتصويره فيها . قال بعضهم : الفرق بين التمني والاشتهاء أن التمني أعم من الاشتهاء لأنه يكون في الممتنعات دون الاشتهاء ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي : إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فإن من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة أكدار ولا يصل إليها أحد إلا بالموت ﴿ **وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا** ﴾ إخبار بما سيكون منهم ، وأبداً ظرف بمعنى الزمان المتطاول ، لا بمعنى مطلق الزمان والمراد به ما داموا في الدنيا وفي البقرة (**وَلَنْ يَتَمَنَّوْنَهُ**) لأن دعواهم في هذه السورة بالغة قاطعة وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص ، فبالغ في الرد عليهم بلن وهو أبلغ ألفاظ النفي ، ودعواهم في البقرة قاصرةٌ مترددة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فاقتصر على لا ﴿ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ أي : يأبون التمني بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي الموجبة لدخول النار ، نحو تحريف أحكام التوراة وتغيير النعت النبوي ، وهم يعرفون أنهم بعد الموت يعذبون بمثل هذه المعاصي ﴿ **وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم في كل أمورهم ، أي : عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب ، وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك ، فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمنَّ منهم أحد موته ، وفي

---

(١) في القاموس : الزَّعمُ فيه ثلاث وهو القول : وقيل : هو القول يكون حقاً ويكون باطلاً ، وأنشد ابن الأعرابي لأمية في الزعم الذي هو حق قوله :

وانـي أذيـنٌ لكـم أنـه ... سيُنجِـزُكمْ ربّكـم مـا زعـم

الحديث : « لا يتمنين أحدكم الموت ، إمَّا محسناً فلعلَّه يزدادَ ،وإمَّا مسيئاً ، فلعلَّه يستعتب »[1] أي : يسترضي ربه بالتوبة والطاعة .

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ولا تجسرون على أن تتمنوه مخافة أن تؤاخذوا بوبال كفركم ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه . أي : إن فررتم من الموت فإنه ملاقيكم كأن الفرار سبب لملاقاته وسرعة لحوقه إذ لا يجد الفار بركة في عمره بل يفر إلى جانب الموت فيلاقيه الموت ويستقبله وقد قيل : إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة ﴿ ثُمَّ ﴾ أي : بعد الموت الاضطراري الطبيعي ﴿ تُرَدُّونَ ﴾ الرد صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله ، يقال رددته فارتد والآية من الرد بالذات مثل قوله تعالى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) ومن الرد إلى حالة كان عليها قوله تعالى : (يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ) ﴿ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الذي لا تخفى عليه أحوالكم أي : ترجعون إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه ، وإنما وصف ذاته بكونه عالم الغيب والشهادة باعتبار أحوالهم الباطنة وأعمالهم الظاهرة وقد سبق تمام تفسيره في سورة الحشر ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي والفواحش الظاهرة والباطنة بأن يجازيكم بها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلْصَّلاةِ ﴾ النداء رفع الصوت وظهوره ، ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة ، والمراد بالصلاة صلاة الجمعة كما دل عليه يوم الجمعة . والمعنى : فُعِلَ النداء لها أي : أذِّن لها والمعتبر في تعلق الأمر الآتي هو الأذان الأول في الأصح عندنا لأن حصول الإعلام به لا الأذان بين يدي المنبر ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ بضم الميم وهو الأصل والسكون تخفيف منه وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة فهو على هذا اسم إسلامي وقيل: أول من سماه جمعة « كعب بن لؤيّ » سماه بها لاجتماع قريش فيه إليه ، وكانت العرب قبل ذلك تسميه العروبة بمعنى الظهور، وقيل : إن الأنصار قالوا قبل الهجرة : لليهود يومٌ يجتمعون فيه في كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله ونصلي ، فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى سعد بن زُرارة رضي الله عنه فصلى بهم ركعتين ، وذكَّرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة فهي أول جمعة في الإسلام ، وأما أول جمعة جمعها رسول الله عليه الصلاة والسلام فهي أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى ، فأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ،

(١) الحديث أخرجه البخاري والنسائي بهذا اللفظ ، ورواه مسلم بلفظ (لا يتمنينَّ أحدكُم الموتَ ، ولا يدْعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن من عمرُهُ إلا خيراً) وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٥٥ .

وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم ،وقد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً فخطب وصلى الجمعة وهي أول خطبة خطبها بالمدينة . ثم إن هذه الآية رد لليهود في طعنهم على العرب وقولهم لنا السبت ولا سبت لكم ﴿ فَاسعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ قال الراغب : السعي المشي السريع وهو دون العدو أي : امشوا واقصدوا إلى الخطبة والصلاة لاشتمال كل منهما على ذكر الله ، وما كان من ذكر رسول الله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان ، وهو من ذكر الله على مراحل كما في الكشاف . وعن الحسن رحمه الله : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب ، والنيَّات،والخشوع والابتكار[1] ، وفي عبارة السعي إشارة إلى النهي عن التثاقل وحث على الذهاب بصفاء قلب وهمة لا بكسل نفس وغمة . وفيه إشارة إلى أن ترك السعي من فعل الشيطان ، وهذا بالنسبة إلى غير المريض والأعمى والعبد والمرأة والمقعد والمسافر فإنهم ليسوا بمكلفين فهم غير منادين أي : لا سعي من المرضى والزمنى والعميان . وقد قال تعالى : (فَاسْعَوْا) وأما النسوان فهن أمرن بالقرار في البيوت بالنص ، والعبد والمسافر مشغولان بخدمة المولى والنقل ﴿ وَذَرُوا البَيْعَ ﴾ يقال : فلان يَذَرُ الشيء أي : يقذفه لقلة اعتداده به ، أي : اتركوا المعاملة فالبيع مجاز عن المعاملة مطلقاً كالشراء والإجارة والمضاربة وغيرها ، ويجوز إبقاء البيع على حقيقته ويلحق به غيره بالدلالة وقال بعضهم : النهي عن البيع يتضمن النهي عن الشراء لأنهما متضايفان لا يعقلان إلا معاً فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر ، وأراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا ، وإنما خصَّ البيع والشراء من بينها لأن يوم الجمعة يوم تجمع فيه الناس من كل ناحية فإذا دنا وقت الظهيرة يتكاثر البيع والشراء فلما كان ذلك الوقت مظنَّة الذهول عن ذكر الله والمضي إلى المسجد قيل لهم : بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ، وذروا البيع الذي نفعه يسير وربحه قليل ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي : السعي إلى ذكر الله وترك البيع ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من مباشرته فإن نفع الآخرة أجلُّ وأبقى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر الحقيقيين ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ ﴾ التي نوديتم لها أي : أديت وفُرِغَ منها ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ لإقامة مصالحكم والتصرف في حوائجكم

---

(١) أي التبكير للذهاب إلى المسجد ، قال الزمخشري : وقد كانت الطرقاتُ أيام السلف ، مملوءة بالمبكرين إلى الجمعة ، يخرجون وقت السحر وبعد الفجر يمشون بالسُّرُج ليدركوا ثواب المبكرين إلى الجمعة ، لما ورد في الحديث الصحيح (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، ومثل المهجرّ - أي المبكر - كالذي يهدي بدنةً ، ثم كالذي يُهدي بقرة ، ثم كالذي يهدي دجاجة ، ثم كالذي يهدي بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يسمعون الذكر) .

أي : تفرقوا فيها بأن يذهب كل منكم إلى موضع فيه حاجة من الحوائج المشروعة التي لابد من تحصيلها للمعيشة ، فإن قلنا ما معنى هذا الأمر فإنه لو لبث في المسجد إلى الليل يجوز بل هو مستحب فالجواب أن هذا أمر الرخصة لا أمر العزيمة أي : لا جُناحَ عليكم في الانتشار بعدما أديتم حق الصلاة ﴿ **وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾ أي : الربح يعني اطلبوا لأنفسكم وأهليكم من الرزق الحلال بأي وجه يتيسر لكم من التجارة وغيرها من المكاسب المشروعة . فالأمر للإطلاق بعد الحظر أي : للإباحة لا للإيجاب كقوله : (**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**) ﴿ **وَاذْكُرُوا اللهَ** ﴾ بالجَنَانِ واللسان جميعاً ﴿ **كَثِيرًا** ﴾ أي : ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة . ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا** ﴾ أي :علموا ﴿ **تِجَارَةً** ﴾ هي تجارة دحية بن خليفة الكلبي ﴿ **أَوْ** ﴾ سمعوا ﴿ **لَهْوًا** ﴾ هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، يقال : ألهى عن كذا إذا شغله عما هو أهم ، والمراد هنا : صوت الطبل ويقال له : اللهو الغليظ ، وكان دِحْيَة إذا قَدِمَ ضرب الطبل ليعلم به . أو كانوا إذا أقبلت العير استقبلوها أي : أهلها بالطبول والدفوف والتصفيق وهو المراد باللهو ﴿ **انْفَضُّوا إِلَيْهَا** ﴾ الفضُّ كسر الشيء وتفريق بين بعضه وبعض كفض ختم الكتاب ومنه استعير انفض القوم أي : تفرقوا وانتشروا . وَحِّدَ الضمير لأن العطف بأو لا يُثَنَّى معه الضمير ، وكان المناسب إرجاعَه إلى أحد الشيئين من غير تعيين ، غير أن تخصيص التجارة برد الكناية إليها لأنها المقصودة ، أو للدلالة على أن الانفضاض إليها مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه ؟ وقد يقال : الضمير للرؤية المدلول عليها بقوله : (**رَأَوْا**) وقرىء إليهما على أن (**أَوْ**) للتقسيم (روي) : أن دحية بن خليفة الكلبي قدم المدينة بتجارة من الشام وكان ذلك قبل إسلامه وكان بالمدينة مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من بر ودقيق وزيت وغيرها ، والنبي عليه الصلاة والسلام يخطب يوم الجمعة ، فلما علم أهل المسجد ذلك قاموا إليه خشية أن يُسْبقوا إليه ، فما بقي معه عليه الصلاة والسلام إلا أحد عشر أو اثنا عشر ، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وبلال وعبد الله بن مسعود وفي رواية عمار بن ياسر بدل عبد الله وذكر مسلم أن جابراً كان فيهم وكان منهم أيضاً امرأة فقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفس محمدٍ بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»[1] ﴿ **وَتَرَكُوكَ** ﴾ حال كونك ﴿ **قَائِمًا** ﴾ أي على المنبر . اعلم أنه كان من فضل الأصحاب رضي الله عنهم وشأنهم أن لا يفعلوا مثل ما ذكر من التفرق من مجلس النبي ﷺ وتركه قائماً فذكر بعضهم وهو مقاتل بن حيان : أن الخطبة يوم الجمعة كانت بعد الصلاة مثل

(١) الحديث أخرجه الحافظ أبو يعلى ، وذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره ٣ / ٥٠١ من المختصر ، وأما رواية لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً فقد أخرجها الشيخان من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

العيدين فظنوا أنهم قد قضوا ما كان عليهم وليس في ترك الخطبة شيء ، فحوّلت الخطبة بعد ذلك فكانت قبل الصلاة ، وكان لا يخرج واحدٌ لرعاف أو أحداث بعد النهي حتى يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام ، يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام فيأذن له النبي ﷺ يشير إليه بيده قال الإمام السهيلي رحمه الله : وهذا الحديث الذي من أجله ترخصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة وإن لم ينقل من وجه ثابت ، فالظنُّ الجميلُ بأصحاب رسول الله ﷺ موجب لأنه كان صحيحاً . يقول : الفقير : هب أنهم ظنوا أنهم قد قضوا ما كان عليهم من فرض الصلاة فكيف يليق بهم أن يتركوا مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ؟ ومن شأنهم أن يستمعوا ولم يتحركوا كأن على رؤسهم الطير ، ولعل ذلك من قبيل سائر الهفوات التي تضمنت المصالح والحكم الجليلة ، ولو لم يكن إلا كونه سبباً لنزول هذه الآية التي هي خير من الدنيا وما فيها لكفى ، وفيها من الإرشاد الإلهي لعباده ما لا يخفى ﴿ **قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ** ﴾ من الثواب ، خاطبهم الله بواسطة النبي عليه الصلاة والسلام لأن الخطاب مشوب بالعتاب ﴿ **خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ** ﴾ فإن نفع ذلك محقق مخلَّد بخلاف ما فيها من النفع المتوهم فنفع اللهو ليس بمحقق ونفع التجارة ليس بمخلد وما ليس بمخلد فمن قبيل الظن الزائل ﴿ **وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ لأنه موجدُ الأرزاق ، فإليه اسعوا ومنه اطلبوا الرزق ، فإنه الرزَّاق ذو القوة المتين .

تم بعونه تعالى وتوفيقه تفسير سورة الجمعة

● ● ●



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ** ﴾ أي : حضروا مجلسَكَ ، والنفاق إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب . فالمنافق هو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً ، وفي المفردات : النفاق الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب ، من النَّافقاء إحدى حُجَر اليربوع والثعلب والضب يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أُتي من قبل القاصعاء وهو الذي يدخل منه ضرب النافقاء برأسه فانفتق وخرج منه ، والنفق هو السرب في الأرض النافذ ﴿ **قَالُوا** ﴾ مؤكدين كلامهم بإنَّ واللام ، للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم ﴿ **نَشْهَدُ** ﴾ الآن أو على الاستمرار ﴿ **إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ** ﴾ والشهادة قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ** ﴾ اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم لكونه مطابقاً للواقع ، ولإزالة إيهام أن قولهم هذا كذب لقوله والله يشهد إلخ وفيه تعظيم للنبي عليه الصلاة والسلام ، وقال أبو الليث : والله يعلم إنك لرسوله من غير قولهم وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله ﴿ **وَاللهُ يَشْهَدُ** ﴾ شهادة حقة ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ أي : إنهم لكاذبون ، والإظهارُ في موضع الإضمار لذمهم والإشعار بعلّيّة الحكم أي : لكاذبون فيما ضمنوا مقالتهم من أنها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب ، فإن الشهادة وضعت للإخبار الذي طابق فيه اللسان اعتقاد القلب ﴿ **اتَّخَذُوا** ﴾ أي : المنافقون ﴿ **أَيْمَانَهُمْ** ﴾ الفاجرة التي من جملتها ما حكي عنهم ، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد ، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن « أشهدُ » يمينٌ ، واليمين في الحلف مستعار من اليمين التي بمعنى اليد اعتباراً بما يفعله المحالف والمعاهد عنده واليمين بالله الصَّادقة جائزة وقت الحاجة صدرت من النبي عليه الصلاة والسلام كقوله : والله ، والذي نفسي بيده ولكن إذا لم يكن ضرورة قوية يصان اسم الله العزيز عن الابتذال ﴿ **جُنَّةً** ﴾ أي : وقاية وترساً عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك واتخاذها جُنَّة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة ﴿ **فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ يقال صده عن الأمر صداً أي : منعه وصرفه وصدَّ عنه صدوداً أي : أعرض ، والمعنى فمنعوا وصرفوا من أراد الدخول في الإسلام بأنه ليس برسول ومن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه كما سيحكى عنهم ، ولا ريب في أن هذا الصد منهم متقدم على حلفهم بالفعل ، وأصل الجن ستر الشيء عن الحاسة يقال : جنَّه الليل وأجنَّه ، والجَنَانُ : القلب لكونه مستوراً عن الحاسة ، والمِجَنُّ والجُنَّةُ : الترس الذي يجن صاحبه ، والجَنَّة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض ﴿ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي : ساء الشيء الذي كانوا يعملونه من النفاق

والصد والإعراض عن سبيله تعالى ﴿ ذٰلِكَ ﴾ القول الشاهد بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ آمَنُوا ﴾ أي : نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل الإسلام ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ أي : ظهر كفرهم بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ختم عليها حتى تمرنوا على الكفر واطمأنوا به وصارت بحيث لا يدخلها الإيمان جزاء على نفاقهم ومعاقبة على سوء أفعالهم فليس لهم أن يقولوا إن الله ختم على قلوبنا فكيف نؤمن والطبع أن يصور الشيء بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم وهو أعم من الختم وأخص من النقش كما في المفردات ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقيقته أصلاً كما يعرفه المؤمنون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ الرؤية بصرية ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ لضخامتها ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم ، وأصله من العجب والشيء العجيب هو الذي يعظم في النفس أمره لغرابته ، والتعجب حيرة تعرض للنفس بواسطة ما يتعجب منه ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ والخُشُب : بضمتين جمع خشبة ، وهو ما غلظ من العيدان ، شُبِّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله مستندين فيها بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والخير والانتفاع ولذا اعتبر في الخشب التسنيد لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، فكما أن مثل هذا الخشب لا نفع فيه فكذا هم لا نفع فيهم . يقول الفقير : فيه إشارة إلى أن الإستناد في مجالس الأكابر أو في مجالس العلم من ترك الأدب ، ولذا منع الإمام مالك رحمه الله هارون الرشيد من الاستناد حين سمع منه الموطأ . ودلت الآية وكذا قوله عليه الصلاة والسلام : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)[1] على أن العبرة في الكمال والنقصان بالأصغرين : اللسان والقلب لا بالأكبرين الرأس والجسد ، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال بل إلى القلوب والأعمال ، فربَّ صورة مصغرة عند الله بمثابة الذهب ، وفيه إشارة إلى أن المؤمن كثير الابتلاء في بدنه وماله غالباً فيكفر عن سيئاته والكافر ليس كذلك فيأتي بسيئاته كاملة يوم القيامة ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ يظنون ﴿ كُلَّ صَيْحَةٍ ﴾ كل صوت ارتفع ، فإن الصيحة رفع الصوت ، وفي القاموس : الصوت بأقصى الطاقة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : واقعة عليهم ضارة لهم . وقال بعضهم : إذا نادى منادٍ في العسكر لمصلحة أو انفلتت دابة وأنشدت ضالة أو وقعت جلبة بين الناس ، ظنوه إيقاعاً عنهم لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم والخائن خائف . وفي هذا زيادة تحقير لهم ، وتخفيف لقدرهم ، وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما

---

(١) الحديث أخرجه بهذا اللفظ البخاري ٨ / ٣٢٤ في تفسير سورة الكهف ، ومسلم في صفة القيامة / ٢٧٨٥ / وتتمته قال واقرءوا ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً ﴾ وانظر جامع الأصول ٢ / ٢٣٥ .

يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم ﴿ هُمُ العَدُوُّ ﴾ أي : هم الكاملون في العداوة الراسخون فيها فإنَّ أعدى الأعادي العدو المكاسر الذي يكاسرك وتحت ضلوعه داء لا يبرح بل يلزم مكانه ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ أي : فاحذر أن تثق بقولهم وتميل إلى كلامهم ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ دعاء عليهم وطلب من ذاته تعالى أن يلعنهم ويخزيهم ويميتهم على الهوان والخذلان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي لعنهم الله ، ويجوز أن يكون تعليماً للمؤمنين بأن يدعوا عليهم بذلك ففيه دلالة على أن للدعاء على أهل الفساد محلاً يحسن فيه فقاتل الله المبتدعين الضالين المضلين فإنهم شر الخصماء وأضر الأعداء ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ تعجيب من حالهم أي : كيف يصرفون عن الحق والنور إلى ما هم عليه من الكفر والضلال والظلمة بعد قيام البرهان ؟ من الأفك بفتح الهمزة بمعنى الصرف عن الشيء ، لأن الإفك بالكسر بمعنى الكذب . والمعنى : قاتلهم الله بالخزي والحرمان والسوء والخذلان أنَّى يَعدِلُون عن طريق الدين الصدق ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿ تَعَالَوْا ﴾ وأصل معنى التعالي : الارتفاع ، فإذا أمرت منه قلت تَعَالَ وتعالوا ، فتعالوا جمع أمر الحاضر في صورة الماضي ومعناه ارتفعوا فيقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثر واتسع فيه حتى عُمِّم ، ثم استعمل في كل داع يطلب المجيء في المفرد وغيره لما فيه من حسن الأدب أي : هلموا . ومن الأدب أن لا يقال تعالى فلان أو تعاليتَ يا فلان ، أو أنا أو فلان متعال بأي معنى أريد ، لأنه مما اشتهر به الله « فَتَعَالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ » ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﴾ بالجزم جواب الأمر أي : يَدْعُ الله لكم ويطلب منه أن يغفر بلطفه ذنوبكم ويستر عيوبكم ﴿ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ ﴾ يقال لَوَىٰ الرجل رأسه أمَالَه ، والتشديد للتكثير لكثرة المحال وهي الرؤوس أي : عطفوها استكباراً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ من الصدود بمعنى الإعراض أي : يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار .

﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن ذلك لغلبة الشيطنة ، واستيلاء القوة الوهمية ، واحتجاجهم بالأنانية وتصور الخيرية ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ كما إذا جاؤك معتذرين من جناياتهم ، وفي كشف الأسرار كان عليه الصلاة والسلام يستغفر لهم على معنى سؤاله لهم التوفيق للإيمان ومغفرة العصيان . وقيل : لما قال الله (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) قال عليه الصلاة والسلام : « لأزيدن على السبعين »[1] فأنزل الله : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرتَ لَهُمْ) إلخ ﴿ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

(١) أخرجه ابن مردويه عن عروة ، ورواه ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت آية براءة ﴿ استَغْفِرْ لهمْ أو لاَ تستغفر لهم ، إن تَسْتَغفر لهم سبعين مرَّة فلن يغفرَ اللهُ لهم ﴾ قال النبي ﷺ : أسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، لعل الله أن يغفر لهم ، فنزلت الآية ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ﴾ الدر المنثور ٦ / ٢٢٤ .

﴿ لَهُمْ ﴾ كما إذا أصروا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار ﴿ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ أبداً لإصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر وخروجهم عن دين الفطرة القيم ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ الكاملين في الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين في الكفر والنفاق . وفي الآية إشارة إلى عدم استعدادهم لقبول الاستغفار لكثافة طباعهم المظلمة ، وغلظة جبلتهم الكدرة ، ولو كان لهم استعداد لقبوله لخرجوا عن محبة الدنيا ومتابعة النفس والهوى ، إلى موافقة الشرع ومتابعة الرسول والهدى ، ولما بقوا في ظلمة الشهوات الحيوانية والأخلاق البهيمية والسبعية .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ أي : للأنصار ﴿ لا تُنْفِقُوا ﴾ لا تعطوا النفقة التي يتعيش بها ﴿ عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﴾ يعنون فقرآء المهاجرين وقولهم : رسول الله إما للهزؤ والتهكم أو لكونه كاللقب له ﷺ واشتهاره به فلو كانوا مقرين برسالته لما صدر عنهم ما صدر ويجوز أن ينطقوا بغيره لكن الله تعالى عبر به إكراماً وإجلالاً ﴿ حَتَّى يَنفَضُّوا ﴾ أي : يتفرقوا عنه ويرجعوا إلى قبائلهم وعشائرهم ﴿ وَللهِ خَزَآئِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقرآء من حوله عليه الصلاة والسلام ، ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله خاصة يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ومن تلك الخزائن المطر والنبات ، والخزائن جمع خِزانة بالكسر كعصائب وعِصابة وهي ما يخزن فيه الأموال النفيسة وتحفظ ، وكذا المخزن بالفتح وقد سبق في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ) ﴿ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله وبشؤونه ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ روي أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق وهزمهم وقتل منهم ، استاق ألفي بعير ، وخمسة آلاف شاة وسبى مائتي أهل بيت أو أكثر . وكانت في السبي « جويرية بنت الحارث » سيد بني المصطلق أعتقها النبي ﷺ وتزوجها وهي ابنة عشرين سنة ، وازدحم على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري رضي الله عنه وهو أجير لعمر رضي الله عنه يقود فرسه ، وسنان الجهني المنافق حليف ابن ابيٍّ بن سلول رئيس المنافقين واقتتلا فصرخ جهجاه بالمهاجرين ، وسنان بالأنصار من فقرآء المهاجرين . ولطم سناناً ، فاشتكى إلى ابن أبي سلول فقال : ما صَحِبْنَا محمداً إلا لنلطم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل« سمن كلبك يأكلك » أما والله لئن رَجَعَنا من هذا السفر إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، عَنىٰ بالأعز نفسه وبالأذل جانب المؤمنين ، فإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضُّوا من حول محمد ، فسمع بذلك « زيد بن أرقم » وهو حَدَثٌ فقال : أنت والله الذليل القليل ، المُبْغَضُ في قومك ، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين ، فقال ابن أبي سلول :

اسكت فإنما كنت ألعب ، فأخبر زيد رسول الله بما قال ابن أبيٍّ ، فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال : « إذا ترغم أنوفاً كثيرة بيثرب يعني المدينة » قال عمر رضي الله عنه : فإن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصارياً فقال : « إذاً يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » وقال عليه الصلاة والسلام لابن أبي : « أنت صاحب الكلام الذي بلغني » ؟ قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك ، وأن زيداً لكاذب ، فقال الحاضرون : شيخُنا وكبيرنا لا تصدِّقْ كلام غلام ، وعسى أن يكون قد وَهِمَ فروي أن رسول الله قال له : « لعلك غضبت عليه » قال : لا قال : « فلعله أخطأك سمعك » قال : لا قال : « فلعله شبه عليك : قال : لا . فلما نزلت هذه الآية لحق رسول الله زيداً من خلفه وقال : « وفتْ أذنُك يا غلام ، إن الله صدَّقك وكذب المنافقين »[1] وردَّ الله عليهم مقالتهم بقوله : ﴿ **ولله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي : ولله الغَلَبَة والقوة ، ولمن أعزَّه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ، كما أنَّ المذلَّة والهوان للشيطان ، وذويه من المنافقين والكافرين ، وعن بعض الصالحين ـ وكان في هيئة رثَّة ـ ألست على الإسلام ، وهو العزُّ الذي لا ذل معه ؟ والغنى الذي لا فقر معه ؟ وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما : أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً ، أي : كِبْراً ، فقال : ليس ذلك بتيه ، ولكنه عزَّة ، وتلا هذه الآية ، وقال بعض الكبار : من كان في الدنيا عبداً محضاً ، كان في الآخرة مَلِكاً محضاً . وفي الحديث : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[2] أي : لا أفتخر بالسيادة بل أفتخر بالعبودية ، وفيها عزتي ، إذ لا عزة إلا في طاعة الله ، ولا ذل إلا في معصية الله ، قال القشيري : العزُّ الذي للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى خلقاً وملكاً ، وعزُّه سبحانه له وصفاً ، فإنَّ العزة كلها لله ، وهو الجمع بين قوله تعالى : (**مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً**) وقوله : (**وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**) ومن أدب من عرف أنه تعالى هو العزيز أن لا يعتقد لمخلوق إجلالاً ولهذا ورد : (من تواضع لغني لأجل غناه ، ذهب ثُلُثَا دينه) . وإذا عظم الرب في القلب ، صغر الخلق في العين ، ومتى عرفت أنه معز لم تطلب العز إلا منه ، ولا يكون العز إلا في طاعته ، حُكي عن بعضهم أنه قال : رأيت رجلاً في الطواف وبين يديه خَدَمٌ يطردون الناس ، ثم رأيته بعد ذلك على جسر بغداد يتكفَّف ويسأل ، فحدقت النظر إليه لأتعرفه هل هو ذلك الرجل أولا ؟ فقال لي : ما لك تطيل النظر إليَّ ؟ فقلتُ : إني أشبهك برجلٍ رأيته في الطواف

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ، وأصله في الصحيحين ، وفي رواية للترمذي أن ابن عبد الله بن سلول ـ كان من خيرة الصحابة ـ لما بلغه ما قال أبوه في حق الرسول ﷺ وقف له في الطريق وقال : والله لا تدخل المدينة حتى تقرَّ أنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ هو العزيز ، ففعل) انظر الدر المنثور ٢ / ٢٢٥ ومختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٥٠٦ .

(٢) هذا طرف من حديث رواه الترمذي في سننه ، وتقدم الحديث بكامله .

من شأنه كذا وكذا ، فقال : أنا ذاك ، إني تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس ، فوضعني الله في موضع يترفع فيه الناس ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون ما يهذون ، ولعل ختم الآية الأولى بـ (لا يَفْقَهُونَ) والثانية بـ (لا يَعْلَمُونَ) للتفنن المعتبر في البلاغة ، مع أن الأول بيان عدم كياستهم وفهمهم ، وفي الثاني ، بيان حماقتهم وجهلهم ، وفي برهان القرآن : الأول متصل بقوله : (وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وفيه غموض يحتاج إلى فطنة ، والمنافقُ لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) أن الله معز أوليائه ، ومذل أعدآئه . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيماناً صادقاً ﴿ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ المعنى : لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها ، والاعتناء بمصالحها والتمتع بها ، عن الاشتغال بذكره تعالى من الصلاة وسائر العبادات المذكورة للمعبود ، والمراد نهيهم عن التلهي بها أي عن ترك ذكر الله بسبب الاشتغال بها ، وقد كان المنافقون بخلاء بأموالهم ولذا قالوا « لا تنفقوا على من عند رسول الله » ومتعززين بأولادهم وعشائرهم مشغولين بهم وبأموالهم عن الله وطاعته وطاعة رسوله ، فَنُهِي المؤمنون أن يكونوا مثلهم في ذلك ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي : التلهي بالدنيا عن الدين ، والاشتغال بما سواه عنه ولو في أقل حين ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الكاملون في الخسران .

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي : بعض ما أعطيناكم تفضلاً من غير أن يكون حصوله من جهتكم ادخاراً للآخرة . فالمراد هو الإنفاق الواجب نظراً إلى ظاهر الأمر، ولعل التعميم أولى وأنسب بالمقام ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ بأن يشاهد دلائله ، ويعاين أماراته ومخايله ، وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بما تقدم والتشويق إلى ما تأخر ، ولم يقل من قبل أن يأتيكم الموت فتقولوا ، إشارة إلى أن الموت يأتيهم واحداً بعد واحد حتى يحيط بالكل ﴿ فَيَقُولَ ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي ﴾ هلاَّ أمهلتني ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : أمدٍ قصيرٍ وساعةٍ أخرى قليلة ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أصله أتصدق من التصدق فأدغمت التاء في الصاد ، وبالنصب لأنه مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في جواب التمني في قوله لولا أخرتني ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بالجزم عطفاً على محل فأصدق كأنه قيل : إن أخرتني أصدَّق وأكن ، وفيه إشارة إلى أن التصدق من أسباب الصلاح والطاعة ، كما أن تركه من أسباب الفساد والهَلَكة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : (من كان له مال يجب فيه الزكاة فلم يزكِّه ، أو مال يبلغه إلى بيت الله فلم يحج ، يسأل عند الموت الرجعة فقال رجل : اتق الله يا ابن عباس إنما سألت الكفارُ الرجعةَ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إني سأتلو عليكم بذلك قرآناً ، فقرأ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..) إلى قوله (فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)[1] فقال الرجل : يا ابن عباس ، وما

(١) أخرجه الترمذي والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٢٦ .

يوجب الزكاة ؟ قال : مائتا درهم فصاعداً . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة . فالآية في المؤمنين وأهل القبلة لكن لا تخلو عن تعريض بالكفار ، وأن تمني الرجوع إلى الدنيا لا يختص بالكفار ، بل كل مقصِّر مفرط يتمنى ذلك . قال بعض العلماء : في الآية دلالة على وجوب تعجيل الزكاة ،لأن إتيان الموت محتمل في كل ساعة وكذا غيرها من الطاعات إذا جاء وقتها ، ولعل الأولى استحبابه في أغلب الأوقات ، ولذا اختار بعض المجتهدين أول الوقت عملاً بقوله ﷺ : « أول الوقت رضوان الله » أي : لأن فيه المسارعة إلى رضى الله والاهتمام بالعمل إذ لا يدري المرء هل يدرك آخر الوقت ﴿ **وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً** ﴾ أي : ولن يمهلها مطيعة وعاصية صغيرة أو كبيرة ﴿ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** ﴾ أي : آخر عمرها أو انتهى أريد بالأجل الزمان الممتد من أول العمر إلى آخره ﴿ **وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ فمجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر فسارعوا في الخيرات واستعدوا لما هو آت . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله أيُّ الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تُمْهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلتَ : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »[1] . روى الإمام الغزالي رحمه الله عن عبد الله المزني أنه قال : جمع رجل من بني إسرآئيل مالاً كثيراً ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : ائتوني بأصناف أموالي ، فأُتي بشيء كثير من الخيل ، والإبل ، والدقيق وغيره ، فلما نظر إليها بكى عليها تحسراً ، فرآه ملك الموت وهو يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ فوالذي خوَّلك ما خوَّلك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرِّق بين روحك وبدنك ، قال : فالمهلة حتى أفرِّقها ، قال : هيهات ، انقطعت عنك المهلة ، فهلاَّ كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه ، جعلنا الله وإياكم من الباذلين في سبيله ، العاملين بطاعته ومرضاته .

تمت سورة المنافقين بعون الله المعين



(١) الحديث أخرجه مسلم في الزكاة ، والنسائي في الوصايا ، وابن ماجه ، وأحمد في المسند ٣ / ٢٢١ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ** ﴾ أي ينزهه سبحانه ، جميع ما فيها من المخلوقات ، عما لا يليق بجناب كبريائه ، تنزيهاً مستمراً ، والمراد إما تسبيح الإشارة الذي هو الدلالة ، فتعمُّ كل حي وجماد ، أو تسبيح العبارة الذي هو أن يقول (**سبحان الله**) فتعمها أيضاً عند المحققين ، وقال بعض الصالحين : سمعت تسبيح الحيتان في البحر المحيط يقلن : سبحان الملك القدوس ، رب الأقوات ، والأرزاق ، والحيوانات ، والنباتات ، ولولا حياة كل شيء من رطب ويابس ، ما أخبر عليه السلام أنه يشهد للمؤذن الحجرُ والمَدر ﴿ **لَهَ الْمُلْكُ** ﴾ الدائم الذي لا يزول، وهو كمال القدرة ، ونفاذ التصرف ﴿ **وَلَهُ الحَمْدُ** ﴾ أيْ حمد الحامدين ، وهو الثناء بذكر الأوصاف الجميلة ، والأفعال الجزيلة ، وتقديم الجار والمجرور للدلالة على تأكيد الاختصاص أي له الملك وله الحمد لا لغيره ، إذ هو المبديء لكل شيء ، وهو القائم به ، والمهيمن عليه ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وهو المُوْلي لأصول النعم وفروعها ، ولولا أنه أنعم بها على عباده ، لما قدر أحد على أدنى شيء ، فالمؤمنون يحمدونه على نعمه ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وللبشر ملك وحمد من حيث الصورة ، لا من حيث الحقيقة ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة ، إلى الكل سواء ، فهو القادر على الإيجاد والإعدام ، والإسقام والإبراء ، والإعزاز والإذلال ، ونحو ذلك من الأمور ، فمن عرف أنه تعالى قادر ، خشي من عقوبته عند مخالفته ، وأمَّل لطائف نعمته ورحمته عند سؤال حاجته ، بكرمه ومنته ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ** ﴾ خلقاً بديعاً ومع ذلك ﴿ **فَمِنْكُمْ كَافِرٌ** ﴾ أي فبعضكم مختار للكفر ، حسبما تقتضيه خلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم ، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشيَّعتم شيعاً ، وتفرقتم فرقاً ، والكفر فعل الكافر ، والإيمان فعل المؤمن ، والكفر والإيمان اكتساب العبد ، لقول النبي عليه السلام (كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة)[1] وقوله تعالى (**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا**) فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار ، وكسبُه واختياره بتقدير الله ومشيئته ، فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان ، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدَّره عليه ، وعلمه منه ، والكافر بعد خلق الله إياه ، يختار الكفر ، لأن الله تعالى قدر عليه ذلك وعلمه منه ،

---

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ، ولفظ البخاري (ما من مولودٍ إلاَّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١ / ٢٦٨ .

وهذا طريق أهل السنة ، حكي أن سنياً ناظر معتزلياً في مسألة القدر ، فقطف المعتزلي تفاحة من شجرة ، وقال للسني أليس أنا الذي قطفت هذه ؟ فقال له السني : إن كنتَ الذي قطفتها فردَّها على ما كانت عليه ، فأفحم المعتزلي وانقطع ، وإنما ألزمه بذلك لأن القدرة التي يحصل بها الإيجاد لابد أن تكون صالحة للضدين ، فلو كان تفريق الأجزاء بقدرته لكان في قدرته وصلها ، ومن أدب من عرف أنه سبحانه هو المنفرد بالخلق والإيجاد ، أن لا يجحد كسب العبد ، ولا يطوي بساط الشرع في الابتلاء بالأمر والنهي ، حُكي أن بعض العلماء تعجب من تجاسر الملائكة في قولهم « أَتَجْعَلُ فِيها مَن يُفْسِدُ فِيَها » ثم قال : ما عليهم شيء ، هو أنطقهم ، فبلغ قوله يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه فقال : صدق هو أنطقهم ، ولكن انظر كيف أفحمهم ؟ بين بذلك أن مجرد الخلق من جهة الحق ، لا يكون عذراً للعبيد في سقوط اللوم عنهم ﴿ **وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ** ﴾ مختار للإيمان كاسبٌ له ، ويندرج فيه مرتكب الكبيرة والمبتدع الذي لا تُفضي بدعته إلى الكفر ، وتقديم الكفر عليه لأنه الأنسب بمقام التوبيخ ، والأغلب فيما بينهم ، ولذا يقول الله في يوم الموقف (يا ادَم أخرجْ بعث النار ؟ قال يارب وكم بعث النار ؟ قال الله : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون)[1] وفي التنزيل (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ**) (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**) والإيمان أعظم شعب الشكر ، روي أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول (اللهم اجعلني من القليل) فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : إني سمعت الله يقول (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**) فإنما أدعو أنه يجعلني من ذلك القليل ، فقال عمر : كلُّ الناس أعلم من عمر ، وهذا منه رضي الله عنه تواضعٌ ، وإلاَّ فهو على جانب عظيم من العلم والفهم والتمكن في الدين .

﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ مطلقاً ﴿ **بَصِيرٌ** ﴾ فيجازيكم بذلك ، فاختاروا الإيمان على الكفر والعصيان ، واعلم أن الله تعالى يعلم لكنه يحلم ، ويَقْدر لكنه يَغْفر ، ومن أقعده جَدُّه ، لم ينفعه كَدُّه ، يُحكى أن بعض الأكابر بلغه أن يهودياً أوصى أن يحمل من بلده إذا مات ، ويدفن في بيت المقدس ، فقال أيكابر الأزل ؟ أما علم أنه لو دفن في فراديس العلى ، لجاءت جهنم بأنكالها وحملته إلى نفسها ؟ ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾ أي بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية ، والدنيوية ، والمراد السموات السبع ، والأرضون السبع ، كما يدل عليه التصريح في بعض المواضع ، قال تعالى (**خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِباقاً**) وقال تعالى (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**) فإن قلت : ما وجه عدم ذكر العرش والكرسي في أمثال هذه المواضع مع عظم خلقها ؟ قلت : إنها وإن كانا من السماء ، إلا أن آثارهما غير ظاهرة مكشوفة ؛ بخلاف السموات والأرض وما بينهما ، فإنها أقرب إلى المخاطبين المكلفين ، ومعلوم حالها عندهم ، ومكشوفة آثارها ومنفعتها ، ولهذا قالوا : إن الشمس تنضج الفواكه ، والقمر

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وفيه « فحينئذٍ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد » جامع الأصول ٩ / ١٨٨ .

يلونها ، والكواكب تعطيها الطعم ، فهي على عظم القدرة أدل ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي صوركم أحسن تصوير ، وخلقكم في أحسن تقويم ، وزيَّنكم بصفوة صفات مصنوعاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته ، في هذه النشأة ، فلكم جمال الصورة وأحسن الأشكال ، ولذا لا يتمنى الإنسان أن يكون صورته على خلاف ما هو عليه ، لكون صورته أحسن من سائر الصور ، ومن حسن صورته امتداد قامته ، وانتصاب خلقته ، واعتدال وجوده ، ولا يقدح في حسنه كون بعض الصور قبيحاً بالنسبة إلى بعض ، لأن الحسن وهو الجمال في الخلق ؛ والخلق على مراتب ، كما قالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال ، والبيان ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي وإلى الله الرجوع في النشأة الأخرى ، لا إلى غيره ، فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له ، حتى يجازيكم بالإنعام لا بالانتقام ؛ فكم من صورة حسناء تكون في العقبى شوهاء ، بقبح السريرة والسيرة ؟ وكم من صورة قبيحة تكون حسناء بحسنها ؟ .

وقد ثبت أن ضرس الكافر يوم القيامة مثل جبل أحد ، وأن غلظ جسده مسافة ثلاثة أيام ، وأنه يسوء خَلْقه فتغلظ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرَّته ، وأن أهل الجنة ضوء وجوههم كضوء القمر ليلة البدر ، ، أو على أحسن كوكب دُرِّيٍ في السماء ، وهم جردٌ مُرْدٌ مكحولون ، أبناء ثلاثة وثلاثين ، فطوبى لأهل اللطافة ، وويل لأهل الكثافة ﴿ يَعْلَمُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من الأمور الكلية والجزئية ، والأحوال الجلية والخفية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّوْنَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تسرونه فيما بينكم ، وما تظهرونه من الأمور تأكيد للوعد والوعيد ، قال في برهان القرآن : إنما كرر « ما » في أول السورة ، لاختلاف تسبيح أهل الأرض ، وأهل السماء ، في الكثرة والقلة ، والبعد والقرب ، وكذلك اختلاف ما تسرون وما تعلنون ، فإنهما ضدان ، ولم يكرر « مَا فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ » لأن الكل بالإضافة إلى علم الله جنس واحد ، لا يخفى عليه شيء ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي هو محيط بجميع المضمرات ، المستكنة في صدور الناس ، بحيث لا تفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه ؟ وإنما قيل لها (ذَاتِ الصُّدُورِ) لملابستها لها ، وكونها مخزونة فيها ، ففي الآية ترقٍّ من الأظهر إلى الأخفى ، لأنه عالم بما في السموات وما في الأرض ، وما يصدر من بني آدم سراً وعلناً ، وبما لم يصدر بعد ، بل هو مكنون في الصدور ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أيها الكفرة ، والألفُ للاستفهام ، ولم للجحد ومعناها التحقيق ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ أي خبر قوم نوح ، ومن بعدهم من الأمم المصرَّة على الكفر ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبلكم أو قبل هذا الوقت ، أو هذا العصيان ﴿ فَذَاقُوْا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ الوبال : الثِّقَلُ والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، وأمرهم كفرهم ، فهو واحد الأمور ، عبَّر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة ، والمعنى فذاقوا في الدنيا من غير

مهلة ، ما يستتبعه كفرهم من الضرر والعقوبة ، وأحسُّوا إحساس الذائق للطعام ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم لا يقادر قدره ، وفيه إخبار بأن ما أصابهم في الدنيا ؛ لم يكن كفارة لذنوبهم ، وإلا لم يعذبوا في الآخرة ، بخلاف المؤمنين فإن ما أصابهم في الدنيا من الآلام ، والأوجاع ، والمصائب ، كفارة لذنوبهم ، على ما ورد في الأخبار الصحيحة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا ، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ أي المعجزات الظاهرة ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي قال كل قوم من المذكورين ، في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات ، مُنكرين لكون الرسول من جنس البشر ، متعجبين من ذلك : أبشرٌ وآدمي مثلنا يهدينا ، ويرشدنا إلى الدين ، أو إلى الله والتقرب منه ، كما قالت ثمود (أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ) أنكروا أن يكون الرسول بشراً ، ولم ينكروا أن يكون المعبود حجراً ؟ وقد أجمل في الحكاية فأسند القول إلى جميع الأقوام ، وأريد بالبشر الجنس ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي بالرسل بسبب هذا القول ، لأنهم قالوه استصغاراً لهم ، ولم يعلموا الحكمة في اختيار كون الرسل بشراً ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن التدبُّر فيما أتوا به من البينات ، وعن الإيمان بهم ﴿ وَاسْتَغْنَى اللهُ ﴾ أي أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ الزعمُ : إدّعاء العلم ، وفيه إشعار بأنه لا سند للحكم ، سوى ادّعائه إياه ، والمراد به كفار قريش أي زعموا وادعوا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبداً ، ولن يُخرجوا من قبورهم ، وعن شريح رضي الله عنه « لكل شيء كنيةٌ ، وكنية الكذب زعموا » قال بعض المخضرمين لابنه : هبْ لي من كلامك كلمتين « زعم » و « سوف » ويكره للرجل أن يكثر لفظ الزعم وأمثاله ، فإنه تحديث بكل ما سمع ، وكفى بذلك كذباً ، وإذا أراد أن يتكلم تكلم بما هو محقق ، لابما هو مشتبه ، ولذلك يتخلص من أن يحدث بكل ما سمع ، فيكون معصوماً من الكذب ﴿ قُلْ ﴾ رداً وإبطالاً لزعمهم بإثبات ما نفوه ﴿ بَلَى ﴾ أي تبعثون ، فإن « بلى » لإيجاب النفي الذي قبله ، وقولُه ﴿ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتحاسبن ، وتجزون بأعمالكم ، وفيه تأكيد لتحقيق البعث بوجهين : فقوله (وربّي) قسم لعل اختياره ههنا ، لما أن في البعث إظهار كمال الربوبية المفيدة لتمام المعرفة ، وإيثار دوام التربية بالنعم الجسمانية ، الظاهرة وقوله (لَتُبْعَثُنَّ) وهو جواب قسم قبله مؤكد باللام المؤكدة للقسم ، وثم لتراخي المدة لطول يوم القيامة ، لعل فائدة الإخبار بالقسم ، مع أن المشركين ينكرون الرسالة كما ينكرون البعث ، إبطال لزعمهم بالتشديد والتأكيد ، ليتأثر من قدَّر الله له الإنصاف ، وتتأكد الحجة على من لم يقدر له ، وكان محروماً بالكلية ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي سهل على الله لتحقق القدرة

التامة ، وإذا كان الأمر كذلك ﴿ فَآمِنُوا ﴾ بصرف إرادتكم إلى أسباب حصول الإيمان ﴿ بِاللهِ ﴾ الباعث من القبور ، المجازي على كل عمل ظاهر أو مستور ﴿ وَرَسُوْلِهِ ﴾ محمد ﷺ ، الذي أخبر عن شؤون الله تعالى وصفاته ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ أي أنزلناه على رسولنا ، وهو القرآن ، فإنه بإعجازه واضح بنفسه أنه الحق نازل من عند الله مبين لغيره ، ومظهر للحلال والحرام ، كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة ، لإبراز كمال العناية ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال بالأمر ، وعدمه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فمجازيكم عليه ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ والظاهر أن الخطاب لمن خوطب أولا بقوله ألم يأتكم ﴿ لِيَوْمِ الجَمْعِ ﴾ ليوم يُجمع فيه الأولون والآخرون ، من الجن والإنس ، وأهل السماء والأرض ، أي لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ، فاللام للعهد أي جمع هذا اليوم ، عن النبي عليه السلام (إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس)[1] ﴿ ذَلِكَ ﴾ اليوم ﴿ يَوْمُ التَغَابُنِ ﴾ تفاعل من الغَبن .وهو أن تُخسِّر صاحبك في معاملة بينك وبينه ، وبضربٍ من الإخفاء ،ويوم القيامة يوم غبن بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، وبالعكس .

وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه مالا يقع في أمور الدنيا ، فاللام للعهد الذي يشار به إلى الفرد الكامل أي التغابن الكامل العظيم الذي لا تغابن فوقه ، قال القاشاني : ليس التغابن في الأمور الدنيوية فإنها أمور فانية ، سريعة الزوال ، لا يبقى شيء منها لأحد ، فإن فات شيء من ذلك أو أفاته أحد ولو كل حياته فإنما فات ضرورة فلا غبن ، وإنما الغبن والتغابن في إفاتة شيء لو لم يفته لبقي دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك في إضاعة الربح ، ورأس المال ، في تجارة الفوز والنجاة كما قال (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) وقال الراغب : يوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المبايعة المشار إليها بقوله (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) فلعلهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة ، وفيما تعاطوا من ذلك جميعاً ، وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدوا الأشياء بخلاف مقاديرها في الدنيا ، وقال بعضهم : يظهر يومئذ غبن الكافر بترك الإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان وقد ورد (لا يتحسر

(١) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ربيعة الجرشي ، وانظر الدرّ المنثور للسيوطي ٥ / ١٧٦ .

أهل الجنة في الجنة ، إلا ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها)[1] قيل : أشد الناس غبناً يوم القيامة ثلاثة نفر : عالم علَّم الناس فعملوا بعلمه ، وخالف هو علمه فدخل غيره الجنة بعلمه ، ودخل هو النار بعمله ، وعبدٌ أطاع الله بقوة مال سيده ، وعصى الله سيّدُه ، فدخل العبد الجنة بقوة مال مالكه ، ودخل مالكه النار بمعصية الله ، وولدٌ ورث مالاً من أبيه ، وأبوه شحَّ به وعصى الله فيه ، فدخل أبوه ببخله النار ، ودخل هو بإنفاقه في الخير الجنة .

﴿ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ** ﴾ بالصدق والإخلاص ، بحسب نور استعداده ﴿ **وَيَعْمَلْ صَالِحاً** ﴾ أي عملاً صالحاً بمقتضى إيمانه ، فإن العمل إنما يكون بقدر النظر ، وهو أي العمل الصالح ما يُبتغى به وجه الله فرضاً أو نفلاً ، حكي أن ابراهيم بن أدهم رحمه الله ، أراد أن يدخل الحمام ، فطلب الحاميُّ الأجرة ، فتأوَّه وقال : إذا لم يدخل أحدٌ بيت الشيطان بلا أجرة ، فأنىَّ يدخل بيت الرحمن بلا عمل ؟ ﴿ **يُكَفِّرْ** ﴾ أي يغفر الله ويمح ﴿ **عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ** ﴾ يوم القيامة ولا يفضحه بها ﴿ **وَيُدْخِلْهُ** ﴾ بفضله وكرمه ، لا بالإيجاب ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ على حسب درجات أعماله ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** ﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿ **الأَنْهَارُخَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾ تأكيد للخلود ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات﴿ **الفَوْزُ العَظِيمُ** ﴾ الذي لا فوز ورآءه ، لانطوائه على النجاة من أعظم المهلكات ، والظفر بأجَلِّ الطيبات ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُو بِآياتِنا** ﴾ تصريح بما علم التزاماً ، والمراد بالآيات إما القرآن ، أو المعجزات فإن كلاً منها آيةٌ لصدق الرسول ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي أهلها إما بمعنى مصاحبوها لخلودهم فيها ، أومالكوها تنزيلاً لهم منزلة الملاك للتهكم ، حال كونهم ﴿ **خَالِدِينَ فِيها** ﴾ أي أبداً بقرينة المقابلة ﴿ **وَبِئْسَ المَصِيرُ** ﴾أي النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن ، وإنما قلنا « كأن » لأن الواو تمانع الحمل على البيان كما عرف في المعاني ﴿ **مَا أَصَابَ** ﴾ الخلق﴿ **مِنْ مُصِيبَةٍ** ﴾ من المصائب الدنيوية ، في الأبدان ، والأولاد ، والأموال ﴿ **إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ أي بتقديره وإرادته ، كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة على إذنه تعالى أن تصيبه ، وهذا لا يخالف قوله تعالى (**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**) أي بسبب معاصيكم ، ويتجاوز عن كثير منها ولا يعاقب عليها ، أمَّا أولاً فلأن هذا القول في حق المجرمين ، فكم من مصيبة تصيب من أصابته لأمر آخر ، من كثرة الأجر للصبر وتكفير السيئات ، لتوفية الأجر ، إلى غير ذلك ، وما أصاب المؤمنين فمن هذا القبيل ، وأما ثانياً فلأن ما أصاب من أساء بسوء فعله ، فهو لم يصب إلا بإذن الله وإرادته أيضاً ، كما قال تعالى (**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ**) أي إيجادا وايصالاً ، فسبحان من

---

(١) رواه أحمد وابن حبان بلفظ (ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله عز وجل فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة) الترغيب والترهيب ٢ / ٤١٠.

لا يجري في ملكه إلا ما يشاء ، وكان الكفار يقولون : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في أموالهم وأبدانهم في الدنيا ، فبين الله أن ذلك إنما يصيبهم بتقديره ومشيئته ، وفي إصابتها حكمة لا يعرفها إلا هو ، منها تحصيل اليقين بأن ليس شيء من الأمر في يديهم فيبرأون بذلك من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته ، ومنها ما سبق آنفاً من تكفير ذنوبهم ، وتكثير مثوباتهم بالصبر عليها ، والرضى بقضاء الله إلى غير ذلك ، ولو لم يصب الأنبياء والأولياء محن الدنيا ، وما يطرأ على الأجسام ، لافتتن الخلق بما ظهر على أيديهم من المعجزات والكرامات ، على أن طريان الآلام والأوجاع على ظواهرهم ، لتحقق بشريتهم ، لا على بواطنهم فكأنهم معصومون محفوظون منها ، بخلاف حال الكفار والأشرار ، نسأل العفو والعافية من الله الغفار ﴿ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ** ﴾ يصدق به ، ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله ، والإكتفاء بالإيمان بالله لأنه الاصل ﴿ **يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ عند إصابتها للثبات والاسترجاع ، فيثبت ولا يضطرب ، بأن يقول قولاً ويظهر وصفاً يدل على التضجر من قضاء الله ، وعدم الرضى به ويسترجع ، فالمؤمن يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ومن عرف الله واعتقد أنه رب العالمين يرضى بقضائه ، ويصبر على بلائه ، وقيل (**يَهْدِ قَلْبَهُ**) أي يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فيرضى بقضائه ، ويسلم لحكمه ، وقيل (**يَهْدِ قَلْبَهُ**) أي يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير ﴿ **وَاللهُ بِكُلِ شَيءٍ** ﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوب وأحوالها ، كتسليم من انقاد لأمره وكراهة من كرهه ، وكأفاتها وخلوصها من الآفات ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ فيعلم إيمان المؤمن وخلوصه ، ويهدي قلبه إلى ما ذكر ﴿ **وَأَطِيعُوا اللهَ** ﴾ اطاعة العبد لمولاه فيما يأمره ﴿ **وأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ إطاعة الأمة لنبيها فيما يؤديه عن الله ، أي لا تشغلكم المصائب عن الاشتغال بطاعته ، والعمل بكتابه ، وعن الاشتغال بطاعة الرسول واتباع سنته ، وليكن جل همتكم في السراء والضراء ، العمل بما شرع لكم ، كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية ، وتوضيح مورد التولي في قوله ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أي أعرضتم عن إطاعة الرسول ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ** ﴾ تعليل للجواب المحذوف ، أي فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه ، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره ، لتشريفه عليه السلام ، والإشعار بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته عليه السلام محض البلاغ ، ولزيادة تشنيع التولي عنه ﴿ **اللهُ لاَ إِلَـهَ** ﴾ في الوجود ﴿ **إِلاَّ هُوَ** ﴾ أي هو المستحق للمعبودية لا غير ، وهو القادر على الهداية والضلالة ، لا شريك له في الإرشاد والإضلال ، وليس بيد الرسول شيء من ذلك ﴿ **وَعَلَى اللهِ** ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ، لا استقلالاً ، ولا اشتراكاً ﴿ **فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونِ** ﴾ في تثبيت قلوبهم على الإيمان والصبر على المصائب ، وإظهار الجلالة في موضع الإضمار ، للإشعار بعلية التوكل ، والأمر به ، فإن الألوهية مقتضية

للتبتل إليه تعالى بالكلية ، وقطع التعلق عما سواه بالمرة ، وفي الآية بعث لرسول الله وللمؤمنين ، وحث لهم على الثبات وعلى التوكل ، والازدياد فيه ، حتى ينصرهم على المكذبين ، على من تولى عن الطاعة ، وقبول أحكام الدين .

واعلم أن التوكل هو الثقة بما عند الله ، واليأس مما في أيدي الناس ، وظاهر الأمر يفيد وجوب التوكل ، مع أنه غير موجود في أكثر الناس ، فيلزم أن يكونوا عاصين ، ولعل المأمور به هو التوكل العقلي ، وهو أن يعتقد العبد أنه ما من مراد من مراداته الدنيوية والأخروية إلا وهو يحصل من الله ، فيثق به في حصوله ، ويرجو منه ، وإن كانت النفس تلتفت إلى الغير وتتوقع منه ، نظراً إلى اعتقاد سببيته ، والله مسبب الأسباب ﴿ **يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ايماناً خالصاً ﴿ **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** ﴾ جمع زوج يعم الحليل والحليلة ﴿ **وَأَوْلاَدِكُمْ** ﴾ جمع ولد يعم الابن والبنت ﴿ **عَدُوّاً لَّكُمْ** ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله ، وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة ، فإن العدو لا يكون عدواً بذاته ، وإنما يكون عدواً بفعله ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة ، وأشد المكر ما يكون في الدين ، فإن ضرره أشد من ضرر ما يكون في الدنيا ، وقد قيل : ليس عدوك الذي لقيته فقتلته ، وآجرك الله على قتله ، ولكنَّ أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك تضاجعك على فراشك ، وولدك من صلبك ، قدَّم تعالى الأزواج لأنها مصادر الأولاد ، ولأنها لكونها محل الشهوات ألصق بقلوب الناس ، وأشد إشغالاً لهم عن العبودية ، ولذا قدمها الله تعالى في قوله (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**) وقوله تعالى (**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**) يدخل فيه الذكر ، فكما أن الرجل تكون زوجته وولده عدواً له ، كذلك المرأة يكون زوجها عدواً لها ، بهذا المعنى ، فيكون الخطاب هنا عاماً على التغليب ، ﴿ **فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ الحذرُ : احتراز عن مخيف ، والضمير للعدو أي احفظوا أنفسكم من محبتهم ، وشدة التعلق ، والاحتجاب بهم ، ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق الله تعالى ، وفي الحديث (إذا كان أمَرَاؤكُمْ خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمرآؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأمركُم إلى نسائكم ، فبطنُ الأرض خير لكم من ظهرها)[1] وقد قيل عن النساء : شاورهنَّ وخالفهنَّ ، وقد استشار النبي عليه السلام أم سلمة رضي الله عنها ، كما في قصة صلح الحديبية ، فصار دليلاً لجواز استشارة المرأة الفاضلة ، ولفضل أم سلمة ووفور عقلها ، حتى قال إمام الحرمين ؛ لا نعلم امرأة أشارت برأي فأصابت ، إلا « أم سلمة » كذا قال ، وقد استدرك بعضهم : ابنة شعيب في أمر موسى عليه السلام[2] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب الفتن ، وقال : حديث غريب وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤١ والفتح الكبير ١ / ١٤٦ .

(٢) وذلك حين أشارت على أبيها باستئجار موسى لرعاية الغنم وقالت ﴿ **يأبت استأجرْهُ إن خير من استأجَرتَ القويُّ الأمينُ** ﴾.

حكي أن خسرو كان يحب أكل السمك ، فكان يوماً جالساً في المنظرة ، وشيرين عنده ، إذ جاء صياد ومعه سمكة كبيرة ، فوضعها بين يديه فأعجبته ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت شيرين : بئس ما فعلت ، لأنك إذا أعطيت بعد هذا أحداً من عسكرك ، هذا القدر احتقرهُ ، وقال أعطاني عطية الصيَّاد ، فقال خسرو : لقد صَدقْتِ ، لكن يقبحُ على الملوك أن يرجعوا في عطياتهم ، فقالت شيرين : تدعو الصياد وتقول له : هذه السمكة ذكرٌ أو أنثى ، فإن قال : ذكر ، فقل إنما أردنا أنثى ، وإن قال أنثى فقل : إنما أردنا ذكراً ، فنودي الصياد ، فعاد ، فقال له الملك : هذه السمكة ذكر أو أنثى ؟ فقال هذه السمكة خنثى ، فضحك خسرو من كلامه ، وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى ، فقبض ثمانية آلاف درهم ، ووضعها في جراب معه ، وحملها على كاهله ، وهمَّ بالخروج ، فوقع من الجراب درهم واحد ، فوضع الصياد الجراب ، وانحنى على الدرهم فأخذه ، والملك وشيرين ينظران إليه فقالت شيرين للملك : أرأيتَ إلى خِسَّة هذا الرجل وسفالته ؟ سقط منه درهم واحد ، فألقى عن كاهله ثمانية آلاف درهم ، وانحنى على ذلك الدرهم وأخذه ؛ ولم يسهل عليه أن يتركه ، فغضب الملك ، وقال : لقد صدقتِ يا شيرين ، ثم أمر بإعادة الصياد ، فقال يا دنيء الهمَّة ، لستَ بإنسان ، وما هذا الحرص والتهالك على درهمٍ واحد ؟ فقبَّل الصيَّاد الأرض ، وقال : إني لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي ، وإنما رفعته عن الأرض ، لأن على أحد وجهيه اسم الملك ، وعلى الآخر صورته ، فخشيتُ أن يأتي أحد بغير علم ، فيضع عليه قدمه ، فيكون ذلك استخفافاً بالملك وصورته ، فتعجَّب خسرو من كلامه ، فأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى ، وكتب وصية للناس بأن لا تطيعوا النساء أصلاً ، ولا تعملوا برأيهن قطعاً » .

وحكي أن رجلاً من بني اسرائيل أتى سليمان عليه السلام ، وقال يا نبيَّ الله : أريد أن تعلِّمَني لسان البهائم ، فقال سليمان إن كنت تحبُّ أن تتعلم لسان البهائم ، أنا أعلّمك ، ولكن إذا أخبرت أحداً تموت من ساعتك ، فقال : لا أخبر أحداً ، فقال سليمان قد علمتك ، وكان للرجل ثور وحمار يعمل عليهما في النهار ، فإذا أمسى أدخل عليهما علفاً ، فحطَّ العلف بين يديهما ، فقال الحمار للثور : أعطني الليلة عشاءك حتى يحسب صاحبنا أنك مريض فلا يعمل عليك ، ثم إني أعطيك عشائي في الليلة القابلة ، فرفع الثور رأسه من علفه ، فضحك الرجل ، فقالت امرأته : لم تضحك ؟ قال : لاشيء ، فلما جاءت الليلة القابلة أعطى الرجل للحمار علفه ، وللثور علفه ، فقال الثور : اقضني السلف الذي عندك ، فإني أمسيت مغلوباً من الجوع والتعب ، فقال له الحمار : إنك لا تدري كيف كان الحال ، قال الثور : وما ذاك ؟ قال : إن صاحبنا البارحة ذهب وقال للجزار ثوري مريض اذبحه ، قبل أن يعجف ، فاصبر الليلة وأسْلِفني أيضاً عشاءك حتى إذا جاءك الجزار صباحاً ، وجدك عجيفاً فلا يذبحك فتنجو من الموت ، ولو تعشيت يمتلىء بطنك فيخشى عليك أن يحسبك سميناً فيذبحك ، إني أرد لك ما أسلفتني الليلتين ، فرفع

رأسه عن علفه ولم يأكل ، فضحك الرجل ، فقالت المرأة لم تضحك ؟ أخبرني وإلاّ طلقني ، فقال الرجل إذا أخبرتك بما ضحكتُ أموت من ساعتي ، فقالت : لا أبالي ، فقال ائتني بالدواة والقرطاس حتى اكتب وصيتي ، ثم أخبرك ثم أموت ، فناولته ، فبينما هو يكتب إذ طرحت المرأة كسرة من الخبز إلى الكلب ، فسبق الديك وأخذها بمنقاره ، قال الكلب : ظلمتني ، قال الديك : صاحبنا يريد الموت فتكون شبعاناً من وليمة المأتم ، ولكن نحن نبقى في مبيتنا إلى ثلاثة أيام لا يفتح لنا الباب ، وإن يمت برضى امرأته ، أبعده الله وأسخطه ، فإن لي تسع نسوة لا تقدر واحدة منهن أن تسأل عن سري ، ولو كنت أنا مكانه لأضربنَّها حتى تموت أو تتوب ، وبعد ذلك لا تسأل عن سرِّ زوجها ، فأخذ الرجل عصا ولم يزل يضربها حتى تابت من ذلك ، ففي هذه القصة عظة وعبرة .

وأفادت من التبعيضية في قوله (**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**) إلخ أن منها ما ليس بعدو ، كما قال عليه السلام (الدنيا متاعٌ ، وخير متاعها المرأة الصالحة)[1] وقال عليه أفضل الصلاة والتسليم (ما استفاد المؤمنُ بعد تقوى الله عز وجل ، خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله)[2] فإذا كانت المرأة على هذه الأوصاف ، فهي ميمونة مباركة ، وإلا فهي مشئومة منحوسة ﴿ **وَإِنْ تَعْفُوا** ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو ، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة ﴿ **وَتَصْفَحُوا** ﴾ بترك التثريب والتعيير ﴿ **وَتَغْفِرُوا** ﴾ بإخفائها وتمهيد عذرها ﴿ **فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يعاملكم بمثل ما علتم ويتفضل عليكم ، نزلت في عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو أبكَوْه ورققوه ، وقالوا إلى من تدعنا ؟ فيرقُّ ويقيم ، ويُذكر أن الحُطيئة ـ وهو شاعر مشهور ـ أراد سفراً فقال لامرأته :

عِـــــدّي السِّنِينَ لغَيْبَتي وتَصَبَّري * وَذَرِي الشُّهُورَ فَـــإنهنّ قِصَـــارُ

فأجابته

واذْكُرَ صَبَابَتَنَا إليكَ وشَوْقَنَا * وارْحَمْ بَنَاتِكَ إنَّهنَّ صِغَارُ

وقيل إن ناساً من المؤمنين أرادوا الهجرة من مكة ، فثبطهم أزواجهم وأولادهم ، فزينوا لهم القعود ، وقالوا لهم : أين تذهبون وتدعون بلدكم ، وعشيرتكم ، وأموالكم ؟ فغضبوا عليهم وقالوا : لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير ، فلما هاجروا منعوهم الخير ، فحثُّوا على أن يعفوا عنهم ، ويردوا إليهم البر

(١) الحديث أخرجه مسلم والنسائي في النكاح ٦ / ٦٩ وانظر جامع الأصول ١١ / ٤٢٨ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٧٩ .

والصلة ، وفي الحث على العفو والصفح ، إشارة إلى أن ليس المراد من الأمر بالحذر تركهم بالكلية ، والإعراض عن معاشرتهم ومصاحبتهم ، كيف والنساءُ من أعظم نِعَم الدنيا ، وبهنَّ نظام العالم ، فإنه لولا الأزواج لما وجد الأنبياء والأولياء ، والعلماء والصلحاء ، وقد خلق المخلوقات لأجلهم ، ومنَّ الله على عباده بتذكير النعمة حيث قال (**ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**) وهذا كما رُوي عنه عليه السلام أنه كان يقول (اتقوا الدنيا واتقوا النساء) فإن الأمر بالاتقاء إنما هو للتحذير عما يضر في معاشرتها ، لا للترك بالكلية ؛ فكما أن الدنيا لا تترك بالكلية مادام المرء حياً ، وإنما يحذر من التعلق بها ، ومحبتها الشاغلة عن محبة الله تعالى ، فكذا النساء ، ولأمرٍ ماحبَّب الله إليه عليه السلام النساء ، وقال عليه السلام (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاَّ من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو علمٍ يُنتفع له ، أو ولد صالح يدعو له)[1] فقد حث عليه السلام على وجود الولد الصالح ولم يعده من الدنيا ، بل عدَّه من الخير الباقي في الدنيا ، وبه يحصل العمر الثاني ﴿ **إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ بلاء ومحنة ، يوقعونكم في الإثم والعقوبة ، من حيث لا تحتسبون ، وجيء ب « إنَّما » للحصر لأن جميع الأموال والأولاد فتنة ، لأنه لا يرجع إلى مال أو ولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، واشتغال قلب ، وتأخير الأولاد في الذكر من باب الترقي من الأدنى إلى ا لأعلى ، لأن الأولاد ألصق بالقلوب من الأموال ، لكونهم من أجزاء الآباء ، بخلاف الأموال فإنها من توابع الوجود وملحقاتها ﴿ **وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾لمن آثر محبة الله ، وطاعته ، على محبة الأموال والأولاد ، والتدبير في مصالحهم ، زَهَّدَهُمْ في الدنيا بأن ذكر عيبها ، ورغَّبهم في الآخرة بذكر نعيمها ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه (لا يقولنَّ أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل : اللهم إني أعوذ بك من مضلاَّت الفتن)[2] وفي مشكاة المصابيح (كان رسول الله ﷺ يخطب إذ جاء الحسن والحسين ، رضي الله عنهما ؟ عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل عليه السلام من المنبر ، ووضعهما بين يديه ، ثم قال : صدق الله (**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ**) نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما ، ثم أخذ عليه السلام في خطبته)[3] قال ابن عطية : وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء ، فأما فتنة الجهال الفسقة ، فمؤدية إلى كل فعل مهلك ، يقال : إن أول ما يتعلق بالرجال يوم القيامة أهله وأولاده، فيقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون يا ربنا خذ بحقنا منه ، فإنه ما علمنا ما نجهل ، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتص لهم منه ، وتأكل عياله حسناته فلا يبقى له حسنة ﴿ **فَاتَّقُوا اللهَ مَا**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً وانظر الفتح الكبير ١ / ١٥٤ .

(٢) أخرجه ابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً . الفتح للسيوطي ٦ / ٢٨٨ .

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه والحاكم وصحَّحه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٥٤ .

﴿ **اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ أي ابذلوا في تقواه جهدكم ، وطاقتكم ، قال بعضهم : أي إن علمتم ذلك وانتصحتم به ، فاتقوا ما يكون سبباً لمؤاخذة الله إياكم ، من تدبير أمورهما ، لا ترتكبوا ما يخالف أمره تعالى من فعل أو ترك ، وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى (**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه**) لَمَّا اشتد عليهم ، بأن قاموا حتى ورمت أقدامهم ، وتقرحت جباههم ، فنزلت تيسيراً لعباد الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها آية محكمة لا ناسخ فيها ، لعله رضي الله عنه جمع بين الآيتين ، بأن يقول هنا وهنالك ، فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم ، واجتهدوا في الاتصاف به بقدر طاقتكم ، فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وحق التقوى ما يحسن أن يقال ويطلق عليه اسم التقوى ، وذلك لا يقتضي أن يكون فوق الاستطاعة ﴿ **وَاسْمَعُوا** ﴾ مواعظه ﴿ **وَأَطِيعُوا** ﴾ أوامره ﴿ **وَأَنْفِقُوا** ﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها ، خالصاً لوجهه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد إنفاق الزكاة ، والظاهر العموم ، وهو مندرج في الإطاعة ، ولعل إفراده بالذكر لما أن الاحتياج إليه كان أشد حينئذ ، وأن المال شقيق الروح ، ومحبوب النفس ، ومن ذلك قدم الأموال على الأولاد في المواضع .

﴿ **خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ** ﴾ أي يكن خيراً لأنفسكم ، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، وبيان لكون الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد ، وما هم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا ﴿ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ** ﴾ أي ومن يقه الله ويعصمه من بخل نفسه ، الذي هو الرذيلة المعجونة في طينة النفس ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ الفائزون بكل مرام وكفى بالمرء من الشح ، أن يقول : آخذُ حقي لا أترك منه شيئاً !! ﴿ **إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ** ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيَّنها وذكرُ القرضِ تلطفٌ في الاستدعاء ﴿ **قَرْضاً حَسَناً** ﴾ أي مقروناً بالإخلاص ، وطيب النفس وفي التعبير عن الإنفاق بالإقراض ، وجعله متعلقاً بالله الغنِّي مطلقاً ، والتعبير عن النفقة بالقرض ، إشارة إلى حسن قبول الله ورضاه ، وإلى عدم الضياع ، وبشارة باستحقاق المنفق ببركة إنفاقه لتمام الاستحقاق ﴿ **يُضَاعِفْهُ لَكُمْ** ﴾ من المضاعفة أي التكثير أي يجعل لكم أجره مضاعفاً ، ويكتب بالواحد عشرة ، وسبعين ، وسبعمائة ، وأكثر بمقتضى مشيئته ، على حسب النيات والأوقات والأحوال ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ ببركة الانفاق ما فرط منكم ، ومن بعض الذنوب ﴿ **وَاللهُ شَكُورٌ** ﴾ يعطي الكثير بمقابلة اليسير من الطاعة ، أو يجازي العبد على الشكر ، فسمي جزاء الشكر شكراً ، أو الله شكور بمعنى أنه كثير الثناء على عبده ، بذكر أفعاله الحسنة ، وطاعته ، فالشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، وهذا المعنى مختار الإمام القشيري رحمه الله ، والشكور مبالغة الشاكر ، والشاكر من له الشكر ، سئل بعضهم : من أشكر الشاكرين ؟ فقال : الطاهر من الذنوب يعدُّ نفسه من المذنبين ، والمجتهد في النوافل بعد آداء الفرائض يعدُّ نفسه من المقصِّرين ، والراضي بالقليل من الدنيا يعدُّ نفسه من الراغبين ، والقاطع بذكر الله دهره

يعدُّ نفسه من الغافلين ، والراغب في العمل يعدُّ نفسه من المفلسين ، فهذا أشكر الشاكرين ، ومن أدب من عرف أنه تعالى شكور ، أن يَجِدَّ في شكره ولا يفتر ، ويواظب على حمده ولا يقصر ، والشكر على أقسام : شكر بالبدن ، وهو أن لا تستعمل جوارحك في غير طاعته ، وشكرٌ بالقلب وهو أن لا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته ، وشكر باللسان وهو أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحته ، وشكر بالمال وهو أن لا تنفقه في غير رضاه ومحبته ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ، مع كثرة ذنوبكم ، والإمساك ونحوهما ، فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم ، ويستر حتى يتوهم الغافل أنه ليس يبصر ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الحليم هو الذي يشاهد معصية العصاة ، ويرى مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ عجلةٌ وطيش ، كما قال الله تعالى (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**) ﴿ **عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ** ﴾ أي لا يخفى عليه خافية ، ولعل تقديم الغيب لأن عالم الغيب أعم والعلم به أتمُّ ﴿ **العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ البالغ في القدرة والحكمة ، فهو عزيز في ملكه ، حكيمٌ في صنعه . .

تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن

● ● ●



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يَا أَيُّهَا النَبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ** ﴾ الطلاق التخلية من وثاق ، يقال : أطلقت البعير من عقاله ، وطلَّقته : تركته بلا قيد ، ومنه استعير طلقت المرأة ، إذا خليتها فهي طالق ، أي مخلاَّة عن حبالة النكاح ، والطلاق اسم بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، والمعنى إذا أردتم تطليق النساء المدخول بهن ، والمعتدات بالأقراء ، وعزمتم عليه بقرينة (**فَطَلِّقُوهُنَّ**) ، ففيه تنزيل المشارف للشيء منزلة الشارع فيه ، وتخصيصُ النداء به عليه السلام ، مع عموم الخطاب لأمته ، لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يُقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه لسان قومه ، وإذا خاطب السيد فقد شرفه على الجمهور إذ جمع الجميع في اسمه ، وفي كشف الأسرار : فيه أربعة أقوال : **أحدها** أنه خطاب للرسول ، وذُكر بلفظ الجمع تعظيماً له ، كما يخاطب الملوك بلفظ الجمع ، **والثاني** أنه خطاب له والمراد أمته ، **والثالث** أن التقدير يا أيها النبي والمؤمنون إذا طلقتم ، فحذف لأن الحكم يدل عليه ، **والرابع** معناه يا أيها النبي قل للمؤمنين إذا طلقتم انتهى ، وهذا الأخير أنسب بالمقام فيكون مثل قوله (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ**) و (**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ**) وقد صدر منه عليه السلام التطليق لبيان التشريع ، فإنه طلَّق حفصة بنت عمر رضي الله عنها ، فلما نزلت الآية راجعها وكانت فقيهة كثيرة الحديث ، فقيل له عليه السلام : « راجِعْهَا فإنها صَوَّامة قوَّامة ، وإنها من نسائك في الجنة »[1] حكاه الطبري ﴿ **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ العدة مصدر عدَّه يعدُّه ، وسمي الزمان الذي تتربص فيه المرأة عقيب الطلاق أو الموت عدة ، لأنها تعدُّ الأيام المضروبة عليها ، وتنتظر أوان الفرج الموعود لها ، والمعنى فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، متوجهات إليها ، وهي الحَيض عند الحنفية ، والمرأة إذا طلقت في طهر يعقب القرء الأول من أقرائها ، فقد طلقت مستقبلة لعدتها ، والمراد أن يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، وهذا أحسن الطلاق ، وأدخله في السنة ، وأبعده من الندم ، لأنه ربما ندم في إرسال الثلاث دفعة ، فالطلاق السني هو أن يكون في طهر لم يجامعها فيه ، وأن يُفرِّق الثلاث في الأطهار الثلاثة ، على وجه السنة ، والبدعي على وجوه أيضاً : منها أن يكون في طهرٍ جَامَع فيه ، ومنها ما كان في الحيض أو النفاس ، لما فيه من تطويل العدة ، على قول من يجعل العدة بالحيض

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلَّق رسول الله ﷺ حفصة ، فأتتْ أهلَها فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء .. ﴾ الآية فقيل له : (راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة) الحديث انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٥١٢ .

وهو أبو حنيفة رحمه الله ، لأن بقية الحيضة لا تحتسب ، إلا أن تكون غير مدخول بها فإنه لا بدعة في طلاقها في حال الحيض ، إذْ ليس عليها عدة ، أو تكون مما لا يلزمها العدة بالأقراء ، فإن طلاقها لا يتقيد بزمان دون زمان ، ومنها ما كان بجمع الثلاث أي أن يطلقها ثلاثاً دفعة ، أو في طهر واحد متفرقة ، ويقع الطلاق المخالف للسنة في قول عامة الفقهاء ، وهو مسيء بل آثم ، ولذا كان عمر رضي الله عنه لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وطلَّق رجل امرأته ثلاثاً بين يديه عليه السلام فقال (أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم)[1]أي مقيم بينكم ، واعلم أن النكاح والطلاق أمران شرعيان ، من الأمور الشرعية العادية ، لهما حسن موقع ، وقبحُ موقع ، بحسب الأحوال والأوقات ، وقد طلق عليه السلام حفصة رضي الله عنها تطليقةً واحدة كما سبق ، وكذا تزوج سودة بنت زمعة بمكة ثم طلقها بالمدينة ، حين دخل عليها وهي تبكي على من قُتل من أقاربها يوم بدر ، فاستشفعتْ إلى النبي عليه السلام ووهبت يومها لعائشة فراجعها ، فإن قلت : كيف فعل رسول الله ذلك ، وقد قال ﷺ (أبغض الحلال عند الله الطلاق)[2] ؟ فالجوابُ أن النكاح يؤدي إلى الوصال ، والطلاق يؤدي إلى الفراق ، والله يحب الوصال ويبغض الفراق ، لا شمس ليوم الفراق ، ولا نهار لليلة القطيعة ، وقد ورد (لا تطلِّقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله لا يحب الذوَّاقين والذواقات)[3] وعنه عليه السلام (أيُّما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأسٍ ، فحرام عليها رائحة الجنة)[4] ﴿ **وَأَحْصُوا العِدَّةَ** ﴾ أي اضبطوها بحفظ الوقت الذي وقع فيه الطلاق ، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل ، لا نقصان فيهن ، أي ثلاث حيض كما عند الحنفية ، لأن الغرض من العدة استبراء الرحم ، وكماله بالحَيَضِ الثلاث ، لا بالأطهار ، والمخاطب بالإحصاء هم الأزواج ، لا الزوجات ، ولا المسلمون وإلا يلزم تفكيك الضمائر ، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق ، وقال أبو الليث : أمر الرجال بحفظ العدة ، لأن في النساء غفلة فربما لا تحفظ عدتها ، فالزوج يحصي ليتمكن من تفريق الطلاق على الأقراء ، إذا أراد أن يطلق ثلاثاً ، فإن إرسال الثلاث في طهر واحد مكروه عند أبي حنيفة وأصحابه ، وإن كان لا بأس به عند الشافعي وأتباعه ، حيث قال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح ، وليعلم بقاء زمان الرجعة ليراجع ، إن حدثت له الرغبة فيها ، أو ليعلم زمان وجوب الإنفاق عليه ، وانقضائه ، وليعلم أنها هل تستحق عليه أن يسكنها في البيت ، أو له أن يخرجها ، وليتمكن في إلحاق نسب ولدها به وقطعه عنه ، قالوا وعلى الرجال في بعض

---

(١) الحديث أخرجه النسائي في الطلاق ٦ / ١٤٢ وتتمة الحديث « حتى قام رجل فقال يا رسول الله : ألا أقتلهُ ؟ » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الطلاق موصولاً ومرسلاً ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٦٢٣ .

(٣) الحديث رواه الطبراني في الكبير عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٢٩ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٩٤ .

المواضع العدة : منها أنه إذا كان للرجل أربع نسوة فطلق إحداهن ، لا يحل له أن يتزوج بامرأة أخرى ، مالم تنقض عدتها ، ومنها أنه إذا كان له امرأة ولها أخت فطلَّق امرأته لا يحل له أن يتزوج بأختها مادامت في العدة) .. الخ ﴿ **وَاتَّقُوْا اللهَ رَبَّكُمْ** ﴾في تطويل العدة عليهن ، والإضرار بهن ، بإيقاع طلاق ثان بعد الرجعة ، والتقوى في الأصل اتخاذ الوقاية ، وهي ما يقي الإنسان مما يكره ، ويحول بينه وبين ذلك المكروه ، كالترس ونحوه ، ثم استعير في الشرع ، لاتخاذ ما يقي العبد ويكون سبباً لنجاته من المضار الدائمة وحياته بالمنافع القائمة ، وللتقوى فضائل كثيرة ومن اتقى الله حق تقواه في جميع المراتب ، كوشف بحقائق البيان فلا يقع له في الأشياء شك ولا ريب ﴿ **لاَتُخْرِجُوْهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ** ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنكم عند الفراق ، إلى أن تنقضي عدتهنَّ ، وإنما أضيفت إليهن مع أنها لأزواجهن لتأكيد النهي ، ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن ، ﴿ **وَلاَ يَخْرُجْنَ** ﴾ ولو بإذن منكم ، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ، لأن وجوب ملازمة مسكن الفراق حق الشرع ، ولا يسقط بإسقاط العبد ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك ، فإن خرجت المعتدة لغير ضرورة أو حاجة أثمت ، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو حرقاً لها أن تخرج إلى منزل آخر ، وكذلك ، إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً لا ليلاً ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** ﴾ أي الزنى ومبيِّنة أي متبيِّنة ، والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال ، والأقوال ، وهو الزنى في هذا المقام ، وقيل : البذاء وهو القول القبيح وإطالة اللسان ، فإنه في حكم النشوز ، في إسقاط حقهن ، ﴿ **وَتِلْكَ** ﴾ الأحكام ﴿ **حُدُودُ اللهِ** ﴾ التي عينها لعباده ، والحدُّ : الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ﴿ **وَمَنْ يَتَعَدَّ** ﴾ أي من يتجاوز ﴿ **حُدُودَ اللهِ** ﴾ حدوده المذكورة ، بأن أخلَّ بشيء منها ، على أن الإظهار في حيِّز الإضمار ، لتهويل أمر التعدي ، والإشعار بعلية الحكم في قوله تعالى ﴿ **فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾ أي أضرَّ بها ، قال البقلي ، إن الله حدَّ الحدودَ بأوامره ونواهيه ، لنجاة سُلاَّكها فإذا تجاوزوا عن حدوده ، يسقطون عن طريق الحق ، ويضلون في ظلمات البعد ، وهذا أعظم الظلم على النفوس ، إذ منعوها من وصولها إلى الدرجات والقربى ، قال بعضهم : التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر ، فلابدَّ من الخوف ، أو الرجاء ، أو الحياء ، أو العصمة في علم الله ، فهي أسباب أربعة لا خامس لها ، حافظة من الوقوع فيما لا ينبغي ، فمن ليس له واحد من هذه الأسباب وقع في المعصية وظلم النفس ﴿ **لاَتَدْرِي** ﴾ تعليلٌ لمضمون الشرطية أي فإنك أيها المتعدي لا تدري عاقبة الأمر ﴿ **لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ** ﴾ يوجد في قلبك ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الله ، يقلِّبها كيف يشاء ﴿ **بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ الذي فعلت من التعدي ﴿ **أَمْرَاً** ﴾ يقتضي خلاف ما فعلته ، فيبدِّل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح ، وفي الآية دلالة على كراهة التطليق ثلاثاً بمرة واحدة ، لأن إحداث

الرجعة لا يكون بعد الثلاث ، ففي الثلاث عونٌ للشيطان ، وفي تركها رغم له ، كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه - أي جنوده وأعوانه من الشياطين - فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده الأعظم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلتُ كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيأ ، ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته ، فيدنيه منه ويقول نِعْمَ أنت)[1]أي نعم المضِلُّ أو الشرير أنت الذي يستحق الإكرام ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾ أي شارفهن آخر عدتهن ، وهي مضيُّ ثلاث حيض ، وذلك لأنه لا يمكن الرجعة بعد بلوغهن آخر العدة ، فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل ، لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها ، والأجل : المدة المضروبة للشيء ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ** ﴾ أي فأنتم بالخيار فإن شئتم فراجعوهنَّ ، والرجعة تحصل بالقول ، وكذا بالوطىء واللمس بشهوة عند أبي حنيفة رحمه الله ﴿ **بِمَعْرُوفٍ** ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق ، وفي الحديث (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً ، وألطَفُهم بأهله)[2] ﴿ **أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾ بإيفاء الحق ، واتقاء الضرار ، بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة ﴿ **وَأَشْهِدُوا** ﴾ أي عند الرجعة والفرقة قطعاً للتنازع ، إذ قد تنكر المرأة بعد انقضاء العدة رجعته فيها ، وربما يموت أحدهما بعد الفرقة فيدَّعي الباقي منهما ثبوت الزوجية لأخذ الميراث ، وهذا أمر ندب لا وجوب ﴿ **ذَوَيْ عَدْلٍ** ﴾ أي أشهدوا اثنين ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ أي من المسلمين يكونان عادلين لا فاسقين ، والعدالة هي الاجتناب عن الكبائر كلها ، وعدم الإصرار على الصغائر ، إذ لا يوجد من البشر من هو معصوم سوى الأنبياء عليهم السلام ﴿ **وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ** ﴾ أيها الشهود عند الحاجة خالصة ﴿ **لِلَّهِ** ﴾ وذلك أن يقيموها لا لغرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ودفع الظلم ، فلو شهد لغرض لا لله برىء بها من وبال كتم الشهادة ، لكن لا يثاب عليها لأن الأعمال بالنيات ، والحاصل أن الشهادة أمانة فلابد من تأدية الأمانة كما قال تعالى (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**) فلو كتمها فقد خان ، والخيانة من الكبائر ، دلَّ عليه قوله تعالى (**وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**) ﴿ **ذَلِكُمْ** ﴾ إشارة إلى الحثِّ على الشهادة بأدائها على وجهها من غير تبديل وتغيير ﴿ **يُوعَظُ بِهِ** ﴾ الوعظ : زجرٌ يقترن بتخويف ﴿ **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ إذ هو المنتفع به ، ومن مقتضى الإيمان بالله ، مراعاة حقوق المعبودية والربوبية ، واليوم عرفاً زمان طلوع الشمس إلى غروبها وهذا المعنى غير مراد هنا ، والمراد مطلق الزمان طويلاً كان أو قصيراً ، وذلك الزمان إما محدود وهو زمان الدنيا أو غير محدود وهو زمان الآخرة لتأخره عن يوم الدنيا ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صفات المنافقين برقم / ٢٨١٣ / .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه أبو داود بلفظ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) وجاء في بعض روايات الترمذي بزيادة « وخياركم خياركم لأهله » .

فطَلّق للسنَّة ، لم يضار المعتدَّة ولم يخرجها من مسكنها ﴿ **يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً** ﴾ أي خروجاً وخلاصاً من الغموم والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب ، وقيل : هو عام أي ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر ، يجعل له خروجاً من كل ضيق ، وخلاصاً من عموم الدنيا والآخرة ، وقيل : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عمن طلق امرأته ألفاً ، هل له من مخرج ؟ فقال : لم يتَّق الله فلم يجعل له مخرجاً ، بانت منه بثلاث ، والزيادة إثم في عنقه ، والمخرج على وجهين : أحدهما أن يخرجه من تلك الشدة ، والثاني أن يكرمه بالرضى والصبر ، وأن يكلأهُ ويرعاه فيصير البلاء ولاء ، والمحنة منحة ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** ﴾ أي من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه .

وفي الحديث (من أكثر من الاستغفار ، جعل اللهُ له من كل هَمّ فَرَجاً ، ومن كل ضيق مَخْرجاً ، ورَزَقه من حيث لا يحتسب)[١] وروي أن عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنه سالماً ، فأتى رسول الله فقال أسِرَ ابني ، وشكا إليه الفاقة ، فقال عليه السلام : اتق الله وأكثر من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ، ومعه مائة من الإبل ، غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت[٢] واعلم أن الضيق والرزق يكون دنيوياً وأخروياً ، فمن يتق الله حق التقوى يجعل له مخرجاً من مضار الدارين ، ويرزقه من منافعها ، فإذا قيل : إن أتقى الأتقياء هم الأنبياء والأولياء ، مع أن أكثرهم ابتلي بالمشقة الشديدة والفاقة المديدة كما قال عليه السلام (أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل)[٣] أجيب : بأن ما أصابهم في الدنيا فله غاية حميدة ، ومنفعة عظيمة ، والله عليم حكيم يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ** ﴾ التوكل قطع القلب عن كل علاقة ، والتعلق بالله في جميع الأحوال ﴿ **فَهُوَ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **حَسْبُهُ** ﴾ أي كافي المتوكل في جميع أموره ومعطيه حتى يقول حسبي ، فإن قلت : إذا كان حكم الله في الرزق لا يتغير ، فما معنى التوكل ؟ قلت : معناه أن المتوكل يكون فارغ القلب ساكن الجأش غير كاره لحكم الله ، فلهذا كان التوكل محموداً قال عليه السلام (لو أنكم تتوكَّلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِمَاصاً ، وتروح بِطَاناً)[٤] ومعناه تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون ، وليس في الحديث دلالة على القعود على الكسب ، بل فيه ما يدل على طلب الرزق ، وهو قوله « تغدو وتروح » وإنما التوكل

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٦٩ .

(٢) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري ، ورواها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٥١٤ المختصر .

(٣) الحديث أخرجه البخاري والنسائي وابن ماجه وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٨٧ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند عن عمر مرفوعاً ، وأخرجه الحاكم أيضاً وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٢ .

بعد الحركة في أمر المعاش ، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب في الأرض ، وكان السلف يقولون « اتَّجروا واكتسبوا ، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم ، كان أول ما يأكل دينه ﴿ **إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ** ﴾ بالإضافة أي منفذ أمره ، ومتمٌّ مراده ، وممضي قضائه في خلقه ، فمن توكَّل عليه ، وفمن لم يتوكل عليه ، إلا أن من توكل عليه يُكفِّرْ عنه سيئاته ويعظم له أجراً وقرىء بتنوين بالغٌ ونصب أَمْرَهُ أي يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من الشدة والرخاء ، والفقر والغنى ، والموت والحياة، ونحو ذلك ﴿ **قَدْرَاً** ﴾ أي تقديراً ينتهي إليه ، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه ، ولا يتأتى تغييره ، وفي المفردات تقدير الله الأشياء على وجهين : **أحدهما** بإعطاء القدرة ، **والثاني** أن يجعلها على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص ، حسبما اقتضت الحكمة ، وذلك أن فعل الله ضربان : ضرب أوجده بالفعل أي أنه أبدعه كاملاً دفعةً ، لا يعتريه الفساد إلى أن يشاء أن يفنيه أو يُبَدِّله ، كالسموات وما فيها ، ومنه ما جعل أصوله موجودة بالفعل ، وقدَّره على وجهٍ لا يتأتى غير ما قدره فيه ، كتقديره في النواة أن يثبت منها النخل دون التفاح والزيتون ، وتقدير مني الآدمي أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوان ، وعلى ذلك قوله تعالى (**قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**) والثاني بإعطاء القدرة عليه انتهى . والآية بيان لوجوب التوكل عليه ، وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أنَّ كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقدير الله وتوقيته ، لا يبقى إلا التسليم للقدر ، والتوكل على الله .

وقال سهل رحمه الله : من يكل أموره إلى ربه ، فإن الله يكفيه همَّ الدارين أجمع ، قال الربيع : إن الله قضى على نفسه أن من توكَّل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به أنجاه ، ومن دعاه لبَّاه ، وتصديق ذلك في كتاب الله (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**) (**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضَاً حَسَنَاً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**) (**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**) (**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**) ﴿ **وَاللَّائِي** ﴾ جمع التي ﴿ **يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ** ﴾ لكبرهنَّ ، وقدَّروه بستين سنة فلو رأته بعد ذلك لا يكون حيضاً ، واليأسُ : القنوط ضد الرجاء ، والمحيضُ : الحيضُ وهو في اللغة : مصدر حاضت الأنثى فهي حائض ، وحائضة ، أي خرج الدم من قُبُلِها - يعني فرجها - وفي الشرع : دمٌ ينفضه رحم امرأة بالغة ، لاداءَ بها ولا إياس ﴿ **إِنِ ارْتَبْتُمْ** ﴾ أي شككتم وأشكل عليكم حكمهن ، لانقطاع دمهن بكبر السن ، وجهلتم كيف عدتهن ؟ ﴿ **فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ** ﴾ فقوله واللائي يئسن مبتدأ خبره فعدتهن ، وقوله « إن ارْتَبْتُمْ » اعتراض ، أي ارتبتم فيها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر ﴿ **واللآئي لَمْ يَحِضْنَ** ﴾ أي ما رأين الدم لصغرهن أي فعدتهنَّ أيضاً كذلك ، فحذف ثقة بدلالة ما قبله عليه ، والشابة التي كانت تحيض

فارتفع حيضها بعذر من الأعذار ، قبل بلوغها سن الآيسات ، فعند أبي حنيفة والشافعي لا تنقضي عدتها حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء ، أو تبلغ سن الآيسات ، فتعتد بثلاثة ﴿ وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ ﴾ واحدتها ذات بمعنى صاحبة ، والأحمال جمع حَمل بالفتح والمراد الحبل أي الثقل المحمول في الباطن ، وهو الولد في البطن ، والمعنى وذوات الأحمال من النساء والحبالى منهن ﴿ أَجَلُهُنَّ ﴾ أي منتهى عدتهن ﴿ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ سواء كن مطلقات ، أو متوفىً عنهن أزواجهن ، فلو وضعت المرأة حملها ، بعد طلاق الزوج أو وفاته بلحظة ، انقضت عدتها ، وحلَّت للأزواج ، فكيف بعد ساعة أو يوم أو شهر ؟ وقد نسخ به عموم قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) لتراخي نزوله عن ذلك وقد صح أن « سُبَيعةَ بنتَ الحارثِ الأَسْلَمية » ولدت بعد وفاة زوجها بليال ، فذكرت ذلك لرسول الله عليه السلام ، فقال : قد حللتِ فتزوجي ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ ﴾ في شأن أحكامه وحقوقه ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ أي يسهل عليه أمره ، ويوفقه للخير ، ويعصمه من المعاصي والشر ، بسبب التقوى ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الأحكام ﴿ أَمْرُ اللهِ ﴾ حكمه الشرعي ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ أنزله في القرآن على نبيكم ، لتستعدوا للعمل به ، فإياكم ومخالفته ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ يسترها لرضاه عنه بإتقائه ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ بالمضاعفة ، قال بعضهم : يعطيه أجراً عظيماً ، فالتنكير للتعميم المبني عن التتميم ، قال في برهان القرآن : أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات ، وعدَّ في كل مرة نوعاً من الجزاء ، فقال : أولاً (يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) يخرجه مما دخل فيه من المكروه ، ويهيىء له محبوبه من حيث لا يأمل ، وقال في الثاني (يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) أي يسهل عليه الصعب من أمره ، ويفتح له خيراً من النعماء ، وفي الثالثة وعد عليه الجزاء بأفضل الجزاء ، وهو ما يكون في الآخرة من الأجر والنعماء فقال (وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أي بعض مكان سكناكم والخطاب للمؤمنين المطلّقين ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ أي من وسعكم ومما تطيقونه والوُجْدُ : القدرة والغنى .

قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحدٌ أسكنها في بعض جوانبه ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ ﴾ أي ولا تقصدوا عليهن الضرر في السكنى بأيِّ وجه كان ، ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهنَّ أو يشغل مكانهن أو غير ذلك وتلجئوهن إلى الخروج ، وفيه حث على المروءة والمرحمة ، ودلالة على رعاية الحق السابق حتى يتيسر لها التدارك في أمر المعيشة من تزوج آخر أو غيره ﴿ وَإِنْ كُنَّ ﴾ أي المطلقات ﴿ أُوْلاَتِ حَمْلٍ ﴾ ذوات حبل يعنى حاملة أيَّ حمل كان قريب الوضع أو بعيده ﴿ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن من العدة وتتخلصوا من كلفة الإحصاء ، ويحلُّ

لهن تزوج غيركم ، فالبائن بالطلاق إذا كانت حاملاً لها النفقة والسكنى بالاتفاق ، وأما البائن غير الحامل فتستحق النفقة والسكنى عند أبي حنيفة ، كالحامل إلى أن تنقضي عدتها بالحيض ، أو بالأشهر خلافاً للثلاثة ، وأما المتوفَّى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن من التركة ولا سكنى ، بل تعتد حيث تشاء ، قال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكنى لكل مطلَّقة ، سواء كانت مطلقة بثلاث أو واحدة ، رجعية أو بائنة مادامت في العدة ، أما المطلقة الرجعية فلأنها منكوحة ، وإنما يزول النكاح بمضيّ العدة ، فالمطلقة الرجعية لها النفقة والسكنى بالإجماع ، وأما المبتوتة فعندنا لها النفقة والسكنى مادامت في العدة لقوله تعالى (**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ**) إذ المعنى اسكنوا المعتدات مكاناً من المواضع التي تسكنونها وأنفقوا عليهن في العدة من سعتكم ، لما قرأ ابن مسعود رضي الله عنه (**اسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ وَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ مِنْ وُجْدِكُمْ**) ، وعند الشافعي لها السكنى لهذه الآية ولا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى (**وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ**) إلخ فإن قلت : فإذا كانت كل مطلقة عندكم يجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط في قوله (**وإن كُنَّ أولاَتِ حَمْلٍ**) إلخ ؟ قلتُ : فائدته أن مدة الحمل ربما طالت ، فظن ظانٌّ أن النفقة تسقط ، إذا مضى مقدار عدة الحمل ، فنفى ذلك الوهم كما في الكشاف ﴿ **فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ** ﴾ الرضاع لغة : شربُ اللبن من الضرع ، أو الثدي ، وشريعةً شرب الطفل اللبن من آدمية في وقت مخصوص ، يعني هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنَّ ، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ، وعلاقة النكاح ، فالأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تبرعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ﴿ **فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ على الإرضاع أن طلبن فإن حكمهن في ذلك حكم الأظئار حينئذ ، قال في اللباب : فإن طلقها فلا يجب عليها الإرضاع ، إلا أن لا يقبل الولد ثدي غيرها فيلزمها حينئذ ، فإن اختلفا في الأجرة فإن دعت إلى أجرة المثل وامتنع الأب فالأم أولى بأجر المثل ، إذ لا يجد الأب متبرعة ، وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططاً فالأب أولى به ، فإن أعسر الأب بأجرتها أجبرت على إرضاع ولدها ﴿ **وَائْتَمِرُوا** ﴾ أيها الآباء والأمهات ﴿ **بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ** ﴾ أي تشاوروا ، وحقيقته ليأمر بعضكم بعضاً بجميل في الإرضاع والأجر وهو المسامحة ، ولا يكن من الأب مماكسة ، ولامن الأم معاسرة ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه في وجوب الإشفاق عليه ، والائتمار بمعنى التآمر ، يقال : ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً ﴿ **وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ** ﴾ يقال : تعاسر القوم إذا تحروا تعسير الأمر أي تضايقتم ﴿ **فَسَتُرْضِعُ لَهُ** ﴾ أي للأب كما في الكشاف وهو الموافق لقوله (**فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ**) ﴿ **أُخْرَىٰ** ﴾ أي فستوجد حينئذٍ مرضعة أخرى غير الأم ترضعه ، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك وأنت ملوم ، ولا يخلو عن معاتبة الأب أيضاً حيث أسقط في

الجواب من حيز شرف الخطاب ، مع الإشارة إلى أنه إن ضويقت الأم في الأجر فامتنعت عن الارضاع لذلك ، فلابدمن ارضاع امرأة أخرى وهي أيضاً تطالب الأجر في الأغلب الأكثر ، والأم أشفق وأحنُّ ، فهي به أولى وبما ذكرنا يظهر كمال الارتباط بين الشرط والجزاء ﴿ **لِيُنْفِقْ** ﴾ لام الأمر ﴿ **ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ** ﴾ أي بقدر طاقته ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ أي ضُيِّق وكان بمقدار القوت هذا كقوله تعالى (**عَلَى الْمُوْسِعِ قَدَرُهُ وعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**) ما يليق بحاله مقدَّراً عليه ﴿ **فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ** ﴾ وإن قَلَّ أي لينفق كلُّ واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه ويطيقه ﴿ **لاَيُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ من المال فإنه تعالى « لا يكلف نفساً إلا وسعها » وقد أكد ذلك بالوعد حيث قال ﴿ **سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً** ﴾ أي عاجلاً أو آجلاً إذ كلُّ آت قريب ، فلينتظر المعسر اليسر وفرج الله ، وفيه تطييب لقلب المعسر ، وترغيب له في بذل مجهودِه ، ووعد لفقراء الأزواج بفتح أبواب الرزق عليهم ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ** ﴾ بمعنى كم الخبرية في كونها للتكثير والمعنى وكثير من أهل قرية فهو من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهذه الآية تحذير للناس عن المخالفة في الأحكام المذكورة ، وتأكيد لإيجابها عليهم ﴿ **عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ** ﴾ العتوُّ : النبوُّ عن الطاعة ، وفي القاموس عتا عتواً وعتياً : استكبر وجاوز الحد فهو عات وعُدِّي بـ « عن » لتضمينه معنى الإعراض ، كأنه قيل : أعرضت عن أمر ربها ، وأمر رسل ربها ، بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد ﴿ **فَحَاسَبْنَاهَا حِساباً شَدِيداً** ﴾ أي ناقشناها في الحساب وضيقنا وشددنا عليها في الدنيا ، وأخذناها بدقائق ذنوبها وجرائمها ، بنحو القحط والجوع ، والأمراض والأوجاع ، وتسليط الأعداء عليها وغير ذلك من البلايا ، لترجع إلى الله تعالى ، لأن البلاء كالسوط للسوق ، فلم تفعل ولم ترفع رأساً ، فابتلاها الله بما فوق ذلك كما قال ﴿ **وعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرَاً** ﴾ أي منكراً عظيماً هائلاً لشدته وإيلامه ، فالنكر الأمر الصعب الذي لا يُعرف ، والإنكار ضد العرفان ، وأضاف المحاسبة والتعذيب إلى نفسه مع أن سببهما كان العتو عن أمره وأمر رسله ، لأن الرسل كانوا فانين في الله ، فاتخذوا الله وكيلاً في جميع أمورهم ، ولو بعثوا قبل الرسوخ ربما بطشوا بمن كذبهم وأهلكوه ﴿ **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا** ﴾ أي ضرر كفرها ، وثقل عقوبة معاصيها ﴿ **وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً** ﴾ هائلاً لا خسر وراءه ، فتجارتهم خسارة لا ربح فيها ، لتضييعهم بضاعة العمر والصحة والفراغ ، والخُسْرُ والخسرانُ : انتقاص رأس المال ، ويُنسب إلى الإنسان فيقال خسر فلان ، وإلى الفعل فيقال خسرت تجارته ، ويستعمل في المال والجاه وهو الأكثر ، وفي النفس كالصحة والسلامة ، والعقل والإيمان ﴿ **أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ** ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿ **عَذَاباً شَدِيداً** ﴾ أي قدَّره في علمه على حسب حكمته ، أو هيأ أسبابه في جهنم بحيث لا يوصف كنهه ، فهم أهل الحساب والعذاب في الدنيا والآخرة ، فإن أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ، لعدم رجوعهم عن الكفر ، فعذبوا بعذاب الآخرة أيضاً

﴿ فاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ أي اعتبروا بحال الأمم الماضيين من المنكرين المعاندين ، وما نزل بهم من العذاب والوبال (فاتقوا الله) أي راعوا أوامره ونواهيه ، إن خلصت عقولكم من شوب الوهم ، فإن اللب هو العقل الخالص من شوائب الوهم ، وإذا خلص العقل من الوهم ، والقلب من الهوى كان الإيمان يقينياً فلذلك وصفهم بقوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي الإيمان التحقيقيَّ ، اليقيني العياني الشهودي ، قال بعضهم : (الَّذِينَ آمَنُوا) حقاً وصدقاً ، ويجوز أن يكون صفة كاشفة لا مقيدة ، فإنه لا يليق أن يُعدُّ غير المؤمنين من أولي الألباب ، اللهم إلا أن يراد باللب العقل العاري عن الضعف ، بأي وجه كان من البلادة والبله والجنون وغيرها ، فتخصيص الأمر بالتقوى بالمؤمنين من بينهم لأنهم المنتفعون ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ هو النبي عليه السلام ، كما بينه بأن أبدل منه قوله ﴿ رَسُولاً ﴾ وعبَّر عنه بالذكر ، لمواظبته على تلاوة القرآن ، أو تبليغه والتذكير به ، وعبَّر عن إرساله بالإنزال بطريق الترشيح ، يعني أن رسول الله شبه بالذكر الذي هو القرآن ، لشدة ملابسته به ، فإن إنزال الوحي إليه عليه السلام سبب لإرساله ، وقال بعضهم : إن التقدير قد أنزل الله إليكم ذكراً يعني القرآن ، وأرسل إليكم رسولاً يعني محمداً عليه السلام ، لكنَّ الإيجازَ اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ، وقد دل عليه القرينة وهو قوله أنزل نظيره قوله (علفتها تبناً وماء بارداً) أي وسقيتها ماء بارداً فيكون الوقف في (ذِكْراً) تاماً ، بخلافه إذا كان بدلاً ، وقال القاشاني (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً) أي فرقاناً مشتملاً على ذكر الذات والصفات والأسماء والأفعال والمعاد (رَسُولاً) أي روح القدس الذي أنزله به فأبدل منه بدل الاشتمال لأن الذكر هو إنزاله بالاتصال بالروح النبوي وإلقاء المعاني في القلب ﴿ يَتْلُو ﴾ يقرأ ويعرض ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ يا أولي الألباب ﴿ آيَاتِ اللهِ ﴾ أي القرآن ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي حال كون تلك الآيات مبينات ، ومظهرات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ، أو مبينات بالفتح بمعنى واضحات لاخفاء في معانيها وفي إعجازها عند البلغاء المنصفين ﴿ لِيُخْرِجَ ﴾ الرسول ويُخلِّص ، أو الله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي المؤمنين بعد إنزاله ، وإلا فإخراجُ الموصوفين بالإيمان من الكفر لايمكن ، إذ لا كفر فيهم حتى يخرجوا منه ، ولم يقل ليخرجكم إظهاراً لشرف الإيمان والعمل الصالح ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، ومن الأنس بغير الله إلى الأنس بالله ، على طبقاتهم ودرجاتهم في السعي والاجتهاد بعناية الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ خالصاً من الرياء ، والتصنع ، والغرض ، ذكرهما تنشيطاً ، وترغيباً إلى غير أهلهما لهما ، قال بعض الكبار : لو كان الإيمان بذاته يعطي مكارم الأخلاق ، لم يقل للمؤمن افعل كذا ، واترك كذا وقد توجد مكارم الأخلاق بدونه ، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي من تحت قصورها أو أشجارها ﴿ الأَنْهَارُ ﴾ الأربعة المذكورة في

سورة محمد عليه السلام ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقيمين في تلك الجنات ، دائمين فيها ﴿ أَبَداً ﴾ دائماً غير منقطع ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله المؤمنين من الثواب ، لأن الجملة الخبرية إذا لم يحصل منها فائدة الخبر ولا لازمُها ، تحمل على التعجب إذا اقتضاهُ المقام ، كأنه قيل : ما أحسن رزقهم الذي رزقهم الله وما أعظمه ؟! ﴿ اللهُ الَّذِي ﴾ مبتدأ وخبر أي الملك القادر الذي ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ نكرَّها للتعظيم المفيد لكمال قدرة صانعها ، ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ ﴾ أي وخلق من الأرض ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي مثل السموات السبع في العدد ، واختلف في كيفية طبقات الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وقال الضحاك : مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق وفرجة أي سواء كان بالبحار أو بغيرها بخلاف السموات ، قال القرطبي : والأول الأصح لأن الأخبار دالة عليه ، كما روى البخاري وغيره ، من أن كعباً حلف بالذي فلق البحر لموسى أن صهيباً حدثه أن النبي عليه السلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها (اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أَذْرَيْنَ ، أسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير من فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر من فيها)[1]وروى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي لله عنه قال : (بينما النبي عليه السلام جالس ، إذْ أتى عليهم سحاب ، فقال : هل تدرون ما هذا العنان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يَدْعونه ، ثم قال : هل تدرون ما الذي فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الرقيعُ سقف محفوظ ، وبحر مكفوف ، ثم قال : هل تدرون ما بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال بينكم وبينها خمسمائة عام ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم ، قال : فإن فوق ذلك سماءين بُعْدُ كل سماء ما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم ، قال : إن فوق ذلك العرش ..، وبينه وبين السماء كبعد ما بين سماءين ، ثم قال : هل تدرون ما تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : الأرض وتحتها أرض أخرى بينها خمسمائة عاماً ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو أنكم أدليتم بحبل لهبطتم على الله ، ثم قرأ عليه السلام (**هَوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ ، والبَاطِنُ ، وهَوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلَيمٌ**)[2] وفي المقاصد الحسنة (لو أنكم أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله) فسَّره بعض أهل العلم بمعنى

---

(١) الحديث أخرجه النسائي وابن السني ، وانظر المنتقى المختار من كتاب الأذكار ص ٢٠٨ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم / ٣٢٩٤ / وقال : هذا حديث غريب ، ورواه أحمد في المسند بنحوه ، قال الترمذي : وقراءة النبي ﷺ الآية تدل على أنه أراد : لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، وهو على عرشه كما وصف نفسه في كتابه ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٢ .

هبط على علم الله ، وقدرته وسلطانه ، وعلمُ الله وقدرته وسلطانه في كل مكان ، وهو على العرش كما وصف في كتابه انتهى ، قال شيخنا معناه أن علم الله شمل جميع الأقطار ، فالتقدير لهبط على علم الله ، والله تعالى منزه عن الخلود في الأماكن ، فالله سبحانه كان قبل أن يحدث الأماكن[1] انتهى كلام المقاصد الحسنة وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (**وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**) قال (سبع أرضيين ، في كل أرض نبيٌّ كنبيكم ، وآدم كآدمكم ، ونوح كنوحكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، وعيسى كعيساكم) ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ، قال البيهقي : إسناده صحيح لكنه شاذ بالمرة ، ولا يلزم في صحة الإسناد صحة المتن ، فقد يكون صحيح الإسناد وفيه ما يمنع صحته ، فهو ضعيف[2].

﴿ **يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ** ﴾ أي أمر الله ، واللام عوض عن المضاف إليه ﴿ **بَيْنَهُنَّ** ﴾ أي بين السموات السبع ، والأرضين السبع ، والظاهر أن الجملة استئنافية للإخبار عن شمول جريان حكمه ، ونفوذ أمره في العلويات والسفليات كلها ، فالأمر عند الأكثرين القضاء والقدر ، بمعنى يجري قضاؤه وينفذ حكمه بين السماء السابعة ، التي هي أعلى السموات وبين الأرض السابعة التي هي أسفل الأرضين ﴿ **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذُكر ، قادر على كل شيء ، ومنه البعث للحساب والجزاء ، فتطيعوا أمره ، وتقبلوا حكمه ، وتستعدوا لكسب السعادة والخلاص من الشقاوة ﴿ **وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً** ﴾ كما أحاط به قدرة ، لاستحالة صدور الأفاعيل المذكور ممن ليس كذلك ، والإحاطة : العلمُ البالغ ، والعامل في اللام بيان ما ذكر من الخلق ، وتنزل الأمر ، أي أوحى ذلك ، وبيَّنه ، لتعلموا بما ذكر من الأمور التي تشاهدونها ، والتي تتلقونها من الوحي ، من عجائب المصنوعات ، أنه لا يخرج من علمه وقدرته شيء ما أصلاً ، وقولُه (**عِلْماً**) نصب على التمييز أي أحاط علمه بكل شيء من المعلومات المرئية وغير المرئية .

تمت سورة الطلاق بعون الله الملك الخلاق

• • •

(١) الله سبحانه وتعالى فوق عرشه كما أخبر فله جل وعلا جهة العلوّ المطلق ، ولا يحتاج هذا إلى الحلول في المكان أو التحيز في الجهة كما نقل عن السخاوي في المقاصد الحسنة ، بل هو سبحانه كما قال ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

(٢) لم يثبت بهذا القول سند صحيحٌ يعتدُّ به ، ولذلك لم يأخذ به المحدِّثون ، والصحيح الراجح من أقوال العلماء أنه ليس هناك إلا آدم أبو البشر عليه السلام وذريته الذين عمروا الكرة الأرضية .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ أصل « لم » لما والاستفهام لإنكار التحريم ، روي أن النبي عليه السلام خلا بسريته « مارية القبطية » التي أهداها له المقوقس ملك مصر ، في يوم حفصة رضي الله عنها ونوبتها وكانت غائبة ، وعلمت بذلك حفصة رضي الله عنها ، فقال لها : اكتمي عليَّ ، ولا تعلمي عائشة فقد حرَّمتُ مارية على نفسي ، وأبشِّرك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت حفصة عائشة رضي الله عنها ولم تكتم ، وكانتا متصادقتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي عليه السلام[1] ، قال السهيلي رحمه الله : أمرها ألا تخبر عائشة ولا سائر أزواجه بما رأت ، وكانت رأته في بيت مارية القبطية أم ولده إبراهيم ، المتوفىَّ في الثدي وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، فخشي أن يلحقهن بذلك غيرة ، وأسرَّ الحديث إلى حفصة فأفشته ، والراجحُ أنه خلا بها في يوم حفصة ، كما قال بعض أهل التفسير « كان رسول الله عليه السلام يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، استأذنت رسول الله في زيارة أبيها ، فأذن لها ، فلما خرجت أرسل رسول الله إلى أم ولده مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها ، فلما رجعتْ حفصةُ وعلمتْ بالأمر ، عاتبت رسول الله وقالت : إنما أذنتَ لي من أجل هذا ، أدخلت أمتك بيتي ، ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي ، فلو رأيت لي حرمة وحقاً ما كنتَ تصنع هذا بأمرأة منهن ، فقال رسول الله : أليست هي جاريتي أحلها الله لي ؟ اسكتي فهي حرام عليَّ ، ألتمس بذلك رضاك ، فلا تخبري بهذا امرأة منهن ، فلما خرج رسول الله قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ، فقالت : ألا أبشرك إن رسول الله قد حرَّم عليه أمته مارية ، وقد أراحنا الله منها ، وأخبرت عائشة بما رأتْ فطلَّقها رسول الله بطريق الجزاء على إفشاء سره ، واعتزل نساءه ، ومكث لا يدخل عليهن شهراً من شدة مؤاخذته عليهن ، حتى نزلت الآية ، ودخل عمر رضي الله عنه على بنته حفصة وهي تبكي ، فقال : أطلقكن رسول الله ؟ فقالت : لا أدري هو ذا معتزلاً في هذه المشربة ـ أي الغرفة والعلية كما في القاموس ـ قال عمر : فأتيته عليه السلام فدخلت وسلمت عليه ، فإذا هو متكيء على رمل حصير ، قد أثَّر في جنبه ، فقلت : أطلَّقتَ نساءك يا رسول الله ؟ فقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، وطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فتبسم رسول الله ، وقال

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٨ / ١٠١ والرواية أخرجها الدار قطني عن ابن عباس ، وانظر أسباب النزول للسيوطي ص ٢٢٣ ومختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٥١٩ .

عمر للنبي عليه السلام لا تكترث بأمر نسائك ، واللهُ معك وأبو بكر معك ، وأنا معك ، فنزلت الآية موافقة لقول عمر » قالت عائشة رضي الله عنها لما مضت تسع وعشرون ليلة دخل عليَّ رسول الله فقلت يا رسول الله أنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً ، وإنك قد دخلت في تسعة وعشرين أعدُّهن ؟ فقال : إن الشهر تسع وعشرون ، وكان ذلك الشهر كذلك ، ونزل جبريل فقال لرسول الله عن أمر الله راجعْ حفصة ، فإنها صوَّامة قوَّامة ، وإنها لمن نسائك في الجنة[1] وكان تحته عليه السلام يومئذ تسع نسوة ومعنى الآية : لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين وتمتنع من الانتفاع به ، مع اعتقاد كونه حلالاً لك ؟ لأن اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحل الله مما لا يتصور من عوام المؤمنين ، فكيف من الأنبياء ؟ ﴿ **تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ** ﴾ المرضاة مصدر كالرضى أي حال كونك مبتغياً وطالباً لرضى أزواجك ، والحال أنهن أحق بابتغاء رضاك منك ، فإنما فضيلتهن بك ، فالإنكارُ وارد على مجموع القيد والمقيد دفعة واحدة ، فمجموع الابتغاء والتحريم منكر ، ونظيره قوله تعالى (**لاَتَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً**) ﴿ **وَاللهُ غَفُورٌ** ﴾ مبالغ في الغفران ، قد غفر لك وستر ما فعلت من التحريم ، لأن الامتناع من الانتفاع بإحسان المولى الكريم ، يشبه عدم قبول إحسانه ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك به ، وإنما عاتبك على عصمتك ، قال في كشف الأسرار : هذا أشدُّ ما عوتب به رسول الله في القرآن ، وقال البقلي ، أدَّبَ الله نبيه أن لا يستبد برأيه ، ويتَّبع ما يوحى إليه ، كما قال بعض المشايخ في قوله (**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**) أن المراد به الوحي الذي يوحى به إليه ، لا مايراه في رأيه ، فإن الله قد عاتبه لمَّا حرم على نفسه ما حرَّم في قصة عائشة وحفصة ، فلو كان الدين بالرأي ، لكان رأي رسول الله أولى من كل رأي ﴿ **قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ** ﴾ الفرض هنا بمعنى الشرع والتبيين ، كما دل عليه « لكم » فإن فرض بمعنى أوجب إنما يتعدى بعلى ، والتحِلَّة مصدر حلَّل بمعنى التحليل أصله تحللة كتكرمة وتعِلَّة بمعنى التكريم والتعليل ، والمراد تحليل اليمين ، كأن اليمين عقدٌ ، والكفارة أي فعل ما يوجب الحنث تحليلٌ ، وتحلَّل في يمينه استثنى وقال « إن شاء الله » وقوله عليه السلام (لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار ، إلا تحلة القسم)[2] أي قدر ما يقول « إن شاء الله » كما في المفردات أو قدر ما يبر الله قسمه فيه بقوله (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**) قال في تاج المصادر قوله : فعلتُه تحلَّة القسم أي لم أفعله إلا بقدر ما حللَّت به يميني أن لا أفعله ولم أبالغ ، ومعنى الآية : شرع الله لكم تحليل أيمانكم ، وبيَّن لكم ما تنحل به عقدتها من الكفارة ، قال في الهداية : ومن حرم على نفسه شيئاً مما يملكه ، لم يصر محرماً وعليه إن

---

(١) حديث (طلق رسول الله حفصة فقيل له : راجعها فإنها صوَّامة قوامة ..) أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس ، وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٥١٢ المختصر .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ولوطأ ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٩٠ .

استباحه وأقدم عليه كفارة ، فتحريم الحلال يمين عند أبي حنيفة رحمه الله ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه ، فإذا حرم طعاماً فقد حَلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، قال ابن عباس رضي الله عنها : في التحريم هو اليمين فلو قال لامرأته : أنت عليَّ حرام فلو نوى الطلاق طلقت ، وإن نوى اليمين كان يميناً ، وإن أراد الكذب لم يقع شيء ، وكذا لو حرم طعاماً على نفسه ونوى اليمين كان يميناً ، خلافاً للشافعي ، وقال بعضهم : لم يثبت عن رسول الله عليه السلام أنه قال لما أحله الله : هو حرام عليَّ ، وإنما امتنع عن مارية ليمين تقدمت منه ، وهو قوله والله لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له لم تحرم ما أحل الله لك ؟ أي لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني أقدم على ما حلفتَ عليه ، وكَفِّرْ عن يمينك ، وظاهر قوله تعالى (**قد فرض الله لكم تحلة أيمانِكم**) أنه كانت منه يمين ، فإن قلت : هل كفَّر رسول الله لذلك ؟ قلت قال الحسن البصري : إنه لم يكفر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه اعتق رقبة في تحريم مارية وعاودها ﴿ **وَاللهُ مَوْلاكُمْ** ﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿ **وَهُوَ العَلِيمُ** ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه ، فلا يأمركم ولا ينهاكم ، إلا حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَبِيُّ** ﴾ الإسرار خلاف الإعلان ويستعمل في الأعيان والمعاني ، والسر هو الحديث المكتتم في النفس أي واذكر أيها السامع وقت إسرار النبي وإخفائه على وجه التأنيب والعتب ، فالخطاب إن كان له عليه السلام ، فالإظهار في مقام الإضمار بأن قيل : وإذْ أسررتَ للتعظيم بإيراد وصف ينبيء عن وجوب رعاية حرمته ، ولزوم حماية حرمه عما يكرهه ، وإن كان لغيره عموماً فذكرُه بوصف النبي ، للإشعار بصدقه في دعوى النبوة ﴿ **إِلَىَ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ** ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها تزوجها النبي عليه السلام في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة ﴿ **حَدِيثاً** ﴾ المراد حديث تحريم مارية أو أمر الخلافة ﴿ **فَلَمّا نبَّأَتْ بِهِ** ﴾ أي أخبرت حفصة صاحبتها عائشة ، بالحديث الذي أسرَّه إليها رسو ل الله ﷺ ، وأفشته إليه ﴿ **وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ** ﴾ أي أطلع الله النبي على إفشاء حفصة ذلك الحديث على لسان جبريل ﴿ **عَرَّفَ** ﴾ النبيُّ حفصةَ ﴿ **بَعْضَهُ** ﴾ أي بعض الحديث الذي أفشته إلى صاحبتها على طريق العتاب ، بأن قال لها : ألم أك أمرتك أن تكتمي سري ، ولا تبديه لأحد !! وهو حديث الإمامة ، روي أنه عليه السلام لما عاتبها قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله بها أباها ﴿ **وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ** ﴾ أي عن تعريف بعض ، تكرماً وهو حديث مارية ، وقال بعضهم : عرَّف تحريم الأمة وأعرض عن تعريف أمر الخلافة ، كراهة أن ينتشر ذلك في الناس ، وتكرماً منه وحلماً ، وفيه حثٌّ على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب ، فإنه صفة الكرام ، قال الحسن البصري : ما استقصى كريم قط ، وقال بعضهم : ما زال التغافل من فعل الكرام ﴿ **فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ** ﴾ أي أخبر النبي حفصة بالحديث الذي أفشته ، أظهره الله عليه من أنها أفشت سره

﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ من أخبرك عني هذا ؟ يعني إفشاءها للحديث ، ظنت أن عائشة أخبرته ، وفيه تعجب واستبعاد من إخبار عائشة بذلك ، لأنه أوصتها بالكتم ، ولم تقل (مَنْ نَبَّأَكَ) ليوافق ما قبله ، للتفنن ﴿ قال ﴾ النبي عليه السلام ﴿ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، فسكتت وسلَّمت ، و « العَلِيمُ » هو والعالم ، والعلاَّم ، من أسمائه سبحانه ، ومِنْ أدب مَنْ علم أنه سبحانه عالم بكل شيء ، حتى بخطرات الضمائر ، ووساوس الخواطر ، أن يستحي منه ، ويكف عن معاصيه ، ولا يغتر بجميل ستره ، ويخشى بغتات قهره ، والخبير بمعنى العليم ، وقال الإمام الغزالي قدس سره : إذا اعتبر العلم المطلق فهو العليم مطلقاً ، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير ، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد ، وإذا علم العبد أنه تعالى خبير بأفعاله ، مطلع على سِرِّه ، علم أنه تعالى أحصى عليه جميع ما عمله ، أو أخفى في عمله ، وإن كان هو قد نسيه ، فيخجل خجلاً يكاد يهلكه ، حكي أن رجلاً تفكر يوماً ، فقال عمري كذا وكذا سنة ، يكون كذا وكذا شهراً ، يكون منها كذا وكذا يوماً ، فبلغ عمره من الأيام ألوفاً كثيرة ، فقال : لو لم أعص الله كل يوم إلا معصية واحدة ، لكان في ديوان عملي كذا وكذا ألف معصية ، وأني في كل يوم عملت كثيراً من المعاصي ، ثم صاح صيحة خوفاً من عذاب الله كاد أن يفارق الحياة ، فانظر إلى هذه النفوس الطاهرة كيف أدَّبها الإسلام !؟ ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى الله ﴾ خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنها ، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الخطاب ، لكن العتاب يكون للأولياء ، كما أن العقاب يكون للأعداء كما قيل :

إِذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَليسَ وُدٌّ * وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ

ففيه إرادة خير لحفصة وعائشة ، وإرشادهما إلى ما هو أنفع لهما ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الفاء للتعليل كما في قولك : اعبدْ ربك فالعبادة حقٌّ ، وإلا فالجزاء يجب أن يكون مرتباً على الشرط مسبباً عنه ، وصفوُّ قلبيهما كان سابقاً على الشرط ، وكذا الكلام في (وإِنْ تَظَاهَرَا) إلخ والمعنى فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، من قبل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالفة رسول الله وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، من صغا يصغو صغوا : مال ، وأصغى إليه مال بسمعه قال الشاعر :

تُصغِي القُلُوبُ إلى أَغَرَّ مُبَارك * مِنْ آلِ عَبَّاسِ بن عَبْدِ المُطَّلِبْ

وجمع القلوب لئلا يجمع بين ثنيتين في كلمة ، فراراً من اجتماع المتجانسين ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ بإسقاط إحدى التاءين أي تتعاونا على النبي عليه السلام ، بما يسوءه من الإفراط في الغيرة ، وإفشاء سره ، وكانت كل منكما ظهراً لصاحبتها فيه ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى فلم يعدم النبي عليه السلام من يظاهره ، فإن الله هو ناصره ، وجبريل رئيس الملائكة المقربين ،

ومن صلح من المؤمنين أتباعُه وأعوانه ، .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد بصالح المؤمنين : أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قال في الإرشاد : هو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة ، فإنه جمع بين الظهير المعنوي ، والظهير الصوري ، كيف لا ، وإن جبريل ظهيره ، ويؤيده بالتأييدات الإلهية ، وهما وزيراه في تدبير أمور الرسالة ، ومظاهرتها له عليه السلام ، أشد تأثيراً في قلوب بنتيها وتوهيناً لأمرهما ، فكان حقيقياً بالتقديم وعن بعضهم : أن المراد بصالح المؤمنين الأصحاب أو خيارهم وقال السيهلي رحمه الله : لفظ الآية عام ، فالأولى حملها على العموم ، روي أن رجلاً قال لإبراهيم بن أدهم : إن الناس يقولون لي : صالح ، فلم أعرف أني صالح ، فقال : اعرض أعمالك في السر على الصالحين ، فإن قبلوها واستحسنوها ، فاعلم أنك صالح ، وإلا فلا ، وهذا من كلام الحكمة ﴿ **وَالْمَلاَئِكَةُ** ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿ **بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ أي بعد نصرة الله ، وروح القدس الأفخم ، وصالح المؤمنين ، وفيه تعظيم لنصرتهم لأنها من الخوارق ، كما وقعت في بدر ، ولا يلزم منه أفضلية الملائكة على البشر ﴿ **ظَهِيرٌ** ﴾ أي فوج مظاهر له معين ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه ، فما ذا يفيد تظاهر امرأتين ، على من هؤلاء ظهراؤه ؟ وجبريل داخل في عموم الملائكة ، ولا يخفى أن نصرة جميع الملائكة ، ، وفيهم جبريل ، أقوى من نصرة جبريل وحده ، فكأنه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين : وسائرُ الملائكة بعد ذلك ظهير له عليه السلام ، إيذاناً بعلو رتبة مظاهرتهم ، وبعد منزلتها ، وجبراً لفصلها عن مظاهرة جبريل ، قال بعضهم : لعل ذكر غير الله ـ مع أن الإخبار بكونه تعالى مولاه كاف في تهديدهما ـ لتذكير كمال رفعة شأن النبي عليه السلام عند الله ، وعند الناس ، وعند الملائكة أجمعين ، يقول الفقير : هذا ما قالوا ، والظاهر أن الله تعالى مع كفاية نصرته ، ذكر بعد نفسه من كان أقوى في نصرته عليه السلام من المخلوقات ، لكون المقام مقام التظاهر ، لكون عائشة وحفصة متظاهرتين ، وزاد في الظهير لكون المقام مقام التهديد أيضاً ، وقدم جبريل على الصلحاء ، لكونه أول نصير له عليه السلام من المخلوقات ، وسفيراً بينه وبين الله تعالى ، وقدم الصلحاء على الملائكة ، لفضلهم عليهم في باب النصرة ، لأن نصرة الملائكة نصرة بالفعل ، ونصرة الصلحاء نصرة بالفعل وبالهمة وهي أشد ﴿ **عَسَى رَبُّهُ** ﴾ يعني النبي عليه السلام ﴿ **إِنْ طَلَّقَكُنَّ** ﴾ وهو شرط معترض بين اسم عسى وخبرها ﴿ **أَنْ يُبْدِلَهُ** ﴾ أي يعطيه عليه السلام بدلكن ﴿ **أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ** ﴾ لما عاتبهما بأنه قد صغت قلوبكما ، وذلك يوجب التوبة ، شرع في تخويفهما ، بأن ذكر لهما أنه عليه السلام يحتمل أن يطلقكما ، ثم إنه إن طلقكما لا يعود ضرر ذلك إلا إليكما ، لأنه يبدله أزواجاً خيراً منكما ، وليس في الآية ما يدل على أنه عليه السلام لم يطلق حفصة ، فإن تعليق الطلاق للكل لا ينافي تطليق واحدة ، وكان الله عالماً بأنه عليه السلام لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن طلقهن أبدله

خيراً منهن ، تخويفاً لهن ، كقوله تعالى (**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمَاً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**) فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم ، لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب محمد عليه السلام ﴿ **مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ** ﴾ مقرّاتٍ باللسان ، مخلصات بالجَنَانِ ، فليس من قبيل التكرار ، أو منقادات بالجوارح ، مصدقات بالقلوب ﴿ **قَانِتَاتٍ** ﴾ مطيعات مواظبات على الطاعة ﴿ **تَائِبَاتٍ** ﴾ من الذنوب ﴿ **عَابِدَاتٍ** ﴾ متعبدات ﴿ **سَائِحَاتٍ** ﴾ صائمات ، سُمِّي الصائم سائحاً ، لأنه يسيح في النهار بلا زاد ، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه ، فشبه به الصائم ، أو مهاجرات من مكة إلى المدينة ، إذ في الهجرة مزيد شرف ليس في غيرها ﴿ **ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً** ﴾ الثيب : المرأة المدخول بها ، يستوي فيه المذكر والمؤنث ، من ثاب إذا رجع ، سميت به المرأة لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام بها ، وإلى غيره إن فارقها ، وسَّط بينها العاطف دون غيرهما ، لتنافيهما وعدم اجتماعهما في ذاتٍ واحدة بخلاف سائر الصفات فكأنه قيل : أزواجاً خيراً منكن ، متصفات بهذه الصفات المذكورة المحمودة ، كائنات بعضها ثيبات وبعضها أبكاراً وهذا هو السرُّ في إيراد الواو الواصلة ، دون » أو » الفاصلة ، لأنها توهم أن الكل ثيبات أو كلهنَّ أبكار .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ أمر من الوقاية بمعنى الحفظ والحماية والصيانة ، والمعنى احفظوا وأبعدوا أنفسكم بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ﴿ **وَأَهْلِيكُمْ** ﴾ بالنصح والتأديب والتعليم ، وهو كل من في عيال الرجل من المرأة ، والولد ، والأخ ، والأخت ، والعم ، وابنه ، والخادم ، ودلت الآية على وجوب الأمر بالمعروف للأقرب ، وفي الحديث (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[1] وهو من الرعاية بمعنى الحفظ ، يعني كلكم ملتزم بحفظ ما يطلب به من العدل إن كان ولياً ، ومن عدم الخيانة إن كان مولًّىً عليه ، وكلكم مسئول عما التزم حفظه يوم القيامة ، فالامام على الناس راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، والكل مسئول وقيل : أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله وخص الأهلين بالنصيحة مع أن حكم الأجانب كحكمهم في ذلك لأن الاقارب أولى بالنصيحة لقربهم كما قال تعالى (**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**) وقال تعالى (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**) ولأن شرائط الأمر والنهي قد لاتوجد في حق الأجانب ، بخلاف الأقارب ، لاسيما الأهل فإن الرجل سلطان أهله ﴿ **نَاراً** ﴾ نوعاً من النار ﴿ **وَقُودُهَا** ﴾ ما تُوقد به تلك النار يعني حطبها ، فالوَقُودُ بالفتح اسم لما توقد به النار من الحطب وغيره ، والوقود بالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿ **النَّاسُ** ﴾ كفار الإنس والجن ﴿ **وَالْحِجَارَةُ** ﴾ أي تتقد بها أيضاً اتقاد غيرها بالحطب ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد في المسند ٥ / ٣٨ بتمامه ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠ .

ففيه بيان لغاية إحراقها ، وشدة قوتها ، فإن اتقاد النار بالحجارة مكان الحطب من الشجر يكون من زيادة حرها ، ولذلك قال عليه السلام (ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم)[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي حجارة الكبريت ، وهي أشد الأشياء حراً إذ أوقد عليها ، ولها سرعة الاتقاد ، ونتن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاقِ بالأبدان ، فيكون العذاب بها أشد ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على تلك النار العظيمة ﴿ مَلاَئِكَةٌ ﴾ تلي أمرها ، وتعذيب أهلها وهم الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿ غِلاَظٌ ﴾ غلاظ القلوب ، جمع غليظ بمعنى خشن ، خال قلبه عن الشفقة والرحمة ﴿ شِدَادٌ ﴾ شداد القوى ، جمع شديد بمعنى القوي ، لأنهم أقوياء لايعجزون عن الانتقام من أعداء الله ، إذا استرحموا ، لأنهم خُلِقُوا من الغضب ، وجبلوا على القهر ، لا لذة لهم إلا فيه ، فمقتضى جِبلَّتهم تعذيب الخلق بلا مرحمة ، كما أن مقتضى الحيوان الأكل والشرب ، وما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، أو كما بين المشرق والمغرب ، يضرب أحدهم بمقمعته ضربة واحدة سبعين ألفاً فيهوون في النار ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ أي أمره في عقوبة الكفار وغيرها ، أو فيما أمرهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي يؤدُّون ما يؤمرون به من غير تثاقل وتوان ، أو تأخير وزيادة ونقصان ، قال بعض الكبار : في هذه الآية دليلٌ على عصمة جميع الملائكة ، وذلك لأنهم عقول مجردة ، لا شهوة فيهم ، مطيعون بالذات بخلاف البشر ، وفيها دليل أيضاً على أنه لا نهي عند هؤلاء الملائكة فلا عبادة للنهي عندهم ، قال الكرماني في شرح البخاري : إن قلت التَّركُ أيضاً عمل لأن الأصح أن الترك كفُّ النفس ، فيحتاج إلى النية ، قلت : نعم إذا كان المقصود امتثال أمر الشارع ، وتحصيل الثواب ، أما في إسقاط العقاب فلا ، فالتارك للزنى يحتاج فيه لتحصيل الثواب إلى النية وما اشتهر إن التروك لا تحتاج إليها يريدون به في الإسقاط ، يعنى لو أريد بالتروك تحصيل الثواب وامتثالاً أمر الشارع ، لابد فيها من قصد الترك ، امتثالاً لأمر الشارع ، فتارك الزنى إن قصد تركه امتثالاً لأمر الله يُثاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي يقال لهم عند إدخال الملائكة إياهم النار ﴿ لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ ﴾ أي في هذا اليوم ، يقال اعتذرت إلى فلان من جرمي ، قال الراغب : العذر تحرِّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه ، وذلك ثلاثة أضرب : أن يقول لم أفعل ، أو يقول فعلت لأجل ذلك ، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً ، أو يقول فعلتُ ولا أعود ونحو ذلك ، وهذا الثالث هو التوبة ، فكل توبة عذر ، وليس كل عذر توبة ، واعتذرت إليه أتيت بعذر ، وعذرته قبلت عذره ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي فلا عذر لكم قطعاً ، وهذا النهي لهم إن كان قبل مجيء الاعتذار منهم فيوافق ظاهر قوله تعالى (وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُوْنَ) وإن كان بعده فيؤول هذا

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والطبراني والترمذي في صفة جهنم ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٢ .

القول ، ويقال : يؤذن لهم أن يتموا اعتذارهم ولا يسمع إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ التوبة أبلغ وجوه الاعتذار بأن يقول : فعلتُ وأسأتُ ، وفي الشرع ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ، فمتى اجتمع هذه الأربعة فقد كملت شرائط التوبة ، والنصوح فَعُول من أبنية المبالغة ، كقولهم رجل صَبُور وشكور ، أي بالغة في النصح وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة ، فيأتون بها على طريقتها ، وذلك أن يتوبوا من القبائح لقبحها نادمين عليها ، مغتّين أشد الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح ، إلا أن يعود اللبن في الضرع ، وكذ لو حُزُّوا بالسيف وأُحرقوا بالنار ، موطِّنين أنفسهم على ذلك ، بحيث لا يلويهم عنه صارف أصلاً ، وعن علي رضي الله عنه أنه سمع أعرابياً يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبةُ الكذابين ، قال : وما التوبة قال إن التوبة يجمعها ستة أشياء : الندامة على الذنوب ، وللفرائض الإعادة أي القضاء صلاة أو صوماً أو زكاة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية .

وقيل (نَصُوحًا) أي خالصة من قولهم عسل ناصح ، إذا خلص من الشمع ، شبَّه التوبة في خلوصها بذلك ، وقال ذو النون المصري : التوبة إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب ، والخوف من الوقوع فيها ، وهجرن إخوان السوء ، ومجالسة أهل الجنة وفي الحديث (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة)[1] وهي أي التوبة واجبة على الفور ، لما في التأخير من الإصرار على المحرم ، وهو يجعل الصغيرة كبيرة ، وعلامة قبول التوبة أن لا يذكره الله ذنبه ، لأن التوبة لا تبقي للذنب وجوداً ، فمتى ذكر التائب ذنبه فتوبته معلولة ، ، وقد تكون التوبة مقبولة عند الله ، ومع ذلك فلا تدفع عن العاصي العذاب ، كما لو تاب السارق لا ترفع توبته عنه حد القطع ، وفي حديث ماعز كفاية ، فإنه عليه السلام قال في حقه (إنه تاب توبة لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم)[2] ومع ذلك فلم تدفع توبته عنه الحدَّ ، بل أمر عليه السلام برجمه فرجم ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ يسترها بل يمحوها ويبدلها حسنات ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وعسى ورد : صيغة الإطماع والترجّي للجري على سنن الكبرياء ، فإن الملوك يجيبون بلعل وعسى ، ويقع ذلك موقع القطع ، والإشعار بأنه تفضل ، والتوبة غير موجبة له ، وإن العبد ينبغي أن يكون بين

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن الأغر بن يسار المزني ، وروي قريباً منه في قصة الغامدية .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود والترمذي ، ورواه الشيخان بأوسع من هذا وانظر جمع الفوائد ١ / ٧٤٩ .

خوف ورجاء ، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة ﴿ **يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ** ﴾ يخزي إما من الخزي وهو الفضيحة فيكون تعريضاً للكفرة الذين قال الله تعالى فيهم (**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**) أو من الخزاية بمعنى الحياء والخجل ، وهو الأنسب بالنظر إلى شأن الرسول ، والأولى العموم لكل خزي يكون سبباً من الأسباب ، من الحساب ، والكتاب ، والعقاب ، وغيرها ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ﴾ أي لا يخزي الله معه الذين آمنوا وذلك بسوء الحساب ، والتعيير والعتاب ، وذُلِّ الحجاب ، فيحاسبهم حساباً يسيراً ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق ، واستحمادٌ إلى المؤمنين ، على أنه عصمهم من مثل حالهم ، والمراد بالإيمان هو الكامل حينئذ ، حتى لا يلزم أن لا يدخل عصاة المؤمنين النار ﴿ **نُورُهُمْ** ﴾ أي نور إيمانهم ، وطاعتهم على الصراط بمنزلة شعاع الشمس ﴿ **يَسْعَى** ﴾ السعيُ : المشي القوي السريع ﴿ **بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ أي يضيء بين أيديهم يعني قُدَّامهم ﴿ **وَبِأَيْمَانِهِمْ** ﴾ أي وعن أيمانهم وشمائلهم ، على وجه الإضمار يعني جهة إيمانهم وشمائلهم ، أو عن جميع جهاتهم ، إنما اكتفى بذكرها لأنها أشرف الجهات ، ومن أدعيته عليه السلام (اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعلني نوراً)[1] وقال بعضهم : تخصيص الأيدي والأيمان ، لأن أرباب السعادة يؤتون صحائف أعمالهم منها ، كما أن أصحاب الشقاوة يؤتون صحفهم من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فيكون ذلك علامة لذلك ، وقائداً على الصراط إلى دخول الجنة ، زينة لهم فيها ﴿ **يَقُولُونَ** ﴾ أي يقول المؤمنون إذا طفيء نور المنافقين إشفاقاً ﴿ **رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** ﴾ المراد بالإتمام هو الإدامة ، إلى أن يصلوا إلى دار السلام ﴿ **وَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ أي استر ذنوبنا فلا تفضحنا ﴿ **إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ من الإتمام والمغفرة وغيرهما ، قيل : يتفاوت نورهم بحسب أعمالهم ، فيسألون إتمامه تَفَضُّلاً ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبواً وزحْفاً وأولئك الذين يقولون (**رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**)[2] وقال سهل قدس سره : لا يسقط الإفتقار إلى الله عن المؤمنين في الدنيا ولا الآخرة ، وهم في العقبى أشد افتقاراً إليه ، وإن كانوا في دار العز والغنى ، ولشوقهم إلى لقائه يقولون « أتمم لنا نورنا » ثم إن الأنوار كثيرة : نورُ الذات ، ونور الصفات ، ونور الأفعال ، ونور العبادات مثل الصلاة والوضوء وغيرهما ، كما قال عليه السلام في حديث طويل (والصلاة نور) والسرُّ في أن المصلي يناجي ربه ، ويتوجه إليه ، وقد قال عليه السلام (إن العبد

---

(١) الحديث أخرجه ابن السني ، وانظر المنتقى المختار من كتاب الأذكار ص ٣١ .

(٢) أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس في الآية الكريمة أنه قال : ليس أحدٌ من الموحّدين إلاّ يُعطى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيُطفأ نورُه ، والمؤمنُ يُشفق ممّا يرى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » الدر المنثور ٦ / ٢٤٥ .

إذا قام يصلي فإن الله ينصب له وجهه تلقاءه)[١] والله نور ، وحقيقة العبد ظلمانية ، فالذات المظلمة إذا واجهت الذات النيرة ، قابلتها بمحاذاة صحيحة ، فإنها تكتسب من أنوار الذات النيرة ، ألا ترى أن القمر الذي هو ذاته جسم أسود ، مظلم كثيف ، كيف يكتسب النور من الشمس بالمقابلة ، وكيف يتفاوت اكتسابه للنور بحسب التفاوت الحاصل في المحاذاة والمقابلة ، فإذا تمت المقابلة وصحت المحاذاة كمل اكتساب النور ، وفي الحديث (بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)[٢] وفي الحديث (وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا يا رسول الله ، ألسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا كيف تعرف من لم يأت بَعْدُ من أمتك يا رسول الله ؟ فقال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجَّلة ، بين ظهرَانَيْ خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غرّاً محجَّلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض)[٣] شبَّه نور الضوء بالبياض الذي في وجه الفرس ويديه ورجليه ، فإن الغُرَّ جمع الأغر ، والغرة بالضم بياض جبهة الفرس ، والتحجيل بياض قوائم الفرس كلها في الرجلين وفي اليدين ، والدُّهْمُ جمع الأدهم بمعنى الأسود ، والبهم جمع الأبهم وفرس بهيم إذا كان على لون واحد ، لم يشبه غيره من الألوان ، والفَرَطُ المتقدم لإصلاح الحوض والدلو ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ** ﴾ بالسيف ﴿ **وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ بالحجة ، أو بالوعيد والتهديد ، والنفاق مستتر في القلب ، ولم يكن للنبي عليه السلام سبيل إلى مافي القلوب من النفاق والإخلاص ، إلا بعد إعلام من قبل الله ، فأمر عليه السلام بمجاهدة من علمه منافقاً ، بإعلام الله إياه باللسان دون السيف ، لحرمة تلفظه بالشهادتين ، وأن يجري عليه أحكام المسلمين مادام ذلك إلى أن يموت ﴿ **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتل والمحاجة ، وفيه إشارة إلى أن الغلظة على أعداء الله من حسن الخلق ، فإن أرحم الرحماء إذا كان مأموراً بالغلظة عليهم ، فما ظنك بغيره ؟ فهي لا تنافي الرحمة على الأحباب كما قال تعالى (**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**) ﴿ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ سيرون فيها عذاباً غليظاً ﴿ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أي جهنم ، ومصيرهم المشئوم فيها ، وهذا نهاية المبالغة في الذم .

فعلى المؤمن أن يجتهد في طريق الحق ، حتى يدفع كيد الأعداء ، ومكر الشياطين ، عن الظاهر والباطن ، لأن به يحصل الترقي الذي هو من خصائص الإنسان ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي بلفظ (إن أحدكم إذا قام في الصلاة فإنما يناجي ربه ، فإن ربه بينه وبين القبلة ..) الحديث جامع الأصول ١١ / ١٩٠ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ولفظه عن أبي هريرة أن رسول الله أتى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وددتُ أنا قد رأينا إخواننا ..) الحديث ورواه البخاري ومالك في الموطأ والنسائي بنحوه ، وانظر كامل الحديث في جامع الأصول ٩ / ٢٠٧ .

ضرب المثل عبارة عن إيراد حالة غريبة ، ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة ، أي يجعل الله مثالاً لحال هؤلاء الكفرة حالاً ومالاً ﴿ **امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ** ﴾ أي حالهما ويتضح بذلك حال هؤلاء ، وامرأة نوح هي « واعلة » وامرأة لوط هي « واهلة » بالهاء ﴿ **كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ** ﴾ أي كانتا تحت نكاح نبيَّيْنِ ، وفي عصمة رسولين عظيمَيْ الشأن ، متمكِّنَتَيْن من تحصيل خيري الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتها ، وإظهار العبدين لتعظيمها بالإضافة التشريفية والوصف بالصلاح ، وإلا فيكفي أن يقول تحتها ، وفيه بيان شرف العبودية والصلاح ﴿ **فَخَانَتَاهُمَا** ﴾ أي فخانتاهما بالكفر والنفاق لا بالبغاء ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط ، وهذا تصوير لحالهما المحاكية لهؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله عليه السلام ، بالكفر والعصيان ، مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة ﴿ **فَلَمْ يُغْنِيا** ﴾ أي فلم يغن النبيَّان ﴿ **عَنْهُمَا** ﴾ أي عن المرأتين بحق الزواج ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي من عذابه تعالى ﴿ **شَيْئاً** ﴾ من الإغناء أي لم يدفعا العذاب عنهما ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ **ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾ أي مع سائر الداخلين من الكفرة ، الذين لا وصلة بينهم وبين الأولياء ، وقطعت هذه الآية طمع من يرتكب المعصية ، أن ينفعه صلاح غيره ، من غير موافقة له في الطريقة والسيرة ، وإن كان بينه وبينه لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، قال القاشاني : الوَصَل الطبيعية والاتصالات الصورية ، غير معتبرة في الأمور الأخروية ، بل المحبة الحقيقية والاتصالات الروحانية هي المؤثرة فحسب ، إذ لا أنساب بينهم يوم القيامة ، فإن جميع القوى الخيرة والشريرة ، وإن تولدت من بين زوجي الروح والجسد ، لكن الشريرة ليست من أهل الروح في الحقيقة ، مثل ولد نوح ، فكل من السعداء والأشقياء مفترقون في الدارين .

﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ** ﴾ أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين ، في أن وصلة الكفر لا تضرهم ، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله ، وهي في أعلى غرف الجنة ، والمراد « آسية بنت مزاحم » والآية حثٌّ للمؤمنين على الصبر في الشدة ، حتى لا يكونوا أضعف من امرأة فرعون ، التي صبرت على أذى فرعون ﴿ **إِذْ قَالَتْ** ﴾ أي ضرب الله مثلاً حالها إذ قالت ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي** ﴾ على أيدي الملائكة أو بيد قدرتك ، فإنه روي أن الله تعالى خلق جنة عدن بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده ﴿ **عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ** ﴾ في أعلى درجات المقربين وفي عين المعاني (**عِنْدَكَ**) أي من عندك بلا استحقاق مني ، بل كرامة منك ، روي أنها لما قالت ذلك رفعت الحجب حتى رأت بيتها في الجنة من درة بيضاء وانتزع روحها ، سئل بعض الظرفاء : أين في القرآن مثل قولهم (الجارُ قبل الدار) ؟ قال : قوله (**ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ**) فعندك هو المجاورة ، وبيتاً في الجنة هو الدار ﴿ **وَنَجِّنِي مِنْ فِرعَوْنَ** ﴾ الجاهل ﴿ **وَعَمَلِهِ** ﴾ الباطل أي نفسه الخبيثة وسوء جوارها ، ومن عمله السيء الذي هو

كفره ومعاصية ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي من القبط التابعين له في الظلم ، روي أنه لما غلب موسى عليه السلام السحرة ، آمنت امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها ، طلب منها أن ترجع عن إيمانها فأبت ، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وربطها وألقاها في الشمس وأراها الله بيتها في الجنة ، ونسيت ما هي فيه من العذاب فضحكت ، فعند ذلك قالوا : هي مجنونة تضحك وهي في العذاب ، وفي هذا بيان أنها لم تَمِلْ إلى معصية مع أنها كانت معذبة ، فلتكن صوالح النساء هكذا ، وقال الضحاك : أمر بأن يُلقى عليها حجر رحى وهي في الأوتاد ، فقالت رب ابن لي عندك ، بيتاً في الجنة ، وما وصل الحجر إليها حتى رفع روحها إلى الجنة ، وقيل : اشتاقت إلى الجنة وملّت من صحبة فرعون فسألت ذلك .

قال الحسن البصري قدس سره : رفعت إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب وتتنعم ، قال في الكشاف : وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل ، من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ ﴾ جَمَع في التمثيل بين التي لها زوج ، والتي لا زوج لها ، تسليةً للأرامل ، وتَطْييباً لأنفسهن ، وسميت مريم في القرآن باسمها في سبعة مواضع ، ولم يسم غيرها من النساء، لأنها أقامت نفسها في الطاعة كالرجل الكامل ، ومريم بمعنى العابدة ، أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا ، حال مريم ابنة عمران ، ووالدة عيسى عليهما السلام ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ الإحصانُ : العفاف ، والمعنى : حفظت فرجها عن مساس الرجال على آكد الحفظ . قال بعضهم : صانته عن الفجور كما صان الله آسية عن مباشرة فرعون ، لأنه كان عنيناً لا يقدر على الجماع ، لمرض أو كبر سن ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ أي فنفخنا بسبب ذلك في فرجها ، إسناد النفخ إلى الضمير مجازٌ أي نفخ جبريل بأمرنا في جيب درعها ﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي من روح خلقناه بلا توسط أصل ، وأضاف الروح إلى ذاته تفخيماً لها ولعيسى ، كقوله (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) وفي سورة الأنبياء (فَنَفَخْنَا فِيهَا) أي مريم من الروح الذي هو من أمرنا أو من جهة روحنا جبريل ، لأنه نفخ في جيب قميصها فوصل النفخ إلى جوفها ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ أي بالصحف المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، والشرائع التي شرعها الله للعباد ، ويقال : صدّقت بالبشارات التي بشَّرها بها جبريل ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ أي بجميع كتبه المنزلة الشاملة للصحف وغيرها من الكتب الإلهية ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ أي من عداد المواظبين على الطاعة ، وفي عين المعاني : من المطيعين المعتكفين في المسجد الأقصى ، والتذكير لتغليب المذكر ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال ، حتى عدت من جملتهم ، أو كانت من القانتين أي من نسلهم لأنها من أعقاب هرون أخي موسى عليه السلام وعن النبي عليه السلام (كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وفضلُ عائشة على النساء ، كفضل

الثريد على سائر الطعام)[١] وإنما شبهت عائشة بالثريد ، لأن العرب كانوا لا يؤثرون على الثريد شيئاً ، حتى سموه بجبوحة الجنة ، وذلك لأن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة ، وسهولة التناول ، وقلة المؤونة في المضغ فضرب به مثلاً ، يؤذن بها بأنها أعطيت من حسن الخلق ، وحلاوة المنطق ، وفصاحة اللهجة ، وجودة القريحة ، ورصانة العقل ، والتحبب إلى البعل ، فهي تصلح للتبعل والتحدث ، والاستئناس بها والاصغاء إليها ، وحسبك أنها عقلت من النبي عليه السلام مالم يعقل غيرها من النساء ، وروت ما لم يرو مثلها من الرجال ، فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال : « ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديثٌ قطُّ ، فسألنا عائشةَ إلاَّ وجدنا عندها منه علماً »[٢] ولذا قيل :

وللصِّدِّيقةِ الرُّجْحَانُ فاعْلَمْ * عَلَى الزَّهْرَاءِ في بَعْضِ الخِصَالِ

لكن الكمال المطلق ، إنما هو لفاطمة الزهراء رضي الله عنها ، كما دل عليه الحديث المذكور وأيضاً دل تشبيه عائشة بالثريد على تشبيه غيرها من المذكورات باللحم وهو سيد الإدام ، ودلَّ الحديث على كثرة كمال الرجال ، وقلة كمال النساء ، فيما بعد عصر النبي عليه السلام ، وإن كانت القرون متفاوتة ، والأعصار متباينة .

تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم



(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه بنحوه ، وهذه الرواية ذكرها رزين ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٢٤ ومسند الإمام أحمد ، ورواية البخاري ومسلم اقتصرت على ذكر مريم ، وخديجة ، وفي رواية الترمذي (حسبُك من نساء العالمين : مريم بنتُ عمرانَ ، وخديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمد ﷺ ، وآسيةُ امرأةُ فرعون) وانظر فضائل النساء الصحابيات في جامع الأصول ٩ / ١٢٠ .

(٢) الحديث أخرجد الترمذي في سننه في المناقب ، وقال : هذا حديث حسنٌ صحيح غريب ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٣٤ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ البركةُ : النماءُ والزِّيادةُ ، حسِّية أو عقلية ، وصيغة « تبارك » للدلالة على غاية الكمال ، وإنبائها عن نهاية التعظيم والمعنى : تعالى وتعاظم وتقدَّس ، ذاتاً وصفةً وفعلاً ، الذي بقبضة قدرته ، التصرف الكلي في كل الأمور ، فيأمر وينهى ، ويعطي ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفقر ويغني ، ويمرض ويشفي ، إلى غير ذلك من شؤون العظمة ، وآثار القدرة الإلهية وقال بعضهم : البركة كثرة الخير ودوامه باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته ، من فنون الخيرات ، أي تكاثر خير الذي بيده الملك ، وتزايدتْ نِعَمُه وإحسانه كما قال تعالى (**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوْهَا**) قال الراغب : البركة ثبوت الخير إلاهي في الشيء ، والمبارك ما فيه ذلك الخير ، ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحسُّ ، على وجه لا يُحصى ولا يُحصر ، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة : هو مبارك ، وفيه بركة ، وفي الكواشي : معنى « تبارك » تعالى عن صفات المحدثين ، وجميع المستعمل من « ب ر ك » وبعكسه يشتمل على هذا المعنى ﴿ **وَهُوَ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من الأشياء ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ مبالغ في القدرة عليه ، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة في جلائل الأمور ودقائقها ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾ الموت عبارة عن عدم صفة الحياة عن محل يقبلها ، فإن الحياة هي الإحساس ، والحركة الإرادية كالتنفس ، والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له أي موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ ظاهر الآية يدل على أن أفعال الله معللة بصالح العباد ، ومعناها أن الله تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من يراعي المصالح ، لم يفعله إلا لتلك المصلحة والغرض ، فمثل هذه اللام لام العلة عقلاً ، ولام الحكمة والمصلحة شرعاً ، والاختبار ليس هنا على حقيقته ، لأنه إنما يتصور ممن يخفي عليه عواقب الأمور ، فالابتلاء من الله أن يَظْهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب ، والمعنى ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً ، فيجازيكم على أعمالكم،ولذلك فسره عليه السلام بقوله : أيكم أحسن عقلاً ، وأورعُ عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله ؟ وأحسن الأعمال ما كان لوجه الله خالصاً ، وأصوب بأن يكون موافقاً للسنة أي وارداً على النهج الذي ورد عن الشارع ، فالعمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، ولذ قال عليه السلام للأعرابي (قم فصلِّ فإنك لم تُصَلِّ)[1] وكذا إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل أيضاً ، ولذا جعل الله أعمال أهل الرياء والنفاق هَباءً منثوراً ، فإن الإخلاص سرّ عظيم ، من أسرار الله تعالى ، لا ينالُه إلاَّ

(١) هذا جزء من حديث مشهور وهو حديث المسيء صلاته ، أخرجه البخاري في صحيحه .

الخواصُّ ، ثم إن المراد أيكم عمله أحسن من عمل غيره ، وعبارة القرآن في إسناد الحُسْنِ إلى الإنسان ، تدل على أنَّ من كان عمله أحسن ، كان هو أحسن ، ولو أنه أبشع الناس منظراً ، ومن كان عمله أسوأ كان بخلاف ذلك ، .

ولم يقل « أكثر عملاً » لأنه لا عبرة بالكثرة مع القبح ، قالوا : والحسن إنما يدرك بالشرع ، فما حسَّنه الشرع فهو حسن ، وما قبَّحه فهو قبيح ، وقال بعضهم : ليبلوكم أيكم أحسن أخذاً من حياته لموته ، وأحسن أُهبةً في دنياه لآخرته ، قال النبي ﷺ لعبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما (وخُذْ من صحتك لسَقَمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك)[1] وسئل عليه السلام (أيُّ المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً)[2] فالاستعداد للآخرة بكثرة الأعمال ، المقارنة للإخلاص سواء كانت صلاةً ، أو صوماً ، أو زكاة ، أو حجاً ، أو نحوها ، وإن كان لبعض الأعمال تفاوت بالنسبة إلى البعض الآخر ، كالصلاة فإنها معراج الشهود ، وفيها كسر النفس ، وإتعاب البدن ، ولذا كان السلف الصالح يكثرون منها ، حتى إن منهم من يصلي في اليوم مائة ركعة ونحوها ، وكالصوم وتقليل الطعام ، فإنه سبب لورود الحكمة الإلهية إلى القلب ، مع أن في الصوم تهذيب الأخلاق أيضاً ، فإن أكثر المفاسد يجيء من قبل الأكل والشرب ، فيا أيها المؤمنون سابقوا وسارعوا ، فالنفس مطية ، والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أنه وحده ﴿ **العَزِيزُ** ﴾ الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿ **الغَفُوْرُ** ﴾ لمن شاء منهم بالتوبة أو الفضل ، ولّما كان العزيز يهلك من خالفه ، إذا علم بمخالفته ، قال مرغباً للمسيء إنه « الغفور » أي الذي يستر ذنوب المسيء ، ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلقّ ، كما قال في الحديث القدسي « ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[3] ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ** ﴾ أبدعها من غير مثال سبق ﴿ **طِبَاقاً** ﴾ مصدر بمعنى الفاعل ، يقال : طابقه مطابقة ، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذوٍ واحد ، والمعنى : يطابق بعضها فوق بعض ، سماء فوق سماء ، غلظ كل سماء خمسمائة عام ، بلا علاقة ولا عماد ولا مماسة قال الجمهور : إن الأرض مستديرة كالكرة ، وإن السماء الدنيا محيطة بها من كل جانب ، إحاطة البيضة بالمخ ، ولو ثقب مثلاً بأرض الأندلس لنفد الثقب لأرض الصين ، وإن السماء الثانية محيطة بالدنيا ، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل ، وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة ﴿ **مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ** ﴾ الخطاب للرسول أو لكل أحد

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد وابن ماجه عن ابن عمر ، وأوله (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) الفتح الكبير ٢ / ٣٣٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن السدّي موقوفاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٤٧ .

(٣) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه ، وأوله يقول الله عز وجل ﴿ **أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ..** ﴾ الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٥٥ .

ممن يصلح للخطاب والمعنى ما ترى فيه شيئاً من اختلاف واضطراب وعدم تناسب ، بل هو مستوٍ مستقيمٍ ، قال الراغب : التفاوت والاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر ﴿ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ** ﴾ أي ردَّه إلى رؤية السماء ، حتى يتضح ذلك بالمعاينة ، ولا يبقى عندك شبهة ﴿ **هَلْ تَرَى** ﴾ فيها ﴿ **مِنْ فُطُورٍ** ﴾ جمع فَطْرٍ كما في القاموس وهو الشق ، يُقال : فطَره فانفطر أي شقَّه فانشق ، والمعنى : من شقوق وصدوع ، لامتناع خرقها والتئامها ، فإذا لم ير في السماء فطور ، وهي مخلوقة ، فالخالق أشدُّ امتناعاً عن صفات النقص ﴿ **ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ** ﴾ أي رجعتين أخريين ، وأعد النظرة مرة بعد مرة ، في طلب الخلل والعيب والمراد بالتثنية التكرير والتكثير ، كما في « لبيك وسعديك » يريد إجابات كثيرة ، وذلك لأن الكلال الآتي لا يقع بالمرتين أي رجعة بعد رجعة بعد رجعة وإن كثرت ، قال الحسن رحمه الله : لو كرَّرته مرَّةً بعد مرة ، إلى يوم القيامة لم تر فيه فطوراً ، والحاصل أن تكرار النظر وتجوال الفكر ، لا يفيد إلا الكلال والتعب ﴿ **يَنْقَلِبْ** ﴾ ينصرف ويرجع ﴿ **إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً** ﴾ أي ذليلاً بعيداً محروماً ، من إصابة ما التمسه من العيب والخَلَل ، كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والذلة ، قال الراغب : خسأ البصر أي انقبض من مهانة ، وفي القاموس : الخاسيء من الكلاب والخنازير ، المبعَدُ لا يُترك أن يدنو من الناس ﴿ **وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ أي كليل ، بالغ غاية الإعياء ، لطول المعاودة وكثرة المراجعة ، قال الإمام حجة الإسلام قدس سره : ليس في الإمكان أبدعُ من هذا الوجود ، كما قال تعالى (**الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**) ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا** ﴾ بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء ، إثر بيان خلوِّها عن شائبة القصور ، أي وبالله لقد زينَّا أقرب السموات إلى الأرض وجمَّلناها ، والدنيا تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب ، وكون السماء قربى من سائر السموات إنما هو بالإضافة إلى ما تحتها من الأرض ، لا مطلقاً ، لأن الأمر بالعكس بالإضافة إلى ما فوقها من العرش ﴿ **بِمَصَابِيحَ** ﴾ جمع مصباح وهو السراج ، أي بكواكب مضيئة بالليل ، إضاءة السُّرُج ، من السيارات والثوابت ، تتراءى كلها مركوزة في السماء الدنيا ، ودخل في المصابيح القمر لأنه أعظم نيِّر مضيء بالليل ، وإذا جعل الله الكواكب زينة السماء ، التي هي سقف الدنيا ، فليجعل العبادُ المصابيح والقناديل زينة سقوف المساجد والجوامع ، وذُكِر أن مسجد الرسول ﷺ كان إذا جاء العشاء ، يوقد به بسعف النخل ، فلمَّا قدم « تميم الداري » رضي الله عنه المدينة ، صحب معه قناديل وحبالاً وزيتاً ، وعلَّق تلك القناديل بسواري المسجد وأوقدت ، ثم أكثرها عمر رضي الله عنه حين جمع الناس على « أبيِّ بنِ كعب » رضي الله عنه في صلاة التراويح ، فلما رآها علي رضي الله عنه تُزهر ، قال : نوَّرتَ مسجدنا نوَّر الله قبرك يا ابنَ الخطاب ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا** ﴾ أي المصابيح ﴿ **رُجُوماً** ﴾ جمع رَجْمٍ ، وهوما يرجم به ويرمى للطرد والزَّجر ﴿ **لِلشَّيَاطِينِ** ﴾ هم كفار الجن فالمعنى : وجعلنا لها

فائدة أخرى ، هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من الكواكب ، لا بالكواكب نفسها ، فإنها قارة في الفلك على حالها ، فمنهم من يقتله الشهاب ، ومنهم من يفسد عضواً من أعضائه أو عقله ، والشهابُ : شعلةٌ ساطعة من نار تنفصل من النجم ، فأطلق عليها النجم ، ويكون معنى جعلناها رجوماً ، جعلنا منها وهي تلك الشهب .

﴿ **وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ** ﴾ أي هيئنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق بالشهب ﴿ **عَذَابَ السَّعِيرِ** ﴾ أي عذاب جهنم الموقدة المشعلة ، فالسعير من سَعَرْتُ النار إذا أوقدتها ، وجهنَّمُ لها سبع دركات وهي : جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، ولكن كل من هذه الأسماء يطلق على الآخر ، فيعبَّر عن النار تارة بالسعير ، وتارة بجهنم ، وأخرى بآخر ﴿ **وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾ الأظهر حمله على الكفرة غير الشياطين ، كما يشعر به ما بعده ، لئلا يلزم شبه التكرار ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ أي الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة ، يقال : رجل جهم الوجه : أي كالحٌ منقبض ، وفيه إشارة إلى أن عذابه تعالى ، وانتقامه خارج عن العادة ، لكونه ليس بسيف ولا سوط ولا عصا ونحوها ، بل بالنار الخارجة عن الانطفاء ، وليس للكافر المعذب من الخلاص رجاء ﴿ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ أي جهنم ﴿ **إِذَا أُلْقُوْا فِيهَا** ﴾ أي إذا أُلقِيَ الكفار في جهنم ، وطرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿ **سَمِعُوْا لَهَا** ﴾ أي لجهنم نفسها ﴿ **شَهِيقًا** ﴾ أي صوتاً كصوت الحمير ، الذي هو أنكر الأصوات وأفظعها ، غضباً عليهم ، وهو حسيسها المنكر الفظيع كما قال تعالى (**لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**) والشهيقُ : رد النَّفَس ، والزفيرُ : إخراجه ﴿ **وَهِيَ تَفُورُ** ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل ، بما فيها من شدة التلهب والتسعر ، فهم لا يزالون صاعدين هابطين ، لا فرار لهم أصلاً ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ** ﴾ تميَّزُ أصله تتميز بتاءين ، والتميزُ : الانقطاع والانفصال ، والغيظ أشد الغضب ، يقال : يكاد فلان ينشق من الغيظ ، إذا وُصف بالإفراط في الغضب ، والمعنى : تكاد تتفرق جهنم من شدة الغضب عليهم أي يقرب أن يتمزق تركيبها ، وينفصل بعضه من بعض ، وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام ، لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا** ﴾ أي في جهنم ﴿ **فَوْجٌ** ﴾جماعة من الكفرة ، بدفعِ الزبانية لهم ﴿ **سَأَلَهُمْ** ﴾ أي ذلك الفوج ﴿ **خَزَنَتُهَا** ﴾ أي خزنة النار ، وهم مالك وأعوانه من الزبانية ، بطريق التوبيخ والتقريع ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ** ﴾ أي ألم يأتكم في الدنيا ﴿ **نَذِيرٌ** ﴾ أي منذر يتلو عليكم آيات ربكم ، وينذركم لقاء يومكم هذا ؟ والإنذار : الإبلاغ ، ولا يكون إلا في التخويف ﴿ **قَالُوْا** ﴾ اعترافاً بأنه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية ، ببعثة الرسل ﴿ **بَلَى** ﴾ لإيجاب نفي إتيان النذير ﴿ **قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ** ﴾ أي قال كل فوج من تلك الأفواج : قد جاءنا نذير أي فأنذرنا ، وتلا علينا ما

أنزل الله عليه من آياته ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير ﴿ وَقُلْنَا ﴾ إفراطاً في التكذيب ، وتمادياً في الكِبْر ﴿ مَانَزَّلَ اللهُ ﴾ على أحد ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ما نزَّل الله من كتاب ولا رسول ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أي ما أنتم يا معشر الرسل ، في ادعاء أن الله تعالى نزَّل عليكم آيات ﴿ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ بعيد عن الحق والصواب ﴿ وَقَالُوْا ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ نَسْمَعُ ﴾ كلاماً ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ شيئاً ، وفيه دليل على أن العقل حجة التوحيد ﴿ مَا كُنَّا ﴾ اليوم ﴿ فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي من أهل النار الموقدة ، كأن الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ : ألم تسمعوا آيات ربكم من ألسنةِ الرسل ، ولم تعقلوا معانيها حتى لا تكذبوا بها ؟ فأجابوا بذلك ﴿ فَاعْتَرَفُوْا ﴾ اضطراراً حين لا ينفعهم الاعتراف ، وهو إقرار عن معرفة بالجرم ﴿ بِذَنْبِهِمْ ﴾ وهو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله ﴿ فَسُحْقاً ﴾ مصدر مؤكد أي فأسحقهم الله أي أبعدهم من رحمته سحقاً ، وأبعدهم إبعاداً بسبب ذنبهم وكفرهم بآيات الله ﴿ لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ المراد الشياطينُ ، والداخلون من الكفرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ ﴾ أي يخافون عذابه وهو عذاب يوم القيامة ، حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم ، ولم يعاينوه بعد ،أو غائبين عنه تعالى أي عن معاينة عذابه وأحكام الآخرة ، وقد كان عليه السلام (يصلِّي ولصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء)[1] الأزيزُ: الغليانُ ﴿ لَهُمْ مَغفِرَةٌ ﴾ عظيمة تأتي على جميع ذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي ثواب عظيم في الآخرة ، فضلاً منه تعالى ، يكون لهم به من الإكرام ، ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الآلام ، وتصغر في جنبه لذائذ الدنيا ، وهو الجنة ونعيمها ﴿ وَأَسِرُّوْا قَوْلَكُمْ أَواجْهَرُوا بِهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فَيُظهر الله رسوله عليها ، فقال بعضهم لبعض : أسرُّوا قولكم كيلا يسمع رب محمد ، فيخبره بما تقولون ، فقيل لهم : أسرُّوا ذلك أو اجهروا به ، فإن الله يعلمه ، والأمرُ للتهديد لا للتكليف ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴾ مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس ، وأسرارهم الخفية ، المستكنَّةِ في صدورهم ، فكيف يخفى عليه ما تسرون وتجهرون به ؟ ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي ألا يعلم السرَّ والجهر ، من أوجد بحكمته جميع الأشياء ؟ ويجوز أن يكون المعنى ألا يعلم الله من خلقه ؟ ﴿ وَهُوَ ﴾ أي والحال أنه تعالى وحده ﴿ اللَّطِيفُ ﴾ العالم بدقائق الأشياء ، يرى النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ﴿ الخَبِيرُ ﴾ العالم ببواطنها .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : إنما يستحق اسم اللطيف ، من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دقَّ منها وما لَطُف ، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل بإسناد صحيح .

الفعل ، واللطفُ في الإدراك ، تمَّ معنى اللُّطف ، ولا يتصور كمال ذلك العلم والفعل إلاَّ لله تعالى ، والخبيرُ هو الذي لا يعزبُ عنه الأخبار الباطنة ، فلا يجري في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تسكن ولا تضطرب نفس ، إلا ويكون عنده خبرها ، وهو بمعنى العليم ، لكنَّ العلم إذا أضيف إلى الخفايا يسمى « خِبرة » ويسمى صاحبها « خبيراً » قال بعضهم : كنا جماعة من القرآء فأصابتنا فاقة ومجاعة ، فذهبنا إلى إبراهيم الخواص قدس سره ، وقلت في نفسي أباسط الشيخ في أحوالي وأحوال هؤلاء الفقراء ، فلما وقع بصره عليَّ قال لي : الحاجة التي جئتني فيها اللهُ عليم بها أم لا ؟ فارفعها إليه ، فسكتُّ ثم انصرفت ، فلما وصلنا إلى المنزل فتح علينا بشيءٍ . وإذا علم العبد أنه تعالى مطلع على سرِّه ، عليمٌ بخفيِّ ما في صدره ، يكتفي من سؤاله برفع همته إليه ، وإحضار حاجته في قلبه ، من غير أن ينطق بلسانه ، والله لطيف بعباده ، ومن لطفه بهم أنه يوصل إليهم ما يحتاجون إليه بسهولة ، فمن قوتُه رغيفٌ ، لو تفكر فيه ليعلم ، كم عينٌ سهرت فيه ، من أول الأمر حتى تمَّ وصَلُح للأكل ؟ من الحارث ، والباذر للبذرة ، والحاصد ، والدائس ، والمذري والطاحن ، والعاجن ، والخابز ، ويتشعب من ذلك الآلات التي تتوقف عليها هذه الأعمال من الأخشاب ، والحجارة ، والحديد ، والحبال ، والدواب ، بحيث لا تكاد تنحصر ، وهكذا كل شيء ينعم به على عبده ، من مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، فيه مقدمات كثيرة ، لو احتاج العبد إلى مباشرتها بنفسه ، لعجز عن ذلك ، ومن سنة الله سبحانه حفظ كل لطيفة في طي كل كثيفة ، كصيانة الودائع في المواضع المجهولة ، ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف ، معدن الذهب والفضة وغيرها من الجواهر ؟ والصدف معدن الدر ؟ والنحل معدن الشهد ؟ والدود معدن الحرير ؟ وكذا جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته ، وهو مضغة لحم ؟ فالقلب خلق لهذا لا لغيره ، فعلى العبد أن يُطَهِّره عن لوث التعلق بما سوى الله ، فإن الله تعالى لَطَف به ، بإيجاده ذلك القلب في جوفه ، ووصف نفسه بأنه لطيف خبير ، مطلع على ما في الباطن ، فإذا كان هو المظهر الإلهي ، وجب تخليته عن الأفكار والأغيار ، وتحليته بأنواع المعارف والعلوم والأسرار ، وتجليته بتجليِّ الله الملك العزيز الغفار ﴿ **هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ** ﴾ أي لمنافعكم ﴿ **الأَرْضَ ذَلُولاً** ﴾ أي لينة منقادة غاية الانقياد ، يسهل عليكم السلوك فيها ، لتتوصلوا إلى ما ينفعكم ، ولو جعلتا صخرة خشنة تعسَّر المشي عليها ، أو جعلها لينة منبتة لا يمكن فيها حفر الآبار ، وشق العيون والأنهار ، وبناء الأبنية ، وزرع الحبوب وغرس الأشجار وأيضاً ثبتَّها بالجبال الراسيات ، كيلا تتايل وتنقلب بأهلها ، والحاصل أن الله تعالى جعل الأرض بحيث ينتفع بها ، وقسمها ، إلى سهول وجبال ، وبحار وأنهار ، وعيون وزرع وشجر ، وتراب وحجر ، ورمال ومَدَر ، وغير ذلك بحكمته وقدرته ، قال سهل قدس سره : خلق الله الأنفس ذلولاً ، فمن أذلَّها بمخالفتها فقد نجَّاها من الفتن والبلاء والمحن ، ومن لم يذلَّها واتَّبعها ، أذلته نفسه وأهلكته ، فالذلول من كل شيء :

المنقاد الذي يذلُّ لك ، والذلُّ بالضم الهوان ضد العزِّ ، وجعل صاحب القاموس الذِّلَّ ضد الصعوبة بالضم والكسر ، والذلُّ بمعنى الهوان بالضم فقط ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ هو أمر إباحة أي فاسلكوا في جوانبها وإذا مشوا وساروا في جوانبها وأطرافها فقد أحاطوا بها ، وحصل لهم الانتفاع بجميع ما فيها ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ، من الحبوب والفواكه ونحوها ، والأمر إن كان أمر إباحة فالرزق ما يكون حلالاً ، وإن كان خبراً في صورة الأمر فالمعنى تأكلون من رزقه وإنعامه ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ أي إلى الله وحده ﴿ النُّشُورُ ﴾ أي المرجع بعد البعث ، فبالغوا في شكر نعمه ﴿ ءَأَمِنْتُمْ ﴾ استفهام توبيخ ، فالهمزة الأولى استفهامية ، والثانية من نفس الكلمة ﴿ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي الملائكة[1] الموكلين بتدبير هذا العالم ، أو الله سبحانه على تأويل : أأمنتم خالق السماء ومالكها ؟ ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ بعدما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه أي يقلبها ملتبسة بكم ، فيغيبكم فيها ، كما فعل بقارون ، قال الجوهري : خسف المكان يخسف خسوفاً : ذهب في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفاً ، غيَّبه فيها ، وفي القاموس : خسف الله بفلان الأرض غيبَّه فيها ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ المَوْرُ : الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك أي تضطرب ذهاباً ومجيئاً ، على خلاف ما كانت عليه من الذل والاطمئنان ، ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ ﴾ انتقال إلى التهديد بوجه آخر ﴿ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ والمعنى هل جُعل لكم من هذين أمانٌ ؟ وإذ لا أمان لكم منهما فما معنى تماديكم في شرككم ؟ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إنذاري عند مشاهدتكم له أشديدٌ أم ضعيف ؟

يعني تعلمون أنه لا خلف لخبري ، وأن عذابي لشديد ، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ ، فالنذير والنكير مصدران بمعنى الإنذار والإنكار ، وأصلها نذيري ونكيري بياء الإضافة ، فحذفت اكتفاء بكسر ما قبلها ،

(١) لا حاجة إلى مثل هذا التأويل ، فإنه بعيدٌ عن اللفظ وغير سديد ، فالله تبارك وتعالى له جهة العلو المطلق ، وهو العليُّ الكبير ، ولما أخبر تعالى أنه على عرشه قد استوى ، وكان العرش محيطاً بالسموات والأرض ، صحَّ إطلاق اللفظ الدال على علُوه على خلقه ، لا على معنى أن الله داخل السماء ، أو أنه محصور في السماء ، كما يتوهمه العامة البسطاء ، بل على معنى العلو والارتفاع ، ولننقل فقرات مما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث وضَّح الأمر وفصَّله أجمل تفصيل ، فقال في الفتاوى ٣ / ١٤٢ : « وهو سبحانه فوق العرش ، رقيبٌ على خلقه ، مهيمنٌ عليهم ، مطَّلع إليهم ، وكلُّ هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه ، من أنه فوق عرشه ، وأنه معنا حقٌّ على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ولكنْ يُصان عن الظنون الكاذبة ، مثل أن يُظنَّ أن ظاهر قوله (في السماء) أن السماء تُقلُّه أو تُظلُّه ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان ، فإن الله وسع كرسيُّه السموات والأرض .. » إلخ وقال في الفتاوى أيضاً ٥ / ٩٦ : « فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ لأنه مستوٍ على العرش الذي هو فوق السموات ، وكلُّ ما علا فهو سماء ، فالعرش أعلى السماوات ، وليس إذ قال ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يعني جميع السموات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات .. » إلخ الفتاوى ٥ / ٩٧ فالمعنى إذاً : أأمنتم اللهَ العظيم الجليل الذي هذه عظمته ، أن يخسف بكم الأرض ، فيغيِّبكم في مجاهلها ، بعد أن كانت ذلولاً تمشون في أرجائها ومناكبها ؟

قال في برهان القرآن : خوَّفهم بالخسف أوَّلاً ، لكونهم على الأرض ، وأنها أقرب إليهم من السماء ، وبالحاصب من السماء فلذلك جاء ثانياً ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة ، كقوم نوح وعاد وأضرابهم ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾ أي إنكاري عليهم بإنزال العذاب ؟ أي كان على غاية الهول والفظاعة ، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا** ﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا ﴿ **إِلَى الطَّيْرِ** ﴾ فالرؤية بصرية لأنها تتعدى بـ « إلى » وأما القلبية فتعديتُها بفي ﴿ **فَوْقَهُمْ** ﴾ أي كائنات فوقهم ﴿ **صَافَّاتٍ** ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ **وَيَقْبِضْنَ** ﴾ ويضمنها إذا ضربن بها جنوبهن حيناً فحيناً ، فإن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، فكما أن الأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، فكذا الأصل في الطيران صف الأجنحة وبسطها ، والقبض إنما يكون تارة بعد تارة ﴿ **مَا يُمْسِكُهُنَّ** ﴾ في الجو ، وما يمنعهن من السقوط ، عند الصف والقبض ﴿ **إِلاَّ الرَّحْمَنُ** ﴾ الواسع رحمته كل شيء ، بأن هيأهن للجري في الهواء ﴿ **إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾ يعلم إبداع المبدعات ، وتدبير العجائب ، والبصيرُ : هو الذي يشاهد ويرى ، لا يعزب عنه ما تحت الثرى ، فمن عرف هذه الصفة كان المراد به دوام المراقبة ، ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة ، والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان ، حكي أن بعض الملوك كان له عبد يقبل عليه أكثر مما يقبل على أمثاله ، ولم يكن أحسن منهم صورة ، ولا أكثر منهم قيمة ، فكانوا يتعجبون من ذلك ، فركب الملك يوماً إلى الصحراء ، ومعه أصحابه وعبيده ، فنظر إلى جبل بعيد عليه قطعة ثلج نظرة واحدة ثم أطرق ، فركض ذلك العبد ، بفرسه من غير أن ينظر الملك إليه ولا أشار بشيء من ذلك ، ولم تعلم الجماعة لأيِّ شيء أركض فرسه ، فما لبث إلا ساعة حتى عاد ومعه شيء من الثلج ، فقيل له : بم عرفت أن الملك أراد الثلج ؟ فقال : لأنه نظر إليه ، ونظر الملوك إلى شيء لا يكون عبثاً ، فقال الملك : لهذا أقرِّبه وأقدِّمه عليكم ، فإنكم مشغولون بأنفسكم ، وهو مشغول بمراقبة أحوالي !! ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ** ﴾ انتقال من توبيخهم على ترك التأمل ، فيما يشاهدونه من أحوال الطير ، المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله ، إلى التبكيت بما ذكر ، والمعنى : من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جندٌ لكم وعسكر ، وعون من آلهتكم وغيرها ، ينصركم عند نزول العذاب والآفات ، متجاوزاً نصر الرحمن ؟ هل اللهُ الذي له هذه الأوصاف الكاملة ، والقدرة الشاملة ، ينصركم وينجيكم أم الذي يشار إليه ويقال في حقه هذا الذي تَزعمون أنه جند لكم ينصركم من دون الله ؟ ﴿ **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ** ﴾ أي ما هم في زعمهم محفوظون بحفظ آلهتهم ، إلا في غرور عظيم ، وضلال فاحش ، من جهة الشيطان ، ليس لهم في ذلك شيء يعتدُّ به في الجملة ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ** ﴾ يعطيكم الرزق ﴿ **إِنْ أَمْسَكَ** ﴾ الرحمن وحبس ﴿ **رِزْقَهُ** ﴾ بإمساك المطر ومباديه ، ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول ، فَوَضع

الأكلة في فمه ، فأمسك الله عنه قوة الابتلاع ، عَجَز أهل السموات والأرض ، عن أن يسوغوه تلك اللقمة والمعنى هل الله الرزَّاقُ ذو القوة المتين يرزقكم ، أم هذا الحقير المهين الذي تدَّعون أنه يرزقكم ؟ وقد كان الكفار يمتنعون عن الإيمان ، ويعاندون الرسول عليه السلام ، معتمدين على شيئين : أحدهما اعتمادهم على مالهم وعددهم ، والثاني اعتقادهم أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات ، وتدفع عنهم جميع الآفات ، فأبطل الله عليهم الأول بقوله (**أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ**) إلخ ورد عليهم الثاني بقوله (**أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ**) إلخ ﴿ **بَلْ لَجُّوْا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ** ﴾ أي لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق ، بل لجُّوا وتمادوا في عتو وعناد ، واستكبار وطغيان (**ونُفُورٍ**) أي شراد عن الحق ، وتباعد وإعراض ، فاللجاج التمادي في العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه ، والعتوُّ : التجاوز عن الحد ، والنفور الفرار ، ففيه تحقير لهم وإشارة إلى أنهم (**حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**) ﴿ **أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ** ﴾ مَثلٌ ضرب للمشرك والموحِّد ، توضيحاً لحالهما ، والمكبُّ الساقط على وجهه ، والمعنى أفمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ، ويخرُّ على وجهه في كل خطوة ، لتوعّر طريقه ، واختلال قواه ، أشدُّ هداية ورشداً إلى المقصد الذي يؤمُّه ﴿ **أَمْ مَنْ** ﴾ أي أهو أهدى أم من ﴿ **يَمْشِي سَوِيّاً** ﴾ أي قائما سالماً من الخبط والعثار ﴿ **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ مستوي الأجزاء ، لا عوج فيه ولا انحراف ، وقيل : المكبُّ كنايةٌ عن الأعمى ، لأنه لا يهتدي إلى الطريق ، فيتعسف ، فيلزمه أن يكبَّ على وجهه ، بخلاف البصير السوى .

وقال قتادة : هو الكافر أكبَّ على معاصي الله في الدنيا ، فحشره الله على وجهه إلى النار في العقبى ، والمؤمن استقام على أمر الله في الدنيا ، فحشره على قدميه إلى الجنة في الآخرة ، وقيل : للنبي عليه السلام (وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم)[1] ﴿ **قُلْ** ﴾ يا أفضل الخلق ﴿ **هُوَ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **الَّذِي أَنْشَأَكُمْ** ﴾ أيها الكفار كما دل عليه السباق والسياق ، ويندرج فيه الإنسان الغافل أيضاً ، أي أنشأكم إنشاء وابتدأ خلقكم على أحسن خلق ، بأن صوَّركم فأحسن صُوَركم ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ** ﴾ وأعطى لكم الأذن لتسمعوا آيات الله ، وتعملوا بموجبها ، قيل لبعض العارفين : من أكمل الناس ؟ قال : من لم يجعل سمعه غرضاً للفحشاء ﴿ **وَالأَبْصَارَ** ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية ، الشاهدة بشؤون الله تعالى ، ولتبصروا جميع مظاهره تعالى ، في غاية الكمال ، ونهاية الإتقان ﴿ **وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ لتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية ، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة ، وخص هذه الثلاثة بالذِّكر ، لأن العلوم والمعارف بها

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وأصله في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٥٣٠ .

تحصل ، ولأن القلب كالحوض حيث ينصبُّ إليه ما حصل عن طريق السمع والبصر ﴿ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** ﴾ أي باستعمالها فيما خُلقتْ لأجله ، من الأمور المذكورة ، وقليلاً نعت لمحذوف وما مزيدة أي شكراً قليلاً تشكرون ، وقيل : القِلَّةُ عبارة عن العدم يُقال : قلَّما أفعل كذا أي لا أفعله .

ومن وظائف السمع : التعلُّمُ من العلماء والحكماء ، والإصغاء إلى الموعظة ونصح العقلاء ، والتقليد لأهل الحق والصواب ، ورد أقوال أهل البدعة والهوى ، ومن وظائف البصر النظر إلى المصاحف وكتب الدين ، ومعابد المؤمنين ، ومسالك المسلمين ، وإلى وجوه العلماء والصالحين ، والفقرآء والمساكين ، ومن وظائف الأفئدة : الفكر في جلال الله ، وكماله ، وجماله ، ونواله ، والخوف والرجاء منه ، والمحبة له ، والاشتياق إلى لقائه ، والمحبة لأنبيائه وأوليائه ، والبغض لأعدائه ، والنظر في الدلائل ، ونحو ذلك مما فيه فائدة ﴿ **قُلْ** ﴾ يا أكمل الخلق ﴿ **هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي خلقكم وكَثَّركم فيها لا غيره ﴿ **وَإِلَيْهِ** ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿ **تُحْشَرُونَ** ﴾ أي تُجمعون وتبعثون للحساب والجزاء ، فابنوا أمركم على ذلك ، ختم الآية بقوله (**وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) فبيَّن أن جميع الدلائل المذكورة ، إنما كان لإثبات هذا المطلوب ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ من فرط عنادهم واستكبارهم أو بطريق الاستهزاء ﴿ **مَتَى هَذَا الوَعْدُ** ﴾ أي الحشر الموعود ، فالوعد بمعنى الموعود ، والمشار إليه « الحشرُ » وقيل : ما خوفهم به من الخسف والحاصب.

﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ يخاطبون به النبي والمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر ، فَبيِّنوا لنا وقته ﴿ **قُلْ إِنَّمَا العِلْمُ** ﴾ بوقته ﴿ **عِنْدَ اللهِ** ﴾ الذي قدَّر الأشياء ، ودبَّر الأمور ، لا يطَّلع عليه غيره ﴿ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** ﴾ مخوِّفٌ لكم بلغةٍ تعرفونها، ومظهرٌ للحق كاشف عن الواقع ، أُنذركم وقوع الموعود لا محالة ، وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار ، قال يحيى بن معاذ : أخفى الله علمه في عباده وعن عباده ، وكلٌّ يتبع أمره على جهة الاشتباه ، لا يعلم ما سبق له ، وبماذا يختم له ؟ ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ** ﴾ الفاء فصيحة كأنه قيل : وقد أتاهم الموعود فرأوه رؤية بصرية ، فلما رأوه ﴿ **زُلْفَةً** ﴾ أي مزدلفاً أي قريباً ، وقربُ الحشر هو قرب ما أعد لهم فيه ﴿ **سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بأن غشيتها الكآبة ، ورهقها القتر والذلة ، وخصَّ الوجوه بالذكر ، لأن الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرَّة والمساءة ، فكانت كوجه من يقاد إلى القتل ، أو يُعْرض على بعض العذاب ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم ، والقائلون الزبانية ﴿ **هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه ، إنكاراً واستهزاء ، على أنَّ تفتعلون من الدعاء ، والباء على هذا صلة الفعل ، يقال : دعا بكذا إذا استدعاه ، وقيل : هو من الدعوى أي تدَّعون أن لابعث ولا حشر ولا عذاب فالباء للسببية ﴿ **قُلْ** ﴾ ياخير الخلق ﴿ **أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي أخبروني خبراً أنتم

في الوثوق به كالرؤية ، ولمَّا كان الإخبار قوياً بالرؤية ، شاع « أرأيت » في معنى أخبرني ﴿ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ ﴾ أي أماتني ، والتعبيرُ بالإهلاك لما كانوا يقولون : إن أمر محمد لا يتم ، ولا يبقى بل يزول عن قريب ﴿ وَمَنْ مَعِيَ ﴾ من المؤمنين وحصل مقصودكم ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بتأخير آجالنا ، فنحن في جوار رحمته ، متربصون لإحدى الحُسْنَيَيْن ، إما أن نهلك فننقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنُّصْرة ، فأنتم ما تصنعون؟ وأي راحة لكم في موتنا ؟ وأي منفعة ومصلحة ؟ وغايتكم إلى العذاب كما قال تعالى ﴿ فَمَنْ يُجِيرُ ﴾ يُنجي ويُخلِّص ﴿ الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم شديد الإيلام أي لا ينجيكم منه أحد إذا نزل بكم ، سواء متنا أو بقينا ، إنما النجاة بالإيمان والعمل الصالح ، وفيه مبالغة في التخويف ، كأنه قيل : نحن معاشر الأنبياء والمؤمنين ، نخاف الله أن يأخذنا بذنوبنا ، فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون ؟ وكيف لا تخافون وأنتم بهذه المثابة من الإجرام ؟ ﴿ قُلْ ﴾ يا أشفق الخلق ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ أي الذي أدعوكم إلى عبادته ، مولي النعم كلها ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وحده ولم نكفر به كما كفرتم ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فوضنا أمورنا لا على غيره ، لعلمنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضر ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ يا كفار مكة عن قريب عند مُعَاينة العذاب ﴿ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ منا ومنكم أي على خطأ ظاهر ﴿ قُلْ ﴾ يا أكرم الخلق ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَصْبَحَ ﴾ صار ﴿ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أي غائراً في الأرض بالكلية ، ذاهباً لا تناله الدلاء ، ولا يمكن لكم نيله بنوع حيلة ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ ﴾ على ضعفكم حينئذ ﴿ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ أي جارٍ أو ظاهر للعيون ، سهل المأخذ ، يعني تناله الأيدي ، فإن قلت : كيف خص ذكر النعمة بالماء من بين سائر نعمه ؟ قلت : لأن الماء هو أغلى موجود ، وأعز مفقود .

وفي الحديث (سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل فأخرجته من النار ، وأدخلته الجنة ، وهي سورة تبارك)[1] قال في التيسير : هي ثلاثون آية ، وثلاثمائة وثلاث وثلاثون كلمة ، وألف وثلاثمائةوواحد وعشرون حرفاً ، وفي حديث آخر (وددت أن « تبارك الذي بيده الملك » في قلب كل مؤمن)[2] وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأ سورة الملك ، وآلم تنزيل السجدة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (ضرب بعض الصحابة خباءة على قبر ، وهو لا يشعر أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، فأتى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله : ضربت خبائي على قبر ، وأنا لا أعلم أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ، فقال عليه السلام هي المانعة ـ أي من عذاب الله تعالى ـ هي المنجية تُنجيه من عذاب القبر) رواه الترمذي في سننه ، وكانوا يسمونها على عهد رسول الله ﷺ : المنجية .

« تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة الملك »

---

(١) الحديث أخرجه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي : حديث حسن ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٢٤٦ .

(٢) الحديث أخرجه عبد بن حميد في مسنده ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٥٢٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ن ﴾أي هذه سورة ن ، أقسم الله بها على سبيل التأكيد ، على ما عليه عادة الخلق ، مع ما فيه من بيان شأن المقسم به ، والنون حرف واحد في الكتابة ، وثلاثة أحرف في التلفظ ، وقد قال عليه السلام (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنةُ بعشر أمثالها ، لا أقول « الم » حرفٌ ، بل ألف حرف ، ولامٌ حرف ، وميم حرف)[1] أراد عليه السلام بالحرف ما يُتهجَّى به ، فيرجى أن يعطي الله بلفظ « ن » ثلاثين حسنة ، لأنه مشتمل في التلفظ على نونين بينهما واو ، وقال بعضهم : هو مفتاح اسم النور والناصر ، قال سهل قدس سره : النون حرف من أسماء الله تعالى ، وذلك أنه إذا اجتمعت أوائل هذه السور الثلاث « الر » و « حمّ » و « ن » يكون الرحمن وفي المفردات النونُ : الحوت العظيم ، ولذا قال عكرمة في الآية أقسم الله بالحوت وأحلَّ جنسه من غير ذكاة ، فإنه لا يحل إلاَّ ميتتان : السمك والجراد ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ وهو ما يكتب به والواو للقسم والمراد قلم اللوح ، كما جاء في الخبر (إن أوَّلَ ما خلق الله القلم ، ثم قال له اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك من الآجال والأعمال والأرزاق)[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالقلم : قلم الكرام الكاتبين ، أو جنس القلم ، أقسم الله بالدواة والقلم لكثرة منافعهما ، وعظم فوائدهما ، فإن التفاهم بالنطق والبيان إنما يكون بين الحاضرين ، وأما بالنسبة إلى ما غاب وبَعُد من أهل عصر واحد ، فإنما يكون بالكتابة ، كما قال بعضهم : البيانُ نوعان : بيانُ لسانٍ ، وبيان بَنَان ، ومن فضل بيان البيان أن ماتُثبتُه الأقلام باق على الأيام ، وبيان اللسان تدرسه الأعوام ، ولو لم يكن للقلم مزية سوى كونه آلةً لتحرير كتب الله ، لكفى به فضلاً موجباً لتعظيمه ، وعن بعض الحكماء ، قوام أمور الدين والدنيا بشيئين : القلمُ ، والسيف ، لولا القلمُ ، ما قام دين، ولا صلح عيش ، ولا السيفُ لبغى أهل العدوان على أهل الإيمان ، وقد أحسن الشاعر حيث قال :

إن يَخْدِمِ القَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ * لَهُ الرِّقَابُ ودَانَتْ خَوفَه الأُمَمُ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم / ٢٩١٢ / ورواه الدرامي أيضاً وهو حديث صحيح . جامع الأصول ٨ / ٤٩٨ .

(٢) الحديث ذكره المصنف بالمعنى وأخرجه أبو داود والترمذي في باب القدر ، ورواه أحمد في المسند ٥ / ٣١٧ وهو حديث صحيح ، ولفظه (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتبْ ، قال يارب : وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٠٦ والفتح الكبر ١ / ٣٧٧ .

كَـذَا قَضَى اللهُ لـلأَقـلاَمِ مُـذْ بُريتْ * إنَّ السيـوفَ لهـا مُـذْ أُرْهِفتْ خَـدَم

وقال بعضهم :

إذا أقسم الأبطـال يـومـاً بسيفِهِمْ * وعـدُّوه ممـا يجلب المجـدَ والكَرَم
كَفَىٰ قَلَمَ الكُتَّـابِ فَخْراً ورِفْعَـةً * مَـدَى الـدَّهْر أنَّ الله أقسَمَ بـالقَلَمِ

﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ما موصولة ، والسطر : الصف من الكتابة ، سطر فلان كذا أي كتبه سطراً ، وضمير الجمع لأصحاب القلم ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ جواب القسم كأنه قيل : انتفى عنك الجنون يا محمد ، وأنت بريء منه ، ملتبساً بنعمة الله ، التي هي النبوة والرياسة العامة ، والمراد تنزيهه عليه السلام عما كانوا ينسبونه عليه السلام إليه من الجنون ، حسداً وعداوة ومكابرة ، مع جزمهم بأنه عليه السلام في غاية الغايات من حصافة العقل ، ورزانة الرأي ، قال أبو حيان : قوله (بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم ، على سبيل التأكيد والتشديد ، والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه عليه السلام ، فلما قيل إنه مجنون أقسم على نفي ذلك بقوله (نٓ وَالْقَلَمِ) تحقيقاً لتنزيهه ، ثم عاب الله القادح فيه بالجنون بعشر خصال ذميمة بقوله (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ) إلى قوله (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) وكان ردُّ الله عنه وذبُّه أتمَّ من ردِّه عن نفسه ، حيث كان من جملة القرآن باقياً على الألسنة إلى يوم القيامة ﴿ وإنَّ لَكَ ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم ، وتحملك لأعباء الرسالة ﴿ لأَجْراً ﴾ لثواباً عظيماً ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ مع عظمه كقوله تعالى (غَيْرَ مَجْذُوذٍ) أي غير منقوص ولا مقطوع ، ومنه قيل : المنون للمنية ، لأنها تنقص العدد وتقطع المدد ، ويجوز أن يكون معناه غير مكدَّر عليك بسبب المنة ، لأنه ثواب تستوجبه على عملك ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يدرك شأوه أحدٌ من الخلق ، ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر ، لكونك متخلقاً بأخلاق الله ، فلا تتأثر بافترائهم ، ولا تتأذ بأذاهم ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، وكلمة « على » للاستعلاء ، فدلت على أنه عليه السلام مشتمل على الأخلاق الحميدة ، ومستول على الأفعال المرضية ، حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له ، ولهذا قال تعالى (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً وَمَا أنا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) أي لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاق ، لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً ، بل يرجع إليه الطبع .

وقد قسموا الخُلُقَ إلى المحمود ، والمذموم ، وإلى الحسن ، والقبيح ، وكثيراً ما يطلق ويراد المحمود فقط ، لأنه اللائق بأن يسمى خُلُقاً ، ومن هذا قوله تعالى (خُلُقٍ عَظِيمٍ) قال الإمام الرازي : الخُلُق ملكة نفسانية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة ، ونفس الإتيان بالأفعال الجميلة شيء ، وسهولة الإتيان بها شيء آخر ، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة الخلق ، وسمي خُلُقاً لأنه

لرسوخه وثباته صار بمنزلة الخِلْقة ، التي جُبل عليها الإنسان وإن احتاج طول رياضة ومجاهدة ، ولذا قالوا : الخُلُق يتبدل بالمصاحبة والمعاملة ، فيكون الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، على حال المصاحبين من الرِّفاق ، كما في الحديث (المرءُ على دين خَلِيله فلينظرْ أحدُكم من يُخَالِلْ)[1] ومن ذلك كانت مصاحبة الأخيار مستحسنة مرغباً فيها ، ومصاحبة الأشرار مستقبحة مرهباً عنها ، وكذلك يتبدل بالسعي في أسبابه ، ولذلك صنَّف أطباء الأرواح أبواباً في علم الأخلاق ، لبيان ما هو صحة روحانية ، وما هو مرض روحاني ، كما ألف أطباء الأشباح فصولاً ، في علم الأبدان ، لبيان سبب كل مرض وعلاجه ، وإنما أفرد الخلق ووصفه بالعظمة كما وصف القرآن العظيم ، لينبه على أن ذلك الخلق الذي كان عليه السلام عليه ، جامع لمكارم الأخلاق ، اجتمع فيه شكر نوح ، وخلة إبراهيم ، وإخلاص موسى ، وصدقُ وعد إسماعيل ، وصبر يعقوب وأيوب ، واعتذار داود ، وتواضع سليمان وعيسى ، وغيرها من أخلاق سائر الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى (**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**) إذ ليس هذا الهدى معرفة الله تعالى ، لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول عليه السلام ، ولا الشرائع لأن شريعته ناسخة لشرائعهم ، ومخالفة لها في الفروع ، بل المراد منه الاقتداء بكل منهم فيما اختصَّ به من الخُلُقِ الكريم ، إذْ كان كل منهم مختصاً بخلق حسن غالب على سائر أخلاقه ، فلما أمر بذلك ، فكأنه أُمر بجمع جميع ما كان متفرداً فيهم ، فهذه درجة عالية ، لم تتيسر لأحد من الأنبياء عليهم السلام ، فلا جرم وصفه الله بكونه (**عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) كما قال بعض العارفين :

لِكُلِّ نبيٍّ في الأَنَامِ فَضِيلَةٌ * وَجَمْلَتُهَا مَجْمُوعَةٌ لمحمَّدِ

ولم يتصف عليه السلام بمقتضى قوته النظرية إلا بالعلم والعرفان ، والإيقان والإحسان ، ولم يفعل بمقتضى قوته العملية إلا ما فيه رضى الله ، من فرض ، أو واجب ، أو مستحب ، ولم يصدر منه حرام أو مفسد أو مكروه ، فكان هو الملك بل أعلى منه ، ويجمع هذا كله قول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلُقه عليه السلام فقالت : « كان خُلُقه القرآن »[2] أرادت به أنه عليه السلام كان متحلياً بما في القرآن من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأوصاف ، ومتخلياً عما يزجر عنه من السيئات وسفساف الخصال ، وفي رواية قالت للسائل : ألستَ تقرأ القرآن ؟ (**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**) ؟ أي اقرأ الآيات العشرة من سورة المؤمنين ، فذلك خلقه » وفيه تنبه للسامعين على عظائم أخلاقه ، من الإيمان الذي هو أصل الأخلاق القلبية ، والصلاة التي هي عماد الأخلاق البدنية ، والزكاة التي هي رأس الأخلاق المالية إلى آخر ما في

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب / ٤٨٣٣ / والترمذي في الزهد / ٢٣٧٩ / وإسناده حسن جامع الأصول ٦ / ٦٦٧ .

(٢) حديث عائشة (كان خلقه القرآن) أخرجه البخاري في صحيحه .

الآيات قال الجنيد : كان على خلق عظيم ، لجوده بالكونين :

لـــه هِمَمٌ لا منتَهَى لِكِبَـــارهـــا * وَهِمتُـــه الصغرى أجـلُّ من الـــدَّهْرِ

وقد أوتي عليه السلام جوامع الكلم ، لأنه مبعوث لتتميم مكارم الأخلاق كما قال عليه السلام (**إنما بَعثتُ لأتَمِّمَ مَكارمَ الأخلاق**)[1] ، ولذلك قال الله تعالى (**وَإِنَّكَ لعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) وهو عين الصراط المستقيم ، قال بعض الكبار : من أراد أن يرى رسول الله ﷺ - ممن لم يدركه من أمته - فلينظر إلى القرآن ، فكأنَّ القرآن انتشاء صورة جسدية يقال لها « محمد بن عبد الله » وفي كشف الأسرار في تفسير الآية : عُرض عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها ، ورقَّاه الله ليلة المعراج ، وأراه جميع الملائكة والجنة فلم يلتفت إليها ، قال الله تعالى (**مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى**) ما التفت يميناً ولا شمالاً فقال تعالى (**وإنَّكَ لعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) وهو كما قال القائل :

كأنـــك شمس والملـــوك كـــواكب * إذَا طَلَعتْ لم يَبْـــدُ منهن كـــوكب

وفي القصيدة البردية :

فـــاقَ النَبيينَ في خَلْـق وفي خُلُـق * ولم يُـــدَانـــوهُ في عِلْم ولا كَرَمَ

ومن أخلاقه عليه السلام ما أشار إليه قوله ﷺ (صِلْ من قَطَعك ، واعفُ عمن ظَلَمك ، وأحسن إلى من أساء إليك)[2] فإنه عليه السلام ما أمر أمته بشيء قبل الائتمار به ، وفي الحديث (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه ، درجة القائم الصائم)[3] ﴿ **فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ** ﴾ يقال أبصرته وبصرت به : علمته وأدركته ، فإن البصر يقال للجارحة الناظرة ، ولقوة القلب المدركة ، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة فالمعنى فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل ، وقال مقاتل : هذا وعيد بعذاب بدر وهو الأوضح ، ففيه وعدٌ لرسول الله عليه السلام بغلبة الإسلام وأهله ، وبالانتقام من الأعداء ﴿ **بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ** ﴾ أي أيكم الذي ابتلي بفتنة الجنون ، والمفتون بمعنى المجنون أي أيكم المجنون ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ** ﴾ تعالى المؤدي إلى سعادة الدارين ، وَهَام في تيه الضلال ، متوجهاً إلى ما يقضيه إلى الشقاوة الأبدية ، وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر ، بل يحسب الضر نفعاً فيؤثره ، والنفع ضراً فيهجره ﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ إلى سبيله ، الفائزين : بكل مطلوب ،

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي وابن سعد بلفظ (إنما بعثتُ لأتمم صالح الأخلاق) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٤٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه ابن النجار عن علي رضي الله عنه كذا في الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ١٨٩ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم كذا في الترغيب والترهيب ٣ / ٤٠٤ .

الناجين من كل محذور ، فيجزي كلاً من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب ، وإعادة (هو أعلم) لزيادة التقرير ، وفي الآية إشعار بأن المجنون في الحقيقة هو العاصي لا المطيع ، وإشارة إلى أنه الضال عن سبيل الوصول إلى حضرة المولى ، بسبب محبة الدنيا ، والميل إلى شهواتها ، والمهتدي إلى طريق التوحيد والهداية الأبدية ، قال بعض الكبار (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) أي القابلين للتوفيق ، فهداة البيان هم الرسل ، وهادي التوفيق هو الحق تعالى ، فللهادي الذي هو الله الإبانة والتوفيق ، وليس للهادي الذي هو المخلوق إلا الإبانة خاصة ، ومن لا علم له بالحقائق يظن أن العبد إذا صدق في الإرشاد والوعظ ، أثر ذلك القبول في نفوس السامعين ، وإذا لم يصدق في ذلك لم يؤثر ، وهذا من الوهم الفاسد ، فإنه لا أقرب إلى الله ولا أصدق في التبليغ عنه ، ولا أحب للقبول لما جاء من عند الله تعالى من الرسل ، لغلبة الرحمة على قلوبهم ، ومع ذلك ما عمَّ القبول فيمن سمعهم ، بل قال الرسول الصادق في التبليغ (إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيلاً وَنَهَاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً) فلمَّا لم يعمَّ القبول ـ مع تحققنا هذه المهمة العظيمة ـ من أكابر أولي العزم من الرسل ، علمنا أن الهمة مالها أثر جملة واحدة في المدعو ، وأن الذي قبل من السامعين ليس هو من أثر همة الداعي الهادي الذي هو المبلغ ، وإنما هو قوة الاستعداد في محل القبول من حيث ما وهبه الله تعالى .

﴿ **فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ أي إذا تبين عندك ما تقدَّم ، فَدُمْ على ما أنت عليه من عدم طاعتهم فيما يدعونك إليه من الكفِّ عنهم ، ليكفُّوا عنك ، وتصلَّبْ في ذلك ، أمره عليه السلام بالتشدد مع قومه ، وقوِّى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل ، دلت الآية على أن الإطاعة للعاصي عصيان ، والاقتداء بالطاغي طغيان ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ** ﴾ « لو » للتمني ، والإدْهان في الأصل مثل التدهين ، واشتقاقهما من الدهن ، ولكنْ جُعل عبارة عن الملاينة وترك الجد ، والتركيب يدل على لين وسهولة ، والمعنى أحبُّوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور وترك الدعوة ﴿ **فَيُدْهِنُونَ** ﴾ أي فهم يداهنونك حينئذ بترك الطعن فالفاء للعطف على « تُدْهِنُ » فيكون يدهنون داخلاً في حيز « لو » ولذا لم ينصب يدهنون بسقوط النون جواباً للتمني والفعل للاستقبال ، أو الفاء للسببية فهو مسبَّبٌ عن تدهن ، قال بعضهم : لا توافقهم في الظاهر ، كما لاتوافقهم في الباطن ، فإن موافقة الظاهر أثر موافقة الباطن ، وكذا المخالفة وإلا كان نفاقاً سريع الزوال ، ومصانعة وشيكة الانقضاء ، وأمَّا هم فلانهماكهم في الرذائل ، وتعمقهم في التلون ، لتشعب أهوائهم ، وتفرق أمانيهم ، يصانعون ويضون تلك الرذيلة إلى رذيلتهم ، طمعاً في مداهنتك معهم ، ومصانعتك إياهم ، قال بعضهم : المداهنة بيع الدين بالدنيا فهي من السيئات ، والمداراة بيع الدنيا بالدِّين فهي من الحسنات ، ويقال : الإدهان الملاينة لمن لا ينبغي له ذلك ، ولا ينافي الأمر بالمداراة كما ورد في الخبر (أمرت بمداراة الناس)

قال الإمام الغزالي رحمه الله : الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء ، فإن أغضيت لأمرِ دينك ، ولما ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مُدَارٍ ، وإن أغضيت لحظ نفسك ، واجتلاب شهواتك ، وسلامة جاهك فأنت مداهن ، قال أبو الدرداء رضي الله عنه (إنَّا لنبشُّ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم) وهذا معنى المدارة ، وهو مع من يُخَاف شرُّه ﴿ **وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ** ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ، لجهله حرمة اليمين ، وعدم مبالاته من الحنث ، لسوء عقيدته ، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر ، قال في الكشاف : وكفى به مزجرةً لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى (**وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**) انتهى ، ودخل فيه الحلف بغير الله تعالى فإنه من الكبائر ، ﴿ **مَهِينٍ** ﴾ حقير الرأي والتدبير ، لأنه لم يعرف عظمة الله ، ولذا أقدم على كثرة الحلف ، من المهانة وهي القلة والحقارة ﴿ **هَمَّازٍ** ﴾ عيَّاب ، طعَّان ، قال الحسن : يلوي شدقيه في أقفية الناس ، وفي الحديث (لا يكونُ المؤمنُ طعَّاناً ولا لعَّاناً)[1] وفي حديث آخر (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس)[2] يعني من ينظر إلى عيوب نفسه ، يكون ذلك مانعاً له عن النظر إلى عيب غيره ، وذلك لا يقتضي أن لا ينهى العاصي عن معصيته ، اقتداء بأمر الله تعالى بالنهي عن المنكر ، لا إعجاباً بنفسه ، وازدراءً لقدرِ غيره عند الله .

والهمَّاز : مبالغة هامز ، والهمزُ : الطعن والعيب ، واستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ، ويظهر عيوبهم ، ويكسر أعراضهم ، كأنه يضربهم بأذاه إياهم ﴿ **مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** ﴾ نقَّال للحديث من قوم إلى قوم ، على وجه السعاية والإفساد بينهم ، فإن النميم والنميمة : السعايةُ وإظهار الحديث بالوشاية ، وهو من الكبائر ، أما نقل الكلام بقصد النصيحة فواجب ، كما قال من قال (يا مُوسَى إن المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) وفي التعريفات النام : هو الذي يتحدث مع القوم ، فينم عليهم فيكشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، وسواء كان الكشفُ بالعبارة ، أو بالإشارة ، أو بغيرهما وفي الحديث (لايدخل الجنة نمام)[3] أي ماشٍ بالسعاية ﴿ **مَنَّاعٍ** ﴾ مبالغة مانع ﴿ **لِلْخَيْرِ** ﴾ أي بخيل ، والخيرُ : المال ، أو منَّاع الناس من الخير ، الذي هو الإيمان والطاعة ، وكان للوليد بن المغيرة عشرة من البنين ، وكان يقول لهم ولأقاربه : من تبع منكم دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ، وكان الوليد موسراً وكانت له حديقة في الطائف ﴿ **مُعْتَدٍ** ﴾ متجاوز في الظلم أي يتجاوز الحق

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، في البرّ رقم / ١٩٧٨ / .

(٢) الحديث أخرجه الديلمي في مسند الفردوس وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢١٦ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (لا يدخل الجنة قتَّاتٌ) وفي رواية لمسلم « نمَّام » قال ابن الأثير في جامع الأصول ٨ / ٤٥١ : والقتَّاتُ : النمَّام الذي يَنقل الحديث بين الناس ليوقع بينهم ، وانظر أيضاً الفتح الكبير ٣ / ٣٦٠ .

والحدَّ ، بأن يظلم الناس ويتعدَّى عليهم ، ويمكن حمله عل جميع الأخلاق الذمية ، فإن جميعها تجاوز عن حد الاعتدال وفي التأويلات النجمية متجاوز في الظلم على نفسه بانغماسه في بحر الشهوات ، وانهماكه في ظلمة المنهيات ﴿ **أَثِيمٍ** ﴾ كثير الإثم وهو اسم للافعال الشرِّيرة العارية عن الثواب ﴿ **عُتُلٍّ** ﴾ جاف غليظ ، من عَتَله إذا قاده بعنف وغلظة ، قال الراغب العتْلُ الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر ، كعتل البعير ، ومن كان جافياً في المعاملة ، غليظ القلب والطبع ، بحيث لا يقبل الصفات الروحانية ، ولا يلين للحق ، اجترأ على كل معصية ، قال في القاموس : العُتُّل بضمتين مشددة اللام : الأكول الجافي الغليظ ﴿ **بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ أي بعدما عُدَّ من مقابحه ﴿ **زَنِيمٍ** ﴾ دعيّ ملصق بالقوم وملحق في النسب ، وليس منهم ، فالزنيمُ : هو الذي تبناه أحد أي اتخذه إبناً وليس بابن له قال تعالى (**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ**) قال الراغب : الزنيم الزائد في القوم وليس منهم ، أي المنتسب إلى قوم وهو معلق بهم ليس منهم ، وفي القاموس الزنمة محركة شيء يقطع من اذن البعير فيترك معلقاً قال العتبي : لا نعلم أن الله وصف أحداً ، ولا ذكر من عيوبه ، ما ذكر من عيوب « الوليد بن المغيرة » فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً ، في قوله (بَعْدَ ذَلِكَ) دلالة على أن دعوته أشد مَعَايبه ، وأقبح قبائحه ، وكان الوليد دَعِيّاً في قريش وليس من نسبهم وأصلهم ، ادَّعاه أبوه المغيرة بعد ثمان عشرة سنة من مولده وفي الحديث (لا يدخل الجنة الجوَّاظُ ، ولا الجَعْظريُّ ، ولا العتلُّ الزنيم)[1] فالجواظ الجموع المنوع ، والجعظريُّ : الفظُّ الغليظ ، والعتل كل أكول شروب غشوم وفي الحديث (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبَرّه ، ألاَ أخبركم بأهل النار ؟ كلُّ عُتُل جوَّاظ مستكبر)[2] وقيل : بغت أم الوليد ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية ، فمعنى « زنيم » حينئذ ولد الزنى قال الشاعر :

زنيمٌ ليس يُعْرفُ من أبـــــــوه * بَغِيُّ الأمِ ذُو حَسَب لئيم

والغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد الناشيء منها ، والرضاعُ يغيِّر الطباع ، فإن من ارتضع امرأة فالغالبُ عليه أخلاقها من خير وشر ، فما ظنك بالزنى ؟ ولا عبرة بالصلاح الظاهر والكرامات الصورية وفي الحديث (ولدتُ من نكاح لا من سفاح)[3] وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام ﴿ **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** ﴾ أي لا تطع من هذه مثالبُه ، لأن كان ذا مال كثير مستظهراً بالبنين ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ أي إذا تُقرأ عليه آيات كلامنا القديم ، قال : هي أحاديث اكتتبوها

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب وإسناده صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٣٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب باب الكبر ، ومسلم في صفة الجنة برقم / ٢٨٥٣ / وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٣٥ .

(٣) الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ، والطبراني في الأوسط بلفظ (خرجتُ من نكاح ولم أخرج من سفاح ..) الحديث وأشار إلى حسنه وانظر دلائل النبوة ١ / ٦٥ .

كذباً فيما زعموه ، جعل مجازاة النعم التي خولناها له من المال والبنين ، الكفر بآياتنا ، قال المبرِّدُ : الأساطير جمع أسطورة نحو أحدوثة وأحاديث ، وقد سبق نحو هذا ﴿ سَنِسَمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ أصله سنوسمه من الوسم وهو إحداث السِّمة أي العلامة ، والخرطوم كزنبور الأنفُ والمعنى : سنجعل له سمة وعلامة يعرف بها ، بالكيِّ على أكرم مواضعه ، لغاية إهانته وإذلاله ، إذ الأنفُ أكرم موضع من الوجه ، لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقُّوا منه الأَنَفة ، وقالوا الأنف بالأنف ، وحَمَى أنفه ، وقالوا في الذليل : جُدِع أنفه ، ورغم أنفه ، وفي التعبير عن الأنف بلفظ الخرطوم استهانة بصاحبه ، واستقباح له ، لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير ، وكلما كان الحيوان أخبث وأقبح ، كانت الاستهانة والاستقباح أشد وأكثر ، قيل أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها[1] ، وقال الراغب : نلزمه عاراً لا ينحي عنه وهو كنايةٌ عن أن يذلَّه غاية الإذلال ، وذلك لأن الوجه أكرم موضع والأنف أبين عضوٍ منه ، فالوسم على الأنف غاية الإذلال والإهانة ، لأن الوسم على الوجه شين ، فكيف إذا كان على أظهر موضع منه ؟ وكما قال العتبي : وصف الله الوليد بالحلف ، والمهانة ، والهمز ، والمشي بالنميمة ، والبخل ، والظلم ، والإثم ، والجفوة ، والدعوة ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ، قال : والذي يدل على هذا ما روي عن الشعبي في قوله (عتل) حيث قال : العُتُلُّ الشديد ، والزنيم الذي له زنمة من الشر يعرف بها كما تعرف الشاة ، وقيل سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها من سائر الكفرة ، بأن يسوّد وجهه غاية التسويد ، إذْ كان بالغاً في عداوة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام أقصى مراتب العداوة ، فيكون الخرطوم مجازاً عن الوجه على طريق ذكر الجزء وإرادة الكل ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يقال بلوته : اختبرته والبلايا اختبارات والمعنى إنا ابتلينا أهل مكة بالقحط والجوع سبع سنين ، بدعوة رسول الله ﷺ ، حتى أكلوا الجيف والجلود ، والعظام والدم ، لتمردهم وكفرانهم نعم الله تعالى ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي ابتلاءً مثل ابتلاء أصحاب الجنة ، المعروف خبرها عندهم ، والجنة البستان ، وأصحاب الجنة قوم من أهل صنعاء كانت لأبيهم هذه الجنة وهي بستان ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير ، وكانوا بخلاء ، وكان أبوهم يأخذ منها قوت سنة ، ويتصدق بالباقي ، وكان ينادي الفقراء وقت الصَّرام ، ويترك لهم ما أخطأه المنجل ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير ويتزودون به أياماً كثيرة ، فلما مات أبوهم قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن أولو عيال فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ الصِّرامُ والصَّرْم : قطعُ ثمار النخيل ، من صرمه إذا

(١) هذا القول ضعَّفه بعض المحققين ، لأن الوليد مات قبل غزوة بدر ، فلم يوسم بوسم بقي أثره مدة حياته ، والأرجح أن المراد باللفظ في قوله تعالى (سنسمه على الخرطوم) : الذل والهوان الذي يرافقه حياً وميتاً ، كما قاله الزمخشري .

قطعه أي ليقطعن ثمارها من الرطب والعنب ، ويجمعن محصولها من الحرث وغيره ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أي داخلين في الصباح مبكّرين وسواد الليل باق ﴿ وَلاَيَسْتَثْنُونَ ﴾ أي لايقولون « إن شاء الله » وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤداهُ مؤدى الاستثناء ، وقيل : إن المعنى ولا يستثنون حصة المساكين ، أي لا يميزونها ولا يخرجونها كما كان يفعله أبوهم ، وقال أبو حيان : ولا ينثنون عما عزموا عليه من منع المساكين ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ على الجنة أي أحاط بها ﴿ طَائِفٌ ﴾ بلاءٌ طائف ليلاً ، إذ لا يكون الطائف إلا بالليل ، دلَّ عليه ما بعده من ذكر النوم ، وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء فأحرقتها ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي من جهته تعالى ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ غافلون عما جرت به المقادير ، والنوم استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه ، أو أن يتوفى الله النفس من غير موت أي أن يقطع ضوء الروح عن ظاهر الجسد دون باطنه ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي كالبستان الذي صرمت ثماره ، بحيث لم يبق فيها شيء ، لأن النار أحرقتها ﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ حال كونهم داخلين في الصباح ﴿ أَنِ اغْدُوا ﴾ أي اخرجوا غدوة وأول النهار ﴿ عَلَى حَرْثِكُمْ ﴾ بستانكم وضيعتكم ، فالحرث يجوز أن يراد به الحاصل مطلقاً ، وأن يراد به الزرع خصوصاً ، لأنه أعز شيء يعيش به الإنسان قال الراغب : الحرث إلقاءُ البذر في الأرض وتهيئتها للزرع ، ويسمى المحروث حرثاً قال تعالى (أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ) ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴾ قاصدين للصرم وقطع الثمرة وجمع المحصول ﴿ فَانْطَلَقُوا ﴾ فمضوا إليها ﴿ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والسر ، كيلا يسمع أحد ، ولا يدخل عليهم إنسانٌ ﴿ أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا ﴾ أي الجنة ﴿ اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾ من المساكين فضلاً عن أن يكثروا والمسكين هو الذي لا شيء له وهو أبلغ من الفقير ، والمراد بنهي المسكين عن الدخول : المبالغةُ في النهي عن تمكينه من الدخول ﴿ وَغَدَوْا ﴾ مشوا بكرة ﴿ عَلَى حَرْدٍ ﴾ الحردُ : المنع عن حِدَّةٍ وغضب ، يقال نزل فلان حريداً أي ممتنعاً من مخالطة القوم ، وحاردت السنة منعت قطرها ، والناقة منعت درها ، وحرد : غضب ﴿ قَادِرِينَ ﴾ والمعنى وخرجوا أول الصباح على امتناع من أن يتناول المساكين من جنتهم ، حال كونهم قادرين على نفعهم أو على الاجتناء والصرم بزعمهم ، فلم يحصل إلا النكد والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين ، فتعجلوا الحرمان والمسكنة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوْا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي طريق جنتنا ، وما هي بها لما رأوا من هلاكها ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قالوه بعد ما تأملوها ووقفوا على حقيقة الأمر ، أي لسنا ضالين بل نحن محرومون ، حُرِمنا خيرها ، ومنعنا نفعها ، بجنايتنا على أنفسنا بسوء نيتنا ، وهي إرادة حرمان المساكين وقصد منع حق الفقراء ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي رأياً ، أو سنّاً ، وفي الكشاف : أعدلهم وخيرهم ، ومنه قوله تعالى (أُمَّةً وَسَطاً) ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ ؟ لولا تذكرون

الله بالتسبيح والتهليل ، وتتوبون إليه من خبث نيتكم ؟ وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا إليه من هذه العزيمة الخبيثة ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فعيرَّهم ، وفي الآية دليل على أن العزم على المعصية ، مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا ، فعوقبوا قبل فعلهم ، ونظيرها قوله تعالى (**وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**) والعزمُ : قوة قصد الفعل والحزم به ، والمحققون على أنه يؤاخذ به ، وأمَّا الهمُّ هو ترجيح قصد الفعل فمرفوع ﴿ **قَالُوا** ﴾ معترفين بالذنب ، والاعتراف به يُعدُّ من التوبة ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّنَا** ﴾ ننزِّه ربنا عن كل سوء ونقصان ، سيما عن أن يكون ظالماً فيما فعل بنا ﴿ **إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ بقصد حرمان المساكين ، كأنهم قالوا نستغفر الله من سوء صنيعنا ، ونتوب إليه من خبث نيتنا ، حيث قصدنا عدم إخراج حق المساكين من غلة بستاننا ، ولو تكلموا بهذه الكلمة قبل نزول العذاب لنجوا من نزوله ، لكنهم تكلموا بها بعد خراب البصرة ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ** ﴾ اللومة الملامُ : أي يلوم بعضهم بعضاً على ما فعلوا ، فإن منهم من أشار بذلك ، ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت راضياً به ، ومنهم من أنكره ﴿ **قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ** ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى ﴿ **عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا** ﴾ أن يعطينا بدلاً منها ، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ **خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ** ﴾ راجون العفو ، طالبون الخير ، روي أنهم تعاقدوا وقالوا إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعنَّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرعوا إليه فأبدلهم الله ما هو خير منها ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعباً ، وعن الحسن رحمه الله : قول أصحاب الجنة (**إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**) لا أدري إيماناً كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ؟ فتوقف في أمرهم ، والأكثرون على أنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيري .

﴿ **كَذَلِكَ الْعَذَابُ** ﴾ أي مثل الذي بلونا به أهل مكة ، وأصحاب الجنة بعذاب الدنيا ، كذلك أفعل إذا لم تعطف الأغنياء على الفقراء ، بأن أمنعهم القطر ، وأرسل عليهم الجوائح وأرفع البركة من زروعهم وتجارتهم ، ففيه وعيد لمانعي الزكاة والصدقة بإهلاك المال وإنزال العذاب بأي طريق كان ﴿ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** ﴾ أعظم وأشد ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ أنه أكبر لاحترزوا عما يؤديهم إليه ، ويطرحهم ويرميهم عليه ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ أي من الكفر والمعاصي ﴿ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ أي في الآخرة وذكر « عِنْدَ » للتشريف والتكريم ، وذلك لأنه لا مُلْك فيها حقيقةً وصورةً إلا لله ، فكأنها حاضرة عنده تعالى ، يتصرف فيها كيف يشاء ، والأظهر أن معنى (عِنْدَ رَبِّهِمْ) في جوار القدس ، فالمراد عندية المكانة لا عندية المكان كما في قوله تعالى (عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) إذ للمقربين قرب معنوي من الله تعالى ، وعلى ذلك قيل : الملائكة المقربون ﴿ **جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص عن شائبة ما يُنغِّصه من

الكدورات ، وخوف الزوال ، كما عليه نعيم الدنيا ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** ﴾ كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا ، وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة ، وما وعد الله المسلمين ، قالوا : إن صح أنا نُبعث ، كما يزعم محمد ومن معه ، لم تكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فردَّ عليهم الله تعالى ، والهمزة للإنكار أي أنحيف في الحكم ، فنجعل المؤمنين كالكفرة ، في حصول النجاة ، والوصول إلى الدرجات ؟ فالمراد من المجرمين الكافرون على مادل عليه سبب النزول ، وهم المجرمون الكاملون الذين أجرموا بالكفر والشرك ، وإلا فالإجرام في الجملة لا ينافي الإسلام ، نعم المسلم المطيع ليس كالمسلم الفاسق ، ففيه وعظ للعاقل وزجر للمتبصر ، ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده ﴿ **مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ تعجباً من حكمهم واستبعاداً له ، وإيذاناً بأنه لا يصدر عن عاقل ، والمعنى أي شيء لكم حتى حكمتم هذا الحكم القبيح ؟ كأنَّ أمر الجزاء مفوض إليكم ، فتحكمون فيه بما شئتم ﴿ **أَمْ لَكُمْ** ﴾ أي بل ألكم ﴿ **كِتَابٌ** ﴾ نازل من السماء ﴿ **فِيهِ تَدْرُسُونَ** ﴾ أي تقرأون ، عبَّر عن إدامة القراءة بالدرس ﴿ **إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ** ﴾ تخيرُّ الشيء واختياره : أخذُ خيره أي ما تتخيرونه وتشتهونه والمعنى تدرسون في الكتاب إن لكم ما تختارونه لأنفسكم ، وأن يكون العاصي كالمطيع ، فأتوا بكتاب إن كنتم صادقين ﴿ **أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا** ﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ **بَالِغَةٌ** ﴾ أي متناهية في التوكيد والصحة ، لأن كل شيء يكون في نهاية الجودة ، وغاية الصحة ، يوصف بأنه بالغ ، أي بل أضمنَّا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة ، فثبت لكم علينا عهود مؤكدة بالأيمان ؟! ﴿ **إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، لا نخرج عن عهدتها حتى نحكِّم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون ﴿ **إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ** ﴾ جواب القسم ، لأن معنى « أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا » أم أقسمنا لكم كما سبق ﴿ **سَلْهُمْ** ﴾ أمر من سأل : سلهم مبكتاً لهم ﴿ **أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ** ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ **زَعِيمٌ** ﴾ أي قائم يتصدى لتصحيحه ، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم ، وقيل : من الزعامة أي الكفالة ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ** ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ في دعواهم اذلا أقل من التقليد ، يعني أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب ، وهو التسوية بين المحسن والمسيء ، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه ، ولا عهود موثقة بالأيمان ، ليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول ، حتى يقلِّدوهم ، وان كان التقليد لا يُفلح من تَشبَّث بذيله ، فثبت أن ما زعموا باطل من كل الوجوه ، وفيه إشارة إلى أن اللائق بالحاكم تحرِّي الصواب ، بقدر الوسع فيما ليس بحاضر عنده ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ** ﴾ يوم منصوب باذكر المقدر ، والمراد يوم القيامة أي اذكر يوم يشتد الأمر ، ويصعبُ الخطبُ ، وكشفُ الساق مَثَلٌ في ذلك ، ولا كشف ولا ساق ثمة ، كما تقول للأقطع الشحيح : يدُهُ مغلولة ، ولا يد ثمة ولا غل ،

وإنما هو مثل في البخل ، فكشف الساق استعارة تمثيلية ، في اشتداد الأمر وصعوبته ، قال المولى الفناري في تفسير الفاتحة فالساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة ، تقول العرب كشفت الحرب عن ساقها إذا عظم أمرها ، وتقول لمن وقع في أمر عظيم شديد يحتاج فيه إلى جهد ومقاساة : شَمِّرْ عن ساقك ، وكذلك (التَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ) أي دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها في بعض يوم القيامة ، وقيل : المعنى يوم يكشف عن أصل الأمر ، فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً ، وتنكيره على الوجه الأول للتهويل ، وعلى الثاني للتعظيم ﴿ **وَيُدْعَوْنَ** ﴾ أي الكفار والمنافقون ﴿ **إِلَىٰ السُّجُودِ** ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إيَّاهُ في الدنيا ، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك ، لا على سبيل التكليف والتعبد ، لأن يوم القيامة لا يكون فيه تعبُّدٌ ولا تكليف ﴿ **فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ لزوال القدرة الحقيقية عليه ، وسلامة الأسباب والآلات ، وفيه دلالة على أنهم يقصدون السجود ، فلا يتأتى منهم ذلك ، عن ابن مسعود تعقم أصلابهم أي ترد عظاماً بلا مفاصل ، لا تنثني عند الرفع والخفض ، فيبقون قياماً على حالهم حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على تفريطهم ، وفي الحديث (وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً ، كأن سفافيد الحديد في ظهورهم)[1] وروى الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا كان يوم القيامة ، مُثِّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا ، فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا ، ويبقى أهل التوحيد ، فيقال لهم : كيف بقيتم ؟ فيقولون إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا ولم نره ، فيقال أتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون نعم ، فيقال لهم : كيف ولم تروه ؟ قالوا لا يشبهه شيء ، فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجداً ، ويبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر ، فيريدون السجود ولا يستطيعون ، كقوله تعالى (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**) إلخ فيقول الله يا عبادي ارفعوا رؤوسكم ، قد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار)[2] قال أبو بردة فحدثت بهذا الحديث « عمر بن عبد العزيز » رحمه الله ، فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، أَحَدثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلفت له بثلاثة أيمان ، فقال عمر : ما سمعتُ من أهل التوحيد حديثاً هو أحبَّ إليَّ من هذا الحديث ، وفي تفسير الفاتحة للفناري رحمه الله (يتجلى الحق في ذلك اليوم ، فيقول : لتتبعْ كل أمة ما كانت تعبد ، حتى تبقى هذه الأمة وفيها منافقوها ، فيتجلى لهم الحق في أدنى صورة من الصور التي كان يتجلى لهم فيها قبل ذلك ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك ، نحن منتظرون حتى يأتينا ربنا ، فيقول لهم جل وعلا : هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيتحول لهم في الصورة التي عرفوه فيها بتلك العلامة ،

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه ابن جرير والدارقطني والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث بنحوه ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٥٦ .

فيقولون أنت ربنا ، فيأمرهم بالسجود فلا يبقى من كان يسجد لله إلا سجد ، ومن كان يسجد اتقاء ورياء جعل ظهره طبقة نحاس ، كلَّما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه وذلك قوله تعالى (يَوْمَ يُكْشَف عَن سَاق)[١] إلخ وفي الحديث (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) قيل عن نور عظيم ، ويخرون له سجداً »[٢] .

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ نسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها ، وإلا فالأعضاء أيضاً ذليلة متواضعة ، قال أبو الليث : وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود ، صارت بيضاء كالثلج ، فلما نظر إليهم اليهود والنصارى والمنافقون ، وهو الذين لم يقدروا على السجود ، حزنوا واغتمُّوا واسودت وجوههم كما قال تعالى ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تلحقهم وتغشاهم ، فإن الرهق غشيان الشيء ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ شديدة تخزيهم ، كأنه تفسير لخشوع أبصارهم ﴿ وَقَدْ كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ يُدْعَوْنَ ﴾ دعوة التكليف ﴿ إِلَى السُّجُودِ ﴾ المراد به الصلاة أو ما فيها من السجود ، وخص السجود بالذكر ، من حيث إنه أعظم الطاعات ، قال بعضهم : يُدعون بدعوة الله صريحاً مثل قوله تعالى (فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا) أو ضمناً مثل قوله تعالى (أَقِيمُوا الصَّلاَةَ) فإن الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى السجدة ، وبدعوة رسول الله عليه السلام كقوله عليه السلام (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)[٣] وبدعوة علماء كل عصر ، ومن أعظم الدعوة إلى السجود ، أذان المؤذنين واقامتهم ، فإن قولهم « حيَّ على الصلاة » دعوة بلا مرية ، فطوبى لمن أجاب دعوتهم بطوع لابإكراه ، امتثالاً لقوله تعالى (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ) ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ أي أصحَّاءُ في الدنيا ، سلمت أعضاؤهم ومفاصلهم من الآفات والعلل ، متمكنون من أداء السجدة أقوى تمكن ، أي فلا يجيبون إليه ويأبونه ، وإنما ترك ذكره ثقة بظهوره ، وفي الآية وعيد لمن ترك الصلاة المفروضة ، أو تخلَّف عن الجماعة المشروعة ، وفي الحديث أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ « ادع الله أن يرزقني مرافقتك في الجنة ، فقال أعنِّي على نفسك بكثرة السجود »[٤] وقال الشيخ أبو طالب المكي في قوت القلوب : ولابد من صلاة الجماعة ، سيما إذا سمع التأذين أو كان جوار المسجد ، وحدُّ الجوار أن يكون بينه وبين المسجد مائة دار ، وأولى المساجد التي يصلي فيها أقربها إليه ، إلا أن يكون به نية في الأبعد لكثرة الخطى ، أو لفضل إمام فيه ، فالصلاة خلف العالم الفاضل أفضل ، ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ ﴾ أي فدَعْني ومن يكذب بالقرآن ، وخلِّ بيني وبينه ، ولا تشغل قلبك بشأنه ،

---

(١) الحديث مروي بالمعنى ، وقد أخرجه البخاري في الرقاق بلفظ (يجمع الله الناس ، فيقول من كان يعبد شيئاً فليتَّبعه ، فيتَّبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ ..) الحديث وانظر الحديث بطوله في فتح الباري ١١ / ٤٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه أبو يعلى وابن المنذر ، والبيهقي في الأسماء والصفات وضعَّفه ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٥٤ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي ، ورواه الترمذي بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٤ / ١٤٤ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة وأبو داود والنسائي وأحمد في المسند ٤ / ٥٩ .

وتوكل عليَّ في الانتقام منه ، فإني كافيك أمره قال في فتح الرحمن : هذا وعيدٌ ولم يكن ثمة مانع ، ولكنه كما تقول : دعني مع فلان أي سأعاقبه ، والحديث القرآن ، لأن كل كلام يبلغ الإنسان ، من جهة السمع أو الوحي ، يقال له حديث ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ** ﴾ يقال استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجةً درجةً ، حتي يُوَّرطه فيه والمعنى سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة ، بالإحسان وإدامة الصحة ، وازدياد النعمة ، حتى نوقعهم فيه ، فاستدراج الشخص إلى العذاب عبارة عن هذا الاستنزال والاستدناء ﴿ **مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج ، وهو الإنعام عليهم ، لأنهم يحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلاً على المؤمنين ، وهو سبب لهلاكهم وفي الحديث (إذا رأيت الله ينعم على عبدٍ وهو مقيم على معصيته ، فاعلم أنه مستدرج)[1] وتلا هذه الآية ، وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « من وُسِّع عليه في دنياه ، فلم يعلم أنه قد مُكر بهِ ، فهو مخدوع عن عقله » وروُي أن رجلاً من بني إسرائيل قال : « يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني ؟ فأوحى الله إلى نبي زمانه أن قل له : كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر كونها عقوبة ؟ إن جمود عينك ، وقساوة قلبك ، استدراج مني ، وعقوبة لو عقلت » قال بعض العلماء : من المكر الإلهي بالعبد ، أن يُرزق العلم ، ويُحرم العمل به ، أو يرزق العمل ويُحرم الإخلاص فيه ، فمن علم اتصافه بهذا من نفسه ، فليعلم أنه ممكور به ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ** ﴾ أي وأمهلهم بإطالة العمر ، وتأخير الأجل ، ليزدادوا إثماً وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم ﴿ **إِنَّ كَيْدِي** ﴾ أي أخذي بالعذاب ﴿ **مَتِينٌ** ﴾ قوي شديد لا يطاق ولا يدفع بشيء ، وفي الكشاف : سمَّى إحسانه وتمكينه كيداً ، كما سمَّاه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة ، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك ، قال بعضهم : الكيد إظهار النفع وإبطان الضر للمكيد ، وفي المفردات : الكيد ضرب من الاحتيال وقد يكون محموداً ومذموماً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، وكذلك الاستدراج والمكر ، ولكون بعض ذلك محموداً قال تعالى (**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ**) قال بعضهم : أراد بالكيد العذاب ، والصحيح أنه الإمهال المؤدي إلى العذاب انتهى وفي التعريفات : الكيد إرادة مضرة الغير خفية ، وهو من الخلق الحيلةُ السيئة ، ومن اللهِ التدبير بالحقّ ، لمجازاة أعمال الخلق ﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ** ﴾ معطوف على قوله (أم لهم شركاء) ﴿ **أَجْراً** ﴾ دنيوياً ﴿ **فَهُمْ** ﴾ لأجل ذلك ﴿ **مِنْ مَغْرَمٍ** ﴾ أي من غرامة مالية ﴿ **مُثْقَلُونَ** ﴾ مكلفون حملاً ثقيلاً فيعرضون عنك أي أنت لا تسأل منهم ذلك ، فليس لهم عذر في إعراضهم وفرارهم ﴿ **أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ** ﴾ أي اللوح أو المغيبات ﴿ **فَهُمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ منه ما يحكون من التسوية بين المؤمن والكافر ، ويستغنون به عن علمك ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ وهو

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١١٢ .

إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ﴿ وَلاَتَكُنْ ﴾ في التضجر والعجلة ﴿ كَصَاحِبِ الْحُوْتِ ﴾ أي يونس عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَى ﴾ داعياً إلى الله في بطن الحوت بقوله (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غيظاً وغماً أي لا يكن حالك كحاله وقت ندائه ، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجرة والمغاضبة ، فتبتلى ببلائه ﴿ لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ ﴾ ناله وبلغه ووصل إليه ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ رحمة كائنة ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه ﴿ لَنُبِذَ ﴾ أي لطرح من بطن الحوت ، فإن النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ﴿ بِالعَرَاءِ ﴾ أي بالأرض الخالية من الأشجار ، قال الراغب : العراءُ مكان لاسترة فيه ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ مطرود من الرحمة والكرامة ، لكنه رحم فنبذ غير مذموم ، بل سقيماً من جهة الجسد ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي فتداركته نعمة ورحمة من ربه ، فجمعه إليه وقرَّبه ، بالتوبة عليه ، بأن ردَّ إليه الوحي ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِين ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عَصَمه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى .

ودلَّت الآيات على فضيلة الصبر ، وعلى أن ترك الأولى يصدر من الأنبياء عليهم السلام ، وعلى أن الندم على ما فرط من العبد والتضرع إلى الله لذلك من وسائل الإكرام ، وعلى أن توفيق الله نعمة باطنة منه ، وعلى أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة واللام دليلها ﴿ يَكَادُ الَّذِين كَفَرُوا لَيُزْلِقُوْنَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ يقال أزلقه : أزلَّ رجله ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرِ ﴾ والمعنى أنهم من شدة عداوتهم لك ، ينظرون إليك شزراً أي نظر الغضبان بمؤخر العين ، بحيث يكادون يزلون قدمك ، فيرمونك وقت سماعهم القرآن ، وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند استماعه ، من قولهم نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني أي لو أمكنه بنظره الصرع لفعله ، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين ، والعَيَّانُ شديدُ الإصابة بالعين .

وفي الحديث (العين حق) [1]أي أثرها في المعين واقع ، ولما خاف يعقوب عليه السلام على أولاده من العين ، لأنهم أُعطوا جمالاً ، وقوةً ، وامتداد قامة ، وكانوا ولد رجل واحد (قَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) فأمرهم أن يتفرقوا في دخولها لئلا يُصَابوا بالعين ، وكان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين فيقول (أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة ، ويقول : هكذا كان يعوِّذ إبراهيم إسماعيل واسحق عليهم السلام)[2] وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله عليه السلام في أول النهار فرأيته شديد الوجع ، وعدت إليه آخر

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ (إن العين حق) وانظر جامع الأصول ٧ / ٥٨٣ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي في الطب ، وأحمد في المسند ١ / ٢٣٦ .

النهار فوجدته معافى ، فقال إن جبريل أتاني فَرَقاني فقال (بسم الله أرقيك ، من كلِّ شيء يؤذيك ، ومن كل عينٍ وحاسدٍ اللهُ يشفيك)[١] يقال : رقاه الراقي رقياً ورقية : إذا عوَّذه ونفث في عَوْذته ، وإنما تكره الرقية إذا كانت بغير لسان العرب ، ولا يدرى ما هو ؟ ولعله يدخله سحرٌ أو كفرٌ ، وأما ما كان من القرآن أو شيء من الدعوات ، فلا بأس به وفي الحديث (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين)[٢] أي لو كان شيء مهلكاً أو مضراً بغير قضاء الله وقدره ، لكان العين أي إصابتها لشدة ضررها ، وعنه عليه السلام (إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر)[٣] ومما يدفع العين ما روي إن عثمان رضي الله عنه رأى صبياً مليحاً فقال : دسِّموا نونته لئلا تصيبه العين ، أي سوِّدوا نقرة ذقنه ، ومن الشفاء من العين أن يقال على ماء في إناء نظيف ويسقيه منه (**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ**) والفاتحة ، وآية الكرسي ، وست آيات الشفاء وهي (**وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**) (**وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**) (**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**) (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**) (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) (**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**) ومن الشفاء أن يؤمر العائن فيغتسل أو يتوضأ بماء ، ثم يغتسل به المعين ، قيل : وجه إصابة العين أن الناظر إلى شيء إذا استحسنه ولم يرجع إلى الله ، وإلى رؤية صنعه ، قد يُحْدث الله في المنظور علة ، بجناية نظره على غفلة ابتلاءً لعباده ، فيُؤاخذ الناظر لكونه سببها ، ووجَّهها بعضٌ بأن العائن قد ينبعث منه من عينه قوة سمية ، تتصل بالعين فيهلك أو يفسد ، كما قيل مثل ذلك في بعض الحيَّات ، والحاصل أن الرُّقْية بما ليس بشركٍ مشروعة ، لكن التحرز من العين لازم ، وأنه واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبارك فيقول (تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ) اللهم بارك فيه ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ، ومن عُرِف بإصابة العين مُنع من مداخلة الناس ، دفعاً لضرره ، قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ، وإن كان فقيراً ، رزْقه ما يقوم به معاشه ، ويكفُّ أذاه عن الناس ، وبهذا التقرير يعرف حال المجذومين ، ولذا اتخذوا لهم في بعض البلاد مكاناً مخصوصاً ، بحيث لا يخالطون الناس ولا يشاركونهم في محلاتهم ، ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ لغاية حيرتهم في أمره عليه السلام ، ونهاية جهلهم بما في القرآن من بدائع العلوم ، ولتنفير الناس عنه ، وإلاَّ فقد علموا أنه أعقلهم ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ عليه السلام ﴿ **لَمَجْنُونٌ** ﴾ الظاهر أنه مثل قولهم (يَأَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) كما قال الوليد ابن المغيرة « مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » يعني يأتيه رئي من الجن فيعلمه ، وحيث كان مدار

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الطب ، والترمذي في الجنائز رقم / ٩٧٢ / وانظر جامع الأصول ٧ / ٥٦٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ (العين حق ، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا) وانظر جامع الأصول ٧ / ٥٨٣ .

(٣) الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ، وأبو نعيم في الحلية ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٥٣ .

حكمهم الباطل ماسمعوا منه عليه السلام ، رُدَّ ذلك ببيان علو شأنه ، وسطوع برهانه ، فقيل : ﴿ **وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ أي يقولون ذلك والحال أن القرآن ذكر للعالمين ، من الجن والإنس أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه ، من أمور دينهم ، فأين من أنزل عليه ذلك ، ممَّا قالوا في حقه من الجنون ؟ أي إنه من أدلِّ الأمور على كمال عقله ، وعلو شأنه ، فمن نسب إليه القصور ، فإنما هو من جهله وسفهه ، فإن الفضل لا يعرفه إلاَّ ذووه .

إذا لم يَكُنْ للمَرءِ عينٌ صَحِيحـــــةٌ * فَلاَ غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ وَالصُّبْحُ مُسْفِرُ

وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكونه ذكراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه .

تم بعونه تعالى تفسير سورة ن

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الحَاقَّةُ** ﴾ هي من أسماء القيامة ، من حَقَّ يحقُّ بالكسر ، إذا وجب وثبت ، لأنها يجب مجيئها ويثبت وقوعها كما قال تعالى (**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا**) فالإسناد حقيقي ﴿ **مَا الحَاقَّةُ** ﴾ الأصل ما هي ؟ أيْ أيُّ شيء هي في حالها وصفتها ؟ كرر اللفظ تأكيداً ، لهولها كما يقال : زيد ما زيد ؟ على التعظيم لشأنه ، فإن الفائدة بيان أن الحاقة أمر بديع ، وخطب فظيع ، ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ** ﴾ من الدراية بمعنى العلم ، والمعنى وأيُّ شيء أعلمك يا محمد ﴿ **مَا الحَاقَّةُ** ﴾ الجملة تأكيد لهول الساعة وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات ، على معنى أن عِظَم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ** ﴾ قوم صالح ، من الثمد وهو الماء القليل ﴿ **وَعَادٌ** ﴾ قوم هود وهي قبيلة أيضاً ﴿ **بِالقَارِعَةِ** ﴾ من جملة أسماء الساعة أيضاً لأنها تقرع الناس بفنون الأفزاع والأهوال ، أي تصيبهم بها ، تقرع السماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار ، ووضعت موضع ضمير الحاقة ، للدلالة على معنى القرع فيها زيادة في وصف شدتها فإن في القارعة ما ليس في الحاقة من الوصف ، يقال : أصابتهم قوارع الدهر أي أهواله وشدائده ، وقوارع القرآن للآيات التي تقرأ حين الفزع من الجن والإنس ، لقرع قلوب المؤذين بذكر جلال الله ، والاستمداد من رحمته وحمايته ، مثل آية الكرسي ونحوها ، وفي الآية تخويف لأهل مكة من عاقبة تكذيبهم بالبعث والحشر ﴿ **فَأَمَّا ثَمُودُ** ﴾ وكانوا عَرَباً منازلهم بالحِجْر بين الشام والحجاز ، يراها حجاج الشام ذهاباً وإياباً ﴿ **فَأُهْلِكُوا** ﴾ أي أهلكهم الله لتكذيبهم ﴿ **بِالطَّاغِيَةِ** ﴾ أي بالصيحة التي جاوزت حدّ سائر الصيحات ، في الشدة ، فرجفت منها الأرض والقلوب ، وتزلزلت ، فاندفع ما يرى من التعارض بين قوله تعالى (**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**) والقصة واحدة ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ** ﴾ وكانت منازلهم بالأحقاف ـ وهي الرمل بين عمان إلى حضر موت واليمن ـ كانوا عرباً أيضاً ذوي بسطة في الخَلْق ، وكان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ، وأوسطهم ما بين ذلك ، وكان رأس الرجل منهم كالقبة ، وتأخيره عن ثمود مع تقدمهم زماناً ، من قبيل الترقي من الضال الشديد ، إلى الأضلّ الأشدّ

﴿ **فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ** ﴾ هي الدبور لقوله عليه السلام (نُصِرتُ بالصَّبَا ، وأهلكت عاد بالدبور)[1] ﴿ **صَرْصَرٍ** ﴾ أي شديدة الصوت ، لها صرصرةٌ في هبوبها ، أو شديدة البرد تحرق ببردها النبات والحرث ،

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٦٢ .

فإن الصِّر بالكسر شدة البرد ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ مجاوزة للحد في شدة العصف ، كأنها عتت عن خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها ، والرياح مسخرة لميكائيل أعوان ملك الموت ، روي أنه ما يخرج من الريح شيء إلا بقدر معلوم ، ولما اشتد غضب الله على قوم عاد ، أصابتهم ريح خارجة عن ضبط الخزان ، ولذلك سميت عاتية ، أو المعنى : عاتية على عاد فلم يقدروا على ردها بحيلة ، من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء في حفرة ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتُهلكهم ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ التسخير : سوق الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ، والمعنى سلَّط الله تلك الريح الموصوفة على قوم عاد ، بقدرته القاهرة كما شاء ، ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾ الليالي جمع ليلة ، وتجمع الليلةُ على الليالي بزيادة الياء على غير القياس ، فيحذف ياؤها حالة التنكير بالإعلال ، مِثل الأهالي والأهال ، في جمع أهل ﴿ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ ذكَّر العدد لكون الأيام جمع يوم وهو مذكر ﴿ حُسُوماً ﴾ جمع حاسم كشهود جمع شاهد ، بمعنى حاسمات ، أي متتاليات أو قاطعات قطعت دابرهم ، والحاصل أن تلك الرياح فيها ثلاث حيثيات : الأولى تتابع هبوبها ، والثانية كونها قاطعة لكل خير ، ومستأصلةً لكل بركة أتت عليها ، والثالثة كونها قاطعة دابرهم ، فسميت حسوماً بمعنى حاسمات ، وسمي السيف حساماً لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته ، وهي كانت أيام برد العجوز من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر ﴿ فَتَرَى ﴾ يا محمد أو يا من شأنه أن يرى ويبصر ، إن كنت حاضراً حينئذ ﴿ الْقَوْمَ ﴾ أي قوم عاد فاللام للعهد ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَىٰ ﴾ موتى جمع صريع ، كقتلى وقتيل بمعنى مصروع أي مطروح على الأرض ، ساقط لأن الصرع الطرح ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أي مصروعين مشبهين بأصول نخل ، والعَجُز مؤخر الشيء ، أو أعجاز النخل أصولها ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ أصل الخوى : الخلاءُ ، والمعنى ساقطة متآكلة الأجواف فارغة لا شيء فيها ، يعني أنهم متساقطون على الأرض أمواتاً طوالاً غلاظاً ، كأنهم أصول نخل مجوفة بلا فروع ، شبهوا بها من حيث إن أبدانهم خوت وخلت من أرواحهم كالنخل الخاوية ، وقيل : كانت الريح تدخل من أفواههم ، فتخرج مافي أجوافهم من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية ، ففيه إشارة إلى عظم خلقهم ، وضخامة أجسادهم ولذا كانوا يقولون (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ الاستفهام لإنكار الرؤية ، والباقية اسم كالبقيَّة أي ما ترى منهم بقية من صغارهم وكبارهم ، وذكورهم وإناثهم ، غير المؤمنين ، ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف بمعنى نفس باقية ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي فرعون موسى ، أفرده بالذكر لغاية علوه واستكباره ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ ومن تقدَّمه من الكفرة ، غير عاد وثمود ، فهو من قبيل التعميم بعد التخصيص ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ أي قرى قوم لوط ، يقال أفكه عن الشيء أي قلبه ، وائتفكت البلدة بأهلها أي انقلبت ، والله تعالى قلب قرى قوم لوط عليهم ، فهي المنقلبات بالخسف ، وهي خمس قريات « صعبة،

وصعدَة ، وعمرَة ، ودوما ، وسدوم » وهي أعظم القرى ، لأن قوم لوط أتَوْا بفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين ﴿ **بِالخاطِئَةِ** ﴾ أي بالخطأ أو الأفعال ذات الخطأ العظيم ، التي من جملتها تكذيب البعث والقيامة ﴿ **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ** ﴾ أي فعصت كل أمة رسولهم ، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ، فالرسول هنا بمعنى الجمع ، لأن فَعُولاً وفَعِيلاً يستوي فيهما المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع ، فالإضافة ليست للعهد بل للجنس ﴿ **فَأَخَذَهُمْ** ﴾ أي الله تعالى بالعقوبة أي كل قوم منهم ﴿ **أَخْذَةً رَابِيَةً** ﴾ أي زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار ، لما زادت معاصيهم في القبح ، أغرق من كذَّب نوحاً ، وهم كل أهل الأرض ، غير من ركب معه السفينة ، وحمل مدائن لوط بعد أن نتقها من الأرض على متن الريح ، بواسطة من أمره بذلك من الملائكة ، ثم قلبها وأتبعها الحجارة ، وأغرق فرعون وجنوده أيضاً في بحر القلزم أو في النيل ، وهكذا عوقبت كل أمة عاصية بحسب أعمالهم القبيحة ، وجوزيت جزاء وفاقاً ، وفي كل ذلك تخويفٌ لقريش ، وتحذير لهم عن التكذيب ، وفيه عبر موقظة لأولي الألباب ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** ﴾ أي جاوز حده المعتاد ، حتى ارتفع على أرفع جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿ **حَمَلْنَاكُمْ** ﴾ أيها الناس أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ، فكأنكم محمولون بأشخاصكم ، وفيه تنبيه على المِنَّة في الحمل ، لأن نجاة آبائهم سبب ولادتهم ﴿ **فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ يعني في سفينة نوح ، لأن من شأنها أن تجري على الماء ، والمراد بحملهم رفعهم فوق الماء ، إلى انقضاء أيام الطوفان ، وحفظناكم في السفينة الجارية ، بأمرنا وحفظنا من غير غرق ، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم عصمته تعالى ، وإنما السفينة سبب صوريٌّ ﴿ **لِنَجْعَلَهَا** ﴾ أي لنجعل الفعلة ، التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين ﴿ **لَكُمْ تَذْكِرَةً** ﴾ عبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته ، وقوة قهره وسعة رحمته ﴿ **وَ تَعِيَهَا** ﴾ أي تحفظها والوعي أن تحفظ العلم ، والإيعاءُ أن تحفظه في غير نفسك من وعاء ، قال عليه السلام لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما (لا توعِي فيُوعِي اللهُ عليكِ)[1] وقال الشاعر :

الخيرُ يبقى وإن طَالَ الزمانُ به * والشرُّ أخبثُ مـــا أوعيتَ من زاد

﴿ **أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ أي أُذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، بتذكره والتفكر فيه ، ولا تضيعه بترك العمل به ، والتنكير والتوحيد لم يقل « الآذان الواعية » للدلالة على قلتها يعني أن من وعى هذه القصة ، إنما يعيها ويحفظها لأجل أن يذكرها للناس ، ويرغبهم في الإيمان المنجي ، ويحذرهم عن الكفر المردي ، فيكون سبباً للنجاة ، قال في الكشاف : الأُذنُ الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله ، فهي السواد

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ولفظه (تصدَّقي ولا توعي فيوعي الله عليك) أي لا تمسكي وتبخلي يمسك الله عنك العطاء ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٧٣ .

الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالي بهم ، وإن ملأوا ما بين الخافقين ، وفي الحديث (أفلح من جعل الله له قلباً واعياً)[١] قال بعضهم : تلك آذان أسمعها الله في الأزل خطابه ، فهي واعية تعي من الحق كل خطاب ، وعن أبي هريرة أنه قال (قيل لي : إنك تكثر رواية الحديث ، وغيرك لا يروي مثلك ، فقلت : إن المهاجرين والأنصار كان شغلهم عمل أموالهم ، وكنت أمرءاً مسكيناً ، ألزم رسول الله وأقنع بقوتي ، وقال عليه السلام يوماً من الأيام : إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي ، ثم يجمع إليه ثوبه ، إلاَّ وعى ما أقول ، فبسطت نَمِرةً عليَّ حتى إذا قضى مقالته جمعتها إلى صدري ، فما نسيتُ من مقالته عليه السلام شيئاً)[٢] ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ** ﴾ شروع في بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها ، والنفخ إرسال الريح من الفم ، والصُّورُ : قَرْنٌ من نور أوسع من السموات ، ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله ، فيحدث صوت عظيم ، فإذا سمع الناس ذلك الصوت يموتون إلا من شاء الله ، والمراد بها ههنا النفخة الأولى التي لا يبقى عندها حيوان إلا مات ويكون عندها خراب العالم ، لما دل عليه الحمل والدك الآتيان ، وذكر الواحدة للتأكيد ، لأن النفخة لا تكون إلا واحدة ﴿ **وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ** ﴾ أي قلعت ورفعت من أماكنها ، بمجرد القدرة الإلهية ﴿ **فَدُكَّتَا دَكَّةً واحِدَةً** ﴾ أي فضربت جملة الأرضين وجملة الجبال ، إثر رفعها بعضها ببعض ، ضربة واحدة ، بلا احتياج إلى تكرار الضرب ، حتى ترجع كثيباً مهيلاً ، وهباءً منبثاً ، والدكُّ أبلغ من الدق ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ** ﴾ أي فحينئذ ﴿ **وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ** ﴾ هي من أسماء القيامة بالغلبة ، لتحقق وقوعها ، إي إذا كان الأمر كذلك قامت القيامة التي توعدون بها ، أو نزلت النازلة العظيمة ، التي هي صيحة القيامة ، وهو جوابٌ لقوله (**فَإذا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ**) ﴿ **وانْشَقَّتِ السَّمَاءُ** ﴾ يعني انفرجت لنزول الملائكة ، لأمر عظيم أراده الله ، كما قال (**ويَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً**) وبسبب شدة ذلك اليوم ﴿ **فَهِيَ** ﴾ أي السماء ﴿ **يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ ضعيفة مسترخية ، ساقطة القوة ، بعدما كانت محكمة مستمسكة ﴿ **وَالْمَلَكُ** ﴾ أي الملائكة ﴿ **عَلَىٰ أَرْجَائِهَا** ﴾ أي جوانب السماء ، جمع رجى بالقصر ، والمعنى تنشق السماء التي هي مساكنهم ، فيلجأون إلى أكنافها وحافتها ، وذلك قبل مجيء الرب تعالى ، فإذا فرَّ الناس خوفاً من جهنم ، يجدون الملائكة صفوفاً لا يتجاوزونهم ، فتطردهم الملائكة ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ** ﴾ وهو جسم عظيم لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، لأنه في الآفاق بمنزلة القلب في النفس ﴿ **فَوْقَهُمْ** ﴾ أي فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **ثَمَانِيَةٌ** ﴾ من الملائكة وروي ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة ، والعرش فوق رؤسهم ،

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي بلفظ (أفلح من رُزق لبّاً) وانظر الفتح الكبير ـ / ٢١٥ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي في كتاب العلم وانظر جامع الأصول ٨ / ٢١ والرواية هنا ذُكرت بالمعنى .

وهم مطرقون مسبِّحون ، وروي عن الضحاك أنهم ثمانية صفوف من الملائكة ، لا يعلم عددهم إلا الله ، والقول الأول أنسب لكونه أدخل في العظمة والهيبة ، وإظهار القدرة ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ** ﴾ على الله أي تُسألون وتحاسبون ، عبَّر عنه بذلك ، تشبيهاً له بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم ، روي أن في يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب ، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه ، والهالك بشماله .

﴿ **لاَ تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ أي تعرضون غير خاف عليه تعالى سرٌ من أسراركم ، وإنما العرض لإفشاء الحال والمبالغة في العدل ، وغير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى (**يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ**) قال صاحب الكشاف : خافية أي سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا ، بستر الله عليكم ، والسر والسريرة الذي يكتم ويخفى ، فتظهر يوم القيامة أحوال المؤمنين ، فيتكامل بذلك سرورهم ، وتظهر أحوال غيرهم فيحصل الحزن والافتضاح ، ففي الآية زجر عظيم عن المعصية ، لكونها تؤدِّي إلى الافتضاح على رؤوس الخلائق ، فقلب الإنسان ينبغي أن يكون بحال ، لو وضع في طبق وأدير على الناس ، لما وجد فيه ما يورث الخجالة ، وهو صفة أهل الإخلاص والتضحية ﴿ **فَأَمَّا** ﴾ تفصيل لأحكام العرض ﴿ **مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ** ﴾ أي مكتوبه الذي كتبت الحفظة فيه تفاصيل أعماله ﴿ **بِيَمِينِهِ** ﴾ تعظيماً له ، لأن اليمين يُتَيَمَّنُ بها ، والمراد منهم الأبرار لمكانتهم من الله تعالى ﴿ **فَيَقُولُ** ﴾فرحاً وسروراً ، فإنه لما أُوتي كتابه بيمينه ، علم أنه من الناجين من النار ، ومن الفائزين بالجنة ، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله ﴿ **هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ** ﴾ أي خذوا يا أهل بيتي وأصحابي كتابي وتناولوه ، اقرأوا كتاب أعمالي ، يقوله من فرط السرور ، والهاء للوقف والاستراحة والسكت ، تثبتُ بالوقف وتسقط في الوصل كما هو الأصل في هاء السكت ، لأنها إنما جيء بها حفظاً للحركة أي لتحفظ حركة الموقوف عليه ، وكان حقها أن تثبت في الوقف ، وتسقط في الوصل ، إلا أن القرَّاء السبعة اتفقوا في كل المواضع على إثباتها وقفاً ووصلاً ، إجراء للوصل مجرى الوقف ، واتباعاً لرسم الإمام ، فإنها ثابتة في المصحف في كل المواضع وهي « كِتَابِيَه ، وحِسَابِيَهْ ، وَمَالِيَهْ ، وَسُلْطَانِيَه و « مَاهِيَهْ » في القارعة ، وتبين من هذا أن المستحب إيثار الوقف اتباعاً للوصل وأن إثباتها وصلاً إنما هو لاتباع المصحف ، وهذه الهاء لا تكون إلا ساكنة ، تحريكها لحن أي خطأ ، لأنه لا يجوز الوقف على المتحرك ، وهاء السكت في القرآن في سبعة مواضع في « لَمْ يَتَسَنَّهْ » وفي « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » وفي « كِتَابِيهْ » وفي « حِسَابِيَهْ » وفي « مَالِيَهْ » وفي « سُلْطَانِيَهْ » وفي « مَاهِيَهْ » وأما الهاء التي في القاضية وفي هاوية وخاوية ، وعالية ، ودانية ، وأمثالها فللتأنيث ، فيوقف عليهن بالهاء ﴿ **إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾ الحساب بمعنى المحاسبة ، وهو عدُّ أعمال العباد في الآخرة ، خيراً وشراً للمجازاة ، أي علمت وأيقنت أني مصادفٌ حسابي في ديوان الحساب الإلهي ، وأني

أحساب في الآخرة والظن جاء في مواضع كثيرة بمعنى اليقين كما في قوله تعالى حكاية (**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ**) وهم المؤمنون بالآخرة وفي قوله تعالى (**وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**) أي علم وأيقن بالعلامة القوية وفي الكشاف : وإنما أجرى الظن مجرى العلم ، لأن الغالب يقام مقام العلم ، في العادات ، والأحكام ، ويقال : أظن ظناً ، كاليقين أن الأمر كيت وكيت ﴿ **فَهُوَ** ﴾ أي من أوتي كتابه بيمينه ﴿ **فِي عِيشَةٍ** ﴾ نوع من العيش وكذا المعاشُ والمعيشُ ، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش منه ، قال عليه السلام « اللهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة »[1] ﴿ **رَاضِيَةٍ** ﴾ ذات رضى يرضاها من يعيش فيها ، وكون العيشة مرضية لاشتالها على أمور ثلاثة : **الأولى** كونها منفعة صافية عن الشوائب ، **والثانية** كونها دائمة لا يترقب زوالها وانقطاعها ، **والثالث** كونها بحيث يقصد بها تعظيم من رضي بها وإكرامه ، وعيشةُ من أُعطي كتابه بيمينه جامعة لهذه الأمور ، فتكون مرضياً بها كال الرضى ، قال ابن عباس : يعيشون فلا يموتون ، ويصحون فلا يمرضون ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء ، كما أن النَّارَ سافلة لأنها تحت الأرض ، أو الدرجات والأبنية والأشجار ﴿ **قُطُوفُهَا** ﴾ ثمراتها جمع قطف بالكسر وهو ما يقطف ويجتنى بسرعة ﴿ **دَانِيَةٌ** ﴾ من الدنو وهو القرب أي قريبة من مريدها ، ينالها القائم ، والقاعد ، والمضطجع ، من غير تعب ، واذا أراد أن تدنو إلى فيه دنت ، بخلاف ثمار الدنيا ، فإن في قطفها وتحصيلها تعباً ومشقة غالباً ، وكذا لا تؤكل إلاَّ بمزاولة اليد ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا** ﴾ الأمر أمر امتنان وإباحة ، لا أمر تكليف ، ضرورة أن الآخرة ليست بدار تكليف ، وجمع بين الأكل والشرب لأن أحدهما شقيق الآخرة فلا ينفك عنه ، ولذا لم يذكر هنا الملابس ، وإن ذكرت في موضع آخر ، يقال لمن أوتي كتابه بيمينه : كلوا من طعام الجنة وثمارها واشربوا من شرابها مطلقاً ﴿ **هَنِيئَاً** ﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أي سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم ، وجعل الهنيء صفة لهما ، لأن المصدر يتناول المثنَّى أيضاً ، من هنؤ الطعام والشراب يَهْنَأ هَنَاءةً وهَنَاءً أي صار هنيئاً سائغاً بمعنى صحة وعافية ﴿ **بِمَا أَسْلَفْتُمْ** ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ **فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ** ﴾ أي الماضية في الدنيا ، وعن مجاهد أيام الصيام ، فيكون المعنى : كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله في أيام الصيام ، ولا سيما في الأيام الحارة ، ورؤي بعضهم في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمني ، وقال كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، فلم يقل كل يا من قطع الليل تلاوة ، واشرب يا من ثبت يوم الزحف ، فإن هذا مالا تُعطيه الحكمة ، وروي يقول الله يا أوليائي : طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم ، فكونوا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي من حديث سهل بن سعد قال : جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتافنا فقال (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للمهاجرين والأنصار) وانظر جامع الأصول ٨ / ٢٦٨ .

اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية (١)

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ تحقيراً له ، لأن الشمال يتشائم بها ، بأن تُلْوَى يُسراه إلى خلف ظهره ، فيأخذه بها ، ويرى ما فيها من قبائح الأعمال ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تحزناً وتحسراً وخوفاً مما فيه ، ﴿ يا ﴾ هؤلاء يا معشر المحشر ﴿ لَيْتَنِي ﴾ وهو تمن للمحال ﴿ لَمْ أُوْتَ ﴾ من الإيتاء بمعنى لم أعط ﴿ كِتَابِيَهْ ﴾ الذي جمع جميع سيئاتي ﴿ وَلَمْ أَدْرِ ﴾ مشتقٌ من الدراية بمعنى العلم ﴿ مَاحِسَابِيَهْ ﴾ لما شاهد من سوء العاقبة ﴿ يَا لَيْتَهَا ﴾ تكرير للتمني وتجديد للتحسر أي ياليت الموتة التي متها وذقتها ، وذلك أن الموتة وإن لم تكن مذكورة ، إلا أنها في حكم المذكور بدلالة المقام ﴿ كَانَتِ القَاضِيَةَ ﴾ أي القاطعة لأمري وحياتي ، ولم أبعث بعدها ، يتمنى عند مطالعة كتابه أن تدوم عليه الموتة الأولى ، وأنه لا يبعث للحساب ، ولا يلقى ما أصابه من الخجالة وسوء العاقبة أي يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليَّ ؛ يتمنى أن يكون بدل تلك الحالة الموتة القاطعة للحياة ، لما أنه وجد تلك الحالة أمرَّ من الموت فتمناه عندها ، وكان في الدنيا أشد كراهية للموت قال الشاعر :

وَشَرٌ منَ المـوتِ الَّـذِي إنْ لَقِيتَـه * تَمنَّيتَ منـهُ المَـوْتَ والمـوتُ أَعظَمُ

﴿ مَا أَغْنَىَ عَنِّي ﴾ أي لم يدفع عني شيئاً من عذاب الآخرة ﴿ مَالِيَهْ ﴾ أي الذي كان لي في الدنيا من المال والأتباع ، وفي الكشاف (مَا أَغنَى) استفهام على وجه الإنكار أي أيُّ شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار ، حتى ضيعت عمري فيه ؟ أي لم يغن عني المال الذي جمعته في الدنيا شيئاً من العذاب ، بل ألهاني عن الآخرة وضرني ، فضلاً عن أن ينفعني ، وذلك يوافق قوله تعالى (وَلاَيُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً) وقوله (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) وقوله (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) ونظائر ذلك ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ السلاطة التمكن من القهر ، ومنه سمي السلطان والمعنى : هلك عني ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيراً ذليلاً ﴿ خُذُوهُ ﴾ حكاية لما يقول الله يومئذ لخزنة النار ، وهم الزبانية الموكلون على عذابه أي خذوا العاصي لربه ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه بالقيد والحديد ، وشدُّوه به ، يقال غُلَّ فلانٌ : وضع في عنقه أو يده الغُلُّ وهو بالضم : الطوق من حديد ، الجامع لليد إلى العنق ، المانع عن تحرك الرأس ، وفي الفقه : وكُرِهَ جعل الغل في عنق عبده لأنه عقوبة أهل النار ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ دل التقديم على التخصيص ، والمعنى لا تُـدْخِلوهُ إلا الجحيم ، ولا تحرقوه إلا فيها ، وهي النار العظمى ، ليكون الجزاء على وفق المعصية ، حيث كان يتعظم على الناس ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ من نار وهي حِلَقٌ منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿ ذَرْعُهَا ﴾ طولها

(١) أخرجه ابن المنذر عن يوسف ين يعقوب قال : بلغني أنه إذا كان يوم القيامة .. إلخ الدر المنثور ٦ / ٢٦٢ .

﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ السلك هو الإدخال في الخيط والقيد وغيرها ، على أن الأمر الأخير أشد وأهول مما قبله من الأوامر ، مع تعاقب المأمور بها من الأخذ ، وجعل يده مغلولة إلى عنقه ، وتصلية الجحيم ، وسلكهم إياه السلسلة الموصوفة والمعنى فأدخلوه فيها بأن تلفُّوها على جسده ، وتجعلوه محاطاً بها ، فهو فيما بينها مرهق مضيق عليه .

قال بعض المفسرين : هي الذراع المعروفة عندنا ، إنما خوطبنا بما نعرفه ونحصله ، وقال الحسن : اللهُ أعلم بأي ذراع هي ؟ وعن كعب : لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها ، ولو وضعت منها حلقة على جبلٍ لذاب مثل الرصاص ، تدخل السلسلة في فيه ، وتخرج من دبره ، ويلوى فضلها على عنقه وجسده ، ويقرن بها بينه وبين شيطانه ، أقول هذا عذاب الكافر ، لأن جسده يكون في العظم مسيرة ثلاثة أيام ، وضرسه مثل جبل أحد ، على ما جاء في الحديث ، حكي أن شاباً قد حضر صلاة الفجر مع الجماعة ، خلف واحد من المشايخ ، فقرأ ذلك الشيخ سورة الحاقة ، فلمَّا بلغ إلى قوله تعالى (**خُذُوْهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ**) صاح الشاب وسقط ، وغشي عليه ، فلما أتَّم الشيخ صلاته قال : من هذا ؟ قالوا : هو شاب صالح خائف من الله تعالى ، وله والدة عجوز ليس لها غيره ، قال الشيخ : ارفعوه واحملوه حتى نذهب به إلى أمه ، ففعلوا ما أمر به الشيخ ، فلما رأت أمه ذلك فزعت وأقبلت وقالت : ما فعلتم بابني ؟ قالوا : ما فعلنا به شيئاً ، إلا أنه حضر الجماعة وسمع آية مخوفة من القرآن فلم يُطق سماعها ، فكان هكذا بأمر الله ، فقالت : أيَّةَ آيةٍ هي فاقرأوها حتى أسمع ؟ فقرأها الشيخ ، فلما وصلت الآية إلى سَمْعِ الشاب شهق شهقة أخرى خرجت معها روحه بأمر الله ، فلما رأت الأم ذلك خرَّت ميتة ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ كأنه قيل ما له يعذب بهذا العذاب الشديد ؟ فأجيب بأنه ﴿ **كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ** ﴾ وصفه تعالى بالعظم للإيذان بأنه المستحق للعظمة فحسب ، فمن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات ﴿ **وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ الحضُّ : الحث على الفعل بالحرف على وقوعه والمعنى : ولا يحثُّ أهله وغيرهم على إعطاء طعام يطعم به الفقير ، فضلاً عن أن يعطي ويبذل من ماله ، وذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الفعل ؟ يعني يكون أشدَّ ، وجعل حرمان المسكين قرينة للكفر حيث عطفه عليه للدلالة على عظم الجرم ، وهو صفة الكفرة كما في قوله تعالى(**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**) وبه تعلق الشافعي في خطاب الكفار بالشرائع .

قال ابن الشيخ : فيه دليل على تكليف الكفار بالفروع ، على معنى أنهم يعاقبون على ترك الامتثال بها ، كعدم إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والانتهاء عن الفواحش والمنكرات ، لا على معنى أنهم يطالبون بها حال كفرهم ، فإنهم غير مكلفين بالفروع ، بهذا المعنى لانعدام أهلية الأداء فيهم ، لأن مدار أهلية الأداء هو استحقاق الثواب بالأداء ، ولا ثواب لأعمال الكفار ، وأهلية الوجوب لا تستلزم أهلية الأداء كما تقرر

في الأصول انتهى والحاصل أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة لا غير ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر بالطعام والحض عليه ؟

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ هٰهُنَا ﴾ أي في هذا المكان ، وهو مكان الأخذ والغل ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي قريب نسباً أو وداً ، يحميه ويدفع عنه ، ويحزن عليه لأن أولياءه يتحامونه ويفرون منه ، كقوله تعالى (وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمَاً) وهو من تتمة ما يقال للزبانية في حقه ، إعلاماً بأنه محروم من الرحمة ، وحثاً لهم على بطشه ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ الغسلينُ ما يُغسل من الثوب ونحوه كالغسالة والمعنى ولا طعام إلا من غسالة أهل النار ، وما يسيل من أبدانهم من الصديد ، بعصر قوة الحرارة النارية ، روي أنه (لو وقعت قطرة منه على الأرض لأفسدت على الناس معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامهم) [1] ؟ ﴿ لاَيَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ أي لا يأكل ذلك الغسلين إلا الآثمون ، أصحاب الخطايا وهم المشركون ، من خَطِىءَ الرجلُ إذا تعمَّد الذنب ، فالخاطيء هو الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك ، والمخطيء هو الذي يفعله غير متعمد أي يريد الصواب فيصير إلى غيره من غير قصد ، كما يقال : المجتهد قد يخطىء وقد يصيب ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ أي فأقسم على أن « لا » مزيدة للتأكيد ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ قسمٌ عظيمٌ ، لأنه قسمٌ بالأشياء كلها على سبيل الشمول والإحاطة ، لأنها لا تخرج عن قسمين : مُبْصَرٍ ، وغير مُبْصَر ، فالمبصر المشاهدات ، وغير المبصر المغيبات ، فدخل فيهما الدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والخلق والخالق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، وغير ذلك ، يقول الشيخ نجم الدين : بما تبصرون من المشهودات والمحسوسات بأبصار الظواهر ، وما لا تبصرون من المغيبات ببصائر البواطن ، ويقول الحسين : أي بما أظهر الله لملائكته ، من القلم واللوح ، وبما اختزن في علمه ولم يجر القلم به ، ولم تشعر الملائكة بذلك ، وما أظهر الله للخلق من صفاته ، وأراهم من صنعه ، وأبدى لهم من علمه ، في جنب ما اختزن عنهم ، إلاَّ كذَرَّة في جنب الدنيا والآخرة ، ولو أظهر الله ما اختزن لذابت الخلائق عن آخرهم فضلاً عن حَمْلِه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ وقوله قول الحق كما قال (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) وأضاف القول إليه ، لأنه لَمَّا قال (قَوْلُ رَسُولٍ) اقتضى مُرسِلاً ، وكان معلوماً أن ما يقرأه كلام مرسِله ، وإنما هو مبلغه ، فالإضافة تدل على اختصاص القول بالرسول من حيث التبليغ ، إذ شأن الرسول التبليغ لا الاختراع ﴿ كَرِيمٍ ﴾ على الله تعالى وهو النبي عليه السلام ،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي بلفظ (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا ..) الحديث وقال الترمذي : حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٦ .

ويدل عليه مقابلة رسول بشاعر وكاهن ، لأن المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ، ولاكاهن ، ولم يقولوا لجبريل شاعر ولا كاهن ، وقيل : هو جبريل أي هو قول جبريل الرسول الكريم ، وما هو من تلقاء محمد ، كما تزعمون وتدعون أنه شاعر أو كاهن ، فالمقصود حينئذ إثبات حقّية القرآن وأنه من عند الله ، والحاصل أن القرآن كلام الله حقيقة ، أظهره في اللوح المحفوظ ، وكلام جبريل مجازاً من حيث إنه أنزله من السموات إلى الأرض ، وتلاه على خاتم النبيين ، وكلامُ سيد المرسلين أيضاً مجازاً من حيث إنه أظهره للخلق ، ودعا الناس إلى الإيمان به ، وجعله حجة لنبوته ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ كما تزعمون تارة ﴿ **قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ** ﴾ إيماناً قليلاً تؤمنون بالقرآن وكونه كلام الله ، أو بالرسول وكونه مرسلاً من الله ، والمراد بالقليل النفي أي لا تؤمنون أصلاً ، كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا ؟ وأنت تريد لا تأتينا أصلاً ، ويجوز أن تكون قلة الإيمان ، باعتبار قلة المؤمن ، بمعنى أن القليل منكم يؤمنون ، وقس عليه نظائره ﴿ **وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ** ﴾ كما تَدَّعون ذلك تارة أخرى ، كرَّر القول مبالغة في إبطال أقاويلهم الكاذبة على القرآن الحق ، والرسول الصادق ، والكاهنُ : هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان ، ويدَّعي معرفة الأسرار ، ومطالعة علم الغيب ، كالعرَّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة ، ولكون هاتين الصناعتين مبنيَّتيْنِ على الظن الذي يخطىء ويصيب ، قال عليه السلام (من أتى عرَّافاً أو كاهناً، فصدَّقه بما قال ، فقد كفر بما أنزل الله على محمد)[1] ﴿ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ أي تذكراً قليلاً ، أو زماناً قليلاً تتذكرون أي لا تتذكرون أصلاً ، والحاصل أن الكاهن من يأتيه الشياطين ويلقون إليه من أخبار السماء ، فيخبر الناس بما سمعه منهم ، وما جاء به عليه السلام من الكلام مشتمل على ذم الشياطين وسبِّهم ، فكيف يمكن أن يكون ذلك بإلقاء الشياطين ؟ فإنهم لا ينزلون شيئاً فيه ذمهم وسبهم ، لاسيما على من يلعنهم ويطعن فيهم ، وكذا معاني ما يلقيه عليه السلام منافية لمعاني أقوال الكهنة ، فإنهم لا يدعون إلى تهذيب الأخلاق ، وتصحيح العقائد والأعمال ، المتعلقة بالمبدأ والمعاد ، بخلاف معاني قوله عليه السلام ، فلو تذكر أهل مكة معاني القرآن ، ومعاني أقوال الكهنة ، لما قالوا بأنه كاهن ﴿ **تَنْزِيلٌ** ﴾ أي هو منزل ﴿ **مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ نزَّله على لسان جبريل ، تربية للسعداء وتبشيراً لهم ، وإنذاراً للأشقياء كما قال تعالى (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**) ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ** ﴾ كما يتقوله الشعراء أي ولو ادعى محمد علينا شيئاً لم نقله كما تزعمون ، كما قال تعالى (**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ**) وفي ذكر بعض إشارة إلى أن القليل كافٍ في المؤاخذة ، فضلاً عن الكثير ، سمي الافتراء « تقَوُّلاً » وهو بناء التكلف ، لأنه قول متكلف ، كما قال صاحب الكشاف :

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤٦ وأخرجه مسلم بلفظ (من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) .

التقوُّل : افتعال القول ، لأن فيه تكلفاً من المفتعل ، وسميت الأقوال المفتراه أقاويل تحقيراً لها ، لأن صيغة أفعولة إنما تطلق على محقرات الأمور وغرائبها .

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه ، والنياط عرق علق به القلب ، إذا انقطع مات صاحبه ، ولم يقل لأهلكناه أو لضربنا عنقه ، لأنه تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عل ، وهو أن يأخذ الجلاَّد بيمينه ، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه ، وهو أشد من المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه ، وقيل : اليمين بمعنى القوة ، فالمعنى لانتقمنا بقوتنا وقدرتنا منه ﴿ فَمَا مِنْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ أي عن المتقول ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ دافعين وهو وصف لأحد ، والمعنى فما منكم قوم يحجزون عن المقتول أو عن قتله وإهلاكه أي لا يقدر أحدٌ على الحجز والدفع ، وفي الآية تنبيه على أن النبي عليه السلام لو قال من عند نفسه شيئاً ، أو زاد ، أو نقص حرفاً واحداً ، على ما أوحي إليه ، لعاقبه الله ، وهو أكرم الناس عليه ، فما ظنك بغيره ، ممن قصد تغيير شيء من كتاب الله ، أو قال شيئاً من ذات نفسه ، كما ضلَّ بذلك بعض الفرق الضالة[1] ؟ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لمن اتقى الشرك وحبَّ الدنيا ، فإنه يتذكر بهذا القرآن ، وينتفع به ، بخلاف المشرك ومن مال إلى الدنيا ، وغلبه حبُّها ، فإنه يُكذِّب به ولا ينتفع ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أي إن منكم أيها الناس مكذبين بالقرآن ، فنجازيهم على تكذيبهم ، قال مالك رحمه الله : ما أشد هذه الآية على هذه الأمة ؟ وفيه إشارة إلى مكذبي العلماء الأعلام ، لكنَّ أهل الاحتجاب لا يبصرون النور كالأعمى ، فكيف يقرُّون ؟ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَسْرَةٌ ﴾ وندامة يوم القيامة ﴿ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ المكذبين له ، عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَقُّ اليَقِينِ ﴾ أي لليقين الذي لا ريب فيه ، فالحق واليقين صفتان بمعنى واحد ، أضيف أحدهما إلى الآخر ، إضافة الشيء إلى نفسه ، كحب الحصيد للتأكيد ، فإن الحق هو الثابت الذي لا يتطرق إليه الريب ، وكذا اليقين ، وقال الإمام : معناه إنه حق يقين أي حق لا بطلان فيه ، ويقين لا ريب فيه ، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد ، وقال الزمخشري : حق اليقين كقوله هو العالم

---

(١) كما هو الحال عند بعض الرافضة ، المغالين في التشيُّع ، حيث زعموا أن في القرآن نقصاً لسورةٍ تسمَّى « سورة الولاية » لعلي بن أبي طالب ، وأن بعض الآيات حذفت من القرآن ، كسورة الإنشراح ﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك ﴾ قالوا نقص منها « وجعلنا علياً صهرك » وهذا ـ والعياذُ بالله ـ كفرٌ وتكذيب بآيات الله ، فإن الله تعالى قد تكفَّل بحفظ كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا له لَحَافِظُونَ ﴾ وقولُهم هذا فيه تكذيبٌ لخبر الله ووعده بحفظ القرآن ، فكيف يتفق مع دعوى الإيمان !! ثم إن السورة مكية باتفاق العلماء ، وعليٌّ رضي الله عنه ما كان متزوجاً بالسيدة فاطمة الزهراء ولا مقترناً بها ، وإنما تزوجها بالمدينة المنوَّرة ، فكيف يزعمون أن آية « وجعلنا علياً صهرك » ناقصة من السورة ، ولم يكن هناك زواج ولا خِطبة ؟! ولكنه الزيغ والضلال والعياذُ بالله وانظر كتاب خطوط عريضة في مذهب الشيعة لمحب الدين الخطيب .

حق العالم ، وجِدُّ العالم ، ويراد به التبليغ الكامل في شأنه ، وقال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك معرفته بالحق ، وهو أن يشاهد بنور البصيرة ويخبر عنها بالصدق كما أخبر الصديق الأكبر حين سأله ﷺ : ماذا أبقيت لأهلك ؟ قال الله ورسوله ، فأخبر عن تحققه بالحق ، انقطاعه عن كل ما سوى الله ، ولما سأل عليه السلام حارثة كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : « أصبحت مؤمناً حقاً » فأخبر عن حقيقة إيمانه ، فسأله عليه السلام عن ذلك ، لما كان يجد في نفسه من عظيم دعواه ، ثم لما أخبر لم يحكم له بذلك ، فقال : عرفتَ فالزم) أي عرفت الطريق إلى حقيقة الإيمان ، فالزم الطريق حتى تبلغ إليه ، وكان يرى حال أبي بكر رضي الله عنه مستوراً لما علم من صدقه فيما ادَّعى ، وهذا مقام حق اليقين ، واليقينُ اسم للعلم الذي زال عن اللبس ، ولهذا لا يُوصف علمُ ربِّ العزة باليقين ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ** ﴾ أي فسبح الله بذكر اسمه العظيم ، بأن تقول « سبحان الله » تنزيهاً له عن الاتصاف بصفات العجز والنقص ، وشكراً على ما أوحى إليك ، والعظيم صفة الاسم ، ويحتمل أن يكون صفة ربك ، ويؤيده ما روي أن رسول الله عليه السلام قال لَمَّا نزلت هذه الآية « اجعلوها في ركوعكم »[1] .

تمت سورة الحاقة بعون الله تعالى



(١) الحديث أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم وصحّحه عن عُقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : لَمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ** ﴾ قال : اجعلوها في ركوعكم ، ولَمَّا نزلت ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ قال ﷺ : اجعلوها في سجودكم . وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٦٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ من السؤال بمعنى الدعاء والطلب ، يقال دعا بكذا استدعاهُ وطلبه ، ومنه قوله تعالى (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ) أي يطلبون في الجنة كل فاكهة ، والمعنى : دعا داع بعذاب واقع ، نازلٍ لا محالة ، سواء طلبه أو لم يطلبه أي استدعاهُ وطلبه ، والمراد بهذا السائل على ما رُوي عن ابن عباس واختاره الجمهور هو (النَّضْرُ بنُ الحارث) من بني عبد الدار ، حيث قال إنكاراً واستهزاء (اللَّهُمَ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) وصيغة الماضي وهو « واقع » دون « سيوقع » للدلالة على تحقق وقوعه ، إما في الدنيا وهو عذاب يوم بدر ، فإن النضر قتل يومئذ صبراً ، وإما في الآخرة وهو عذاب النار ، وعن معاوية أنه قال لرجل من أهل سبأ : ما أجْهلَ قومَك حين ملَّكوا عليهم امرأة ؟ فقال له : أجهلُ من قومي قومُك ، حين قالوا : لرسول الله عليه السلام حين دعاهم إلى الحق (اللهمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ) ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، وقيل : السائل هو الرسول عليه السلام ، استعجل بعذابهم وسأل أن يأخذهم الله أخذاً شديداً ، ويجعله عليهم سنينَ كسِنِّي يوسف ، والظاهر أن قوله تعالى (سَأَلَ سَائِلٌ) حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وقوله تعالى (مَتَى هَذَا الوَعْدُ) ونحوهما ، إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين ، لا ما دعابه النضر ، فالسؤال بمعناه وهو التفتيش والاستفسار ، لأن الكفرة كانوا يسألون النبي عليه السلام وأصحابه إنكاراً واستهزاء عن وقوعه ، وعلى من ينزل ؟ ومتى ينزل ؟ والباءُ بمعنى « عن » كما في قوله تعالى (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) أي فاسأل عنه ، لأن الحروف يقوم بعضها مقام بعض باتفاق العلماء ، وعن الإمام الواحدي أن الباء في « بعذابٍ » زائدة للتأكيد ، كما في قوله تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) أي عذاباً واقعاً كقوله سألته الشيء ، وسألته عن الشيء ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي عليهم فاللام بمعنى « على » كما في قوله تعالى (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أيْ فعليها ، أو بهم فاللام بمعنى الباء على ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ) أي بأن يعبدوا الله ، أو نازل لأجل كفرهم ، قال بعض العارفين : بهذا وصف أهل الأمل والظن الكاذب ، الذين يظنون أنهم يتركون في قبائح أعمالهم وهم لا يُعذَّبون ﴿ لَيْسَ لَهُ ﴾ أي لذلك العذاب ﴿ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ﴾ أي من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ ذِي المَعَارِجِ ﴾ والمعارج جمع مَعْرج بفتح الميم بمعنى مصعد ، وهو موضع الصعود ، قال الراغب : العروجُ ذهاب في صعود والمعارج المصاعد ، ومعنى (ذِي المَعَارِجِ) الأفلاك وهي السموات السبع ،

والكرسي ، والعرش ﴿ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ المأمورون بالنزول والعروج ، لأن من الملائكة من لا ينزل من السماء أصلاً ، ومنهم من لا يعرج من الأرض قطعاً ﴿ وَالرُّوحُ ﴾ أي جبريل ، أفرده بالذكر لتميزه وفضله كما في قوله تعالى (تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوْحُ) فقد ذكر مع نزولهم في آية ، وعروجهم في أخرى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي يعرجون من مسقط الأمر إلى عرشه ، وإلى حيث تهبط منه أوامره ، لأن العرش مجلى صفة الرحمانية ، فمنه تبتدأ الأحكام وإلى حيث شاء الله تعالى تهبط الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله تعالى ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ مما يعده الناس ، كما صرح به قوله تعالى (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) وهو من باب التشبيه البليغ ، والأصل كمقدار مدة خمسين ألف سنة ، ولليوم مراتب وأحكام : فيومٌ كالآن ، وهو أدنى ما يطلق عليه الزمان ، وهو المشار إليه بقوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فسمَّى الزمن الفرد يوماً ، لأن الشأن يحدث فيه ، وهو أصغر الأزمان وأدقها ، ويوم كألف سنة وهو اليوم الإلهي ويوم الآخرة كما قال تعالى (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ) وقال (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) ويوم كخمسين ألف سنة وإلى مالا يتناهى ، كيوم أهل الجنة ، فلا حدَّ لأكبر الأيام يوقف عنده ، فهذا اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة هو يوم المعراج ويوم القيامة أي يقع في اليوم الطويل ، الذي هو يوم القيامة ، لإجراء أحكام الله على ماشاء ، وانفاذ أمره على مقتضى علمه وحكمته ، وهو مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا ، ودلَّ على مدة هذا اليوم قوله عليه السلام (ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة ، صُفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إمَّا إلي الجنة وإمَّا إلى النار)[1] وروي أن للقيامة خمسين موقفاً يسأل العبد في كل منها عن أمر من أمور الدين ، فإن لم يقدر على الجواب وقف في كل موقف بمقدار اليوم الإلهي الذي هو ألف سنة ، ثم لا ينتهي اليوم إلى ليل أي يكون وقت أهل الجنة كالنهار أبداً ، ويكون زمان أهل النار كالليل أبداً إذ كما لا ظلمة لأهل النور ، كذلك لا نور لأهل الظلمة ، وفيه تذكير للعاقل على أن يوم القيامة إذا كان أوله مقدار خمسين ألف سنة فماذا آخره ؟ ثم هذا الطول في حق الكافر والعاصي ، لا المؤمن والمطيع ، لما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قيل لرسول الله عليه السلام : (ما أطول هذا اليوم ؟ فقال عليه السلام : والذي نفسي بيده ، إنه ليخففُ على المؤمن ، حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة ، يصليها في الدنيا)[2] وفي التمثيل بالصلاة إشارة إلى وجه

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٥٤ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند والبيهقي وابن حبان ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٦٤ .

آخر لسرِّ العدد ، وهو أن الكافر أضاع الصلاة وهي في الأصل خمسون صلاة ، فكأنه عُذِّب بكل واحدة منها ألف سنة ، ولهذا السر يكلف يوم القيامة بالسجود ، ولا يلزم من وجود هذا اليوم بهذا الطول ، وعن عروج الملائكة في اثنائه إلى العرش أن يكون ما بين أسفل العالم وأعلى سرادقات العرش مسيرة خمسين ألف سنة، لأن المراد بيان طول اليوم ، وعروج الملائكة ونزولهم في مثل هذا اليوم إلى العرش، ومنه تلقِّي أمره وتبليغه إلى محله مراراً ، لابيان طول المعارج ﴿ **فَاصْبِرْ** ﴾ يا محمد ﴿ **صَبْراً جَمِيلاً** ﴾ لا جزع فيه ولا شكوى لغيرالله ، فإن العذاب يقع في هذه المدة المتطاولة ، التي تعرج فيها الملائكة والروح ، وعن الحسن : الصبر الجميل هو المجاملة في الظاهر ، وقيل : انتظار الفرج بلا استعجال ، لأن السؤال كان عن استهزاء وتعنت ، وتكذيب بالوحي ، وذلك مما يضجره عليه السلام ، أو كان عن تضجر واستبطاء للنصر والمعونة ﴿ **إِنَّهُمْ** ﴾ أي أهل مكة ﴿ **يَرَوْنَهُ** ﴾ أي العذاب الواقع أي يزعمونه في رأيهم ﴿ **بَعِيداً** ﴾ أي يستبعدونه بطريق الإحالة ، كما كانوا يقولون (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً) الآية وكما في قوله سبحانه : (**قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**) فلذلك يستبعدونه ، وسببُ استبعادهم عدم علمهم باستحقاقهم إياه ﴿ **وَنَرَاهُ** ﴾ أي نعلمه ﴿ **قَرِيباً** ﴾ لعلمنا باستحقاقهم إياه بحسب استعدادهم أي هيّناً في قدرتنا ، غير بعيد علينا ، ولا متعذر ، فالمراد بالبعد هو البعد من الإمكان ، وبالقرب هو القرب منه ، وقال سهل رحمه الله : إنهم يرون البعث والحساب بعيداً لبعد آمالهم ، ونراه قريباً ، فإن كل كائن قريبٌ ، والبعيد ما لا يكون ، وما الدنيا فيما مضى إلا كثوب شق باثنين ، وبقي خيط واحد ، يوشك ذلك الخيط أن ينقطع ، قال الشاعر :

هَلِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا جَمِيعَاً * سِوَى ظِلٍّ يَزولُ مَعَ النَّهارِ

وقال آخر :

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ أَنَّكَ قَاعِدٌ * عَلَى الأرضِ في الدُّنْيَا وأنتَ تَسِيرُ

فَسَيْرُكَ يَا هَذَا كَسَيْرِ سَفِينَةٍ * بِقَوْمٍ قُعُودٍ والقُلُوبُ تَطِيرُ

﴿ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ** ﴾ وهو دردِيُّ الزيت[1] لسيلانه على مهل لثخانته ، وعن ابن مسعود كالفضة المذابة في تلونها ، أو كالقير والقطران في سوادهما أي يوم تكون السماء كالمهل ، يكون من الأحوال والأهوال مالا يُوصف ﴿ **وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهْنِ** ﴾ العهن الصوف المصبوغ قال تعالى (**كَالعِهْنِ المَنْفُوشِ**) وتخصيص العهن لما فيه من اللون كما ذكر في قوله تعالى (**فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**) والمعنى

(١) أي عكر الزيت وهو الذي يبقى في آخر القارورة مع الطحل الثخين .

تكون الجبال كالصوف المطبوع ألواناً ، لاختلاف ألوان الجبال ، منها (جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ وغَرَابِيبُ سُوْدٌ) فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الجو ، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ، قال في كشف الأسرار : أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ، ثم تصير عهناً منفوشاً ، ثم تصير هباءً منثوراً ﴿ **وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً** ﴾ أي لا يسأل قريب قريباً عن أحواله ، ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك ، وإذا كان الحال بين الأقارب هكذا ، فكيف يكون بين الأجانب ؟ ﴿ **يُبَصَّرُونَهُمْ** ﴾ والمعنى يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم ، ولا يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه ، فيبصر الرجل أباه ، وأخاه ، وأقرباءه ، وعشيرته ، ولكن لا يسأله ولا يكلِّمه ، لاشتغاله بما هو فيه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يتعارفون ساعة ثم يتناكرون ﴿ **يَوَدُّ الْمُجْرِمُ** ﴾ أي يتمنى الكافر وقيل كل مذنب ﴿ **لَوْ يَفْتَدِي** ﴾ بما يبذل عنه ﴿ **مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ** ﴾ أي من العذب الذي ابتلوا به ، يوم إذ كان الأمر ما ذُكر ﴿ **بِبَنِيهِ** ﴾ أصله بنين سقطت نونه بالإضافة ، وجمعه لأن كثرتهم محبوبة مرغوب فيها ﴿ **وَصَاحِبَتِهِ** ﴾ زوجته التي يصاحبها ﴿ **وَأَخِيهِ** ﴾ الذي كان ظهيراً له ومعيناً ، والجملة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه ، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه ، وأعلقهم بقلبه ، ويجعله فداء لنفسه حتى ينجو هو من العذاب ، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها ﴿ **وَفَصِيلَتِهِ** ﴾ ، المراد بالفصيلة في الآية الآباء الأقربون ، والعشيرة الأدنون ﴿ **الَّتِي تُؤْوِيهِ** ﴾ أوى إلى كذا انضم إليه وآواه غيره كما قال تعالى (**آوَىٰ إِلَيهِ أَخَاه**) أي ضمه إلى نفسه ، فمعنى تؤويه تضمه إليها في النسب أو عند الشدائد فيلوذ بها﴿ **وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ **ثُمَّ يُنْجِيهِ** ﴾ أي يود لو يفتدي ثم ينجيه الافتداء و« ثُمَّ » لاستبعاد الانجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ، وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك ، وهيهات أن ينجيه لفساد الاستعداد وفوات الوقت ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع للمجرم عن الوداد ، وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء أي لا يكون كما يتمنى ، فإنه بهيئته الظلمانية الحاصلة من الإجرام ، استحق العذاب فلا ينجو منه ، وفي الحديث (يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أردت أن لا تشرك بي فأبيتَ الاَّ الشرك)[1] وعن القرطبي أن كلا يكون بمعنى الردع وبمعنى حقاً ، وكلا الوجهين جائزان هنا ﴿ **إِنَّهَا** ﴾ أي النار والمراد جهنم ﴿ **لَظَى** ﴾ وهو عَلَم للنار ، منقولٌ من اللظى بمعنى اللهب الخالص ، الذي لا يخالطه دخان ، فيكون في غاية الإحراق ، لقوة حرارته النارية بالصفاء﴿ **نَزَّاعَةً لِلشَّوَى** ﴾ نزع الشيء : جَذَبه من مقرِّه وقَلَعه ،

(١) الحديث أخرجه مسلم برقم / ٢٨٠٥ / ورواه البخاري بلفظ مقارب ١١ / ٤٠٠ من فتح الباري وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩١.

والشَّوى : الأطرافُ التي ليست بمقتل ، كالأيدي ، والأرجل ، أي أعني بلظى جذابةً للأعضاء الواقعة في أطراف الجسد ، وقلاعة لها بقوة الإحراق لشدة الحرارة ، ثم تعود كما كانت وهكذا أبداً ، والشَّوَىٰ جمع شواة وهي جلدة الرأس ، يعني أن النار تنزع جلود الرأس وتقشرها عنه ، وذلك لأنهم كانوا يسعون بالأطراف للأذى والجفاء ، ويصرفون عن الحق الأعضاء الرئيسية التي يشتمل عليها الرأس خصوصاً العقل الذي كانوا لا يعقلون به في الرأس ﴿ **تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ** ﴾ أي عن الحق ومعرفته ، ومعنى « تَدْعُو » تجذب إلى نفسها وتحضر وتقول لهم : إليَّ إليَّ يا كافر ، ويا منافق ، فإني مستقرك ، أو تدعو المنافقين والكافرين والمنافقين بلفظ فصيح بأسمائهم ، ثم تلتقطهم كالتقاط الطير الحبَّ ﴿ **وَتَوَلَّى** ﴾ أي أعرض عن الطاعة ، لأن من أعرض يولِّي وجهه عن صاحبه .

﴿ **وَجَمَعَ** ﴾ المال حرصاً وحباً للدنيا ﴿ **فَأَوْعَى** ﴾ فجعله في وعاء وكنزه ، ولم يؤد زكاته وحقوقه الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدِّين ، وتكبر باقتنائه ، وذلك لطول أمله ، وانعدام شفقته على عباد الله ، وإلا ما ادخر بل بذل ، وفي ذكر الجمع مع الإدبار والتولي ، تنبيه على قباحة البخل ، وخساسة البخيل ، وعلى أنه لا يليق بالمؤمن ، وفي الخبر ، (يجاء بابن آدم يوم القيامة ، كأنه بذَجٌ بين يدي الله تعالى فيقول له : أعطيتك ، وخوَّلتك ، وأنعمتُ عليك ، فما صنعتَ ؟ فيقول : ربِّ جمعتُه وثَّمرتُه ، وتركتُه أكثر ما كان ، فارجعني آتك به كله ، فإذا هو عبدٌ لم يقدم خيراً ، فَيُمضَى به إلى النار)[1] وفي الخبر (بصق عليه السلام يوماً في كفه ، ووضع عليها أصبعه، فقال : يقول الله لابن آدم : أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك ، وعدَّلتك ، مشيتَ بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعتَ ومنعتَ ، حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وأنَّى أوان الصدقة)[2] ؟ ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ** ﴾ أي جنس الإنسان ﴿ **خُلِقَ هَلُوعاً** ﴾ مبالغة هالع ، من الهَلع وهو سرعة الجَزع عند مس المكروه ، بحيث لا يستمسك ، وسرعة المنع عند مس الخير ، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قوله تعالى ﴿ **إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ** ﴾ أي أصابه ووصل إليه الفقر أو المرض أو نحوهما ﴿ **جَزُوعاً** ﴾ مبالغة في الجزع ، مكثراً منه ، لجهله بالقدر وهو ضد الصبر ، وفي الحديث (شرُّ ما أُعطي ابنُ آدم : شحٌّ هالع ، وجبنٌ خالع)[3] فالهالع المحزن ، والخالع الذي يخلع قلبه ، قال بعض العارفين : إنما كرهت نفوس الخلق المرض ، لأنه شاغل لهم عن أداء ما كلفوا به من حقوق الله تعالى ، إذ الروح الحيواني حين يحسُّ بالألم ، يغيب عن تدبير الجسد

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه رقم / ٢٤٢٩ / في صفة القيامة ومعنى البذج الصغير من الضأن وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند وابن ماجه في سننه . مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٧٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التاريخ وأبو داود في السنن ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧٧ .

الذي يقوم بالتكليف ، وإنما لم تكره نفوس العارفين الموت ، لما فيه من لقاء الله تعالى ، فهو نعمة ومنَّة ، ولذلك ما خُيِّر نبيٌّ في الموت إلا اختاره ﴿ **وَإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ** ﴾ أي السعة أو غيرهما ﴿ **مَنوُعاً** ﴾ مبالغاً في المنع والإمساك ، لجهله بالقسمة وثواب الفضل ، وللصحة مدخل في الشح ، فإن الغنيَّ قد يعطي في المرض مالا يعطيه في الصحة ، ولذا كانت الصدقة حال الصحة أفضل ، والأوصاف الثلاثة وهي (هَلُوعاً ، وَجَزُوعاً ، ومَنُوعاً) المراد بها ما يتعلق به الذم ، وهو ما يدخل تحت التكليف والاختيار ، وذلك بعد البلوغ ، أو يحققه لأنها طبائع جُبل الإنسان عليها ، كما قال المتنبي :

والظلمُ من شِيَمِ النَّفُوسِ فَإنْ تَجِدْ ذَاعِفَّةٍ فَلِعلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ولا يلزم أن لا تفارقه بالمعالجات المذكورة في كتب الأخلاق ، فإن قيل : فيلزم أن يكون له هلعٌ حين كان في المهد صبياً ؟ قلنا : نعم ، ولا محذور ألا يرى أنه كيف يسرع إلى الثدي ، ويحرص على الرضاع ، ويبكي عند مسِّ الألم ، ويمنع بما وسعه إذا تمسك بشيء فزوحم فيه ، فإن قيل : ما الحكمة في خلق الإنسان على مساويء الأخلاق ؟ قلنا : الحكمة في خلق الشهوة أن يمانع نفسه إذا نازعته نحوها ، ويحارب شيطانه عند تزيينه المعصية ، فيستحقُّ من الله مثوبة وجنة ، فكما أنه فيه الشهوة ، رُكِّب فيه العقل الرادع ، وحصلت الدلالة إلى الصراط السوي من الشارع ، قال بعض العارفين : رُكِّب الشحُّ في الإنسان وهو أمر جبليٌّ لا يمكن زواله ، ولكن يتعطل بعناية الله تعالى استعماله لا غير ، فلذلك قال تعالى (**ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**) فأثبت الشحَّ في النفس إلا أن العبد يتوقاه بفضل الله وبرحمته ، وقال (إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً) إلخ ولذلك ورد (الصَّدقةُ برهان)[1] يعني دليل أن هذا الإنسان وُقِي بها شُحَّ النفس ، وعليه المزاح المعروف وهو أن بعض البخلاء وقع في الماء فكاد يغرق ، فقال له بعض الحاضرين : يا فلان ناولني يدك ، فقيل له : لا تقل هكذا ، فإنه اعتاد الأخذ لا الإعطاء ، بل قل : خذ بيدي ، وقال بعضهم : الغضبُ ، والشَّره ، والحرصُ ، والجبنُ ، والبخلُ ، والحسدُ ، وصفٌ جبليٌّ في الانسان وما كان من الجبلة فمحال أن يزول إلاَّ بانعدام الذات ، ولهذا عين الشارع ﷺ لهذه الأمور مصارف فقال (لا حسد إلا في اثنتين)[2] وأمر بالغضب لله ، لا حمية جاهلية ، وقال تعالى (**وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ**) ثم مدح من قال (**أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ**) وقال (**وَلاَ تَخَافُوهُمْ**) ثم قال (**وخَافُونِ**) فالكل يستعملون هذه الصفات استعمالاً محموداً ، والحاصلُ فإنَّ أصول الصفات باقية لبقاء

---

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ، وأوله (الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ..) الحديث .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وتتمته (لا حسد إلا في اثنتَيْنِ ، رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها للناس) وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٤٣ .

المحاربة مع النفس ، إذ لا يحصل الترقي إلا بالمحاربة ، والترقي مستمر إلى الموت ، فكذا المحاربة المبنيَّة على بقاء أصول الصفات ، فأصل النفس أمارة ، لكن لا يظهر أثرها في الكاملين ، كما يظهر في الناقصين ، قال القاشاني : إن النفس بطبعها معدن الشر ، ومأوى الرجس ، لكونها من عالم الظلمات ، فمن مال إليها قلبه ، واستولى عليه مقتضى جِبلَّته وخلقته ، ناسب الأمور السفلية ، واتصف بالرذائل التي أردأها « الجبن والبخل » المشار إليهما بقوله (**وإذَا مَسَّهُ الشَرُّ**) لمحبة البدن ما يلائمه ، وتسببه في شهواته ولذاته ، وإنما كانا أردأ لجذبهما القلب إلى أسفل مراتب الوجود ﴿ **إلاَّ الْمصَلِّينَ** ﴾ استثناء من الإنسان لأنه في معنى الجمع للجنس أي إن المطبوعين على الصفات الرذيلة ، مستمرون عليها إلا المصلين ، فإنهم بدَّلوا تلك الطبائع ، واتصفوا بأضدادها ﴿ **الَّذِينَ هُمْ** ﴾ تقديم « هم » يفيد تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع : كما في قولك : هو يعطي الجزيل قصداً إلى تحقيق أنه يفعل إعطاء الجزيل ﴿ **عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل ، فيواظبون على أدائها ، كما روي عن النبي عليه السلام أنه قال (أفضلُ العمل أدومه وإن قَلَّ)[1] وقالت عائشة رضي الله عنها : « كان عملُه ﷺ « دِيمة » . قدَّم الصلاة على سائر الخصال لقوله عليه السلام (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[2] وإنها آخر ما يجب عليه رعايته فإنه يؤخر الصوم في المرض دون الصلاة ، إلا أن لا يقدر على التيمم والإيماء ،ولذا ختم الله الخصال بها كما قال (**والَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) وكان آخر ما أوصى به عليه السلام (الصلاة وما ملكت أيمانكم)[3] ﴿ **وَالَّذِينَ** ﴾ أي وإلا الذين ﴿ **فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ** ﴾ أي نصيب معين ، يستوجبونه على أنفسهم ، تقرباً إلى الله تعالى ، من الزكاة المفروضة الموظفة ﴿ **لِلسَّائِلِ** ﴾ أي للذي يسأل ، ومن كان له قوت يوم لا يحل له السؤال ، وله أن يردَّه بردٍّ جميلٍ ، مثل أن يقول : آتاكم الله من فضله ﴿ **وَالْمَحْرُومِ** ﴾ الذي لا يسأل إما حياء ، أو توكلاً فيُظَنُّ أنه غني فيحرم ، وفي الآية إشارة إلى العلم والتعلم ، فينبغي أن يفيض عليه ، ويرشده إلى طلب الحق فيسلِّيه ، ويطيّب قلبه برحمة الله وغفرانه ، ويفيض عليه من بركات أنفاسه الشريفة لئلا يحرم من كرم الله وفيضه ﴿ **وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ** ﴾ أي بأعمالهم ، حيثُ يُتْعِبون أنفسهم في الطاعات البدنية والمالية ، طمعاً في المثوبة الأخروية ، بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء ، فمجرد التصديق بالجنان واللسان وإن كان ينجي من الخلود في النار ، لكن لا يؤدي إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ**

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه بلفظ (كان أحب الأعمال إلى رسول لله ﷺ مادوُوم عليه وإن قلّ) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٤١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد في المسند والحاكم ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٤ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٠٥ .

﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها ، واستعظاماً لجنابه تعالى ، قال الحسن : يشفق المؤمن أن لا تُقبل حسناته ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ وهو اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى ، وأن يبالغ في الطاعة والاجتهاد ، بل يكون بين الخوف والرجاء ، لأنه لا يعلم أحد عاقبته ، ومن العذاب إعجاب المرء بنفسه ، فإنه من الموبقات ، والموقعات في عذاب نار الجحيم ، نسأل الله العافية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ ﴾ فرج الرجل والمرأة : سوءآتها أي قُبُلُها ، عبَّر به رعاية للأدب في الكلام ، « وأدبُ المرء خيرٌ من ذهبه » ﴿ حَافِظُونَ ﴾ من الزنى ، متعفِّفون عن مباشرة الحرام ، فإن حفظ الفرج كناية عن العفة ، ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ نسائهم المنكوحات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الجواري في أوقات حلّها ، كالطهر من الحيض والنفاس ، ومضيِّ مدة الاستبراء ، عبّر عنهن بـ « ما » إجراء لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء ، أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الحافظين ﴿ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ على عدم حفظها منهن أي غير معيوبين شرعاً ، فلا يؤاخذون بذلك في الدنياوالآخرة ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر وهو الاستمتاع بالنكاح ، وملك اليمين ، وحدُّ النكاح أربع من الحرائر ، ولاحدَّ لملكِ اليمين ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المبتغون ﴿ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المتعدون لحدود الله ، الكاملون في العدوان ، من عَدَا عليه إذا تجاوز الحد في الظلم ويدخل فيه وطىء الذكور ، والبهائم ، والاستمناء ، وروي أن العرب كانوا يستمنون في الأسفار فنزلت الآية ، وفي الحديث (ومن لم يستطع - أي التزوج - فعليه بالصوم فإنَّه له وِجاءٌ)[1] استدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء ، لأنه عليه السلام أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم ، الذي يقطع الشهوة ، فلو كان الاستمناء مباحاً لكان الإرشاد إليه أسهل ، وقد أباح الاستمناء طائفة من العلماء - وهو عند الحنابلة وبعض الحنفية - لأجل تسكين الشهوة جائز ، وفي بعض حواشي البخاري : والاستمناء باليد حرام بالكتاب والسنة قال الله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) إلى قوله (فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ) أي الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام ، قال البغوي : الآية دليل على أن الاستمناء باليد حرام ، قال ابن جريج : سألت ابن عطاء عنه فقال: سمعتُ أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى، وأظنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير: عذَّب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم ، والواجب على فاعله التعزيرُ كما قال بعضهم ، نعم يباح عند أبي حنيفة وأحمد إذا خاف على نفسه الفتنة ، وكذلك يباح الإستمناء بيد امرأته وجاريته مع الكراهة لأنه بمعنى العزل ، قال بعضهم : من اضطر إلى تسكين شهوته ، فعليه أن يدق ذكره بحجر ، كما فعله بعض الصالحين المتقين حين التوقان ، صيانة لنفسه عن الزنى ونحوه ، والحقُّ أحق أن يُتَّبع ، وهو العمل بالإرشاد النبوي ، الذي هو

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد والشيخان وأوله (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنهأغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) وانظر جامع الأصول ١١ / ٤٢٦ .

الصوم ، فإن اضطر فالعمل بما ذكرنا أولى وأقرب ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ لا يُخِلُّون بشيءٍ من حقوقها ، والأمانة : اسم لجنس ما يؤتمن عليه الإنسان ، سواء من جهة الباري تعالى ، وهي أمانات الدين التي هي الشرائع والأحكام ، أو من جهة الخلق وهي الودائع ونحوها ، والجمع بالنظر إلى اختلاف الأنواع ، وكذا العهد شامل لعهد الله ، وعهد الناس ، وهو ما عقده الإنسان على نفسه لله أو لعباده ، قال الجنيد رحمه الله : الأمانةُ المحافظة على الجوارح ، والعهدُ حفظُ القلب مع الله على التوحيد ، والرعاية القيام على الشيء بحفظه وإصلاحه ، وقد جعل رسول الله ﷺ (الخيانة عند الائتمان ، والكذب عند التحديث ، والغدر عند المعاهدة ، والفجور عند المخاصمة ، من خصال المنافق)[1] ﴿ وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أي مقيمون لها بالعدل ، ومؤدونها في وقتها ، إحياء لحقوق الناس ، فالمراد بالقيام بالشهادة أداؤها عند الحكام ، على من كانت عليه ، من قريب أو بعيد ، شريف أو وضيع ، وقد ورد (إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وإلاَّ فدع)[2]وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في الأمانات ، لإبانة فضلها ، لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها ، وفي كتمها وتركها تضييعها وإبطالها ، فإذا طلبه المدعي - وكان قريباً من القاضي - لزمه المشي إليه ، وإن كان بعيداً أكثر من نصف يوم ، لا يأثم بتخلفه لأنه يلحقه الضرر ، ويُقتصر في المسلم على ظاهر عدالته ، فإن طعن الخصم فيه سأل عنه ، وقال بعضهم : يسأل عنهم في جميع الحقوق سراً وعلانية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها وسننها ، ومستحباتها وآدابها ، ويحفظونها من الإحباط باقتران الذنوب ، فالدوام المذكور أولاً يرجع إلى أنفس الصلوات ، والمحافظة إلى أحوالها ، وفي المفردات : فيه تنبيهٌ على أنهم يحفظون الصلاة بمراعاة أوقاتها ، وأركانها ، والقيام بها في غاية ما يكون من الطَّاقة ، فإن الصلاة تحفظهم بالحفظ الذي نبه عليه في قوله تعالى (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وفي الحديث (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان ، وأبيّ بن خَلَفٍ)[3] وهو الذي ضربه النبي عليه السلام في غزوة أحد ، بسهمٍ في عنقه ، فمات منه في طريق مكة ، وكان أشد وأطغى من أبي جهل ، دل عليه كونه مقتولاً بيد النبي عليه السلام ، ولم يقتل عليه السلام بيده غيره ، وبعض العلماء

---

(١) أشار إلى قوله ﷺ (أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا ائتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه ابن مردويه ولفظه (لا تشهد إلاَّ على مثل الشمس ، أوْدَعْ) وانظر الدر المنثور ٦ / ٢٣٢ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد بإسناد جيد والطبراني في الكبير ، وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمر مرفوعاً ، وانظر الترغيب والترهيب ١ / ٣٨٦ .

جعل المحافظة شاملة للإدامة على ما هو الظاهر من قوله تعالى (**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ**) فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص ، لتتميم الفائدة وللإشعار بأن الصلاة أول ما يجب على العبد أداؤه بعد الإيمان ، وآخر ما يجب عليه رعايته بعده كما سبق والحاصل أن في تكرير ذكر الصلاة ، ووصفهم بها أولاً وآخراً ، بيان واضح لأهميتها لأنها عمود الدين .

قال في برهان القرآن : قوله (**إِلاَّ الْمُصَلِّينَ**) عد عقيب ذكرهم الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين ، وزاد في هذه السورة (**وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ**) لأنه وقع عقيب قوله (**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**) وإقامة الشهادة أمانة يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها لإحياء حق ، فهي إذاً من جملة الأمانة في سورة المؤمنين ، وخصت هذه السورة بزيادة بيانها ، كما خُصَّت بإعادة ذكر الصلاة حيث يقول (**والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) بعد قوله (**إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ**) انتهى ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات الفاضلة ﴿ **فِي جَنَّاتٍ** ﴾ أي مستقرون في جنات لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها ﴿ **مُكْرَمُونَ** ﴾ بالثواب الأبدي ، والجزاء السرمدي ، أي سيكونون كذلك فكأن الإكرام فيها واقع لهم الآن ﴿ **فَمَالِ الَّذِينَ** ﴾ أي فما بال الذين ﴿ **كَفَرُوا** ﴾ وحرموا من الاتصاف بالصفات الجليلة المذكورة ، وما استفهامية للإنكار في موضع رفع بالابتداء ، والذين كفروا خبرها ، واللام الجارة كتبت مفصولة اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه ﴿ **قِبَلَكَ** ﴾ أي فمالهم ثابتين حولك ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ أي مسرعين نحوك ، مادي أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ مفترقين جمع عِزَةٍ وهي الفرقة من الناس ، كان المشركون يتحلقون حول رسول الله حلقاً حِلقاً ، وفرقاً فرقاً ، ويستهزئون بكلامه ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ، فلندخلنَّها قبلهم ، فنزلت ﴿ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ** ﴾ أي من هؤلاء المطعين ﴿ **أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** ﴾ أي جنة ليس فيها إلا التنعم المحض ، من غير تكدر وتنغُّص ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك الطمع الفارغ ، أي اتركوا هذا الطمع ، واقطعوا مثل هذا الكلام ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ كما قال (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ**) سيق تمهيداً لما بعده من بيان قدرته تعالى على أن يهلكهم ، لكفرهم بالبعث والجزاء ، واستهزائهم برسول الله وينشىء بدلهم قوماً آخرين ، فإن قدرته تعالى ـ على ما يعلمون من النشأة الأولى من حال النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ـ حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك ﴿ **فَلاَ أُقْسِمُ** ﴾ أي أقسم كما سبق نظائره ﴿ **بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** ﴾ المراد بها مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، فيكون لكل من الصيف والشتاء مائة وثمانون مشرقاً ومغرباً ﴿ **إِنَّا لَقَادِرُونَ** ﴾ جواب القسم ﴿ **عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ** ﴾ أي نبدلهم ، أو نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم ، ونأتي بدلهم بخلق آخرين ، ليسوا على صفتهم ، وإنما ذكر الله ذلك

تهديداً لهم لكي يؤمنوا ، وقيل : بدّل الله بهم الأنصار والمهاجرين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمغلوبين أن أردنا ذلك ، لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم ، وقيل : عاجزين لأن من سبق إلى شيء عجز ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فخلّهم وشأنهم ﴿ يَخُوضُوا ﴾ ويشرعوا في باطلهم ، وهو تهديد لهم وتوبيخ كقوله تعالى « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في الدنيا بالاشتغال بمالا ينفعهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا ﴾ من الملاقاة بمعنى المعاينة ﴿ يَوْمَهُمُ ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية ، والإضافةُ لأنه يوم جميع الخلائق ، وهم منهم ، أو لأن يوم القيامة يوم الكفار من حيث العذاب ، ويوم المؤمنين من جهة الثواب ، فكأنه يومان يوم للكافرين ويوم للمؤمنين ﴿ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ الآن ، أو على الاستمرار ، وهو من الوعد كقولهم (مَتَى هَذَا الوَعْدُ) ؟ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ جمع جَدَثٍ وهو القبر ﴿ سِرَاعاً ﴾ أي مسرعين إلى جانب الداعي وصوته ، وهو إسرافيل ينادي على الصخرة كما سبق ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ ﴾ وهو كل ما نصب فعبد من دون الله ، واحد الإنصاب كما قال تعالى (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ أي يسرعون أيهم يستلمه أولاً ، وفيه تهجين لحالهم الجاهلية ، وتهكم بهم ، بذكر جهالتهم التي اعتادوها ، من الإسراع إلى مالا يملك نفعاً ولا ضراً ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي ذليلة لا يرفعونها لما يتوقعون من العذاب ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي تغشاهم ذلة شديدة وحقارة عظيمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اليوم المذكور الذي سيقع فيه الأحوال الهائلة ﴿ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل وهم يكذبون به ، فاندفع توهم التكرار ، لأن الوعد الأول محمول على الآتي كما مر ، وهذا الوعد محمول على الماضي .

تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ** ﴾ قال قتادة : أرسل نوح من جزيرة فذهب اليهم ، ونوح أول أولي العزم من الرسل ، على قول الأكثرين ، وأول نذير على الشرك ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، وهو شيخ المرسلين ، بعث ابن أربعين سنة ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان تسعين سنة قال بعضهم : فيه دلالة على أنه لم يرسل إلى أهل الأرض كلهم ، لأنه تعالى قال (**إِلَى قَوْمِهِ**) فلو أرسل إلى الكل لقيل : إلى الخلق أو ما يشابهه كما قيل لرسول الله (**وما أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ**) ولقول رسول الله (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس عامة) فإن قيل : فما جريمة غير قومه حتى عممهم في الدعاء عليهم كما قال (لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الكَافِرِينَ دَيَّاراً) والجوابُ أن أهل الأرض في ذلك الزمان كانوا قلة، وقد أرسل إليهم جميعاً، ولَّما أُخبر بأنه لا يؤمن منهم إلاَّ من آمن معه، وهم أهل السفينة- وكانوا ثمانية وأربعين رجلاً وأربعين امرأة- دعا على الكافرين باستئصال العذاب لهم، فكان الطوفان الذي كان به هلاك جميع أهل الأرض، إلا من آمن، ولو لم يكن مرسلاً إليهم ما دعا عليهم، بسبب مخالفتهم له في عبادة الأصنام لقوله تعالى (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَى نَبْعَثَ رَسُولاً**) وقد ثبت أن نوحاً عليه السلام أول الرسل، لأن عبادة الأصنام أول ما حدثت في قومه، وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك، فإن قلت: إذا كانت رسالة نوح عامة لجميع أهل الأرض كانت مساوية لرسالة نبينا عليه السلام ؟ قلتُ: رسالة نوح عليه السلام عامة لجميع أهل الأرض في زمنه، ورسالة نبينا محمد عليه السلام عامة لجميع من في زمنه، ومن يوجد بعد زمنه إلى يوم القيامة فلا مساواة ﴿**أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ**﴾ خوِّفهم بالنار على عبادة الأصنام، كي ينتهوا عن الشرك، ويؤمنوا بالله وحده، ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ**﴾ من الله تعالى ﴿**عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ عاجل كالطوفان والغرق أو آجل كعذاب الآخرة، والأليم بمعنى المؤلم، والألم جسماني، وروحاني، والثاني أشد ﴿**قَالَ يَاقَوْمِ**﴾ أصله ياقومي خاطبهم بإظهار الشفقة عليهم ، وإرادة الخير لهم ، وتطييباً لهم ﴿ **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ** ﴾ منذر من عاقبة الكفر والمعاصي ، وأفرد الإنذار مع كونه بشيراً أيضاً لأن الإنذار أول الأمر ، كما قال تعالى لنبينا عليه السلام (**قُمْ فَأَنْذِرْ**) والتبشير ثاني الأمر كما قال تعالى (**وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) فالإنذار يتعلق بالكافرين ، والتبشير بالمؤمنين ﴿ **مُبِينٌ** ﴾ موضح لحقيقة الأمر بلغة تعرفونها ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللهَ** ﴾ أي بأن اعبدوا الله ، والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات ، من أفعال القلوب والجوارح ﴿ **وَاتَّقُوهُ** ﴾ يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات ﴿ **وَأَطِيعُونِ** ﴾ في المأمورات ، والمنهيات فالكل داخلٌ في الأمر بعبادة الله وتقواه ، إلا أنه خصه بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف ومبالغة في

تقريره. قال بعضهم أصله وأطيعوني بالياء، ولم يقل: وأطيعوه بالهاء مع مناسبته لما قبله، يعني أسند الإطاعة إلى نفسه لما أن إطاعة الرسول إطاعة الله كما قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ جواب الأمر ﴿ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم ، وهو ما سلف في الجاهلية ، لم يقل يغفر لكم ذنوبكم لأن هناك ذنوباً تتعلق بحقوق العباد ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ بالحفظ من العقوبات المهلكة ، كالقتل والإغراق والإحراق ، ونحوها من أسباب الهلاك ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ معين مقدر عند الله ، والأجلُ : المدةُ المضروبة للشيء وهو الأمد الأقصى ، الذي قدَّره الله لهم ، بشرط الإيمان والطاعة ، وهو صريح في أن لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه ، إن لم يؤمنوا به وهو المراد بقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ ﴾ وهو ما قدر لكم على تقدير بقائكم على الكفر وهو الأجل القريب المطلق الغير المبرم ، بخلاف الأجل المسمى فإنه البعيد المبرم ﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ فبادروا إلى الإيمان والطاعة من قبل مجيئه حتى يتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى فتؤخروا إليه ﴿ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً لعلمتم أن الأجل لا تأخير فيه ولا إهمال ، وفيه إشارة إلى أنهم ضيَّعوا أسباب العلم بتوغلهم في حب الدنيا ، وطلب لذاتهم ، حتى صاروا كأنهم شاكون في الموت .

﴿ قَالَ ﴾ أي نوح مناجياً لربه بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود ، وجاوز في الإنذار كل حد معهود ، وضاقت عليه الحيل ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ لَيْلاً ونَهَاراً ﴾ في الليل والنهار أي دائماً من غير فتور ولا توان ، أراد بهما الدوام على الدعوة ، لأن الزمان منحصر فيهما ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِراراً ﴾ مما دعوتهم إليه من متابعتي وديني ، وما أنا عليه من آثار وحيك ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ أي إلى الإيمان ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ بسببه ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ ﴾ أي سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ، فالجعل المذكور كناية عن هذا السد ، ولا مانع من الحمل على حقيقته بأن يدخلوا أصابعهم في ثقب آذانهم قصداً إلى عدم الاستماع ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ ﴾ الاستغشاء مأخوذ من الغشاء وهو الغطاء ، والمعنى بالغوا في التغطي بثيابهم ، لجميع أجزاء بدنهم لئلا يبصروه كراهة النظر إليه ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أي أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصي ، من غير أن يعقدوا على الندم ولا التوبة ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا ﴾ تعظموا عن اتباعي وطاعتي ، وأخذتهم العزة في ذلك ﴿ اسْتِكْبَاراً ﴾ شديداً لأنهم قالوا (أَنُؤْمِنُ لكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون) ؟ قال بعض العارفين : من أصرَّ على المعصية ، أورثته التمادي في الضلالة ، حتى يرى قبيح أعماله حسناً ، فإذا رآه حسناً يتكبر ، ويعلو بذلك على أولياء الله ، ولا يقبل بعد ذلك نصيحتهم ، قال سهل قدس سره : الإصرار على الذنب يورث النفاق ، والنفاقُ يورث الكفر ﴿ ثُمَّ إِنِي دَعوتُهُمْ ﴾ دعوة ﴿ جِهَاراً ﴾ أي أظهرتُ لهم الدعوة علناً ، والجهر ظهور الشيء بإفراطٍ لحاسة البصر ، أو حاسة السمع ﴿ ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي دعوتهم تارة بعد

تارة ، ومرة غِبَّ مرة ، على وجوه متخالفة ، وأساليب متفاوتة والجمع بينهم أغلظ من الإفراد ، والإعلان ضد الإسرار ، يقال : أسررت إلى فلان حديثاً : أفضيت به إليه في خفية ، أي من غير اطلاع أحد عليه ، وجهرت به : أظهرته بحيث اطلع عليه الغير ، ابتدأ بمناصحتهم ودعوتهم في السر فعاملوه بالأمور الأربعة وهي : صم الآذان ، والتغطي ، والإصرار ، والاستكبار ، ثم بالمجاهرة بعد ذلك ، فلما لم يؤثر جَمَع بين الإعلان والإسرار ، أي خلط دعاءه بالعلانية بدعاء السر ، فكما كلمهم جميعاً ، كلمهم واحداً واحداً سراً .

﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ** ﴾ اطلبوا المغفرة منه لأنفسكم ، بالتوبة عن الكفر والمعاصي قبل الفوات ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ تعالى ﴿ **كَانَ غَفَّاراً** ﴾ للتائبين بجعل ذنوبهم كأن لم تكن ، والمراد من كونه غفاراً كونه مريداً للمغفرة ، ومن أعطى الاستغفار ، لا يمنع المغفرة ، لأنه تعالى قال (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**) ولذا كان عليٌّ رضي الله عنه يقول : ما ألهم الله عبداً الاستغفار ، وهو يريد أن يعذّبه ، ومما يُروى (إن أحب عبادي إليَّ ، المتحابُّون بحبيِّ ، والمعلَّقةُ قلوبُهم بالمساجد ، والمستغفرون بالأسحار ، أولئك الذين إذا أردتُ أهلَ الأرض بعقوبة ، ذكرتُهم ، وصرفتُ العقوبة عنهم) والغفَّارُ أبلغ من الغفور ، وأصل الغفر الستر والتغطية ، ومنه قيل لغطاء الرأس مغفر لأنه يستر الرأس ، والمغفرة من الله ستره للذنوب، وعفوه عنها بفضله ورحمته لا بتوبة العباد وطاعاتهم ، وإنما التوبة والطاعة للعبودية ، وعرض الافتقار ، وفي بعض الأخبار : عبدي لو أتيتني بقِراب الأرض ذنوباً ، لغفرتها لك ما لم تشرك بي ﴿ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ** ﴾ أي المطر ، كما قال الشاعر : إذا نزل السماء بأرض قوم ، وقال بعضهم : أي ماء السماء فحذف المضاف ﴿ **عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً** ﴾ أي كثير السيلان والأنصباب والمدرارُ صيغة مبالغة ، ومفعال مما يستوي فيه المذكَّر والمؤنث كقولهم رجل أو امرأة معطار ، ويرسل جواب شرط محذوف ، أي إن تستغفروا يرسل السماء ، وكسر اللام بالوصل لتحرك الساكن به ، كأنَّ قوم نوح تعللو وقالوا : إن كنا على الحق فكيف نتركه ، وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعدما عكفنا عليه دهراً طويلاً ؟ ولذلك وعدهم بالعوائد العاجلة التي هي أوقع في قلوبهم من المغفرة ، وأحب إليهم ، إذ النفس حريصة بحب العاجل ، ولذلك جعلها جواب الأمر ، بأن قال (يُرْسِلِ السَّمَاءَ) دون المغفرة بأن قال يغفر لكم ، ليرغبوا فيها ، ويشاهدوا أثرها وبركتها ، فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، كما أن المعصية سبب لخراب العالم ، بظهور أسباب القهر الإلهي ، وقيل : لما كذبوه بعد تكرير الدعوة ، حبس الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم ، فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب ، ويدفع عنهم ما كانوا فيه ، وهذا هو الموافق للحكمة ، لأن الله تعالى يبتلي عباده بالخير والشر ، ليرجعوا إليه ، ألا ترى إلى قريش ، حيث أن الله

جعل لهم سبع سنين كسنِّي يوسف ؟ بدعاء النبي عليه السلام ليرجعوا عمَّا كانوا عليه من الشرك ، فلم يرفعوا له رأساً ﴿ **وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وبَنِينَ** ﴾ أي يوصل إليكم ويعطكم المدد والقوة بها كما قال الله تعالى (**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ**) ﴿ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ** ﴾ أي وينشىء لكم ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ بساتين ذوات أشجار وأثمار ﴿ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ** ﴾ فيها ﴿ **أَنْهاراً** ﴾ جارية تزينها بالنبات ، وتحفظها عن اليبس ، وتفرح القلوب وتسقي النفوس ، عن الحسن البصري أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال (استغفر الله) وشكا إليه آخرُ الفقر ، وآخرُ قلة النسل ، وآخرُ قلة ربيع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع : أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ؟ فتلا له الآية ، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء ، وهو الدعاء بطلب السقيا على وجه مخصوص ، فإذا أجدبت الأرض ، وقُحط المطر سُنَّ الاستسقاء بالاتفاق ﴿ **مَا لَكُمْ لاَتَرْجُونَ للهِ وَقَاراً** ﴾ إنكاراً لأن يكون لهم سبب ، في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً ، والوقار في الأصل : السكون والحلم ، وهو ههنا بمعنى العظمة ، لأنه يتسبب عنها في الأغلب والمعنى أي سبب حصل لكم واستقرَّ ، حال كونكم غير معتقدين لله عظمةً موجبةً لتعظيمه ، بالإيمان والطاعات له ؟ أي لا سبب لكم في هذا ، وفي كشف الأسرار : الرجاء بمعنى الخوف ، والوقار : العظمةُ ، أي لا تخافون لله عظمة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما لكم لا تخشون منه عقاباً ، ولا ترجون منه ثواباً بتوقيكم إياه ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً** ﴾ أي والحال أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم وقدركم تارات أي مرات ، حالاً بعد حال ، عناصر ، ثم أغذية ثم أخلاطاً ، ثم نطفاً ، ثم علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ، ثم لحوماً ، ثم أنشأكم خلقاً آخر ، فإن التقصير في توقير من هذه شؤونه مما لا يكاد يصدر عن العاقل !! وقال بعضهم : هي إشارة إلى الأطوار السبعة المذكورة في قوله تعالى (**وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**) فهذه هي الأحوال السبع المترتب بعضها على بعض ، كلٌّ أشرف مما قبله .

وقيل : خلقكم صبياناً ، وشباناً ، وشيوخاً ، وقيل : طوالاً ، وقصاراً ، وأقوياء وضعفاء ، مختلفين في الخَلْقِ والخُلُقِ كما قال تعالى (**واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ**) ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا** ﴾ الاستفهام للتقرير ، والمراد مشاهدة عجائب الصنع ، الدال على كمال العلم والقدرة ﴿ **كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰواتٍ** ﴾ حال كونها ﴿ **طِبَاقاً** ﴾ أي متطابقاً بعضها فوق بعض ، أتْبعَ الدليل الدال على أنه يمكن أن يعيدهم ، وعلى أنه عظيم القدرة ، بدلائل الأنفس ، لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، ثم أتْبعَ ذلك بدلائل الآفاق فقال ﴿ **وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً** ﴾ أي منوراً لوجهِ الأرض في ظلمة الليل ، ونسبته إلى الكل مع أنه

في السماء الدنيا، لأن كل واحدة من السموات شفافة لا يحجب ما وراءها فيرى الكل كأنها سماء واحدة، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدة منها كأنه في الكل ، على أنه ذهب ابن عباس وابن عمر ووهب بن منبه رضي الله عنهم إلى أن الشمس والقمر والنجوم وجوهها مما يلي السماء ، وظهورها مما يلي الأرض ، وهو الذي يقتضيه لفظ السراج، لأن ارتفاع نوره في طرف العلوّ، ولولا ذلك لأحرقت جميع ما في الأرض بشدة حرارتها ، فجعلها الله نوراً لأهل الأرض والسموات ، فعلى هذا ينبغي أن يكون تقدير ما بعده وجعل الشمس فيهن سراجاً حذف لدلالة الأول عليه ﴿ **وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً** ﴾ من باب التشبيه البليغ أي كالسراج ، يزيل ظلمة الليل عند الفجر ، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها الأرض ، ويشاهدون الآفاق ، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره ، وليس القمر بهذه المثابة إنما هو نور في الجملة ﴿ **وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً** ﴾ أي إنباتاً عجيباً وأنشأكم منها إنشاء غريباً ، بواسطة إنشاء أبيكم آدم منها ، أو أنشأ الكل منها من حيث أنه خلقهم من النطف المتولدة من النبات ، المتولد من الأرض ، استعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث ، لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات ، ونبه بذلك على أن الإنسان من وجه نبات ، ومن حيث أن بدأه ونشأته من التراب ، وأنه ينمو ، وإن كان له وصف زائد على النبات ، والنبات ما يخرج من الأرض سواء كان له ساق كالشجر ، أو لم يكن له لكن اختص في التعارف بما لا ساق له بل اختص عند العامة بما يأكله الحيوان وقال بعض أهل المعرفة (**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**) أي جعل غذاءكم الذي تنمو به أجسامكم من الأرض ، كما جعل النبات ينمو بالماء بواسطة التراب ، فغذاء هذه النشأة ونموها بما خلقت منه ﴿ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا** ﴾ أي في الأرض بالدفن عند موتكم ﴿ **وَيُخْرِجُكُمْ** ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿ **إِخْرَاجاً** ﴾ محققاً لا ريب فيه ، وذلك لمجازاة الأولياء ومحاسبة الأعداء ، ولم يقل ثم يخرجكم ، بل ذكر بالواو الجامع إياها مع يعيدكم ، رمزاً إلى أن الإخراج مع الإعادة في القبر كشيء واحد ، لايجوز أن يكون بعضها محقق الوقوع دون بعض ﴿ **وَاللهُ** ﴾ كرّر الاسم الجليل للتعظيم والتيمن والتبرك ﴿ **جَعَلَ لَكُمُ** ﴾ أي لمنافعكم ﴿**الأَرْضَ بِسَاطاً**﴾ مبسوطة متسعة كالبساط والفراش، تتقلّبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم، وقد ذكرنا مراراً أن كروية الأرض، لا تتنافى مع الحرث والغرس ونحوهما لعظم دائرتها، كما يظهر الفرق بين بيضة الحمامة وبيضة النعامة ﴿ **لِتَسْلُكُوا** ﴾ من السلوك وهو الدخول ﴿ **مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً** ﴾ أي طرقاً واسعة ، جمع سبيل ، وفجّ ، وهو الطريق الواسع وقيل : هو المسلك بين الجبلين ، قال في المفردات : الفج طريق يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع أي لتسلكوا متخذين من الأرض سبلاً فتصرفوا فيها مجيئاً وذهاباً، بساطاً لا ينافي غيره من الوجوه، كالنوم ، والاستراحة ، والحرث، والغرس ونحوها ﴿ **قَالَ نُوحٌ** ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه، أي قال مناجياً له تعالى ﴿ **رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي** ﴾

داموا على عصياني ، ومخالفتي فيما أمرتهم به ، مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿ **وَٱتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً** ﴾ أي استمروا على اتباع رؤسائهم ، الَّذين أبطرتهم أموالهم ، وغرتهم أولادهم ، وصارت تلك الأموال والأولاد سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة ، فصارت أسوة لهم في الخسار ، وهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، كما قالت قريش (**لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) فجعلوا الغنى سبباً مصححاً للاتِّباع ، ودل الكلام على أن ازدياد المال والولد ، كثيراً ما يكون سبباً للهلاك الروحاني ، ويورث الضلال في الدين أولاً والإضلال عن اليقين ثانياً ، قال ابن الشيخ : المفهوم من نظم الآية أن أموالهم وأولادهم عين الخسار ، وأن ازديادهما إنما هو ازدياد خسارهم ، والأمر في الحقيقة كذلك ، فإنها وإن كانا من جملة المنافع ، المؤدية إلى السعادة الأبدية بالشكر عليها وصرفها إلى وجوه الخير ، إلا أنها إذا أديا إلى البطر والاغترار ، وكفران حق المنعم بها ، وصارا وسيلتين إلى العذاب المؤبد في الآخرة صارا كأنها محض الخسار ، لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فمن انتفع بها في الدنيا خسر سعادة الآخرة ، وصار كمن أكل لقمةً مسمومةً من الحلوى فهلك ، فإن تلك اللقمة في حقه هلاكٌ محض ، إذ لا عبرة لانتفاعه بها في جنب ما أدت إليه .

﴿ **وَمَكَرُوا** ﴾ المكر : الحيلة الخفية ، وفي كشف الأسرار : المكر في اللغة غاية الحيلة ، وهو من فعل الله تعالى إخفاء التدبير ﴿ **مَكْراً كُبَّاراً** ﴾ أي كبيراً في الغاية وهو أبلغ من الكبير نحو طُوَّال وطويل ، ومعنى مكرهم الكُبَّار احتيالهم في منع الناس عن الدين ، وتحريشهم لهم على أذية نوح ، ولما كان التوحيد أعظم المراتب ، كان المنع منه والأمر بالشرك أعظم الكبائر ، فلذا وصفه الله بكونه مكراً كُبَّاراً ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي الرؤساء للأتباع والسفلة ﴿ **لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ** ﴾ أي لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة رب نوح ﴿ **وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْراً** ﴾ جرد الأخيرين عن حرف النفي إذ بلغ التأكيد نهايته ، والمعنى ولا تذرن عبادة هؤلاء خصوصاً فهو من عطف الخاص على العام مع اندراجها فيما سبق ، لأنها كانت أكبر أصنامهم التي عندهم ، وقد انتقلت هذه الأصنام بأعيانها عنهم إلى العرب، فكان «وَدٌّ» لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهمْدان قبيلة باليمن، ويغوث لمذحج ومنه كانت العرب تسمى عبد يغوث ، ويعوق لمُرَاد ، ونسر لِحْمِير بوزن درهم ، موضع غربي صنعاء اليمن ، وقيل : هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح ، ماتوا فحزن الناس عليهم ، حزناً شديداً ، فلما رأى إبليس فعلهم ، جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم : هل لكم أن أصوِّر لكم صورهم إذا نظرتم إليها ذكرتموهم ، واستأنستم وتبركتم بهم ؟ قالوا نعم ، فصوَّر لهم صورهم من صفر ورصاص ونحاس،وسمَّى تلك الصور بأسمائهم ، ثم لما تقادم الزمن وانقرضت الأباء والأبناء وأبناء الأبناء ، قال لمن حدث بعدهم إن من قبلكم كانوا يعبدون هذه الصور ، فعبدوها ثم صارت سُنَّةً في العرب في الجاهلية وكان لعمرو بن لحي -

وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة ـ دور كبير في هذا فإنه هو الذي أتى بها إلى مكة ، ودعا إلى عبادتها ، فانتشرت عبادة الأصنام في العرب ﴿ **وَقَدْ أَضَلُّوا** ﴾ أي الرؤساء ﴿ **كَثِيراً** ﴾ أي خلقاً كثيراً أو أضل الأصنام كقوله تعالى (**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**) جَمَعهم جمع العقلاء ، لعدهم آلهة ، ووصفهم بأوصاف العقلاء ﴿ **وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ** ﴾ بالإشراك فإن الشرك ظلم عظيم ، إذْ أصلُ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فهل شيء أسوأ في هذا ؟ من وضع أخس مخلوق وعبادته موضع الخالق الفرد الصمد وعبادته ؟ ﴿ **إِلاَّ ضَلاَلاً** ﴾ الجملة عطف على قوله تعالى (**رَبِّ انَّهُمْ عَصَوْنِي**) أي قال ربي إنهم عصوني وقال (**وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً**) المراد بالضلال هو الضياع والهلاك ، لافي أمر دينهم ، فلا يقال : إنه إنما بُعِثَ ليصرفهم عن الضلال ، فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد ضلالهم ؟ وإن هذا الدعاء يتضمن الرضى بكفرهم ، وذلك لا يجوز في حق الأنبياء ؟ ويمكن أن يُجاب بأنه بعدما أوحى إليه أنه لا يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، وأن المحذور هو الرضى المقرون باستحسان الكفر ، ونظيره دعاء موسى عليه السلام بقوله (**واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ**) فمن أحبَّ موت الشرير بالطبع على الكفر ، حتى ينتقم الله منه ، فهذا ليس بكفر ، فيؤول المعنى إلى أن يقال ولا تَزِد الظالمين إلا ضلالاً وغياً ليزدادوا عقاباً ، كقوله تعالى (**إِنَّما نُملي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً**) وقوله (**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**) قالوا : دعا نوح الأبناء بعد الآباء ، حتى بلغوا سبعة قرون ، فَلَما أيس من إيمانهم دعا عليهم ، ﴿ **مِّما خَطِيئَاتِهِمْ** ﴾ أي من أجل خطيئات قوم نوح ، وأعمالهم المخالفة للصواب ، وهي الكفر والمعاصي ، و « ما » مزيدة لتأكيد الحصر ولزيادة فائدة غير التوكيد ، وهي تفخيم خطيئاتهم أي من أجل خطيئاتهم العظيمة ﴿ **أُغْرِقُوا** ﴾ في الدنيا بالطوفان لا بسبب آخر ، وفيه زجر لمرتكب الخطايا مطلقاً ﴿ **فَأُدْخِلُوا نَاراً** ﴾ تنكير النار لتعظيمها وتهويلها ، أو لأنه تعالى أعدَّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعاً من النار ، والمراد به عذاب القبر فهو عقيب الإغراق ، وإن كانوا في الماء ، فإن من مات في ماء أو نار ، أو أكلته السباع أو الطير ، أصابه ما يصيب المقبور من العذاب ، عن الضحاك : أنهم كانوا يغرقون من جانب أي بالأبدان ويحرقون من جانب أي بالأرواح ، فجمعوا بين الماء والنار كما قال الشاعر :

الخَلْقُ مُجْتَمِعٌ طَوْراً ومفترقٌ * والحَادثاتُ فُنُونٌ ذاتُ أَطْوارِ
لاَتَعْجَبَنَّ لأَضْدادٍ إذَا اجْتَمعتْ * فاللهُ يَجْمعُ بينَ المَاءِ والنَّارِ

وقيل : عذابهم جهنم ، والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لإغراقهم ، وتحققه لا محالة ﴿ **فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً** ﴾ أي لم يجد أحد منهم لنفسه واحداً من الأنصار ، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة

من دون الله ، وتهكم بهم والجملة من كلام الله إشعاراً بإجابة دعوة نوح ، وتسلية للرسول عليه السلام وأصحابه ، وتخويفاً للعاصي من العذاب وأسبابه ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ** ﴾ بعدما قنط من اهتدآئهم ﴿ **رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ** ﴾ لا تترك على الأرض ﴿ **مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ بما جاء من عندك ﴿ **دَيَّاراً** ﴾ أحداً يدور في الأرض ، فيذهب ويجي أي فأهلكهم بالاستئصال و«دَيَّارٌ» من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال : ما بالدار ديَّارٌ أي أحد وساكن ﴿**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ**﴾ ولا تهلكهم ، بيانٌ لوجه دعائه عليهم بأنه كان من الغيرة في الدين ، لا لغلبة غضب النَّفس ﴿**يُضِلُّوا عِبَادَكَ**﴾ عن طريق الحق لأنَّ الضلال متأصل فيهم ، دلَّ عليه أنه كان الرجل منهم ينطلق بابنه إلى نوح ، فيقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى حذَّرنيه وأوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير ، وينشأ الصغير على ذلك ﴿ **وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً** ﴾ أي ولا يأتى من أولادهم إلا كل شقي ضال ﴿ **كَفَّاراً** ﴾ مبالغاً في الجحود والكفران ، قال الراغب : الكفَّارُ أبلغ من الكفور وهو المبالغ في كفران النعمة ، والمعنى إلا من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه بعد البلوغ ، وكأنه اعتذار مما عسى يَردُ عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال ـ مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ـ منكرٌ ، وإنما قاله بالوحي لقوله تعالى في سورة هود (**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ من قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ**) والظاهر أن هذا الدعاء إنما يكون بعد ظهور أمارات النكال ، قال بعضهم :«لا يلدُ الحيَّةَ إلاَّ الحيَّةُ» وهذا في الأغلب، ومن هناك قيل: إذا طاب أصلُ المرء طابت فروعه ، ونحوُه : الولد سُرّ أبيه ، قال بعضهم في توجيهه : إن الولد إذا كبر إنما يتعلم من أوصاف أبيه أو يسرق من طباعِه ، وقد يصحب المرءُ رجلاً فيسرق من طباعه الخير والشر ، ودعاء نوح كان بالأمارات حيث جرَّبهم قريباً من ألف سنة ، فلم يظهر منهم إلا الكفر والفجور ، ولو كان بالوحي لما اعتذر ، ويدل على ما ذكر من أن دعاءه ليس مبنياً على الوحي ، ما ثبت أن النبي عليه السلام ، شبَّه عمر رضي الله عنه في الشدة بنوح ، وأبا بكر رضي الله عنه في اللين بإبراهيم ، واعلم أنه لا يجوز أن يُدعى على كافر معين ، لأنَّا لا نعلم خاتمته ، ويجوز على الكفار والفجار مطلقاً ، وقد دعا عليه السلام على من تحزَّب على المؤمنين ، وهذا هو الأصل في الدعاء على الكافرين ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي** ﴾ ذنوبي وهي ما صدر منه من ترك الأولى ﴿ **وَلِوَالِدَيَّ** ﴾ ذنوبهما وكانا مسلمين على ملة إدريس عليه السلام ، وقيل : المراد بوالديه آدم وحواء عليهما السلام ﴿ **وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ** ﴾ أي منزلي وقيل مسجدي فإنه بيت أهل الله ﴿ **مُؤْمِناً** ﴾ حال كون الداخل مؤمناً ، وبهذا القيد خرجت امرأته « واعلة » وابنه « كنعان » ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلابعد ما قيل له «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ﴿**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ من لدن آدم إلى يوم القيامة ، خَصَّ أولاً من يتصل به نسباً وديناً ، لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمَّ المؤمنين والمؤمنات ، والميت في القبر كالغريق المستغيث ، ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أخ أو صديق ، فإذا لحقته كانت أحب

إليه من الدنيا وما فيها ، وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض مثل الجبال ، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم ﴿**وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً**﴾ أي هلاكاً، قال في الأول (**ولا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلا ضَلالاً**) لأنه وقع بعد قوله (**وَقَدْ أَضَلّوا كَثِيراً**) وفي الثاني قال (**إِلاَ تَبَاراً**) لأنه وقع بعد قوله (**لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيّاراً**) فذكر في كل مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه ، والظاهر أنه عليه السلام أراد بالكافرين والظالمين ، الذين كانوا موجودين في زمانه ، متمكنين في الأرض فسئوله أن يهلكهم الله ، فاستجيب دعاؤه فعمهم الطوفان بالغرق ، وما نقل عن بعض المنجمين من أنه أراد جزيرة العرب فوقع الطوفان عليهم دون غيرهم من الآفاق مخالف لظاهر الكلام ، وتفسير العلماء ، ودل الكلام على أن الظالم إذا ظهر ظلمه ، وأصر عليه ، ولم ينفعه النصح ، استحق أن يدعى عليه وعلى أعوانه وأنصاره، وسئل الحسنُ عن ذلك فقال: علم الله براءتَهم فأهلكهم بغير عذاب، وكم من الصبيان من يموت بالغرق والحرق وسائر أسباب الهلاك، وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي ولا مجنون حين غرقوا لأن الله تعالى قال (**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ**) ولم يوجد التكذيب من الأطفال والمجانين، وفي الأسئلة المقحمة ولو أهلك الأطفال بغير ذنب منهم ماذا يضر في الربوبية أليس الله يقول (**قل فمن يملك من الله شيئاً أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأُمَّهُ ومن في الأرض**) والظاهر هلاك الصِّبيان مع الآباء والأمهات ، لأن نوحاً عليه السلام ألحقهم بهم حيث قال (**وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**) إذ من سيفجر ويكفر في حكم الفاجر والكافر ، فلذلك دعا على الكفار مطلقاً ، عموماً بالهلاك ، لاستحقاق بعضهم له بالأصالة ، وبعضهم بالتبعية ، ودعا للمؤمنين والمؤمنات عموماً وخصوصاً بالنجاة ، لأن المغفور ناج لا محالة ، والله أعلم .

« تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة نوح »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي ألقي عليَّ بطريق الوحي ، وأُخبرتُ بإعلام من الله تعالى ، والإيحاء : إعلام في خفاء ، وفائدة إخباره بهذه الأخبار ، بيان أنه رسول الثقلين والنهي عن الشرك والحث على التوحيد ، فإن الجن مع تمردهم وعدم مجانستهم إذا آمنوا ، فكيف لا يؤمن البشر مع سهولة طبعهم ومجانستهم ؟ ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالفتح لأنه فاعل أوحي ، والضمير للشأن أي أن الشأن والحديث ﴿ اسْتَمَعَ ﴾ أي القرآن ﴿ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة والعشرة ، والجن واحده جني ، كروم ورومي ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : انطلق رسول الله عليه السلام في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ ، فأدركهم وقت صلاة الفجر وهم بنخلة ، فأخذ هو عليه السلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فمر عليهم نفر من الجن وهم في الصلاة ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وفيه دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن حينئذ ، وكذا لم يشعر بحضورهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبره الله بذلك ، والجنُّ : أجسام رقاق في صورة تخالف صورة الملك والإنس ، عاقلةٌ كالإنس ، خفية عن أبصارهم ، لا يظهرون لهم ولا يكلمونهم إلا لصاحب معجزة ، بل يوسوسون لسائر الناس ، يغلب عليهم النارية ويدل عليه قوله تعالى (وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) فإن المشهور أن المركبات كلها من العناصر فما يغلب فيه النار فناري كالجن ، وما يغلب فيه الهواء فهوائي كالطير ، وما يغلب فيه الماء فمائي كالسمك ، وما يغلب فيه التراب فترابي كالإنسان وسائر الحيوانات الأرضية ﴿ فَقَالُوا ﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً ﴾ أي كتاباً مقروأ على لسان الرسول ﴿ عَجَباً ﴾ مصدر بمعنى العجيب ، وضع موضعه للمبالغة ، والعجيب ما خرج عن حد أشكاله ونظائره ، والمعنى بديعاً مبايناً لكلام الناس ، في حسن النظم ودقة المعنى ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ إلى الحق والصواب ، وصلاح الدين والدنيا ، كما قال عليه السلام (اللهم ألهمني رشدي) أي الاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا ،فيدخل فيه التوحيد والتنزيه ، وحقيقة الرشد هو الوصول إلى الله تعالى ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ أي بذلك القرآن ومن ضرورة الإيمان به الإيمان بمن جاء به ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ ﴾ أي بعد علمنا الحق ﴿ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ أي لا نجعل أحداً شريكاً له ، ولا نعبد غيره ، فإن تمام الإيمان إنما يكون بالبراءة من الشرك والكفر ، كما قال إبراهيم عليه السلام (إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) فلكونه قرآناً معجزاً بديعاً وجب الإيمان به ، ولكونه يهدي إلى الرشد وجب قطع الشرك والدخول في دين الله كله ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ بالفتح فيكون من جملة الكلام الموحى به ، والمعنى وأن الشأن ارتفع

عظمة ربنا كما نقول في الثناء (وتعالى جَدُّكَ) أي ارتفع عظمتك لأن الملك والسلطة غاية العظمة ﴿ **مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً** ﴾ أي لم يختر لنفسه لكمال تعاليه زوجة ولا بنتا كما يقول الظالمون ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا للخطأ فيما اعتقده كفرة الجن ، من تشبيه الله بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد ، فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه لعظمته ولسلطانه أو لغناه ، فإن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها ، والولد للتكثير وإبقاء النسل ، وهذه من لوازم الحدوث ، وقد قالت النصارى المسيح ابن الله ، واليهود عزيرٌ ابن الله ، وبعض مشركي العرب الملائكة بنات الله ، ويلزم من كون المسيح ابن الله على ما زعموا أن تكون مريم صاحبة له ، ولذا ذكر الصاحبة يعني أن الولد يقتضي الأم التي هي صاحبة الأب ﴿ **وَأَنَّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا** ﴾ أي جاهلنا وهو إبليس ، أو مردة الجن ، والظاهر أن يكون إبليس من الجن قال تعالى (**كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**) والسَّفَهُ : خفة الحلم لنقصان العقل ، والمراد به في الآية هو السفه في الدين ﴿ **عَلَى اللهِ** ﴾ أورد «على» لأن ما قالوه عليه تعالى لا له ﴿ **شَطَطاً** ﴾ هو مجاوزة الحد في الظلم وغيره ، والإفراط في البعد ، أي قولاً ذا شطط أي بعد عن القصد ومجاوزة الحد ، وفي الآية اشارة إلى أن العالم الغير العامل في حكم الجاهل فإن إبليس كان من أهل العلم فلما لم يعمل بمقتضى علمه جعل سفيهاً جاهلاً لا يجوز التقليد له فالاتِّباع للجاهل ومن في حكمه اتباع للشيطان والشيطان يدعو إلى النار لأنه خلق منها ﴿ **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ** ﴾ مخففة من الثقيلة أي أن الشأن ﴿ **لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً** ﴾ اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم أي كنا نظن أن الشأن لن يكذب على الله أحد أبداً ، فلما سمعنا القرآن وتبيَّن لنا الحق بسببه ، علمنا أنهم يكذبون عليه تعالى ﴿ **وَأَنَّهُ** ﴾ أي وأن الشأن ﴿ **كَانَ** ﴾ في الجاهلية ﴿ **رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ** ﴾ العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ﴿ **بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ** ﴾ فيه دلالة أن للجن نساء كالإنس ، لأن لهم رجالاً وأنهم يتوالدون لكنهم ليسوا بمنظرين كإبليس وذريته ، قال أهل التفسير : كان الرجل من العرب إذا أمسى في وادٍ قفر ، وخاف على نفسه ، يقول : أعوذ بسيد هذا الوادي ، من شر سفهاء قومه وكبيرهم ، فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا ، وقالوا : سُدنا الإنس والجن ، وذلك قوله تعالى ﴿ **فَزَادُوهُمْ** ﴾ أي فزاد الرجال العائذون الجن ﴿ **رَهَقاً** ﴾ مفعول ثان لزاد أي تكبراً وعتواً وسفهاً ، فإن الرَّهَق يجيء على معان منها السفه وركوب الشر والظلم ، أو المعنى فزاد الجن العائذين غياً بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم ، وإذا استعاذوا بهم فأمنوا ظنوا أن ذلك من الجن فازدادوا رغبة في طاعة الشياطين وقبول وساوسهم ، وروي عن كردم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال (خرجتُ مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذكر النبي عليه السلام بمكة ، فأدَّاني المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل ، جاء الذئب فحمل حملاً من الغنم ، فقال الراعي : يا عامرَ

الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة) فأنزل الله على رسوله بمكة (**وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ**)[1] الآية ﴿ **وَأَنَّهُمْ** ﴾ أي الإنس ﴿ **ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ** ﴾ أيها الجن ﴿ **أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً** ﴾ أي لن يبعث الله أحداً بالرسالة بعد عيسى يقيم به الحجة على الخلق ، ثم إنه يبعث إليهم محمداً عليه السلام خاتم النبيين ، وقيل : المعنى لن يبعث الله أحداً بعد الموت للحساب والجزاء ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ** ﴾ أي طلبنا بلوغ السماء ، لاستماع ما يقول الملائكة من الحوادث ، أو خبرها للإفشاء بين الكهنة ، واللمس مستعار من المس للطلب فعبر عنه بالمس واللمس قال في كشف الأسرار : ومنه الحديث الذي ورد أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ (إن امرأتي لا تردُّ عنها يد لامس)[2] أي لا تردُّ يد طالب حاجة صِفراً ، يشكو تضييعها ماله ﴿ **فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً** ﴾ أي حُرَّاساً وحفظة ، وهم الملائكة يمنعونهم عنها اسم جمع لحارس بمعنى حافظ كخدم لخادم ﴿ **شَدِيداً** ﴾ أي قوياً ، ولو كان جمعاً لقيل شداداً ﴿ **وشُهُباً** ﴾ جمع شهاب وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ** ﴾ قبل هذا ﴿ **مِنْهَا** ﴾ أي من السماء ﴿ **مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ** ﴾ خالية عن الحرس والشهب ، يحصل منها مقاصدنا من استماع الأخبار ، أو صالحة للترصُّدِ والاستماع ، أي مواضع لاستماع الأخبار من السماء ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ « أن الملائكة تنزل في العَنَان - وهو بالفتح السحاب - فتذكر الأمر الذي قضى في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم » يقول الفقير : وجه التوفيق بين الاسترق من السماء ، ومن السحاب ، أن الملائكة مرة ينزلون في العَنَان فيتحدثون هناك ، وأخرى يتذاكرون في السماء ، ولا منع من عروج الشياطين إلى السماء في مدة قليلة للطافة أجسامهم ، وحيث كانت نارية أو هوائية لا يتأثرون من النار أو الهواء حين المرور بكرتها ، ولو سلم فعروجهم من قبيل الاستدراج ، ولله في كل شيء حكمة وأسرار ﴿ **فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ** ﴾ في مقعد من المقاعد ويطلب الاستماع في هذا الزمان بعد المبعث ﴿ **يَجِدْ لَهُ** ﴾ جواب الشرط ، أي يجد لنفسه ﴿ **شِهَاباً رَصَداً** ﴾ أي شهاباً راصداً له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم ﴿ **وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ** ﴾ بحراسة السماء منا ﴿ **أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً** ﴾ أي خيراً وإصلاحاً أوفق لمصالحهم ؟ والاستفهام لإظهار العجز عن الاطلاع على الحكمة ، ونسبةُ الخير إلى الله تعالى دون الشر من الآداب الشريفة القرآنية كما في قوله تعالى (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) فتأدبوا في نسبة الرشاد إليه ، وجعلوا الشر مضمر الفاعل ، فجمعوا بين حسن

---

(١) الحديث أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٢٧١ .

(٢) هذا طرفي من حديث أخرجه النسائي في كتاب النكاح والطلاق ، وفيه أن النبي ﷺ قال له : « طَلِّقْها ، قال أخشى أن تتبعها نفسي قال : فأمسكْها إذاً » الحديث .

الاعتقاد والأدب ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ** ﴾ أي الموصوفون بالصلاح في أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم حسبما تقتضيه الفطرة السليمة ، لا إلى الشر والفساد ، كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿ **وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ** ﴾ أي قوم دون ذلك في الصلاح ﴿ **كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً** ﴾ أي كنا قبل هذا طرائق في اختلاف الأحوال ، فهو بيان للقسمة المذكورة ، قالوا : في الجن قدرية ، ومرجئة وخوارج ، وروافض ، والظاهر أن الطرائق جمع طريقة كقصائد جمع قصيدة ، والطريق الذي يُطرق بالأرجل أي يُضرب ، ومنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان محموداً كان أو مذموماً ، والقدَّ : قطعُ الشيء طولاً ، ومنه قيل لقامة الإنسان قَدٌّ ، وفي القاموس : القدَّةُ : الفرقة من الناس ، هوى كل واحد على حدة ، ومنه (**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً**) أي فرقاً مختلفة أهواؤها وقد تعددوا ﴿ **وَأَنَّا ظَنَنَّا** ﴾ أي علمنا الآن بالاستدلال والتفكر في آيات الله ، فالظن هنا بمعنى اليقين ، لأن الإيمان لا يحصل بالظن ، ولأن مقصودهم ترغيب أصحابهم وترهيبهم ، وذا بالعلم لا بالظن ﴿ **أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ** ﴾ عن إمضاء ما أراد بنا كائنين ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ أينما كنا من أقطارها ﴿ **وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً** ﴾ أي هاربين من الأرض ، أو لن نعجزه في الأرض ، إن أراد بنا أمراً ، والغرضُ أنها مع سعتها ليست منجى منه تعالى ولا مهرباً ﴿ **وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى** ﴾ أي القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم ﴿ **آمَنَّا بِهِ** ﴾ من غير تأخير وتردد ﴿ **فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ** ﴾ وبما أنزله من الهدى ﴿ **فَلاَ يَخَافُ** ﴾ أي فهو لا يخاف ، فالكلام في تقدير مبتدأ وخبر ، ولذلك دخلت الفاء ، وإلاَّ لقيل : فلا يخفْ ﴿ **بَخْساً** ﴾ أي نقصاً في الجزاء ﴿ **وَلاَ رَهَقاً** ﴾ ولا أن ترهقه ذلة وتغشاه ، وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم ، ومنه قوله عليه السلام (المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم)[1] قال الواسطي رحمه الله : حقيقةُ الإيمان ما أوجب الأمان ، فمن بقي في مخاوف المرتابين ، لم يبلغ الى حقيقة الإيمان ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ** ﴾ أي بعد استماع القرآن ﴿ **ومِنَّا القَاسِطُونِ** ﴾ الجائرون عن طريق الحق الذي هو الإيمان والطاعة ، فالقاسط الجائر لأنه عادل عن الحق ، والمقسط العادل لأنه عادل إلى الحق ، يقال : قسط إذا جار ، وأقسط إذا عدل ﴿ **فَمَنْ أَسْلَمَ** ﴾ يجوز أن يكون من كلام الجن ، ويجوز أن يكون مخاطبةً من الله لرسوله وما فيما بعده من الآيات ﴿ **فَأُولَئِكَ** ﴾ إشارة إلى من أسلم ﴿ **تَحَرَّوْا** ﴾ أي طلبوا وقصدوا ﴿ **رَشَداً** ﴾ يقال : رَشَدَ كنصر وفرح رُشْداً ، ورَشَد إرشاداً اهتدى ، أي اهتداء عظيماً إلى طريق الحق والصواب ، يبلغهم دار الثواب ، ودل على أن للجن ثواباً على أعمالهم ، لأنه ذكر سبب الثواب وموجبه ﴿ **وَأَمَّا القَاسِطُونَ** ﴾ الجائرون عن سنن الهدى ﴿ **فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً** ﴾ أي حطباً توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس ، روي أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين

(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي بلفظ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم) وانظر جامع الأصول ١ / ٢٤١ .

أراد قتله ما تقول فيَّ قال : إنك قاسطٌ عادل ، فقال الحاضرون : ما أحسن ما قال ؟ حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة جعلني جاهلاً كافراً وتلا قوله تعالى (**وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبَاً**) وقوله تعالى (**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**) وأسند بعضهم هذا القول إلى امرأة كما في الصحاح ﴿ **وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا** ﴾ المعنى أوحي إليَّ أن الشأن لو استقام الجن والإنس ﴿ **عَلَى الطَّرِيقَةِ** ﴾ التي هي ملة الإسلام ﴿ **لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقَاً** ﴾ الإسقاء والسقي بمعنى وغَدقَ إذا غزر ، وُصف الماء به للمبالغة في غَزَارته ، وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وأصل المعاش ولعزة وجوده بين العرب ، قال عمر رضي الله عنه : أينما كان الماء كان العشب ، وأينما كان العشب كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة ، والمعنى لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً ، ووسَّعنا عليهم الرزق في الدنيا ﴿ **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ﴾ لنختبرهم في ذلك الإسقاء والتوسع ، كيف يشكرونه ؟ كما قال تعالى (**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحَسَنَاتِ**) ﴿ **وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ** ﴾ عن عبادته ﴿ **يَسْلُكْهُ** ﴾ يدخله ﴿ **عَذَاباً صَعَداً** ﴾ أي شاقاً صعباً يعلو المعذَّب ويغلبه فلا يطيقه ، على أنه مصدر وصف به للمبالغة ، يقال : سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها أي يسلكه في عذاب صَعَدٍ كما قال تعالى (**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ**) أي أدخلهم فيها ، وروي أن صَعَداً جبل في النارأملس ، ويكلف الوليد بن المغيرة صعوده أربعين عاماً ، فيجذب من أعلاه بالسلاسل ، فإذا انتهى إلى أعلاه انحدر إلى أسفله ثم يكلف ثانياً وهكذا يعذب أبداً ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ** ﴾ أي وأوحي إليَّ أن المساجد مختصة بالله تعالى وبعبادته ، خصوصاً المسجد الحرام ، ولذلك قيل « بيت الله » فالمراد بالمساجد المواضع التي بنيت للصلاة ، وذكر الله ، ثم هذا لا ينافي أن تضاف المساجد وتنسب إلى غيره تعالى بوجه آخر ، إما لبانيها كمسجد رسول الله ، أو لمكانها كمسجد بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الاعتبارات ، وأعظم المساجد حرمة المسجدُ الحرام ، ثم مسجد المدينة ، ثم مسجد بيت المقدس ، ثم الجوامع ، ثم مساجد المحال ، ثم مساجد الشوارع ، ثم مساجد البيوت ﴿ **فَلاَ تَدْعُوا** ﴾ أي لا تعبدوا فيها ﴿ **مَعَ اللهِ أَحَداً** ﴾ أي لا تجعلوا أحداً شريكاً لله في العبادة ، فإذا كان الإشراك مذموماً فكيف يكون حال تخصيص العبادة بالغير ؟ قال بعض العارفين : إنما تبرأ تعالى من الشريك ، لأنه عدم واللهُ وجود ، فتبرأ من العدم الذي لا يلحقه ، إذ هو واجب الوجود لذاته ، والله تعالى مع الخلق ومادام الخلق مع الله ، لأنه تعالى يعلمهم وهم لا يعلمونه ، فهو تعالى معهم أينما كانوا في أمكنتهم ، وأزمانهم ، وأحوالهم ولهذا قال (**فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً**) ثم إن السجود إن كان عن أمر الله كالسجود لآدم فهو مقبول ، وإن كان عن غير أمره كالسجود للأصنام فهو مردود ، وإنما وضعت المساجد للتعظيم ، كما أنه عينت القبلة للأدب ، يروى عن كعب أنه قال (إني لأجد في التوراة أن الله تعالى يقول : إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد ، فهو

زائر الله ، وحقٌ على المزور أن يكرم زائره)[1] ومن هنا قالوا أن من دخل المسجد ينوي زيارة الله تعالى .

قال ابن عطاء : مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها ، لا تخضعها ولا تذللها لغير خالقها ، وهي الوجهُ ، واليدان ، والركبتان ، والرجلان ، والحكمة في إيجاب السجود على هذه الأعظم ، أن هذه الأعضاء التي عليها مدار الحركة التي تنفتح وتنطبق في المشي والبطش ، وأكثر السعي ، ويحصل بها اجتراح السيئات ، وارتكاب الشهوات ، فشرع الله بها السجود للتكفير ، ومحو الذنب والتطهير ﴿ **وَأَنَّهُ** ﴾ من جملة الموحَي به ، أي وأوحيَ إليَّ أنَّ الشأن ﴿ **لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ** ﴾ أي النبي عليه السلام فهو العبد الحقيقي المضاف إلى اسم الله الأعظم ، وإيراده عليه السلام بلفظ العبد ، للإشعار بما هو المقتضى لقيامه وعبادته ، وهو العبودية ، أي كونه عبداً لله ، وفيه تعريض لقريش بأنهم سموا عبد ودٍّ ، وعبد يغوث ، وعبد مناف ، وعبد شمس ، ونحوها لا عبد الله وأن من سُمِّي منهم بعبد الله ، فإنما من قبيل التسمية المجردة عن معانيها ﴿ **يَدْعوهُ** ﴾ أي يعبده وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة كما سبق ﴿ **كَادُوا** ﴾ أي قرب الجن ﴿ **يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً** ﴾ أي متراكمين يركب بعضهم بعضاً ، من ازدحامهم على النبي عليه السلام ، تعجباً مما شاهدوا من عبادته ، وسمعوا من قراءته ، واقتداء أصحابه به قياماً وقعوداً وسجوداً ، لأنهم رأوا مالم يروا مثله قبله ، وسمعوا مالم يسمعوا بنظيره ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا** ﴾ أي أعبد ﴿ **رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ** ﴾ أي بربي في العبادة ﴿ **أَحَداً** ﴾ فليس ذلك ببدع ، فلا مستنكر يوجب الإطباق على عداوتي ، وهذا حالي فليكن حالكم أيضاً كذلك ﴿ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ** ﴾ لا أستطيع ﴿ **لَكُمْ** ﴾ أيها المشركون ﴿ **ضَرّاً وَلاَ رَشَداً** ﴾ أي ليس هذا بيدي ، بل بيد الله تعالى ، فإنه هو الضار النافع ، الهادي المضل ، ﴿ **قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي** ﴾ ينقذني ويخلصني ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ من قهره وعذابه ، إن خالفت أمره وأشركتُ به ﴿ **أَحَدٌ** ﴾ أي لن ينجيني منه أحد إن أرادني بسوء ، من مرضٍ أو موت ، أو غيرهما ، قال بعضهم : هذه لفظة تدل على الإخلاص في التوحيد ، إذ التوحيدُ هو صرف النظر إلى الحق لا غير ، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله ، والإعراض عما سواه ، والاعتماد عليه دون ما عداه ﴿ **وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً** ﴾ أي لن أجد عند الشدائد ملتجأ غيره تعالى ، وموئلاً ، فلا ملجأ ولا موئل ولا معدل إلا هو وهذا بيان لعجزه عليه السلام عن شؤون نفسه ، بعد بيان عجزه عن شؤون غيره أي وإذا لم أملك لنفسي شيئاً فكيف أملك لكم شيئاً ؟ ﴿ **إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللهِ** ﴾ أي لن أجد من دونه تعالى منجى ، إلا

---

(١) حديث (إن بيوتي في الأرض المساجدُ ، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود بهذا اللفظ ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٨٥ .

أن أبلِّغ عنه ما أرسلني به ﴿ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ أي وأبلِّغ رسالاته التي أرسلني بها ، من غير زيادة ولا نقصان ، والمراد بالرسالة ما أرسل من الأمور به والأحكام ، والأحوال ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الأمر بالتوحيد فيشرك به ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في النار ، والجمع باعتبار المعنى ﴿ أَبَداً ﴾ بلا نهاية ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ غاية لمحذوف يدل عليه الحال ، كأنه قيل : لا يزالون على ما هم عليه ، حتى إذا رأوا ما يوعدون من فنون العذاب في الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ عند حلوله بهم ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ أي فسيعلمون الذي هو أضعف وأقلُّ ، أهم أم المؤمنون أم الكافرون ؟ وفي الآية دلالة على أن الكفار مخذولون في الدنيا والآخرة ، وإن كثروا عدداً ، وقووا جسداً ، لأن الكافرين لا مولى لهم ، وأنَّ المؤمنين منصورون في الدارين ، وإن قلوا عدداً ، وضعفوا جسداً ، لأن الله مولاهم كما قال سبحانه (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي ﴾ أي ما أدري لأن « إن » نافية ﴿ أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي أقريب الذي توعدونه ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾ أي غاية تطول مدتها ، والمعنى أن الموعود كائن لا محالة ، وأما وقته فما أدري متى يكون ، لأن الله لم يبينه ، لما في إخفاء وقته من المصلحة ، وهو ردٌّ لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون الموعود ؟ انكاراً واستهزاء ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي هو عالم لجميع ما غاب عن الحِسِّ ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ أي فلا يطلع على غيبه إطلاعاً كاملاً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ أي إلا رسولاً ارتضاه واختاره ، لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، وأما مالا يتعلق بها من الغيوب التي من جملتها وقت قيام الساعة ، فلا يظهر عليه أحداً أبداً ، لأن بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية ، التي عليها يدور فلك الرسالة ، ثم الآية نظير قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ أي يدخل ويثبت ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي قدام الرسول المرتضى ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ أي فإنه تعالى يسلك من جميع جوانب الرسول حرساً من الملائكة ، يحرسونه من بعض الشياطين ، لما أظهره عليه من الغيوب المتعلقة برسالته ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ ﴾ المعنى ليعلم أنه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم ، كما هي من غير اختطاف ولا تخليط ، بعد ما أبلغها إليهم ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي وقد أحاط بما لديهم من الأحوال جميعاً ﴿ وَأَحْصَى ﴾ علماً بالغاً إلى حد الإحاطة تفصيلاً ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مما كان وما سيكون ﴿ عَدَداً ﴾ أي فرداً فرداً ، فكيف لا يحيط بما لديهم ، قال القاسم : هو أوجدها فأحصاها عدداً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أحصى ما خلق ، وعرف عدد ما خلق ، لم يفته علم شيء ، حتى مثاقيل الذرّ والخردل ، والله تعالى أعلم .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يَأَيُّهَا المزَّمِلُ** ﴾ أي المزمل ، تزمَّل بثيابه إذا تلفف بها وتغطى . كان عليه السلام نائماً بالليل متزملاً في قطيفة ، فأمر أن يترك التزمل ، إلى التشمر للعبادة ، ويختار التهجد على الهجود ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أول ما جاءه جبريل خافه فظن أن به مسَّاً فرجع من جبل حراء إلى بيت خديجة مرتعداً ، وقال : زَمِّلوني ، فبينما هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال (يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ) قال السهيلي : ليس المزمل من أسمائه عليه السلام التي يعرف بها ، كما ذهب إليه بعض الناس وعدَّه في أسمائه ، وإنما المزمل مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب ، وكذا المدثِّر ، وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : إحداهما : الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي لعلي رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله عنها أي أغضبها وأغضبته ، فأتاه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب ، فقال له :«قم أبا تراب» إشعاراً بأنه غير عاتب عليه وملاطفة له ، وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة رضي الله عنه : «قم يانومان» وكان نائماً ملاطفة وإشعاراً بترك العتب والتأديب ، فقول الله تعالى لمحمد عليه السلام (يا أيها المزمل) تأنيس وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه ، والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد ليله ، لينتبه إلى قيام الليل ، وذكر الله فيه ، ﴿ **قُمِ اللَّيلَ** ﴾ أي لا تتزمل ولا ترقد ودع هذه الحال لما هو أفضل منها ، وقم إلى الصلاة في الليل ، وقال بعض العارفين : إن الله أحب مناجاة حبيبه له ، فناداه أن يقوم في جوف الليل ، والقيام والمناجاة ليس لأهل الدنيا بل لأهل الجنة ، لما يجده أهل الذوق من الحلاوة ﴿ **إلاَّ قَلِيلاً** ﴾ استثناء من الليل ﴿ **نِصْفَهُ** ﴾ بدل من الليل ، أي قم نصفه والتعبير بالنصف للإيذان بفضله ، وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب ﴿ **أَوِ انْقُصْ مِنْهُ** ﴾ أي انقص القيام من النصف المقارن له إلى الثلث ﴿ **قَلِيلاً** ﴾ أي نقصاناً قليلاً ﴿ **أَوْ زِدْ عَلَيهِ** ﴾ أي زد القيام على النصف إلى الثلثين ، فالمعنى تخييره عليه السلام بين أن يقوم نصفه ، أو أقل منه ، أو أكثر ، قيل : هذا التخيير على حسب طول الليالي وقصرها ، فالنصف إذا استوى الليل والنهار ، والنقص منه إذا اقصر الليل ، والزيادة عليه إذا طال الليل ﴿ **وَرَتِّلِ القُرْآنَ** ﴾ أي اقرأ على تؤدة وتبيين حروف ﴿ **تَرْتِيلاً** ﴾ بليغاً بحيث يتمكن السامع من عَدِّها ، ولذا نهى ابن مسعود رضي الله عنه عن التعجل ، وقال : (ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة) يعني لابد للقاريء من الترتيل ، ليتمكن من التأمل في حقائق الآيات ، فعند الوصول إلى ذكر الله ، يستشعر عظمته وجلاله ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يقع في الرجاء والخوف ، وليسلم نظم القرآن من

الخلل ، قال في الكشاف : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبين الحروف ، وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج وأن لا يُهزَّه هزاً ، ولا يسرده سرداً ، والأمر بترتيل القرآن يشعر بأن الأمر بقيام الليل نزل بعدما تعلم عليه السلام مقداراً منه وإن قلَّ وقوله (**إنَّا سَنُلْقِي**) على الاستقبال بالنسبة إلي بقية القرآن ، وكان عليه السلام مجوداً للقرآن كما أنزل ، وتجويده تحسين ألفاظه بإخراج الحروف من مخارجها ، وإعطاء حقوقها من صفاتها ، كالجهر ، والهمس ، واللين ، ونحوها ، وذلك بغير تكلف ، وهو ارتكاب المشقة في قراءته بالزيادة على أداء مخرجه ، والمبالغة في بيان صفته ، فينبغي أن يتحفظ في الترتيل عن التمطيط ، وهو التجاوز عن الحد ، وفي الحدد عن الإدماج والتخليط ، كأنه يلف بعض الحروف والكلمات في بعض لزيادة السرعة ، وذلك أن القراءة بمنزلة البياض إن قل صار سمرة ، وإن كثر صار بَرَصاً ، فما كان فوق القراءة فليس بقراءة ، فعلم من هذا إن التجويد على ثلاث مراتب : ترتيل ، وحَدْر ، وتدوير ، **أما الترتيل** : فهو تؤدة وتأن وتمهل وهو أفضل القراءة لأن فيه التدبر والتفكر ، وأفضل الترتيل والتدبر للقرآن ما كان في صلاة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لأن أقرأ البقرة أرتلها وأتدبرها ، أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة أي سرعة ، وقد كان بعضهم يقول : كلُّ آيةٍ لا أفهمها ، ولا يكون قلبي فيها ، لم أعدَّ لها ثواباً ، وكان بعض السلف إذا قرأ سورة ولم يكن قلبه واعياً أعادها ثانية ، قال مالك بن دينار رحمة الله : إذا قام العبد يتهجد من الليل ، ويرتل القرآن كما أمر ، قرب الجبار منه ، قال : وكانوا يرون أن ما يجدونه في قلوبهم من الرقة والحلاوة ، وتلك الفتوح والأنوار ، من قرب الرب من القلب ، وفي الحديث (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة ، اقرأ وارْق ، ورتِّلْ كما كنت ترتِّل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)[1] ولكون المقصود من إنزال القرآن فهم الحقائق ، والعمل بالفحاوي ، شرع الإنصات لقراءة القرآن وجوباً في الصلاة ، وندباً في غيرها ، وللقارىء أجر ، وللمستمع أجران ، لأنه يسمع وينصت ، أو يسمع بأذنيه والقارىء يقرأ بلسان واحد ، والمستمع يؤدي الفرض ولذا قالوا استماعه أثوب من تلاوته ،

وأما الحدر فهو الإسراع في القراءة كما رُوي أنه ختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الأمة عثمان بن عفان ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة رضي الله عنه وهذا أي الحدر مختار ابن كثير ، وأبي عمر وقالون ، وأما التدوير فهو التوسط بين الترتيل والحدر ، وهو مختار ابن عامر والكسائي ، وهذا كله إنما يتصور في مراتب الممدود، وماورد (ربَّ قاريء للقرآن والقرآنُ يلعنه) متناول لمن يخل بمبانيه أو معانيه، أو بالعمل بما فيه ، وذلك موقوف على بيان اللحن ، وهو أنه جليٌّ ، وخفيٌّ ، فالجليُّ خطأ يعرض للفظ ،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه ، وانظر الدر المنثور لسيوطي ٦ / ٢٧٧ .

ويخلُّ بالمعنى ، بأن بدّل حرفاً مكان حرف ، بأن يقول مثلاً «الطالحات » بدل « الصالحات » وبالإعراب كرفع المجرور ونصبه ، سواء تغيَّر المعنى به أم لا ، كما إذا قرأ (**أَنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**) بجرِّ رسوله ، والخفي خطأ يخلُّ بالعرف كترك الإخفاء ، والإدغام ، والإظهار ، والقلب ، وكترقيق المفخم وعكسه ، ومد المقصور ، وقصر الممدود ، وأمثال ذلك ، ولا شك أن هذا النوع مما ليس بفرض عين ، لايترتب عليه العقاب الشديد ، وإنما فيه التهديد وخوف العقاب ، قال بعضهم: اللحنُ الخفي الذي لا يعرفه إلامهرة القرَّاء من تغليظ اللامات ، وترقيق الرَّاءات لا يتصور أن يكون من فرض العين ، يترتب العقاب على فاعلها ، لما فيه من حرج (**ولا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**) وفي بعض شروح الطريقة : ومن الفتنة أن يقول لأهل القرى والبوادي ، والعجائز والعبيد والإماء ، لا تجوز الصلاة بدون التجويد ، وهم لا يقدرون على التجويد ، فيتركون الصلاة رأساً فالواجب أن يعلم مقدار ما يصح به النظم والمعنى ، ويتوغل في الإخلاص وحضور القلب ، روي أن عمران بن حصين رضي الله عنه مَّر على قارئٍ يقرأ ثم يسأل ، فاسترجع ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قرأ القرآن ، فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام ، يقرأون القرآن ، يسألون به الناس)[1] انتهى فيكون إعطاء شيء إياه من قبيل الإعانة على المعصية ، كالإعطاء لسائل المسجد وهو يتخطى رقاب الناس ، وفي قوت القلوب وفي الجهر بالقرآن سبع مراتب منها الترتيل الذي أمر به ، ومنها تحسين الصوت بالقرآن الذي نُدب إليه في قوله عليه السلام (زينوا القرآن بأصواتكم)[2] وفي قوله (ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن)[3] أي يُحسِّن صوته ، وهو أحب من أخذه بمعنى الغُنية والاكتفاء ، ومنها أن يسمع أذنيه ويوقظ قلبه ليتدبر الكلام ، ويتفهم المعاني ، ولا يكون ذلك كله إلا في الجهر ، ومنها أن يطرد النوم عنه برفع صوته ، ومنها أن يرجو بجهره يقظة نائم فيذكر الله ، فيكون هو سبب إحيائه ، ومنه أن يره بطال غافل فينشط للقيام ، ويشتاق إلى الخدمة ، فيكون هو معاوناً له على البر والتقوى ، ومنها أن يكثر بجهره تلاوته ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر ، ففي ذلك كثرة عمله ، فإذا كان القارئ على هذه الصورة ، فجهرُه أفضل ، لأن فيه أعمالاً ، وإنما يفضل العمل بكثرة النيات ، وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن ، وفي شرح الترغيب : اختلف في القرآن بالألحان فكرهها مالك والجمهور ، لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم ، وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث ، لأن ذلك سبب للرقة وإثارة الخشية وإنما استحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينه ، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط ، فإن أفرط حتى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي عن ابن عمران وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٢٥ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث البراء بن عازب وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٤٥ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد والحاكم في المستدرك وانظر الفتح الكبير ٣ / ٦٧ .

زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ** ﴾ أي سنوحي إليك ﴿ **قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ هو القرآن العظيم ، المنطوي على تكاليف شاقة ، ثقيلة على المكلفين ، والثقل حقيقة في الأجسام ، ثم يقال في المعاني ، وقال بعضهم : ثقيلاً تلقّيه ، كما سئل رسول الله عليه السلام (كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّهُ عليَّ ، فيفصم عني - أي يقلع ويذهب عني - وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي المَلَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ، في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّدُ عَرَقاً)[1] أي يترشح ، وفي : الكشاف : أراد بهذا الاعتراض ، أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الصعبة ، التي ورد بها القرآن ، لأن الليل وقت السُّبات والراحة والهدوء ، فلابد لمن أحياه من مضادة لطبعه ، ومجاهدة لنفسه ، فمن استأنس بهذا التكليف لا يثقل عليه أمثاله ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيلِ** ﴾ أي النفس التي تنشأ في الليل من مضجعها إلى العبادة أي تنهض ، من نشأ من مكانه إذا نهض ﴿ **هِيَ** ﴾ خاصة ﴿ **أَشَدُّ وَطْئاً** ﴾ أي كلفة وثقلاً ، فإن النفس القائمة بالليل إلى العبادة أشد وطئاً من التي تقوم بالنهار ، فلابد من قيام الليل ، فإن أفضل العبادات أشقها ، ووطئاً نصب على التميز ، ويجوز أن يكون معنى (أشد وطئاً) أشد ثبات قدم واستقرارها فيكون المقصود بيان وجه اختيار الليل ، وتخصيصه بالأمر بالقيام فيه ، من حيث إنه تعالى جعل الليل لباساً يستر الناس ويمنعهم عن الاضطراب والانقلاب في اكتساب المعاش ، وجعل النهار معاشاً يباشرون فيه أمور معاشهم ، فلا تثبت فيه أقدامهم للعبادة ﴿ **وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴾ اسم من القول بمعناه بقلب الواو ياء ، أي أزيد من جهة السداد والاستقامة في المقال ، ومن جهة الثبات والاستقرار على الصواب ويحتمل أن تكون « نَاشِئَة اللَّيْل » بمعنى قيام الليل ، فإن كل واحد من قيام الليل ، ومن العبادة التي تحدث فيه ، ثقيلان على العابد ، من قيام النهار والعبادة فيه ، فمعنى أشد وطئاً أثقل وأغلظ على المصلّي من صلاة النهار ، فيكون أفضل ، ويحتمل أن يكون المراد بناشئه الليل : ساعاته ، فإنها تحدث واحدة بعد واحدة ، أي ساعات الليل الناشئة والحادثة شيئاً بعد شيء أثقل من ساعات النهار ، لكنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قيَّد الناشئة بما كان بعد العشاء ، فما كان قبلها فليس بناشئة ، وخصصتها عائشة رضي الله عنها بما كان بعد النوم ، فلو لم يتقدمها نوم لم تكن ناشئة ﴿ **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً** ﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك ، واشتغالاً بشواغلك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة ، فعليك بها في الليل ، وقيل : معنى الآية إن فاتك من الليل شيء ، فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه ، حتى لا ينقص شيء من حظك من المناجاة لربك ، ويناسبه قوله عليه السلام (من نام عن حزبه أو عن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ وأحمد في المسند ٦ / ١٥٨ .

شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل)[1] ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً ، بأيِّ وجهٍ كان من تسبيح ، وتهليل ، وتحميد ، وقراءة قرآن ، ودراسة علم ، وذكرُ الله على الدوام من وظائف المقربين ، سواء كان قلباً ، أو لساناً ، أو أركاناً ، وسواء كان قياماً أو قعوداً أو على الجنوب ، فالمراد من ذكر اسمه ، ذكره تعالى بواسطة ذكر اسمه ، ولذا قال تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) .

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ التبتُّل : الانقطاع ، والمعنى وانقطعْ إلى ربك انقطاعاً تاماً ، بالعبادة ، وإخلاص النية ، والتوجه الكلي كما قال تعالى (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) وليس هذا منافياً لقوله « لا رهبانية ولا تبتل في الإسلام » فإن التبتل هنا هو الانقطاع عن النكاح ، ومنه قيل لمريم العذراء « البتول » أي المنقطعة عن الرجال ، والانقطاعُ عن النكاح والرغبة عنه منهيٌّ عنه لقوله تعالى (وَأَنكِحوا الأَيَامىٰ مِنْكُمْ) وقوله عليه السلام (تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة)[2] وقد يكون التبتل من الخلق ظاهراً كتبتل بعض المتعبدة في قُلَل الجبال ، وأجواف المغارات ، لجذب القلوب ، وجلب الهدايا ، وأما باطناً كأهل الإرشاد وهم عامة الأنبياء ، وبعض الأولياء ، إذ لابد في إرشاد الخلق من مخالطتهم ، قال بعضهم : السلوك إلى الله تعالى يكون بالتبتل ، ومعناه : الإقبال على الله ، بملازمة الذكر ، والإعراض عن غيره ، بمخالفة الهوى ، وهذا هو السفر بالحركة المعنوية ، من جانب المسافِر إلى جانب المسافَر إليه ، وإن كان الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، فإن مثال الطالب والمطلوب ، مثال صورة حاضرة مع مرآة ، لكن لا تتجلى فيها لصدأ في وجهها ، فمتى صقلتها تجلَّتْ فيها الصورة بزوال الحجاب ، فالحجاب في عين العبد ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي هو ربها وخالقها ومالكها ، وما بينهما من كل شيء ، يريد به جنس المشارق والمغارب ، في الشتاء والصيف ﴿ لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ استئناف لبيان ربوبيته أي لا معبود بحق سواه فتقرَّبْ إليه بنفي الألوهية عما سواه ﴿ فَاتَّخِذْهُ ﴾ لمصالح دينك ودنياك ﴿ وَكِيلاً ﴾ مفوضاً إليه نفسك لإصلاحها وإتمامها ، واسترح أنت . قال الإمام القشيري رحمه الله : إن الله هو المتولي لأحوال عباده ، يصرفهم على ما يشاء ويختار ، وإذا تولى أمر عبد بجميل العناية ، كفاه كل شغل ، وأغناه عن كل غير ، فلا يستكثر العبد حوائجه ، لعلمه أن مولاه كافيه ، ولهذا قيل : من علامات التوحيد ، كثرةُ العيال على بساط التوكل ، حكي عن الواعظ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٤٣ وجامع الاصول ٢ / ٤٧ .

(٢) الحديث أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً في الجامع ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٣٨ وأخرجه أبو داود والنسائي بلفظ (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم) جامع الأصول ١١ / ٤٢٨ .

الدينوري رحمه الله أنه قال : كان عليَّ دين فاهتمت به في بعض الليالي ، وضاق صدري ، فرأيت كأن قائلاً يقول لي : أخذت هذا المقدار ، عليكَ الأخذُ وعلينا العطاء ، ثم انتبهت ففتح لي ما قضيت به الدين ثم قال القشيري : اعلم أن من جعل المخلوق وكيلاً له ، فإنه يسأله الأجر ، وقد يخونه في ماله ، وقد يخطيء في تصرفه ، أو يخفي عنه الأصوب والأرشد لصاحبه ، ومن رضي بالله وكيلاً أعطاه الأجر ، وحقق آماله ، وأثنى عليه ، ولطف به في دقائق أحواله ، ومن جعل الله وكيلاً ، لزمه أيضاً أن يكون وكيلاً لله على نفسه ، في استحقاق حقوقه وفرائضه ، وكل ما يلزمه ، فيخاصم نفسه في ذلك ليلاً ونهاراً لا يفتر لحظة ولا يقصر في ذلك ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** ﴾ مما لا خير فيه ، من الخرافات والهذيانات ، من قولهم : ساحر ، وشاعر وكاهن ومجنون ، وفي حق القرآن من أنه أساطير الأولين ونحو ذلك ﴿ **وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً** ﴾ واتركهم تركاً حسناً ، بأن تجانبهم بقلبك ، وتداريهم ولا تكافئهم ، وتكل أمورهم إلى ربهم ، قال الراغب : الهجر والهجرانُ : مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن ، أو باللسان ، أو بالقلب ، قال الحكماء : تسلح على الأعداء بحسن المداراة حتى تبصر فرصة ﴿ **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ** ﴾ أي دعني وإياهم ، وكِلْ أمرهم إليَّ ، فإني أكفيكهم ﴿ **أُولِي النَّعْمَةِ** ﴾ أرباب التنعم ، وهم صناديد قريش ، وكانوا أهل ترفه وتنعم ، والنَّعْمة بفتح النون : التنعمُ ، وبكسرها الإنعام ، وما أنعم به عليك ، والتنعُّمُ استعمال ما فيه النعومة واللين ، من المأكولات والملبوسات ، وفيه إشارة إلى أن متعلق الذم ليس نفس النعمة والرزق ، بل التنعم بها مع عدم الشكر ، وفيه تسلية للفقراء ، فإنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ﴿ **وَمَهِّلْهُمْ** ﴾ التمهيل والمهل : التؤدة والسكون ، يقال تمهَّل في فعله : أي عمل في مهلة ﴿ **قَلِيلاً** ﴾ أي زماناً قليلاً ، وأجلهم أجلاً يسيراً ، ولا تعجل فإن الله سيعذبهم في الآخرة ، إذ عمر الدنيا قليل ، وكل آت قريب ﴿ **إِنَّ لَدَيْنَا** ﴾ في الآخرة ، فيما هيأناه للعصاة ، من آلات العذاب وأسبابه ﴿ **أَنْكَالاً** ﴾ قيوداً ثقالاً يقيد بها أرجل المجرمين ، إهانة لهم وتعذيباً ، لا خوفاً من فرارهم ، جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل ، والجملة تعليل للأمر من حيث أن تعداد ما عنده من أسباب التعذيب الشديد في حكم بيان اقتداره على الانتقام منهم فهم يتنعمون في الدنيا ولا يبالون ، وعند الله العزيز المنتقم في الآخرة أمور مضادة لتنعمهم ﴿ **وَجَحِيماً** ﴾ وهي كل نار عظيمة في مهواة ، وفي الكشاف : هي النار الشديدة الحر والاتقاد ﴿ **وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ** ﴾ هو ما ينشب في الحَلْق ويَعْلَق ، من عظم وغيره ، فلا ينساغ أي طعاماً غير سائغ ، يأخذ بالحلق ، لا هو نازل ولا هو خارج ، كالضريع والزقوم ، وهما في الدنيا من النباتات والأشجار سمان قاتلان فما ظنك بضريع جهنم وزقومها ؟ وهو في مقابلة الهنيء والمريء لأهل الجنة ، إنما ابتلوا بها لأنهم أكلوا نعمة الله وكفروا بها ﴿ **وَعَذَاباً أَلِيماً** ﴾ ونوعا آخر من العذاب مؤلماً ، لايقادر قدره ولا يدرك كنهه ، كما يدل عليه التنكير ،ذُكر عن الحسن البصري أنه أمسى صائماً ،

فأُتي بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال ارفعه ، وكذلك الثالثة ، فأخبر ثابت البناني ويحيى البكاء فجاؤا فلم يزالوا حتى شرب شربة من سويق ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ** ﴾ الرجفةُ : الزلزلة والزعزعة الشديدة أي تضطرب وتتزلزل بهيبة الله وجلاله ، ليكون علامة لمجيء القيامة ، وأمارة لجريان حكم الله في مؤاخذة العاصين ، أفرد الجبال بالذكر ، مع كونها من الأرض ، لكونها أجساماً عظاماً ، وأوتاداً لها ، فإذا تزلزلت الأوتاد لم يبق للأرض قرار ، وأيضاً إن زلزلة العلويات أظهر من زلزلة السفليات ، ومع زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر ، خوفاً من الوقوع ﴿ **وَكَانَتِ الْجِبَالُ** ﴾ من شدة الرجفة ، مع صلابتها وارتفاعها ﴿ **كَثِيباً** ﴾ الكثيب : التلُّ من الرمل ﴿ **مَهِيلاً** ﴾ أي كانت مثل رمل يجتمع هيل هيلاً أي نثر وأسيل ، والحاصل أن الأرض والجبال يدق بعضها ببعض ، كما قال تعالى (**وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**) فترجع الجبال كثيباً مهيلاً ، ينسفها الريح فتصير هباء منبثاً ، ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ** ﴾ يا أهل مكة ، شروعٌ في التخويف بأهوال الدنيا ، بعد تخويفهم بأهوال الآخرة ﴿ **رَسُولاً** ﴾ هومحمد عليه السلام وكونه مرسلاً إليهم لا ينافي إرساله إلى من عداهم ، فإن مكة أم القرى ، فمن أرسل إلى أهل مكة ، فقد أرسل إلى أهل الدنيا جميعاً ، ولذا نص الله تعالى عليه بقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ**) ليندفع أوهام أهل الوهم ﴿ **شَاهِداً عَلَيْكُمْ** ﴾يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىَ فِرْعَوْنَ رَسُولاً** ﴾ هو موسى عليه السلام ، وتخصيص فرعون لأنه من رؤساء أولي النعمة ، المترفين المتكبرين ، فبينه وبين قريش مشابهة ومناسبة ﴿ **فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ** ﴾ أي فعصى فرعون المعلوم الرسول الذي أرسلناه إليه بأن جحد رسالته ولم يؤمن به ﴿ **فَأَخَذْنَاهُ** ﴾ بسبب عصيانه ﴿ **أَخْذاً وَبِيلاً** ﴾ ثقيلاً لا يطاق والوبيلُ الثقيل الغليظ ، ومنه الوابل للمطر العظيم ، والكلامُ خارج عن التشبيه ، للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة ﴿ **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ** ﴾ أي تتقون أنفسكم ، فاتقى ههنا مأخوذ بمعنى وقى المتعدي إلى مفعولين ﴿ **إِنْ كَفَرْتُمْ** ﴾ أي بقيتم على الكفر ﴿ **يَوْماً** ﴾ عذاب يوم ، على حذف مضاف أي فكيف تتقون الله وتخشون عقابه ، إن جحدتم يوم القيامة والجزاء ﴿ **يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ** ﴾ من شدة هوله ، وفظاعة ما فيه من الدواهي والولدان جمع وليد ﴿ **شِيباً** ﴾ شيوخاً جمع أشيب ، والشيبُ : بياض الشعر ، وجعلهم شيوخاً فيه وجوه : **الأول :** أنه محمول على الحقيقة كما ذهب إليه بعض أهل التفسير قال الزمخشري : وقد مرَّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر ، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية قال : أريت القيامة والجنة والنار ، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون ، وقال أحمد الدورقي : مات رجل من جيراننا شاباً ، فرأيته في الليل وقد شاب ، فقلت : وما قصتك ؟

قال : دُفن بشر في مقبرتنا ، فزفرت جهنم زفرة ، شاب منها كل من في المقبرة ، وبشر المريسي ـ قرية بمصر ـ أخذ الفقه عن أبي يوسف القاضي إلا أنه اشتغل بالكلام ، وقال بخلق القرآن ، وأضلَّ خلقاً كثيراً ببغداد ، وفي الآية مبالغة ، وهي أنه إذا كان ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً ، وهم أبعد الناس من الشيخوخة ، لقرب عهد ولادتهم ، فغيرهم أولى بذلك ، فإن من شاب بمجرد الرؤيا ، فكيف حاله في اليقظة ؟ وهو معاين من الأهوال ما يذوب تحته الجبال الرواسي ؟ **والثاني** أنه محمول على التمثيل ، بأن شبه اليوم في شدة هوله ، بالزمان الذي يشيب الشبان ، لكثرة همومه وأهواله ، وأصله أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على المرء ، ضعفت قواه ، وأسرع فيه الشيب ، لأن كثرة الهموم توجب انطفاء الحرارة الغريزية وضعفها ، وانطفاؤها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج ، وذلك يوجب بياض الشعر ، ومسارعة الشيب بتقدير العزيز الحكيم ، كما يوجب تغير القلب تغير البشرة ، فتحصل الصفرة من الوجل ، والحمرة من الخجل ، والسواد من بعض الآلام ، وما على البدن من الشعر تابع للبدن فتغيره يوجب تغيره ، فثبت أن كثرة الهموم توجب مسارعة الشيب ، كما قيل :

دهتنا أمور تُشِيبُ الوليدَ * وَيخذُلُ فيها الصَّديقُ الصَّدِيقَ

فلما كان حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعلوه كناية عن الشدة فجعل اليوم المذكور الولدان شيباً عبارة عن كونه يوماً شديداً غاية الشدة وفي الحديث (يقول الله يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : أخرجْ بَعْثَ النار ، قال : وما بعث النار ؟ أي ما عدده ؟ قال الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، قال) أي النبي عليه السلام (فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها) (**وتَرَى النَّاسَ سُكَارَىَ وما هم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**)[1] **والثالث** أنه محمول على الفرض والتقدير ، بأن يكون معناه أنّ ذلك اليوم بحال لو كان هناك صبيٌّ لشابَ رأسه من الهيبة والدهشة ، **والرابع** أنه يجوز ذلك وصفاً لليوم بالطول ، يعني على الكناية ، بأنه في طوله بحيث يبلغ الأطفال فيه أوان الشيخوخة والشيب وهو لا ينقضي بعد ، بل يمتد إلى حيث يكون مقداره خمسين ألف سنة ، فهو كناية عن غاية الطول ، لأنه تقدير حقيقي وهذا على عادة العرب في التمثيل ، كما يعبرون عن التأبيد وعدم الانقطاع بقولهم : ماناحت حمامة ، وما لاح كوكب ، وتعاقبت الأيام والشهور ﴿ **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِه** ﴾ أي منشق بسبب ذلك اليوم ، لأن الله تعالى مسبب الأسباب فيجوز أن يجعل شدة ذلك اليوم سبباً للانفطار ، ذكر الله من هول ذلك اليوم أمرين : **الأول** : قوله تعالى (**يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً**) **والثاني** : (**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِه**) لأن السماء على عظمتها وقوتها ، إذا

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨ / ٣٣٥ ومسلم برقم ٢٢٢ وانظر جامع الأصول ٩ / ١٨٨ .

انشقت بسبب ذلك اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ الضمير لله أي كان وعده تعالى أن يجعل يوم القيامة على ماوصف من الشدائد ، كائناً متحققاً لأنه لا يخلف الميعاد ، فلا يجوز لعاقل أن يرتاب فيه ﴿ إِنَّ هَـذِهِ ﴾ الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة لمن يريد الخير لنفسه ، والاستعداد لربه ، وقد قيل: القرآن موعظة للمتقين ، وطريقٌ للسالكين ، ونجاة للهالكين ، وبيان للمستبصرين ، وأمان للخائفين ، وأنس للمريدين ، ونور لقلوب العارفين ، وهدى لمن أراد الطريق إلى رب العالمين ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ من المكلفين ﴿ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بالتقرب إليه بالإيمان والطاعة ، فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيلِ ﴾ أي أقل منها ، روي أنه تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام النبي عليه السلام وأصحابه حولاً مع مشقة عظيمة انتفخت أقدامهم ، واصفرّتْ ألوانهم حتى أنزل الله في آخر السورة التخفيف ، فنسخ تقدير القيام بالمقادير المذكورة مع بقاء أصل التهجد حسبما تيسر ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ أي أنك تقوم أقل من ثلثي الليل ، وتقوم من نصفه وثلثه ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي ويقوم معك طائفة من أصحابك ، وفيه وعد لهم بالإحسان إليهم وقد قرن الله تعالى قَوَّام الليل برسوله المصطفى عليه السلام ، وجمعهم معه في شكر المعاملة ، وحسن الجزاء ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ لا يقدر على تقديرهما ، ومعرفة مقادير ساعتها وأوقاتها على حقائقها غير الله ، وأنتم تعلمون ذلك بالتحري والاجتهاد ، الذي يقع فيه الخطأ ﴿ عَلِمَ ﴾ الله ﴿ أَنْ ﴾ أي أن الشأن ﴿ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ لن تقدروا على تقدير الأوقات على حقائقها ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبداً وقال الطبري : المعنى علم الله أنكم لن تطيقوا قيامه ، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالترخيص على ترك القيام المقدر ، ورفع التبعة عن التائب ﴿ فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أي فصلُّوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، غير مقدرة بكونها ثلث الليل ، أو نحوه ، ولو قدر أربع ركعات أو ركعتين ، عبر عن الصلاة بالقراءة ، كما عبَّر عنها بسائر أركانها، على طريق إطلاق اسم الجزء على الكل مجازاً مرسلاً، فتبين أن التهجد على التخيير، فعسر عليهم القيام به ، فنُسخ بهذه الآية ، ثم نسخ نفس الوجوب المفهوم منها بالصلوات الخمس ، وفي الآية بيان لفضل قيام الليل على سائر التطوعات ، فإن التطوع بما كان فرضاً أفضل من التطوع بما لم يكن فرضاً ، كما قالوا صوم يوم عاشوراء أفضل لكونه فرض قبل فريضة رمضان ، وفي الحديث (ليصلِّ أحدكم من الليل ما تيسر ، فإذا غلب عليه النوم فليرقد)[1] وعن بعض السلف قال : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه بلفظ (ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر فليقعد) وانظر جامع الأصول ١ / ٣١٢ .

الصالحين قبلكم ، هو قربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاه عن الإثم ، إن الله ليبغض كل جواظ سخاب بالأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة » وقيل : المراد بالآية قراءة القرآن بعينها ، فتكون على حقيقتها ، فالمعنى إن شقّ عليكم القيام ، فقد رخص في تركه ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، فإنه لا يشق ، وتنالون بقرآته خارج الصلاة ثواب القيام ، فالأمر للندب ، وفي الحديث (من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)[1] والمراد آمن الرسول الخ يعني أغنتاه عن قيام الليل ، أو حفظتاه من كل شر وسوء ، وعنه عليه السلام « أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟ قال : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)[2] ومن ذلك قالوا : إن قراءة الإخلاص ثلاث مرات تقوم مقام ختمه ﴿ **عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ** ﴾ جمع مريض ، والمرض الخروج عن حدّ الاعتدال الخاص بالإنسان ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي يسافرون فيها للتجارة ابتغاء الرزق ﴿ **يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾ وهو الربح ، وفيه بيان ما حصلوه من الرزق من فضل الله ويدخل فيه طلب العلم ، فإنه من أفضل المكاسب وقد كانوا يهاجرون من مكة إلى المدينة لطلب العلم ، وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : « حضورُ مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وأفضلُ من شهود ألفِ جنازة ، ومن عيادة ألف مريض ، قيل : ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن بلا علم » ؟ ﴿ **وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ** ﴾ الأعداء ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾وسبيلُ الله ما يوصل إلى الأجر عند الله كالجهاد ، فيه تنبيه على درجة المجاهدين في سبيل الله ، والمكتسبين للمال الحلال للنفقة على أنفسهم وعيالهم ، والإحسان إلى ذوي الحاجات ، ﴿ **فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** ﴾ أي فاقرأوا ما تيسر من القرآن من غير تحمل المشاق ، فإن قيل : كيف ثقل قيام الليل على الأصحاب ، وقد خفّ على كثير من التابعين حتى كانوا يقومون إلى طلوع الفجر ؟ منهم سعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، وأبو سليمان الداراني ، ومالك بن دينار ، وغيرهم ، قلت : الثقلة لم تكن في قيامه ، بل في محافظة القدر المفروض كما سبق ، على أنه لا بعد في أن يثقل عليهم قبل التخفيف بالنسخ، ثم كان من أمر بعضهم أنه ختم القرآن في ركعة واحدة ، كعثمان وتميم الداري رضي الله عنهما ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ** ﴾ المفروضة ﴿ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ الواجبة ، وقيل : هي زكاة الفطر ، إذ لم يكن بمكة زكاة غيرها ، وإنما وجبت بعدها ، ومن فسرها بالزكاة المفروضة جعل آخر السورة مدنياً ﴿ **وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً** ﴾ أريد به الإنفاقات في سبيل الخيرات ، وفيه حث على التطوع ، كما قال عليه السلام (إن في المال حقاً سوى الزكاة)[3] وأن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٧٣ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي الدرداء ، ورواه الترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٨٧ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي عن فاطمة بنت قيس في الزكاة ، وفي سنده ميمون الأعور وهو ضعيف ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٥٤ .

يكون إخراجها من أطيب الأموال ، وأكثرها نفعاً للفقراء ، بحسن النية ، وصفاء البال ، وتسمية الإنفاق لوجه الله إقراضاً استعارة ، تشبيهاً له بالإقراض ، من حيث إنما أنفقه يعود عليه مع زيادة ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوَا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ** ﴾ أيَّ خير كان ، مما ذُكر وما لم يذكر ﴿ **تَجِدُوهُ** ﴾ جواب الشرط ولذا جزم ﴿ **عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً** ﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ، أي تجدوا ثوابه خيراً لكم من متاع الدنيا ، وأعظم أجراً ، لأن الله يعطي المؤمن أجره بغير حساب ، قال بعض السلف : اعلموا أن كل امرىء على ما قدَّم قادم ، وعلى ما خلَّف نادم ، وإن العبد إذا مات قال الناس : ماخلَّف؟ وقالت الملائكة : ما قدَّم ؟ ومرَّ عمر رضي الله عنه ببقيع الغرقد ـ أي مقبرة المدينة ـ فقال السلام عليكم أهل القبور : أخبار ما عندنا أن نساءكم قد تزوجن ، ودوركم قد سكنت ، وأموالكم قد قسمت ، فأجابه هاتف يا ابن الخطاب : أخبار ما عندنا أن ما قدَّمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلَّفناه فقد خسرناه ، وما أحسن ما قيل :

قدِّمْ لنفسكَ قبلَ موتِكَ صَالِحاً * وَاعْمَلْ فَليسَ إلى الخُلُودِ سَبيلُ

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه اتخذ حيساً ـ يعني تمراً بلَبَن ـ فجاءه مسكين ، فأخذه ودفعه إليه ، فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ما هذا ؟ فقال عمر : لكنَّ ربَّ المسكين يدري ما هو ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ** ﴾ أي سلوا الله المغفرة لذنوبكم ، في جميع أوقاتكم ، وكافة أحوالكم فإن الإنسان قلَّما يخلو عن تفريط ، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ، ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح ، واستحب الاستغفار على الأسماء من القرآن مثل أن يقول « استغفر الله إنه كان تواباً » استغفر الله إن الله غفور رحيم ، استغفر الله إنه كان غفاراً « رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » اغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿ **إِنَّ اللهَ غَفُورٌ** ﴾ يغفر ما دون أن يشرك به ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ يبدل السيئات حسنات ، ويستر على أهل الجهل والتقصير ، لا يتعاظمه ذنب ومن كتب سيد الاستغفار وجرّعه لمن صعب عليه الموت انطلق لسانه ، وسهل عليه الموت ، وقد جُرِّب مراراً ، وسيد الاستغفار قوله (اللهم أنت ربي لا اله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[1] .

تمت سورة المزمل بعونه تعالى وتوفيقه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري والترمذي والنسائي من حديث شدّاد بن أوس ، وتتمته (من قالها من النهار موقناً ، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة) وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٨٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾ أصله المتدثر وهو لابس الدثار ، وهو ما يلبس فوق الشعار الذي يلي الجسد ، منه قوله عليه السلام (الأنصار شعار ، والناس دثار)[١] روي عن جابر رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال « كنت على جبل حراء ، فنوديتُ يا محمد إنك رسول الله ، فنظرتُ عن يميني وعن يساري فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض ـ يعني الملك الذي ناداه ـ فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلتُ دثّروني ، دثّروني فنزل (**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**)[٢] ولم يقل يا محمد ولا يا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه ، كما تقدم في المزمل ، وفائدة أخرى مشاكلة الآية بما بعدها وهي قوله (**قُمْ فَأَنْذِرْ**) وقوله عليه السلام (إني أنا النذير العُرْيان)[٣] ومعنى النذير العريان الجاد المشمر ، وكان النذير من العرب إذا اجتهد جرد ثوبه وأشار به ، مع الصياح تأكيداً في الإنذار والتحذير ، فقد اتحد الكلام بعضه ببعض ، فأمرُ المتدثر بالثياب ، مضافٌ إلى معنى « النذير العريان » ومرتبط به لفظاً ومعنى ﴿ **قُمْ** ﴾ أي من مضجعك ﴿ **فَأَنْذِرْ** ﴾ الناس جميعاً من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، لأنه عليه السلام مرسل إلى الناس كافة ، فلم تكن ملة من الملل إلا وقد بلغتها دعوته ، وقرعها إنذاره ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ وخصِّصْ ربك بالتكبير ، وهو وصفه تعالى بالكبرياء ، اعتقاداً وقولاً وعَظِّمْهُ عما يقول فيه عبدة الأوثان وسائر الظالمين ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ أي فطهّرها بحفظها وصيانتها عن النجاسات ، وغسلها بالماء الطاهر ، بعد تلطخها ، فإنه قبيح بالمؤمن الطيب ، أن يحمل خبيثاً ، سواء كان في حال الصلاة أو في غيرها ، وبتقصيرها أيضاً فإن طولها يؤدي إلى جر الذيول على القاذورات ، فيكون التطهير كناية عن التقصير ، فإنه أتقى وأنقى وأبقى ، وهو أول ما أمر به عليه السلام من رفض العادات المذمومة ، فإن المشركين ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات ، وفيه انتقال من تطهير الباطن إلى تطهير الظاهر ، لأن الغالب أن من نقّى باطنه أبى إلا اجتناب الخبث ، وإيثار الطهارة في كل شيء ، فإن الدين بني على النظافة ، قال الراغب : الطهارة ضربان : طهارة جسم ، وطهارة نفس ، وقد حمل عليهما عامة الآيات ، وقيل معناه نفسك نزِّهها عن المعايب ، أو طهِّر قلبك ، وقال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا على غدرٍ ، البسها وأنت برٌّ طاهر ، قال الشاعر :

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي ، ومسلم في الزكاة ، وأحمد في المسند ٤ / ٤٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري بلفظ « جاورتُ بحراء ، فلما قضيتُ جواري ، هبطتُ فنوديتُ .. » الحديث وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٥٦٧ .

(٣) هذا طرفٌ من حديث البخاري في الرقاق ، ومسلم في الاعتصام .

وإنِّي بِحَمْـدِ اللهِ لا ثَـوْبَ فَـاجِرٍ * لَبِسْتُ ولاَ من غَـدْرة أَتَقَنَّـعُ

وذلك أن الغادر والفاجر يسمى دنس الثياب ، كما أن أهل الصدق والوفاء يسمى طاهر الثياب ﴿ **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ الرجز بالضم وهو الأوثان ، أي ارفض عبادة الأوثان ولا تقربها ، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام (**وَاجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**) والمراد الدوام على الهجر ، لأنه كان بريئاً من عبادة الأوثان ونحوها ﴿ **وَلاَتَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ** ﴾ أي ولا تعط مستكثراً أي رائياً لما تعطيه كثيراً ، وقال بعضهم : هو من المنّة ، لأن من يمنُّ بما يعطى يستكثره ويعتد به ، والمنّة تهدم الصنيعة ، خصوصاً إذا منَّ بعمله على الله ، بأن يعده كثيراً فإن العمل من الله منَّة عليه كما قال تعالى (**بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ**) ومن شكر طول عمره بالعبادة ، لم يقض شكر نعمة الإيجاد ، فضلاً عما لا يحصى من أنواع الجود ﴿ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ أي فاصبر لحكم ربك ولا تتألم من أذية المشركين ، فإن المأمور بالتبليغ لا يخلو عن أذى الناس ، ولكنْ بالصبر يستحيل المر حلواً ، وقال بعض أهل المعرفة : أي جرد صبرك عن ملاحظة الغير في الصبر عن المعصية ، والصبر على حكم الله ، والصبر في البلاء كما قال تعالى (**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ باللهِ**) ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** ﴾ الناقور بمعنى ما ينقر فيه والمراد به ، الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، أي فإذا نفخ في الصور ، والفاء بمعنى اللام السببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل ، يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك ﴿ **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ عُسْرُ الأمر على الكافرين من جهة العذاب ، وسوء الحساب ، كقوله تعالى (**وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً**) ﴿ **غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴾ تأكيد لعسره عليهم ، مشعر بيسره على المؤمنين ، ثم المراد به النفخة الثانية التي يحيا الناس عندها ، إذ هي التي يُخصُّ عسرها بالكافرين ، وأما النفخة الأولى فهي مختصة بمن كان حيا عند وقوعها وفي الحديث (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه ، ينظر متى يؤمر أن ينفخ فيه ، فقيل له : كيف نصنع ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[1] ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴾ أي ذرني وحدي معه فإني أكفيكه في الانتقام منه ، أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحدٌ، أو حالٌ من العائد المحذوف أي ومن خلقته وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، تزلتْ في (الوليد بن المغيرة المخزومي) وكان يلقب في قومه بالوحيد، زعماً منهم أنه لا نظير له في وجاهته ولا في ماله ، وكان يفتخر بنفسه ويقول : أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لي في العرب نظير ، فسماه الله بالوحيد تهكماً به واستهزاءً بلقبه ، كقوله تعالى (**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ**) ﴿ **وَجَعَلْتُ**

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي برقم / ٢٤٣٣ / في القيامة ، ورواه الطبراني وأحمد في المسند ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٢٠ والفتح الكبير ٢ / ٣٣٥ .

﴿ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴾ أي مبسوطاً كثيراً ، وهو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال ، وقيل : كان له ألف ألف دينار ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أي حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ، لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة ، لأنهم مكفيين لوفور نعمهم ، وكثرة خدمهم ، أوحضوراً معه في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم ، وكان له عشرة بنين أسلم منهم ثلاثة (خالد وهشام والوليد) قاله المفسرون ، وأطبق المحدثون على أن عمارة قتل كافراً قال السهيلي رحمه الله : هم « هشام بن الوليد ، والوليد بن الوليد ، وخالد بن الوليد » الذي يقال له سيف الله ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض ، فأتممت عليه النعمة ، فإن اجتماع المال والجاه هو الكمال عند أهل الدنيا ، ولذا كان يلقب ريحانة قريش ، والريحان نبت طيب الرائحة والولد والرزق ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ ﴾ يرجو ﴿ أَنْ أَزِيدَ ﴾ على ما أوتيه من المال والولد وهو استنكار لطمعه وحرصه مع كفران النعم ، ومعاندة المنعم ، أي لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر عن طمعه الفارغ ، وقطع لرجائه الخائب ﴿ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ يقال عنيد ومعاند ، والمعاندةُ : المعارضة بالخلاف وهو تعليل لما قبله ، فإن معاندة آيات المنعم مما يوجب حرمانه بالكليّة ، وإنما أوتي ما أوتي استدراجاً ، قيل : ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله ، حتى هلك وهو فقير ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ الصَّعودُ : العقبةُ الشاقة ، ويستعار لكل شاقٍّ والمعنى سأكلفه كرهاً ارتقاء عقبة شاقة المصعد ، بحيث تغشاه شدة ومشقة من جميع الجوانب ، وهو مثال لما يلقى من العذاب الصعب الذي لا يطاق ، ويجوز أن يحمل على حقيقته كما ورد « الصَّعُود جبلٌ من نار ، يصعد فيه سبعين خريفاً ، ثم يهوي كذا أبداً » قوله « سبعين خريفاً » أي سبعين عاماً ، وعنه عليه السلام : « يكلَّفُ أن يصعد عقبةً في النار ، كلما وضع يده عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت »[1] ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليل للوعيد ، أي فكَّر ماذا يقول في حق القرآن من جهة الطعن ، وقدَّر في نفسه ما يقول وهيَّأه ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تعجيب من تقديره أو ثناء عليه بطريق الاستهزاء به على معنى أن هذا الذي ذكره وهو كون القرآن سحراً ـ في غاية الركاكة والسقوط ـ ومعنى قولهم « قتله الله ما أشجعه ؟ وأخزاه الله ما أشعره »؟ الإشعار بأنه قد بلغ من الشجاعة والشعر مبلغاً حقيقاً بأن يدعو عليه حاسده بذلك ، روي « أن الوليد مرَّ بالنبي عليه السلام وهو يقرأ حم السجدة ، فقال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، أي حسناً وبهجة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلى » فقالت قريش : صبأ والله الوليد ـ أي مال عن دينه وخرج إلى دين غيره ـ والله لتصبأنَّ قريش كلهم ، فقال ابن أخيه « أبو جهل » أنا

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والبزار ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٥٦٩ .

أكفيكموه ، فقعد عنده حزيناً وكلمه ما أحماه وأغضبه ، وقال له : إن قومك قد بلغهم ما فعلتَ ، وإنهم يجمعون لك الأموال لتترك اتِّباعَ محمد ، فإنهم يقولون إنما تبعته لتنال منه ، فقال : كذبتْ قريش ، ألا يعلمون أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وأين محمد وأصحابه إنهم في الفقر والحاجة ؟ فقال له أبو جهل : إنهم لا يرضون عنك حتى تقول في القرآن ومحمد قولاً غير الذي قلته ، فقال : أجمعهم لي ودعني أفكر ، فجمعهم له ، فقال لهم الوليد : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ ـ لأن العرب كانت تعتقد أن الشيطان يخنق المجنون ويتخبطه ـ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذّاب فهل جرَّبتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا ، ثم قالوا فما هو وما تقول في حقه ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يُفرِّق بين الرجل وأهله وولده ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل ، فارتجَّ النادي فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه راضين به ﴿ **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** ﴾ تكرير للتعجب للمبالغة في التشنيع ﴿ **ثُمَّ نَظَرَ** ﴾ أي في القرآن مرة بعد مرة ، وتأمَّل فيه ﴿ **ثُمَّ عَبَسَ** ﴾ أي كلح وجهَه وقطَّبه ، لأنه لم يجد مطعناً في القرآن ﴿ **وَبَسَرَ** ﴾ أي قبض ما بين عينيه من السوء ، واسود وجهه ﴿ **ثُمَّ أَدْبَرَ** ﴾ عن الحق ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ** ﴾ عن اتباعه ﴿ **فَقَالَ** ﴾ عقيب توليه عن الحق ﴿ **إِنْ** ﴾ نافيةٌ بمعنى ما ﴿ **هَذَا** ﴾ الذي يقوله محمد عليه السلام أي القرآن ﴿ **إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾ أي يروى ويتعلم من الغير ، يقال أثرت الحديث إذا حدثت به عن قوم ، وحديث مأثور أو منقول ، ينقله خلف عن سلف ، وأدعية مأثورة أي مروية عن الأكابر ﴿ **إِنْ هَذَا** ﴾ ما هذا ﴿ **إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ تأكيد لما قبله ، قاله تمرداً وعناداً ، لا على سبيل الاعتقاد ، لما روي قبل أنه أقرَّ بأن القرآن ليس من كلام الإنس والجن قال تعالى ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** ﴾ أي أدخله جهنم ، قال في الصحاح : سقر اسم من أسماء النار ، وقيل : اسم للطبقة السادسة من جهنم ، سميت سَقَر لإيلامها ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ** ﴾ قُصِدَ به التهويل والتفظيع ، والمعنى أيُّ شيء أعلمك ما سقر في وصفها ؟ يعني أنه أمرٌ خارج عن دائرة إدراك العقول ، ففيه تعظيم لشأنها ﴿ **لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ** ﴾ أي لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته بالإحراق ﴿ **لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ** ﴾ والبشر جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان أي مغيرة لأعلى الجلد وظواهره مسودة لها ، قيل تلفح الجلد لفحةً فتدعه أشد سواداً من الليل ، وقيل : لائحة للناس تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام فهو كقوله تعالى (**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى**) فيصلُ إلى الكافر سَمُومها وحَرُورها ، كما يصل إلى المؤمن ريح الجنة ونسيمُها من مسيرة خمسمائة عام ﴿ **عَلَيْهَا** ﴾ أي على سقر ﴿ **تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ أي مَلَكاً يتولون أمرها ، وهم مالك وثمانية عشر معه ، أعينهم كالبرق الخاطف ، وأنيابهم كالصياصي ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، نزعت منهم الرأفة والرحمة ، يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفه ويرميهم حيث

أراد من جهنم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أي المدبرين لأمرها ، القائمين بتعذيب أهلها ﴿ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ ليخالفوا جنس المعذَّبين من الثقلين ، فلا يرقُّوا لهم ، ولا يميلوا إليهم ، فإن المجانسة مظنة الرأفة ، ولأنهم أقوى الخلق ، وأقومهم بحق الله ، وبالغضب له تعالى ، وأشدهم بأساً ، وقد ورد أن قوة أحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة ، وعلى رقبته جبل ، فيرمي بهم في النار ، ويرمي بالجبل عليهم ، ويروى أنه لما نزل قوله تعالى (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل لقريش : أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسود الجحمي - وكان شديد البطش والقوة - أنا أكفيكم سبعة عشر منهم ، فاكفوني أنتم اثنين فنزلت ، أي وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون فمن ذا الذي يغلب الملائكة ؟ والواحد منهم يأخذ أرواح جميع الخلق ، وللواحد منهم من القوة ما يقلب الأرض فيجعل عاليها سافلها ؟ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي تسبب لافتتانهم ، ووقوعهم في الكفر ، وهو التسعة عشر ، ثم ليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعين ، بل جعله في القرآن أيضاً وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر ، وإذ بذلك يتحقق افتتانهم ، باستقلالهم له ، واستبعادهم لتولي هذا العدد القليل ، أمر الجم الغفير ، واستهزائهم حسبما ذكر ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ السين للطلب ، أي ليكتسبوا اليقين بنبوته عليه السلام وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقاً لما في كتابهم ، وقيل : سأل اليهود رسول الله ﷺ عن خزنة النار وعددهم ، فأجاب عليه السلام بأنهم تسعة عشر ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ أي يزداد إيمانهم كيفية ، بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ تأكيد لما قبله فإن نفي ضد الشيء بعد إثبات وقوعه أبلغ في الإثبات ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك أو نفاق ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ المصرون على التكذيب ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ أيْ أيَّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يضل الله من يشاء إضلاله ، كأبي جهل وأصحابه ، المنكرين لخزنة جهنم ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ هدايته كأصحاب محمد عليه السلام ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ أي جموع خلقه التي من جملتها الملائكة المذكورون ، والجنود جمع جند بالضم وهو العسكر ، وكل صنف من الخلق على حدة ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا يعلمها إلا الله لفرط كثرتها ، وليس في العالم موضع بيت ، ولا زواية ، إلاوهو معمور بما لا يعلمه إلا الله ، ولهذا أمر النبي عليه السلام بالتستر في الخلوة ، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين ، وفي اختيار عدد الزبانية حكمة ، وإلاَّ فجنوده خارجة عن دائرة العد والضبط ، وكما جعل الله زمام الأمور بأيدي هؤلاء الملائكة ، وأقعد منهم من أقعد في برجه ومسكنه ، وأنزل من أنزل من الحجاب والنقباء إلى منازلهم في سمواتهم ، كذلك جعل في كل سماء

ملائكة مسخرة ، وجعلهم على طبقات ، فمنهم أهل العروج بالليل والنهار ، ومن الحق إلينا ومنا إلى الحق في كل صباح ومساء ، ولا يقولون إلا خيراً في حقنا ، ومنهم المستغفرون لمن في الأرض ، ومنهم المستغفرون للمؤمنين ، ومنهم الموكلون بإيصال الشرائع ، ومنهم الموكلون بالممات ، ومنهم الموكلون بالإلهام ، ومنهم الموكلون بالأرحام بتصوير ما يكون لله في الأرحام ، ومنهم الموكلون بنفخ الأرواح ، ومنهم الملائكة التسعة عشر الموكلون بالنار ومنهم الموكلون بالأرزاق ، ومنهم الموكلون بالأمطار ، ومنهم الصافات ، والزاجرات ، والتاليات ، والمقسمات ، والمرسلات ، والناشرات ، والنازعات ، والناشطات ، والسابقات ، والسابحات ، والملقيات ، والمدبرات ، ولذلك قالوا « وما منا إلاَّ له مقام معلوم » فما من حادث يحدثه الله في العالم إلا وقد وكل الله بإجرائه الملائكة الأبرار ﴿ **وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ** ﴾ إلا تذكرة وعظة ، وإنذار لهم بسوء عاقبة الكفر والضلال ، ليتذكروا ويعلموا أن الله قادر على أن يعذب كفار الثقلين وعصاتهم ، بهذا العدد ، بل هو لا يحتاج في ذلك إلى أعوان وأنصار أصلاً ، فإنه لو قلب شعرة واحدة في عين ابن آدم ، أو سلط الألم على عِرْقٍ واحد من عروق بدنه ، لكفاه ذلك بلاء ومحنة ، وإنما عيَّن العدد ، وخلق الجنود ، لحكمة لا لاحتياج ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع لمن أنكر سقر أي ارتدع عن إنكارها فإنها حق ﴿ **وَالْقَمَرِ** ﴾ مقسم به ، وهم قسم تشريف ، وتنبيه على النظر في عجائبه ، وقدرته في حركاته المختلفة على نظام واحد ، وقال أبو الليث : وخالق القمر ﴿ **وَاللَّيْلِ** ﴾ معطوف على القمر ﴿ **إِذْ أَدْبَرَ** ﴾ انصرف وذهب ﴿ **وَالصُّبْحِ** ﴾ الصبح والصباح أول النهار وهو وقت ما احمرَّ الأفق بحاجب الشمس ﴿ **إِذَا أَسْفَرَ** ﴾ أي ضاء وانكشف ، وأشرق لونه ووجهه وهو بريق بياضها الذي تحت الحمرة ، وهو الشفق الثاني ، وهو أول سلطانها من آخر الليل ، وبعده طلوع قرص الشمس ، فالفجر هو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل ، إذا ظهرت على وجه أرض الدنيا ، يسترعينَها الجبالُ والبحارُ والأقاليم المشرفة العالية ، ويظهر شعاعها منتشراً إلى وسط الدنيا عرضاً مستطيراً ، فظهر من هذا حسن موقع ذكر القمر ، والليل ، والصبح ، في مقام ذكر سقر ودواهيها ﴿ **إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ** ﴾ جواب للقسم ، والكُبَر جمع الكبرى كَرُكْبة ورُكَب ، والمعنى أن سقر لإحدى البلايا ، أو لإحدى الدواهي الكبيرة الكثيرة ﴿ **نَذِيراً لِلْبَشَرِ** ﴾ النذير مصدر كالنكير ، والمعنى لإحدى الكبر إنذاراً أي من جهة الإنذار ﴿ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾ أي نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير ، والجنة والطاعة ، فيهديه الله ، أو يتأخر بالمعصية فيضله الله ، وفيه إشارة إلى أن لكسب العبد دخلاً في حصول الرحمة أو العذاب ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من نفوس الإنس والجن المكلفين ﴿ **بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ مرهونة عند الله بسبب ما كسبت من الأعمال السيئة ، ونفس المكلف محبوسة عند الله بما أوجبه عليه من التكاليف التي هي حق خالص له تعالى ، فإن أداها المكلف كما وجبت عليه فكَّ رقبته ، وخلَّص نفسه ، وإلاَّ بقيتْ نفسهُ مرهونةً محبوسة

عنده ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ أصحاب اليمين أهل الأعمال الصالحة من المؤمنين أي فإنهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم ، كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الدين ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أي هم في جنات لا يكتنه كنهها ، ولا يوصف وصفها ، كما دل عليه التنكير ، والمراد أن كلاً منهم ينال جنة منها ﴿ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي يسألون المجرمين عن أحوالهم وقد حذف المسئول لدلالة ما بعده عليه ، يُروى أن الله يُطلع أهل الجنة وهم في الجنة ، حتى يرون أهل النار وهم في النار فيسألونهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ أدخلكم فيها ، وكان سبباً لدخولكم ؟ من السَّلْك بمعنى الإدخال لا من السلوك بمعنى الذهاب ، فإن قلت : لم يسألونهم وهم عالمون بذلك ؟ قلت : توبيخاً لهم وتحسيراً ، ولتكون حكاية الله في كتابه تذكرة للسامعين ﴿ قَالُوا ﴾ أي المجرمون مجيبين للسائلين ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ للصلوات الواجبة ، فعدم إقرارنا بفرضية الصلاة ، وعدم أدائها سلكنا فيها ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ على معنى استمرار نفي الإطعام الواجب ، وإلا فما ليس بواجب لا يجوز التعذيب على تركه ، وكانوا يقولون (أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ) فكانوا لا يرحمون المساكين بالإطعام ، ولا يحضون عليه ، ففيه ذمٌّ للبخل ، ودلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة ، وهذا تأسف منهم على تفريطهم في كسب الخير ، وحرمانهم مما ناله المصلون والمزكون من المؤمنين ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أي نشرع في الباطل مع الشارعين فيه ، والمراد بالباطل ذم النبي عليه السلام وأصحابه ، وغيبتهم وقولهم بأنه شاعر ، أو ساحر أو كاهن ، وغير ذلك ، والخوض الشروع في الباطل والقبيح ومالا ينبغي ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي بيوم الجزاء ، وتأخير جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل ، لتفخيمها والترقي من القبيح إلى الأقبح ، كأنهم قالوا : وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين ، ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه أمر متيقن لا شك في إتيانه ، فإن قلت : أيريدون أن كل واحد منهم دخل بمجموع هذه الأربع النار ، أم دخلها بعضهم بهذه ، وبعضهم بهذه ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعاً ، كما في الكشاف ، وفيه إشارة إلى أن بقاءهم في سقر إنما كان بسبب هذه الرذائل والذمائم ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أي لو قدر اجتماعهم على شفاعتهم ، على سبيل فرض المحال ، لاتنفعهم تلك الشفاعة ، إذ الشفاعة يوم القيامة موقوفة على الإذن ، وقابلية المحل ، والكافر ليس بقابل لها ، فلا إذن ولا شفاعة ولا نفع في الحقيقة ، وفيه دليل على صحة الشفاعة ونفعها يومئذ لعصاة المؤمنين ، وإلا لما كان لتخصيصهم بعدم منفعة الشفاعة وجه ، قال ابن مسعود : يشفع الملائكة ، والنبيون ، والشهداء والصالحون ، ولا يبقى في النار إلا أربعة ، ثم تلا قوله (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) الآيات وقال ابن عباس : إن محمداً عليه السلام يشفع، ثم تشفع الملائكة ثم الأنبياء ، ثم الآباء، ثم الأبناء ، ثم يقول الله بقيت رحمتي، ولا يدع في النار إلا من حرمت عليه الجنة ، ويقول الرجل من أهل النار لواحد من أهل الجنة:

يا فلان أما تعرفني ؟ أنا الذي سقيتُك شربة ، ويقول آخر : أنا الذي وهبتُ لك وضوءاً ، ويقول آخر : أطعمتك لقمة ، أو كسوتك ثوباً فيشفع له فيدخله الجنة ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ** ﴾ أي فإذا كان حال المكذبين على ما ذُكر ، فأيُّ شيء حصل لهم معرضين عن القرآن ، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه ، وتأكد الدواعي للإيمان به ؟ ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ** ﴾ حمر جمع حمار ، ويكون وحشياً وهو المراد هنا ، ومستنفرة أي نافرة هاربة والمعنى مشبهين بحمر نافرة ، كما أن استعجب بمعنى عجب ﴿ **فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ** ﴾ أي من أسد ، لأن الوحشية إذا عاينت الأسد تهرب أشد الهرب ، من القسر وهو القهر والغلبة ، لأنه يغلب السباع ويقهرها ، قال ابن عباس : القسورة هو الأسد بلسان الحبشة ، شَبَّهُوا في إعراضهم عن القرآن ، واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه ، بحمرٍ جدت في نفارها مما أفزعها ، وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبَلَه ، ولا ترى مثل نفار حمر الوحش ، واطرادها في العَدْو ، إذا خافت من شيء ، ومن أراد إهانةً غليظةً لأحدٍ والتشنيع عليه بأشنع شيء ، شبهَّه بالحمار ، حكي أن واحداً من العلماء كان يعظ الناس في مسجد جامع ، وحوله جماعة كثيرة ، فرأى ذلك رجل من البله ، وكان قد فقد حماره ، فنادى للواعظ وقال إني فقدت حماراً ، فاسأل الجماعة لعل واحداً منهم رآه ؟ فقال له الواعظ : أقعد مكانك حتى أدلك عليه ، فقعد الرجل ، فإذا واحدٌ من أهل المجلس قام وأراد أن يذهب ، فقال الواعظ للرجل : خذ هذا فإنه حمارك ، والظاهر أنه قال ذلك القول أخذاً من هذا الكلام ، فإنه فرَّ من تذكرة الملك العلاَّم ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً** ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام ، كأنه قيل : لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها ، عناداً ومكابرة ، بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ ، روي أنَّ أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية وأصحابها ، قالوا لرسول الله ﷺ : لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء ، أو يصبح عند رأس كل واحد منا أوراق منشورة ، عنوانها : من رب العالمين إلى فلان ابن فلان ، نؤمر فيها باتباعك أي بأن يقال أتَّبعْ محمداً فإنه رسول من قبلي إليك كما قالوا : (**وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ**) ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع عن اقتراحهم الآيات ، وإرادتهم ما أرادوه ، فإنهم إنما اقترحوها تعنتاً وعناداً ، لا هدى ورشاداً ﴿ **بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ** ﴾ أي فلعدم خوفهم منها أعرضوا عن التذكرة ، لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع عن إعراضهم عن التذكرة ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ الضمير للقرآن ﴿ **تَذْكِرَةٌ** ﴾ أي تذكرة بليغة كافية ﴿ **فَمَنْ شَاءَ** ﴾ أن يذكره ويتعظ به قبل الحلول في القبر ﴿ **ذَكَرَهُ** ﴾ أي جعله نصب عينه ، وحاز بسببه سعادة الدارين ، فإنه ممكن من ذلك ﴿ **وَمَا يَذْكُرُونَ** ﴾ بمجرد مشيئتهم للذكر ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ أي إلاَّ بأن يشاء الله ، أو حال أن يشاء الله ذكرهم ، وهذا تصريح بأن أفعال العبد بمشيئة الله ، لا بإرادة الإنسان نفسه﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾

حقيقٌ بأن يغفر لمن آمن بـه ، وأطـاعـه ، قـال بعضهم : التقوى هو التبري من كل شيء ، سوى الله ، فمن لزم الآداب في التقوى فهو أهل المغفرة .

تم تفسير سورة المدثر بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لا صلة لتوكيد القسم قال الشاعر :

تَـذَكَّرتُ ليلَى فَـاعْتَرتني صَبَـابَـةٌ * وَكَـــاد ضَميرُ القَلْبِ لاَيَتَقَطَّـــعُ

أي يتقطَّع أو للنفي لكن لا لنفي نفس الإقسام ، بل لنفي ما ينبىء عنه ، من إعظام المقسَم به وتفخيمه ، كأن معنى لا أقسم بكذا لأعظمه بإقسامي به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك وأكثر قال المغيرة بن شعبة رحمه الله : يقولون القيامة القيامة وإنما قيامة أحدهم موته ، وشهد علقمة جنازة فلما دفن ، قال : أمَّا هذا فقد قامت قيامتهُ ونظمه بعضهم فقال :

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا وقَـامَتْ قِيـامتي * غَـدَاةَ أقَـلَّ الحَـامِلُـون جَنَـازتي

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ القسم بالشيء تنبيهٌ على تعظيمه ، أو لما فيه من لطف الصنع ، وعظم نعمه ، وتكرير ذكر القسم تنبيهٌ على أن كلاً من المقسم به مقصود مستقل بالقسم ، واللوامَّة التي تلوم نفسها على التقصيرات الواقعة منها ، فهي لا تزال لائمة لها ، ولذلك استحقت أن أقسم الله بها على قيام البعث والنشر والحشر ، قال القاشاني : جمع بين القيامة والنفس اللوامة في القسم بها تعظيماً لشأنها ، وتناسباً بينهما ، إذ النفس اللوامة هي المصدقة بها المقرة بوقوعها المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة في الخير ، وأعمال البر ، تيقناً بالجزاء ، فكيف بها أن أخطأت وفرَّطت وبدرت منها بادرة غفلة ، وجوابُ القسم محذوف دل عليه قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ ؟ وهو ليبعثن ، والمعنى أيحسب الإنسان الذي ينكر البعث ، أن لن نجمع عظامه البالية ؟ فإن ذلك حسبان باطل ، فإنا نجمعها بعد تشتتها ، ورجوعها رميماً مختلطاً بالتراب ، وبعدما نسفتها الرياح وطيرتها في أقطار الأرض ، أو ألقتها في البحار ، لمجازاته بما عمل في الدنيا ، وقيل : إن «عدي بن أبي ربيعة» المشرك قال لرسول الله يا محمد حدثني عن يوم القيامة ، متى يكون ؟ وكيف أمره ؟ فأخبره فقال : لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقك ، أيجمع الله هذه العظام بعد أن تصبح رميماً ؟ كقوله (قال مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) ؟ فنزلت الآية ﴿ بَلَىٰ ﴾ إيجاب لما ذكر بعد النفي أي نجمعها ﴿ قَادِرِينَ ﴾ حال مؤكدة من الضمير المستكن في نجمع ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أي نجمع سلاميَّاته ، ونضم بعضها إلى بعض ، مع صغرها ولطفاتها ، فكيف بكبار

العظام ؟ وهو جمع سلامى وهي العظام الصغار في اليد والرجل وفي الحديث (كلُّ سُلاَمَى من النَّاس عليه صَدَقة)[1] والبنان : الأصابع أو أطرافها ، قال الراغب : البنانُ : الأصابعُ ، سُمّيت بذلك لأن بها إصلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يقيم بها ما يريد ﴿ **بَلْ يُرِيدُ الإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** ﴾ الفجر شق الشيء شقاً واسعاً ، والفجور شق ستر الديانة ، أي يريد شهواته ومعاصيه ، والمعنى : بل يريد الإنسان ليدوم على فجوره ، فيما بين يديه من الأوقات ، وفيما يستقبله من الزمان ، لا يرعوي عنه ، فالأمام ههنا مستعار للزمان أو المكان ، وقال الراغب : يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها ﴿ **يَسْأَلُ** ﴾ سؤال استبعاد واستهزاء ﴿ **أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ** ﴾ أي متى يكون ؟ فليس إنكاره للبعث لاشتباه الأمر ، وعدم قيام الدليل على صحة البعث ، بل يريد أن يستمر على فجوره في حال كونه سائلاً متى تكون القيامة ؟ فدل هذا الإنكار على أن الإنسان يميل بطبعه إلى الشهوات ، والفكرةُ في البعث تنغِّصها عليه ، فلا جرم ينكره ، ويأبى عن الإقرار به ﴿ **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ** ﴾ أي تحيَّر واضطرب ، وجال فزعاً من أهوال يوم القيامة ﴿ **وَخَسَفَ الْقَمَرُ** ﴾ أي ذهب ضوؤه ، وفيه رد لمن عبد القمر فإن القمر لو كان إلهاً كما زعمه العابد ، لدفع عن نفسه الخسوف ، ولما ذهب ضوؤه ، والخسوف والكسوف معناهما واحدٌ ، وهو ذهاب ضوء أحد النيِّرين ، أو بعضه ، وصلاة الكسوف سنة مؤكدة ، فإذا كسفت الشمس أو القمر فزعوا للصلاة ، وهي لكسوف الشمس ركعتان كهيئة النافلة ﴿ **وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾ في ذهاب الضوء ، كما روي عن النبي عليه السلام ، وجمع بينهما في الطلوع من المغرب ﴿ **يَقُولُ الإِنْسانُ** ﴾ المُنكرُ للقيامة ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم تقع هذه الأمور ، قول الآيس ، لأنه لا يرى علامات ممكنة للفرار ﴿ **أَيْنَ الْمَفَرُّ** ﴾ أي الفرار ؟ والقول بصدور هذا الكلام بناء على توهمه لتحيره ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع عن طلب المفر وتمنّيه ﴿ **لاَوَزَرَ** ﴾ لا ملجأ يقال لكل ما التجأت إليه وتحصنت به : وَزَرٌ أي لا ملجأ ثمة أوفى الوجود قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَـــــا فِي الفَتَى مِنْ وَزَر * مِنَ المَــوْتِ يُـــدرِكُـــهُ وَالكِبَرْ

أي لا ملجأ للفار من الموت ، والكبر ، إذ كل منهما من الأمر الإلهي المبرم ، يدرك الإنسان لا محالة ﴿ **إِلَىَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** ﴾ أي إليه تعالى وحده استقرار العباد ، أي لا يتوجهون إلا إلى حيث أمرهم الله ، من مقام حسابه ، أو إلى نهاية استقرار أمرهم فإن الملك يومئذ لله ، فهو كقوله تعالى (**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَىَ**) حيث لا حاكم ولا مالك سواه ﴿ **يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يخبر كل امرىء ، براً كان أو فاجراً ، عند وزن الأعمال وحال العرض والمحاسبة ، والمخبر هو الله أو المَلَك بأمره تعالى ﴿ **بِمَا**

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم وانظر جامع الأصول ١ / ٤٢٤ .

﴿ قَدَّمَ ﴾ أي عَمِلَ في حياته من عمل ، خيراً كان أو شراً ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ أي وما أخَّره بعد مماته ، من سنة حسنةٍ أو سيئة ، أو بما قدَّم من مال تصدق به في حياته ، ومما أخر فخلَّفه لورثته بعد مماته[1] وفي الحديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)[2] ﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أي بل هو حجة بصيرة وبينة واضحة على أعمال نفسه ، شاهدة جوارحه وأعضاؤه بما صدر عنه من الأفعال السيئة ، لا يحتاج إلى أن يخبره غيره ، فإنه يومئذ عالم بتفاصيل أحواله ، شاهد على نفسه لأن جوارحه تنطق بذلك ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه ﴾ أي تشهد عليه جوارحه وتقبل شهادتها ، ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه ، فإن الذبَّ والدفع لا رواج له يومئذ ، لأنه يوم ظهور الحق بحقيقته ، والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير جمع للمنكر ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ لِسَانَكَ ﴾ مادام جبريل يقرأ ويلقي عليك ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي بأخذه أي لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك بحكم الوعد ، بحيث لا يخفى عليك شيء من معانيه ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي إثبات قرآءته في لسانك ، بحيث تقرأه متى شئت ، فالقرآن مصدر بمعنى القرآءة ، كالغفران بمعنى المغفرة ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي أتممنا قرآءته عليك بلسان جبريل ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي فاشرع فيه بعد فراغ جبريل منه بلا مهلة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما فإذا جمعناه : وأثبتناه في صدرك فاعمل به ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه ، وسمي ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره ، قال أهل التفسير : كان عليه السلام إذا لُقِّن الوحي ، نازع جبريل القراءة ، ولم يصبر إلى أن يتمها ، مسارعة إلى الحفظ ، وخوفاً من أن يفلت منه ، فأُمِرَ بأن يستنصت له ملقياً إليه قلبه وسمعه ، حتى يقضيَ إليه الوحيُ كما قال تعالى (وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) ثم يقضيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه ، وفي قوله تعالى (لاَتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) الخ تعليم وتأديب ، أما التعليم فما أشير إليه من أن باب معرفة الله ، مسدودٌ على أكثر الناس ، فلا يفهمون عن الله إلا من الجهة المناسبة لحالهم ، وهي جهة الوسائط فقد جعل الله الملائكة وسطاء بينه وبين خلقه ، وأما التأديب فإنه لما كان الآتي بالوحي من الله جبريل عليه السلام فمتى بودر بذكر ما أتى به ، كان كالتعجيل له ، وإظهار الإستغناء عنه ، وهذا خلل في الأدب بلا شك ، سيما مع المعلِّم المرشد ، ومن هذا

---

(١) القول الأول هو الأظهر أن المعنى بما قدَّمه من الأعمال في حياته ، وبما أخَّره بعد مماته ، من سنةٍ حسنة أو سيئة كقوله ﷺ (من سَنَّ سُنَّة حسنة فلها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ..) الحديث وهو ما رجحه الطبري وابن كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١ / ٤٢٨ .

التقرير عرف أن قوله تعالى (**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ**) إلخ واقع بطريق الاستطراد ، فإنه لما كان من شأنه عليه السلام الاستعجال عند نزول كل وحي ، ولم ينه إلى أن أوحي إليه هذه السورة من أولها إلى قوله (**وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**) نُهي عنه بقوله (**لاَ تُحَرِّكْ**) الخ ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدئ به من خطاب الناس ، ونظيرهُ مالو ألقى المدرس على الطالب مسألة ، وتشاغل الطالب بشيء لا يليق بمجلس الدرس ، فقال : ألقِ إليَّ بالك ، وتفهَّمْ ما أقول ، ثم كَمِّلْ المسألة ، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المتبعين للقرآن في كل زمان ﴿ **كَلاَّ** ﴾ عود إلى تكملة ما ابتدىء به الكلام ﴿ **بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ** ﴾ أي الدنيا ﴿ **وَتَذَرُوْنَ الآخِرَةَ** ﴾ فلا تعملون لها بل تنكرونها ﴿ **وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ** ﴾ النضرة طراوة البشرة وجمالها ، وذلك من أثر التنعم ، والناضرُ : الغضُّ الناعم : أي وجوه المؤمنين المخلصين ، يوم تقوم القيامة ، بهية متهللة ، يشاهد عليها نضره النعيم ورونقه ، كما قال تعالى في آية أخرى (**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**) ﴿ **إِلَىَ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ النظر تقليب البصر لإدراك الشيء ورؤيته ، والمراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها ، بطريق ذكر المحل وإرادة الحال ، والمعنى أن الوجوه تراه تعالى عياناً ، مستغرقة في مطالعة جماله ، بحيث تغفل عما سواه ، وتشاهده تعالى ، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق ثم إن جميع أهل السنة ، حملوا هذه الآية على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالى ، بلا تكييف ولا تحديد ، ولا يصح تأويل الزمخشري أنها كناية عن معنى « التوقع والرجاء » على معنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة ، إلاّ من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ، وجوابه أنه لا يعدل إلى الكناية بلا ضرورة داعية إليها ، وهي ههنا مفقودة ، فالأحاديث الصحيحة تدل على تعيُّن جانب الحقيقة ، ومن المعتزلة من فسر النظر بالانتظار ، وجعل قوله « إلىَ » اسماً مفرداً ، بمعنى النعمة ، مضافاً إلى الرب ، جمعه آلاء فيكون التقدير وجوهُ يومئذ منتظرة نعمة ربها ، ورُد هذا بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه ، سواء أريد به المعنى الحقيقي ، أو أريد به العين ، بطريق ذكر المحل وإرادة الحال ، وتفسير الوجه بالذات خلاف الظاهر ، وبأن الانتظار لا يُعدَّى إلاَّ إن جُعل حرفاً ، وأخذه بمعنى النعمة في هذا المقام يخالف المعقول ، لأن الانتظار يعد من الآلام ، ونعيم الجنة حاضر لأهلها ، ويخالف المنقول أيضاً وهو أنه عليه السلام قال (إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة ، من ينظر إلى جنانه ، وأزواجه ، ونعيمه ، وخدمه ، وسريره ، مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ عليه السلام (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[1] فقد فسر النظر بنظر العين والرؤية ، فظهر أن المخالف اتبع

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان بلفظ (أدنى أهل الجنة منزلة ، الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ ، وزبرجدٍ ، وياقوت كما بين الجابية وصنعاء) الفتح الكبير ١ / ٦٢ وأما باللفظ الذي ذكره المؤلف ، فقد أخرجه الدارقطني والحاكم وابن مردويه ، كما في الدر المنثور ٦ / ٢٩٠ .

رأيه وهواه ، وروي أنه عليه السلام نظر إلى القمر ليلة البدر فقال (إنكم سترون ربكم ، كما ترون هذا القمر لا تَضَامُّونَ في رؤيته)[1] وهو بفتح التاء وتشديد الميم من الضم ، أصله لا تتضامون أي لا ينضم بعضكم إلى بعض ، ولا يقول أين هو ، أرنيه ، بل كلٌّ ينفرد برؤيته ، ورُوى بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم يعني لا ينالكم ظلم ، بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى ، وهذا حديث مشهور تلقته الأمة بالقبول ، فثبت أن المؤمنين يرونه بغير كيفٍ ، ولا كمٍ ، وضرب من مثال ، فينسون النعيم إذا رأوه ، فيا خسران أهل الاعتزال !! وسئل مالك بن أنس رضي الله عنهما عن قوله تعالى (**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**) وقيل له : إنَّ قوماً يقولون إلى ثوابه ، فقال مالك : كذبوا ، فأين هم عن قوله تعالى (**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**) ثم قال : الناس ينظرون إلى الله بأعينهم ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعذب الله الكفار بالحجاب ، وقال صاحب العقد الفريد : ومن اعتقد غير هذا ، فهو مبتدع فاسقٌ ، وقد يشهد للمطلوب ، ويردُّ دعوى أهل البدعة ، أنَّ الرؤية هي اللذة الكبرى ، فكيف يكون المؤمنون محرومين منها ، والدار دار اللذة ؟ فينبغي للمؤمن أن تكون همته من نعم الجنة نعمة اللقاء ، فإن غيرها نعم يسيرة مشتركة ، قال بعض العارفين : الخلق أقرب جارٍ للحق تعالى ، وذلك من أعظم البشرى ، فإن للجار حقاً مشروعاً معروفاً يعرفه العلماء بالله ، وما يستحقه الجار على الجار من حيث يقتضيه الكرم الإلهي ، حكي أن الحجاج أراد قتل شخص ، فقال له : لي إليك حاجة ، قال : ما هي ؟ قال : أريد أن أمشي معك ثلاث خطوات ، ففعل الحجاج ، فقال الشخص : حقُّ هذه الصحبة أن تعفو عني ، فعفا عنه ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ** ﴾ أي شديدة العبوس ، مظلمة ليس عليها أثر السرور أصلاً ، وهي وجوه الكفرة والمنافقين ﴿ **تَظُنُّ** ﴾ يتوقع أربابها بحسب الأمارات ﴿ **أَنْ يُفْعَلَ بِها فَاقِرَةٌ** ﴾ داهية عظيمة ، تقصم فَقَار الظهر ، ومنه سُمِّي الفقير ، فإن الفقر كَسَر فقار ظهره ، فجعله فقيراً ، وهذه مقابلة لطيفة بين وجوه السعداء ، ووجوه الأشقياء ، فوجوه أهل الشقاوة تتوقع ذلك ، كما تتوقع الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير ، بناء على أن المقابلة بين الآيتين تقتضي ذلك ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع عن إيثار العاجلة على الآخرة أي ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت المحقَّق ﴿ **إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ** ﴾ الضمير للنفس وإن لم يجر لها ذكر ، لأن الكلام يدل عليها أي إذا بلغت النفس وهي الروح أعالي الصدر ، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر ، فإذا بلغت إليها يكون وقت الغرغرة ، جمع تَرْقُوَة بفتح التاء ﴿ **وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ** ﴾ وقال من حضر صاحبها : من يرقيه وينجيه مما هو فيه ؟ من الرقية وهو التعويذ بما به يحصل الشفاء ، كما يقال : بسم الله أرقيك ، والاستفهام بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيباً يعالجه ، أو راقياً يرقيه ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وأبو داود ، وانظر جمع الفوائد ٢ / ٤٨٧ .

الإنكار ، كما يقال عند اليأس : من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت ؟ وهو الظاهر كما قال الراغب من راق أي من يرقيه ؟ تنبيهاً على أنه لا راق يرقيه فيجيبه ، وذلك إشارة إلى نحو ما قال الشاعر :

وَإِذَا المَنِيَّـــةُ أَنْشَبتْ أَظْفَـــارهَـــا * أَلْفَيتَ كُـــلَّ تَمِيمَـــــةٍ لاَ تَنْفَـــعُ

التميمة خرزات كان العرب يعلقونها على أولادهم ، خوفاً من العين ، وهو باطل لقوله عليه السلام (من عَلَّق تميمةً فقد أشرك)[1] وإياها إراد صاحب البيت المذكور .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ وأيقن المحتضر حين عاين ملائكة الموت ، أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا المحبوبة ، ونعيمها التي ضيَّع العمر النفيس ، في كسب متاعها الخسيس ، قال الإمام : هذه الآية تدل على أن الروح جوهر قائم بنفسه ، باق بعد موت الجسم ، لأن الله تعالى سمَّى الموت فراقاً ، والفراق إنما يكون إذا كانت الروح باقية ، قال المزني : دخلت على الشافعي في مرض موته ، فقلت : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنِّيها ؟ أم إلى النار فأعزِّيها ؟ ثم أنشد يقول :

ولَمَّـا قسَـا قلبي وضَـاقَتْ مَـذَاهبي * جعلتُ رَجَـــائي نحـو عَفْـوكَ سُلَّما
تَعَـــاظمني ذَنْبي فَلَمَّـــا قَرنْتُـــه * بِعَفْـوكَ ربِّي كَـــانَ عَفْـوُكَ أَعْظَما

قال يحي بنُ معاذ رحمه الله : إذا دخل الميت القبر قام على شفير قبره أربعة أملاك : واحد عند رأسه ، والثاني عند رجليه ، والثالث عن يمينه ، والرابع عن يساره ، فيقول الذي عند رأسه : يا ابن آدم ارفضَّتْ الآجالُ وأنضبت الآمال أي هزلت ، ويقول الذي عن يمينه ذهبت الأموال وبقيت الأعمال ، ويقول الذي عن يساره : ذهبت الأشغال وبقي الوبال ، ويقول الذي عند رجليه : طوبى لك إن كان كسبك من الحلال ، وكنت مشتغلاً بخدمة ذي الجلال ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أي والتفت ساقه بساقه ، والتوت عليها عند قلق الموت أو التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، على أن الساق مثل في الشدة ، وجه المجاز أن الإنسان إذا دهمته شدة ، شمَّر لها عن ساقيه ، فقيل للأمر الشديد ساق من حيث إن ظهورها لازم لظهور ذلك الأمر ، وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفَّان في أكفانه ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أي إلى الله وإلى حكمه ، يساق الإنسان لا إلى غيره ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ الإنسان ما يجب عليه تصديقه من الرسول والقرآن أي لم يُصدِّق ، فلا ههنا بمعنى « لم » وإنما دخلت على

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢١٢ .

الماضي لقوة التكرار ، كما تقول : لا قَامَ ولا قعد ، وقلَّما تقول العرب « لا » وحدها حتى تُتْبعها أخرى ، تقول لا زيدٌ في الدار ولا عمروٌ ﴿ وَلاَصَلَّى ﴾ ما فرض عليه ، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع ، في حق المؤاخذة ، يعني أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقها بترك الإيمان ، وإن لم يجب أداؤها عليه في الدنيا ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ وأعرض عن الطاعة ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أهل بيته أو إلى أصحابه ﴿ يَتَمَطَّى ﴾ يتبختر ويختال في مشيه افتخاراً بذلك ، فإن المتبختر يمدُّ خطاه ، يعني أن التمدد في المشي من لوازم التبختر فجعل كناية عنه فيكون أصله يتمطط بمعنى يتمدد أبدلت الطاء الأخيرة ياء كراهة اجتماع الامثال كما في تقضَّىٰ البازي ، أو من المطا مقصوراً وهو الظهر فإنه يلويه ويحركه في تبختره ، فألفه مبدلةٌ من واو ، وتمطى جملة حالية من فاعل ذهب وفي الحديث (إذا مشت أمتي المطيطاء ، وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم)[1] والمطيطاءُ : كحميراء التبختر ، ومد اليدين في المشي ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ تكرير للتأكيد فهو مستعمل في موضع « ويل لك » والمراد دعاء عليه بأن يليه مكروه ، وأصله أولاك الله ما تكرهه ، واللام مزيدة كما في (ردف لكم) وفي القاموس : أولى لك تهديد ووعيد أي قاربه ما يهلكه ، أو أولى لك الهلاك فيكون اسماً بمعنى أحرى أي الهلاك أولى أو أحرى لك من كل شيء .

رُوي أنه لما نزلت هذه الآية ، أخذ رسول الله بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء ، وهزَّه مرة أو مرتين في صدره ، وقال له « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فقال أبو جهل : أتتوعدني يا محمد ؟ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيأ ، وأني لأعزُّ أهل هذا الوادي ، فلما كان يوم بدر صَرَعه الله شر صرع ، وقتل أسوأ قِتْلة ، وكان رسول الله عليه السلام يقول « إن لكل أمة فرعوناً ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل » ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي يَحْيا مهملاً ، فلا يكلف ولا يجزى ، و« سُدى » أي مهملاً ، والآية تتضمن الاستدلال على صحة البعث ، وتقريرهُ أن إعطاء القدرة والآلة والفعل بدون التكليف ، والأمر بالمحاسن ، والنهي عن المفاسد ، يقتضي كونه تعالى راضياً بقبائح الأعمال ، وذلك لا يليق بحكمته ، فإذاً لابدَّ من التكليف في الدنيا ، والتكليفُ لا يليق بالكريم الرحيم ، إلاّ لأن يميز الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات من المفسدين في الأرض ، ولا يجعل المتقين كالفجار ، ويجازي كل نفس بما تسعى ، والمجازاة قد لا تكون في الدنيا ، فلابد من البعث والقيامة ، وإنما لم تكن الدنيا دار

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه بلفظ (إذا مشت أمتي المطيطاء ، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم ، سُلط شرارها على خيارها) وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٥٦ .

المجازاة لضيقها ، وقد قال بعض الكبار : من طلب تعجيل نتائج أعماله ، وأحواله في هذه الدار ، فقد أساء الأدب ، وعامل الموطن بمالا تقتضيه حقيقته ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ استدلال على صحة البعث بدليل ثان ، والاستفهام بمعنى التوبيخ والمعنى ألم يكن الإنسان ماء قليلاً ، من ماءٍ معروف بخسة القدر ، واستقذار الطبع ، يمنى ويصب في الرحم ؟ نبه سبحانه بهذا على خِسة قدر الإنسان أولاً ، وكمال قدرته ثانياً حيث صيَّر مثل هذا الشيء الدني بشراً سوياً وقال بعضهم: فائدة قوله «يُمْنَىٰ» للإشارة إلى حقارة حاله ، كأنه قيل : إنه مخلوق من المني الذي يجري على مخرج النجاسة ، فكيف يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله فيما أمر به ونهى ؟ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي ثم كان المني قطعة دم جامد غليظ أحمر ، بقدرة الله تعالى ، بعد ما كان أبيض ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فقدر بأن جعلها قطعة لحم قابل لتفريق الأعضاء وتمييز بعضها من بعض ، وجعل المضغة عظاماً تتميز بها ، بأن صلبها فكسا العظام لحماً يحسن به خلقه وتصويره ، ويستعد لإضافة القوى ونفخ الروح ﴿ فَسَوَّى ﴾ فعدله وكمَّل نشأته على ما اقتضته الحكمة الإلهية وقال بعضهم : معنى التسوية والتعديل : جعل كل عضو من أعضائه الزوج معادلاً لزوجه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان باعتبار الجنس أو من المني ، وجعل بمعنى خلق ﴿ الزَّوْجَيْنِ ﴾ أي الصنفين ﴿ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ بدل من الزوجين أي خلق من هذه النطفة ذكراً وأنثى ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ العظيم الشأن الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ وهو أهون من البدء في قياس العقل ، لوجود المادة والعناصر الأصلية ، روي أن النبي عليه السلام كان إذا قرأها قال « سبحانك اللهمَّ بلى » تنزيهاً له تعالى عن عدم القدرة على الإحياء ، وإثباتاً لوقوعها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما (من قرأ سبح اسم ربك الأعلى) فليقل سبحان ربي الأعلى ومن قرأ (لا أقسم بيوم القيامة) فإذا انتهى إلى أخرها فليقل (سبحانك اللهم بلى) إماماً كان أو غيره وفي الحديث (من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحكَمِ الحَاكِمين) فليقل بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ (لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي المَوْتَى) فليقل سبحانك بلى ، ومن قرأ والمرسلات عرفاً فبلغ (فبأي حديث بعده يؤمنون) فليقل آمنا بالله)[1] .

تمت سورة القيامة بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه أبو داود وأحمد ، ورواه الترمذي بنحوه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٥٧٩ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **هَلْ أَتَى** ﴾ استفهام تقرير وتقريب ، فإن « هل » بمعنى « قد » أي قد أتى ، والدليل على أن الاستفهام غير مراد أن الاستفهام على الله محال ، فلابد من حمله على الخبر ، تقول هل وعظتك ؟ ومقصودك أن تحمله على الإقرار بأنك قد وعظته ، وقد يجيء بمعنى الجحد تقول : وهل يقدر أحد على مثل هذا ؟ فتحمله على أن يقول لا يقدر أحد غيرك ﴿ **عَلَى الإِنْسَانِ** ﴾ المراد جنس الإنسان لقوله (من نطفة) لأن آدم لم يخلق منها ﴿ **حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ** ﴾ الحين زمان مطلق ، ووقتٌ مبهم ، يصلح لجميع الأزمان ، طال أو قصر ، والمعنى : طائفة محدودة كائنة من الزمن الممتد ، وهي مدة لبثه في بطن أمه تسعة أشهر ، إلى أن صار شيأ مذكوراً ، على ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **لَمْ يَكُنْ** ﴾ فيه ﴿ **شَيْئاً مَذْكُوراً** ﴾ بل كان شيأ منسياً نطفةً في الأصلاب ، فما بين كونه نظيفة وكونه شيئا مذكوراً بالإنسانية مقدار محدود بحدود من الزمان ، ومعنى الاستفهام التقريري في الآية ، أن يحمل من يُنكر البعث ، على الإقرار بأنه نعم أتى عليه في زمان قريب ، حينٌ من الدهر لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ، فيقال له : من أحدثه بعد أن لم يكن ؟ فكيف يمتنع عليه بعثه وإحياؤه بعد موته ؟ ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ** ﴾ أي خلقنا جسمه ، والإظهار لزيادة التقرير ﴿ **مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾ حتى كان علقة في أربعين يوماً ، ومضغة في ثمانين ، ومنفوخاً فيه الروح في مائة وعشرين يوماً ، وحمل بعضهم الإنسان الأول على آدم، والثاني على ذريَّة آدم، والأولى حمله في كلا الموضعين على الجنس وهو الأظهر، لأن المقصود تذكير الإنسان كيفية الخلق ، بعد أن لم يكن ، ليتذكر أول أمره من عدم ، و آخر أمره من كونه شيئاً مذكوراً ، مخلوقاً من ماء حقير ، فلا يستبعد البعث كما سبق ﴿ **أَمْشَاجٍ** ﴾ أخلاط جمع مَشَج كَسَبَب ، أو من مشَجتُ الشيء إذا خلطته ، والمراد أن الماءين يختلطان في الرحم ، ولكل منهما أوصاف مختلفة ، من اللون ، والرقة ، والغلظة ، وخواص متباينة ، فإن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فيخلق منهما الولد ، أيهما علا صاحبه كان الشبه له ، وما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة ، على ما روي في المرفوع ، وقال الحسن : نطفة مشيجة بدم ، وهو دم الحيض ، فإذا حبلت ارتفع الحيض ، وإليه ذهب صاحب القاموس حيث قال (ونطفة أمشاج) مختلطة بماء المرأة ودمها انتهى فيكون النطفتان ودمها معاً ، وقال الراغب : هو عبارة عما جعل الله بالنطفة من القوى المختلفة المشار إليها بقوله (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**) الآية انتهى فيكون معنى أمشاج ألوان

وأطوار على ما قال قتادة ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ حال أي مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف ، ليتعلق علمنا بأحواله تفصيلاً في المشاهدة بعد تعلقه بها إجمالاً في العلم ، وليظهر أحوال بعضهم لبعض من القبول ، والرد ، والسعادة والشقاوة ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ، ومشاهدة الآيات التكوينية ، فهو كالمسبب عن الابتلاء ، كأنه قيل : إنا خلقناه مريدين تكليفه ، فأعطيناه ما يصح معه التكليف والابتلاء ، وهو السمعُ ، والبصر ، وسائر الآت التفهيم ، والتمييز ، ولم يذكر العقل ، لأن المراد ذكر أسبابه ، فطريقه الأول لأكثر الخلق من السعداء السمع ثم البصر ، ثم تفهم العقل ، وفي اختيار صيغة المبالغة إشارة إلى كمال إحسانه إليه، وتمام إنعامه عليه، قال أبو عثمان المغربي قدس سره: ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاج : ثلاث فتانات هي : سمعُه ، وبصرُه ، ولسانُه ، وثلاث كافرات هي : نفسُه ، وهواه ، وعدوه الشيطان ، وثلاث مؤمنات هي : عقلُه ، وروحه ، وقلبُه ، فإذا أيد الله العبدَ بالمعونة ، قهر العقلُ على القلب فملكه ، واستأسر النفس والهوى ، فلم يجدا إلى الحركة سبيلاً ، فجانست النفس الروح وجانس الهوى العقل ، وصارت كلمة الله هي العليا ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ يعني أريناه وعرَّفناه طريق الخير والشر ، والنجاة والهلاك ، بإنزال الآيات ونصب الدلائل ، كما قال (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أي بينا له طريق الخير والشر ﴿ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً ﴾ أي مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق ، الموصل إلى البغية ، فالشاكر هو الموحد ، والكفور هو الجاحد ، لأن الشكر الإقرار بالمنعم ، ورأس الكفر جحوده ، أي بعضهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه ، وبعضهم كفور بالإعراض عنه ، وايراد الكفور لمراعاة الفواصل أي رؤوس الآي والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما ، وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط ، والشكُور قليل منهم ولذا لم يقل إما شكوراً وإما كفوراً ، وإما شاكراً وإما كافراً ، والمرادُ أنا خيَّرناه في الاهتداء إلى سبيل الشكر أو إلى سبيل الكفر ، فاختار بعضهم سبيل الشكر ، واختار بعضهم سبيل الكفر ، كما ورد (هؤلاء أهل الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء أهل النار ولا أبالي) أي المدح والذم يتعلق بهم لابي ، ثم لَمَّا ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد ، فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا في الآخرة ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ من أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿ سَلاسِلَ ﴾ بها يقادون إلى جهنم ، جمع سلسلة ، والسلسلةُ حلقاتٌ من حديد ، متداخلة بعضها في بعض ﴿ وَأَغْلاَلاً ﴾ بها يقيدون إهانة وتعذيباً ، لا خوفا من الفرار ، جمع غل بالضم وهو ما تطوق به الرقبة للتعذيب ﴿ وَسَعِيراً ﴾ ناراً بها يُحرقون وإنما يُجرُّون إلى جَهنم بالسلاسل ، لعدم انقيادهم للحق ، ويُحقَّرون بأن يُقيَّدوا بالأغلال لعدم تواضعهم لله ، ويُحرقون بالنار لعدم احتراقهم بنار الخوف من الله تعالى ، وتقديم وعيد الكافرين لأن الإنذار أهم وأنفع ، وختمه بذكر المؤمنين أحسن ، على أن في وصفهم تفصيلاً ربما يخلُّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين ، إثر بيان سوء حال

الكافرين ، والأبرار جمع برّ أو جمع بار كشاهد وأشهاد ، وهو من يبرُّ خالقَهُ أي يطيعه وعن الحسن رحمه الله : البرُّ من لا يؤذي الذرَّ ، ولا يُضِرُ الشَرَّ ، كما قيل :

ولا تـــؤذ نمـــلاً إن أردت كالكا * فـإن لهـــا نفسهـــا تطيب كما لكا

﴿ يَشْرَبُون ﴾ في الجنة ﴿ مِنْ كَأْسٍ ﴾ هي الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتطلق على نفس الخمر أيضاً وهو المراد هنا عند الأكثر ، حتى روي عن الضحاك أنه قال : كل كأسٍ في القرآن فإنما عنى به الخمر ، ﴿ كَانَ ﴾ بتكوين الله ﴿ مِزَاجُهَا ﴾ أي ما تمزج تلك الكأس به ، يقال مزج الشراب خلطه ﴿ كَافُوراً ﴾ أي ماء كافور ، وهو اسم عين في الجنة ، وكذا سائر العيون ، ماؤها في بياض الكافور ورائحته ، والكافور طيب معروف قال في القاموس : الكافور طيب معروف ، يكون من شجر بجبال الهند والصين ، يُظِل خلقاً كثيراً وتألفه النور ﴿ عَيْناً ﴾ بدل من كافوراً ، والعينُ الجارية ويقال لمنبع الماء تشبيهاً بها في الهيئة وفي سيلان الماء فيها ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ عباد الله الأبرار من المؤمنين ، لأن إضافة التكريم إلى اسمه الأعظم مختصة بالمؤمن في الغالب ، أي يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة بها ، كما تقول شربت الماء بالعسل ، فيكون كناية عن قوتها في لذتها ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ الفجر شق الشيء شقاً واسعاً يقال : فجَّرته فتفجرَّ ، أي يجرونها حيث شاؤا من منازلهم ، إجراء سهلاً لاتمتنع عليهم ، بل يجري جرياً بقوة واندفاع ، لأن الأنهار منقادة لأهل الجنة كالأشجار وغيرها .

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ أي يوفون بما أوجبوه على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه الله عليهم من الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج وغيرها ؟ فهو مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات ، والنذرُ : إيجاب الفعل المباح على نفسه ، تعظيماً لله ، بأن يقول لله علي كذا من الصدقة وغيرها ، وإن شُفي مريضي أو رُدَّ غائبي فعليَّ كذا ، والنذرُ كالوعد إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر ، وإذا كان من الله فهو وعدٌ ، والنذر قربة مشروعة ، ولا يصح إلا في الطاعة وفي الحديث (من نذر أن يُطيع الله فَلْيطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِهِ)[1] فإن النذر إنما يجب الوفاء به لأنه طاعة ، وأمَّا إذا نذر شيئاً فيه معصية لله فلا وفاء لهذا النذر ، قال هارون بن معروف : جاءني فتى فقال : إن أبي حلف عليَّ بالطلاق ، أن أشرب دواء مع مسكر ، فذهبتُ به إلى أبي عبد الله فلم يرخص له ، وقال قال عليه السلام (كل مسكر حرام)[2] وإذا أجمع الأطباء على أن شفاء المريض في الخمر لا يشربها ، إذا كان له دواء آخر ، وإذا لم يكن يشربها ويتداوى بها

---

(١) الحديث أخرجه البخاري وأهل السنن ، وأحمد في المسند وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٤٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود بلفظ (كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها ولم يتب منها ، لم يشربها في الآخرة) جامع الأصول ٥ / ٩٨ .

في قول[١] ، ثم إن الإهتمام بما أوجب الله على عبده ، ينبغي أن يكون أكمل مما أوجبه العبد على نفسه ، ومن الناس من هو على عكس ذلك ، فإنه يتهاون بما أوجبه الله عليه ، فلا يؤدي الصلاة الواجبة مثلاً ، وإذا نذر شيأ في بعض الأوقات يسارع إلى الوفاء ، وليس إلا من الجهل ﴿ **وَيَخَافُونَ يَوْماً** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **كَانَ شَرُّهُ** ﴾ أي هوله وشدته وعذابه ﴿ **مُسْتَطِيراً** ﴾ فاشياً منتشراً غاية الانتشار ، بالغاً أقصى المبالغ ، قال في القاموس : المستطير الساطع المنتشر ، واستطار الفجر انتشر ، وهو أبلغ من طار ، وأطلق الشر على أهوال القيامة وشدائدها المنتشرة غاية الانتشار ، حتى ملأت السموات والأرض ، مع أنها عين حكمة وصواب ، لكونها مضرة بالنسبة إلى من تنزل عليه ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون خيره مستطيراً أيضاً ، فإن ليوم القيامة أموراً سارة كما أن له أموراً ضارة ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ** ﴾ أي على حب الطعام والحاجة إليه ، ونحوه (لَنْ تَنَالوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُونَ) أو عَلىٰ حب الله أي إطعاماً كائناً على حبه تعالى ، وهو الأنسب لما سيأتي من قوله (إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لوجْهِ اللهِ) واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين : الطاعة لأمر الله ، وإليه الإشارة بقوله (يُوْفُونَ بِالنَّذْرِ) والشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ) كناية عن الإحسان إلى المحتاجين ، والمواساة معهم بأي وجه كان ، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، إلا أن الإحسان بالطعام لما كان أشرف أنواع الإحسان ، عبَّر عن جنس الإحسان باسم هذا النوع ﴿ **مِسْكِيناً** ﴾ فقيراً لا شيء له ، عاجزاً عن الكسب ﴿ **وَيَتِيماً** ﴾ طفلاً لا أب له ﴿ **وَأَسِيراً** ﴾ الأسير : المأخوذ في الحرب أسراً من الأعداء ، وإن لم يكن مشدوداً بالقيد ، والمعنى وأسيراً مأخوذاً لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة أيَّ أسير كان فإنه عليه السلام كان يُؤْتَى بالأسير ، فيدفعه إلى بعض المسلمين ، فيقول : أحسن إليه ، لأنه يجب إطعام الأسير الكافر والإحسان إليه في دار الإسلام عند عامة العلماء ، إلى أن يرى الإمام رأيه فيه ، من قتلٍ أو من فداء ، أو استرقاق ، فإن القتل في حال لا ينافي وجوب الإطعام في حال أخرى ، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر ، وقد سمى رسول الله ﷺ الغريم أسيراً ، فقال « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » أي بالإمهال والوضع عنه ، بعضاً أو كلاً ، وهو كل الإحسان وفي الحديث (من أنظر معسراً ، أو وضع له أظلَّه الله تحت ظل عرشه ، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله)[٢] أي حماه من حرارة القيامة وقيل الزوجة من الأسراء في يد الأزواج لما قال عليه السلام (اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم)[٣] والعاني : الأسير ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ** ﴾ على إرادة

(١) هذا قول ضعيف لا يُعوَّل عليه ، فإن الخمر لا تحل بحال ، وقد ورد « ما جعل الله شفاء أمتي فيما حرَّم عليها » فالخمرة داء وليست بداواء فلا يجوز استعمالها على وجه التداوي ولا غيره ، فتنبَّه إلى ذلك والله يرعاك .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه ، وبنحوه عند مسلم ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٤٥٧ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي والدارمي في خطبة حجة الوداع من حديث عمرو بن الأحوص ، وانظر جمع الفوائد ١ / ٣٤٤ .

القول أي قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال ، إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة ..

وعن الصديقة رضي الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ، ثم تسأل الرسول ما قالوا ؟ فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ، ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله ، والوجه الجارحة عبر به عن الذات لكونه أشرف الأعضاء ﴿ **لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً** ﴾ على ذلك بالمال والنفس ، والأجر ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً ، والمجازاةُ : المكافأة وهي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها ﴿ **وَلاَ شُكُوراً** ﴾ أي شكراً باللسان ومدحاً ودعاء ، والجملة تقريرٌ وتأكيد لما قبلها ، فالإخلاص هو سرُّ القرب والقبول كما قال سبحانه (**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**) وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى (أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1] والحاصل أنَّ معاملة العبد المخلص ، إنما هي مع الله ، فلا حق له على الغير ، فكيف يريد ذلك ؟ ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً** ﴾ أي عذاب يوم ﴿ **عَبُوساً** ﴾ تعبس فيه الوجوه ، والعبوس : قطوب الوجه من ضيق الصدر ، أو معنى عبوساً يشبه الأسد العبوس في الشدة والضراوة ، والإقدام على إيصال الضرر بالعنف والحدة لكل من رآه ﴿ **قَمطَرِيراً** ﴾ شديد العبوس ، فلذلك نفعل بكم ما نفعل ، رجاء أن يقينا ربنا بذلك شره ، لا لإرادة مكافأتكم ، يقال : وجه قمطرير أي منقبض من شدة العبوس وفي الكشاف القمطرير العبوس يجمع بين عينيه ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ** ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم منه ، وفي الحديث الصحيح (قال رجل ـ لم يعمل حسنة قط ـ لأهله ، إذا مات فحرِّقوه ، ثم اذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم ، فأمر الله البَرَّ فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلتَ هذا ؟ قال من خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر الله له)[2] أي بسبب خشيته وقوله (لئن قَدَرَ الله) بتخفيف الدال من القدرة أي لئن تعلقت قدرته يوم البعث بعذاب جسمه ظن المسكين أنه بالفناء على الوجه المذكور يلتحق بالمحال وقدرةُ الله لا تتعلق بالمحال ﴿ **وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً** ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم ، نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب ﴿ **وَجَزَاهُمْ** ﴾ أعطى كل واحد منهم بطريق الأجر والعوض ﴿ **بِمَا صَبَرُوا** ﴾ أي بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ، واجتناب المحرَّمات ، وإيثار الأموال ، والصبر أربعة أنواع : الصبر على الصدمة الأولى ، وعلى أداء الفرائض ، وعلى اجتناب المحارم ، وعلى المصائب ﴿ **جَنَّةً** ﴾ مفعول ثان لجزاهم أي بستاناً

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزهد باب رقم ٤٦ وهو حديث قدسي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ، ومسلم في التوبة ، والنسائي في الجنائز ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٥ .

يأكلون منه ما شاؤا ﴿ وَحَرِيراً ﴾ يلبسونه ويتزينون به فالمراد بالجنة ليس دار السعادة ، المشتملة على جميع العطايا والكرامات ، بل البستان كما ذكرنا فذكرها لا يغني عن ذكر الملبس ، ثم إن البستان في مقابلة الإطعام ، والحرير في مقابلة الصبر على العري .

﴿ مُتَّكِئِينَ فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ عَلَى الأَرائِكِ ﴾ قَيَّد المجازاة بتلك الحال ، لأنها أرفه الأحوال والآرائكُ : هي السُّررُ في الحجال ، تكون في الجنة من الدر والياقوت ، منسوجة بقضبان الذهب والفضة وألوان الجواهر ، جمع أريكة كسفينة ، ولا تكون أريكة حتى تكون في حَجَلة ، وهي بالتحريك واحدة حجال العروس ، وهي بيتٌ مزين بالثياب والستور أي مستقرين متمكنين على الآرائك ﴿ لا يَرَوْنَ فيهَا شَمْساً ولاَ زَمْهَرِيراً ﴾ أي حرارة ولا برودة ، كما يرون في الدنيا ، لأن الحرارة غالبة على أرض العرب ، والبرودة على أرض العجم والروم ، والهواء في الجنة معتدل ، لا حار ولا بارد والزمهريرُ : شدة البرد ، وازمهر اليوم اشتد برده ، وقد ورد (هواء الجنة سجسج لا حر فيه ولا قر)[1] أي معتدل لا حر فيه ولا برد ، فإن القُرَّ بالضم البرد ، وفي الحديث عن النبي عليه السلام أنه قال (اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها في كل عام بنَفَسَيْنِ : نَفسٍ في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشدُّ ما تجدونَ من البرد من زمهرير جهنم ، وأشدُّ ما تجدون من الحر من حرها)[2] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها ﴾ الظلال جمع ظِل بالكسر ومعناه أن ظلال الأشجار في الجنة قربت من الأبرار ، من جوانبهم ، حتى صارت الأشجار بمنزلة المظلة عليهم ، وإن كان لا شمس فيها مؤذية ، لتظلهم منها ، ففيه بيان لزيادة نعيمهم ، وكمال راحتهم ، فإن الظل في الدنيا للراحة ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطوفُهَا تَذْليلاً ﴾ أي سُخِّرت ثمارها لمتناوليها ، وسهل أخذُها للقائم ، والقاعد ، والمضطجع ، تمام التسخير والتسهيل أي دانية عليهم ظلالها ، مذللة قطوفها ، وهو جمع قطف بكسر القاف بمعنى العنقود ﴿ وَيُطَافُ ﴾ أي ويدار من طاف بمعنى دار ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الأبرار إذا أرادوا الشرب ﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ أوعية جمع إناء نحو كساء وأكسية والأواني جمع الجمع كما في المفردات ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ لاآنية ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب ، وهو الكوز العظيم المدور الرأس ، لا أذن له ولا عروة فيسهل الشرب منه من كل موضع ولا يحتاج عند التناول إلى ادارته وهو مستعمل الآن في بلاد العرب ، ولَمَّا وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم ، وصف شرابهم ، وقدم عليه وصف الأواني التي يشرب بها ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ جمع قارورة ﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أي جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، ولين الفضة وبياضها ، يُرى مافي داخلها من خارجها ، والقوارير إنما تتكون

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود موقوفاً ، كذا في الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٠٠

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٧ .

من الزجاج لا من الفضة ، فليس المعنى أنها قوارير زجاجية متخذة من الفضة ، بل الحكم عليها بأنها قوارير وأنها من فضة من باب التشبيه البليغ ، لأنها في نفسها ليست زجاجاً ولا فضة ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، فثبت أن آنية الجنة مباينة في الحقيقة لقارورة الدنيا وفضتها ، ولأن قارورة الدنيا سريعة الانكسار والهلاك ، ومافي الجنة لا يقبل ذلك ، وفضة الدنيا كثيفة الجوهر لا لطافة فيها ، ومافي الجنة ليس كذلك ، وإن شارك كل واحد منهما الآخر في بعض الأوصاف ، فشبهت بالفضة في بياضها ونقائها وبقائها ، وبالقارورة في شفافيتها وصفائها فهي حقيقة مغايرة لهما جامعة لأوصافهما عليها وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أرض الجنة من فضة ، وأواني كل أرض تتخذ من تربة تلك الأرض ، ويستفاد من هذا الكلام وجه آخر لكون تلك الأكواب من فضة ومن قوارير ، وهو أن أصل القوارير في الدنيا الرمل ، وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة ، فكما أن الله قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية ، فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة صافية ، والغرض من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة إلى الرمل، فكما أنه لانسبة بين هذين الأصلين فكذا بين القارورتين كذا في حواشي ابن الشيخ ﴿**قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً**﴾ معنى تقدير الشاربين لها ، أنهم قدروها في أنفسهم ، وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة ، موافقة لشهواتهم ، فجاءت حسبما قدروها ، فإن منتهى ما يريد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء ، فقد ذكره الله بقوله (**كَانَتْ قَوَارِيرَا**) وأيضاً النقاء فقد ذكره الله بقوله (**من فضة**) وأيضاً الشكل والمقدار ذكره بقوله (**قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً**) أو قدروها بأعمالهم الحسنة فجاءت على حسبها ، وقيل : الضمير للطائفين بها أي قدروا شرابها على قدر استراوائهم وريهم ، من غير زيادة ولا نقصان ، وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته ، كما قال مجاهد : لا فيض فيها ولا غيض ، أي لا كثرة ولا قلة ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا** ﴾ أي في الجنة بسقي الله أو بسقي الطائفين بأمر الله ﴿ **كَأْساً** ﴾ خمراً ﴿ **كَانَ مِزَاجُهَا** ﴾ ما تمزج به وتخلط ﴿ **زَنْجَبِيلاً** ﴾ أي ماء يشبه الزنجبيل في الطعم ، والشراب الممزوج به أطيب ما يستطيب العرب ، وألذ ما يستلذ به ، لأنه يحذو اللسان ، ويهضم الطعام كما في عين المعاني ﴿ **عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً** ﴾ لسلاسة انحدارها في الحَلْق، وسهولة مساغها يُقال : شراب سلسل ، وسلسال ، وسلسبيل : سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ، قال ابن الشيخ : جعل الله مزاج شراب الأبرار أولاً كافوراً ، وثانياً زنجبيلاً ، لأن المقصود الأهم حال الدخول البرودة لهجوم العطش عليهم من حر العرصات ، وعبور الصراط وبعد استيفاء حظوظهم من أنواع نعيمها ومطعوماتها تميل طباعهم إلى الأشربة التي تهيج الاشتهاء وتعيين على تهنئة ما تناولوه من المطعومات ، ويلتذ الطبع بشربها فلعل الوجه في تأخير ذكر ما يمزج به الزنجبيل عما يمزج به الكافور ذلك ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي يدور

على الأبرار ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ فإنهم أخف في الخدمة ﴿ مُخَلَّدُونَ ﴾ أي دائمون على ما هم عليه ، من الطراوة والبهاء ، لا يتغيرون أبداً كأنهم روحانيون لا جسم لهم ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يا من شأنه الرؤية ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً ﴾ تلألأ الشيء لمع لمعان اللؤلؤ ﴿ مَنْثُوراً ﴾ متفرقاً لحسنهم وصفاء ألوانهم ، وإشراق وجوههم ، وتفرقهم في مجلس الخدمة عند اشتغالهم بأنواع الخدمة ، وطوافهم على المخدومين ، مسارعين في الخدمة ، ولو اصطفوا على وتيرة واحدة لشبهوا اللؤلؤ المنظوم ، واللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر من المنظوم ، لوقوع شعاع بعضه على بعض ، لغاية بياضه وبريقه ، وشبهت الحور العين باللؤلؤ المكنون أي المخزون لأنهن لا ينتشرون انتشار الولدان ، بل هن حور مقصورات في الخيام قال في كشف الأسرار : ولدان مخلدون أي غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين انتهى ، وقيل : إنهم ولدان الكفار يدخلون الجنة خدماً لأهلها ، والدليل أنهم سموا ولداناً ولا ولادة في الجنة انتهى ، وفي اللباب اختلفوا في الولدان فقيل : أنشأهم الله لأهل الجنة من غير ولادة ، لأن الجنة لا ولادة فيها ، وهم الذين قال الله فيهم (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) أي مخزون مصون لم تمسه الأيدي ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه) وروي أن الحسن رحمه الله لما تلا هذه الآية قال قالوا : يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ المكنون ، فكيف المخدوم ؟ فقال : فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وروي عن علي رضي الله عنه والحسن البصري رضي الله عنه أن الولدان هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم ، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة ، وعن الحسن رحمه الله لم تكن لهم حسنات يجازون بها ولا سيئات يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ المعنى أن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ كثيراً لا يوصف ، وهو ما يتنعم به ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ واسعاً وهنيئاً كما في الحديث (أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه)[1] والآية من باب الترقي والتعميم يعني أن هناك أموراً أخر أعلى وأعظم من القدر المذكور ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ﴾ أي فوقهم وعلى ظهورهم ثياب سندس ، وهو الديباج الرقيق الفاخر الحسن ، وخضر جمع أخضر صفة ثياب كقوله (وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً) فالضمير للأبرار لأن المقام مقام تعداد نعيمهم وكرامتهم ، فالمناسب أن تكون الثياب الموصوفة لهم لا للولدان ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ بالرفع عطفاً على ثياب أي ثياب استبرق ، بمعنى الغليظ الذي له بريق ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أي ويحلون ، وأساور جمع أسورة في جمع سوار ،

(١) الحديث ذكره ابن الأثير في جامع الأصول ١٠ / ٥٣٣ قال : وفي رواية « من ينظر في ملكه ألفي عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه » وهو حديث قريب من رواية الترمذي .

وسوار المرأة ما تتجمل به ، وكان الملوك في الزمان الأول يتحلون بها ويسورون من يكرمونه ولا ينافي هذه الآية مافي الكهف والحج من قوله (مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذهَب) لإمكان الجمع بين السوار والذهب والسوار الفضة في أيديهم كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحلي ، وما أحسن المعصم إذ يكون فيه سواران من جنسين وزيادة ، كالذهب والفضة والؤلؤ ، وأيضاً لإمكان المعاقبة في الأوقات تارة يلبسون الذهب ، وأخرى يلبسون الفضة ، ﴿ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً** ﴾ هوما يشرب ﴿ **طَهُوراً** ﴾ هذا الشراب الطهور نوع آخر ، يفوق النوعين السالفين ، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ، ووصفه بالطهورية لأنه يطهِّر باطنهم عن الأخلاق الذميمة ، والأشياء المؤذية ، كالغش والغل ، والحسد ، وينزع ما كان في أجوافهم من قذر وأذى قال بعضهم : صليتُ خلف سهل بن عبد الله العتة ، فقرأ قوله تعالى (**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**) فجعل يحرك فمه كأنه يمصُّ ، فلما فرغ من صلاته قيل له : أتقرأ أم تشرب ؟ قال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كالتي عند شربه ما قرأته ﴿ **إِنَّ هَذَا** ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم إن هذا الذي ترونه من فنون الكرامات ، ويجوز أن يكون خطاباً من الله في الدنيا للأبرار ، أي إن هذا الذي ذكر من أنواع العطايا ﴿ **كَانَ لَكُمْ جَزَاءً** ﴾ عوضاً بمقابلة أعمالكم الحسنة ، ﴿ **وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً** ﴾ مرضياً مقبولاً لخلوص نيتكم ، فيزداد بذلك فرحهم وسرورهم ، كما أن المعاقب يزداد غمه إذا قيل له هذا جزاء عملك الرديء ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً** ﴾ أي مفرقاً منجَّماً لحكم بالغة مقتضية له ، والآية رد على المشركين ، فإنهم يقولون إن ذلك كهانة وسحر ، وأنا الملك الحق أقول على سبيل التأكيد : إن ذلك وحي حق ، وتنزيل مصدق من عندي ، فلا تكترث بطعنهم ، فإنك أنت النبي الصادق المصدَّق ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ بتأخير نصرتك على الكافرين فإن له عاقبة حميدة ولا تستعجل في أمر الانتقام فإن الأمور مرهونة بأوقاتهاوكل آت قريب ﴿ **وَ لاَ تُطِعْ مِنْهُمْ** ﴾ أي من الكفار ﴿**آثِماً أَوْ كَفُوراً**﴾ «أَوْ» لأحد الشيئين فإذا قلت في النهي: لاتكلم زيداً أو عمراً التقدير لا تكلم أحدهما ، والأحد عام لكل منهما فهو في المعنى : لا تكلم واحداً منهماً ، فمآل المعنى في الآية ولا تطع كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ، ومن الغالي في الكفر الداعي إليه ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً** ﴾ أول النهار ﴿ **وَأَصِيلاً** ﴾ أي عشياً وهو آخر النهار ، أي داوم على ذكره في جميع الأوقات ، فأريد بقوله (بُكْرَةً وأصِيلاً) الدوام ، ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ** ﴾ وفي بعض الليل فصلٍّ له بعد العِشَاء وتقديم الظرف للاهتمام ، لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص ، وأفضل الأعمال أشقها وأخلصها من الرياء فاستحقت الاهتمام بشأنها ، وقدم وقتها لذلك ﴿ **وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** ﴾ أي صلِّ التهجد ، لأنه كان واجباً عليه في طائفة طويلة من الليل ﴿ **انَّ هَؤُلاَءِ** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ** ﴾ يعني الدنيا وينهمكون في لذاتها الذاتية ، وهو الحامل لهم على الكفر والإعراض عن الاتباع ﴿ **وَيَذَرُونَ**

يتركون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أي أمامهم لا يستعدون له ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ لا يعبأون به ووصفه بالثقل مع أنه من صفات الأعيان ، لتشبيه شدته وهوله بثقل الحمل الثقيل ، وفي الآية وعيد لأهل الدنيا ونعيمها ، خصوصاً لأهل الظلم والرشوة ﴿ نَحْنُ ﴾ لاغيرنا ﴿ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ من نطفة ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، ليتمكنوا بذلك من القيام ، والقعود ، والأخذ ، والدفع والحركة ، وحق الخالق المنعم أن يُشكر ولا يُكفر ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ تبديلهم ﴿ بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي بدلناهم بأمثالهم بعد إهلاكهم ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ بديعاً لا ريب فيه وهو البعث وقيل : المعنى وإذا شئنا بدّلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى (يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) ففيه ترهيب فالمثليَّةُ باعتبار الصورة ، ولا ينافيها الغيريه باعتبار العمل والطاعة ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي عظة مذكرة لما لابد منه في تحصيل السعادة الأبدية ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي فمن شاء أن يتخذ وسيلة توصله إلى ثوابه اتخذه ، أي تقرب إليه بالعمل أو فمن شاء النجاة من ثقل ذلك اليوم وشدته ، اختار سبيلاً مقرباً إلى مرضاة ربه وهو الطاعة ﴿ وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ تحقيق الحق وبيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل ، والمعنى وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم ، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب ، وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله تعالى ، غايةُ ما في الباب أن المشيئة ليست من الأفعال الاختيارية للعبد ، بل هي متوقفة على أن يشاء الله وإياها ، وذلك لا ينافي كون الفعل الذي تعلقت به مشيئة العبد اختيارياً له واقعاً بمشيئته ، وإن لم تكن مشيئته مستقلة فيه ، ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أي إنه تعالى مبالغ في العلم والحكمة ، فيفعل ما يستاهله كل أحد ، فلا يشاءلهم إلا ما يستدعيه علمه ، وتقتضيه حكمته ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي متناهياً في الإيلام ، ختم الله السورة بالعذاب المعدّ يوم البعث والحشر للكفرة الظالمين ، ففيه حسن الخاتمة لموافقته الفاتحة على مالا يخفى على أهل النظر والفهم .

تمت سورة الإنسان بعون ذي الإحسان

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . والنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾ الواو للقسم ، والمرسلات جمع مرسلة بمعنى طائفة مرسلة ، وعرفاً بمعنى متتابعة شبهت الملائكة المرسلون في تتابعهم بشعر عرف الفرس أو جاريات بعضها إثر بعض كعرف الفرس ، وعصفت الريح اشتدت وعصفاً مصدر مؤكد ، وكذا نَشْراً وفَرْقاً ، والفاء للدلالة على اتصال سرعة جريهن ، في نزولهن وهبوطهن ، بالإرسال من غير مهلة أقسم الله بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره بنحو التدبير ، وإيصال الأرزاق ، والتصرف في الأمطار والرياح ، وكتابة أعمال العباد بالليل والنهار ، وقبض الأرواح ، وبطوائف أخرى نشرن أجنحتهن في الجو ، عند انحطاطهن بالوحي ، أو نشرن الشرائع ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء ﴿ عُذْراً ﴾ لأهل الحق أي معذرة لهم في الدنيا والآخرة لاتباعهم الحق ﴿ أَوْ نُذْراً ﴾ لأهل الباطل لعدم اتباعهم الحق ، وفي كشف الأسرار لأجل الإعذار من الله إلى خلقه ، لئلا يكون لأحد حجة ، فيقول لم يأتني رسول ، ولأجل إنذارهم من عذاب الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (عُذْراً أَوْ نُذْراً) قال يقول الله : يا بني آدم إنما أمرضكم لأذكِّركم وأمحص به ذنوبكم ، وأكفر به خطاياكم ، وربكم أعلم أن ذلك المرض يشتد عليكم ، وأنا في ذلك معتذر إليكم ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ جواب للقسم أي إن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائنٌ لا محالة ، والموعود هو مجيء القيامة ، لأن المذكور عقيب هذه الآية علامات يوم القيامة ، وقال الكلبي : المراد إن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ، ثم أخبر عن ظهور آثار يوم القيامة ، وحصول دلائلها ، لأهل الشقاوة بقوله ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ محيت ومحقت ذواتها ، فإن الطمس محو الأثر الدال على الشيء وهو الموافق لقوله (وإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) أو ذهب بنورها ، والأول أولى لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار ، وجواب « إذا » محذوف والتقديرُ : فإذا طمست النجوم ، وقع ما توعدون ، أو بعثتم أو جوزيتم على أعمالكم وحذف لدلالة قوله (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) عليه ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ صدعت من خوف الرحمن ، وشققت ووقعت فيها الفروج ، التي نفاها بقوله (وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ) وفتحت فكانت أبواباً والفَرْجُ : الشَّقُّ وكل مشقوق فرج ﴿ وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف ، ونحوه (وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً) ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أي عُيِّن لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ، وتبين وقت حضورهم لهم من جمع علامات القيامة ، فيقال لهم عند حصوله احضروا للشهادة فقد جاء وقتها ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أي لأي وقت أخرت الأمور

المتعلقة بالرسل أي بجمعهم وإحضارهم كما قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ) والمراد تعظيم ذلك اليوم ، والتعجيب من هوله ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ويقضى بالحقوق ، ويحكم بين المحسن والمسيء ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾أيْ أيُّ شيء جعلك دارياً وعالماً ما هو ؟ وما كنهه ؟ إذا لم تر مثله ، وكذا لم ير أحد قبلك شدته حتى تسمع منه ، فوضع موضع الضمير لزيادة التفظيع والتهويل، على أن ما خبر ويوم الفصل مبتدأ لا بالعكس كما اختاره سيبويه لأن محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً هائلاً لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية «ما» لابيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيوم يفصل فيه الرحمن بين الخلائق ، أي الويل والهلاك ثابت فيه لهم ، وأصله أهلكه الله إهلاكاً ، وهلك هو هلاكاً ، وقال بعضهم : الويل واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لذابت من حرّه ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم ممن هلكوا قبل بعثة سيد المرسلين عليه السلام ، وذلك لتكذيبهم بيوم الفصل ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ وهم الذين كانوا بعد بعثته عليه السلام من نظرائهم السالكين لمسلكهم في الكفر والتكذيب ، أي نجعلهم تابعين للأولين في الإهلاك ، فليس الكلام معطوفاً على ما قبله ، لأن العطف يوجب أن يكون المعنى أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين في الإهلاك ، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، فلذلك رفع « نتبع » على أن يكون مقطوعاً عما قبله ويستأنف به الكلام على وجه الإخبار عما سيقع في المستقبل ، وفيه وعيدٌ لكفار مكة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي فعلاً مثل ذلك الفعل الذي أخبر به ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم أي سنتنا جارية على ذلك ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بآيات الله وأنبيائه ، وليس فيه تكرار لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا ، وفي برهان القرآن : كررها في هذه السورة عشر مرات ، لأن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكراراً مستهجناً ، ولو لم يكرر كان متوعداً على بعض دون بعض . وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ، كما أن عادتهم الإقتصار والإيجاز ، ولأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب ادعى إلى إدراك البغية من الإيجاز ، وقد يجد كل أحد في نفسه من تأثير التكرار مالا خفاء به ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ ﴾ أي ألم نُحدثكم ونوجدكم بقدرتنا ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ من نطفة قذرة مهينة ؟ ومهانته قلّته وخسته ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الماء ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ وهو الرَّحم أي وعاء في بطن الأم ، فالقرار موضع الاستقرار ، والمكينُ : الحصين أي جعلنا ذلك الماء في مقر حصين ، محفوظاً سالماً من التعرض له ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أي مقدار معلوم من الوقت الذي قدّره الله للولادة وهو تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي فقدّرناه والمراد تقدير خلقه وجوارحه ، وأعضائه وألوانه ، ومدة حمله وحياته ، ويدل على كون قَدَر المخفف لغة بمعنى قدَّر المشدد

قراءة نافع والكساني بالتشديد ﴿ فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ أي نحن بمعنى المقدرون وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود رضي الله عنه ، ويجوز أن يكون فقدرنا من القدرة ، بمعنى فقدرنا على ذلك ، أي على خلقه وتصويره ، كيف شئنا وأردنا من مثل تلك المادة الحقيرة ، ويعضده قوله (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) حيث خلقناه بقدرتنا ، وجعلناه على أحسن الصور والهيئات ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي على الإعادة ، قال أبو الليث : أي الشدة من العذاب لمن يرى الخلق الأول فأنكر الخلق الثاني ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ﴾ عرَّفهم أولاً نِعَمهُ الأنفسية، لأنها كالأصل ، ثم أتبعها النعم الآفاقية ، والكِفاتُ: اسم ما يكفت أي يضم ويُجمع ، من كَفَت الشيء إذا ضمه وجمعه ، نحو الخمر جماع كل إثم ، وكفاتاً مفعول ثان لنجعل لأنه بمعنى ألم نصيرها كُفَاتاً تكفت وتضم ﴿ أَحْيَاءً ﴾ كثيرة على ظهرها ﴿ وَأَمْوَاتاً ﴾ غير محصورة في بطنها ، ولهذا كانوا يسمون الأرض أماً تشبيهاً لها بالأم ، في ضمها للناس إلى نفسها ، أحياء وأمواتاً ، كالأم التي تضم أولادها إليها .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ الشامخ العالي المرتفع أي طوالاً شواهق ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ﴾ أي عذباً حلواً ، بأن خلقنا فيها أنهاراً ومنابع فجعلناه سقيالكم ، ومكناكم من شربه وقال أبو الليث : ماء عذباً من السماء ومن الأرض ﴿ وَيْلٌ ﴾ واد في جهنم ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة ﴿ انْطَلِقُوا ﴾أي يقال يومئذ للمكذبين بطريق التوبيخ والتقريع : انطلقوا واذهبوا ، والقائلون خزنة النار وزبانية جهنم ﴿ إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا من العذاب ﴿ انْطَلِقُوا ﴾ خصوصاً ﴿ إِلَى ظِلٍّ ﴾ أي إلى ظل دخان نار جهنم ، كقوله تعالى (وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ) أي دخان غليظ أسود ﴿ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ جمع شعبة يتشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم ، تراه يتفرق ذوائب ، وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كسرادق ، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب ، فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، والمؤمنون في ظل العرش والمؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة في الدماغ المشوشة للنفس عن ادراك الحقائق والقوة الغضبية السبعية التي عن يساره المانعة للنفس عن الاتصاف بالأوصاف الإلهية ، ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبه عن يساره فجميع ما يصدر عن الإنسان من العقائد الفاسدة والأعمال الباطلة لا ينشأ إلا من هذه القوى الثلاث الواهمة والغضبية والشهوية ، فهذه الثلاث لما كانت منبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان تشعبت شعب العذاب على حسبها ﴿ لاَ ظَلِيلٍ ﴾ أي لا يظل من الحر ، وتوصيف الظل بأنه لا يظل من حر ذلك اليوم ، وهو حر النار ، للدلالة على أن تسمية ما يغشاهم من العذاب بالظل ، استهزاءً بهم ، فإن شأن الظل أن يدفع عن الإنسان مقاساة شدة الحر ، وأنه

ينفعه ببرده ونسيمه ، والذي أمروا بالانطلاق اليه يضاعف عليهم ما هم فيه من الحر والعذاب ، فضلاً عن أن يستريحوا ببرده ﴿ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أي غير مغن لهم من حر اللهب ، كما يغني ظل الدنيا من الحر ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي الشعب لأنها هي المذكورة لا النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أي كل شررة كقصر من القصور في عظمها ، جمع شررة ، وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرقاً كالنجوم والقصرُ هو البناء العالي ، ووصف به الجمع باعتبار كل واحد من آحاده ، والقصر أيضاً الحطب الجزل ، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية : هي الخشبُ العِظام المقطَّعة ، وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع ، ندخرها للشتاء ، فكنا نسميها القصر ، تأمل في أن ناراً دخانها وشررها هكذا فما بالك بحال أهلها ؟ ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ أي الشرر ﴿ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ جمع جمل ، كحجارة في جمع حجر ، والتأنيثُ لتأنيث الجمع ، والجملُ ذكر الإبل ، والناقة أنثاه ، وإذا لم يكن في جماعة الإبل أنثى يقال : جِمالة بالكسر والمعنى : كأن كل شرر جمل أصفر ، فالأول هو التشبيه بالقصر تشبيه في العظم ، والثاني وهو التشبيه بالجمل في اللون والكثرة ، وفي المفردات قوله تعالى (كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ) قيل : جمع أصفر ، وقيل : بل أراد به الصفر المخرج من المعادن ، ومنه قيل للنحاس صفر ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأهوال يوم القيامة ، وأحوال العصاة فيه ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار ، أي هذا يوم لا ينطقون فيه بشيء ، لما أن السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك ، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل ، له مواطن ينطقون في وقت دون وقت ، فعبر عن كل وقت بيوم ، أو لا ينطقون بشيء ينفعهم ، قال القاشاني : لا ينطقون لفقدان آلات النطق ، وعدم الإذن فيه بالختم على الأفواه ، وقال بعضهم : لا ينطقون من شدة تحيرهم وقوة دهشتهم ، وقال أبو عثمان : اسكتهم هيبة الربوبية ، وحياء الذنوب ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يكون لهم إذن واعتذار إذ لو كان لهم عذر لم يمنعوا ، وأيُّ عذر لمن أعرض عن ربِّه ، وكفر بأياديه ونعمه ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذه الأخبار وبما جاء من الحق الواقع البتة ﴿ هَذَا ﴾ اليوم الذي شاهدتم أهواله وأحواله ﴿ يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ بين الحق والباطل ﴿ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ يا أمة محمد ﴿ وَالأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم ، وهذا تقرير بيان للفصل ، إذ الفصل بين المحق والمبطل لا يتحقق إلا بجمع الكل ، فلابد من إحضارهم جميعاً ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ حيلة تدفعون بها عنكم العذاب ، والظاهر أن هذا الخطاب من الله للكفار ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أصله فكيدوني حذف ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة وهو أمر من كاد يكيد كيداً ، وهو المكر والاحتيال والخديعة ، والمعنى احتالوا لأنفسكم ، وتخلصوا من عذابي إن قدرتم ، فإن جميع من كنتم تقلدونهم ، وتقتدون بهم حاضرون .

وهو أمر إهانة ، وخطاب تعجيز وتقريع لهم ، على كيدهم للمؤمنين في الدنيا ، وتخجيل لهم بأنهم كانوا في الدنيا يدفعون الحقوق عن أنفسهم ، ويبطلون حقوق الناس ، بضروب الحِيل والمكايد ،

والتلبيسات ، فخاطبهم الله بقوله (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) لما ذكر من التقريع والتخجيل ، لإظهار عجزهم عن الكيد ﴿ وَيْلٌ ﴾ غم وغصة ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم في الخلاص من العذاب ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ من الكفر والتكذيب ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أي في ظلال ظليلة على الحقيقة ، كما يدل عليه الإطلاق ، قال بعضهم : الظاهر أنه إخبار عن كونهم تحت أشجار مثمرة لهم في جناتهم ، يقول الفقير : الأظهر أن كونهم في ظلال ، كناية عن راحتهم العظمى ، لأن الظل للراحة ، وكذا قوله تعالى (وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً) ونحوه ، وإنما ذكر الله الظل ، تشويقاً للقلوب ، لأن من البلاد ما هي حارة ، قليلة المياه ، والأشجار ، والظلال ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ عذبة دافعة عنهم العطش ﴿ وَفَوَاكِهَ ﴾ أي ألوان الفاكهة ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ويتمنون ، فيتناولونها لا عن جوع ، بل عن شهوة وتلذذ ، والحاصل أنهم مستقرون في فنون الترفه ، وأنواع التنعم ، خلاف ما عليه المكذبون ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ مقدر بقول أي مقولاً لهم كلوا من نعم الجنة وثمراتها ، واشربوا من مائها وشرابها ، أكلاً وشرباً هنيئاً ، بلا داءٍ ولا تخمة ، بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة ، خصوصاً الصيام ، وهذا أمر إكرام إظهاراً للرضى عنهم ، والمحبة لهم ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ الجزاء العظيم ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي في عقائدهم وأعمالهم ، لا جزاء أدنى منه ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل ، وهم بقوا في العذاب المخلد الوبيل ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا ﴾ تمتعاً ﴿ قَلِيلاً ﴾ أو زماناً قليلاً يعني عيشوا مدة قليلة إلى منتهى آجالكم ، لأن زمان الدنيا قليل كمتاعها ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ كافرون مستحقون للعذاب ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي للمكذبين ﴿ ارْكَعُوا ﴾ أي أطيعوا الله واخشعوا ، وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه ، وارفضوا هذا الاستكبار لأن الركوع والانحناء لأحد تواضع له وتعظيم ، والسجود أعظم منه في التواضع والتعظيم ، ذلك قالوا إن السجود لغير الله كفر ، إن كان للعبادة ، وخطر عظيم إن كان للتعظيم ﴿ لاَيَرْكَعُونَ ﴾ لا يخشون ولا يقبلون ذلك ، ويصُرون على ما هم عيه من الاستكبار ، وقيل : إذا أمروا بالصلاة أو بالركوع لا يفعلون ، إذ روي أنه نزل حين أمر رسول الله عليه السلام ثقيفاً بالصلاة ، فقالوا أنا لانخرُّ ولا نجبي أي لا نقوم قيام الراكع ، فإنها سبة علينا أي عار علينا ، فقال عليه السلام (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود) وكانوا في الجاهلية يسجدون للأصنام ، ولا يركعون لها ، فصار الركوع من أعلام صلاة المسلمين لله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ هلاك ودمار للمكذبين ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ أي خبر ﴿ بَعْدَهُ ﴾ أي بعد القرآن ، الناطق بأحاديث الدارين على نمط بديع معجز ، مؤسس على حجج قاطعة ، وبراهين ساطعة ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به أي القرآن الجامع لجميع الأحاديث ؟ أي فإذا لم يؤمنوا به فبأي كتاب

يؤمنون ؟ ختم السورة بالتعجيب من الكفار ، لأن الاستفهام للتعجيب ، وبيَّن أنهم في أقصى درجات التمرد والعناد ، حيث لم ينقادوا لمثل هذا البرهان الباهر ، والدليل القاطع ، على حقية الدين القويم ، من حيث كونه في أرفع درجات الفصاحة والبلاغة ، وفي أقصى درجات الإعجاز !!

تم بعون الله تفسير سورة المرسلات

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ ﴾ أصله عن ما أدغمت النون في الميم لاشتراكهما في الغنة ، فصار عمَّا ثم حذف الألف كما في لِمَ وبِم فإنها في الأصل لما وبما إمَّا فرقاً بين الاستفهامية وغيرها ، أو قصداً للخفة لكثرة استعمالها وما فيها من الإبهام للإيذان بفخامته شأن المسئول عنه وهوله ، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة فالاستفهام ليس على حقيقته ، بل لمجرد التفخيم والمعنى عن أي شيء عظيم ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي أهل مكة ، وكانوا يتساءلون عن البعث والحشر ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاء ﴿ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ النبأ : الخبرُ الذي له شأن وخطر ، كأنه قيل : عن أي شيء يتساءلون ؟ هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب ، عن النبأ العظيم ، الخارج عن دائرة علوم الخلق ، على منهاج قوله تعالى (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) والفائدة أن هذا الأسلوب أقرب إلى التفهم والإيضاح ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ وصف للنبأ بعد وصفه بالعظيم ، تأكيداً لخطره ، أي هم راسخون في الاختلاف فيه ، فمن جازم باستحالته يقول : (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) ومن مقر يزعم أن آلهته تشفع له كما قالوا (هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) ومن شاك يقول (مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ردع ووعيد أي ليس أمر البعث مما ينكر أو يشك فيه ، بحيث يتساءل عنه ، سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق لا دافع له ، واقع لا ريب فيه ، مقطوع لا شك فيه ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للردع والوعيد ، للمبالغة في التأكيد والتشديد ، والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حلَّ بهم العذاب والنكال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه ، بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو البعث ، لا القرآن أو نبوة النبي عليه السلام ، والهمزة للتقرير ، والمهادُ : البساطُ والفراش أي ألم نجعل الأرض بساطاً ممهوداً ، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ؟ وجمعه لأختلاف أماكن الأرض ، من القرى والبلاد وغيرها ، وللتصرف فيها بأن جعل بعضها مزارع ، وبعضها مساكن إلى غير ذلك ، وقرىء مهداً على تشبيهها بمهد الصبي ، وهو ما يمهد له فينام عليه ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ المراد بجعلها أوتاداً لها : إرساؤها بها ، لتسكن ولا تميد بأهلها ، إذ كانت تميد على الماء ، كما يُرْسى البيتُ بالأوتاد ، فهو من باب التشبيه البليغ ، جمع وتد وهو ما يوتد ويحكم به المتزلزل المتحرك من اللوح وغيره ، فإن قيل : أليست إرادة الله وقدرته كافيتين في التثبيت ؟ أجيب بأنه نعم إلا أنه مسبب الأسباب وذلك من كمال القدرة ، ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ ﴾ عطف على المضارع المنفي بلم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾

أي حال كونكم أصنافاً ، ذكراً وأنثى ليسكن كلٌّ من الصنفين إلى الآخر ، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش ، ويتسنى التناسل ، والزوجُ يقال لكل واحد من القرينين المزدوجين ، حيواناً أو غيره ، كالخف والنعل ولا يقال للإثنين زوج بل زوجان ، وقال صاحب القاموس: يقال للإثنين هما زوجان وهما زوج انتهى ولعله من قبيل الاكتفاء بأحد الشِّقَيْن عن الآخر ، وزوجة للمرأة لغة رديئة لقوله تعالى (**وَيَا آدمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ**) ويقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج ﴿ **وَجَعَلْنَا** ﴾ صيرنا ﴿ **نَوْمَكُمْ** ﴾ وهو استرخاء أعصاب الدماغ ، برطوبات البخار الصاعد إليه ﴿ **سُبَاتاً** ﴾ السبتُ : القطعُ ومنه سمي يوم السبت لأنه يومٌ ينقطع فيه بنو إسرائيل عن العمل ، والنوم أحد الوفاتين كما قال تعالى (**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**) وذلك لما بينهما من المشاركة التامة في انقطاع أحكام الحياة أي وجعلنا نومكم نوعاً من الموت ، الذي ينقطع ولا يدوم ، إذلا ينقطع ضوء الروح إلا عن ظاهر البدن ، وبهذا الاعتبار قيل له أخو الموت ، والنوم بمقدار الحاجة نعمة جليلة ، وقيل (سُبَاتاً) أي قطعاً عن الإحساس والحركة ، لإراحة القوى الحيوانية وازاحة كلالها والأول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ** ﴾ الذي يقع فيه النوم ﴿ **لِبَاساً** ﴾ يقال لبس الثوب استتر به ، وجعل اللباس لكل ما يغطّي الإنسان عن قبيح ، فجعل الزوج لزوجها لباساً من حيث أنها تمنعه وتصده عن تعاطي القبيح ، وأيضاً من حيث الاشتمال قال تعالى (**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**) وجعل التقوى لباساً على طريق التمثيل والتشبيه ، وكذا جعل الخوف والجوع لباساً على التمثيل والتشبيه تصويراً له وذلك بحسب ما يقولون : تدرَّع فلان الفقر ، ولبس الجوع ، والمعنى لباساً يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس كما قال الشاعر :

اللَّيْلُ لِلعَاشِقِينَ سِتْرٌ * يَالَيْتَ أَوْقَاتَهُ تَدُومُ

فهو تعالى جعل الليل محلاً للنوم ، الذي جعل موتاً ، كما جعل النهار محلاً لليقظة المعبر عنها بالحياة في قوله تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً** ﴾ أي وقت عيش أي حياة تبعثون فيه من نومكم ، الذي هو أخو الموت كما في قوله تعالى (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ، والنَّوْمَ سُبَاتاً ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً**) ولم يقل وجعل يقظتكم حياة لتتم المطابقة بينه وبين قوله (**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً**) بل عبر عن اليقظة بالنهار ، لكونه مستلزماً لها غالباً ، والمراعاة مطابقة (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً**) والمعاشُ : مصدر عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ، وعلى هذا لابد من تقدير المضاف أي وقت معاش ﴿ **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً** ﴾ جمع شديد ، أي سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور ، وقال أبو الليث : غلاظاً غلظ كل سماء مسيرة خمسائة عام ، والتعبير عن خلقها بالبناء مبني على

تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ أنشأنا وأبدعنا ﴿ سِرَاجاً ﴾ هو الشمس قال الراغب : السراجُ الزاهر بفتيلة ودهن ، ويعبر به عن كل شيء مضيء ، ويقال للسراج : مصباح ﴿ وَهَّاجاً ﴾ وقَّاداً متلألئاً من وهجت النار إذا أضاءت ، وبالغاً في الحرارة من الوهج ، وهو الحر ، وهو ما قال بعض المفسرين سراجاً وهاجاً أي مضيئاً جامعاً بين النور والحرارة ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ من السحائب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، والمعصرات اسم فاعل يقال أُحصد الزرع إذا حان له أن يُحصد ، وأعصرت الجارية أي حان لها أن تعصر فتحيض ﴿ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾ أي منصباً بكثرة ، والمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به ، يقال ثجَّ الماء أي سال بكثرة وانصب ، وثجه غيره أي أساله وصبه فهو لازم ومتعد ومن الثاني قوله عليه السلام (أفضل الحج : العجُّ ، والثجُّ)(١) أي رفع الصوت بالتلبية ، وصب دماء الهدي ، ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى (**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**) فإن المطر إن كان من السماء يكون الإنزال منها إلى السحاب ، ومنه إلى الأرض ، وإلا فإنزاله منها باعتبار تكونه بأسباب سماوية ، من جملتها حرارة الشمس ، فإنها تثير وتُصعِّد الأجزاء المائية من أعماق الأرض الرطبة ، أو من البحار والأنهار إلى جو الهواء ، فتنعقد سحاباً فتمطر ، فالإنزال من المعصرات حقيقة واقعية ، ومن السماء مجاز باعتبار السببية ، والله مسبب الأسباب ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ حَبّاً ﴾ كثيراً يكون قوتاً للإنسان ، كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿ وَنَبَاتاً ﴾ كثيراً يعتلف به أي يكون علفاً للحيوان كالتبن والحشيش كما قال تعالى (**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**) ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ ليتفكه بها الإنسان ، والجنة في الأصل هي الشجر المتكاثف ، المظلل بالتفاف أغصانه ، قال الفراء « الجنة مافيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم ، والمراد هنا هو الأشجار لا الأرض ﴿ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفة تداخل بعضها في بعض ، وهذا من محسنات الجنان ، كما ترى في بساتين الدنيا .

قال ابن الشيخ : قدم الحب لأنه هو الأصل في الغذاء ، وثنىَّ بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه ، وأخرت الجنات لانعدام الحاجة الضرورية إلى الفواكه ، واعلم أن فيما ذكر من أفعاله تعالى ، دلالة على صحة البعث ، من وجوه ثلاثة : **الأول** : باعتبار قدرته تعالى فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ، وقانون ينتحيه ، كان على الإعادة أقدر وأقوى ، **والثاني** : باعتبارعلمه وحكمته فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائق مستتبع لغايات جليلة ، ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل أن يفنيها بالكلية ولا يجعل لها عاقبة باقية ، **والثالث** : باعتبار نفس الفعل فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت ، يشاهدونها كل يوم ، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة ،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي في السنن ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٨ .

يعاينونه كل حين ، كأنه قيل : ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية ، والأنفسية ، الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث ، الموجبة للإيمان به ؟ فمالكم تخوضون فيه إنكاراً وتتساءلون عنه استهزاء ؟ ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ** ﴾ أي فصل الله بين الخلائق ، وبين السعداء والأشقياء ﴿ **كَانَ** ﴾ في علمه وتقديره الأزلي﴿ **مِيقَاتاً** ﴾ وميعاداً لبعث الأولين والآخرين ، وما يترتب عليه من الجزاء ، ثواباً وعقاباً ، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر ، ﴿ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ بيانٌ للوقت مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ، والنفخُ نفخ الريح في الشيء ، في النشأة الأولى ، والصورُ القرنُ ، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام والمعنى يوم ينفخ في الصور نفخة ثانية ، للبعث ، حتى تتصل الأرواح بالأجساد ، وترجع بها إلى الحياة ﴿ **فَتَأْتُونَ** ﴾ خطاب عام أي فتبعثون من قبوركم ، فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلاً ﴿ **أَفْوَاجاً** ﴾ جمع فوج وهو الجماعة أي حال كونكم أمماً ، كل أمة مع إمامها كما في قوله تعالى (**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) أو زمراً وجماعات ، مختلفة الأحوال ، متباينة الأوضاع ، حسب اختلاف أعمالهم وتباينها ، فمنهم من يحشر على صورة القردة ، وبعضهم على سورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي ، وبعضهم صم بكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم ، وهي مدلاة على صدورهم ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، فأما الذين عل صورة القردة ، فالنَّمامُ من الناس وهو الذي ينقل الكلام للإفساد . حكي أن رجلاً باع عبداً ، وقال للمشتري : ما فيه عيب إلا النيمة ، فقال رضيت ، فاشتراه ، فمكث الغلام أياماً ، ثم قال لزوجة مولاه إن زوجك لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك ، فخذي الموسى واحلقي من قفاه حين ينام شعرات ، حتى اسحر عليه فيحبك ، ثم قال للزوج إن امرأتك أخذت خليلاً وتريد أن تقتلك ، فَتَناوَمْ لها حتى تعرف ، فتناوم فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تقتله فقام فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت أي الحرام لأنه يسحت الدين والمروءة أي يستأصل ، وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما البكم فالمعجبون بأعمالهم، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذي خالفت أقوالهم أعمالهم ، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ، ويمنعون حق الله في أموالهم ، والحاصل أنه كما أن الأشقياء يحشرون على صور أعمالهم القبيحة ، كذلك السعداء يحشرون على صور أعمالهم الحسنة ، حتى تكون وجوه بعضهم كالقمر ليلة البدر، أو كالشمس على ما جاء في صحيح الروايات ، ولاشك أن لكل صفة صورة مناسبة لها حسنة أو قبيحة ، فيا أيها المؤمن لا تكن قاسي القلب كالحجر ، وكن ممن يتفجر من قلبه أنهار الفيوض ، وينابيع الحكم ، واجتهد أن لا تكون ممن قيل فيه « حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء » نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل السعادة !! ﴿ **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ** ﴾ أي شُقَّت وصُدِعت من

هيبة من الله ، بعد أن كانت لا فطور فيها ﴿ **فَكَانَتْ أَبْوَاباً** ﴾ ذات أبواب كثيرة ، لنزول الملائكة ، نزولاً غير معتاد ، وهو المراد من قوله تعالى **(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً)** وقيل المراد من الفتح : الكشفُ بإزالتها عن مكانها كما قال تعالى (**وإذا السّماءُ كُشِطَتْ**) ومن الأبواب الطرق والمسالك أي تكشط فتصير مكانها طرقاً لا يسدها شيء .

﴿ **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ** ﴾ أي سيرت الجبال في الجو بتسيير الله وتسخيره ، على هيئاتها بعد قلعها عن مقرها ، وذلك عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ، ثم يفرقها في الهواء ، وذلك قوله تعالى (**فَكَانَتْ سَرَاباً**) السراب ما تراه نصف النهار كأنه ماء ، أي فصارت بتسييرها مثل السراب أي شيأ كلا شيء لتفرق أجزائها ، وانبثاث جواهرها ، كقوله تعالى (**وبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً**) أي غباراً منتشراً ، وهي إن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها كالسحاب وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية ، قيل : أول أحوال الجبال الاندكاك والانكسار ، كما قال تعالى (**وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**) وحالتها الثانية أن تصير كالعهن المنفوش ، وحالتها الثالثة أن تصير كالهباء ، بأن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن كما قال (**فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً**) وحالتها الرابعة أن تنسف وتقلع من أصولها لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها ، والارض تحتها غير بارزة ، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد من قوله (**فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً**) وحالتها الخامسة أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض ، فتطيِّرُها في الهواء كأنها غبار ، وهو المراد بقوله تعالى (**وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**) أي تراها في رأي العين ساكنة في أماكنها والحال أنها تمر مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الاجرام إذا تحركت لاتكاد تبين حركتها ، وإن كانت في غاية السرعة ، لاسيما من بعيد ، والحالة السادسة أن تصير سراباً ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً** ﴾ أي إنها كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه ، ويرقب خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، فالمرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه ، قال الراغب ، المرصاد موضع الرصد كالمرصد ، لكن يقال للمكان الذي اختص بالترصد والترقب ، وقوله (**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً**) تنبيه على أن عليها مجاز الناس انتهى . ﴿ **لِلطَّاغِينَ** ﴾ مَآباً أي مرجعاً يرجعون إليه لا محالة ، والطاغي من طغي في دينه بالكفر ، وفي دنياه بالظلم ، وهو في اللغة من جاوز الحد في العصيان ، والمراد هنا المشركون ، لما دل عليه ما بعده من الآيات ﴿ **لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً** ﴾ جمع حقب وهو ثمانون سنة أو أكثر ، والدهر ، والسنة ، أو السنون كما في القاموس ، وأصل الحقب من الترادف والتتابع ، فمعنى (**أَحْقَاباً**) دهوراً متتابعة ، كلما مضى حقب تبعهُ حقب آخر ، إلى غير نهاية ، فإن

الحقب لا يكاد يستعمل إلا لإيراد تتابع الأزمنة وتواليها ، وهو كناية عن التأبيد أي يمكثون فيها أبداً قال الراغب : والصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة ، لا ثمانون عاماً ، وكذا قال في القاموس : الْحِقبةُ بالكسر من الدهر : مدة لا وقت لها انتهى ، والحاصل أن الأحقاب يدل على التناهي ، فهو وإن كان جمع قلة ، لكنه بمنزلة جمع كثرة ، وهو الحقوب ، أو بمنزلة الأحقاب المعرَّف بلام الاستغراق ، ولو كان فيه ما يدل على خروجهم منها فدلالته من قبيل المفهوم ، فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار ، كقوله تعالى (**يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ، وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**) لأن المنطوق راجح على المفهوم فلا يعارضه ، وقال أبو حيان المدة منسوخة بقوله (**فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً**) انتهى ﴿ **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً** ﴾ أي لا يحسون ، وإلا فأصل الذوق وجود الطعم والمراد بالبرد ما يروحهم وينفس عنهم حرَّ النار ، وإلا فهم يذوقون في جهنم برد الزمهرير ، أي برداً ينتفعون به ويميلون إليه ، فتنكيره للنوعية ، قال قتادة : كنَّى بالبرد عن الروح ، لما بالعرب من الحرّ ، حتى قالوا برَّد الله عيشك أي طيَّبه ، اعتباراً بما يجد الإنسان من اللذةعندالحر من البرد ، والمراد بالشراب ما يسكن عطشهم ، و « إلا » بمعنى لكنْ ، والحميمُ الماء الحار الذي انتهى حره ، والغساق ما يسيل من جلود أهل النار ، ويقطر من صديدهم وقيحهم ، أخبر الله تعالى عن الطاغين بأنهم لا يذوقون في جهنم شيئاً ما ، من برد وروح ينفس عنهم حر النار ، ولا من شراب يسكن عطشهم ، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً فالاستثناء منقطع ، وقال الزجاج: لا يذوقون فيها برد ريح ، ولا برد ظل ، ولا برد نوم ، فجعل البرد برد كل شيء له راحة ، فيكون قوله (**وَلاَ شَرَاباً**) بمعنى ولا ماء بارداً تخصيصاً بعد التعميم لكماله في الترويح ، فيكون مجموع البرد والشراب بمعنى المروح فيكون قوله (**إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً**) مستثنى منقطعاً من البرد والشراب ، وفي الحديث (لو أنَّ دلواً من غساق يُهراق في الدنيا ، لأنتن أهل الدنيا)[1] وعن ابن مسعود رضي الله عنه الغساق لون من ألوان العذاب ، وهو البرد الشديد ، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه ،سألوا الله أن يعذبهم في النار ألف سنة ، لما رأوه أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً وانتهاء هذا المقيد لا يستلزم انتهاء مطلق اللبث ، فهو توقيت للعذاب ، لا للمكث في النار ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا ، وليس في الآية ما يدل على عدم الخلود في جهنم ، لأن الأحقاب غير متناهية ، وما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : سيأتي على جهنم يوم تصفق أبوابها ، أيْ ليس فيها أحد وأنه

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة جهنم / ٢٥٨٧ / وفي سنده ضعف ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٦ .

ينبت الجرجيرُ في قعر جهنم لانطفاء النار ، وارتفاع العذاب بمقتضى قوله سبقت رحمتي غضبي ، فإنه قول ضعيف لا يُعوَّل عليه ، لأنه يصادم النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة ، التي أكدت خلود الكفار في جهنم ، أجارنا الله من عذابها ونحن لا نشك في خلود الكفار وعذابهم أبداً ، فإن كان لهم العذاب عذاباً بعد مرور الأحقاب فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، كما أن المعتزلي يقطع في الدنيا بوجوب العذاب لغير التائب ثم قد يبدو له في الآخرة مالم يكن يحتسبه من العفو وسئل الشيخ الإمام مفتى الأنام عز الدين ابن عبد السلام بعد موته في منام رآه السائل ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى فقال هيهات وجدت الأمر بخلاف ما كنت أظن!! قالوا: خلود أهل النار من الكفار لا معارض له فبقي على عمومه وخلود أهل الكبائر له معارض فيحمل على المكث الطويل ، فالكل متفق على خلود الكفار ، سواء كانوا فرعون ، وهامان ، ونمروداً وغيرهم ، وإنما اختلفوا في ارتفاع العذاب عن ظواهرهم بعد مرور الأحقاب ، وكلٌّ تأول بمبلغ علمه ، والنص أحق أن يتَّبع .

﴿ **جَزَاءً وِفَاقاً** ﴾ أي جوزوا بذلك جزاء وفاقاً لأعمالهم وأخلاقهم ، كأنه نفس الوفاق مبالغة لأنهم أتوْا بمعصية عظيمة وهي الكفر ، فعوقبوا عِقاباً عظيماً وهو التعذيب بالنار ، فكما أنه لا ذنب أعظم من الشرك ، فكذا لا جزاء أقوى من التعذيب بالنار ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فتوافقا ، وقيل : كان وفاقاً حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ، ولم ينقص عنه ، واعلم أن الكفار لما كان من نيتهم الاستمرار على الكفر ، كما سيشير اليه قوله تعالى (**إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً**) إذ معناه أنهم كانوا مستمرين على الكفر ، مع عدم توقع الحساب ، فوافقه عدم تناهي العذاب ، واللبث فيها أحقاباً بعد أحقاب ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً** ﴾ أي كانوا ينكرون الآخرة ، ولا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم ، فلذا كانوا يقدمون على جميع المنكرات ، ولا يرغبون في شيء من الطاعات ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ الناطقة بذلك الظاهرة على ألسنة الرسل ﴿ **كِذَّاباً** ﴾ أي تكذيباً مفرطاً ولذلك كانوا مصرين على الكفر ، وفنون المعاصي ، فعوقبوا بأهوال العقاب ، جزاء وفاقاً ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ** ﴾ أي وأحصينا كل شيء من الأشياء ، التي من جملتها أعمالهم ﴿ **أَحْصَيْنَاهُ** ﴾ أي حفظناه وضبطناه ﴿ **كِتَاباً** ﴾ مصدر مؤكد لأحصيناه من غير لفظه أي أحصيناه إحصاءً ، وكتبناه كتاباً .

﴿ **فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً** ﴾ فوق عذابكم وهذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ، لأن فيها الإياس من الخروج ، فكلما استغاثوا من نوع من العذاب ، أغيثوا بأشدَّ منه ، فتكون كل مرتبة منه متناهية في الشدة ، وإن كانت مراتبه غير متناهية بحسب العدد والمدة ، وكانوا يزيدون كفرهم وتكذيبهم وأذيتهم للرسول عليه السلام وأصحابه فيزيد الله عذابهم لزيادة الاستحقاق ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ**

﴿ مَفَازاً ﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين ، إثر بيان سوء أحوال الكفرة ، على ما هو العادة القرآنية أي إن للذين يتقون الكفر ، وسائر القبائح من أعمال الكفرة فوزاً وظفراً بمباغيهم ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ أي بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة ، وكروماً ، وهو تخصيصٌ بعد التعميم لفضلها جمع حديقة وهي الروضة ذات الأشجار ، ويقال : الحديقة كل بستان عليه جدار ، وفيه من النخل والثمار ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب ، يقال: كعبت المرأة كعوباً ظهر ثديها وارتفع أي نساء عذارى فلكت ثديهن أي استدارت ، وصارت كالكعب في النتوء ويقال لهن النواهد ، جمع ناهد وناهدة وهي المرأة كعَّب ثديها وبدا للارتفاع ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي مستويات في السن قال الراغب : أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب ، التي هي ضلوع الصدر والظاهر مافي تفسير الزاهدي وهو كونهن بنات ست عشرة ، لكونها نصف سن الرجال ، وأيضاً دل عليه الوصف بالكعوب وهو ارتفاع ثديهن ، والمراد أنهن بالغات تمام كمال النساء ، في الحسن ، واللطافة ، والصلاح للمصاحبة والمعاشرة ، بحيث لا يكون في سن الصغر حتى تضعف الشهوة لهن ، ولا في سن الكبر حتى تنكسر الشهوة عنهن ، بل رواء الشباب أي ماؤه جار فيهن ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي مملوءة بالخمر ، فدهاقاً بمعنى مدهقة ، وصفت به الكأس للمبالغة في امتلائها ﴿ لاَيَسْمَعُونَ ﴾ أي المتقون ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الحدائق ﴿ لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ أي لا ينطقون بلغو ، وهو ما يُلغى ويطرح لعدم الفائدة فيه ، ولا يكذب بعضهم بعضاً حتى يسمعوا شيأ من ذلك بخلاف حال أهل الدنيا في مجالسهم ، لاسيا عند شربهم ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ مصدر مؤكد جزاء عظيماً كائناً من ربك ﴿ عَطَاءً ﴾ أي تفضيلاً وإحساناً منه تعالى ، إذ لا يجب عليه شيء ﴿ حِسَاباً ﴾ صفة لعطاء بمعنى كافياً وقيل : على حسب أعمالهم ، بأن يُجَازي كل عمل بما وعد له من الأضعاف ، من عشرة إلى سبعمائة ، ﴿ رَبِّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا ﴾ بدل من ربك ، والمراد رب كل شيء ، وخالقه ، ومالكه ﴿ الرَّحْمٰنِ ﴾ مفيض الخير والجود ، على كل موجود ، بحسب حكمته ، وبقدر استعداد الإنسان ﴿ لاَيَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ بيان لغاية العظمة والكبرياء وضمير (لا يملكون) لأهل السموات والأرض ، والمعنى لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم ، إذ المملوك لا يستحق على مالكه شيئاً لتفرده بالعظمة والكبرياء ، وتوحده في ملكه بالأمر والنهي ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ الظاهر أن الروح من جنس الملائكة لكنه أعظم منه خلقاً وشرفاً ، إذ هو بمقابلة الروح الإنساني ، كما أن الملائكة بمقابلة القوى الروحانية ، ولاشك أن الروح أعظم من قواه التابعة له ، كالسلطان مع امراءه وجنده ورعاياه ، وصفاً حال أي مصطفين لكثرتهم وقيامهم بما أمر الله في أمر العباد ، وقيل هما صفان الروح صف ، والملائكة صف ، وقيل صفوف وهو الأوفق لقوله تعالى (وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً صَفّاً) ﴿ لاَيَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ أي لا يتكلم أهل

السموات والأرض ، الذين من جملتهم الروح والملائكة إلا من أذن الله له منهم في التكلم ، وقال ذلك المأذون له قولاً حقاً صادقاً من غير خطأ في قوله ، فكيف يملكون خطاب رب العزة جل وعلا؟ ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك اليوم العظيم ، الذي يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين ، غير قادرين على التكلم من الهيبة والجلال ﴿ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أي الثابت المتحقق لا محالة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف أي وإذا كان الأمر كما ذكر ، من تحقق اليوم المذكور ، فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه ، الذي ذكر شأنه العظيم ، فعل ذلك بالإيمان والطاعة ، وقال قتادة (مآباً) سبيلاً ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾ أي بما ذكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث ، وبسائر القوارع الواردة في القرآن ، والخطاب لمشركي العرب وكفار قريش لأنهم كانوا ينكرون البعث ، والظاهر عموم الخطاب لأن في انذار كل طائفة فائدة لهم ﴿ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ هو عذاب الآخرة ، وقربه لتحقق إتيانه حتماً ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالى وإن رأوه بعيداً ، ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يشاهد ما قدمه من خيرٍ أو شر ، والمرء عام للمؤمن والكافر ، لأن كل أحد يرى عمله في ذلك اليوم ، مثبتاً في صحيفته خيراً كان أو شراً ، فيرجو المؤمن ثواب الله على صالح عمله ، ويخاف العقاب على سيِّئه ، وأما الكافر فكما قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي ﴾ أي يا قوم فالمنادى محذوف ، ويجوز أن يكون لمحض التحسر ولمجرد التنبيه ، من غير قصد إلى تعيين المنبَّه ﴿ كُنْتُ تُرَاباً ﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف ، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أبعث ، كقوله (يا ليْتَني لم أُوْتَ كِتَابِيَهْ يَالَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ) وقيل : يحشر الله الحيوان ، فيقتص للجماء من القرناء نطحتها ، قصاص المقابلة لاقصاص التكليف ثم يردُّها تراباً ، فيودُّ الكافر حاله كما قال عليه السلام (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء)[1] وهذا صريح في حشر البهائم وإعادتها لقصاص المقابلة ، لا للجزاء ، وقيل : الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال (خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : لقد أسرع إليك الشيب ؟ قال : شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ومن تعلَّم هذه السورة ينبغي له أن يتعلم معانيها ، إذ لا يحصل المقصود إلاَّ به ، وينبغي الهمُّ للآخرة ، ومطالعة الوعيد واستحضاره يشيب الإنسان ، ولذا ذُم الحبر السمين ، والقارىء السمين فلو اهتم به لشاب من همه ، وذاب من غمه ، لأن الشحم مع الهمّ لا ينعقد ، قال الشافعي رحمه الله : ما أفلح سمين

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر / ٦١ / والترمذي في القيامة ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٢ .

قط إلا أن يكون محمد بن الحسن ، فقيل له : ولم ؟ قال : لأنه لا يخلو العاقل من إحدى حالتين : أما أن يَهِمَّ لآخرته ومعاده ، أو لدنياه ومعاشه ، والشحمُ مع الهمِّ لا ينعقد ، فإذا خلا من المعنيين ، صار في حد البهائم بعقد الشحم .

تمت سورة النبأ بحمد الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ الواو للقسم ، والقسمُ يدل على عظم شأن المقسم به ، ولله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته ، تنبيهاً على ذلك العظم ، والنازعات جمع نازعة بمعنى طائفة من الملائكة نازعة ، وقس عليه الناشطات ونحوه ، وإلاَّ فكان الظاهر أن يقال : والنازعين والناشطين ، والنزعُ : جذبُ الشيء من مقره بشدة ، والغرق والإغراق في النزع : التوغلُ فيه ، والبلوغ إلى أقصى درجاته ، يقال أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المد ، حتى انتهى إلى النصل ، أقسم الله بطوائف الملائكة ، التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم ، إغراقاً في النزع ، من الأنامل والأظفار ، ومن تحت كل شعرة ، كما تُنْزع الأشجار المتفرقة العروق في أطراف الأرض ، وكما يُنْزع السَّفُّود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، وكما يسلخ جلد الحيوان وهو حي ، وكما يضرب الإنسان ألف ضربة بالسيف بل أشد ، والملائكة وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب ، يطعنونهم بحربة مسمومة بسم جهنم ، والميت يظن أن بطنه قد ملىء شوكاً ، وكأن نفسه تخرج من ثقب إبرة ، وكأن السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما ، فإذا نزعت نفس الكافر وهي ترعد ، تأخذها الزبانية ، ويعذبونها في القبر وفي سجين ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ قَسَمٌ آخر بطريق العطف أقسم الله بطوائف الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين أي تخرجها من أبدانهم برفق ولين ، كما تنشط الدلو من البئر ، وكما تنشط الشعرة من السمن وكما تنسل القطرة من السَقاء ، وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة ، ونفس المؤمن وإن كانت تُجذب من أطراف البنان ورؤس الأصابع أيضاً ، لكن لا يُحسُّ بالألم كما يحسُّ به الكافر ، وأيضاً نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن كنفس الكافر ، لكونها منجذبة إلى عالم القدس ، وإنما يشتد الأمر على أهل التعلق دون أهل التجرد وحين يجذبونها يَدَعونها أحياناً حتى تستريح ، وليس كذلك أرواح الكفار في قبضتها ، لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين ، والقاصر في العمل ، إذا بلغ الروح التراقي ، فيأتيه في صورة أبيه ، وأمه ، وأخيه ، أو صديقه فيأمره باليهودية ؛ فإن قيل : قد ثبت أن النبي عليه السلام أُخذ روحه الطيب ببعض شدة حتى قال « وا كرباه » وقال « لا إله إلاَّ اللهُ ، إن للموت سكرات ، اللهم أعنيّ على سكرات الموت » أي غمَرَاته ، وكان يدخل يده الشريفة في قدح فيه ماء ثم يمسح وجهه المنور بالماء ، ولما رأته فاطمة رضي الله عنها يغشاه الكرب قالت : واكربَ أبتاه ، فقال لها عليه السلام : ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم »[1]

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي / ١١٣٨ / والنسائي في الجنائز . ٤ / ١٣ وابن ماجه رقم / ١٦٢٩ / وأحمد في المسند ٣ / ١٩٧ وانظر جامع الأصول ١١ / ٧٢ .

فإذا كان أمر النبي عليد السلام حين انتقاله هكذا ، فما وجه ما ذكر من الرفق واللين ؟ أجيب بأن مزاجه الشريف كان أعدل الأمزجة ، فأحسَّ بالألم أكثر من غيره ، إذِ الخفيف على الأخف ثقيل ، ويحتمل أن يبتليه الله بذلك ليدعو الله في أن يجعل الموت لأمته سهلاً يسيراً ، وأيضاً فيه تسلية أمته إذا وقع لأحد منهم شيء من ذلك الكرب عند الموت ، وأيضاً لكي يحصل لمن شاهد من أهله ومن غيرهم من المسلمين الثواب لما يلحقهم عليه من المشقة ، كما قيل بمثل ذلك في حكمة ما يشاهد من حال الأطفال عند الموت من الكرب الشديد ﴿ **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً** ﴾ قسم آخر بطريق العطف ، أقسم الله بطوائف الملائكة التي تسبح في مضيها أي تسرع فينزلون من السماء إلى الأرض مسرعين مشبهين في سرعة نزولهم بمن يسبح في الماء ، ﴿ **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً** ﴾ أي التي تسبق سبقاً إلى ما أمروا به ووكِّلوا عليه ، فيصلون بسرعة ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً** ﴾ يعني الملائكة الموكلين بتدبير الأمور ، التي تدبر الأمور الدنيوية والأخروية للعباد ، كما رسم لهم من غير تفريط وتقصير ، والمقسم عليه محذوف وهو « لتبعثن » لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة ، ووجه البعث أن الموت يستدعيه للأجر والجزآء ، لئلا يستمر الظلم والجور في الوجود ، وما ربك بظلام للعبيد ، ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم بعد مفارقة الأبدان ، ألا ترى أن الإنسان قد يرى في المنام أن بعض الأموات يرشده إلى مطلوبه ؟ ويرى أستاذه فيسأله عن مسألة فيحلُّها له ؟ سئل زرارة بعد أن تُوفِّي رضي الله عنه في المنام أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال : الرضى ، وقصر الأمل ، وعن بعضهم : رأيتُ ورقاء بن بشر رحمه الله في المنام ، فقلت ما فعل الله بك ؟ قال : نجوتُ بعد كل جهد ، قلت : فأيُّ الأعمال وجدتموها أفضل ؟ قال : البكاء من خشية الله ، وقال بعضهم : هلكت جارية في الطاعون فرآها أبوها في المنام فقال لها يابنية أخبريني عن الآخرة ، قالت : ياأبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل ، وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ، ونظائره كثيرة لا تحصى ، ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** ﴾ المراد بالراجفة الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة ، كالأرض والجبال ، أي تتحرك حركة شديدة ، وتتزلزل زلزلة عظيمة ، من هول ذلك اليوم ، وهي النفخة الأولى ﴿ **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى أي تجيء بعدها ، وهي النفخة الثانية لأنها تجيء بعد الأولى ، قال في الإرشاد : واعتبار امتداده ، مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية ، لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظميتين ، لا يبقى عند وقوع الأولى حيٌّ إلا مات ، ولا عند وقوع الثانية ميت إلاَّ بُث وقام ﴿ **قُلُوبٌ** ﴾ مبتدأ وتنكيره يقوم مقام الوصف المخصص كأنه قيل : قلوب كثيرة أو عاصية ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ يوم إذ تقع النفختان ﴿ **وَاجِفَةٌ** ﴾ أي شديدة الاضطراب من سوء أعمالهم ، وقبح أفعالهم ﴿ **أَبْصَارُهَا** ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ **خَاشِعَةٌ** ﴾ ذليلة من الخوف بسبب الإعراض

عن الله ، والإقبال على ما سواه ، يترقبون أيَّ شيء ينزل عليهم من الأمور العظام ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي هم يقولون الآن ، يعني منكري البعث ، إذا قيل لهم إنكم تبعثون ، يقولون منكرين له متعجبين منه ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ معادون بعد موتنا ﴿ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ أي في الحالة الأولى ، يعنون الحياة ، من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقته التي جاء فيها ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴾ بالية نرد ونبعث ؟ مع كونها أبعد شيء من الحياة ، فهو تأكيد لإنكار الرد وامتناع إعادة المعدوم ، فإن الله قادر على كل الممكنات فيقدر على جمع الأجزاء العنصرية وإعادة الحياة إليها لأنها متميزة في علم الخالق كالماء مع اللبن فإنها وإن امتزاجا لكن أحدهما متميز عن الآخر في علم الله ، وإن كان عقل الإنسان قاصراً عن إدراكه ، والنخرُ : البلي ، يقال : نخِر العظمُ والخشب إذا بلي واسترخى ، وصار بحيث لومُسَّ لتفتت ، ونخرة أبلغ من ناخرة لكونها من صيغ المبالغة ﴿ قَالُوا ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء بالحشر ﴿ تِلْكَ ﴾ الردة والرجعة في الحافرة ﴿ إِذاً كَرَّةٌ ﴾ الكر الرجوع ، والكرة المرة من الرجوع ﴿ خَاسِرَةٌ ﴾ أي ذات خسران ، أي إن صحت تلك الكرة ، فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها ، وإنما حمل قولهم هذا على الاستهزاء ، لأنهم أبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته ، في صورة المشكوك المحتمل الوقوع ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ جواب من الله عن كلامهم بالإنكار وتعليل لمقدر أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله ، فإنها سهلة هينة في قدرته ، فإنما هي صيحة واحدة لا تكرِّر ، يسمعونها وهم في بطون الأرض ، وهي النفخة الثانية ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي فإذا الخلائق جميعاً على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها ، والساهرةُ: الأرضُ البيضاء المستوية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الساهرة أرض من فضة ، لم يُعص اللهُ عليها قط ، خلقها حينئذ ، قال الفناري في تفسير الفاتحة : إن الناس إذا قاموا من قبورهم ، وأراد الله أن يبدل الأرض غير الأرض ، تمد الأرض بإذن الله ويكون المحشر ، فيكون الخلق عليه ، عندما يبدل الله الأرض كيف يشاء ، إما بالصورة ، وإما بأرض أخرى ما هم عليها ، تسمى بالساهرة فيمدها سبحانه مدَّ الأديم ، ويزيد في سعتها أضعاف ما كانت ، حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ كلام مستأنف ، واردٌ لتسلية رسول الله ﷺ ، عن تكذيب قومه ، ومعنى (هَلْ أَتَاكَ) ترغيب له في استماع حديثه ، وحمل له على طلب الإخبار ، كأنه قيل : هل أتاك حديث موسى قبل هذا ؟ أم أنا أخبرك به ؟ كما قال الحسن رحمه الله: إعلام من الله لرسوله حديث موسى ، كقول الرجل لصاحبه : هل بلغك ما لقي أهل البلد ؟ وهو يعلم أنه لم يبلغه وإنما قال ليخبره به انتهى ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي هل أتاك حديثه الواقع حين ناداه ربه ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ المبارك المطهر حين مكالمته مع كليه ، أو سمي مقدساً لوقوعه في حدود الأرض المقدسة المطهرة ﴿ طُوًى ﴾ بضم الطاء وهو اسم للوادي الذي بين المدينة ومصر ، فيكون عطف بيان له ﴿ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول

أي فقال له اذهب إلى فرعون ﴿ **إِنَّهُ طَغَى** ﴾ الطغيان مجاوزة الحد أي طغى على الخالق بأن كفر به ، وطغى على الخلق بأن تكبَّر عليهم واستعبدهم ، فكما أن كمال العبودية لا يكون إلا بالصدق مع الحق ، وحسن الخُلُقِ مع الخَلْق ، فكذا كما الطغيان يكون بسوء المعاملة معهما ﴿ **فَقُلْ** ﴾ بعد ما أتيته ﴿ **هَلْ لَكَ** ﴾ رغبة وتوجه ﴿ **إِلَى أَنْ تَزَكَّى** ﴾ بحذف إحدى التاءين من « تتزكى » أي تتطهر من دنس الكفر والطغيان ، ووسخ الكدورات البشرية والقاذورات الطبيعية ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ** ﴾ وأرشدك إلى معرفته فتعرفه ﴿ **فَتَخْشَى** ﴾ إذِ الخشيةُ لا تكون إلا بعد معرفته ، قال تعالى : (**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) أي العلماء بالله ، قيل : إنه تعالى قال في آخره « ولن يفعل » فقال موسى : فكيف أمضي إليه وقد علمتَ أنه لن يفعل ؟ فأوحى إليه أن امضِ لما تُؤمر ، فإن في السماء إثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر فلم يدركوه ، وجعل الخشية غاية للهداية ، لأنها ملاك الأمر ، لأن من خشي الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر ، كما قال عليه السلام (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل)[1] يقال : أدلجَ القومُ : إذا ساروا من أول الليل ، ثم إنه تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف في القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه ، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى : (**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**) أما كونه ليناً فلأنه في صورة العرض ، لا في صورة الأمر ، وليس فيه أيضاً ذكر نحو الشرك ، والجهل ،والكفر[2]﴿ **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى** ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن جمل قد طويت ، أي فذهب إليه موسى بأمر الله ، فدعاه إلى التوحيد والطاعة ، وطلب هو منه المعجزة الدالة على صدقه في دعوته ، والمراد بالآية الكبرى قلب العصاحية ، والصغرى غيرها من معجزاته الباقية ﴿ **فَكَذَّبَ** ﴾ فرعون بموسى ، وسمَّى معجزاته سحراً من غير رويَّةٍ وتأمل ، لغاية استكباره وتمرده ﴿ **وَعَصَى** ﴾ الله أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجوْد رب العالمين ، ويجوز أن يراد وعصى موسى فيما أمره به ، إلا أن الأول أدخل في ذمِّه وتقبيح حاله، وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته تعالى ، وترك دعوى الربوبية ، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر فقط ﴿ **ثُمَّ أَدْبَرَ** ﴾ أي تولى عن الطاعة أو انصرف عن المجلس ، قال الراغب : أدبر أي أعرض وولى دبره ﴿ **يَسْعَى** ﴾ يجتهد في معارضة الآية تمرداً وعناداً ، لا اعتقاداً بأنها يمكن معارضتها ، فقد تعلل بالباطل

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه / ٢٤٢٢ / في صفة القيامة قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٩ .

(٢) انظر إلى هذا « الأسلوب الحكيم » في الدعوة إلى الله ، ففرعونُ الطاغيةُ الجبار ، الذي ادّعى الربوبية ، ونازع الله في حكمه ومُلكه ، يُؤمر موسى بأن يدعوه برفقٍ ولين « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى » ؟! وهو عَرْضٌ بألطف وجوه الاستدعاء والطلب ، ليس فيه غلظةٌ ولا خشونةٌ ، وهذا هو أسلوب الدعوة إلى الله ، وهو الأسلوب الحكيم الذي ينبغي أن يضعه كل داعيةٍ نصْبَ عينيه ، لتثمر دعوتُه ، وتؤتي أُكُلها ، وتدخل إلى القلب تلك النصيحة التي يعرضها ، هدانا الله جميعاً إلى سلوك طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

دفعاً للمجلس ، و « يَسْعَىٰ » بمعنى مسرعاً مجتهداً ، وفي الكشاف : لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً ، يسرع في مشيته ، قال الحسن رحمه الله : كان رجلاً طياشاً ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي فجمع السحرة لقوله تعالى (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) وقوله تعالى : (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ) أي ما يكيد به من السحرة وآلاتهم ﴿ فَنَادَى ﴾ بنفسه في المقام الذي اجتمعوا فيه ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ لاربَّ فوقي أي أعلى من كل من يلي أمركم ، ولما ادعى العلوية قيل لموسى عليه السلام في مقابلة هذا الكلام (إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى) لأن الغلبة على سحرته غلبة عليه ، والحاصل أنه لم يرد بهذا القول أنه خالق السموات ، والأرض ، والجبال ، والنبات ، والحيوان ، فإن العلم بفساد ذلك ضروري ، ومن شك فيه كان مجنوناً ، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع ، والحشر ، والنشر ، وكان يقول : ليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر أو نهي ، أو يبعث إليكم رسولاً ، بل المربي لكم والمحسن إليكم أنا لا غيري ، قال بعضهم : كان ينبغي له عند ظهور عجزه بانقلاب العصاحية ، أن لا يقول ذلك القول ، فكأنه صار في ذلك الوقت كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول !!، قال بعض العارفين : لم يدَّع أحدٌ من الخلائق من الكمال ما ادعاه الإنسان ، فإنه ادعى الربوبية وقال : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) وإبليس تبرأ منها وقال : (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) فلم يدَّع مرتبةً ليست له قط ، فإن قلت : ما الحكمةُ في أن إبليس قد لُعن ولم يدَّع الربوبية ، وفرعونُ وأمثاله قد ادعوا الربوبية ولم يُلعنوا تعييناً ولا تخصيصاً كما لعن إبليس ؟ قيل : لأن نية إبليس شرٌّ من نية هؤلاء ، وقيل : لأنه أول من سن الخلاف والشقاق ، قولاً وفعلاً ونية ، والخلقُ بعده سنوا البغي والخلاف بوسوسته ، وإبليس واجه بمخالفته حضرة الرب تعالى ، وهم واجهوا الأنبياء والوسائط ، وتضرعوا تارة واعترفوا بالذنوب عند المخلوق تارة أخرى ، وإبليس لم يعترف ولم يتضرع وهو أول من سن الكفر ، فوزر الكفار بعده راجع إليه إلى يوم القيامة ، ومظهر الضلالة والغواية بذاته بغير واسطة ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ ﴾ بسبب ما ذكر ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ النكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم ، وهو التعذيب أي الذي ينكِّل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه كأنه قال : نكَّل الله به نكال الآخرة والأولى ، وهو الإحراق في الآخرة ، والإغراق في الدنيا ، قال بعضهم : نازع الحق بشدة ظهور أنانيته في رداء الكبرياء ، فقُهر وقُذف في النار ملعوناً كما قال الله في الحديث القدسي : (العظمة إزاري ، والكبرياءُ ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار ولا أبالي)[1] ويُروى قصمتُه ولا أبالي وقال البقلي : لما لم يكن صادقاً في دعواه ، افتضح في الدنيا والآخرة ، وهكذا كل من يدَّعي ما ليس له ، ودلت الآية على أن فرعون مات كافراً ، وقد صدر من فرعون كلمتان : الأولى قوله : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) والثانية قوله : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وبينهما على ما قيل أربعون سنة ،

(١) الحديث أخرجه مسلم برقم / ٢٦٢٠ / تحريم الكبر ، وأبو داود برقم / ٤٠٩٠ / وانظر جامع الأصول ١٠ / ٦١٣ .

فالظاهر أن الربوبية محمولة على الألوهية ، لا كما زعم بعضهم أنَّ قوله : (**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**) معناه أعلى من كل ما يلي أمركم إذ ليس فيه كثير جدوى ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ** ﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فُعل به ﴿ **لَعِبْرَةً** ﴾ اعتباراً عظيماً وعظة ﴿ **لِمَنْ يَخْشَى** ﴾ أي لمن من شأنه أن يخشى ، وهو العارف بالله وبشؤونه ، يخشى منه فلا يتمرد على الله ، ولا على أنبيائه ، خوفاً من نزول العذاب ، والعاقل من وُعظ بغيره .

﴿ **أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا** ﴾ خطاب لأهل مكة ، المنكرين للبعث بطريق التوبيخ والتبكيت ، أي أخلقكم بعد موتكم أشقُّ وأصعب في تقديركم وزعمكم ؟ ﴿ **أَمِ السَّمَاءُ** ﴾ أم خلق السماء بلا مادة ، على عظمها وقوة تأليفها ، وإنطوائها على البدائع التي تحار العقول في ملاحظة أدناها ، وهو استفهام تقرير ليقروا بأن خلق السماء أصعب ، فيلزمهم بأن يقول لهم : أيها السفهاء من قدر على الأصعب الأعسر ، كيف لا يقدر على إعادتكم وحشركم ، وهي أسهل وأيسر ؟ فخلقكم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدوراً لله فكيف تنكرون ذلك ؟ ﴿ **بَنَاهَا** ﴾ الله تعالى ، وأقامها بغير عمدٍ ، بعظيم قدرته ﴿ **رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا** ﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها ، من الأرض إلى سمت العلو ، مديداً رفيعاً ، مسيرة خمسمائة عام ، فإن امتداد الشيء إن أُخذ من أسفله إلى أعلاهُ سُمي سمكاً ، وإذا أُخذ من أعلاه إلى أسفله سُمِّي عُمقاً ، وقال بعضهم : السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا ، وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، فيكون المراد ثخنها وغلظتها ﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا**﴾ الغطشُ: الظُّلْمةُ أي جعله مظلماً ، وتلك الظلمة إنما حصلت بتدبير الله وتقديره ﴿ **وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ أي أبرز نهارها ، عبَّر عنه بالضحى وهو ضوء الشمس ، ووقت الضحى هو الوقت الذي تشرق فيه الشمس ، ويقوم سلطانها ، لأنه أشرف أوقاتها وأطيبها ، وإضافة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام ، وأكمل في الإحسان ، قال بعض العارفين : الليل ذكر والنهار أنثى ، واستخراج النهار من الليل كاستخراج حواء من آدم قال تعالى : (**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**) ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا** ﴾ أي بسطها ومهَّدها لسكنى أهلها ، وتقلبهم في أقطارها ، قال بعضهم : إن الله خلق الأرض قبل خلق السماء ، من غير أن يدحوها ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ﴿ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا** ﴾ بأن فجرَّ منها عيوناً وأجرى أنهاراً ﴿ **وَمَرْعَاهَا** ﴾ أي رعيها بمعنى الكلأ ، وهو في الأصل موضع الرعي ، نسب الماء والمرعى إلى الأرض من حيث أنها منها يظهران ، ولا يكفي تأمين سكنى الإنسان ، بل لابدَّ من تأمين أمر معاشه من المأكل والمشرب ولذلك ذكره ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾ أي أثبتها وأثبت بها الأرض أن تميد بها ، وهذا تحقيق للحق وتنبيه على أن الرسو ليس من مقتضيات ذواتها ، بل هو بإرسائه تعالى ، ولولاه لما ثبتت في نفسها ، فضلاً عن إثباتها للأرض ﴿ **مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ بمعنى تمتيعاً ، والأنعام

بمعنى المواشي ، وفي الصحاح : وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل ، والمراد هنا ما يكون عاماً للإبل والبقر والغنم من الضأن والمعز أي فعل ذلك تمتيعاً ومنفعة لكم ، ولأنعامكم ، لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى ، واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم ، فإن المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان ، وغيره ولهذا قيل : دلَّ الله تعالى بذكر الماء ، والمرعى ، على عامة ما يرتفق به ويتمتع ، مما يخرج من الأرض قال العتبي : هذا أي قوله : (**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا**) من جوامع الكلم حيث ذكر شيئين دالين على جميع ما أُخرج من الأرض ، قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب ، والشجر ، والحب ، والثمر ، والملح ، والنار ، لأن النار من الشجر الأخضر ، والملح من الماء ، ونكتةُ التعبير بالمرعى توبيخُ المخاطبين المنكرين للبعث ، وإلحاقهم بالبهائم في التمتع بالدنيا ، والذهول عن الآخرة ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ** ﴾ قال في الصحاح : كل شيء كثر حتى علا وغلب ، فقد طمَّ من باب رَدَّ ، والكبرى تأنيث الأكبر من كبر بالضم بمعنى عَظُم ، لا من كَبِر بالكسر بمعنى أسنَّ وهذا شروعٌ في بيان أحوال معادهم ، إثْرَ بيان أحوال معاشهم ، والمعنى فإذا جاء وقت طلوع وقوع الداهية العظمى ، التي تطمُّ على سائر الطامات والدواهي أي تعلوها وتغلبها ، والمراد القيامة أو النفخة الثانية ، فإنه يشاهد يوم القيامة من الآيات الهائلة الخارجة عن العادة ، ما يُنسى معه كلُّ هائل ، وعند النفخة الثانية تحشر الخلائق إلى موقف القيامة ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى** ﴾ أي يتذكر فيه كل أحد ، ما عمله من خير أو شر ، بأن يشاهده مدوناً في صحيفة أعماله ، وقد كان نسيه من فرط الغفلة ، وطول الأمد ، كقوله تعالى : (**أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**) ﴿ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ** ﴾ أي أظهرت إظهاراً بيناً لا يخفى على أحد ، بعد أن كانوا يسمعون بها ، والمراد مطلق النار المعبر عنها بجهنم ﴿ **لِمَنْ يَرَىٰ** ﴾ لكل مخلوق من البشر له بصر ﴿ **فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ** ﴾ أي فأما من عتا وتمرد عن الطاعة ، وجاوز الحد في العصيان ، بالغلو في الكفر والطغيان ، ﴿ **وَآثَرَ** ﴾ اختار ﴿ **الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ الفانية التي على جناح الفوات ، ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية ، بالإيمان والطاعة ﴿ **فَإِنَّ الْجَحِيمَ** ﴾ التي ذكر شأنها ﴿ **هِيَ** ﴾ لا غيرها ﴿ **الْمَأْوَىٰ** ﴾ أي مأواه ، فلا يخرج من النار ، كما يخرج المؤمن العاصي ، فالكلام في حق الكافر ، لكن فيه موعظة وعبرة موقظة ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ** ﴾ أي مقامه بين يدي مالك أمره ، يوم الطامة الكبرى ، وذلك لعلمه بالمبدأ والمعاد ، فإن الخوف من القيام بين يديه للحساب لابد أن يكون مسبوقاً بالعلم به تعالى : ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ عن الميل إليه بحكم الجبلّة البشريةِ ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ، ولم يغتر بزخارفها وزينتها ، علماً منه بوخَامة عاقبتها ، والهَوَى : ميلان النفس إلى ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع ، وفي الحديث : « إن أخوف ما أخوف على أمتي الهوى وطول الأمل ، أما

الهوى فيصدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فَيُنْسي الآخرة »[1] قال بعض الكبار : الهوى عبارة عن الشهوات السبع المذكورة في قوله تعالى : (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المَسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ وَالحَرْثِ**) وقد أدرجها الله في أمرين : كما قال : (**إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**) ثمّ أدرجها في أمر واحد وهو الهوى في الآية ، فالهوى جامع لأنواع الشهوات ، فمن تخلص من الهوى ، فقد تخلص من جميع القيود ، وقال سهل رحمه الله : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء ، وبعض الصدِّيقين ، وإنما يسلم من الهوى من ألزم نفسه الأدب ، ويقول الفقير : إن الإنسان برزخ بين الحقيقة الملكية والحقيقة الحيوانية ، فهو من حيث الحقيقة الأولى ينهى النفس عن الهوى كما أن النبي عليه السلام يخاطب نفسه بقوله عليه السلام (السلام عليك أيها النبي) من جانب ملكيته إلى جانب بشريته ، أو من مقام جمعه إلى مقام فرده ﴿ **فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ أي فإن الجنة هي المقام الذي لا يخرج عنه من دخل فيه ، والمراد بالجنة مطلق دار الثواب ، فلا يخالف قوله تعالى : (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ**) جنة النعيم الجسمانية ، وجنة التلذذ باللذات الروحانية ، قال محمد بن الحسن رحمه الله: كنت نائماً ذات ليلة إذا أنا بالباب يدق ويقرع، فقلت : انظروا من ذلك ؟ فقال: رسول الخليفة هرون يدعوك ، فخفت على روحي وقمت ومضيت إليه ، فلما دخلت عليه ، قال : دعوتك في مسألة إن أمَّ محمد - يعني زبيدة - قلت لها إني إمام العدل ، وإمام العدل في الجنة ، فقالت : إنك ظالم عاص قد شهدت لنفسك بالجنة ، فكذبت بذلك على الله » فقلت له : يا أمير المؤمنين إذا وقعتَ في معصية ، فهل تخاف الله في تلك الحال ؟ فقال : أي والله أخاف الله خوفاً شديداً ، فقلت له : أنا أشهد أن لك جنتين لا جنة واحدة ، قال الله تعالى : (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) فلاطفني وأمرني بالانصراف ، فلما رجعت إلى داري رأيت البُدَر متبادرة إليَّ ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ** ﴾ أي القيامة ﴿ **أَيَّانَ مُرْسَاهَا** ﴾ أي إقامتها ، يريدون متى يقيمها الله ويثبتها ؟ ، كان المشركون يسمعون أخبار القيامة ، وأوصافها الهائلة ، مثل إنها الطامة الكبرى ، والصاخّة ، والقارعة ، فيقولون على سبيل الاستهزاء : أيان مرساها ؟ ﴿ **فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا** ﴾ رد وإنكار لسؤال المشركين عنها ، أي في أيّ شيء أنت ، من أن تذكر لهم وقتها ، وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها ؟ كقوله تعالى : (**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**) أي ما أنت من ذكرها لهم ، وتبين وقتها في شيء ؟ لأن ذلك فرع علمك به ، وأنى لك ذلك ، وهو مما استأثر بعلمه علاَّم الغيوب ؟ ﴿ **إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا** ﴾ أي انتهاء علمها ليس لأحد منه شيء ما ، كائناً من كان ، فلأي شيء يسألونك عنها ؟ قال القاشاني : أي في أي شيء أنت من علمها وذكرها ، وإنما إلى ربك ينتهي علمها ، فأين أنت وغيرك من علمها ؟ بل لا يعلمها إلا الله وحده ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** ﴾ أي وظيفتك

(١) الحديث أخرجه أحمد بلفظ (إنما أخشى عليكم .. مضلات الهوى) ولم أره بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف .

الامتثال بما أُمرتَ به من بيان اقترابها ، وتفصيل ما فيها من فنون الأهوال ، لا تعيين وقتها الذي لم يُفوَّض إليك ، فما لهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه ؟ أي ما أنت إلا منذر لمن يخشاها أي يخافها ويُصدِّق بوقوعها ، وتخصيص من يخشى مع أنه مبعوث إلى الناس جميعاً ، لأنهم هم المنتفعون به أي لا يؤثر الإنذار إلا فيهم ، كقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي المنكرين من كفار مكة ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي يوم يشاهدون أهوالها ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا إلا تلك المدة اليسيرة ، عشية يوم واحد ، أو ضحاه فإن قيل : لم لم يقل إلا عشيةً أو ضحى ؟ وما فائدة الإضافة ؟ قلنا : لو قيل : لم يلبثوا إلاَّ عشيةً أو ضحى ، احتمل أن يكون العشية من يوم ، والضحى من يوم آخر ، فيتوهم استمرار اللبث من ذلك الزمان من اليوم الأول ، إلى الزمان الآخر من اليوم الآخر ، وأما إذا قيل إلا عشية أو ضحاها ، لم يحتمل ذلك البتة ، وثانياً : مراعاة لرءوس الآيات ، فإن قبلها مرساها ، وذكراها ، ومنتهاها ، والله أعلم .

تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ ﴾ العبس والعبوس : هو الكلوح وتقطيب الوجه ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ الضمير لمحمد عليه السلام ، وهو علة للتولي أي تولى لأن جاءه الأعمى ، والعمى افتقاد البصر ، لام الأعمى للعهد ، فيراد أعمى معروف وهو « ابن أم مكتوم » المؤذن الثاني لرسول الله ﷺ ، روي أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ ، وعنده صناديد قريش ، عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، لأن عادة الناس أنه إذا مال أكابرهم إلى أمر ، مال إليه غيرهم ، كما قيل : الناسُ على دين ملوكهم ، فقال له يارسول الله : علمني مما علَّمك الله ، أنتفع به ، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم تشاغله عليه السلام بالقوم ، فكره رسول الله قطعه لكلامه ، واشتغاله به عنهم ، وعبس وأعرض عنه ، فرجع ابن أم مكتوم محزوناً خائفاً أن يكون عبوسه وإعراضه عنه ، إنما هو لشيء أنكره الله منه فنزلت الآيات ، فكان رسول الله يكرمه ويقول إذا رآه : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » أي لامني مع بقاء المحبة ، ويقال : إن رسول الله عليه السلام لم يغتم في عمره كغمه حين أنزلت عليه سورة عبس ، لأن فيها عتباً شديداً على مثله ، لأنه الحبيب الرشيد ، ومع ذلك فلم يجعل ذلك الخطاب بينه وبينه ، فيكون أيسر للعتاب ، بل كشف ذلك للمؤمنين ، ونبه على فعله عباده المتقين ، ولذلك روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤم قومه فلا يقرأ فيهم إلا سورة عبس ، فأرسل إليه فضرب عنقه لما استدل بذلك على كفره ، قال ابن زيد : لو جاز لمحمد ﷺ أن يكتم شيئاً من الوحي ، لكتم هذا ، وكذا مثل قوله تعالى : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) ونحو قوله تعالى : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ ، وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) وكان ما فعله عليه السلام من باب ترك الأولى ، فلا يُعدّ ذنباً ، لأن اجتهاده عليه السلام كان في طلب الأولى ، والتعرض لعنوان العمى مع أن ذكره بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه ، وهو ينافي تعظيمه المفهوم من العتاب ، إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه عليه السلام للقوم ، والإيذان باستحقاقه الرفق والرأفة ، لا الغلظة ، وإما لزيادة الإنكار ، فإن أصل الإنكار حصل من دلالة المقام ، كأنه قيل تولى لكونه أعمى ، وهو لا يليق بخُلقه العظيم ، كما أن الإلتفات في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ لذلك ، فإن المشافهة أدخلُ في تشديد العتاب ، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالعتاب ، أي وأيُّ شيء يجعلك دارياً ، وعالماً بحاله ،

ويطلعك على باطن أمره ، حتى تُعرض عنه ؟ قال الإمام السهيلي رحمه الله: انظر كيف نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب ، فقال : (عَبَسَ وَتَوَلَّى) ولم يقل عبستَ وتوليتَ ، وهذا شبيه حال الغائب المعرض ، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب فقال : (وَمَا يُدْرِيكَ) علماً منه تعالى أنه لم يقصد بالإعراض عنه إلا الرغبة في الخير ، ودخول ذلك المشرك في الإسلام ، وهو الوليد أو أمية ، لأن مثل هذا العظيم إذا أسلم يسلم بإسلامه بشر كثير ، فكلَّم نبيه عليه السلام بما يشبه كلام المعرض عنه ، ثم واجهه بالخطاب تأنيساً له عليه السلام بعد الإيحاش ، فإن قيل : إن ابن أم مكتوم كان قد أسلم ، وتعلم ما كان يحتاج إليه من أمور الدين ، وأما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وكان إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم ، فكيف عاتبه الله على ذلك ؟ قيل : إن الأمر وإن كان كما ذُكر ، إلا أن ظاهر ما فعله الرسول عليه السلام يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وقلة المبالاة بإنكسار قلوب الفقراء ، وهو لا يليق بمنصب النبوة ، لأنه ترك الأفضل ، فلذا عاتبه الله تعالى ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ أي الأعمى ﴿ يَزَّكَّى ﴾ أصله يتزكى ـ أي يتطهر بما يقتبس منك ـ من أوضار الأوزار بالكلية ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أصله يتذكر والتذكر هو الإتعاظ ﴿ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي فتنفعه موعظتك ، إن لم يبلغ درجة التزكي التام ، وفي الكشاف المعنى إنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكي أو تذكر ، ولو دريت لما فرط ذلك منك ﴿ أَمَّا ﴾ للتفصيل ﴿ مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ عن الإيمان ، وعما عندك من العلوم والقرآن ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه ، والاهتمام بإرشاده واستصلاحه ، دون الأعمى ، وفيه مزيد تنفير عليه السلام عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر ليس من شيم الكرام ، والتصدي للشيء التعرض والاهتمام بشأنه ، وضده التشاغل عنه ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَنْ لاَ يَزَّكَّى ﴾ أي وليس عليك بأس ووزر ، في أن لا يتزكى ذلك المستغني ، حتى تهتم بأمره وتعرض عمن أسلم ؟ ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ أي حال كونه مسرعاً ، طالباً لما عندك من أحكام الرشد ، وخصال الخير ﴿ وَهُوَ ﴾ والحال أنه ﴿ يَخْشَى ﴾ الله تعالى ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً أي تتلهى وتتشاغل من لَهِيَ عن الشيء بكسر الهاء يلهى لهياً : أعرض عنه ، وفي تقديم ضميره عليه السلام وهو « أنت » على الفعلين ، تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه السلام ، أي مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدى للمستغني ، ويتلهى عن الفقير ، الطالب للخير ، والعزيز من أعزَّه الله بالإيمان والطاعة ، وإن كان بين الناس ذليلاً ، والذليل من أذله الله بالكفر والمعصية ، وإن كان بين الناس عزيزاً ، روي أنه عليه السلام ما عَبَس بعد ذلك في وجه فقير قط ، ولا تصدَّى لغني ، وكان الفقراء في مجلسه عليه السلام أمراء ، يعني كان يحترمهم كل الإحترام ، وفيه تأديب للصغير بالكبير ، فحملةُ الشرع والعلم والحكام ، مخاطبونَ في تقريب الضعيف من أهل الخير ، وتقديمه على الشريف العاري عن الخير ، بمثل ما خوطب به النبي عليه السلام في هذه

السورة ﴿ كَلاَّ ﴾ انزجر من التصدي للمستغني ، والإعراض عن إرشاد المسترشد ، قال الحسن : لما تلا جبريل هذه الآيات على النبي عليه السلام عاد وجهه كأنما استُفَّ فيه الرماد أي تغيرَّ كأنما ذُرَّ عليه الرماد - ينتظر ما يحكم الله عليه ، فلما قال « كلا » سُرِّي عنه ، والمعنى لا تفعل مثل ذلك فإنه غير لائق بك ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي الوصية التي كلفناك يا محمد وأمرناك بها ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي حفظه ولم ينسه ، واتعظ به ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ أي كائنة في صحف منتسخة من اللوح المحفوظ ﴿ مُكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله لكونها صحف القرآن المكرم ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أي في السماء السابعة ، أو مرفوعة المقدار والذكر ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ منزهة عن مساسِ أيدي الشياطين ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ كتبه من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ، جمع سافر من السَّفر وهو الكَتْبُ وسمي السَّفَر بفتحتين سَفَراً لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق المرء ، وهذه اللفظة مختصة بالملائكة ، لا تكاد تطلق على غيرهم ، وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة ، قال القرطبي : إن المراد في قوله تعالى : (لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) هؤلاء السفرة الكرام البررة ﴿ كِرَامٍ ﴾ عند الله بالقرب والشرف فهو من الكرامة جمع كريم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أتقياء مطيعين لله ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات ، فإن القتل غاية شدائد الدنيا وأفظعها ، ومن فسر القتل باللعن أراد به الإهلاك الروحاني فإنه أشد العقوبات ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه ؟ وتعجَّبْ من إفراطه في الكفران !! فإن حقيقة التعجب إنما تتصور من الجاهل ، والذي أحاط علمه بجميع المعلومات لا يتصور منه ذلك ، فهو في الحقيقة تعجيب من الله لخلقه ، وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه ، أي اعجبوا من كفره بالله ، مع معرفته بكثرة إحسانه إليه ، وادعوا عليه بالقتل واللعن ونحو ذلك ، وقال ابن الشيخ : هذا الدعاء وارد على أسلوب كلام العرب ، فهو ليس من قبيل دعاء من يعجز عن انتقام من يسوءه ، وكذا هذا التعجب ليس على حقيقته ، لأنه تعالى منزه عن العجز والجهل ، بل المقصود بإيراد ما هو في صورة الدعاء ، الدلالة على سخطه العظيم ، والتنبيه على أنه استحق أهول العقوبات وأشنعها ، وبإيراد صيغة التعجب الذم البليغ له ، من حيث ارتكابه أقبح القبائح ، ولا شك أن السخط يجوز من الله وكذا الذم ، ويجوز أن يكون (مَا أَكْفَرَهُ) استفهاماً بمعنى التقريع والتوبيخ أي أيَّ شيء حمله على الكفر ؟ ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي من أي شيء حقير مهين خلقه ؟ ثم بيَّنه بقوله ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قذرة ﴿ خَلَقَهُ ﴾ فمن كان أصله مثل هذا الشيء الحقير ، كيف يليق به التكبر والتجبر ، والكفران بحق المنعم الذي كسا ذلك الحقير بمثل هذه الصورة البهية ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال ، فجعله مستعداً لأن ينتهي فيها إلى القدر اللائق بمصلحته ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أي سهَّل مخرجه من البطن ، بأن فتح فم الرحم ، وكان غير مفتوح قبل الولادة وألهمه أن ينتكس بأن ينقلب ويصير رجله من فوق ،

ورأسه من تحت ، ولولا ذلك لا يمكنها أن تلد ويسر له سبيل الخير والشر في الدين ، ومكنه من السلوك فيهما ، وذلك بالتنبيه والتعريف له بما هو نافع وضار ، والعقل ، وبعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب ونحو ذلك ، وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله : يسر على كل أحد ما خلقه له وقدره عليه ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ ﴾ أي ثم قبض روحه عند تمام أجله المقدَّر المسمَّى ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعله في قبر يوارىٰ فيه تكرمة له ، ولم يدعه مطروحاً على وجه الأرض ، للسباع والطير كسائر الحيوان ، قال في كشف الأسرار : لم يجعله مما يطرح للسباع أو يلقى كالجِيف ، والقبر مما أكرم به المسلمون انتهى يقال : قبر الميت إذا دفنه بيده ، وأقبره إذا أمر بدفنه .

وعدُّ الموت من النعم بالنسبة إلى المؤمن ، فإن بالموت يتخلص من سجن الدنيا ، وأيضاً إن شأن الموت أن يكون تحفة ووصلة إلى الحياة الأبدية ، والنعيم المقيم ، وإنما كان مفتاح كل بلاء ومحنة في حق الكافر ، من سوء اعتقاده ، وسيئات أعماله ، وفي بعض التفاسير : ذكرُ الإماتة إمَّا لأنها مقدمة الإقبار ، وإما للتخويف والتذكير بأن الحياة الدنيوية فانية ، آخرها الموت ، وعن الشافعي رحمه الله .

فلاَ تَمْشِينْ في منكِبِ الأرضِ فَاخِراً : فَعمَّا قَليلٍ يَحْتويكَ تُرَابُهَا

وإما الحث على الاستعداد وإما رعاية المقابلة بينه وبين أنشره تنبيهاً على كمال قدرته وتمام حكمته ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أي إذا شاء : إنشاره وإحياءه وبعثه ، أنشره وأحياه وبعثه ، وفي تعليق الإنشاء بمشيئته له إيذان بأن وقته غير متعين في نفسه ، بل هو تابع لها ، بخلاف وقت الموت ، فإنا نجزم بأن أحداً من أبناء الزمان لا يتجاوز مائة وخمسين سنة مثلاً ، وليس لأحد مثل هذا الجزم في النشور ، هكذا قالوا ، والموتُ من مقدمات القيامة ولذا ورد (من مات فقد قامت قيامته) أي لاتصال زمان الموت بزمان القيامة فهو قيامة صغرى مجهولة ، وفيه إشارة إلى أن الميت إن كان من أهل السعادة فإنشاره من قبور أهل السعادة وإن كان مدفوناً في قبور أهل الشقاوة ، وإن كان من أهل الشقاوة فإنشاره من قبور أهل الشقاوة ، وإن كان مدفوناً في قبور أهل السعادة ، ولذا قال صاحب المشارق في خطبة كتابه : إن من دفن بمكة ولم يكن لائقاً بها ، تنقله الملائكة إلى موضع آخر ، وحكي أن شخصاً كان يقال له (ابن هيلان) من المبالغين في التشيع ، بحيث يفضي إلى ما يستقبح في حق الصحابة ، مع الإسراف على نفسه ، بينما هو يهدم حائطاً إذ سقط فهلك ، فدفن بالبقيع فلم يوجد ثاني يوم الدفن ، في القبر الذي دفن به ، ولا التراب الذي ردم به القبر ، بحيث يستدل بذلك لنبشه ، وإنما وجدوا اللبن على حاله حسبما شاهده الجم الغفير ، حتى كان ممن وقف عليه القاضي جمال الدين ، وصار الناس يجيئون لرؤيته أرسالاً ، إلى أن اشتهر أمره ، وعُدَّ ذلك من الآيات التي يعتبر بها من شرح الله صدره ، نسأل الله السلامة ، وحكي أيضاً

أن محمد بن إبراهيم المؤذن حمل ميتاً في أيام الحج ولم يوجد من يساعده عليه غير شخص ، قال : فحملناه ووضعناه في اللحد ثم ذهب الرجل وجئت أنا باللبن لأجل اللحد فلم أجد الميت في اللحد فذهبت وتركت القبر على حاله ، ونقل أن بعض الصلحاء ممن لم يمت بالمدينة رؤي في النوم وهو يقول للرائي سلم على أولادي وقل لهم : إني قد حُملت ودفنتُ بالبقيع عند قبر العباس ، فإذا أراداوا زيارتي فليقفوا هناك ، ويسلّموا ويدعوا[1] كذا في المقاصد الحسنة للسخاوي ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ﴿ **لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ** ﴾

أي لم يقض الإنسان ما أمره الله به ، من الإيمان والطاعة ، ولم يؤده ولم يعمل به ، بل أخلّ ببعضها بالكفر والعصيان ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ** ﴾ شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه ، أي فلينظر الإنسان إلى طعامه الذي عليه يدور أمر معاشه ، كيف دبرناه ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : فلينظر الإنسان إلى طعامه ، ليعلم خسة قدره وفناء عمره ﴿ **أَنَّا صَبَبْنَا** ﴾ أنزلناه إنزالاً وافياً من السحاب ﴿ **الْمَاءَ** ﴾ أي الغيث وهو المطر المحتاج إليه ﴿ **صَبّاً** ﴾ عجيباً ﴿ **ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ** ﴾ بالنبات ، ولما كان الشق بعد الصب أورد كلمة ثم ﴿ **شَقّاً** ﴾ بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة ﴿ **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا** ﴾ أي في الأرض المشقوقة بالنبات ﴿ **حَبّاً** ﴾ **والحب** كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ﴿ **وعِنَباً** ﴾ المراد هنا شجرة العنب ، أفرده بالذكر من بين الثمار ، لأنه فاكهة من وجه يتلذذ به ، وطعام من وجه يتغذى به ، وهو من أصلح الأغذية ﴿ **وَقَضْباً** ﴾ أي رطبة هي نبات يقال له الفصفصة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الرطب التي تقضب من النخل ، ورجحه بعضهم لمناسبته بالعنب ، وقال بعضهم : هو مثل النعناع والبقدونس والكراث وغيرها ، التي يقطع ساقها من أصلها للأكل ثم يعود ﴿ **وَزَيْتُوناً** ﴾ هو ما يعصر منه الزيت ، والمراد شجرته وتعمر ثلاثة آلاف سنة ، خصه بالذكر لكثرة فوائده خصوصاً لأهالي بلاد العرب ، فإنهم ينتفعون به أكلاً وادهاناً واستضاءة ، وتطهراً ، فإنه يجعل في الصابون ﴿ **وَنَخْلاً** ﴾ هو شجر التمر جمع نخلة ، والرطب والتمر من أنفع الغذاء ﴿ **وَحَدَائِقَ غُلْباً** ﴾ جمع حديقة ، وهي الروضة ذات الشجر ، أو البستان من النخل والشجر ، أو كلّ ما أحاط به البناء أو القطعة من النخل ، والغُلْبُ : جمع أغلب ، كحمر جمع أحمر ، فالمعنى وحدائق عظاماً لتكاثفها وكثرة أشجارها ، أو لأنها ذات أشجار غلاظ ﴿ **وَفَاكِهَةً** ﴾ كثيرة

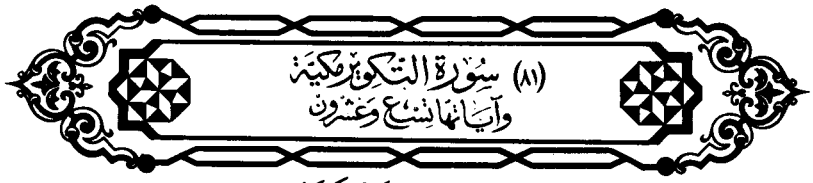
(١) هذه رؤيا منامية لا يثبت بها حكم شرعي ، فقد تكون واقعية كرامة من الله عز وجل لبعض عباده الصالحين ، وقد تكون مجرد رؤيا منامية ، وعلى كل حال فإن الأرض لا تقدّس شخصاً ولا تنجّسه ، وإنما يرفعه إيمانه ، وينجيه عمله إذا كان مؤمناً صالحاً ، والتقيُّ يكون قبره روضة من رياض الجنة ولو دُفن بين قوم مجرمين ، والشقيُّ يكون قبرهُ حفرة من حفر النار ولو دُفن بين قوم صالحين ، فالعبرة للعمل لا للمكان ، نسأل الله أن يجعل عملنا صالحاً ، ويختم لنا عمرنا بالموت على الإيمان ، إنه برٌّ رحيم ، جواد كريم .

غير ما ذكر من العنب ، والرمان والرطب من الفواكه ، لأن العطف يقتضي المغايرة ﴿ وَأَبّاً ﴾ أي مرعى من أبَّه إذا تهيأ له ؛ لأنه متهيء للرعي ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم ، فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم ، وبعضها علف لدوابهم ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ هي الداهية العظيمة التي يصيخ لها الخلائق ، أي يستمعون لها ، أو هي التي تصخ الآذان بشدة صوتها ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أي يُعرض الإنسان عنهم ، ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم ، كما في الدنيا ، لاشتغاله بحال نفسه ، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً ﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي لكل واحد من المذكورين ، شغل شاغل ، وخطب هائل ، يكفيه في الاهتمام به ، والهم الذي حصل له قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع ، وفي الخبر أن عائشة رضي الله عنها قالت يارسول الله كيف يحشر الناس ؟ قال : حفاة عراة ، قالت : وكيف تحشر النساء ؟ قال : حفاة عراة ، قالت عائشة : واسوأتاه النساء مع الرجال حفاة عراة ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال ياعائشة : الأمر أهمُّ وأعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (لِكُلِّ امْرِىءٍ)[1] الآية ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ أي مضيئة متهللة بنورية ذواتهم وصفاتها ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ذلك من قيام الليل وقد ورد (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار) وعن الضحاك من آثار الوضوء ، وقيل : من طول ما اغبرت في سبيل الله ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بما تشاهد من النعيم المقيم ، والبهجة الدائمة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي غبار وكدورة ، وفي الخبر (يلجم الكافرَ العرقُ ، ثم تقع الغبرة على وجوههم) وقيل : هي غبرة النفاق والذل ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي سواد وظلمة كالدخان ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، كما إذا اغبرَّ وجه الزنجي ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجه وغبرته ، هم الجامعون بين الكفر والفجور ، فلذا جمع الله إلى سواد وجوههم الغبرة ، وفي عين المعاني أولئك هم الكفرة في حقوق الله ، الفجرة في حقوق العباد .

تمت سورة عبس بفضل الله تعالى

• • •

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي بنحوه .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ كُوِّرت: لُفَّتْ ، من كَوَّرْتُ العمامة إذا لففتها ، بضم بعض أجزائها على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها عن مقرها نحو قوله تعالى (**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ**) وإما لف ضوئها المنبسط في الآفاق ، المنتشر في الأقطار وقيل : معنى « كُوِّرَتْ » ألقيت من فلكها في النار وقد ورد (إن الشمس والقمر نوران مكوران في النار يوم القيامة)[1] أي مرميان فيها ، والشمس والقمر جمادان ، فإلقاؤهما في النار لا يكون سبباً لمضرتها ، ولكنْ لازدياد الحر في جهنم ، كذا قال الطيبي : تكويرهما فيها ليعذب بهما أهل النار ، لاسيما عُبَّاد الأنوار ، لا ليعذبهما في النار ، فإنهما بمعزل عن التكليف ، وكذا قال في تفسير الفاتحة للفناري : إن السماء إذا طويت واحدة بعد واحدة ، يرمى بكواكبها في النار ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ** ﴾ وهي الكواكب ﴿ **انْكَدَرَتْ** ﴾ أي تناثرت وتساقطت بالسرعة كما قال (**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ**) والأصل في الإنكدار الإنصباب ، فإن السماء تمطر يومئذ نجومها فلا يبقى في السماء نجم إلا وقع على وجه الأرض ، وذلك أن النجوم على ما روى ابن عباس رضي الله عنهما في قناديل معلقة بين السماء والأرض ، بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ، فإذا مات من في السموات ومن في الأرض ، تساقطت تلك الكواكب من أيديهم ، لأنه مات من يمسكها ﴿ **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** ﴾ رفعت عن وجه الأرض ، وأبعدت عن أماكنها ، بالرجفة الحاصلة ﴿ **وَإِذَا الْعِشَارُ** ﴾ جمع عُشَراء كنِفَاس ونُفَساء ، والعُشَراء هي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ، وهي أنفس أموال العرب ، ومعظم أسباب معاشهم ﴿ **عُطِّلَتْ** ﴾ أي تركت مسيَّبة مهملة ، غير منظور إليها ، مع كونها محبوبة مرغوبة عند أهلها ، لاشتغال أهلها بأنفسهم ، وذلك عند مجيء مقدمات قيام الساعة ، فإن الناس حينئذ يتركون الأموال والأملاك ، ويشتغلون بأنفسهم ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ** ﴾ قال في القاموس : الوحش حيوان البر والجمع وحوش ووحشان ، وهو اسم لما لا يستأنس بالإنسان من حيوان البر ﴿ **حُشِرَتْ** ﴾ أي جمعت من كل جانب ، واختلط بعضها ببعض ، وبالناس ، مع نفرة بعضها عن البعض ، وتفرقها في الصحاري والقفار ، وذلك الجمع من هول ذلك اليوم ، وقيل : بُعثت للقصاص إظهاراً للعدل ، قال قتادة : يحشر كل شيء للقصاص ، فإذا قضي بينها رُدت تراباً ، فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم كالطاووس والبلبل ونحوهما فإذا بعثت الحيوانات للقصاص تحقيقاً لمقتضى العدل ، فكيف يجوز مع هذا أن لا يحشر المكلفون من الإنس والجن ؟ ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** ﴾ أي أحميت ، أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض ، حتى تعود بحراً واحداً ، مختلطاً عذبُها بملحها ، فتعمُّ الأرض كلها ،

(١) أخرجه البزار في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣١٨ .

ووجه ذلك أن الجبال تندك وتتفرق أجزاؤها ، وتصير كالتراب الهائل الغير متماسك فلا جرمّ تنصبُّ أجزاؤها في أسافلها ، فتمتلىء المواضع الغائرة من الأرض ، فيصير وجه الأرض مستوياً مع البحار ، فتصير البحار بحراً واحداً مسجوراً أي ممتلئاً ، وعن الحسن رحمه الله : يذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة ، قال الراغب وإنما يكون كذلك لتسجير النار فيها أي إضرامها ، وخصت هذه السورة بسجرت موافقة لقوله (**سُعِّرَتْ**) لان معنى سجرت عند أكثر المفسرين أوقدت فصارت ناراً ، فيقع التوعد بتسعير النار وتسجير البحار ، وخصت سورة الإنفطار بفجرت ، موافقة لقوله (**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**) لأن في كل من تساقط الكواكب ، وسيلان المياه على وجه الأرض مقابلة كل واحد بقرينه ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ التزويج جعل أحد زوجاً لآخر وهو يقتضي المقارنة ، أي قُرنت بأجسادها بأن رُدَّت إليها ، أو قرنت كل نفسٍ بشكلها وبمن كان في طبقتها في الخير والشر ، فيضم الصالح إلى الصالح ، والفاجر إلى الفاجر ، أو قرنت بكتابها أو بعملها ، فالنفوس المتردة زوجت بأعمالها السيئة ، والمطمئنة بأعمالها الحسنة ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ** ﴾ أي المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات مخافة الفقر ، والاسترقاق ، أو لحوق العار بهم من أجلهن ، وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقُوا البناتِ به فهو أحق بهن ، قال في الكشاف : كان الرجل إذا ولدت له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى بلغت ست سنين ، فيقول لأمّها طيِّبيها وزيِّنيها ، حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر ، فيقول لها انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ، ويُهيل عليها التراب ، حتى يستوي البئر بالأرض ، وقيل : كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته ﴿ **سُئِلَتْ** ﴾ أي سألها الله إظهاراً للعدالة ﴿ **بِأَيِّ ذَنْبٍ** ﴾ من الذنوب الموجبة للقتل ﴿ **قُتِلَتْ** ﴾ قتلها أبوها فعلاً أو رضىً ، وتوجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها والمبالغة في تبكيته ، كما في قوله تعالى (**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ**) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن أطفال المشركين ، فقال : لا يُعذَّبون ، واحتج بهذه الآية ، فإنه ثبت بها أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب ﴿ **وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ** ﴾ أي صحف الأعمال ، فإنها تطوى عند الموت ، وتنشر عند الحساب ، أي تفتح فيعطاها الإنسان ، منشورة بأيمانهم وشمائلهم ، فيقف على ما فيها ، وتحصى عليه جميع أعماله ، فيقول (**مَالِ هَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**) وفي الحديث « يحشر الناس عُراة حَفاة » فقالت أم سلمة رضي الله عنها : فكيف بالنساء ؟ فقال : « شغل النساء ياأم سلمة ، قالت : وما شغلهم ؟ قال : نشر الصحف ، فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل

الخردل »[١] وقيل : نشرت أي فرقت بين أصحابها ، وعن مرثد بن وادعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أي مكتوب فيها ذلك ، وهي صحف غير صحف الأعمال ﴿ **وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ** ﴾ قلعت وأزيلت ، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغِطاء عن الشيء المستور به ، قال الراغب : هو من كشطِ الناقة أي تنحية الجلد عنها ﴿ **وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ** ﴾ أي أوقدت للكافرين إيقاداً شديداً ليُحرقوا بها ﴿ **وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ** ﴾ الإزلافُ : التقريب ، أي قربت من المتقين ليدخلوها كقوله تعالى (**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**) وعن الحسن رحمه الله أنهم يقربون منها ، لا أنها تزول عن موضعها وهذه اثنتا عشر خصلة ، ستٌّ منها في الدنيا أي فيما بين النفختين وهن من أول السورة إلى قوله (**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ**) على أن المراد بحشر الوحوش جمعها من كل ناحية ، لا بعثها للقصاص ، وفي الآخرة أي بعد النفخة الثانية ، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه : ست آيات قبل القيامة بينما الناس في أسواقهم إذْ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذْ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت ، وفزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، وماج بعضهم في بعض ، فحينئذ تقول الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فينطلقون إلى البحر فإذا هو نار تتأجج أي تتهلب ، قال فبينما هم كذلك إذ صدعت الأرض صدعة واحدة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ** ﴾ أي علمت كل نفس من النفوس ما أحضرته والمراد بـ«ما أحضرت» أعمالها من الخير والشر ، تشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة ، فإن كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن ، لأن الطاعات لا تخلو فيها من نوع مشقة وقد ورد (حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات)[٢] وإن كانت سيئة تشاهدها بأقبح صورة ، وتنفر منها كما قال تعالى (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**) وفي الحديث « إن العبد المؤمن بين مخافتين ، عمرٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وأجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليتزودْ العبدُ لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشباب قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالله ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار »[٣] ﴿ **فَلاَ أُقْسِمُ** ﴾ لا صلة ، أوردٌ لكلام سابق أي ليس الأمر كما تزعمون أيها الكفرة ،

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم ، بنحوه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٠٢ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذي في باب صفة الجنة وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٢١ .

(٣) هذا الحديث من أحد خطب النبي ﷺ التي خطبها في أصحابه .

من أن القرآن سحر ، أو شعر ، أو أساطير ، ثم ابتدأ فقال : أقسم ﴿ بِالْخُنَّسِ ﴾ جمع خانس وهو المتأخر من خنس الرجل عن القوم إذا تأخر ، وأصل الخنوس الرجوع إلى خلف ، والخناس الشيطان لأنه يضع خرطومه على قلب العبد ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل عاد إلى الوسوسة ، والمعنى : أقسم بالكوكب الرواجع من الدراري الخمسة ، وهي المريخ ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة ، والمشتري ، ثم الشمس ، والقمر ، وهي الكواكب السبعة السيارة ، كل منها يجري في فلك ، فالقمر في الأول ، وما يليه في الثاني وهكذا على الترتيب ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ الجواري جمع جارية بمعنى سائرة ، والكنس جمع كانس وهو الداخل في الكُناس المستترة ، وصفت الخنس بها لأنها تجري في أفلاكها وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها بينا ترى النجم في آخر البرج ، إذْكرَّ راجعاً إلى أوله فرجوعه من آخر البرج إلى أوله هو الخنوس ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي أدبر ظلامه ، لأن إقبال الصبح يكون بإدبار الليل ، أو أقبل ، فإنه من الأضداد ، وذلك في مبدأ الليل ، وهذا المعنى أنسب لمراعاة المقابلة مع قرينه ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أقسم الله بالليل مدبراً ، وبالصبح مضيئاً ، يقال : تنفس الصبح إذا تبلج أي أضاء وأشرق ، جعل تنفس الصبح عبارة عن طلوعه وانبساطه تحت ضوئه ، بحيث زال معه ظلمة الليل ، ﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للقرآن وإن لم يجر له ذكر ، للعلم به ، وهو جواب القسم ، وجه القسم بهذه الأشياء أن فيها ظهور كمال الحكمة ، وجلال القدرة ، يقول الفقير : سِرُّ الإقسام بها أن القرآن نور من الله ، فلا يرد إلى على القلب النوراني ، الذي هو بمنزلة القمر ، وعلى الروح الذي هو بمنزلة الشمس ، وعلى القوى الروحانية التي هي بمنزلة سائر السيارات المضيئة ، وهذه الأنوار لا تظهر في الوجود الإنساني ، إلا بزوال آثار الطبيعة والنفس ، وظهور آثار القلب والروح ، فإذا أشرقت أنوار الروح في ليل الوجود ، أضاء جميع ما في الوجود ، وزال الظلام ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هو جبريل عليه السلام قاله من جهة الله ، قال السهيلي : ولا يجوز أنه أراد به أنه قول النبي عليه السلام ، لأن الآية نزلت في معرض الرد والتكذيب لمقالة الكفار ، الذين قالوا إن محمداً عليه السلام يقوله وهو قوله ، فقال الله تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فأضافه إلى جبريل الذي هو أمين وحيه ، وهو في الحقيقة قول الله ، لكنه أضيف إلى جبريل لأنه جاء به من عند الله ، فإسناده إليه باعتبار السببية في الإنزال والإيصال ، ويدل على أن المراد بالرسول هو جبريل ، ما بعده من ذكر قوته ، ونحوها وَصْفُه برسول لأنه رسول عن الله إلى الأنبياء ، وبكريم أي على ربه عزيز ، عظيم عنده ، وكذا عند الناس لأنه يجيء بأفضل العطايا وهو المعرفة والهداية ، ويتعطف على المؤمنين ، ويقهر الأعداء ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ شديدة كقوله تعالى (شَدِيدُ الْقُوىٰ) أي ذي قدرة على ما يكلف به ، لا عجز به ولا ضعف ، ومن قوته أنه رفع قريات قوم لوط الأربع من الماء الأسود ، بقوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب ،

وأصوات الديكة ، ثم قلبها ، ومن قوته أنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ أي الله تعالى ، وفي إيراد « ذِي العرش » إخبار بغاية كبريائه في القلوب ﴿ مَكِينٍ ﴾ ذي مكانة رفيعة عند الله ، ومن مكانته عند الله ومرتبته ، أنه تعالى عطفه على نفسه في قوله

(فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ) فله عظم منزلة عندية ، فأين منزلة من يلازم السلطان من مرتبة من يلازم الرحمن !! ﴿ مُطَاعٍ ﴾ فيما بين الملائكة المقربين ، يصدرون عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه ، لعلمهم بمنزلته عند الله ، فطاعة جبريل فريضة على أهل السموات ، كما أن طاعة محمد عليه السلام فريضة على أهل الأرض ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ على الوحي قد عصمه الله من الخيانة والزلل ، وثَمَّ بفتح الثاء ظرف مكان أي مطاع هناك في السموات أي مؤتمن عند الله على وحيه ورسالاته إلى الأنبياء ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ ياأهل مكة وهو رسول الله ﷺ ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تقولون ، وذكر « صاحبكم » للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام خُبراً وعلمهم بنزاهته عما نسبوه إليه بالكلية ، فإنه كان بين أظهرهم في مدد متطاولة ، وقد جربوا عقله ، فوجدوه أكمل الخلائق فيه ، ولقبوه بالأمين الصادق ، وقد استدل به البعض على فضل جبرائيل على رسول الله ، حيث وصف جبريل بست خصال ، كل واحدة منها تدل على كمال الشرف ، ونباهة الشأن ، واقتصر في ذكر رسول الله على نفي الجنون عنه ، وهذا الإستدلال ضعيف ، إذا المقصود رد قول الكفرة في حقه عليه السلام (يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) لا تعداد فضائلها والموازنة بينهما ، على أن في توصيف جبريل بهذه الصفات ، بياناً لشرف سيد المرسلين بالنسبة إليه ، من حيث إن جبريل مع هذه الصفات هو الذي يؤيّده ، ويبلغ الرسالة إليه ، فأي رتبة أعلى من مرتبته أنه السفيرُ بينه وبين ذي العرش ، مثل هذا الملك المقرب ؟ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ وبالله لقد رأى رسول الله جبريل ﴿ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أفق السماء : ناحيتُها ، والمبين بمعنى الظاهر أي بمطلع الشمس الأعلى من ناحية المشرق ، فالمراد بالأفق هنا حيث تطلع الشمس ، استدلالاً بوصفه بالمبين ، فإن نفس الأفق لا مدخل له في تبيين الأشياء وظهورها والكوكب المبين هو الشمس ، رُوي أن رسول الله ﷺ سأل جبريل أن يتراءى له في صورته التي خلقه الله عليها ، فقال : ما أقدر على ذلك ، وما ذاك إليّ ، فأذن الله له فأتاه عليها وهو راجع من جبل حراء ، في أوائل البعثة ، فرآه رسول الله قد ملأ الآفاق ، رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب ، وله ستمائة جناح من الزبرجد الأخضر ، فغشي عليه ، فتحوَّل جبريل إلى صورة بني آدم ، وضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه ، قالوا : ما رآه أحد من الأنبياء غيره عليه السلام . في صورته التي جبل

عليها ، فهو من خصائصه عليه السلام ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي رسول الله ﴿ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أي ما يخبره من الوحي وغيره من الغيوب ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي ببخيل أي لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه ، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً أي أجرة ، أو يُسأل تعليمه فلا يُعلِّمه ، وفيه إشارة إلى أن إمساك العلم عن أهله بخلٌ ، من ضَنَّ بالشيء يضن أي بخل ، فهو ضنين به أي بخيل وقرىء بظنين أي بمتهم أي هو ثقة في جميع ما يخبره ، لا يتوهم فيه أنه ينطق عن الهوى واختار أبو عبيدة هذه القراءة ، لأن الكفار لم يبخّلوه ، وإنما اتهموه ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أي قول بعض الشياطين المسترقة للسمع ، دل عليه توصيفه بالرجيم ، لأنه بمعنى المرمي بالشهب ، وهو نفي لقولهم إنه كهانة وسحر ، كما قال تعالى (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه ، في أمر القرآن ، كما تقول لمن ترك الجادة بعد ظهورها : هذا الطريق الواضح ، فأين تذهب ؟ شبهت حالهم بحال من يترك الجادة وهو معظم الطريق ويتعسف إلى غير المسلك ، فإنه يقال له أين تذهب استضلالاً له ، وإنكاراً على تعسفه ، فقيل لمن يقول في حق القرآن مالا ينبغي أيَّ طريق تسلكون آمنٌ من هذه الطريقة ، التي ظهرت حقيتها ووضحت استقامتها ؟ ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ إن نافية والضمير إلى القرآن أي ما هو ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ موعظة وتذكير لهم ، والمراد الإنس والجن بدلالة العقل فإنهم المحتاجون إلى الوعظ والتذكير ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾ أيها المكلفون بالإيمان والطاعة ﴿ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أي لمن شاء الاستقامة بتحري الحق ، وملازمة الصواب ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ ﴾ أي الاستقامة ، وذلك أن الخطاب في قوله (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ) يدل على أن منهم من يشاء الاستقامة ، ومن لا يشاؤها ، فالخطاب هنا لمن يشاؤها منهم ، يروى أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) قال : الأمرُ إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فنزل قوله تعالى وما تشاؤون الخ ﴿ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي إلا وقت أن يشاء الله ، فإن مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله لها ، لأن المشيئة الاختيارية مشيئة حادثة ، فلا بُدَّ لها من محدث ، فيتوقف حدوثها على أن يشاء محدثها إيجادها ، فظهر أن فعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة ، وهذه الإرادة موقوفة الحصول على أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة ، فأفعال العباد ثبوتاً ونفياً موقوفةٌ الحصول على مشيئة الله ، كما عليه أهل السنة ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ مالك الخلق ومربيهم أجمعين قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : عجزك يا ابن آدم في جميع صفاتك ، فلا تشاء إلا في مشيئته ، ولا تعمل إلا بقوته ، ولا تطيع إلا بفضله ، ولا تعطي إلا بخذلان ، فماذا يبقى له ، وبماذا تفتخر من أعمالك ؟ وليس منها شيء إليك إلا بتوفيقه .

وفي الحديث « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين ، فليقرأ : إذا الشمس كورت ، « وإذا السماء انفطرت ، وإذا الشمس انشقت »[١] فإن فيها بيان أهواله الهائلة على التفصيل .

تمت سورة التكوير بعون الملك القدير

• • •

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند والترمذي والحاكم وصححه ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣١٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً) أو لهيبة الرب وفي فتح الرحمن تشققها على غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لنزول بنيتها ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ أي تساقطت من مواضعها سوداء متفرقة ، كما تتساقط اللآلىء إذا انقطع السلك ، وهذان من أشراط الساعة ، فإن السماء في هذا العالم كالسقف والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار ، فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف ، ثم بتخريب بقية البناء ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ فتح بعضها إلى بعض ، بزوال المانع ، وتزلزل الأرض وتصدعها ، وصارت البحار بحراً واحداً ﴿ وَإِذَا الْقُبُوُرُ بُعْثِرَتْ ﴾ قلب ترابها وأخرج ، يقال بعثرت المتاع أي جعلت أسفله أعلاه ، وجعلُ أسفلِ القبور أعلاها ، إنما بإخراج موتاها ، وهذان من أشراط الساعة متعلقان بالسفليات ، فإنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب ، يخرب كل ما على وجه الأرض بنفوذ بعض البحار في بعض ، ثم يخرب نفس الأرض التي هي كالبناء بأن يقلبها ظهراً لبطن ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كل نفس برة كانت أو فاجرة ﴿ مَا قَدَّمَتْ ﴾ في حياتها من عمل خير أو شر ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ من سنة حسنة أو سيئة ، يُعمل بها بعده قال عليه السلام « أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجر من اتبعه ، إلا أنه لا ينقص من أجورهم شيء ، وأيما داع دعا إلى الضلالة فاتبع ، فله مثل أوزار من اتبعه ، إلا أنه لا ينقص من أوزارهم شيء »[1] وقوله (عَلِمَتْ) الخ جواب إذا أي إذا وقعت هذه الأشياء ، وخربت الدنيا ، علمت كل نفس إلخ لكن لا على أنها تعلمه عند البعث ، بل عند نشر الصحف لما عرفت في السورة السابقة ، من أن المراد بها زمان واحد ، مبدأه النفخة الأولى ، ومنتهاه الفصل بين الخلائق ، وإنما كررت للتهويل ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ يعم جميع العصاة قال الإمام لبسهيلي رحمه الله : يريد « أمية بن خلف » ولكن اللفظ عام يصلح له ولغيره ، وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ما استفهامية والاستفهام بمعنى التوبيخ والمعنى أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه ، وأمَّنك من عقابه ؟ وقد علمتَ ما بين يديك من الدواهي ، وما سيكون حينئذ من مشاهدة أعمالك كلها ؟ والتعرض لعنوان كرمه تعالى ، للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدار الاغترار ، حسبما يغويه الشيطان ، ويقول له افعل ما شئتَ فإن ربك كريم ، كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك ، الموصوف بالصفات الجليلة ؟ ولهذا قال بعض

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم وصححه بلفظ (من استن خيراً فاستُنَّ به فله أجره ومثل أجور من اتبعه ..) الحديث والرواية التي ذكرها المصنف رواها ابن ماجه عن أنس مرفوعاً وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٩٥ .

السلف الصالح لما قرأها : غرَّه جهله ، وقال الحسن البصري رحمه الله : غرَّه والله شيطانُه ، فظهر أن كرم الكريم ، لا يقتضي الاغترار به ، بل يقتضي الخوف والحذر من مخالفته وعصيانه ، قال القاشاني : كأن كونه كريماً يُسوِّغ الغرور ويسهِّله ، لكن له من النعم الكثيرة ، والمنن العظيمة ، والقدرة الكاملة ، ما يمنع من ذلك ، وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن أقامك الله يوم القيامة ، وقال لك : ما غرك بربك الكريم ، ماذا تقول ؟ قال أقول : غرتني ستورك المرخاه ، ونظمه ابن السماك فقال :

يَاكَاسِبَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي * وَاللهُ فِي الخَلْوةِ ثَاتِيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ * وَسَتْرُه طُولَ مَسَاوِيكَا

قال صاحب الكشاف : قول الفضيل على سبيل الاعتراف بالخطأ ، في الاغترار بالستر ، وليس باعتذار كما يظنه الطُمَّاع ، ويرونه من أُمَّتهم ويقولون : إنما قال « بربك الكريم » دون صفاته من الجبار ، والقهار ، والمنتقم ، وغير ذلك ، ليلقِّن عبده الجواب ، حتى يقول غرَّني كرم الكريم[1] ، وقال يحي بن معاذ : غرني برك سالفاً وآنفاً ، وأنشد :

يَقُولُ مَوْلايَ أَمَا تَسْتَحِي * مِمَّا أَرى مِن سُوءِ أَفْعَالِكَ
فقلتُ يا مَوْلايَ رِفْقاً فَقَدْ * أَفْسَدَنِي كَثْرَةُ إِفْضَالِكَ

وعن علي رضي الله عنه أنه صوت بغلام له مراراً فلم يجبه ، وهو بالباب ، فقال : لم لم تجبني ؟ فقال : لثقتي بحلمك ، وأمني من عقوبتك ، فأعتقه استحساناً لقوله ، وينبغي على الإنسان ألا يقنط من رحمة الله ، قال بعضهم : رأيت في سوق البصرة جنازة يحملها أربعة ، وليس معهم مشيِّع ، فقلتُ : لا إله إلا الله ، سوق البصرة ، وجنازة رجل مسلم ، لا يُشيِّعها أحد إنّى لأشيِّعها فتبعتها ، وصليتُ عليها ، ولما دفنوه سألتهم عنه ، قالوا : ما نعرفه ، وإنما استأجرتنا تلك المرأة ، وأشاروا إلى امرأة واقفة قريباً من القبر ، ثم انصرفوا ، فرفعت المرأة يدها إلى السماء تدعو ، ثم انصرفت ، فتعلقتُ بها ، وقلت : لابد أن تخبريني بقضيتك ، فقالت : إن هذا الميت ابني ، ولم يترك شيئاً من المعاصي إلا فعله ، فمرض ثلاثة أيام ، فقال لي يا أمي : إذا مت فلا تخبري الجيران فإنهم يفرحون بموتى ، ولا يحضرون جنازتي ، ولكن اكتبي على خاتمي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وضعيه في قبري وضعي رجلك على خدي إذا متُّ وقولي : هذا جزاء من عصى الله ، فإذا دفنتني فارفعي يديك إلى الله وقولي اللهم : إني رضيت عنه فارض عنه ،

---

(١) الآية وردت مورد العتاب والتوبيخ وليس لتلقين الحجة للعاصي ، والمعنى أيُّ شيء خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيتَه وتجرأت على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك ، ففيها زيادة تشنيع وتوبيخ كأنه يقول له : كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بالتمرد والطغيان ؟.

فلما مات فعلت جميع ما أوصاني به ، فلما رفعت يدي إلى السماء ودعوت سمعت صوتاً بلسان فصيح يقول انصرفي فقد قدمتُ على رب كريم رحيم » أورده الإمام القشيري في شرح الأسماء ، وفي الحديث الصحيح « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه وستره ، فيقول أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال سترتها عليك في الدنيا ،وأنا أغفرها لك اليوم »[1] ﴿ **الَّذِي خَلَقَكَ** ﴾ أي خلقك بعد أن لم تكن شيئاً ﴿ **فَسَوَّاكَ** ﴾ أي جعل أعضاءك سوية سليمة ، بحيث يترتب على كل عضو منها منفعته التي خلق ذلك العضو لأجلها ، كالبطش لليد ، والمشي للرجل ، والتكلم للّسان ، والإبصار للبصر ، والسمع للأذن ، إلى غير ذلك ﴿ **فَعَدَلَكَ** ﴾ عدل بعض تلك الأعضاء ببعض ، بحيث اعتدلت ولم تتفاوت ، مثل أن تكون إحدى اليدين أو الرجلين أو الأذنين أطول من الآخرى ، أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود أو بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر ، قال علماء التشريح : إنه تعالى ركب جانبي هذه الجثة على التساوي ، حتى إنه لا تفاوت بين نصفيْه ، لا في العظام ، ولا في أشكالها ، ولا في الأوردة ، والشرايين ، والأعصاب النافذة فيها فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر ﴿ **فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ « ما » مزيدة لتعميم النكرة ، والمعنى ركبك في أي صورة شاءها ، واقتضتها مشيئته وحكمته ، من الصور العجيبة الحسنة ، أو من الصور المختلفة في الحسن والقبح ، والطول والقصر ، والذكورة والأنوثة ﴿ **كَلاَّ** ﴾ كلمة ردع أي ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله ، وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصي ، مع كونه موجباً للشكر والطاعة ﴿ **بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ** ﴾ عطف على جملة ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل : أنتم لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئون على أعظم من ذلك ، حيث تكذبون بالجزاء والبعث ، ويراد بالدين الجزاء ، ومنه الديان في صفة الله ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** ﴾ والحال أن عليكم من قبلنا الملائكة ، حافظين لأعمالكم ﴿ **كِرَاماً** ﴾ جمع كريم ، أي كراماً على الله لطاعتهم له ، أو لآداء الأمانة ، وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام ﴿ **كَاتِبِينَ** ﴾ للأعمال ﴿ **يَعْلَمُونَ** ﴾ لحضورهم وعدم افتراقهم عنكم ﴿ **مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ من الأفعال قليلاً وكثيراً ، ويضبطون نقيراً وقطميراً وقد ورد (أكرموا الكرام الكاتبين ، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى الحالتين : الجنابة ، والغائط) قال في عين المعاني : قوله (**يَعْلَمُونَ**) يدل على أن السهو والخطأ ومالا تبعة فيه لا يكتب ، وكذا ما اسْتُغْفِر منه ، حيث لم يقل (**يَكْتُبُونَ**) انتهى .

وقوله (مَا تَفْعَلُونَ) وإن كان عاماً لأفعال القلوب والجوارح، لكنه عام مخصوص بأفعال الجوارح، لأن ما كان من المغيبات لا يعلمه إلا الله ، وفي كشف الأسرار : علمهم على وجهين : فما كان من ظاهر قول ، أو حركة جوارح ، علموه بظاهره ، وكتبوه على جهته ، وما كان من باطن ضمير يقال إنهم يجدون لصالحه

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه ، وله أصل في الصحيحين ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٥٧ .

رائحة طيبة ، ولطالحة رائحة خبيثة ، فيكتبون مجملاً عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً انتهى . وعن الفضيل أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : **ما أشدها من آية على الغافلين** ، ففيها إنذار وتهويل ، وتشديد للعصاة ، وتبشير ولطف للمطيعين ، وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم ، تفخيمٌ لأمر الجزاء ، وأنه عند الله من جلائل الأمور ، حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام ، فالتعظيم إنما هو في وصفهم بالكرم ، لا بالكتب والحفظ ، وطعن بعض المنكرين في حضور الكاتبيين فقال : لو كانت الحفظة وصحفهم وأقلامهم معنا ونحن لا نراهم ، لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وأشخاص لا نراهم ، وذلك دخول في الجهالات ، وجوابه : أن الملائكة من قبيل الأجسام اللطيفة ، فحضورهم لا يستلزم الرؤية ، ألا ترى أن الله أمدَّ المؤمنين في بدر بالملائكة وكانوا لا يرونهم ، وكذا الجن من هذا القبيل ، ولذا قال تعالى (**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**) فكما أن الهواء لا يُرى للطافته ، فكذا غيره من أهل اللطافة ، وأما الكتابة والضبط ، فليس لتطرق النسيان ، بل ليكون حجة على الناس ، وتشديداً عليهم بإقامتها ، والله يُجري أموره على عباده على ما يتعارفونه في الدنيا بينهم ، ليكون أبلغ في تقرير المعنى عندهم ، من إخراج كتاب ، وإحضار شهود عدل ، في إلزام الحجة عند الحاكم ، والعبد إذا علم أن الله رقيبٌ عليه ، والملائكة يحفظون أعماله ، ويكتبونها في الصحيفة ، وتُعرض على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، كان ذلك أزجر له عن المعاصي ، وأمنع من السوء ، وأما بالنسبة إلى علم الملائكة ، فقد قال الإمام الغزالي رحمه الله : كل ذكر يشعر به قلبك تسمعه الملائكة الحفظة ، فإن شعورهم يقارن شعورك ، حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك غاب عن شعور الحفظة أيضاً ، ومادام القلب يلتفت إلى الذكر فهو معرض عن الله ، وفُهم من هذا المقال أن قياس اطلاع الملائكة على الوقائع ، وعلى اطلاع الناس غير مستقيم ، فإن شؤونهم علماً وعملاً غير شؤون الناس ، على أن من أصلح من الناس سريرته ، قد يكشف الله له ، ويطَّلع على الغيوب بإطلاع الله تعالى ، فما ظنك بالملائكة الذين هم ألطف جسماً ، وأخف روحاً ؟ ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ** ﴾ الذين صدقوا في إيمانهم ، بأداء الفرائض ، واجتناب المعاصي ، جمعَ بَرٍّ بالفتح وهو بمعنى الصادق ، والمطيع ، والمحسن ، وأحسن الحسنات (لا إله إلا الله) ثم بر الوالدين ، وبرُّ التلامذه للأساتذة ﴿ **لَفِي نَعِيمٍ** ﴾ وهو نعيم الجنة وثوابها ، والتنوينُ للتفخيم ﴿ **وَإِنَّ الْفُجَّارَ** ﴾ جمع فاجر والفجور شق ستر الديانة ﴿ **لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ أي النار وعذابها ، والتنوين للتهويل ، والجملتان بيان لما يكتبون لأجله ، هو أن الغاية إما النعيم ، وإما الجحيم ، ﴿ **يَصْلَوْنَهَا** ﴾ يقاسون حرها ، قال الخليل : صَلِيَ الكافر النار : قاسى حرَها ، وباشره ببدنه ، ولم يصف النعيم بما يلائمه ، لأن المقام مقام التخويف ، وذكر تبشير الأبرار لأنه ينكشف به حال الفجار الأشرار ، لأن الأشياء تُعرف بأضدادها ﴿ **يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿ **وَمَا هُمْ عَنْهَا** ﴾ أي عن الجحيم ﴿ **بِغَائِبِينَ** ﴾ طرفة عين كقوله تعالى (**وَمَا هُمْ**

بِخَارِجِينَ مِنْها) وقيل : وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك ، بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم ، حسبما قال النبي عليه السلام « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران »[1] ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ** ﴾ الخطاب لكل من يتأتى منه الدراية وما مبتدأ وأدراك خبره ﴿ **مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾ والمعنى أي شيء جعلك دارياً وعالماً ما يوم الدين ؟ فإنه شيء عجيب في الهول والفظاعة ﴿ **ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾ التكرير للتأكيد ، وزيادة التخويف ، وتفخيماً لشأن اليوم ، وإظهاراً لهوله وفخامته ﴿ **يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل ما في القرآن من قوله تعالى (**وَمَا أَدْرَاكَ**) فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله (**وَمَا يُدْرِيكَ**) فقد طُوي عنه والمعنى : يوم لا تملك فيه نفسٌ من النفوس ، لنفسٍ من النفوس شيئاً من الأشياء ﴿ **وَالأَمْرُ** ﴾ كله ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **للهِ** ﴾ وحده ، فإن الأمر ، والحكم ، والقضاء ، من شأن الملك المطاع ، والخلقُ كلهم مقهورون تحت سطوات الربوبية وحكمها ، ويجوز أن يكون واحد الأمور ، فإن أمور أهل المحشر كلها بيده تعالى ، لا يتصرف فيها غيره ، أخبر تعالى بضعف الناس يومئذ ، وأنه لا تنفعهالأموال ، والأولاد ، والأعوان ، والشفعاء ، كما في الدنيا ، بل ينفعهم الإيمان ، والبر ، والطاعة ، وأنه لا يقدر أحد أن يتكلم إلا بإذن الله وأمره ، إذ الأمر له في الدنيا والآخرة ، وإن كان يظهر سلطانه في الآخرة بالنسبة إلى المحجوب ، لأن المحجوب يرى أن الله ملَّكه في الدنيا ، وجعل له شيئاً من الأمور ، فإذا كانَ يومِ القيامة ، يظهر له أن الأمر والملك لله تعالى ، لا يزاحمه فيه أحد ، ولا يشاركه ولو صورة ، وفيه تهديد لأرباب الدعاوى ، وأصحاب المخالفة ، وتنبيه على عظيم بطشه تعالى وسطوته .

تمت سورة الإنفطار بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيدٍ الخدري بلفظ (إنما القبرُ روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) ورواه رزين عن ابن مسعودٍ وبنحوه ، وانظر جامع الأصول ١١ / ١٧٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ ﴾ شدة الشر أو الهلاك وقال ابن كيسان : هو كلمة كل مكروب واقع في البلية ، فقولك : ويلٌ لك عبارة عن استحقاق المخاطب لنزول البلاء والمحنة عليه ، وقيل : أصله وي لفلان أي الحزن ، فقرن بلام الإضافة تخفيفاً ، وهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الباخسين حقوق الناس ، في المكيال والميزان فإن التطفيف : البخسُ في الكيل والوزن ، والنقص والخيانة فيهما ، بأن لا يعطي المشتري حقه تماماً كاملاً ، وذلك لأن ما يُبخس شيء طفيف حقير ، على وجه الخفية ، يدل على دناءة الكيَّال والوزَّان وخساستها ، روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وكان أهلها من أبخس الناس كيلاً فنزلت ، فخرج فقرأها عليهم وقال : (خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سلَّط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفَّفوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلاَّ حُبس عنهم القطر)[1] فعملوا بموجبها وأحسنوا الكيل ، فهم أوفى الناس كيلاً إلى اليوم ، وعن علي رضي الله عنه أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح ، فقال : أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت ، كأنه أمره أولاً بالتسوية ليعتادها ، ويفصل الواجب من النفل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما « إنكم معشر الأعاجم ، وليُتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم ، المكيال ، والميزان » ، وعن الفضيل : بخسُ الميزان سوادُ الوجه يوم القيامة ، وعن مالك بن دينار أنه دخل على جار له احتضر فقال يامالك : جبلان من نار بين يديَّ أُكلِّف الصعود عليهما ، فسألت أهله فقال كان له مكيالان يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر ، فدعوت بهما فضربتُ أحدهما بالآخرة حتى كسرتهما ثم سألت الرجل فقال ما يزداد الأمر عليَّ إلاّ عظماً ، نسأل الله الحفظ والسلامة ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي من الناس مكيلهم ، بحكم الشراء ونحوه ، والاكتيال الأخذ بالكيل ، كالاتزان الأخذ بالميزان ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي يأخذونه وافياً وافراً ، بأي وجه يتيسر من وجوه الحِيَل ، وكانوا يفعلونه بكبس الكيل ، وتحريك المكيال ، والاحتيال في ملئه ، فيسرقون من أفواه المكاييل ، وألسنة الموازين ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أي وإذا كالوا للناس ، أو وزنوا لهم المبيع ، فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال في تاج المصادر : وزنتُ فلاناً درهماً ، ووزنت لفلان بمعنى ، والأصل اللام ، ثم حذفت فوصل الفعل ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أي يُنقصون حقوقهم ، مع أن

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٩٠ .

وضع الكيل والوزن ، إنما هو للتسوية والتعديل ، يقال : خسَر الميزانَ وأخسره أي أنقصه ، ولعل ذكر الكيل والوزن في صورة الإخسار ، والاقتصار على الإكتيال في صورة الاستيفاء ، بأن لم يقل إذا اكتالوا على الناس أو اتزنوا ، لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان ، تمكنهم منه عند الكيل والوزن ، كما قال في الكشاف : كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين ، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يزعزعون ويحتالون في الملء ، وإذا أعطوا كالوا ، أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً انتهى ﴿ **أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ** ﴾ المطففون الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل ، فقوله « ألا » ليست هي التي للتنبيه ، لأن ما بعد حرف التنبيه مثبت ، وهنا منفي ، لأن « ألاَ » التنبيه إذا حذفت لا يختل المعنى نحو (**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**) وإذا حذفت ألا هذه اختل المعنى ، بل الهمزة الاستفهامية الإنكارية داخلة على لا النافية ، وجوز أن تكون للعرض والتحضيض على الظن ﴿ **أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ لا يقادر قدر عظمه ، وعظم ما فيه من الأهوال ، ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة ، فإن من يظن ذلك ، وإن كان ظناً ضعيفاً ، في حد الشك والوهم ، لا يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح ، فكيف بمن يتيقنه ؟ ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي لأمره وحكمه ، أو لمحاسبة رب العالمين ، فيظهر هناك تطفيفهم ومجازاتهم ، روي أنهم يقومون بين يدي الله تعالى أربعين عاماً من سني الدنيا ، وعرق أحدهم إلى أنصاف أذنيه ، لا يأتيهم خبر ولا يؤمر فيهم بأمر ، وأما في حق المؤمن فيكون المكث كقدر انصرافهم من صلاة مكتوبة ، وفي تخصيص رب العالمين للتنبيه على أن مقتضى التربية ، أن لا يُضيع لأحد شيئاً من الحقوق ، وفي هذه التشديدات إشارة إلى أن التطفيف وإن كان يتعلق بشيء حقير ، لكنه ذنب كبير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه قرأ هذه السورة ، فلما بلغ إلى قوله (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) بكى نحيباً برفع الصوت ، وامتنع من قراءة ما بعده من غلبة البكاء ، وملاحظة الحساب والجزاء ، وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان : إنك قد سمعت ما قال تعالى في المطففين ، وأراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم ، في أخذ القليل ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن ؟ ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف ، والغفلة عن البعث والحساب ﴿ **إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ** ﴾ سجِّينٌ علم لكتاب جامع هو ديوان الشر ، دُوِّنت فيه أعمال الشياطين ، وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين ، أو لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان مظلم موحش ، وهومسكن إبليس وذريته ، وتشهده الشياطين المدحورون ، كما أن كتاب الأبرار يشهده المقربون ، فالسجين مبالغة المسجون ، والمعنى إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون وما يكتب من أعمالهم ، لفي ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين ، ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ** ﴾ تهويل لأمره أي هو بحيث لا

يبلغه دراية أحد ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ أي هو مسطور بيِّنٌ الكتابة ، بحيث كل من نظر إليه يطلع على ما فيه ، بلا دقة نظر وإمعان ، يعلم من رآه أنه لا خير فيه لأهاليه أي ذلك الكتاب مشتمل على علامة دالة على شقاوة صاحبه ، وكونه من أصحاب النار ، وكونه علامة الشر يستفاد من المقام لأنه مقام التهويل ﴿وَيْلٌ ﴾ عظيم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لمن يكذِّبُ بالله ورسوله وآياته ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ صفة ذامة للمكذبين ، كقولك فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز عن حدود النظر والاعتبار ، غال في التقليد ، كالوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ونحوهما ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم أي منهمك في الشهوات بحيث شغلته عما وراءها من اللذات ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ قَالَ ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هي حكايات الأولين وأخبارهم الباطلة ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمعتدي عن القول الباطل ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قرأ حفص بإظهار اللام مع سكتة عليها خفيفة بدون القطع ، والمعنىبل ركب قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصي ، حتى صارت كالصدأ في المرآة ، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق ، كما قال عليه السلام « إن العبد إذا أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء ، حتى يسودَّ قلبه »[1] والرِّين صدأٌ يعلو الشيء الجلي ، وران ذنبُه على قلبه ريناً غلب ، قال أبو سليمان الداراني : الران والقسوة هما زمامان الغفلة ، فمن تيقظ وتذكر أمنَ من القسوة والرين ، ودواؤهما إدمان الصيام ، فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام ، وقال بعض الكبار : القلب مرآة مصقولة فلا تصدأ أبداً ، وأن أُطلق عليها الصدأ في نحو حديث (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن جلاءها ذكر الله ، وتلاوة القرآن)[2]فليس المراد بذلك الصدأ أنه طخاء طلع على وجه ولكنه لّما تعلّق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم بالمسبب كان تعلقه بغير الله صدأ على وجه القلب مانعاً من تجلي الحق إليه إذِ الحضرةُ الآلهية متجلية على الدوام لا يتصور في حقها حجاب عنا فلما لم يقبلها هذا القلب من جهة الخطاب الشرعي المحمود وقبل غيرها عبر عن قبول الغير بالصدأ والكِنّ والقفل وغير ذلك وقد نبه الله على ذلك في قوله (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) فهي في أكنة مما يدعوها الرسول إليه خاصة لا أنها في كن مطلقاً فلما تعلقت بغير ما تدعى إليه عميت عن إدراك ما دعيت إليه فلم تبصر شيئاً ، فالقلوب أبداً لم تزل مفطورة على الجلاء مصقولة صافية

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي المكذبين ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه ، ولفظه (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتةٌ سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صُقل قلبُه ، وإن عاد زادتْ حتى تعلو قلبَه ، فذلك الرَّانُ الذي ذكَر اللهُ ..) وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٢٥ .

(٢) الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل والحكيم الترمذي ، وسنده ضعيف ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤١٢ .

العالمين ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ فلا يرونه ، لأنهم بأعمالهم القبيحة ، صارت مرآة قلوبهم ذات صدأ ، فلم يبق محل لنور التجلي ، بخلاف المؤمنين فإنهم يرونه تعالى ، لأنهم بأعمالهم الحسنة ، صارت مرآئي قلوبهم مصقولة صافية ، وسرى نور الصقالة والصفوة منها إلى قلوبهم ، فصاروا مستعدين لانعكاس نور التجلي في قلوبهم وأبصارهم ، سئل مالك بن أنس رحمه الله عن هذه الآية ، فقال : لما حُجب أعداؤه فلم يروه ، لابد أن يتجلّى لأوليائه حتى يروه ، يعني احتج الإمام مالك بهذه الآية على مسألة الرؤية ، من جهة دليل الخطاب ، وإلا فلو حجب الكل ، لم يبق للتخصيص فائدة ، وعن الشافعي رحمه الله : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضى ، وقال حسين بن الفضل رحمه الله : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده ، حجبهم في الآخرة عن رؤيته فالموحد غير محجوب عن ربه ، وقال سهل رحمه الله : حجبهم عن ربهم قسوة قلوبهم في العاجل وما سبق لهم من الشقاوة في الأزل ، فلم يصلحوا لبساط القرب والمشاهدة ، فأبعدوا وحُجبوا ، والحجاب هو الغاية في البعد والطرد ، وقال صاحب الكشاف : كونهم محجوبين عنه تمثيلٌ للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرَّمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم ، قال : إذا اعتروا باب ذي مهابة رجبوا ؛ والناس ما بين مرجوب ومحجوب انتهى أي ما بين معظم ومهان ، وإنما جعله تمثيلاً لا كناية ، إذ لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي على زعمه من حيث إنه معتزلي ، قال بعض المفسرين : جَعْلُ الآية تمثيلاً عدولٌ عن الظاهر ، وهو مكشوف ، فإن ظاهر قولهم هو محجوب عن الأمير ، يفيد أنه ممنوع عن رؤيته ، وهو أكبر سبب الإهانة ، فالآية من جملة أدلة الرؤية ، فالحمد لله تعالى على بذل نواله وعطائه ، وعلى شهود جماله ولقائه ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ ﴾ مع كونهم محجوبين عن رؤية الله ﴿ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أي داخلوا النار ومباشرو حرّها ، من غير حائل ، أصله صالون حذفت نونه بالإضافة ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً من جهة الزبانية ﴿ هَذَا ﴾ العذاب ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فذوقوه ، وتقديمه لرعاية الفاصلة لا للحصر ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عما كانوا عليه بعد ردع وزجر ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ أي الأعمال المكتوبة لهم ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ لفي ديوان جامع لجميع أعمال الأبرار ، فعليون علم لديوان الخير ، الذي دُوِّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، من العلو للمبالغة فيه ، سُمّي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة ، حيث يسكن خواص الملائكة تكريماً له وتعظيماً ، وروي أن الملائكة لتصعد بعمل العبد ، فإذا انتهوا إلى ما شاء الله من سلطانه ، أوحى إليهم إنكم الحفظة على عبدي ، وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وإنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين فقد غفرت له ، وإنها تصعد بعمل العبد فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم أنتم الحفظة على عبدي ، وأنا الرقيب على قلبه ، وإنه لم يخلص في عمله فاجعلوه في سجين ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا

﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ أي هو خارج عن دائرة دراية الخلق ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ من الرَّقم وهو الكتابة والتسجيل أي هو مسطور بيِّنُ الكتابة ، يُقرأ بلا تكلف ﴿ يَشْهَدُهُ ﴾ الملائكة ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند الله قربة الكرامة أي يحضرونه ويحفظونه من الضياع ، وهم سبعة أملاك من مقربي السماء ، من كل سماء ملك مقرب ، فيحضره ويشيعه حتى يصعد به إلى ما يشاء الله ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ ﴾ أي السعداء الأتقياء ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة : أولها قوله ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ أي على الأسرة في الحجال ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أي إلى ما شاؤا من رغائب مناظر الجنة ، وإلى ما أولاهم الله من النعمة والكرامة ، وكذا إلى أعدائهم يعذبون في النار ، ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ وهو ثاني الأوصاف أي بهجة التنعم وماءه ورونقه ، فإذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة ، بسبب ما يرى في وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ، كالضحك والاستبشار ، كما يرى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه ، ولهذا اختير « تَعْرِفُ » على ترى مع أن المعرفة تتعلق بالخفيات غالباً ، والرؤية بالجليات غالباً ، والخطاب لكل أحد ممَّن له حظ من الخطاب للإيذان بأن مالهم من آثار النعمة وأحكام البهجة ، قال جعفر الصادق رضي الله عنه : يعني لذة النظر تتلألأ مثل الشمس في وجوههم ، إذا رجعوا من زيارة الله إلى قصورهم ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ وهو ثالث الأوصاف ، والرحيقُ صافي الخمر وخالصها ، والمعنى يسقون في الجنة من شراب خالصٍ لا غش فيه ، ولا ما يكرهه الطبع ، ولا شيء يفسده ، صاف عن كدورة الخمر ، وتغيير النكهة ، وإيراث الصداع ﴿ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ ﴾ أي ما يختم ويطبع به ﴿ مِسْكٌ ﴾ وهو طيب معروف أي مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين ، أمر الله بالختم عليه إكراماً لأصحابه فختم ، ومُنع أن يمسه ماس ، أو تتناوله يد ، إلى أن يفك ختمه الأبرار ، والأظهر أنه تمثيل لكمال نفاسته ، إذ الشيء النفيس يختم ، وقيل : ختام الشيء خاتمته وآخره ، فمعنى (خِتَامُهُ مِسْكٌ) أن الشارب إذا رفع فاه من آخر شربه ، وجد رائحةً كرائحة المسك ، أو وجد رائحة المسك لكونه ممزوجاً به ، كالأشربة الممسَّكة في الدنيا فإنه يوجد فيها رائحة المسك عند خاتمة الشرب ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن الرحيق شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شربهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد طيب ريحه ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ أي ، فيما ذكر من أحوالهم ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ، والأمر للتحضيض والترغيب وأصل التنافس من الشيء النفيس ، الذي يحرص عليه نفوس الناس ، ويريده كل أحد لنفسه ، قال ذو النون المصري رحمه الله : علامةُ التنافس تعلُّقُ القلب به ، وطيرانُ الضمير إليه ، والحركةُ عند ذكره ، والتباعدُ من الناس ، والأنس بالوحدة ، والبكاء على ما سلف وحلاوة سماع الذكر ، والتدبر في كلام الرحمن ، وتلقي

النعم بالفرح والشكر ، والتعرض للمناجاة ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم ، وهو اسم العين بعينها ، تجري من جنة عدن ، سميت بالتَّسنيم لأنها أرفع شراب في الجنة ﴿ عَيْناً ﴾ نصب على المدح والاختصاص ﴿ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من جناب الله قرباً روحانياً أي يشربون ماءها صِرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة وهم أصحاب اليمين ولا يشرب من تلك الأواني إلا الطالبون الصادقون ، في طريق السلوك إلى الله :

على نَفْسِهِ فَلْيبكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ * وَلَيْسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ ولاَ سَهْمُ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ كانوا ذوي جرم وذنب ، ولا ذنب أكبر من الكفر ، والمراد بهم رؤساء قريش ، وأكابر المجرمين المشركين ، كأبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأمثالهم ﴿ كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ أي يستهزئون بفقرائهم ، كعمار ، وصهيب ، وبلال ، وخباب ، وغيرهم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ أي فقراء المؤمنين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بالمشركين وهم في أنديتهم وهو الأظهر وإن جاز العكس ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً ، ويشيرون بأعينهم ويعيبونهم ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ، ويتركون اللذات ، ويتحملون المشقات ، لما يرجونه في الآخرة من المثوبات ، والتغامزُ :الإشارة بالجفن والحاجب ، ويكون بمعنى العيب أيضاً ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ متلذذين بذكرهم بالسوء والسخرية منهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي رأى المجرمون المؤمنين ﴿ قَالُوا ﴾ مشيرين إليهم بالتحقير ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أي نسبوا المسلمين إلى الضلال بطريق التأكيد ، وقالوا تركوا دين آبائهم ودخلوا في الدين الحادث ، أو قالوا تركوا التنعم بسبب طلب الثواب ، لا يدري هل له وجود أو لا ؟

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ أي المجرمون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المسلمين ﴿ حَافِظِينَ ﴾ أي قالوا ذلك والحال أنهم ، ما أرسلوا من جهة الله موكلين بهم ، يحفظون عليهم أمورهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، وإنما أمروا بإصلاح أنفسهم ، وأيُّ نفع لهم في تتبع أحوال غيرهم وهذا تهكم بهم ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلولين ، وغشيهم فنون الهوان والصغار ، بعد العز والكبر ، ورهقهم ألوان العذاب ، بعد التنعم والترفة ، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أي يضحكون منهم حال كونهم ناظرين إليهم ، وإلى ما فيهم من سوء الحال ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ التثويب والإثابةُ : المجازاة ، استعمل في المكافأة بالشر ، والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه ، وفي القاموس التثويبُ : التعويضُ أي هل جُوزي الكفار بأفعالهم ، وإجرامهم ؟ والمراد بـ (مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) استهزاؤهم بالمؤمنين ، وضحكهم منهم ، وهو صريح في أن

ضحك المؤمنين منهم في الآخرة ، إنما هو جزاء لضحك الكافرين منهم في الدنيا ، وفي الحديث (إن المستهزئين بالناس في الدنيا ، يُفتح لأحدهم يوم القيامة باباً من أبواب الجنة ، فيُقال : هَلُمَّ ، هَلُمَّ ، فيجيءُ بكربه وغمه ، فإذا أتاه أُغْلِق دونه ، ثم يُفتح له باب آخر ، فيقال : هلُمَّ ، هلُمَّ ، فإذا أتاه أُغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إنه ليُفتح له الباب فيقال : هلُمَّ هلُمَّ فلا يأتيه من إياسه)[1] وقال كعب : « إن بين أهل الجنة وأهل النار كُوَىً ـ أي طاقات تشبه النوافذ ـ لا يشاء الرجل من أهل الجنة ، أن ينظر إلى عدوٍّ له من أهل النار إلاَّ فعل » وفيه تسلية للمؤمنين بأنه سينقلب الحال ، ويكون الكفار مضحوكاً منهم ، وتعظيم لهم فإن إهانة الأعداء تعظيم للأولياء ، والله ينتقم لأوليائه من أعدائهم ، فإنه يغضب لأوليائه فينتقم لهم ممن آذاهم ، ومن الله العصمة ، وعُلم منه أن الضحك ، والاستهزاء ، والسخرية ، والغمز من الكبائر ، فالخائض فيها من المجرمين ، نسأل الله السلامة .

تمت سورة المطففين بعون الله وتوفيقه



(١) الحديث أخرجه أحمد في الزهد ، والبيهقي في البعث ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٢٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ أي انفتحت بغمام أبيض يخرج منها كقوله تعالى (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ) وفي ذلك الغمام الملائكة ينزلون بالأوامر الإلهية ، وقيل : لهول القيامة ، وكيف لا تنشق وهي في قبضة قهره ، أقل من خردلة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ واستمعت أي انقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى ، انقياد المأمور المطواع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع ﴿ وحُقَّتْ ﴾ أي جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد ، إذ هي مربوبة ومصنوعة له تعالى ، شأنها بالنسبة إلى القدرة القاهرة الربانية ، التي يتأتى بها كل مقدور ، ولا يتخلف عنها أمر من الأمور شأن العبد المطيع الخاضع ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بُسطت بإزالة جبالها وآكامها وتسويتها ، بحيث صارت كالصحيفة الملساء ، أو زيدت سعة وبسطة لوقوف الخلائق عليها للحساب ، وإلا لم تسعهم ، وفي الحديث « إذا كان يوم القيامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلاّ موضع قدميه »[1] يعني لكثرة الخلائق فيها ، قوله « مدّ الأديم » لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه واستوى انتهى ﴿ وَأَلْقَتْ مَافِيهَا ﴾ أي رمت ما في جوفها ، من الموتى ، والكنوز إلى ظاهرها ، كقوله تعالى (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ فإن قلت : إخراج الكنوز يكون وقت خروج الدجال ، لا يوم القيامة ؟ قلتُ : يوم القيامة وقت متسع يجوز اعتباره من وقت خروجه لأنه من أشراطه الكبرى فيكون إخراج الكنوز عند قرب الساعة ، وإخراج الموتى عند البعث ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ حتى لم يبق فيها شيء منه ، كأنها تكلفت في ذلك أقصى جهدها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ وانقادت له في الإلقاء والتخلي ﴿ وحُقَّتْ ﴾ أي وهي حقيقة بذلك شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانية ، ذكره مرتين لأن الأول متصل بالسماء ، والثاني بالأرض ، وإذا اتصل كل واحد بغير ما اتصل به الآخر لم يكن تكراراً ، وجواب إذا محذوف أي إذا وقعت هذه الأمور ، كان من الأهوال ما تقصر عن بيانه العبارة ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ جنس الإنسان الشامل للمؤمن والكافر والعاصي ، فالخطاب عام لكل مكلف ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ الكدحُ : جهد النفس في العمل ، والكدُّ فيه بحيث يؤثر فيها ، والسعي الشديد لطلب الكسب ، والمعنى إنك جاهد ومجدٌّ وساع باجتهاد ومشقة ، إلى لقاء ربك أي إلى وقت لقائه وهو الموت ، وما بعده من الأحوال مبالغ في ذلك ، وفي الخبر أنهم قالوا يارسول الله : فيم نكدح وقد جفت الأقلام ومضت المقادير ؟ فقال : اعملوا فكلٌّ

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم بسند جيد عن جابر مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٢٩ .

ميَّسرٌ لما خُلق له ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ فملاق لجزاء عملك ، من خير وشر يعني إن جدك وسعيك إلى مباشرة الأعمال في الدنيا ، هو في الحقيقة سعيٌ إلى لقاء جزائها في العقبى ، فملاق ذلك الجزاء لا محالة فعليك أن تباشر في الدنيا ما ينجيك في العقبى ، واحذر عما يهلكك فيها فكل عامل سيقدم إلى ما أسلف ﴿ فَأَمَّا مَنْ ﴾ وهو المؤمن السعيد ﴿ أُوتِيَ ﴾ أي يؤتى والماضي لتحققه ﴿ كِتَابَهُ ﴾ المكتوب فيه أعماله التي كدح في كسبها ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ والحكمة في الكتاب ، أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ ﴾ يوم القيامة بعد مدة مقدرة على ما تقتضيه الحكمة ﴿ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ سهلاً لا مناقشة فيه ، ولا اعتراض بما يسوؤه ويشق عليه ، كما يناقش أصحاب الشمال ، والحساب اليسير أن يُعرَّف ذنوبه ، ثم يتجاوز عنه ، كما ورد في الحديث الشريف ، يعني أن تعرض عليه أعماله ، ويعرف أن الطاعة منها هذه ، والمعصية هذه ، ثم يثاب على الطاعة ، ويتجاوز عن المعصية ، فهذا هو الحساب اليسير ، لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة ، ولا يقال له لَمَ فعلت هذا ، ولا يطالب بالعذر ولا بالحجة عليه ، فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً ، ولا حجة فيفتضح ويهلك ﴿ وَيَنْقَلِبُ ﴾ أي يرجع وينصرف من مقام الحساب اليسير ﴿ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي عشيرة المؤمنين أو فريق المؤمنين ، وهم رفقاؤه في طريق السعادة والكرامة ﴿ مَسْرُوراً ﴾ مبتهجاً بحاله وكونه من أهل النجاة ، قائلاً (هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ) فهذا الإنقلاب يكون في المحشر قبل دخول الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ﴾ أي يؤتى كتاب عمله ﴿ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره ، تُلوى يده اليسرى من ورائه ، فيعطى كتابه بشماله وهي خلف ظهره ، فلا مخالفة بين هذا وبين ما في الحاقة حيث لم يذكر فيها الظهر بل اكتفى بالشمال ، قال الإمام : ويحتمل أن يكون بعضهم يعطى كتابه بشماله ، وبعضهم من وراء ظهره ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أي يتمنى لنفسه الثبور وهو الهلاك ، ويدعو ياثبوراه تعالَ فهذا أوانك ، وأنّى له ذلك ، قال الفراء : تقول العرب فلان يدعو لهفه إذا قال : والهفاه ، وسمي هلاك الآخرة ثبوراً لأنه لازم لا يزول كما قال تعالى (لاَ تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً) ﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ أي يدخلها ويقاسي حرها وعذابها ، وهذا يدل على أن دعاءهم بالثبور قبل الصلي وبه صرح الإمام ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ في الدنيا ﴿ فِي أَهْلِهِ ﴾ فيما بين أهله وعشيرته ﴿ مَسْرُوراً ﴾ مترفاً بطراً مستبشراً ، كعادة الفجار الذين لا يخطر ببالهم أمور الآخرة ، ولا يتفكرون في العواقب ، والحاصل أنه كان في الدنيا فارغاً عن همِّ الآخرة ، وكان له مزمار في قلبه ، فجوزي بالغم الباقي ، بخلاف المؤمن فإنه كان له نائحة في قلبه ، فجوزي بالسرور الدائم ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ ﴾ تعليل لسروره في الدنيا أي إن هذا الكافر ظن في الدنيا ﴿ أَنْ ﴾ أي الأمر والشأن ، فهي مخففة من الثقيلة ﴿ لَنْ يَحُورَ ﴾ لن يرجع إلى الله تكذيباً للمعاد ، والحورُ : الرجوع والمحار المرجع والمصير ، وعن ابن عباس

رضي الله عنهما ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حُوري أي ارجعي ، ومنه الحديث « نعوذ بالله من الحُوْرِ بعد الكَوْرِ » أي الرجوع عن حالة جميلة ، (بلى) أي بلى ليرجعنَّ البتة ، وليس الأمر كما يظن ﴿ **بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ** ﴾ الذي خلقه ﴿ **كَانَ بِهِ** ﴾ وبأعماله الموجبة للجزاء ﴿ **بَصِيراً** ﴾ بحيث لا تخفى منها خافية ، فلابد من رجعه وحسابه ، وجزائه عليها ، إذ لا يجوز في حكمته أن يهمله ، فلا يعاقبه على سوء أعماله ، وهذا زجر لجميع المكلفين عن المعاصي كلها ، قال الواسطي رحمه الله : كان بصيراً به إذْ خلقه ، لماذا خلقه ؟ ولأي شيء أوجده ؟ وما قدر عليه من السعادة أو الشقاوة ، وما كتب له وعليه من أجله ورزقه ﴿ **فَلاَ** ﴾ كلمة « لا » صلة للتوكيد ، كما مر مراراً ﴿ **أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ** ﴾ هي الحمرة التي تشاهد في الأفق بعد الغروب ، وبغيبوبتها يخرج وقت المغرب ، ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء ، وفي المفردات : الشفقُ اختلاط ضوء النهار بسواد الليل ، عند غروب الشمس .

﴿ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** ﴾ الوَسَقُ : جمعُ المتفرق أي وأقسم بالليل وما جمعه ، وما ضمه وستره بظلمته من الدواب والحشرات والهوام والسباع وذلك أنه إذا أقبل الليل أقبل كل شيء إلى مأواه مما كان منتشراً بالنهار ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** ﴾ أي اجتمع وتم بدراً لليلةِ أربع عشرة ، أقسم الله بهذه الأشياء ، لأن في كل منها تحولاً من حال ، فناسبت المقسم عليها ، يعني أن الله تعالى أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر ، على تغير أحوال الخلق ، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار ، ولما بعدها وهو ظلمة الليل ، وكذا قوله (**والليل وما وسق**) فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور ، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم وكذا قوله (**وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**) فإنه يدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ** ﴾ أي لتلاقُنَّ حالاً بعد حال ، في الشدة والفظاعة ، قال الراغب : المطابقة هو أن يجعل الشيء فوق آخر بقدره ، ومنه طابقت النعل بالنعل ، ثم يستعمل في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة ، وفيما يوافق غيره أخرى ، وقيل : الطبق جمع طبقة وهي المرتبة ، والمعنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال ، هي طبقات في الشدة ، بعضها أرفع من بعض ، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة ، ودواهيها ، إلى حين المستقر في إحدى الدارين ﴿ **فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر ، فأيُّ شيء يمنعهم من الإيمان ، مع تعاضد موجباته ؟ ﴿ **وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ** ﴾ وأيُّ مانع لهم على عدم سجودهم وخضوعهم ، عند قراءة النبي عليه السلام عليهم القرآن ، فإنهم من أهل اللسان ، فيجب أن يجزموا بإعجازه عند سماعه ، وبكونه كلاماً إلهياً ، ويعلموا بذلك صدق محمد في دعوى النبوة ، فيطيعوه في جميع الأوامر والنواهي ، ويجوز أن يراد به نفس السجود عند تلاوة آية السجدة ، على أن يكون المراد بالقرآن آية السجدة بخصوصها ، كما روي أنه

عليه السلام قرأ ذات يوم (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) فسجد هو ومن معه من المؤمنين[١] ، وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفّر استهزاء ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ بما يضمرونه في قلوبهم ويجمعونه في صدورهم ، من الكفر ، والحسد ، والبغضاء ، فيجازيهم على ذلك ، يقال أوعيت الشيء أي جعلته في وعاء أي ظرف ، ثم استعير هذا الوعي لمعنى الحفظ ، أو بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السوء ويدخرونه لأنفسهم من أنواع العذاب ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ أي الذين كفروا ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم غاية الإيلام ، لأن علمه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم حتماً ، وهو استهزاء بهم وتهكم ،كما قال تعالى (اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ) لأن البشارة هي الإخبار بالخبر السار ، وقد استعملت في الخبر المؤلم ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن الذين ﴿ آمَنُوا ﴾ إيماناً صادقاً بتصفية قلوبهم عن كدر صفات النفس ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الطاعات المأمور بها ﴿ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع بل متصل دائم ، أو غيرُ ممتون به عليهم ، فإن المنَّةَ تكدِّرُ النعمة ، من مَنَّ عليه مِنَّةً ، والأول هو الظاهر والله أعلم .

تمت سورة الإنشقاق بعون الملك الخلاق

• • •

(١) اتفق القراء على أن في هذه السورة سجدة ، وهي إحدى السجدات التي وردت في القرآن الكريم ، وعددها خمس عشرة سجدة ، وتسمى « سجدة التلاوة » وهي واجبة عند تلاوة آية السجدة ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي رافع قال : « صليتُ مع أبي هريرة العَتَمة ـ أي صلاة العشاء ـ فقرأ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ .. ﴾ فسجد ، فقلتُ له ، فقال : سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه » وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٢٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ المراد البروج الإثنا عشر التي في الفلكَ الأعلى ، وإطلاق البروج على هذه النجوم ، مبنيٌّ على تشبيهها بالقصور ، من حيث إن القمر ينزل فيها ، ولظهورها أيضاً بالنسبة إلى بعض الناس كالعرب ، لأن البرج ينبيء عن الظهور مع الاشتمال على المحاسن ، يقال : تبرجت المرأة أي تشبهت بالبرج في إظهار المحاسن ، وأما البروج الإثنا عشر فليس لها ظهور حيث لا تدرك حساً ، والبروج الإثنا عشر منقسمة إلى هذه المنازل الثمانية والعشرين ، والشمس تسير في تمام هذه البروج الإثني عشر في كل سنة ، والقمر في كل شهر ، وقد تعلقت بها المنافع ومصالح للعباد ، فأقسم الله تعالى بها إظهاراً لقدرها وشرفها ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ أي يوم القيامة ، أقسم الله تعالى به تنبيهاً على قدره وعظمه أيضاً ، من حيث كونه يوم الفصل والجزاء ، ويوماً تفرد الله بالملك والحكم فيه ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ أي ومن يشهد في ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، والإنس والجن ، والملائكة والأنبياء ، وما يحضر فيه من العجائب ، فالشاهد بمعنى الحاضر من الشهود ، ويقال : المشهود يوم الجمعة ، والشاهد من يحضره من المسلمين للصلاة ، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، ويقال : المشهود يوم عرفة ، والشاهد من يحضره من الحاج ، ويقال : الشاهد كل يوم ، والمشهود أهله ، فيكون المشهود بمعنى المشهود عليه ، والشاهد من الشهادة كما قال الحسن البصري رحمه الله : ما من يوم إلا وينادي : إني يومٌ جديدٌ ، وإني على ما يُفعل فيَّ شهيد ، فاغتنمني فلو غابت شمس لم تدركني إلى يوم القيامة[1].

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ جواب القسم بحذف اللام المؤكدة على أنه خبر لا دعاء ، بمعنى لقد قُتل أي أُهلك بغضب الله ولعنته ، والأظهر أن الجملة دعائية دالة على الجواب لا خبرية ، والقتلُ كناية عن اللعن ، من حيث إن القتل أغلظ العقوبات لا يقع إلا عن سخط عظيم ، يوجب الإبعاد عن الخير والرحمة ، الذي هو معنى اللعن ، فكان القتل من لوازم اللعن ، كأنه قيل : أقسمُ بهذه الأشياء أن كفار مكة ملعونون ، كما لعن أصحاب الأخدود وجه الأظهرية أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين ، على ما هم عليه من الإيمان ، وتصبيرهم على أذية الكفرة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب ، وصبرهم على ذلك ، حتى يأنسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن هؤلاء عند الله ، بمنزلة أولئك ملعونون مثلهم ، أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم ، فظهر من هذا التقرير أنه ليس دعاء على أصحاب الأخدود من قبل الله تعالى ، لأنه ليس بعاجز والأخدودُ : الخدُّ في الأرض ، وهو

(١) هذا الأثر موقوف على الحسن البصري ، وله شواهد تؤيده من الصحيح .

شق مستطيل كالنهر عميق القرار ، وأصحاب الأخدود هم « ذونواس الحميري » اليهودي وجنوده ، وذلك أن عبداً صالحاً يقال له (عبد الله بن الثامر) ذهب إلى نجران وكان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه ، فسار إليهم ذو نواس بجنود من حمير ، فخيَّرهم بين النار واليهودية ، فأبوا فحفر الخنادق وأضرم فيها النيران ، فجعل يلقي فيها كل من اتبع ابن الثامر ، حتى أحرق نحواً من اثنى عشر ألفاً وقد ورد في قصة أصحاب الأخدود ما أخرجه مسلم في صحيحه قال · كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر ـ أي شاخ وطعن في السن ـ قال للملك : إني كبرت فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلِّمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى السَّاحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال للغلام : إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلكَ فقل حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة قد حبست الناس ـ أي مرَّ على أسد أوحيَّة ـ فقال الغلام : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً وقال اللهم : إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال الراهب : أي بنيَّ أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليَّ ، وكان الغلام يبرىء الأكمه ـ وهو الذي ولد أعمى ـ والأبرص ، ويداوي الناس بسائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنتَ شفيتني ، قال إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فإن آمنت بالله ، دعوتُ الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال الملك : من ردَّ عليك بصرك ؟ قال : ربي ، فقال : أَوَلك ربٌّ غيري ؟ قال ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء به الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ، فقال إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضُع في مفرق رأسه فشقه به ، حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به ، حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ـ يعني ادفع عني شرهم بأي سبب شئتَ ـ فرجف بهم الجبل ، فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور ـ أي سفينة صغيرة ـ فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما

شئتَ ، فانكفأت بهم السفينة ـ أي مالت وانقلبت ـ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمعُ الناس في صعيد واحد ـ أي أرض بارزة ـ وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ـ وهي التي يجعل فيها السهام ـ ثم ضع السهم في كبد القوس ،ـ وهو مقبضها عند الرمي ـ ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ففعل ، كما قال الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده على صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ والله قد نزل بك حِذْرك ممَّا تخاف ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أبواب الطرق فخُدَّت ـ أي شُقَّت ـ وأضرم النيران أي أوقدها وأشعلها ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها ـ أي فاطرحوه فيها ـ ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي رضيع لها فتقاعست ـ أي تأخرت أن تقع فيها ـ فقال لها الغلام : ياأماه اصبري فإنك على الحق[1] ، وكان هو ممن تكلم في المهد وهو رضيع ، وقد سبق عددهم في سورة يوسف ، وكانت هذه القصة قبل مولده عليه السلام بتسعين سنة ، وفيما ذكر من الحديث إثبات كرامات الأولياء ، وجواز الكذب عند خوف الهلاك ، سواء كان الهالك هو الكاذب أو غيره ، ﴿ **النَّارِ** ﴾ بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل على النار وهو بها يكون مهيباً مشتد الهول والتقدير النار فيه ﴿ **ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾ بفتح الواو ما يوقد به ، وفيه وصف لها بغاية العظم ، وارتفاع اللهب ، وكثرة ما يوجبه من الحطب ﴿ **إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ** ﴾ أي لعنوا حين أحرقوا بالنار المؤمنين ، قاعدين حولها في مكان مشرف عليهم ، ويعرضون المؤمنين على النار ، فمن يترك دينه تركوه ، ومن كان يصرُّ ألقوه في النار وأحرقوه ، وكان عليه السلام إذا ذكر أصحاب الأخدود ، تعوّذ بالله من جَهْد البلاء ، وهي الحالة التي يختار عليها الموت ﴿ **وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾ أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، بأن أحداً لم يقصر فيما أمر به من التعذيب بالإحراق ، من غير ترحم وإشفاق ، أو أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة ، يعني تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ أي وما أنكروا من المؤمنين ، وما عابوا عليهم ﴿ **إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ قاله بلفظ المضارع مع أن الإيمان وجد منهم في الماضي ، لإرادة الاستمرار والدوام عليه ، فإنهم ما عذبوهم لإيمانهم في الماضي ، بل لدوامهم عليه ، والاستثناء مفرغ ، مفصح عن براءتهم ، مما يُعاب ويُنكر بالكلية ، على منهاج قول الشاعر :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، وابن مردويه ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٣٤ .

فما أنكروه ليس منكراً في الواقع ، وغير حقيق بالإنكار ، كما أن ما جعله الشاعر عيباً ليس عيباً ولا ينبغي أن يعد عيباً ، وقوله (العزيز الحميد) العزيز الذي يخشى عقابه الحميد المنعم الذي يرجى ثوابه ، وتأكيد ذلك بقوله ﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ أخرَّ هذه الصفة ، لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة ، التي دل عليها العزيز ، وفي العلم الذي دل عليه الحميد ، لأن من لا يكون تام العلم لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة ، وفي كشف الأسرار : وإنما وصف ذاته بهذه الصفات ، ليعلم أنه لم يمهل الكفار لأجل أنه غير قادر ، لكنه أراد أن يبلغ بهؤلاء الكافرين عقاباً لم يكونوا يستوجبونه إلا بمثل ذلك الفعل ، وفيه تشنيع على الكفار بغاية جهلهم ، حيث عدُّوا ما هو سبب المدح ، منقصة هي سبب القدح ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ وهو وعد لهم ، ووعيد شديد لمعذبيهم ، فإن علمه تعالى ، بجميع الأشياء ، يستدعي توفير جزاء كل منهما ، وإذا علم العبد أن الله تعالى شهيد يعلم أفعاله ، ويرى أحواله ، سهل عليه ما يقاسيه لأجله ، حكي أن رجلاً كان يُضرب بالسياط وهو يصبر ، ولا يصيح ، فقال له بعض الحاضرين : أما يؤلمك الضرب ؟ فقال : نعم ، قال : فلمَ لا تصيح ؟ قال : في الحاضرين لي محبوب يرقبني ، فأخاف أن يذهب ماء وجهي عنده ، إن صحتُ » فمن ادعى محبة الحق ولم يصبر على قرص نملة أو بعوضة ، أو أدنى أذية ، كيف يكون صادقاً في دعواه ؟ ولذا قالوا دلت القصة على أن المكره على الكفر بنوع من العذاب الأولى أن يصبر على ما خوِّف منه ، وإن كان إظهار الكفر كالرخصة في ذلك ، حكي أنّ مسيلمة الكذاب ، أخذ رجلين من أصحاب النبي عليه السلام ، فقال لأحدهما : تشهد أني رسول الله ؟ فقال : نعم فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب فقتله ، فقال النبي عليه السلام أما الذي تركه فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذي صبر فأخذ بالفضل فهنيئاً له الجنة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ أي محنوهم في دينهم ، وآذوهم وعذبوهم ، ليرجعوا عنه ، كأصحاب الأخدود ونحوهم ، كما روي أن قريشاً كانوا يعذبون بلالاً وعمَّاراً ، وأهلُ الولاء ، لا يخلون عن البلاء ، كما قال القائل :

وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الصَّفَاءُ لعاشِقٍ * وَجَنَّةُ عَدْنٍ بالمَكارِهِ حُفَّتِ

﴿ **ثُمَّ** ﴾ أي بعدما فعلوا ما فعلوا من الفتنة ﴿ **لَمْ يَتُوبُوا** ﴾ أي عن كفرهم وفتنتهم وفي إيراد « ثم » إشعار بكمال حلمه وكرمه ، حيث لا يعجل في القهر ، ويقبل التوبة وإن طالت المدة ﴿ **فَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة بسبب كفرهم ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ يعذبون به أبداً ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ بسبب فتنتهم للمؤمنين ﴿ **عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ أي عذاب عظيم زائد في الإحراق على عذاب سائر أهل جهنم ، فظهرت المغايرة بين المعطوفين ، ويحتمل أن يكون المراد بعذاب جهنم بردها وزمهريرها ، وبعذاب الحريق حرها ،

فيرددون بين بردٍ ، وحرّ ، الحر لإحراقهم المؤمنين في الدنيا ، والبرد لغيره من الذنوب والجرائم ، فالجزاء من جنس العمل ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ** ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ، الذي من جملته الصبر على أذى الكفار وإحراقهم ﴿ **جَنَّاتٌ** ﴾ يجازون بها بمقابلة النار ونحوها ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ يجازون بذلك بمقابلة الاحتراق والحرارة ونحوذلك ، قال في الإرشاد إن أريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جريها الظاهر ، فإن أشجارها ساترةٌ لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ وهو حصول الجنان ﴿ **الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ الذي تصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب ، والفوز : النجاة من الشر ، والظفر بالخير ، والمرادُ بالفوز الكبير حصول الجنة ، وحصول رضى الله هو الفوز الأكبر كما قال تعالى (**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**) ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ الأخذ بعنف ، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والإنتقام ، وإن كان بعد إمهال ، فإنه عن حكمة لا عن عجز ﴿ **إِنَّهُ هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ أي يبدىء الخلق ويخرجهم من العدم إلى الوجود ، ثم يميتهم ويعيدهم أحياء ، للمجازاة على الخير والشر ، أو هو يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ، ويعيده في الآخرة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فيها فحماً ، ثم يعيدهم خلقاً جديداً ، فهو المراد من الآية ، أو يبدىء من التراب ويعيده فيه ، أو من النطفة ويعيده في الآخرة ، يقال : بدأ اللهُ الخلقَ وأبدأهم ، فهو مبدئهم ، والمبدىء المظهر ابتداء ، والمعيد المنشىء بعد ما عَدم ، فالإعادة ابتداء ثان ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : (المبدىء المعيد) معناه الموجد لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله يسمى إبداء ، وإن كان مسبوقاً بمثله يسمى إعادة ، والله تعالى بدأ خلق الإنسان ، ثم هو الذي يعيدهم أي يحشرهم ، فالأشياء كلها منه بدت وإليه تعود ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ** ﴾ لمن تاب عن الكفر وآمن ، وكذا لمن تاب عن المعاصي ﴿ **الْوَدُودُ** ﴾ المحب لمن أطاع أو تاب ﴿ **ذُو الْعَرْشِ** ﴾ خالقه ، وله الملك والسلطنة القاهرة على المخلوقات وعلى العرش العظيم ﴿ **الْمَجِيدُ** ﴾ هو الشريف ذاته ، الجميلُ أفعاله ، الجزيل عطاؤه ونواله ، قال في القاموس : المجيدُ الرفيع العال ، والكريم والشريف الفعال ، ومجّده وعظّمه وأثنى عليه وقُرىء بالكسر صفة للعرش ، ومجدُ العرش علوه في الجهة ، وعظم مقداره ، وحسن تركيبه فإنه أحسن الأجسام تركيباً وصورة ، وفي الحديث (ما الكرسيُّ في جنب العرش إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة)[1] فإذا كان الكرسي كذلك مع سعته ، فما ظنك بسائر الأجرام العلوية والسفلية ؟ قال سهل رحمه الله : أظهر الله العرش إظهاراً للقدرة لا احتياجاً إليه ﴿ **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد ، من أفعاله تعالى ، فيكون دليلاً لأهل الحق ،

(١) الحديث أخرجه ابن جرير، وله روايات متعددة بأحاديث صحيحة وحسنة، وانظر جامع البيان للطبري وتفسير ابن كثير ١ /٢٢٨ .

على أنه لا يتخلف شيء عن إرادته ، وفَعَّال مبالغة فاعل لأن ما يريده ويفعله في غاية الكثرة ، من الإحياء ، والإماتة ، والإعزاز ، والإذلال ، والإغناء ، والإقتار ، والشفاء ، والإمراض ، والتقريب ، والتبعيد ، والعمارة ، والتخريب ، إلى غير ذلك من شؤونه ، روي أن أناساً دخلوا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعودونه ، فقالوا : ألا نأتيك بطبيب ؟ قال قد رآني ، قالوا : فما قال لك ؟ قال إني فعال لما أريد ﴿ **هَلْ أَتَاكَ** ﴾ أي قد أتاك ، لأن الاستفهام للتقرير ﴿ **حَدِيثُ الْجُنُودِ** ﴾ أي خبر الجموع الكافرة ، التي تجندت على الأنبياء وخبرهم من التمادي في الكفر والضلال ﴿ **فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ** ﴾ أي هل أتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا من التكذيب ، وما فُعل بهم من التعذيب ؟ فذكّر قومك وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ، وقد كانوا سمعوا قصة فرعون وجنوده ، ورأوا آثار هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام ، لأنها كانت في ممرهم وفي بلادهم ، وأخَّر ثمود مع تقدمه على فرعون زماناً لرعاية الفواصل ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ من قومك ﴿ **فِي تَكْذِيبٍ** ﴾ إضراب عن مماثلتهم كأنه قيل ليسوا مثلهم في ذلك ، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب ، واستيجاب العقاب ، فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن ، مع وضوح أمره ، وظهور آياته الباهرة .

﴿ **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ** ﴾ من خلفهم ﴿ **مُحِيطٌ** ﴾ بهم بالقدرة ، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله ، كما إذا أحاط شخص بعدوه فسدَّ عليه مسلكه ، بحيث لا يجد هرباً منه ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ** ﴾ أي ليس الأمر كما قالوا ، بل هذا الذي كذبوا به قرآن شريف ، عالي الطبقة ، متضمن للمكارم الدنيوية والأخروية ﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ أي من التحريف ووصول الشياطين إليه ، والمراد به هنا ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، ينظر الله فيه كل يوم فيحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء ، فمن آمن به وصدق وعده واتبع رسله أدخله الجنة [١] .

تمت سورة البروج بعون الله وتوفيقه



(١) أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً ، وهو ضعيف ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٣٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ** ﴾ الطارق في الأصل من طرق طرقاً وطروقاً : إذا جاء ليلاً ، قال الماوردي : وأصل الطرق الدق ، ومنه سميت المطرقة لأنه يطرق بها الحديد ، وسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه إلى طرق الباب غالباً ، والمراد هنا الكوكب البادي بالليل ، قال الراغب : عبَّر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل ، قالت هند بنت عتبة يوم أحد :

نحن بنات طارق . نمشي على النارق ، أي أبونا كالنجم شرفاً وعلواً . وقال الشاعر :

يا رَاقِدَ اللَّيلِ مَسْروراً بِأَوَّلِهِ * إنَّ الحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَاراً
لا تَفْرَحَنَّ بِليلٍ طَابَ أَوَّلُهُ * فرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أجَّجَ النَّارا

ولفخامة أمره وشهامة قدره ، عقَّبه بقوله ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** ﴾ أيْ أيُّ شيء أعلمك بالطارق ؟ فإنه لا يعرف إلا بالتلقي من الخلاق العليم ، ثم بيَّنه ووضَّحه فقال ﴿ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ ثاقب : أي مضيء ، وعبر عن الطارق أولاً بوصف عام ، ثم فسره بما يخصه تفهيماً لشأنه ، والمعنى النجم المضيء في الغاية لأنه يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه من الظلام وينفذ فيها ، والمراد الجنس وهو قول الحسن رحمه الله ، لأن لكل كوكب ضوءً ثاقباً لا محالة وإن حصل التفاوت بالنسبة ، أقسم الله بالسماء وبكواكبها ، لدلالتها على قدرته وحكمته ، وقيل هو زحل أو الثُريَّا ، والأول أظهر لقوله تعالى (**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**) ﴿ **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾ جواب للقسم وما بينهما اعتراض ، لتأكيد فخامة المقسم به ، و « إن » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى إلاَّ ، والمعنى : ما كلُّ نفس من النفوس الطيبة والخبيثة ، إنسية أو جنية ، إلا عليها حافظٌ مهيمنٌ رقيب ، وهو الله تعالى كما قال الله تعالى (**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً**) حكي أن عمر رضي الله عنه مر بغلام يرعى غنماً ، فقال له : بعني شاة ، فقال : إنها ليست لي وأنا عبد مملوكٌ لسيدي ، فقال له عمر قل له : أكلها الذئب ، فقال الغلام فأين الله ؟ فاشتراه عمر واشترى الغنم وأعتقه ، ووهب له الغنم فصاحب المراقبة يدع المعاصي حياءً منه تعالى وهيبة له ، أكثر مما يدعه من يترك المعاصي خوف عقوبته ، وقيل : المراد بالحافظ هو من يحفظ عملها ، ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر ، كما في قوله تعالى (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**) كما ورد أن رسول الله عليه السلام قال (تعرض عليَّ أعمالكم ، فما كان من حسنة حمدت الله عليه ، وما كان من سيئة استغفرت الله لكم)[1] وروي أنه وُكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكاً ، يذبُّون عنه ، كما يُذبُّ عن قصعة العسل الذباب ، ولو

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته ، وأوله (حياتي خير لكم ، تُحدثون ويُحْدثُ لكم ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧٦ .

وُكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين ، وقُرِىء « لَمَا » مخففة أي إن الشأن كل نفس لعليها حافظ رقيب ، وفي الآية تخويف للنفوس من الأمور الضارة ، وترغيب في الشؤون النافعة ، ويحتمل أن يكون المراد من النفس ما هو أعم من نفس المكلف ، فيشمل النفوس النفوس الحيوانية مطلقاً ، ومن الحافظ الله لأنه الحافظ لكل شيء عالم بأحواله موصل إليه منافعه ، ودافع عنه مضاره ، والحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه وقلبه،ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وحلاوة الشهوة ، وخداع النفس، وغرور الشيطان ، فإنه على شفا جرف هار ، وقد اكتنفته هذه الملكات المفضية إلى البوار ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ** ﴾ ليتفكر الإنسان المركب من الجهل والنسيان ، المنكر للنشور والحشر والميزان ﴿ **مِمَّ** ﴾ أي من أيَّ شيء ، فأضله ممَّا حذفت الألف تخفيفاً ﴿ **خُلِقَ** ﴾ حتى يتضح لنا أن من قدر على إنشائه من مواد لم تَشُم رائحة الحياة قط ، فهو قادر على إعادته ، بل أقدر في قياس العقل ، فيعمل ليوم الجزاء ما ينفعه يومئذ ويُجديه ، ولا يُملي حافظَه ما يُرديه ﴿ **خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ** ﴾ استئناف وقع جواباً عن استفهام مقدر ، كأنه قيل مم خلق ؟ فقيل (**خُلِق مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**) أي ذي دفق ، وهوصبّ فيه دفع وسيلان بسرعة وقال بعضهم : أي مدفوق ومصبوب في الرحم ، والمراد به الممتزج من الماءين في الرحم ﴿ **يَخْرُجُ** ﴾ ذلك الماء الدافق ﴿ **مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ أي من بين ظهر الرجل ، وترائب المرأة ، وهي ضلوع صدرها وعظام نحرها ، حيث تكون القلادة ، وكل عظم من ذلك تربية ، وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما بين الثديين ، وفي القاموس : الترائب عظام الصدر أو ما ولي الترقوتين منه ، ومن ذلك يتحمل الوالد مصالح معيشة الولد ، وتشتد رقة الوالدة ومحبتها للولد ، وإيراد « بين » إشارة إلى ما يقال إن النطفة تتكون من جميع أجزاء البدن ، ولذلك يشبه الولد والديه غالباً ، فيجتمع ماء الرجل في صلبه ثم يجري منه ، ويجتمع ماء المرأة في ترائبها ثم يجري منها ، فتنضجه الحرارة فيستحيل أبيض ، فإذا امتلأت منه خرزات الصُّلب وهو الفقار طلب الخروج من مسلكه وهو عرقان متصلان إلى الفرج منهما ينزل المني ، وبين طريق البول وطريق المني جلد رقيق ، كيلا يختلط به البول فيفسد حرارة جوهره ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ الضمير للخالق أي إن ذلك الذي خلق الإنسان ابتداء مما ذكر ﴿ **عَلَى رَجْعِهِ** ﴾ أي إعادته بعد موته ﴿ **لَقَادِرٌ** ﴾ أي ليبين القدرة ، بحيث لا يرى له عجز أصلاً ، قال بعضهم : خَلَقه لإظهار قدرته ، ثم رزقه لإظهار الكرم ، ثم يميته لإظهار الجبروت ، ثم يحييه لإظهار الثواب والعقاب ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** ﴾ السرائرُ : جمع سريرة بمعنى السرِّ ، وهي التي تكتم وتخفى أي يتعرف ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفى من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث ، والإبلاء هو الابتلاء والاختبار ، وابتلاء الله عباده بالأمر والنهي ، يكون لكشف ما علم منهم في الأزل ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : يبدي الله يوم القيامة كل سرٍّ ، فيكون زيناً في وجوه ، وشيناً في

وجوه ، فمن أدى الأمانات كان وجهه مشرقاً ، ومن ضيعها كان وجهه أغبر ﴿ **فَمَا لَهُ** ﴾ أي للإنسان ﴿ **مِنْ قُوَّةٍ** ﴾ في نفسه يمتنع بها من العذاب الذي حلَّ به ﴿ **وَلاَ نَاصِرٍ** ﴾ من خارج ينتصر به إذ كل نفس يومئذ رهينة بما كسبت ، مشغولة بجزاء ما جرت عليه ، خيراً كان أو شراً ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** ﴾ الرجعُ : المطر ، سمي رَجْعاً لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض ، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع ، أو لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً بعد إيجاده وإحداثه ﴿ **وَٱلأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات ، فالمحاكي للنشور هو تشقق الأرض ، وظهور النبات منها فالمراد بالصدع نبات الأرض ، سمي به لأنه صادع للأرض ، والأرض تتصدع به ، والصدع في اللغة : الشقُّ ونحوهما ، وفي الآية إشارة إلى أن السماء كالأب ، والأرض كالأم وما ينبت من الأرض كالولد ، أقسم الله بالسماء أولاً مجردة عن التوصيف ، وثانياً مقيدة بكونها ذات الرجع ، وكذا بالأرض ذات الصدع إيماء إلى المنة عليهم بكثرة المنافع ، ودلالة على العلم التام ، والقدرة الكاملة فيهما ، ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي القرآن الذي من جملته ما تلي من الآيات ، الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده ﴿ **لَقَوْلٌ** ﴾ لكلام إذِ القولُ كثيراً ما يكون بمعنى المقول ﴿ **فَصْلٌ** ﴾ أي فاصل بين الحق والباطل ، مبالغ في ذلك ، كأنه نفس الفصل ، كما قيل له : فرقان بمعنى الفارق ﴿ **وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** ﴾ الهزل : اللعب ، والجدُّ ضده أي ليس في شيء من القرآن شائبة هزل ، بل كله جد محض لا هزل فيه ، فمن حقه أن يهتدي به الغواة ، وتخضع له رقاب العتاة ، ويظهر من الآية أن من يؤم القرآن بهزل أو بتفكه بمزاح يكفر ، وفي هدية المهديين : إذا أنكر رجل آية من القرآن ، أو سخر بها ، أو عابها ، فقد كفر ، ومن قرأ القرآن على ضرب الدف أو المزمار فقد كفر ، فهذا وأمثاله كفر ، ينبغي للمؤمن أن يحترز منه ويجتنب عنه ﴿ **إِنَّهُمْ** ﴾ أي أهل مكة ومعاندي قريش ﴿ **يَكِيدُونَ** ﴾ في إبطال أمره ، وإطفاء نوره ﴿ **كَيْداً** ﴾ حسبما في قدرتهم ﴿ **وَأَكِيدُ كَيْداً** ﴾ أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده ، حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وكيد المحدث العاجز الضعيف لا يقاوم كيد القديم القادر القوي فتسمية الاستدراج والانتقام في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالنار كيداً من باب المشاكلة ، لوقوعه في مقابلة كسبهم جزاء له ، وإلا فالكيد وهو المكر والاحتيال لا يجوز إسناده إليه تعالى ، مراداً به معناه الحقيقي ، وتسمية جزاء الشيء باسم ذلك الشيء على سبيل المشاكلة شائع كثير ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ** ﴾ أي لا تشتغل بالانتقام منهم ، ولا تدعُ عليهم بالهلاك ، ولا تستعجل به ﴿ **أَمْهِلْهُمْ** ﴾ والتمهيل والإمهال لغتان ، كما قال تعالى ومهلهم قليلاً ، روي عن همام مولى عثمان رضي الله عنه أنه قال لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات فكتبوا في كتف شاة وأرسلوني إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما فدخلت عليهما فناولتهما أبيًّا فقرأها فإذا هي فيها (لا تبديل للخلق) فكتب (لا تبديل لخلق الله) وكان فيها (لم يتسن) فكتب (لم

يتسنه) وكان فيها (فأمهل الكافرين) فمحا الألف وكتب (فمهل الكافرين) ونظر فيها زيد بن ثابت فانطلقت بها إليهم ، فأثبتوها في المصحف ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى حافظ للقرآن من التحريف والتبديل ، لأنه أثبته في صدور الحُفَّاظ ، وإلى أن المشكلات يرجع فيها إلى أهل الحل ﴿ رُوَيْداً ﴾ يقال اروِد يرود إذا رفق وتأنى ، أي أمهلهم إمهالاً رويداً أي قليلاً يسيراً ، فإن كل آت قريب ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ إلى قرب وقت الانتقام من الأعداء ، وفي كشف الأسرار : وما كان بين نزول هذه الآية ، وبين وقعة بدر إلاّ زمان يسير ، حكي أنه دخل ابن السماك على هرون الرشيد ، فطلب هرون منه العظة ، وقد جلس في حصير ، فقال ياأمير المؤمنين : لَتَواضُعكَ في شرفك ، أفضل من شرفك ، قال الرشيد : ما سمعت شيأ أحسن من هذا ، فقال : بلى ياأمير المؤمنين من أعطي مالاً ، وجمالاً ، وسلطاناً ، وشرفاً ، فتواضع في شرفه ، وعفَّ في جماله ، وواسى من فضل ماله ، وعدل في سلطانه ، كتب في ديوان المخلصين ، فدعا الرشيد بالقرطاس فكتبها ، ثم قال زدني ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد أَمْهَل اللهُ حتى كأنه أَهْمَل ولقد ستر حتى كأنه غفر ، ثم قال ياأمير المؤمنين هب كأن الدنيا كلها في يديك ، والأخرى مثلها ضمت إليك ، هب كأن الشرق والغرب يجبى إليك ، فإذا جاء ملك الموت فماذا في يديك ؟ قال : زدني ، فقال لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا أحد إلا وقد ذاق الموت ، قال : زدني ، فقال إنها موضعان إما جنة ، وإمَّا نار ، قال حسبي ، ثم غُشي عليه ، قال ابن السماك دعوه حتى يموت ، فلما أفاق أمر له بجائزة ، فقيل له : إنه قال كذا ، فسأله الرشيد عن ذلك ، فقال : ياأمير المؤمنين أيُّ شيء أحسن من أن يُقال : إن أمير المؤمنين مات من خشية الله ، فاستحسن كلامه واحترمه ، فطوبى لمن قصَّر أمله ، وطال عمره ، وحسن عمله ، والله نسأل أن لا يجعلنا من المغترِّين بدار الفناء ، ويكرمنا بالجنة دار الهناء .

تم تفسير سورة الطارق ولله الحمد والنعمة

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ التسبيح: التنزيه ، والأعلى صفة للرب ، ومعنى علوه تعالى أن يعلو عن أن يحيط به وصف الواصفين ، بل علم العارفين ، فمن عرف علوه وكبرياءه تواضع وتذلَّل بين يديه والمعنى نزه اسمه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة كأن يسمى الصنم والوثن بالرب والإله ، ومنه تسمية العرب «مسيلمة الكذاب» برحمان اليمامة ، وكذا نزِّهه عن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال ، ويدخل فيه أن يذكر اسمه عند التثاؤب وحال الغائط ، وكذا بالغفلة وعدم الوقوف على معناه وحقيقته ، ومنه إكثار القسم بذكر اسمه من غير مبالاة ، وقال ابن جرير في الآية : ارفع صوتك بذكره أي بذكر اسمه فإن ذكر المدلول إنما هو بذكر الدال عليه ، فظهر من هذا التقرير أن الاسم غير مقحم ، وقال بعضهم : الاسم والمسمى هنا واحد ، أي نزه ذاته عما يدخل في الوهم والخيال ، وفي الحديث لما نزلت (**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العِظِيمِ**) قال عليه السلام اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزل (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**) قال اجعلوها في سجودكم[1] وكانوا يقولون في الركوع : اللهم لك ركعت ، وفي السجود اللهم لك سجدت ، وفي الحديث دلالة على أن لفظ الاسم مقحم ، وعلى أن الامتثال بالأمر يحصل بأن يقول « سبحان ربي العظيم » والأعلى ، بدون قراءة النظم ، ولذا قرأ علي وابن عمر رضي الله عنهم سبحان ربي الأعلى إلخ فإن قوله سبح أمر بالتسبيح ، وما هو إلا قول «سبحان ربي الأعلى» ومثله «سبحان ربك ربِّ العزة» فإن معناه نزه ربك ربَّ العزة ، فيحصل الامتثال بأن يقول سبحان ربنا رب العزة على معنى تنزه ربنا رب العزة ، وقس على ذلك سائر المواقع المأمور بها ، وسر اختصاص سبحان ربي العظيم بالركوع ، والأعلى بالسجود ، أن الأول إشارة إلى عظمة الله وجلاله أمام انحناء العبد في الركوع ، فكأنه يقول : أنت يارب العظيم الذي ينبغي أن يذلَّ لك الجبابرة ويخضعوا ، والثاني وقت السجود وهو نهاية التذلل والخضوع يقول « سبحان ربي الأعلى » وهو إشارة إلى العبودية الكاملة حيث يضع وجهه الذي هو أكرم وأشرف أعضائه على الأرض ، وكأنه يقر ويعترف بنهاية الذل والخضوع أمام نهاية العلو والكبرياء ، وكان عليه السلام والصحابة إذا علوا الثنايا كبَّروا ، وإذا هبطوا سبَّحوا ، فوضعت الصلاة على ذلك ، ولما كان الكبرياء لله وحده ، وكان في الصعود على الثنايا ضرب من الاستعلاء موجود وشبيه به أيضاً لذلك سن التكبير فيه أي إن الله أكبرو أعلى من أن يُشارك في كبريائه وإن ظهرنا بصورة حال يوهم الإشتراك ،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود عن عقبة بن عامر في الصلاة رقم / ٨٦٩ / وانظر جامع الأصول ٤ / ١٩٥ .

وأما الأمر بالتسبيح في الهبوط فهو من أجل سر استحضار معيته تعالى بقوله (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ**) فلهذا شرع التكبير في الصعود ، والتسبيح في الهبوط ، وإذا قال العبد (سبحان ربي الأعلى) في صلاته أو في غير صلاته ، يقول الله : صدق عبدي أنا الأعلى ، وفوق كل شيء ، وليس فوقي شيء ، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت لعبدي ، وفي الحديث (سبحان الله والحمد لله يملآن ما بين السموات والأرض)[1] أي لاشتمال هاتين الكلمتين على كمال الثناء ، والتعريف بالصفات الذاتية والفعلية ، الظاهرة الآثار في السموات والأرض وما بينهما ، فذاته هو الاسم الأعلى عند بلوغ كماله ، ولكل شيء تسبيح خاص يسبح به ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ صفة أخرى للرب أي خلق كل شيء فسوَّى خلقه بأن جعل له ما به يتأتى كماله ، ويتسنى معاشه ، وقال بعضهم : خلق الخلق فسوَّى بينهم في الخلقة ، وميَّز بينهم باختصاص بعضهم بالهداية ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ** ﴾ أي قدَّر أجناس الأشياء وأنواعها ، وأفرادها ، ومقاديرها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وآجالها كما قال عليه السلام (إن الله قدَّر مقادير الخلق ، قبل أن يخلق السموات والأرض ، بخمسين ألف سنة)[2] أي جعل أجناس الأشياء ، وكذا أشخاص كل نوع ، بمقدار معلوم ، وكذا جعل مقدار كل شخص في جثته وأوضاعه ، وسائر صفاته ، كالحسن والقبح ، والسعادة والشقاوة ، والهداية والضلالة ، والألوان والأشكال ، والطعوم والروائح ، والأرزاق والآجال ، وغير ذلك بمقدار معلوم ، كما قال تعالى (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**) ﴿ **فَهَدَى** ﴾ فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغي له طبعاً أو اختياراً ، ويسره لما خلق له بخلق الميول والغرائز ونصب الدلائل وانزال الآيات ، ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات ، لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول . يحكى أن الأفعى إذا بلغت مئة سنة عميت ، وقد ألهمها الله أن تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض فيرد إليها بصرها ، فربما كانت عند عروض العمى لها في برية بينها وبين الريف مسافة طويلة ، فتطويها على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك عينيها بورقها وترجع باصرة بإذن الله تعالى ، ويحكى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فيه حيث قيَّض الله له طائراً ، قدَّر الله غذاءه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه ، والتمساح كالسلحفاة ضخم يكون بنيل مصر ، وبنهر مهران في السند ، ويختطف البهائم والآدميين ، وربما بلغ طوله عشرين ذراعاً ، ومن عجائب هداياته تعالى أن القطا وهو طائر يترك فراخه ، ثم يطلب الماء من مسيرة عشرة أيام وأكثر ، فيرده فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم يرجع فلا يخطىء لا ذهاباً ولا إياباً ، والجمل والحمار إذا سلكا طريقاً في الليلة الظلماء ففي المرة الثانية لا

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أوله (الطُّهورُ شطر الإيمان ، والحمدُ لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ..) الحديث أخرجه مسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٥٧ .

يخطئان ، والدابة إذا ولدت ولدها رفعته في الهواء يومين خوفاً من النمل ، لأنها تضعه قطعة لحم غير متميزة الجوارح ، ثم يتميز أولاً فأولاً ، وإذا جمع العقرب والفأرة في إناء زجاج ، قرضت الفأرة إبرة العقرب فتسلم منها ، وحكي أن ابن عرس تبع فأرة فصعدت شجرة ولم يزل يتبعها حتى انتهت إلى رأس الغصن ، ولم يبق مهرب ، فنزلت على ورقة وعضت طرفها وعلقت نفسها ، فعند ذلك صاح ابن عرس فجاءته زوجته ، فلما انتهت إلى ما تحت الشجرة قطع ابن عرس الورقة التي عضتها الفأرة فسقطت ، فاصطادها ابن عرس الذي كان تحت الشجرة ، والفأرة تدخل ذنبها في قارورة الدهن ثم تلحسه ، والثعلبُ إذا اجتمع في جلده البقُّ الكثير والبعوض ، يأخذ بقية قطعة جلد من الحيوان فينغمس في الماء ، فإذا اجتمعت في الفرو ألقاه في الماء وخرج سالماً ، والعنكبوت تبني بيتها على وجه عجيب غير مقدور ، والبشر لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا « بالالبركار » والمسطر ، والنحل تبني تلك البيوت من غير آلة ، والنمل تسعى لإعداد الذخيرة لنفسها ، فإذا أحست بنداوة المكان تشقُّ الحبة نصفين لئلا تنبت ، وإذا وصلت النداوة إليها تخرجها إلى الشمس لتجف ، قال بعضهم : رأيت غواصاً ـ وهو طائر ـ غاص وطلع بسمكة ، فغلبه الغراب عليها فأخذها منه ، فغاص مرة أخرى فطلع فأخذها منه الغراب ، وفي الثالثة كذلك ، فلما اشتغل الغراب بالسمكة وثب الغواص فأخذ برجل الغراب وغاص به تحت الماء حتى مات الغراب ، وخرج هو من الماء ، ومما يروى عن بعض السلف : لا تشوبوا اللبن بالماء ، فإن رجلاً كان فيمن كان قبلكم يبيع اللبن ويشوبه بالماء ، فاشترى قرداً وركب البحر ، حتى إذا لجج فيه ، ألهم الله القرد فأتى صرة الدنانير فأخذها ، وصعد رأس السفينة ، ففتح الصرة وصاحبها ينظر إليه ، فأخذ ديناراً ورمي به في البحر ، وديناراً في السفينة ، حتى قسمها نصفين ، فألقى ثمن الماء في الماء ، وفي عجائب المخلوقات أن شخصاً قتل شخصاً بأصفهان ، وألقاه في بئر ، وللمقتول كلب يرى ذلك ، فكان يأتي كل يوم إلى رأس البئر ، وينحيِّ التراب عنها ، وإذا رأى القاتل نبح عليه ، فلما تكرَّر منه ذلك حفروا الموضع فوجدوا القتيل ، ثم أخذوا الرجل فأقرَّ فقتل به ، ومن عجيب شجرة النخل أن يعرض لها العشق ، وهي أن تميل إلى نخلة أخرى فيخف حملها وتهزل ، وعلاجها أن يشد بينها وبين معشوقها الذي مالت إليه بحبل ، أو يعلق عليها سعفة منه ، أو يجعل فيها من طلعه ، وأمثال هذا لا تحيط بها العبارة والتحرير كثرة ﴿ **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى** ﴾ أي أنبت بكمال قدرته ما ترعاه الدواب غضاً طرياً ، من بين أخضر ، وأصفر ، وأحمر ، وأبيض ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : المرعى الكلأ الأخضر ﴿ **فَجَعَلَهُ** ﴾ بعد ذلك ﴿ **غُثَاءً** ﴾ قال الجوهري : الغثاء بالضم ما يحمله السيل من القماش ، والقمش جمع الشيء من ههنا وههنا ، وذلك الشيء قماش ما على وجه الأرض من فتات الأشياء حتى يقال لرذالة الناس قماش ﴿ **أَحْوَى** ﴾ أسود ، من الحوة بمعنى السواد وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس إسودَّ ، سواء كان جفافه

واسوداده بتأثير حرارة الشمس ، أو برودة الهواء وفي الآية تنبيه إلى قصر مدة العمر ، وسرعة زوال الدنيا ونعيمها وفيها إشارة إلى زينة الدنيا ومنافعها ، ومآكلها ، ومشاربها ، فإنها مرعى النفس الحيوانية ، ومرتع بهائم القوى ، جعلها الله سريعة الفناء ، وشيكة الزوال ، كالهشيم والحطام البالي المسود ، فينبغي أن لا يُلتفت إليها ولا يشغل بها ، فإنها مانعة عن التسبيح الخاص وهو تنزيه الذات وتجريدها عن العلائق ، وبها يحصل الاحتجاب عن الكمال المقدر في حق كل أحد ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ** ﴾ بيان لهدايته تعالى الخاصة برسول الله ﷺ ، إثر بيان هدايته العامة لكافة مخلوقاته ، وهي هدايته عليه السلام لتلقي الوحي ، وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين ، وتوفيقه عليه السلام لهداية الناس أجمعين ، والآية إخبار وضمان من الله تعالى ، أن يجعله بحيث لا ينسى ما يسمعه ، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء يقال : قرأ القرآن فهو قاريء ، وأقرأ غيره فهو مُقْرِئٌ أي علَّمه إياه فهو معلِّم ، والمعنى سنقرئك ما نوحي إليك الآن ، وفيما بعد على لسان جبرائيل فلا تنسى أصلاً ، من قوة الحفظ والإتقان وقيل : المعنى حفظ القرآن في قلبك ، وقراءته في لسانك ، حتى لا تنسى كقوله تعالى (**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**) ﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ** ﴾ أي لا تنسى شيأ من الأشياء مما تقرأه إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً ، بأن نسخت تلاوته ، فكأنه بالنسخ مُحي من الصحف والصدور ، فالمراد بالنسيان هو النسيان الكلي الدائم ، بحيث لا يعقبه التذكر بعده ، ويجوز بأن يُراد به النسيان المتعارف الذي يعقبه الذكر بعده ، وهو النسيان في الجملة على القلة والندرة ، أي فلا تنسى إلا ما شاء الله نسيانه ، ثم لا يبقى المنسي منسياً دائماً ، بل يعقبه الذكر ، كما هو المفهوم من المقام ، ويؤيد هذا المعنى ما روي أنه عليه السلام أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسب أُبَيٌّ رضي الله عنه أنها نُسخت ، فسأله فقال عليه السلام نسيتها ، ورُوي أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يقرأ القرآن في الليل فقال عليه السلام : لقد أذكرني آية أُنْسِيتُها ومن هذا كان عليه السلام يقول في دعائه (اللهم ارحمني بالقرآن العظيم ، واجعله لي إماماً ، ونوراً ، وهدى ورحمة ، اللهم ذكِّرني منه ما نسيتُ ، وعلِّمني منه ما جهلتُ ، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، واجعله حجة لي يارب العالمين)[1] وكان عليه السلام يقول (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيتُ فذكّروني)[2] وقال تعالى (**وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**) ودل الكل على جواز طريان النسيان عليه ، ﷺ وقد كان أمياً يقرأ من الحفظ ، من غير تعلم الخط ، وكان منبع الكمالات كلها ، حتى إنه علم الكتاب الخط وقوانينه وأصحاب الحرف دقائق حرفتهم ﴿ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** ﴾ أي يعلم ما

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل علمه النبي ﷺ لابن عباس من أجل حفظ القرآن وتثبيت حفظه ، وأوله (اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني ..) أخرجه الترمذي في الدعوات ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٠٠ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد وابن ماجه بنحوه عن ابن مسعود ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٣٦ .

ظهر وما بطن من الأمور التي من جملتها ما أوحي إليك ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ اليسرى فُعْلَىٰ من اليسر وهو السهولة .

والمعنى ونوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى ، التي هي أيسر وأسهل في كل باب من أبواب الدين ، علماً وتعليماً ، واهتداء وهداية ، فيندرج فيه تيسير طريق تلقي الوحي ، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أي فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى إليك ، واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله ، إن نفع التذكير والعظة والنصيحة ، وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله عليه السلام طالما كان يذكّرهم ويستفرغ فيه جهده ، حرصاً على إيمانهم ، وكان لا يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً ، فأمر عليه السلام بأن يخص التذكير بمدار النفع في الجملة بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يزيده التذكير إلاّ عتواً ونفوراً من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فحرف الشك راجع إلى النبي عليه السلام لا إلى الله وفي كشف الأسرار « إن » تجيء في العربية مثبتة ، لا لشرط فتكون بدل قد كقوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وقد علم عليه السلام أن الذكرى تنفع لا محالة ، إما في ترك الكفر ، أو ترك المعصية ، أو في الاستكثار من الطاعة ، فهو حث على ذلك ، وتنبيه على أنها تنفع إلا أن يكون مطبوعاً على قلبه غير مستعد للقبول ، فالنفع مشروط بشرط الاستعداد ، والحاصل أن التذكير خاص بالمنتفع ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾ أي سيتذكر بتذكيرك مَنْ مِنْ شأنه أن يخشى الله ، فيزداد في أمر ما تذكر به ، فيقف على حقيقته فيؤمن به ، والناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام : منهم من قطع بصحته ، ومنهم من جوَّز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات ، ومنهم من أصرَّ على إنكاره ، والقسمان الأولان ينتفعون بالتذكير ، بخلاف الثالث ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي يبتعد من الذكرى ولا يسمعها سماع القبول ﴿ الْأَشْقَى ﴾ أي الزائد في الشقاوة لتوغله في عداوة النبي عليه السلام ، مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونحوهما ، أو الأشقى هو الكافر مطلقاً ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ أي يدخل الطبقة السفلى من طبقات النار ، والكبرى تأنيث الأكبر وهي أسفل دركات جهنم التي هي نصيب الكفار كما قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) فإن لجهنم نيراناً ودركات متفاضلة ، كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاضلة ، فكما أن الكفار أشقى العصاة ، كذلك يصلون أعظم النيران ، وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا لقوله عليه السلام (ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم)[1]

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان في باب صفة النار ، ومالك في الموطأ والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٢ .

يقول الفقير: الظاهر أن المراد بالنار الكبرى هو العذاب الأكبر في قوله تعالى ﴿ **فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** ﴾ وهو عذاب الآخرة ، وأما العذاب الأصغر فهو عذاب الدنيا وعذاب البرزخ ، فإنه يصغر بالنسبة إلى عذاب الآخرة ، قال بعض الحكماء : علامة الشقاوة أشياء كثيرة : الإصرار على الذنب ، وقساوة القلب، وكثرة الذنب ، ونسيان الرب، والغفلة عن الوقوف بين يدي الجبار، فهذا هو الأشقى الذي يدخل النار الكبرى ﴿ **ثُمَّ لاَ يَمُوْتُ فِيهَا** ﴾ حتى يستريح ﴿ **وَلاَ يَحْيَىٰ** ﴾ حياة تنفعه ، كما يقال لمن ابتلي بالبلاء الشديد : لا هو حيٌّ ، ولا هو ميِّت ، والتردد بين الموت والحياة ، أفظع من نفس الصِّلِيِّ، وقيل : لا يموتُ لأن الموت يذبح فلا موت ، ولا يحيا لأن المغموم كالميت ، فيبقى في العذاب الروحاني ، كما يبقى في العذاب الجسماني ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ** ﴾ أي نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿ **مَنْ تَزَكَّى** ﴾ أي تطهر من الكفر والمعاصي ، بتذكره واتعاظه بالذكرى ﴿ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ** ﴾ بقلبه ولسانه ﴿ **فَصَلَّىٰ** ﴾ أقام الصلوات الخمس ، كقوله (**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**) فالمراد بالذكر تكبيرة الافتتاح ، قال الإمام : مراتب أعمال المكلف ثلاث : **فأولاها** : إزالة العقائد الفاسدة عن القلب ، وهي المراد بالتزكي ، **والثانية** : استحضار ومعرفة الله بذاته وصفاته وأسمائه ، وهي المرادة بالذكر ، لأن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة ، **والثالثة** : الاشتغال بالخدمة والطاعة وهي المرادة ، بالصلاة فإنها عبارة عن التواضع والخشوع ، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله ، لابدَّ وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع ، قال بعضهم : خلق الله وجهاً يصلح للسجدة ، وعيناً تصلح للعبرة ، وبدناً يصلح للخدمة ، وقلباً يصلح للمعرفة ، وسراً يصلح للمحبة ، فاذكروا نعمة الله عليكم حيث زيَّن ألسنتكم بالشهادة ، وقلوبكم بالمعرفة ، وأبدانكم بالعبادة ، فمن كان في صلاة تنزل الرحمة عليه مادام في صلاته وتحفُّه الملائكة بأجنحتها ويناجي ربه ، كلما قال يارب ، قال الله لبيك ياعبدي ، ولو علم المصلي من يُناجي ما التفت في صلاته ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أن المراد بالتزكي إخراج صدقة الفطر قبل المضي إلى المصلَّى ، وبالذكر أن يكبِّر في الطريق حين خروجه إلى المصلَّى ، وبالصلاة أن يصلي صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام ، وهذه السورة وإن كانت مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا صدقة فطر ، إلا أنه لما كان في علمه أن ذلك سيكون ، أثنى الله على من فعل ذلك ، فإنه تعالى قد يخبر عما سيكون ، وفي الآية إشارة إلى تطهير النفس عن المخالفات الشرعية ، وتطهير القلب عن المحبة الدنيوية ، بل عن ملاحظة الغير ، والتوجه إلى الله تعالى بقدر الاستعداد ، إذ لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ اضراب عن مقدر كأنه قيل : لا تفعلون ذلك ، بل تختارون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها ، والخطاب إما للكفرة فالمراد بايثار الحياة الدنيا هو الرضى ، والإطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالكَلِيَّة كما قاله تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوْا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطمَأَنُّوا**

بِهَا) الآية ، أو للكل فالمراد بإيثارها ترجيح جانب الدنيا على الآخرة ، فالكافر يؤثرها إيثار كفر ، يرى أن لا آخرة ، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله ، وفي عين المعاني : خطابٌ للأمة ، إذ كلٌّ يميل إلى الدنيا إما رغبة فيها أو ادخاراً لثواب الآخرة ﴿ **وَٱلآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ أي تؤثرونها على الآخرة ، والحال أن الآخرة خير في نفسها لما أن نعيمها ـ مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة ، أبديٌّ لا انصرام له وفيه إشارة ، إلى أن ظواهر الأشياء بالنسبة إلى حقائقها ، كالقشر بالنسبة إلى اللب ، واللب خير من القشر وأبقى ، لأن لب الحب يحفظ زماناً طويلاً ، وقشره إذا سلخ من اللب يطرح في النار ، أو يرمى بالمزابل فيفنى بعد اليومين أو أكثر ، فأرباب القشر يؤثرون الأمور الظاهرة الخسيسة على الأمور الباطنة الشريفة ، لكونهم محجوبين عن الآخرة ، وأرباب اللب يختارون الآخرة كما قال تعالى (**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ**) ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ ٱلأُوْلَىٰ** ﴾ جمعُ صحيفة وهي الكتاب ، والمعنى لثابت فيها ، يعني أن تطهير النفس عما لا ينبغي ، وتكميل الروح بالمعارف ، والجوارح بالطاعة والترغيب في الآخرة وفي ثواب الله ، لا يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع ﴿ **صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ الخليل عليه السلام ﴿ **وَمُوسَىٰ** ﴾ الكليم عليه السلام ، روي أن جميع ما أنزل الله من كتاب ، مائة وأربعة كتب ، أنزل على آدم عليه السلام عشر صحف ، وعلى شيث عليه السلام خمسين صحيفة ، وعلى إدريس عليه السلام ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عليه السلام عشر صحائف ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، فصحف موسى هي الألواح التي كتبت فيها التوراة ، وكان في صحف إبراهيم : « ينبغي للعاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله ، أن يكون حافظاً للسانه ، عارفاً بزمانه ، مقبلاً على شأنه » ونقل من صحف موسى ، يقول الله يا ابن آدم : اعمل لنفسك قبل نزول الموت بك ، ولا تغرنك المطية فإن على آثارها السفر ، ولا تلهينك الحياة وطول الأمل عن التوبة ، فإنك تندم على تأخيرها حين لا ينفعك الندم ، يا ابن آدم إذا لم تخرج حقي من مالي الذي رزقتك إياه ومنعت منه الفقراء حقوقهم ، سلطت عليك جباراً يأخذه منك ، ولا أثيبك عليه ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدها بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون ، وفي الوتر بقل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق،وقل أعوذ برب الناس »[1] وبه عمل الشافعي ومالك رحمها الله ، وأما عند أبي حنيفة وأحمد فالمستحب في الثالثة الإخلاص فقط .

تم تفسير سورة الأعلى بعون الله وتوفيقه

● ● ●

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصحّحه ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٣٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ أي قد جاءك يامحمد حديث الغاشية ، قال أبو السعود رحمه الله : هو استفهام أريد به التعجيب مما في حيِّزه والتشويق إلى استماعه ، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة ، ويتنافس في تلقيها الوعاة ، من كل حاضر وباد ، والغاشيةُ : الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها ، وهي القيامة كما قال تعال (**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**) يُقال : غشيه يغشاه أي غطَّاه ، وكل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** ﴾ أي يوم إذ غشيت تلك الداهية الناس ،والخشوعُ : الخضوع والتواضع كلها بمعنى ، ويكنى بالجميع عما يعتري الإنسان من الذل والخزي والهوان ، فوجوه مبتدأ ولا بأس بتنكيرها لأنها في موقع التنويع وخاشعة خبره ﴿ **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ** ﴾ النَّصَبُ : التعبُ والناصبة التعبة ، والمعنى تعمل أعمالاً شاقة تتعب فيها ، لأنها تكبَّرت عن العمل لله في الدنيا ، فأعملها الله في أعمال شاقة ، وهي جر السلاسل والأغلال الثقيلة ، كما قال (**فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا**) والخوض في النار والصعود في تلال النار ، والهبوط في وهادها ، وقال بعضهم : خشوع الظاهر ، وَنَصب الأبدان ، لا يقرّبان إلى الله تعالى ، وإنما يقرب منه خشوع السر من هيبة الله ، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات ، فالرهابنة والفلاسفة وأضرابهم من أهل الكفر والبدع والضلال ، إنما يضربون حديداً بارداً ، ويُتعبون أنفسهم في طريق الهوى والسعي فيه ﴿ **تَصْلَى** ﴾ تدخل ﴿ **نَاراً** ﴾ وتذوق ألمها ﴿ **حَامِيَةً** ﴾ أي متناهية في الحر ، وقد أوقدت ثلاثة آلاف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة كما ورد في الحديث الصحيح ، وقال السجاوندي ﴿**حَامِيَةً**﴾ أي دائمة الحمى ، وإلا فالنار لا تكون إلا حامية ﴿ **تُسْقَى** ﴾ بعد مدة طويلة من استغاثتهم من غاية العطش ، ونهاية الاحتراق ، أي سقاها الله أو الملائكة بأمره ﴿ **مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾ أي متناهية بالغة في الحر غايتها ، لتسخينها بتلك النار منذ خُلقت ، لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ، فإذا أُدنيت من وجوههم تناثرت لحوم وجوههم ، وإذا شربوا قَطَّعت أمعاءهم كما قال تعالى (**يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**) يقال (أني الحميم) انتهى حره فهو آن ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ** ﴾ بيان لطعام الكفار ، إثر بيان شرابهم ، والضريع وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطباً ، وإذا يبس تحامَته ، وهو سمٌّ قاتل ، سموه ضريعاً لأنه مضعف للبدن ، ومهزل ، يقال : ضَرَع الرجل ضَرَاعة : ضعُف وذلَّ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الضَّريعُ : شيءٌ في النَّار يشبه الشوك ، أمرُّ من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار ،

﴿ لاَيُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ أي ليس من شأنه الإسمان والإشباع ، كما هو شأن طعام الدنيا ، وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله لضرورتهم ، روي أنه تعالى يُسلِّط عليهم الجوع ، بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع ، فإذا أكلوا يسلط عليهم العطش ، فيضطرهم إلى شرب الحميم ، فيشوي وجوههم ، ويقطِّع أمعاءهم ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي ذات بهجة ، وحُسنٍ ، وضياء ، مثل القمر ليلة البدر ، ويجوز أن يكون بمعنى متنعمة أي بالنعم الجسمانية والروحانية وهي وجوه المؤمنين ، فيكون المراد بها حقيقة النعمة ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا ، حيث شاهدت ثمرته ، ورأت عاقبته الحميدة ، ويجوز أن تكون لام التعليل أي لأجل سعيها في طاعة الله ، راضية جزاءها وثوابها ، ودخل في السعي الرياضات والمجاهدات للنفس ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي كائنة في جنة مرتفعة المحل ، فإن الجنات فوق السموات العلى ، كما أن النيران تحت الأرضين السبع ، وأيضاً هي درجات بعضها أعلى من بعض ، والدرجة مثل ما بين السماء والأرض ، فتكون من العلو في المكان ، ويجوز أن يكون معنى « عالية » عليَّة المقدار ، فتكون من العلو في القدر والشرف ، لتكامل ما فيها من النعيم ﴿ لاَ تَسْمَعُ ﴾ الخطاب عام لكل من يصلح له ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنة العالية ﴿ لاغِيَةً ﴾ لغواً من الكلام ، وهو مالا يُعتدُّ به ، لاستغراق أهلها في الذكر وسماع خطاب الحق ، ولذا لا تسمع في مجالسهم إلا المعارف الربانية والحكم الرحمانية ، وهكذا شأن أهل العقول والألباب .

وفي الحديث (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتخطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : رشحٌ كرشح المسك ، يُلْهمون التسبيح والتحميد ، كما تلهمون النفس)[1] وأما الدنيا ومجالس أهلها ، فلا تخلو من اللغو ، ولذلك قال عليه السلام (من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)[2] أي ما لم يتعلق بحق آدمي كالغيبة ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي عيون كثيرة تجري مياهها على الدوام حيث شاء صاحبها ، وهي أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، من شرب منها لا يظمأ بعدها أبداً ، ويذهب من قلبه الغل والغش ، والحسد والعداوة والبغضاء ﴿ فِيهَا سُرُرٌ ﴾ يجلسون عليها ﴿ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أي عالية في الهواء على قوائم طوال ، فالمراد برفعة سمكها شدة علوها في الهواء ، فيرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم الكبير ، والملك العظيم ، قال عليه السلام (ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام)[3] قيل

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، ومسلم ، وأبو داود عن جابر مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٨١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم / ٣٤٢٩ / وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٧٧ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وحسَّنه ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً وانظر الدر المنثور ٦ / ١٥٧ .

إذا جاء ولي الله ليجلس عليها ، تطامنت له ، فإذا استوى عليها ارتفعت ، ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ يشربون منها جمع كوب بالضم ، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم ليمسك من أي طرف أريد ﴿ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أي بين أيديهم حاضرة لديهم لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائد يستندون إليها للاستراحة ، جمع نَمرقة بفتح النون وضمها بمعنى الوسادة ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جانب بعض ، كما يشاهد في بيوت الأكابر ، أينما أراد أن يجلس المؤمن جلس على واحدة ، واستند إلى أخرى ، وعلى رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ أي بسط فاخرة جمع زربي ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي مبسوطة على السرر زينة وتمتعاً ، وفيه إشارة إلى انبساط أرواحهم ، وإنشراح صدورهم ، وانفتاح قلوبهم في بساط القدس والأنس ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ ، أي أينكرون ما ذُكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه عن قدرة الله ، فلا ينظرون نظر اعتبار إلى الإبل ، التي هي نصب أعينهم ، يستعملونها كل حين ، أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً ، في عظم جثتها وشدة قوتها ، وعجيب هيئتها ، كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة ، وجر الأثقال إلى الأقطار ، وفي صبرها على الجوع والعطش ، حتى إن ظمئها ليبلغ العشر فصاعداً ، واكتفاءها باليسير ، ورعيها لكل ما تيسر من شوك وشجر ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم ، وفي إنقيادها مع ذلك للإنسان ، في الحركة والسكون ، والبروك والنهوض ، حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء ، ويقتادها بقطارها كلُّ صغير وكبير ، ولم يذكر الفيل مع أنه أعظم خلقةً من الإبل لأنه لم يكن بأرض العرب فلم تعرفه ولا يحمل عليه عادة ولا يُحلب دره ولا يؤمن ضره ، وقال بعض العلماء : ذكر الله الجنة وما اتخذ فيها من المنازل الرفيعة ، والسرر العالية ، التي سمكها كذا وكذا ذراعاً ، قالوا : فكيف يقعد أحدنا عليها ، وقامته قصيرة ، وهو لا يكاد يرقى سطحاً بغير سلم ؟ وتعجَّب المشركون منه فذكَّرهم الله بأحوال الإبل ليعتبروا ، ويعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ ﴾ التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ رفعاً سحيق المدى ، بلا عماد ولا مساك ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ ﴾ التي ينزلون في أقطارها ، وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ نصباً هيناً فهي راسخة لا تميل ولا تميد قال أبو الليث : كيف نصبت على الأرض أوتاداً لها ﴿ وَإِلَى ٱلأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي وإلى الأرض التي يضربون فيها ، ويتقلبون عليها ، كيف سطحت سطحاً ، وبسطت على ظهر الماء بسطاً ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق ، والاستدلال بكونها مسطوحة على عدم كونها كرة مجاب بأن الكرة إذا كانت عظيمة جداً يكون كل قطعة منها كالسطح ، فيصح أن يطلق عليها البسط ، ففرق بين كرة وكرة ، كما أنه فرق بين بيض الحمامة وبيض النعامة ، والمعنى أفلا تنظرون نظر التدبر والاعتبار ، إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ، لإشعارها بأن خالقها متصف بصفات الكمال ، من القدرة ، والقوة ،

والحكمة ، منزه عن صفات النقصان ، من العجز ، والضعف ، والجهل ، حتى يرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار والنفور ، ويسمعوا إنذارك ويستعدوا للقاء الله بالإيمان والطاعة .

قرنت الإبل بالسماء ، والجبال بالأرض ، لأن الآية نزلت بطريق الاستدلال ، وهم كانوا أشد ملابسة بهذه الأشياء من غيرهم ، فلذا جمع الله بينها ، وقال الغزالي رحمه الله : خص الإبل بالذكر ، لأنها لائقة بقرائنها معنى ، فالسماء الظليلة ، والأرض الزاملة ، والجبال الثقيلة ، كالإبل الفرش والحمولة ، فالسحاب يحمل الماء الزلال ، والإبل الأحمال الثقال ، والأرض الجبال ، والكل مسخر بأمره ، فما أحسن ترتيب هذه الآية ، وما أشد انتظام جملتها وتناسبها ، فهي كالجمع بين كاتب وقلم وقرطاس ودواة ، والله تعالى أعلم ﴿ **فَذَكِّرْ** ﴾ أي فاقتصر على التذكير ، ولا يهمنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ تعليل للأمر ، أي مبلغ وإنما الهداية والتوفيق إلى الله تعالى ﴿ **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ أي لست بمسلط عليهم ، تجبرهم على ما تريد ، كقوله تعالى (**وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ**) وأكثر القراء قرأوا بمصيطر بالصاد ، وقُرىء بالسين على الأصل والمسيطر والمصيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ويكتب عمله ﴿ **إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى** ﴾ أعرض عن الحق ﴿ **وَكَفَرَ** ﴾ وثبت على الكفر أو أظهره ، أو تولَّى عن الإيمان ، وكفر بالقرآن ﴿ **فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** ﴾ الذي هو عذاب جهنم ، حرها شديد ، وقعرها بعيد ، ومقامعها من حديد ، وفي فتح الرحمن : الأكبر عذاب جهنم ، والأصغر ما عُذبوا به في الدنيا من الجوع والأسر والقتل ، وفيه تنبيه على أن كل ما ينال الكافر من العذاب قبل ذلك ، في الدنيا وفي البرزخ، صغير في جنب عذاب ذلك اليوم، كقوله تعالى (**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ**) فإن المراد بالعذاب الأدنى هو العذاب الأصغر الدنيوي لا البرزخي لقوله تعالى بعده (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) فإن الرجوع إنما يعتبر في الدنيا لا في البرزخ وفيما بعد الموت فيكون المراد بالعذاب الأكبر هو العذاب الأخروي وإليه ينظر قوله تعالى (**يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ**) كما سبق ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ** ﴾ يقال آب يؤوب أوباً وإياباً : رَجَع أي إنَّ إلينا رجوعهم بالموت والبعث ، لا إلى أحد سوانا ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً كما قال تعالى (**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**) وفيه تخويف شديد ، فإن رجوع العبد العاصي المصرّ إلى مالكه الغضوب في غاية الصعوبة ونهاية العسرة ﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾ في المحشر لا على غيرنا فنحن نحاسبهم ، على النقير والقطمير من نياتهم وأعمالهم ، قال البقلي رحمه الله : انظر كيف تفضَّل بعد الوعيد بأن جعل نفسه مآبهم ، وتكفل بنفسه حسابهم ، فينبغي أن يعيشوا بهذين الفضلين ، أطيب العيش في الدارين ، ويطيروا من الفرح بهذين الخطابين ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوها قبل أن تُوزنوا للعرض الأكبر على الله تعالى (**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**) إنما خفَّ الحساب في الآخرة على قوم حاسبوا

أنفسهم في الدنيا ، وثقلت موازين قوم في الآخرة وزنوا نفوسهم في الدنيا ، وعن علي رضي الله عنه أما بعد : فإن المرء يسره درك مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من الدنيا فلا تكثرنه فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعنه أسفاً ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت » وقد ورد « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ، آثر الآخرة على الدنيا » فكان هذا فصل الخطاب ، وبلاغاً لأولي الألباب .

تمت سورة الغاشية بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ لما كان العرب أكثر خلق الله قسماً في كلامهم ، جاء القرآن على عادتهم في القسم ، فأقسم لله بالفجر الذي هو أول وقت ظهور ضوء الشمس في جانب المشرق ، كما أقسم بالصبح حيث قال (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) لما يحصل به من انقضاء الليل بظهور الضوء ، وانتشار الناس ، وسائر الحيوانات ، من الطيور ، والوحوش ، في طلب الأرزاق ، وذلك مشابهٌ لنشور الموتى ، وفيه عبرة عظيمة لمن تأمل ، وقيل : هو قسم بفجر يوم عرفة ، حيث يتوجه الحجاج إلى جبل عرفات ، وفي الحديث (الحج عرفة)[1] أو بفجر يوم النحر لأنه يوم عظيم أيضاً ، ويقع فيه الطواف المفروض ، والحلق ، والرمي ، ويُروى أن يوم النحر يوم الحج الأكبر ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ هن عشر ذي الحجة ، أو العشر الأواخر من شهر رمضان ، وتنكيرها للتعظيم لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها ، ولذا أقسم الله بها وذلك كالإشتغال بأعمال الحج في عشر ذي الحجة وفي الحديث (ما من أيام أزكى عند الله ، ولا أعظم أجراً من خير عمل في عشر الأضحى ، قيل يارسول الله : ولا المجاهد في سبيل الله ؟ قال : ولا المجاهد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ، فلم يرجع من ذلك بشيء)[2] وفيه إشارة إلى أن الغازي ينبغي أن يخرج من بيته على قصد أن لا يعود ، والله يفعل ما يريد ، وأما شرف العشر الأواخر فيكفي أن فيها ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ﴿ وَالشَّفْعِ ﴾ الشفعُ : ضم الشيء إلى مثله ﴿ وَالْوَتْرِ ﴾ بفتح الواو وكسرها أي شفع هذه الليالي ووترها ، والظاهر التعميم ، لأن الألف واللام للاستغراق أي الأشياء كلها ، شفعها ووترها ، لأن كل شيء لابد أن يكون شفعاً أو وتراً ، وقال الراغب : المخلوقات كلها من حيث إنها مركبات كما قال تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) فهو الشفع ، وأما الوتر فهو الله تعالى من حيث أن له الوحدة من كل وجه ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ جنس الليل ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي يمضي والسَّرى : سيرُ الليل ، يقَال سَرى يَسْرى سُرَىً إذا سار عامة الليل ، وسار يسير سيراً ذهب ، والتقييد به لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ، ووفور النعمة كأن جميع الحيوانات أعيدت إليهم الحياة بعد الموت ، لطلب الأرزاق التي يتوسل بها إلى سعادة الدارين ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ ﴾ تقرير وتحقيق لفخامة شأن المقسم بها ، وكونها أموراً جليلة ، حقيقة بالإعظام والإجلال ، عند أرباب العقول ، وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به خليق بأن يؤكد به الإخبار كما يقول من ذكر حجة باهرة : هل فيما ذكرته

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وأبي داود وانظر جامع الأصول ٣ / ٢٤١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٦٢ .

حجة ؟ والمعنى هل فيما ذكر من الأشياء المقسم بها ﴿ قَسَمٌ ﴾ أي مقسم به مقنع ﴿ لِذِي حِجْرٍ ﴾ لذي عقل منور بنور المعرفة ، يراه حقيقاً بأن يقسم به ، إجلالاً وتعظيماً ؟ أو هل في الإقسام بتلك الأشياء إقسام لذي حجر ، مقبول عنده يعدد به ، ويؤكد به المقسم عليه ؟ والحِجْرُ : العقلُ لأنه يحجر صاحبه أي يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي ، كما سمي عقلاً ونُهْية لأنه يعقل وينهى ، قال بعض الحكماء : العقلُ للقلب ، بمنزلة الروح للجسد ، فكل قلب لا عقل له فهو ميت ، بمنزلة قلب البهائم ، والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن الكفار ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ الهمزة للإنكار ، وهو في قوة النفي ، ونفي النفي إثباتٌ ، أي ألم تعلم يامحمد ، علماً يقينياً جارياً مجرى الرؤية في الجلاء كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم ، فسيعذب كفار قومك أيضاً ، لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصي ، والمراد بعاد قوم هود عليه السلام ، اسم للقبيلة المنتسبة إلى عاد وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى ، ولأواخرهم عاد الأخيرة ﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان لعاد ، وكانت منازلهم بين عمان إلى حضرموت ، وهي بلاد الرمال والأحقاف ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ العماد كالعمود والجمع عَمَدٌ وعُمُدٌ وأعمدة ، أي ذات الأجسام الطوال ، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ، أو ذات الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويين أهل عمد يطلبون الكلأ حيث كان،فإذا هاجت الريح ويبس العشب رجعوا إلى منازلهم ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي لم يخلق مثلهم في عظم الأجرام والقوة ، حيث كان الرجل منهم يأتي الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الجماعة فيهلكهم ، ولذا كانوا يقولون (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) ﴿ وَثَمُودَ ﴾ وهو عطف على عاد ، وثمود قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخي جديس ، وكانوا عرباً من العاربة ، يسكنون الحِجْر بين الحجاز وتبوك ، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد ، وهم قوم صالح كما قال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ الجوبُ القطع ، تقول : جُبتُ البلاد أجوبها جوباً ، والمعنى قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر ، كقوله تعالى (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا) قيل إنهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام ، وقد بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ الذي كان في زمن موسى عليه السلام ، وهو الوليد بن مصعب القبطي وفرعون لقبه ، أفرده تعالى بالذكر ، لانفراده في التكبر والعلو ، حتى ادعى الربوبية والألوهية ﴿ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ جمع وتد وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم ويربطونها بالأوتاد والأطناب ، كما هو الآن عادة في ضرب الخيمة أو لتعذيبه بالأوتاد كما قال في كشف الأسرار ، روي عن ابن عباس أن فرعون إنما سمي « ذا الأوتاد » لأن امرأة كانت ماشطة لبنت فرعون ، وكانت مؤمنة تكتم إيمانها ، وبينا هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس من كفر بالله تعالى ، فقالت ابنة فرعون : وهل لك إله غير أبي ؟ فقالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له ،

فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي ، فقال ما يبكيك ؟ قالت : إن الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السموات والأرض ، واحد لا شريك له ، فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت ، فقال لها : ويحك اكفري بإلهك ، قالت : لا أفعل ، فمدَّها بين أربعة أوتاد ، وقال لها اكفري بالله ، وإلا عذبتك فقالت : لا أفعل ، فذبح ابنتها أمامها ، فلم تكفر ، ثم ذبحها فأدخلها الله الجنة .

وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها « آسية بنت مزاحم » فرأت ما صنع فرعون بالماشطة ، فقالت ـ في نفسها كيف يسعني أن أصبر على ما يفعل فرعون ، وأنا مسلمة وهو كافر ، فبينما هي تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون ، فجلس قريباً منها ، فقالت يافرعون : أنت شرُّ الخلق وأخبثهم ، عمدتَ إلى الماشطة فقتلتها ، قال فلعلك بك الجنون الذي كان بها ، قالت ما بي من جنون ، وإنما المجنون من يكفر بالله ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وهو على كل شيء قدير ، فمدَّها بين أربعة أوتاد يعذبها ، ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون ، فعند ذلك (**قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**) فقبض الله روحها ، وأسكنها الجنة العالية ﴿ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ** ﴾ صفة للمذكورين من الطوائف الثلاث ، والمعنى طغى كل طائفة منهم في بلادهم ، وتجاوزوا الحد ، فطغت عاد في اليمن ، وثمود بأرض الشام ، والقبط بمصر ﴿ **فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ** ﴾ أي بالكفر وسائر المعاصي ، فمن عمل بغير أمر الله ، وحكم في عباده بالظلم ، فهو مفسد متجاوز الحد الذي حُدَّ له ، وفيه تخويف شديد لأكثر حكام الزمان ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ** ﴾ أي أنزل إنزالاً شديداً ، على كل طائفة من أولئك الطوائف ، عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد (**سَوْطَ عَذَابٍ**) أي عذاباً شديداً لا تدرك غايته ، وهو الريح لعاد ، والصيحة لثمود ، والغرق للقبط ، وتسميته سوطاً بالنسبة إلى ما أُعدَّ لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف قال أبو حيان : استعير السوط للعذاب ، لأنه يقتضي من التكرار والترداد مالا يقتضيه السيف ولا غيره .

أَلَمْ تَرَ اللهَ أَظْهَرَ دِينَـــــــــــــه * وصَبَّ على الكُفَّـارِ سَـوْطَ عَـذَابِ

والتعبيرُ عن إنزالة بالصبّ ، للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه ، وإفراغه بشدة وكثرة ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ تعليل لما قبله ، وإيذان بأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب ، والمرصادُ : المكانُ الذي يترقب فيه الراصدون ، أي إنه لفي المكان الذي تُترقب فيه السابلة ، وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة ، وأنهم لا يفوتونه ، شبَّه حاله تعالى في كونه حفيظاً لأعمال العباد ، مجازياً عليها على النقير والقطمير ، بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ، ليظفر بالجاني ، أو لأخذ المكس أو نحو ذلك ، ولا مخلص لهم من العبور إلى ذلك الطريق ، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً

هناك ﴿ فَأَمَّا ٱلإِنْسَانُ ﴾ متصل بما قبله من قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) وكأنه قيل : إنه تعالى بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً وشراً فأما الإنسان فلا يهمه ذلك ، وإنما مطمح نظره ومرصد فكره الدنيا ولذائذها ، قال السهيلي : المراد بالإنسان (عتبة بن ربيعة) وكان هو السبب في نزولها فيما ذكروا ، وإن كانت هذه الصفة تعمُّ ﴿ إِذَا مَا ٱبْتَلاَهُ رَبُّهُ ﴾ أي عامله معاملة من يبتليه ، بالغنى واليسار ، ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ الفاء تفسيرية ، فإن الإكرام والتنعيم عين الابتلاء ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فضلني بما أعطاني من الجاه والمال ، حسبما كنت أستحقه ، ولا يخطر بباله أنه محض تفضل عليه ، ليبلوه أيشكر أم يكفر ؟ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاَهُ ﴾ أي وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ يعني ضيَّقه حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم البالغة ، وجعله على قدر كفايته وقوت يومه ﴿فَيَقُولُ﴾ متضجراً ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أذلني بالفقر ، ولا يخطر بباله أن ذلك امتحانٌ ليبلوه أيصبر أم يجزع ؟ مع أنه ليس من الإهانة في شيء ، ولذا لم يقل : فأهانه فَقَدر عليه رزقه ، في مقابلة (أكرمه ونعمَّه) بل التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين ، في حق الفقير الصابر ، أما تأديته إلى كرامة الآخرة فأمر ظاهر ، وأما تأديته إلى كرامة الدينا ، فلأنه يسلم من طمع الأعداء ، والتوسعة قد تفضي إلى خسران الدارين بالكفران فيكون استدراجاً ، قال بعضهم : ربما كان التضييق إكراماً له بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ، ويجعل ذلك وسيلة له في التوجه إلى الحق ، والسلوك في طريقه لعدم التعلق ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ، ما منهم رجل عليه رداء ، إما إزار وإما كساء ، قد ربطوه في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ نصف الكعبين ، فيجمعه بيده كراهة أن ترى عورته) فتأمل هل تكون هذه إهانة لخواص عباد الله ، فالمؤمن إما في مقام الشكر أو في مقام الصبر ، والإيمان نصفان : نصفٌ صبر ، ونصف شكر .

كما قال بعض الكبار : في قوله (فيقول ربي أهانن) أي تركني ذليلاً مهيناً ، لم يعرف المحجوب المسكين أن ربه ناظر إليه بنظر الرحمة والشفقة ، إذ جذبه بالجذبة الرحمانية من العالم الطبيعي إلى العالم الروحاني ، ومن عالم النفس إلى عالم القلب ، ومن عالم الفرق إلى عالم الجمع ، ومن عالم الفراق إلى عالم الوصال ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عن مقالته ، قال ابن عباس : المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته عليَّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر ﴿ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ التفات إلى الخطاب لمشافهته بالتوبيخ ، تشديداً للتقريع ، وتأكيداً للتشنيع ، أي بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال ، حيث يكرمكم الله بكثرة المال ، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه ، من إكرام اليتيم ، بالنفقة والكسوة ونحوهما ، وأحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم يُكرم ﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ ﴾ بحذف إحدى

التاءين ، والحضُّ : الحث والتحريض أي لا يحضُّ بعضكم بعضاً ، ولا يحث غيره على الإطعام شكراً لإنعام الله تعالى ﴿ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي على إطعام جنس المسكين ، ومن لا يحض غيره على إطعامه فأن لا يطعمه بنفسه أولى فيؤول المعنى إلى أن يقال : ولا تطعمون مسكيناً ولا تأمرون بإطعامه ، وفيه ذم بليغ للبخيل ، قال مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أميه بن خلف فكان يدفعه عن حقه فنزلت ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أي الميراث وهو المال المنتقل من الميت ﴿ أَكْلاً لَمّاً ﴾ اللمُّ بالجمع ، يقال كتيبة ملمومة : مجتمعة بعضها إلى بعض ، والمعنى أكلاً ذا لمٍّ أي جمع بين الحلال والحرام ، فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أنصباءهم ، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام ، عالمين بذلك ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ كثيراً مع حرصٍ وشره ، ومنع للحقوق ، والمقصود ذمهم ببيان أن حرصهم على الدنيا فقط ، وأنهم عادلون عن أمر الآخرة ، وفيه إشارة إلى أن حب المال طبيعي ، فلا يتخلص منه المرء بالكلية ، إلا أن يكون من الأقوياء ، فكأنه أشار إلى أن حبه إذا لم يشتد لا يكون مذموماً ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عما ذكر من الأفعال أى لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك في الحرص على الدنيا ، وقصر الهمة على تحصيلها وجمعها ، من حيث تهيأ من حل أو حرام ، وترك المواساة منها ، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ الدك : الدق يقال دككت الشيء أدكه دكاً إذا ضربته وكسرته ، ودكاً الثاني ليس تأكيداً للأول ، بل هو دَكٌّ آخر والمعنى إذا دكت الأرض دكاً متتابعاً ، وضرب بعضها ببعض ، حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها ، من جبال ، وأبنية ، وقصور ، حين زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك ، وصارت هباء منبثاً ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره ، مثّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان بنفسه من أحكام هيبته وسياسته فإنه عند حضوره يظهر بما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره ، وقال الإمام أحمد : جاء أمره وقضاؤه[1] على حذف المضاف للتهويل ﴿ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ أي حال كونهم مصطفين ، فإنه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء ، فيصطفون صفاً بعد صف ، بحسب منازلهم ومراتبهم ، اصطفاف أهل الصلاة في الدنيا كما قال تعالى (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) فهم سبعة صفوف عدد السموات السبع ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ كقوله تعالى (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ) يعني إظهارها حتى يراها الخلق ، مع ثباتها في مكانها ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، معها سبعون ألف ملك ، يجرُّونها حتى تنصب عن

---

(١) الأَوْلى في هذا أن تحمل الآية على الحقيقة كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيّد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً . ا هـ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٣٨ .

يسار العرش ، لها تغيظ وزفير[1] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أي يتذكر ما فرط فيه ، بمشاهدة آثاره ، أو بمعاينة عينه ، على أن الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة ، فيبرز كل من الحسنات والسيئات ، بما يناسبها من الصور الحسنة ، والقبيحة ، أو يتعظ به في الآخرة فيقول (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) وهذا الاتعاظ يستلزم الندم على تقصيراته ، والندم توبة ، لكن لا توبة هناك لفوت الوقت ، ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس بتذكر حقيقة ، لعرائه عن الجدوى ، لعدم وقوعه في أوانه ، أي ومن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها ؟ ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ أي يقول : ياليتني عملت لأجل حياتي هذه ـ يعني الحياة الأخروية التي هي حياة نافعة دائمة غير منقطعة ـ أعمالاً صالحة انتفع بها اليوم ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال ﴿ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ الهاء راجع إلى الله تعالى ، والعذاب بمعنى التعذيب ، كالسلام بمعنى التسليم والمعنى لا يتولى عذاب الله أحد سواه ، إذا الأمر كله لله ، وفي عين المعاني : لا يُعَذِّب كعذاب الله في الآخرة احدٌ في الدنيا ﴿ يَاأَيتهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ لما ذكر شقاوة النفس الأمّارة ، شرع في بيان سعادة النفس المطمئنة ، والاطمئنان : سكون النفس وهو بالوصول إلى غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود وفي قوله تعالى (أَلاَ بِذِكْرِاللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) تنبيه على أنه بمعرفته تعالى ، والإكثار من عبادته ، يكتسب اطمئنان النفس ، وإذا وصلت إلى مقام الإطمئنان بذكر الله ، صار صاحبها في مقامٍ أمين ، والمعنى إن الله تعالى يقول للمؤمن إكراماً له ، عند تمام الحساب : ياأيتها النفس المطمئنة ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ أي إلى ما وعد لك من الكرامة والزلفى ﴿ رَاضِيَةً ﴾ بما أوتيتِ من النعيم المقيم ﴿ مَرْضِيَّةً ﴾ عند الله ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ في زمرة عبادي الصالحين المختصين بي ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم كقوله تعالى (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) فالدخول في زمرة الخواص هي السعادة الروحانية ، والدخول معهم في الجنات ودرجاتها هي السعادة الجسمانية ، وقيل : المراد بالنفس الروح ، وأنه يقال لها ذلك عند الموت ، كما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إذا توفي العبد المؤمن ، أرسل الله ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة ، فيقال لها : اخرجي أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب عنك راضٍ ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه ، والملك على أرجاء السماء يقولون قد جاء من الأرض روح طيبة ، ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح ، ولا بملك إلا صلّى عليها ، حتى يؤتى بها إلى الرحمن فتسجد ،

---

(١) ورد في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال (يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٩ .

ثم يقال لميكائيل : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين ، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً ، وينبذ له فيه الريحان ، فيكون مَثَله مَثَل العروس ، ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله(١) .

تمت سورة الفجر بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الحافظ ابن كثير ٢ / ٢٩٧ في تفسيره ، وأوله (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبالٍ من الآخرة ، نزل إليه ملائكةٌ من السماء بيضُ الوجوه ، كأنهم وجوههم الشمس ، معهم كفنٌ من أكفان الجنة ، وحَنُوطٌ من حَنُوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عنه رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيِّبةُ ، أخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرةُ من فِي ـ أي فم ـ السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحةِ مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرُّون بها على ملأٍ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذا الريح الطيبة ؟ ...) الحديث وانظر تمامه في مختصر ابن كثير ٢ / ٢٩٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **لاَ أُقْسِمَ بِهَذا الْبَلَدِ** ﴾ أي أقسم بالبلد الحرام ، الذي هو مكة ، فكلمة « لا » صلة دل عليه أن الله أقسم بالبلد الأمين في سورة التين ، وقيل : « لا » لتأكيد القسم ، كقول العرب : لا والله ما فعلت كذا ، لا والله لأفعلن كذا ، أقسم الله تعالى بمكة لفضلها ، فإنه جعلها حرماً آمناً ، ومسقط رأس النبي عليه السلام ، وحَرَم أبيه إبراهيم ، ومنشأ أبيه إسماعيل عليهما السلام ، وجعل البيت قبلة لأهل الشرق والغرب ، وحج البيت كفارة لذنوب العمر ، وجعل البيت المعمور في السماء بإزائه ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ حال من المقسم به ، و « أنت » خطابٌ للنبي عليه السلام ، والحِلُّ بمعنى الحالّ من الحلول وهو النزول أي والحال أنك يامحمد حالٌّ في مكة ، نازل بها ، قيدَ إقسامه تعالى بمكة بحلوله عليه السلام فيها ، إظهاراً لمزيد فضلها ، فإنها بعد أن كانت شريفة بنفسها ، زاد شرفها بحلول النبي العظيم الشريف فيها ، وفيه تعريض لأهل مكة ، بأنهم لجهلهم يرون أن يُخرجوا منها من به مزيد شرفها وهو سيِّد ولد آدم .

﴿ **وَوَالِدٍ** ﴾ والمراد به إبراهيم عليه السلام ، والتنكير للتفخيم ﴿ **وَمَا وَلَدَ** ﴾ وهو إسماعيل عليه السلام ومحمد عليه السلام ، فإنه ولده بواسطة إسماعيل ، فتتضمن السورة القسم بالنبي عليه السلام في موضعين ، أو الوالد آدم عليه السلام (**وَمَا وَلَدَ**) ذريته ، وهو الأنسب لمضمون الجواب ، وقيل : الوالد هو النبي عليه السلام (**وَمَا وَلَدَ**) أمته المرحومة لقوله عليه السلام (إنما أنا لكم مثل الوالد ، أعلمكم أمر دينكم)[1] وقد سمى الله النبي عليه السلام أباً للمؤمنين حيث قال (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**) وأمومية الأزواج المطهرة ، تقتضي أبوَّته عليه السلام ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ جواب للقسم ، يقال : كَبِد الرجلُ كبداً : إذا وجعت كبده فانتفخت ، ثم اتُّسع فيه حتى استعمل في كل نَصَبٍ ومشقة ، ومنه اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة الشدة ، والتعبيرُ يشعر بأن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، والمعنى : لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة ، فإنه مع كونه أضعف الخلق ، لا يزال يقاسي فنون الشدائد ، مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه ، ومنتهاها الموت وما بعده ، فابن آدم يكابد من البلايا مالا يكابده غيره ، من قطع سرته ، والتفافه بخرقة محبوس الأعضاء ، ومكابدة الختان وأوجاعه ، ومكابدة المعلِّم وصولته ، والأستاذ وهيبته ، ثم مكابدة شغل التزوج وشغل

---

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ولفظه (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ١ / ١٤٣٧ .

الأولاد والخدم ، وشغل المسكن ، ثم الكبر والهرم ، ثم بعد ذلك يقاسي شدة الموت ، وسؤال المَلَك ، وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على الملك المحاسب إلى أن يصل إلى موضع الاستقرار ، إما في الجنة وإما في النار كما قال (**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**) قال الإمام : ليس في الدنيا لذة البتة ، بل ذلك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص من الألم ، فاللذة عند الأكل هي الخلاص من ألم الجوع ، وعند اللبس هي الخلاص من ألم الحر والبرد ، فليس للإنسان إلا ألم ، أو خلاص من ألم ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار قريش وقال القاشاني : لقد خلقنا الإنسان في مكابدة ومشقة من نفسه وهواه ، أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب ، إذ الكبد في اللغة غلظ الكبد الذي هو مبدأ القوة الطبيعية وفساده ، وحجاب القلب وفساده من هذه القوة ﴿ **أَيَحْسَبُ** ﴾ الضمير لبعض صناديد قريش ، الذين كان عليه السلام يكابد منهم كالوليد بن المغيرة وأضرابه ﴿ **أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** ﴾ أي أيحسب أن الأمر والشأن لن يقدر على الإنتقام منه أحد ؟ فحسبانه فاسد لأن الله الأحد يقدر عليه ، وهو عزيز ذو انتقام ﴿ **يَقُولُ** ﴾ ذلك الظان على سبيل الرعونة والخيلاء ﴿ **أَهْلَكْتُ** ﴾ أنفقت كقول العرب خسرت عليه كذا إذا أنفق عليه ﴿ **مَالاً لُبَداً** ﴾ أي كثيراً متلبداً من تلبد الشيء إذا اجتمع ، يريد كثرة ما أنفقه سمعة ومفاخرة ، وكان أهل الجاهلية يسمون مثل ذلك مكارم ، ويدعونه معالي ومفاخر ، وفي لفظ الإهلاك إشارة إلى أنه ضائع في الحقيقة ، إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة ، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حق عبد الله بن جدعان (كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : لا ينفعه ، لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[1] ﴿ **أَيَحْسَبُ** ﴾ ذلك الأحمق المباهي ﴿ **أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴾ حين كان ينفق ، وأنه تعالى لا يسأله عنه ولا يجازيه عليه ؟ يعني إن الله رآه واطلع على خبث نيته وفساد سريرته ، وإنه مجازيه عليه فمثل ذلك الإنفاق وهو ما كان بطريق المباهاة رذيلة ، فكيف يعدُّه الجاهل فضيلة ؟ وفي الحديث (لا تزول قدما العبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه)[2] ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** ﴾ يبصر بها عالم الملك ، من الأرض إلى السماء ، حتى يشاهد بها النجوم العلوية ، التي بينه وبينها عدة آلاف سنة ، ويفرق بها بين ما يضر وما ينفع ، ويبصر بها دلائل وحدانية الله ؟ والعينُ تحرس البدن من الآفات ، وهي كالمرآة إذ قابلها شيء ارتسمت صورته فيها ، مع صغر الناظر وهو الحدقة التي هي شحمةٌ ، وجعل الله العين سريعة الحركة ، وجعل لها أجفاناً تسترها ، وأهداباً من الشعر كجناح الطائر ، تطرد الذباب والهوام عن

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، وأحمد في المسند ٦ / ٩٣ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في باب صفة القيامة رقم ٢٤١٩ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٦ .

العين ، وجعلها ثنتين كالشمس والقمر ، وجعل فوقها حاجبين أسودين لئلا يتضرر البصر بالضياء ، ولأن الذي ينظر في السواد إلى البياض يكون أحدَّ نظراً ، ولذلك جعلت الحدقة سوداء ، وأهداب العين شعراً أسوداً ، لأن السواد يقوِّي البصر ﴿ **وَلِسَانًا** ﴾ يترجم به عن ضمائره ، وبه تنعقد المعاملات ، **وتحصل** الشهادات ، ويدرك الطعوم من الحلو والمر ، ولو لم يكن اللسان لاحتاج الإنسان إلى الإشارة أو **الكتابة** فتعسر أمره ، وإنما تعددَّ العين والأذن ، وتفرد اللسان ، لأن حاجة الإنسان إلى السمع والبصر **أكثر** من حاجته إلى الكلام ، وفيه تنبيه أيضاً على أن يقل من الكلام إلا في الخير ، وأن لا يتكلم فيما لا **فائدة** فيه ، وهو السر في أن الله تعالى جعل اللسان داخل الفم ، وجعل دونه الشفتين اللتين لا يمكن الكلام إلا بفتحها ، ليستعين العبد بإطباق شفتيه على رد الكلام ﴿ **وَشَفَتَيْنِ** ﴾ يستر بهما فاه إذا أراد السكوت ، ويستعين بهما على النطق ، والأكل والشرب والنفخ ، وخص الشفة لخروج أكثر الحروف منها ، وفي الدعاء (الحمد لله الذي جعلنا ننطق بلحم ، ونبصر بشحم ، ونسمع بعظم) وقد ورد أن الله يقول : (ابنَ آدم إن نازعك لسانك فيما حرَّمتُ عليك ، فقد أعنتك بطبقتين فأطبق ، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق)[1] ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ هديناه طريق الخير والشر ، وقال بعضهم : طريقي الثديين ، لأنهما طريقان مرتفعان لنزول اللبن ، سببان لحياة المولود ، وتمكين مولود عاجز من رضاع أمه عقيب الولادة ، قدرة عليَّة ونعمة جليَّة ، وأصل النجد المكان المرتفع ، وقال ابن الشيخ : لما وضحت الدلالة الدالة على الخير والشر ، صارتا كالطريقين المرتفعين ، بسبب كونهما واضحين للعقول ، كوضوح الطريق العالي للأبصار ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ** ﴾ الاقتحام الدخول في أمر شديد ، ومجاوزته بصعوبة ، والعقبةُ : الطريقُ الوعر في الجبل ، وعبر عنها بالعقبة لصعوبة سلوكها ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ** ﴾ أيْ أيُّ شيء أعلمك يا محمد ما اقتحام العقبة ؟ ﴿ **فَكُّ رَقَبَةٍ** ﴾ أي اقتحام العقبة إعتاق رقبة ، فالفك ليس تفسيراً لنفس العقبة ، بل لاقتحامها ، وقد يكون بأن ينفرد الرجل في عتق الرقبة ، وقد يكون بأن يعطي مكاتبه ما يصرفه إلى فكاك رقبته ، وبأن يُعين في تخليص نفس من قَوَد أو غرم وفي الحديث (من فكَّ رقبةً فكَّ الله بكل عضوٍ منها عضواً منه من النار)[2] ﴿ **أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ** ﴾ أي مجاعة لقحط أو غلاء ، من سَغَب إذا جاع قيَّد الإطعام بيوم المجاعة ، لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر ﴿ **يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ** ﴾ أي قرابة في النسب ، قيَّد اليتيم بأن يكون بينه وبين المطعم قرابة نسبية ، لأنه اجتمع فيه جهتا الاستحقاق : اليتم ، والقرابة ، فإطعامه أفضل لاشتماله على الصدقة ، وصلة الرحم ﴿ **أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾ أي افتقار من تَرب

(١) الحديث أخرجه ابن عساكر عن مكحول مرفوعاً ، وهذا طرف من الحديث ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٥٣ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد بلفظ (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضوٍ منها عضواً من النار ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٦٤ .

بالكسر إذا افتقر ، كأنه لصق بالتراب ، من فقره وضره ، فليس فوقه ما يستره ، ولا تحته ما يوطئه ويفرشه ، وقيل : هو الذي مأواه المزابل ، وفي الحديث (الساعي على الأرملة والمسكين ، كالساعي في سبيل الله ، وكالقائم لا يفتر ، والصائم لا يفطر)[1] ﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي وكان مع هذه الأعمال الصالحة مؤمناً صادق الإيمان ، والآية تشير إلى أن الإنفاق على هذا الوجه ، هو الإنفاق المرضي ، النافع عند الله ، لا أن يُهلك مالاً لبداً في الرياء والفخار ، فيكون مثله (كمثلِ ريحٍ فيها صرٌّ أصابتْ حرث قوم) ، وفي ذكر العقبة إشارة إلى أن عقبة الآخرة لا يجوزها إلا من كان مؤمناً صادقاً، قال المحاسبي : تلك عقبةٌ لا يجوزها إلا من خمص بطنه عن الحرام والشبهات ، وتناول مقدار بقاء المهجة ، وقال القاسم : العقبة نفسك ألا ترى إلى قوله (**فَكُّ رَقَبَةٍ**) فإنه أن تعتق نفسك من رق الخلق ، وتشغلها بعبودية ربك ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله ، وعن المعاصي ، وفي المصائب ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالرحمة على عباد الله ، وهي الشفقة لمن يستحقها من العباد ، يتيماً أو فقيراً أو نحو ذلك ، وفي الحديث (لا يرحم الله من لا يرحم الناس[2] فقوله (**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله (**وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**) إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، وإلى التكميل بعد الكمال ، فإن الإيمان كمال في نفسه ، وكذا الصبر والمرحمة وغيرهما من الأعمال الصالحة ، والتواصي من باب تكميل الغير ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ **أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** ﴾ أي اليمن ، وهم الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم ، ويُسلك بهم إلى الجنة ، أو أصحاب اليمن والخير والسعادة ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة ، أو بالقرآن ﴿ **هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** ﴾ أي الشمال ، وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ، ومن وراء ظهورهم ، ويُسلك بهم إلى النار ، أو أصحاب الشؤم والشر والشقاوة ﴿ **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ** ﴾ أي نار أبوابها مغلقة ، فلا يفتح لهم باب ، ولا يدخل فيها روح ، أبد الآباد ، وجعلت صفة للنار إشعاراً بإحاطتهم ، فأصل التركيب مؤصدة الأبواب ، من أوصدتُ الباب إذا أطبقته وأغلقته وأحكمته .

تمت سورة البلد بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٦٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي بهذا اللفظ ، وفي رواية للبخاري (من لا يرحم الناسَ لا يرحمه اللهُ) وفي رواية للترمذي (لا تُنْزعُ الرحمةُ إلاّ من شقيٍّ) وانظر جامع الأصول ٤ / ٥١٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ﴾ أي ضوئها إذا طلعت ، وقام سلطانها ، وانبسط نورها ، أي وقت إشراق الضوء ، فالضحى والضحوة مشتقان من الضحّ ، وهو نور الشمس المنبسط على وجه الأرض ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا** ﴾ أي إذا تبعها بأن طلع بعد غروبها ، آخذاً من نورها ، وذلك في النصف الأول من الشهر ، وإذا ههنا ليست بشرطية ، لعدم جوابها لفظاً أو تقديراً ، فتكون بمعنى « حين » كما في القاموس ﴿ **وَالنَّهَارِ** ﴾ هو نور الشمس الذي يمحو ظلمة الليل ﴿ **إِذَا جَلاَّهَا** ﴾ أي جلّى الشمس فإنها تتجلى عند انبساط النهار ، واستيفائه تمام الإنجلاء ، فكأنه أبرزها في غاية الظهور ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها ، فتغيب وتظلم الآفاق ، ولما كان احتجاب الشمس بحيلولة الأرض بيننا وبينها واقعاً في الليل ، صار الليل كأنه حجبها وغطّاها .

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** ﴾ أي ومن بناها على غاية العظم ، ونهاية العلو ، وهو الله تعالى ، كأنه قيل : والقادر العظيم الشأن الذي بناها ﴿ **وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا** ﴾ أي ومن بسطها من كل جانب على الماء كي يعيش أهلها فيها ، والطحو كالدحو بمعنى البسط ، وإفراد بعض المخلوقات بالذكر وعطف الخالق عليه ، والإقسام بها ، ليس لاستوائهما في استحقاق التعظيم ، بل النكتة ، في الترتيب ، أن يتبين وجود صانع العالم ، وكمال قدرته ، ويظفر العقل بإدراك جلال الله ، وعظمة شأنه ، حسبما أمكن ، فإنه تعالى لما أقسم بالشمس ، التي هي أعظم المحسوسات شرفاً ونفعاً ، ووصفها بأوصافها الأربعة ، وهي : ضوؤها ، وكونها متبوعة للقمر ، ومتجلّيةً عند ارتفاع النهار ، ومختفية متغطية بالليل ، ثم أقسم بالسماء التي هي مسير الشمس ، فقد نبه على عظمة شأنها ، ومن المعلوم أنها لحركاتها الوضعية وتغير أحوالها بحاجة إلى صانع مدبر ، كامل القدرة ، بالغ الحكمة ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** ﴾ أي ومن أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها ، والتنكير للتفخيم أو للتكثير وهو الأنسب للجواب ، وذكر في تعريف ذات الله تعالى : السماء ، والأرض ، والنفس ، لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد ، والشاهد ليس إلا العالم الجسماني ، وهو إما علوي كالسماء وإما سفلي كالأرض ، وإما مركّب وأشرفها ذوات الأنفس ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ الإلهام : إلقاء الشيء في الروع ، والمعنى : أفهم النفس أياها ، وعرفها حالها ، من الحسن والقبح ، وما يؤدي إليه كل منهما ، ومكنها من اختيار أيهما شاءت ، قال بعض الكبار : الإلهام لا يكون إلا في الخير ، فلا يقال في الشر ألهمني الله كذا ، وأما قوله تعالى (**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**) فالمراد فجورها لتجتنبه ، لا لتعمل به ، وتقواها لتعمل به ، فكما لايأمر بالفحشاء ، لا يلهم بها ، فإنه لو ألهم

بها ، ما قامت الحجة لله على العبد ، فهذه الآية مثل قوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**) أي بينا له الطريقين وفي الخبر الصحيح (عن عمران بن حصين رضي الله عنه سأل رجل من جهينة أو مزينة رسول الله عليه السلام ما يعمل الناس ويكدحون فيه ، أشيء قُضي عليهم ، أم شيء يستقبلونه ؟ فقال عليه السلام : بل قضي عليهم ، قال ففيم العمل إذاً يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : من كان خَلَقه اللهُ لإحدى المنزلتين يهيِّئه الله لها ثم تلا الآية)[1] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله عليه السلام يقول عند الآية (اللهم آت نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها)[2] ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾ جواب القسم ، وحذف اللام لطول الكلام ، وقال الزجاج طول الكلام صار عوضاً عن اللام ، والزكاة أصلها الزيادة والنمو ، وتزكية النفس تنميتها بالخيرات والأعمال الصالحة والمعنى : قد فاز بكل مطلوب ، ونجا من كل مكروه ، من أنمى النفس وأعلاها بالتقوى ،أي رفعها وأظهرها وشهرها بها ، فأهل الصلاح يظهرون أنفسهم ويشهرونها ، بما سطع من أنوار تقواهم ، بخلاف أهل الفسق فإنهم يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية ، وتستعمل التزكية بمعنى التطهير أيضاً فالمعنى قد أفلح من طهَّر نفسه من المخالفات الشرعية ، خُلُقاً ، وعملاً ، وقولاً ، أقسم تعالى بسبعة أشياء ، على فلاح من زكَّى نفسه ، ترغيباً في تزكيتها ، قال الراغب : وبزكاء النفس وطهارتها ، يصيرُ الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والمثوبة ، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره ، وذلك ينسب تارة إلى العبد لاكتسابه ذلك نحو (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**) وتارة إلى الله لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو (**بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**) وتارة إلى الشيء لكونه واسطة نحو (**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**) وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو (**وَحَنَانَاً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً**) انتهى ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ خاب : حُرِم وخسر ولم ينل ما طلب ، من التدسيس وهو الإخفاء مبالغة الدس، والمعنى: قد خسر من نقصها وأخفاها بالفجور ، وبإرسالها في المشتهيات الطبيعية ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ** ﴾ المراد القبيلة ولذا قال ﴿ **بِطَغْوَاهَا** ﴾ الطغوى بالفتح مصدر معنى الطغيان ، إلا أنه لما كان أشبه برؤوس الآيات اختير على لفظ الطغيان ، والباء للسببية ، أي فعلت التكذيب بسبب طغيانها ، كما تقول : ظلمني بجراءته على الله ، ﴿ **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ أي حين قام أشقى ثمود ، وهو (قُدار بن سالفَ) امتثالاً لأمر من بعثه إليه ، قال في كشف الأسرار : الإنبعاث ، الإسراع في الطاعة للباعث ، أو حين قام «قُدَار» ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء ويدل عليه قوله تعالى (**فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**) فإنه يدل على أن المباشر واحد معين ، مع اشتراك الكل في الرضى به ﴿ **فَقَالَ لَهُمْ** ﴾

(١) الحديث أخرجه مسلم ، وأحمد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٥٦ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، والطبراني ، وابن المنذر ، وبنحوه في مسلم ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٤٥ .

أي لثمود ﴿ رَسُولُ اللهِ ﴾ لمَّا علم ما عزموا عليه ، وهو (صالح) عليه السلام ، عبر عنه بعنوان الرسالة ، إيذاناً بوجوب طاعته ، وبياناً لغاية عتوهم ، وتماديهم في الطغيان ﴿ نَاقَةَ اللهِ ﴾ منصوب على التحذير أضيفت الناقة إليه تعالى للتشريف كبيت الله ، أي ذروا ناقة الله ، الدالة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وعلى نبوتي ، واحذروا عقرها ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ يعني شربها وهو نصيبها من الماء ، ولا تطردوها عنه في نوبتها ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي رسول الله في وعيده بقوله (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي الأشقى والجمع على تقدير وحدته لرضى الكل بفعله قال السهيلي : العاقر (قدار بن سالف) والعقرُ : النحر ، وقدم التكذيب على العقر ، لأنه كان سبب العقر ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ فأطبق عليهم العذاب ، وهو الصيحة الهائلة ، وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة إذا طُلِيتْ بالشحم وأحيطت بحيث لم يبق منها شيء وكررت الدال للمبالغة في الإحاطة ، فالدمدمة ، من الدمدم كالكبكبة من الكب ، قال في كشف الأسرار: تقول العرب دمت على فلان ثم تقول من المبالغة دمت بالتشديد ثم تقول من تشديد المبالغة دمدمت والتركيب يدل على غشيان الشيء الشيء ﴿ بِذَنْبِهِمْ ﴾ أي بسبب ذنبهم المحكي ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي الدمدمة والإهلاك بينهم ، لم يفلت منهم أحد من صغير وكبير ، روي أنهم لما رأوا علامات العذاب ، طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه ، فأنجاه الله كما قال في سورة هود (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) ﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ الواو للحال أي فسوّاها غير خائف عاقبة هلاك ثمود ، كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك والولاة ، فيترحم بعض الترحم ، وذلك أن الله تعالى لا يفعل إلا بحق ، وكلٌ من فعل بحق ، فإنه لا يخاف عاقبة ما فَعَل ، ولا يبالي بعاقبة ما صنع ، وإن كان من شأنه الخوف ، فكيف بربِّ العالمين جلَّ وعلا !!

تمت سورة الشمس بحمد الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى** ﴾ أي أقسم بالليل حين يغْشَى الشمس ويغطيها ويسترها ، أو كل ما يواريه بظلامه ، من مخلوقٍ وجماد ، ومطيعٍ وعاص ، كما قال القائل :

اللَّيلُ دَاجٍ وَالعُصَاةُ نِيامُ * وَالعَابِدُونَ لِذِي الجَلاَلِ قِيَامُ

﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى** ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل ﴿ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى** ﴾ أي والقادر العظيم القدرة ، الذي خلق صنفي الذكر والأنثى ، من كل نوع له توالد ، وقيل : إنها آدم وحواء عليها السلام ، على أن اللام للعهد قال تعالى (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ (**وَالذَّكَرِ والأُنْثَىٰ**) قال علقمة: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء رضي الله عنه فقال : أفيكم من قراءة عبد الله بن مسعود ، فأشاروا إليَّ فقلتُ نعم أنا ، فقال : كيف يقرأ هذه الآية ؟ فقلت : سمعتُه يقرأ (**وَالذَّكَرِ والأُنْثَىٰ**) قال : وأنا هكذا والله سمعت رسول الله عليه السلام يقرأها، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها (**وَمَا خَلَقَ**) والله لا أتابعهم[1] ﴿ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** ﴾ جواب القسم، وشتَّى : جمع شتيت وهو المفترق المتشتت ، والمعنى إن مساعيكم وأعمالكم المختلفة ، فبعضها حسن نافع، وبعضها قبيح ضار ، وفي الحديث (كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها ، أو بائع نفسه فموبقها)[2] . ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى** ﴾ حقوق ماله ﴿ **وَاتَّقَىٰ** ﴾ محارم الله التي نهى عنها ، ومن جملتها المن والأذى ﴿ **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى** ﴾ بالخصلة الحسنى ، وهي الإيمان وكلمة التوحيد والجنة التي هي المثوبة العظمى ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ اليسرى تأنيث الأيسر ، والمعنى فسنهيئه ونوفقه للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة ، كدخول الجنة والنجاة من النار ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ** ﴾ أي بماله ، فلم يبذله في سبيل الخير ﴿ **وَاسْتَغْنَى** ﴾ زهد فيما عنده تعالى ، أي لم يرغب كأنه مستغن عنه فلم يتق ربه ﴿ **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ أي ما ذكر من المعاني المتلازمة ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ أي فسنهيئه للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، كدخول النار ومقدماته ، لاختياره لها ، والظاهر أن السين للدلالة على الجزاء الموعود ، بمقابلة الطاعة والمعصية ، وهو إنما يكونُ في الآخرة ، التي هي أمر متراخ منتظر ، فأدخلت السين ليدل بذلك على أن الوعد آجل غير حاضر ﴿ **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ** ﴾ أيْ أيَّ شيء يغني عنه ماله الذي يبخل به ؟ لا يغني عنه شيئاً ﴿ **إِذَا تَرَدَّى** ﴾ أي هلك ومات ، من الرَّدى وهو الهلاك ، والتردي

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث علقمة ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٥٨

(٢) هذا جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم في الطهارة والترمذي في الدعوات ، وابن ماجه ، وأحمد في المسند ٥ / ٣٤٢ .

التعرض للهلاك ، فالمال الذي ينتفع به الإنسان في الآخرة وقت حاجته ، هو الذي أعطى حقوقه . وقدَّمه ، دون الذي بخل به وتركه لوارثه ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** ﴾ أي إن علينا بموجب قضائنا ، المبنيِّ على الحكم البالغة ، أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه ، من طريق الضلال وما يؤدي إليه ، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه ، حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ، ترغيباً وترهيباً ﴿ **وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى** ﴾ أي التصرف الكلي لنا فيهما كيفما نشاء ﴿ **فَأَنْذَرْتُكُمْ** ﴾ خوفتكم بالقرآن ياأهل مكة ﴿ **نَاراً تَلَظَّى** ﴾ بحذف إحدى التاءين أي تتلهب ، فإن النار مؤنث وصفت به ، ولو كان ماضياً لقيل تلظت ، مع أن المراد بوصفها دوام التلظي بالفعل الاستمراري ﴿ **لاَ يَصْلاَهَا** ﴾ لا يقاسي حرها ﴿ **إِلاَّ الأَشْقَى** ﴾ الزائد في الشقاوة وهو الكافر ، فإنه أشقى من الفاسق يعني الشقيَّ التَّعيسَ ، فالفاسق لا يدخلها دخولاً أبدياً ، وقد صرح به قوله تعالى ﴿ **الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ أي كذب بالحق ، وأعرض عن الطاعة ، وليس هذا إلا الكافر ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا** ﴾ أي سَيُبْعد عنها بحيث لا يسمع حسيسها ﴿ **الأَتْقَى** ﴾ المبالغ في الاتقاء عن الكفر والمعاصي ، فلا يحوم حولها فضلاً عن دخولها الأبدي ، وأما من يتقي الكفر دون المعاصي ، وهو المؤمن الشقي الفاسق غير التائب ، فلا يُبعد عنها بل يصلاها ، وإن لم يذق شدة حرها كما ذاق الكافر ، لكونه في الطبقة الفوقانية من طبقات النار وفي كشف الأسرار : الأتقى بمعنى التقي ، كالأشقى بمعنى الشقي ، قال الشاعر :

تَمنَّى رجالٌ أن أمـوتَ وإنْ أَمُتْ * فتِلْكَ سبيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ

أي بواحد ﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ** ﴾ يعطيه ويصرفه في وجوه البر والحسنات ﴿ **يَتَزَكَّى** ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً نامياً ، لا يريد رياء ولا سمعة ، أو متزكياً متطهراً من الذنوب ، ومن دنس البخل ووسخ الإمساك ﴿ **وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى** ﴾ أي ليس لأحد عنده نعمة ومِنَّةٌ ، فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاتها ﴿ **إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى** ﴾ استثناء منقطع فالمعنى : لكنْ فعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى ، أي لابتغاء ذاته ، وطلب رضاه ، ولم يدفع المال مكافأة على نعمة سالفة ، بل فعله لأجل أن الله أمره به ، وحثَّه عليه ، ومعنى الأعلى الرفيع فوق خلقه ، والآية نزلت في حق «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه ، حين اشترى بلالاً رضي الله عنه وأعتقه ، فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده فنزلت[1] ، وقد ورد (يرحم الله أبا بكر ، زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : بلالٌ سيِّدُنَا ، ومولى سيِّدنا ، وهو نظير قوله عليه السلام (سلمان منا أهل البيت)[2] فانظر إلى شرف التقوى ، كيف أدخل الموالي

(١) أخرجه البزار وابن جرير ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٦٠ .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني عن عمرو بن عوف مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٥٩ .

في الأشراف ، ولا تغتر بالنسب المجرد ، فإنه خارج عن حد الإنصاف ، وفُهم مما ذُكر أن أعلى الإعطاء فضيلة ، ما يكون لرضى الله ، وأوسطه ما يكون لعوض أخروي ، وأدناه ما يكون لغرض دنيوي مباح ، وأما ما يكون للرياء والسمعة أو لغير ذلك فهو أخس وأقبح ، وقوله عليه السلام (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له)[1] يدل على أن المكافأة مشروعة ممدوحة ، لكنها ليست بدرجة ابتغاء المرضاة ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ جواب قسم مضمر أي وبالله لسوف يرضى ذلك الأتقى ، الموصوف بما ذُكر ، وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه ، على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضى ، قال بعضهم : أي يرضى الله عنه ويرضى هو بما يعطيه الله في الآخرة من الجنة والكرامة والزلفى ، جزاء على ما فعل ، ولم ينزل هذا الوعد إلا لرسول الله ﷺ في قوله (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**) ولأبي بكر رضي الله عنه ههنا .

تم بعونه تعالى وتوفيقه تفسير سورة الليل

• • •

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي وأبو داود وانظر جامع الأصول ١١ / ٦٩٢ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **وَالضُّحَى** ﴾ هو وقت ارتفاع الشمس صدر النهار ، أريد بالضحى الوقت المذكور ، قالوا : وتخصيصه بالإقسام به ، لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام ، وألقي فيها السحرة سجداً لقوله تعالى (**وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**) فكان له بذلك شرف،ومناسبة بحال المقسم لأجله ، وصلاة الضحى سنة بالاتفاق ﴿ **وَاللَّيْلِ** ﴾ أي وجنس الليل قال ابن خالويه : هو نسق على الضحى لا قسمٌ ، لأنه يصلح أن يقع في موضع الواو ثم أو الفاء بأن يقال ثم الليل مثلاً وثم لا يكون قسماً ﴿ **إِذَا سَجَا** ﴾ أي سكن أهله أو ركد ظلامه واستقر وتناهى ، يقال : سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه ، وليلة ساجية ساكنة الريح ، وقيل معناه : سكون الناس والأصوات ، وتقديم الليل في السورة المتقدمة باعتبار الأصل ، لأن النهار إنما يحدث بطلوع النِّير ، فإن قيل : ما السبب في أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل بكليته ؟ أجيب : بأنه وإن كان ساعة من النهار لكنه يوازي جميع الليل ، كما أن محمداً عليه السلام يوازي جميع الأنبياء عليهم السلام ، وبأن النهار وقت السرور والراحة ، والليل وقت الوحشة والغم ، فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أكثر من سرورها ، فإن الضحى ساعة ، والليل له ساعات ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ** ﴾ جواب القسم ، والتوديعُ : هو الترك ، لأن من ودَّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك ، والمعنى ما قطعك قطع المودع ، وما تركك بالحط عن درجة الوحي ، والقرب ، والكرامة ﴿ **وَمَا قَلَى** ﴾ أي وما أبغضك ، والقَلَى : شدة البغض ، يقال : قَلا زيداً يقلوه ويقليه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة ، وحُذفت الكافُ من قلاك لدلالة الكلام عليه ، ولمراعاة الفواصل ، رُوي أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ بضعة عشر يوماً لتركه الاستثناء وذلك أن مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة ، وسألوهم عن أمر محمد عليه السلام ، فقالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم عن قصة أهل الكهف ، وقصة ذي القرنين ، ولم يخبركم عن أمر الروح ، فاعلموا أنه صادق ، فجاءه المشركون وسألوه عنها ، فقال عليه السلام لهم : ارجعوا سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه أياماً ، فقال المشركون إن محمداً ودَّعه ربه وقلاه فنزل جبريل بقوله تعالى (**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ يَشَاءَ اللهُ**) فأخبره بما سئل عنه وقد سبق في سورة الكهف[1] ، ونزل أيضاً بقوله تعالى **(مَا وَدعكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** ردّاً على المشركين ، وتبشيراً له عليه السلام بأن الحبيب لا يقلي الحبيب ، وأنه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا ، مع أن ما سيؤتيه في الآخرة أجلُّ وأعظم من ذلك ، كما تنبيء عنه الآية الآتية ، ورُوي «أن جرواً دخل البيت ،

(١) ذكره الحافظ ابن كثير عن ابن عباس من رواية محمد بن إسحق ، وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٤٠٨ .

فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبيُّ الله أياماً لا ينزل عليه الوحي ، فقال لخادمته خولة ما حدث في بيتي ؟ إن جبريل لا يأتيني ، قالت خولة : فكنستُ البيت فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا جروٌ ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وأنزل الله هذه السورة ، فلما نزل جبريل سأله النبي عليه السلام عن سبب تأخيره ، فقال : أما علمتَ أنَّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ، ولا صورة»[1] ؟ وقيل غير ذلك ، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام وقع منه ما هو ترك الأولى ، ولذا لم يكن ممقوتاً ولا مبغوضاً ، وإنما احتبس عنه الوحي ، للتربية والإرشاد ﴿ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُوْلَى** ﴾ لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق ، والدنيا فانية مشوبة بالمضار ، واللام في « وللآخرةُ » لامُ الابتداء ، المؤكدة لمضمون الجملة السابقة ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ** ﴾ أي ولأنت يا محمد سوف يعطيك ربك ، عطاءً لا يخطر على البال ﴿ **فَتَرْضَى** ﴾ ما تعطاه مما يطمئن به قلبك ، والآية عِدَةٌ كريمة ، شاملة لما أعطاه الله في الدنيا ، من كمال النفس ، وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين بالفتوحات الواقعة في عصره عليه السلام ، وفي خلفائه الراشدين ، وغيرهم من الملوك الإسلامية ، وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ويُروى أن رسول الله ﷺ ، دخل على فاطمة رضي الله عنها ، وعليها كساء من وبر الإبل ، وهي تطحنُ بيدها ، وترضع ولدها ، فدمعت عيناه لما أبصرها ، فقال : يابنتاه تعجَّلي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة ، فقد أنزل الله (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**) وفي الحديث (أشفع لأمتي حتى أنادَىٰ أرضيت يا محمد ؟ فأقول رب قد رضيت)[2] وفي فتح الرحمن : ومما يرضيه عليه السلام ، ألا يسوءه أحد في أمه وأبيه ، فقد أذن له في زيارة قبرهما في وقت دون وقت ، وهما من أهل الفترة وقد قال سبحانه (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا** ﴾ مات أبواك ﴿ **فَآوَىٰ** ﴾ أي ألم يعلمك الله يتيماً ، فجعل لك مأوى تأوي إليه ؟ روي أن أباه عبد الله بن عبد المطلب مات ، وهو عليه السلام جنين قد أتت عليه ستة أشهر ، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وعطَّفه الله عليه فأحسن تربيتَه ، وذلك إيواؤه ، وقال بعضهم : لما ولد رسول الله ﷺ كان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة ، ثم مات جده بعد أمه بسنتين ، ورسول الله ابن ثمان سنين ، ولما أشرف جده عبد المطلب على الموت أوصى به عليه السلام أبا طالب ، لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فكان أبو طالب هو الذي تكفل رسول الله إلى أن بَعثَه الله للنبوة ، فقام

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه والطبراني ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٦١ .

(٢) روي في صحيح مسلم أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال : اللهم أمتي ، وبكى فقال الله ياجبريل : إذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك ؟ ـ وهو تعالى أعلم ـ فأتى جبريلُ رسولَ الله وسأله فأخبره رسول الله بما قال ، فقال الله ياجبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » ا هـ والشيخ أتى به بالمعنى .

بنصره مدة مديدة ، ثم توفى أبو طالب فنال المشركون منه عليه السلام ما لم ينالوا في زمان أبي طالب ، أي آذوه ، وكان يحب الأيتام ويحسن إليهم ، وإنما جعله الله يتيماً لئلا يسبق على قلب بشر ، أن الذي ناله من العز والشرف كان عن تظاهر نسب ، أو توارث مال ، أو نحو ذلك ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ معنى الضلال فقدان الشرائع ، والخلو عن الأحكام ، التي لا يهتدى إليها بالعقول ، بل طريقها السماع كما في قوله تعالى (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ) والمعنى : وجدك غير مهتد لما سبق إليك من النبوة ، وليس هو من الضلال الذي هو الإنحراف عن الهداية والدين[1] ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ أي فهداك إلى مناهج الشرائع ، في تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين ، وعلَّمك ما لم تكن تعلم ، قدَّم هذا الإمتنان على الأخير لأن ابتداءه بعد زمان اليتم وقت التكليف ، فإنه عليه السلام كان موفقاً للنظر الصحيح حينئذ ، ولهذا لم يعبد صنماً قط ، ولم يأت بفاحشة وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي عليه السلام ضلَّ في شعاب مكة حال صباه ، وكان عبد المطلب يطلبه ، ويقول متعلقاً بأستار الكعبة !

يَــارَبِّ فَــارْدُدْ وَلَــدِي مُحَمَّــداً * ردداً إليَّ ، واصْطَنِعْ عِنْــدِي يَــدَا

فوجده أبو جهل فرده إلى عبد المطلب . فمنَّ الله عليه حيث خلصه على يدي عدوه ، فكان في ذلك نظير موسى عليه السلام ، حين التقطه فرعون ليكون له عدواً وحَزَناً ، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ أي فقيراً فأغْناك بما أفاء عليه من الغنائم ، حتى كان عليه السلام يهب المائة من الإبل وفي الحديث (جُعل رزقي تحت ظل رمحي)[2] وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام لو كان غنياً من أول الأمر ، لكان يسبق إلى بعض الأوهام أنه إنما وجد العز والغلبة بسبب المال ، فلما علا كل العلو على الأغنياء والملوك ، علم أنه كان من جهة الحق ، وقيل : قنَّعك وأغنى قلبك ، قال عليه السلام (ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النفس)[3] ثم المراد من تعداد هذه النعم ليس الامتنان ، بل تقوية قلبه عليه السلام ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ القهرُ : الغلبة والتذليل ، ويستعمل في كل واحد منهما ، قال الراغب : (فَلاَ تَقْهَرْ) أي لا تُذله ، وقال غيره : فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه ، ويُقال : إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن ، فيقول من أبكى هذا اليتيم ، الذي واريت والده تحت الثرى ؟ من أسكته وأرضاه فله الجنة ، وقال مجاهد : لا تحتقره فإن له رباً ينصره ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾

---

(١) قال في البحر : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك ، وإنما المراد به عدم الإهتداء إلى معرفة الشريعة وأحكام الدين ، فهداه الله إليها ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ٣ / ٥٧٣ ففيه تفصيلٌ وتوضيح .

(٢) الحديث أخرجه البخاري تعليقاً في الجهاد ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٣٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٤٠ .

النهر والانتهارُ : الزجر بمغالظة ، أي فلا تزجر ولا تغلظ له القول ، بل رُدَّه رداً جميلاً ، قال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السُّؤَّال ، يحملون زادنا إلى الآخرة ، وقال إبراهيم النخعي : السائل يريدُ الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : أتبعثون إلى أهليكم بشيء ؟ ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**) فإن تحديث العبد وإخباره بنعمة الله ، شكرٌ باللسان ، وتذكيرٌ للغير ، وأريد بالنعمة ما أفاضه الله على رسوله ﷺ من النعم الموجودة منها والموعودة ، وحيث كان معظم النعم نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه السلام لأهل الضلال ، وتعليمه للشرائع والأحكام ، حسبما هداه الله وعلمه من الكتاب والحكمة ، وهذا الثالث بمقابلة الثاني ، وهو قوله (**ووجدك ضالاً فهدى**) أُخِّر لمراعاة الفواصل ، والتحدثُ بنعم الله من الطاعات ، مع أمن الرياء ، وغائلة النفس ، وطلب الاقتداء به ، وكرهه بعض خوف الفتنة ، وقال ابن عطية في الآية : حدِّثْ به نفسك أي لا تنس فضله عليك قديماً وحديثاً وإذا جاز تحديث النعم الظاهرة جاز تحديث النعم الباطنة من الكرامات والمخاطبات ونحو ذلك ، وفي التأويلات النجمية : اذكر شكر نعمة النبوة على ظاهر نفسك ونعمة الرسالة على باطن قلبك ونعمة الولاية على سرك ونعمة البقاء بعد الفناء على روحك ، وهو معنى سورة (والضحى والليل إذا سجا) فافهم ، وهذه السورة وسورة الإنشراح درَّتان يتيمتان غاليتان لما فيهما من الحكم والمعارف ، ولما نزلت سورة الضحى كبَّر ﷺ فرحاً بنزول الوحي ، فصار سنة (الله أكبر) أو (لا إله إلا الله والله أكبر) وكان ذلك سبباً للتكبير في افتتاح السورة التي بعدها ، وفي ختمها إلى آخر القرآن ، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ كذلك على النبي عليه السلام ، بعد أمره له بذلك ، وأنه كان كلما ختم سورة وقف وقفة ثم قال (الله أكبر) ، وابتداؤه من آخر سورة الضحى إلى آخر (قل أعوذ برب الناس) والإتيان بالتكبير في الأول والآخر جمع بين الروايتين الرواية التي جاءت بأنه يكبر في أول السورة المذكورة والرواية الأخرى أنه يكبر في آخرها ونقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال لآخر : إذا تركت التكبير من الضحى إلى الحمد فقط تركتَ سنة من سنن نبيك عليه السلام ، لكن في كلام الحافظ ابن كثير : لم يرد ذلك أي التكبير عن أهل مكة قرائهم وعلمائهم وصح أيضاً عن أبي جعفر وأبي عمرو ، وورد عن سائر القراء عند الختم وهو سُنَّةٌ مأثورة عن النبي عليه السلام وعن الصحابة والتابعين في الصلاة وخارجها لكن من فعله فحسن ، ومن لم يفعله فلا حرج عليه .

تمت سورة الضحى بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ قال الراغب : شرح الصدر بنور إلهي ، وسكينة من جهة الله ، وروحٍ منه ، وشرحُ المشكل من الكلام : بسطُه وإظهار ما يخفى من معانيه انتهى وفي الحديث (إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح)[1] أي احتمل البلاء وحفظ سر الربوبية ، كما قال موسى عليه السلام (رب اشرح لي صدري) أي وسع قلبي حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجهم ، بل يحتمل أذاهم ، وزيادة لك للإيذان بأن الشرح من منافعه ومصالحه عليه السلام وإنكار النفي إثبات أي قد شرحنا لك صدرك وفسحناه ، حتى حوى عالم الغيب والشهادة ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى انفساح صدر قلبه بنور النبوة ، وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين ، وإنشراح صدر سره بضياء الرسالة ، واحتمال مكاره الكفار وأهل النفاق ، وانبساط صدر نوره بأشعة الولاية ، وتحققه بالعلوم اللدنية والحكم الإلهية ، والمعارف الربانية ، والحقائق الرحمانية ، وأما شرح الصدر الصوري فقد وقع مراراً ، مرة وهو ابن خمس سنين لإخراج مغمز الشيطان ، وهو الدم الأسود الذي به يميل القلب إلى المعاصي ، ويعرض عن الطاعات ، ومرة عند ابتداء الوحي ، ومرة ليلة المعراج ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ أي حططنا وأسقطنا عنك حملك الثقيل ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي حمله على النقيض ، كما يسمع من الرَّحل المتداعي إلى الانتقاض من ثقل الحمل ، أي الذي ثقل عليك ثقلاً شديداً ، فإن انقاض الحمل الظهر إنما يكون بمعنى تصويت الرحل الذي عليه ، وهو يكون بثقل الحمل وتأثيره المفضي إلى انحراف بعض أجزاء الرحل عن محالها وحصول الصوت بذلك فيه ، مُثِّلَ به حالُه عليه السلام مما كان يثقل عليه ويغمه ، من فرطاته قبل النبوة ، أو من عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع ، ومن تهالكه على إسلام المعاندين من قومه ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بعنوان النبوة وشرف الرسالة ، حيث قرن اسمه باسم الله ، في كلمة الشهادة ، والأذان ، والإقامة ، وفيه يقول حسان بن ثابت :

أغرُّ عَلَيْهِ للنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ * مِنَ اللهِ مَشْهُورٌ يَلوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَبيِّ إلى اسْمِهِ * إذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وجعل طاعة الرسول طاعته تعالى ، وصلى عليه هو وملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وسمي

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه عبد الرزاق والطبري بنحوه وابن أبي حاتم ، قال ابن كثير « وله طرق مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضاً » . وانظر مختصر ابن كثير ١ / ٦١٧ .

رسول الله ، ونبي الله ، وغير ذلك من الألقاب المشرفة ، فكُّل ذلك لقدره ﷺ ، وفي الحديث أن جبريل قال للنبي عليه السلام (يامحمد إن ربك يقول : أتدري كيف رفعتُ ذكرك ؟ قلتُ : الله تعالى أعلم ، قال : إذا ذُكرتُ ذكرتَ معي)[1] .

﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ تقرير لما قبله ، ووعدٌ كريم بتيسير كل عسير له عليه السلام وللمؤمنين ، قال في الكشاف : فإن قلت : كيف تعلق قوله (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) بما قبله ؟ قلتُ : كان المشركون يعيِّرون رسول الله والمؤمنين بالفقر والضيقة ، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم ، فذكَّره ما أنعم الله به عليه من جلائل النعم ، ثم قال (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) إلخ كأنه قيل : خولناك من جلائل النعم ، فكن على ثقة بفضل الله ولطفه ، فإن مع العسر يسراً كثيراً ، وفي كلمة « مع » إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر ، كأنه مقارن للعسر ، وإلا فالظاهر ذكر كلمة المعاقبة ، لا أداة المصاحبة ، لأن الضدين لا يجتمعان ، وفي تعريف العسر وتنكير اليسر ، إشارة لطيفة إلى أن الدنيا دار العسر ، فالعسر عند السامع معلوم معهود ، واليسر مجهول مبهم ﴿ **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ تكرير للتأكيد ، أو عِدَةٌ مستأنفة ، بأن العسر مشفوع بيسر آخر ، كثواب الآخرة ، كقولك : إن للصائم فرحتين أي فرحة عن الإفطار وفرحة عند لقاء الرب ، قال في شرح المنار ، المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى ، كالعسرين في الآية وهو يعني قول ابن عباس رضي الله عنهما (لن يغلب عسرٌ يُسْرين) قال فخر الإسلام : في جعل الآية من هذا القبيل نظر ، لأنها لا تحتمل هذا المعنى ، كما لا يحتمل قولنا ، إن مع الفارس رمحاً ، إن مع الفارس رمحاً أن يكون معه رمحان ، بل هذا من باب التأكيد ، فإن قلت ، فإذا حُمل على التأكيد ، فما وجه قول ابن عباس رضي الله عنهما ؟ قلت : كأنه قصد باليسرين ما في قوله (**يسراً**) من معنى التفخيم ، فيتناول يُسْر الدارين ، وذلك يُسْران في الحقيقة انتهى ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ** ﴾ أي من التبليغ أو من المصالح المهمة الدنيوية ﴿ **فَانْصَبْ** ﴾ أي فاجتهد في العبادة واتعب ، شكراً لما أوليناك من النعم السالفة ، ووعدناك من الآلاء الآتية ، ويجوز أن يقال : فإذا فرغت من تلقي الوحي ، فانصب في تبليغه ، وقال الحسن رحمه الله : إذا كنت صحيحاً فاجعل فراغك نَصَباً في العبادة ، كما روي أن شريحاً مرَّ برجلين يتصارعان ، وآخر فارغ ، فقال ما أُمر بهذا ، إنما قال الله (**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**) وقعودُ الرجل فارغاً من غير شغل ، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه ، من سفه الرأي ، وسخافة العقل ، واستيلاء الغفلة ، وعن عمر رضي الله عنه (إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سهلاً ، لا في عمل دنياه ، ولا في عمل آخرته) فلابد للمرء أن يكون في عمل مشروع دائماً ،

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، وذكره ابن كثير والسيوطي في الدر المنثور ٦ / ٣٦٤ .

فإذا فرغ من عمل أتبعه بعمل آخر ، وقال قتادة والضحاك : فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء[١] ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ أصل الرغبة : السعة في الشيء فإذا قيل رغب فيه واليه يقتضي الحرص عليه ، وإذا قيل رغب عنه : اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه ، وفي القاموس : رغب فيه كسمع رَغَباً ورغبة : أراده ، ورغب عنه لم يرده ، وإليه رَغَباً محركة ابتهل ، أو هو الضراعة والمسألة ، والمعنى : فارغب بالسؤال ولا تسأل غيره ، فإنه القادر على إسعافك لا غيره .

تم تفسير سورة الإنشراح بعون الله وتوفيقه



(١) هناك أقوال كثيرة عن السلف في تفسير الآية الكريمة ، ذكرها المفسرون ، منها ما رُوي عن ابن عباس ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ قال : إذا فرغت من صلاتك وتشهدّتَ ، فانصبْ إلى ربك واسأله حاجتك ، ومنها ما رُوي عن ابن مسعود : إذا فرغتَ من الفرائض ، فانصبْ في قيام الليل ، ومنها ما رُوي عن الضحاك : إذا فرغتَ من الصلاة المكتوبة ، فارغب إلى ربك في المسألة والدعاء .

وقال قتادة : أُمِرَ إذا فرغ من الصلاة أن يرغب في الدعاء إلى ربه .

وقال الحسن : أُمِرَ إذا فرغ من الجهاد أن يجتهد في العبادة .

وكل هذه الآثار ذكرها السيوطي في الدر المنثور ، والطبري في جامع البيان ، وابن كثير في تفسيره ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٦٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ هما هذا التين الذي يؤكل ، وهذا الزيتون الذي يُعصر منه الزيت ، خصهما الله من بين الثمار بالإقسام بهما ، لاختصاصهما بخواص جليلة ، فإن التين فاكهة طيبة ، وغذاء لطيف سريع الهضم ، ودواء كثير النفع ، يلين الطبع ويحلل البلغم ، ويطهر الكليتين ، ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمن البدن ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، وأما الزيتون فهو فاكهة ، وإدام ، ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع ، مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها كالجبال لكفى به فضلاً ، وشجرته هي الشجرة المباركة المشهورة في التنزيل ، وقال مريض لابن سيرين : رأيتُ في المنام كأنه قيل لي : كُلِ اللأَين تُشفى ، فقال : كل الزيتون فإنه (لا شرقية ولا غربية) وقال الطبري : المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق ويسمى جبل قاسيون ، والزيتون وهو طور زيتا الجبل الذي يلي بيت المقدس من جهة المشرق ، وذلك أن التين ينبت كثيراً بدمشق ، والزيتون بإيلياء ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه ، قال الماوردي : ليس كل جبل يقال له طور إلاّ أن يكون فيه الأشجار والثمار ، وإلا فهو جبل فقط ، وسينين وسيناء علمان للموضع الذي هو فيه ، ومعنى سينين بالسريانية ذو الشجر الحسن المبارك ، وأصل سينين سيناء بفتح السين وكسرها ، وإنما قال ههنا « سينين » لأن تاج الآيات النون ، كما قال في سورة الصافات (سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ) وهو إلياس ، فخرج على تاج آيات السورة ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ أي الآمن وهو مكة شرَّفها الله تعالى ، وأمانتها أنها تحفظ من دخلها جاهليةً وإسلاماً، من قتلٍ وسبي ، كما يحفظ الأمين ما يُؤتمن عليه ، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول بمعنى المأمون فيه ، كما وصف بالأمن في قوله تعالى (حَرَمًا آمِنًا) بمعنى ذي أمن ، وفي الحديث (من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً)[1] ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة ، وما ظهر فيها من الخير والبركة ، بسكنى الأنبياء والصالحين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ، ومولد عيسى ومنشأهما عليهما السلام ، والطور المكان الذي نودي فيه موسى عليه السلام ، ومكة مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ﴾ أي جنس الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التقويمُ : تصييرُ الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه ، في التأليف والتعديل ، وعن يحيى بن أكثم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة ، فإنه حَكَى أن

---

(١) لم أره بهذا اللفظ ، وله ما يؤيده من الصحيح ، منها ما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمتْ بها ، فإني أشفع لمن يموتُ بها) وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٥٧ .

ملك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة ، فقال لها : إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالقٌ فأفتى الكل بالحنث إلا «يحيى بن أكثم» قال لا تطلق ، فقالوا : خالفت شيوخك فقال الفتوى بالعلم ، ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى ، قال (**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**) فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه ففرح الملك وأجزل له العطاء ، وفي المفردات : هو إشارة إلى ما خُصَّ به الإنسان من بين الحيوان ، من العقل ، والفهم ، وانتصاب القامة ، والمعنى كائناً في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل ، صورة ومعنى ، حيث خلقه مستوي القامة ، متناسب الأعضاء ، حسن الشكل ، كما قال (**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**) أي صوركم أحسن تصوير ، وكذا خلقه متصفاً بالصفات الإلهية ، من الحياة ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، المشار إليها بقوله عليه السلام (خَلَق الله آدم على صورته)[1] فالإنسان مظهر الجلال ، والجمال ، والكمال (**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** ﴾ أي جعلناه من أهل النار الذي هو أقبح من كل قبيح ، وأسفل من كل سافل ، لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات ، التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، والحاصل أنه حول بسوء حاله من أحسن تقويم ، إلى أقبح تقويم ، صورة ومعنى ، لأن مسخ الظاهر إنما هو من مسخ الباطن ، فالمراد بالسافلين العُصاة المجرمين ، ثم هذا بحسب بعض الأفراد الإنسانية ، لانغماسهم في بحر الشهوات الحيوانية البهيمية ، وإنهماكهم في ظلمات اللذات الجسمانية ، وفيه إشارة إلى أن الاعتبار إنما هو بالصورة الباطنة ، لا بالصورة الظاهرة ، فكم من مصور على أحسن الصور في الظاهر ، وهو في الباطن على أقبح الهيئات ، ولذا يجيء الناس يوم القيامة أفواجاً فتتنوع صورهم بحسب صفاتهم ، على أنواع ، وقيل : رددناه إلى أرذل العمر وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، كقوله تعالى (**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ**) أي نكسناه في خلقه ، فتقوس ظهره بعد اعتداله ، وأبيض شعره بعد سواده ، وكَلَّ سمعه وبصره ، وتغيَّر كل شيء منه .

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ إيماناً صادقاً ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي لكن الذين كانوا صالحين فلا يُردُّون إلى أسفل سافلين ، قال أبو الليث : يعني لا يخرف ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً ، وفي الحديث (طوبى لمن طال عمره وحسن عمله)[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما (من قرأ القرآن ، لم يُردَّ إلى أرذل العمر) ﴿ **فَلَهُمْ أَجْرٌ** ﴾ في دار الكرامة ، لأنها المحل له ، ودخول الفاء لتضمن اسم « لكن » معنى الشرط ، أي لا يغير صورهم في النار لأنهم مثابون في الجنة ﴿ **غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ غير منقطع على

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٠ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ (خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٩٥ وفي رواية أخرى ﴿ **خيركم من طال عُمره وحَسُنَ عملُه ، وشرُّكم من طَالَ عمرُه وسَاءَ عملُه** ﴾ .

طاعتهم ، وصبرهم على الابتلاء ، وعلى مقاساة المشاق ، والقيام بالعبادة ، وفي التيسير عن رسول الله ﷺ (إن العبد إذا مرض أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً)[1] ويُروى إن المؤمن إذا مات صعد الملكان إلى السماء فيقولان إن عبدك فلاناً قد مات ، فائذن لنا حتى نعبدك على السماء ، فيقول الله إن سماواتي مملوءة بملائكتي ، ولكن اذهبا إلى قبره واكتبا حسناته إلى يوم القيامة ، ويجوز أن يكون المعنى غير ممنون به عليهم ﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ** ﴾ الاستفهام مشعر بالتعجب أي فأي شيء يكذبك يامحمد بالجزاء ، بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به ؟ أي ينسبك إلى الكذب بسبب إثباتك الجزاء ، وإخبارك عن البعث ، فإن من خلق الإنسان السوي من الماء المهين ، وجعل ظاهره وباطنه على أحسن تقويم ، ودرَّجه في مراتب الزيادة إلى أن استكمل واستوى ، ثم نكَّسه إلى أن يبلغ إلى أرذل العمر ، لاشك أنه قادر على البعث والجزاء ، أو فما يجعلك أيها الإنسان كاذباً بسبب الدين ؟ وإنكاره بعد هذا الدليل ؟ وحاصله أن خلق الإنسان من نطفة ، وتقويمه بشراً سوياً ، وتحويله من حال إلى حال ، كمالاً ونقصاناً ، من أوضح الدليل على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء ، فأيُّ شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع ، إلى أن تكون مكذِّباً أيها الإنسان ؟ ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ أي أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين ، صنعاً وتدبيراً ؟ أو المعنى أليس الله بأقضى القاضين ، يحكم بينك وبين من يكذبك بالحق والعدل ؟ يُقال: حكم بينهم أي قضى ، فالآية وعيد للمكذبين ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله ، وكان عليه السلام إذا قرأها يقول : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ويأمر بذلك أيضاً قال (من قرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين)[2] .

تمت سورة التين بعون الله المعين

(١) الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٦٧ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٦٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِقْرَأْ** ﴾ أي ما يوحى إليك يامحمد ، وهذا إلى قوله (**مَا لَمْ يَعْلَمْ**) أول ما نزل عليه ﷺ ، على ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة ، والخلاف إنما هو في تمام السورة ، عن عائشة رضي الله عنها (أول ما مابُدِيءبه رسول الله عليه السلام من النبوة ـ حين أراد الله به كرامته ورحمة العباد به ـ الرؤيا الصالحة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح)[1] أي كضيائه وإنارته فلا يشك فيها أحد كما لايشك في وضوح ضياء الصبح ، وإنما ابتدىء عليه السلام بالرؤيا ، لئلا يفجأه الملك وجبريل بالرسالة ، فلا تتحملها القوة البشرية ، لأنها لا تحتمل رؤية الملك ، فكانت الرؤيا تأنيساً له ، ثم أوحي إليه في اليقظة في شهر رمضان ، وكان في جبل غار حراء ، ثم لما بلغ عليه السلام رأس الأربعين ، ودخلت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، جاءه الملك وهو في الغار ، كما قال الإمام الصرصري رحمه الله :

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ * شَمْسُ النُبوَّةِ منهُ فِي رَمَضَانِ

قالت عائشة : جاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال فأخذني فغطّني أي ضمني وعصرني ثم أرسلني ، فعله ثلاث مرات ، ثم قال (إقرأ إلى قوله (ما لم يعلم) وأخذ منه القاضي شريح من التابعين ، أن المعلم لا يضرب الصبيَّ على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات ، فخرج عليه السلام من الغار ، حتى إذا كان في جانب من الجبل سمع صوتاً يقول : يامحمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده ، فحدثها بما جرى ، فقالت له : أبشرْ يابنَ عمي ، واثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ورقة فأخبرته بذلك فقال فيه :

فإن يكُ حقّاً ياخديجةُ فاعْلمي * حديثك إيَّاناً فأحمدُ مُرْسَلُ
وجبريلُ يأتيهِ وميكالُ مَعْهُما * مِنَ اللهِ وحيٌ يَشْرحُ الصَّدْرَ مُنْزَلُ
يفوزُ بهِ منْ فَازَ عِزّاً لِدينهِ * وَيشْقَى بهِ الغَاوِي الشَقِيُّ المُضَلَّلُ
فريقانِ منهمْ فِرقةٌ فِي جَنابهِ * وأخرى بأغْلالَ الجَحِيمِ تُغَلَّلُ

ومكث عليه السلام مدة لا يرى جبريل ، وإنما كان كذلك ليذهب عنه ما كان يجده من الرعب ، وليحصل له التشوق إلى العود ، وكانت فترة الوحي بين (**اَقْرَأْ**) وبين (**يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِلُ**) وتُوفي ورقة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحها ، وهو حديث طويل ذكر المصنف طرفاً منه ، وانظر تمام الحديث في الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٣٦٨ .

في هذه الفترة وقد آمن ورقة به عليه السلام ، وصدَّقه قبل الدعوة التي هي الرسالة ، ثم نزل (**يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ**) فظهر الفرق بين النبوة والرسالة ﴿ **بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ أي اقرأ ملتبساً باسم الله تعالى ، أي مبتدئاً به ، وقل «بسم الله الرحمن الرحيم » ثم إقرأ ، فعلم أن **(إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)** نزلت من غير بسملة ، وقد صرح بذلك الإمام البخاري رحمه الله ، أمره تعالى بذلك .. لأن ذكر اسم الله قوةٌ له في القراءة ، وأنس بمولاه ، فإن الأنس بالاسم يفضي إلى الإنس بالمسمَّى ، والذكرُ باللسانِ يؤدِّي إلى الذكر بالجَنَان ﴿ **الَّذِي خَلَقَ** ﴾ وصف الرب به لتذكير أول النعماء ، الفائضة عليه منه تعالى ، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان ، من مادة لم تشم رائحة الحياة ، قادر على تعليم القراءة للحي ، أي الذي له الخلق ، لا خالق سواه ، قال في فتح الرحمن : لما ذكر الرب ـ وكانت العرب في الجاهلية تسمى الأصنام أرباباً ـ جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها فقال (**الَّذِي خَلَقَ**) ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ** ﴾ خصّص خَلقَ الإنسان بالذكر ، من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير ، ولتفخيم شأنه إذ هو أشرفهم ﴿ **مِنْ عَلَقٍ** ﴾ جمع علقة ، وهي الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح أي دم جامد رطب ، يَعْلق بما مرَّ عليه ذَكَره لبيان كمال قدرته تعالى ، بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة ، من التباين البين ، ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى ، وأقوم الدلائل الدالة على وجوده تعالى ، وكمال قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وصف ذاته تعالى بذلك أولاً ، ليستشهد عليه السلام به ، على تمكينه تعالى من القراءة ، وفي حواشي ابن الشيخ : إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولاً إلى المشركين ، لو قال له : إقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ، لأبَوْا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدَّم في ذلك مقدمة ، تلجئهم إلى الاعتراف به ، حيث أمر رسوله أن يقول لهم إنهم هم الذين خُلقوا من العَلَقة ، ولا يمكنهم إنكاره ، ثم أن يقول لهم : لابَّد للفعل من فاعل ، فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك الفعل إلى الوثن ، لعلمهم بأنهم نحتوه ، فبهذا التدريج يقرُّون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، لأن الإلهية موقوفة على الخالقية ، ومن لم يخلق شيئاً كيف يكون إلهاً مستحقاً للعبادة ؟ ومن هذه الطريقة ، ما يُحكى أن زفر لَّما بعثه أبو حنيفة رحمه الله إلى البصرة ، لتقرير مذهبه فيهم ، فوصل إليهم وذكر أبا حنيفة منعوه ، ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبي حنيفة وأخبره بذلك ، فقال له أبو حنيفة : إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجعْ إليهم ، واذكر في المسألة أقاويل أئمتهم ، ثم بيِّنْ ضعفها ، ثم قلْ بعد ذلك ههنا قولٌ آخر ، فاذكر قولي وحجتي ، فإذا تمكَّن ذلك في قلبهم ، فقل هذا قولُ أبي حنيفة ، فإنهم حينئذٍ يستحسنونه فلا يردُّونه ﴿ **إِقْرَأْ** ﴾ أي افعل ما أُمِرتَ بهِ ، وكرَّر علامة الأمر بالقراءة تأكيداً للإيجاب ، وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ **وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ** ﴾ فإنه لإزاحة ما بيَّنه عليه السلام من العذر بقوله « ما أنا بقاريء » يريد أن القراءة شأن من يكتبُ ويقرأ ، وأنا أمي ، فقيل له : وربُّك الذي أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه هو

الأكرم ، الزائد في الكرم على كل كريم ، فإنه ينعم بلا غَرض ، ولا يطلب مدحاً أو ثواباً أو تخلصاً من المذمة ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ أي علَّم ما علَّم بواسطة القلم لا غيره ، فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم ، يعلمك بدونها ، وفيه امتنان على الإنسان بتعليم علم الخط ، والكتابة بالقلم ، ولذلك قيل ، العلم صيدٌ والكتابة قيده ، وقيل :

وَمَـــا مِنْ كَـــاتبٍ إلاَّ سَيَبْلَىٰ * وَيُبْقِي الـدَّهْرُ مَـا كَتَبَتْ يَـدَاهُ
فَـــلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّـــكَ غَيْرَ شَيْءٍ * يَسُرُّكَ فِي القِيَـــامَـــةِ أَنْ تَرَاهُ

ولولا القلم ما استقامت أمور الدين والدنيا ، وفيه إشارة إلى القلم الأعلى الذي هو أول موجود ، قال السيوطي رحمه الله : أول ما خلق الله القلم ، قال له اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأول ما كتب القلم أنا التواب أتوب على من تاب ، قال بعضهم : وجهُ المناسبة بين الخلق من العلق ، وتعليم القلم ، أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة ، وأعلاها كونه عالماً ، فالله تعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهي العلقة ، إلى أعلاها وهو تعلم العلم ﴿ **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ أي علَّمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية، والجلية والخفية ماً لم يخطر بباله أصلاً ، فإن قلت: فإذا كان القلم والخط من المنن الإلهية ، فما باله عليه السلام لم يكتب ؟ قلت : لأنه لو كتب لقيل قرأ القرآن من صحف الأولين ، ومن كان اللوح المحفوظ مصحفه ، لا يحتاج إلى تصوير الرسوم ، وتشكيل العلوم بالآيات الجسمانية ، لأن الخط صنعة ذهنية ، وقوة طبيعية ، صدرت بالآلة الجسمانية ، أما الرسول المصطفى فقه علَّمه الله علماً لدنّياً كما قال سبحانه (**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**) ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، للمبالغة في الزجر ﴿ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ** ﴾ أي يتجاوز الحد ويستكبر على ربه ، نزلت في أبي جهل ﴿ **أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ أي يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (منهومان لا يشبعان طالب العلم ، وطالب الدنيا ، لا يستويان ، أما طالب العلم فيزداد في رضى الله ، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان) روي أن أبا جهل قال لرسول الله عليه السلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونتبع دينك ؟ فنزل جبريل فقال : إن شئتَ فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكفَّ رسول الله عن الدعاء ، إبقاء عليهم ورحمة » وأول هذه السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً في العلم والدين ، ومنفراً عن المال والدنيا ، وكان عليه السلام يقول (اللهم إني أعوذ بك من غنىً يطغي ، وفقرٍ يُنسي) ﴿ **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ** ﴾ الرجعى بمعنى الرجوع ، أي إن إلى مالك أمرك أيها الإنسان ، رجوع الكل ، بالموت والبعث ، فسترى حينئذ عاقبة طغيانك .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ الاستفهام للتعجيب ،والخطابُ لكل من يتأتى منه الرؤية ، وتنكير « عبداً » لتفخيمه عليه السلام ، كأنه قيل : ينهى أكمل الخلق في العبودية ، عن عبادة ربه ، روي أن أبا جهل قال في ملأ من طغاة قريش : لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأنَّ عنقه ، فرآه ذات مرة في الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه ، فقالوا : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار ، وهولاً وأجنحة ، فنزلت ، والمراد أجنحة الملائكة أبصر اللعين الأجنحة ولم يبصر أصحابها فقال عليه السلام (والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[1] وكان أبو جهل يكنى في الجاهلية بأبي الحكم ، لأنهم كانوا يزعمون أنه عالم ذو حكمة ، ثم سمي أبا جهل في الإسلام (أَرَأَيْتَ) أي رؤية قلبية ، ومعناه : أخبرني ﴿ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ أي أمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، والآية في الحقيقة تهكم بالناهي ، ضرورة أنه ليس في النهي عن عبادته تعالى ، والأمر بعبادة الأصنام ، على هدىً البتة ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أخبرني عن ذلك الناهي ﴿ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي إن كان مكذباً للحق ، معرضاً عن الصواب ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ﴾ جواب للشرطية الثانية أي يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، حتى اجترأ على ما فعل ؟ أي قد علم ذلك الناهي أن الله يرى فكيف صدر منه ما صدر ؟ وقيل المعنى : أرأيت الذي ينهى عبداً يصلي ، والمنهي على الهدى ، آمراً بالتقوى ، والناهي مكذب متولٍّ ، ولا أعجب من ذا ، قال أبو الليث رحمه الله : والآيةُ عظة لجميع الناس ، وتهديد لمن يمنع عن الخير وعن الطاعة ، وقال ابن الشيخ في حواشيه : وهذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل ، لكن كل من نهى عن طاعة فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد ، وقد احتاط فيه بعض الأكابر ، حتى روي عن علي رضي الله عنه ، أنه رأى في المصلَّى أقواماً ، يصلُّون قبل صلاة العيد ، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك ، فقيل له ألا تنهاهم ؟ فقال: أخشى أن ندخل تحت وعيد قوله تعالى (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى) فلم يصرح بالنهي عن الصلاة احتياطاً ، وأخذ أبو حنيفة هذا الأدب الجميل ، حتى قال له أبو يوسف : أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع (اللهم اغفر لي) قال يقول : ربنا لك الحمد ويسجد ، ولم يصرح بالنهي ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للناهي اللعين وخسوء له ، عن نهيه عن عبادة الله ، وأمره بعبادة اللات ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ، ولم ينزجر ولم يتب ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ السفع : القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة ، والناصية شعر مقدَّم الرأس . والمعنى : لنأخذن في الآخرة بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار ، بمعنى لنأمرن الزبانية ليأخذوا بناصيته ويجروه إلى النار ، بالتحقير والإهانة ، روي أنه لما نزلت سورة الرحمن ، قال عليه السلام من يقرأها على رؤساء قريش ؟ فتثاقلوا ، فقام ابن مسعود رضي الله

(١) أخرجه أبو نُعيم والبيهقي في دلائل النبوة ، وأصل الحديث في البخاري ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٦٩ .

عنه ، وقال : أنا فأجلسه عليه السلام ، ثم قال ثانياً من يقرأها عليهم ؟ فلم يقم إلا ابن مسعود رضي الله عنه ، ثم ثالثاً إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يُبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته ، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قرآة السورة فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه وأدماها ، فإنصرف وعينه تدمع ، فلما رآه عليه السلام رقّ له قلبه ، فلما ظفر المسلمون يوم بدر ، التمس ابن مسعود فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع ، يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه ، فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولعل هذا قوله (**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**) ثم لما عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه ، فارتقى عليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال له : يارويعي الغنم ، لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه ، فقال له أبو جهل : بَلِّغْ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إليَّ منه في حال مماتي ، فروي أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال « فرعوني أشد من فرعون موسى ، فإنه قال : آمنتُ ، وهذا قد زاد عتواً ، ثم قال ياابن مسعود اقطع بسيفي هذا فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، فشق أذنه وجعل الخيط فيها ، وجعل يجره إلى رسول الله عليه السلام وهو يضحك ويقول : أذنٌ بأذن والرأس زيادة ، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً حتى لم يقو على الرأس المقطوع لوجوه : **أحدها** أن أبا جهل كلب ، والكلبُ يجر ولا يُحمل ، **والثاني** ليشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن ، **والثالث** ليحقق الوعيد المذكور بقوله (**لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ**) فيجر تلك الرأس على مقدمها ، قال ابن الشيخ : والناصية شعر الجبهة ، وقد يسمى مكان الشعر ناصية ، ثم إنه تعالى كنى بها ههنا عن الوجه والرأس ، ولعل السبب في تخصيص السفع بها ، أن اللعين كان شديد الاهتمام بترجيل الناصية وتطييبها ﴿ **نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ** ﴾ بدل من الناصية على الإسناد المجازي وهما لصاحبها ، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصيةٌ كاذبٍ خاطىءٍ ، كأن بلغ في الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته ﴿ **فَلْيَدْعُ** ﴾ أبو جهل ﴿ **نَادِيَهُ** ﴾ أي أهل ناديه ومجلسه ليعينوه ، وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم أي يجتمعون ، وقُدر المضافُ ، لأن نفس المجلس والمكان لا يُدعى ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، روي أن أبا جهل مر برسول الله وهو يصلي ، فقال ألم ننهك ، فأغلظ له رسول الله ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا ؟ فنزلت ﴿ **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** ﴾ أي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار ، وواحدٌ منهم يغلب على ألف ألف من أمثال أهل ناديه ، وقد ورد لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً » .

﴿ **كَلاَّ** ﴾ ردع بعد ردع وزجر له إثر زجر ﴿ **لاَ تُطِعْهُ** ﴾ أي دم يامحمد على ما أنت عليه ولا تطع المكذبين ﴿ **وَاسْجُدْ** ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به ﴿ **وَاقْتَرِبْ** ﴾ وتقرب بذلك

السجود إلى ربك ، وفي الحديث (أقرب ما يكون العبد من ربه هو ساجدٌ ، فأكثروا الدعاء)[١] ، وهذا محل السجود عند الثلاثة خلافاً لمالك ، ثم إن السجود إشارة إلى إزالة حجاب الرياسة ، وللسجدة أقسام : « سجدة الصلاة، وسجدة التلاوة ، وسجدة السهو، وسجدة التعظيم لجلال الله وكبريائه، وسجدة التضرع إليه خوفاً وطمعاً، وسجدة الشكر له، وسجدة المناجاة » وهذه مستحبة في الأصح صادرة عن الملائكة، وعن رسول الله عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وقال أبو حنيفة ومالك : سجود الشكر مكروه ، فيقتصر على الحمد والشكر باللسان ، وقال الإمامان : هي قربة يثاب فاعلها وكان صلوات الله عليه يقول في سجوده (أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك)[٢] أي بذاتك من ذاتك ، وهو معنى اقترابه بالسجود .

تمت سورة العلق بعون الله وتوفيقه



(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ١٤٤ .

(٢) هذا طرف من حديث صحيح أخرجه النسائي في سننه ، وهو من أدعيته ﷺ وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٢٩ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ النون للعظمة ، أو للدلالة على الذات مع الصفات والأسماء ، والضمير للقرآن ، لأن شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه ، فكأنه حاضر في جميع الأذهان ، وعظَّمه بأن أسند إنزاله إلى جنابه، مع أن نزوله إنما يكون بواسطة الملك جبريل، والمعنى: نحن حكمنا بإنزاله في ليلة القدر ، وقضينا به وقدَّرناه في الأزل ، فإن قيل : فكيف قال (**أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) ؟ والقرآنُ لم ينزل جملة واحدة ، بل أنزل مفرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة ؟ وجوابه أن المراد أن جبرائيل نزل به جملة واحدة ، في ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وأملاه على الملائكة الكاتبين في تلك السماء ، ثم كان ينزل على النبي عليه السلام منجَّماً على حسب المصالح ، وكان ابتداء تنزيله أيضاً في تلك الليلة ، ففي نزول القرآن بالتدريج ، إشارة إلى تعظيم الجناب المحمدي ، كما تدخل الهدايا شيئاً بعد شيء على أيدي الخدام تعظيماً للمهدَى إليه ، وفي التدريج أيضاً تسهيلٌ للحفظ ، وتثبيتٌ لفؤاده كما قال تعالى (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**) وكلام الله المنزل قسمان : القرآن ، والخبر القدسي ، لأن جبرائيل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبرائيل أداها بالمعنى ولم تجز القراءة بالمعنى ، لأن جبريل أداها باللفظ ، والسرُّ في ذلك التعبُّدُ بلفظه ، والإعجاز به ، فإنه لا يقدر أحد أن يأتي بدله ، بما يشتمل عليه من الإعجاز لفظاً ، ومن الأسرار معنى ، فكيف يقوم لفظ الغير ومعناه ، مقام حرف القرآن ومعناه؟ ثم إن اللوح المحفوظ قلب هذا الكتاب ولهذا نزل على قلب خاتم المرسلين، والقرآن كلامه القديم، أنزله في شهر رمضان كما قال تعالى (**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**) وهذا هو البيان الأول ، ولم ندر نهاراً أنزل فيه أم ليلاً فقال تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**) وهذا هو البيان الثاني ، ولم ندر أيَّ ليلة هي فقال تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) فهذا هو البيان الثالث ، الذي هو غاية البيان ، فالصحيح أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وينسخ فيها أمر السنة ، وتدبير الأحكام ، هي ليلة القدر ، ولتقدير الأمور فيها سميت ليلة القدر ، ويشهد التنزيل لما ذكرنا إذ في أول الآية (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**) ثم وصفها فقال (**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**) والقرآن إنما نزل في ليلة القدر ، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة مواطئة لقوله تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) كذا في قوت القلوب ، فإن قلت : ما الحكمةُ في إنزال القرآن ليلاً ؟ قلت : لأن أكثر الكرامات ، ونزول النفحات ، والإسراء إلى السموات ، يكون بالليل ، والليل من الجنة لأنها محل الاستراحة ، والنهار من

النار لأن فيه المعاش والتعب ، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار ، لأن قلب الإنسان فيه أجمع ، والمقصود هو حضور القلب ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ أيْ وأيُّ شيء أعلمك يا محمد ما هي ؟ أي إنك لا تعلم كنهها لأن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق ، لا يدريها إلاَّ علاَّم الغيوب ، وهو تعظيم للوقت الذي أنزل فيه ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ القيام والعبادة فيها ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أي من صيامها وقيامها ، فخيْرٌ هنا للتفضيل أي أفضل وأعظم قدراً ، وأكثر أجراً من تلك المدة ، وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، وفي الحديث (من قام ليلة القدر إيماناً وإحتساباً ، غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن صام رمضان إيماناً وإحتساباً ، غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[1] قال الخطابي : قوله (إيماناً وإحتساباً) أي بنية وعزيمة ، وهو أن يصومه على التصديق ، والرغبة في ثوابه ، طيبة به نفسه ، غير كاره له ، ولا مستثقل لصيامه ، ولا مستطيل لأيامه ، لكن يغتنم طول أيامه لعظم الثواب ، وقال البغوي قوله (إحتساباً) أي طلباً لوجه الله وثوابه ، والمراد بالقيام صلاة التراويح ، وقال بعضهم : المراد مطلق الصلاة الحاصل بها قيام الليل ، وقوله (وَمَا تَأَخَّرْ) هو كناية عنْ حفظهم من الكبائر بعد ذلك أو معناه أن ذنوبهم تقع مغفورة كذا في شرح الترغيب وقال سعيد بن المسيب : من شهد المغرب والعشاء في جماعة فقد أخذ حظَّه من ليلة القدر ، ثم أن نهار ليلة القدر مثل ليلة القدر في الخير ، وفيه إشارة إلى أن ليلة القدر للعارفين ، خير من ألف شهر للعابدين ، واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر ، في أوتارها ، لقوله عليه السلام (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان فاطلبوها في كل وتر)[2] وإنما جعلت في العشر الأخير الذي هو مظنة ضعف الصائم وفتوره في العبادة ليتجدد جده في العبادة رجاء إدراكها ، وجعلت في الوتر لأن الله وتر يحب الوتر ، ويتجلى في الوتر على ما هو مقتضى الذات الأحدية ، وأكثر الأقوال أنها السابعة والعشرون لأمارات وأخبار تدل على ذلك ، ومن قال إنها هي الليلة الأخيرة من رمضان ، استدل بما ورد أن الله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار يعتق ألف ألف عتيق من النار ، كلهم استوجبوا العذاب ، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في تلك الليلة ، بعدد من أعتق من أول الشهر إلى آخره) وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت (سألتُ النبي عليه السلام لو وافقتُها ماذا أقول ؟ قال : قولي اللهم إنك عفوٌ تحب العفو ، فاعف عني)[3] اللهم إنا نسألك العفو والعافية ، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة ، ولعل السر في إخفائها ، تحريض من يريدها للثواب الكبير ، بإحياء الليالي الكثيرة رجاء لموافقتها ، ونظيره إخفاء

(١) الحديث أخرجه النسائي وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٣٩ .

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة بلفظ والتمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر في رمضان وبلفظ (إني رأيت ليلة القدر ثم نسيتها فاطلبوها في العشر الأواخر وتراً) انظر الدر المنثور ٦ / ٣٧٢ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٦٢ .

ساعة الإجابة في يوم الجمعة ، والصلاة الوسطى في الخمس ، واسمه الأعظم في الأسماء ، ووليّه بين الناس حتى يعظّموا الكلّ ، ووقتُ الموت ليكون المكلف على احتياط في جميع الأوقات ، وتسميتها بليلة القدر ، إما لتقدير الأمور وقضائها فيها ، لقوله تعالى (**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**) أي إظهار تقديرها للملائكة ، وإلا فالتقدير نفسه أزليٌّ ، فالقدر بمعنى التقدير ، وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص ، حسبما اقتضت الحكمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله قدّر فيها كل ما يكون في تلك السنة ، من مطر ، ورزق ، وإحياء ، وإماتة ، وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، فيسلمه إلى مدبري الأمور من الملائكة ، فيدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب ، والرياح ، والزلازل ، والصواعق ، والخسف إلى جبرائيل ، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت ، والناس في غفلة عن هذا ، وما أحسن قول القائل :

تَودَّعْ من الدنيا فَإنك لا تدري * إذا جَنَّ ليلٌ هل تبيتُ إلى الفَجْرِ ؟
فَكَمْ مِنْ فَتَى يُمْسِي ويُصْبِحُ آمِناً * وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لا يَدْرِي ؟
وَكَمْ مِنْ عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا * وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْواحُهُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ ؟

وإمَّا لخطرها وشرفها على سائر الليالي ، فالقدر بمعنى المنزلة والشرف على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف ، وعن أبي بكر الوراق رحمه الله ، سُمِّيت ليلةَ القدر ، لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، لأمة لها قدر ، ولعله تعالى إنما ذكر لفظ القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب ، روي أنه عليه السلام « ذكر رجلاً من بني إسرائيل ، لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فتعجَّب المؤمنون منه ، وتقاصرت عنه أعمالهم ، فأعطوا ليلةً هي خير من مدة ذلك الغازي ، إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد» وقيل : «رأى النبي عليه السلام أعمار الأمم كافة ، فاستقصر أعمار أمته ، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم » ودلَّ كلام الله تعالى على ثبوت ليلة القدر ، فمن قال إن فضلها كان لنزول القرآن ، يقول انقطعت فكانت مرة ، والجمهور على أنها باقية آتية في كل سنة ، فضلاً من الله ورحمة على عباده ، غير مختصة برمضان عند البعض ، وعند الأكثرين أنها مختصة به ، وكان عليه السلام إذا دخل العشر شدَّ مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله ، وكان الصالحون يصلون في كل ليلة من العشر الأخير بنية قيام ليلة القدر ، وعن بعض الأكابر من قرأ كل ليلة عشر آيات على تلك النية لم يحرم بركتها وثوابها ، ويكفي في فضل صلاتها ، ما بيَّن الله من جلالة قدرها ، وما أخبر به الرسول عليه السلام من فضيلة قيامها ، وصلاة التطوع بالجماعة جائزة من غير كراهة ، لو صلوا بغير تداع وهو الأذان والإقامة ، فلا تلتفت إلى قول من لا مذاق لهم من الطاعنين ، فإنهم بمنزلة العنِّين ، لا يعرفون ذوق

المناجاة ، وحلاوة الطاعات ، وفضيلة الأوقات ، ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ أصل تَنَزَّل تتنزل بتاءين ، والظاهر أن المراد كلهم للإطلاق ، فينزلون تلك الليلة فيستغفرون للصائمين والصائمات من أمة محمد عليه السلام ، أو هم طائفة من الملائكة ، لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد ، وعلى كل تقدير ، فالمعنى تنزل الملائكة والروح في تلك الليلة من كل سماء إلى الأرض ، وهو الأظهر لأن الملائكة إذا نزلت في سائر الأيام إلى مجلس الذكر ، فلأن ينزلوا في تلك الليلة مع علو شأنها أولى ، أو إلى السماء الدنيا ، قالوا ينزلون فوجاً فوجاً ، فمن نازل ومن صاعد ، كأهل الحج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة ومواضع النسك بأسرهم ، لكنَّ الناس بين داخل وخارج ، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر وذكر لفظ تنزل المفيد للتدريج وبه يندفع ما يرد أن الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتملها الأرض وكذا السماء ، على أن شأن الأرواح غير شأن الأجسام ، والملائكة عليهم السلام لهم أجسام لطيفة مخلوقة من نور ،وقال بعضهم : النازلون هم سكان سدرة المنتهى ، وفيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، ومقام جبرائيل في وسطها ولا يدخلون أي الملائكة النازلون الكنائس وبيوت الأصنام والأماكن التي فيها الكلب والتصاوير والخبائث ، ولا بيوتاً فيها خمر أو مدمن خمر ، أو جنب أو آكل لحم خنزير ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بأمره ، وهو يدل على أنهم كانوا يرغبون إلينا ويشتاقون ، فيستأذنون في النزول إلينا فيؤذن لهم ، فسبحان من أظهر الجميل ، وستر القبيح .!

﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي من أجل كل أمر قُدِّر في تلك السنة ، من خير أو شر أو بكل أمر من الخير والبركة ، كقوله تعالى (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ) أي بأمر الله ، ﴿ سَلاَمٌ هِيَ ﴾ تقديم الخبر لإفادة الحصر ، مثل تميميٌّ أنا ، أي ما هي إلا سلامة ، لا يحدث فيها داءٌ ، ولا شيء من الشرور والآفات ، كالرياح والصواعق ونحو ذلك ، بل كل ما ينزل في هذه الليلة ، إنما هو سلامة ، ونفع ، وخير ، ولا يستطيع الشيطان فيها سوأ ولا ينفذ فيها سحر ساحر ، أو ما هي إلاَّ سلام ، لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين ، وقد ورد ينزل جبرائيل ليلة القدر في كبكبة من الملائكة -أي جماعة متضامة- يُصلُّون ويُسَلِّمون على كل عبد قائم ، أو قاعد بذكر الله ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ أي وقت طلوعه لنفس تنزلهم ، بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج ، إلى طلوع الفجر ، وقال بعضهم : ليلة القدر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر سلام أي يُسَلِّم فيها الملائكةُ على المطيعين إلى وقت طلوع الفجر ، ثم يصعدون إلى السماء ، فحتى متعلقة بسلام ، قالوا علامة ليلة القدر أنها ليلة لا حارة ولا باردة ، وتطلع الشمس صبيحتها لا شُعاع لها ، لأن الملائكة تصعد عند طلوع الشمس إلى السماء ، فيمنع صعودها انتشار شعاعها لكثرة الملائكة ، أو لأنها لا تطلع في هذه الليلة بين قرني الشيطان ، والنور الذي يُرى هو نور أجنحة الملائكة .

تمت سورة القدر بعون الله وتوفيقه



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ أي عبدة الأصنام ، وذلك أن الكفار كانوا جنسين : أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى ، والمشركين وهم الذين كانوا لا يُنسبون إلى كتاب ، فذكر الله الجنسين بقوله (الَّذِينَ كَفَرُوْا) على الإجمال ، ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل ، وهو قوله (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ) أي كائنين منهم ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أي عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق ، والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان ، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه ، حتى إنهم كانوا يستفتحون ويقولون « اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان » ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظلَّ زمان نبيٌّ يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم ، وأما من المشركين فقد وقع بعدما شاع ذلك من أهل الكتاب ، كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله هل هو المذكور في كتبهم ، وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته ، وإنفكاك الشيء من الشيء ، أن يزايله بعد التحامه ، كالعظم إذا أنفك أي لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور ، بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ التي كانوا قد جعلوا إتيانها ميقاتاً لاجتماع الكلمة ، والاتفاق على الحق ، فجعلوه ميقاتاً للانفكاك والافتراق ، وإخلاف الوعد ، والبيِّنةُ : الحُجة الواضحة ﴿ رَسُولٌ ﴾ بدل من البينة ، للإيذان بغاية ظهور أمره ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي رسول عظيم الشأن وأيُّ رسول ، كائن منه تعالى ﴿ يَتْلُو صُحُفاً ﴾ جمع صحيفة وهي من الأوراق ﴿ مُطَهَّرَةً ﴾ أي منزهة من الباطل ومن أن يمسها غير المطهرين ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي في تلك الصحف أمور مكتوبة مستقيمة ، ناطقة بالحق والصواب ، وفيها إشارة إلى أن القرآن مجمع ثمرة كتب الله المتقدمة ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ عما كانوا عليه من الوعد ، خصُّوا بالذكر لأن جحود العالم ، أقبح وأشنع من إنكار الجاهل ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أي وما تفرقوا في وقت من الأوقات ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على أن رسول الله عليه السلام هو الموعود في كتابهم ، دلالةً جليلةً لا ريب فيها ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ ﴾ أي والحال أنهم ما أمروا بما أُمروا في كتابهم ، إلاَّ لأجل أن يعبدوا الله ويتذلَّلوا له ، ويعظِّموه غاية التذلل والتعظيم ، ولا يطلبوا في امتثال ما كلفوا به شيئاً آخر ، سوى التذلل لربهم ومالكهم ، ولو لم يحصل ثواب ولا عقاب بل لمحض العبودية ، ومقتضى الربوبية والمالكية ، وفيه إشارة إلى أن من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة ، والمقصود الأصلي من العبادة هو المعبود ، فعليك بالعبادة للمعبود ، وبالعرفان للمعروف

وإياك وأن تلاحظ شيئاً غير الله تعالى .

ثم إن العبادة هي التذلل ، ومنه طريق معبَّد ، أي مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ، ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله ، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم ، والعبادة بهذا المعنى لا يستحقُّها إلا من يكون واحداً في صفاته الذاتية والفعلية ، وهو الله رب العالمين ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي جاعلين أنفسهم خالصة لله تعالى ، والإخلاص أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل ، فالعبادة لجلب المنفعة أو لدفع المضرة ، ليست من قبيل الإخلاص ، وكذا الخشوع في الصلاة لأجل الغير رياء ، فالإخلاص في العبودية ، تجريد السر عما سوى الله تعالى ، وقال بعضهم : الإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله ، ولا ترى نفسك فيه ، وتعلم أن المنَّة لله عليك في ذلك ، حيث أهَّلك لعبادته ، ووفقك لها ، ولا تطلب من أحد أجراً وعوضاً ﴿ **حُنَفَاءَ** ﴾ أي مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ، وهو في المعنى تأكيد للإخلاص ، إذ هو الميل عن الاعتقاد الفاسد ، وأكبره اعتقاد الشركة ﴿ **وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ التي هي العمدة في باب العبادات البدنية ﴿ **وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ التي هي الأساس في العبادات المالية ﴿ **وَذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من عبادة الله بالإخلاص ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ﴿ **دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ أي دين الملة القيمة ، وأُنِّث « القيِّمة » لأن الآيات هائية ، فرد الدين إلى الملة ، كما في كشف الأسرار ، والقيِّمةُ : بمعنى المستقيمة التي لا عوج فيها ، قال ابن الشيخ : بعض أهل الأديان لما بالغوا في باب الأعمال ، من غير إحكام الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات ، ولكنهم ما حصَّلوا الدين الحق ، بتحصيل الاعتقاد المطابق ، وبعضهم حصَّلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين يقولون لا تضرُّ المعصية مع الإيمان ، فالله تعالى خَطَّأ الفريقين في هذه الآية ، وبين أنه لابد من العلم ، والإخلاص ، في قوله (**مُخْلِصِينَ**) ومن العمل في قوله (**وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**) ثم قال وذلك المجموع كله ، هو دين الملة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد ، كذلك هذا المجموع دينٌ واحد ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ بيان لحالهم الأخروي ، بعد بيان حالهم الدنيوي ، وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب ، لمشاهدتهم شواهد النبوة ، ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ اشتراكُ الفريقين في العذاب بطريق الخلود ، لأجل كفرهم ، لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفية ، فإن جهنم دركات ، وعذابها ألوان ، فالمشركون كانوا ينكرون الصانع ، والنبوة ، والقيامة ، وأهل الكتاب ونبوة محمد عليه السلام فقط ، فكان كفرهم أخف من كفر المشركين ، لكنهم اشتركوا في أعظم الجنايات التي هي الكفر ، فاستحقوا أعظم العقوبات ، وهو

الخلود ، ولما كفروا طلباً للرفعة ، صاروا إلى أسفل السافلين ، فإنَّ جهنم نار في موضع عميق مظلم هائر ، يقال : بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر ﴿ أُولَئِكَ ﴾ البعداء المذكورون ﴿ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ البرية جميع الخلق ، لأن الله برأهم أي أوجدهم بعد العدم ، والمعنى شر الخليقة أعمالاً ، وشرهم مقاماً ومصيراً ، كيف لا وهم شرٌّ من السُرَّاقِ ، لأنهم سرقوا من كتاب الله نعوت محمد عليه السلام ، وشرٌّ من قُطَّاع الطريق ، لأنهم قطعوا الدين الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف ، لأن الكفر مع العلم يكون كفر عناد ، فيكون أقبح من كفر الجهال ، وظهر منه أن وعيد العلماء السوء ، أعظم من وعيد كل أحد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يفهم من مقابلة الجمع بالجمع أنه لا يُكلف الواحد بجميع الصالحات ، بل لكل مكلف حظ ، فحظُّ الغنيّ الإعطاءُ ، وحظُّ الفقير الأخذ والصبر والقناعةُ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية ، من الشرف والفضيلة ، والإيمان والطاعة ﴿ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ استدل بالآية على أن البشر أفضل من المَلَك ، لظهور أن المراد بقوله (إن الذين آمنوا) هو البشر ، والبرية يشمل المَلَك والجن ، سئل الحسن رحمه الله عن قوله (أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ) أهم خير من الملائكة ؟ قال ويلك ، وأنّى تعادل الملائكةُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ فالملائكة طاعتهم فطرية والناس طاعتهم جهادية فهم أبداً في مجاهدة الهوى والشيطان ﴿ جَزَاؤُهُمْ ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعات ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ظرف للجزاء ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي دخول جنات عدن والعدنُ : الإقامة والدوام وقال ابن مسعود : عدن بطنان الجنة أي وسطها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ ﴾ إن أُريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان ، كما هو الظاهر ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها ، فالمراد جريانها بغير أخدود ، وجَمْعُ « جنات » يدل على أن للمكلف جنات ، كما يدل عليه قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) ثم قال (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) وقيل : إنه تعالى قابل الجمع بالجمع (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ) وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد ، فيكون لكل مكلفٍ جنةٌ واحدة ، لكنْ أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات ، كذا رُوي مرفوعاً ، ويدل عليه قوله تعالى (وَمُلْكاً كَبِيراً) والألفُ واللامُ في الأنهار للتعريف ، فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن ، وهي : نهر الماء ، ونهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الخمر ، وفي توصيفها بالجري إشارة إلى مدحهم بالمواظبة على الطاعات ، كأنه تعالى يقول : طاعتُك كانت جارية مادمت حياً ، فلذلك كانت أنهار كرمي جارية إلى الأبد ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية و « أَبَداً » تأكيد للخلود أي لا يموتون فيها ، ولا يُخرجون منها ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ زيادة على ما ذكر من جزاءِ أعمالهم ، كأنه قيل : يُزاد لهم رضى الرحمن ، قال ابن الشيخ : لما كان المكلف مخلوقاً من جسد وروح ، وأنه اجتهد بها في طاعة ربه ، اقتضت الحكمة أن يجزيه بما يتنعم

ويستريح به كل واحد منهما ، فجنَّة الجسد هي الجنة الموصوفة ، وجنة الروح هي رضى الرب ، وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى يقول لأهل الجنة : هل رضيتم ؟ ثم يقول (أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)(١) .

﴿ **وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ حيث بلغوا من المطالب قاصيتها ، وملكوا من المآرب ناصيتها ، وأبيح لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، لاسيما أنهم أُعطوا لقاء الرب الذي هو المقصد الأقصى ، ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ المذكور من الجزاء والرضوان ﴿ **لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ لمن خاف الله واتقاه ، وعمل بطاعة مولاه وتلك الخشية من خصائص العلماء ، كما قال تعالى (**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه (أن رسول الله عليه السلام قال لأبيّ بن كعب رضي الله عنه : إن الله أمرني أن أقرأ عليك (**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوْا**) إلخ ، قال أَوَ سمَّاني لك ؟ قال نعم ، قال فذَرفتْ عيناه)(٢) أي سال دمع عينيه ، ومن السنة أن يستمع القرآن في بعض الأوقات من غيره ، لما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (قال لي رسول الله عليه السلام إقرأ عليّ القرآن ، قلت : اقرأ وعليك أنزل ؟ قال فإني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت هذه الآية (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً**) قال : حسبُك الآن ، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان)(٣) أي تقطران ، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : ذكِّرنا ربَّنا ، فيقرأ حتى يكاد وقت الصلاة يتوسط ، فيقول ياأمير المؤمنين : الصلاةَ الصلاةَ ، فيقول أنا في الصلاة ، فظهر أن استماع القرآن من الغير في بعض الأحيان من السنن .

تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة البيِّنة

• • •

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٧٨ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٦٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾ أي حُرِّكت تحريكاً عنيفاً، متكرراً متداركاً، فإن تكرر حروفه ينبىء عن تكرر معنى الزلزال ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ أي الزلزال المخصوص بها ، وهو الزلزال الشديد الذي لا غاية وراءه ، يقال : زلزله زلزلة وزلزالاً حرَّكه كما في القاموس ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ الأثقالُ : كنوز الأرض وموتاها ، جمع ثِقْل بالكسر ، والمعنى وأخرجت الأرض ما في جوفها من دفائنها وكنوزها ، كما عند زلزال النفخة الأولى الذي هو من أشراط الساعة ، وكذا من أمواتها عند زلزال النفخة الثانية ، وفي الخبر (تقيىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب ، فيجيىء القاتل ، فيقول : في هذا قَتلْتُ ، ويجيء القاطع رحمه فيقول : في هذا قطعتُ رحمي ، ويجيء السارق فيقول في هذا قُطعت يدي ، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً)[1] قوله « أفلاذَ كبدها » أراد أنها تخرج الكنوز المدفونة فيها ، وقيئُها : إخراجها ﴿ وَقَالَ الإِنْسَانُ ﴾ أي كل فرد من أفراده ، لما يغشاهم من الأهوال ، ويلحق بهم من فرط الدهشة ، وكال الحيرة ﴿ مَا لَهَا ﴾ أيُّ شيء للأرض زلزلت هذه المرة الشديدة من الزلزال ، وأخرجت ما فيها من الأثقال ؟ استعظاماً لما شاهدوه من الأمر الهائل ، وتعجباً لما يرونه من العجائب ، التي لم تسمع بها الآذان ، ولا ينطق بها اللسان ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ هو جواب الشرط ، أي تحدِّث الخلقَ بأخبارها ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال ، وهو قول الجمهور ، حيث يُنطقها الله تعالى ، فتخبر بما عُمل على ظهرها ، من خيرٍ وشر ، حتى يَودُّ الكافر أنه سيق إلى النار مما يرى من الفضيحة .

روي أن عبد الرحمن بن صعصعة كان يتيماً في حجر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، فقال أبو سعيد : يابنيَّ إذا كنت في البوادي ، فارفع صوتك بالأذان ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا يسمعُه جنٌّ ، ولا إنسٌ ، ولا حجرٌ ، ولا شجرٌ إلا شهد له)[2] وحكي أن أبا أمية صلى في المسجد الحرام المكتوبة ، ثم تقدم فجعل يُصلّي ههنا وههنا ، فلما فرغ قيل له : ياأبا أمية ما هذا الذي تصنع ؟ قال : قرأتُ هذه الآية (**يَومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**) فأردتُ أن يشهد لي يوم القيامة ، فطوبى لمن شهد له المكان بالذكر ، والتلاوة ، والصلاة ونحوها ، ، يلٌ لمن شهد عليه بالزنى ، والشراب ، والسرقة ، والمساوي ، ويقال : إن لله عليك ياابن آدم سبعة شهود : المكان كما قال تعالى (**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**) والزمان كما في الخبر (ينادي كل يوم أنا يوم جديد ، وأنا على ما تعمل فيَّ شهيد) واللسان

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٠١٣ في الزكاة ، والترمذي في الفتن رقم ٢٢٠٩ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٢٩٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأذان ٢ / ٧٢ والنسائي ٢ / ١٢ ومالك في الموطأ ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٨٦ .

كما قال تعالى (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ) والأركان كما قال تعالى (وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) والملكان كما قال تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) والديوانُ كما قال تعالى (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) والرحمنُ كما قال (إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً) فكيف يكون حالك ياعاصي بعد ما شهد عليك هَؤلاء الشهود ؟ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أي تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث بلسان المقال على ما عليه الجمهور ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذُكر ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ من قبورهم إلى موقف الحساب والصَّدَرُ هو رجوع وإنصراف بعد الورود والمجيء ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين في النظام ، واحدهم شَتٌّ بالفتح أي مفترق أي حال كونهم متفرقين ، بيض الوجوه والثياب آمنين ، ينادي المنادي بين يديه هذا وليُّ الله ، وسود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال فزعين ، والمنادى ينادي بين يديه هذا عدوُّ الله ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جزاء أعمالهم ، خيراً كان أو شراً وإلاَّ فنفس الأعمال لا يتعلق بها الرؤية البصرية إذ الرؤية هنا ليست علمية لأن قوله فمن يعمل الخ تفصيل ليروا والرؤية فيه بصرية لتعديتها إلى مفعول واحد اللهم إلا أن يجعل لها صور نورانية أو ظلمانية أو يتعلق الرؤية بكتبها ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ تفصيلٌ لرؤية الأعمال ، والمثقالُ : الوزن ، والذرة النملة الصغيرة ، أو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء وقال ابن عباس : إذا وضعتَ راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق بها من التراب ذرة ، أي فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره ، وحسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسيئات المؤمن ـ المجتنب عن الكبائر ـ معفوة ، وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب ، فقد ورد أن حاتماً الطائي يخفف الله عنه لكرمه ، وورد مثله في أبي طالب وغيره ، يردُّه قوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) وقوله عليه السلام في حق عبد الله بن جدعان (لا ينفعه لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[1] وذلك حين قالت عائشة رضي الله عنها يارسول الله : ابنُ جدعان كان في الجاهلية ، يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ وقوله عليه السلام في حق أبي طالب (ولولا أنا كان في الدرك الأسفل من النار) فتلك الشفاعة مختصة به ، وأما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال : ليس من مؤمن ولا كافر ، عمل خيراً أو شراً ، إلا أراه الله إياه ، أما المؤمن فيغفر له سيئاته ، ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فيرد حسناته تحسيراً له ، وفي تفسير البقاعي « الكافر يوقف على ما عمله من خير ، على أنه جوزي به في الدنيا ، أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان ، فهو صورة بلا معنى ، ليشتد ندمه ، ويقوى حزنه وأسفه ، والمؤمن يراه ليشتد سروره به ، وفي جانب

(١) الحديث أخرجه مسلم عن عائشة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٧٢ .

الشر يراه المؤمن ويعلم أنه قد غفر له ، فيكمل فرحه ، والكافر يراه فيشتد حزنه وترحه ، قال بعضهم : نزلت الآية ترغيباً في الخير ، ولو كان قليلاً كتمرةٍ ، وعنبةٍ وكسرة خبزٍ ونحوها ، فإنه يوشك أن يكثر إذا كان بنية خالصة ، وتحذيراً من الشر وإن كان قليلاً كخيانة ذرة في الميزان ، وكنظرة ، وخطوة ، وكذبة ، فإنه يوشك أن يكون كثيراً عظيماً ، للجراءة على الله العظيم ، وكان الناس في بدء الإسلام يرون أن الله لا يؤاخذهم بالصغائر من الذنوب ، وكان بعضهم يستحي من صدقة الشيء اليسير ، ويظن أنه ليس له أجر ، حتى نزلت الآية ، وفي الحديث (إذا زلزلت تعدل ربع القرآن)[١] فتكون قراءتها أربع مرات كقراءة القرآن كله ، وروي أن جد الفرزدق ابن صعصعة أتى رسول الله ﷺ يستقرئه فقرأ عليه السلام عليه هذه الآية (فمن يعمل) الخ فقال حسبي ، حسبي ، لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها »[٢] ولهذا سميت الجامعة ، وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام فقال : علمني مما علمك الله ، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن ، فعلّمه إذا زلزت الأرض ، حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة) الخ قال الرجل حسبي ، فأخبر بذلك النبي عليه السلام ، فقال : دعه فقد فَقُه الرجل »[٣]

تمت سورة الزلزلة بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة مرفوعاً ورواه الترمذي أيضاً وقال : حديث حسن ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٦٦٥ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والنسائي والطبراني عن صَعْصَعَةَ بن معاوية ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٨١ .

(٣) الحديث أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٨١ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ﴾ جمع عادية ، وهي الجارية بسرعة من العدو ، أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدُوِّ ﴿ ضَبْحاً ﴾ أي تضبح ضبحاً وهو صوت أنفاسها عند عَدْوها ، يسمع من أفواه الفرس وأجوافها إذا عدون ، وهو غير الصهيل ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾ الإيراء : إخراج النار ، فإن الخيل يضربن بحوافرهنَّ الحجارة ، فيخرجن منها ناراً ، والمعنى توري النار من حوافرها ، إذا سارت في الأرض ذات الحجارة ، وتقدح قدحاً ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ ﴾ يقال أغار على القوم غارة وإغارة ، هجم عليهم بالخيل ﴿ صُبْحاً ﴾ أي في وقت الصبح ، وهو المعتاد في الغارات يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون عليهم صباحاً على حين غفلة ومنه قولهم عند الغارة : ياصباحاه ، أي ياقوم احذروا من شرٍّ توجَّه إلينا صباحاً ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾ أي فهيَّجن في ذلك الوقت ، ﴿ نَقْعاً ﴾ أي غباراً من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار سمي نقعاً لارتفاعه وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور ولا يظهر ثورانه بالليل ، قال سعدي المفتي : وإثارة النقع لأنهم يكونون حال الإغارة مختلفين يميناً وشمالاً ، وأماماً وخَلْفاً ، بحسب الكرّ والفرّ في المجاولة والمصاولة ، فينشأ الغبار الكثير ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ أي توسطن في ذلك الوقت ﴿ جَمْعاً ﴾ من جموع الأعداء أي دخلن في وسطهم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ جواب القسم ، يقال كَنَدَ النعمة كُنوداً: كَفَر بها ، وبالفتح الكَفُور ، والمراد بالإنسان بعض أفراده ، أي إنه لنعمة ربه لكفور شديد الكفران ، واللام في « العاديات » للجنس ، فهو قسم بكل خيل عدت في سبيل الله ، واتصفت بالصفات المذكورة ، فهي مستحقة لأن يقسم بها لاتصافها بتلك الصفات الشريفة ، وفي تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها ، من البراعة مالا مزيد عليه ، كأنه قيل : وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت ، إنهم مبالغون في الكفران ، وإذا كان شرف خيل الغزاة بهذه المرتبة ، حتى أقسم الله بها ، فما ظنك بشرف الغزاة ، وفضلهم عند الله تعالى ؟ ورُوي أن الكنود (هو الذي يضرب عبده ، ويأكل وحده ، ويمنع رِفْده) أي عطاءه فيكون بخيلاً ، يقال : كان ثلاثة نفر من العرب في عصر واحد ، أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي ، والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب ، وبخله أنه كان لا يوقد النار للخبز ، إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبهوا أطفأ ناره ، لئلا ينتفع بنورها أحد ، والثالث آية في الطمع وهو أشعب بن جبير ، قرأ صبي في المكتب وعنده أشعب جالس (إنَّ أَبِي يَدْعُوكَ) فقام ولبس نعليه ، فقال الصبي أنا أقرأ حزبي ، وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه ، يظن أنه ينتزع قميصه ليدفعه إليه ، وكان إذا رأى دخاناً ارتفع من دار ظن أن أهلها تأتي بطعام ، وكان إذا رأى عروساً تُزَفُّ إلى موضع ، جعل يكنس باب

داره، لكي تدخل داره ، وقال: ما رأيت أطمع مني إلا كلباً ، تبعني على مضغ العلك فرسخاً وقال الحسن: (لَكَنُودٌ) أي لوّام لربه يذكر المصيبات ، وينسى النعم ، وقال أبو عبيدة : قليل الخير ، من الأرض الكنودة ، التي لا تنبت شيئاً ، كأنه مقلوب النكد ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ أي الإنسان على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ أي يشهد على نفسه بالكنود ، لظهور أثره عليه ، فالشهادة بلسان الحال لا بلسان المقال ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ ﴾ أي المال كما في قوله تعالى (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) وإيثار الدنيا وطلبها ، سمى الله المال خيراً وعسى أن يكون خبيثاً ، وحراماً ، جرياً على العادة ، فإنهم كانوا يعدون المال خيراً ، فسماه الله خيراً ، جرياً على عادتهم ، كما سمى الجهاد سوأ فقال (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) أي قتال ، والقتال ليس بسوء ، ولكن ذكره جرياً على عادتهم ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي قوي مطيق مجد في طلبه وتحصيله ، متهالك عليه ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ، ضعيفٌ متقاعس ، ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي أيفعل ما يفعل من القبائح ، ولا يلاحظ أن الله مجازيه ؟ ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ بُعث وأُخرج ﴿ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ من الموتى ﴿ وَحُصِّلَ ﴾ أي جُمع في الصحف وأُظهر محصلاً مجموعاً ، وأصل التحصيل إخراج المستور ، كإخراج اللب من القشر ، وإخراج الذهب من حجر المعدن ، وقيل المعنى : مُيِّز خيرُه من شره ، ﴿ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي ، فضلاً عن الأعمال الجلية ، ولولا البواعث والإرادات في القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح ، فالقلب أصل ، وأعمال الجوارح تابعه له ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ ﴾ أي المبعوثين ، كنى عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء ، فحين كانوا في القبور كانوا كجمادات بلا عقل ولا علم ، بخلاف وقت الحشر ﴿ بِهِمْ ﴾ بذواتهم ، وصفاتهم ، وأحوالهم ﴿ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهره وبواطنه ، علماً موجباً للجزاء ثواباً أو عقاباً ، وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون .

تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **ٱلْقَارِعَةُ** ﴾ القرعُ : هو الضرب بشدة ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، والمراد بها ههنا القيامة ، التي مبدأها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق ، سميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع ، بفنون الأهوال والأفزاع ، وتخرج الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال ، السماءُ بالانشقاق والانفطار ، والشمس والنجومُ بالتكوير والانكدار ، والانتثار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، ﴿ **مَا ٱلْقَارِعَةُ** ﴾ أي وأيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل ﴿ **وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ** ﴾ أيْ وأيُّ شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ فإن عظيم شأنها لا تكاد تناله دراية أحد ، ثم وضَّحه بقوله ﴿ **يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ** ﴾ أي هي يوم يكون الناس ﴿ **كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ** ﴾ جمع فراشة ، وهي التي تطير ، وتتهافت على السراج فتحترق ، والمبثوثُ : المفرَّق ، والمعنى كالفراش في الكثرة والإنتشار والضعف والذلة كتطاير الفراش إلى النار ، قال جرير :

إنَّ الفرزدقَ مـــا علمتُ وَقَـومَـــهُ * مِثْـلُ الفَرَاشِ عَشِينَ نَـــارَ المُصْطَلِي

شَّبه الله الخلق وقت البعث في هذه الآية بالفراش المبثوث ، وفي الآية الأخرى بالجراد المنتشر ، وجه التشبيه بالجراد هو الكثرة والاضطراب ، وبالفراش المبثوث اختلاف جهات حركاتهم ، فإنهم إذا بعثوا فزعوا ، فيذهب كل واحد منهم إلى جهة غير جهة الآخر ، كالفراش فإنها إذا طارت لا تتجَّه إلى جهة واحدة ، بل تختلف جهاتها ﴿ **وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ** ﴾ العِهْنُ : الصوفُ المصبوغ ألواناً ، والنفش نشر الشعر والصوف بالأصبع ، وخلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها ، شبَّه خفتها بعد رزانتها بالصوف ، وتلونها بالمصبوغ ، ومرها بالمندوف ، واختصاصُ العهن لألوان الجبال كما قال تعالى (**وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**) والمعنى : وتكون الجبال كالصوف الملون بالألوان المختلفة ، المندوف ، في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو ، وكلا الأمرين من آثار القارعة ، بعد النفخة الثانية ، عند حشر الخلائق ، يبدل الله الأرض غير الأرض ، ويغيِّر الجبال عن مقارها ليشاهدها أهل المحشر ، وهي وإن اندكت عند النفخة الأولى ، ولكن تسييرها وتسوية الأرض ، إنما يكونان بعد النفخة الثانية ﴿ **فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** ﴾ ثقلُها رجحانها ، لأن الحق ثقيل ، والباطل خفيف ، والجمع للتعظيم ، أو لأن لكل مكلف ميزاناً ، أو لا ختلاف الموزونات وكثرتها ، قال ابن عباس :

إنه ميزان له لسان وكفتان ، لا يوزن فيه إلاَّ الأعمال ، ليبين الله أمر العباد بما عهدوه فيما بينهم ، قالوا توضع فيه صحف الأعمال إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة ، أو تبرز الأعمال العرضية بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح ، يعني يُؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة ، وبالأعمال السيئة على صور سيئة ، فتوضع في الميزان أي فمن ترجحت مقادير حسناته ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** ﴾ أي راض صاحبها عنها ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** ﴾ بأن لم يكن له حسنةٌ يُعتدُّ بها ، أو ترجَّحت سيئاتُه على حسناته ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يُحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة ، دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ﴿ **فَأُمُّهُ** ﴾ أي مأواه ﴿ **هَاوِيَةٌ** ﴾ هي من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها ، وبُعد مهواها ، روي أن أهل النار يهوي فيها أحدهم سبعين خريفاً ، وعبر عن المأوى بالأم لأن أهلها يأوون إليها ، كما يأوي الولد إلى أمه ، وفيه تهكم به ، أو لأنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد ، وعن قتادة : أمُّ رأسه هاويةٌ في جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوساً ، وأم الرأس الدماغ ، أو الجلدة الرقيقة التي عليها ، واعلم أن ميزان الحق ، بخلاف ميزان الخلق ، إذ صعود الموزونات فيه هو الثقل ، وهبوطها وانحطاطها هو الخفة ، لأن ميزانه تعالى هو العدل ، والموزونات الثقيلة المعتبرة الراجحة عند الله التي لها قدر ووزنٌ عنده ، هي الباقيات الصالحات ، والخفيفة التي لا اعتبار لها عند الله ، هي الفانيات الفاسدات ، من اللذات الحسية والشهوات ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ** ﴾ الهاء للسكت والوقف ، وإذا وصل القارىء حذفها وقد أجيز إثباتها مع الوصل ، قال أبو الليث : قرأ حمزة والكسائي بغير هاءٍ في الوصل ، وبالهاء عند الوقف ، والباقون باثباتها في الوصل والوقف وقد سبق مفصلاً في الحاقة وفيه إشعار بخروجها عن الحدود المعهودة ، فلا يدريها أحد ، ثم أعلمها بقوله ﴿ **نَارٌ حَامِيَةٌ** ﴾ متناهية في الحر ، يقال : حميت الشمس والنار حمياً وحموا اشتدَّ حرهما .

تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ اللهوُ ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، والتكاثُر : التباري في الكثرة والتباهي بها ، والمعنى : شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها عن ذكر الله ، وعن الواجبات ، مما يتعلق بالقلب كالعلم والفكر والاعتبار، أو بالجوارح كأنواع الطاعات، والمرادُ التكاثر في الأمور الدنيوية الفانية ، كالتفاخر بالمال والجاه ، والأعوان والأقرباء ، وأما التفاخر بالأمور الأخروية فممدوح ، كالتفاخر بالعلم والأخلاق ، والصحة والقوة ، ومن ذلك تفاخر العباس رضي الله عنه بأن السقاية بيده ، وتفاخر شيبة بأن مفتاح البيت بيده ، والتكاثر مكاثرة اثنين مالاً أو عدداً ، والمراد هنا هو التكاثر في العدد ، لأنه روي أن بني عبد مناف وبني سهم ، تفاخروا بالسعادة والأشراف ، فقال كل من الفريقين : نحن أكثر منكم سيداً وأعظم نفراً ، فكثَّرهم بنو عبد مناف أي غلبهم بالكثرة ، فقال بنو سهم : إن البغي أفنانا في الجاهلية ، فعادُّونا بالأحياء والأموات فنزلت والمعنى إنكم تكاثرتم بالأحياء ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي حتى استوعبتم عددهم ، وصرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات ، فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة القبور ، أي جعلت كناية عنه تهكماً بهم ، قال الطيبي : إنما كان تهكماً ، لأن زيارة القبور شرعت لتذكر الموت ، ورفض حب الدنيا ، وترك المباهاة والتفاخر ، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة ، والاستغراق في حب الدنيا ، والتفاخر في الكثرة ، وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ ، وقيل المعنى : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقُبرتم ، مضيعين أعماركم في طلب الدنيا [١] ، معرضين عما يهمكم من السعي لأُخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت ، والتكاثر هو التكاثر بالمال والولد ، كما روي أنه عليه السلام كان يقرأ هذه الآية ويقول : بعدها (يقول ابنُ آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلاّ ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدَّقتَ فأمضيت)[٢] ؟، وقرأها عمر بن عبد العزيز قال ما أرى المقابر إلا زيارة ولابد لمن زار أن يرجع إلى بيته إما إلى الجنة ، أو إلى النار ، وفيه تحذير عن الدنيا ، وترغيب في الآخرة ، والاستعداد للموت ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عماهم فيه من التكاثر ، أي ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء ، من أن فضل الإنسان وسعادته ، بكثرة أعوانه ، وأمواله ، أي ارتدعوا عن هذا وتنبهوا من الخطأ والعاقل ينبغي أن لا يكون همه مقصوراً على الدنيا ، فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي سوف تعلمون الخطأ إذا عاينتم أمامكم من هول المحشر ، وهو إنذار وتخويف ليخافوا

---

(١) هذا القول هو الأظهر والأشهر ، أن المراد حتى جاءكم الموت وصرتم من أهل القبور ، وهو مارجحه الحافظ ابن كثير وغيره .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن الشخّير ، ورواه أحمد ومسلم والنسائي ، وانظر ابن كثير ٣ / ٦٧١ .

وينتبهوا من غفلتهم ، قال الحسن رحمه الله : لا يغرنك كثرة من ترى حولك ، فإنك تموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتُحاسب وحدك ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ تأكيد لتكرير الردع والإنذار ، وفي « ثم » دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، لأن فيه تأكيداً خلاعنه الأول ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل ، أو الأول عند الموت في وقت ما بشر به المحتضر من جنة أو نار ، والثاني ينادي المنادي : شَقِيَ فلانٌ شقاوة لا سعادة بعدها ، وحين يُقال (**وَامْتَازُوْا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**) فعلى هذا لا تكرير في الآية لحصول التغاير بينهما وعن علي رضي الله عنه مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت السورة ، وفي الحديث (يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة لو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما انبتت خضراء)[1] ﴿ كَلاَّ ﴾ تكرير للتنبيه تأكيداً ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ جواب « لو » محذوفٌ للتهويل ، فإنه إذا حذف الجواب ، يذهب الوهم كل مذهب ممكن ، والمعنى : لو تعلمون ما بين أيديكم على الأمر اليقين لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم جهلة ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ﴾ جواب قسم مضمر ، أُكِّد بها الوعيدُ ، حيث إن ما أو عدوا به مما لا مدخل فيه للريب ، ولا يجوز أن يكون جواب « لو » لأن رؤية الجحيم محققة الوقوع ، وليست بمعلقة ، فلو جعل جواباً لكان المعنى إنكم لا ترونها لكونكم جهالاً ، وهو غير صحيح ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد أو الأولى إذا رأوها من مكان بعيد والثانية إذا أوردوها ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين ، فإن علم المشاهدة للمحسوسات أقصى مراتب اليقين ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أشكرت تلك النعمة أم كفرت؟ والمعنى ثم لتسألن يوم رؤية الجحيم ، عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدين ، والخطاب في « لتسألنَّ » مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ، ويلبس اللين ، ويقطع أوقاته باللهو والطرب ، لا يعبأ بالعلم والعمل ، ولا يحمل نفسه على مشاقها ، وقيل : الآيةُ مخصوصة بالكفار ، وقال بعضهم : المراد بالنعيم هو الصحة والفراغ ، وفي الحديث (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحةُ ، والفراغ)[2]وفي هذا الحديث دلالة على عظم محل هاتين النعمتين ، وجلالة خطرهما ، لأن بهما يستدرك مصالح الدنيا والآخرة ، ثم سائر النعم يعد من توابعهما ، وقال بعض السلف : من أكل فسمَّى ، وفرغ فحمد ، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام ، وقال رجل للحسن رحمه الله : إن لنا جاراً لا يأكل الفالوذج ، ويقول : لا أقوم بشكره ، فقال : ما أجهل جاركم ؟ نعمةُ الله عليه بالماء البارد ، أكثرُ من نعمته بجميع الحلاوى ، ولذلك ورد أول ما يُسأل العبد عنه من النعيم : ألم نصحَّ جسمك ؟ ونروك من الماء البارد ؟ وفي عين المعاني عن النعم الخمس : شبع البطون ، وبرد

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤ / ٣٦٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٦٤ .

الشراب ، ولذة النوم ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ،

يقول الفقير : النعيم إمَّا نعيم جسماني ، وشكره بمحافظة أحكام الشريعة ، وإما نعيم روحانيٌّ وشكره بمراعاة آداب الإسلام ، فإنه كما ازدادت المحافظة والمراعاة ، ازداد النعيم كما قال تعالى (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**) وما من عضو من الأعضاء ، وقوة من القوى ، إلا وهي مطلوبة بنوع شكر ولذلك قال تعالى (**إِن السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**) على أن عالم الصفات والأسماء كلها عالم النعيم وفقنا الله وإياكم لشكر النعيم إنه هو البر الرحيم .

تم بعونه وتوفيقه تفسير سورة التكاثر

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أقسم سبحانه بصلاة العصر ، وذلك لفضلها الباهر ، لكونها وسطى ، لتوسطها بين الشفع الذي هو صلاة الظهر ، وبين الوتر النهاري الذي هو صلاة المغرب ، وفي الحديث (من فاتته صلاةُ العصر ، فكأنما وُتِرَ أهلَه وماله)[١] أي نقص فليكنْ من فوتها حذراً ، كما يحذر من ذهاب أهله وماله ، وسرُّ الوعيد أن التكليف في أداء صلاة العصر أشق ، لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم ، واشتغالهم بمعايشهم آخر النهار ، لبرد الهواء حينئذ ، لاسيما في أرض الحجاز ، فالكسب الحاصل في ذلك الوقت مع السهو عن الصلاة، في حكم الخسران وسبب للخذلان ، ويقال: إن الله تعالى أقسم بوقت العصر نفسه كما أقسم بالفجر ، فقد خلق فيه أصل البشر آدم عليه السلام ، فكان له شرف زائد على غيره ، وقيل : أقسم بعصر النبوة وهو زمان بعثته عليه السلام ، وفضل هذا العصر على سائر الأعصار ظاهر ، لأنه عصر خير الأنبياء والمرسلين، وعصر خير الأمم ، وخير الكتب الإلهية ، وفيه ظهر تمام الكمالات تفصيلاً ، ويقال: أقسم بالدهر لإنطوائه على أعاجيب الأمور وللتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران ، فإن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه ، ويحيل شقاوته وخسرانه عليه ، والإقسام بالشيء إعظام له ، وما يضاف إليه الخسران لا يعظَّم عادة ، وقد قال عليه السلام (لا تسبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر)[٢] فأقسم الله بالدهر لأنه محل شهود الآيات الإلهية ، كالليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، وغيرها ، فلما كان العصر جامعاً لجميع الآيات التي أقسم الله بها في القرآن كقوله تعالى (**وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**) وقوله تعالى (**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا**) وقوله تعالى (**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**) وقوله تعالى (**وَالضُّحَى واللَّيْلِ إِذَا سَجَا**) ختم الله بقَسَمه بالعصر جميع القسم ﴿ **إِنَّ الْإِنْسَانَ** ﴾ التعريف للجنس ، يعني الاستغراق بدلالة الاستثناء ، فإن الاستثناء من جملة أدلة العموم ﴿ **لَفِي خُسْرٍ** ﴾ الخسرُ والخسرانُ : النقصان وذهاب رأس المال ، والتنكيرُ للتفخيم ، أي لفي خسران عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، في متاجرهم ، وصرف أعمارهم في ملذَّاتهم ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بالله الإيمان العلمي اليقيني ، وعرفوا أن لا مؤثر بالحقيقة إلا الله ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي اكتسبوا الفضائل والخيرات الباقية ، فربحوا حيث باعوا الفاني الخسيس ، واشتروا الباقي النفيس ، واستبدلوا الباقيات

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٢٩ والنسائي في سننه ، وانظر جامع الأصول ٥ / ٢٠٥ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٢٣ .

الصالحات بالغاديات الرائحات ، فيالها من صفقة رابحة !!

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي وصَّى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت ، الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله من الإيمان بالله ، واتباع كتبه ورسله ، في كل عقد وعمل ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أي عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس ، بحكم الجِبلَّة البشرية ، وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبلو الله به عباده ، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه ، من فعل أو ترك ، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل ، والرضى به ظاهراً وباطناً ، ولعله سبحانه إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود ، فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة الأبدية ، والسعادة السرمدية ، وإشعاراً بأنما عداه يؤدي إلى خسران ونقص ، رُوي عن الشافعي رحمه الله « أنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلاَّ هي لكفتهم » وهو معنى قول غيره إنها شملت جميع علوم القرآن ، من حيث بيان سعادة الإنسان .

تمت سورة العصر بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ ﴾ دعاء عليهم بالهلكة ، أو بشدة الشر ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ الهمزُ : الكسر ، واللمز الطعنُ ، شاعا في الكسر من أعراض الناس ، والطعن فيهم ، وفي القاموس : الهامز والهُمَزَةُ : الغمَّازُ ، واللمزة العيَّاب للناس، أو الذي يعيبك في وجهك، والهُمَزة من يعيبك في غَيْبتك انتهى وبناء فعلة يدل على الاعتياد ، فلا يقال ضُحَكة ولُعَنة إلا للمكثير المتعود ، وفي أدب الكاتب نزلت في الأخنس أو في الوليد بن المغيرة ، فإن كلاً منهما كان يغتاب رسول الله عليه السلام ، والأصح العموم لقوله تعالى (لكل) ولم يقل للهمزة واللمزة ، وفي الحديث (المؤمن كيِّس فطن ، والمنافق همزة لمزة حطمة ، كحاطب ليل لا يدري من أين اكتسب وفيم أنفق)[1] وهما رذيلتان مركبتان من الجهل ، والغضب ، والكبر، لأنها يتضمنان الأذيَّة ، وطلب الترفع على الناس ، وصاحبها يريد أن يتفضل على الناس ، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها ، فينسب العيب والرذيلة إليهم ليظهر فضله عليهم ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة ، وأن عدم الرذيلة ليس بفضيلة فهو مخدوع من نفسه وشيطانه ، موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً ﴾ بدل من «كلٍّ» كأنه قيل: ويلٌ للذي جمع مالاً ، من حيث إنه أُعجب بنفسه ، مما جمع من المال ، وظن أن كثرة المال سبب لعزّ المرء وفضله ، فلذا استنقص غيره ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أي عدَّه مرةً ومرَّة ، من غير أن يؤدي حق الله منه ، بمعنى أحصاه وضبط عدده ، ولا يعلم أن ذلك هو الذي يجر إليه النوائب ، ولا يدفعها ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي يظن أنه لا يموت ، بل ما له يبقيه حياً ويوصله إلى مقام الخلد ، وإنما قال أخلده ولم يقل يخلده لأن المراد أن هذا الإنسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت ، فكأنه حكم قد فرغ منه قال الحسن رحمه الله : ما رأيتُ يقيناً لاشك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه كالموت ، ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ جواب قسم مقدر أي والله ليطرحنَّ ﴿ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي في النار التي شأنها أن تحطم وتكسر ، كل ما يُلقى فيها ، كما أن شأنه الطعن بأعراض الناس ، وجمع المال ، ومنه يعلم أن النبذ في الحطمة كان جزاء وفاقاً لأعمالهم ، فإنه لما كان الهمز واللمز عادتهم ، كان الحطم أيضاً عادة ، فقوبل صيغة فُعَلة بفُعَلة ، وكذا ظنوا أنفسهم أهل الكرامة والكثرة ، فعبر عن جزائهم بالنبذ المنبىء عن الاستحقار يعني شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً بعددهم بحصيات أخذهن أحدٌ في كفه فطرحهنَّ في البحر ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ تهويل لأمرها ببيان أنها ليست من الأمور التي تنالها عقول الخلق ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ أي هي نار

---

(١) الحديث أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٢٥١ .

الله ﴿ **الْمُوقَدَةُ** ﴾ المشعلة بأمره تعالى ، والإضافة « نارُ اللهِ » لتفخيها والدلالة على أنها ليست كسائر النيران ، وفي الحديث (أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة)[1] وعن علي رضي الله عنه : عجباً ممن يعصي الله على وجه الأرض ، والنار تُسَعَّر من تحته ﴿ **الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ** ﴾ أي تعلو أوساط القلوب ، وتغشاها ، فإن الفؤاد وسط القلب ، ومتصل بالروح ، يعني أن تلك النار تحطم العظام ، وتأكل اللحوم ، فتدخل في أجواف أهل الشهوات وتصل إلى صدورهم وتستولى على أفئدتهم ، إلاَّ أنها لا تحرقها بالكلية ، إذ لو احترقت لمات أصحابها ، ثم إن الله تعالى يعيد لحومهم وعظامهم مرة أخرى ، وذكر الفؤاد لأنه محل النيَّات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة ، فاطلاعها على الأفئدة التي هي خزانة الجسد ومحل ودائعه ، يستلزم الإطلاع على جميع الجسد بطريق الأولى ﴿ **إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ** ﴾ أي إن تلك النار مطبقة أبوابها عليهم ، تأكيداً ليأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ﴿ **فِيْ عَمَدٍ** ﴾ جمع عمود أي حال كونهم موثقين في أعمدة ﴿ **مُمَدَّدَةٍ** ﴾ أي ممدودة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص ، والمقطرة خشبة فيها خروق تدخل فيها أرجل المحبوس كيلا يهرب تؤصد عليهم الأبواب وتمد على الأبواب العمد المطولة ، ولا يدخلها روح ، ولا يخرج منها غم ، أجارنا الله والمسلمين من عذاب الجحيم .

تم تفسير سورة الهمزة بعونه تعالى



(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة جهنم رقم ٢٥٩٤ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥١٣ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، والرؤية علمية لأن النبي عليه السلام ولد عام الفيل ولم يرهم ، والمراد بأصحاب الفيل « أبرهة » وقومه ، والمعنى : ألم تعلم علماً رصيناً ، متاخماً للمشاهدة والعيان ، بكيفية فعله تعالى بأصحاب الفيل وما جرى لهم ؟ وذكر القصة للتخويف ، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة ، وهيئات عجيبة ، دالة على عظم قدرة الله ، وكمال علمه وحكمته ، وعزة بيته ، وشرف رسوله ، فإن ذلك من الإرهاصات النبوية ، والإرهاصُ أن يتقدم على دعوى النبوة ما يشبه المعجزة ، تأسيساً لها ومقدمة ، كإظلال الغمام له عليه السلام ، وتكلم الحجر والمدر معه وكان هذا عام مولد النبي عليه السلام في نصف المحرم ، ولد عليه السلام في شهر ربيع الأول ، فبين الفيل ومولده الشريف خمس وخمسون ليلة ، وبين قصة الفيل والهجرة الشريفة النبوية ثلاثة وخمسون سنة والمقصود من تذكير القصة تسلية النبي عليه السلام وتهديد الظلمة ، وتفصيلها أن ملك اليمن « أبرهة بن الصباح الأشرم » رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة ، لحج بيت الله الحرام ، فتحرك منه عرق الحسد ، فبنى بصنعاء كنيسة من رخام ملون ، وجوهر مرصع ومزين واجتهد في زخرفتها ، فجعل فيها الرخام والحجارة المنقوشة بالذهب ، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، وسماها « القُليس » وأراد أن يصرف إليها الحاج وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة إني بنيت لك كنيسة ، لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست أرضى حتى أصرف إليها حاج العرب ، فلما تحدَّث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي ، غضب رجل من بني كنانة ، حتى أتى القُلَيْس ولطخها ليلاً بالنجاسة والأقذار ، وأحدث فيها وكرَّ راجعاً إلى بلاده ، فلما رأى السدنة ذلك الحدث ، رفعوا الأمر إلى « أبرهة » وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم ، الذي أردت أن تصرف الناس عنه ، فأقسم أبرهة ليسيرنَّ إلى مكة وليخربن الكعبة حجراً حجراً ، فخرج بجند كثير ، وجمعٍ غفير ، ومعه فيل أبيض اللون ، وكان فيلاً لم ير مثله ، عظماً وجسماً وقوة ، يتقدم مجموعة كبيرة من الفيلة ، وكان دليلهم كبير ثقيف وهو « أبو رغال » رجم العرب قبره حين مات حتى صار كالجبل العظيم ، وفي ذلك يقول جرير في الفرزدق الشاعر :

إذا مـــاتَ الفَرَزدقُ فَـــارْجُمـوه * كما تَرمُـــونَ قَبْرَ أبي رُغَـــــالِ

عن ابن عمر (سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: هذا قبر أبي رغال

وهو أبو ثقيف وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه)[1] الحديث وقول الجوهري كان دليلاً للحبشة حين توجهوا إلى مكة فمات في الطريق غير جيد وكذا قول ابن سيدة كان عبداً لشعيب وكان عشاراً جائراً انتهى كلامه، وبعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة فلما بلغ « المغمَّس » موضع بطريق الطائف ، خرج إليه عبد المطلب ، وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى ، ورأى العرب جهاد أبرهة حقاً عليهم ، فكانوا يجتمعون لقتاله في الطريق ، قبائل قبائل ، فهزمهم أبرهة ، ومن جملة من هزمهم وأسرهم « نفيل بن حبيب » أخذه وما قتله ليكون دليلاً له ، وأخذ عبد المطلب بحلقة البيت ودعا وقال :

لا هُمَّ إنَّ المَرْءَ يَحْمِي : رَحْلَهُ فامْنَعْ رِحَالَكَ
وانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ : وَعَابِدِيهِ اليَوْمَ آلَكَ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ : ومِحَالُهم أبداً مِحَالَكَ

وذلك أنهم كانوا نصارى أهل صليب ولا همَّ أصله اللهم ، فإن العرب تحذف الألف واللام ، وتكتفي بما يبقى ، والمِحَالُ بكسر الميم : الشدةُ والقوة فالتفت وهو يدعو فإذا بطيرٍ ، فقال : والله إنها لطير غريبة ، لا نجدية ولا حجازية ، وإن لها لشأناً فأرسل الله طيراً صفر المناقير أشباه الخطاطيف لم ير مثلها لا قبلها ولا بعدها ومع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فكان الحجر يقع على رأس كل واحد منهم ، فيخرج من أسفله ، وينفذ من الفيل فيخرق في الأرض ، ففروا وهلكوا في كل طريقٍ ومنهل ، قال بعضهم : فلم تصب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصيب ، ثم ركب عبد المطلب لما استبطأ مجيء القوم إلى مكة ، ينظر ما الخبر فوجدهم قد هلكوا وذهب غالب من بقي ، فاحتمل ما شاء الله من صفراء وبيضاء ، ثم أعلم أهل مكة بهلاك القوم فخرجوا ينظرون إليهم ويتعجبون ، ومنذ ذلك الحين ، ازدادت هيبة البيت ، وتعظيم الحرم في قلوب العرب والناس جميعاً ﴿ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴾ الهمزة للتقرير ، والمعنى قد جعل مكرهم وحيلتهم ، في تعطيل الكعبة وتخريبها ، في تضييع وإبطال ، بأن أهلكهم أشنع إهلاك ، وجزاهم بعد إهلاكهم بمثل ما قصدوا ، حيث خرب كنيستهم ، وردَّ كيدهم في نحورهم قال في إنسان العيون : ولما أهلك صاحب الفيل وقومه عزت قريش وهابتهم الناس كلهم ، وقالوا : هم أهل الله ، لأن الله معهم ، ومزقت الحبشة كل ممزق ، وخرب ما حول تلك الكنيسة التي بناها أبرهة فلم يعمرها أحد ، وكثرت حولها السباع والحيات ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ** ﴾ أي جماعات لأنها كانت أفواجاً ، فوجاً بعد فوج ، متتابعة بعضها

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عمر مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٨٢ .

على إثر بعض ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ كورق زرع وقع فيه الأكال[1] ، وهو أن يأكله الدود ، شبههم به في فنائهم وذهابهم بالكلية كالزرع الذي أكله الدود ، أو كتبنٍ أكلته الدواب وألقته روثاً ، فيبس وتفرقت أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، وفيه تشويه لحالهم ومبالغة حسنة ، وهو أنه لم يكتف بجعلهم أهون شيء في الزرع ، وهو التبن الذي لا يجدي طائلاً ، حتى جعلهم رجيعاً إلا أنه عبر عن الرجيع بالمأكول ، على طريق الكناية ، مراعاة لحسن الأدب ، واستهجاناً لذكر الروث ، كما كنى بالأكل في قوله تعال (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) عما يلزم الأكل ، من التبول والتغوط ، فدأب القرآن هو العدول عن الظاهر في مثل هذا المقام قال بعض العارفين : من كان اعتماده على غير الله أهلكه الله بأضعف خلقه ، ألا ترى أن أصحاب الفيل لما اعتمدوا على الفيل من حيث إنه أقوى خلق الله ، أهلكهم الله بأضعف خلق من خلقه وهو الطير ؟

تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل

• • •

(١) روى الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ / ٦٧٧ : « أنه لما اقترب أبرهة من مكة ـ وهو يريد هدم البيت ـ أغار جيشه على سَرْح لأهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوها ، وكان في السَّرح مائتا بعيرٍ لعبد المطلب ، وبعث أبرهة أحد قواده إلى مكة ليأتيه بأشرف رجلٍ من قريش ، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم ـ جدّ الرسول ﷺ ـ فجاءه وأخبره بأن ملكهم « أبرهة » لم يأت لحرب أهل مكة ، إنما جاء يريد البيت ، فقال له عبد المطلب : واللهِ ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيتُه وحرمه ، وإن يُخلّي بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دفع عنه !!

فقال له : فاذهب معي إليه ، فذهب معه ، فلما رآه أبرهه أجلّه وعظّمه ، ونزل عن سريره وجلس معه على البساط ـ وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر قويَّ البنية ـ ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك إبلي ، فقد أخذ جنوده مائتي بعير لي ، فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت في نظري عظيماً والآن قد سقطت من عيني حين كلّمتني ، أتكلّمني في مائتي بعير لك ، وتترك بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك جئتُ لأهدمه فلا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب : أنا ربُّ الإبل وإن للبيت رباً سيحميه ويمنعه منك ، قال : ما كان ليتنع مني ، قال : أنتَ وذاك ، فردَّ أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رءوس الجبال ، تخوفاً عليهم من جيش أبرهة ، فأرسل الله على جيش إبرهة طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ، فأهلكهم عن آخرهم ، وكان ذلك من إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم » .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لإيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ متعلق بقوله تعالى (فَلْيَعْبُدُوا) وهو قول الزجاج ، والفاء لما في الكلام من معنى الشرط ، إذ المعنى إنَّ نعم الله عليهم غير محصورة ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، فالإيلاف مصدر من المبني للمفعول يقال : ألفت الشيء بالقصر ، وآلفته بالمد بمعنى لزمته ودمت عليه ، وكان لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فيتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتيهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله ، وولاة بيته العزيز ، فلا يتعرض لهم ، والناس بين متخطف ومنهوب ، وذلك أن قريشاً كان إذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج هو وعياله إلى موضع ، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ، وكانوا على ذلك إلى أن جاء (هاشم بن عبد مناف) وكان سيد قومه ، فقام خطيباً في قريش فقال : إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله ، وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا نحن تبع لك ، فليس عليك منا خلاف ، فجمعهم على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات ، فما ربح الغني قسم بينه وبين فقرائهم، حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ، ولا أعز من قريش ، وكان هاشم أول من حمل السمراء من الشام ﴿ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ بدل من الأول ، ورحلة مفعول به لإيلافهم ، وهي بالكسر الارتحال ، وأصل الرحلة السير على الراحلة ، وهي الناقة القوية ، ثم استعمل في كل سير وارتحال ، ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ ﴾ بسبب هاتين الرحلتين اللتين تمكنوا منهما حتى استغنوا ، وعزّوا بواسطة كونهم من جيرانه وسكان حرمه ، وقيل بدعوة إبراهيم عليه السلام (يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) ﴿ مِنْ جُوعٍ ﴾ شديد كانوا فيه قبلها ، وكان الجوع يصيبهم إلى أن جمعهم عمرو وهو هاشم المذكور على الرحلتين ، يقول الفقير : الظاهر أن مآل المعنى نجاهم من الجوع بسبب الإطعام والرزق ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ عظيم لا يُقادر قدْرُه ، وهو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم والمعنى أطعمهم فلم يلحقهم جوع ، وآمنهم فلم يلحقهم خوف ، عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت : فضَّل الله قريشاً بسبع خصال ، لم يعطها أحد قبلهم ولا يعطاها أحد بعدهم «النبوة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجابة للبيت فيهم ، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل ـ أي على أصحابه ـ وعبدوا الله عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة من القرآن، لم يذكر فيها أحد غيرهم « لإيلاف قريش » فهذه فضائل قريش .

تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ يامحمد أي هل عرفت ﴿ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ أي بالجزاء أو بالإسلام إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ أي يدفعه دفعاً عنيفاً ، أو يزجره زجراً قبيحاً ، قال المفسرون : وهو أبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً ، فقال له أكابر قريش : قل لمحمد يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء به ، وهو عليه السلام ما كان يردُّ محتاجاً ، فذهب معه إلى أبي جهل فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم ، فعيرته قريش ، وقالوا : أصبوت ؟ فقال : لا والله ما صبوت ، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ ، فالذي للعهد ، ويحتمل الجنس فيكون عاماً لكل من كان مكذباً بالدين ، ومن شأنه أذية الضعيف ، ودفعه بعنف وخشونة ، لاستيلاء النفس السبعية عليه ﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ أي لا يحث أهله وغيرهم من الموسرين ﴿ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي على بذل طعام له ، ويمنع المعروف عن المستحق ، لاستحكام رذيلة البخل فيه ، فإنه إذا ترك حث غيره ، فكيف يفعل هو نفسه ؟ فعلم أن كلاً من ترك الحث ، وترك الفعل ، من أمارات التكذيب ، وإضافته إلى المسكين دلالة على أن للمساكين شركة وحقاً في مال الأغنياء ، وأنه إنَّما منع المسكين مما هو حقه ، وذلك نهاية البخل ، وقساوة القلب ، وخساسة الطبع ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ أي شدة العذاب ﴿ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ السهو خطأ عن غفلة ، والمعنى ساهون عن صلاتهم سهو ترك لها ، وقلة التفات إليها ، وعدم مبالاة بها ، وذلك فعل المنافقين ، أو الفسقة من المؤمنين ، ولذا قال أنس رضي الله عنه : الحمد لله أن لم يقل (في صلاتهم) لأن ذلك لا يكاد يخلو منه مسلم ، والخلوص منه عسير ، فعلى العاقل ألاَّ تفوته الصلاة التي هي من باب المعراج والمناجاة ، ولا يعبث فيها باللحية والثياب ، ولا يكثر التثاؤب والالتفات ونحوهما ، ومن المصلين من لا يدري عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السورة ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ أي يرون الناس أعمالهم ليثنوا عليهم ، وفي الكشاف : والعمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفي ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، وإن أظهره قاصداً للاقتداء فيه كان جميلاً ، وإنما الرياء أن يقصد أن تراه الأعين ،فتثنيَ عليه بالصلاح ، واجتنابُ الرياء صعبٌ ، لأنه أخفى من دبيب النملة السوداء ، في الليلة المظلمة على الحجر الأسود ، والفرق بين المرائي والمنافق ، أن المنافق يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والمرائي يظهر زيادة الخشوع ، وآثار الصلاح ، ليعتقد من يراه أنه من أهل الصلاح ،

بالعبادة ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ من المعن وهو الشيء القليل ، وسميت الزكاة ماعوناً لأنه يؤخذ من المال ربع العشر وهو قليل من كثير ، والمعنى ويمنعون الزكاة كما دل عليه ذكره عقيب الصلاة ، أو ما يتعاور عادة ، فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين موجب للذم والتوبيخ ، فعدم المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين ، والرياء الذي هو شعبة من الكفر ، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام ، وسوء المعاملة مع الخلق أحق بذلك ، وكم ترى من المتسمِّين بالإسلام من هو على هذه الصفة ، فيا مصيبتاه ، والمراد بما يتعاوره أي يتداوله الناس بالعارية ، ويُعينُ بعضهم بعضاً بإعارته ، وهو مثل الفأس ، والقِدْر ، والدلو ، والإبرة ، والقصعة ، والغربال ، والقدوم والماء والملح ، ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك ، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم ، ففي الآية الزجر عن البخل الذي هو صفة المنافقين .

تمت سورة الماعون بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا ﴾ إن جار مجرى القسم في تأكيد الجملة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي الخير المفرط ، فَوْعل من الكثرة كنوفل قيل لأعرابية آب ابنها من السفر ، بم آب ابنك ، ؟ قالت : آب بكوثر أي بالعدد الكثير من الخير ، وروي عنه عليه السلام أنه قرأها فقال : أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي ، فيه خير كثير ، أحلى من العسل ، وأشد بياضاً من اللبن ، حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء ، لا يظمأ من شرب منه أبداً)[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الكوثر بالخير الكثير ، فقال له سعيد بن جبير : إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة ، فقال : هو من الخير الكثير ، وقال عطاء : هو حوضه لكثرة وارديه ، والأظهر أن جميع نعم الله داخلة في الكوثر ، ظاهرة أو باطنة ، فمن الظاهرة خيرات الدنيا والآخرة ، ومن الباطنة العلوم اللدنية الحاصلة بالفيض الإلهي بغير اكتساب ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي وانحر له ، فحُذِف اكتفاء بما قبله ، والمعنى : فدم على الصلاة لربك ، الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة ، التي لا تضاهيها نعمة خالصاً لوجهه أداء لحقوق شكرها ، فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ، وهي ثلاثة : الشكر بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره ، والشكر باللسان وهو أن يمدح المنعم ويثني عليه والشكر بالجوارح وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة جامعة لهذه الأقسام ، وانحر البدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتَصدَّقْ على المحاويج ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي مبغضك ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ لبغضه لك ، والبتر القطع ، ثم أجري في قطع العقب فقيل : فلان أبتر ، إذا لم يكن له عقب يخلفه ، والمعنى : هو الذي لا عقب له ، حيث لا يبقى له نسل ، ولا حسن ذكر ، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، ولك في الآخرة مالا يندرج تحت البيان ، وذلك أنهم زعموا حين مات ابنه عليه السلام ، أن محمداً ﷺ ينقطع ذكره إذا مات لفقدان نسله ، فنبَّه الله أن الذي ينقطع ذكره ، هو الذي يشنأه ويبغضه ، فأما هو فكما وصفه الله تعالى (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) وذلك أنه أعطاه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم من أهل البيت من أحفاده ممتلىء منهم؟ وجعله أبا للمؤمنين، فهم أعقابه وأولاده إلى يوم القيامة ، وقيَّض له من يحمي دينه الحق ، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين رضي الله عنه« العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة ، هذا في العلماء الذين هم أتباعه عليه السلام ، فكيف هو وقد رفع الله ذكره ، وجعله خاتم الأنبياء عليهم السلام ؟

تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قُلْ يَـاأَيُّهَـا الْكَـافِرُونَ** ﴾ في منـاداتهم بهـذا الوصف الـذي يسترذلونـه ، في بلـدتهم ، ومحل عزهم وشوكتهم ، إيذانٌ بأنه عليه السلام محروسٌ منهم ، ففيها علم من أعلام النبوة ، وهم كفرة مخصوصة كالوليد بن المغيرة ، وأبي جهل ، والعـاص بن وائل وأميـة بن خلف ونحوهم ، روي أن رهطـاً من عتـاة قريش ، قالوا لرسول الله ﷺ : هلمَّ فاتبع ديننا ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فقال : معـاذ الله أن أشرك بالله غيره ، فقالوا : استلم بعض آلهتنا نصدقك ، ونعبد إلهك ، فنزلت ، فغدا إلى المسجـد الحرام وفيـه الملأ من قريش ، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم ، فأيسوا منه عنـد ذلـك وآذوه وأصحـابـه ﴿ **لاَ أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُدُونَ** ﴾ أي فيما يستقبل لأن « لا » لا تدخل غـالبـاً إلاَّ على مضـارع في معنى الاستقبـال ، والمعنى لا أفعل في المستقبل مـا تطلبونـه مني ، من عبـادة آلهتكم ﴿ **وَلاَ أَنْتُمْ عَـابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ** ﴾ أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي ، ﴿ **وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ** ﴾ أي وما كنت عابـداً فيما سلف ما عبـدتم ، أي لم يعهـد مني عبـادة صنم في الجـاهليـة ، فكيف يرجى مني في الإسلام ؟ ﴿ **وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ أي وما عبدتم في وقت من الأوقـات مـا أنـا على عبـادتـه ، وهو الله تعـالى ، فليس في السورة تكرار ، وقيل هاتان الجملتان لنفي العبادة حالاً ، كما أن الأوليين لنفيها استقبالاً ، وإنمـا لم يقل ما عبدتُ ليوافق « ما عبدتم » لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنـام ، وهو عليـه السلام لم يكن حينئـذ مـوسـومـاً بعبـادة الأصنـام ، بـل كان على دين إبراهيم وإسماعيـل عليهما السـلام ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ** ﴾ تقرير لقوله تعالى (**لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**) وقوله تعالى ﴿ **وَلاَ أَنَـا عَـابِـدٌ مَـا عَبَـدْتُمْ** ﴾ وقـولـه تعـالى ﴿ **وَلِيَ دِينِ** ﴾ بحـذف اليـاءِ ، إذ أصلُـه ديني ، وهـو تقريرٌ لقـولـه تعـالى (**وَلاَ أَنْتُمْ عَـابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ**) والمعنى : إن دينكم الـذي هـو الإشراك ، مقصـور عليكم ، لا يتجـاوزه إليَّ كما تطمعون ، فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة ، فإن ذلـك من المحـال ، وإن ديني الـذي هو التوحيـد ، مقصور على الحصول لي ، لا يتجاوز إلى الحصول لكم ، لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم ، ويُروى عن ابن عبـاس رضي الله عنهما ، أنَّ من قرأهـا برىء من الشرك ، وتبـاعـد عنـه مَرَدةُ الشيـاطين ، وأمِنَ من الفزع الأكبر ، وهي تعـدل ربـع القرآن ، وذكر بعضهم أنَّ من خرج مسـافراً ، فقرأ هـذه السـور الخمس : « قل يـا أيهـا الكافرون ، إذا جـاء نصر الله ، قل هو الله أحـد ، قل أعوذ برب الفلـق ، قـل أعـوذ برب الناس ، رجع سالماً غانماً » كذا في الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٤٠٦ .

تمت سورة الكافرين بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ** ﴾ أي إعانته تعالى ، وإظهاره إياك على أعدائك ، والعامل في « إذا » هو سبِّحْ أي فسبح إذا جاء نصر الله ، والإعلام بذلك قبل كونه ، من أعلام النبوة ، لما روي أن السورة نزلت قبل فتح مكة كما عليه الأكثر ﴿ **وَالْفَتْحُ** ﴾ أي فتح مكة ، وهو الفتح الذي تطمح إليه الأبصار ، ولذلك سُمّي « فتح الفتوح » ووقع الوعد به في أول سورة الفتح ، وقيل : جنس نصر الله ، ومطلق الفتح ، فإن الفتوح كل ما يفتح على العبد من الله تعالى ، بعد ما كان مغلقاً عليه ، من النعم الظاهرة والباطنة ، كالأرزاق ، والعبادات والعلوم ، والمعارف ، والمكاشفات ، وغير ذلك ، والفتح القريب هو ما انفتح على العبد من مقام القلب ، وظهور صفاته وكمالاته ، عند قطع منازل النفس ، وهو المشار إليه بقوله (**نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**) والفتح المبين هو ما يفتح على العبد من مقام الولاية وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المشار إليه بقوله (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**) يعني من الصفات النفسانية والقلبية ، والفتح المطلق هو أعلى الفتوحات وأكملها ، وهو ما انفتح على العبد من تجلي الذات الأحدية ، وهو المشار إليه بقوله (**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**) فظهر من هذا أن كلاً من النصر والفتح في الآية ، ينبغي أن يُحمل على ما هو المطلق ، لكني اقتفيت أثر أهل التفسير ، في تقديم ما هو المقيَّد ، ﴿ **وَرَأَيْتَ النَّاسَ** ﴾ أبصرتهم أو علمتهم يعني العرب ﴿ **يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ** ﴾ أي ملة الإسلام التي لا دين غيرها ﴿ **أَفْوَاجاً** ﴾ أي يدخلون فيه جماعات كثيرة . كأهل مكة ، والطائف ، واليمن ، وهوازن ، وسائر قبائل العرب ، وكانوا قبل ذلك يدخلون واحداً واحداً ، روي أنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض ، فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم ، فلن يقاومه أحد ، فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجاً ، من غير قتال ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ أي اشكر ربك واحمده على أن فتح عليك البلاد ، وخضعت لك رقاب العباد ، وسبحه تنزيهاً له عن العجز ، فإن الله على كل شيء قدير ، قال الإمام السهيلي رحمه الله ، سرُّ اقتران الحمد بالتسبيح أبداً نحو (**سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**) (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) أنَّ معرفة الله تنقسم قسمين : معرفة ذاته ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ولا سبيل إلى إثبات أحد القسمين دون الآخر ، وإثبات وجود الذات من مقتضى العقل ، وإثبات الأسماء والصفات من مقتضى الشرع ، فبالعقل عُرف المسمى ، وبالشرع عرفت الأسماء ، ولا يتصور في العقل إثبات الذات إلا مع نفي سمات الحدوث عنها ، وذلك هو التسبيح ، وإنما جاء الشرع المنقول بعد حصول النظر والعقول ، فنبَّه العقول على النظر فعرفت ، ثم

علَّمها ما لم تكن تعلم من الأسماء ، فانضاف لها التسبيح والحمد والثناء ، فما أمرنا تسبيحه إلا بحمده انتهى.

﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ هضماً لنفسك ، واستقصاراً لعملك ، واستدراكاً لما فرط منك ، وفي تقديم التسبيح على الاستغفار ، تعليم أدب الدعاء ، وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسئول عنه ، عن عائشة رضي الله عنها (أنه كان عليه السلام يكثر قبل موته أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك)[1] وفي الحديث (إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة)[2] ومنه يعلم أن ورد الاستغفار لا يسقط أبداً ، لأنه لا يخلو الإنسان عن الغين والسهو ، وروي أنه لما قرأها النبي عليه السلام على أصحابه استبشروا ، وبكى العباس ، فقال عليه السلام : ما يبكيك ياعم ؟ قال : نعيت إليك نفسك ، فلم يُر عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً مستبشراً ، وقيل : هو ابن عباس ، ولذلك كان عمر يدنيه ، ويأذن له مع أهل بدر ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال لهم عمر : إنه من علمتم !! قال فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم ، قال : فما رأيتُ أنه دعاني إلاَّ ليريهم ، فقال عمر : ما تقولون في قول الله تعالى (**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ**) فقال بعضهم : أُمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذا تقول ياابن عباس ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه إياه ، فقال (إذا جاء نصر الله والفتحُ) فذلك علامة أجلك (**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَاً**) فقال عمر : والله ما أعلم إلا ما يقول) أخرجه البخاري ، ولعل ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة ، وتكامل أمر الدين ، كقوله تعالى (**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**) والكمال دليل الزوال ، كما قيل : تَوَقَّعْ زَوَالاً إذا قِيلَ تَمَّ . أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل ، كأنه قال : قرب الوقت ، ودنا الرحيل ، فتأهب للأمر ، ونبه به على أن العاقل إذا قرب أجله ، ينبغي أن يستكثر من التوبة ، وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ! فقال إنَّ عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين لقائه ، فاختارلقاء الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، وقال : فديناك بأنفسنا ، وأموالنا ، وآبائنا ، وأولادنا)[3] وعنه عليه السلام أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال يابنتاه إنه نُعِيت إليَّ نفسي ـ يعني خبر وفاتي ـ فبكت ، فقال : لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقاً بي

---

(١) الحديث أخرجه مسلم بنحوه وانظر الدر المنثور ٦ / ٤٠٨ .

(٢) أخرجه مسلم بلفظ (ياأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وفيه (فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسولُ الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّرَ ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرُ ، وكان أبو بكرٍ هو أعلمنا) وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٨٦ .

فضحكت)[١] وعن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى « سورة التوديع » [٢] لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا ، قال علي رضي الله عنه : لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله عليه السلام فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ثم دخل المنزل فتوفي بعد أيام ، قال الحسن رحمه الله : أُعلِمَ أنه قد اقترب أجله ، فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالعمل الصالح ، وفيه تنبيه لكل عاقل ﴿ **إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً** ﴾ مبالغاً في قبول توبتهم ، منذ خلق المكلفين ، فليكن كل تائب مستغفر متوقعاً للقبول ، وفي اختيار (**إنه كَانَ تَوَّابَاً**) على « غفاراً » مع أنه الذي يستدعيه قولُه (**وَاسْتَغْفِرْ**) تنبيهٌ على أن الاستغفار إنما ينفع ، إذا كان مع التوبة والندم ، والعزم على عدم العود ، ثم إن من أضمر « وتُبْ » يحتمل أنه جعل الآية من الاحتباك ، حيث دل بالأمر بالاستغفار على التعليل ، بأنه كان غفاراً ، وبالتعليل بأنه كان تواباً ، على الأمر بالتوبة ، أي استغفره وتب إليه ليتوب عليك .

تمت سورة النصر بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه البيهقي ، ورواه النسائي بنحوه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٨٧ .

(٢) اشتهر بين الصحابة أن هذه « سورة التوديع » فقد روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عمر رضي الله عنه قال : (أنزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرُحِّلت ، ثم قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة) وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٨٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ ﴾ أي أُهلكت ، فإن التباب الهلاك ، أو خسرت ، فإن التباب خسرانٌ يؤدي إلى الهلاك ﴿ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ تثنية يد واللهب واللهيب اشتعال النار ، وأبو لهب كنيته ، واسمه « عبد العُزَّى بن عبد المطلب » .. روي أنه لَمَّا نزل (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) رقيَ رسول الله عليه السلام الصفا ، وجمع أقاربه فأنذرهم ، فقال يابني عبد المطلب ، يابَنِي فهر ، إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم ما جرَّبنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد ، فقال عمه أبو لهب : تباً لك يامحمد ألهذا دعوتنا ؟ فنزلت السورة الكريمة ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي وهلك كله ، فهو إخبار بعد إخبار ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه ، ومعنى « وتَبَّ » وكان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة من قرأ « وقد تبَّ » فإن كلمة « قد » لا تدخل على الدعاء ، وقيل : كلاهما دعاء عليه بالهلاك ، لبيان استحقاقه لأن يدعى عليه بالهلاك ، وإنما كناه والتكنية تكرمة ، لاشتهاره بكنيته ، فليست للتكريم ، أو لكراهة ذكر اسمه القبيح « عبد العُزَّى » إذ فيه إضافة إلى الصنم أو مناسبةً للنار لأنه (سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ) يعني أن أبا لهب باعتبار معناه الإضافي يصلح أن يكون كناية عن حاله وهي كونه جهنمياً ، قال في الإتقان : ليس في القرآن من الكنى غير أبي لهب ، ولم يذكر اسمه وهو عبد العزى أي الصنم لأنه حرام شرعاً انتهى ، ولم يقل في هذه السورة (قل تبت) إلخ لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشتم والتغليظ ، لأن للعم حرمة كحرمة الأب ، لأنه مبعوث رحمة للعالمين ، وله خلق عظيم ، فأجاب الله عنه ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي لم يغن عنه حين حلَّ به التبابُ ، ولم ينفعه أصلاً ، أو أيُّ شيء أغنى عنه ؟ على أنها استفهامية في معنى الإنكار ، (وَمَا كَسَبَ) أي وما اكتسبه في الدنيا من الأرباح ، والمنافع ، والوجاهة ، والأتباع ، ولا أحد أكثر مالاً من قارون ، وما دفع عنه الموت والعذاب ، وروي أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فأنا أفتدي منه نفسي ، بمالي وولدي ، وقد خاب رجاه ، وما حصل ما تمناه، فافترس ولدَه عتبةَ أسدٌ في طريق الشام، وذلك أن « عُتيبة بن أبي لهب » وكان تحته ابنة رسول الله عليه السلام ، أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمداً ، فلأوذينَّه ، فأتاه فقال يامحمد : هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ ، وردَّ عليه ابنته وطلَّقها ، فقال عليه السلام (اللهم سلِّطْ عليه كلباً من كلابك) فرجع عتيبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من الدير ، فقال إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب أعينوني يامعشر قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتيبة ،

فجاء الأسد يتخللهم ويتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله ، وهلك أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال ـ والعدسة بثرة تخرج في البدن تشبه العدسة ـ وهي من جنس الطاعون تقتل غالباً فاجتنبه أهله مخافة العدوى ، وكانت قريش تتقيها كالطاعون ، فبقى ثلاثاً حتى أنتن ، ولم يحفروا له حفرة ، ولكن أسندوه إلى حائط ، وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط ، حتى واروه ﴿ **سَيَصْلَىٰ** ﴾ أي سيدخل لا محالة ﴿ **نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾ ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقُّدٍ ، وهي نار جهنم لفسقه ومعاصيه ، وكفره وضلاله ﴿ **وَامْرَأَتُهُ** ﴾ وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان واسمها العوراء ، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنشرها بالليل في طريق النبي عليه السلام ، ﴿ **حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ﴾ نصب « حَمَّالَةَ » على الشتم والذم أي أذم حمالة الحطب ، والمراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة حطب ، وفي جيدها سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يناسب حاله في جرمه ، وعن قتادة أنها مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها ، فعيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتماً ، وقيل كانت تمشي بالنميمة وتفسد بين الناس ، تحمل الحطب بينهم أي توقد بينهم الثائرة ، وتورث الشر ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ** ﴾ الجيدُ بالكسر : العنقُ ، والمسَدُ ، ما يُفتل من الحبال فتلاً شديداً ، من ليف أو جلد ، والمعنى : في عنقها حبل من الحبال ، من الشوك أو الليف ، كما يفعل الحطابون تخسيساً لحالها وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات ، يحكى أنه لمَّا بلغها « سورة تبت » جاءت إلى أخيها أبي سفيان في بيته ، وهي متحرقة غضبى ، فقالت له : ويحك أما تغضب أن هجاني محمد ؟ فقال سأكفيك إياه ، ثم أخذ بسيفه وخرج ثم عاد سريعاً ، فقالت له هل قتلته ؟ فقال لها : ياأختي أيسرك أن رأس أخيك في فم ثعبان ؟ قالت : لا والله ، قال فقد كاد ذلك يكون الساعة ، أي فإنه رأى ثعباناً لو قرب منه ﷺ لالتقم رأسه ، ثم كان من أمر أبي سفيان الإسلام ، ومن أمر أخته الموت على الكفر ، والكل من حكم الله السابق ؛ قال المفسرون : كان أبو لهب وامرأته العوراء أم جميل ، كل منهما شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها ، أتت رسول الله ﷺ وهو في المسجد الحرام عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فِهرٌ من الحجارة ـ أي قطعة من الحجر صلبة حادة ـ فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها ، فلم تر إلا أبا بكر ، فقالت ياأبا بكر بلغني أن صاحبك يهجوني ، فوالله لو وجدته لضربتُ بهذا الحجر وجهه ، ثم أنشدت تقول : « مذمماً عصينا : وأمرَه أبينا . ودينه قلينا » ثم انصرفت ، فقال أبو بكر يارسول الله أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني ، وكانت قريش يسبون رسول الله ﷺ ويهجونه ، ويقولون : مذمماً بدل محمد ، سخرية واستهزاءً به ﷺ ، وكان صلوات الله عليه يقول : ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش ؟ إنهم يسبون ويهجون مذمماً ، وأنا محمد !!

تمت سورة المسد بعون الله وتوفيقه

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن أي الله أحد الحالُ والشأنُ هذا ، وفيه التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، روي أن المشركين قالوا للنبي عليه السلام : صفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه واذكره فنزلت [١] ، يعني بيَّن الله نسبه بتنزيهه عن النسب ، حيث نفي عنه الوالدية ، والمولودية ، والكفاءة . و« اللهُ » عَلَمٌ دالٌ على الإله الحق وهو اسم الذات الإلهية ، من حيث هي ، والأحد اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته ، كما أن الواحد اسم لمن لا يشاركه شيء في صفاته ، قال ابن الشيخ في حواشيه : قوله (**هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) ثلاثة ألفاظ ، كل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات السائرين إلى الله تعالى ، فالمقام الأول مقام المقربين ، وهم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي ، فلا جرم ما رأوا موجوداً ، سوى الله ، لأن الحق هو الذي يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن ، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق تعالى ، وكلمة « هو » وإن كانت للإشارة المطلقة مفترقة في تعيين المراد بها ، وقد بينا أنهم لا يشاهدون بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فلهذا السبب كانت لفظة « هو » كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء ، والمقام الثاني مقام أصحاب اليمين ، وهو دون المقام الأول ، وذلك لأنهم شاهدوا الحق موجوداً ، وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً ، فحصلت الكثرة في الموجودات فلا جرم لم تكن لفظة هو كافية في الإشارة إلى الحق ، بل لابد هناك من مميز به يتميز الحق من الخلق ، فهؤلاء مفترقون إلى أن يُقرن لفظة الله بلفظة « هو » فقيل لأجلهم (**هُوَ اللهُ**) لأن لفظة الله اسم للموجود ، الذي يفتقر إليه ما عداه ، ويستغني هو عن كل ما عداه ، والمقام الثالث مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد ، فقرن لفظة الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالاً لمقالهم ، فقيل (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) انتهى كلامه ﴿ **اللهُ الصَّمَدُ** ﴾ أي هو السيد المصمود إليه في الحوائج ، والمستغني بذاته ، وكلُّ ما عداه محتاجٌ إليه في جميع جهاته ، فلا صمد في الوجود سوى الله ، فهو مثل «زيد الأميرُ» يفيد قصر الجنس على زيد ، فإذا كان هو الصمد فمن انتفت الصمدية عنه لا يستحق الألوهية ، بيَّن أولاً ألوهيته المستتبعة لكافة نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة لتنزهه عن شائبة التعدد والتركب بوجه من الوجوه ، ثم صمديَّته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها .

---

(١) روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد : صف لنا ربك ، أمن ذهب هو ؟ أم من فضة ؟ أم من زبرجد أم من ياقوت ؟ فنزلت (**قل هو الله أحد الله الصمد ..**) السورة وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٩١ .

ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ تنصيصاً على إبطال زعم المفترين ، في حق الملائكة والمسيح ، أي لم يصدر عنه ولد ، لأنه لا يجانسه شيء ، ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد ، أو لا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه ، لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي لم يصدر عن شيء ، لاستحالة نسبة العدم إليه ، سابقاً ، أو لاحقاً ، وقال بعضهم : الوالدية والمولودية لا تكونان إلاَّ بالمثلية ، فإن المولود لابد أن يكون مثل الوالد ، ولا مثلية بين ذات الله الواجبة ، وذاتنا الممكنة وقال البقلي (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) أي لم يكن هو محل الحوادث ، ولا الحوادث محله ، والتصريحُ بأنه « لم يولد » مع كونهم معترفين بمضونه للإشارة إلى أنهما متلازمان ، إذ المعهود أن ما يلد يولد ، ومالا فلا ، ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد الاعتراف بأنه لا يلد ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ ﴾ يقال هذا كفاؤه وكفؤه مثله ، والمقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى ، أي لم يكافئه أحد ، ولم يماثله ولم يشاكله ، بل هو خالق الأكفاء ، ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية ، والرد على من ألحدَ فيها ، جاء في الحديث (إنها تعدلُ ثلثَ القرآن)[1] فإن مقاصده منحصرة في بيان العقائد ، والأحكام ، والقصص ، وهي قد تناولت جانب العقائد ، الذي هو الركن الأهم من الإسلام ، فلذلك كانت تعدل في الأجر ثلث القرآن ، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار ، وفي الحديث (أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة واحدة ؟ فقيل يارسول الله : من يطيق ذلك ؟ قال يقرأ « قل هو الله أحد » ثلاث مرات)[2] ، وسميت سورة الإخلاص ، لإخلاص الله من الشرك ، أو للخلاص من العذاب ، قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى :

عفوُ ربِّي وَثيقَتِي بالخَلاَصِ * واعْتِصَامي بِسُورةِ الإخْلاَصِ

أو لأنها سورة خالصة لله ، ليس فيها ذكر شيء من الدنيا والآخرة ، وقيل : لأنها تخلِّص قارئها من شدائد الآخرة ، وسكرات الموت ، وظلمات القبر ، وأهوال القيامة .

تمت سورة الإخلاص بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعاً ، وذكره الحافظ بن كثير في تفسيره ٣ / ٦٩٢ .

(٢) أخرجه مسلم وأحمد بلفظ أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟. قل هو الله أحد ثلث القرآن) .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ﴾ الفلق : الصبحُ لأنه يُفلق عنه الليل ويفرق بإزالة ما عليه من ظلمة الليل ، يقال في المثل : هو أبينُ من فَلق الصبح ، والفلق أيضاً : الخَلْقُ ، لأن الممكنات بأسرها كانت أعياناً ثابتة في علم الله ، مستورة تحت ظلمة العدم ، فالله تعالى فلق الظلمات بنور التكوين والإيجاد ، وفي تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق ، عِدَةٌ كريمة ، بإعاذة العائذ مما يتعوذ منه ، وإنجائه منه ، وترغيب له في الجد والاعتناء ، بقرع باب الإلتجاء إليه ﴿ **مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ أي من شر ما خلقه ، كائناً ما كان ، من إنس ، وجن ، وسباع ، وهوام ، فيشمل جميع الشرور والمضار ، بدنية كانت أو غيرها ، وإضافة الشر إليه ، لاختصاصه بعالم الخلق ، المؤسس على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيفياتها المتضادة المستتبعة للكون والفساد ، وأما عالم الأمر فهو خيرٌ محض ، منزه عن شوائب الشر بالكلية ، وقرأ بعض المعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الشرَّ (مِنْ شرٍّ) بالتنوين، (مَا خَلَقَ) على النفي، وهي قراءة مردودة، مبنية على مذهب باطل فقد قال تعالى : (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**) ﴿ **وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ** ﴾ أي ومن شر ليلٍ مختلطٍ ظلامُه مشتد ، وذلك بعد غيبوبة الشفق وفي القاموس : الغَسَقُ ظلمة أول الليل وغسَقَ الليلُ غسقاً : اشتدت ظلمته ، فالغاسق الليلُ المظلم ﴿ **إِذَا وَقَبَ** ﴾ أي إذا دخل ظلامه ، وتقييده به لأن حدوث الشرَّ فيهِ أكثر ، والتحرز منه أصعب وأعسر ، ولذلك قيل : « الليلُ أخفى للويل » لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر ، والغوث يقلُّ في الليل ، والحاصل أنه ينبعث أهل البغي في الليل ، وتخرج عفاريت الجن والهوام والمؤذيات ، ونهى رسول الله عليه السلام عن السير في أول الليل ، وأمر بتغطية الأواني ، وإغلاق الأبواب ، وإيكاء الأسقية ، وضم الصبيان ، وكلُّ ذلك للحذر من الشر والبلاء ، وقيل : الغاسقُ : القمرُ إذا امتلأ ، ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده ، لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (أخذ رسول الله عليه السلام بيدي ، فأشار إلى القمر ، فقال : تعوذي بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب)[1] ﴿ **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ** ﴾ النَّفْثُ شبهُ النفخ ، يكون في الرقية ، ولا ريق معه ، فإن كان معه ريق فهو التفل ، والنفاثات بالتشديد يراد منها الاحتراف به ﴿ **فِي الْعُقَدِ** ﴾ جمع عقدة ، وهي ما يعقده الساحر على وترٍ، أو حبل ، أو شعر، وهو ينفث ويرقي ، والمعنى ومن شر النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ، روى ابن عباس وعائشة رضي الله عنها ، أنه كان غلام

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

من اليهود يخدم النبي عليه السلام ، وكان عنده أسنان من مشطه عليه السلام ، فأعطاها اليهود فسحروه عليه السلام فيها ، وتولاه «لبيد بن الأعصم اليهودي» وبناته ، وهن النفاثات في العقد ، فدفنها في بئر أريس ، فنزل جبرائيل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر ، وبمن سحره ، فأرسل عليه السلام علياً والزبير وعماراً رضي الله عنهم فنزحوا ماء البئر ، فكأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا راعونة البئر وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعها وتَرٌ قد عُقد فيه إحدى عشر عقدة مغرزة بالإبر، فجاؤا بها النبي عليه السلام فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد عليه السلام خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام عليه السلام كأنما أنشط من عقال ، وجعل جبرائيل يقول (بسم الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل شيء يؤذيك ، من عينٍ وحاسد اللهُ يشفيك)[1] فلذا جوز الاسترقاء بما كان من كلام الله، وكلام رسوله ، لا بما كان بالعبرية ، والسريانية ، والهندية ، فإنه لا يحل اعتقاده .

اعلم أن السحر تخييل لا أصل له عند المعتزلة وعند جمهور العلماء -أهل السنة- له أصل وتأثير، ولهذا عدَّه الشرع من الكبائر كما قال سبحانه **(يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)** والمعتزلة أنكروا صحة الرواية المذكورة ، وتأثير السحر فيه عليه السلام ، وقالوا : كيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول (**واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**) وقال (**وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**) ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة ، ولأن الكفار كانوا يعيِّرونه بأنه مسحور ، فلو وقعت هذه الواقعة ، لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى ، ولحصل فيه عليه السلام ذكر العيب ، ومعلوم أن ذلك غير جائز ، وقال أهل السنة ، صحة القصة لا تستلزم صدق الكفرة في قولهم إنه مسحور ، وذلك لأنهم كانوا يريدون بكونه مسحوراً أنه مجنون ، أزيل عقلة بسبب السحر ، فلذلك ترك دين آبائه ، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه ، فذلك مما لا ينكره أحد، وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ، ولا إنسياً ، ولا جنياً يؤذيه، فيما يتعلق بنبوته وعقله ، وأما الإضرار به من حيث بشريته وبدنه ، فلا بعد فيه ، وتأثير السحر فيه عليه السلام لم يكن من حيث إنه نبيٌّ ، وإنما كان في بدنه من حيث إنه إنسان وبشر ، فإنه عليه السلام يعرض له من حيث بشريته ، ما يعرض لسائر البشر ، من الصحة ، والمرض ، والموت ، والأكل والشرب ، ودفع الفضلات ، وتأثير السحر فيه من حيث بشريته لا يقدح في نبوته ، وإنما يكون قادحاً فيها لو وجد للسحر تأثير ، في أمر يرجع إلى النبوة ، ولم يوجد ذلك ، كيف والله تعالى يعصمه من أن

(١) حديث سحر اليهودي للنبي ﷺ حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب الطب ، ورواه مسلم وأحمد ، ولا يطعن في صحته إنكار بعض المعتزلة له ، وقد ذكر المصنف هذا المعنى ، وارجع إليه في الصحيحين .

يضره أحد ، فيا يرجع إليها ، كما لم يقدح كسر رباعيته يوم أحد ، فيا يضمن الله له من عصمته في قوله (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) وفي كشف الأسرار : فإن قيل : ما الحكمة في نفوذ السحر ، وغلبته في النبي عليه السلام ؟ ولما ذا لم يردَّ اللهُ كيد الكائد إلى نحره ، بإبطال مكره وسحره ؟ قلنا : الحكمة فيه الدلالةُ على صدق رسول الله عليه السلام ، وصحة معجزاته ، وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة ، لأن سحر الساحر عمل فيه حتى التبس عليه بعض الأمر ، واعتراه نوعٌ من الوجع ، ولم يعلم النبي عليه السلام بذلك حتى دعا ربه ، ثم دعا فأجابه الله وبين له أمره ، ولو كان ما يظهر من المعجزات الخارقة للعادات من باب السحر على ما زعم أعداؤه ، لم يشتبه عليه ما عمل من السحر فيه ، ولتوصل إلى دفعه من عنده ، وهذا بحمد الله من أقوى البراهين على نبوته ، وقد رُوي عن عائشة فبينما هو نائم ، أو بين النوم واليقظة ، إذا أتاه ملكان ، جلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فهذا يقول للذي عند رأسه : ما شكواه ؟ قال : السحرُ ، قال : من فعل به ؟ قال لبيد بن أعصم اليهودي قال فأين صنع السحر قال في بئر كذا قال : فما دواؤه ؟ قال ينبعث إلى تلك البئر فينزح ماءها فيبرأ إن شاء الله تعالى ، فاستيقظ عليه السلام وقد فهم ما قالا ، فبعث علياً رضي الله عنه إلى آخر ما سبق ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله عليه السلام إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ قل هو الله أحد والمعوذتين ، في كفه اليمنى ، ومسح بها المكان الذي يشتكي)[1] ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه للإضرار بالمحسود ، قولاً ، أو فعلاً والحسدُ تمني زوال النعمة عن مستحقها ، سواء كانت نعمة دين أو دنيا ، والمؤمن يغبط ، والمنافق يحسد ، والحسد مرضٌ خطيرٌ ، يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وأول ذنب عُصِيَ الله به في السماء حسد إبليس لآدم ، فأخرجه من الجنة ، فطرد وصار شيطاناً رجيماً ، وفي الأرض قابيل لأخيه هابيل فقتله ، قال الحسين بن الفضل رحمه الله : ذكر الله الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخبث الطبائع كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

تمت سورة الفلق بعون الله وتوفيقه

(١) أخرجه مالك وأبو داود والنسائي ، وفيه قالت عائشة (فلما اشتدَّ وجعُه كنتُ أقرأ عليه بالمعوِّذات ، وأمسحُ بيده عليه رجاءَ بركتها) وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٩٤ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ أي مالك أمورهم ومربيهم ، بإفاضة ما يصلحهم ، ودفع ما يضرهم ﴿ **مَلِكِ النَّاسِ** ﴾ بيان في أن تربيته تعالى إياهم ، ليست بطريق تربية سائر الملاَّك ، لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والتصرف الشامل ، والسلطان القاهر ، وقد ورد في الحديث في بعض الأدعية النبوية (لك الحمد لا إله إلا أنت ، رب كل شيء ومليكه) ﴿ **إِلَهِ النَّاسِ** ﴾ هو لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أمور سياستهم ، والتولي لترتيب مبادىء حفظهم وحمايتهم ، كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية ، المقتضية للقدرة التامة ، على التصرف الكلي فيهم ، إحياءً ، وإماتة ، وإيجاداً ، وإعداماً ، وتخصيص الإضافة بالناس ، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى ، وملكوته وألوهيته ، لأن المستعاذ منه شر الشيطان ، المعروف بعداوتهم ، ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى ، وملكوته ، رمز إلى انجائهم من هلكة الشيطان ، وتسلطه عليهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى (**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير بالإضافة ، فإن مالا يشرف فيه لا يعبأ به ، ولا يعاد ذكره ، بل يُترك ويهمل ، وقد قال من قال :

أَعِدْ ذِكرَ نُعْمَانٍ لَنَا إِنَّ ذِكْرَه * هُوَ المِسْكُ مَا كَرَّرتَهُ يَتَضَوَّعُ

فلولا أن الناس أشرف مخلوقاته ، لما ختم كتابه بذكرهم ﴿ **مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ** ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه ، ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ، ويؤكده عند من يلقيه إليه ، كرر لفظها بإزاء تكرير معناها ، والمراد بالوسواس الشيطان ، لأنه يدعو إلى المعصية بكلام خفي ، يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته ، وذلك بالإغراءِ بسعة رحمة الله ، أو بتخييل أن له في عمره سعة ، وأن وقت التوبة باقٍ ، سُمِّي بفعله مبالغة ، كأنه نفس الوسوسة لدوام وسوسته ، فقد أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس ، ولم يقل من شر وسوسته ، لتعم الاستعاذة شره جميعه وإنما وصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً ، وأقواها تأثيراً ، وأعمها فساداً ، وينحصر ما يدعو الشيطان إليه ابن آدم في ست مراتب : **المرتبة الأولى** : الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم ، بردَ أنينُه ، واستراح من تعبه معه ، وهذا أول ما يريده من العبد . **والمرتبة الثانية** : البدعة وهي أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها فتكون كالعدم ،

والبدعة يظن صاحبها أنها صحيحة فلا يتوب منها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى **المرتبة الثالثة** : وهي الكبائر على اختلاف أنواعها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى **المرتبة الرابعة** : وهي الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها ، كالنار الموقدة من الحطب الصغار ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى **المرتبة الخامسة** : وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عقابها فوات الثواب الذي فات عليه باشتغاله بها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى **المرتبة السادسة** : وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ، ليفوّته من ثواب العمل الفاضل ، قال أبو عمرٍو البخاري رحمه الله : أصل الوسوسة ونتيجتها من عشرة أشياء : أولها الحرص فقابله بالتوكل والقناعة ، والثاني الأمل فاكسره بمفاجأة الأجل ، والثالث التمتع بشهوات الدنيا فقابله بزوال النعمة ، وطول الحساب ، والرابع الحسد فاكسره برؤية العدل ، والخامس البلاء فاكسره برؤية المنة ، والسادس الكبر فاكسره بالتواضع ، والسابع الاستخفاف بحرمة المؤمنين ، فاكسره بتعظيمهم واحترامهم ، والثامن حب الدنيا فاكسره بالإخلاص ، والتاسع طلب العلو والرفعة ، فاكسره بالخشوع والذلة ، والعاشر المنع والبخل ، فاكسره بالجود والسخاء ﴿ **الْخَنَّاسِ** ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه ، حكي أن بعض الأولياء الصالحين سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس ، فأراه الحق تعالى هيكل الإنسان في صورة بلور وبين كتفيه خال أسود كالعش والوكر ، فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل ، فجاء بين الكتفين فأدخل خرطومه قِبَل قلبه فوسوس إليه ، فذكر الله فخنس وراءه ، ولذلك سمي بالخناس ، لأنه ينكص على عقبيه عندما يحصل نور الذكر في القلب ، وهكذا يفعل الشيطان بالإنسان ويجوز أن يدخل الشيطان في الأجسام ، لأنه جسم لطيف ، وهو وإن كان مخلوقاً في الأصل من نار ، لكنه ليس بمحرق لأنه لما امتزج النار بالهواء صار تركيبه مزاجاً مخصوصاً ، كتركيب الإنسان ﴿ **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ** ﴾ إذا غفلوا عن ذكره تعالى ، ذكرَ سبحانه وتعالى وسوسته أولاً ، ثم ذكر محلها وهو صدور الناس ، وتأمل السر في قوله (**يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**) ولم يقل في قلوبهم ، والصدر هو ساحة القلب ، وبيتُه ، فمنه تدخل الواردات عليه فتجتمع في الصدر ، ثم تلج في القلب ، فهو بمنزلة الدهليز ، ومن القلب تخرج الإرادات والأوامر إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود ، فالشيطان يدخل ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب ، فهو يوسوس في الصدور واصلة إلى القلوب ﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ الجنة بالكسر : جماعةُ الجن ، و « مِنَ » بيان للذي يوسوس على أنه ضربان : جني ، وأنسي ، كما قال تعالى (**شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الجِنِّ**) والموسوس إليه نوع واحد وهو الإنس ، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ، ويخنس أخرى ، فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يلقي الأباطيل ويرى نفسه في صورة الناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ويترك

الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه ، وفي هذا المقام لطيفة بالغة ، وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة ، وهي أنه (**رب الفلق**) والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهي : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بثلاثة أوصاف وهي الرب ، والمَلِك ، والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة ، ومن المعلوم أن المطلوب كلَّما كان أهم ، والرغبة فيه أتم وأكثر ، كان ثناء الطالب قبل طلبه أكثر وأوفر والمطلوب في السورة المتقدمة هو سلامة البدن من الآفات المذكورة ، وفي هذه السورة سلامة الدين من وسوسة الشيطان ، وإن كانت أمراً واحداً إلا أنها أعظم مراده ، وأهم مطلبه ، وأن سلامة البدن من تلك الآفات وإن كانت أمراً متعددة ليست بتلك المثابة في الاهتمام ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ ، إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه فنفث فيهما ، وقرأ (**قل هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) و (**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ**) و (**قل أعوذُ بربِّ النَّاسِ**) ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يصنع ذلك ثلاث مرات)[1] وفي قوت القلوب « وليجعلْ العبد مفتاح درسه أن يقول أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، وليقرأ أعوذ برب الناس ، وسورة الحمد ، وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله تعالى ، وبلغ رسوله ﷺ ، اللهم انفعنا وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحي القيوم .

روي عن ابن كثير رحمه الله أنه كان إذا انتهى في آخر الختمة إلى قل أعوذ برب الناس ، قرأ سورة الحمد لله رب العالمين وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى (**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) لأن هذا يسمى الحال المرتحل ، ومعناه أنه حلَّ في قراءته آخر الختمة ، وارتحل إلى ختمةٍ أخرى ، وإرغاماً للشيطان وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها ، وورد النص عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن من قرأ سورة الناس يدعو عقب ذلك ، فلم يستحب أن يصل ختمه بقراءة شيءٍ ، وروي عنه قول آخر بالاستحباب ، واستحسن مشايخ العراق قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً عند ختم القرآن إلا أن يكون الختم في المكتوبة فلا يكررها ، وعن الإمام البخاري رحمه الله أنه قال : عند كل ختمة دعوة مستجابة ، وإذا ختم الرجل القرآن قبَّل الملك بين عينيه ، ونص الإمام أحمد على استحباب الدعاء عند الختم ، وكذا جماعة من السلف ، فيدعو بما أحب مستقبل القبلة ، رافعاً يديه خاضعاً لله ، موقناً بالإجابة ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، بل يجتنبه ، ويثني على الله تعالى قبل الدعاء وبعده ، ويصلي على النبي عليه السلام ، ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء ، وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، يدعو

(١) الحديث أخرجه البخاري وأهل السنن ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٦٩٢ .

عند ختم القرآن بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك إخبات المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار ، والغنيمة من كل برّ ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة ، والخلاص من النار) وفي شرح الجزري ينبغي أن يلح في الدعاء ، وأن يدعو بالأمور المهمة ، والكلمات الجامعة ، وأن يكون معظم ذلك أو كله في أمور الآخرة ، وأمور المسلمين ، وصلاح سلاطينهم وسائر ولاة أمورهم ، في توفيقيهم للطاعات ، وعصمتهم من المخالفات ، وتعاونهم على البر والتقوى ، وقيامهم بالحق عليه ، وظهورهم على أعداء الدين وسائر المخالفين ، ومما كان يقول النبي عليه السلام عند ختم القرآن (اللهم ارحمني بالقرآن العظيم ، واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة ، اللهم ذكّرني منه ما نسيتُ ، وعلمني منه ما جُهلتُ ، وارزقني تلاوته آناء الليل ، وأطراف النهار ، واجعله حجة لي يارب العالمين) وكان أبو القاسم الشاطبي رحمه الله ، يدعو بهذا الدعاء عند ختم القرآن (اللهم إنَّا عبيدك ، وأبناء عبيدك ، وأبناء إمائك ، ماضٍ فينا حكمُكَ ، عدلٌ فينا قضاؤُك ، نسألك اللهم بكل اسم هولك ، سميتَ به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في شيء من كتابك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وهمومنا ، وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جناتك جنات النعيم ، ودارك دار السلام ، مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، برحمتك ياأرحم الراحمين) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم تفسير الكتاب العزيز بعون الله وتوفيقه
سنة ١٤٠٤ من هجرة سيد المرسلين في البلد الحرام
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

فهارس المجلد الرابع

أولاً : فهرس المواضيع

« سورة الزخرف »

الموضوع — الصفحة

- بيان قوله ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ٥
- بيان قوله ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ ٥
- معنى السرف في قوله تعالى ﴿ أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ ٥
- بيان سعة فضل الله في تمهيد الأرض وتيسير السبل فيها .. إلخ ٦
- معنى قوله تعالى ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ ٦
- بيان رحمة الله في حمل الإنسان في البر والبحر وقوله تعالى ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ ٧
- معنى قوله ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ ٧
- معنى قوله ﴿ أوَ من يُنَشَّأُ في الحلية ﴾ ٨
- ضلال المشركين في جعلهم الملائكة إناثاً ، وتهكم الله منهم في قوله ﴿ أشَهِدُوا خلقهم ﴾ ٩
- فائدة عظية في قوله تعالى ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ ٩
- بيان حال الرسل مع قومهم وخاصة المترفين وقوله ﴿ وكذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها .. ﴾ الآية ١٠
- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ١١
- بيان سبب كفر قريش وهو الحسد وقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .. ١١
- معنى قوله تعالى ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً .. ﴾ الآية ١٢
- بيان قوله تعالى ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة .. ﴾ الآية ١٢
- بيان أن ما أعده الله للمتقين في الآخرة خير من متاع الدنيا ، وذكر أسباب جعل الله رسوله فقيراً ١٣
- معنى التعاشي في قوله ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً .. ﴾ ١٣
- كيد الشيطان يقع بالصَّدِّ والتزيين وقوله تعالى ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ١٤
- بيان ما يكون بين القرين وصاحبه الأنسي الكافر من التلاعن يوم القيامة ١٤
- بيان أن القرآن الكريم شرف للرسول ﷺ وللأمة ، وقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ١٥
- ذكر قصة موسى عليه السلام وما فيها من الفوائد ١٦
- فوائد عالية في قوله تعالى ﴿ ولما ضُرِّبَ ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يَصِدُّون ﴾ ١٨
- كلام نفيس في قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يَخْلُفون ﴾ ١٩

الموضوع — الصفحة

- بيان نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان ، وقوله تعالى ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ ١٩
- ذكر قصة عيسى عليه السلام ٢٠
- بيان حال أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ٢٠
- بيان حال أهل النار وذكر سبب عذابهم وسوء مآلهم ٢٢
- حكاية بهلول مع أحد الصبيان وقوله تعالى ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ ٢٤

« سورة الدخان »

- بيان قوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وكلام نفيس عن شرف بعض الأزمنة والأمكنة ٢٦
- فائدة في قوله تعالى ﴿ فيها يُفرق كل أمرٍ حكيم ﴾ ٢٦
- بيان معنى قوله تعالى ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ ٢٧
- بيان حال موسى عليه السلام مع قوم فرعون وقوله تعالى ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ﴾ ٢٩
- معنى الاعتزال في قوله تعالى ﴿ فإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ ٣٠
- بيان قوله تعالى ﴿ واترك البحر رَهْوَاً إنهم جند مغرقون ﴾ ومآل قوم فرعون ٣١
- معنى قوله تعالى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ٣٢
- فوائد في قوله تعالى ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ ٣٢
- بيان قوله تعالى ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ ٣٣
- بيان قوله تعالى ﴿ أهم خير أم قوم تُبَّع .. ﴾ ٣٤
- ذكر أدلة ثبوت الحشر وقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ ٣٤
- بيان حال الخلق يوم القيامة وانقطاع النصرة بينهم إلا من رحم الله ٣٥
- بيان قوله تعالى ﴿ إن شجرة الزقوم ... ﴾ وأنها طعام أهل النار ٣٦
- ذكر حال أهل الجنة في دار النعيم ٣٧
- ذكر فائدة في قوله ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ وقوله ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ ٣٩

« سورة الجاثية »

- بيان آيات الله في الكون وقوله ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ ٤١
- ذكر صفات الأفاكين الآثمين وقوله تعالى ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ ٤٣
- بيان عظيم نعمة الله في تسخير الماء بصفته السائلة وجريان الفلك عليه ٤٤
- بيان قوله تعالى ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله .. ﴾ ٤٥

الموضوع — الصفحة

- ذكر ترادف نعم الله على بني إسرائيل ثم ما كان من بغيهم وقوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ...** ﴾ الآية ٤٦
- تميز المتقين عن المكذبين وقوله تعالى ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا ..** ﴾ الآية ٤٨
- بيان حال من اتخذ إلهه هواه ، وقوله ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ..** ﴾ الآية ٥٠
- ذكر كلام القائلين بالتناسخ والدهريين ورد الله عليهم ٥١
- بيان قوله تعالى ﴿ **وترى كل أمة جاثية ..** ﴾ ٥٣
- ذكر فوائد في بيان قوله تعالى ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم ..** ﴾ الآية ٥٤
- بيان قوله ﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ ومعنى السيئات ٥٥

« سورة الأحقاف »

- تبكيت الكفار وإبهاتهم في قوله تعالى ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ..** ﴾ الآية ٥٧
- بيان حال الكفرة ومعبوداتهم وما يقع بينهم من العداوة ٥٨
- بيان قوله تعالى ﴿ **وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم ..** ﴾ ٥٩
- بيان قوله تعالى ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل ..** ﴾ الآية ٦٠
- بيان حجة الكفار الواهية في ترك الحق وقوله ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ...** ﴾ الآية ٦١
- بشارة الله تعالى لأهل التقوى والاستقامة في الدنيا والآخرة ٦٢
- ضرب مثال للطائعين المؤمنين والعاصين الكافرين ٦٣
- بيان قوله تعالى ﴿ **ولكلٍ درجات مما عملوا ...** ﴾ الآية ، وذكر فوائد قيمة ٦٤
- ذكر فوائد حِسَان في قوله تعالى ﴿ **أذْهَبْتُمْ طيباتكم في حياتكم الدنيا ...** ﴾ ٦٦
- تذكير الكفار بحال قوم هود ، وقوله تعالى ﴿ **واذكر أخا عادٍ ...** ﴾ وبيان فوائد مهمات ٦٧
- استئصال الله لعاد بالريح العاتية ٦٨
- بيان قوله تعالى ﴿ **ولقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ...** ﴾ الآية ٦٨
- ذكر الآلات التي يتحصل بها على التوحيد ٦٩
- بيان قوله تعالى ﴿ **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ..** ﴾ الآية ، وذكر فائدة في الأسباب والوسائل ٦٩
- بيان عموم دعوة الرسول ﷺ للإنس والجن ، وقوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ...** ﴾ الآية ٧٠
- بيان قوله تعالى ﴿ **يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ...** ﴾ الآية ٧١

الموضوع — الصفحة

- تسلية الرسول ﷺ وأمره بالصبر وقوله ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ... ﴾ الآية ٧٣

« سورة محمد »

- بيان قوله ﴿ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ ٧٤
- بيان حتمية الإيمان برسول الله ﷺ وعلو قدره ، وقوله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزِّل على محمد وهو الحق ﴾ ٧٤
- ذكر فوائد حِسَان في معنى الحق والباطل ٧٤
- بيان الأحوال التي يكون عليها المسلمون الظافرون من شد وثاق الكفار ثم المن أو الفداء حسب الحال ٧٥
- فائدة هامة في قوله تعالى ﴿ حتى تضع الحربُ أوْزَارَهَا ﴾ ٧٦
- بيان قوله تعالى ﴿ ويدخلهم الجنة عَرَّفها لهم ﴾ ٧٦
- الكلام على النصرة في قوله تعالى ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ٧٧
- بيان قوله تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ٧٨
- بيان الفرق بين معيشة المؤمن ومعيشة الكافر ٧٩
- بيان قوله تعالى ﴿ وكأيِّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم .. ﴾ ٨٠
- ذكر صفات الجنة وأنهارها ، والنار وعذابها ٨٠
- بيان قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك ... ﴾ الآية ٨١
- ذكر صفات المنافقين وما يتعلق بالساعة من أشراط ٨٢
- بيان فضل العلم وقوله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ... ﴾ الآية ٨٣
- بيان قوله تعالى ﴿ ويقول الذين آمنوا ... ﴾ الآية ٨٤
- ذكر معنى (أولى) في قوله تعالى ﴿ فأوْلى لهم ﴾ وأنه ليس بمعنى (أفضل لهم) ٨٤
- بيان قوله تعالى ﴿ فهل عسيتم إنْ توليتم ... ﴾ الآية ، ومعنى الولاية ٨٤
- بيان قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ ٨٥
- ذكر أحوال المنافقين وموالتهم لليهود الكفرة ٨٥
- بيان حال المؤمن والفاجر عند الوفاة ٨٦
- معرفة الرسول ﷺ المنافقين بسيماهم ولحنهم في القول ٨٦
- بيان قوله ﴿ إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ... ﴾ الآية ٨٧
- فائدة جليلة في قوله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ٨٧
- ذكر فوائد في قوله تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ... ﴾ الآية ٨٨

الموضوع الصفحة

- بيان التنفير لمن طلب الدنيا الفانية ، وقوله تعالى ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ... ﴾ الآية ، والحث على الإنفاق ٨٩
- بيان قوله تعالى ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ... ﴾ الآية ٩٠

سورة الفتح »

- ذكر معنى الفتح في قوله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ ٩١
- معنى المغفرة في قوله تعالى ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ... ﴾ الآية ٩٢
- بيان مقدمات الفتح من الثبات والطمأنينة ، وقوله ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ... ﴾ الآية ٩٢
- ذكر جند الله في قوله ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ ٩٢
- بيان صفات أهل النفاق والشرك حين عاينوا نصرة الله للمؤمنين ، وقوله ﴿ الظانين بالله ظن السوء ... ﴾ ٩٣
- بيان الحكمة في قوله ﴿ عليماً حكيماً ﴾ في الآية السابقة ، وقوله ﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ في هذه الآية ٩٤
- ذكر صفات الرسول ﷺ في القرآن والكتب السابقة ٩٤
- بيان قوله ﴿ وتعزروه وتوقروه ... ﴾ الآية ٩٤
- الكلام على بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وما في ذلك من فوائد ٩٥
- ذكر أحوال المخلَّفين من الأعراب عن رسول الله ﷺ وبيان مقولتهم وأعذارهم ٩٧
- بيان قوله ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ... ﴾ الآية ١٠٠
- تهديد المخلَّفين عن التولي وقوله تعالى ﴿ وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ ١٠١
- بيان قوله تعالى ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة .. ﴾ الآية ، وذكر فتح خيبر ١٠٢
- المراد من قوله ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ... ﴾ الآية ١٠٣
- بيان قوله ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ... ﴾ الآية ، وسبب نزولها ١٠٣
- ذكر أقوال العلماء في فتح مكة ، أعنوة أم صلحاً ١٠٤
- ذكر قصة فتح مكة كاملة ١٠٤
- بيان قوله ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ... ﴾ الآية ١٠٧
- بيان قوله ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ... ﴾ الآية ١٠٨
- مراد قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ... ﴾ الآية ١٠٩
- بيان وصف الرسول ﷺ ووصف أصحابه الكرام وضرب المثال لهم في الكتب السماوية المتقدمة ١١٠

« سورة الحجرات »

الموضوع **الصفحة**

- بيان الآداب الواجبة في حق الرسول الكريم ﷺ ، وذكر سبب نزول الآيات ١١٢
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ ١١٣
- بيان وجوب التحري عن سماع الأخبار ، وقوله تعالى ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ...** ﴾ الآية ١١٥
- فوائد عالية في قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...** ﴾ الآية ١١٧
- بيان وجوب ترك السخرية واللمز وذكر فوائد هامة في قوله تعالى ﴿ **لا يسخر قوم من قوم ...** ﴾ الآية ١١٩
- ذكر فوائد عن معنى الظن وأنواعه في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ...** ﴾ الآية ١٢٢
- ذكر بعض الآداب الخاصة بالغيبة والتجسس والتمثيل للمغتاب بآكل لحم أخيه ميتاً ١٢٣
- بيان أن أصل الناس واحد ولا وجه للتفاخر بينهم وقوله ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ...** ﴾ الآية ١٢٥
- الكلام عن حال الأعراب وأمر الإيمان والإسلام ، وقوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا ...** ﴾ الآية ١٢٥
- بيان قوله ﴿ **يمنُّون عليك أن أسلموا ...** ﴾ الآية ١٢٦

« سورة ق »

- بيان معنى الحرف المقطع « ق » ١٢٨
- بيان تعجب الكفار وسبب إنكارهم للبعث . وقوله ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ...** ﴾ الآية ١٢٨
- ذكر فوائد في قوله تعالى ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ...** ﴾ الآية ١٢٨
- بيان تردد الكفار في الضلال ، ثم إقامة الله الحجة عليهم بالآيات الكونية الظاهرة كالسماء والأرض ١٣٠
- ذكر قصةِ أصحاب الرسِّ وحال الأمم البائدة ممن ردُّوا الحق وأصروا على الكفران ١٣١
- بيان علم الله تعالى بسرائر النفوس وبيان حال الإنسان في سكرات الموت وعند البعث والنشور ١٣٢
- فائدة هامة في قوله تعالى ﴿ **ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ ...** ﴾ وهل يجوز على الله خلف الوعيد ؟ ١٣٦
- بيان قوله تعالى ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ ١٣٧
- ذكر صفات المتقين الوارثين جنات النعيم ١٣٨
- بيان تنزيه الرب جل في علاه عن التعب وقوله تعالى ﴿ **وما مَسَّنا من لُغوب** ﴾ الآية ١٤٠
- بيان وجوب تسبيح الرب وتنزيهه في كل وقت وآن ١٤٠
- بيان جمع الله تعالى للخلائق وحشرهم لفصل القضاء ١٤١

« سورة الذاريات »

- الكلام على قوله تعالى ﴿ **والذاريات ذروا ...** ﴾ الآيات ١٤٣
- ذكر كلام نفيس في سبب قسم الله بتلك المخلوقات ، وأنواع القسم ١٤٤

الموضوع — الصفحة

- بيان تخبط الكفار في شأن الرسول والقرآن وقوله تعالى ﴿ **إنكم لفي قول مختلف** ﴾ ١٤٤
- تبكيت الأفاكين وبيان مآلهم ١٤٥
- بيان صفات المتقين ، وذكر فضائل قيام الليل والاستغفار بالأسحار ١٤٥
- ذكر آيات الله في الآفاق والأنفس . وقوله ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾ ١٤٧
- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام والنفر من الملائكة ١٤٨
- ذكر قصة موسى عليه السلام ١٥١
- ذكر قصة هود عليه السلام مع قوم عاد ١٥١
- ذكر قصة صالح عليه السلام مع ثمود ١٥٢
- بيان قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض ، وقوله ﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ ...** ﴾ الآية ١٥٣
- بيان حكمة خلق الجن والإنس ، وذكر فوائد نفيسة ١٥٤
- فوائد قيمة في قوله تعالى ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ ١٥٦
- وعيد الله للكافرين من قريش وبيان أن تلك سنته في الكافرين من الأمم البائدة ١٥٧

« سورة الطور »

- معنى قوله تعالى ﴿ **والطور ...** ﴾ الآيات ١٥٨
- بيان المقسم عليه وهو وقوع العذاب على الكفار وقوله ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ ١٥٩
- تهديد الله للكفار ، وقوله تعالى ﴿ **ويل يومئذٍ للمكذبين** ﴾ ١٥٩
- بيان ما أعد الله للمؤمنين في دار كرامته ١٦٠
- ذكر مسائل في قوله تعالى ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ..** ﴾ الآية ١٦١
- بيان أن وظيفة الرسول البلاغ والتذكير وتنزيهه عما رموه به من السحر والجنون والكهانة وغير ذلك ١٦٤
- بيان شبهات الكفار وأقوالهم ورد الله على ذلك ، وقوله ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا ..** ﴾ الآية ١٦٦
- حفظ الله لرسوله ﷺ ، وأمره بالحمد والتسبيح في كل حين عوناً له على الدعوة ، وقوله ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ ١٦٩

« سورة النجم »

- بيان معنى قوله تعالى ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ ، وتنزيه الرسول عن الغواية والضلال ١٧١
- الكلام على قوله تعالى ﴿ **علمه شديد القوى ...** ﴾ الآيات ، وأنه جبريل عليه السلام ١٧٢
- بيان معنى قوله تعالى ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ ، وهل رأى الرسول ﷺ ربه ؟ ١٧٤
- بيان قوله تعالى ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ . والكلام على سدرة المنتهى ١٧٥

الموضوع — الصفحة

- تشريف الرسول الكريم بالمعراج ورؤيته لعجائب الملك والملكوت ، وقوله تعالى ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ١٧٧
- بيان قوله تعالى ﴿ أفرأيتم اللات والعُزّى ﴾ الآيات ١٧٧
- بيان حقيقة معبودات الكفار وأنها من أهوائهم ، وقوله ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ ١٧٨
- الكلام عن قبول الله للشفاعة ١٧٩
- ذكر لون آخر من ألوان الكفر وهو تسمية الملائكة بأسماء الأنثى ١٧٩
- قوله تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ هل دخله نسخ أم لا ؟ ١٨٠
- كلام نفيس في بيان قوله تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ الآية ١٨٠
- فوائد قيمة في قوله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾ الآية ١٨٢
- بيان قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ وسبب النزول ١٨٢
- ذكر أقوال العلماء في بيان قوله تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ١٨٤
- بيان قوله تعالى ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ وذكر معنى (الشِّعْرَى) ١٨٦
- بيان قوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ ، ومعنى السمود في قوله ﴿ سامدون ﴾ ١٨٨

« سورة القمر »

- بيان قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وكلام العلماء في تفسيرها ١٨٩
- ذكر قصة نوح عليه السلام ومآل قومه ١٩٠
- فائدة في قوله تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ ١٩٢
- ذكر قصة هود عليه السلام ومآل الكافرين من قومه ١٩٢
- ذكر قصة صالح عليه السلام ١٩٣
- ذكر قصة لوط عليه السلام ١٩٥
- تبكيت الله للمشركين ، وقوله تعالى ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ... ﴾ الآية ١٩٦
- بيان قوله تعالى ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ١٩٧
- بيان هول الموقف وذكر حال المجرمين في جهنم ١٩٧
- سعة علم الله تعالى وإحاطته ، وقوله تعالى ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ ١٩٨
- بيان عقبى المتقين ١٩٩

« سورة الرحمن »

الموضوع — الصفحة

- بيان حقيقة الرحمة ، ومعنى اسمه الرحمن ٢٠٠
- ذكر السرِّ في بدأه تعالى بنعمة تعليمه القرآن دون سائر نعمه ٢٠٠
- الدليل على أن القرآن غير مخلوق ٢٠٠
- ذكر معنى البيان في قوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ٢٠٠
- بيان معنى السجود في قوله تعالى ﴿ والنَّجْمُ والشجرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ٢٠١
- تفسير قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٢٠٢
- بيان خلق الإنسان والجان ٢٠٣
- بيان قوله تعالى ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ ٢٠٤
- بيان بديع خلق الله في قوله ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ الآيات ٢٠٤
- بقاء الرب جل وعلا بعد هلاك الكون ٢٠٥
- بيان قوله تعالى ﴿ يسأله من في السموات والأرض ﴾ الآية ٢٠٦
- بيان أن الجن والإنس في قبضة الله وتحت حكمه ٢٠٧
- ذكر حال السموات والأرض وأهل الكفر ، وقوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان ﴾ ٢٠٨
- بيان حال أهل مخافة الله تعالى وقوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ الآية ٢٠٩
- وصف الجنتين كما ذكرهما الرب جل وعلا ٢٠٩

« سورة الواقعة »

- بيان أمارات وقوع القيامة وانقسام الناس إلى ثلاثة أقسام ومآل كل منهم ٢١٥
- الكلام على الصنف الأول وهم السابقون وبيان صفاتهم ٢١٦
- الكلام على الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين وبيان نعيمهم وحسن مآلهم ٢١٨
- الكلام على الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال وبيان سوء عقباهم ٢٢٠
- تعديد نعم الله على عباده من خلقهم وحرثهم وشربهم ودفئهم وغير ذلك ٢٢٢
- بيان قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ والكلام على مس المصحف ٢٢٤
- وصف لحال ابن آدم حين الوفاة وخروج الروح وقوله ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ ٢٢٥
- بيان فضيلة قراءة سورة الواقعة ٢٢٧

« سورة الحديد »

الموضوع — الصفحة

- فوائد جيدة في قوله تعالى ﴿ سبّح لله ما في السموات والأرض ﴾ وقوله ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ٢٢٨
- بيان قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ... ﴾ الآية ٢٢٩
- سعة علمه جل وعلا وقوله تعالى ﴿ يعلم ما يلج في الأرض .. ﴾ ٢٣٠
- دعوة الله عز وجل الناس للإيمان والإنفاق من ماله جل وعلا وقوله ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ... ﴾ الآية ٢٣١
- الكلام على التفضيل بين من أنفق قبل الفتح ومن أنفق بعده ٢٣٢
- بيان قوله تعالى ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه ... ﴾ الآية ٢٣٣
- ذكر ما يكون بين المؤمنين والمنافقين على الصراط ووصف السور ٢٣٤
- عتاب الله للمؤمنين وقوله تعالى ﴿ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ... ﴾ الآية ٢٣٧
- بيان قوله تعالى ﴿ إن المصّدقين والمصّدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ... ﴾ الآية ٢٣٨
- الكلام على الشهداء في قوله تعالى ﴿ .. أولئك هم الصّدّيقون والشهداء عند ربهم .. ﴾ الآية ٢٣٨
- بيان لحقيقة الدنيا وحقارتها وقوله تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ... ﴾ الآية ٢٣٩
- بيان وجوب المسارعة إلى المغفرة والإنابة وقوله ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ... ﴾ الآية ٢٤٠
- سِبْق علم الله تعالى بوقوع كل مصيبة قبل وقوعها وقوله ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ... ﴾ الآية ٢٤٢
- بيان ذم البخل وقوله تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ... ﴾ الآية ٢٤٣
- بيان قوله تعالى ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد ... ﴾ الآية ٢٤٤
- بيان لطرف من شريعة عيسى عليه السلام وما ابتدعه قومه من بعده ٢٤٥
- وجوب تقوى الله عزّ وجل والإيمان برسوله الخاتم لاستحقاق الكفلين من الرحمة ، وذلك خاص بأهل الكتاب ٢٤٧
- بيان فضل الأمة الإسلامية على جميع الأمم السالفة مع قصر مدتها وقلة سعيها ٢٤٨

« سورة المجادلة »

- بيان قوله تعالى ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ... ﴾ وسبب نزولها ٢٤٩
- الكلام على حكم الظهار وعلة بطلان كونه طلاقاً ، وقوله ﴿ ما هُنّ أمهاتهم ... ﴾ الآية ٢٥١
- بيان قوله تعالى ﴿ إن الذين يحادُّون الله ورسوله كُبتوا كما كُبِتَ الذين من قبلهم ... ﴾ الآية ٢٥٤
- شمول علم الله تعالى وشهوده وقوله ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ... ﴾ الآية ٢٥٥
- بيان نهي المؤمنين عن النجوى وسبب ذلك ، وقوله ﴿ حَيّوك بما لم يحيِّك به الله .. ﴾ الآية ٢٥٦
- بيان جُمل من الآداب الخاصة بالمجالس والنجوى بين يدي الرسول ﷺ ٢٥٨

الموضوع — الصفحة

- بيان حال المنافقين وموالاتهم لليهود الملعونين ، وقوله ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ..** ﴾ ٢٦١
- نصرة الله تعالى رسله والمؤمنين في اللوح المحفوظ وذلك مما أثبته وقدَّره ٢٦٣
- بيان وجوب توجيه وصرف المودة والمحبة لله ولرسوله ﷺ ٢٦٤

« سورة الحشر »

- تسبيح الكون حياً كان أو جماداً ، وقوله تعالى ﴿ **سبّح لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ وسبب نزول السورة ٢٦٦
- بيان إزعاج الله لبني النضير وطردهم من بيوتهم بعد تخريبها ٢٦٦
- فائدة في قوله تعالى ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ ٢٦٨
- بيان قوله ﴿ **ما قطعتم من لِينَةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ...** ﴾ الآية ، وسبب نزولها ٢٦٩
- بيان لحال الأموال المأخوذة من بني النضير ، ومصارفها ، سواء أخذت بإيجاف خليل أو كان فيئاً ٢٦٩
- فوائد هامة في قوله تعالى ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ..** ﴾ ٢٧٢
- مدح المهاجرين الأوائل والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين وذكر طرف من أخلاقهم ٢٧٣
- ذكر المهاجرين بعد تمكن الإسلام وبيان أخلاقهم وفيه فوائد نفيسة ٢٧٥
- بيان أحوال المنافقين مع اليهود وما كان منهم من تناصر ، ثم ذهاب ريحهم ٢٧٦
- ضرب مثال للمنافقين واليهود بقوله تعالى ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...** ﴾ الآية ٢٧٨
- تعظيم شأن القرآن المنزل وقوله ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً ...** ﴾ الآية ٢٨٠
- بيان قوله ﴿ **عالم الغيب والشهادة ..** ﴾ الآية ٢٨١
- بيان لبعض أسماء الله الحسنى وما يتعلق بها من معانٍ جليلة ٢٨٢
- فضيلة قراءة خواتيم سورة الحشر ٢٨٧

« سورة الممتحنة »

- بيان قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء** ﴾ وسبب نزولها ٢٨٨
- بيان حال أعداء الله عز وجل وصفاتهم من الكفر والخيانة وقوله ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ...** ﴾ الآية ٢٨٩
- اتخاذ القدوة من إبراهيم الخليل في البراء من الكفار وما كان بينه وبينهم من حوار ٢٩٠
- الكلام عن الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم ، وقوله تعالى ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ ٢٩٢
- بيان حكم المؤمنات المهاجرات وقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ ٢٩٣
- بيان قوله ﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعِصَمِ الكوافر** ﴾ ٢٩٤

الموضوع — الصفحة

- أقوال العلماء في قوله تعالى ﴿ ولا تُمسكوا بعِصَمِ الكوافر واسألوا ما أنفقتم .. ﴾ الآية ٢٩٥
- بيان قوله تعالى ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم .. ﴾ الآية ٢٩٦
- ذكر المبايعة وما فيها من شروط وكيفية مبايعة الرسول ﷺ للنساء المهاجرات ٢٩٧
- نهي المؤمنين عن موالاة الكفار ، وقوله ﴿ قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ ٣٠٠

« سورة الصف »

- بيان قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون ﴾ وسبب نزولها ٣٠١
- ذكر فوائد في قوله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٣٠١
- ذكر قصة موسى عليه السلام مع قومه ٣٠٢
- ذكر قصة عيسى عليه السلام وتكذيب قومه والبشارة برسول الله ﷺ ٣٠٣
- عموم دعوة الرسول ﷺ وقوله ﴿ ليظهره على الدين كله ... ﴾ ٣٠٥
- بيان قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .. ﴾ الآيات ٣٠٥
- بيان ما أعد الله لعباده المتقين ممن تاجروا مع الله بأموالهم وأنفسهم ٣٠٦
- الدعوة لنصرة دين الله ومؤازرة رسوله الكريم ﷺ كما كان من شأن الحواريين ٣٠٧

« سورة الجمعة »

- سرُّ بدأه تعالى هذه السورة بالتسبيح ٣٠٩
- معنى الأمية في قوله تعالى ﴿ هو الذي بعث في الأميين ﴾ ٣٠٩
- بيان قوله تعالى ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ ٣١٠
- ذم اليهود في قوله تعالى ﴿ مثل الذين حُمِّلوا التوراة ﴾ ٣١١
- بيان قوله تعالى ﴿ يحمل أسفاراً ﴾ ٣١١
- سبب تسمية اليهود بذلك الاسم ٣١١
- سرُّ خطاب الله تعالى الكفار بواسطة ، والمؤمنين بغير واسطة ٣١٢
- بيان معنى قوله تعالى لليهود ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ ٣١٢
- بيان سبب عدم تمنّي اليهود للموت ٣١٢
- بيان قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ ٣١٣
- بيان سبب تسمية يوم الجمعة بذلك ٣١٣
- بيان قوله تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها .... ﴾ الآية وسبب نزولها ٣١٥
- ذكر مسائل في قوله تعالى ﴿ وتركوك قائماً ﴾ ٣١٥

« سورة المنافقين »

الموضوع — الصفحة

- بيان قوله تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون ... ﴾ الآيات ، وذكر طرف من حالهم ٣١٧
- بيان قوله تعالى ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ... ﴾ الآيات ٣١٨
- ذكر تعاليهم عن المثول بين يدي الرسول ﷺ ليستغفر لهم ٣١٩
- ذكر حال آخر لهم في قوله تعالى ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ الآية ٣٢٠
- بيان قوله ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل .. ﴾ وسبب نزولها ٣٢٠
- فائدة في قوله تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ٣٢١
- تحذير المؤمنين من فتنة المال والأولاد والدعوة إلى النفقة في سبيل الله ٣٢٢
- حكي أن سنياً ناظر معتزلياً في مسألة القدر فقطف المعتزلي تفاحة من شجرة ..إلخ ٣٢٥
- حكي أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، أراد أن يدخل الحمام ، فطلب الحماميُّ الأجرة .. إلخ ٣٢٩
- حكي أن خسرو كان يحب أكل السمك ، فكان يوماً جالساً في المنظرة ، وحشرين عنده .. إلخ ٣٣١
- حكي أن رجلاً من بني إسرائيل أتى سليمان عليه السلام ، وقال يانبي الله : .. إلخ ٣٣٢
- إنما يستحق اسم اللطيف ، من يعلم دقائق المصالح وغوامضها .. إلخ ٣٦٧
- من وظائف السمع : التعلم من العلماء والحكماء ، والإصغاء إلى الموعظة ونصح العقلاء ٣٧١
- رؤي بعضهم في المنام فقيل لهم : ما فعل الله بك فقال : رحمني ، وقال كل يا من لم يأكل .. إلخ ٣٩٥
- قال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك معرفته بالحق ، وهو أن يشاهد .. إلخ ٤٠٠
- روي عن كردم بن أبي السائب قال : (خرجت مع أبي إلى المدينة فلما انتصف الليل جاء الذئب .. إلخ ٤٢٣
- قال ابن عطاء : مساجد أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها ، وهي الوجه ، واليدان .. إلخ ٤٢٧
- قال بعضهم : السلوك إلى الله يكون بالتبتل ، ومعناه : الإقبال على الله ، بملازمة الذكر .. إلخ ٤٣٣
- قال أحمد الدورقي : مات رجل من جيراننا شاباً ، فرأيته في الليل وقد شاب فقلتُ .. إلخ ٤٣٨
- مر عمر رضي الله عنه ببقيع الغرقد فقال السلام عليكم أهل القبور : أخبار ما عندنا .. إلخ ٤٣٩
- حكي أن واحداً من العلماء كان يعظ الناس في مسجد وحوله جماعة فرأى ذلك رجل .. إلخ ٤٤٧
- قال المزني : دخلت على الشافعي في مرض موته ، فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : .. إلخ ٤٥٤
- قال يحيى بن معاذ رحمه الله : إذا دخل الميت القبر قام على شفير قبره أربعة أملاك .. إلخ ٤٥٤
- قال أبو عثمان المغربي : ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاج : ثلاث فتانات هي : سمعه وبصره .. إلخ ٤٥٨
- حكي أن رجلاً باع عبداً ، وقال للمشتري : ما فيه عيب إلا النمية فقال رضيت .. إلخ ٤٧٦
- روي عن بعضهم : رأيت ورقاء بن بشر رحمه الله في المنام فقلت : ما فعل الله بك قال : نجوت .. إلخ ٤٨٤
- قال محمد بن الحسن رحمه الله : كنت نائماً ذات ليلة إذا أنا بالباب يدق ويقرع .. إلخ ٤٩٠

الموضوع **الصفحة**

- حكي أن محمد بن إبراهيم المؤذن حمل ميتاً في أيام الحج ولم يوجد من يساعده غير شخص قال فحملناه .. إلخ ٤٩٦
- قال أبي بن كعب رضي الله عنه : ست آيات قبل القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب .. إلخ ٥٠٠
- قال بعضهم : رأيت في سوق البصرة جنازة يحملها أربعة ، وليس معهم مشيع ، فقلتُ .. إلخ ٥٠٦
- عن مالك بن دينار أنه دخل على جارٍ له احتضر فقال يا مالك : جبلان من نار بين يديّ .. إلخ ٥١٠
- قال الحسن البصري رحمه الله : ما من يوم إلا وينادي : إني يوم جديد ، وإني على ما يُفعل فيّ شهيد .. إلخ ٥٢١
- حكي أن رجلاً كان يُضرب بالسياط وهو يصبر ، ولا يصيح ، فقال له بعض الحاضرين .. إلخ ٥٢٤
- روي أن أناساً دخلوا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعودونه .. إلخ ٥٢٦
- حكي أنّه دخل ابن السماك على هٰرون الرشيد ، فطلب هٰرون منه العظة ، وقد جلس في حصير .. إلخ ٥٣٠
- حكي أن ابن عرس تبع فأرة فصعدت شجرة ولم يزل يتبعها حتى انتهت إلى رأس الغصن .. إلخ ٥٣٣
- قال بعضهم : رأيت غواصاً ـ وهو طائر ـ غاص وطلع بسمكة فغلبه الغراب عليها فأخذها منه .. إلخ ٥٣٣
- يروى عن بعض السلف : لا تشوبوا اللبن بالماء ، فإن رجلاً كان فيمن كان قبلكم .. إلخ ٥٣٣
- روي أن جميع ما أنزل الله من كتاب ، مائة وأربعة كتب ، أنزل على آدم عشر صحف .. إلخ ٥٣٧
- روي عن ابن عباس رضي الله عنه : أن فرعون سمي (ذا الأوتاد) لأن امرأة كانت ماشطة لبنت فرعون .. إلخ ٥٤٤
- روي أن جرواً دخل البيت فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبي الله أياماً لا ينزل عليه الوحي .. إلخ ٥٦١
- يحكى أن زفر لما بعثه أبو حنيفة رحمه الله إلى البصرة ، لتقرير مذهبه فيهم فوصل إليهم فلم يلتفتوا إليه .. إلخ ... ٥٧١
- روي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال عليه الصلاة والسلام من يقرأها على رؤساء قريش ؟ فتثاقلوا .. إلخ ٥٧٣
- روي أن الكنود (هو الذي يضرب عبده ، ويأكل وحده ، ويمنع رفده) فيكون بخيلاً .. إلخ ٥٨٧
- قال رجل للحسن رحمه الله : إن لنا جاراً لا يأكل الفالوذج ، ويقول : لا أقوم بشكره .. إلخ ٥٩٢
- عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت : فضل الله قريشاً بسبع خصال ، النبوة فيهم ، والخلافة فيهم .. إلخ ٦٠١
- روي أن عتيبة بن أبي لهب كان تحت ابنة رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال .. إلخ ٦٠٩
- حكي أن بعض الأولياء الصالحين سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس .. إلخ ٦١٧

ثانياً : فهرس أطراف الحديث

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
	« سورة الزخرف »	
٧	« .... يَعْجَبُ رَبنَا عز وجل من عبده إذا قال : لا إله إلا أنت ظلمت نفسي .... »	أحمد وأبو داود والترمذي
١٣	« لو كانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ... »	الترمذي وابن ماجه
١٥	« إذا أراد بأمة خيراً قبض الله نبيها قبلها ... »	مسلم
١٨	« ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »	الترمذي وابن ماجه وأحمد
١٩	« الأنبياء أولاد عَلاَّت ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ... »	الشيخان أخرجا بعضه
١٩	« ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً وعدلاً ... »	البخاري ومسلم
	« سورة الدخان »	
٢٩	« أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ... »	الطبراني بنحوه
٢٩	« ... إنها لن تقوم حتى تروا قبلها آيات ... »	مسلم وأبو داود والترمذي
٣٢	« ما من مؤمن يولد إلا وله في السماء بابان ... »	الترمذي
٣٢	« إن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه ... »	البيهقي
٣٦	« أيها الناس اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم .. »	الترمذي
٣٩	« لا يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة ... »	البخاري ومسلم
٤٠	« من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له »	النسائي
٤٠	« من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك »	الترمذي
	« سورة الأحقاف »	
٤٥	« إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلق السموات ... »	البخاري ومسلم
٤٨	« المحيا محياكم والممات مماتكم »	مسلم وأحمد
٤٩	« أن النبي ﷺ آخى بين رجلين ، فقتل أحدهما في سبيل الله .. »	أبو داود والنسائي
٥١	« لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »	مسلم
٥٢	« قل بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله خير الأسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء .. »	أبو داود والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥٦	« الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ... »	مسلم وأبو داود
٦٠	« .. إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ ... »	البخاري ومسلم
٦٤	« من أبرُّ ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ ... »	أبو داود والترمذي
٦٤	« ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها فإن الجنة تحت قدميها »	أحمد والنسائي
٦٥	« إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ... »	النسائي
٦٦	« أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٦٦	« لقد كان يأتي علينا الشهر والشهران ما يوقد لنا نار ... »	البخاري ومسلم
٦٦	« ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين ... »	البخاري ومسلم
٦٨	« إذا رأى ريحاً مختلفة تغير لونه ... »	مسلم والترمذي
٧٢	« ألا أخبركم عني وعن ملائكة ربي البارحة ... »	البخاري والترمذي وأحمد
	« سورة محمد »	
٧٦	« لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا »	البخاري
٧٧	« يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين »	مسلم والترمذي
٧٧	« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ... »	البخاري
٧٨	« إنكم تنصرون بضعفائكم »	البخاري والنسائي
٧٨	« أن النبي عليه الصلاة والسلام كان بعد غزوة تحت شجرة وحيداً ، فحمل عليه مشرك بسيف ... »	البخاري ومسلم
٧٨	« الكافر يأكل في سبعة أمعاء ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٧٨	« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »	مسلم والترمذي
٨٠	« أنت أحب البلاد إلى الله ... »	ابن أبي حاتم
٨٢	« ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن لها أشراط : تقارب الأسواق ... »	الطبراني
٨٢	« إذا ضُيِّعَتْ الأمانة فانتظر الساعة ... »	البخاري
٨٢	« هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً ... »	الترمذي والنسائي
٨٧	« لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٨٨	« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ... »	مسلم
٩٠	« والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس »	الشيخان والترمذي
	« سورة الفتح »	
٩٤	« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ... »	البخاري وأحمد
٩٥	« لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ... »	البخاري
٩٦	« كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ... »	مسلم والترمذي والنسائي
٩٧	« بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر ... »	البخاري ومسلم والنسائي
٩٧	« أن النساء اجتمعن عند النبي ﷺ وطلبن أن يعاهدهن باليد ... »	الترمذي والنسائي ومالك
٩٧	« الحجر الأسود يمين الله في أرضه »	الديلمي والخطيب وابن عساكر
١٠٠	« ولا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ... »	الشيخان وأبو داود والترمذي ومالك
١٠٢	« لأعطين الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ... »	الصحيحين
١٠٦	« يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ... »	الصحيحين
١٠٨	« الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »	الشيخان ومالك
	« سورة الحجرات »	
١١٥	« أدبني ربي فأحسن تأديبي »	ابن السمعاني
١١٥	« وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم »	الترمذي وابن ماجه
١١٥	« أنا أول ولد آدم خروجاً إذ بعثوا ... »	الترمذي
١١٧	« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ... »	الترمذي وأبو داود وأحمد وابن حبان
١١٨	« ... وكونوا عباد الله إخواناً ... »	الشيخان وأبو داود والنسائي
١١٩	« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ ... »	أبو داود والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٢٠	« رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين ... »	مسلم وأحمد والحاكم
١٢٠	« لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات »	الترمذي وأحمد
١٢١	« من الكبائر شتم الرجل والديه ... »	البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود
١٢١	« اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس »	البيهقي
١٢٢	« هلا قلت لها : إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليه الصلاة والسلام »	الترمذي والنسائي وأحمد
١٢٣	« إن الله حرم من المسلم عرضه ودمه ... »	أبو داود وابن ماجه
١٢٣	« إن في كل أمة محدثين أو مروعين ... »	أحمد وأبو داود
١٢٣	« إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم »	الترمذي وأحمد
١٢٣	« لا تتبعوا عورات المسلمين ... »	أبو داود وابن مردويه
١٢٤	« ... أن تذكر أخاك بما يكره ... »	أبو داود والترمذي
١٢٤	« لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ... »	أبو داود وأحمد
١٢٥	« من ردَّ عن عرض أخيه ، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »	أحمد والترمذي
١٢٥	« إن ربكم واحد وأبوكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ... »	الصحيحين
	« سورة ق »	
١٢٩	« كل ابن آدم يَبْلَى إلا عُجْبَ الذنب ... »	البخاري ومسلم
١٣٥	« بينما الناس ينتظرون الحساب إذ بعث الله عنقاً من النار ... »	أحمد
١٣٧	« إني حرمت الظلم على نفسي وحرمته على عبادي فلا تظالموا »	مسلم
١٣٧	« ... ولكل واحدة منكما ملؤها ... »	البخاري ومسلم
١٣٧	« لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ... »	البخاري ومسلم وأحمد والترمذي
١٣٨	« تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ... »	الشيخان والبيهقي
١٣٩	« إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ... »	الطبراني
١٤٠	« من سبَّح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ... »	مسلم ومالك
١٤٢	« كان رسول الله ﷺ يخطب بسورة « ق » ... »	مسلم وأبو داود وأحمد

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
	« سورة الذاريات »	
١٤٣	« ليبيتن أقوام من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب ... »	الطبراني
١٤٥	« أي صلاة الليل أفضل ؟ قال : في نصف الليل وقليل فاعله »	البيهقي
١٤٦	« ينزل الله السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل ... »	البخاري ومسلم والترمذي
١٤٦	« كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت الحق ... »	الشيخان
١٤٧	« إن في المال حقاً سوى الزكاة »	البيهقي
١٤٧	« ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ... »	ابن مردويه
١٥٧	« لا يتمنينَّ أحدكم الموت ... »	مسلم وأحمد والبخاري
	« سورة الطور »	
١٥٨	« لا يركبنَّ رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً ... »	أبو داود
١٥٩	« قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر ... »	الشيخان
١٦١	« إنه تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته ... »	ابن جرير والبزار
١٦٢	« ... إن الله خلق الجنة وخلق النار ... »	مسلم وأبو داود النسائي
١٦٢	« لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ... »	الترمذي والنسائي
١٦٥	« من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه ... »	أبو داود وأحمد والترمذي ومسلم وابن ماجه
١٦٩	« من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ... »	الترمذي وابن حبان
١٧٠	« ... كان إذا قام كبَّر عشراً ... »	أبو داود والنسائي وابن ماجه
١٧٠	« ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها »	مسلم وأبو داود والترمذي
	« سورة النجم »	
١٧١	« ... ولما بلغ عليه الصلاة والسلام السجدة سجد معه المؤمنون والمشركون ... »	البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي
١٧٢	« أن رسول الله ﷺ أحب أن يرى جبريل في صورته التي خُلق عليها ... »	أحمد والطبراني بنحوه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٧٥	« رأيت ربي بعيني وقلبي »	مسلم وبنحوه الترمذي والبيهقي والطبراني وابن مردويه
١٧٥	« رأيته عند سدرة المنتهى عليه ستمائة جناح ... »	أحمد والطبراني وأصله في الصحيحين
١٧٦	« ... أعطى رسول الله ﷺ عندها ـ أي السدرة ـ ثلاثاً ، الصلوات الخمس ... »	أحمد والترمذي
١٨١	« لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار »	الديلمي
١٨١	« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ... »	مسلم والترمذي
١٨١	« إن للشيطان لَمَّةً وللملك لَمَّةً ... »	الترمذي وابن حبان
١٨١	« إن الله كتب على ابن آدم حظ من الزنى ... »	البخاري ومسلم وأبو داود
١٨٥	« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... »	مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي
١٩٨	« إنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة ... »	أحمد والطبراني والبيهقي
	« سورة الرحمن »	
٢٠٠	أشراف أمتي حملة القرآن »	
٢٠٠	« خيركم من تعلم القرآن وعلمه »	البخاري
٢٠١	« بالعدل قامت السموات والأرض »	
٢٠٣	« مالي أراكم سكوتاً ، لَلْجن كانوا أحسن منكم رداً .. »	الترمذي والحاكم
٢٠٣	« إذا تكلم الله بالوحي ... »	أبو داود والبخاري بنحوه
٢٠٥	أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام »	الترمذي وأحمد والنسائي
٢٠٦	« من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ... »	الطبراني والبيهقي وابن جرير
٢٠٦	إني تركت فيكم الثقلين ... »	مالك
٢٠٩	« ... رحمك الله ، لقد أنزلت فيك آية »	

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٠٩	« جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٢١٠	« لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه الحلة »	البخاري ومسلم والنسائي
٢١٠	« لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حلة ... »	
٢١٠	« أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٢١٠	« إن المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها ... »	الترمذي مرفوعاً وموقوفاً
٢١٢	« هل تدرون ما قال ربكم ... »	الديلمي والحكيم الترمذي
٢١٣	« لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت على السموات والأرض ... »	أحمد
٢١٣	« ... نحن الناعمات فلا نبأس ... »	الترمذي
٢١٤	« ... رأيت عمر بن الخطاب في المنام يستقي من بئر ... »	
٢١٤	« ... اللهم أنت السلام ومنك السلام ... »	
	« سورة الواقعة »	
٢١٦	« إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ... »	البخاري
٢١٦	« إن أمتي يكثرون سائر الأمم »	الصحيحين
٢١٧	« أولاد الكفار خدم أهل الجنة »	الطبراني
٢١٩	« إن في الجنة شجرة ... »	البخاري ومسلم
٢١٩	« السلطان ظل الله في أرضه ... »	الديلمي
٢٢٠	« .. يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ... »	الترمذي والبيهقي
٢٢٠	« عرضت عليَّ الأمم فجعل يَمُرُّ النبي معه الرجل ... »	الشيخان والترمذي
٢٢٤	« ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم ... »	الشيخان ومالك
٢٢٦	« اجعلوها في ركوعكم ،... اجعلوها في سجودكم »	أحمد وأبو داود وابن ماجه
٢٢٧	« من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة »	ابن عساكر
٢٢٧	« من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً »	

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
	« سورة الحديد »	
٢٢٨	« أفضل الكلام أربع : سبحان الله والحمد لله ... »	أحمد
٢٢٩	« ... ألا أدلك على ما هو خير لك من ذلك ... »	مسلم بنحوه
٢٣٠	« أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان »	الطبراني وأبو نعيم
٢٣٢	« لا هجرة بعد الفتح ... »	
٢٣٣	« لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »	البخاري ومسلم
٢٣٣	« بأي شيء تدعي أنك ربع الإسلام ... »	مسلم
٢٣٤	« كم من عذقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح »	ابن أبي حاتم
٢٣٤	« بينا أنا على حوضي أنادي : هلمَّ ، إذا أُناس أخذتهم ذات الشمال ... »	الصحيحين بنحوه
٢٣٥	« بينا العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيتهم ظلمة ... » عن أبي أمامة موقوفاً .	ابن أبي حاتم
٢٣٦	« بيت المقدس أرض المحشر والمنشر »	ابن ماجه والطبراني
٢٣٨	« يا معشر النساء تصدَّقْن ... »	مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه
٢٣٨	« ... تَصدَّقْنَ فإن أكثركنَّ حطب جهنم ... »	مسلم
٢٤٠	« مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب ... »	الترمذي
٢٤١	« خرج من عندي خليلي جبرائيل ... : » حديث العابد .	
٢٤٣	« إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله ... »	أبو داود والنسائي وأحمد
٢٤٣	« « من سيدكم ؟ قالوا : الجدُّ بن قيس وإنا لنبخِّله ... »	
٢٤٤	« أربعة لا يجدون ريح الجنة ... »	الحاكم والبيهقي بنحوه
٢٤٦	« من آمن بي وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ... »	أبو يعلى بمعناه
٢٤٦	« أتدري ما رهبانية أمتي ؟ .. الهجرة والجهاد »	أحمد والبيهقي بمعناه
٢٤٧	« إني لست كهيئتكم ، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني »	البخاري ومسلم
٢٤٧	« ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ... »	البخاري ومسلم والترمذي والنسائي
٢٤٧	« إنما مثلنا ومثل الذين أوتوا الكتاب من قبلنا ، مثل رجل استأجر أجراء ... »	البخاري والترمذي بنحوه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
	« سورة المجادلة »	
٢٤٩	« أنت عليَّ كظهر أمي ... » قصة خولة بنت ثعلبة	ابن أبي حاتم
٢٥٢	« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ... »	البخاري
٢٥٧	« هذه النجوى ، ألم تنهوا عن النجوى ... »	ابن ماجه
٢٥٧	« يا عائشة أرفقي فإن الله يحب الرفق ... »	الشيخان والبيهقي
٢٥٨	« إذا كنتم ثلاثة فلا يناج اثنان دون صاحبهما ... »	البخاري ومسلم وابن مردويه
٢٥٩	« لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ... »	مسلم
٢٥٩	« لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ... »	مسلم وأحمد
٢٦٠	« فضل العالم على العابد ... »	أبو نعيم
٢٦٠	« لست بعالم ، ادخل الجنة بعملك ... »	البيهقي بمعناه
٢٦٠	« لأن أعلم مسألة أحب إليَّ من أن أصلي مائة ركعة ... » قول أبي ذر رضي الله عنه .	ابن ماجه مرفوعاً
٢٦٠	« إذا جاء الموت طالب العلم على هذه الحال مات وهو شهيد »	البزار
٢٦٠	« إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحدٌ قبلي ... » قول عليّ رضي الله عنه .	ابن كثير
٢٦٢	« يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ... »	ابن أبي حاتم وأحمد وابن جرير
٢٦٤	« ... بل ترفق به وتحسن إليه ... » في قصة عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول .	
٢٦٥	« ... لا تعد إليه ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته »	ابن المنذر
٢٦٥	« ينادي منادٍ : إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا ... »	مسلم والترمذي
	« سورة الحشر »	
٢٦٦	« إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّمُ عليَّ ... »	مسلم والترمذي وأحمد
٢٧١	« أحلَّت ليَ الغنائم ولم تحل لأحد قبلي »	البخاري ومسلم والنسائي
٢٧٢	« لعن الله الواشمات والمستوشمات ... »	البخاري ومسلم والنسائي
٢٧٤	« ألا رجلاً يضيف هذا ، رحمه الله ... » قصة أبي طلحة مع ضيف الرسول ﷺ	البخاري ومسلم والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٧٥	« مثل أمتي مثل المطر ... »	الترمذي وأحمد
٢٧٥	« لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرُهَا أوَّلَها »	الترمذي
٢٨٣	« ... فحيَّنَا ربنا بالسلام »	أبو داود والنسائي
٢٨٤	« الكبرياء ردائي والعظمة ردائي ... »	مسلم وأبو داود
٢٨٥	« تحاجت النار والجنة ، فقالت هذه : يدخلني الجبارون والمتكبرون ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٢٨٦	« ... أسألك بكل اسمٍ سمَّيْتَ به نفسك ... »	رُزين
٢٨٧	« من قال حين يصبح عشر مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ... »	أحمد والدارمي والترمذي والبيهقي
	« سورة الممتحنة »	
٢٩٢	« يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني ... »	مسلم والترمذي
٢٩٣	قصة أسماء بنت أبي بكر مع أمها قُتيلة وكانت كافرة حين قدمت عليها بهدايا ... القصة	أحمد وأصلها في الصحيحين
٢٩٣	« ... بالله الذي لا إله إلا هو ، ما خرجت عن بغض زوج ... »	البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم
٢٩٤	« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره »	أبو داود
٢٩٧	« لا تنزع الرحمة إلا من شقي »	أحمد وأبو داود والترمذي
٢٩٩	« لما فرغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيعة الرجال ... ودعا بقدح من ماء فغمس فيه يده فغمسن أيديهن »	ابن سعد وابن مردويه
٢٩٩	« حديث هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وبيعة النساء »	سعيد بن منصور وابن سعد وابن جرير وابن مردويه
٣٠٠	« يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله ... »	
	« سورة الصف »	
٣٠١	« لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ... »	أحمد والترمذي
٣٠٢	« رحمة الله على أخي موسى لقد أُوذيَ بأكثر من ذلك فصبر »	الشيخان وأحمد
٣٠٣	« أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ... »	ابن مردويه وابن عساكر

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٠٥	« جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »	أبو داود والنسائي
٣٠٦	« إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوَّفة ... »	البخاري والترمذي
٣٠٨	« إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير »	الشيخان والترمذي
	« سورة الجمعة »	
٣١٣	« لا يتمنين أحدكم الموت ... »	البخاري ومسلم والنسائي
٣١٥	« والذي نفس محمدٍ بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً »	أبو يعلى
	« سورة المنافقين »	
٣١٨	« إنه ليأتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة »	البخاري ومسلم
٣١٩	« ... لأزيدن على السبعين ... »	ابن مردويه وابن جرير
٣٢١	« ... وَفَّتْ أذنك يا غلام ... » في قصة ابن أبيّ بن سلول لما سَبَّ الرسول الكريم	عبد الرزاق وعبد بن حميد وأصلها في الصحيحين والترمذي
٣٢١	« أنا سيد ولد آدم ولا فخر »	الترمذي
٣٢٣	« ... أن تتصدق وأنت صحيح شحيح ... »	مسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد
٣٢٤	« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه .. »	الشيخان والترمذي وأبو داود
٣٢٨	« إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء منادٍ ينادي بصوت يسمع الخلائق .. »	البيهقي
٣٣١	« إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأمركم شورى .. »	الترمذي
٣٣٣	« الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة إن أمرها أطاعته .. »	مسلم والنسائي
٣٣٤	« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية .. »	الشيخان
٣٣٤	« كان ﷺ يخطب إذ جاء الحسن والحسين يمشيان فنزل ووضعهما بين يديه .. »	أحمد وأبو داود والترمذي
٣٣٧	« راجعها فإنها صوامة قوامة ، وإنها من نسائك في الجنة .. »	ابن أبي حاتم
٣٣٨	« أتلعبون بكتاب وأنا بين أظهركم حتى قام رجل .. »	النسائي
٣٣٨	« أبغض الحلال إلى الله الطلاق »	أبو داود

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٣٨	« لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا يحب الذواقين .. »	الطبراني
٣٣٨	« أيُّما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها .. »	أبو داود وابن ماجه والترمذي وأحمد
٣٣٩	« إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس .. »	مسلم
٣٣٩	« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله .. »	الترمذي
٣٤١	« من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن ضيق مخرجاً .. »	أحمد والحاكم
٣٤١	« اتق الله وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ففعل .. »	ابن جرير الطبري وابن كثير
٣٤١	« أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »	البخاري والنسائي وابن ماجه وأحمد
٣٤١	« لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير .. »	الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم
٣٤٧	« اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن .. »	النسائي وابن السني
٣٤٧	« هل تدرون ما الذي فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها .. »	الترمذي وأحمد
٣٤٩	« قال الرسول ﷺ للسيدة حفصة قد حرمت مارية على نفسي فأخبرت حفصة عائشة .. »	الدارقطني
٣٥٠	« فإنها صوامة قوامة ، وإنها لمن نسائك في الجنة .. »	ابن أبي حاتم وتفسير ابن كثير
٣٥٠	« لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار ، إلا تحلة القسم »	الشيخان والترمذي والنسائي والموطأ
٣٥٤	« كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته .. »	الشيخان والترمذي وأبو داود وأحمد
٣٥٥	« ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم »	الشيخان والطبراني والترمذي
٣٥٦	« ياأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »	مسلم
٣٥٦	« إنه تاب توبة لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم »	أبو داود والترمذي
٣٥٧	« اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني .. »	ابن السني
٣٥٨	« إن العبد إذا قام يصلي فإن الله ينصب له وجهه تلقاءه .. »	الشيخان والنسائي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٥٨	« بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »	أبو داود والترمذي
٣٥٨	« وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : يارسول الله ، ألسنا إخوانك .. »	مسلم والبخاري ومالك والنسائي
٣٦١	« كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم و .. »	الشيخان والترمذي وابن ماجه
٣٦٢	« قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ »	البخاري
٣٦٣	« وخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك .. »	البخاري والترمذي وأحمد وابن ماجه
٣٦٣	« أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه .. »	البخاري
٣٦٦	« كان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .. »	أبو داود والترمذي
٣٧٠	« قيل للنبي ﷺ : وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم .. »	أحمد وأصله في الصحيحين
٣٧٢	« سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل .. »	أحمد وأهل السنن
٣٧٢	« وددت أن ﴿ **تبارك الذي بيده الملك** ﴾ في قلب كل مؤمن .. »	عبد بن حميد في مسنده
٣٧٢	« هي المانعة . هي المنجية تنجيه من عذاب القبر »	الترمذي
٣٧٣	« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها .. »	الترمذي والدارمي
٣٧٣	« إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .. »	أبو داود والترمذي وأحمد
٣٧٥	« المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »	أبو داود والترمذي
٣٧٥	« سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت : كان خلقه القرآن .. »	البخاري
٣٧٦	« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . »	الحاكم والبيهقي وابن سعد
٣٧٦	« صل من قطعك ، واعف عمّن ظلمك ، وأحسن إلى من أساء إليك »	ابن النجار
٣٧٦	« إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه ، درجة القائم الصائم »	أبو داود وابن حبان
٣٧٨	« لا يكون المؤمن طعاناً ولا لعّاناً »	الترمذي
٣٧٨	« طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس »	الديلمي
٣٧٨	« لا يدخل الجنة نمام »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٧٩	« لا يدخل الجنة الجواظ ، ولا الجعظريّ ، ولا العتل الزنيم »	أبو داود
٣٧٩	« ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم .. »	البخاري ومسلم
٣٧٩	« ولدت من نكاح لا من سفاح »	ابن عدي والطبراني
٣٨٤	« وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً ، كأن سفافيد الحديد في ظهورهم »	ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي
٣٨٤	« فيقول الله يا عبادي ارفعوا رؤوسكم ، قد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود »	ابن جرير والدارقطني والطبراني وابن مردويه والبيهقي
٣٨٤	« يتجلى الحق في ذلك اليوم ، فيقول : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد .. »	مروي بالمعنى البخاري
٣٨٥	« يوم يكشف عن ساق ويخرون له سجداً »	أبو يعلى وابن المنذر والبيهقي
٣٨٥	« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »	مسلم وأبو داود والنسائي
٣٨٥	قال رجل لرسول الله ﷺ : « ادع الله أن يرزقني مرافقتك في الجنة .. »	مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد
٣٨٦	« إذا رأيت الله ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته ، فاعلم أنه مستدرج .. »	أحمد والطبراني والبيهقي
٣٨٨	« العين حق »	البخاري
٣٨٨	« أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة .. »	أبو داود والترمذي
٣٨٩	« بسم الله أرقيك ، من كل شيءٍ يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد .. »	مسلم والترمذي
٣٨٩	« لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين »	مسلم
٣٨٩	« إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »	ابن عدي وأبو نعيم
٣٩٠	« نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور »	الشيخان وأحمد
٣٩٢	« لا توعِي فيوعِي الله عليك »	الشيخان
٣٩٣	« أفلح من جعل الله له قلباً واعياً »	البيهقي
٣٩٣	« إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالته ثم يجمع إليه ثوبه .. »	الشيخان والترمذي
٣٩٥	« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »	الشيخان والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٩٨	« لو وضعت قطرة منه على الأرض لأفسدت على الناس معايشهم .. »	الترمذي
٣٩٩	« من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال ، فقد كفر بما أنزل الله على محمد »	أحمد والحاكم ومسلم
٤٠٣	« ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة .. »	مسلم وأبو داود والنسائي
٤٠٣	« ما أطول هذا اليوم فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسي بيده ، إنه ليخفف .. »	أحمد والبيهقي وابن حبان
٤٠٥	« يقول الله تعالى : « لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لو أن لك ما في الأرض .. »	مسلم
٤٠٦	« يجاء بابن آدم يوم القيامة ، كأنه بذجٌ بين يدي الله فيقول له : .. »	الترمذي
٤٠٦	« بصق عليه السلام يوماً في كفه ، ووضع عليها أصبعه ، فقال : يقول الله لابن آدم .. »	أحمد وابن ماجه
٤٠٦	« شرُّ ما أُعطي ابنُ آدم : شحٌ هالع ، وجبن خالع »	البخاري وأبو داود
٤٠٧	« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، والصدقة برهان .. »	مسلم والترمذي والنسائي
٤٠٧	« لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه في الحق .. »	الشيخان
٤٠٨	« أفضل العمل أدومه وإن قلّ »	ابن ماجه
٤٠٨	« أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن صلحت .. »	الترمذي والنسائي وأحمد والحاكم
٤٠٨	« الصلاة وما ملكت أيمانكم »	أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان
٤٠٩	« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر .. »	أحمد والشيخان
٤١٠	« أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن .. »	الشيخان
٤١٠	« إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع »	
٤١٠	« من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ، ونجاتاً يوم القيامة .. »	أحمد والطبراني وابن حبان
٤٢٣	« قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر النبي عليه السلام .. »	ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني
٤٢٤	« إن امرأتي لا ترد عنها يد لامس »	النسائي
٤٢٥	« المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم »	الترمذي والنسائي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٢٧	« إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله .. »	الطبراني
٤٣٠	« يقال لصاحب القرآن يوم القيامة ، اقرأ وارق ، ورَتِّل »	أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم
٤٣١	« من قرأ القرآن ، فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام ، يقرأون القرآن .. »	الترمذي
٤٣١	« زينوا القرآن بأصواتكم »	الحاكم في المستدرك
٤٣١	« ليس منا من لم يتغن بالقرآن »	البخاري وأبو داود وأحمد والحاكم
٤٣٢	« كيف يأتيك الوحي ؟ قال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد عليَّ .. »	الشيخان والترمذي والنسائي ومالك وأحمد
٤٣٣	« من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة .. »	مسلم وأصحاب السنن
٤٣٣	« تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة »	عبد الرزاق وأبو داود والنسائي
٤٣٧	« ليصل أحدكم من الليل ما تيسر ، فإذا غلب عليه النوم فليرقد »	أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه
٤٣٨	« من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٤٣٨	« أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : وكيف .. »	مسلم والترمذي والنسائي
٤٣٨	« إن في المال حقاً سوى الزكاة »	الترمذي
٤٤٠	« كنت على جبل حراء ، فنوديت يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن .. »	
٤٤٠	« إني أنا النذير العريان »	
٤٤١	كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه ، ينظر متى يؤمر .. »	الترمذي والطبراني وأحمد
٤٥٠	« كل سُلامىٰ من الناس عليه صدقة »	الشيخان
٤٥١	« ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان .. »	الشيخان والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٥٢	« أدنى أهل الجنة منزلة ، من ينظر إلى جنانه ، وأزواجه .. »	أحمد والترمذي وابن حبان
٤٥٣	« إنكم سترون ربكم ، كما ترون هذا القمر لا تضمون في رؤيته .. »	الشيخان والترمذي وأبو داود
٤٥٤	« من علّق تميمة فقد أشرك »	أحمد والحاكم
٤٥٥	« إذا مشت أمتي المطيطاء ، وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم »	الترمذي في سننه
٤٥٦	« من قرأ والمرسلات عرفاً فبلغ ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ فليقل آمنا بالله »	أبو داود وأحمد والترمذي
٤٥٩	« من نذر أن يطيع الله فليطعه وفي النذر أن يعصي الله فلا يعصه .. »	البخاري وأهل السنن وأحمد
٤٥٩	« كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات .. »	الشيخان والترمذي والنسائي وأبو داود
٤٦٠	« من أنظر معسراً ، ووضع له أظله الله تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا .. »	الترمذي وبنحوه عند مسلم
٤٦٠	« اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم »	الترمذي والدارمي
٤٦١	« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري .. »	مسلم
٤٦١	« قال رجل لأهله ، إذا مات فحرقوه ، ثم اذروا نصفه في البر .. »	البخاري ومسلم
٤٦٢	« اشتكت النار إلى ربها فقالت : أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها في كل عام .. »	الشيخان والترمذي
٤٦٤	« أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألف عام .. »	ابن الأثير
٤٧٥	« أفضل الحج : العج ، والثج »	الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي
٤٧٨	« لو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا »	الترمذي
٤٨١	« لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء .. »	مسلم والترمذي
٤٨٣	« قد ثبت أن النبي ﷺ أخذ روحه الطيب ببعض شدة حتى قال .. »	البخاري والنسائي وابن ماجه وأحمد
٤٨٦	« من خاف أولج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله .. »	الترمذي ـ غريب
٤٨٧	« العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما .. »	مسلم وأبو داود
٤٨٩	« إن أخوف ما أتخوف على أمتي الهوى وطول الأمل .. »	أحمد

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٩٧	« قالت عائشة : كيف يحشر الناس قال : حفاة عراة . قالت : وا سوأتاه .. »	ابن أبي حاتم والنسائي
٤٩٩	« يحشر الناس عراة حفاة فقالت أم سلمة : فكيف بالنساء .. »	ابن أبي حاتم
٥٠١	« حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »	مسلم والترمذي
٥٠١	« إن العبد المؤمن بين مخافتين ، عمر قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه .. »	هذا الحديث من أحد خطب النبي ﷺ
٥٠٤	« من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين ، فليقرأ .. »	أحمد والترمذي والحاكم
٥٠٥	« أيما داعٍ دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجر من اتبعه ، إلا أنه .. »	الحاكم وابن ماجه
٥١٠	« خمس بخمس : ما نقص قوم العهد إلا سلّط الله عليهم عدوهم .. »	الطبراني
٥١٢	« إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن جلاءها ذكر الله .. »	أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه
٥١٧	« إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم »	الحاكم
٥٢٥	« ما الكرسيُّ في جنب العرش إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة »	ابن جرير
٥٣١	« لما نزل ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال اجعلوها في سجودكم »	أبو داود
٥٣٢	« سبحان الله والحمد لله يملآن ما بين السموات والأرض »	مسلم والترمذي
٥٣٤	« اللهم ارحمني بالقرآن العظيم ، واجعله لي إماماً ، ونوراً وهدى ورحمة »	الترمذي
٥٣٤	« إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكّروني »	أحمد وابن ماجه
٥٣٥	« ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم »	الشيخان ومالك والترمذي
٥٣٩	« إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يتفلون ، ولا يتغوطون .. »	أحمد ومسلم وأبو داود
٥٣٩	« من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال سبحانك اللهم وبحمدك .. »	الترمذي
٥٤٣	« الحج عرفة »	الترمذي والنسائي وأبو داود
٥٤٣	« ما من أيام أزكى عند الله ، ولا أعظم أجراً من خير عمل في عشر .. »	الترمذي وأبو داود
٥٤٧	« تقاد جهنم بسبعين ألف زمام معه سبعون ألف ملك »	مسلم
٥٥٠	« إنما أنا لكم مثل الوالد ، أُعلّمكم أمر دينكم »	أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥٥١	« كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه .. »	الترمذي
٥٥١	« لا تزول قدما العبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن أربع .. »	
٥٥٢	« من فكّ رقبةً فكَّ الله بكل عضوٍ منها عضواً منه من النار »	الشيخان وأحمد
٥٥٣	« الساعي على الأرملة والمسكين ، كالساعي في سبيل الله .. »	الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد
٥٥٥	« اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكّاها .. »	أحمد
٥٥٧	« كل الناس يغدو فنافع نفسه فمعقتها ، أو بائع نفسه .. »	مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد
٥٥٨	« سلمان منا أهل البيت »	
٥٥٩	« من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه .. »	النسائي وأبو داود
٥٦١	« أشفع لأمتي حتى أُنادى أرضيت يامحمد ؟ فأقول رب قد رضيتُ »	مسلم
٥٦٢	« ليس الغِنى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غِنى النفس »	البخاري ومسلم والترمذي
٥٦٢	« جعل رزقي تحت ظل رمحي »	البخاري
٥٦٤	« إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح »	عبد الرزاق والطبري بنحوه وابن أبي حاتم
٥٦٥	« يا محمد إن ربك يقول : أتدري كيف رفعتُ ذكرك ؟ قلتُ .. »	ابن جرير الطبري وابن كثير والسيوطي
٥٦٧	« من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً »	
٥٦٨	« خلق الله آدم على صورته »	الشيخان
٥٦٨	« طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »	الحاكم في المستدرك
٥٦٩	« من قرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .. »	الترمذي وابن مردويه
٥٧٠	« أول ما بدء به رسول الله ﷺ من النبوة الرؤيا الصالحة »	
٥٧٧	« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. »	النسائي
٥٧٧	« التمسوها في العشر الأواخر من رمضان فاطلبوها في كل وتر »	ابن أبي شيبة
٥٨٣	« أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكن بعده أبداً »	الشيخان
٥٨٣	« إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ قال أوسماني لك .. »	الشيخان وأحمد
٥٨٣	« اقرأ عليّ القرآن ، قلتُ : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال فإني .. »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥٨٦	« إذا زلزلت تعدل ربع القرآن »	ابن أبي شيبة
٥٩١	« يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت .. »	الترمذي وأحمد ومسلم والنسائي
٥٩٢	« يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه .. »	
٥٩٢	« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »	البخاري والترمذي وابن ماجه
٥٩٤	« لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »	أحمد في المسند
٦٠٤	« أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير .. »	مسلم وأبو داود والنسائي
٦٠٥	« من خرج مسافراً فقرأ ﴿ قل ياأيها الكافرون ، إذا جاء نصر الله .. »	أبو يعلى
٦٠٧	« أنه كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول : سبحانك اللهم .. »	مسلم
٦٠٧	« إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة »	مسلم
٦١٢	« إنها تعدل ثلث القرآن »	أحمد والنسائي والحافظ ابن كثير
٦١٢	« أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة واحدة ؟ فقيل يارسول الله .. »	مسلم وأحمد
٦١٣	« أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر .. »	أحمد والترمذي والنسائي
٦١٤	« كان غلام من اليهود عنده أسنان مدمشعه فأعطاها اليهود .. »	الشيخان وأحمد
٦١٥	« كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ قل هو الله أحد .. »	مالك وأبو داود والنسائي
٦١٨	« كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه فنفث فيهما .. »	البخاري وأهل السنن

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

البيت		الصفحة
نُونُ الهوانِ من الهوَى مسروقةٌ	فأسيرُ كلِّ هوى أسيرُ هوانِ	ص ٥٠
فاعْصِ هوى النفس ولا تُرْضِهَا	إنك إنْ أسخطْتَهَا زَانَكا	
حتى متى تطلبُ مَرضاتِها	وإنما تطلبُ عدوّاً لَكَا	ص ٥٠
وفي الجهل قبل الموتِ موتٌ لأهله	وأجسامُهم قبل القبورِ قبورُ	
وإنِ امرىءٍ لم يحيا بالعلمِ مَيِّتٌ	وليس له حينَ النشورِ نُشورُ	ص ٥٣
أولوا العزم نوحٌ والخليل بنُ آزرِ	وموسى وعيسى والحبيب محمدُ	ص ٧٣
زُر من هويت وإن شَطَّتْ بك الدارُ	وحال مِنْ دونه حُجُبٌ وأستار	
لا يمنعنَّكَ بُعدٌ عن زيارته	إن المحِبَّ لمن يهواه زوَّار	ص ١٠٠
وما أدري ولستُ إخال أدري	أَقَوْمٌ آل حصن أم نساء	ص ١٢٠
جراحات السِّنَانِ لها التئام	ولا يلتام ما جرح اللسان	ص ١٢١
الناسُ من جهة التِّمثَالِ أكْفَاءُ	أبوهمو آدم والأم حواء	

البيت		الصفحة
فـإن يكن لهمـو من أصلهم نسبٌ	يفـاخرون بـه فـالطين والمـاء	
• • •		ص ١٢٥
وإني إذا أوعـدتـه أو وعـدتـه	لمخلف إيعـادي ومنجـز مـوعـدي	
• • •		ص ١٣٦
ففي كل شيء لـه آيـة	تـدلُّ على أنـه واحـد	
• • •		ص ١٤٧
لـو مَرَّ بـالطـور بعض نـاعقـة	مـا أنبت الطـور فـوقـه ورقـه	
• • •		ص ١٥٨
خَـلِّ الـذنـوب صغيرهـا	وكبيرهـا ذاك التُّقَى	
واصنـعِ كَمَـاشٍ فـوق أرضٍ	الشـوك يحـذرُ مـا يرى	
لا تَحقِـرنَّ صغـيرةً	إن الجبـال مـن الحـصى	
• • •		ص ١٩٨
ويكفيـك قـولُ النـاس فيما ملكتَـهُ	لقـد كان هـذا مرةً لفـلان	
• • •		ص ٢٣١
لا والـذي أنـا عبـدٌ من خـلائقِـهِ	والمرءُ في الـدهر نَصْبَ الرِّزْء والمحنِ	
مـا سرَّني أنَّ إبلي في مَبَـاركَهـا	ومـا جرى من قضـاء الله لم يَكُنِ	
• • •		ص ٢٤٣
يـا من يرى مـا في الضمير ويسمعُ	أنت المعـدُّ لكل مـا يُتـوقـعُ	
يـا من يُرجَّى للشـدائـد كلهـا	يـا من إليـه المُشتكَى والمفـزع	
مـا لي سـوى قرعي لبـابك حيلةٍ	ولئِن رَددْتَ فـأيَّ بـاب أقرعُ	
حـاشـا لِلُطْفِـك أن تُقَنِّـط عـاصيـاً	الفضـل أجـزل والمـواهب أوسـع	
• • •		ص ٢٥٠

البيت	الصفحة
الجنةُ الدارُ فاعلَمْ إنْ عملت بما	يُرضي الإلهَ وإنْ فَرَّطْتَ فالنارُ
هما مَحلاَّنِ ما للناسِ غيرُهما	فانظر لنفسِكَ ماذا أنت تختارُ
• • •	ص ٢٧٩
وارحم بُنيَّ جميعَ الخلقِ كُلّهم	وانظرْ إليهم بعين اللطف والشفقهْ
وَقِّرْ كبيرَهُمُ وارحمْ صغيرَهُمُ	وراعِ في خلقٍ حقٌّ من خَلَقَهْ
• • •	ص ٢٨٢
إذا ذهبَ العتابُ فليس وُدٌّ	ويبقى الودُّ ما بقي العتابُ
• • •	ص ٢٨٩
جراحاتُ السنانِ لها التئام	ولا يلتام ما جرح اللسانُ
• • •	ص ٣٠٥
تعلَّم يا فتى فالجهلُ عارٌ	ولا يرضى به إلا حمار
• • •	ص ٣١١
وإني أذينٌ لكم أنه	سينجزكم ربكم ما زعم
• • •	ص ٣١٢
عِدّي السِّنينَ لغيْبَتي وتَصَبَّري	وذَرِي الشُّهورَ فإنَّهُنَّ قِصَارُ
• • •	ص ٣٣٣

فأجابته

واذكُرْ صَبابَتَنا إليكَ وشَوْقَنا	وارْحَمْ بَناتِكَ إنّهُنّ صِغارُ
• • •	ص ٣٣٣
إذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيسَ وُدٌّ	وَيَبْقَىٰ الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابَ

البيت	الصفحة
تُصغي القُلـوبُ إلى أَغَرَّ مُبَـارك ... مِنْ آلِ عَبّـاسِ بنِ عبـد المُطلِبْ	ص ٣٣٣
وللصِّـدِّيقـةِ الرُّجْحَـانُ فـاعْلم ... على الـزَّهْراءِ في بعض الخِصَـالِ	ص ٣٦١
إنْ يَخْدُمِ القَلَمُ السّيفَ الذي خَضَعتْ ... لـهُ الرِّقـابُ ودانتْ خَـوفَـه الأُممُ	ص ٣٧٣
كـذَا قَضى اللهُ لـلأَقْـلامِ مُـذْ بُرِيَتْ ... إنّ السُّيـوفَ لهـا مُـذْ أُرْهِفَتْ خَـدَمُ	ص ٣٧٤

قال بعضهم :

إذا أَقْسَمَ الأبطـالُ يـومـاً بسَيْفِهِمْ ... وَعـدّوَه ممّـا يجلب المجـدَ والكَرَمَ	
كفى قلم الكُتّـابِ فخراً ورِفْعـةً ... مَـدَىٰ الـدّهْر أنّ اللهَ أقسمَ بـالقَلَمِ	ص ٣٧٤
لِكُـلِّ نبيّ في الأنـامِ فضيلـةٌ ... وجُمْلتُهـا مجـموعَـةٌ لمحَمَّـدِ	ص ٣٧٥
لـهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهى لكبـارهـا ... وهِمَّتُـه الصغرى أجَـلُّ من الـدَّهْرِ	ص ٣٧٦
كأنّـك شمْس والملـوك كـواكب ... إذا طلعتْ لم يَبْـد منّهُنّ كـوكَبُ	ص ٣٧٦

البيت	الصفحة

وفي القصيدة البردية :

فـاق النبيين في خَلْـقٍ وفي خُلُـقٍ ... ولم يـــدانـــوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ

• • • ص ٣٧٦

زنيمٌ ليْس يُعْرَفُ مَنْ أبـــــوهُ ... بغِـــيُّ الأم ذو حســـب لـــئيمِ

• • • ص ٣٧٩

إذا لم يَكُنْ للمرءِ عينٌ صَحيحـــةٌ ... فلا غَرْوَ أنْ يَرْتـابَ والصُّبْحُ مُسْفِرُ

• • • ص ٣٨٩

الخيرُ يبقى وإنْ طـالَ الزمـانُ بـه ... والشّرُ أخبثُ مـــا أوعيت من زاد

• • • ص ٣٩٢

وشرٌ من الموتِ الـذي إن لقيتَـه ... تمنيتَ منـه المـوتَ والمـوتُ أعظمُ

• • • ص ٣٩٦

هـل الـدُّنْيـا ومـا فيهـا جميعـاً ... سِـوى ظِـلٍّ يَـزول مـع النَّهـار

• • • ص ٤٠٤

ومن عَجَبِ الأيّـامِ إنـكَ قـاعِـدٌ ... على الأرضِ في الـدُّنْيـا وأنتَ تَسير

فسيرك يـــا هـــذا كسير سفينـــةٍ ... بقـــومٍ قُعـــودٍ والقلـــوبُ تطيرُ

• • • ص ٤٠٤

والظلمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فـإن تَجِـدْ ... ذا عِفَّـــــةٍ فلِعلّـــــةٍ لا يَظْلِمْ

• • • ص ٤٠٧

الخلـقُ مُجْتَمِـعٌ طـوراً ومفترقٌ ... والحـادثـاتُ فنـونٌ ذاتُ أطـوار

لا تَعجَبَنَّ لأضـــدادٍ إذا اجْتَمَعَتْ ... فـاللّهُ يَجْمَـعُ بين المـاءِ والنَّـار

• • • ص ٤١٩

البيت		الصفحة
دَهتْنـــا أمـور تشيبُ الـوليـــدَ	ويخـذُلُ فيهـا الصَّـديـقُ الصّـديـقَ	
• • •		
قَـدِّمْ لِنَفْسِـكَ قبلَ موْتِـكَ صـالحـاً	واعمــلْ فليْسَ إلى الخُلـودِ سَبيــلُ	ص ٤٣٦
• • •		
وإنيّ بِحَمْـدِ اللهِ لا ثـوْبَ فــاجرٍ	لَبِسْتُ ولا من غَـــدْرةٍ أتقنَّـــعُ	ص ٤٣٩
• • •		
تــذكرتُ ليلى فــاعْترتْني صَبــابَـةٌ	وكادَ ضميرُ القلْبِ لا يَتقطَّـــــعُ	ص ٤٤١
• • •		
خرجْتُ مِن الدنيا وقامتْ قِيامتي	غـداةَ أقـلَّ الحـاملـون جَنـازتي	ص ٤٤٩
• • •		
لعمْرِكَ مـــــا في الفَتى من وَزَر	مِنَ المـوْتِ يُـــدرِكُـــهُ والكِبَرْ	ص ٤٤٩
• • •		
وإذَا المَنيَّـــةُ أنْشَبتْ أظفــارهـــا	ألفيْتَ كلَّ تميمـــــةٍ لا تَنْفَـــعُ	ص ٤٥٠
• • •		
ولما قســا قلبي وضــاقت مــذاهبي	جعلتُ رجــائي نحـو عفــوك سُلَّما	ص ٤٥٤
تَعـــــاظَمني ذنْبي فلّما قَرنْتُـــــه	بعفْــوِكَ ربيّ كان عفْــوُكَ أعْظما	
• • •		
ولا تــؤْذِ نمــلاً إنْ أردْتَ كالَكا	فــإنّ لهــا نفْسَــا تطيبُ كما لكا	ص ٤٥٤
• • •		

ص ٤٥٩

البيت		الصفحة
اللّيْـــلُ للعـــــاشقـين سِـــتْرٌ	يـــا ليتَ أوقـــاتَـــه تَـــدومُ	
• • •		ص ٤٧٤
فلا تَمْشِيَن في منكِبِ الأرضِ فـاخِراً	فعمّـا قليـلٍ يحتـويـكَ تُرابُهـا	
• • •		ص ٤٩٥
يـا كاسب الـذنب أمـا تستحي	والله في الخلـــوة ثـــانيكا	
غرَّكَ مِنْ رَبِّـــكَ إنهـــالُـــه	وسَتْرُه طُـــولَ مســـاويكا	
• • •		ص ٥٠٦
يقـولُ مـولايَ أمَـا تَسْتَحي	ممّـا أرىٰ من سُـوءِ أفْعَـالِـكَ	
فقلتُ يـا مـولايَ رِفقـاً فَقَـدْ	أفسَـدني كثرةُ إفْضـالِـكَ	
• • •		ص ٥٠٦
على نفسِهِ فلْيَبْـكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُه	وليسَ لـهُ مِنْهـا نصيبٌ ولا سَهْمُ	
• • •		ص ٥١٥
ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيـوفَهُمْ	بِهِنّ فُلـولٌ مِنْ قِراعِ الكتـائب	
• • •		ص ٥٢٣
وهيْهـاتَ هيْهـاتَ الصَّفـاءُ لعـاشِقٍ	وجنّـةُ عَـدْنٍ بـالمكاره حُفَّتِ	
• • •		ص ٥٢٤
يـا راقِـد الّليْـلِ مَسْروراً بـأوّلِـهِ	إنّ الحـوادِث قـدْ يَطْرُقْنَ أسْحـارا	
لا تفْرحَنّ بليـلٍ طـابَ أوّلُـهُ	فَرُبَّ آخِرِ ليْـلٍ أجَّـجَ النّـارا	
• • •		ص ٥٢٧

البيت **الصفحة**

أَلَمْ ترَ اللهَ أظْهَر دينَـــــــــــهُ وصَبَّ على الكُفَّـارِ سَوْطَ عَـذَابِ

• • • ص ٥٤٥

اللّيْـلُ داجٍ والعُصـــــاةُ نِيَـــامُ والعــابـدون لِـذي الجـلالِ قِيـامُ

• • • ص ٥٥٧

تمنّى رجـالٌ أنْ أمـوتَ وإنْ أُمُتْ فتِلْـكَ سبيـلٌ لَسْتُ فيهـا بـأوْحَـدِ

• • • ص ٥٥٨

يـاربِّ فـاردُدْ ولـدي مُحَمّـداً رَدّاً إليّ واصْطَنِـعْ عِنْـدي يـدا

• • • ص ٥٦٢

أغرُّ عليـــه للنبـوة خـــاتَم مِن اللهِ مشهـودٌ يَلـوح ويَشْهَـدُ
وَضمّ الإلـهُ اسمَ النبيّ إلى اسمـه إذا قـال في الخَمْسِ المـؤذّنُ أشْهَـدُ

• • • ص ٥٦٤

وأتَتْ عَلَيْـهِ أرْبَعُـونَ فـأشْرَقَتْ شَمْسُ النُبـوَّةِ منـهُ فِي رَمَضَـانِ

• • • ص ٥٧٠

فإن يكُ حقاً يـاخـديجـة فـاعْلمي حـديثُـك إيّـانـا فـأحمـدُ مُرْسَـلُ
وجبريـلُ يـأتيـه وميكالُ معْهُما من الله وحيٌ يشرح الصّدْرَ مُنْـزَلُ
يفـوز بـه من فـاز عِـزّاً لـدينـه ويشقى بـه الغـاوي الشقيُّ المضلَّلُ
فريقـان منهم فرقـةٌ في جنـابـهِ وأخرى بـأغـلال الجحيم تُغَلَّـلُ

• • • ص ٥٧٠

ومـا مِـنْ كـاتب إلا سيبـلى ويُبْقي الـدّهرُ مـا كتَبَتْ يَـداه
فـلا تكتُبْ بكفِّـك غيرَ شَيءٍ يَسُـرُّكَ فـي القيـامـةِ أنْ تَـراه

• • • ص ٥٧٢

البيت	الصفحة
تَودَّعْ مِن الدُّنْيا فإنّكَ لا تَدْري ... إذَا جَنَّ ليْلٌ هلْ تَبيتَ إلى الفجر	
فكم من فتىً يُمْسي ويُصْبح آمِناً ... وقد نُسجتْ أكفانه وهو لا يدري	
وكم من عروسٍ زيّنوها لزوجها ... وقد قُبِضَتْ أرْواحُهم ليلةَ القَدْرِ	
• • •	ص ٥٧٨
إن الفرزدَقَ ما علمتُ وقومَه ... مثلُ الفراش عشيقَ نارَ المُصْطَلي	
• • •	ص ٥٨٩
إذا ماتَ الفرزْدَقُ فارجُموه ... كما تَرمُون قبرَ أبي رُغال	
• • •	ص ٥٩٨
لا همّ إن المرءَ يَحْمي ... رَحْلَهُ فامْنعْ رِحالَكَ	
وانصُرْ على آل الصّليب ... وعابديه اليومَ آلَكَ	
لا يغلِبَنَّ صليبُهُم ... ومحَالُهم أبداً مِحالَكَ	
• • •	ص ٥٩٩
عفوُ ربي وثيقتي بالخَلاصِ ... واعْتِصَامي بسُورة الإخْلاصِ	
• • •	ص ٦١٢
أعِدْ ذكرَ نُعْمانٍ لنا إنّ ذِكْرَهُ ... هو المسْكُ ما كرَّرْتَه يَتَضَوَّعُ	
• • •	ص ٦١٦

